فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

محمد بن علي بن محمد الشوكاني

(١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ)

طبعة جديدة مصححة ومنقحة

الجزء الثالث

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

دار الكلم الطيب
دمشق - بيروت

فتح القدير

بسم الله الرحمن الرحیم

فتح القدير: الجامع بين فنى الروايه والدرايه من علم التفسير

كاتب:

محمدبن على بن محمد الشوكانى

نشرت فى الطباعة:

بى جا

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

فتح القدير: الجامع بين فنی الروايه والدرايه من علم التفسير المجلد ۳

اشارة

سرشناسه : شوکانی، محمدبن علی، ق ۱۲۵۰ - ۱۱۷۳

عنوان و نام پدیدآور : فتح القدیر: الجامع بین فنی الروایه والدرایه من علم التفسیر/ تالیف محمدبن علی بن محمد الشوکانی؛ راجعه و علق علیه هشام النجاری خضر عکاری

مشخصات نشر : بیروت : المکتبه المصریه: [بی‌جا]: مکتبه العبیکان ، ۱۴۱۸ق. = ۱۹۹۷م = ۱۳۷۶.

مشخصات ظاهری : ج ۵

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : چاپ قبلی: مصطفی البابی الحلبی، ۱۳۵۱

یادداشت : کتابنامه

موضوع : تفاسیر

موضوع : تفاسیر اهل سنت

موضوع : تفاسیر شیعه

شناسه افزوده : نجاری، هشام ، محقق

شناسه افزوده : عکاری، خضر، محقق

رده بندی کنگره : BP۹۱/ش۹ف۲

شماره کتابشناسی ملی : م ۸۰-۳۴۶۰۹

سورة يوسف

اشارة

و هی مكيّة كلّها، و قيل: نزلت ما بين مكة و المدينة وقت الهجرة. و قال ابن عباس فی رواية عنه و قتادة:
إلا أربع آيات. و أخرج النّحاس و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة يوسف بمكة.
و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج الحاكم و صحّحه عن رفاعة بن رافع الزرقی: أنه خرج هو و ابن خالته معاذ بن عفراء حتى قدما مكة، و ذكر قصة، و فی آخرها أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم علّمهما سورة يوسف، و اقرأ باسم ربك، ثم رجعا. و أخرج البيهقی فی الدلائل عن أبی صالح عن ابن عباس: «أن حبرا من اليهود دخل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فوافقه و هو يقرأ سورة يوسف، فقال: يا محمد من علّمكها؟ قال: اللّه علّمنيها، فعجب الحبر لما سمع منه، فرجع إلى اليهود، فقال لهم: و اللّه إن محمدا ليقرأ القرآن كما أنزل فی التوراة، فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة، و نظروا إلى خاتم النبوّة بين كتفيه، فجعلوا سمعهم إلى قراءته لسورة يوسف فتعجبوا منه، و أسلموا عند ذلك». و أخرج الثعلبی عن أبیّ بن كعب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «و علّموا أقاربكم سورة يوسف، فإنه أيّما مسلم تلاها، أو علّمها أهله و ما ملكت يمينه؛ هوّن اللّه عليه سكرات الموت، و أعطاه القوّة أن لا يحسد مسلما». و فی إسناده سلام بن سالم، و يقال ابن سليم

المدائنى، و هو متروك، عن هارون بن كثير. قال أبو حاتم: مجهول، و قد ذكر له الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم، عن هارون بن كثير، و من طريق شبابة عن مجلز ابن عبد الواحد، عن علىّ بن زيد بن جدعان، و عن عطاء بن ميمون، عن زرّ بن حبيش، عن أبىّ بن كعب مرفوعا فذكر نحوه، و هو منكر من جميع طرقه. قال القرطبى: قال سعد بن أبى وقّاص: أنزل القرآن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فتلاه عليهم زمانا، فقالوا: لو حدّثتنا، فنزل قوله تعالى- اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ «١» «٢»- قال: قال العلماء: و ذكر اللّه أقاصيص الأنبياء فى القرآن، و كرّرها بمعنى واحد فى وجوه مختلفة بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، و قد ذكر قصة يوسف و لم يكرّرها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرّر، و لا على معارضة غير المتكرّر.

---

(١). تنبيه: جرى المفسر رحمه اللّه فى ضبط ألفاظ القرآن على رواية نافع، مع تعرّضه للقراءات السبع، و أثبتنا القرآن طبق رسم المصحف العثمانى.

(٢). الزمر: ٢٣.

فتح القدير، ج٣، ص: ۶

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١ الى ۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ (٣) إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ (۴)

قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۵) وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶)

قوله: الر قد تقدّم الكلام فيه فى فاتحة سورة يونس، و الإشارة بقوله: تِلْكَ إلى آيات السورة، و الكتاب المبين، السورة، أى تلك الآيات التى أنزلت إليك فى هذه السورة، آيات السورة الظاهر أمرها فى إعجاز العرب و تبكيتهم، و المبين من أبان بمعنى بان؛ أى الظاهر أمره فى كونه من عند اللّه و فى إعجازه، أو المبين بمعنى الواضح المعنى بحيث لا يلتبس على قارئه و سامعه، أو المبين لما فيه من الأحكام إِنَّا أَنْزَلْناهُ أى الكتاب المبين حال كونه قُرْآناً عَرَبِيًّا، فعلى تقدير أن الكتاب السورة تكون تسميتها قرآنا؛ باعتبار أن القرآن اسم جنس يقع على الكل و على البعض، و على تقدير أن المراد بالكتاب كل القرآن، فتكون تسميته قرآنا واضحة؛ و عربيا صفة لقرآنا؛ أى على لغة العرب لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أى: لكى تعلموا معانيه و تفهموا ما فيه نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ القصص: تتبع الشىء، و منه قوله تعالى: وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ «١»؛ أى تتبعى أثره، و هو مصدر، و التقدير: نحن نقصّ عليك قصصا أحسن القصص، فيكون بمعنى الاقصاص، أو هو بمعنى المفعول؛ أى المقصوص: بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أى بإيحائنا إليك هذَا الْقُرْآنَ و انتصاب القرآن على أنه صفة لاسم الإشارة، أو بدل منه، أو عطف بيان. و أجاز الزجّاج الرفع على تقدير المبتدأ، و أجار الفرّاء الجرّ، و لعل وجهه أن يقدّر حرف الجرّ فى بِما أَوْحَيْنا داخلا على اسم الإشارة، فيكون المعنى: نحن نقصّ عليك أحسن القصص بهذا القرآن وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ إن هى المخففة من الثقيلة بدليل اللام الفارقة بينها و

بين النافیة، و الضمير فی من قبله عائد علی الإيحاء المفهوم من أوحينا، و المعنی: أنک قبل إيحائنا إليک من الغافلين عن هذه القصة.

و اختلف فی وجه كون ما فی هذه السورة هو أحسن القصص، فقيل: لأنّ ما فی هذه السورة من القصص يتضمّن من العبر و المواعظ و الحكم ما لم يكن فی غيرها؛ و قيل: لما فيها من حسن المحاورة، و ما كان من يوسف من الصبر علی أذی إخوته و عفوه عنهم؛ و قيل: لأنّ فيها ذكر الأنبياء و الصّالحين و الملائكة و الشّياطين و الجنّ و الإنس و الأنعام و الطير و سير الملوک و المماليک و التجّار و العلماء و الجهّال و الرجال و النّساء و حيلهنّ و مكرهنّ؛

---

(١). القصص: ١١.

فتح القدير، ج٣، ص: ٧

و قيل: لأن فيها ذكر الحبيب و المحبوب و ما دار بينهما؛ و قيل: إن أحسن هنا بمعنی أعجب؛ و قيل: إن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة. قوله: إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ إذ منصوب علی الظرفية بفعل مقدّر؛ أی اذكر وقت قال يوسف. قرأ الجمهور «يوسف» بضم السين، و قرأ طلحة بن مصرّف بكسرها مع الهمز مكان الواو، و حكی ابن زيد الهمز و فتح السين، و هو غير منصرف للعجمة و العلمية؛ و قيل: هو عربی.

و الأول أولی بدليل عدم صرفه. لِأَبِيهِ أی يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم يا أَبَتِ بكسر التاء فی قراءة أبی عمرو و عاصم و حمزة و الكسائی و نافع و ابن كثير، و هی عند البصريين علامة التأنيث، و لحقت فی لفظ أب فی النداء خاصة بدلا من الياء، و أصله يا أبی، و كسرها للدلالة علی أنها عوض عن حرف يناسب الكسر. و قرأ ابن عامر بفتحها؛ لأن الأصل عنده يا أبتا، و لا يجمع بين العوض و المعوّض، فيقال يا أبتی، و أجاز الفراء يا أبت بضم التاء إِنِّی رَأَيْتُ من الرؤيا النومية لا من الرؤية البصرية، كما يدلّ عليه لا تَقْصُصْ رُؤْياکَ عَلی إِخْوَتِکَ قوله: أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً قرئ بسكون العين تخفيفا لتوالی الحركات، و قرئ بفتحها علی الأصل وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ إنّما أخّرهما عن الكواكب لإظهار مزيتهما و شرفهما؛ كما فی عطف جبريل و ميكائيل علی الملائكة؛ و قيل: إن الواو بمعنی مع، و جملة رَأَيْتُهُمْ لِی ساجِدِينَ مستأنفة لبيان الحالة التی رآهم عليها، و أجريت مجری العقلاء فی الضمير المختص بهم؛ لوصفها بوصف العقلاء، و هو كونها ساجدة، كذا قال الخليل و سيبويه، و العرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياکَ عَلی إِخْوَتِکَ الرؤيا مصدر رأی فی المنام رؤيا علی وزن فعلی كالسّقيا و البشری، و ألفه للتأنيث، و لذلک لم يصرف، نهی يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عن أن يقصّ رؤياه علی إخوته؛ لأنه قد علم تأويلها، و خاف أن يقصّها علی إخوته فيفهمون تأويلها و يحصل منهم الحسد له، و لهذا قال:

فَيَكِيدُوا لَکَ كَيْداً و هذا جواب النهی و هو منصوب بإضمار أن؛ أی: فيفعلوا لک؛ أی لأجلک كيدا مثبتا راسخا لا تقدر علی الخلوص منه، أو كيدا خفيا عن فهمک؛ و هذا المعنی الحاصل بزيادة اللام آكد من أن يقال فيكيدوا كيدا؛ و قيل: إنما جیء باللام لتضمينه معنی الاحتيال المتعدّی باللام، فيفيد هذا التضمين معنی الفعلين جميعا الكيد و الاحتيال، كما هو القاعدة فی التضمين أن يقدّر أحدهما أصلا و الآخر حالا، و جملة إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ مستأنفة، كأن يوسف عليه السلام قال: كيف يقع منهم، فنبهه بأنّ الشّيطان يحملهم علی ذلک، لأنه عدو للإنسان مظهر للعداوة مجاهر بها. قوله: وَ كَذلِکَ يَجْتَبِيکَ رَبُّکَ أی: مثل ذلک الاجتباء البديع الذی رأيته فی النوم من سجود الكواكب و الشمس و القمر، يجتبيک ربک، و يحقّق فيک تأويل تلک الرؤيا، فيجعلک نبيا، و يصطفيک علی سائر العباد، و يسخّرهم لک كما تسخّرت لک تلک الأجرام التی رأيتها فی منامک فصارت ساجدة لک. قال النحّاس: و الاجتباء أصله من جبيت الشیء حصلته، و منه جبيت الماء فی الحوض: جمعته، و

معنى الاجتباء: الاصطفاء، و هذا يتضمّن الثّناء على يوسف و تعديد نعم اللّه عليه، و منها وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ أى تأويل الرؤيا. قال القرطبى: و أجمعوا أنّ ذلك فى تأويل الرؤيا، و قد كان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها؛ و قيل: المراد: و يعلّمك من

تأويل أحاديث الأمم و الكتب؛ و قيل: المراد به إحواج إخوته إليه؛ و قيل: إنجاؤه من كلّ مكروه؛ و قيل:

إنجاؤه من القتل خاصة وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ فيجمع لك بين النبوّة و الملك، كما تدلّ عليه هذه الرؤيا التى أراك اللّه، أو يجمع لك بين خيرى الدنيا و الآخرة، وَ عَلى آلِ يَعْقُوبَ و هم قرابته من إخوته و أولاده و من بعدهم، و ذلك أن اللّه سبحانه أعطاهم النبوّة كما قاله جماعة من المفسرين، و لا يبعد أن يكون إشارة إلى ما حصل لهم بعد دخولهم مصر من النعم؛ التى من جملتها كون الملك فيهم مع كونهم أنبياء كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ أى إتماما مثل إتمامها على أبويك؛ و هى نعمة النبوّة عليهما، مع كون إبراهيم اتّخذه اللّه خليلا، و مع كون إسحاق نجّاه اللّه سبحانه من الذّبح و صار لهما الذرّية الطيبة؛ و هم يعقوب، و يوسف، و سائر الأسباط. و معنى مِنْ قَبْلُ من قبل هذا الوقت الذى أنت فيه، أو من قبلك، و إبراهيم و إسحاق عطف بيان لأبويك، و عبّر عنهما بالأبوين مع كون أحدهما جدّا؛ و هو إبراهيم؛ لأنّ الجدّ أب إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ بكل شىء حَكِيمٌ فى كلّ أفعاله، و الجملة مستأنفة مقرّرة لمضمون ما قبلها تعليلا له؛ أى فعل ذلك لأنه عليم حكيم، و كان هذا كلام من يعقوب مع ولده يوسف تعبيرا لرؤياه على طريق الإجمال، أو علم ذلك من طريق الوحى، أو عرفه بطريق الفراسة و ما تقتضيه المخايل اليوسفية.

و قد أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ قال: بيّن اللّه حلاله و حرامه.

و أخرج ابن جرير عن معاذ قال: بيّن اللّه الحروف التى سقطت عن ألسن الأعاجم، و هى ستة أحرف. و أخرج الحاكم عن جابر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تلا قرآنا عربيا، ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ألهم إسماعيل هذا اللسان العربىّ إلهاما». و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: نزل القرآن بلسان قريش، و هو كلامهم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول اللّه؛ لو قصصت علينا، فنزلت: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مثله. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله:

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ قال: من الكتب الماضية و أمور اللّه السالفة فى الأمم، وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ أى من قبل هذا القرآن لَمِنَ الْغافِلِينَ

و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ قال: القرآن. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً قال: رؤيا الأنبياء وحى. و أخرج سعيد بن منصور و البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و العقيلى، و ابن حبان فى الضعفاء، و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه. و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن جابر بن عبد اللّه قال: «جاء بستانى اليهودى إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا محمد أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف ساجدة له، ما أسماؤها؟ فسكت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فلم يجبه بشىء، فنزل عليه جبريل فأخبره بأسمائها، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى البستانى اليهودى فقال: هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟ قال:

نعم، قال: جريان، و الطارق، و الذيال، و ذو الكتفين، و قابس، و وثّاب، و عمودان، و الفيلق، و المصبح، و الضروح، و ذو القرع، و الضياء، و النور، رآها فى أفق السماء ساجدة له، فلما قصّ يوسف

على يعقوب قال: هذا أمر مشتّت يجمعه اللّه من بعد، فقال اليهودى: إى و اللّه إنها لأسماؤها» هكذا ساقه السيوطى فى الدرّ المنثور، و أما ابن كثير فجعل قوله: «فلما قصّ إلخ» رواية منفردة و قال: تفرّد بها الحكم ابن ظهير الفزارى، و قد ضعّفوه و تركه الأكثرون. و قال الجوزجانى: ساقط. و قال ابن الجوزى: هو موضوع. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً قال: إخوته، و الشمس قال:

أمه، و القمر قال: أبوه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير عن السدّى نحوه أيضا. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد نحوه أيضا.

و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس وَ كَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ قال: يصطفيك. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة مثله. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ قال: عبارة الرؤيا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ قال: تأويل العلم و الحلم، و كان يوسف من أعبر الناس. و أخرج ابن جرير عن عكرمة كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ قال: فنعمته على إبراهيم: أن نجّاه من النار، و على إسحاق: أن نجّاه من الذّبح.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٧ الى ١٠]

لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (٩) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (١٠)

أى لَقَدْ كانَ فى قصّتهم علامات دالّة على عظيم قدرة اللّه و بديع صنعه لِلسَّائِلِينَ من النّاس عنها. و قرأ أهل مكة «آية» على التوحيد. و قرأ الباقون على الجمع، و اختار قراءة الجمع أبو عبيد. قال النحّاس: و آية هاهنا قراءة حسنة؛ و قيل: المعنى: لقد كان فى يوسف و إخوته آيات دالّة على نبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم للسّائلين له من اليهود، فإنّه روى أنه قال له جماعة من اليهود و هو بمكة: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمى، و لم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب و لا من يعرف خبر الأنبياء، و إنّما وجّهوا إليه من أهل المدينة من يسأله عن هذا، فأنزل اللّه سورة يوسف جملة واحدة كما فى التوراة. و قيل: معنى آياتٌ لِلسَّائِلِينَ عجب لهم، و قيل: بصيرة، و قيل: عبرة. قال القرطبى:

و أسماؤهم يعنى إخوة يوسف: روبيل، و هو أكبرهم، و شمعون، و لاوى، و يهوذا، و زيالون، و يشجر، و أمهم ليا بنت ليان، و هى بنت خال يعقوب، و ولد له من سريتين أربعة، و هم: دان، و نفتالى، و جاد، و آشر، ثم ماتت ليا فتزوّج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف، و بنيامين. و قال السهيلى: إن أمّ يوسف اسمها رفقا، و راحيل ماتت فى نفاس بنيامين و هو أكبر من يوسف إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أى وقت قالوا، و الظرف متعلّق بكان أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا. و المراد بقوله: وَ أَخُوهُ هو بنيامين، و خصّوه بكونه أخاه مع أنهم جميعا إخوته؛ لأنه أخوه لأبويه كما تقدّم، و وحّد الخبر فقال: أحب مع تعدّد المبتدأ؛

لأنّ أفعل التفضيل يستوى فيه الواحد و ما فوقه إذا لم يعرّف، و اللام فى لَيُوسُفُ هى الموطئة للقسم، و إنما قالوا هذه لأنه بلغهم خبر الرؤيا فأجمع رأيهم على كيده، و جملة وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ فى محل نصب على الحال، و العصبة: الجماعة، قيل: و هى ما بين الواحد إلى العشرة، و قيل: إلى الخمسة عشر، و قيل: من العشرة إلى الأربعين، و لا واحد لها من لفظها بل هى كالنّفر و الرّهط، و قد كانوا عشرة إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ أى: لفى ذهاب عن وجه التدبير و بالترجيح لهما علينا و إيثارهما دوننا مع استوائنا فى

الانتساب إليه، و لا يصحّ أن يكون مرادهم أنه فى دينه فى ضلال مبين اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً أى: قالوا:

افعلوا به أحـد الأمرين؛ إما القتل، أو الطّرح فى أرض، أو المشـير بالقتل بعضـهم و المشـير بالطرح البعض الآخر؛ أو كان المتكلّم بذلك واحد منهم فوافقه الباقون، فكانوا كالقائل فى نسبة هذا المقول إليهم، و انتصاب أرضا على الظرفية، و التنكير للإبهام؛ أى أرضـا مجهولـة، و جواب الأـمر يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ أى يصف و يخلص فيقبـل عليكم و يحبكم حبا كاملا. وَ تَكُونُوا معطوف على يخل، و يجوز أن يكون منصوبا بإضـمار أن. مِنْ بَعْدِهِ أى من بعد يوسف، و المراد بعد الفراغ من قتله أو طرحه؛ و قيل: من بعـد الـذنب الـذى اقترفوه فى يوسف قَوْماً صالِحِينَ فى أمور دينكم و طاعـة أبيكم، أو صالحين فى أمور دنياكم لـذهاب ما كان يشغلكم عن ذلك، و هو الحسد ليوسف و تكدّر خواطركم بتأثيره عليكم هو و أخوه؛ أو المراد بالصالحين:

التـائبون من الـذنب قـالَ قائِلٌ مِنْهُمْ أى من الإـخوة، قيـل: هو يهوذا، و قيـل: روبيـل، و قيل: شـمعون لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِ قيل: و وجه الإظهار فى لا تقتلوا يوسف اسـتجلاب شـفقتهم عليه، قرأ أهل مكة و أهل البصرة و أهل الكوفة و أهل الشـام «فى غيابـة الجب» بالإـفراد. و قرأ أهل المدينـة «فى غيابات» بالجمع، و اختار أبو عبيـد الإفراد و أنكر الجمع، لأن الموضـع الذى ألقوه فيه واحد. قال النحاس:

و هذا تضـييق فى اللغة، و غيابات على الجمع تجوّز، و الغيابة: كلّ شـىء غيب عنك شيئا؛ و قيل للقبر غيابة، و المراد بها هنا غور البئر الذى لا يقع البصر عليه، أو طاقة فيه. قال الشاعر:

ألا فالبثا شهرين أو نصف ثالثأنا ذاكما كما قد غيّبتنى غيابيا

و الجب: البئر التى لم تطو، و يقال لها قبل الطىّ: ركيـة، فإذا طويت قيل لها بئر، سـمّيت جبا لأنها قطعت فى الأرض قطعا، و جمع الجبّ جببـة و جباب و أجباب، و جمع بين الغيابـة و الجبّ مبالغـة فى أن يلقوه فى مكان من الجبّ شديد الظلمة حتى لا يدركه نظر الناظرين. قيل: و هذه البئر ببيت المقدس، و قيل:

بالأـردن، و جواب الأمر يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ قرأ مجاهـد و أبو رجاء و الحسن و قتادة «تلتقطه» بالمثناة الفوقيـة، و وجهه أن بعض السيارة سيارة. و حكى عن سيبويه: سقطت بعض أصابعه، و منه قول الشاعر:

أرى مرّ السّنين أخذن منّى كما أخذ السّرار «١» من الهلال

و قرأ الباقون «يلتقطه» بالتحتية، و السيارة: الجمع الذين يسيرون فى الطريق، و الالتقاط: هو أخذ شىء

---

(١). السرار: سرار الشهر: آخر ليلة منه.

مشرف على الضـياع، و كـأنهم أرادوا أنّ بعض السـيارة إذا التقطه حمله إلى مكـان بعيـد بحيث يخفى عن أبيه و من يعرفه، و لا يحتاجون إلى الحركة بأنفسـهم إلى المكان البعيد، فربما أن والدهم لا يأذن لهم بذلك، و معنى إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ إن كنتم عاملين بما أشـرت به عليكم فى أمره، كأنه لم يجزم بالأمر، بل و كله إلى ما يجمعون عليه كما يفعله المشير مع من استشاره. و فى هذا دليل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء، فإن الأنبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على القتل لمسـلم ظلما و بغيا؛ و قيل: كانوا أنبياء، و كان ذلك منهم زلّـة قـدم، و أوقعهم فيها التهاب نار الحسـد فى صدورهم و اضـطرام جمرات الغيظ فى قلوبهم. و ردّ بأن الأنبياء معصومون عن مثل هـذه المعصية الكبيرة المتبالغـة فى الكبر، مع ما فى ذلك من قطع الرحم و عقوق الوالـد و افتراء الكـذب؛ و قيل: إنهم لم يكونوا فى ذلك الوقت أنبياء، بل صاروا أنبياء من بعد.

و قـد أخرج ابن أبى حـاتم عن الحسن فى قوله: آيـاتٌ لِلسَّائِلِينَ قـال: عبرة. و أخرج أيضـا عن قتادة فى الآيـة يقول: من سأل عن

ذلك فهو هكذا ما قصّ اللّه عليكم و أنبأكم به. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن إسحاق قال: إنما قصّ اللّه على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم خبر يوسف و بغى إخوته عليه و حسدهم إياه حين ذكر رؤياه، لما رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من بغى قومه عليه و حسدهم إياه حين أكرمه اللّه بنبوّته ليأتسى به. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ يعنى بنيامين هو أخوه لأبيه و أمه، و فى قوله: وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ قال: العصبة ما بين العشرة إلى الأربعين. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن زيد قال: العصبة: الجماعة إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ قال: لفى خطأ من رأيه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ فى قوله: قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ قال: قاله كبيرهم الذى تخلف، قال: و الجبّ بئر بالشام يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ قال: التقطه ناس من الأعراب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ أَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِ يعنى الركية. و أخرج ابن جرير عن الضحّاك قال: الجبّ البئر. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ قال:

هى بئر ببيت المقدس، يقول: فى بعض نواحيها. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: الجبّ حذاء طبرية، بينه و بينها أميال.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١١ الى ١٨]

قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (١٢) قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ (١٣) قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥)

وَ جاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ (١٦) قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَ لَوْ كُنَّا صادِقِينَ (١٧) وَ جاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (١٨)

فتح القدير، ج٣، ص: ١٢

لما أجمع رأيهم على أن يلقوه فى غيابات الجبّ، جاءوا إلى أبيهم و خاطبوه بلفظ الأبوّة استعطافا له، و تحريكا للحنوّ الذى جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء، و توسّلا بذلك إلى تمام ما يريدونه من الكيد الذى دبّروه، و استفهموه استفهام المنكر لأمر ينبغى أن يكون الواقع على خلافه، ف قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ أى: أىّ شىء لك لا تجعلنا أمناء عليه؟ و كأنهم قد كانوا سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى. و قرأ يزيد بن القعقاع و عمرو بن عبيد و الزّهرى «لا تأمنا» بالإدغام بغير إشمام. و قرأ طلحة بن مصرف «لا تأمننا» بنونين ظاهرتين على الأصل. و قرأ يحيى بن وثّاب و أبو رزين و الأعمش «لا تيمنا» و هو لغة تميم كما تقدّم. و قرأ سائر القرّاء بالإدغام و الإشمام ليدلّ على حال الحرف قبل إدغامه وَ إِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ فى حفظه و حيطته حتى نردّه إليك أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً أى إلى الصّحراء التى أرادوا الخروج إليها، و غدا ظرف، و الأصل عند سيبويه غدو. قال النّضر بن شميل: ما بين الفجر و طلوع الشمس، يقال له غدوة، و كذا يقال له بكرة. يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ هذا جواب الأمر. قرأ أهل البصرة و أهل مكة و أهل الشام بالنون و إسكان العين كما رواه البعض عنهم. و قرءوا أيضا بالاختلاس، و قرأ الباقون بالنون و كسر العين، و القراءة الأولى مأخوذة من قول العرب رتع الإنسان أو البعير؛ إذا أكل كيف شاء، أو المعنى: نتسع فى الخصب، و كلّ مخصب راتع؛ قال الشاعر:

فارعى فزارة لا هناك المرتع و منه قول الشاعر «١»:

ترتع ما رتعت «٢» حتى إذا ادّكرتفإنّما هى إقبال و إدبار

و القراءة الثانية مأخوذة من: رعى الغنم. و قرأ مجاهد و قتادة يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ بالتحتية فيهما، و رفع يلعب على الاستئناف، و الضمير

ليوسف. و قال القتبى: معنى نرتع نتحارس و نتحافظ و يرعى بعضنا بعضا، من قولهم: رعاك اللّه؛ أى حفظك، و نلعب من اللعب. قيل لأبى عمرو بن العلاء: كيف قالوا و نلعب و هم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء؛ و قيل: المراد به اللعب المباح من الأنبياء، و هو مجرّد الانبساط؛ و قيل: هو اللعب الذى يتعلّمون به الحرب و يتقوّون به عليه، كما فى قولهم: إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ لا اللعب المحظور الذى هو ضدّ الحق، و لذلك لم ينكر يعقوب عليهم لما قالوا: و نلعب، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم لجابر: «فهلّا بكرا تلاعبها و تلاعبك»، فأجابهم يعقوب بقوله: إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ أى ذهابكم به، و اللام فى لَيَحْزُنُنِي لام الابتداء للتأكيد و لتخصيص المضارع بالحال، أخبرهم أنه يحزن لغيبة يوسف عنه لفرط محبته له و خوفه عليه. وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ أى: و مع ذلك أخاف أن يأكله الذئب. قال يعقوب هذا تخوّفا عليه منهم، فكنى عن ذلك بالذئب. و قيل: إنه خاف أن يأكله الذئب حقيقة، لأن ذلك المكان

---

(١). البيت للخنساء، من قصيدة ترثى بها أخاها صخرا.

(٢). فى تفسير القرطبى (٩/ ١٣٩): ما غفلت.

كان كثير الذئاب، و لو خاف منهم عليه أن يقتلوه لأرسل معهم من يحفظه. قال ثعلب: و الذئب مأخوذ من تذأبت الريح؛ إذا هاجت من كلّ وجه. قال: و الذئب مهموز لأنه يجيء من كلّ وجه. و قد قرأ ابن كثير و نافع فى رواية عنه بالهمز على الأصل، و كذلك أبو عمرو فى رواية عنه و ابن عامر و عاصم و حمزة. و قرأ الباقون بالتّخفيف وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ لاشتغالكم بالرّتع و اللعب، أو لكونهم غير مهتمّين بحفظه قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ اللام هى الموطئة للقسم. و المعنى: و اللّه لئن أكله الذئب و الحال إن نحن عصبة؛ أى جماعة كثيرة، عشرة إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ أى: إنما فى ذلك الوقت، و هو أكل الذئب له لخاسرون هالكون ضعفا و عجزا، أو مستحقّون للهلاك لعدم الاعتداد بنا، و انتفاء القدرة على أيسر شيء و أقلّه، أو مستحقّون لأن يدعى علينا بالخسار و الدّمار؛ و قيل: لَخاسِرُونَ لجاهلون حقه، و هذه الجملة جواب القسم المقدّر فى الجملة التى قبلها فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ من عند يعقوب وَ أَجْمَعُوا أمرهم أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِ قد تقدّم تفسير الغيابة و الجب قريبا، و جواب لما محذوف لظهوره و دلالة المقام عليه، و التقدير:

فعلوا به ما فعلوا؛ و قيل: جوابه قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ و قيل: و الجواب المقدّر جعلوه فيها، و قيل: الجواب أوحينا و الواو مقحمة، و مثله قوله تعالى: فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ- وَ نادَيْناهُ «١» أى:

ناديناه وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ أى: إلى يوسف تيسيرا له، و تأنيسا لوحشته؛ مع كونه صغيرا اجتمع على إنزال الضرر به عشرة رجال من إخوته، بقلوب غليظة؛ فقد نزعت عنها الرحمة، و سلبت منها الرّأفة، فإنّ الطّبع البشرى يأبى ذلك. و إن كان قد وقع منه خطأ فدع عنك الدين يتجاوز عن ذنب الصغير و يغفره لضعفه عن الدفع و عجزه عن أيسر شيء يراد منه، فكيف بصغير لا ذنب له، بل كيف بصغير هو أخ لهم و له أب مثل يعقوب، فلقد أبعد من قال إنهم كانوا أنبياء فى ذلك الوقت، فما هكذا عمل الأنبياء و لا فعل الصالحين. و فى هذا دليل على أنه يجوز أن يوحى اللّه إلى من كان صغيرا و يعطيه النبوّة حينئذ، كما وقع فى عيسى و يحيى بن زكريا؛ و قد قيل: إنه كان فى ذلك الوقت قد بلغ مبالغ الرجال، و هو بعيد جدّا، فإن من كان قد بلغ مبالغ الرجال لا يخاف عليه أن يأكله الذئب لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا أى لتخبرنّ إخوتك بأمرهم هذا الذى فعلوه معك بعد خلوصك مما أرادوه بك من الكيد، و أنزلوه عليك من الضرر، و جملة وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ فى محل نصب على الحال؛ أى: لا يشعرون بأنك أخوهم يوسف لاعتقادهم هلاكك بإلقائهم لك فى غيابة الجبّ، و لبعد عهدهم بك، و لكونك قد صرت عند ذلك فى حال غير ما كنت

عليه و خلاف ما عهدوه منك، و سيأتى ما قاله لهم عند دخولهم عليه بعد أن صار إليه ملك مصر. قوله: وَ جاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ عشاء منتصب على الظرفية، و هو آخر النهار، و قيل: فى الليل؛ و يبكون فى محل نصب على الحال، أى: باكين أو متباكين لأنهم لم يبكوا حقيقة، بل فعلوا فعل من يبكى ترويجا لكذبهم و تنفيقا لمكرهم و غدرهم، فلما وصلوا إلى أبيهم قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ أى: نتسابق فى العدو أو فى الرمى؛ و قيل: ننتضل، و يؤيده قراءة ابن مسعود «ننتضل» قال الزجّاج: و هو نوع من المسابقة. و قال الأزهرى: النضال فى السهام،

---

(١). الصافات: ١٠٣- ١٠٤.

و الرهان فى الخيل، و المسابقة تجمعهما. قال القشيرى: نستبق، أى: فى الرمى أو على الفرس أو على الأقدام، و الغرض من المسابقة التدرّب بذلك فى القتال وَ تَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا أى: عند ثيابنا ليحرسها فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ الفاء للتعقيب؛ أى: أكله عقب ذلك. و قد اعتذروا عليه بما خافه سابقا عليه. و ربّ كلمة تقول لصاحبها دعنى وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا بمصدق لنا فى هذا العذر الذى أبدينا، و الكلمة التى قلناها وَ لَوْ كُنَّا عندك أو فى الواقع صادِقِينَ لما قد علق بقلبك من التهمة لنا فى ذلك مع شدة محبتك له. قال الزّجّاج: و المعنى و لو كنا عندك من أهل الثقة و الصدق ما صدّقتنا فى هذه القضية لشدّة محبتك ليوسف.

و كذا ذكره ابن جرير و غيره وَ جاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ على قميصه فى محل نصب على الظرفية، أى: جاءوا فوق قميصه بدم، و وصف الدم بأنه كذب مبالغة، كما هو معروف فى وصف اسم العين باسم المعنى؛ و قيل: المعنى: بدم ذى كذب أو بدم مكذوب فيه. و قرأ الحسن و عائشة «بدم كذب» بالدال المهملة، أى بدم طرىّ، يقال للدم الطرىّ كذب. و قال الشعبى: إنه المتغير، و الكذب أيضا البياض الذى يخرج فى أظفار الأحداث، فيجوز أن يكون شبّه الدم فى القميص بالبياض الذى يخرج فى الظفر من جهة اللونين.

و قد استدلّ يعقوب على كذبهم بصحة القميص، و قال لهم: متى كان هذا الذئب حكيما يأكل يوسف و لا يخرق القميص؟ ثم ذكر اللّه سبحانه ما أجاب به يعقوب عليهم فقال: قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً أى زيّنت و سهلت. قال النيسابورى: التسويل تقرير فى معنى النفس مع الطمع فى تمامه، و هو تفعيل من السول و هو الأمنية. قال الأزهرى: و أصله مهموز غير أن العرب استثقلوا فيه الهمزة فَصَبْرٌ جَمِيلٌ قال الزجّاج: أى فشأنى، أو الذى أعتقده صبر جميل. و قال قطرب: أى فصبرى صبر جميل؛ و قيل: فصبر جميل أولى بى. قيل: و الصبر الجميل هو الذى لا شكوى معه. قال الزجّاج: قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسف «فصبرا جميلا» قال: و كذا فى مصحف أنس. قال المبرد: فصبر جميل بالرفع أولى من النصب، لأن المعنى: قال ربّ عندى صبر جميل، و إنما النصب على المصدر، أى: فلأصبرنّ صبرا جميلا.

قال الشاعر:

شكا إلىّ جملى طول السّرى صبرا جميلا فكلانا مبتلى

وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ أى المطلوب منه العون عَلى ما تَصِفُونَ أى على إظهار حال ما تصفون، أو على احتمال ما تصفون، و هذا منه عليه السلام إنشاء لا إخبار.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ قال:

نسعى و ننشط و نلهو. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه، و السّلفى فى الطّيوريات، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تلقّنوا الناس فيكذبوا، فإن بنى يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس، فلما لقّنهم أبوهم كذبوا، فقالوا: أكله الذئب».

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ الآية قال: أوحى إلى يوسف و هو فى الجب لتنبئن إخوتك بما صنعوا و هم لا

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۵

يشعرون بذلك الوحى. و أخرج هؤلاء عن قتادة قال: أوحى اللّه إليه و حيا و هو فى الجبّ أن سينبئهم بما صنعوا، و هم- أى إخوته- لا يشعرون بذلك الوحى، فهوّن ذلك الوحى عليه ما صنع به.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ قال: لم يعلموا بوحى اللّه إليه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم و هم له منكرون جيء بالصّواع فوضعه على يده، ثم نقره فطنّ، فقال: إنه ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف يدنيه دونكم، و أنكم انطلقتم به فألقيتموه فى غيابة الجبّ فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله، و جئتم على قميصه بدم كذب، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم، فقال ابن عباس: فلا نرى هذه الآية نزلت إلا فى ذلك لتنبئنهم بأمرهم هذا و هم لا يشعرون. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى بكر ابن عياش قال: كان يوسف فى الجبّ ثلاثة أيام.

و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا قال: بمصدّق لنا. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ جاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قال: كان دم سخلة. و أخرج ابن جرير عن مجاهد مثله. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس وَ جاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قال: لما أتى يعقوب بقميص يوسف فلم ير فيه خرقا قال: كذبتم، لو كان كما تقولون أكله الذئب لخرق القميص. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً قال: أمرتكم أنفسكم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً يقول: بل زيّنت لكم أنفسكم أمرا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ أى على ما تكذبون. و أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب الصبر، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن حبّان بن أبى جبلة قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قوله: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ قال: لا شكوى فيه. من بثّ لم يصبر. و هو من طريق هشيم عن عبد الرحمن عن حبّان بن أبى جبلة، و هو مرسل. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ قال: ليس فيه جزع.

[سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱۹ الى ۲۲]

وَ جاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ (۱۹) وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (۲۰) وَ قالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۲۱) وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۲۲)

هذا شروع فى حكاية خلاص يوسف و ما كان بعد ذلك من خبره، و قد تقدّم تفسير السّيارة، و المراد بها هنا رفقة مارّة تسير من الشام إلى مصر، فأخطئوا الطريق و هاموا حتى نزلوا قريبا من الجبّ، و كان فى

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۶

قفرة بعيدة عن العمران. و الوارد: الذى يرد الماء ليستقى للقوم، و كان اسمه فيما ذكر المفسرون «مالك بن ذعر» من العرب العاربة فَأَدْلى دَلْوَهُ أى أرسله، يقال: أدلى دلوه؛ إذا أرسلها ليملأها، و دلاها: إذا أخرجها، قاله الأصمعى و غيره. فتعلّق يوسف

بالحبل، فلما خرج الـدلو من البئر أبصـره الوارد ف قال يا بشـراى هكذا قرأ أهل المدينة و أهل مكة و أهل البصـرة، و أهل الشام بإضافة البشـرى إلى الضمير. و قرأ أهل الكوفة «يا بُشْرى غير مضاف، و معنى مناداته للبشرى؛ أنه أراد حضورها فى ذلك الوقت. فكأنه قال: هذا وقت مجيئك و أوان حضورك. و قيل: إنه نادى رجلا اسمه بشرى. و الأوّل أولى. قال النحاس:
و المعنى نداء البشرى التبشير لمن حضر، و هو أوكد من قولك بشرته، كما تقول يا عجبا، أى: يا عجب هذا من أيامك فاحضر. قال: و هذا مذهب سـيبويه وَ أَسَرُّوهُ أى أسرّ الوارد و أصحابه الذين كانوا معه يوسف فلم يظهروه لهم؛ و قيل: إنهم لم يخفوه، بل أخفـوا وجـدانه لهم فى الجبّ، و زعموا أنه دفعه إليهم أهـل المـاء ليـبيعوه لهم بمصـر؛ و قيـل: ضـمير الفاعـل فى أسـرّوه لإخـوة يوسف، و ضمير المفعول ليوسف، و ذلك أنه كان يأتيه أخوه يهوذا كل يوم بطعام، فأتاه يوم خروجه من البئر فأخبر إخوته فأتوا الرفقـة و قالوا: هـذا غلام أبق منا فاشتروه منهم، و سـكت يوسف مخافة أن يأخذوه فيقتلوه. و الأوّل أولى. و انتصاب بضاعة على الحال، أى: أخفوه حال كونه بضاعـة، أى: متاعا للتجارة، و البضاعـة: ما يبضع من المال، أى: يقطع منه لأنها قطعة من المال الذى يتّجر به، قيـل: قـاله لهم الوارد و أصـحابه أنه بضاعـة استبضـعناها من الشـام مخافـة أن يشاركوهم فيه، و فى قوله: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ وعيـد شديد لمن كان فعله سـببا لما وقع فيه يوسف من المحن، و ما صار فيه من الابتذال يجرى البيع و الشـراء فيه، و هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسـف بن يعقـوب بن إسـحاق بن إبراهيم كمـا قـال نبينـا صـلّى اللّه عليه و سـلّم فى وصفه بذلك. قوله: وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ يقال: شراه بمعنى اشتراه، و شراه بمعنى باعه. قال الشاعر «١»:
و شريت بردا ليتنىمن بعد برد كنت هامة
أى بعته.
و قال آخر «٢»:
فلمّا شراها فاضت العين عبرة «٣» أى اشتراها، و المراد هنا: و باعوه، أى: باعه الوارد و أصحابه بِثَمَنٍ بَخْسٍ أى ناقص أو زائف.
و قيل: يعود إلى إخوة يوسف على القول السابق؛ و قيل: عائد إلى الرفقة، و المعنى: اشتروه؛ و قيل: بخس:
ظلم، و قيل: حرام. قيل: باعوه بعشرين درهما، و قيل: بأربعين، و دراهم بدل من ثمن؛ أى دنانير،

---

(١). هو يزيد بن مفرغ الحميرى. و «برد»: اسم عبد كان له ندم على بيعه.
(٢). هو الشمّاخ.
(٣). و تمام البيت: و فى الصّدر حزّاز من اللّوم حامز. و «حامز»: عاصر.

و معـدودة وصف لـدراهم، و فيه إشارة إلى أنها قليلـة تعدّ و لا توزن، لأنهم كانوا لا يزنون ما دون أوقية و هى أربعون درهما. وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ يقال: زهـدت و زهـدت بفتـح الهاء و كسـرها. قال سـيبويه و الكسائى: قال أهل اللغة: يقال زهد فيه، أى: رغب عنه، و زهـد عنه، أى: رغب فيه، و المعنى: أنهم كانوا فيه من الراغبين عنه، الـذين لا يبالون به، فلذلك باعوه بذلك الثمن البخس، و ذلـك لأنـهم التقطوه، و الملتقط للشـى‌ء متهاون به، و الضـمير من كانوا يرجع إلى ما قبله على حسب اختلاف الأقوال فيه وَ قـالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ هو العزيز الـذى كان على خزائن مصـر، و كان وزيرا لملك مصـر، و هو «الريان ابن الوليـد» من العمالقة؛ و قيل: إن الملك هو فرعون موسى، قيل: اشتراه بعشرين دينارا، و قيل: تزايدوا فى ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكا و عنبرا و حريرا و ورقا و ذهبا و لآلئ و جواهر، فلما اشتراه العزيز قال لِامْرَأَتِهِ و اللام متعلّقة باشتراه أَكْرِمِي مَثْواهُ أى منزله الذى يثوى فيه بالطعـام و اللبـاس الحسن، يقال: ثوى بالمكان، أى: أقام به عَسـى أَنْ يَنْفَعَنا أى: يكفينا بعض المهمات ممّا نحتاج إلى مثله فيه أَوْ

نَتَّخِذَهُ وَلَداً أی: نتبنّاه فنجعله ولـدا لنا، قیل: کان العزیز حصورا لا یولـد له، و قیل: کان لا یأتی النساء، و قـد کان تفرّس فیه أنه ینوب عنه فیما إلیه من أمر المملکـة. قـوله: وَ کَذلِکَ مَکَّنّا لِیُوسُفَ الکـاف فی محـل نصب علی أنه نعت مصـدر محـذوف، و الإشـارة إلی مـا تقـدّم من إنجـائه من إخوته و إخراجه من الجبّ، و عطف قلب العزیز علیه، أی: مثل ذلک التمکین البـدیع مکّنا لیوسـف حتی صـار متمکّنـا من الأمر و النهی، یقـال: مکنه فیه، أی: أثبته فیه، و مکن له فیه، أی: جعـل له فیه مکانـا، و لتقـارب المعنیین یستعمل کل واحد منهما مکان الآخر. قوله: وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحادِیثِ هو علّة لمعلل محذوف، کأنه قیل:

فعلنـا ذلـک التّمکین لنعلمه من تأویـل الأحادیث أو کان ذلک الإنجاء لهـذه العلـة، أو معطوف علی مقـدّر، و هو أن یقال: مکنّا لیوسف لیترتب علی ذلـک مـا یترتب ممـا جری بینه و بین امرأة العزیز وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِیـلِ الْأَحـادِیثِ و معنی تأویـل الأحـادیث: تأویـل الرؤیا، فإنها کانت من الأسباب التی بلغ بها ما بلغ من التمکن؛ و قیل: معنی تأویل الأحادیث فهم أسـرار الکتب الإلهیـة و سنن من قبله من الأنبیـاء، و لا مانع من حمل ذلک علی الجمیع وَ اللّهُ غالِبٌ عَلی أَمْرِهِ أی: علی أمر نفسه لا یمتنع منه شـیء، و لا یغالبه علیه غیره من مخلوقاته إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ «۱»، و من جملـة ما یدخل تحت هذا العامّ کما یفید ذلک إضافة اسم الجنس إلی الضـمیر ما یتعلق بیوسف علیه السلام من الأمور التی أرادها اللّه سبحانه فی شأنه؛ و قیل معنی وَ اللّهُ غالِبٌ عَلی أَمْرِهِ أنه کان من أمر یعقوب أن لا یقصّ رؤیا یوسف علی إخوته، فغلب أمر اللّه سـبحانه حتی قصّت علیهم حتی وقع منهم مـا وقع، و هـذا بعیـد جـدّا وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النّاسِ لا یَعْلَمُونَ أی لا یطلعون علی غیب اللّه و مـا فی طیّه من الأسـرار العظیمـة و الحکم النافعـة؛ و قیل: المراد بالأکثر: الجمیع؛ لأنه لا یعلم الغیب إلا اللّه؛ و قیل: إن اللّه سـبحانه قـد یطلع بعض عبیـده علی بعض غیبه کما فی قوله: فَلا یُظْهِرُ عَلی غَیْبِهِ أَحَداً- إِلّا مَنِ ارْتَضی مِنْ رَسُولٍ «۲»؛ و قیـل: المعنی: و لکن أکثر الناس لا یعلمون أن اللّه غالب

---

(۱). یس: ۸۲.

(۲). الجن: ۲۶ و ۲۷.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۱۸

علی أمره و هم المشـرکون و من لا یؤمن بالقدر. قوله وَ لَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَیْناهُ حُکْماً وَ عِلْماً الأشدّ: قال سیبویه: جمع، واحده شدّة. قال الکسائی: واحده شدّ. و قال أبو عبید: إنه لا واحد له من لفظه عند العرب، و یردّه قول الشاعر:

عهدی به شدّ النّهار کأنّماخضب البنان و رأسه بالعظلم «۱»

و الأشدّ: هو وقت اسـتکمال القوّة ثم یکون بعده النقصان. قیل: هو ثلاث و ثلاثون سـنة، و قیل: بلوغ الحلم، و قیل: ثمانی عشـرة سنة، و قیل غیر ذلک مما قد قدّمنا بیانه فی النساء و الأنعام. و الحکم: هو ما کان یقع منه من الأحکام فی سـلطان ملک مصـر، و العلم: هو العلم بـالحکم الـذی کـان یحکمه؛ و قیل: العقل و الفهم و النبوّة؛ و قیل: الحکم هو النبوّة، و العلم: هو العلم بالـدین؛ و قیـل: علم الرؤیا. و من قال إنه أوتی النبوّة صبیا قال: المراد بهـذا الحکم و العلم الـذی آتاه اللّه هو الزیادة فیهما وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ أی و مثل ذلک الجزاء العجیب نجزی المحسـنین، فکلّ من أحسن فی عمله أحسن اللّه جزاءه، و جعل عاقبة الخیر من جملـة ما یجزیه به، و هذا عامّ یدخل تحته جزاء یوسف علی صبره الحسن دخولا أولیّا. قال الطبری: هذا و إن کان مخرجه ظاهرا علی کـل محسن فـالمراد به محمـد صـلّی اللّه علیه و سـلّم، یقول اللّه تعـالی کما فعل هـذا بیوسف ثم أعطیته ما أعطیته کـذلک أنجیـک من مشـرکی قومـک الـذین یقصـدونک بالعـداوة و أمکّن لـک فی الأـرض. و الأولی ما ذکرناه من حمل العموم علی ظاهره فیدخل تحته ما ذکره ابن جریر الطبری.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن المنذر و أبو الشيخ عن الضحّاک فى قوله: وَ جاءَتْ سَيَّارَةٌ قال: جاءت سيارة فنزلت على الجبّ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فاستسقى الماء فاستخرج يوسف، فاستبشروا بأنهم أصابوا غلاما لا يعلمون علمه و لا منزلته من ربّه، فزهدوا فيه فباعوه، و كان بيعه حراما، و باعوه بدراهم معدودة. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ يقول:

فأرسلوا رسولهم فَأَدْلى دَلْوَهُ فنشب الغلام بالدلو، فلما خرج قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ تباشروا به حين استخرجوه، و هى بئر ببيت المقدس معلوم مكانها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: يا بشراى قال: كان اسم صاحبه بشرى، كما تقول يا زيد، و هذا على ما فيه من البعد لا يتمّ إلا على قراءة من قرأ «يا بُشْرى بدون إضافة. و أخرج أبو الشيخ عن الشعبى نحوه.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً يعنى إخوة يوسف أسرّوا شأنه و كتموا أن يكون أخاهم، و كتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته و اختار البيع فباعه إخوته بثمن بخس. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد قال: أسرّه التجار بعضهم من بعض. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً قال: صاحب الدلو و من معه، قالوا لأصحابهم: إنا استبضعناه خيفة أن يشركوهم فيه إن علموا به، و اتبعهم إخوته يقولون للمدلى و أصحابه: استوثقوا منه لا

---

(١). شدّ النهار: أى: أشدّه، يعنى أعلاه. «العظلم»: نبت يختضب به.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ١٩

يأبق حتى وقفوا بمصر، فقال: من يبتاعنى و يبشر، فابتاعه الملک و الملک مسلم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: وَ شَرَوْهُ قال: إخوة يوسف باعوه حين أخرجه المدلى دلوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: بيع بينهم بثمن بخس، قال: حرام لم يحلّ لهم بيعه، و لا أكل ثمنه. و أخرج ابن جرير عن قتادة وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ قال: هم السيارة. و أخرج أبو الشيخ عن على ابن أبى طالب أنه قضى فى اللقيط أنه حر، و قرأ: وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ و أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: البخس القليل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن الشعبى مثله. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود قال: إنما اشترى يوسف بعشرين درهما، و كان أهله حين أرسل إليهم بمصر ثلاثمائة و تسعين إنسانا، رجالهم أنبياء، و نساؤهم صدّيقات، و اللّه ما خرجوا مع موسى حتى بلغوا ستّمائة ألف و سبعين ألفا. و قد روى فى مقدار ثمن يوسف غير هذا المقدار مما لا حاجة إلى التطويل بذكره.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ قالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ قال: كان اسمه قطفير. و أخرج أبو الشيخ عن شعيب الجبائى: أن اسم امرأة العزيز زليخا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن محمد بن إسحاق قال: الذى اشتراه أطيفير بن روحب، و كان اسم امرأته راعيل بنت رعاييل. و أخرج ابن جرير و ابن إسحاق و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: اسم الذى باعه من العزيز مالک بن ذعر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى قوله: أَكْرِمِي مَثْواهُ قال: منزلته. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة مثله. و أخرج سعيد بن منصور و ابن سعد و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرّس فى يوسف فقال لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً و المرأة التى أتت موسى فقالت لأبيها يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ و أبو بكر حين استخلف عمر. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ قال: عبارة

الرؤيـا. و أخرج سـعيد بن منصور و ابن جرير و ابن أبى حـاتم، و ابن الأنبارى فى كتاب الأضـداد، و الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه عن ابن عبـاس فى قوله: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ قـال: ثلاثا و ثلاثين سـنة. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: أربعين سـنة. و أخرج عن عكرمة قال: خمسا و عشـرين سـنة. و أخرج عن السدّى قال: ثلاثين سـنة. و أخرج عن سـعيد بن جبير قال: ثمانية عشر سنـة. و أخرج عن ربيعة قال: الحلم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الشـعبى نحوه. و أخرج ابن جرير عن الضحّاك قال: عشرين سنة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً قال: هو الفقه و العلم و العقل قبل النبوّة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ قال: المهتدين.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٢٣ الى ٢٩]

وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهـا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَ قالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَ لَقَـدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهـا لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَ اسْتَبَقَا الْبابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَـهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٢٦) وَ إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)

فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ (٢٩)

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٠

المراودة الإرادة و الطلب برفق ولين، و قيل: هى مأخوذة من الرّود: أى الرّفق و التّأنى، يقال: أرودنى:

أمهلنى؛ و قيل المراودة مأخوذة من راد يرود؛ إذا جاء و ذهب، كأن المعنى: أنها فعلت فى مراودتها له فعل المخادع، و منه الرائد لمن يطلب الماء و الكلأ، و قد يخصّ بمحاولة الوقاع، فيقال: راود فلان جاريته عن نفسـها و راودته هى عن نفسه؛ إذا حاول كل منهمـا الوطء و الجماع، و هى مفاعلة، و أصـلها أن تكون من الجانبين، فجعل السـبب هنا فى أحـد الجانبين قائما مقام المسـبب، فكـأن يوسف عليه السـلام لما كان ما أعطيه من كمال الخلق و الزيادة فى الحسن سـببا لمراودة امرأة العزيز له مراود. و إنما قال: الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها و لم يقل امرأة العزيز، و زليخا، قصدا إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة و المحافظة على الستر عليها وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ قيل فى هذه الصـيغة ما يدلّ على التكثير، فيقال: غلّق الأبواب، و لا يقال: غلّق الباب، بل يقال: أغلق الباب، و قد يقال: أغلق الأبواب، و منه قول الفرزدق فى أبى عمرو بن العلاء:

ما زلت أغلق أبوابا و أفتحهاحتى أتيت أبا عمرو بن عمّار

قيل: و كانت الأبواب سبعة. قوله: هَيْتَ لَكَ قرأ أبو عمرو و عاصم و الكسائى و حمزة و الأعمش بفتح الهاء و سكون الياء و فتح التاء، و بها قرأ ابن مسعود و ابن عباس و سعيد بن جبير و الحسن و مجاهد و عكرمة.

قـال ابن مسـعود: لا تنطعوا فى القراءة، فإنما هو مثل قول أحـدكم هلمّ و تعال. و قرأ ابن أبى إسـحاق النحوى بفتـح الهاء و كسر التاء. و قرأ عبد الرحمن السلمى و ابن كثير هيت بفتح الهاء و ضم التاء، و منه قول طرفة:

ليس قومى بالأبعدين إذا ماقال داع من العشيرة هيت

و قرأ أبو جعفر و نافع بكسـر الهاء و سـكون الياء و فتـح التاء. و قرأ علىّ و ابن عباس فى روايـة عنه و هشام بكسـر الهاء و بعـدها همزة ساكنـة و ضم التـاء. و قرأ ابن عامر و أهل الشام بكسـر الهاء و بالهمزة و فتـح التاء. و معنى هيت على جميع القراءات معنى

هلمّ و تعال؛ لأنها من أسماء الأفعال إلا فى قراءة من قرأ بكسر الهاء بعدها همزة و تاء مضمومة، فإنها بمعنى: تهيأت لك. و أنكر أبو عمرو هذه القراءة. و قال أبو عبيدة: سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء و الهمزة و ضم التاء فقال: باطل، جعلها بمعنى تهيأت، اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهى إلى اليمن، هل تعرف أحدا يقول هكذا؟ و أنكرها أيضا الكسائى. و قال النحاس: هى جيدة عند البصريين؛ لأنه يقال: هاء الرجل يهاء و يهيئ هيئة، و رجّح الزجّاج القراءة الأولى، و أنشد بيت طرفة المذكور هيت بالفتح، و منه قول الشاعر فى علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه:

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٢١ أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتيتا

إنّ العراق و أهله‌سلم إليك فهيت هيتا

و تكون اللام فى لَكَ على القراءات الأولى التى هى فيها بمعنى اسم الفعل للبيان، أى: لك. أقول هذا كما فى هلمّ لك. قال النحويون: هيت جاء بالحركات الثلاث؛ فالفتح للخفة، و الكسر لالتقاء الساكنين، و الضم تشبيها بحيث، و إذا بين باللام نحو هيت لك فهو صوت قائم مقام المصدر كأف له، أى: لك أقول هذا. و إن لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر الفعل فيكون اسم فعل، إما خبر: أى تهيأت، و إما أمر: أى أقبل. و قال فى الصحاح: يقال هوّت به و هيّت به إذا صاح به و دعاه، و منه قول الشاعر:

يحدو بها كلّ فتى هيّات و قد روى عن ابن عباس و الحسن أنها كلمة سريانية معناها أنها تدعوه إلى نفسها. قال أبو عبيدة: كان الكسائى يقول: هى لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز، معناها تعال. قال أبو عبيدة: فسألت شيخا عالما من حوران فذكر أنها لغتهم قالَ مَعاذَ اللَّهِ أى أعوذ باللّه معاذا ممّا دعوتنى إليه، فهو مصدر منتصب بفعل محذوف مضاف إلى اسم اللّه سبحانه، و جملة إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوایَ تعليل للامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التى هى أقرب إلى فهم امرأة العزيز، و الضمير للشأن، أى: إن الشأن ربى، يعنى العزيز:

أى سيدى الذى ربّانى و أحسن مثواى حيث أمرك بقوله: أَكْرِمِی مَثْواهُ فكيف أخونه فى أهله و أجيبك إلى ما تريدين من ذلك؟ و قال الزجّاج: إن الضمير للّه سبحانه، أى: إن اللّه ربى تولانى بلطفه فلا أركب ما حرّمه، و جملة إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ تعليل آخر للامتناع منه عن إجابتها، و الفلاح: الظفر. و المعنى:

أنه لا يظفر الظالمون بمطالبهم، و من جملة الظالمين الواقعون فى مثل هذه المعصية التى تطلبها امرأة العزيز من يوسف. قوله: وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها يقال: همّ بالأمر؛ إذا قصده و عزم عليه. و المعنى: أنه همّ بمخالطتها كما همّت بمخالطته، و مال كل واحد منهما إلى الآخر بمقتضى الطبيعة البشرية و الجبلّة الخلقية، و لم يكن من يوسف عليه السلام القصد إلى ذلك اختيارا كما يفيده ما تقدّم من استعاذته باللّه، و إن ذلك نوع من الظلم. و لما كان الأنبياء معصومين عن الهمّ بالمعصية و القصد إليها شطح أهل العلم فى تفسير هذه الآية بما فيه نوع تكلّف، فمن ذلك ما قاله أبو حاتم قال: كنت أقرأ على أبى عبيدة غريب القرآن، فلما أتيت على وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها قال: هذا على التقديم و التأخير، كأنه قال: و لقد همت به و لو لا أن رأى برهان ربه لهمّ بها. و قال أحمد بن يحيى ثعلب: أى همّت زليخا بالمعصية و كانت مصرّة، و همّ يوسف و لم يوقع ما همّ به، فبين الهمّين فرق، و من هذا قول الشاعر «١»:

هممت بهمّ من ثنية لؤلؤ «٢»شفيت غليلات الهوى من فؤاديا

---

(١). هو جميل بثينة.

(٢). فى تفسير القرطبى (٩/ ١۶۶): بثينة لو بدا.

فتح القدير، ج‏3، ص: 22

فهذا إنما هو حديث نفس من غير عزم، و قيل: همّ بها؛ أى همّ بضرب بها، و قيل: همّ بها بمعنى تمنى أن يتزوّجها. و قد ذهب جمهور المفسرين من السلف و الخلف إلى ما قدّمنا من حمل اللفظ على معناه اللغوى، و يدل على هذا ما سيأتى من قوله: ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ «1»، و قوله: وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ «2» و مجرد الهمّ لا ينافى العصمة، فإنها قد وقعت العصمة عن الوقوع فى المعصية، و ذلك المطلوب، و جواب لو فى لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ محذوف، أى: لو لا أن رأى برهان ربه لفعل ما همّ به.

و اختلف فى هذا البرهان الذى رآه ما هو؟ فقيل: إن زليخا قامت عند أن همّت به و همّ بها إلى صنم لها فى زاوية البيت فسترته بثوب، فقال: ما تصنعين؟ قالت: أستحى من إلهى هذا أن يرانى على هذه الصورة، فقال يوسف: أنا أولى أن أستحى من اللّه تعالى. و قيل: إنه رأى فى سقف البيت مكتوبا: وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى‏ إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً «3» الآية؛ و قيل رأى كفا مكتوبا عليها: وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ «4» و قيل: إن البرهان هو تذكره عهد اللّه و ميثاقه و ما أخذه على عباده؛ و قيل: نودى: يا يوسف أنت مكتوب فى الأنبياء و تعمل عمل السفهاء؟! و قيل: رأى صورة يعقوب على الجدار عاضّا على أنملته يتوعّده؛ و قيل غير ذلك مما يطول ذكره. و الحاصل أنه رأى شيئا حال بينه و بين ما همّ به. قوله: كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ الكاف نعت مصدر محذوف، و الإشارة بذلك إلى الإراءة المدلول عليها بقوله: لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك، أى: مثل تلك الإراءة أريناه، أو مثل ذلك التثبيت ثبتناه لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ أى كل ما يسوؤه، و الفحشاء: كلّ أمر مفرط القبح؛ و قيل: السوء: الخيانة للعزيز فى أهله، و الفحشاء: الزنا، و قيل: السوء: الشهوة، و الفحشاء: المباشرة؛ و قيل: السوء: الثناء القبيح. و الأولى الحمل على العموم فيدخل فيه ما يدل عليه السياق دخولا أوليا، و جملة إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ تعليل لما قبله. قرأ ابن عامر و ابن كثير و أبو عمرو «المخلصين» بكسر اللام. و قرأ الآخرون بفتحها. و المعنى على القراءة الأولى أن يوسف عليه السلام كان ممن أخلص طاعته للّه، و على الثانية أنه كان ممن استخلصه اللّه للرسالة، و قد كان عليه السلام مخلصا مستخلصا. وَ اسْتَبَقَا الْبابَ أى تسابقا إليه، فحذف حرف الجرّ و أوصل الفعل بالمفعول، أو ضمن الفعل معنى فعل آخر يتعدّى بنفسه كابتدرا الباب، و هذا الكلام متصل بقوله:

وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ و ما بينهما اعتراض، و وجه تسابقهما أن يوسف يريد الفرار و الخروج من الباب، و امرأة العزيز تريد أن تسبقه إليه لتمنعه، و وحّد الباب هنا و جمعه فيما تقدّم؛ لأن تسابقهما كان إلى الباب الذى يخلص منه إلى خارج الدار وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ أى جذبت قميصه من ورائه فانشق إلى أسفله، و القدّ: القطع، و أكثر ما يستعمل فيما كان طولا، و القط بالطاء يستعمل فيما كان عرضا، وقع منها ذلك عند أن فرّ يوسف لما رأى برهان ربه، فأرادت أن تمنعه من الخروج بجلبها لقميصه وَ أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ أى وجدا العزيز هنالك، و عنى بالسيد الزوج؛ لأن القبط يسمّون الزوج

(1). يوسف: 52.

(2). يوسف: 53.

(3). الإسراء: 32.

(4). الانفطار: 10.

فتح القدير، ج‏3، ص: 23

سيدا، و إنما لم يقل سيدهما، لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحا فلم يكن سيدا له، و جملة قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً

مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فما كان منهما عند أن ألفيا سيدها لدى الباب، و ما استفهامية، و المراد بالسوء هنا الزنا؛ قالت هذه المقالة طلبا منها للحيلة و للستر على نفسها، فنسبت ما كان منها إلى يوسف؛ أيّ جزاء يستحقه من فعل مثل فعل هذا، ثم أجابت عن استفهامها بقولها: إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أى ما جزاؤه إلا أن يسجن. و يحتمل أن تكون ما نافية، أى: ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الأليم؛ قيل: و العذاب الأليم هو الضرب بالسياط، و الظاهر أنه ما يصدق عليه العذاب الأليم من ضرب أو غيره، و فى الإبهام للعذاب زيادة تهويل، و جملة قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي مستأنفة كالجملة الأولى.

و قد تقدّم بيان معنى المراودة، أى: هى التى طلبت منى ذلك و لم أرد بها سوءا وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها أى من قرابتها، و سمّى الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه من التثبت و التأمل، قيل: لما التبس الأمر على العزيز احتاج إلى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصادق من الكاذب. قيل: كان ابن عمّ لها واقفا مع العزيز فى الباب، و قيل: ابن خال لها، و قيل: إنه طفل فى المهد تكلم. قال السهيلى: و هو الصحيح للحديث الوارد فى ذلك عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى ذكر من تكلّم فى المهد، و ذكر من جملتهم شاهد يوسف؛ و قيل: إنه رجل حكيم كان العزيز يستشيره فى أموره، و كان من قرابة المرأة إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ أى فقال الشاهد هذه المقالة مستدلا على بيان صدق الصادق منهما و كذب الكاذب بأن قميص يوسف إن كان مقطوعا من قبل، أى: من جهة القبل فَصَدَقَتْ أى فقد صدقت بأنه أراد بها سوءا وَ هُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ فى قوله إنها راودته عن نفسه.

و قرأ يحيى بن يعمر و ابن أبى إسحاق «من قبل» بضم اللام. و كذا قرأ: مِنْ دُبُرٍ قال الزّجّاج: جعلاهما غايتين كقبل و بعد، و كأنه قيل من قبله و من دبره، فلما حذف المضاف إليه، و هو مراد، صار المضاف غاية بعد أن كان المضاف إليه هو الغاية وَ إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ أى من ورائه فَكَذَبَتْ فى دعواها عليه وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى دعواه عليها، و لا يخفى أن هاتين الجملتين الشرطيتين لا تلازم بين مقدّميهما و تاليبهما، لا عقلا و لا عادة، و ليس هاهنا إلا مجرد أمارة غير مطردة، إذ من الجائز أن تجذبه إليها و هو مقبل عليها فينقدّ القميص من دبر، و أن تجذبه و هو مدبر عنها فينقدّ القميص من قبل فَلَمَّا رَأى أى العزيز قَمِيصَهُ أى قميص يوسف قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ أى هذا الأمر الذى وقع فيه الاختلاف بينكما، أو أن قولك: ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً مِنْ كَيْدِكُنَ أى من جنس كيدكنّ يا معشر النساء إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ و الكيد: المكر و الحيلة، ثم خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله:

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا أى عن هذا الأمر الذى جرى و اكتمه و لا تتحدّث به، ثم أقبل عليها بالخطاب فقال: وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ الذى وقع منك إِنَّكِ كُنْتِ بسبب ذلك مِنَ الْخاطِئِينَ أى من جنسهم، و الجملة تعليل لما قبلها من الأمر بالاستغفار و لم يقل من الخاطئات تغليبا للمذكر على المؤنث كما فى قوله:

وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ و معنى من الخاطئين من المتعمدين، يقال: خطىء، إذا أذنب متعمدا؛ و قيل:

إن القائل ليوسف و لامرأة العزيز بهذه المقالة هو الشاهد الذى حكم بينهما.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۴

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ قال:

هى امرأة العزيز. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: راودته حين بلغ مبلغ الرجال. و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: هَيْتَ لَكَ قال: هلمّ لك، تدعوه إلى نفسها. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: هلم لك بالقبطية. و أخرج ابن جرير عن الحسن قال: هى كلمة بالسريانية، أى: عليك. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: معناها تعال. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد: إنها لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها.

و أخرج أبو عبيد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قرأ: «هئت لك» مكسورة الهاء مضمومة التاء مهموزة قال: تهيأت لك.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: إِنَّهُ رَبِّی قال: سيدى، قال: يعنى زوج المرأة. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن لمنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: لما همّت به تزينت ثم استلقت على فراشها، و همّ بها جلس بين رجليها يحلّ ثيابه، فنودى من السماء: يا ابن يعقوب لا تكن كطائر نتف ريشه فبقى لا ريش له، فلم يتّعظ على النداء شيئا حتى رأى برهان ربه جبريل فى صورة يعقوب عاضّا على إصبعه.

ففزع فخرجت شهوته من أنامله، فوثب إلى الباب فوجده مغلقا، فرفع يوسف رجله فضرب بها الباب الأدنى فانفرج له و اتبعته فأدركته، فوضعت يديها فى قميصه فشقته حتى بلغت عضلة ساقه، فألفيا سيدها لدى الباب.

و أخرج أبو نعيم فى الحلية عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها قال: طمعت فيه و طمع فيها، و كان فيه من الطمع أن همّ أن يحلّ التكة، فقامت إلى صنم لها مكلل بالدرّ و الياقوت فى ناحية البيت فسترته بثوب أبيض بينها و بينه، فقال: أىّ شىء تصنعين؟ فقالت: أستحى من إلهى أن يرانى على هذه الصورة، فقال يوسف: تستحين من صنم لا يأكل و لا يشرب، و لا أستحى أنا من إلهى الذى هو قائم على كل نفس بما كسبت؟ ثم قال: لا تناليها منى أبدا، و هو البرهان الذى رأى. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس فى قوله: لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ قال: مثّل له يعقوب، فضرب بيده فى صدره فخرجت شهوته من أنامله. و قد أطال المفسرون فى تعيين البرهان الذى رآه، و اختلفت أقوالهم فى ذلك اختلافا كثيرا. و أخرج ابن جرير عن زيد بن ثابت قال: السيد: الزوج، يعنى فى قوله:

وَ أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ قال: القيد.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها قال:

صبىّ أنطقه اللّه كان فى الدار. و أخرج أحمد و ابن جرير، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «تكلّم أربعة و هم صغار: ابن ماشطة فرعون، و شاهد يوسف، و صاحب جريج، و عيسى ابن

مريم». و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها قال: كان رجلا ذا لحية. و أخرج الفريابى و ابن جرير و أبو الشيخ عنه قال: كان من خاصّة الملك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الحسن قال: هو رجل له فهم و علم. و أخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم قال: ابن عمّ لها كان حكيما. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: إنه ليس بإنسىّ و لا جنّى، هو خلق من خلق اللّه. قلت: و لعله لم يستحضر قوله تعالى: مِنْ أَهْلِها.

[سورة يوسف (12): الآيات 30 الى 34]

وَ قالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَ آتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَ قالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَ لَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ (32) قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ

إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ (۳۳) فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۳۴)
يقال نسوة بضم النون، و هى قراءة الأعمش و الفضل و سليمان، و يقال نسوة بكسر النون، و هى قراءة الباقين، و المراد جماعة من النساء و يجوز التذكير فى الفعل المسند إليهنّ كما يجوز التأنيث. قيل: و هنّ امرأة ساقى العزيز و امرأة خبازه، و امرأة صاحب دوابه، و امرأة صاحب سجنه، و امرأة حاجبه. و الفتى فى كلام العرب:
الشاب، و الفتاة: الشابة، و المراد به هنا: غلامها، يقال: فتاى و فتاتى، أى: غلامى و جاريتى، و جملة قَدْ شَغَفَها حُبًّا فى محل رفع على أنها خبر ثان للمبتدأ، أو فى محل نصب على الحال، و معنى شغفها حبا:
غلبها حبه، و قيل: دخل حبّه فى شغافها. قال أبو عبيدة: و شغاف القلب غلافه، و هو جلدة عليه؛ و قيل:
هو وسط القلب، و على هذا يكون المعنى: دخل حبّه إلى شغافها فغلب عليه، و أنشد الأصمعى قول الراجز:
يتبعها و هى له شغاف و قرأ جعفر بن محمد و ابن محيصن و الحسن و شعفها؛ بالعين المهملة. قال ابن الأعرابى: معناه أجرى حبّه عليها «۱» و قرأ غيرهم بالمعجمة. قال الجوهرى: شعفه الحبّ أحرق قلبه. و قال أبو زيد: أمرضه. قال النحاس: معناه عند أكثر أهل اللغة: قد ذهب بها كل مذهب؛ لأن شعاف الجبال: أعاليها، و قد شغف بذلك شغفا بإسكان الغين المعجمة. إذا أولع به، و أنشد أبو عبيدة بيت امرئ القيس:
أ تقتلنى من قد شغفت فؤادهاكما شغف المهنوءة «۲» الرجل الطّالى

(۱). فى تفسير القرطبى (۹/ ۱۷۶): أحرق حبه قلبها.
(۲). «المهنوءة»: المطلية بالقطران.

قال: فشبهت لوعة الحب بذلك. و قرأ الحسن: «قد شغفها» بضم الغين. قال النحاس: و حكى قد شغفها بكسر الغين، و لا يعرف ذلك فى كلام العرب إلا شغفها بفتح الغين؛ و يقال: إن الشغاف: الجلدة اللاصقة بالكبد التى لا ترى، و هى الجلدة البيضاء، فكأنه لصق حبه بقلبها كلصوق الجلدة بالكبد، و جملة إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ مقرّرة لمضمون ما قبلها. و المعنى: إنا لنراها، أى: نعلمها فى فعلها هذا، و هو المراودة لفتاها فى ضلال عن طريق الرشد و الصواب مُبِينٍ واضح لا يلتبس على من نظر فيه فَلَمَّا سَمِعَتْ امرأة العزيز بِمَكْرِهِنَ أى غيبتهنّ إياها، سمّيت الغيبة مكرا لاشتراكهما فى الإخفاء؛ و قيل: أردن أن يتوصّلن بذلك إلى رؤية يوسف، فلهذا سمّى قولهنّ مكرا؛ و قيل: إنها أسرّت عليهنّ فأفشين سرّها، فسمّى ذلك مكرا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَ أى تدعوهنّ إليها لينظرن إلى يوسف حتى يقعن فيما وقعت فيه وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً أى هيأت لهن مجالس يتكئن عليها، و أعتدت من الاعتداد، و هو كل ما جعلته عدّة لشى‏ء. و قرأ مجاهد و سعيد بن جبير «متكا» مخففا غير مهموز، و المتك: هو الأترجّ بلغة القبط، و منه قول الشاعر:
نشرب الإثم بالصّواع جهاراو ترى المتك بيننا مستعارا
و قيل: إن ذلك هو لغة أزد شنوءة، و قيل: حكى ذلك عن الأخفش. و قال الفراء: إنه الزّماورد «۱».
و قرأ الجمهور «متكأ» بالهمز و التشديد، و أصح ما قيل فيه إنه المجلس، و قيل: هو الطعام، و قيل: المتكأ:
كل ما أتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث. و حكى القتبى أنه يقال اتكأنا عند فلان، أى: أكلنا، و منه قول الشاعر «۲»:
فظلنا بنعمة و اتّكأناو شربنا الحلال من قلله
و يؤيد هذا قوله: وَ آتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً فإن ذلك إنما يكون لشى‏ء يأكله بعد أن يقطعه، و السكين تذكر و تؤنث،

قاله الكسائى و الفراء. قال الجوهرى: و الغالب عليه التذكير، و المراد من إعطائها لكل واحدة سكينا أن يقطعن ما يحتاج إلى التقطيع من الأطعمة، و يمكن أنها أرادت بذلك ما سيقع منهنّ من تقطيع أيديهنّ وَ قالَتِ ليوسف اخْرُجْ عَلَيْهِنَ أى فى تلك الحالة التى هنّ عليها من الاتكاء و الأكل و تقطيع ما يحتاج إلى التقطيع من الطعام. قوله: فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ أى: عظّمنه، و قيل: أمذين، و منه قول الشاعر:

إذا ما رأين الفحل من فوق قلةصهلن و أكبرن المنىّ المقطّرا «٣»

---

(١). «الزماورد» الرقاق الملفوف باللحم.

(٢). هو جميل بن معمر.

(٣). فى تفسير القرطبى: إذا ما رأين الفحل من فوق قارهصهلن و أكبرن المنى المدفقا

«القلة»: الجبيل الصغير.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٧

و قيل: حضن. قال الأزهرى. أكبرن بمعنى حضن، و الهاء للسكت؛ يقال: أكبرت المرأة؛ أى:

دخلت فى الكبر بالحيض، وقع منهنّ ذلك دهشا و فزعا لما شاهدنه من جماله الفائق، و حسنه الرائق، و من ذلك قول الشاعر:

نأتى النساء على أطهارهنّ و لانأتى النّساء إذا أكبرن إكبارا

و أنكر ذلك أبو عبيدة و غيره، و قالوا: ليس ذلك فى كلام العرب. قال الزجّاج: يقال أكبرنه و لا يقال حضنه، فليس الإكبار بمعنى الحيض. و أجاب الأزهرى فقال: يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية.

و قد زيّف هذا بأن هاء الوقف تسقط فى الوصل. و قال ابن الأنبارى: إن الهاء كناية عن مصدر الفعل، أى:

أكبرن إكبارا بمعنى حضن حيضا وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَ أى: جرحنها، و ليس المراد به القطع الذى تبين منه اليد، بل المراد به الخدش و الحزّ، و ذلك معروف فى اللغة كما قال النحاس: يقال: قطع يد صاحبه؛ إذا خدشها، و قيل: المراد بأيديهنّ هنا: أناملهنّ، و قيل: أكمامهنّ. و المعنى: أنه لما خرج يوسف عليهنّ أعظمنه و دهشن و راعهنّ حسنه حتى اضطربت أيديهنّ، فوقع القطع عليها و هنّ فى شغل عن ذلك بما دهمهنّ؛ مما تطيش عنده الأحلام، و تضطرب له الأبدان، و تزول به العقول و قلن حاشا للّه كذا قرأ أبو عمرو ابن العلاء بإثبات الألف فى حاشا. و قرأ الباقون بحذفها. و قرأ الحسن «حاش للّه» بإسكان الشين. و روى عنه أنه قرأ «حاش الإله»، و قرأ ابن مسعود و أبىّ «حاشا اللّه». قال الزّجّاج: و أصل الكلمة من الحاشية بمعنى الناحية، تقول: كنت فى حاشية فلان، أى: فى ناحيته، فقولك: حاشا لزيد من هذا، أى: تباعد منه. و قال أبو علىّ: هو من المحاشاة، و قيل: إن حاش حرف. و حاشا فعل، و كلام أهل النحو فى هذه الكلمة معروف، و معناها هنا التنزيه، كما تقول: أسى القوم حاشا زيدا، فمعنى حاشا للّه: براءة للّه و تنزيه له. قوله: ما هذا بَشَراً إعمال «ما» عمل ليس هى لغة أهل الحجاز، و بها نزل القرآن كهذه الآية، و كقوله سبحانه: ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ و أما بنو تميم فلا يعملونها عمل ليس. و قال الكوفيون: أصله ما هذا ببشر، فلما حذفت الباء انتصب. قال أحمد بن يحيى ثعلب: إذا قلت ما زيد بمنطلق، فموضع الباء موضع نصب، و هكذا سائر حروف الخفض. و أما الخليل و سيبويه و جمهور النحويين فقد أعملوها عمل ليس، و به قال البصريون، و البحث مقرّر فى كتب النحو بشواهده و حججه، و إنما نفين عنه البشرية لأنه قد برز فى صورة قد لبست من الجمال البديع ما لم يعهد على أحد من البشر، و لا أبصر المبصرون ما يقاربه فى جميع الصور البشرية؛ ثم لما نفين عنه البشرية لهذه العلة أثبتن له الملكية و إن كن لا يعرفن الملائكة؛ لكنه قد تقرّر فى الطباع أنهم على شكل فوق شكل البشر فى الذات و الصفات، و أنهم فائقون فى كل شىء، كما تقرّر أن الشياطين على العكس من ذلك، و

من هذا قول الشاعر «١»:

---

(١). قال ابن السيرافى: هو أبو وجزة يمدح عبد اللّه بن الزبير. و قال أبو عبيدة: هو لرجل من عبد القيس، جاهلى يمدح بعض الملوك (لسان العرب)

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٨ فلست لإنسيّ و لكن لملأك تنزّل من جوّ السماء يصوب

و قرأ الحسن «ما هذا بشرى» على أن الباء حرف جرّ، و الشين مكسورة، أى: ما هذا بعبد يشترى، و هذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله: إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ و اعلم أنه لا يلزم من قول النسوة هذا أن الملائكة صورهم أحسن من صور بنى آدم، فإنهنّ لم يقلنه لدليل، بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز فى طباعهنّ و ذلك ممنوع، فإن اللّه سبحانه يقول: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ «١».

و ظاهر هذا أنه لم يكن شىء مثله من أنواع المخلوقات فى حسن تقويمه و كمال صورته، فما قاله صاحب الكشاف فى هذا المقام هو من جملة تعصباته لما رسخ فى عقله من أقوال المعتزلة، على أن هذه المسألة- أعنى مسألة المفاضلة بين الملائكة و البشر- ليست من مسائل الدين فى ورد و لا صدر، فما أغنى عباد اللّه عنها و أحوجهم إلى غيرها من مسائل التكليف قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ الإشارة إلى يوسف، و الخطاب للنسوة، أى: عيرتننى فيه. قالت لهنّ هذا لما رأت افتتانهنّ بيوسف إظهارا لعذر نفسها؛ و معنى فيه: أى فى حبه؛ و قيل بالإشارة إلى الحب، و الضمير له أيضا؛ و المعنى: فذلك الحب الذى لمتننى فيه هو ذلك الحب، و الأوّل أولى. و رجحه ابن جرير. و أصل اللوم: الوصف بالقبيح. ثم لما أظهرت عذر نفسها عند النسوة بما شاهدته مما وقعن فيه عند ظهوره لهنّ ضاق صدرها عن كتم ما تجده فى قلبها من حبه، فأقرت بذلك و صرّحت بما وقع منها من المراودة له، فقالت: وَ لَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ أى استعف و امتنع مما أريده طالبا لعصمة نفسه عن ذلك، ثم توعدته إن لم يفعل ما تريده كاشفة لجلباب الحياء هاتكة لستر العفاف، فقالت:

وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ أى لئن لم يفعل ما قد أمرته به فيما تقدّم ذكره عند ما غلقت الأبواب و قالت هيت لك لَيُسْجَنَنَ أى: يعتقل فى السجن و ليكونن من الصاغرين الأذلاء لما يناله من الإهانة، و يسلب عنه من النعمة و العزّة فى زعمها، قرئ «ليكونن» بالتثقيل و التخفيف، قيل:

و التخفيف أولى؛ لأن النون كتبت فى المصحف ألفا على حكم الوقف، و ذلك لا يكون إلا فى الخفيفة، و أما ليسجنن فبالتثقيل لا غير؛ فلما سمع يوسف مقالها هذا، و عرف أنها عزمة منها مع ما قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز قال مناجيا لربه سبحانه رَبِّ السِّجْنُ أى: يا ربّ السجن الذى أوعدتنى هذه به أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ من إتيانها و الوقوع فى المعصية العظيمة التى تذهب بخير الدنيا و الآخرة.

قال الزجاج: أى دخول السجن، فحذف المضاف. و حكى أبو حاتم أن عثمان بن عفان رضى اللّه عنه قرأ «السّجن» بفتح السين، و قرأ كذلك ابن أبى إسحاق و عبد الرحمن الأعرج و يعقوب، و هو مصدر سجنه سجنا، و إسناد الدعوة إليهنّ جميعا؛ لأن النسوة رغّبنه فى مطاوعتها و خوّفنه من مخالفتها، ثم جرى على هذا فى نسبة الكيد إليهنّ جميعا، فقال: وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَ أما الكيد من امرأة العزيز فما قد قصّه اللّه سبحانه فى هذه السورة، و أما كيد سائر النسوة فهو ما تقدّم من الترغيب له فى المطاوعة و التخويف من المخالفة؛ و قيل: إنها كانت كلّ واحدة تخلو به وحدها، و تقول له: يا يوسف اقض لى حاجتى فأنا خير لك

---

(١). التين: ۴.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٩

من امرأة العزيز؛ و قيل: إنه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيما لها، أو عدولا عن التصريح إلى التعريض، و الكيد: الاحتيال، و جزم أَصْبُ إِلَيْهِنَ على أنه جواب الشرط، أى: أمل إليهنّ، من صبا يصبو؛ إذا مال و اشتاق، و منه قول الشاعر:

إلى هند صبا قلبىو هند حبّها يصبى «١»

وَ أَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ معطوف على أصب، أى: أكن ممن يجهل ما يحرم ارتكابه و يقدم عليه، أو ممن يعمل عمل الجهال. قوله: فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ لما قال: وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَ كان ذلك منه تعرّضا للدعاء، و كأنه قال: اللهمّ اصرف عنّى كيدهنّ، فالاستجابة من اللّه تعالى له هى بهذا الاعتبار، لأنه إذا صرف عنه كيدهنّ لم يقع شىء مما رمنه منه، و وجه إسناد الكيد قد تقدّم، و جملة إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ تعليل لما قبلها من صرف كيد النسوة عنه، أى: إنه هو السميع لدعوات الداعين له: العليم بأحوال الملتجئين إليه.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: قَدْ شَغَفَها قال: غلبها. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه قَدْ شَغَفَها قال: قتلها حبّ يوسف، الشغف: الحبّ القاتل، و الشعف:

حبّ دون ذلك، و الشغاف: حجاب القلب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا قَدْ شَغَفَها قال: قد علقها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَ قال:

بحديثهنّ. و أخرج ابن أبى حاتم عن سفيان فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَ قال: بعملهنّ، و كلّ مكر فى القرآن فهو عمل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ فى قوله: وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً قال:

هيأت لهنّ مجلسا، و كان سنّتهم إذا وضعوا المائدة أعطوا كلّ إنسان سكينا يأكل بها فَلَمَّا رَأَيْنَهُ قال:

فلما خرج عليهن يوسف أَكْبَرْنَهُ قال: أعظمته و نظرن إليه، و أقبلن يحززن أيديهنّ بالسكاكين و هنّ يحسبن أنهنّ يقطعن الطعام. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً قال:

أعطتهنّ أترنجا، و أعطت كل واحدة منهنّ سكينا، فلما رأين يوسف أكبرنه، و جعلن يقطعن أيديهنّ و هنّ يحسبن أنهنّ يقطعن الأترنج. و أخرج مسدّد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه المتكأ:

الأترنج، و كان يقرؤها خفيفة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد مُتَّكَأً قال:

طعاما. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر عنه قال: هو الأترنج. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: هو كلّ شىء يقطع بالسكين. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن الضحّاك مثله. و أخرج أبو الشيخ من طريق عبد العزيز ابن الوزير بن الكميت بن زيد قال حدّثنى أبى عن جدّى يقول فى قوله: فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ قال: أمنين، و أنشد:

---

(١). الشاعر هو زيد بن ضبّة.

و فى لسان العرب: .... و هند مثلها يصبى.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٠ و لما رأته الخيل من رأس شاهقصهلن و أمنين المنىّ المدفّقا

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق عبد الصمد بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس عن أبيه عن جدّه ابن عباس فى قوله: فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ قال: لما خرج عليهنّ يوسف حضن من الفرح و ذكر قول الشاعر الذى قدّمنا ذكره:

نأتی النساء لدی أطهارهنّ .... البیت و أخرج ابن أبی شیبهٔ و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن مجاهد فی قوله: أَكْبَرْنَهُ قال: أعظمنه وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَ قال: حزّا بالسكين حتى ألقينها وَ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ قال: معاذ اللّه.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن قتادهٔ فی قوله: إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قال: قلن ملك من الملائكهٔ من حسنه. و أخرج أبو الشیخ عن منبه عن أبیه قال: مات من النسوهٔ اللاتی قطعن أیدیهنّ تسع عشرهٔ امرأهٔ كمدا. و أخرج أحمد و ابن جریر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه و الحاكم عن أنس عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «أعطی یوسف و أمّه شطر الحسن»، و قد وردت روایات عن جماعهٔ من السلف فی وصف حسن یوسف؛ و المبالغهٔ فی ذلك، ففی بعضها أنه أعطی نصف الحسن، و فی بعضها ثلثه، و فی بعضها ثلثیه. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن ابن عباس فَاسْتَعْصَمَ قال:

امتنع. و أخرج ابن جریر و أبو الشیخ عن قتادهٔ فَاسْتَعْصَمَ قال: فاستعصی. و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن ابن زید فی قوله: وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَ قال: إن لا تكن منك أنت القوی و المنعهٔ لا تكن منی و لا عندی. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ أَصْبُ إِلَيْهِنَ قال: أتبعهنّ. و أخرج أبو الشیخ عن ابن عباس قال: أطاوعهنّ.

[سورهٔ يوسف (١٢): الآيات ٣٥ الى ٤٠]

ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥) وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَ قالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (٣٧) وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)

ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠)

معنی بَدا لَهُمْ ظهر لهم، و الضمیر للعزیز و أصحابه الذین یدبرون الأمر معه و یشیرون علیه، و أما فاعل بَدا لَهُمْ فقال سیبویه هو لیسجننه، أی: ظهر لهم أن یسجنوه. قال المبرد: و هذا غلط لأن الفاعل

فتح القدير، ج٣، ص: ٣١

لا یكون جملهٔ، و لكن الفاعل ما دلّ علیه «بدا» و هو المصدر، كما قال الشاعر:

و حقّ لمن أبو موسی أبوه‌یوفّقه الذی نصب الجبالا

أی: و حقّ الحقّ، فحذف الفاعل لدلالهٔ الفعل علیه، و قیل: الفاعل المحذوف هو رأی؛ أی: و ظهر لهم رأی لم یكونوا یعرفونه من قبل، و هذا الفاعل حذف لدلالهٔ لیسجننه علیه، و اللام فی لیسجننه جواب قسم محذوف علی تقدیر القول: أی ظهر لهم من بعد ما رأوا الآیات قائلین: و اللّه لیسجننه. و قرئ «لتسجننه» بالمثناهٔ الفوقیهٔ علی الخطاب، إما للعزیز و من معه، أو له وحده علی طریق التعظیم، و الآیات؛ قیل: هی القمیص و شهادهٔ الشاهد و قطع الأیدی؛ و قیل: هی البركات التی فتحها اللّه علیهم بعد وصول یوسف إلیهم، و لم یجد ذلك فیهم، بل كانت امرأته هی الغالبهٔ علی رأیه، الفاعلهٔ لما یطابق هواها فی یوسف، و إنفاذ ما تقدّم منها من الوعید له بقولها: وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ قیل:

و سبب ظهور هذا الرأی لهم فی سجن یوسف أنهم أرادوا ستر القالهٔ، و كتم ما شاع فی الناس من قصهٔ امرأهٔ العزیز معه؛ و قیل:

إنّ العزيز قصد بسجنه الحيلولة بينه و بين امرأته، لما علم أنها قد صارت بمكان من حبّه لا تبالى معه بحمل نفسها عليه على أىّ صفة كانت. و معنى قوله: حَتَّى حِينٍ إلى مدّة غير معلومة كما قاله أكثر المفسرين، و قيل: إلى انقطاع ما شاع فى المدينة. و قال سعيد بن جبير: إلى سبع سنين، و قيل:

إلى خمس، و قيل: إلى ستة أشهر، و قد تقدّم فى البقرة الكلام فى تفسير الحين، و حتى بمعنى إلى. قوله:

وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ فى الكلام حذف متقدّم عليه، و التقدير: و بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين فسجنوه، و دخل معه السجن فتيان، و مع للمصاحبة، و فتيان تثنية فتى، و ذلك يدلّ على أنهما عبدان له، و يحتمل أن يكون الفتى اسما للخادم و إن لم يكن مملوكا؛ و قد قيل: إن أحدهما خبّاز الملك، و الآخر ساقيه، و قد كانا وضعا للملك سمّا لما ضمن لهما أهل مصر مالا فى مقابلة ذلك، ثم إن الساقى رجع عن ذلك و قال للملك: لا تأكل الطعام فإنه مسموم، و قال الخباز: لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقى: اشرب فشرب فلم يضرّه، و قال للخباز: كل، فأبى، فجرّب الطعام على حيوان فهلك مكانه فحبسهما، و كان دخولهما السجن مع دخول يوسف، و قيل: قبله، و قيل: بعده. قال ابن جرير:

إنهما سألا يوسف عن علمه فقال: إنى أعبر الرؤيا، فسألاه عن رؤياهما كما قصّ اللّه سبحانه: قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً أى رأيتنى، و التعبير بالمضارع لاستحضار الصورة. و المعنى: إنى أرانى أعصر عنبا، فسمّاه باسم ما يؤول إليه لكونه المقصود من العصر. و فى قراءة ابن مسعود أعصر عنبا. قال الأصمعى:

أخبرنى المعتمر بن سليمان أنه لقى أعرابيا و معه عنب، فقال له: ما معك؟ فقال: خمر. و قيل: معنى أعصر خمرا؛ أى: عنب خمر، فهو على حذف المضاف، و هذا الذى رأى هذه الرؤيا هو الساقى، و هذه الجملة مستأنفة بتقدير سؤال، و كذلك الجملة التى بعدها و هى: وَ قالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً ثم وصف الخبز هذا بقوله: تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ و هذا الرائى لهذه الرؤيا هو الخباز، ثم قالا- ليوسف جميعا بعد أن قصّا رؤياهما عليه: نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ أى بتأويل ما قصصناه عليك من مجموع المرئيين، أو بتأويل

فتح القدير، ج‏3، ص: 32

المذكور لك من كلامنا، و قيل: إن كل واحد منهما قال له ذلك عقب قصّ رؤياه عليه، فيكون الضمير راجعا إلى ما رآه كل واحد منهما؛ و قيل: إن الضمير فى بتأويله موضوع موضع اسم الإشارة، و التقدير بتأويل ذلك إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ أى من الذين يحسنون عبارة الرؤيا، و كذا قال الفراء: إن معنى من المحسنين من العالمين الذين أحسنوا العلم. و قال ابن إسحاق: من المحسنين إلينا إن فسرت ذلك؛ أو من المحسنين إلى أهل السجن، فقد روى أنه كان كذلك، و جملة قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و معنى ذلك أنه يعلم شيئا من الغيب، و أنه لا يأتيهما إلى السجن طعام إلا أخبرهما بماهيته قبل أن يأتيهما، و هذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصّاه عليه، بل جعله عليه السلام مقدّمة قبل تعبيره لرؤياهما بيانا لعلوّ مرتبته فى العلم، و أنه ليس من المعبّرين الذين يعبّرون الرؤيا عن ظنّ و تخمين، فهو كقول عيسى عليه السلام: وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ «1» و إنما قال يوسف عليه السلام لهما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان باللّه و الخروج من الكفر؛ و معنى ترزقانه:

يجرى عليهما من جهة الملك أو غيره، و الجملة صفة الطعام، أو يرزقكما اللّه سبحانه، و الاستثناء بقوله:

إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ مفرّغ من أعمّ الأحوال، أى: لا يأتيكما طعام فى حال من الأحوال إلا حال ما نبأتكما، أى: بيّنت لكما ماهيته و كيفيته قبل أن يأتيكما، و سمّاه تأويلا بطريق المشاكلة، لأن الكلام فى تأويل الرؤيا، أو المعنى: إلا نبأتكما بما يؤول إليه الكلام من مطابقة ما أخبر كما به للواقع، و الإشارة بقوله:

ذلِكُما إلى التأويل، و الخطاب للسّائلين له عن تعبير رؤياهما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي بما أوحاه إلىّ و ألهمنى إياه لا من قبيل الكهانة و التّنجيم و نحو ذلك ممّا يكثر فيه الخطأ، ثم بين لهما أن ذلك الذى ناله من هذه الرتبة العلية و العلوم الجمة هو بسبب ترك الملّة التى لا يؤمن أهلها بالله و لا بالآخرة و اتباعه لملّة الأنبياء من آبائه فقال: إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ و هو كلام مستأنف يتضمّن التّعليل لما قبله، و المراد بالترك هو عدم التلبّس بذلك من الأصل، لا أنه قد كان تلبس به، ثم تركه كما يدلّ عليه قوله: ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ ثم وصف هؤلاء القوم بما يدلّ على تصلبهم فى الكفر و تهالكهم عليه. فقال: وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ أى: هم مختصّون بذلك دون غيرهم لإفراطهم فى الكفر بالله. و قوله: وَ اتَّبَعْتُ معطوف على تركت، مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ و سمّاهم آباء جميعا لأنّ الأجداد آباء، و قدّم الجد الأعلى، ثم الجدّ الأقرب ثم الأب؛ لكون إبراهيم هو أصل هذه الملّة التى كان عليها أولاده، ثم تلقاها عنه إسحاق ثم يعقوب، و هذا منه عليه السلام لترغيب صاحبيه فى الإيمان بالله ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ أى ما صحّ لنا ذلك فضلا عن وقوعه، و الضّمير فى لنا له و للأنبياء المذكورين، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الإيمان المفهوم من قوله ما كان لنا أن نشرك بالله، و مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا خبر اسم الإشارة، أى: ناشئ من تفضلات الله علينا و لطفه بنا بما جعله لنا من النبوّة المتضمّنة للعصمة عن معاصيه، و من فضل الله على الناس كافة ببعثه الأنبياء إليهم، و هدايتهم إلى ربّهم، و تبيين

---

(١). آل عمران: ٤٩.

طرائق الحق لهم، وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ الله سبحانه على نعمه التى أنعم بها عليهم فيؤمنون به و يوحّدونه و يعملون بما شرعه لهم. قوله: يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ جعلهما مصاحبين للسجن لطول مقامهما فيه، و قيل: المراد: يا صاحبىّ فى السجن؛ لأن السجن ليس بمصحوب بل مصحوب فيه، و أن ذلك من باب: يا سارق الليلة. و على الأوّل يكون من باب قوله:

أَصْحابُ الْجَنَّةِ* أَصْحابُ النَّارِ* و الاستفهام للإنكار مع التقريع و التوبيخ، و معنى التفرّق هنا هو التفرّق فى الذّوات و الصّفات و العدد، أى: هل الأرباب المتفرقون فى ذواتهم المختلفون فى صفاتهم المتنافون فى عددهم خير لكما يا صاحبى السجن، أم الله المعبود بحق المتفرّد فى ذاته و صفاته الذى لا ضدّ له و لا ندّ و لا شريك، القهار الذى لا يغالبه مغالب و لا يعانده معاند؟ أورد يوسف عليه السلام على صاحبى السجن هذه الحجّة القاهرة على طريق الاستفهام، لأنهما كانا ممن يعبد الأصنام؛ و قد قيل: إنه كان بين أيديهما أصنام يعبدونها عند أن خاطبهما بهذا الخطاب، و لهذا قال لهما: ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أى: إلا أسماء فارغة سمّيتموها و لا مسمّيات لها، و إن كنتم تزعمون أن لها مسمّيات، و هى الآلهة التى تعبدونها، لكنها لما كانت لا تستحق التّسمية بذلك صارت الأسماء كأنها لا مسمّيات لها؛ و قيل: المعنى: ما تعبدون من دون الله إلا مسمّيات أسماء سمّيتموها أنتم و آباؤكم من تلقاء أنفسكم، و ليس لها من الإلهية شىء إلا مجرد الأسماء؛ لكونها جمادات لا تسمع و لا تبصر و لا تنفع و لا تضرّ، و إنما قال: ما تَعْبُدُونَ على خطاب الجمع و كذلك ما بعده من الضمائر؛ لأنه قصد خطاب صاحبى السجن و من كان على دينهم، و مفعول سميتموها الثانى محذوف، أى: سمّيتموها آلهة من عند أنفسكم ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها أى بتلك التسمية مِنْ سُلْطانٍ من حجة تدلّ على صحّتها إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أى ما الحكم إلا لله فى العبادة، فهو الذى خلقكم و خلق هذه الأصنام التى جعلتموها معبودة بدون حجة و لا برهان، و جملة أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ مستأنفة، و المعنى: أنه أمركم بتخصيصه بالعبادة دون غيره مما تزعمون أنه معبود، ثم بيّن لهم أن عبادته وحده دون غيره هى دين الله الذى لا دين غيره فقال: ذلِكَ أى

تخصيصه بالعبادة الدِّينُ الْقَيِّمُ أى:
المستقيم الثابت وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أن ذلك هو دينه القويم، و صراطه المستقيم، لجهلهم و بعدهم عن الحقائق.
و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة قال: سألت ابن عباس عن قوله: ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ فقال: ما سألنى عنها أحد قبلك، من الآيات: قدّ القميص، و أثرها فى جسده، و أثر السّكين، و قالت امرأة العزيز: إن أنت لم تسجنه ليصدقنه الناس. و أخرج أبو الشيخ عن ابن زيد قال:
من الآيات كلام الصّبى. و أخرج ابن جرير عن قتادة قال: الآيات حزّهنّ أيديهنّ، و قدّ القميص.
و أقول: إن كان المراد بالآيات: الآيات الدالة على براءته فلا يصحّ عدّ قطع أيدى النسوة منها، لأنه وقع منهنّ ذلك لما حصل لهنّ من الدهشة عند ظهوره لهنّ، مع ما ألبسه اللّه سبحانه من الجمال الذى تنقطع عند مشاهدته عرى الصبر و تضعف عند رؤيته قوى التجلد، و إن كان المراد الآيات الدالة على أنه قد أعطى من
فتح القدير، ج۳، ص: ۳۴
الحسن ما يسلب عقول المبصرين، و يذهب بإدراك الناظرين، فنعم يصح عدّ قطع الأيدى من جملة الآيات، و لكن ليست هذه الآيات هى المرادة هنا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: عوقب يوسف ثلاث مرات؛ أما أوّل مرة فبالحبس لما كان من همه بها، و الثانية لقوله: اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ «۱» عوقب بطول الحبس، و الثالثة حيث قال: أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ «۲»، فاستقبل فى وجهه إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ «۳».
و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما خازن الملك على طعامه، و الآخر ساقيه على شرابه. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً قال:
عنبا. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ قال: عبارته. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قال: كان إحسانه فيما ذكر لنا أنه كان يعزّى حزينهم، و يداوى مريضهم، و رأوا منه عبادة و اجتهادا فأحبوه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و البيهقى فى الشعب، عن الضحّاك قال: كان إحسانه أنه إذا مرض إنسان فى السجن قام عليه، و إذا ضاق عليه المكان أوسع له، و إذا احتاج جمع له. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: دعا يوسف لأهل السجن فقال: اللهمّ لا تعمّ عليهم الأخبار، و هوّن عليهم مرّ الأيام.
و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن جرير فى قوله: لا يَأْتِيكُما طَعامٌ الآية قال: كره العبارة لهما فأجابهما بغير جوابهما ليريهما أن عنده علما، و كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما معلوما فأرسل به إليه، فقال يوسف لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إلى قوله: يَشْكُرُونَ فلم يدعه صاحبا الرؤيا حتى يعبر لهما، فكره العبارة فقال: يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ إلى قوله: وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ قال: فلم يدعاه فعبر لهما.
و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَ عَلَى النَّاسِ قال: إن المؤمن ليشكر ما به من نعمة اللّه، و يشكر ما بالناس من نعم اللّه، ذكر لنا أن أبا الدرداء كان يقول: يا ربّ شاكر نعمة غير منعم عليه لا يدرى، و يا ربّ حامل فقه غير فقيه. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ الآية قال: لما عرف يوسف أن أحدهما مقتول دعاهما إلى حظّهما من ربّهما و إلى نصيبهما من آخرتهما. و أخرج أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله: ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ قال: العدل، فقال:

(۱). يوسف: ۴۲.

(۲). يوسف: ۷۰.

(۳). يوسف: ۷۷.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۵

[سورة يوسف (۱۲): الآيات ۴۱ الى ۴۲]

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (۴۱) وَ قالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (۴۲)

هذا هو بيان ما طلباه منه من تعبير رؤياهما، و المراد بقوله: أَمَّا أَحَدُكُما هو السّاقى، و إنما أبهمه لكونه مفهوما، أو لكراهة التصريح للخباز بأنه الذى سيصلب فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً أى مالكه، و هى عهدته التى كان قائما بها فى خدمة الملك، فكأنه قال: أما أنت أيها الساقى فستعود إلى ما كنت عليه و يدعو بك الملك و يطلقك من الحبس وَ أَمَّا الْآخَرُ و هو الخباز فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ تعبيرا لما رآه من أنه يحمل فوق رأسه خبزا فتأكل الطير منه قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ و هو ما رأياه و قصاه عليه، يقال استفتاه: إذا طلب منه بيان حكم شىء سأله عنه مما أشكل عليه، و هما قد سألاه تعبير ما أشكل عليهما من الرؤيا وَ قالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا أى قال يوسف، و الظانّ هو أيضا يوسف، و المراد بالظنّ العلم لأنه قد علم من الرؤيا نجاة الشرابى و هلاك الخباز، هكذا قال جمهور المفسرين، و قيل: الظاهر على معناه، لأن عابر الرؤيا إنما يظن ظنا، و الأوّل أولى و أنسب بحال الأنبياء، و لا سيما و قد أخبر عن نفسه عليه السلام بأنه قد أطلعه اللّه على شىء من علم الغيب كما فى قوله: لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ «۱» الآية و جملة اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ هى مقول القول، أمره بأن يذكره عند سيده، و يصفه بما شاهده منه من جودة التعبير و الاطلاع على شىء من علم الغيب، و كانت هذه المقالة منه عليه السلام صادرة عن ذهول و نسيان عن ذكر اللّه بسبب الشيطان، فيكون ضمير المفعول فى أنساه عائدا إلى يوسف، هكذا قال بعض المفسرين، و يكون المراد بربه فى قوله: ذِكْرَ رَبِّهِ هو اللّه سبحانه، أى: إنساء الشيطان يوسف ذكر اللّه تعالى فى تلك الحال وَ قالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا يذكره عند سيده ليكون ذلك سببا لانتباهه على ما أوقعه من الظلم البين عليه بسجنه بعد أن رأى من الآيات ما يدل على براءته. و ذهب كثير من المفسّرين إلى أن الذى أنساه الشيطان ذكر ربّه هو الذى نجا من الغلامين؛ و هو الشرابى، و المعنى: إنساء الشيطان الشرابى ذكر سيده؛ أى: ذكره لسيده فلم يبلغ إليه ما أوصاه به يوسف من ذكره عند سيده، و يكون المعنى: فأنساه الشيطان ذكر إخباره بما أمره به يوسف مع خلوصه من السجن و رجوعه إلى ما كان عليه من القيام بسقى الملك، و قد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء. و أجيب بأن النسيان وقع من يوسف، و نسبته إلى الشيطان على طريق المجاز، و الأنبياء غير معصومين عن النسيان إلا فيما يخبرون به عن اللّه سبحانه، و قد صحّ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكّرونى». و رجح أيضا بأن النسيان ليس بذنب، فلو كان الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه فى السجن بضع سنين. و أجيب بأن النسيان هنا بمعنى الترك، و أنه عوقب بسبب استعانته بغير اللّه

---

(۱). يوسف: ۳۷.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۶

سبحانه، و يؤيد رجوع الضمير إلى يوسف ما بعده من قوله: فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ و يؤيد رجوعه إلى الذى نجا من

الغلامين قوله فيما سيأتى وَ قالَ الَّذِى نَجا مِنْهُما وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ سنة فَلَبِثَ أى يوسف فِى السِّجْنِ بسبب ذلك القول الذى قاله للذى نجا من الغلامين، أو بسبب ذلك الإنساء بِضْعَ سِنِينَ البضع: ما بين الثلاث إلى التسع كما حكاه الهروى عن العرب. و حكى عن أبى عبيدة أن البضع:

ما دون نصف العقد، يعنى ما بين واحد إلى أربعة؛ و قيل: ما بين ثلاث إلى سبع، حكاه قطرب. و حكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. و قد اختلف فى تعيين قدر المدّة التى لبث فيها يوسف فى السجن فقيل:

سبع سنين، و قيل: ثنتا عشرة سنة، و قيل: أربع عشرة سنة، و قيل: خمس سنين.

و قد أخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله: أَمَّا أَحَدُكُما قال: أتاه فقال: رأيت فيما يرى النائم أنى غرست حبة من عنب فنبتت، فخرج فيه عناقيد فعصرتهنّ ثم سقيتهنّ الملك؛ فقال: تمكث فى السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج فتسقيه خمرا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن مسعود قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئا، إنما تحالما ليجرّبا علمه، فلما أوّل رؤياهما قالا: إنما كنا نلعب و لم نر شيئا، فقال: قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ يقول: وقعت العبارة فصار الأمر على ما عبر يوسف. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و أبو الشيخ عن أبى مجلز قال: كان أحد اللذين قصّا على يوسف الرؤيا كاذبا. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن سابط وَ قالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ قال: عند ملك الأرض. و أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب العقوبات و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو لم يقل يوسف الكلمة التى قال ما لبث فى السجن طول ما لبث حيث يبتغى الفرج من عند غير اللّه». و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و أبو الشيخ عن عكرمة مرفوعا نحوه و هو مرسل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا نحوه. و أخرج أحمد فى الزهد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم أبو الشيخ عن الحسن مرفوعا نحوه، و هو مرسل. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فذكر نحوه و هو مرسل أيضا.

و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أنس قال: أوحى إلى يوسف: من استنقذك من القتل حين همّ إخوتك أن يقتلوك؟ قال: أنت يا ربّ، قال: فمن استنقذك من الجبّ إذ ألقوك فيه؟ قال: أنت يا ربّ، قال: فمن استنقذك من المرأة إذ همّت بك؟ قال: أنت يا ربّ، قال: فما لك نسيتنى و ذكرت آدميا؟ قال: جزعا و كلمة تكلّم بها لسانى، قال:

فوعزتى لأخلدنك فى السجن بضع سنين، فلبث فيه سبع سنين. و قد اختلف السلف فى تقدير مدّة لبثه فى السجن على حسب ما قدّمنا ذكره، فلم نشتغل ها هنا بذكر من قال بذلك و من خرّجه.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۷

[سورة يوسف (۱۲): الآيات ۴۳ الى ۴۹]

وَ قالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ (۴۳) قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَ ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (۴۴) وَ قالَ الَّذِى نَجا مِنْهُما وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (۴۵) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِى سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (۴۶) قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ (۴۷)

ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ (۴۸) ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَ

فِيهِ يَعْصِرُونَ (۴۹)

المراد بالملک هنا: هو الملک الأکبر، و هو الريان بن الوليد الذى کان العزيز وزيرا له، رأى فى نومه لما دنا فرج يوسف عليه السلام أنه خرج من نهر يابس سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ جمع سمين و سمينة، فى إثرهنّ سبع عجاف، أى: مهازيل، و قد أقبلت العجاف على السمان فأكلتهنّ. و المعنى: إنى رأيت، و لكنه عبر بالمضارع لاستحضار الصورة، و كذلک قوله: يَأْكُلُهُنَ عبر بالمضارع للاستحضار، و العجاف جمع عجفاء، و قياس جمعه عجف؛ لأن فعلاء و أفعل لا تجمع على فعال، و لكنه عدل عن القياس حملا على سمان وَ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ معطوف على سَبْعَ بَقَراتٍ و المراد بقوله: خُضْرٍ أنه قد انعقد حبها، و اليابسات التى قد بلغت حدّ الحصاد. و المعنى: و أرى سبعا أخر يابسات، و كان قد رأى أن السبع السنبلات اليابسات قد أدركت الخضر و التوت عليها حتى غلبتها، و لعل عدم التعرّض لذكر هذا فى النظم القرآنى للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات يا أَيُّهَا الْمَلَأُ خطاب للأشراف من قومه أَفْتُونِي فِي رُءْيايَ أى: أخبرونى بحكم هذه الرؤيا إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ أى: تعلمون عبارة الرؤيا، و أصل العبارة مشتقة من عبور النهر، فمعنى عبرت النهر: بلغت شاطئه، فعابر الرؤيا يخبر بما يؤول إليه أمرها. قال الزّجّاج: اللام فى للرؤيا للتبيين؛ أى إن كنتم تعبرون، ثم بيّن فقال: «للرؤيا»، و قيل: هو للتقوية، و تأخير الفعل العامل فيه لرعاية الفواصل، و جملة قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و الأضغاث: جمع ضغث، و هو كلّ مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما؛ و المعنى: أخاليط أحلام، و الأحلام: جمع حلم؛ و هى الرؤيا الكاذبة التى لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس و وسواس الشيطان، و الإضافة بمعنى من، و جمعوا الأحلام و لم يكن من الملک إلا رؤيا واحدة مبالغة منهم فى وصفها بالبطلان، و يجوز أن يكون رأى مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصّه اللّه علينا وَ ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ قال الزّجّاج: المعنى بتأويل الأحلام المختلطة، نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له، لا مطلق العلم بالتأويل؛ و قيل: إنهم نفوا عن أنفسهم علم التعبير مطلقا، و لم يدّعوا أنه لا تأويل لهذه الرؤيا؛ و قيل: إنهم قصدوا محوها من صدر الملک حتى لا يشتغل بها، و لم يكن ما ذكروه من نفى العلم حقيقة وَ قالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما أى: من الغلامين، و هو الساقى الذى قال له يوسف: اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ بالدال المهملة على قراءة الجمهور، و هى القراءة

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۸

الفصيحة، أى: تذكر الساقى يوسف و ما شاهده منه من العلم بتعبير الرؤيا. و قرئ بالمعجمة؛ و معنى بَعْدَ أُمَّةٍ: بعد حين، و منه: إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ «۱» أى: إلى وقت. قال ابن درستويه: و الأمة لا تكون على الحين إلا على حذف مضاف، و إقامة المضاف إليه مقامه، كأنه قال: و اللّه أعلم و ادكر بعد حين أمة أو بعد زمن أمة، و الأمة: الجماعة الكثيرة من الناس. قال الأخفش: هو فى اللفظ واحد، و فى المعنى جمع، و كل جنس من الحيوان أمة. و قرأ ابن عباس و عكرمة «بعد أمة» بفتح الهمزة و تخفيف الميم: أى بعد نسيان، و منه قول الشاعر:

أمهت «۲» و كنت لا أنسى حديثاكذاک الدّهر يودى بالعقول

و يقال: أمه يأمه أمها: إذا نسى. و قرأ الأشهب العقيلى «بعد إمة» بكسر الهمزة؛ أى بعد نعمة؛ و هى نعمة النجاة أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ أى أخبركم به بسؤالى عنه من له علم بتأويله، و هو يوسف فَأَرْسِلُونِ خاطب الملک بلفظ التعظيم، أو خاطبه و من كان عنده من الملأ، طلب منهم أن يرسلوه إلى يوسف ليقصّ عليه رؤيا الملک حتى يخبره بتأويلها فيعود بذلک إلى الملک يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا أى: يا يوسف، و فى الكلام حذف، و التقدير: فأرسلوه إلى يوسف فسار إليه، فقال له: يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ إلى آخر الكلام؛ و المعنى: أخبرنا فى رؤيا من رأى سبع بقرات إلخ و ترک ذكر ذلک اكتفاء بما هو واثق به من فهم يوسف بأن ذلک رؤيا، و أن المطلوب منه تعبيرها لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ أى: إلى الملک و من عنده من الملأ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ما تأتى به من

تأويل هذه الرؤيا أو يعلمون فضلك و معرفتك لفنّ التعبير، و جملة قالَ تَزْرَعُونَ إلخ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كغيرها مما يرد هذا المورد سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً أى متوالية متتابعة، و هو مصدر، و قيل: هو الحال، أى: دائبين، و قيل: صفة لسبع، أى: دائبة، و حكى أبو حاتم عن يعقوب أنه قرأ دَأَباً بتحريك الهمزة، و كذا روى حفص عن عاصم و هما لغتان، قال الفرّاء: حرّك لأن فيه حرفا من حروف الحلق، و كذلك كلّ حرف فتح أوّله و سكن ثانيه فتثقيله جائز فى كلمات معروفة.

فعبّر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان بسبع سنين فيها خصب، و العجاف بسبع سنين فيها جدب، و هكذا عبر السبع السنبلات الخضر و السبع السنبلات اليابسات، و استدل بالسبع السنبلات الخضر على ما ذكره فى التعبير من قوله: فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ أى ما حصدتم فى كلّ سنة من السّنين المخصبة فذروا ذلك المحصود فى سنبله و لا تفصلوه عنها لئلا يأكله السوس، إلا قليلا مما تأكلون فى هذه السنين المخصبة، فإنه لا بدّ لكم من فصله عن سنبله و إخراجه عنها، و اقتصر على استثناء المأكول دون ما يحتاجون إليه من البذر الذى يبذرونه فى أموالهم لأنه قد علم من قوله تزرعون ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أى من بعد السبع السنين المخصبة سَبْعٌ شِدادٌ أى سبع سنين مجدبة يصعب أمرها على الناس يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَ من تلك الحبوب المتروكة فى سنابلها، و إسناد الأكل إلى السنين مجاز، و المعنى: يأكل الناس فيهنّ أو يأكل أهلهنّ ما

---

(١). هود: ٨.

(٢). فى تفسير القرطبى (٩/ ٢٠١): أمهت.

قدمتم لهنّ، أى: ما ادخرتم لأجلهنّ فهو من باب: نهاره صائم، و منه قول الشاعر:

نهارك يا مغرور سهو و غفلةو ليلك نوم و الرّدى لك لازم

إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ أى مما تحبسون من الحب لتزرعوا به؛ لأنّ فى استبقاء البذر تحصين الأقوات.

و قال أبو عبيدة: معنى تحصنون: تحرزون، و قيل: تدّخرون، و المعنى واحد. قوله: ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ أى من بعد السّنين المجدبات، فالإشارة إليها، و العام السنة فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ من الإغاثة أو الغوث، و الغيث المطر، و قد غاث الغيث الأرض، أى أصابها، و غاث اللّه البلاد يغيثها غوثا: أمطرها، فمعنى يغاث الناس: يمطرون وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ أى يعصرون الأشياء التى تعصر كالعنب و السمسم و الزيتون، و قيل: أراد حلب الألبان؛ و قيل: معنى يعصرون: ينجون. مأخوذ من العصرة، و هى المنجاة. قال أبو عبيدة: و العصر بالتحريك الملجأ و المنجاة، و منه قول الشاعر:

صاديا يستغيث غير مغاثو لقد كان عصرة المنجود

و اعتصرت بفلان: التجأت به. و قرأ حمزة و الكسائى (تعصرون) بناء الخطاب. و قرئ «يعصرون» بضم حرف المضارعة و فتح الصاد، و معناه يمطرون، و منه قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً «١».

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: قال يوسف للساقى: اذكرنى عند ربك؛ أى:

الملك الأعظم و مظلمتى و حبسى فى غير شى‏ء، فقال: أفعل؛ فلما خرج الساقى ردّ على ما كان عليه، و رضى عنه صاحبه، و أنساه الشيطان ذكر الملك الذى أمره يوسف أن يذكره له، فلبث يوسف بعد ذلك فى السجن بضع سنين؛ ثم إن الملك ريان بن الوليد رأى رؤياه التى أرى فيها، فهالته، و عرف أنها رؤيا واقعة، و لم يدر ما تأويلها، فقال للملأ حوله من أهل مملكته: إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ فلما سمع من الملك ما سمع منه و مسألته عن تأويلها ذكر يوسف ما كان عبر له و لصاحبه و ما جاء من ذلك على ما قاله فقال: أنا أنبئكم بتأويله. و أخرج ابن جرير عن ابن

عباس فى قوله: أَضْغاثُ أَحْلامٍ يقول: مشتبهة. و أخرج أبو يعلى و ابن جرير عنه قال: من الأحلام الكاذبة. و أخرج ابن جرير عن الضحّاك مثله. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ قال: بعد حين. و أخرج ابن جرير عن مجاهد و الحسن و عكرمة و عبد اللّه بن كثير و السدّى مثله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: بعد سنين. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: بعد أمة من الناس. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ الآية، قال: أما السّمان فسنون فيها خصب، و أما العجاف فسنون مجدبة، و سبع سنبلات خضر هى السّنون المخاصيب تخرج الأرض نباتها و زرعها و ثمارها، و أخر يابسات المحول الجدوب لا تنبت شيئا.

---

(۱). النبأ: ۱۴.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۰

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لقد عجبت من يوسف و كرمه و صبره، و اللّه يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف و السمان، و لو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط عليهم أن يخرجونى، و لقد عجبت من يوسف و صبره و كرمه و اللّه يغفر له حين أتاه الرسول، و لو كنت مكانه لبادرتهم الباب، و لكنه أراد أن يكون له العذر». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ يقول: تخزنون، و فى قوله:

وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ يقول: الأعناب و الدهن. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ يقول: يصيبهم فيه غيث يَعْصِرُونَ يقول: يعصرون فيه العنب و يعصرون فيه الزبيب و يعصرون من كل الثمرات. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه أيضا وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ قال: يحتلبون. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عنه أيضا ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ قال: أخبرهم بشىء لم يسألوه عنه كأنّ اللّه قد علمه إياه فيه يغاث الناس بالمطر. و فيه يعصرون السّمسم دهنا، و العنب خمرا، و الزيتون زيتا.

[سورة يوسف (۱۲): الآيات ۵۰ الى ۵۷]

وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (۵۰) قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (۵۱) ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ (۵۲) وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵۳) وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ (۵۴)

قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (۵۵) وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَ لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۵۶) وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۵۷)

قوله: وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فى الكلام حذف قبل هذا، و التقدير: فذهب الرسول إلى الملك فأخبره بما أخبره به يوسف من تعبير تلك الرؤيا، و قال الملك لمن بحضرته ائتونى به، أى: بيوسف، رغب إلى رؤيته و معرفة حاله بعد أن علم من فضله ما علمه من وصف الرسول له و من تعبيره لرؤياه فَلَمَّا جاءَهُ أى جاء إلى يوسف الرَّسُولُ و استدعاه إلى حضرة الملك، و أمره

بـالخروج من السـجن قـالَ يوسف للرسول ارْجِعْ إِلى رَبِّکَ أی سـيدک فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِی قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَ أمره بأن يسأل الملک عن ذلک و توقف عن الخروج من السجن، و لم يسارع إلى إجابة الملک، ليظهر للناس براءة ساحته و نزاهة جانبه، و أنه ظلم بکيد امرأة العزيز ظلما بينا، و لقد أعطى عليه السلام من الحلم و الصبر و الأناة ما تضيق الأذهان عن تصوّره، و لهذا ثبت فی الصحيح من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «و لو لبثت فی السجن ما لبث يوسف لأجبت الدّاعی» يعنی الرسول الذی جاء يدعوه إلى الملـک. قـال ابن عطيـة: کـان هـذا الفعـل من يوسف أنـاة و صبرا، و طلبـا لبراءة ساحته، و ذلک أنه خشـی أن يخرج و ينال من الملک مرتبة، و يسکت عن أمر ذنبه، فيراه الناس

فتح القدير، ج٣، ص: ۴۱

بتلک العين يقولون هـذا الـذی راود امرأة العزيز، و إنما قال: فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ و سـکت عن امرأة العزيز رعايـة لـذمام الملک العزيز، أو خوفا منه من کيدها و عظيم شرّها، و ذکر السؤال عن تقطيع الأيدی و لم يذکر مراودتهنّ له، تنزها منه عن نسبة ذلک إليهنّ، و لذلک لم ينسب المراودة فيما تقدّم إلى امرأة العزيز إلا بعد أن رمته بدائها و انسلت. و قد اکتفى هنا بالإشارة الإجمالية بقوله: إِنَّ رَبِّی بِکَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ فجعل علم اللّه سـبحانه بما وقع عليه من الکيد منهنّ مغنيا عن التصريح، و جملة قالَ ما خَطْبُکُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، کأنه قيل: فماذا قال الملک بعد أن أبلغه الرسول ما قال يوسف؟

و الخطب: الشأن العظيم الذی يحق له أن يخاطب فيه صاحبه خاصة. و المعنى: ما شأنکنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه. و قد تقدّم معنى المراودة، و إنما نسب إليهنّ المراودة؛ لأن کل واحدة منهن وقع منها ذلک کما تقدم، و من جملة من شمله خطاب الملک امرأة العزيز؛ أو أراد بنسبة ذلـک إليهنّ وقوعه منهنّ فی الجملـة کما کان من امرأة العزيز تحاشـيا عن التصـريح منه بنسـبة ذلک إليها لکونها امرأة وزيره و هو العزيز، فأجبن عليه بقولهنّ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ أی معاذ اللّه ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ أی من أمر سيئ ينسب إليه، فعنـد ذلـک قـالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ منزهـة لجـانبه، مقرّة على نفسـها بـالمراودة له الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُ أی تبين و ظهر. و أصـله حصص، فقيل حصحص کما قيل فی کببوا کبکبوا، قاله الزّجّاج، و أصل الحصّ: استئصال الشیء، يقال:

حصّ شعره: إذا استأصله، و منه قول أبی قيس بن الأسلت:

قد حصّت البيضة رأسی فماأطعم نوما غير تهجاع «١»

و المعنى أنه انقطع الحق عن الباطل بظهوره و بيانه، و منه:

فمن مبلغ عنّی خداشا فإنّه کذوب إذا ما حصحص الحقّ ظالم

و قيـل: هو مشـتق من الحصّـة. و المعنى: بانت حصّـة [الحق من حصـة] «٢» الباطـل. قـال الخليل: معناه ظهر الحق بعـد خفائه، ثم أوضـحت ذلک بقولها: أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ و لم تقع منه المراودة لی أصـلا وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فيما قاله من تبرئـة نفسه و نسـبة المراودة إليهـا، و أرادت ب الْآنَ زمان تکلمها بهـذا الکلام. قوله: ذلِکَ لِيَعْلَمَ أَنِّی لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ذهب أکثر المفسـرين إلى أن هـذا من کلام يوسف عليه السـلام قال الفراء: و لا يبعد وصل کلام إنسان بکلام إنسان آخر إذا دلت القرينة الصّارفة لکلّ منهما إلى ما يليق به، و الإشارة إلى الحادثة الواقعة منه، و هی تثبته و تأنّيه؛ أی فعلت ذلک ليعلم العزيز أنی لم أخنه فی أهله بالغيب؛ و المعنى بظهر الغيب، و الجـار و المجرور فی محل نصب على الحال؛ أی: و هو غائب عنی، أو و أنا غائب عنه. قيل: إنه قال ذلک و هو فی السـجن بعـد أن أخبره الرسول بمـا قـالته النسوة، و مـا قالته امرأة العزيز؛ و قيل: إنه قال ذلک و قـد صار عنـد الملک، و الأوّل أولى. و ذهب الأقلّون من المفسرين إلى أن هذا من کلام

---

(١). «البيضة»: الخوذة. «التهجاع»: النومة الخفيفة.

(۲). ما بين معقوفتين من تفسير القرطبى (۹/ ۲۰۸)

فتح القدير، ج‌۳، ص: ۴۲

امرأة العزيز؛ و المعنى: ذلك القول الذى قلته فى تنزيهه، و الإقرار على نفسى بالمراودة ليعلم يوسف أنى لم أخنه فأنسب إليه ما لم يكن منه و هو غائب عنى، أو و أنا غائبة عنه وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ أى لا يثبته و يسدّده، أو لا يهديهم فى كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له تأثير يثبت به و يدوم، و إذا كان من قول يوسف ففيه تعريض بامرأة العزيز حيث وقع منها الكيد له و الخيانة لزوجها، و تعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه بعد أن علم براءته و نزاهته وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي إن كان من كلام يوسف فهو من باب الهضم للنفس، و عدم التزكية بها مع أنه قد علم هو و غيره من الناس أنه برىء، و ظهر ذلك ظهور الشمس، و أقرّت به المرأة التى ادّعت عليه الباطل، و نزهته النسوة اللاتى قطعن أيديهنّ، و إن كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على الحقيقة؛ لأنها قد أقرّت بالذنب، و اعترفت بالمراودة و بالافتراء على يوسف. و قد قيل: إن هذا من قول العزيز، و هو بعيد جدّا؛ و معناه: و ما أبرئ نفسى من سوء الظن بيوسف، و المساعدة على حبسه بعد أن علمت ببراءته إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ أى إن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله إلى الشهوات، و تأثيرها بالطبع، و صعوبة قهرها، و كفها عن ذلك إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي أى إلا من رحم من النفوس فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء، أو إلا وقت رحمة ربى و عصمته لها، و قيل: الاستثناء منقطع؛ و المعنى: لكن رحمة ربى هى التى تكفّها عن أن تكون أمارة بالسوء، و جملة إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ تعليل لما قبلها، أى: إن من شأنه كثرة المغفرة لعباده و الرحمة لهم. قوله: وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي الملك هو الريان بن الوليد لا العزيز كما تقدّم؛ و معنى أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي أجعله خالصا لى دون غيرى، و قد كان قبل ذلك خالصا للعزيز، و الاستخلاص: طلب خلوص الشىء من شوائب الشركة، قال ذلك لما كان يوسف نفيسا، و عادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم فَلَمَّا كَلَّمَهُ فى الكلام حذف، و تقديره فأتوه به فلما كلمه، أى: فلما كلم الملك يوسف، و يحتمل أن يكون المعنى: فلما كلم يوسف الملك. قيل: و الأوّل أولى؛ لأن مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء إلا هم دون من يدخل عليهم؛ و قيل: الثانى أولى؛ لقول الملك قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ فإن هذا يفيد أنه لما تكلم يوسف فى مقام الملك جاء بما حببه إلى الملك، و قرّبه من قلبه، فقال له هذه المقالة، و معنى مكين: ذو مكانة و أمانة بحيث يتمكن مما يريده من الملك و يأمنه الملك على ما يطلع عليه من أمره، أو على ما يكله إليه من ذلك. قيل: إنه لما وصل إلى الملك أجلسه على سريره، و قال له: إنى أحبّ أن أسمع منك تعبير رؤياى، فعبرها له بأكمل بيان و أتمّ عبارة، فلما سمع الملك منه ذلك قال له: إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ فلما سمع يوسف منه ذلك قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ أى ولنى أمر الأرض التى أمرها إليك و هى أرض مصر، أو اجعلنى على حفظ خزائن الأرض، و هى الأمكنة التى تخزن فيها الأموال، طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل و رفع الظلم، و يتوصل به إلى دعاء أهل مصر إلى الإيمان باللّه و ترك عبادة الأوثان، و فيه دليل على أنه يجوز لمن وثق من نفسه إذا دخل فى أمر من أمور السلطان أن يرفع منار الحق و يهدم ما أمكنه من الباطل، طلب ذلك لنفسه، و يجوز له أن يصف نفسه بالأوصاف التى

فتح القدير، ج‌۳، ص: ۴۳

لها ترغيبا فيما يرومه، و تنشيطا لمن يخاطبه من الملوك بإلقاء مقاليد الأمور إليه و جعلها منوطة به، و لكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن نبينا صلى اللّه عليه و آله و سلم من النهى عن طلب الولاية و المنع من تولية من طلبها أو حرص عليها. و الخزائن: جمع خزانة، و هى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشىء و الحفيظ: الذى يحفظ الشىء، أى: إِنِّي حَفِيظٌ لما جعلته إلىّ من حفظ الأموال لا أخرجها فى غير مخارجها، و لا أصرفها فى غير مصارفها عَلِيمٌ بوجود جمعها و تفريقها و مدخلها و مخرجها وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا

لِيُوسُفَ أي: و مثل ذلك التمكين العجيب مكّنّا ليوسف فى الأرض، أى: جعلنا له مكانا، و هو عبارة عن كمال قدرته و نفوذ أمره و نهيه حتى صار الملك يصدر عن رأيه، و صار الناس يعملون على أمره و نهيه يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ أى: ينزل منها حيث أراد و يتخذه مباءة، و هو عبارة عن كمال قدرته كما تقدّم، و كأنه يتصرف فى الأرض التى أمرها إلى سلطان مصر كما يتصرف الرجل فى منزله. و قرأ ابن كثير بالنون. و قد استدل بهذه الآية على أنه يجوز تولّى الأعمال من جهة السلطان الجائر بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق. و قد قدّمنا الكلام على هذا مستوفى فى قوله سبحانه: وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا «۱». نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ من العباد فنرحمه فى الدنيا بالإحسان إليه و الإنعام عليه، و فى الآخرة بإدخاله الجنة و إنجائه من النار وَ لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ فى أعمالهم الحسنة التى هى مطلوب اللّه منهم، أى: لا نضيع ثوابهم فيها، و مجازاتهم عليها وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أى أجرهم فى الآخرة، و أضيف الأجر إلى الآخرة للملابسة، و أجرهم هو الجزاء الذى يجازيهم اللّه به فيها، و هو الجنة التى لا ينفد نعيمها و لا تنقضى مدّتها خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا باللّه وَ كانُوا يَتَّقُونَ الوقوع فيما حرّمه عليهم، و المراد بهم المحسنون المتقدّم ذكرهم، و فيه تنبيه على أن الإحسان المعتدّ به هو الإيمان و التقوى.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ما بالُ النِّسْوَةِ قال: أراد يوسف العذر قبل أن يخرج من السجن. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و البيهقى فى الشعب، عنه قال: لما قالت امرأة العزيز: أنا راودته، قال يوسف: ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ فغمزه جبريل فقال: و لا حين هممت بها؟ فقال: وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِى الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا: حَصْحَصَ الْحَقُّ قال: تبين. و أخرج ابن جرير عن مجاهد و قتادة و الضحاك و ابن زيد و السدّى مثله. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى حاتم عن حكيم بن حزام فى قوله: ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ فقال له جبريل: و لا حين حللت السراويل؟ فقال عند ذلك وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِى

و أخرج ابن عبد الحكم فى «فتوح مصر» من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله: وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى قال: فأتاه الرسول فقال: ألق عنك ثياب السجن، و البس ثيابا جددا، و قم إلى الملك، فدعا له أهل السجن و هو يومئذ ابن ثلاثين سنة، فلما أتاه رأى غلاما حدثا، فقال: أ يعلم هذا رؤياى و لا يعلمها السّحرة و الكهنة؟ و أقعده قدّامه و قال: لا تخف، و ألبسه طوقا من ذهب و ثياب حرير،

---

(۱). هود: ۱۱۳.

و أعطاه دابة مسروجة مزينة كدابة الملك، و ضرب الطبل بمصر: إن يوسف خليفة الملك. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: قال الملك ليوسف: إنى أحبّ أن تخالطنى فى كلّ شىء إلا فى أهلى، و أنا آنف أن تأكل معى، فغضب يوسف و قال: أنا أحق أن آنف، أنا ابن إبراهيم خليل اللّه، و أنا ابن إسحاق ذبيح اللّه، و أنا ابن يعقوب نبىّ اللّه.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن شيبة بن نعامة الضبى فى قوله: اجْعَلْنِى عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ يقول على جميع الطعام إِنِّى حَفِيظٌ لما استودعتنى عَلِيمٌ بسنى المجاعة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ قال: ملكناه فيها يكون فيها حيث يشاء من تلك الدنيا يصنع فيها ما يشاء. و أخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم: أن يوسف تزوج امرأة العزيز فوجدها بكرا، و كان زوجها عنينا.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٥٨ الى ٦٦]

وَ جاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨) وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَ لا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَ لا تَقْرَبُونِ (٦٠) قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَ إِنَّا لَفاعِلُونَ (٦١) وَ قالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (٦٣) قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَ نَمِيرُ أَهْلَنا وَ نَحْفَظُ أَخانا وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)

قوله: وَ جاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ أى جاءوا إلى مصر من أرض كنعان ليمتاروا لما أصابهم القحط فَدَخَلُوا على يوسف فَعَرَفَهُمْ لأنه فارقهم رجالا وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ لأنّهم فارقوه صبيا يباع بالدراهم فى أيدى السّيّارة بعد أن أخرجوه من الجبّ، و دخلوا عليه الآن و هو رجل عليه أبهة الملك، و رونق الرئاسة، و عنده الخدم و الحشم، و قيل: إنهم أنكروه لكونه كان فى تلك الحال على هيئة ملك مصر، و لبس تاجه و تطوّق بطوقه، و قيل: كانوا بعيدا منه فلم يعرفوه؛ و قيل غير ذلك وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ المراد به هنا أنه أعطاهم ما طلبوه من الميرة و ما يصلحون به سفرهم من العدّة التى يحتاجها المسافر، يقال: جهزت القوم تجهيزا؛ إذا تكلّفت لهم جهازا للسفر. قال الأزهرى: القراء كلّهم على فتح الجيم، و الكسر لغة جيدة قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ قيل: لا بدّ من كلام ينشأ عنه طلبه لهم بأن يأتوه بأخ لهم من أبيهم، فروى أنه لما رآهم و كلّموه بالعبرانية قال لهم: ما أنتم؟ و ما شأنكم؟ فإنى أنكركم، فقالوا: نحن قوم من

أهل الشام، جئنا نمتار، و لنا أب شيخ صديق نبىّ من الأنبياء اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: عشرة، و قد كنا اثنى عشر، فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك، و كان أحبنا إلى أبينا، و قد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه هو باق لديه يتسلى به، فقال لهم حينئذ: ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ يعنى أخاه بنيامين الذى تقدّم ذكره، و هو أخو يوسف لأبيه و أمه، فوعدوه بذلك، فطلب منهم أن يتركوا أحدهم رهينة عنده حتى يأتوه بالأخ الذى طلبه، فاقترعوا فأصابت القرعة شمعون فخلّفوه عنده، ثم قال لهم: أَ لا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ أى أتممه. و جاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على أن ذلك عادته المستمرّة، ثم أخبرهم بما يزيدهم وثوقا به و تصديقا لقوله، فقال: وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ أى: و الحال أنى خير المنزلين لمن نزل بى كما فعلته بكم من حسن الضيافة و حسن الإنزال. قال الزجاج: قال يوسف: وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم، ثم توعّدهم إذا لم يأتوه به فقال: فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَ لا تَقْرَبُونِ أى فلا أبيعكم شيئا فيما بعد، و أما فى الحال فقد أوفاهم كيلهم، و معنى لا تَقْرَبُونِ

لا تدخلون بلادى فضلا عن أن أحسن إليكم. و قيل: معناه: لا أنزلكم عندى كما أنزلتكم هذه المرّة. و لم يرد أنهم لا يقربون بلاده، و تقربون مجزوم إما على أن لا ناهية أو على أنها نافية، و هو معطوف على محل الجزاء داخل فى حكمه، كأنّه قال: فإن لم تأتونى تحرموا و لا تقربوا، فلما سمعوا منه ذلك و عدوه بما طلبه منهم ف قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ أى سنطلبه منه، و نجتهد فى ذلك بما نقدر عليه. و قيل: معنى المراودة هنا:

المخادعة منهم لأبيهم و الاحتيال عليه حتى ينتزعوه منه وَ إِنَّا لَفاعِلُونَ هذه المراودة غير مقصرين فيها. و قيل:

معناه: و إنا لقادرون على ذلك، لا نتعانى به و لا نتعاظمه وَ قالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ قرأ أهل المدينة و أبو عمرو و عاصم من رواية شعبة و ابن عامر «لفتيته»، و اختار هذه القراءة أبو حاتم و النحاس و غيرهما، و قرأ سائر الكوفيين «لفتيانه»، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، و فى مصحف عبد اللّه بن مسعود كالقراءة الآخرة، قال النّحاس: لفتيانه مخالف للسواد الأعظم، و لا يترك السواد المجمع عليه لهذا الإسناد المنقطع، و أيضا فإن فتية أشبه من فتيان، لأن فتية عند العرب لأقل العدد، و أمر القليل بأن يجعلوا البضاعة فى الرحال أشبه، و الجملة مستأنفة جواب سؤال، كأنه قيل: فما قال يوسف بعد وعدهم له بذلك؟ فأجيب بأنه قال لفتيته. قال الزّجّاج: الفتية و الفتيان فى هذا الموضع المماليك، و قال الثعلبى: هما لغتان جيدتان مثل الصبيان و الصبية. و المراد بالبضاعة هنا هى التى و صلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام، و كانت نعالا و أدما، فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلا عليهم؛ و قيل: فعل ذلك ليرجعوا إليه مرة أخرى لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمن، قاله الفراء؛ و قيل فعل ذلك ليستعينوا بها على الرجوع إليه لشراء الطعام؛ و قيل: إنه استقبح أن يأخذ من أبيه و إخوته ثمن الطعام، ثم علّل يوسف عليه السلام ما أمر به من جعل البضاعة فى رحالهم بقوله:

لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ فجعل علّة جعل البضاعة فى الرحال هى معرفتهم لها إذا انقلبوا إلى أهلهم، و ذلك لأنهم لا يعلمون بردّ البضاعة إليهم إلا عند تفريغ الأوعية التى جعلوا فيها الطعام، و هم لا يفرغونها إلا عند الوصول إلى أهلهم، ثم علّل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم المجعولة فى رحالهم بقوله:

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۶

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فإنهم إذا عرفوا ذلك و علموا أنهم أخذوا الطعام بلا ثمن، و أن ما دفعوه عوضا عنه قد رجع إليهم، و تفضّل به من وصلوا إليه عليهم نشطوا إلى العود إليه، و لا سيما مع ما هم فيه من الجدب الشديد و الحاجة إلى الطعام و عدم وجوده لديهم، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم إلى الرجوع، و بهذا يظهر أن يوسف عليه السلام لم يردّ البضاعة إليهم إلا لهذا المقصد، و هو رجوعهم إليه فلا يتمّ تعليل ردّها بغير ذلك. و الرّحال:

جمع رحل، و المراد به هنا ما يستصحبه الرجل معه من الأثاث. قال الواحدى: الرّحل: كلّ شىء معدّ للرحيل من وعاء للمتاع و مركب للبعير و مجلس و رسن انتهى. و المراد هنا الأوعية التى يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام.

قال ابن الأنبارى: يقال للوعاء رحل، و للبيت رحل فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ أرادوا بهذا ما تقدّم من قول يوسف لهم: فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي أى: منع منا الكيل فى المستقبل، و فيه دلالة على أن الامتيار مرة بعد مرة معهود فيما بينهم و بينه، و لعلهم قالوا له بهذه المقالة قبل أن يفتحوا متاعهم و يعلموا بردّ بضاعتهم، كما يفيد ذلك قوله فيما بعد: وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ إلى آخره، ثم ذكروا له ما أمرهم به يوسف، فقالوا: فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا يعنون بنيامين و نَكْتَلْ جواب الأمر، أى: نكتل بسبب إرساله معنا ما نريده من الطعام. قرأ أهل الحرمين و أبو عمرو و ابن عامر و عاصم «نكتل» بالنون. و قرأ سائر الكوفيين بالياء التحتية، و اختار أبو عبيد القراءة الأولى، و قال: ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكتال، و زعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده، أى: يكتال أخونا بنيامين، و اعترضه النحاس مما حاصله أن إسناد الكيل إلى الأخ لا ينافى كونه للجميع، و المعنى: يكتال بنيامين لنا جميعا. قال الزجّاج:

أى إن أرسلته اكتلنا و إلا منعنا الكيل وَ إِنَّا لَهُ أى لأخيهم بنيامين لَحافِظُونَ من أن يصيبه سوء أو مكروه، و جملة قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كما تقدّم فى نظائر ذلك فى مواضع كثيرة، و المعنى: أنه لا يأمنهم على بنيامين إلا كما أمنهم على أخيه يوسف، و قد قالوا له فى يوسف: وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «۱»، كما قالوا هنا: وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ثم خانوه فى يوسف، فهو إن أمنهم فى بنيامين خاف أن يخونوه فيه كما خانوه فى يوسف فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ

الرَّاحِمِينَ لعل هنا إضمار، و التقدير: فتوكل يعقوب على اللّه و دفعه إليهم، و قال: فاللّه خير حافظا. و قرأ أهل المدينة «حفظا» و هو منتصب على التمييز، و هى قراءة أبى عمرو و عاصم و ابن عامر. و قرأ سائر الكوفيين «حافظا» و هو منتصب على الحال. و قال الزّجّاج: على البيان يعنى التمييز؛ و معنى الآية: أن حفظ اللّه إياه خير من حفظهم له، لما و كل يعقوب حفظه إلى اللّه سبحانه حفظه و أرجعه إليه، و لما قال فى يوسف: وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ «٢» وقع له من الامتحان ما وقع. وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ أى: أوعية الطعام، أو ما هو أعمّ من ذلك مما يطلق عليه لفظ المتاع سواء كان الذى فيه طعاما أو غير طعام وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ أى: البضاعة التى حملوها إلى مصر ليمتاروا بها، و قد تقدّم بيانها، و جملة قالُوا يا أَبانا مستأنفة كما تقدّم ما نَبْغِي ما استفهامية، و المعنى: أىّ شىء نطلب من هذا الملك بعد أن صنع معنا ما صنع من الإحسان

---

(١). يوسف: ١٢.

(٢). يوسف: ١٣.

بردّ البضاعة و الإكرام عند القدوم إليه، و توفير ما أردناه من الميرة؟ و يكون الاستفهام للإنكار، و جملة هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا مقرّرة لما دلّ عليه الاستفهام من الإنكار لطلب شىء مع كونها قد ردّت إليهم؛ و قيل:

إن «ما» فى ما نَبْغِي نافية، أى: ما نبغى فى القول و ما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا و إكرامه لنا، ثم برهنوا على ما لقوه من التزيد فى وصف الملك بقولهم: هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا فإنّ من تفضل عليهم بردّ ذلك حقيق بالثناء عليه منهم، مستحق لما وصفوه به، و معنى وَ نَمِيرُ أَهْلَنا نجلب إليهم الميرة و هى الطعام، و المائر: الذى يأتى بالطعام. و قرأ السلمى بضم النون، و هو معطوف على مقدر يدلّ عليه السياق، و التقدير: هذه بضاعتنا ردّت إلينا فنحن نستعين بها على الرجوع و نمير أهلنا وَ نَحْفَظُ أَخانا بنيامين ممّا تخافه عليه وَ نَزْدادُ بسبب إرساله معنا كَيْلَ بَعِيرٍ أى حمل بعير زائد على ما جئنا به هذه المرة؛ لأنه كان يكال لكل رجل وقر بعير، و معنى ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ أن زيادة كيل بعير لأخينا يسهل على الملك، و لا يمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيرا لا يتعاظمه و لا يضايقنا فيه؛ و قيل: إن المعنى: ذلك المكيل لأجلنا قليل نريد أن ينضاف إليه حمل بعير لأخينا. و اختار الزّجّاج الأوّل. و قيل: إن هذا من كلام يعقوب جوابا على ما قاله أولاده: وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ يعنى إن حمل بعير شىء يسير لا يخاطر لأجله بالولد، و هو ضعيف؛ لأن جواب يعقوب هو قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ أى حتى تعطونى ما أثق به و أركن إليه من جهة اللّه سبحانه، و هو الحلف به، و اللام فى لَتَأْتُنَّنِي بِهِ جواب القسم، لأن معنى حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ حتى تحلفوا باللّه لتأتنى به، أى: لتردّن بنيامين إلىّ، و الاستثناء بقوله: إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ هو من أعمّ العام، لأنّ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ و إن كان كلاما مثبتا فهو فى معنى النفى، فكأنه قال: لا تمنعون من إتيانى به فى حال من الأحوال لعلة من العلل إلا لعلة الإحاطة بكم، و الإحاطة مأخوذة من إحاطة العدوّ، و من أحاط به العدوّ فقد غلب أو هلك، فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنيامين إلا أن يغلبوا عليه أو يهلكوا دونه، فيكون ذلك عذرا لكم عندى فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ أى أعطوه ما طلبه منهم من اليمين قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ أى: قال يعقوب: اللّه على ما قلناه من طلبى الموثق منكم و إعطائكم لى ما طلبته منكم مطلع رقيب لا يخفى عليه منه خافية، فهو المعاقب لمن خاس فى عهده و فجر فى الحلف به، أو موكول إليه القيام بما شهد عليه منا.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: إنّ إخوة يوسف لما دخلوا عليه فعرفهم و هم له منكرون، جاء بصواع الملك الذى كان يشرب فيه، فوضعه على يده فجعل ينقره و يطنّ، و ينقره و يطنّ، فقال: إن هذا الجام ليخبرنى عنكم خبرا، هل كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف؟ و كان أبوه يحبه دونكم، و إنكم انطلقتم به فألقيتموه فى الجب و

أخبرتم أباكم أن الذئب أكله، و جئتم على قميصه بدم كذب؟ قال:

فجعل بعضهم ينظر إلى بعض و يعجبون. و أخرج أبو الشيخ عن وهيب قال: لما جعل يوسف ينقر الصواع و يخبرهم قام إليه بعض إخوته فقال: أنشدك باللّه أن لا تكشف لنا عورة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ائْتُونِی بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِیكُمْ قال: يعنى بنيامين، و هو أخو يوسف لأبيه و أمه

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۸

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ قال: خير من يضيف بمصر.

و أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله: لِفِتْيانِهِ أى لغلمانه اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ أى أوراقهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ما نَبْغِی هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا يقولون: ما نبغى وراء هذا وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ أى حمل بعير. و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ قال: حمل حمار، قال: و هى لغة، قال أبو عبيد: يعنى مجاهدا أن الحمار يقال له فى بعض اللغات بعير. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ قال: تهلكوا جميعا، و فى قوله: فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قال: عهدهم.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ قال:

إلا أن تغلبوا حتّى لا تطيقوا ذلك.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٦٧ الى ٧٦]

وَ قالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ ما أُغْنِی عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‌ءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِی عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‌ءٍ إِلاَّ حاجَةً فِی نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨) وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّی أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِی رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (٧٠) قالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (٧١)

قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِی الْأَرْضِ وَ ما كُنَّا سارِقِينَ (٧٣) قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (٧٤) قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِی رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِی الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِی دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِی عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)

لما تجهز أولاد يعقوب للمسير إلى مصر خاف عليهم أبوهم أن تصيبهم العين؛ لكونهم كانوا ذوى جمال ظاهر و ثياب حسنة مع كونهم أولاد رجل واحد. فنهاهم أن يدخلوا مجتمعين من باب واحد لأن فى ذلك مظنة لإصابة الأعين لهم، و أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرّقة، و لم يكتف بقوله: لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ عن قوله: وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ لأنهم لو دخلوا من بابين مثلا كانوا قد امتثلوا النية عن الدخول من باب واحد، و لكنه لما كان فى الدخول من بابين مثلا نوع اجتماع يخشى معه أن تصيبهم العين أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، قيل: و كانت أبواب مصر أربعة.

و قد أنكر بعض المعتزلة كأبى هاشم و البلخى أنّ للعين تأثيرا، و قالا: لا يمتنع أن صاحب العين إذا شاهد الشى‌ء و أعجب به كانت المصلحة له فى تكليفه أن يغير اللّه ذلك الشى‌ء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف معلقا

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۹

به. و ليس هذا بمستنكر من هذين و أتباعهما، فقد صار دفع أدلة الكتاب و السنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم و ديدنهم، و أىّ مانع من إصابة العين بتقدير اللّه سبحانه لذلك؟ و قد وردت الأحاديث الصحيحة بأنّ العين حقّ، و أصيب بها جماعة فى عصر النبوّة، و منهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الإزراء على من يعمل بالدليل المخالف لمجرد الاستبعاد العقلى و التنطع فى العبارات كالزمخشرى فى تفسيره؛ فإنه فى كثير من المواطن لا يقف على دفع دليل الشرع بالاستبعاد الذى يدّعيه على العقل حتى يضمّ إلى ذلك الوقاحة فى العبارة على وجه يوقع المقصرين فى الأقوال الباطلة و المذاهب الزائفة. و بالجملة فقول هؤلاء مدفوع بالأدلّة المتكاثرة و إجماع من يعتدّ به من هذه الأمة سلفا و خلفا، و بما هو مشاهد فى الوجود، فكم من شخص من هذا النوع الإنسانى و غيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب.

و قد اختلف العلماء فيمن عرف بالإصابة بالعين، فقال قوم: يمنع من الاتصال بالناس دفعا لضرره بحبس أو غيره من لزوم بيته، و قيل: ينفى؛ و أبعد من قاله إنه يقتل إلا إذا كان يتعمد ذلك و تتوقف إصابته على اختياره و قصده و لم ينزجر عن ذلك، فإنه إذا قتل كان له حكم القاتل. ثم قال يعقوب لأولاده: وَ ما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ أى لا أدفع عنكم ضررا و لا أجلب إليكم نفعا بتدبيرى هذا، بل ما قضاه اللّه عليكم فهو واقع لا محالة. قال الزّجّاج و ابن الأنبارى: لو سبق فى علم اللّه أن العين تهلكهم مع الاجتماع لكان تفرّقهم كاجتماعهم. و قال آخرون: ما كان يغنى عنهم يعقوب شيئا قطّ حيث أصابهم ما أصابهم مع تفرقهم من إضافة السرقة إليهم، ثم صرح يعقوب بأنه لا حكم إلا للّه سبحانه فقال: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ لا لغيره لا يشاركه فيه مشارك فى ذلك عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فى كلّ إيراد و إصدار لا على غيره، أى: اعتمدت و وثقت وَ عَلَيْهِ لا على غيره فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ على العموم، و يدخل فيه أولاده دخولا أوّليا وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ أى من الأبواب المتفرقة و لم يجتمعوا داخلين من باب واحد، و جواب لما ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ ذلك الدخول مِنَ اللَّهِ أى من جهته مِنْ شَيْءٍ من الأشياء مما قدّره اللّه عليهم لأن الحذر لا يدفع القدر، و الاستثناء بقوله: إِلَّا حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها منقطع؛ و المعنى: و لكن حاجة كانت فى نفس يعقوب. و هى شفقته عليهم و محبته لسلامتهم قضاها يعقوب، أى:

أظهرها لهم و وصاهم بها غير معتقد أن للتدبير الذى دبره لهم تأثيرا فى دفع ما قضاه اللّه عليهم، و قيل: إنه خطر ببال يعقوب أن الملك إذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم من كمال الخلقة، و سيما الشجاعة أوقع بهم حسدا و حقدا أو خوفا منهم، فأمرهم بالتفرق لهذه العلة. و قد اختار هذا النحّاس و قال: لا معنى للعين ها هنا، و فيه أن هذا لو كان هو السبب لأمرهم بالتفرّق و لم يخصّ النهى عن ذلك الاجتماع عند الدخول من باب واحد؛ لأن هذا الحسد أو الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة كما يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد. و قيل: إن الفاعل فى قضاها ضمير يعود إلى الدخول لا إلى يعقوب. و المعنى: ما كان الدخول يغنى عنهم من جهة اللّه شيئا، و لكنه قضى ذلك الدخول حاجة فى نفس يعقوب لوقوعه حسب إرادته وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ أى و إن يعقوب لصاحب علم لأجل تعليم اللّه إياه بما أوحاه اللّه من أن الحذر لا يدفع

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٠

فتح القدير ج٣ ٩٩

القدر، و أن ما قضاه اللّه سبحانه فهو كائن لا محالة وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ بذلك كما ينبغى؛ و قيل: لا يعلمون أنّ الحذر مندوب إليه و إن كان لا يغنى من القدر شيئا، و السّياق يدفعه؛ و قيل: المراد بأكثر الناس المشركون وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ أى ضمّ إليه أخاه بنيامين، قيل: إنه أمر بإنزال كلّ اثنين فى منزل فبقى أخوه منفردا فضمّه إليه و قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ يوسف، قال له ذلك سرّا، من دون أن يطلع عليه إخوته فَلا تَبْتَئِسْ أى فلا تحزن بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أى إخوتك من

الأعمال الماضية التى عملوها؛ و قيل: إنه لم يخبره بأنه يوسف، بل قال له: إنى أخوك مكان أخيك يوسف فلا تحزن بما كنت تلقاه منهم من الجفاء حسدا و بغيا؛ و قيل: إنه أخبره بما سيدبّره معهم من جعل السقاية فى رحله، فقال: لا أبالى؛ و قيل: إنه لما أخبر يوسف أخاه بنيامين بأنه أخوه قال: لا تردّنى إليهم، فقال: قد علمت اغتمام أبينا يعقوب، فإذا حبستك عندى ازداد غمّه، فأبى بنيامين، فقال له يوسف: لا- يمكن حبسك عندى إلا بأن أنسبك إلى ما لا يجمل بك، فقال: لا أبالى، فدسّ الصّاع فى رحله، و هو المراد بالسقاية، و أصلها المشربة التى يشرب بها، جعلت صاعا يكال به؛ و قيل: كانت تسقى بها الدّواب و يكال بها الحبّ؛ و قيل: كانت من فضة، و قيل: كانت من ذهب، و قيل غير ذلك. و قد تقدم تفسير الجهاز و الرّحل. و المعنى: أنه جعل السقاية التى هو الصواع فى رحل أخيه الذى هو الوعاء الذى يجعل فيه ما يشتريه من الطعام من مصر ثُمَ بعد ذلك أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أى نادى مناد قائلا أَيَّتُهَا الْعِيرُ قال الزّجّاج: معناه يا أصحاب العير، و كل ما امتير عليه من الإبل و الحمير و البغال فهو عير؛ و قيل: هى قافلة الحمير. و قال أبو عبيدة: العير الإبل المرحولة المركوبة إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ نسبة السرقة إليهم على حقيقتها؛ لأن المنادى غير عالم بما دبّره يوسف؛ و قيل: إن المعنى:

إن حالكم حال السارقين كون الصواع صار لديكم من غير رضا من الملك قالُوا أى إخوة يوسف وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ أى حال كونهم مقبلين على من نادى منهم المنادى من أصحاب الملك ما ذا تَفْقِدُونَ أى: ما الذى فقدتموه؛ يقال: فقدت الشيء إذا عدمته بضياع أو نحوه، فكأنهم قالوا: ماذا ضاع عليكم؟

و صيغة المستقبل لاستحضار الصورة قالُوا فى جوابهم نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ قرأ يحيى بن يعمر «صواغ» بالغين المعجمة. و قرأ أبو رجاء «صوع» بضم الصاد المهملة و سكون الواو بعدها عين مهملة.

و قرأ أبىّ «صياع». و قرأ أبو جعفر: صاع، و بها قرأ أبو هريرة. و قرأ الجمهور «صُواعَ» بالصاد و العين المهملتين. قال الزجّاج: الصواع هو الصاع بعينه، و هو يذكّر و يؤنّث، و هو السقاية، و منه قول الشاعر:

نشرب الخمر بالصّواع جهارا «١» ....

وَ لِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ أى قالوا: و لمن جاء بالصّواع من جهة نفسه حمل بعير. و البعير: الجمل، و فى لغة بعض العرب أنه الحمار، و المراد بالحمل هاهنا ما يحمله البعير من الطّعام، ثم قال المنادى: وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ أى بحمل البعير الذى جعل لمن جاء بالصّواع قبل التفتيش للأوعية، و الزعيم: هو الكفيل، و لعل

---

(١). و تتمة البيت: و ترى المتك بيننا مستعارا. و قد تقدم فى تفسير الآية (٣١) من سورة يوسف.

القائل نفقد صواع الملك هو المنادى، و إنما نسب القول إلى الجماعة لكونه واحدا منهم، ثم رجع الكلام إلى نسبة القول إلى المنادى وحده لأنه القائل بالحقيقة قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ التاء بدل من واو القسم عند الجمهور، و قيل: من الباء، و قيل: أصل بنفسها، و لا تدخل إلا على هذا الاسم الشريف دون سائر أسمائه سبحانه، و قد دخلت نادرا على الربّ، و على الرحمن، و الكلام على هذا مستوفى فى علم الإعراب؛ و جعلوا المقسم عليه هو علم يوسف و أصحابه بنزاهة جانبهم و طهارة ذيلهم عن التلوّث بقذر الفساد فى الأرض الذى من أعظم أنواعه السرقة، لأنهم قد شاهدوا منهم فى قدومهم عليه المرّة الأولى، و هذه المرّة من التّعفف و الزّهد عما هو دون السرقة بمراحل ما يستفاد منه العلم الجازم؛ بأنهم ليسوا بمن يتجارأ على هذا النوع العظيم من أنواع الفساد، و لو لم يكن من ذلك إلا ردّهم لبضاعتهم التى وجدوها فى رحالهم.

و المراد بالأرض هنا أرض مصر، ثم أكّدوا هذه الجملة التى أقسموا باللّه عليها بقوله: وَ ما كُنَّا سارِقِينَ لزيادة التبرّى ممّا قذفوهم

به، و التنزه عن هـذه النقيصة الخسيسة و الرذيلة الشنعاء قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ هذه الجملة مستأنفة كما تقدّم غير مرّة فى نظائرها، و القائلون هم أصحاب يوسف، أو المنادى منهم وحده كما مرّ، و الضمير فى جَزاؤُهُ للصّواع على حذف مضاف، أى: فما جزاء سرقة الصّواع عندكم، أو الضمير للسارق؛ أى: فما جزاء سارق الصّواع عندكم إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ فيما تدّعونه لأنفسكم من البراءة عن السرقة، و ذلك بأن يوجد الصّواع معكم، فأجاب إخوة يوسف و قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ أى جزاء سرقة الصّواع أو جزاء سارق الصّواع و جزاؤه مبتدأ، و الجملة الشرطية: و هى من وجد فى رحله فهو جزاؤه خبر المبتدأ على إقامة الظاهر مقام المضمر فيها، و الأصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو، فيكون الضمير الثانى عائد إلى المبتدأ، و الأوّل إلى من، و يجوز أن يكون خبر المبتدأ من وجد فى رحله، و التقدير: جزاء السّرقة للصّواع أخذ من وجد فى رحله، و تكون جملة فهو جزاؤه لتأكيد الجملة الأولى و تقريرها. قال الزّجّاج: و قوله: فَهُوَ جَزاؤُهُ زيادة فى البيان؛ أى جزاؤه أخذ السّارق فهو جزاؤه لا غير. قال المفسّرون: و كان حكم السّارق فى آل يعقوب أن يسترقّ سنة، فلذلك استفتوهم فى جزائه كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ أى مثل ذلك الجزاء الكامل نجزى الظالمين لغيرهم من الناس بسرقة أمتعتهم، و هذه الجملة مؤكدة لما قبلها إذا كانت من كلام إخوة يوسف، و يجوز أن تكون من كلام أصحاب يوسف، أى: كذلك نحن نجزى الظالمين بالسرق، ثم لما ذكروا جزاء السارق أرادوا أن يفتشوا أمتعتهم حتى يتبين الأمر، فأقبل يوسف على ذلك فبدأ بتفتيش أوعيتهم أى أوعية الإخوة العشرة قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ أى قبل تفتيشه لوعاء أخيه بنيامين دفعا للتهمة و رفعا لما دبّره من الحيلة ثُمَّ اسْتَخْرَجَها أى السقاية أو الصواع، لأنه يذكّر و يؤنّث كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ أى مثل ذلك الكيد العجيب كدنا ليوسف؛ يعنى علّمناه إياه و أوحيناه إليه، و الكيد مبدؤه السعى فى الحيلة و الخديعة، و نهايته إلقاء المخدوع من حيث لا يشعر فى أمر مكروه لا سبيل إلى دفعه، و هو محمول فى حق اللّه سبحانه على النهاية لا على البداية. قال القتبىّ:

معنى كدنا دبرنا. و قال ابن الأنبارى: أردنا. و فى الآية دليل على جواز التوصّل إلى الأغراض الصحيحة بما

صورته صورة الحيلة و المكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعا ثابتا ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ أى ما كان يوسف ليأخذ أخاه بنيامين فى دين الملك؛ أى ملك مصر، و فى شريعته التى كان عليها، بل كان دينه و قضاؤه أن يضرب السّارق و يغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة كما هو دين يعقوب و شريعته. و حاصله أنّ يوسف ما كان يتمكّن من إجراء حكم يعقوب على أخيه مع كونه مخالفا لدين الملك و شريعته لو لا ما كاد اللّه له و دبّره و أراده حتى وجد السبيل إليه، و هو ما أجراه على ألسن إخوته من قولهم: إن جزاء السارق الاسترقاق، فكان قولهم هذا هو بمشيئة اللّه و تدبيره، و هو معنى قوله: إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ أى إلا حال مشيئته و إذنه بذلك و إرادته له، و هذه الجملة؛ أعنى ما كان ليأخذ أخاه إلخ تعليل لما صنعه اللّه من الكيد ليوسف أو تفسير له نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ بضروب العلوم و المعارف و العطايا و الكرامات كما رفعنا درجة يوسف بذلك وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ ممّن رفعه اللّه بالعلم عَلِيمٌ أرفع رتبة منهم و أعلى درجة لا يبلغون مداه و لا يرتقون شأوه. و قيل: معنى ذلك: أنّ فوق كلّ أهل العلم عليم، و هو اللّه سبحانه.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ قالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ قال: رهب يعقوب عليهم العين. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن محمد بن كعب قال: خشى عليهم العين. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و أبو الشيخ عن النخعى فى قوله: وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ قال: أحب يعقوب أن يلقى يوسف أخاه فى خلوة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: إِلَّا حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها قال: خيفة العين على بنيه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ قال: إنه

لعامل بما علم، و من لا- يعمل لا يكون عالما. و أخرج هؤلاء عنه فى قوله: آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قال: إنه إليه. فى قوله: فَلا تَبْتَئِسْ قال: لا تحزن و لا تيأس، فى قوله: فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قال: قضى حاجتهم و كال لهم طعامهم، فى قوله: جَعَلَ السِّقايَةَ قال: هو إناء الملك الذى يشرب منه فِي رَحْلِ أَخِيهِ قال: فى متاع أخيه. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن ابن عباس فى قوله: جَعَلَ السِّقايَةَ قال: هو الصّواع، و كلّ شيء يشرب منه فهو صواع. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد نحوه أيضا.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: أَيَّتُهَا الْعِيرُ قال: كانت العير حميرا.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ لِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ قال:

حمل حمار طعام، و هى لغة.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ يقول: كفيل. و أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير و مجاهد و قتادة و الضحّاك مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الربيع بن أنس فى قوله: ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ يقول: ما جئنا لنعصى فى الأرض. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: فَما جَزاؤُهُ قال: عرفوا الحكم فى حكمهم فقالوا: من وجد

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٥٣

فى رحله فهو جزاؤه، و كان الحكم عند الأنبياء يعقوب و بنيه أن يؤخذ السارق بسرقته عبدا يسترقّ.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قال: ذكر لنا أنه كان كلما فتح متاع رجل استغفر تأثما مما صنع حتى بقى متاع الغلام، قال:

ما أظن أن هذا أخذ شيئا، قالوا: بلى، فاستبره. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الضحّاك فى قوله: كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ قال: كذلك صنعنا ليوسف ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ يقول: فى سلطان الملك، قال: كان فى دين ملكهم أنه من سرق أخذت منه السرقة و مثلها معها من ماله فيعطيه المسروق. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ يقول: فى سلطان الملك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ قال: إلا بعلة كادها اللّه ليوسف فاعتل بها.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى قوله: نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ قال: يوسف و إخوته أوتوا علما فرفعنا يوسف فى العلم فوقهم درجة. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: كنا عند ابن عباس فحدّث بحديث، فقال رجل عنده: وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ فقال ابن عباس: بئس ما قلت، اللّه العليم الخبير، و هو فوق كلّ عالم. و أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال: سأل رجل عليا عن مسألة، فقال فيها، فقال الرجل: ليس هكذا و لكن كذا و كذا، قال علىّ: أصبت و أخطأت وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن عكرمة فى قوله: وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ قال:

علم اللّه فوق كلّ عالم.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٧٧ الى ٨٢]

قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ (٧٧) قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا

عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قالَ كَبِيرُهُمْ أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَ ما شَهِدْنا إِلاَّ بِما عَلِمْنا وَ ما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (٨١)

وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (٨٢)

قوله: قالُوا إِنْ يَسْرِقْ أى بنيامين فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ يعنون يوسف.

و قد اختلف المفسّرون فى هذه السّرقة التى نسبوها إلى يوسف ما هى؟ فقيل: إنه كان ليوسف عمة هى

أكبر من يعقوب، و كانت عندها منطقة «١» إسحاق لكونها أسنّ أولاده و كانوا يتوارثونها فيأخذها الأكبر سنا من ذكر أو أنثى، و كانت قد حضنت يوسف و أحبته حبا شديدا، فلما ترعرع قال لها يعقوب: سلّمى يوسف إلىّ، فأشفقت من فراقه، و احتالت فى بقائه لديها، فجعلت المنطقة تحت ثيابه و حزمته بها، ثم قالت: قد سرقت منطقة إسحاق فانظروا من سرقها، فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف فأخذته عندها كما هو شرع الأنبياء فى ذلك الوقت من آل إبراهيم. و قد سبق بيان شريعتهم فى السرقة. و قيل: إن يوسف أخذ صنما كان لجدّه أبى أمه فكسره و ألقاه على الطريق تغييرا للمنكر. و حكى عن الزّجّاج أنه كان صنما من ذهب. و حكى الواحدى عن الزجّاج أنه قال: اللّه أعلم، أسرق أخ له أم لا؟ و حكى القرطبى فى تفسيره عن الزجاج أنه قال: كذبوا عليه فيما نسبوه إليه. قلت: و هذا أولى، فما هذه الكذبة بأوّل كذباتهم، و قدّمنا ما يدفع قول من قال إنهم قد كانوا أنبياء عند صدور هذه الأمور منهم. قوله: فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ قال الزجّاج و غيره:

الضمير فى أسرّها يعود إلى الكلمة أو الجملة، كأنه قيل فأسرّ الجملة فى نفسه وَ لَمْ يُبْدِها لَهُمْ ثم فسرها بقوله: قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً و قد ردّ أبو علىّ الفارسى هذا فقال: إنّ هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمل؛ و قيل: الضمير عائد إلى الإجابة، أى: أسرّ يوسف إجابتهم فى ذلك الوقت إلى وقت آخر؛ و قيل: أسرّ فى نفسه قولهم: إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ و هذا هو الأولى، و يكون معنى وَ لَمْ يُبْدِها لَهُمْ أنه لم يبد لهم هذه المقالة التى أسرّها فى نفسه بأن يذكر لهم صحّتها أو بطلانها، و جملة قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً مفسّرة على القول الأوّل، و مستأنفة على القولين الآخرين، كأنه قيل: فماذا قال يوسف لما قالوا هذه المقالة؟ أى أنتم شرّ مكانا، أى: موضعا و منزلا ممن نسبتموه إلى السرقة و هو برىء، فإنكم قد فعلتم ما فعلتم من إلقاء يوسف إلى الجبّ و الكذب على أبيكم و غير ذلك من أفاعيلكم، ثم قال:

وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ من الباطل بنسبة السرقة إلى يوسف، و أنه لا حقيقة لذلك. ثم أرادوا أن يستعطفوه ليطلق لهم أخاهم بنيامين يكون معهم يرجعون به إلى أبيهم لما تقدّم من أخذه الميثاق عليهم بأن يردّوه إليه، قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً أى إنّ لبنيامين هذا أبا متّصفا بهذه الصفة، و هو كونه شيخا كبيرا لا يستطيع فراقه و لا يصبر عنه و لا يقدر على الوصول إليه فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ يبقى لديك، فإن له منزلة فى قلب أبيه ليست لواحد منا فلا يتضرّر بفراق أحدنا كما يتضرّر بفراق بنيامين، ثم علّلوا ذلك بقولهم: إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ إلى الناس كافة، و إلينا خاصة، فتمّم إحسانك إلينا بإجابتنا إلى هذا المطلب، فأجاب يوسف عليهم بقوله: مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ أى نعوذ باللّه معاذا، فهو مصدر منصوب بفعل محذوف، و المستعيذ باللّه هو المعتصم به، و أن نأخذ منصوب بنزع الخافض، و الأصل من أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، و هو بنيامين لأنه الذى وجد الصواع فى رحله فقد حلّ لنا استعباده بفتواكم التى أفتيتمونا بقولكم: جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ

(١). المنطقة: المنطق، و هو ما يشدّ به الوسط.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٥

أى إنّا إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده لظالمون فى دينكم و ما تقتضيه فتواكم فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ أى يئسوا من يوسف و إسعافهم منه إلى مطلبهم الذى طلبوه، و السين و التاء للمبالغة خَلَصُوا نَجِيًّا أى انفردوا حال كونهم متناجين فيما بينهم، و هو مصدر يقع على الواحد و الجمع كما فى قوله: وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا. قال الزّجّاج: معناه انفردوا و ليس معهم أخوهم متناجين فيما يعملون به فى ذهابهم إلى أبيهم من غير أخيهم. قالَ كَبِيرُهُمْ و قيل: هو روبيل لأنّه الأسنّ، و قيل: يهوذا لأنه الأوفر عقلا، و قيل:

شمعون لأنه رئيسهم أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ أى عهدا من اللّه فى حفظ ابنه و ردّه إليه، و معنى كونه من اللّه أنه بإذنه وَ مِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ معطوف على ما قبله، و التقدير:

ألم تعلموا أنّ أباكم [قد أخذ عليكم موثقا من اللّه «١» و تعلموا تفريطكم فى يوسف؛ ذكر هذا النّحاس و غيره، وَ مِنْ قَبْلُ متعلّقة بتعلموا، أى: و تعلموا تفريطكم فى يوسف من قبل، على أنّ ما مصدرية، و يجوز أن تكون زائدة؛ و قيل: ما فرّطتم مرفوع المحل على الابتداء، و خبره من قبل؛ و قيل: إن ما موصولة أو موصوفة، و كلاهما فى محل النصب أو الرفع، و ما ذكرناه هو الأولى، و معنى فرّطتم: قصرتم فى شأنه، و لم تحفظوا عهد أبيكم فيه فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ يقال: برح براحا و بروحا، أى: زال، فإذا دخله النفى صار مثبتا، أى: لن أبرح من الأرض، بل ألزمها و لا أزال مقيما فيها حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي فى مفارقتها و الخروج منها، و إنما قال ذلك لأنه يستحى من أبيه أن يأتى إليه بغير ولده الذى أخذ عليهم الموثق بإرجاعه إليه إلا أن يحاط بهم كما تقدّم أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي بمفارقتها و الخروج منها؛ و قيل: المعنى: أو يحكم اللّه لى بخلاص أخى من الأسر حتّى يعود إلى أبى و أعود معه؛ و قيل: المعنى: أو يحكم اللّه لى بالنصر على من أخذ أخى فأحاربه و آخذ أخى منه، أو أعجز فأنصرف بعد ذلك وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ لأنّ أحكامه لا تجرى إلا على ما يوافق الحقّ، و يطابق الصواب، ثم قال كبيرهم مخاطبا لهم ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ قرأ الجمهور «سَرَقَ» على البناء للفاعل، و ذلك لأنهم قد شاهدوا استخراج الصواع من وعائه. و قرأ ابن عباس و الضّحّاك و أبو رزين على البناء للمفعول، و روى ذلك النّحّاس عن الكسائى.

قال الزجّاج: إنّ سرق يحتمل معنيين: أحدهما علم منه السرق، و الآخر اتهم بالسرق وَ ما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا من استخراج الصواع من وعائه، و قيل: المعنى: ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شريعتك و شريعة آبائك وَ ما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ حتّى يتّضح لنا هل الأمر على ما شاهدناه أو على خلافه؟ و قيل: المعنى: ما كنّا وقت أخذناه منك ليخرج معنا إلى مصر للغيب حافظين بأنه سيقع منه السرق الذى افتضحنا به؛ و قيل: الغيب هو الليل، و مرادهم أنه سرق و هم نيام؛ و قيل: مرادهم أنه فعل ذلك و هو غائب عنهم، فخفى عليهم فعله وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها هذا من تمام قول كبيرهم لهم، أى: قولوا لأبيكم اسأل القرية التى كنّا فيها، أى: مصر، و المراد أهلها، أى: اسأل أهل القرية؛

---

(١). من تفسير القرطبى (٩/ ٢٤٢)

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٦

و قيل: هى قرية من قرى مصر نزلوا فيها و امتاروا منها؛ و قيل: المعنى: و اسأل القرية نفسها و إن كانت جمادا فإنك نبىّ اللّه، و اللّه سبحانه سينطقها فتجيبك؛ و مما يؤيد هذا أنه قال سيبويه: لا يجوز: كلّم هندا و أنت تريد غلام هند وَ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها أى: و قولوا لأبيكم: اسأل العير التى أقبلنا فيها، أى: أصحابها و كانوا قوما معروفين من جيران يعقوب وَ إِنَّا لَصادِقُونَ فيما قلنا، جاءوا بهذه الجملة مؤكدة هذا التأكيد، لأن ما قد تقدّم منهم مع أبيهم يعقوب يوجب كمال الريبة فى خبرهم هذا عند السامع.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ قال:
يعنون يوسف. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: سرق مكحلة لخالته، يعنى يوسف. و أخرج أبو الشيخ عن عطية قال: سرق فى صباه ميلين من ذهب. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال:
«سرق يوسف صنما لجدّه أبى أمه من ذهب و فضة فكسره، و ألقاه على الطريق، فعيّره بذلك إخوته».
و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير مثله غير مرفوع. و قد روى نحوه عن جماعة من التابعين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ قال: أسرّ فى نفسه قوله: أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن قتادة مثله. و أخرج ابن جرير عن ابن إسحاق فى قوله: فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ قال:
أيسوا منه، و رأوا شدّته فى أمره. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: خَلَصُوا نَجِيًّا قال: وحدهم.
و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: قالَ كَبِيرُهُمْ قال: شمعون الذى تخلّف أكبرهم عقلا، و أكبر منه فى الميلاد روبيل. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قالَ كَبِيرُهُمْ هو روبيل، و هو الذى كان نهاهم عن قتله و كان أكبر القوم.
و أخرج ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي قال: أقاتل بسيفى حتى أقتل. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن أبى صالح نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة وَ ما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ قال: ما كنّا نعلم أن ابنك يسرق.
و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ قال: يعنون مصر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة مثله.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٨٣ الى ٨٨]

قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (٨٥) قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (٨٧)
فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٧

قوله: قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً أى زيّنت، و الأمر هنا قولهم: إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ «١» و ما سرق فى الحقيقة؛ و قيل: المراد بالأمر إخراجهم بنيامين، و المضىّ به إلى مصر طلبا للمنفعة فعاد ذلك بالمضرّة؛ و قيل: التسويل: التخييل، أى: خيّلت لكم أنفسكم أمرا لا أصل له؛ و قيل: الأمر الذى سوّلت لهم أنفسهم فتياهم بأنّ السّارق يؤخذ بسرقته، و الإضراب هنا هو باعتبار ما أثبتوه من البراءة لأنفسهم، لا باعتبار أصل الكلام فإنه صحيح، و الجملة مستأنفة مبنية على سؤال مقدّر كغيرها، و جملة فَصَبْرٌ جَمِيلٌ خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف؛ أى: فأمرى صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل بى و أولى لى، و الصّبر الجميل هو الذى لا يبوح صاحبه بالشكوى، بل يفوّض أمره إلى اللّه و يسترجع، و قد ورد أن «الصبر عند أوّل الصدمة». عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً أى بيوسف و أخيه بنيامين، و الأخ الثالث الباقى بمصر، و هو كبيرهم كما تقدّم، و إنما قال هكذا لأنه

قـد كان عنـده أن يوسف لم يمت، و أنه باق على الحياة و إن غاب عنه خبره إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ بحالى الْحَكِيمُ فيما يقضـى به وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ أى أعرض عنهم، و قطع الكلام معهم وَ قالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ قال الزّجّاج: الأصل يا أسـفى، فأبـدل من الياء ألفا لخفة الفتحة، و الأسف: شدة الجزع؛ و قيل: شدة الحزن، و منه قول كثير:

فيا أسفا للقلب كيف انصرافهو للنّفس لمّا سلّيت فتسلّت

قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبالغة بسـبب فراقه ليوسف، و انضمام فراقه لأخيه بنيامين، و بلوغ ما بلغه من كونه أسيرا عنـد ملك مصـر، فتضاعفت أحزانه، و هاج عليه الوجد القديم بما أثاره من الخبر لأخيه. و قد روى عن سـعيد بن جبير أن يعقوب لم يكن عنـده مـا ثبت فى شـريعتنا من الاسترجـاع و الصبر على المصـائب، و لو كـان عنـده ذلـك لما قال: يا أسـفا على يوسف. و معنى المنـاداة للأسف طلب حضوره، كـأنه قال: تعال يا أسـفى و أقبل إلىّ، وَ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ أى انقلب سواد عينيه بياضا من كثرة البكاء. قيل: إنه زال إدراكه بحاسـة البصـر بالمرة، و قيل: كان يدرك إدراكا ضـعيفا. و قد قيل فى توجيه ما وقع من يعقوب عليه السـلام من هـذا الحزن العظيم المفضـى إلى ذهـاب بصـره كلا أو بعضا بأنه إنما وقع منه ذلك لأنه علم أن يوسف حىّ، فخـاف على دينه مع كونه بأرض مصـر و أهلها حينئـذ كفار؛ و قيل: إن مجرد الحزن ليس بمحرّم، و إنما المحرّم ما يفضـى منه إلى الوله و شقّ الثياب و التكلّم بما لا ينبغى، و قـد قال النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم عنـد موت ولـده إبراهيم: «تـدمع العين، و يحزن القلب، و لا نقـول مـا يسـخط الربّ، و إنّـا عليـك يـا إبراهيم لمحزونـون» «٢». و يؤيّـد هـذا قـوله: فَهُوَ كَظِيمٌ أى مكظوم، فإن معناه: أنه مملوء من الحزن ممسك له لا

---

(١). يوسف: ٨١.

(٢). حديث رواه البخارى من حديث أنس.

يبثه، و منه كظم الغيظ و هو إخفاؤه، فالمكظوم المسـدود عليه طريق حزنه، من كظم السـقاء؛ إذا سـدّه على ما فيه، و الكظم بفتح الظاء: مخرج النفس، يقال: أخذ بأكظامه. و قيل: الكظيم بمعنى الكاظم، أى:

المشتمل على حزنه الممسك له، و منه:

فإنّ أك كاظما لمصاب ناس «١»فإنّى اليوم منطلق لسانى

و منه: وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ «٢». و قال الزّجّاج: معنى كظيم: محزون. و روى عن ابن عباس أنه قال:

معناه مغموم مكروب. قال بعض أهل اللغة: الحزن بالضم و السكون: البكاء، بفتحتين: ضدّ الفرح.

و قال أكثر أهل اللغـة: هما لغتان بمعنى، قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ أى لا تفتأ، فحذف حرف النفى لعدم اللبس. قال الكسائى: فتأت و فتئت أفعل كذا، أى: ما زلت. و قال الفرّاء: إن لا مضمرة، أى:

لا تفتأ. قال النحّاس: و الذى قال صحيح. و قد روى عن الخليل و سيبويه مثل قول الفراء، و أنشد الفرّاء محتجّا على ما قاله:

فقلت يمين اللّه أبرح قاعداو لو قطعوا رأسى لديك و أوصالى «٣»

و يقال: فتئ و فتأ لغتان، و منه قول الشاعر «۴»:

فما فتئت حتى كأنّ غبارهاسرادق يوم ذى رياح ترفّع

حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً الحرض: مصدر يسـتوى فيه الواحد و الجمع و المذكر و المؤنث و الصـفة المشبهة، حرض بكسر الراء كدنف و دنف، و أصل الحرض: الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم، حكى ذلك عن أبى عبيدة و غيره، و منه قول

الشاعر:

سرى همّى فأمرضنى‌و قدما زادنى مرضا

كذاك الحبّ قبل اليوم ممّا يورث الحرضا

و قيل: الحرض: ما دون الموت، و قيل: الهرم، و قيل: الحارض: البالى الداثر. و قال الفرّاء: الحارض: الفاسد الجسم و العقل، و كذا الحرض. و قال مؤرّج: هو الذائب من الهمّ، و يدلّ عليه قول الشاعر «5»:

إنى امرؤ لجّ بى حبّ فأحرضنى‌حتّى بليت و حتّى شفّنى السّقم

و يقال رجل محرض، و منه قول الشاعر:

طلبته الخيل يوما كاملاو لو ألفته لأضحى محرضا

---

(1). فى تفسير القرطبى (9/ 249): شاس.

(2). آل عمران: 134.

(3). البيت لامرئ القيس. و «الأوصال»: جمع وصل: و هو المفصل.

(4). هو أوس بن حجر.

(5). هو العرجىّ.

قال النّحّاس: و حكى أهل اللغة أحرضه الهمّ؛ إذا أسقمه، و رجل حارض: أى أحمق. و قال الأخفش: الحارض الذاهب. و قال ابن الأنبارى: هو الهالك. و الأولى تفسير الحرض هنا بغير الموت و الهلاك من هذه المعانى المذكورة حتى يكون لقوله: أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ معنى غير معنى الحرض، فالتأسيس أولى من التأكيد، و معنى من الهالكين: من الميتين؛ و غرضهم منع يعقوب من البكاء و الحزن شفقة عليه، و إن كانوا هم سبب أحزانه و منشأ همومه و غمومه قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ هذه الجملة مستأنفة، كأنه قيل: فما قال يعقوب لما قالوا له ما قالوا؟ و البثّ: ما يرد على الإنسان من الأشياء التى يعظم حزن صاحبها بها حتى لا يقدر على إخفائها، كذا قال أهل اللغة، و هو مأخوذ من بثثته: أى فرّقته، فسمّيت المصيبة بثّا مجازا. قال ذو الرمّة:

وقفت على ربع لميّة ناقتى‌فما زلت أبكى عنده و أخاطبه

و أسقيه حتّى كاد مما أبثّه «1»تكلّمنى أحجاره و ملاعبة

و قد ذكر المفسرون أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزنا، و إن لم يقدر على كتمه كان ذلك بثّا، فالبثّ على هذا: أعظم الحزن و أصعبه؛ و قيل: البثّ: الهمّ؛ و قيل: هو الحاجة، و على هذا القول يكون عطف الحزن على البثّ واضح المعنى. و أما على تفسير البثّ بالحزن العظيم، فكأنه قال: إنما أشكو حزنى العظيم و ما دونه من الحزن إلى اللّه لا إلى غيره من الناس. و قد قرئ «حزنى» بضم الحاء و سكون الزاى «و حزنى» بفتحهما وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ أى أعلم من لطفه و إحسانه و ثوابه على المصيبة ما لا تعلمونه أنتم؛ و قيل: أراد علمه بأن يوسف حىّ؛ و قيل: أراد علمه بأن رؤياه صادقة؛ و قيل: أعلم من إجابة المضطرين إلى اللّه ما لا تعلمون يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ التحسّس بمهملات: طلب الشىء بالحواس، مأخوذ من الحسّ، أو من الإحساس، أى: اذهبوا فتعرّفوا خبر يوسف و أخيه و تطلبوه، و قرئ بالجيم، و هو أيضا التطلب وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ أى: لا تقنطوا من فرجه و تنفيسه. قال الأصمعى: الروح ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن

إليه، و التركيب يـدلّ على الحركـة و الهزّة، فكـلّ مـا يهتزّ الإنسان بوجوده و يلتـذّ به فهو روح. و حكى الواحـدى عن الأصـمعى أيضا أنه قال:

الروح الاستراحـة مـن غمّ القلب. و قـال أبـو عمرو: الروح: الفرج، و قيـل: الرحمـة إِنَّهُ لاـ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَـوْمُ الْكـافِرُونَ لكونهم لا يعلمون بقدرة اللّه سبحانه، و عظيم صنعه، و خفىّ ألطافه. قوله:

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ أى على يوسف، و فى الكلام حـذف، و التقـدير: فـذهبوا كمـا أمرهم أبوهم إلى مصـر ليتحسّـسوا من يوسف و أخيه، فلمـا دخلوا على يوسف قـالُوا يـا أَيُّهَا الْعَزِيزُ أى الملـك الممتنع القادر مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ أى الجوع و الحاجـة. و فيه دليل على أنه تجوز الشّكوى عند الضرورة إذا خاف من إصابته على نفسه كما يجوز للعليل أن يشكو إلى الطبيب ما يجده من العلة، و هذه المرّة التى دخلوا فيها مصر

---

(١). أبثّه: بضم الهمزة و كسر الباء أفصح من أبثّه بفتح الهمزة و ضم الباء (ديوان ذى الرمة ٢/ ٨٢١)

فتح القدير، ج٣، ص: ٦٠

هى المرّة الثالثـة كما يفيده ما تقدّم من سياق الكتاب العزيز وَ جِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ البضاعة: هى القطعة من المال يقصد بها شـراء شىء، يقال: أبضـعت الشـىء و استبضـعته؛ إذا جعلته بضاعة، و فى المثل «كمستبضع التمر إلى هجر» «١» و الإزجاء: السوق بدفع. قـال الواحـدى: الإزجـاء فى اللغـة السوق و الـدفع قليلاـ قليلا، و منه قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَـحاباً «٢»، و المعنى: أنها بضاعة تدفع و لا يقبلها التجار. قال ثعلب:

البضاعة المزجاة: الناقصة غير التامة. قال أبو عبيدة: إنما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة.

و اختلف فى هـذه البضاعـة ما هى؟ فقيل: كانت قديـدا و حيسا «٣»، و قيل: صوف و سـمن، و قيل: الحبة الخضـراء و الصنوبر، و قيل: دراهم رديئـة، و قيل: النعال و الأدم. ثم طلبوا منه بعد أن أخبروه بالبضاعة التى معهم أن يوفى لهم الكيل، أى: يجعله تاما لا نقص فيه، و طلبوا منه أن يتصـدّق عليهم إمـا بزيـادة يزيـدها لهم على مـا يقابـل بضاعتهم، أو بالإغماض عن رداءة البضاعـة التى جاءوا بها، و أن يجعلها كالبضاعـة الجيـدة فى إيفاء الكيل لهم بها، و بهذا قال أكثر المفسـرين؛ و قد قيل: كيف يطلبون التصدّق عليهم و هم أنبيـاء و الصدقـة محرّمـة على الأنبيـاء؟ و أجيب باختصاص ذلك بنبينا محمـد صـلّى اللّه عليه و سـلّم: إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ بما يجعله لهم من الثواب الأخروى، أو التّوسيع عليهم فى الدنيا.

و قـد أخرج ابن جرير و ابن أبى حـاتم و أبـو الشـيخ عن قتـادة فى قوله: عَسَـى اللَّهُ أَنْ يَـأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعاً قـال: يوسف و أخيه و روبيل. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال: يوسف و أخيه و كبيرهم الذى تخلف. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ قال: يا حزنا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة مثله. و أخرجوا عن مجاهد قال: يا جزعا. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَهُوَ كَظِيمٌ قال: حزين. و أخرج ابن المبارك و عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قال: كظم على الحزن فلم يقل إلا خيرا.

و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر عن عطاء الخراسـانى قال: كظيم مكروب. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمـة مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الضـحاك قال: الكظيم الكمد. و أخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن ابن عباس فى قوله: تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ قال: لا تزال تذكر يوسف حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً قال:

دنفـا من المرض أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهـالِكِينَ قـال: الميـتين. و أخرج هؤلاـء عن مجاهـد نحوه و أخرج عبـد الرزاق و ابن جرير و ابن

المنـذر و أبو الشـيخ عن قتادة فى قوله: تَفْتَؤُا تَـذْكُرُ يُوسُفَ قال: لا تزال تذكر يوسف حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً قال: هرما، أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ قال: أبو تموت. و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن الضحاك حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً قال: الحرض: البالى،

---

(١). هجر: مدينة بالبحرين.

(٢). النور: ۴٣.

(٣). الحيس: طعام يتخذ من التمر و السمن و اللبن المجفف.

فتح القدير، ج٣، ص: ۶١

أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ قال: من الميّتين. و أخرج ابن جرير و عبد الرزاق عن مسلم بن يسار يرفعه إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من بثّ لم يصبر، ثم قرأ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ . و أخرج ابن مندة فى المعرفة، عن مسلم بن يسار عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فذكره. و أخرج ابن مردويه من حديث عبد اللّه بن عمرو مرفوعا مثله. و أخرج ابن المنـذر و ابن مردويه عن عبد الرحمن بن يعمر مرفوعـا مرسـلا. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و أبو الشـيخ عن ابن عباس فى قوله: إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي قال: همّى.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ قال: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة و أنى سأسجد له.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ فى قوله: وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ قال: من رحمة اللّه.

و أخرج ابن جرير عن الضحاك مثله. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن زيد قال: من فرج اللّه أن يفرج عنكم الغمّ الذى أنتم فيه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ قال: أى الضرّ فى المعيشة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بِبِضاعَةٍ قال: دراهم مُزْجاةٍ قال: كاسدة. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه قال: مزجاة: رثة المتاع خلقة الحبل و الغرارة و الشىء «١». و أخرج أبو عبيد و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه أيضا مزجاة قال: الورق الزيوف التى لا تنفق حتى يوضع منها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن جرير فى قوله: وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنا قال:

اردد علينا أخانا.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٨٩ الى ٩٨]

قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (٨٩) قالُوا أَ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَ إِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (٩١) قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَ أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)

وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩۴) قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩۵) فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٩۶) قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (٩٧) قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)

---

(۱). كذا فى تفسير ابن جرير و ابن كثير و المطبوع، و لعل الصواب (الشنّ) و هو القربة الخلق الصغيرة يكون الماء فيها أبرد من غيرها.

فتح القدير، ج۳، ص: ۶۲

الاستفهام فى قوله: هَلْ عَلِمْتُمْ للتّوبيخ و التّقريع، و قد كانوا عالمين بذلك، و لكنه أراد ما ذكرناه، و يستفاد منه تعظيم الواقعة لكونه فى قوّة؛ ما أعظم الأمر الذى ارتكبتم من يوسف و أخيه، و ما أقبح ما أقدمتم عليه؟ كما يقال للمذنب: هل تدرى من عصيت؟ و الذى فعلوا بيوسف هو ما تقدّم ممّا قصّه اللّه سبحانه علينا فى هذه السورة، و أما ما فعلوا بأخيه؛ فقال جماعة من المفسرين: هو ما أدخلوه عليه من الغمّ بفراق أخيه يوسف، و ما كان يناله منهم من الاحتقار و الإهانة، و لم يستفهمهم عمّا فعلوا بأبيهم يعقوب مع أنه قد ناله منهم ما قصّه فيما سبق من صنوف الأذى. قال الواحدى: و لم يذكر أباه يعقوب مع عظم ما دخل عليه من الغمّ بفراقه تعظيما له و رفعا من قدره، و علما بأن ذلك كان بلاء له من اللّه عزّ و جلّ ليزيد فى درجته عنده إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ نفى عنهم العلم و أثبت لهم صفة الجهل؛ لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم، و قيل:

إنه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم و تخفيف الأمر عليهم، فكأنه قال: إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الإثم و قصور معارفكم عن عاقبته، و ما يترتّب عليه، أو أراد أنهم عند ذلك فى أوان الصبا و زمان الصغر، اعتذارا لهم و دفعا لما يدهمهم من الخجل و الحيرة مع علمه و علمهم بأنهم كانوا فى ذلك الوقت كبارا قالُوا أَ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قرأ ابن كثير «إنك» على الخبر بدون استفهام، و قرأ الباقون على الاستفهام التقديرى، و كان ذلك منهم على طريق التعجب و الاستغراب، قيل:

سبب معرفتهم له بمجرد قوله لهم: ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ أنهم لما قال لهم ذلك تنبهوا و فهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا إلا هو؛ و قيل: إنه لما قال لهم بهذه المقالة وضع التاج عن رأسه فعرفوه؛ و قيل: إنه تبسّم فعرفوا ثناياه قالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هذا أَخِي أجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه. قال ابن الأنبارى: أظهر الاسم فقال أنا يوسف و لم يقل أنا هو، تعظيما لما وقع به من ظلم إخوته، كأنه قال: أنا المظلوم المستحل منه المحرّم المراد قتله. فاكتفى بإظهار الاسم عن هذه المعانى، و قال: و هذا أخى مع كونهم يعرفونه و لا ينكرونه؛ لأنّ قصده و هذا أخى المظلوم كظلمى قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا بالخلاص عمّا ابتلينا به؛ و قيل: منّ اللّه علينا بكل خير فى الدنيا و الآخرة؛ و قيل: بالجمع بيننا بعد التفرق، و لا مانع من إرادة جميع ذلك إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ قرأ الجمهور بالجزم على أنّ من شرطية. و قرأ ابن كثير بإثبات الياء فى يتقى. كما فى قول الشاعر:

إ لم يأتيك و الأنباء تنمىبما لاقت لبون بنى زياد

و قيل: إنه جعل من موصولة لا شرطية، و هو بعيد. و المعنى: إنه من يفعل التقوى أو يفعل ما يقيه عن الذنوب و يصبر على المصائب فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ على العموم، فيدخل فيه ما يفيده السياق دخولا أوّليا، و جاء بالظاهر، و كان المقام مقام المضمر، أى: أجرهم للدلالة على أنّ الموصوفين بالتقوى موصوفون بصفة الإحسان قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا أى لقد اختارك و فضّلك علينا بما خصّك به من صفات الكمال، و هذا اعتراف منهم بفضله و عظيم قدره، و لا يلزم من ذلك أن لا يكونوا أنبياء، فإنّ

فتح القدير، ج۳، ص: ۶۳

درج الأنبياء متفاوتة، قال اللّه تعالى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ «۱». وَ إِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ أى: و إن الشأن ذلك. قال أبو عبيدة: خطىء و أخطأ بمعنى واحد. و قال الأزهرى: المخطئ من أراد الصواب فصار إلى غيره، و منه قولهم: المجتهد يخطئ و يصيب، و الخاطئ من تعمّد ما لا ينبغى. قالوا هذه المقالة المتضمنة للاعتراف بالخطإ و الذنب استجلابا لعفوه و استجذابا لصفحه

قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ التثريب: التّعيير و التوبيخ؛ أى: لا تعيير و لا توبيخ، و لا لوم عليكم. قال الأصمعى: ثرّبت عليه: قبّحت عليه فعله. و قال الزّجّاج: المعنى لاـ إفساد لما بينى و بينكم من الحرمة و حقّ الأخوّة، و لكم عندى الصّلح و العفو، و أصل التثريب الإفساد، و هى لغة أهل الحجاز. و قال ابن الأنبارى: معناه قد انقطع عنكم توبيخى عند اعترافكم بالذنب. قال ثعلب: ثرب فلان على فلان إذا عدّد عليه ذنوبه، و أصل التثريب من الثرب، و هو الشّحم الذى هو غاشية الكرش، و معناه إزالة التثريب، كما أنّ التجليد و التّقريع إزالة الجلد و القرع و انتصاب اليوم بالتثريب؛ أى: لا أثرب عليكم أو منتصب بالعامل المقدّر فى عليكم و هو مستقرّ أو ثابت أو نحوهما، أى: لاـ تثريب مستقرّ أو ثابت عليكم. و قد جوّز الأخفش الوقف على عَلَيْكُمُ فيكون اليوم متعلّق بالفعل الذى بعده. و قد ذكر مثل هذا ابن الأنبارى، ثم دعا لهم بقوله: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ على تقدير الوقف على اليوم، أو أخبرهم بأن اللّه قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على عليكم وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ يرحم عباده رحمة لاـ يتراحمون بها فيما بينهم، فيجازى محسنهم و يغفر لمسيئهم. قوله: اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا قيل: هذا القميص هو القميص الذى ألبسه اللّه إبراهيم لما ألقى فى النار، و كساه إبراهيم إسحاق، و كساه إسحاق يعقوب. و كان يعقوب أدرج هذا القميص فى صبة «٢» و علّقه فى عنق يوسف لما كان يخاف عليه من العين، فأخبر جبريل يوسف أن يرسل به إلى يعقوب ليعود عليه بصره لأنّ فيه ريح الجنة، و ريح الجنة لا يقع على سقيم إلا شفى و لا مبتلى إلا عوفى فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً أى يصير بصيرا، على أن «يأت» هى التى من أخوات كان، قال الفرّاء: يرجع بصيرا. و قال السدّى: يعود بصيرا.

و قيل معناه: يأت إلىّ إلى مصر و هو بصير قد ذهب عنه العمى، و يؤيده قوله: وَ أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ أى جميع من شمله لفظ الأهل من النساء و الذرارى، قيل: كانوا نحو سبعين، و قيل: ثلاثة و تسعين وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ أى خرجت منطلقة من مصر إلى الشام. يقال: فصل فصولا، و فصلته فصلا، لازم و متعد، و يقال: فصل من البلد فصولا: إذا انفصل عنه و جاوز حيطانه قالَ أَبُوهُمْ أى يعقوب لمن عنده فى أرض كنعان من أهله إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ قيل: إنها هاجت ريح فحملت ريح القميص إلى يعقوب مع طول المسافة، فأخبرهم بما وجد. ثم قال: لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ لو لا أن تنسبونى إلى الفند، و هو ذهاب العقل من الهرم، يقال أفند الرجل: إذا خرف و تغيّر عقله. و قال أبو عبيدة: لو لا أن تسفهون، فجعل الفند السفه، و قال الزجاج: لو لا أن تجهلون، فجعل الفند الجهل، و يؤيد قول من قال إنه السفه قول النابغة:

---

(١). البقرة: ٢٥٣.

(٢). فى تفسير القرطبى (٩/ ٢٥٨): قصبة من فضة.

 إلّا سليمان إذ قال المليك له قم فى البريّة فاحددها عن الفند

أى أمنعها عن السّفه. و قال أبو عمرو الشيبانى: التفنيد: التقبيح، و منه قول الشاعر:

يا صاحبيّ دعا لومى و تفنيدى فليس ما فات من أمرى بمردود

و قيل: هو الكذب، و منه قول الشاعر:

هل فى افتخار الكريم من أود «١» أم هل لقول الصدّيق من فند

و قال ابن الأعرابى لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ لو لا أن تضعّفوا رأيى. و روى مثله عن أبى عبيدة. و قال الأخفش: التفنيد اللوم و ضعف الرأى. و كل هذه المعانى راجع إلى التعجيز و تضعيف الرأى، يقال: فنّده تفنيدا: إذا أعجزه، و أفند: إذا تكلم بالخطإ، و الفند: الخطأ فى الكلام، و ممّا يدل على إطلاقه على اللوم قول الشاعر:

يا عاذليّ دعا الملام و أقصرا طال الهوى و أطلتما التّفنيدا

أخبرهم يعقوب بأن الصبا قد حملت إليه ريح حبيبه، و أنه لو لا ما يخشاه من التفنيد لما شكّ فی ذلك:

فإن الصّبا ريح إذا ما تنفستعلی نفس مهموم تجلت همومها

إذا قلت هذا حين أسلو يهيجنىنسيم الصّبا من حيث ما يطلع الفجر

و لقد تهبّ لی الصّبا من أرضهافيلذّ مسّ هبوبها و يطيب

قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِی ضَلالِكَ الْقَدِيمِ أی قال الحاضرون عنده من أهله: إنك يا يعقوب لفی ذهابك عن طريق الصواب الذی كنت عليه قديما من إفراط حبك ليوسف لا تنساه، و لا تفتر عنه، و لسان حال يعقوب يقول لهم:

لا يعرف الشوق إلا من يكابدهو لا الصّبابة إلا من يعانيها

لا تعذل المشتاق فی أشواقهحتی تكون حشاك فی أحشائه

و قيل: المعنی: إنك لفی جنونك القديم، و قيل: فی محبتك القديمة. قالوا له ذلك لأنه لم يكن قد بلغهم قدوم البشير فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ قال المفسرون: البشير: هو يهوذا بن يعقوب قال لإخوته: أنا جئته بالقميص ملطخا بالدم، فأعطنی اليوم قميصك لأخبره أنك حیّ، فأفرحه كما أحزنته أَلْقاهُ عَلی وَجْهِهِ أی ألقی البشير قميص يوسف علی وجه يعقوب، أو ألقاه يعقوب علی وجه نفسه فَارْتَدَّ بَصِيراً الارتداد:

انقلاب الشیء إلی حال قد كان عليها، و المعنی: عاد و رجع إلی حالته الأولی من صحة بصره قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ أی قال يعقوب لمن كان عنده من أهله الذين قال لهم: إنّی لأجد ريح يوسف، ألم أقل لكم هذا القول

---

(١). «أود»: عوج.

فتح القدير، ج٣، ص: ٦٥

فقلتم ما قلتم، و يكون قوله: إِنِّی أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ كلاما مبتدأ لا يتعلق بالقول، و يجوز أن تكون جملة إِنِّی أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ مقول القول، و يريد بذلك إخبارهم بما قاله لهم سابقا:

إِنَّما أَشْكُوا بَثِّی وَ حُزْنِی إِلَی اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ «١». قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ طلبوا منه أن يستغفر لهم، و اعترفوا بالذنب، و فی الكلام حذف، و التقدير: و لما رجعوا من مصر و وصلوا إلی أبيهم قالوا هذا القول، فوعدهم بما طلبوه منه و قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّی قال الزّجّاج: أراد يعقوب أن يستغفر لهم فی وقت السحر؛ لأنه أخلق بإجابة الدعاء، لا أنه بخل عليهم بالاستغفار، و قيل: أخّره إلی ليلة الجمعة، و قيل: أخّره إلی أن يستحلّ لهم من يوسف، و لم يعلم أنه قد عفا عنهم، و جملة إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ تعليل لما قبله.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن عكرمة فی قوله: لا تَثْرِيبَ قال: لا تعيير. و أخرج أبو الشيخ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: «لما فتح رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم مكة التفت إلی الناس فقال:

ماذا تقولون؟ و ماذا تظنون؟ فقالوا: ابن عمّ كريم، فقال: لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم».

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه. و أخرج البيهقی فی «الدلائل» عن أبی هريرة مرفوعا نحوه.

و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن عطاء الخراسانی قال: طلب الحوائج إلی الشباب أسهل منها عند الشيوخ؛ ألم تر إلی قول يوسف لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ و قال يعقوب: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّی

أقول: و فی هذا الكلام نظر فإنهم طلبوا من يوسف أن يعفو عنهم بقولهم: لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا فقال: لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ لأنّ مقصودهم صدور العفو منه عنهم، و طلبوا من أبيهم يعقوب أن يستغفر اللّه لهم، و هو لا يكون إلا بطلب ذلك منه إلی اللّه عزّ و

جلّ، و بين المقامين فرق، فلم يكن وعد يعقوب لهم بخلا عليهم بسؤال اللّه لهم، و لا سيما إذا صح ما تقدّم من أنه أخّر ذلك إلى وقت الإجابة؛ فإنه لو طلبه لهم فى الحال لم يحصل له علم بالقبول.

و أخرج الحكيم الترمذى و أبو الشيخ عن وهب بن منبه قال: لما كان من أمر إخوة يوسف ما كان، كتب يعقوب إلى يوسف و هو لا يعلم أنه يوسف: بسم اللّه الرحمن الرحيم، من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إلى عزيز آل فرعون، سلام عليك فإنى أحمد إليك اللّه الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فإنا أهل بيت مولع بنا أسباب البلاء، كان جدّى إبراهيم خليل اللّه ألقى فى النار فى طاعة ربه، فجعلها اللّه عليه بردا و سلاما، و أمر اللّه جدّى أن يذبح له أبى ففداه اللّه بما فداه، و كان لى ابن و كان من أحبّ الناس إلىّ ففقدته، فأذهب حزنى عليه نور بصرى، و كان له أخ من أمه كنت إذا ذكرته ضممته إلى صدرى فأذهب عنى بعض وجدى، و هو المحبوس عندك فى السرقة، و إنى أخبرك أنى لم أسرق، و لم ألد سارقا؛ فلما قرأ يوسف الكتاب بكى و صاح و قال:

اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيراً. و أخرج أبو الشيخ عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم

---

(۱). يوسف: ۸۶.

فتح القدير، ج۳، ص: ۶۶

قال فى قوله: اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هذا: «أنّ نمروذ لما ألقى إبراهيم فى النار؛ نزل إليه جبريل بقميص من الجنة و طنفسة من الجنة، فألبسه القميص و أقعده على الطنفسة، و قعد معه يتحدّث، فأوحى اللّه إلى النار فى قوله: كُونِى بَرْداً وَ سَلاماً. و لو لا أنه قال و سلاما لآذاه البرد». و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مرفوعا: «إن اللّه كسا إبراهيم ثوبا من الجنة، فكساه إبراهيم إسحاق، و كساه إسحاق يعقوب، فأخذه يعقوب فجعله فى قصبة من حديد و علّقه فى عنق يوسف، و لو علم إخوته إذ ألقوه فى الجب لأخذوه؛ فلما أراد اللّه أن يردّ يوسف على يعقوب كان بين رؤياه و تعبيره أربعون سنة أمر البشير أن يبشره من ثمان مراحل، فوجد يعقوب ريحه فقال: إنى لأجد ريح يوسف لو لا أن تفندون، فلما ألقاه على وجهه ارتدّ بصيرا، و ليس يقع شيء من الجنة على عاهة من عاهات الدنيا إلا أبرأها بإذن اللّه».

و أخرج عبد الرزاق و الفريابى، و أحمد فى الزهد، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قال: لما خرجت العير هاجت الريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ تسفهون، فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه قال: وجد ريحه من مسيرة عشرة أيام. و أخرج ابن أبى حاتم من وجه آخر عنه قال: وجده من مسيرة ثمانين فرسخا. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عنه أيضا: لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ قال: تجهلون. و أخرج ابن جرير عنه أيضا، قال: تكذبون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: تهرمون، يقولون قد ذهب عقلك. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن الربيع قال: لو لا أن تحمّقون.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس إِنَّكَ لَفِى ضَلالِكَ الْقَدِيمِ يقول: خطئك القديم. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: جنونك القديم. و أخرج ابن جرير عن مجاهد قال:

حبك القديم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: البشير البريد. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن الضحّاك مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سفيان قال: البشير هو يهوذا بن يعقوب. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: لما أن جاء البشير إلى يعقوب فألقى عليه القميص قال: على أىّ دين خلفت يوسف؟ قال: على الإسلام. قال: الآن تمت النعمة. و أخرج أبو عبيد و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن ابن مسعود

فی قوله: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَکَمْ رَبِّی قال: إن یعقوب أخّر بنیه إلی السّحر. و أخرج ابن المنذر و ابن مردویه عن ابن عباس قال: أخّرهم إلی السّحر، و کان یصلّی بالسّحر. و أخرج أبو الشیخ و ابن مردویه عنه قال: أخّرهم إلی السحر لأنّ دعاء السّحر مستجاب. و أخرج ابن جریر و أبو الشیخ عنه أیضا قال: قال النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فی قصة: «هو قول أخی یعقوب لبنیه: سوف أستغفر لکم ربی» یقول: حتی تأتی لیلة الجمعة.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۶۷

[سورة یوسف (۱۲): الآیات ۹۹ الی ۱۰۱]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلی یُوسُفَ آوی إِلَیْهِ أَبَوَیْهِ وَ قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِینَ (۹۹) وَ رَفَعَ أَبَوَیْهِ عَلَی الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قالَ یا أَبَتِ هذا تَأْوِیلُ رُءْیایَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّی حَقًّا وَ قَدْ أَحْسَنَ بِی إِذْ أَخْرَجَنِی مِنَ السِّجْنِ وَ جاءَ بِکُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّیْطانُ بَیْنِی وَ بَیْنَ إِخْوَتِی إِنَّ رَبِّی لَطِیفٌ لِما یَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ (۱۰۰) رَبِّ قَدْ آتَیْتَنِی مِنَ الْمُلْکِ وَ عَلَّمْتَنِی مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحادِیثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِیِّی فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ تَوَفَّنِی مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ (۱۰۱)

قوله: فَلَمَّا دَخَلُوا عَلی یُوسُفَ لعلّ فی الکلام محذوفا مقدّرا، و هو: فرحل یعقوب و أولاده و أهله إلی مصر، فلما دخلوا علی یوسف آوی إلیه أبویه، أی: ضمّهما و أنزلهما عنده. قال المفسرون: المراد بالأبوین هنا یعقوب و زوجته خالة یوسف؛ لأنّ أمه قد کانت ماتت فی ولادتها لأخیه بنیامین کما تقدم؛ و قیل: أحیا اللّه له أمه تحقیقا للرؤیا حتی سجدت له، فی قوله: وَ قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِینَ ممّا تکرهون، و قد کانوا فیما مضی یخافون ملوک مصر، و لا یدخلونها إلا بجواز منهم. قیل: و التقیید بالمشیئة عائد إلی الأمن، و لا مانع من عوده إلی الجمیع؛ لأنّ دخولهم لا یکون إلا بمشیئة اللّه سبحانه، کما أنهم لا یکونون آمنین إلا بمشیئته؛ و قیل: إنّ التقیید بالمشیئة راجع إلی قوله: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَکُمْ رَبِّی و هو بعید. و ظاهر النظم القرآنی: أن یوسف قال لهم هذه المقالة، أی: ادخلوا مصر قبل دخولهم، و قد قیل فی توجیه ذلک أنه تلقّاهم إلی خارج مصر، فوقف منتظرا لهم فی مکان أو خیمة، فدخلوا علیه ف آوی إِلَیْهِ أَبَوَیْهِ وَ قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ فلما دخلوا مصر، و دخلوا علیه دخولا آخر فی المکان الذی له بمصر رَفَعَ أَبَوَیْهِ عَلَی الْعَرْشِ أی أجلسهما معه علی السریر الذی یجلس علیه کما هو عادة الملوک وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً أی الأبوان و الإخوة؛ و المعنی: أنهم خرّوا لیوسف سجدا، و کان ذلک جائزا فی شریعتهم، منزّلا منزلة التحیة؛ و قیل: لم یکن ذلک سجودا بل هو مجرد إیماء، و کانت تلک تحیتهم، و هو یخالف معنی: و خرّوا له سجدا، فإن الخرور فی اللغة المقید بالسجود لا یکون إلا بوضع الوجه علی الأرض؛ و قیل: الضمیر فی قوله: لَهُ راجع إلی اللّه سبحانه، أی: و خرّوا للّه سجدا، و هو بعید جدا؛ و قیل: إن الضمیر لیوسف، و اللام للتعلیل، أی: و خرّوا لأجله، و فیه أیضا بعد. و قال یوسف: یا أَبَتِ هذا تَأْوِیلُ رُءْیایَ یعنی التی تقدّم ذکرها مِنْ قَبْلُ أی: من قبل هذا الوقت قَدْ جَعَلَها رَبِّی حَقًّا بوقوع تأویلها علی ما دلّت علیه وَ قَدْ أَحْسَنَ بِی إِذْ أَخْرَجَنِی مِنَ السِّجْنِ الأصل أن یتعدّی فعل الإحسان بإلی، و قد یتعدّی بالباء کما فی قوله تعالی: وَ بِالْوالِدَیْنِ إِحْساناً، و قیل: إنه ضمن أحسن معنی لطف، أی: لطف بی محسنا، و لم یذکر إخراجه من الجبّ؛ لأن فی ذکره نوع تثریب للإخوة، و قد قال: لا تثریب علیکم، و قد تقدّم سبب سجنه و مدّة بقائه فیه؛ و قد قیل: إن وجه عدم ذکر إخراجه من الجبّ أن المنة کانت فی إخراجه من السجن أکبر من المنة فی إخراجه من الجبّ، و فیه نظر وَ جاءَ بِکُمْ مِنَ الْبَدْوِ أی البادیة، و هی أرض کنعان بالشام، و کانوا أهل مواش و بریّة؛ و قیل: إن اللّه لم یبعث نبیا من البادیة، و أن المکان الذی کان فیه یعقوب یقال

فتح القدیر، ج۳، ص: ۶۸

له «بدا»، و إیاه عنی جمیل بقوله:

و أنت التى «١» حبّبت شغبا إلى بدا «٢»إلىّ و أوطانى بلاد سواهما

و فيه نظر مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي أى أفسد بيننا، و حمل بعضنا على بعض، يقال نزغه إذا نخسه، فأصله من نخس الدابة ليقوى مشيها، و أحال يوسف ذنب إخوته على الشيطان تكرّما منه و تأدّبا إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ اللطيف: الرفيق، قال الأزهرى: اللطيف من أسماء اللّه تعالى معناه الرفيق بعباده، يقال: لطف فلان بفلان يلطف؛ إذا رفق به، و قال عمرو بن أبى عمرو: اللطيف الذى يوصل إليك أربك فى لطف. قال الخطابى: اللطيف هو البرّ بعباده الذى يلطف بهم من حيث لا يعلمون، و يسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون، و قيل: اللطيف العالم بدقائق الأمور، و معنى لما يشاء: لأجل ما يشاء حتى يجىء على وجه الصواب إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ أى العليم بالأمور الحكيم فى أفعاله، و لما أتم اللّه نعمته على يوسف عليه السلام بما خلصه منه من المحن العظيمة و بما خوّله من الملك و علّمه من العلم، تاقت نفسه إلى الخير الأخروى الدائم الذى لا ينقطع، فقال: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ من للتبعيض، أى: بعض الملك، لأنه لم يؤت كل الملك، إنما أوتى ملكا خاصا، و هو ملك مصر فى زمن خاص وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ أى بعضها، لأنه لم يؤت جميع علم التأويل سواء أريد به مطلق العلم و الفهم، أو مجرد تأويل الرؤيا؛ و قيل: من للجنس كما فى قوله: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ و قيل: زائدة، أى: آتيتنى الملك و علّمتنى تأويل الأحاديث فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ منتصب على أنه صفة لربّ، لكونه منادى مضافا، و يجوز أن يكون انتصابه على أنه منادى بحرف مقدّر، أى: يا فاطر، و الفاطر: الخالق و المنشئ و المخترع و المبدع أَنْتَ وَلِيِّي أى ناصرى و متولّى أمورى فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ تتولانى فيهما تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ أى توفنى على الإسلام لا يفارقنى حتى أموت، و ألحقنى بالصالحين من النبيين من آبائى و غيرهم؛ فأظفر بثوابهم منك و درجاتهم عندك. قيل: إنه لما دعا بهذا الدعاء توفّاه اللّه عزّ و جلّ، قيل: كان عمره عند أن ألقى فى الجبّ سبع عشرة سنة، و كان فى العبودية و السجن و الملك ثمانين سنة إلى قدوم أبيه يعقوب عليه، ثم عاش بعد اجتماع شملهم حتى كمل عمره المقدار الذى سيأتى و توفاه اللّه. قيل:

لم يتمنّ الموت أحد غير يوسف لا نبىّ و لا غيره. و ذهب الجمهور إلى أنه لم يتمنّ الموت بهذا الدعاء، و إنما دعا ربه أن يتوفاه على الإسلام و يلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله.

و قد أخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة قال: دخل يعقوب مصر فى ملك يوسف و هو ابن مائة و ثلاثين سنة، و عاش فى ملكه ثلاثين سنة، و مات يوسف و هو ابن مائة و عشرين سنة. قال أبو هريرة: و بلغنى أنه كان عمر إبراهيم خليل اللّه مائة و خمسة و تسعين سنة. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله:

---

(١). فى المطبوع: الذى! و المثبت من الديوان ص (٢٠٠)

(٢). شغب: موضع بين المدينة و الشام. بدا: واد قرب أيلة من ساحل البحر.

آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ قال: أبوه و أمه ضمهما. و أخرجا عن وهب قال أبوه و خالته، و كانت توفّيت أمّ يوسف فى نفاس أخيه بنيامين. و أخرج أبو الشيخ نحوه عن سفيان بن عيينة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ قال: السرير. و أخرج ابن أبى حاتم عن عدىّ بن حاتم فى قوله: وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً قال: كانت تحية من كان قبلكم فأعطاكم اللّه السلام مكانها. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن زيد قال: ذلك سجود تشرفة كما سجدت الملائكة تشرفة لآدم، و ليس سجود عبادة. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ قال: لطيف ليوسف و صنع له حين أخرجه من السجن، و جاء بأهله من

البـدو، و نزع مـن قلبه نزغ الشـيطان و تحريشه على إخـوته. و أخرج ابن أبى حـاتم عن ابن عبـاس قـال: مـا سـأل نـبىّ الوفـاة غير يوسف. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عنه قال:
اشتاق إلى لقاء اللّه و أحب أن يلحق به و بآبائه، فدعا اللّه أن يتوفاه، و أن يلحقه بهم و أخرج أبو الشيخ عن الضحّاک فى قوله: وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ قال: يعنى إبراهيم و إسـماعيل و إسـحاق و يعقوب. و أخرج عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: يعنى أهل الجنة.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٠٢ الى ١٠٨]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَ ما أَكْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَ ما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (١٠٤) وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)
أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي وَ سُبْحانَ اللَّهِ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)
الخطـاب بقوله: ذلِكَ لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم و هو مبتـدأ خبره مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ و نُوحِيهِ إِلَيْكَ خبر ثان. قال الزّجّاج: و يجوز أن يكون ذلک بمعنى الـذى و نوحيه خبره، أى الذى من أنباء الغيب نوحيه إليک. و المعنى: الإخبار من اللّه تعالى لرسوله بأن هـذا الـذى قصّه عليه من أمر يوسف و إخوته من الأخبار التى كانت غائبـة عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم، فأوحاه اللّه إليه و أعلمه به، و لم يكن عنده قبل الوحى شىء من ذلک، و فيه تعريض بكفار قريش، لأنّهم كانوا مكذّبين له صلّى اللّه عليه و سلّم بمـا جـاء به جحودا و عنـادا و حسـدا مع كونهم يعلمون حقيقـة الحـال وَ مـا كُنْتَ لَدَيْهِمْ أى لـدى إخوة يوسف إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ إجمـاع الأـمر: العزم عليه، أى: و مـا كنت لـدى إخوة يوسف إذ عزموا جميعـا على إلقائه فى الجبّ وَ هُمْ فى تلك الحالة يَمْكُرُونَ به: أى بيوسف فى هذا الفعل الذى فعلوه به و يبغونه الغوائل، و قيل: الضمير ليعقوب، أى: يمكرون بيعقوب حين جاءوه بقميص يوسف ملطخا بالـدم، و قالوا: أكله الـذئب. و إذا لم يكن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم لـديهم عنـد أن فعلوا ذلک؛ انتفى علمه بـذلک مشاهـدة، و لم يكن بين قوم لهم علم بـأحوال الأـمم السالفـة و لاـ خالطهم و لا خالطوه، فانتفى علمه بـذلک بطريق الرواية عن الغير، فلم يبق لعلمه بذلک طريق إلا مجرّد الوحى من
فتح القدير، ج‌٣، ص: ٧٠
اللّه سـبحانه، فهذا يسـتلزم الإيمان بما جاء به، فلما لم يؤمن بذلک من عاصـره من الكفار، قال اللّه سـبحانه ذاكرا لهذا: وَ ما أَكْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ أى و مـا أكثر النـاس المعاصـرين لـک يـا محمـد، أو مـا أكثر الناس على العموم و لو حرصت على هدايتهم، و بالغت فى ذلک، بمؤمنين باللّه لتصميمهم على الكفر الذى هو دين آبائهم، يقال: حرص يحرص مثل ضرب يضرب، و فى لغـة ضـعيفة حرص يحرص مثل حمـد يحمـد، و الحرص: طلب الشـىء باجتهاد «١». قـال الزجّـاج: و معناه: و ما أكثر الناس بمؤمنين و لو حرصت على أن تهديهم؛ لأنک لا تهدى من أحببت و لكن اللّه يهدى من يشاء. قال ابن الأنبارى:
إن قريشا و اليهود سألت رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم عن قصة يوسف و إخوته فشـرحهما شرحا شافيا، و هو يؤمل أن يكون ذلک سـببا لإسـلامهم، فخالفوا ظنّه، و حزن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم لـذلک، فعزّاه اللّه بقوله: وَ ما أَكْثَرُ النَّاسِ الآية وَ ما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ أى على القرآن و ما تتلوه عليهم منه، أو على الإيمان و حرصک على وقوعه منهم أو على ما تحدّثهم به من هـذا الحـديث من أجر من مال يعطونک إياه و يجعلونه لک كما يفعله أحبارهم إِنْ هُوَ أى القرآن أو الحـديث الذى حدّثتهم به

إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ أي ما هو إلا ذكر للعالمين كافة لا يختص بهم وحدهم وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال الخليل و سيبويه:

و الأكثرون أن كأين أصلها أيّ دخل عليها كاف التشبيه، لكنه انمحى عن الحرفين المعنى الإفرادى، و صار المجموع كاسم واحد بمعنى كم الخبرية، و الأكثر إدخال «من» فى مميزه، و هو تمييز عن الكاف لا عن أىّ كما فى: مثلك رجلا. و قد مرّ الكلام على هذا مستوفى فى آل عمران. و المعنى: كم من آية تدلهم على توحيد اللّه كائنة فى السموات من كونها منصوبة بغير عمد، مزينة بالكواكب النيرة السيارة و الثوابت، و فى الأرض من جبالها و قفارها و بحارها و نباتها و حيواناتها تدلّهم على توحيد اللّه سبحانه، و أنه الخالق لذلك، الرزاق له المحيى و المميت، و لكنّ أكثر الناس يمرّون على هذه الآيات غير متأملين لها، و لا مفكّرين فيها، و لا ملتفتين إلى ما تدلّ عليه من وجود خالقها، و أنه المتفرد بالألوهية مع كونهم مشاهدين لها يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ و إن نظروا إليها بأعيانهم فقد أعرضوا عما هو الثمرة للنظر بالحدقة، و هى التفكر و الاعتبار و الاستدلال. و قرأ عكرمة و عمرو بن فائد برفع الأرض على أنه مبتدأ، و خبره يمرّون عليها. و قرأ السدّى بنصب الأرض بتقدير فعل. و قرأ ابن مسعود «يمشون عليها» وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ أى و ما يصدّق و يقرّ أكثر الناس باللّه من كونه الخالق الرزاق المحيى المميت إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ باللّه يعبدون معه غيره كما كانت تفعله الجاهلية، فإنهم مقرّون باللّه سبحانه و بأنه الخالق لهم، وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ «٢»، وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ* «٣»، لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدونهم ليقرّبوهم إلى اللّه، ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ «۴» و مثل هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون اللّه، المعتقدون فى الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا اللّه سبحانه كما يفعله كثير من عبّاد القبور، و لا ينافى هذا ما قيل من أن الآية نزلت فى قوم مخصوصين، فالاعتبار بما يدلّ عليه اللفظ لا بما يفيده السبب من

---

(١). فى تفسير القرطبى (٩/ ٢٧١): باختيار.

(٢). الزخرف: ٨٧.

(٣). لقمان: ٢٥.

(۴). الزمر: ٣.

الاختصاص بمن كان سببا لنزول الحكم أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ الاستفهام للإنكار، و الغاشية: ما يغشاهم و يغمرهم من العذاب كقوله تعالى: يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ «١»، و قيل: هى الساعة، و قيل: الصواعق و القوارع، و لا مانع من الحمل على العموم أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أى فجأة، و انتصاب بغتة على الحال. قال المبرّد: جاء عن العرب حال بعد نكرة، و هو قولهم وقع أمر بغتة، يقال: بغتهم الأمر بغتا و بغتة؛ إذا فاجأهم وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ بإتيانه، و يجوز انتصاب بغتة على أنها صفة مصدر محذوف قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أى: قل يا محمد للمشركين هذه الدعوة التى أدعو إليها و الطريقة التى أنا عليها سبيلى: أى طريقتى و سنّتى، فاسم الإشارة مبتدأ و خبره سبيلى، و فسّر ذلك بقوله:

أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أى على حجّة واضحة، و البصيرة: المعرفة التى يتميّز بها الحق من الباطل و الجملة فى محل نصب على الحال أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي أى: و يدعو إليها من اتبعنى و اهتدى بهديى. قال الفرّاء: و المعنى و من اتبعنى يدعو إلى اللّه كما أدعو. و فى هذا دليل على أنّ كلّ متّبع لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حقّ عليه أن يقتدى به فى الدعاء إلى اللّه، أى: الدعاء إلى الإيمان به و توحيده و العمل بما شرعه لعباده وَ سُبْحانَ اللَّهِ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أى: و قل يا محمد لهم سبحان اللّه و ما أنا من

المشركين باللّه الذين يتّخذون من دونه أندادا.

قال ابن الأنبارى: و يجوز أن يتمّ الكلام عند قوله: أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ ثم ابتدأ فقال: عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِی

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ قال: هم بنو يعقوب إذ يمكرون بيوسف. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية يقول: و ما كنت لديهم و هم يلقونه فى غيابة الجب و هم يمكرون بيوسف. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ قال: كم من آية فى السماء يعنى شمسها و قمرها و نجومها و سحابها، و فى الأرض ما فيها من الخلق و الأنهار و الجبال و المدائن و القصور. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ قال: سلهم من خلقهم و من خلق السموات و الأرض فسيقولون اللّه، فذلك إيمانهم و هم يعبدون غيره، و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن عطاء فى قوله: وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ قال: كانوا يعلمون أن اللّه ربهم و هو خالقهم و هو رازقهم، و كانوا مع ذلك يشركون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن الضحاك فى الآية قال: كانوا يشركون به فى تلبيتهم، يقولون: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه و ما ملك. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال: ذلك المنافق يعمل بالرياء و هو مشرك بعمله.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ قال: وقيعة تغشاهم: و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: هذِهِ سَبِيلِی قل: هذه دعوتى.

و أخرج أبو الشيخ عنه قُلْ هذِهِ سَبِيلِی قال: صلاتى. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى

---

(۱). العنكبوت: ۵۵.

الآية قال: أمرى و مشيئتى و منهاجى. و أخرجا عن قتادة فى قوله: عَلى بَصِيرَةٍ أى: على هدى أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِی

[سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱۰۹ الى ۱۱۱]

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِی إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِی الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱۰۹) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّیَ مَنْ نَشاءُ وَ لا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (۱۱۰) لَقَدْ كانَ فِی قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِی الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِی بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۱۱۱)

قوله: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا هذا ردّ على من قال: لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ أى:

لم نبعث من الأنبياء إلى من قبلهم إلا رجالا لا ملائكة، فكيف ينكرون إرسالنا إياك. و تدلّ الآية على أنّ اللّه سبحانه لم يبعث نبيا من النساء و لا من الجنّ، و هذا يرد على من قال: إن فى النساء أربع نبيات: حواء، و آسية، و أم موسى، و مريم. و قد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمرا معروفا عند العرب، حتى قال قيس بن عاصم فى سجاح المتنبئة:

أضحت نبيّتنا أنثى نطيف بهاو أصبحت أنبياء اللّه ذكرانا

فلعنة اللّه و الأقوام كلّهمعلى سجاح و من باللوم أغرانا

نُوحِی إِلَيْهِمْ كما نوحى إليك مِنْ أَهْلِ الْقُرى أى المدائن دون أهل البادية لغلبة الجفاء و القسوة على البدو، و لكون أهل

الأمصار أتمّ عقلا و أكمل حلما و أجلّ فضلا أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ يعنى المشركين المنكرين لنبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: أ فلم يسر المشركون هؤلاء فينظروا إلى مصارع الأمم الماضية فيعتبروا بهم؛ حتى ينزعوا عمّا هم فيه من التكذيب وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أى لدار الساعة الآخرة، أو الحالة الآخرة على حذف الموصوف. و قال الفرّاء: إنّ الدار هى الآخرة، و أضيف الشىء إلى نفسه لاختلاف اللفظ كيوم الجمعة و صلاة الأولى و مسجد الجامع، و الكلام فى ذلك مبين فى كتب الإعراب، و المراد بهذه الدار: الجنة، أى: هى خير للمتقين من دار الدنيا، و قرئ: و للدار الآخرة و قرأ نافع و عاصم و يعقوب أَ فَلا تَعْقِلُونَ بالتاء الفوقية على الخطاب. و قرأ الباقون بالتحتية حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ هذه الغاية لمحذوف دلّ عليه الكلام، و تقديره: و ما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالا، و لم نعاجل أممهم الذين لم يؤمنوا بما جاءوا به بالعقوبة حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ من النصر بعقوبة قومهم، أو حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم لانهماكهم فى الكفر وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا. قرأ ابن عباس و ابن مسعود و أبو عبد الرحمن السلمى و أبو جعفر بن القعقاع و الحسن و قتادة و أبو رجاء العطاردى و عاصم و حمزة و الكسائى و يحيى بن وثّاب و الأعمش و خلف «كُذِبُوا» بالتخفيف،

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٧٣

أى: ظنّ القوم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب و لم يصدقوا. و قيل: المعنى: ظنّ القوم أن الرسل قد كذبوا فيما ادّعوا من نصرهم؛ و قيل: المعنى: و ظنّ الرسل أنها قد كذبتهم أنفسهم حين حدّثتهم بأنهم ينصرون عليهم، أو كذبهم رجاؤهم للنصر. و قرأ الباقون «كذبوا» بالتشديد، و المعنى عليها واضح، أى: ظنّ الرسل بأن قومهم قد كذبوهم فيما و عدوهم به من العذاب، و يجوز فى هذا أن يكون فاعل ظنّ القوم المرسل إليهم على معنى أنهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما جاءوا به من الوعد و الوعيد. و قرأ مجاهد و حميد «قد كذبوا» بفتح الكاف و الذال مخففتين على معنى: و ظنّ قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا؛ و قد قيل: إن الظنّ فى هذه الآية بمعنى اليقين؛ لأن الرسل قد تيقّنوا أن قومهم كذبوهم، و ليس ذلك مجرد ظنّ منهم. و الذى ينبغى أن يفسر الظنّ باليقين فى مثل هذه الصورة و يفسر بمعناه الأصلى فيما يحصل فيه مجرّد ظنّ فقط من الصور السابقة جاءَهُمْ نَصْرُنا أى: فجاء الرسل نصر اللّه سبحانه فجأة، أو جاء قوم الرّسل الذين كذبوهم نصر اللّه لرسله بإيقاع العذاب على المكذّبين فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ قرأ عاصم «فَنُجِّيَ» بنون واحد. و قرأ الباقون «فننجى» بنونين، و اختار أبو عبيدة القراءة الأولى؛ لأنها فى مصحف عثمان كذلك.

و قرأ ابن محيصن «فنجا» على البناء للفاعل، فتكون «مَنْ» على القراءة الأولى فى محل رفع على أنها نائب الفاعل، و تكون على القراءة الثانية فى محل نصب على أنها مفعول، و على القراءة الثالثة فى محل رفع على أنها فاعل، و الذين نجاهم اللّه هم الرسل و من آمن معهم، و هلك المكذّبون وَ لا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ عند نزوله بهم، و فيه بيان من يشاء اللّه نجاته من العذاب و هم من عدا هؤلاء المجرمين لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ أى قصص الرسل و من بعثوا إليه من الأمم، أو فى قصص يوسف و إخوته و أبيه عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ و العبرة: الفكرة و البصيرة المخلصة من الجهل و الحيرة. و قيل: هى نوع من الاعتبار، و هى العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول، و أولو الألباب هم ذوو العقول السليمة الذى يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه مصالح دينهم، و إنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدّة بين النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و بين الرسل الذين قصّ حديثهم، و منهم يوسف و إخوته و أبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم و لا اتصل بأحبارهم ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى أى ما كان هذا المقصوص الذى يدلّ عليه ذكر القصص و هو القرآن المشتمل على ذلك حديثا يفترى وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أى ما قبله من الكتب المنزلة كالتوراة و الإنجيل و الزبور. و قرئ برفع «تصديق» على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو تصديق و تفصيل كل شىء من الشرائع المجملة المحتاجة إلى تفصيلها؛ لأن اللّه سبحانه لم يفرّط فى الكتاب

من شىء؛ و قيل: تفصيل كلّ شىء من قصة يوسف مع إخوته و أبيه. قيل: و ليس المراد به ما يقتضيه من العموم، بل المراد به الأصول و القوانين و ما يؤول إليها وَ هُدىً فى الدنيا يهتدى به كلّ من أراد اللّه هدايته وَ رَحْمَةً فى الآخرة يرحم اللّه بها عباده العاملين بما فيه شرط الإيمان الصحيح، و لهذا قال: لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أى يصدّقون به و بما تضمّنه من الإيمان باللّه و ملائكته و كتبه و رسله و شرائعه و قدره، و أمّا من عداهم فلا ينتفع به و لا يهتدى بما اشتمل عليه من الهدى، فلا يستحقّ ما يستحقونه.

فتح القدير، ج۳، ص: ۷۴

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا قال: أى ليسوا من أهل السماء كما قلتم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: ما نعلم أن اللّه أرسل رسولا قط إلا من أهل القرى، لأنهم كانوا أعلم و أحلم من أهل المعمور. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قال: كيف عذّب اللّه قوم نوح و قوم لوط و قوم صالح و الأمم التى عذّب اللّه. و أخرج البخارى و غيره من طريق عروة أنه سأل عائشة عن قول اللّه سبحانه حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا قال: قلت أكذبوا أم كذّبوا؟ يعنى على هذه الكلمة مخففة أم مشددة، فقالت: بل كذّبوا تعنى بالتشديد، قلت: و اللّه لقد استيقنوا أن قومهم كذّبوهم، فما هو بالظن، قالت: أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك، فقلت: لعلها و ظنوا أنهم قد كذبوا، مخففة، قالت:

معاذ اللّه، لم تكن الرسل لتظنّ ذلك بربّها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا و صدّقوهم، و طال عليهم البلاء، و استأخر عليهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممّن كذّبهم من قومهم، و ظنّت الرسل أن أتباعهم قد كذّبوهم، جاءهم نصر اللّه عند ذلك.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عبد اللّه بن أبى مليكة: أن ابن عباس قرأها عليه وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا مخففة يقول: أخلفوا. و قال ابن عباس: كانوا بشرا، و تلا: حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ قال ابن أبى مليكة: و أخبرنى عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك و أبته، و قالت: و اللّه ما وعد اللّه رسوله من شىء إلا علم أنه سيكون قبل أن يموت، و لكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنّوا أنّ من معهم من المؤمنين قد كذبوهم، و كانت تقرؤها مثقلة. و أخرج ابن مردويه من طريق عروة عن عائشة أن النبى قرأ: و ظنوا أنهم قد كذبوا مخففة. و أخرج أبو عبيد و سعيد بن منصور و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ قَدْ كُذِبُوا مخففة، قال: يئس الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم، و ظنّ قومهم أن الرسل قد كذبوهم بما جاءوا به جاءَهُمْ نَصْرُنا قال: جاء الرسل نصرنا. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشيخ عن تميم بن حذلم قال: قرأت على ابن مسعود القرآن فلم يأخذ علىّ إلا حرفين:

كلّ آتوه داخرين فقال: أتوه مخففة. و قرأت عليه وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا فقال: كذبوا مخففة، قال: استيأس الرسل من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، و ظنّ قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا. و أخرج ابن مردويه من طريق أبى الأحوص عنه قال: حفظت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى سورة يوسف: وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا خفيفة. و للسلف فى هذا كلام يرجع إلى ما ذكرناه من الخلاف عن الصحابة.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ قال: فننجى الرسل و من نشاء وَ لا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ و ذلك أن اللّه بعث الرسل يدعون قومهم، فأخبروهم أنّ من أطاع اللّه نجا و من عصاه عذّب و غوى. و أخرج أبو الشيخ عنه قال: جاءَهُمْ نَصْرُنا العذاب. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى وَ لا يُرَدُّ بَأْسُنا قال: عذابه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: لَقَدْ

فتح القدير، ج۳، ص: ۷۵

كـانَ فِي قَصَصِـهِمْ قال: يوسف و إخوته. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ قال: معروفـة لـذوى العقول. و أخرج ابن جرير و أبو الشـيخ عن قتادة ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى قال: الفريـة: الكـذب، وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ قال: القرآن يصـدّق الكتب التى كـانت قبله من كتب اللّه التى أنزلهـا على أنبيـائه كالتوراة و الإنجيل و الزبور، و يصـدّق ذلك كله و يشهد عليه أن جميعه حقّ من عند اللّه وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ فصل اللّه بين حلاله و حرامه، و طاعته و معصيته.

فتح القدير، ج۳، ص: ۷۶

سورة الرّعد

اشارة

قـد وقع الخلاف هـل هى مكيـة أم مدنيـة؟ فروى النحّـاس فى ناسـخه عن ابن عبـاس أنها نزلت بمكـة. و روى أبو الشـيخ و ابن مردويه عنه أنهـا نزلت بالمدينـة. و ممّن ذهب إلى أنها مكيـة سـعيد بن جبير و الحسن و عكرمـة و عطاء و جابر بن زيـد. و ممّن ذهب إلى أنهـا نزلت بالمدينـة ابن الزبير و الكلبى و مقاتل. و قول ثابت: أنها مدنيـة إلا آيتين منها فإنهما نزلتا بمكـة، و هما قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ «۱» [إلى آخرها] «۲».

و قيل: [مدنية إلا] «۳» قوله: وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ «۴». و قد روى هذا عن ابن عباس أيضا و قتادة. و قد أخرج ابن أبى شـيبة، و المروزى فى الجنائز، عن جابر بن زيد قال: كان يسـتحبّ إذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة الرعد؛ فإن ذلك يخفّف عن الميت، و إنه أهون لقبضه، و أيسر لشأنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الرعد (۱۳): الآيات ۱ الى ۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (۱) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (۲) وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَ أَنْهاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۳) وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۴)

قوله: المر قـد تقـدّم الكلام فى هـذه الحروف الواقعـة فى أوائل السور بما يغنى عن الإعادة، و هو اسم للسورة مرفوع المحل على أنه خبر مبتـدأ محذوف، أو على أنه مبتدأ خبره ما بعده، و التقدير على الأوّل هذه السورة اسـمها هذا، و الإشارة بقوله: تِلْكَ إلى آيات هذه السورة، و المراد بالكتاب السورة، أى:

تلك الآيات آيات السورة الكاملـة العجيبـة الشأن، و يكون قوله: وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ مرادا به القرآن كلّه، أى: هو الحقّ البالغ فى اتّصافه بهذه الصفة، أو تكون الإشارة بقوله: تِلْكَ إلى آيات القرآن جميعه على أن المراد بالكتاب جميع القرآن، و يكون قوله: وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ جملـة مبينـة لكون هـذا المنزل هو الحقّ. قال الفرّاء: و الـذى رفع بالاستئناف و

خبره الحق. قال: و إن شئت

(١). الرعد: ٣١.

(٢). ما بين حاصرتين من تفسير البحر.

(٣). ما بين حاصرتين من الدر المنثور.

(۴). الرعد: ٣١.

فتح القدير، ج٣، ص: ٧٧

جعلت الذى خفضا نعتا للكتاب، و إن كانت فيه الواو كما فى قوله:

إلى الملك القرم و ابن الهمام «١» ....

و يجوز أن يكون محل وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ الجرّ على تقدير: و آيات الذى أنزل إليك، فيكون الحق على هذا خبرا لمبتدأ محذوف وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ بهذا الحق الذى أنزله اللّه عليك، قال الزّجّاج:

ما ذكر أنهم لا يؤمنون ذكر الدليل الذى يوجب التصديق بالخالق فقال: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ و العمد: الأساطين، جمع عماد؛ أى قائمات بغير عمد تعتمد عليه؛ و قيل لها عمد و لكن لا نراه.

قال الزجّاج: العمد قدرته التى يمسك بها السموات، و هى غير مرئية لنا، و قرئ «عمد» على أنه جمع عمود يعمد به؛ أى يسند إليه. قال النابغة:

و خبّر الجنّ أنّى قد أذنت لهميبنون تدمر بالصّفّاح «٢» و العمد

و جملة ترونها مستأنفة استشهاد على رؤيتهم لها كذلك، و قيل: هى صفة لعمد، و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: رفع السموات ترونها بغير عمد، و لا ملجئ إلى مثل هذا التكلف ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ أى استولى عليه بالحفظ و التّدبير، أو استوى أمره، أو أقبل على خلق العرش، و قد تقدّم الكلام على هذا مستوفى، و الاستواء على العرش صفة للّه سبحانه بلا كيف كما هو مقرّر فى موضعه من علم الكلام وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ أى ذلّلهما لما يراد منهما من منافع الخلق و مصالح العباد كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أى كلّ من الشمس و القمر يجرى إلى وقت معلوم؛ و هو فناء الدنيا و قيام الساعة التى تكوّر عندها الشمس، و يخسف القمر، و تنكدر النجوم و تنتثر، و قيل: المراد بالأجل المسمّى درجاتهما و منازلهما التى تنتهيان إليها لا يجاوزانها، و هى سنة للشمس، و شهر للقمر يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أى يصرّفه على ما يريد، و هو أمر ملكوته و ربوبيته يُفَصِّلُ الْآياتِ أى: يبيّنها، و هى الآيات الدالة على كمال قدرته و ربوبيته، و منها ما تقدّم من رفع السماء بغير عمد و تسخير الشمس و القمر و جريهما لأجل مسمّى، و الجملتان فى محل نصب على الحال أو خبر إن لقوله اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ على أن الموصول صفة للمبتدأ، و المراد من هذا تنبيه العباد أنّ من قدر على هذه الأشياء فهو قادر على البعث و الإعادة، و لذا قال: لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ أى لعلّكم عند مشاهدة هذه الآيات توقنون بذلك لا تشكون فيه، و لا تمترون فى صدقه، و لما ذكر الدلائل السماوية أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال: وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ قال الفرّاء: بسطها طولا و عرضا.

و قال الأصمّ: إن المدّ هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه، و هذا المدّ الظاهر للبصر لا ينافى كرويتها فى نفسها لتباعد أطرافها وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ أى جبالا ثوابت. واحدها راسية؛ لأن الأرض ترسو بها، أى:

(١). و تتمة البيت: و ليث الكتيبة فى المزدحم.

«القرم»: السيد. «الكتيبة»: الجيش. «المزدحم»: محلّ الازدحام.

(٢). «الصفاح»: حجارة عراض رقاق.

تثبت، و الإرساء: الثبوت. قال عنترة:

فصبرت «١» عارفة لذلك حرّةترسو إذا نفس الجبان تطلّع

و قال جميل:

أحبّها و الذى أرسى قواعدهحتى «٢» إذا ظهرت آياته بطنا

وَ أَنْهاراً أى مياها جارية فى الأرض فيها منافع الخلق، أو المراد جعل فيها مجارى الماء وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ من كلّ الثمرات متعلّق بالفعل الذى بعده، أى: جعل فيها من كلّ الثمرات زوجين اثنين، الزوج يطلق على الاثنين، و على الواحد المزاوج لآخر، و المراد هنا بالزوج الواحد، و لهذا أكد الزوجين بالاثنين لدفع توهم أنه أريد بالزوج هنا الاثنين، و قد تقدّم تحقيق هذا مستوفى، أى جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين، إما فى اللونية؛ كالبياض و السواد و نحوهما، أو فى الطّعمية؛ كالحلو و الحامض و نحوهما، أو فى القدر؛ كالصغر و الكبر، أو فى الكيفية؛ كالحر و البرد. قال الفراء: يعنى بالزوجين هنا الذكر و الأنثى، و الأول أولى يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ أى يلبسه مكانه، فيصير أسود مظلما بعد ما كان أبيض منيرا، شبه إزالة نور الهدى بالظلمة بتغطية الأشياء الحسية بالأغطية التى تسترها، و قد سبق تفسير هذه فى الأعراف إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ أى فيما ذكر من مدّ الأرض و إثباتها بالجبال، و ما جعله اللّه فيها من الثّمرات المتزاوجة، و تعاقب النور و الظلمة آيات بينة للناظرين المتفكرين المعتبرين: وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ هذا كلام مستأنف مشتمل على ذكر نوع آخر من أنواع الآيات، قيل: و فى الكلام حذف؛ أى: قطع متجاورات، و غير متجاورات كما فى قوله: سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ «٣» أى: و تقيكم البرد. قيل: و المتجاورات: المدن و ما كان عامرا، و غير المتجاورات: الصحارى و ما كان غير عامر، و قيل: المعنى:

متجاورات متدانيات، ترابها واحد و ماؤها واحد، و فيها زرع و جنات، ثم تتفاوت فى الثمار فيكون البعض حلوا و البعض حامضا، و البعض طيبا و البعض غير طيب، و البعض يصلح فيه نوع و البعض الآخر نوع آخر.

وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ الجنات: البساتين، و قرأ الجمهور برفع جنات على تقدير: و فى الأرض جنات، فهو معطوف على قطع متجاورات، أو على تقدير: و بينها جنات. و قرأ الحسن بالنصب على تقدير: و جعل فيها جنات، و ذكر سبحانه الزرع بين الأعناب و النخيل؛ لأنه يكون فى الخارج كثيرا كذلك، و مثله فى قوله سبحانه: جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً «٤». صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ قرأ ابن كثير و أبو عمرو و حفص وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ برفع هذه الأربع عطفا على جنات. و قرأ الباقون بالجرّ عطفا على أعناب. و قرأ مجاهد و السّلمى بضم الصاد من صنوان. و قرأ الباقون

---

(١). فى المطبوع: فصرت. و المثبت من الديوان ص (٢٦٤).

«صبرت عارفة»: أى حبست نفسا صابرة أى تصبر للشدائد و لا تنكرها. «ترسو»: تثبت و تستقر.

(٢). فى تفسير القرطبى (٩/ ٢٨٠): حبا.

(٣). النحل: ٨١.

(٤). الكهف: ٣٢.

بالكسر، و هما لغتان. و قال أبو عبيدة: صنوان: جمع صنو، و هو أن يكون الأصل واحد، ثم يتفرع فيصير نخيلا، ثم يحمل، و هذا قول جميع أهل اللغة و التفسير. قال ابن الأعرابى: الصنو: المثل، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم:
«عمّ الرجل صنو أبيه»، فمعنى الآية على هذا: أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة و قد لا تكون.
قال فى الكشاف: و الصنوان: جمع صنو، و هى النخلة لها رأسان و أصلها واحد، و قيل: الصنوان: المجتمع.
و غير الصنوان: المتفرّق. قال النحّاس: و هو كذلك فى اللغة، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر:
صنوان، و الصنو: المثل، و لا فرق بين التثنية و الجمع إلا بكسر النون فى المثنى، و بما يقتضيه الإعراب فى الجمع: يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ قرأ عاصم و ابن عامر: يسقى بالتحتية، أى: يسقى ذلك كله. و قرأ الباقون بالفوقية بإرجاع الضمير إلى جنات. و اختاره أبو حاتم و أبو عبيد و أبو عمرو، قال أبو عمرو: التأنيث أحسن لقوله: وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِی الْأُكُلِ و لم يقل بعضه. و قرأ حمزة و الكسائى «يفضل» بالتحتية كما فى قوله: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ و قرأ الباقون بالنون على تقدير: و نحن نفضل.
و فى هذا من الدلالة على بديع صنعه و عظيم قدرته ما لا يخفى على من له عقل؛ فإنّ القطع المتجاورة و الجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تسقى بماء واحد، و تتفاضل الثمرات فى الأكل، فيكون طعم بعضها حلوا و الآخر حامضا، و هذا فى غاية الجودة، و هذا ليس بجيد، و هذا فائق فى حسنه، و هذا غير فائق، ممّا يقنع من تفكر و اعتبر و نظر نظر العقلاء؛ أن السبب المقتضى لاختلافها ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جلّ سلطانه و تعالى شأنه، لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها و يحصل من ثمراتها لا يكون فى نظر العقلاء إلا لسببين: إما اختلاف المكان الذى هو المنبت، أو اختلاف الماء الذى تسقى به، فإذا كان المكان متجاورا؛ و قطع الأرض متلاصقة، و الماء الذى تسقى به واحدا، لم يبق سبب للاختلاف فى نظر العقل إلا تلك القدرة الباهرة و الصنع العجيب، و لهذا قال اللّه سبحانه: إِنَّ فِی ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أى يعملون على قضية العقل و ما يوجبه، غير مهملين لما يقتضيه من التفكر فى المخلوقات و الاعتبار فى العبر الموجودات.
و قد أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: المر قال: أنا اللّه أرى. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد المر فواتح يفتتح بها كلامه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى قوله: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ قال: التوراة و الإنجيل وَ الَّذِی أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ قال: القرآن. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها قال: و ما يدريك لعلها بعمد لا ترونها. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و أبو الشيخ عنه فى الآية قال: يقول لها عمد و لكن لا ترونها؛ يعنى الأعماد. و أخرج ابن جرير عن إياس بن معاوية فى الآية قال: السماء مقببة على الأرض مثل القبة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: السماء على أربعة أملاك، كل زاوية موكّل بها ملك. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ فى قوله: لِأَجَلٍ مُسَمًّى قال الدنيا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ قال: يقضيه وحده. و أخرج ابن أبى حاتم عن عبد اللّه بن عمرو قال: الدنيا مسيرة خمسمائة عام: أربعمائة خراب، و مائة عمران فى أيدى المسلمين

من ذلك مسيرة سنة. و قد روى عن جماعة من السلف فى ذلك تقديرات لم يأت عليها دليل يصحّ. و أخرج ابن جرير عن علىّ بن أبى طالب قال: لما خلق اللّه الأرض قمصت «۱» و قالت: أى ربّ تجعل علىّ بنى آدم يعملون علىّ الخطايا و يجعلون علىّ الخبث، فأرسل اللّه فيها من الجبال ما ترون و ما لا ترون، فكان إقرارها كاللحم ترجرج. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ قال: ذكرا و أنثى من كل صنف. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ أى يلبس الليل النهار. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ فِی الْأَرْضِ قِطَعٌ

مُتَجاوِراتٌ قال: يريد الأرض الطيبة العذبة التى يخرج نباتها بإذن ربها تجاورها السّبخة القبيحة المالحة التى لا تخرج، و هما أرض واحدة، و ماؤها شىء واحد، ملح أو عذب، ففضلت إحداهما على الأخرى. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: قرئ «مُتَجاوِراتٌ» قريب بعضها من بعض. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: الأرض تنبت حلوا، و الأرض تنبت حامضا، و هى متجاورات تسقى بماء واحد. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن البراء بن عازب فى قوله: صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ قال: الصنوان ما كان أصله واحد و هو متفرّق، و غير صنوان التى تنبت وحدها، و فى لفظ: صنوان النخلة فى النخلة ملتصقة، و غير صنوان النخل المفرّق.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس صِنْوانٌ قال: مجتمع النخل فى أصل واحد وَ غَيْرُ صِنْوانٍ قال: النخل المتفرّق. و أخرج الترمذى و حسّنه، و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ قال:

«الدقل «۲» و الفارسى «۳» و الحلو و الحامض». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال:

هذا حامض، و هذا حلو، و هذا دقل، و هذا فارسى.

[سورة الرعد (۱۳): الآيات ۵ الى ۱۱]

وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۵) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ (۶) وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ (۷) اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَ ما تَزْدادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ (۸) عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (۹) سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ (۱۰) لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ (۱۱)

---

(۱). «قمصت»: تحرّكت و اضطربت.

(۲). «الدقل»: ردىء الثمر.

(۳). «الفارسى»: نوع جيد من التمر، نسبة إلى فارس.

فتح القدير، ج۳، ص: ۸۱

قوله: وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم من الصادقين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث. و اللّه تعالى لا يجوز عليه التعجب، لأنه تغير النفس بشىء تخفى أسبابه و إنما ذكر ذلك ليعجب منه رسوله و أتباعه. قال الزجّاج: أى هذا موضوع عجب أيضا أنهم أنكروا البعث، و قد بين لهم من خلق السموات و الأرض ما يدلّ على أن البعث أسهل فى القدرة، و قيل: الآية فى منكرى الصانع؛ أى: إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلّة الواضحة بأن المتغير لا بدّ له من مغير، فهو محل التعجب، و الأول أولى لقوله: أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ و هذه الجملة فى محل رفع على البدلية من قولهم، و يجوز أن تكون فى محل نصب على أنها مقول القول، و العجب على الأول كلامهم، و على الثانى تكلمهم بذلك، و العامل فى «إذا» ما يفيده قوله: أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ و هو نبعث أو نعاد، و الاستفهام منهم للإنكار المفيد لكمال الاستبعاد، و

تقديم الظرف فى قوله: لَفِى خَلْقٍ لتأكيد الإنكار بالبعث، و كذلك تكرير الهمزة فى قوله: أَ إِنَّا ثم لما حكى اللّه سبحانه ذلك عنهم حكم عليهم بأمور ثلاثة: الأوّل أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أى أولئك المنكرون لقدرته سبحانه على البعث هم المتمادون فى الكفر الكاملون فيه. و الثانى: وَ أُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ الأغلال: جمع غلّ، و هو طوق تشدّ به اليد إلى العنق، أى: يغلون بها يوم القيامة، و قيل: الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم لزوم الأطواق للأعناق. و الثالث: وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ لا ينفكون عنها بحال من الأحوال، و فى توسيط ضمير الفصل دلالة على تخصيص الخلود بمنكرى البعث وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ السيئة العقوبة المهلكة، و الحسنة: العافية و السلامة، قالوا هذه المقالة لفرط إنكارهم و شدّة تصميمهم و تهالكهم على الكفر؛ و قيل: معنى الآية: أنهم طلبوا العقوبة قبل الحسنة، و هى الإيمان وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ قرأ الجمهور «مثلات» بفتح الميم و ضمّ المثلثة جمع مثلة كسمرة، و هى العقوبة، قال ابن الأنبارى: المثلة العقوبة التى تبقى فى المعاقب شيئا بتغيير بعض خلقه، من قولهم: مثل فلان بفلان إذا شأن خلقه بقطع أنفه و سمل عينيه و بقر بطنه. و قرأ الأعمش بفتح الميم و إسكان المثلثة تخفيفا لثقل الضمة، و فى لغة تميم: بضم الميم و المثلثة جميعا، واحدتها على لغتهم: مثلة بضم الميم و سكون المثلثة، مثل غرفة و غرفات. و حكى عن الأعمش فى رواية أخرى أنه قرأ هذا الحرف بضمها على لغة تميم. و المعنى: أن هؤلاء يستعجلونك بإنزال العقوبة بهم، و قد مضت من قبلهم عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لا يعتبرون بهم و يحذرون من حلول ما حلّ بهم، و الجملة فى محل نصب على الحال، و هذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء؛ كقولهم: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ «١» لآية وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ أى لذو تجاوز عظيم لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ أنفسهم باقترافهم الذنوب و وقوعهم فى المعاصى إن تابوا عن ذلك، و رجعوا إلى اللّه سبحانه، و الجارّ و المجرور، أى: عَلى ظُلْمِهِمْ فى محل نصب على الحال، أى: حال كونهم ظالمين، و على بمعنى مع، أى: مع ظلمهم، و فى الآية بشارة عظيمة و رجاء كبير؛ لأن من المعلوم أن الإنسان حال اشتغاله بالظلم لا

---

(١). الأنفال: ٣٢.

فتح القدير، ج٣، ص: ٨٢

يكون تائبا، و لهذا قيل: إنها فى عصاة الموحدين خاصة. و قيل: المراد بالمغفرة هنا تأخير العقاب إلى الآخرة ليطابق ما حكاه اللّه من استعجال الكفار للعقوبة، و كما تفيده الجملة المذكورة بعد هذه الآية، و هى: وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ يعاقب العصاة المكذبين من الكافرين عقابا شديدا على ما تقتضيه مشيئته فى الدار الآخرة وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ أى هلّا أنزل عليه آية غير ما قد جاء به من الآيات، و هؤلاء الكفار القائلون هذه المقالة هم المستعجلون للعذاب. قال الزجاج: طلبوا غير الآيات التى أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى و عيسى، فقال اللّه تعالى: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ تنذرهم بالنار، و ليس إليك من الآيات شىء انتهى، و هذا مكابرة من الكفار و عناد، و إلا فقد أنزل اللّه على رسوله من الآيات ما يغنى البعض منه، و جاء فى: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ بصيغة الحصر لبيان أنه صلّى اللّه عليه و سلّم مرسل لإنذار العباد، و بيان ما يحذرون عاقبته، و ليس عليه غير ذلك. و قد فعل ما هو عليه، و أنذر أبلغ إنذار، و لم يدع شيئا مما يحصل به ذلك إلا أتى به و أوضحه و كرره، فجزاه اللّه عن أمته خيرا وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ أى نبىّ يدعوهم إلى ما فيه هدايتهم و رشادهم، و إن لم تقع الهداية لهم بالفعل و لم يقبلوها، و آيات الرسل مختلفة، هذا يأتى بآية أو آيات لم يأت بها الآخر بحسب ما يعطيه اللّه منها، و من طلب من بعضهم ما جاء به البعض الآخر فقد بلغ فى التعنت إلى مكان عظيم، فليس المراد من الآيات إلا الدلالة على النبوّة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية، و ذلك لا يختصّ بفرد منها و لا بأفراد معينة، و قيل: إن المعنى و لكل قوم هاد، و هو اللّه عزّ و جلّ فإنه القادر على ذلك، و ليس

على أنبيائه إلا مجرد الإنذار اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أَنْثى الجملة مستأنفة مسوقة لبيان إحاطته بالعلم سبحانه، و علمه بالغيب الذى هذه الأمور المذكورة منه. قيل: و يجوز أن يكون الاسم الشريف خبرا لمبتدأ محذوف، أى: و لكل قوم هاد و هو اللّه، و جملة يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى تفسير لهاد على الوجه الأخير، و هذا بعيد جدّا، و ما موصولة، أى: يعلم الذى تحمله كل أنثى فى بطنها من علقة، أو مضغة، أو ذكر، أو أنثى، أو صبيح، أو قبيح، أو سعيد، أو شقى. و يجوز أن تكون استفهامية؛ أى يعلم أىّ شىء فى بطنها، و على أىّ حال هو. و يجوز أن تكون مصدرية، أى: يعلم حملها وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَ ما تَزْدادُ الغيض النقص: أى يعلم الذى تغيضه الأرحام: أى تنقصه، و يعلم ما تزداده. فقيل: المراد نقص خلقة الحمل و زيادته كنقص إصبع أو زيادتها: و قيل: إن المراد نقص مدّة الحمل على تسعة أشهر، أو زيادتها، و قيل: إذا حاضت المرأة فى حال حملها كان ذلك نقصا فى ولدها؛ و قيل: الغيض: ما تنقصه الأرحام من الدم، و الزيادة ما تزداده منه، و «ما» فى ما تغيض، و ما تزداد، تحتمل الثلاثة الوجوه المتقدّمة فى ما تحمل كل أنثى وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ أى كل شىء من الأشياء التى من جملتها الأشياء المذكورة عند اللّه سبحانه بمقدار، و المقدار: القدر الذى قدره اللّه، و هو معنى قوله سبحانه: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ «۱» أى:
كل الأشياء عند اللّه سبحانه جارية على قدره الذى قد سبق و فرغ منه، لا يخرج عن ذلك شىء عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أى عالم كلّ غائب عن الحسّ، و كلّ مشهود حاضر، أو كلّ معدوم و موجود، و لا مانع من

---

(۱). القمر: ۴۹.

حمل الكلام على ما هو أعم من ذلك الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ أى العظيم الذى كلّ شىء دونه، المتعالى عمّا يقوله المشركون، أو المستعلى على كلّ شىء بقدرته و عظمته و قهره، ثم لما ذكر سبحانه أنه يعلم تلك المغيبات لا يغادره شىء منها، بيّن أنه عالم بما يسرّونه فى أنفسهم و ما يجهرون به لغيره، و أن ذلك لا يتفاوت عنده، فقال:
سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ فهو يعلم ما أسرّه الإنسان كعلمه بما جهر به من خير و شر.
و قوله: مِنْكُمْ متعلق بسواء على معنى: يستوى منكم من أسرّ و من جهر، أو سرّ من أسر و جهر من جهر وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ أى مستتر فى الظلمة الكائنة فى الليل، متوار عن الأعين، يقال: خفى الشىء و استخفى، أى: استتر و توارى وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ قال الكسائى: سرب يسرب سربا و سروبا إذا ذهب، و منه قول الشاعر «۱»:
و كلّ أناس قاربوا قيد فحلهمو نحن خلعنا قيده فهو سارب
أى ذهب. و قال القتبى: سارب بالنهار متصرّف فى حوائجه بسرعة، من قولهم: أسرب الماء، قال الأصمعى: حلّ سربه، أى: طريقته. و قال الزجّاج: معنى الآية الجاهر بنطقه، و المضمر فى نفسه، و الظاهر فى الطرقات و المستخفى فى الظلمات علم اللّه فيهم جميعا سوىّ، و هذا ألصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفى و السارب؛ فالمستخفى المستتر، و السارب البارز الظاهر لَهُ مُعَقِّباتٌ الضمير فى «له» راجع إلى من فى قوله: من أسر القول و من جهر به و من هو مستخف؛ أى لكلّ من هؤلاء معقبات، و المعقبات بالمتناوبات التى يخلف كل واحد منها صاحبه، و يكون بدلا منه، و هم الحفظة من الملائكة فى قول عامة المفسرين. قال الزجّاج: المعقبات ملائكة يأتى بعضهم بعقب بعض، و إنما قال: معقبات مع كون الملائكة ذكورا لأن الجماعة من الملائكة يقال لها معقبة، ثم جمع معقبة على معقبات، ذكر معناه الفراء، و قيل: أنث لكثرة ذلك منهم نحو نسابة و علامة.
قال الجوهرى: و التعقّب العود بعد البدء. قال اللّه تعالى: وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ* و قرئ «معاقيب» جمع معقب مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أى من بين يدى من له المعقبات.

و المراد: إن الحفظة من الملائكة من جميع جوانبه، و قيل: المراد بالمعقبات الأعمال، و معنى من بين يديه و من خلفه: ما تقدم منها و ما تأخر يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أى من أجل أمر اللّه، و قيل: يحفظونه من بأس اللّه إذا أذنب بالاستمهال له و الاستغفار حتى يتوب. قال الفرّاء: فى هذا قولان: أحدهما: أنه على التقديم و التأخير، تقديره: له معقبات من أمر اللّه يحفظونه من بين يديه و من خلفه. و الثانى: أن كون الحفظة يحفظونه هو ممّا أمر اللّه به. قال الزجّاج: المعنى حفظهم إياه من أمر اللّه، أى: ممّا أمرهم به لا أنهم يقدرون أن يدفعوا أمر اللّه. قال ابن الأنبارى: و فى هذا قول آخر. و هو أن «من» بمعنى الباء، أى: يحفظونه بأمر اللّه؛ و قيل: إن من بمعنى عن، أى: يحفظونه عن أمر اللّه بمعنى من عند اللّه، لا من عند أنفسهم، كقوله:
أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ «٢» أى: عن جوع؛ و قيل: يحفظونه من ملائكة العذاب، و قيل: يحفظونه من الجن.

---

(١). هو الأخنس بن شهاب التغلبى.

(٢). قريش: ۴.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٨۴

و اختار ابن جرير أن المعقبات المواكب بين أيدى الأمراء، على معنى أن ذلك لا يدفع عنه القضاء إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ من النعمة و العافية حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ من طاعة اللّه. و المعنى: أنه لا يسلب قوما نعمة أنعم بها عليهم حتى يغيروا الذى بأنفسهم من الخير و الأعمال الصالحة، أو يغيروا الفطرة التى فطرهم اللّه عليها. قيل: و ليس المراد أنه لا ينزل بأحد من عباده عقوبة حتّى يتقدّم له ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما فى الحديث إنه: «سأل رسول اللّه سائل فقال: أ نهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث». وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً أى هلاكا و عذابا فَلا مَرَدَّ لَهُ أى فلا ردّ له؛ و قيل:
المعنى: إذا أراد اللّه بقوم سوءا أعمى قلوبهم حتى يختاروا ما فيه البلاء وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ يلى أمرهم و يلتجئون إليه، فيدفع عنهم ما ينزل بهم من اللّه سبحانه من العقاب، أو من ناصر ينصرهم و يمنعهم من عذاب اللّه. و المعنى: أنه لا رادّ لعذاب اللّه و لا ناقض لحكمه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ قال: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم إياك فعجب قولهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم، و هم رأوا من قدرة اللّه و أمره، و ما ضرب لهم من الأمثال و أراهم من حياة الموتى و الأرض الميتة فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِی خَلْقٍ جَدِيدٍ أولا يرون أنه خلقهم من نطفة، فالخلق من نطفة أشد من الخلق من تراب و عظام. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ قال: العقوبات. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى المثلات قال: وقائع اللّه فى الأمم فيمن خلا قبلكم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: المثلات ما أصاب القرون الماضية من العذاب. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو لا عفو اللّه و تجاوزه ما هنأ لأحد العيش، و لو لا وعيده و عقابه لاتّكل كلّ أحد». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ قال: داع.
و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ قال: المنذر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ نبيّ يدعوهم إلى اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: محمد المنذر و الهادى اللّه عزّ و جلّ. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن

جرير عن مجاهد نحوه أيضا. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال:
قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هو المنذر و هو الهادى. و أخرج ابن جرير عن عكرمة و أبى الضحى نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه، و أبو نعيم فى المعرفة، و الديلمى و ابن عساكر و ابن النجار عن ابن عباس قال: لما نزلت إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ «وضع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يده على صدره فقال: أنا المنذر، و أومأ بيده إلى منكب علىّ فقال: أنت الهادى يا على، بك يهتدى المهتدون من بعدى» قال ابن كثير فى تفسيره:
و هذا الحديث فيه نكارة شديدة. و أخرج ابن مردويه عن أبى برزة الأسلمى قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم
فتح القدير، ج۳، ص: ۸۵
فذكر نحوه. و أخرج ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس مرفوعا نحوه أيضا. و أخرج عبد اللّه ابن أحمد فى زوائد المسند، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و ابن عساكر عن علىّ بن أبى طالب فى الآية نحوه أيضا.
و أخرج ابن جرير عن الضحّاك اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى قال: كلّ أنثى من خلق اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى الآية قال: يعلم ذكرا هو أو أنثى وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ قال: هى المرأة ترى الدم فى حملها. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ قال: خروج الدم وَ ما تَزْدادُ قال: استمساكه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ قال: أن ترى الدم فى حملها وَ ما تَزْدادُ قال: فى التسعة أشهر. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق الضحّاك عنه فى الآية قال: ما تزداد على تسعة، و ما تنقص من التسعة. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عنه أيضا فى الآية ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ قال: السقط وَ ما تَزْدادُ ما زادت فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما، و ذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، و منهنّ من تحمل تسعة أشهر، و منهنّ من تنقص، فذلك الغيض و الزيادة التى ذكر اللّه، و كلّ ذلك يعلمه تعالى.
و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ قال: السرّ و العلانية. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ فى قوله: وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ قال:
راكب رأسه فى المعاصى وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ قال: ظاهر بالنهار بالمعاصى. و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عباس وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ قال: الظاهر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: هو صاحب ريبة مستخف بالليل، و إذا خرج بالنهار أرى الناس أنه برىء من الإثم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الكبير، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس أن سبب نزول الآية قدوم عامر بن الطفيل، و أربد بن قيس على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى القصة المشهورة، و أنه لما أصيب عامر بن الطفيل بالغدّة نزل قوله تعالى: اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى إلى قوله:
مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ قال: المعقبات من أمر اللّه يحفظون محمّدا صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم ذكر أربد بن قيس و ما قتله، فقال: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ إلى قوله: وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ
و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: مُعَقِّباتٌ الآية قال: هذه للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ قال: ذلك الحفظ من أمر اللّه بأمر اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ قال: بإذن اللّه. و أخرج ابن جرير عن قتادة مثله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: ولىّ السلطان يكون عليه الحراس يحفظونه من بين يديه و من خلفه، يقول: يحفظونه من أمرى، فإنى إذا

أردت بقوم سوءا فلا مردّ له. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى الآية قال: الملوك يتخذون الحرس

فتح القدير، ج۳، ص: ۸۶

يحفظونه من أمامه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله يحفظونه من القتل، ألم تسمع أن اللّه يقول فى قوله: إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ أى إذا أراد سوءا لم يغن الحرس عنه شيئا. و أخرج ابن جرير عن عكرمة فى الآية قال: هؤلاء الأمراء. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه و من خلفه، فإذا جاء قدر اللّه خلوا عنه. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن علىّ فى الآية قال:

ليس من عبد إلا و معه ملائكة يحفظونه من أن يقع عليه حائط، أو ينزوى فى بئر، أو يأكله سبع أو غرق أو حرق، فإذا جاء القدر خلوا بينه و بين القدر. و قد ورد فى ذكر الحفظة الموكّلين بالإنسان أحاديث كثيرة مذكورة فى كتب الحديث.

[سورة الرعد (۱۳): الآيات ۱۲ الى ۱۸]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (۱۲) وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ (۱۳) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (۱۴) وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ (۱۵) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَ النُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (۱۶)

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ (۱۷) لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (۱۸)

لما خوّف سبحانه عباده بإنزال ما لا مردّ له أتبعه بأمور ترجى من بعض الوجوه و يخاف من بعضها، و هى البرق و السحاب و الرعد و الصاعقة، و قد مرّ فى أوّل البقرة تفسير هذه الألفاظ و أسبابها.

و قد اختلف فى وجه انتصاب خَوْفاً وَ طَمَعاً فقيل على المصدرية، أى: لتخافوا خوفا و لتطمعوا طمعا، و قيل: على العلة بتقدير إرادة الخوف و الطمع لئلا يختلف فاعل الفعل المعلل و فاعل المفعول له، أو على الحالية من البرق، أو من المخاطبين بتقدير ذوى خوف، و قيل غير ذلك مما لا حاجة إليه. قيل: و المراد بالخوف هو الحاصل من الصواعق، و بالطمع هو الحاصل فى المطر. و قال الزجاج: الخوف للمسافر لما يتأذى به من المطر، و الطمع للحاضر؛ لأنه إذا رأى البرق طمع فى المطر الذى هو سبب الخصب وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ التعريف للجنس و الواحدة سحابة، و الثقال: جمع ثقيلة، و المراد أن اللّه سبحانه يجعل السحاب

فتح القدير، ج۳، ص: ۸۷

التى ينشئها ثقالا بما يجعله فيها من الماء وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ أى يسبح الرعد نفسه بحمد اللّه، أى:

متلبسا بحمده، و ليس هذا بمستبعد، و لا مانع من أن ينطقه اللّه بذلك وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ

و أما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد فى ذلك، و يكون ذكره على الإفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له، و عناية به؛ و قيل: المراد و يسبح سامعو الرعد، أى: يقولون: سبحان اللّه و الحمد للّه وَ الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ أى: و تسبح الملائكة من خيفة اللّه سبحانه؛ و قيل: من خيفة الرعد. و قد ذكر جماعة من المفسرين أن هؤلاء الملائكة هم أعوان الرعد، و أن اللّه سبحانه جعل له أعوانا وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ من خلقه فيهلكه، و سياق هذه الأمور هنا للغرض الذى سيقت له الآيات التى قبلها، و هى الدلالة على كمال قدرته وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ الضمير راجع إلى الكفار المخاطبين فى قوله: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ أى: و هؤلاء الكفرة مع هذه الآيات التى أراهم اللّه يجادلون فى شأن اللّه سبحانه فينكرون البعث تارة و يستعجلون العذاب أخرى. و يكذبون الرسل و يعصون اللّه، و هذه الجملة فى محل نصب على الحال، و يجوز أن تكون مستأنفة وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ قال ابن الأعرابى: المحال المكر، و المكر من اللّه:

التدبير بالحق. و قال النحاس: المكر من اللّه إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. و قال الأزهرى:

المحال القوّة و الشدّة؛ و الميم أصلية، و ما حلت فلانا محالا أينا أشدّ. و قال أبو عبيد: المحال العقوبة و المكروه.

قال الزّجّاج: يقال ما حلته محالا؛ إذا قاويته حتى يتبين أيكما أشدّ. و المحل فى اللغة: الشدّة. و قال ابن قتيبة «1»: أى شديد الكيد، و أصله من الحيلة جعل الميم كميم المكان، و أصله من الكون، ثم يقال تمكنت.

قال الأزهرى: غلط ابن قتيبة «2» أن الميم فيه زائدة بل هى أصلية، و إذا رأيت الحرف على مثال فعال أوّله ميم مكسورة فهى أصلية مثل مهاد و ملاك و مراس غير ذلك من الحروف. و قرأ الأعرج: وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ بفتح الميم. و قد فسّرت هذه القراءة بالحول.

و للصّحابة و التّابعين فى تفسير المحال هنا أقوال ثمانية: الأول العداوة، الثانى الحول، الثالث الأخذ، الرابع الحقد، الخامس القوّة، السادس الغضب، السابع الهلاك، الثامن الحيلة لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِ إضافة الدعوة إلى الحق للملابسة؛ أى الدعوة الملابسة للحق المختصة به التى لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه كما يقال كلمة الحق؛ و المعنى أنها دعوة مجابة واقعة فى موقعها، لا كدعوة من دونه. و قيل: الحق هو اللّه سبحانه؛ و المعنى: أن اللّه سبحانه دعوة المدعوّ الحق و هو الذى يسمع فيجيب. و قيل: المراد بدعوة الحق هاهنا كلمة التوحيد و الإخلاص؛ و المعنى: للّه من خلقه أن يوحّدوه و يخلصوا له. و قيل: دعوة الحق دعاؤه سبحانه عند الخوف فإنه لا يدعى فيه سواه، كما قال تعالى: ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ و قيل: الدعوة العبادة، فإنّ عبادة اللّه هى الحق و الصدق وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ أى: و الآلهة الذين

---

(1). انظر كتابه: تفسير غريب القرآن (226)

(2). كذا فى المطبوع و تفسير القرطبى، و فى لسان العرب مادة: محل: القتيبى.

يدعونهم يعنى الكفار من دون اللّه عزّ و جلّ لا يستجيبون لهم بشى‏ء مما يطلبونه منهم كائنا ما كان إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد فإنه لا يجيبه؛ لأنه جماد لا يشعر بحاجته إليه، و لا يدرى أنه طلب منه أن يبلغ فاه، و لهذا قال: وَ ما هُوَ أى الماء بِبالِغِهِ أى ببالغ فيه. قال الزجّاج: إلا كما يستجاب للذى يبسط كفيه إلى الماء يدعو الماء إلى فيه، و الماء لا يستجيب، أعلم اللّه سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان إلى الماء يدعوه إلى بلوغ فمه، و ما الماء ببالغه. و قيل: المعنى: أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل فى كفّه شى‏ء منه، و قد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقبض على الماء كما قال الشاعر:

فأصبحت مما كان بينى و بينهامن الودّ مثل القابض الماء باليد

و قال الآخر:

و من يأمن الدنيا يكن مثل قابضعلى الماء خانته فروج الأصابع

و قال الفرّاء: إنّ المراد بالماء هنا ماء البئر لأنها معدن للماء، و أنه شبهه بمن مدّ يده إلى البئر بغير رشاء، ضرب اللّه سبحانه هذا مثلا لمن يدعو غيره من الأصنام وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ أى: يضلّ عنهم ذلك الدعاء فلا يجدون منه شيئا، و لا ينفعهم بوجه من الوجوه، بل هو ضائع ذاهب وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً إن كان المراد بالسجود معناه الحقيقى، و هو وضع الجبهة على الأرض للتعظيم مع الخضوع و التذلل، فذلك ظاهر فى المؤمنين و الملائكة و مسلمى الجنّ؛ و أما فى الكفار فلا يصح تأويل السجود بهذا فى حقهم، فلا بدّ أن يحمل السجود المذكور فى الآية على معنى حقّ للّه السجود و وجب حتى يتناول السجود بالفعل و غيره، أو يفسر السجود بالانقياد؛ لأن الكفار و إن لم يسجدوا للّه سبحانه فهم منقادون لأمره، و حكمه فيهم بالصحة و المرض و الحياة و الموت و الفقر و الغنى، و يدل على إرادة هذا المعنى قوله: طَوْعاً وَ كَرْهاً فإن الكفار ينقادون كرها كما ينقاد المؤمنون طوعا، و هما منتصبان على المصدرية؛ أى: انقياد طوع و انقياد كره، أو على الحال، أى: طائعين و كارهين. و قال الفرّاء: الآية خاصة بالمؤمنين فإنهم يسجدون طوعا، و بعض الكفار يسجدون إكراها و خوفا كالمنافقين، فالآية محمولة على هؤلاء؛ و قيل:

الآية فى المؤمنين، فمنهم من سجد طوعا لا يثقل عليه السجود، و منهم من يثقل عليه؛ لأن التزام التكليف مشقة و لكنهم يتحمّلون المشقة إيمانا باللّه و إخلاصا له وَ ظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ و ظلالهم: جمع ظل، و المراد به ظل الإنسان الذى يتبعه، جعل ساجدا بسجوده حيث صار لازما له لا ينفكّ عنه. قال الزجاج و ابن الأنبارى: و لا يبعد أن يخلق اللّه للظلال أفهاما «١» تسجد بها للّه سبحانه كما جعل للجبال أفهاما حتى اشتغلت بتسبيحه، فظلّ المؤمن يسجد للّه طوعا، و ظل الكافر يسجد للّه كرها، و خص الغدوّ و الآصال بالذكر لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما، و هما ظرف للسجود المقدّر، أى: و يسجد ظلالهم فى هذين الوقتين.

---

(١). أى عقولا.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٨٩

و قد تقدّم تفسير الغدوّ و الآصال فى الأعراف، و فى معنى هذه الآية قوله سبحانه: أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‌ءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَ هُمْ داخِرُونَ «١» و جاء بمن فى مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ تغليبا للعقلاء على غيرهم، و لكون سجود غيرهم تبعا لسجودهم، و ممّا يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيده تقديم للّه على الفعل من الاختصاص، فإن سجود الكفار لأصنامهم معلوم، و لا ينقادون لهم كانقيادهم للّه فى الأمور التى يقرّون على أنفسهم بأنها من اللّه، كالخلق و الحياة و الموت و نحو ذلك. قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أمر اللّه سبحانه رسوله أن يسأل الكفار من رب السموات و الأرض؟ ثم لما كانوا يقرّون بذلك و يعترفون به كما حكاه اللّه سبحانه فى قوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ «٢» و قوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ «٣» أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجيب، فقال: قُلِ اللَّهُ فكأنه حكى جوابهم و ما يعتقدونه، لأنهم ربما تلعثموا فى الجواب حذرا ممّا يلزمهم، ثم أمره بأن يلزمهم الحجة و يبكتهم فقال: قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ و الاستفهام للإنكار، أى:

إذا كان رب السموات و الأرض هو اللّه كما تقرون بذلك و تعترفون به كما حكاه سبحانه عنكم بقوله: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ

السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ «۴» فما بالكم اتخذتم لأنفسكم من دونه أولياء عاجزين لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً ينفعونها به وَ لا ضَرًّا يضرّون به غيرهم أو يدفعونه عن أنفسهم، فكيف ترجون منهم النفع و الضر و هم لا يملكونهما لأنفسهم، و الجملة فى محل نصب على الحال، ثم ضرب اللّه سبحانه لهم مثلا و أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقوله لهم، فقال: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أى:

هل يستوى الأعمى فى دينه و هو الكافر، و البصير فيه و هو الموحّد، فإن الأول جاهل لما يجب عليه و ما يلزمه، و الثانى عالم بذلك. قرأ ابن محيصن و أبو بكر و الأعمش و حمزة و الكسائى: أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَ النُّورُ بالتحتية، و قرأ الباقون بالفوقية، و اختار القراءة الثانية أبو عبيد. و المراد بالظلمات الكفر، و بالنور الإيمان، و الاستفهام للتقريع و التوبيخ، أى: كيف يكونان مستويين و بينهما من التفاوت ما بين الأعمى و البصير، و ما بين الظلمات و النور، و وحد النور و جمع الظلمة؛ لأنّ طريق الحق واحدة لا تختلف، و طرائق الباطل كثيرة غير محصورة أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ أم هى المنقطعة التى بمعنى بل و الهمزة، أى: بل أ جعلوا للّه شركاء خلقوا كخلقه، و الاستفهام لإنكار الوقوع. قال ابن الأنبارى: معناه أ جعلوا للّه شركاء خلقوا مثل ما خلق اللّه فتشابه خلق الشركاء بخلق اللّه عندهم، أى: ليس الأمر على هذا حتى يشتبه الأمر عليهم، بل إذا فكّروا بعقولهم وجدوا اللّه هو المنفرد بالخلق، و سائر الشركاء لا يخلقون شيئا، و جملة خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فى محل نصب صفة لشركاء. و المعنى: إنهم لم يجعلوا للّه شركاء متصفين بأنهم خلقوا كخلقه فَتَشابَهَ بهذا السبب الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ حتى يستحقّوا بذلك العبادة منهم، بل إنما جعلوا له شركاء الأصنام و نحوها، و هى بمعزل عن أن تكون كذلك، ثم أمره اللّه سبحانه بأن يوضح لهم الحق و يرشدهم إلى الصواب فقال: قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ كائنا ما كان ليس لغيره فى ذلك مشاركة بوجه من الوجوه.

---

(۱). النحل: ۴۸.

(۲). الزخرف: ۹.

(۳). الزخرف: ۸۷.

(۴). المؤمنون: ۸۶ و ۸۷.

قال الزجاج: و المعنى أنه خالق كلّ شىء مما يصح أن يكون مخلوقا، ترى أنه تعالى خالق كل شىء و هو غير مخلوق وَ هُوَ الْواحِدُ أى المتفرّد بالربوبية الْقَهَّارُ لما عداه، فكل ما عداه مربوب مقهور مغلوب، ثم ضرب سبحانه مثلا آخر للحق و ذويه، و للباطل و منتحليه فقال: أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً أى من جهتها و التنكير للتكثير أو للنوعية فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ جمع واد، و هو كل منفرج بين جبلين أو نحوهما. قال أبو على الفارسى: لا نعلم فاعلا جمع على أفعلة إلا هذا، و كأنه حمل على فعيل فجمع على أفعلة مثل جريب و أجربة، كما أن فعيلا حمل على فاعل، فجمع على أفعال مثل يتيم و أيتام و شريف و أشراف، كأصحاب و أنصار فى صاحب و ناصر قال: و فى قوله: فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ توسع، أى: سال ماؤها، قال: و معنى بِقَدَرِها بقدر مائها؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها. قال الواحدى: و القدر مبلغ الشىء، و المعنى: بقدرها من الماء، فإن صغر الوادى قلّ الماء و إن اتسع كثر، و قال فى الكشاف: بقدرها بمقدارها الذى يعرف اللّه أنه نافع للممطور عليهم غير ضارّ. قال ابن الأنبارى: شبه نزول القرآن الجامع للهدى و البيان بنزول المطر، إذ نفع نزول القرآن يعمّ كعموم نفع نزول المطر، و شبه الأودية بالقلوب؛ إذ الأودية يستكنّ فيها الماء كما يستكنّ القرآن و الإيمان فى قلوب المؤمنين فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً الزبد: هو الأبيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل، و يقال له الغثاء و الرغوة، و الرابى: العالى المرتفع فوق الماء. قال الزجّاج: هو الطافى فوق الماء، و قال غيره: هو الزائد بسبب انتفاخه، من

ربـا يربو إذا زاد. و المراد من هـذا تشبيه الكفر بالزبـد الـذى يعلو المـاء، فـإنه يضـمحلّ و يعلق بجنبـات الوادى و تـدفعه الريـاح، فكذلك يذهب الكفر و يضـمحلّ. و قد تمّ المثل الأوّل، ثم شـرع سبحانه فى ذكر المثل الثانى فقال: وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ من لابتداء الغاية، أى: و منه ينشأ زبد مثل زبد الماء، أو للتبعيض بمعنى: و بعضه زبد مثله، و الضـمير للناس، أضـمر مع عدم سبق الـذكر لظهوره، هـذا على قراءة يوقـدون بالتحتيـة، و بهـا قرأ حميـد و ابن محيصن و الأعمش و حمزة و الكسائى و حفص. و قرأ البـاقون بالفوقيـة على الخطـاب، و اختـار القراءة الأولى أبو عبيـد. و المعنى: و ممـا توقـدون عليه فى النـار فيـذوب من الأجسـام المنطرقـة الذائبـة ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أى لطلب اتخاذ حلية تتزينون بها و تتجمّلون كالذهب و الفضة أَوْ مَتاعٍ أى: أو طلب متاع تتمتعون به من الأوانى و الآلات المتّخـذة من الحديـد و الصـفر و النحـاس و الرصاص زَبَدٌ مِثْلُهُ المراد بالزبـد هنا الخبث؛ فإنه يعلو فوق ما أذنب من تلك الأجسام كما يعلو الزبـد على الماء، فالضـمير فى مثله يعود إلى زَبَداً رابِياً و ارتفاع زبـد على الابتـداء و خبره مما يوقدون كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ أى مثل ذلك الضرب البديع يضرب اللّه مثل الحق و مثل الباطل، ثم شرع فى تقسيم المثل فقال: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً يقال: جفأ الوادى بالهمز جفاء؛ إذا رمى بالقذر و الزبد. قال الفرّاء: الجفاء: الرمى، يقال: جفأ الوادى غثاء جفاء: إذا رمى به، و الجفاء بمنزلة الغثاء.

و كذا قال أبو عمرو بن العلاء، و حكى أبو عبيدة أنه سـمع رؤبة يقرأ جفالا. قال أبو عبيدة: يقال أجفلت القدر إذا قذفت بزبدها، و أجفلت الريح السحاب إذا قطعته. قال أبو حاتم: لا يقرأ بقراءة رؤبة؛ لأنه كان يأكل الفأر. و اعلم أن وجه المماثلة بين الزبدين فى الزبد الذى يحمله السيل و الزبد الذى يعلو الأجسام المنطرقة

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٩١

أن تراب الأرض لمـا خالـط المـاء و حمله معه صـار زبـدا رابيا فوقه، و كـذلك ما يوقـد عليه فى النار حتى يـذوب من الأجسام المنطرقـة، فإن أصـله من المعادن التى تنبت فى الأرض فيخالطها التراب، فإذا أذيبت صار ذلك التراب الذى خالطها خبثا مرتفعا فوقها وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ منهما و هو الماء الصافى، و الذائب الخالص من الخبث فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ أى يثبت فيها، أما الماء فإنه يسلك فى عروق الأرض فتنتفع الناس به، و أما ما أذيب من تلك الأجسام فإنه يصاغ حليـة و أمتعة، و هذان مثلان ضـربهما اللّه سبحانه للحق و الباطل، يقول: إن الباطل و إن ظهر على الحق فى بعض الأحوال و علاه، فإن اللّه سبحانه سيمحقه و يبطله و يجعل العاقبـة للحق و أهله كالزبد الذى يعلو الماء فيلقيه الماء و يضـمحلّ و كخبث هذه الأجسام فإنه و إن علا عليها فإن الكير يقذفه و يدفعه. فهذا مثل الباطل؛ و أما الماء الذى ينفع الناس و ينبت المراعى فيمكث فى الأرض، و كذلك الصفو من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصا لا شوب فيه، و هو مثل الحق. قال الزجّاج: فمثل المؤمن و اعتقاده و نفع الإيمان كمثل هـذا الماء المنتفع به فى نبات الأرض و حيـاة كل شـىء، و كمثل نفع الفضـة و الـذهب و سائر الجواهر لأنها كلها تبقى منتفعا بها، و مثل الكافر و كفره كمثل الزبد الذى يذهب جفاء، و كمثل خبث الحديد و ما تخرجه النار من وسخ الفضة و الذهب الذى لا ينتفع به. و قد حكينا عن ابن الأنبارى فيما تقـدّم أنه شبه نزول القرآن إلى آخر ما ذكرناه فجعل ذلك مثلا ضـربه اللّه للقرآن كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ أى مثل ذلك الضرب العجيب يضرب اللّه الأمثال فى كل باب؛ لكمال العناية بعباده و اللطف بهم، و هذا تأكيد لقوله:

كذلك يضرب اللّه الحق و الباطل، ثم بيّن سبحانه من ضرب له مثل الحق و مثل الباطل من عباده، فقال فيمن ضرب له مثل الحق لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ أى أجـابوا دعوته إذ دعـاهم إلى توحيـده و تصـديق أنبيـائه و العمل بشـرائعه، و الحسـنى صـفة موصوف محذوف، أى: المثوبة الحسـنى و هى الجنة، و قال سبحانه فيمن ضرب له مثل الباطل وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لدعوته إلى ما دعاهم إليه، و الموصول مبتـدأ و خبره الجملـة الشرطية، و هى لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً من أصـناف الأموال التى يتملّكها العباد و يجمعونهـا بحيث لاـ يخرج عن ملكهم منهـا شـىء وَ مِثْلَهُ مَعَهُ أى مثل ما فى الأرض جميعا كائنا معه و منضـمّا إليه لَافْتَدَوْا بِهِ أى

بمجموع ما ذكر و هو ما فى الأرض و مثله. و المعنى: ليخلصوا به مما هم فيه من العذاب الكبير و الهول العظيم، ثم بيّن اللّه سبحانه ما أعدّه لهم فقال: أُولئِكَ يعنى الذين لم يستجيبوا لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ قال الزجّاج: لأن كفرهم أحبط أعمالهم، و قال غيره: سوء الحساب المناقشة فيه؛ و قيل: هو أن يحاسب الرجل بذنبه كلّه لا يغفر منه شىء وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ أى مرجعهم إليها وَ بِئْسَ الْمِهادُ أى المستقرّ الذى يستقرّون فيه. و المخصوص بالذم محذوف.

و قد أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً قال: خوفا للمسافر يخاف أذاه و مشقته، و طمعا للمقيم يطمع فى رزق اللّه و يرجو بركة المطر و منفعته. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن قال: خوفا لأهل البحر و طمعا لأهل البر. و أخرج أبو الشيخ عن الضحّاك قال: الخوف ما يخاف من الصواعق و الطمع: الغيث. و أخرج عبد بن حميد و ابن

جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الخرائطى فى مكارم الأخلاق، و البيهقى فى سننه، من طرق عن علىّ بن أبى طالب قال: البرق مخاريق من نار بأيدى ملائكة السحاب يزجرون به السحاب. و روى عن جماعة من السلف ما يوافق هذا و يخالفه، و لعلنا قد قدّمنا فى سورة البقرة شيئا من ذلك. و أخرج أحمد عن شيخ من بنى غفار قد صحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن اللّه ينشئ السحاب فتنطق أحسن النطق، و تضحك أحسن الضحك». قيل: و المراد بنطقها الرعد، و بضحكها البرق. و قد ثبت عند أحمد و الترمذى، و النسائى فى اليوم و الليلة، و الحاكم فى مستدركه، من حديث ابن عمر قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا سمع الرعد و الصواعق قال: «اللهمّ لا تقتلنا بغضبك، و لا تهلكنا بعذابك، و عافنا قبل ذلك». و أخرج العقيلى و ضعّفه، و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ينشئ اللّه السحاب، ثم ينزل فيه الماء، فلا شىء أحسن من ضحكه، و لا شىء أحسن من نطقه، و منطقه الرعد، و ضحكه البرق». و أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه أن خزيمة بن ثابت، و ليس بالأنصارى، سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن منشأ السحاب قال: «إنّ ملكا موكلا يلمّ القاصية و يلحم الدانية، فى يده مخراق، فإذا رفع برقت، و إذا زجر رعدت، و إذا ضرب صعقت».

و أخرج أحمد، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، و الضّياء فى المختارة، عن ابن عباس قال: «أقبلت يهود إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهنّ عرفنا أنك نبىّ و اتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال اللّه على ما نقول وكيل، قال: هاتوا، قالوا: أخبرنا عن علامة النبىّ؟

قال: تنام عيناه و لا ينام قلبه؛ قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة و كيف تذكر؟ قال: يلتقى الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، و إذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت؛ قالوا: أخبرنا عما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يشتكى عرق النسا، فلم يجد شيئا يلائمه إلا ألبان كذا و كذا: يعنى الإبل، فحرّم لحومها، قالوا: صدقت؛ قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة اللّه موكّل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره اللّه، قالوا: فما هذا الصوت الذى نسمع؟ قال:

صوته. قالوا: صدقت إنما بقيت واحدة، و هى التى نتابعك إن أخبرتنا، إنه ليس من نبىّ إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل، قالوا: جبريل ذاك ينزل بالخراب و القتال و العذاب عدوّنا، لو قلت ميكائيل الذى ينزل بالرحمة و النبات و القطر لكان، فأنزل اللّه قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ «۱»» إلى آخر الآية.

و أخرج البخارى فى الأدب المفرد، و ابن أبى الدنيا فى المطر، و ابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال:

سبحان الذى سبّحت له، و قال: إن الرعد ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعى بغنمه.

---

(١). البقرة: ٩٧.

و قد روى نحو هذا عنه من طرق. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة: إن الرعد صوت الملك و كذا أخرج نحوه أبو الشيخ عن ابن عمر. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال: الرعد ملك اسمه الرعد، و صوته هذا تسبيحه؛ فإذا اشتدّ زجره احتك السحاب و اضطرم من خوفه فتخرج الصواعق من بينه. و أخرج ابن أبى حاتم و الخرائطى، و أبو الشيخ فى العظمة، عن أبى عمران الجونى قال: إن بحورا من نار دون العرش تكون منها الصواعق. و أخرج أبو الشيخ عن السدى قال: الصواعق نار. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ قال: شديد القوّة. و أخرج ابن جرير عن علىّ قال: شديد الأخذ.

و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عنه فى قوله: لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِ قال: التوحيد: لا إله إلا اللّه. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و البيهقى فى الأسماء و الصّفات، من طرق عن ابن عباس فى قوله: دَعْوَةُ الْحَقِ قال: شهادة أن لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن جرير عن على فى قوله: إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ قال: كأنّ الرجل العطشان يمدّ يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه و ما هو ببالغه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال: هذا مثل المشرك الذى عبد مع اللّه غيره، فمثله كمثل الرجل العطشان الذى ينظر إلى خياله فى الماء من بعيد و هو يريد أن يتناوله و لا يقدر عليه.

و أخرج أبو الشيخ عنه فى قوله: هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ قال: المؤمن و الكافر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه أيضا فى قوله: أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً الآية قال: هذا مثل ضربه اللّه احتملت منه القلوب على قدر يقينها و شكّها، فأمّا الشّكّ فلا ينفع معه العمل، و أما اليقين فينفع اللّه به أهله، و هو قوله: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً و هو الشك وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ و هو اليقين، و كما يجعل الحلىّ فى النار فيؤخذ خالصه و يترك خبثه، فكذلك يقبل اللّه اليقين و يترك الشك. و أخرج هؤلاء عنه أيضا: فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها قال: الصغير قدر صغره، و الكبير قدر كبره.

[سورة الرعد (١٣): الآيات ١٩ الى ٢٥]

أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ (٢٠) وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ (٢١) وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ (٢٣)
سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)

الهمزة فى قوله: أَ فَمَنْ يَعْلَمُ للإنكار على من يتوهّم المماثلة بين من يعلم أنما أنزل اللّه سبحانه إلى رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم من الحق الذى لا شك فيه و لا شبهة، و هو القرآن، و بين من هو أعمى لا يعلم ذلك فإن الحال

بينهما متباعد جدّا كالتباعد الذى بين الماء و الزبد، و بين الخبث و الخالص من تلك الأجسام، ثم بيّن سبحانه أنه إنما يقف على تفاوت المنزلتين، و تباين الرتبتين أهل العقول الصحيحة، فقال: إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ ثم وصفهم بهذه الأوصاف المادحة، فقال: الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ أى بما عقدوه من العهود فيما بينهم و بين ربهم، أو فيما بينهم و بين العباد وَ لا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ الذى وثقوه على أنفسهم، و أكّدوه بالأيمان و نحوها، و هذا تعميم بعد التخصيص، لأنه يدخل تحت الميثاق كل ما أوجبه العبد على نفسه كالنذور و نحوها، و يحتمل أن يكون الأمر بالعكس فيكون من التخصيص بعد التعميم على أن يراد بالعهد جميع عهود اللّه، و هى أوامره و نواهيه التى وصّى بها عبيده، و يدخل فى ذلك الالتزامات التى يلزم بها العبد نفسه، و يراد بالميثاق ما أخذه اللّه على عباده حين أخرجهم من صلب آدم فى عالم الذرّ المذكور فى قوله سبحانه: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ «۱» الآية. وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ظاهره شمول كلّ ما أمر اللّه بصلته، و نهى عن قطعه من حقوق اللّه و حقوق عباده، و يدخل تحت ذلك صلة الأرحام دخولا أوّليا، و قد قصره كثير من المفسرين على صلة الرحم، و اللفظ أوسع من ذلك وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ خشية تحملهم على فعل ما وجب، و اجتناب ما لا يحلّ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ و هو الاستقصاء فيه و المناقشة للعبد، فمن نوقش الحساب عذّب، و من حقّ هذه الخيفة أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ قيل: هو كلام مستأنف، و قيل: معطوف على ما قبله و التعبير عنه بلفظ المضىّ للتنبيه على أنه ينبغى تحققه، و المراد بالصبر الصبر على الإتيان بما أمر اللّه به، و اجتناب ما نهى عنه؛ و قيل: على الرزايا و المصائب، و معنى كون ذلك الصبر لابتغاء وجه اللّه؛ أن يكون خالصا له، لا شائبة فيه لغيره وَ أَقامُوا الصَّلاةَ أى فعلوها فى أوقاتها على ما شرعه اللّه سبحانه فى أذكارها و أركانها مع الخشوع و الإخلاص، و المراد بها الصلوات المفروضة، و قيل: أعمّ من ذلك وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ أى أنفقوا بعض ما رزقناهم، و المراد بالسرّ: صدقة النفل، و العلانية: صدقة الفرض؛ و قيل: السرّ لمن لم يعرف بالمال، أو لا يتهم بترك الزكاة، و العلانية لمن كان يعرف بالمال أو يتهم بترك الزكاة وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أى يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه كما فى قوله تعالى: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ* «۲»، أو يدفعون بالعمل الصالح العمل السيئ، أو يدفعون الشرّ بالخير، أو المنكر بالمعروف، أو الظلم بالعفو، أو الذنب بالتوبة، و لا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الموصوفين بالصفات المتقدّمة لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ العقبى مصدر كالعاقبة؛ و المراد بالدار الدنيا، و عقباها الجنة؛ و قيل: المراد بالدار: الدار الآخرة، و عقباها الجنة للمطيعين، و النار للعصاة جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها بدل من عقبى الدار، أى: لهم جنات عدن، و يجوز أن يكون مبتدأ، و خبره يدخلونها، و العدن أصله الإقامة، ثم صار علما لجنة من الجنان. قال القشيرى:

و جنات عدن: وسط الجنة و قصبتها، و سقفها عرش الرحمن، و لكن فى صحيح البخارى و غيره: «إذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، و أعلى الجنة، و فوقه عرش الرحمن، و منه تفجر أنهار الجنة».

---

(۱). الأعراف: ۱۷۲.

(۲). فصلت: ۳۴.

فتح القدير، ج۳، ص: ۹۵

وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ يشمل الآباء و الأمهات وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ معطوف على الضمير فى يدخلون، و جاز ذلك للفصل بين المعطوف و المعطوف عليه، أى: و يدخلها أزواجهم و ذرياتهم، و ذكر الصلاح دليل على أن لا يدخل الجنة إلا من كان كذلك من قرابات أولئك، و لا ينفع مجرد كونه من الآباء أو الأزواج أو الذرية بدون صلاح وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ أى من جميع أبواب المنازل التى يسكنونها، أو المراد من كل باب من أبواب التحف و الهدايا من اللّه سبحانه سَلامٌ عَلَيْكُمْ

أى قائلين سلام عليكم، أى: سلمتم من الآفات أو دامت لكم السلامة بِما صَبَرْتُمْ أى بسبب صبركم، و هو متعلّق بالسلام، أى: إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم أو متعلق بعليكم. أو بمحذوف، أى: هذه الكرامة بسبب صبركم أو بدل ما احتملتم من مشاقّ الصبر فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ جاء سبحانه بهذه الجملة المتضمّنة لمدح ما أعطاهم من عقبى الدار المتقدم ذكرها للترغيب و التشويق، ثم أتبع أحوال السعداء بأحوال الأشقياء، فقال وَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ و قد مرّ تفسير عدم النقض و عدم القطع فعرف منهما تفسير النقض و القطع، و لم يتعرض لنفى الخشية و الخوف عنهم و ما بعدهما من الأوصاف المتقدّمة لدخولها فى النقض و القطع وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بالكفر و ارتكاب المعاصى و الإضرار بالأنفس و الأموال أُولئِكَ الموصوفون بهذه الصفات الذميمة لَهُمُ بسبب ذلك اللَّعْنَةُ أى: الطّرد و الإبعاد من رحمة اللّه سبحانه وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ أى سوء عاقبة دار الدنيا، و هى النار أو عذاب النار.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله تعالى: أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ قال: هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب اللّه و عقلوه و وعوه كَمَنْ هُوَ أَعْمى قال:

عن الحق فلا يبصره و لا يعقله إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ فبيّن من هم، فقال: الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير أُولُوا الْأَلْبابِ قال: من كان له لبّ؛ أى عقل. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة: أن اللّه ذكر الوفاء بالعهد و الميثاق فى بضع و عشرين آية من القرآن. و أخرج الخطيب و ابن عساكر عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن البرّ و الصّلة ليخفّفان سوء الحساب يوم القيامة، ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ . و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ يعنى من إيمان بالنبيين و بالكتب كلها وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ يعنى يخافون من قطيعة ما أمر اللّه به أن يوصل وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ يعنى شدّة الحساب.

و قد ورد فى صلة الرحم و تحريم قطعها أحاديث كثيرة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الضحّاك وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ قال يدفعون بالحسنة السيئة. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن أبى شيبة و هناد و عبد بن حميد و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله: جَنَّاتُ عَدْنٍ قال: بطنان الجنة، يعنى وسطها. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن أن عمر قال لكعب: ما عدن؟

فتح القدير، ج۳، ص: ۹۶

قال: هو قصر فى الجنة لا يدخله إلا نبىّ أو صدّيق أو شهيد أو حكم عدل. و أخرج ابن مردويه عن علىّ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «جنّة عدن قضيب غرسه اللّه بيده، ثم قال له كن فكان». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ قال: من آمن فى الدنيا. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى عمران الجونى فى قوله: سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ قال: على دينكم فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ قال: نعم ما أعقبكم اللّه من الدنيا فى الجنة.

و أخرج أحمد و البزار و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن حبان و أبو الشيخ و ابن مردويه، و الحاكم و صحّحه، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن عبد اللّه بن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أوّل من يدخل الجنة من خلق اللّه فقراء المهاجرين الذين تسدّ بهم الثغور، و تتّقى بهم المكاره، و يموت أحدهم و حاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول اللّه لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة:

ربنا نحن سكان سمائك و خيرتك من خلقك، أ فتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال اللّه: إن هؤلاء عبادى كانوا يعبدوننى

لا يشركون بى شيئا، و تسدّ بهم الثغور، و تتّقى بهم المكاره، و يموت أحدهم و حاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء، فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى أمامة: «إن المؤمن ليكون متكئا على أريكة إذا دخل الجنة و عنده سماطان من خدم، و عند طرف السماطين باب مبوّب، فيقبل الملك فيستأذن، فيقول أقصى الخدم للذى يليه: ملك يستأذن، و يقول الذى يليه: ملك يستأذن، حتى يبلغ المؤمن، فيقول: ائذنوا له، فيقول أقربهم إلى المؤمن: ائذنوا له، و يقول الذى يليه للذى يليه ائذنوا له، حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب، فيفتح له فيدخل و يسلّم عليه، ثم ينصرف». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ قال: سوء العاقبة.

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٢٦ الى ٣٠]

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ وَ فَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ مَتاعٌ (٢٦) وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ (٢٩) كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتابِ (٣٠)

لما ذكر اللّه سبحانه عاقبة المشركين بقوله: وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ كان لقائل أن يقول: قد نرى كثيرا منهم قد وفّر اللّه له الرزق و بسط له فيه، فأجاب عن ذلك بقوله: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ فقد يبسط الرزق لمن كان كافرا، و يقتره على من كان مؤمنا ابتلاء و امتحانا، و لا يدلّ البسط على الكرامة و لا القبض على الإهانة، و معنى يقدر: يضيق، و منه وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ «١» أى ضيق؛ و قيل: معنى

---

(١). الطلاق: ٧.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٩٧

يقدر: يعطى بقدر الكفاية، و معنى الآية: أنه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره وَ فَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا أى مشركوا مكة فرحوا بالدنيا و جهلوا ما عند اللّه، قيل: و فى هذه الآية تقديم و تأخير، و التقدير:

الذين ينقضون عهد اللّه من بعد ميثاقه و يقطعون ما أمر اللّه به أن يوصل و يفسدون فى الأرض و فرحوا بالحياة الدنيا، فيكون و فرحوا معطوفا على يفسدون وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ أى: ما هى إلا شىء يستمتع به، و قيل: المتاع واحد الأمتعة كالقصعة و السكرجة و نحوهما؛ و قيل: المعنى: شىء قليل ذاهب، من متع النهار: إذا ارتفع فلا بدّ له من زوال؛ و قيل: زاد كزاد الراكب يتزوّد به منها إلى الآخرة وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ أى: يقول أولئك المشركون من أهل مكة هلا أنزل على محمد آية من ربه؟ و قد تقدّم تفسير هذا قريبا، و تكرر فى مواضع قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ أمره اللّه سبحانه أن يجيب عليهم بهذا، و هو أن الضلال بمشيئة اللّه سبحانه، من شاء أن يضله ضلّ كما ضلّ هؤلاء القائلون: لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ أى و يهدى إلى الحق، أو إلى الإسلام، أو إلى جنابه عزّ و جلّ مَنْ أَنابَ أى: من رجع إلى اللّه بالتوبة و الإقلاع عمّا كان عليه، و أصل الإنابة الدخول فى نوبة الخير، كذا قال النيسابورى، و محل الذين آمنوا النصب على البدلية من قوله: «مَنْ أَنابَ» أى أنهم هم الذين هداهم اللّه و أنابوا إليه، و يجوز أن يكون الذين آمنوا خبر مبتدأ محذوف، أى: هم الذين آمنوا، أو منصوب على المدح وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أى تسكن و تستأنس بذكر اللّه سبحانه بألسنتهم، كتلاوة القرآن و التسبيح و التحميد و التكبير و التوحيد، أو بسماع ذلك من غيرهم، و قد سمّى سبحانه القرآن ذكرا قال: وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ

أَنْزَلْناهُ «۱»، و قال: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ «۲» قال الزجاج:

أى: إذا ذكر اللّه وحده آمنوا به غير شاكين بخلاف من وصف بقوله: وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ «۳» و قيل: تطمئن قلوبهم بتوحيد اللّه، و قيل: المراد بالذكر هنا الطاعة، و قيل: بوعد اللّه، و قيل: بالحلف باللّه، فإذا حلف خصمه باللّه سكن قلبه، و قيل: بذكر رحمته، و قيل:

بذكر دلائله الدالة على توحيده أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ وحده دون غيره تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ و النظر فى مخلوقات اللّه سبحانه و بدائع صنعه و إن كان يفيد طمأنينة فى الجملة، لكن ليست كهذه الطمأنينة، و كذلك النظر فى المعجزات من الأمور التى لا يطيقها البشر، فليس إفادتها للطمأنينة كإفادة ذكر اللّه، فهذا وجه ما يفيده هذا التركيب من القصر؛ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ الموصول مبتدأ خبره الجملة الدعائية، و هى طوبى لهم على التأويل المشهور، و يجوز أن يكون الموصول فى محل نصب على المدح، و طوبى لهم خبر مبتدأ محذوف، و يجوز أن يكون الموصول بدلا من القلوب على حذف مضاف؛ أى قلوب الذين آمنوا. قال أبو عبيدة و الزّجّاج و أهل اللغة: طوبى فعلى من الطيب. قال ابن الأنبارى: و تأويلها الحال المستطابة، و قيل: طوبى شجرة فى الجنة، و قيل: هى الجنة، و قيل: هى البستان بلغة الهند، و قيل: معنى طوبى لهم: حسنى لهم، و قيل: خير لهم، و قيل: كرامة لهم، و قيل: غبطة لهم. قال النحّاس: و هذه الأقوال

---

(۱). الأنبياء: ۵۰.

(۲). الحجر: ۹.

(۳). الزمر: ۴۵.

متقاربة، و الأصل طيبى فصارت الياء واوا لسكونها و ضم ما قبلها، و اللام فى لهم للبيان مثل سقيا لك و رعيا لك. و قرئ «حُسْنُ مَآبٍ» بالنصب و الرفع، من آب إذا رجع، أى: و حسن مرجع، و هو الدار الآخرة؛ كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ أى: مثل ذلك الإرسال العظيم الشأن المشتمل على المعجزة الباهرة أرسلناك يا محمد، و قيل شبه الإنعام على من أرسل إليه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله، و معنى فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ فى قرن قد مضت من قبله قرون، أو فى جماعة من الناس قد مضت من قبلها جماعات لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أى لتقرأ عليهم القرآن، وَ الحال أن هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ أى: بالكثير الرحمة لعباده، و من رحمته لهم إرسال الرسل إليهم و إنزال الكتب عليهم كما قال سبحانه: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ «۱» و جملة قُلْ هُوَ رَبِّي مستأنفة بتقدير سؤال كأنهم قالوا: و ما الرحمن؟ فقال سبحانه: قُلْ يا محمد هُوَ رَبِّي أى خالقى لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أى: لا يستحق العبادة له و الإيمان به سواه عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فى جميع أمورى وَ إِلَيْهِ لا إلى غيره مَتابِ أى: توبتى، و فيه تعريض بالكفار، و حثّ لهم على الرجوع إلى اللّه، و التوبة من الكفر، و الدخول فى الإسلام.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عبد الرحمن بن سابط فى قوله: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ قال: كزاد الراعى يزوده أهله الكفّ من التمر أو الشىء من الدقيق أو الشىء يشرب عليه اللبن. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: كان الرجل يخرج فى الزمان الأول فى إبله، أو غنمه، فيقول لأهله: متعونى، فيمتعونه فلقة الخبز أو التمر، فهذا مثل ضربه اللّه للدنيا. و أخرج الترمذى و صحّحه عن عبد اللّه بن مسعود قال: «نام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على حصير فقام و قد أثّر فى جنبه، فقلنا:

يا رسول اللّه لو اتّخذنا لك؟ فقال: ما لى و للدنيا، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة، ثم راح و تركها». و أخرج

مسلم و الترمذی و النسائی و ابن ماجهٔ عن المستورد قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم:

«ما الدنيا فی الآخرهٔ إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه فی اليمّ فلينظر بم يرجع؟ و أشار بالسبابهٔ».

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن قتادهٔ فی قوله: وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ قال: هشت إليه و استأنست به. و أخرج أبو الشيخ عن السدّی فی الآيهٔ قال: إذا حلف لهم باللّه صدقوا أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ قال: تسكن. و أخرج ابن أبی شيبهٔ و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فی الآيهٔ قال: بمحمد و أصحابه. و أخرج أبو الشيخ عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم لأصحابه حين نزلت هذه الآية: أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ هل تدرون ما معنی ذلک؟

قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: من أحبّ اللّه و رسوله و أحبّ أصحابی». و أخرج ابن مردويه عن علیّ:

«أن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم لما نزلت هذه الآيهٔ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ قال: ذاک من أحبّ اللّه

---

(١). الأنبياء: ١٠٧.

و رسوله، و أحبّ أهل بيتی صادقا غير كاذب، و أحبّ المؤمنين شاهدا و غائبا، ألا بذكر اللّه يتحابّون».

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فی قوله: طُوبی لَهُمْ قال: فرح و قرّهٔ عين. و أخرج ابن أبی شيبهٔ و هناد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن عكرمهٔ فی قوله: طُوبی لَهُمْ قال: نعم ما لهم.

و قد روی عن جماعهٔ من السلف نحو ما قدّمنا ذكره من الأقوال، و الأرجح تفسير الآيهٔ بما روی مرفوعا إلی النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم كما أخرجه أحمد و ابن جرير و ابن أبی حاتم و ابن حبان و الطبرانی و ابن مردويه و البيهقی عن عتبهٔ ابن عبد قال: «جاء أعرابی إلی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه فی الجنهٔ فاكهةٔ؟ قال: نعم فيها شجرهٔ تدعی طوبی» الحديث. و أخرج أحمد و أبو يعلی و ابن جرير و ابن أبی حاتم و ابن حبان، و الخطيب فی تاريخه، عن أبی سعيد الخدری عن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم: «أن رجلا قال: يا رسول اللّه طوبی لمن رآک و آمن بک، قال: طوبی لمن آمن بی و رآنی، ثم طوبی ثم طوبی ثم طوبی لمن آمن بی و لم يرنی، فقال رجل: و ما طوبی؟

قال: شجرهٔ فی الجنهٔ مسيرهٔ مائهٔ عام، ثياب أهل الجنهٔ تخرج من أكمامها». و فی الباب أحاديث و آثار عن السلف. و قد ثبت فی الصحيحين و غيرهما من حديث أنس قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم: «فی الجنهٔ شجرهٔ يسير الراكب فی ظلها مائهٔ سنهٔ، اقرءوا إن شئتم وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ «١»» و فی بعض الألفاظ: «إنها شجرهٔ الخلد». و أخرج أبو الشيخ عن السدی وَ حُسْنُ مَآبٍ قال: حسن منقلب. و أخرج ابن جرير عن الضحّاک مثله و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم عن قتادهٔ فی قوله: وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قال: ذكر لنا أن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم زمن الحديبيهٔ حين صالح قريشا كتب فی الكتاب: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، قالت قريش: أما الرحمن فلا نعرفه، و كان أهل الجاهليهٔ يكتبون باسمک اللهم، فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم، فقال: لا، و لكن اكتبوا كما يريدون». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج فی هذه الآيهٔ نحوه.

و أخرج ابن أبی حاتم عن مجاهد وَ إِلَيْهِ مَتابِ قال: توبتی.

[سورهٔ الرعد (١٣): الآيات ٣١ الی ٣٥]

وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتی بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ

لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (٣١) وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (٣٢) أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (٣٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَ ظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ (٣٥)

---

(١). الواقعة: ٣٠.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٠٠

فتح القدير ج٣ ١٤٩

قوله: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ قيل: هـذا متصل بقوله: لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ و أن جماعة من الكفار سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يسير لهم جبال مكة حتى تنفسح فإنها أرض ضيقة، فأمره اللّه سبحانه بأن يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمّن لتعظيم شأن القرآن و فساد رأس الكفار؛ حيث لم يقنعوا به و أصرّوا على تعنتهم و طلبهم ما لو فعله اللّه سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الإلهية من عدم إنزال الآيات التى يؤمن عندها جميع العباد. و معنى سيرت به الجبال، أى: بإنزاله و قراءته فسارت عن محل استقرارها أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أى صدّعت حتى صارت قطعا متفرّقة أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى أى صاروا أحياء بقراءته عليهم، فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه الأحياء.

و قد اختلف فى جواب لو ماذا هو؟ فقال الفرّاء: هو محذوف، و تقديره: لكان هذا القرآن، و روى عنه أنه قال: إن الجواب لكفروا بالرحمن، أى: لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن؛ و قيل: جوابه لما آمنوا كما سبق فى قوله: ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ «١» و قيل: الجواب متقدّم، و فى الكلام تقديم و تأخير، أى: و هم يكفرون بالرحمن لو أن قرآنا إلى آخره، و كثيرا ما تحذف العرب جواب لو إذا دلّ عليه سياق الكلام، و منه قول امرئ القيس:

فلو أنّها نفس تموت جميعةو لكنّها نفس تساقط أنفسا

أى لهان علىّ ذلك بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أى: لو أن قرآنا فعل به ذلك لكان هذا القرآن، و لكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن، فلو شاء أن يؤمنوا لآمنوا و إذا لم يشأ أن يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال و سائر ما اقترحوه من الآيات، فالإضراب متوجّه إلى ما يؤدّى إليه كون الأمر للّه سبحانه و يستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته و مشيئته، و يدلّ على أن هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله: أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً قال الفرّاء: قال الكلبى أ فلم ييأس بمعنى أ فلم يعلم، و هى لغة النّخع. قال فى الصّحاح: و قيل: هى لغة هوازن، و بهذا قال جماعة من السلف. قال أبو عبيدة: أ فلم يعلموا و يتبيّنوا. قال الزّجّاج: و هو مجاز لأن اليائس من الشىء عالم بأنه لا يكون، نظيره استعمال الرجاء فى معنى الخوف، و النسيان فى الترك لتضمنهما إياهما، و يؤيده قراءة علىّ و ابن عباس و جماعة: أ فلم يتبين، و من هذا قول رباح بن عدىّ:

ألم ييأس الأقوام أنّى أنا ابنهو إن كنت عن أرض العشيرة نائيا

أى: ألم يعلم، و أنشد فى هذا أبو عبيدة قول مالك بن عوف النّضرى:

أقول لهم بالشّعب إذ يأسروننى «٢»ألم تيأسوا أنّى ابن فارس زهدم

---

(١). الأنعام: ١١١.

(٢). فى تفسير القرطبى (٩/ ٣٢٠): ييسروننى، من الميسر. و فى لسان العرب أن قائل البيت هو سحيم بن وثيل اليربوعى.

أى: ألم تعلموا، فمعنى الآية على هذا: أ فلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء اللّه لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات؛ و قيل: إن الإياس على معناه الحقيقى، أى: أ فلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار، لعلمهم أن اللّه تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم؛ لأن المؤمنين تمنّوا نزول الآيات التى اقترحها الكفار طمعا فى إيمانهم وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ هذا وعيد للكفار على العموم أو لكفار مكة على الخصوص، أى: لا يزال الذين كفروا تصيبهم بسبب ما صنعوا من الكفر و التكذيب للرسل قارعة، أى: داهية تفجؤهم، يقال: قرعه الأمر إذا أصابه، و الجمع قوارع، و الأصل فى القرع الضرب. قال الشاعر «١»:

أفنى تلادى و ما جمّعت من نشب‌قرع القواقيز أفواه الأباريق «٢»

و المعنى: أن الكفار لا يزالون كذلك حتى تصيبهم داهية مهلكة من قتل أو أسر أو جدب أو نحو ذلك من العذاب؛ و قد قيل: إن القارعة: النكبة، و قيل: الطلائع و السرايا، و لا يخفى أن القارعة تطلق على ما هو أعمّ من ذلك أَوْ تَحُلُ أى: القارعة قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ فيفزعون منها و يشاهدون من آثارها ما ترجف له قلوبهم و ترعد منه بوادرهم «٣»، و قيل: إن الضمير فى تَحُلُ للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و المعنى: أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم محاصرا لهم آخذا بمخانقهم كما وقع منه صلّى اللّه عليه و سلّم لأهل الطائف حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ و هو موتهم، أو قيام الساعة عليهم، فإنه إذا جاء وعد اللّه المحتوم حلّ بهم من عذابه ما هو الغاية فى الشدّة؛ و قيل: المراد بوعد اللّه هنا الإذن منه بقتال الكفار، و الأوّل أولى إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ فما جرى به وعده فهو كائن لا محالة وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا التنكير فى رسل للتكثير، أى: يرسل كثيرة، و الإملاء: الإمهال، و قد مرّ تحقيقه فى الأعراف ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ بالعذاب الذى أنزلته بهم فَكَيْفَ كانَ عِقابِ الاستفهام للتقريع و التهديد، أى: فكيف كان عقابى لهؤلاء الكفار الذى استهزءوا بالرسل، فأمليت لهم ثم أخذتم، ثم استفهم سبحانه استفهاما آخر للتوبيخ و التقريب يجرى مجرى الحجاج للكفار و استركاك صنعهم و الإزراء عليهم، فقال أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ القائم الحفيظ و المتولّى للأمور، و أراد سبحانه نفسه، فإنّه المتولى لأمور خلقه المدبر لأحوالهم بالآجال و الأرزاق، و إحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت، و الجواب محذوف، أى: أ فمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التى لا تنفع و لا تضرّ. قال الفراء: كأنه فى المعنى أ فمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم الذين اتخذوهم من دون اللّه، و المراد من الآية إنكار المماثلة بينهما؛ و قيل: المراد بمن هو قائم على كل نفس الملائكة الموكّلون ببنى آدم، و الأوّل أولى، و جملة وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ معطوفة على الجواب المقدّر مبينة له أو حالية بتقدير قد، أى: و قد جعلوا، أو معطوفة على وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ

---

(١). هو الأقيشر الأسدى.

(٢). «نشب»: هو الضياع و البساتين. «القواقيز»: جمع قاقوزة، و هى أوان يشرب بها الخمر.

(٣). بوادرهم: بادرة السيف: شباته؛ أى: طرفه و حدّه.

أى استهزءوا و جعلوا قُلْ سَمُّوهُمْ أى: قل يا محمد جعلتم له شركاء فسموهم من هم؟ و فى هذا تبكيت لهم و توبيخ، لأنه إنما يقال هكذا فى الشي‌ء المستحقر الذى لا يستحقّ أن يلتفت إليه، فيقال: سمّه إن شئت، يعنى أنه أحقر من أن يسمى؛ و قيل: إن

المعنى سـمّوهم بالآلهة كما تزعمون، فيكون ذلك تهديدا لهم أَمْ تُنَبِّئُونَهُ أى: بل أ تنبئون اللّه بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ من الشركاء الذين تعبدونهم مع كونه العالم بما فى السموات و الأرض أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ أى: بل أ تسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن تكون له حقيقـة؛ و قيـل: المعنى: قـل لهم أ تنبئون اللّه بباطن لا ـ يعلمه أم بظاهر يعلمه؟ فـإن قـالوا بباطن لا يعلمه فقـد جاءوا بـدعوى باطلـة، و إن قـالوا بظـاهر يعلمه فقـل لهم سـمّوهم، فإذا سـمّوا اللات و العزى و نحوهما، فقل لهم إن اللّه لا يعلم لنفسـه شريكا، و إنما خص الأرض بنفى الشـريك عنها، و إن لم يكن له شـريك فى غير الأرض، لأنهم ادّعوا له شـريكا فى الأرض؛ و قيل: معنى: أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ أم بزائل من القول باطل، و منه قول الشاعر:

أ عيّرتنا ألبانها و لحومهاو ذلك عار يا ابن ريطة ظاهر

أى: زائل باطل، و قيل: بكـذب من القول، و قيل معنى بظاهر من القول بحجة من القول ظاهرة على زعمهم بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ أى ليس للّه شـريك، بـل زين للـذين كفروا مكرهم. و قرأ ابن عبـاس «زين» على البنـاء للفاعـل على أن الـذى زين لهم ذلـك هـو مكرهم. و قرأ من عـداه بالبنـاء للمفعـول، و المزين هو اللّه سـبحانه، أو الشـيطان و يجوز أن يسـمّى المكر كفرا، لأنّ مكرهم برسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم كان كفرا، و أما معناه الحقيقى فهو الكيد، أو التمويه بالأباطيل وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ قرأ حمزة و الكسائى و عاصم صُدُّوا على البناء للمفعول أى: صدّهم اللّه، أو صدّهم الشيطان. و قرأ الباقون على البناء للفاعل أى: صدّوا غيرهم، و اختار هذه القراءة أبو حاتم و قرأ يحيى بن وثّاب بكسر الصاد وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ أى يجعله ضالا و تقتضـى مشيئته إضلاله، فما له من هاد يهديه إلى الخير. قرأ الجمهور هادٍ من دون إثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة. و قرئ بإثباتها على اللغـة القليلة، ثم بيّن سبحانه ما يستحقّونه، فقال: لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بما يصابون به من القتل و الأسر و غير ذلك وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ عليهم من عذاب الحياة الدنيا وَ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ يقيهم عذابه، و لا عاصم يعصمهم منه، ثم لما ذكر سبحانه ما يستحقه الكفار من العذاب فى الأولى و الآخرة، ذكر ما أعدّه للمؤمنين، فقال: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أى صـفتها العجيبـة الشأن التى هى فى الغرابـة كالمثل، قال ابن قتيبـة: المثل الشبه فى أصل اللغـة، ثم قد يصـير بمعنى صورة الشيء و صفته، يقال: مثلت لك كذا، أى:

صوّرته و وصـفته، فـأراد هنـا بمثل الجنـة صورتها و صـفتها، ثم ذكرها، فقال: تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ و هو كالتفسـير للمثل. قال سيبويه: و تقديره فيما قصصنا عليك مثل الجنة. و قال الخليل و غيره: إن مثل الجنة مبتدأ و الخبر تجرى. و قال الزجاج: إنه تمثيل للغائب بالشاهـد، و معناه مثل الجنـة جنة تجرى من تحتها الأنهار؛ و قيل إن فائدة الخبر ترجع إلى أُكُلُها دائِمٌ أى لا ينقطع، و مثله قوله سبحانه: لا مَقْطُوعَةٍ

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۰۳

وَ لا مَمْنُوعَةٍ «۱» و قـال الفراء: المثل مقحم للتأكيـد، و المعنى: الجنـة التى وعـد المتقون تجرى من تحتها الأنهار، و العرب تفعل ذلك كثيرا وَ ظِلُّها أى: كذلك دائم لا يتقلص و لا تنسخه الشمس، و الإشارة بقوله:

تِلْكَ إلى الجنـة الموصوفـة بالصـفات المتقدّمـة، و هو مبتـدأ خبره عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا أى: عاقبـة الـذين اتقوا المعاصـى، و منتهى أمرهم وَ عُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ ليس لهم عاقبة و لا منتهى إلا ذلك.

و قد أخرج الطبرانى و أبو الشـيخ عن ابن عباس قال: «قالوا للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم: إن كان كما تقول فأرنا أشياخنا الأول من الموتى نكلّمهم، و افسـح لنا هذه الجبال جبال مكة التى قد ضـمتنا، فنزلت وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُـيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ الآية. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عطية العوفى قال: قالوا لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم:

لو سيّرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى

كما كان يحيى عيسى الموتى لقومه، فأنزل اللّه وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ الآية إلى قوله: أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا قال: أ فلم يتبيّن الذين آمنوا، قالوا هل تروى هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم؟ قال: عن أبى سعيد الخدرىّ عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرجه أيضا ابن أبى حاتم قال:

حدّثنا أبو زرعة حدّثنا منجاب بن الحرث، أخبرنا بشر بن عمارة، حدّثنا عمر بن حسان، عن عطية العوفى فذكره. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه من طريق العوفى عن ابن عباس نحوه مختصرا. و أخرج أبو يعلى، و أبو نعيم فى الدلائل، و ابن مردويه عن الزبير بن العوام فى ذكر سبب نزول الآية نحو ما تقدّم مطوّلا. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء و لم يكن ليفعل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أَ فَلَمْ يَيْأَسِ يقول: يعلم.

و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ من طريق أخرى عنه نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن ابن زيد نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى العالية أَ فَلَمْ يَيْأَسِ قال: قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا و لو شاء اللّه لهدى الناس جميعا. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ قال: السرايا. و أخرج الطيالسى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عنه نحوه، و زاد أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ قال: أنت يا محمد حتى يأتى وعد اللّه، قال:

فتح مكة. و أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قارِعَةٌ قال: نكبة. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه من طريق العوفى عنه قارعة قال: عذاب من السماء، أو تحلّ قريبا من دارهم: يعنى نزول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بهم و قتاله آباءهم. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ قال: يعنى بذلك نفسه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ قال: الظاهر من القول هو الباطل. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة فى قوله: مَثَلُ الْجَنَّةِ

---

(١). الواقعة: ٣٣.

قال: نعت الجنة، ليس للجنة مثل. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن إبراهيم التيمى فى قوله: أُكُلُها دائِمٌ قال: لذاتها دائمة فى أفواههم.

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٣۶ الى ٣٩]

وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَآبِ (٣۶) وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا واقٍ (٣٧) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّيَّةً وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ (٣٩)

اختلف المفسرون فى تفسير الكتاب المذكور، فقيل: هو التوراة و الإنجيل، و الذين يفرحون بما أنزل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هم من أسلم من اليهود و النصارى. و قيل: الذين يفرحون هم أهل الكتابين لكون ذلك موافقا لما فى كتبهم مصدّقا

له، فعلى الأوّل يكون المراد بقوله: وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ من لم يسلم من اليهود و النصارى، و على الثانى يكون المراد به المشركين من أهل مكة و من يماثلهم، أو يكون المراد به البعض من أهل الكتابين، أى: من أحزابهما، فإنهم أنكروه لما يشتمل عليه من كونه ناسخا لشرائعهم فيتوجه فرح من فرح به منهم إلى ما هو موافق لما فى الكتابين، و إنكار من أنكر منهم إلى ما خالفهما، و قيل: المراد بالكتاب القرآن، و المراد بمن يفرح به المسلمون، و المراد بالأحزاب المتحزّبون على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من المشركين و اليهود و النصارى، و المراد بالبعض الذى أنكروه ما خالف ما يعتقدونه على اختلاف اعتقادهم. و اعترض على هذا بأنّ فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة من ذكره. و أجيب عنه بأن المراد زيادة الفرح و الاستبشار.

و قال كثير من المفسرين: إن عبد اللّه بن سلام و الذين آمنوا معه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة، فأنزل اللّه قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ «١» ففرحوا بذلك، ثم لما بيّن ما يحصل بنزول القرآن من الفرح للبعض و الإنكار للبعض صرّح بما عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و أمره أن يقول لهم ذلك، فقال قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لا أُشْرِكَ بِهِ أى لا أشرك به بوجه من الوجوه؛ أى:

قل لهم يا محمد إلزاما للحجة و ردّا للإنكار إنما أمرت فيما أنزل إلىّ بعبادة اللّه و توحيده، و هذا أمر اتفقت عليه الشرائع و تطابقت على عدم إنكاره جميع الملل المقتدية بالرسل، و قد اتفق القرّاء على نصب وَ لا أُشْرِكَ بِهِ عطفا على أَعْبُدَ و قرأ أبو خليد بالرفع على الاستئناف، و روى هذه القراءة عن نافع إِلَيْهِ أَدْعُوا أى: إلى اللّه لا إلى غيره أو إلى ما أمرت به و هو عبادة اللّه وحده، و الأوّل أولى لقوله: وَ إِلَيْهِ مَآبِ فإن الضمير للّه سبحانه؛ أى: إليه وحده لا إلى غيره مرجعى. ثم ذكر بعض فضائل القرآن، و أوعد على الإعراض عن اتباعه مع التعرّض لردّ ما أنكروه من اشتماله على نسخ بعض شرائعهم فقال: وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا

---

(١). الإسراء: ١١٠.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٠٥

أى مثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا القرآن مشتملا على أصول الشرائع و فروعها؛ و قيل: المعنى:

و كما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب، و يريد بالحكم ما فيه من الأحكام أو حكمة عربية مترجمة بلسان العرب، و انتصاب حكما على الحال وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ التى يطلبون منك موافقتهم عليها كالاستمرار منك على التوجه إلى قبلتهم و عدم مخالفتك لشىء ممّا يعتقدونه بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ الذى علّمك اللّه إياه ما لَكَ مِنَ اللَّهِ أى: من جنابه مِنْ وَلِيٍ يلى أمرك و ينصرك وَ لا واقٍ يقيك من عذابه، و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تعريض لأمته، و اللام فى وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ هى الموطئة للقسم، و ما لك سادّ مسدّ جواب القسم و الشرط وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّيَّةً أى: إن الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر لهم أزواج من النساء و لهم ذرّية توالدوا منهم و من أزواجهم، و لم نرسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوّجون و لا يكون لهم ذرّية. و فى هذا ردّ على من كان ينكر على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تزوّجه بالنساء؛ أى: إن هذا شأن رسل اللّه المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أى: لم يكن لرسول من الرسل أن يأتى بآية من الآيات، و من جملتها ما اقترحه عليه الكفار إلا بإذن اللّه سبحانه. و فيه ردّ على الكفار حيث اقترحوا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الآيات ما اقترحوا بما سبق ذكره لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ أى:

لكل أمر ممّا قضاه اللّه، أو لكل وقت من الأوقات التى قضى اللّه بوقوع أمر فيها كتاب عند اللّه يكتبه على عباده و يحكم به

فيهم. و قال الفراء: فيه تقديم و تأخير. و المعنى: لكلّ كتاب أجل، أى: لكل أمر كتبه اللّه أجل مؤجل و وقت معلوم كقوله سبحانه: لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ «١»، و ليس الأمر على حسب إرادة الكفار و اقتراحاتهم، بل على حسب ما يشاؤه و يختاره يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ أى: يمحو من ذلك الكتاب و يثبت ما يشاء منه، يقال: محوت الكتاب محوا إذا أذهبت أثره. قرأ ابن كثير و أبو عمرو و عاصم «و يثبت» بالتخفيف. و قرأ الباقون بالتشديد، و اختار هذه القراءة أبو حاتم و أبو عبيد. و ظاهر النظم القرآنى العموم فى كل شيء مما فى الكتاب فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر أو خير أو شرّ، و يبدل هذا بهذا، و يجعل هذا مكان هذا و لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ «٢»، و إلى هذا ذهب عمر بن الخطاب و عبد اللّه بن مسعود و ابن عباس و أبو وائل و قتادة و الضحّاك و ابن جريج و غيرهم. و قيل: الآية خاصة بالسّعادة و الشّقاوة؛ و قيل: يمحو ما يشاء من ديوان الحفظة، و هو ما ليس فيه ثواب و لا عقاب و يثبت ما فيه الثواب و العقاب؛ و قيل: يمحو ما يشاء من الرزق، و قيل: يمحو من الأجل؛ و قيل: يمحو ما يشاء من الشرائع فينسخه و يثبت ما يشاء فلا ينسخه؛ و قيل: يمحو ما يشاء من ذنوب عباده و يترك ما يشاء؛ و قيل: يمحو ما يشاء من الذنوب بالتوبة و يترك ما يشاء منها مع عدم التوبة؛ و قيل: يمحو الآباء و يثبت الأبناء؛ و قيل: يمحو القمر و يثبت الشمس كقوله: فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً «٣» و قيل: يمحو ما يشاء من الأرواح التى يقبضها حال النوم فيميت صاحبه و يثبت ما يشاء فيردّه إلى صاحبه؛ و قيل: يمحو ما يشاء

---

(١). الأنعام: ٦٧.

(٢). الأنبياء: ٢٣.

(٣). الإسراء: ١٢.

من القرون و يثبت ما يشاء منها؛ و قيل: يمحو الدنيا و يثبت الآخرة؛ و قيل غير ذلك ممّا لا حاجة إلى ذكره، و الأوّل أولى كما تفيده ما فى قوله ما يَشاءُ من العموم مع تقدم ذكر الكتاب فى قوله: لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ و مع قوله: وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ أى: أصله، و هو اللوح المحفوظ، فالمراد من الآية أنه يمحو ما يشاء مما فى اللوح المحفوظ فيكون كالعدم، و يثبت ما يشاء مما فيه فيجرى فيه قضاؤه و قدره على حسب ما تقتضيه مشيئته، و هذا لا ينافى ما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلّم من قوله: «جفّ القلم» و ذلك لأن المحو و الإثبات هو من جملة ما قضاه اللّه سبحانه؛ و قيل: إن أم الكتاب هو علم اللّه تعالى بما خلق و ما هو خالق.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ قال: أولئك أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فرحوا بكتاب اللّه و برسوله و صدّقوا به وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ يعنى اليهود و النصارى و المجوس. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية، قال: هؤلاء من آمن برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من أهل الكتاب يفرحون بذلك، و منهم من يؤمن به و منهم من لا يؤمن به وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قال: الأحزاب الأمم اليهود و النصارى و المجوس. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ إِلَيْهِ مَآبِ قال: إليه مصير كل عبد. و أخرج ابن ماجة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه من طريق قتادة عن الحسن عن سمرة قال: «نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن التّبتّل». و قرأ قتادة وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ الآية.

و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن سعد بن هشام قال: دخلت على عائشة فقلت: إنى أريد أن أتبتل، قالت: لا تفعل، أما سمعت اللّه يقول: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّيَّةً. و قد ورد فى النهى عن التبتل و الترغيب فى النكاح ما هو معروف.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: قالت قريش حين أنزل ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ما نراك يا محمد تملك من شىء، و لقد فرغ من الأمر، فأنزل هذه الآية تخويفا لهم و وعيدا لهم يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا شيئا، و يحدث اللّه فى كل رمضان فيمحو ما يشاء و يثبت من أرزاق الناس و مصائبهم و ما يعطيهم و ما يقسم لهم. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن نصر و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشّعب، عن ابن عباس فى قوله: يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ قال: ينزل اللّه فى كلّ شهر رمضان إلى سماء الدّنيا، فيدبّر أمر السنة إلى السنة فيمحو ما يشاء و يثبت إلا الشقاوة و السعادة و الحياة و الموت.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة اللّه، ثم يعود لمعصية اللّه فيموت على ضلالة، فهو الذى يمحو، و الذى يثبت الرجل يعمل بمعصية اللّه و قد سبق له خير حتى يموت على طاعة اللّه. و أخرج ابن جرير و محمد بن نصر و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و صحّحه، عنه أيضا فى الآية قال: هما كتابان يمحو اللّه ما يشاء من أحدهما و يثبت وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ أى: جملة الكتاب. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: «إنّ للّه لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام من درّة بيضاء له دفتان من ياقوت،

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۰۷

و الدفتان لوحان: للّه كل يوم ثلاث و ستون لحظة يمحو ما يشاء و يثبت و عنده أمّ الكتاب». و إسناده عند ابن جرير: هكذا حدّثنا محمد بن شهر بن عسكر حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس فذكره. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و الطبرانى عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه ينزل فى ثلاث ساعات يبقين من الليل فيفتح الذكر فى الساعة الأولى منها ينظر فى الذكر الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو اللّه ما يشاء و يثبت» الحديث. و أخرج الطبرانى فى الأوسط و ابن مردويه، بإسناد، قال السّيوطى: ضعيف، عن ابن عمر سمعت رسول اللّه يقول: «يمحو اللّه ما يشاء و يثبت إلا الشقاوة و السعادة و الحياة و الممات». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه. و أخرج الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: «لا ينفع الحذر من القدر، و لكنّ اللّه يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر». و أخرج ابن جرير عن قيس بن عباد قال: «العاشر من رجب و هو يوم يمحو اللّه فيه ما يشاء». و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عنه نحوه بأطول منه.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه قال و هو يطوف بالبيت: اللهمّ إن كنت كتبت علىّ شقوة أو ذنبا فامحه، فإنك تمحو ما تشاء و تثبت، و عندك أمّ الكتاب، فاجعله سعادة و مغفرة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى عن ابن مسعود نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى المدخل، عن ابن عباس فى قوله: يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ قال:

يبدّل اللّه ما يشاء من القرآن فينسخه، و يثبت ما يشاء فلا يبدّله وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ يقول: و جملة ذلك عنده فى أمّ الكتاب: الناسخ و المنسوخ، ما يبدّل و ما يثبت، كل ذلك فى كتاب. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ قال: الذكر. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن يسار عن ابن عباس أنه سأل كعبا عن أمّ الكتاب؟ فقال: علم اللّه ما هو خالق، و ما خلقه عاملون، فقال لعلمه كن كتابا، فكان كتابا.

[سورة الرعد (۱۳): الآيات ۴۰ الى ۴۳]

وَ إِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ (۴۰) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ

أَطْرافِها وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۴۱) وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (۴۲) وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ (۴۳)

وَ إِنْ ما نُرِيَنَّكَ ما زائدة، و أصله: و إن نرك بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ من العذاب كما وعدناهم بذلك بقولنا: لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا، و بقولنا: وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ، و المراد أريناك بعض ما نعدهم قبل موتك، أو توفيناك قبل إراءتك لذلك فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ أى: فليس عليك إلّا تبليغ أحكام الرسالة، و لا يلزمك حصول الإجابة منهم لما بلغته إليهم وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ أى:

محاسبتهم بأعمالهم و مجازاتهم عليها، و ليس ذلك عليك، و هذا تسلية من اللّه سبحانه لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم و إخبار له

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۰۸

أنه قد فعل ما أمره اللّه به، و ليس عليه غيره، و أن من لم يجب دعوته، و يصدّق نبوّته فاللّه سبحانه محاسبة على ما اجترم و اجترأ عليه من ذلك أَ وَ لَمْ يَرَوْا يعنى أهل مكة، و الاستفهام للإنكار، أى أو لم ينظروا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أى: نأتى أرض الكفر كمكة ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين منها شيئا فشيئا. قال الزجاج: أعلم اللّه أن بيان ما وعد المشركين من قهرهم قد ظهر، يقول:

أو لم يروا أنا فتحنا على المسلمين من الأرض ما قد تبين لهم، فكيف لا يعتبرون؟ و قيل: إن معنى الآية:

موت العلماء و الصلحاء. قال القشيرى: و على هذا فالأطراف الأشراف، و قد قال ابن الأعرابى: الطرف:

الرجل الكريم. قال القرطبى: و هذا القول بعيد؛ لأنّ مقصود الآية: أنا أريناهم النقصان فى أمرهم ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز إلا أن يحمل على موت أحبار اليهود و النصارى. و قيل: المراد من الآية:

خراب الأرض المعمورة حتى يكون العمران فى ناحية منها؛ و قيل: المراد بالآية: هلاك من هلك من الأمم؛ و قيل: المراد: نقص ثمرات الأرض؛ و قيل: المراد: جور ولاتها حتى تنقص وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ أى: يحكم ما يشاء فى خلقه، فيرفع هذا و يضع هذا، و يحيى هذا و يميت هذا، و يغنى هذا و يفقر هذا، و قد حكم بعزّة الإسلام و علوّه على الأديان، و جملة لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ فى محل نصب على الحال، و قيل: معترضة. و المعقب: الذى يكرّ على الشي‌ء فيبطله، و حقيقته الذى يقفيه بالردّ و الإبطال. قال الفراء:

معناه لا رادّ لحكمه. قال: و المعقب الذى يتبع الشي‌ء فيستدركه، و لا يستدرك أحد عليه، و المراد من الآية أنه لا يتعقب أحد حكم اللّه سبحانه بنقص و لا تغيير وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ فيجازى المحسن بإحسانه، و المسي‌ء بإساءته على السرعة وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً أى: قد مكر الكفار الذين من قبل كفار مكة بمن أرسله اللّه إليهم من الرسل فكادوهم و كفروا بهم، و هذا تسلية من اللّه سبحانه لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم حيث أخبره أن هذا ديدن الكفار من قديم الزمان مع رسل اللّه سبحانه، ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم، و أن المكر كلّه للّه. فقال فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً لا اعتداد بمكر غيره، ثم فسّر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره، فقال: يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ من خير و شرّ فيجازيها على ذلك، و من علم ما تكسب كل نفس و أعدّ لها جزاءها كان المكر كله له، لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون. و قال الواحدى: إنّ مكر الماكرين مخلوق فلا يضرّ إلا بإرادته؛ و قيل: المعنى: فلله جزاء مكر الماكرين وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ قرأ نافع و ابن كثير و أبو عمرو «الكافر» بالإفراد، و قرأ الباقون «الكفار» بالجمع، أى: سيعلم جنس الكافر لمن العاقبة المحمودة من الفريقين فى دار الدنيا، أو فى الدار الآخرة، أو فيهما؛ و قيل: المراد بالكافر: أبو جهل وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا أى: يقول المشركون أو جميع الكفار: لست يا

محمد مرسلا إلى الناس من اللّه، فأمره اللّه سبحانه بأن يجيب عليهم، فقال: قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ فهو يعلم صحة رسالتى، و صدق دعواتى، و يعلم كذبكم وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ أى:
علم جنس الكتاب كالتّوراة و الإنجيل، فإن أهلهما العالمين بهما يعلمون صحة رسالة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و قد أخبر بذلك من أسلم منهم كعبد اللّه بن سلام و سلمان الفارسى و تميم الدّارىّ و نحوهم، و قد كان المشركون
فتح القدير، ج٣، ص: ١٠٩
من العرب يسألون أهل الكتاب و يرجعون إليهم، فأرشدهم اللّه سبحانه فى هذه الآية إلى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك؛ و قيل: المراد بالكتاب القرآن و من عنده علم منه هم المسلمون؛ و قيل: المراد من عنده علم اللوح المحفوظ، و هو اللّه سبحانه و اختار هذا الزجاج، و قال: لأن الأشبه أن اللّه لا يستشهد على خلقه بغيره.
و قد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها قال: «ذهب العلماء». و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة، و نعيم بن حماد فى الفتن، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس فى قوله: نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها قال: موت علمائها و فقهائها و ذهاب خيار أهلها. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير عن مجاهد فى تفسير الآية قال: موت العلماء. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية: قال: أو لم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض.
و أخرج ابن جرير و ابن مردويه من طريق أخرى عنه نحوه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الضحّاك فى الآية قال: يعنى أنّ نبيّ اللّه كان ينتقص له ما حوله الأرضين ينظرون إلى ذلك فلا يعتبرون. و قال اللّه فى سورة الأنبياء: نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَ فَهُمُ الْغالِبُونَ «١»، بل نبيّ اللّه و أصحابه هم الغالبون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال:
نقصان أهلها و بركتها. و أخرج ابن المنذر عنه قال: أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران فى ناحية منها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ليس أحد يتعقب حكمه فيردّه كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيردّه.
و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «قدم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أسقف من اليمن فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: هل تجدنى فى الإنجيل؟ قال: لا، فأنزل اللّه قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ يقول عبد اللّه بن سلام. و أخرج ابن مردويه من طريق عبد الملك بن عمير عن جندب قال: جاء عبد اللّه بن سلام حتى أخذ بعضادتى باب المسجد، ثم قال: أنشدكم باللّه أ تعلمون أنى الذى أنزلت وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ قالوا: اللهم نعم. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه من طريق أخرى عنه نحوه. و أخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ قال: هم أهل الكتاب من اليهود و النصارى. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم فى الآية قال: كان قوم من أهل الكتاب يشهدون بالحق و يعرفونه، منهم عبد اللّه بن سلام و الجارود و تميم الدارى و سلمان الفارسى. و أخرج أبو يعلى و ابن جرير و ابن مردويه و ابن عدىّ بسند ضعيف عن ابن عمر أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ قال: و من عند اللّه علم الكتاب. و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه كان يقرأ: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ يقول: و من عند اللّه علم الكتاب. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و النحّاس فى ناسخه، عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ

(۱). الأنبياء: ۴۴.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۱۰

أهو عبد اللّه بن سلام؟ قال: كيف و هذه السورة مكية؟! و أخرج ابن المنذر عن الشعبى قال: ما نزل فى عبد اللّه بن سلام شىء من القرآن. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ قال: جبريل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: هو اللّه.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۱۱

سورة إبراهيم

اشارة

و هى مكية كما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس. و أخرجه ابن مردويه أيضا عن الزبير، و حكاه القرطبى عن الحسن و عكرمة و جابر بن زيد و قتادة إلا آيتين منها، و قيل: إلا ثلاث آيات نزلت فى الذين حاربوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هى قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً إلى قوله: فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ. و أخرج النحّاس فى ناسخه عن ابن عباس قال: هى مكية سوى آيتين منها نزلتا بالمدينة، و هى:

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً الآيتين نزلتا فى قتلى بدر من المشركين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۱ الى ۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (۱) اللَّهِ الَّذِى لَهُ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ وَ وَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ (۲) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِى ضَلالٍ بَعِيدٍ (۳) وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۴)

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (۵)

قوله: الر قد تقدّم الكلام فى أمثال هذا، و بيان قول من اللّه قال إنه متشابه، و بيان قول من قال إنه غير متشابه، و هو إما مبتدأ خبره كتاب، أو خبر مبتدأ محذوف، و يكون كِتابٌ خبرا لمحذوف مقدّر أو خبرا ثانيا لهذا المبتدأ أو يكون الر مسرودا على نمط التعديد فلا محلّ له، و أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ صفة لكتاب، أى: أنزلنا الكتاب إليك يا محمد و معنى لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ لتخرجهم من ظلمات الكفر و الجهل و الضلالة إلى نور الإيمان و العلم و الهداية؛ جعل الكفر بمنزلة الظلمات، و الإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة، و اللام فى لتخرج للغرض و الغاية، و التعريف فى الناس للجنس، و المعنى: أنه صلّى اللّه عليه و سلّم يخرج الناس بالكتاب المشتمل على ما شرعه اللّه لهم من الشرائع مما كانوا فيه من الظلمات إلى ما صاروا إليه من النور؛ و قيل: إن الظلمة مستعارة للبدعة، و النور مستعار للسنة؛ و قيل: من الشك إلى اليقين، و لا مانع من إرادة جميع هذه الأمور، و الباء فى بِإِذْنِ رَبِّهِمْ متعلقة بتخرج، و أسند الفعل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأنه الداعى و الهادى و المنذر. قال الزّجّاج: بما أذن

لک من تعليمهم و دعائهم إلى الإيمان إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ هو بدل من إلى النور بتكرير العامل كما يقع مثله كثيرا، أى: لتخرج الناس من الظلمات إلى صراط العزيز الحميد، و هو طريقة اللّه الواضحة التى شرعها لعباده، و أمرهم بالمصير إليها و الدخول فيها؛ و يجوز أن

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۱۲

يكون مستأنفا بتقدير سؤال كأنه قيل: ما هذا النور الذى أخرجهم إليه؟ فقيل: صراط العزيز الحميد.

و العزيز هو القادر الغالب، و الحميد هو الكامل فى استحقاق الحمد اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ قرأ نافع و ابن عامر بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو اللّه المتّصف بملك ما فى السموات و ما فى الأرض. و قرأ الجمهور بالجرّ على أنه عطف بيان لكونه من الأعلام الغالبة، فلا يصحّ وصف ما قبله به؛ لأنّ العلم لا يوصف به؛ و قيل: يجوز أن يوصف به من حيث المعنى. و قال أبو عمرو: إنّ قراءة الجرّ محمولة على التقديم و التأخير، و التقدير: إلى صراط اللّه العزيز الحميد. و كان يعقوب إذا وقف على الحميد رفع، و إذا وصل خفض. قال ابن الأنبارى: من خفض وقف على وَ ما فِي الْأَرْضِ ثم توعد من لا يعترف بربوبيته فقال: وَ وَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ قد تقدّم بيان معنى الويل، و أصله النصب كسائر المصادر، ثم رفع للدلالة على الثبات. قال الزجاج: هى كلمة تقال للعذاب و الهلكة، فدعا سبحانه و تعالى بذلك على من لم يخرج من الكفار بهداية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم له بما أنزله اللّه عليه مما هو فيه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان و مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ متعلق بويل على معنى يولولون و يضجون من العذاب الشديد الذى صاروا فيه، ثم وصف هؤلاء الكفار بقوله: الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا أى يؤثرونها لمحبتهم لها عَلَى الْآخِرَةِ الدائمة و النعيم الأبدى؛ و قيل: إن الموصول فى موضع رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أى: هم الذين؛ و قيل: الموصول مبتدأ و خبره أولئك، و جملة وَ يَصُدُّونَ و كذلك و يبغون معطوفتان على يستحبون، و معنى الصدّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ صرف الناس عنه و منعهم منه، و سبيل اللّه دينه الذى شرعه لعباده وَ يَبْغُونَها عِوَجاً أى: يطلبون لها زيغا و ميلا لموافقة أهوائهم و قضاء حاجاتهم و أغراضهم، و العوج بكسر العين فى المعانى و بفتح العين فى الأعيان و قد سبق تحقيقه. و الأصل يبغون لها فحذف الحرف و أوصل الفعل إلى الضمير، و اجتماع هذه الخصال نهاية الضلال، و لهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق فقال: أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ و الإشارة إلى الموصوفين بتلك الصفات القبيحة و البعد و إن كان من صفة الضالّ لكنه يجوز وصف الضلال به مجازا لقصد المبالغة، ثم لما منّ على المكلفين بإنزال الكتاب و إرسال الرسول ذكر من كمال تلك النعمة أن ذلك المرسل بلسان قومه فقال: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ أى: متلبّسا بلسانهم متكلما بلغتهم لأنه إذا كان كذلك فهم عنه المرسل إليهم ما يقوله لهم و سهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فإنهم لا يدرون ما يقول و لا يفهمون ما يخاطبهم به حتى يتعلموا ذلك اللسان دهرا طويلا، و مع ذلك فلا بدّ أن يصعب عليهم فهم ذلك بعض صعوبة، و لهذا علّل سبحانه ما امتنّ به على العباد بقوله:

لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أى: ليوضح لهم ما أمرهم اللّه به من الشريعة التى شرعها لهم و وحد اللسان لأن المراد بها اللغة. و قد قيل فى هذه الآية إشكال؛ لأن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أرسل إلى الناس جميعا بل إلى الجنّ و الإنس و لغاتهم متباينة و ألسنتهم مختلفة. و أجيب بأنه و إن كان صلّى اللّه عليه و سلّم مرسلا إلى الثقلين كما مرّ لكن لما كان قومه العرب و كانوا أخصّ به و أقرب إليه كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم، و هم يبينونه لمن كان على غير لسانهم و يوضحونه حتى يصير فإهماله كفهمهم إياه، و لو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۱۳

إليهم، و بيّنه رسول اللّه لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف و فتحا لباب التنازع؛ لأنّ كلّ أمة قد تدّعى من المعانى فى

لسانها ما لا يعرفه غيرها، و ربما كان ذلك أيضا مفضيا إلى التحريف و التصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التى يقع فيها المتعصبون و جملة فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ مستأنفة، أى: يضلّ من يشاء إضلاله و يهدى من يشاء هدايته. قال الفراء: إذا ذكر فعل و بعده فعل آخر فإن لم يكن النسق مشاكلا للأوّل فالرفع على الاستئناف هو الوجه، فيكون معنى هذه الآية: و ما أرسلنا من رسول اللّه إلا بلسان قومه ليبين لهم تلك الشرائع باللغة التى ألفوها و فهموها، و مع ذلك فإن المضلّ و الهادى هو اللّه عزّ و جلّ؛ و البيان لا يوجب حصول الهداية إلا إذا جعله اللّه سبحانه واسطة و سببا، و تقديم الإضلال على الهداية لأنه متقدّم عليها، إذ هو إبقاء على الأصل و الهداية إنشاء ما لم يكن وَ هُوَ الْعَزِيزُ الذى لا يغالبه مغالب الْحَكِيمُ الذى يجرى أفعاله على مقتضى الحكمة، ثم لمّا بيّن أن المقصود من بعثة نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور أراد أن يبين أن الغرض من إرسال الأنبياء لم يكن إلا ذلك، و خصّ موسى بالذكر لأن أمته أكثر الأمم المتقدّمة على هذه الأمة المحمدية فقال: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أى:
متلبسا بها. و المراد بالآيات: المعجزات التى لموسى، و معنى أَنْ أَخْرِجْ أى: أخرج؛ لأن الإرسال فيه معنى القول، و يجوز أن يكون التقدير بأن أخرج، و المراد بقومه بنو إسرائيل بعد ملك فرعون مِنَ الظُّلُماتِ من الكفر أو من الجهل الذى قالوا بسببه: اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ «١». إِلَى النُّورِ إلى الإيمان أو إلى العلم وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ أى: بوقائعه. قال ابن السكيت: العرب تقول الأيام فى معنى الوقائع، يقال: فلان عالم بأيام العرب، أى: بوقائعها. و قال الزجاج: أى ذكرهم بنعم اللّه عليهم و بنقم أيام اللّه التى انتقم فيها من قوم نوح و عاد و ثمود. و المعنى: عظهم بالتّرغيب و التّرهيب و الوعد و الوعيد إِنَّ فِي ذلِكَ أى: فى التذكير بأيام اللّه أو فى نفس أيام اللّه لَآياتٍ لدلالات عظيمة دالة على التوحيد و كمال القدرة لِكُلِّ صَبَّارٍ أى: كثير الصبر على المحن و المنح شَكُورٍ كثير الشكر للنعم التى أنعم اللّه بها عليه؛ و قيل: المراد بذلك كل مؤمن، و عبّر عنه بالوصفين المذكورين لأنهما ملاك الإيمان، و قدّم الصبار على الشكور؛ لكون الشكر عاقبة الصبر.
و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ قال: من الضلالة إلى الهدى. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: يَسْتَحِبُّونَ قال: يختارون. و أخرج عبد بن حميد و أبو يعلى و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: إن اللّه فضل محمدا على أهل السماء و على الأنبياء، و قيل: ما فضله على أهل السماء؟ قال: إن اللّه قال لأهل السماء: وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ «٢» و قال لمحمد: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ «٣» فكتب له براءة من النار؛ قيل فما هو فضله على الأنبياء؟ قال: إن اللّه يقول: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ و قال لمحمد:

---

(١). الأعراف: ١٣٨.

(٢). الأنبياء: ٢٩.

(٣). الفتح: ٢.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١١٤

وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ «١» فأرسله إلى الإنس و الجنّ. و أخرج ابن مردويه عن عثمان بن عفان إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ قال: نزل القرآن بلسان قريش. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد و عطاء و عبيد بن عمير فى قوله: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا قال: بالآيات التسع الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم و العصا و يده و السنين و نقص من الثمرات. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ قال: من

الضلالة إلى الهدى. و أخرج النسائى، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى شعب لإيمان؛ عن أبىّ بن كعب عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ قال: «بنعم اللّه و آلائه». و أخرج عبد الرزاق، و ابن المنذر عن ابن عباس وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ قال: نعم اللّه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ قال: وعظهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى الآية قال:

بوقائع اللّه فى القرون الأولى. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ قال: نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر، و إذا أعطى شكر.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٦ الى ١٢]

وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَ قالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَ قالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (١٠)

قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ ما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَ ما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدانا سُبُلَنا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)

قوله: وَ إِذْ قالَ مُوسى الظرف متعلق بمحذوف هو اذكر، أى: اذكر وقت قول موسى و إِذْ أَنْجاكُمْ متعلق باذكروا، أى: اذكروا إنعامه عليكم وقت إنجائه لكم من آل فرعون، أو بالنعمة، أو بمتعلق عليكم: أى: مستقرة عليكم وقت إنجائه، و هو بدل اشتمال من النعمة مرادا بها الإنعام أو العطية يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ أى: يبغونكم، يقال سامه ظلما، أى: أولاه ظلما، و أصل السوم الذهاب فى طلب الشيء

---

(١). سبأ: ٢٨.

و سوء العذاب: مصدر ساء يسوء، و المراد جنس العذاب السيئ، و هو استعبادهم و استعمالهم فى الأعمال الشاقة، و عطف يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ على يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ و إن كان التذبيح من جنس سوء العذاب إخراجا له عن مرتبة العذاب المعتاد حتى كأنه جنس آخر لما فيه من الشدّة، و مع طرح الواو كما فى الآية الأخرى يكون التذبيح تفسيرا لسوء العذاب وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ أى: يتركونهنّ فى الحياة لإهانتهنّ و إذلالهنّ وَ فِي ذلِكُمْ المذكور من أفعالهم بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ أى: ابتلاء لكم، و قد تقدّم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة مستوفى وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ تأذّن بمعنى أذّن قاله الفراء. قال فى الكشاف: و لا بدّ فى تفعل من زيادة معنى ليست فى أفعل، كأنه قيل: و إذ أذّن ربكم إيذانا بليغا تنتفى عنه الشكوك و تنزاح الشبه. و المعنى: و إذ تأذّن ربكم فقال: لَئِنْ شَكَرْتُمْ أو أجرى تأذّن مجرى قال؛ لأنه ضرب من القول انتهى، و هذا من قول موسى لقومه، و هو معطوف على نعمة اللّه، أى: اذكروا نعمة اللّه عليكم و اذكروا حين تأذّن ربكم، و قيل: هو معطوف على قوله: إذ أنجاكم؛ أى: اذكروا

نعمة اللّه تعالى فى هذين الوقتين، فإن هذا التأذّن أيضا نعمة، و قيل: هو من قول اللّه سبحانه، أى: و اذكر يا محمد إذ تأذّن ربكم. و قرأ ابن مسعود «و إذ قال ربّكم» و المعنى واحد كما تقدم، و اللام فى لئن شكرتم هى الموطئة للقسم، و قوله:
لَأَزِيدَنَّكُمْ سادّ مسدّ جوابى الشرط و القسم، و كذا اللام فى وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ و قوله: إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ سادّ مسدّ الجوابين أيضا؛ و المعنى: لئن شكرتم إنعامى عليكم بما ذكر لأزيدنكم نعمة إلى نعمة تفضلا منى؛ و قيل: لأزيدنكم من طاعتى؛ و قيل: لأزيدنكم من الثواب؛ و الأوّل أظهر فالشك سبب المزيد، و لئن كفرتم ذلك و جحدتموه إن عذابى لشديد، فلا بدّ أن يصيبكم منه ما يصيب؛ و قيل: إنّ الجواب محذوف؛ أى: و لئن كفرتم لأعذبنكم، و المذكور تعليل للجواب المحذوف وَ قالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً أى: إن تكفروا نعمته تعالى أنتم و جميع الخلق و لم تشكروها فَإِنَّ اللَّهَ سبحانه لَغَنِيٌّ عن شكركم لا يحتاج إليه و لا يلحقه بذلك نقص حَمِيدٌ أى: مستوجب للحمد لذاته لكثرة إنعامه، و إن لم تشكروه، أو يحمده غيركم من الملائكة أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ يحتمل أن يكون هذا خطابا من موسى لقومه، فيكون داخلا تحت التذكير بأيام اللّه، و يحتمل أن يكون من كلام اللّه سبحانه ابتداء خطابا لقوم موسى و تذكيرا لهم بالقرون الأولى و أخبارهم و مجىء رسل اللّه إليهم، و يحتمل أنه ابتداء خطاب من اللّه سبحانه لقوم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم تحذيرا لهم عن مخالفته، و النبأ: الخبر، و الجمع الأنباء و منه قول الشاعر «١»:

ألم تأتيك و الأنباء تنمى بما لاقت لبون بنى زياد

و قَوْمِ نُوحٍ بدل من الموصول، أو عطف بيان وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ أى: من بعد هؤلاء المذكورين لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ أى: لا يحصى عددهم و يحيط بهم علما إلا اللّه سبحانه، و الموصول مبتدأ و خبره لا يعلمهم إلا اللّه و الجملة معترضة، أو يكون الموصول معطوفا على ما قبله و لا يعلمهم

---

(١). هو قيس بن زهير.

إلا اللّه اعتراض، و عدم العلم من غير اللّه إما أن يكون راجعا إلى صفاتهم و أحوالهم و أخلاقهم و مدد أعمارهم، أى: هذه الأمور لا يعلمها إلا اللّه و لا يعلمها غيره، أو يكون راجعا إلى ذواتهم، أى: أنه لا يعلم ذوات أولئك الذين من بعدهم إلا اللّه سبحانه، و جملة جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ مستأنفة لبيان النبأ المذكور فى أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أى: جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرة و بالشرائع الواضحة فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ أى: جعلوا أيدى أنفسهم فى أفواههم ليعضّوها غيظا مما جاءت به الرسل، كما فى قوله تعالى: عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ «١» لأن الرسل جاءتهم بتسفيه أحلامهم و شتم أصنامهم؛ و قيل:

إن المعنى: أنهم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم لما جاءتهم الرسل بالبينات، أى: اسكتوا و اتركوا هذا الذى جئتم به تكذيبا لهم و ردّا لقولهم؛ و قيل: المعنى أنهم أشاروا إلى أنفسهم و ما يصدر عنها من المقالة و هى قولهم:

إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ أى: لا جواب لكم سوى هذا الذى قلناه لكم بألسنتنا هذه؛ و قيل: وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاء و تعجبا كما يفعله من غلبه الضحك من وضع يده على فيه؛ و قيل: المعنى: ردّوا على الرسل قولهم و كذبوهم بأفواههم؛ فالضمير الأوّل للرسل و الثانى للكفار؛ و قيل: جعلوا أيديهم فى أفواه الرسل ردّا لقولهم؛ فالضمير الأول على هذا للكفار و الثانى للرسل؛ و قيل: معناه: أومئوا إلى الرسل أن اسكتوا؛ و قيل: أخذوا أيدى الرسل و وضعوها على أفواه الرسل ليسكنوهم و يقطعوا كلامهم؛ و قيل: إن الأيدى هنا النعم، أى: ردّوا نعم الرسل بأفواههم، أى: بالنطق و التكذيب، و المراد بالنعم هنا ما جاءوهم به من الشرائع. و

قال أبو عبيدة: و نعم ما قال: هو ضرب مثل، أى: لم يؤمنوا و لم يجيبوا، و العرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب و سكت: قد ردّ يده فى فيه، و هكذا قال الأخفش، و اعترض ذلک القتبى فقال: لم يسمع أحد من العرب يقول ردّ يده فى فيه: إذ ترک ما أمر به، و إنما المعنى عضّوا على الأيدى حنقا و غيظا، کقول الشاعر:

يردّنّ فى فيه غيظ الحسود حتى يعضّ علىّ الأكفّا «٢»

و هذا هو القول الذى قدّمناه على جميع هذه الأقوال، و منه قول الشاعر:

أو أنّ سلمى أبصرت تخدّدى و دقّة فى عظم ساقى و يدى

[و بعد أهلى و جفاء عوّدى عضّت من الوجد بأطراف اليدا «٣»

و هو أقرب التفاسير للآية إن لم يصح عن العرب ما ذكره أبو عبيدة و الأخفش، فإن صح ما ذكراه فتفسير الآية به أقرب وَ قالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ أى: قال الكفار للرسل إنا كفرنا بما أرسلتم به من البينات على زعمكم وَ إِنَّا لَفِی شَکٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ أى: فى شک عظيم مما تدعوننا إليه من الإيمان باللّه وحده

---

(١). آل عمران: ١١٩.

(٢). فى تفسير القرطبى (٩/ ٣٤٦): تردّون بدل: يردنّ، و غشّ بدل: غيظ.

(٣). ما بين معقوفتين مستدرک من تفسير القرطبى (٩/ ٣٤٥). «التخدّد»: أن يضطرب اللحم من الهزال.

فتح القدير، ج٣، ص: ١١٧

و ترک ما سواه مُرِيبٍ أى: موجب للريب، يقال: أربته؛ إذا فعلت أمرا أوجب ريبة و شكا، و الريب:

قلق النفس و عدم سكونها. و قد قيل: كيف صرّحوا بالكفر ثم أقرهم على الشک. و أجيب بأنهم أرادوا إنا كافرون برسالتكم، و إن نزلنا عن هذا المقام فلا أقلّ من أنا نشک فى صحة نبوتكم، و مع كمال الشک لا مطمع فى الاعتراف بنبوّتكم. و جملة قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِی اللَّهِ شَکٌّ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل:

فماذا قالت لهم الرسل؟ و الاستفهام للتقريع و التوبيخ، أى: أفى وحدانيته سبحانه شک، و هى فى غاية الوضوح و الجلاء، ثم إن الرسل ذكروا بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلک الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشک فى وجوده سبحانه و وحدانيته. فقالوا: فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى خالقهما و مخترعهما و مبدعهما و موجدهما بعد العدم يَدْعُوكُمْ إلى الإيمان به و توحيده لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ قال أبو عبيدة: من زائدة، و وجه ذلک قوله فى موضع آخر: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، و قال سيبويه:

هى للتبعيض، و يجوز أن يذكر البعض و يراد منه الجميع؛ و قيل: التبعيض على حقيقته، و لا يلزم من غفران جميع الذنوب لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم غفران جميعها لغيرهم، و بهذه الآية احتجّ من جوّز زيادة من فى الإثبات؛ و قيل:

من للبدل و ليست بزائدة و لا تبعيضية، أى: لتكون المغفرة بدلا من الذنوب وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى أى: إلى وقت مسمّى عنده سبحانه، و هو الموت فلا يعذّبكم فى الدنيا قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا أى:

ما أنتم إلا بشر مثلنا فى الهيئة و الصورة، تأكلون و تشربون كما نأكل و نشرب و لستم ملائكة تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا وصفوهم بالبشر أوّلا، ثم بإرادة الصدّ لهم عما كان يعبد آباؤهم ثانيا، أى: تريدون أن تصرفونا عن معبودات آبائنا من الأصنام و نحوها فَأْتُونا إن كنتم صادقين بأنكم مرسلون من عند اللّه بِسُلْطانٍ مُبِينٍ أى بحجّة ظاهرة تدل على صحة ما تدّعونه، و قد جاءوهم بالسلطان المبين و الحجة الظاهرة، و لكن هذا النوع من تعنتاتهم، و لون من تلوناتهم قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ

أی: ما نحن فی الصورة و الهیئة إلا بشر مثلکم کما قلتم وَ لکِنَّ اللَّهَ یَمُنُّ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أی: یتفضل علی من یشاء منهم بالنبوّة؛ و قیل: بالتوفیق و الهدایة وَ ما کانَ لَنا أَنْ نَأْتِیَکُمْ بِسُلْطانٍ أی: ما صح و لا استقام لنا أن نأتیکم بحجّة من الحجج إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أی: إلا بمشیئته و لیس ذلک فی قدرتنا. قیل: المراد بالسلطان هنا هو ما یطلبه الکفار من الآیات علی سبیل التعنت، و قیل أعم من ذلک، فإن ما شاءه اللّه کان و ما لم یشأه لم یکن وَ عَلَی اللَّهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُؤْمِنُونَ أی: علیه وحده، و هذا أمر منهم للمؤمنین بالتوکل علی اللّه دون من عداه، و کأنّ الرسل قصدوا بهذا الأمر للمؤمنین الأمر لهم أنفسهم قصدا أوّلیا، و لهذا قالوا وَ ما لَنا أَلَّا نَتَوَکَّلَ عَلَی اللَّهِ أی: و أیّ عذر لنا فی ألا نتوکل علیه سبحانه وَ قَدْ هَدانا سُبُلَنا أی: و الحال أنه قد فعل بنا ما یوجب توکلنا علیه من هدایتنا إلی الطریق الموصل إلی رحمته، و هو ما شرعه لعباده و أوجب علیهم سلوکه وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلی ما آذَیْتُمُونا بما یقع منکم من التکذیب لنا و الاقتراحات الباطلة وَ عَلَی اللَّهِ وحده دون من عداه فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُتَوَکِّلُونَ قیل: المراد بالتوکل الأوّل استحداثه، و بهذا السعی فی بقائه و ثبوته؛ و قیل: معنی الأوّل: إن الذین یطلبون المعجزات یجب علیهم أن یتوکلوا فی حصولها علی

فتح القدیر، ج۳، ص: ۱۱۸

اللّه سبحانه لا علینا، فإن شاء سبحانه أظهرها و إن شاء لم یظهرها. و معنی الثانی: إبداء التوکل علی اللّه فی دفع شرّ الکفار و سفاهتهم.

و قد أخرج ابن أبی حاتم عن الربیع فی قوله: وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکُمْ لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ قال: أخبرهم موسی عن ربّه أنهم إن شکروا النعمة زادهم من فضله، و أوسع لهم من الرزق، و أظهرهم علی العالم. و أخرج ابن جریر عن الحسن لَأَزِیدَنَّکُمْ قال: من طاعتی. و أخرج ابن المبارک و ابن جریر و ابن أبی حاتم و البیهقی فی الشعب، عن علیّ بن صالح مثله. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن سفیان الثوری فی الآیة قال: لا تذهب أنفسکم إلی الدنیا فإنها أهون عند اللّه من ذلک، و لکن یقول: لئن شکرتم لأزیدنکم من طاعتی. و أخرج أحمد و البیهقی عن أنس قال: «أتی النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم سائل فأمر له بتمرة فلم یأخذها، و أتاه آخر فأمر له بتمرة فقبلها، و قال: تمرة من رسول اللّه، فقال للجاریة: اذهبی إلی أمّ سلمة فأعطیه الأربعین درهما التی عندها» و فی إسناد أحمد عمارة بن زاذان، وثّقه أحمد و یعقوب بن سفیان و ابن حبّان، و قال ابن معین:

صالح، و قال أبو زرعة: لا بأس به، و قال أبو حاتم: یکتب حدیثه و لا یحتجّ به، لیس بالمتین، و قال البخاری:

ربما یضطرب فی حدیثه، و قال أحمد: روی عنه أحادیث منکرة، و قال أبو داود: لیس بذاک، و ضعّفه الدارقطنی، و قال ابن عدی: لا بأس به. و أخرج البخاری فی تاریخه، و الضیاء المقدسی فی المختارة، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «من ألهم خمسة لم یحرم خمسة، و فیها: و من ألهم الشکر لم یحرم الزیادة».

و أخرج الحکیم الترمذی فی نوادره عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «أربع من أعطیهنّ لم یمنع من اللّه أربعا، و فیها: و من أعطی الشکر لم یمنع الزیادة». و لا وجه لتقیید الزیادة بالزیادة فی الطاعة، بل الظاهر من الآیة العموم، کما یفیده جعل الزیادة جزاء للشکر، فمن شکر اللّه علی ما رزقه وسع اللّه علیه فی رزقه، و من شکر اللّه علی ما أقدره علیه من طاعته زاده من طاعته، و من شکره علی ما أنعم علیه به من الصحة زاده اللّه صحة، و نحو ذلک.

و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن مسعود أنه کان یقرأ: وَ الَّذِینَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا یَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ و یقول: کذب النسابون. و أخرج ابن أبی شیبة و ابن المنذر عن عمرو بن میمون مثله. و أخرج ابن الضریس عن أبی مجلز قال: قال رجل لعلی بن أبی طالب: أنا أنسب الناس، قال: إنک لا تنسب الناس، فقال: بلی، فقال له علیّ: أ رأیت قوله: وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحابَ الرَّسِّ وَ قُرُوناً بَیْنَ ذلِکَ کَثِیراً «۱» قال: أنا أنسب ذلک الکثیر، قال: أ رأیت قوله: أَ لَمْ یَأْتِکُمْ نَبَؤُا الَّذِینَ مِنْ

قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ فسكت. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير قال: ما وجدنا أحدا يعرف ما وراء معدّ بن عدنان. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر عن ابن عباس قال: بين عدنان و إسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

---

(١). الفرقان: ٣٨.

فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ قال: لما سمعوا كتاب اللّه عجبوا و رجعوا بأيديهم إلى أفواههم وَ قالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ يقولون: لا نصدّكم فيما جئتم به، فإن عندنا فيه شكا قويا. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود: فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ قال: عضّوا عليها. و فى لفظ: على أناملهم غيظا على رسلهم.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ١٣ الى ١٨]

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَ خافَ وَعِيدِ (١٤) وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَ لا يَكادُ يُسِيغُهُ وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ما هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ (١٧)
مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْ‌ءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٨)

قوله: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هؤلاء القائلون هم طائفة من المتمرّدين عن إجابة الرسل، و اللام فى لَنُخْرِجَنَّكُمْ هى الموطئة للقسم، أى: و اللّه لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودنّ فى ملتنا، لم يقنعوا بردهم لما جاءت به الرسل و عدم امتثالهم لما دعوهم إليه حتى اجترءوا عليهم بهذا، و خيّروهم بين الخروج من أرضهم، أو العود فى ملّتهم الكفرية، و قد قيل: إن أَوْ فى أَوْ لَتَعُودُنَ بمعنى حتى أو، يعنى: إلا أن تعودوا كما قاله بعض المفسرين؛ و ردّ بأنه لا حاجة إلى ذلك، بل أو على بابها للتخيير بين أحد الأمرين، و قد تقدّم تفسير الآية فى سورة الأعراف. قيل: و العود هنا بمعنى الصيرورة لعصمة الأنبياء عن أن يكونوا على ملة الكفر قبل النبوة و بعدها؛ و قيل: إن الخطاب للرسل و لمن آمن بهم فغلب الرسل على أتباعهم فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ أى: إلى الرسل لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ أى: قال لهم: لنهلكنّ الظالمين وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ أى: أرض هؤلاء الكفار الذين توعدوكم بما توعدوا من الإخراج أو العود، و مثل هذه الآية قوله سبحانه: وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا «١»، و قال: وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ «٢».

و قرئ ليهلكنّ و ليسكننكم بالتحتية فى الفعلين اعتبارا بقوله فأوحى، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم من إهلاك الظالمين و إسكان المؤمنين فى مساكنهم لِمَنْ خافَ مَقامِي أى: موقفى، و ذلك يوم الحساب، فإنه موقف اللّه سبحانه، و المقام بفتح الميم مكان الإقامة، و بالضم فعل الإقامة؛ و قيل: إنّ المقام هنا مصدر بمعنى القيام، أى: لمن خاف قيامى عليه و مراقبتى له كقوله تعالى: أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ «٣» و قال الأخفش: ذلك لمن خاف مقامى، أى: عذابى وَ خافَ وَعِيدِ أى: خاف

---

(۱). الأعراف: ۱۳۷.

(۲). الأحزاب: ۳۷.

(۳). الرعد: ۳۳.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۲۰

وعيدى بالعذاب، و قيل: بالقرآن و زواجره، و قيل: هو نفس العذاب، و الوعيد الاسم من الوعد وَ اسْتَفْتَحُوا معطوف على أوحى، و المعنى: أنهم استنصروا باللّه على أعدائهم، أو سألوا اللّه القضاء بينهم، من الفتاحة و هى الحكومة؛ و من المعنى الأوّل قوله: إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ «۱» أى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر؛ و من المعنى الثانى قوله: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِ «۲» أى: احكم، و الضمير فى استفتحوا للرسل؛ و قيل: للكفار، و قيل: للفريقين وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ الجبار المتكبر الذى لا يرى لأحد عليه حقا، هكذا حكاه النحّاس عن أهل اللغة، و العنيد: المعاند للحق و المجانب له، و هو مأخوذ من العند، و هو الناحية، أى: أخذ فى ناحية معرضا. قال الشاعر:

إذا نزلت فاجعلونى وسطاإنّى كبير لا أطيق العنّدا

قال الزجّاج: العنيد: الذى يعدل عن القصد، و بمثله قال الهروى. و قال أبو عبيد: هو الذى عند و بغى، و قال ابن كيسان: هو الشّامخ بأنفه؛ و قيل: المراد به العاصى، و قيل: الذى أبى أن يقول لا إله إلا اللّه؛ و معنى الآية: أنه خسر و هلك من كان متّصفا بهذه الصفة مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ أى: من بعده جهنم، و المراد بعد هلاكه على أن وراءها هنا بمعنى بعد، و منه قول النّابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةو ليس وراء اللّه للمرء مذهب

أى: ليس بعد اللّه، و مثله قوله: وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ أى: من بعده. كذا قال الفرّاء، و قيل: مِنْ وَرائِهِ أى: من أمامه. قال أبو عبيد: هو من أسماء الأضداد، لأنّ أحدهما ينقلب إلى الآخر، و منه قول الشاعر:

و من ورائك يوم أنت بالغهلا حاضر معجز عنه و لا بادى

و قال آخر:

أ ترجو بنو مروان سمعى و طاعتىو قومى تميم و الفلاة و رائيا

أى: أمامى. و منه قوله تعالى: وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً «۳» أى: أمامهم، و بقول أبى عبيدة هذا قال قطرب. و قال الأخفش: هو كما يقال: هذا الأمر من ورائك؛ أى: سوف يأتيك، و أنا من وراء فلان، أى: فى طلبه. و قال النحّاس: من ورائه؛ أى: من أمامه، و ليس من الأضداد، و لكنه من توارى؛ أى: استتر فصارت جهنم من ورائه، لأنها لا ترى، و حكى مثله ابن الأنبارى وَ يُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ معطوف على مقدّر جوابا عن سؤال سائل. كأنه قيل: فماذا يكون إذن؟ قيل: يلقى فيها و يسقى، و الصديد ما يسيل من جلود أهل النار و اشتقاقه من الصدّ. لأنه يصدّ الناظرين عن رؤيته، و هو دم مختلط بقيح، و الصديد صفة لماء، و قيل: عطف بيان عنه و يَتَجَرَّعُهُ فى محل جر على أنه صفة لماء،

---

(۱). الأنفال: ۱۹.

(۲). الأعراف: ۸۹.

(۳). الكهف: ۷۹.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۲۱

أو فى محل نصب على أنه حال، و قيل: هو استئناف مبنىّ على سؤال، و التجرع: التحسى، أى: يتحساه مرة بعد مرّة، لا مرّة واحدة

لمرارته و حرارته وَ لا يَكادُ يُسِيغُهُ أى: يبتلعه، يقال: ساغ الشراب فى الحلق يسوغ سوغا؛ إذا كان سهلا، و المعنى: و لا يقارب إساغته، فكيف تكون الإساغة؟ بل يغصّ به فيطول عذابه بالعطش تارة، و بشربه على هذه الحال أخرى؛ و قيل: إنه يسيغه بعد شدة و إبطاء، كقوله:

وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ «١» أى: يفعلون بعد إبطاء، كما يدلّ عليه قوله تعالى فى آية أخرى يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ «٢». وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ أى: تأتيه أسباب الموت من كلّ جهة من الجهات، أو من كلّ موضع من مواضع بدنه. و قال الأخفش: المراد بالموت هنا البلايا التى تصيب الكافر فى النار، سمّاها موتا لشدّتها وَ ما هُوَ بِمَيِّتٍ أى: و الحال أنه لم يمت حقيقة فيستريح؛ و قيل: تعلّق نفسه فى حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت، و لا ترجع إلى مكانها من جوفه فيحيا، و مثله قوله تعالى: لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى ؛ و قيل: معنى و ما هو بميت؛ لتطاول شدائد الموت به و امتداد سكراته عليه. و الأولى تفسير الآية بعدم الموت حقيقة لما ذكرنا من قوله سبحانه: لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى «٣» و قوله: لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها «۴». وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ أى: من أمامه، أو من بعده عذاب شديد، و قيل: هو الخلود، و قيل: حبس النفس مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ قال سيبويه: مثل مرتفع على الابتداء، و الخبر مقدّر، أى: فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا، و به قال الزجاج. و قال الفراء:

التقدير مثل أعمال الذين كفروا فحذف المضاف. و روى عنه أنه قال بإلغاء مثل، و التقدير: الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد، و قيل: هو أعنى مثل مبتدأ و خبره أعمالهم كرماد على أن معناه الصفة، فكأنه قال صفتهم العجيبة أعمالهم كرماد. و المراد: أن أعمالهم باطلة غير مقبولة، و الرماد ما يبقى بعد احتراق الشىء ضرب اللّه سبحانه هذه الآية مثلا لأعمال الكفار فى أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد فى يوم عاصف.

و معنى: اشتدّت به الريح: حملته بشدّة و سرعة، و العصف شدّة الريح، وصف به زمانها مبالغة كما يقال:

يوم حار و يوم بارد، و البرد و الحرّ فيهما لا منهما لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ أى: لا يقدر الكفار مما كسبوا من تلك الأعمال الباطلة على شىء منها، و لا يرون له أثرا فى الآخرة يجازون به و يثابون عليه، بل جميع ما عملوه فى الدنيا باطل ذاهب كذهاب الريح بالرماد عند شدة هبوبها، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما دلّ عليه التمثيل، أى: هذا البطلان لأعمالهم و ذهاب أثرها هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ عن طريق الحقّ المخالف لمنهج الصواب، لما كان هذا خسرانا لا يمكن تداركه سمّاه بعيدا.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا الآية، قال: كانت الرسل و المؤمنون يستضعفهم قومهم و يقهرونهم و يكذبونهم و يدعونهم إلى أن يعودوا فى ملّتهم، فأبى اللّه لرسوله و المؤمنين أن يعودوا فى ملّة الكفر، و أمرهم أن يتوكّلوا على اللّه، و أمرهم أن يستفتحوا على الجبابرة، و وعدهم أن يسكنهم الأرض من بعدهم، فأنجز لهم ما وعدهم، و استفتحوا كما أمرهم اللّه أن

---

(١). البقرة: ٧١.

(٢). الحج: ٢٠.

(٣). الأعلى: ١٣.

(۴). فاطر: ٣۶.

يستفتحوا، و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: وعدهم النصر فى الدنيا و

الجنة فى الآخرة، فبين اللّه من يسكنها من عباده فقال: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ «١» و إن للّه مقاما هو قائمه، و إن أهل الإيمان خافوا ذلك المقام فنصبوا و دأبوا الليل و النهار. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ اسْتَفْتَحُوا قال: للرسل كلها يقول استنصروا، و فى قوله:

وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ قال: معاند للحقّ مجانب له. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: استنصرت الرسل على قومها وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ يقول: عنيد عن الحقّ معرض عنه، أبى أن يقول لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعى قال: العنيد، الناكب عن الحق. و أخرج أحمد و الترمذى و النسائى و ابن أبى الدنيا و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و أبو نعيم فى الحلية و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن أبى أمامة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله:

وَ يُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ قال: «يقرّب إليه فيتكرّهه، فإذا دنا منه شوى وجهه، و وقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره». يقول اللّه تعالى: وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ «٢» و قال: وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ «٣». و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن عباس فى قوله: مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ قال: يسيل من جلد الكافر و لحمه. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ هو القيح و الدم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ قال: أنواع العذاب، و ليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، و لكنه لا يموت؛ لأنّ اللّه يقول: لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا «٤». و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ميمون ابن مهران وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ قال: من كلّ عظم و عرق و عصب. و أخرج أبو الشيخ فى العظمة عن محمد بن كعب نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن إبراهيم التيمى قال: من موضع كلّ شعرة فى جسده وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ قال: الخلود. و أخرج ابن المنذر عن الفضيل بن عياض وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ قال: حبس الأنفاس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ الآية قال: مثل الذين عبدوا غيره فأعمالهم يوم القيامة كرماد اشتدّت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون على شىء من أعمالهم ينفعهم، كما لا يقدر على الرماد إذا أرسل فى يوم عاصف.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ١٩ الى ٢٣]

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَ ما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَ قالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَ أُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ (٢٣)

---

(١). الرحمن: ٤٦.

(٢). محمد: ١٥.

(٣). الكهف: ٢٩.

(٤). فاطر: ٣٦.

فتح القدير، ج‏3، ص: 123

قوله: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ الرؤية هنا هى القلبية، و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تعريضا لأمته، أو الخطاب لكلّ من يصلح له. و قرأ حمزة و الكسائى: «خالق السموات» و معنى بالحقّ:

بالوجه الصحيح الذى يحقّ أن يخلقها عليه ليستدلّ بها على كمال قدرته. ثم بيّن كمال قدرته سبحانه و استغناءه عن كل واحد من خلقه فقال: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ فيعدم الموجودين و يوجد المعدومين و يهلك العصاة و يأتى بمن يطيعه من خلقه، و المقام يحتمل أن يكون هذا الخلق الجديد من نوع الإنسان، و يحتمل أن يكون من نوع آخر وَ ما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ أى: بممتنع؛ لأنه سبحانه قادر على كل شى‏ء، و فيه أن يكون من نوع آخر وَ ما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ أى: بممتنع؛ لأنه سبحانه قادر على كل شى‏ء، و فيه أن اللّه تعالى هو الحقيق بأن يرجى ثوابه و يخاف عقابه، فلذلك أتبعه بذكر أحوال الآخرة فقال: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً أى: برزوا من قبورهم يوم القيامة، و البروز: الظهور، و البراز: المكان الواسع لظهوره، و منه امرأة برزة، أى: تظهر للرجال؛ فمعنى برزوا ظهروا من قبورهم. و عبّر بالماضى عن المستقبل تنبيها على تحقيق وقوعه كما هو مقرّر فى علم المعانى، و إنما قال: و برزوا للّه مع كونه سبحانه عالما بهم لا تخفى عليه خافية من أحوالهم برزوا أو لم يبرزوا، لأنهم كانوا يستترون عن العيون عند فعلهم للمعاصى، و يظنون أن ذلك يخفى على اللّه تعالى، فالكلام خارج على ما يعتقدونه فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا أى: قال الأتباع الضعفاء للرؤساء الأقوياء المتكبرين لما هم فيه من الرياسة إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً أى: فى الدنيا، فكذبنا الرسل و كفرنا باللّه متابعة لكم، و التبع: جمع تابع، أو مصدر وصف به للمبالغة أو على تقدير ذوى تبع، قال الزجاج:

جمعهم فى حشرهم؛ فاجتمع التّابع و المتبوع، فقال الضعفاء للذين استكبروا من أكابرهم عن عبادة اللّه إنّا كنا لكم تبعا جمع تابع مثل خادم و خدم، و حارس و حرس، و راصد و رصد فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا أى:

أى دافعون عنا من عذاب اللّه من شى‏ء، من الأولى للبيان، و الثانية للتبعيض؛ أى: بعض الشى‏ء الذى هو عذاب اللّه يقال أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى، و أغناه إذا أوصل إليه النفع قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ أى: قال المستكبرون مجيبين عن قول المستضعفين، و الجملة مستأنفة بتقدير سؤال كأنه قيل: كيف أجابوا؟

أى: لو هدانا اللّه إلى الإيمان لهديناكم إليه؛ و قيل: لو هدانا اللّه إلى طريق الجنة لهديناكم إليها؛ و قيل: لو نجانا اللّه من العذاب لنجيناكم منه سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ أى: مستو علينا الجزع و الصبر، و الهمزة و أم لتأكيد التسوية كما فى قوله: سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ* «1». ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ أى: من منجا و مهرب من العذاب، يقال: حاص فلان عن كذا، أى: فرّ و زاغ يحيص حيصا

---

(1). البقرة: 6.

فتح القدير، ج‏3، ص: 124

و حيوصا و حيصانا، و المعنى: ما لنا وجه نتباعد به عن النار. و يجوز أن يكون هذا من كلام الفريقين، و إن كان الظاهر أنه من كلام المستكبرين وَ قالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ أى: قال للفريقين هذه المقالة، و معنى لما قضى الأمر: لما دخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار على ما يأتى بيانه فى سورة مريم إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِ و هو وعده سبحانه بالبعث و الحساب، و مجازاة المحسن بإحسانه و المسى‏ء بإساءته وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ أى: وعدتكم وعدا باطلا، بأنه لا بعث و لا حساب و لا جنة و لا نار فأخلفتكم ما وعدتكم به من ذلك. قال الفراء: وعد الحق هو من إضافة الشى‏ء إلى نفسه كقولهم: مسجد الجامع، و قال البصريون: وعدكم وعد اليوم الحق وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ أى: تسلط عليكم بإظهار حجة على ما وعدتكم به و زينته

لكم إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكَمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى أى: إلا مجرّد دعائى لكم إلى الغوايةُ و الضلال بلا حجةُ و لا برهان، و دعوته إياهم ليست من جنس السلطان حتى تستثنى منه، بل الاستثناء منقطع، أى: لكن دعوتكم فاستجبتم لى، أى: فسارعتم إلى إجابتى؛ و قيل: المراد بالسلطان هنا القهر؛ أى: ما كان لى عليكم من قهر يضطركم إلى إجابتى؛ و قيل: هذا الاستثناء هو من باب:

تحيةُ بينهم ضرب وجيع مبالغةُ فى نفيه للسلطان عن نفسه كأنه قال: إنما يكون لى عليكم سلطان إذا كان مجرّد الدعاء من السلطان، و ليس منه قطعا فَلا تَلُومُونِى بما وقعتم فيه بسبب وعدى لكم بالباطل و إخلافى لهذا الموعد وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ باستجابتكم لى بمجرّد الدعوةُ التى لا سلطان عليها و لا حجةُ، فإن من قبل المواعيد الباطلةُ و الدعاوى الزائغةُ عن طريق الحق فعلى نفسه جنى، و لمارنه «١» قطع و لا سيما و دعوتى هذه الباطلةُ و موعدى الفاسد وقعا معارضين لوعد اللّه لكم وعد الحق و دعوته لكم إلى الدار السلام مع قيام الحجةُ التى لا تخفى على عاقل و لا تلتبس إلا على مخذول. و قريب من هذا من يقتدى بآراء الرجال المخالفةُ لما فى كتاب اللّه سبحانه، و لما سنّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم و يؤثرها على ما فيهما، فإنه قد استجاب للباطل الذى لم تقم عليه حجةُ و لا دلّ عليه برهان، و ترك الحجةُ و البرهان خلف ظهره كما يفعله كثير من المقتدين بالرجال المتنكبين طريق الحق بسوء اختيارهم، اللهم غفرا ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَ يقال: صرخ فلان إذا استغاث يصرخ صراخا و صرخا، و استصرخ بمعنى صرخ، و المصرخ: المغيث، و المستصرخ: المستغيث، يقال: استصرخنى فأصرخته، و الصريخ: صوت المستصرخ، و الصريخ أيضا: الصارخ و هو المغيث و المستغيث، و هو من أسماء الأضداد كما فى الصحاح. قال ابن الأعرابى: الصّارخ: المستغيث، و المصرخ: المغيث. و معنى الآيةُ: ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، و ما أنتم بمغيثىّ مما أنا فيه، و فيه إرشاد لهم إلى أن الشيطان فى تلك الحالةُ مبتلى بما ابتلوا به من العذاب محتاج إلى من يغيثه و يخلصه مما هو فيه، فكيف يطمعون فى إغاثةُ من هو محتاج إلى من يغيثه؟

و ممّا ورد مورد هذه الأقوال من قول العرب قول أميةُ بن أبى الصّلت:

---

(١). المارن: الأنف، أو طرفه، أو ما لان منه و من الرّمح.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٢٥ فلا تجزعوا إنّى لكم غير مصرخو ليس لكم عندى غناء و لا نصر

و «مصرخىّ» بفتح الياء فى قراءةُ الجمهور. و قرأ الأعمش و حمزةُ بكسر الياء على أصل التقاء الساكنين.

قال الفراء: قراءةُ حمزةُ و هم منه، و قلّ من سلم عن خطأ. و قال الزجّاج: هى قراءةُ رديئةُ و لا وجه لها إلا وجه ضعيف يعنى ما ذكرناه من أنه كسرها على الأصل فى التقاء الساكنين. و قال قطرب: هذه لغةُ يربوع يزيدون على ياء الإضافةُ ياء، و أنشد الفراء فيما ورد على هذه القراءةُ قول الشاعر «١»:

قال لها هل لك يا تافىّ «٢»قالت له ما أنت بالمرضىّ

إِنِّى كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ لما كشف لهم القناع بأنه لا يغنى عنهم من عذاب اللّه شيئا، و لا ينصرهم بنوع من أنواع النصر، صرّح لهم بأنه كافر بإشراكهم له مع اللّه فى الرّبوبيةُ من قبل هذا الوقت الذى قال لهم الشيطان فيه هذه المقالةُ، و هو ما كان منهم فى الدنيا من جعله شريكا، و لقد قام لهم الشيطان فى هذا اليوم مقاما يقصم ظهورهم و يقطع قلوبهم، فأوضح لهم أولا أن مواعيده التى كان يعدهم بها فى الدنيا باطلةُ معارضةُ لوعد الحق من اللّه سبحانه و أنه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد و لم يف لهم بشىء منها؛ ثم أوضح لهم ثانيا بأنهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول، و لا ينفق على عقل عاقل لعدم الحجةُ التى لا بدّ للعاقل منها فى قبول قول غيره، ثم أوضح ثالثا بأنه لم يكن منه إلا مجرّد الدعوةُ العاطلةُ عن البرهان الخاليةُ عن أيسر شىء مما يتمسك به العقلاء؛ ثم نعى عليهم رابعا ما وقعوا فيه، و دفع لومهم له و أمرهم بأن يلوموا أنفسهم، لأنّهم هم الذين قبلوا الباطل

البحت الذى لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل؛ ثم و أضح لهم خامسا بأنه لا نصر عنده و لا إغاثة و لا يستطيع لهم نفعا و لا يدفع عنهم ضرّا، بل هو مثلهم فى الوقوع فى البلية و العجز عن الخلوص عن هذه المحنة؛ ثم صرح لهم سادسا بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه و أثبتوه له فتضاعفت عليهم الحسرات و توالت عليهم المصائب، و إذا كان جملة إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ من تتمة كلامه كما ذهب إليه البعض فهو نوع سابع من كلامه الذى خاطبهم به، فأثبت لهم الظلم، ثم ذكر ما هو جزاؤهم عليه من العذاب الأليم، لا على قول من قال: إنه ابتداء كلام من جهة اللّه سبحانه. و قد ذهب جمهور المفسرين إلى أن ما مصدرية فى بِما أَشْرَكْتُمُونِ و قيل: يجوز أن تكون موصولة على معنى إنى كفرت بالذى أشركتمونيه و هو اللّه عزّ و جلّ، و يكون هذا حكاية لكفره باللّه عند أن أمره بالسجود لآدم وَ أُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لما أخبر سبحانه بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة. و قرأ الجمهور «أُدْخِلَ» على البناء للمفعول، و قرأ الحسن «و أدخل» على الاستقبال و البناء للفاعل، أى: و أنا أدخل الذين آمنوا، ثم ذكر سبحانه خلودهم فى الجنات و عدم انقطاع نعيمهم، ثم ذكر أن ذلك بإذن ربهم، أى: بتوفيقه و لطفه و هدايته، هذا على قراءة الجمهور؛ و إما على قراءة الحسن فيكون بِإِذْنِ رَبِّهِمْ متعلقا بقوله:

---

(١). هو الأغلب العجلى.

(٢). فى المطبوع: قلت لها يا تاء هل لك فى. و المثبت من معانى القرآن للفراء (٢/ ٧٦)

تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ أى: تحية الملائكة فى الجنة سلام بإذن ربهم. و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة يونس.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ قال: بخلق آخر.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: فَقالَ الضُّعَفاءُ قال: الأتباع لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا قال: للقادة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم فى قوله: سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا قال زيد بن أسلم: جزعوا مائة سنة، و صبروا مائة سنة. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن كعب ابن مالك يرفعه إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: سَواءٌ عَلَيْنا الآية قال: «يقول أهل النار هلمّوا فلنصبر، فيصبروا خمسمائة عام، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: هلموا فلنجزع، فبكوا خمسمائة عام، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: سواء علينا أ جزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص». الظاهر أن هذه المراجعة كانت بينهم بعد دخولهم النار كما فى قوله تعالى: وَ إِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ- قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ «١».

و أخرج ابن المبارك فى الزهد، و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه و ابن عساكر عن عقبة بن عامر يرفعه، و ذكر فيه حديث الشفاعة، ثم قال: «و يقول الكافرون عند ذلك: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس فهو الذى أضلّنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا، فيقوم إبليس فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمّها أحد قط، ثم يعظهم بجهنّم، و يقول عند ذلك إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ الآية». و ضعّف السيوطى إسناده، و لعلّ سبب ذلك كون فى إسناده رشدين بن سعد بن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن دخين الحجرى عن عقبة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن قال: إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيبا على منبر من نار فقال: إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ إلى قوله: وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَ قال:

بناصرىّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ قال: بطاعتكم إياى فى الدنيا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن الشعبى فى هذه الآية قال: خطيبان يقومان يوم القيامة: إبليس، و عيسى؛ فأما إبليس فيقوم فى حزبه فيقول هذا القول، يعنى المذكور فى الآية؛ و

أما عيسى فيقول: ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ «٢». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَ قال: ما أنا بنافعكم و ما أنتم بنافعىّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ قال: شركه: عباده. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن قتادة: ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ قال: ما أنا بمغيثكم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ قال: الملائكة يسلّمون عليهم فى الجنّة.

---

(١). غافر: ٤٧ و ٤٨.

(٢). المائدة: ١١٧.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٢٧

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٢٤ الى ٢٧]

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ (٢٧)

لما ذكر سبحانه مثل أعمال الكفار، و أنها كرماد اشتدّت به الريح، ثم ذكر نعيم المؤمنين، و ما جازاهم اللّه به من إدخالهم الجنة خالدين فيها، و تحيّة الملائكة لهم ذكر تعالى هاهنا مثلا للكلمة الطيبة، و هى كلمة الإسلام، أى: لا إله إلا اللّه، أو ما هو أعمّ من ذلك من كلمات الخير، و ذكر مثلا للكلمة الخبيثة، و هى كلمة الشرك، أو ما هو أعمّ من ذلك من كلمات الشرّ، فقال مخاطبا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أو مخاطبا لمن يصلح للخطاب أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا أى: اختار مثلا وضعه فى موضعه اللائق به، و انتصاب مثلا على أنه مفعول ضرب، و كلمة بدل منه، و يجوز أن تنتصب الكلمة على أنها عطف بيان لمثلا، و يجوز أن تنتصب الكلمة بفعل مقدّر؛ أى: جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة، و حكم بأنها مثلها، و محل كشجرة النصب على أنها صفة لكلمة، أو الرفع على تقدير مبتدأ، أى: هى كشجرة، و يجوز أن تكون كلمة أوّل مفعولى ضرب، و أخّرت عن المفعول الثانى، و هو مثلا لئلا تبعد عن صفتها، و الأوّل أولى، و كلمة و ما بعدها تفسير للمثل، ثم وصف الشجرة بقوله: أَصْلُها ثابِتٌ أى: راسخ آمن من الانقلاع بسبب تمكّنها من الأرض بعروقها وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ أى: أعلاها ذاهب إلى جهة السّماء مرتفع فى الهواء، ثم وصفها سبحانه بأنها تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ كلّ وقت بِإِذْنِ رَبِّها بإرادته و مشيئته، قيل: و هى النخلة، و قيل: غيرها.

قيل: و المراد بكونها تؤتى أكلها كلّ حين؛ أى: كلّ ساعة من السّاعات من ليل أو نهار فى جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء و صيف؛ و قيل: المراد فى أوقات مختلفة من غير تعيين، و قيل: كلّ غدوة و عشية، و قيل: كل شهر، و قيل: كل ستة أشهر. قال النحاس: و هذه الأقوال متقاربة غير متناقضة لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذّ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان و كثيره، و أنشد الأصمعى قول النّابغة:

....

تطلّقه حينا و حينا تراجع «١» قال النحاس: و هذا يبيّن لك أنّ الحين بمعنى الوقت. و قد ورد الحين فى بعض المواضع يراد به أكثر كقوله:

هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ «٢». و قد تقدّم بيان أقوال العلماء فى الحين فى سورة البقرة فى قوله:

وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ «٣». و قال الزجّاج: الحين الوقت طال أم قصر

(١). صدر البيت: تناذرها الرّاقون من سوء سمّها.

«تناذرها»: أى أنذر بعضهم بعضا ألا يتعرضوا لها. «تطلقه حينا و حينا تراجع»: أى أنها تخفى الأوجاع عن السليم تارة، و تارة تشتدّ عليه.

(٢). الإنسان: ١.

(٣). البقرة: ٣٦.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٢٨

وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ يتفكّرون أحوال المبدأ و المعاد، و بدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده و وحدانيته، و فى ضرب الأمثال زيادة تذكير و تفهيم و تصوير للمعانى وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ قد تقدّم تفسيرها، و قيل: هى الكافر نفسه، و الكلمة الطيبة: المؤمن نفسه كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ أى: كمثل شجرة خبيثة، قيل: هى شجرة الحنظل، و قيل: هى شجرة الثوم، و قيل: الكمأة، و قيل: الطحلبة، و قيل:

هى الكشوث بالضم و آخره مثلثة، و هى شجرة لا ورق لها و لا عروق فى الأرض. قال الشاعر:

و هم كشوث فلا أصل و لا ورق «١» ....

و قرئ «و مثلا كلمة» بالنصب عطفا على «كَلِمَةً طَيِّبَةً» اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ أى:

استؤصلت و اقتلعت من أصلها، و منه قول الشاعر:

هو الجلاء الذى يجتثّ أصلكم «٢» ....

قال المؤرج: أخذت جثّتها و هى نفسها، و الجثة: شخص الإنسان، يقال جثّه: قلعه، و اجتثه: اقتلعه، و معنى مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ أنه ليس لها أصل راسخ و عروق متمكنة من الأرض ما لَها مِنْ قَرارٍ أى: من استقرار على الأرض. و قيل: من ثبات على الأرض، كما أن الكافر و كلمته لا حجة له و لا ثبات فيه و لا خير يأتى منه أصلا، و لا يصعد له قول طيب و لا عمل طيب يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ أى: بالحجّة الواضحة، و هى الكلمة الطيبة المتقدّم ذكرها. و قد ثبت فى الصحيح أنها كلمة الشهادة «شهادة أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا رسول اللّه»، و ذلك إذا قعد المؤمن فى قبره قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: فذلك قوله تعالى:

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ و قيل: معنى تثبيت اللّه لهم هو أن يدوموا على القول الثابت، و منه قول عبد اللّه بن رواحة:

يثبت اللّه ما آتاك من حسن تثبيت موسى و نصرا كالذى نصرا

و معنى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا أنهم يستمرّون على القول الثابت فى الحياة الدنيا، قال جماعة: المراد بالحياة الدنيا فى هذه الآية القبر لأن الموتى فى الدنيا حتى يبعثوا، و معنى وَ فِي الْآخِرَةِ وقت الحساب. و قيل:

المراد بالحياة الدنيا: وقت المساءلة فى القبر، و فى الآخرة: وقت المساءلة يوم القيامة: و المراد أنهم إذا سئلوا عن معتقدهم و دينهم أوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلعثم و لا تردّد و لا جهل، كما يقول من لم يوفّق:

لا أدرى، فيقال له: لا دريت و لا تليت وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ أى: يضلهم عن حجّتهم التى هى القول الثابت، فلا يقدرون على التكلّم بها فى قبورهم و لا عند الحساب، كما أضلّهم عن اتّباع الحق فى الدنيا. قيل:

(١). فى المطبوع: و هى كشوث فلا أصل و لا ثمر.

و تمامه: و لا نسيم و لا ظل و لا ثمر.

(٢). و تمامه: فمن رأى مثل ذا يوما و من سمعا.

و الشاعر: لقيط الإيادى.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٢٩

و المراد بالظالمين هنا الكفرة، و قيل: كلّ من ظلم نفسه و لو بمجرد الإعراض عن البينات الواضحة فإنه لا يثبت فى مواقف الفتن و لا يهتدى إلى الحق، ثم ذكر سبحانه أنه يفعل ما يشاء من التثبيت و الخذلان لا رادّ لحكمه، و لا يسأل عمّا يفعل. قال الفرّاء: أى: لا تنكر له قدرة و لا يسأل عما يفعل، و الإظهار فى محل الإضمار فى الموضعين لتربية المهابة كما قيل، و اللّه أعلم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً قال: شهادة أن لا إله إلا اللّه كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ و هو المؤمن أَصْلُها ثابِتٌ يقول: لا إله إلا إلا اللّه ثابت فى قلب المؤمن وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ و هى الشرك كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ يعنى الكافر اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر و لا برهان، و لا يقبل اللّه مع الشرك عملا. و قد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين و من بعدهم. و أخرج الترمذى و النسائى و البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أنس قال: أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم [بقناع «١» بسر فقال: «و مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة» حتى بلغ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها قال: هى النّخلة، وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ حتى بلغ ما لَها مِنْ قَرارٍ قال: هى الحنظلة». و روى موقوفا على أنس، قال الترمذى: الموقوف أصح. و أخرج أحمد و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند جيد، عن عمر، عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ: قال: هى التى لا ينقص ورقها قال: هى النخلة. و أخرج البخارى و غيره من حديث ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوما لأصحابه: «إنّ شجرة من الشجر لا يطرح ورقها مثل المؤمن، قال: فوقع الناس فى شجر البوادى، و وقع فى قلبى أنها النخلة، فاستحييت حتى قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هى النخلة» و فى لفظ للبخارى قال: «أخبرونى عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحاتّ ورقها و لا، و لا، و لا «٢»، و تؤتى أكلها كل حين، فذكر نحوه». و فى لفظ لابن جرير و ابن مردويه من حديث ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «هل تدرون ما الشجرة الطيبة؟، ثم قال: هى النخلة». و روى نحو هذا عن جماعة من الصحابة و التابعين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها قال: كلّ ساعة بالليل و النهار و الشتاء و الصيف، و ذلك مثل المؤمن يطيع ربه بالليل و النهار و الشتاء و الصيف. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: يكون أخضر ثم يكون أصفر. و أخرج عنه أيضا فى قوله: كُلَّ حِينٍ قال: جذاذ النخل. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا: تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ قال: تطعم فى كلّ ستة أشهر. و أخرج أبو عبيد و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا قال: الحين هنا سنة. و أخرج البيهقى عنه أيضا قال: الحين قد يكون غدوة و عشية. و قد

---

(١). من مسند أبى يعلى (٤١٦٥) و الترمذى (٣١١٩). و القناع: هو الطبق الذى يؤكل عليه.

(٢). كذا ذكر النفى ثلاث مرات على طريق الاكتفاء. فقيل فى تفسيره: و لا ينقطع ثمرها و لا يعدم فيؤها و لا يبطل نفعها [فتح البارى ١/ ١٤٦].

فتح القدير، ج٣، ص: ١٣٠

روى عن جماعة من السلف فى هذا أقوال كثيرة. و أخرج البخارى و مسلم و أهل السنن و غيرهم عن البراء ابن عازب: أن

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «المسلم إذا سئل فى القبر يشهد أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا رسول اللّه، فذلك قوله سبحانه يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ».

و أخرج ابن أبى شيبة و البيهقى عن البراء بن عازب فى قوله: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا الآية قال: التثبيت فى الحياة الدنيا إذا جاء الملكان إلى الرجل فى القبر فقالا: من ربك؟ فقال: ربى اللّه، قال: و ما دينك؟

قال: دينى الإسلام، قال: و من نبيك؟ قال: نبيى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، فذلك التثبيت فى الحياة الدنيا. و أخرج البيهقى عن ابن عباس نحوه. و أخرج الطبرانى فى الأوسط و ابن مردويه عن أبى سعيد فى الآية قال: فِي الْآخِرَةِ القبر. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قال: «قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله تعالى يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا الآية قال: هذا فى القبر». و أخرج البيهقى من حديثها نحوه. و أخرج البزار عنها أيضا قالت:

«قلت: يا رسول اللّه تبتلى هذه الأمة فى قبورها، فكيف بى و أنا امرأة ضعيفة؟ قال: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا الآية». و قد وردت أحاديث كثيرة فى سؤال الملائكة للميت فى قبره، و فى جوابه عليهم، و فى عذاب القبر و فتنته، و ليس هذا موضع بسطها، و هى معروفة.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٢٨ الى ٣٤]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ (٢٩) وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خِلالٌ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (٣٢)

وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ (٣٣) وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ (٣٤)

قوله: أَ لَمْ تَرَ هذا خطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أو لكلّ من يصلح له، و هو تعجيب من حال الكفار حيث جعلوا بدل نعمة اللّه عليهم الكفر، أى: بدل شكرها الكفر بها، و ذلك بتكذيبهم محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم حين بعثه اللّه منهم و أنعم عليهم به. و قد ذهب جمهور المفسّرين إلى أنهم كفار مكة و أن الآية نزلت فيهم، و قيل:

نزلت فى الذين قاتلوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوم بدر؛ و قيل: نزلت فى بطنين من بطون قريش بنى مخزوم و بنى أمية؛ و قيل: نزلت فى متنصرة العرب، و هم جبلة بن الأيهم و أصحابه، و فيه نظر، فإن جبلة و أصحابه لم يسلموا إلا فى خلافة عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه؛ و قيل: إنها عامة فى جميع المشركين؛ و قيل: المراد بتبديل نعمة اللّه كفرا أنهم لما كفروها سلبهم اللّه ذلك فصاروا متبدّلين بها الكفر وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ أى: أنزلوا قومهم بسبب ما زيّنوه لهم من الكفر دار البوار، و هى جهنم، و البوار: الهلاك؛ و قيل: هم

قادة قريش أحلّوا قومهم يوم بدر دار البوار؛ أى: الهلاك، و هو القتل الذى أصيبوا به، و منه قول الشاعر:

فلم أر مثلهم أبطال حرب غداة الحرب إذ خيف البوار

و الأوّل أولى لقوله: جَهَنَّمَ فإنه عطف بيان لدار البوار، و يَصْلَوْنَها فى محل نصب على الحال، أو هو مستأنف لبيان كيفية حلولهم فيها وَ بِئْسَ الْقَرارُ أى: بئس القرار قرارهم فيها، أو بئس المقرّ جهنم، فالمخصوص بالذمّ محذوف وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً معطوف

على و أحلوا؛ أى: جعلوا للّه شركاء فى الرّبوبية، أو فى التّسمية و هى الأصنام. قرأ ابن كثير و أبو عمرو لِيُضِلُّوا بفتح الياء؛ أى: ليضلوا أنفسهم عن سبيل اللّه، و تكون اللام للعاقبة؛ أى: ليتعقّب جعلهم للّه أندادا ضلالهم؛ لأن العاقل لا يريد ضلال نفسه، و حسن استعمال لام العاقبة هنا لأنها تشبه الغرض و الغاية من جهة حصولها فى آخر المراتب، و المشابهة أحد الأمور المصححة للمجاز. و قرأ الباقون بضم الياء ليوقعوا قومهم فى الضلال عن سبيل اللّه، فهذا هو الغرض من جعلهم للّه أندادا. ثم هدّدهم سبحانه، فقال لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم: قُلْ تَمَتَّعُوا بما أنتم فيه من الشّهوات، و ما زيّنته لكم أنفسكم من كفران النّعم و إضلال الناس فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ أى: مردّكم و مرجعكم إليها ليس إلا، و لما كان هذا حالهم، و قد صاروا لفرط تهالكهم عليه و انهماكهم فيه لا يقلعون عنه، و لا يقبلون فيه نصح الناصحين جعل الأمر بمباشرته مكان النهى عن قربانه إيضاحا لما تكون عليه عاقبتهم، و أنهم لا محالة صائرون إلى النار، فلا بدّ لهم من تعاطى الأسباب المقتضية ذلك، فجملة فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ تعليل للأمر بالتمتع، و فيه من التهديد ما لا يقادر قدره، و يجوز أن تكون هذه الجملة جوابا لمحذوف دلّ عليه سياق الكلام، كأنه قيل: فإن دمتم على ذلك فإن مصيركم إلى النار، و الأوّل أولى، و النظم القرآنى عليه أدلّ، و ذلك كما يقال لمن يسعى فى مخالفة السلطان: اصنع ما شئت من المخالفة؛ فإن مصيرك إلى السيف قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً لما أمره بأن يقول للمبدّلين نعمة اللّه كفرا، الجاعلين للّه أندادا، ما قاله لهم أمره سبحانه أن يقول للطائفة المقابلة لهم، و هى طائفة المؤمنين هذا القول، و المقول محذوف دلّ عليه المذكور؛ أى: قل لعبادى أقيموا و أنفقوا و يقيموا و ينفقوا، فجزم يقيموا على أنه جواب الأمر المحذوف، و كذلك ينفقوا، ذكر معنى هذا الفراء. و قال الزجاج: إنّ يقيموا مجزوم بمعنى اللام، أى:

ليقيموا فأسقطت اللام، ثم ذكر وجها آخر للجزم مثل ما ذكره الفراء: و انتصاب سرّا و علانية، إما على الحال، أى: مسرّين و معلنين، أو على المصدر، أى: إنفاق سرّ و إنفاق علانية، أو على الظرف، أى:

وقت سر و وقت علانية. قال الجمهور: السرّ ما خفى، و العلانية ما ظهر. و قيل: السرّ التطوّع، و العلانية الفرض، و قد تقدم بيان هذا عند تفسير قوله: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ «1». مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خِلالٌ قال أبو عبيدة: البيع هاهنا الفداء، و الخلال المخالة، و هو مصدر. قال الواحدى:

هذا قول جميع أهل اللغة. و قال أبو علىّ الفارسى: يجوز أن يكون جمع خلة مثل برمة و برام، و علبة و علاب، و المعنى: أنّ يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفتدى المقصّر فى العمل نفسه من عذاب اللّه بدفع عوض عن ذلك،

---

(1). البقرة: 271.

و ليس هناك مخاللة حتى يشفع الخليل لخليله و ينقذه من العذاب، فأمرهم سبحانه بالإنفاق فى وجوه الخير مما رزقهم اللّه ما داموا فى الحياة الدنيا قادرين على إنفاق أموالهم من قبل أن يأتى يوم القيامة، فإنهم لا يقدرون على ذلك بل لا مال لهم إذ ذاك، فالجملة أعنى مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خِلالٌ لتأكيد مضمون الأمر بالإنفاق ممّا رزقهم اللّه، و يمكن أن يكون فيها أيضا تأكيد لمضمون الأمر بإقامة الصلاة، و ذلك لأنّ تركها كثيرا ما يكون بسبب الاشتغال بالبيع و رعاية حقوق الأخلاء، و قد تقدّم فى البقرة تفسير البيع و الخلال اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أى: أبدعهما و اخترعهما على غير مثال و خلق ما فيهما من الأجرام العلوية و السفلية، و الاسم الشريف مبتدأ و ما بعده خبره وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً المراد بالسماء هنا جهة العلوّ، فإنه يدخل فى ذلك الفلك عند من قال: إن ابتداء المطر منه، و يدخل فيه السحاب عند من قال:

إن ابتداء المطر منها، و تدخل فيه الأسباب التى تثير السحاب كالرياح، و تنكير الماء هنا للنوعية، أى: نوعا من أنواع الماء، و هو ماء المطر فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ أى: أخرج بذلك الماء من الثمرات المتنوعة رزقا لبنى آدم يعيشون به، و «من» فى مِنَ الثَّمَراتِ للبيان كقولك: أنفقت من الدراهم؛ و قيل: للتبعيض لأن الثمرات منها ما هو رزق لبنى آدم، و منها ما ليس برزق لهم، و هو ما لا يأكلونه و لا ينتفعون به وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ فجرت على إرادتكم و استعملتموها فى مصالحكم، و لذا قال: لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ كما تريدون و على ما تطلبون بِأَمْرِهِ أى: بأمر اللّه و مشيئته، و قد تقدم تفسير هذا فى البقرة وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ أى: ذللها لكم بالركوب عليها و الإجراء لها إلى حيث تريدون وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لتنتفعوا بهما و تستضيئوا بضوئهما، و انتصاب دائِبَيْنِ على الحال، و الدؤوب:

مرور الشىء فى العمل على عادة جارية، أى دائبين فى إصلاح ما يصلحانه من النبات و غيره؛ و قيل: دائبين فى السير امتثالا لأمر اللّه، و المعنى: يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران و لا ينقطع سيرهما وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ يتعاقبان، فالنهار لسعيكم فى أمور معاشكم و ما تحتاجون إليه من أمور دنياكم، و الليل لتسكنوا؛ كما قال سبحانه: وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ «١». وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ قال الأخفش: أى أعطاكم من كلّ مسؤول سألتموه شيئا فحذف شيئا؛ و قيل: المعنى:

و آتاكم من كل ما سألتموه و من كلّ ما لم تسألوه، فحذفت الجملة الأخرى قاله ابن الأنبارى؛ و قيل: من زائدة، أى: آتاكم كلّ ما سألتموه؛ و قيل: للتبعيض، أى: آتاكم بعض كلّ ما سألتموه. و قرأ ابن عباس و الضحاك و الحسن و قتادة «من كلّ» بتنوين كلّ، و على هذه القراءة يجوز أن تكون «ما» نافية، أى: آتاكم من جميع ذلك حال كونكم غير سائلين له، و يجوز أن تكون موصولة، أى: آتاكم من كل شىء الذى سألتموه وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها أى: و إن تتعرّضوا لتعداد نعم اللّه التى أنعم بها عليكم إجمالا فضلا عن التفصيل لا تطيقوا إحصاءها بوجه من الوجوه، و لا تقوموا بحصرها على حال من الأحوال، و أصل الإحصاء أن الحاسب إذا بلغ عقدا معينا من عقود الأعداد وضع حصاة ليحفظه بها، و معلوم أنه لو رام فرد

---

(١). القصص: ٧٣.

من أفراد العباد أن يحصى ما أنعم اللّه به عليه فى خلق عضو من أعضائه، أو حاسّة من حواسّه لم يقدر على ذلك قط و لا أمكنه أصلا، فكيف بما عدا ذلك من النعم فى جميع ما خلقه اللّه فى بدنه، فكيف بما عدا ذلك من النعم الواصلة إليه فى كلّ وقت على تنوعها و اختلاف أجناسها. اللهم إنا نشكرك على كلّ نعمة أنعمت بها علينا ممّا لا يعلمه إلا أنت، و مما علمناه شكرا لا يحيط به حصر و لا يحصره عدّ، و عدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان فى كلّ زمان إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ لنفسه بإغفاله لشكر نعم اللّه عليه، و ظاهره شمول كلّ إنسان.

و قال الزجاج: إن الإنسان اسم جنس يقصد به الكافر خاصة كما قال إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ «١» كَفَّارٌ أى شديد كفران نعم اللّه عليه، جاحد لها، غير شاكر للّه سبحانه عليها؛ كما ينبغى و يجب عليه.

و قد أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و البخارى و النسائى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً قال: هم كفّار أهل مكة.

و أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عمر بن الخطاب فى قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً قال: هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة، و بنو أمية؛ فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر؛ و أما بنو أمية فمتّعوا

إلى حين. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن عمر نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه من طرق عن علىّ فى الآية نحوه أيضا. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و النسائى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن أبى الطفيل أن ابن الكوّاء سأل عليا عن الذين بدلوا نعمة اللّه كفرا قال: هم الفجار من قريش كفيتهم يوم بدر. قال: فمن الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا؟ قال: منهم أهل حروراء. و قد روى فى تفسير هذه الآية عن علىّ من طرق نحو هذا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: هم جبلة بن الأيهم و الذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ قال: الهلاك. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة فى قوله:

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً قال: أشركوا باللّه.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ قال: بكل فائدة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَيْنِ قال: دؤوبهما فى طاعة اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ قال: من كل شىء رغبتم إليه فيه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد مثله. و أخرج ابن جرير عن الحسن قال: من كل الذى سألتموه. و أخرج ابن أبى الدنيا، و البيهقى فى الشّعب، عن سليمان التيمى قال: إن اللّه أنعم على العباد على قدره، و كلّفهم الشكر على قدرهم.

و أخرجا أيضا عن بكر بن عبد اللّه المزنى قال: يا ابن آدم إن أردت أن تعلم قدر ما أنعم اللّه عليك فغمّض عينيك.

و أخرج البيهقى عن أبى الدرداء قال: من لم يعرف نعمة اللّه عليه إلا فى مطعمه و مشربه، فقد قلّ عمله و حضر عذابه. و أخرج ابن أبى الدنيا و البيهقى عن أبى أيوب القرشى مولى بنى هاشم قال: قال داود عليه السلام:

---

(١). العصر: ٢.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ١٣۴

ربّ أخبرنى ما أدنى نعمتك علىّ؟ فأوحى إلىّ: يا داود تنفّس فتنفس، فقال: هذا أدنى نعمتى عليك. و أخرج ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قال: اللهمّ اغفر لى ظلمى و كفرى، فقال قائل: يا أمير المؤمنين هذا الظلم، فما بال الكفر؟ قال: إن الإنسان لظلوم كفّار.

[سورة إبراهيم (١۴): الآيات ٣۵ الى ۴١]

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (٣۵) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣۶) رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَ ما نُعْلِنُ وَ ما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ (٣٩)

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَ تَقَبَّلْ دُعاءِ (۴٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ (۴١)

قوله: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ متعلّق بمحذوف؛ أي: اذكر وقت قوله، و لعلّ المراد بسياق ما قاله إبراهيم عليه السلام فى هذا الموضع بيان كفر قريش بالنّعم الخاصّة بهم، و هى إسكانهم مكة بعد ما بيّن كفرهم بالنعم العامة؛ و قيل: إن ذكر قصة إبراهيم هاهنا

لمثال الكلمة الطيبة؛ و قيل: لقصد الدعاء إلى التوحيد، و إنكار عبادة الأصنام رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً المراد بالبلد هنا مكة؛ دعا إبراهيم ربه أن يجعله آمنا، أى:

ذا أمن، و قدّم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده؛ لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشىء آخر من أمور الدين و الدنيا، و قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى البقرة عند قوله تعالى: رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً «۱»، و الفرق بين ما هنا و ما هنالك أن المطلوب هنا مجرد الأمن للبلد، و المطلوب هنالك البلدية و الأمن وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ يقال: جنبته كذا و أجنبته و جنّبته؛ أى: باعدته عنه، و المعنى:

باعدنى، و باعد بنىّ عن عبادة الأصنام؛ قيل: أراد بنيه من صلبه و كانوا ثمانية، و قيل: أراد من كان موجودا حال دعوته من بنيه و بنى بنيه، و قيل: أراد جميع ذريته ما تناسلوا، و يؤيد ذلك ما قيل من أنه لم يعبد أحد من أولاد إبراهيم صنما، و الصنم: هو التمثال الذى كانت تصنعه أهل الجاهلية من الأحجار و نحوها فيعبدونه.

و قرأ الجحدرى و عيسى بن عمر «و أجنبنى» بقطع الهمزة، على أن أصله أجنب رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ أسند الإضلال إلى الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل؛ لأنها سبب لضلالهم فكأنها أضلتهم، و هذه الجملة تعليل لدعائه لربّه، ثم قال: فَمَنْ تَبِعَنِي أى: من تبع دينى من الناس فصار مسلما موحدا فَإِنَّهُ مِنِّي أى: من أهل دينى: جعل أهل ملّته كنفسه مبالغة وَ مَنْ عَصانِي فلم يتابعنى و يدخل فى ملّتى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ قادر على أن تغفر له، و قيل: قال هذا قبل أن يعلم أن اللّه لا يغفر أن يشرك

---

(۱). البقرة: ۱۲۶.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۱۳۵

به كما وقع منه الاستغفار لأبيه و هو مشرك، كذا قال ابن الأنبارى؛ و قيل: المراد عصيانه هنا فيما دون الشرك؛ و قيل: إن هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك، ثم قال: رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي قال الفراء:

للتبعيض، أى: بعض ذرّيتى. و قال ابن الأنبارى: إنها زائدة، أى: أسكنت ذرّيتى، و الأوّل أولى؛ لأنه إنما أسكن إسماعيل و هو بعض ولده بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ أى: لا زرع فيه، و هو وادى مكة عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ أى: الذى يحرم فيه ما يستباح فى غيره؛ و قيل: إنه محرّم على الجبابرة، و قيل: محرّم من أن تنتهك حرمته، أو يستخفّ به. و قد تقدّم فى سورة المائدة ما يغنى عن الإعادة، ثم قال: رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ اللام متعلقة بأسكنت؛ أى: أسكنتهم ليقيموا الصلاة فيه، متوجّهين إليه، متبركين به، و خصّها دون سائر العبادات لمزيد فضلها، و لعلّ تكرير النداء لإظهار العناية الكاملة بهذه العبادة فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ الأفئدة: جمع فؤاد، و هو القلب، عبّر به عن جميع البدن؛ لأنه أشرف عضو فيه.

و قيل: هو جمع وفد و الأصل أوفدة فقدّمت الفاء، و قلبت الواو ياء، فكأنه قال: و جعل و فودا من الناس تهوى إليهم، و «من» فى مِنَ النَّاسِ للتبعيض؛ و قيل: زائدة، و لا يلزم منه أن يحج اليهود و النصارى بدخولهم تحت لفظ الناس، لأنّ المطلوب توجيه قلوب الناس إليهم للسكون معهم و الجلب إليهم لا توجيهها إلى الحجّ، و لو كان هذا مرادا لقال لتهوى إليه؛ و قيل: من للابتداء، كقولك: القلب منى سقيم، يريد قلبى، و معنى تهوى إليهم: تنزع إليهم، يقال: هوى نحوه؛ إذا مال، و هو الناقة تهوى هويا فهى هاوية؛ إذا عدت عدوا شديدا كأنها تهوى فى بئر، و يحتمل أن يكون المعنى: تجىء إليهم أو تسرع إليهم، و المعنى متقارب وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ أى: ارزق ذريتى الذين أسكنتهم هنالك أو هم و من يساكنهم من الناس من أنواع الثمرات التى تنبت فيه، أو تجلب إليه لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ نعمك التى أنعمت بها عليهم رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَ ما نُعْلِنُ أى: ما نكتمه و ما نظهره؛ لأن الظاهر و المضمر بالنسبة إليه سبحانه سيان.

قيل: و المراد هنا بما نخفى ما يقابل ما نعلن، فالمعنى ما نظهره و ما لا نظهره، و قدّم ما نخفى على ما نعلن للدلالة على أنهما مستويان فى علم اللّه سبحانه. و ظاهر النظم القرآنى عموم كلّ ما لا يظهر و ما يظهر من غير تقييد بشىء معين من ذلك؛ و قيل: المراد ما يخفيه إبراهيم من وجده بإسماعيل و أمه حيث أسكنهما بواد غير ذى زرع، و ما يعلنه من ذلك؛ و قيل: ما يخفيه إبراهيم من الوجد و يعلنه من البكاء و الدعاء، و المجىء بضمير الجماعة يشعر بأن إبراهيم لم يرد نفسه فقط، بل أراد جميع العباد، فكأن المعنى: إن اللّه سبحانه يعلم بكل ما يظهره العباد و بكل ما لا يظهرونه. و أمّا قوله: وَ ما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ فقال جمهور المفسرين: هو من كلام اللّه سبحانه تصديقا لما قاله إبراهيم من أنه سبحانه يعلم بما يخفيه العباد و ما يعلنونه، فقال سبحانه: و ما يخفى على اللّه شىء من الأشياء الموجودة كائنا ما كان، و إنما ذكر السموات و الأرض لأنّها المشاهدة للعباد، و إلا فعلمه سبحانه محيط بكلّ ما هو داخل فى العالم، و كلّ ما هو خارج عنه لا تخفى عليه منه خافية.

قيل: و يحتمل أن يكون هذا من قول إبراهيم تحقيقا لقوله الأوّل، و تعميما بعد التّخصيص، ثم حمد اللّه سبحانه على بعض نعمه الواصلة إليه فقال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۳۶

إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ أى: وهب لى على كبر سنّى و سنّ امرأتى، و قيل: ولد له إسماعيل و هو ابن تسع و تسعين سنة، و ولد له إسحاق و هو ابن مائة و اثنتى عشرة سنة، قيل: و «على» هنا بمعنى مع، أى: و هو لى مع كبرى و يأسى عن الولد إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ أى: لمجيب الدعاء من قولهم سمع كلامه؛ إذا أجابه و اعتدّ به و عمل بمقتضاه، و هو من إضافة الصفة المتضمّنة للمبالغة إلى المفعول؛ و المعنى: إنك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك. ثم سأل اللّه سبحانه بأن يجعله مقيم الصلاة، محافظا عليها، غير مهمل لشىء منها، ثم قال: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي أى: بعض ذريتى؛ أى: اجعلنى و اجعل بعض ذريتى مقيمين للصلاة، و إنما خصّ البعض من ذريته؛ لأنه علم أن منهم من لا يقيمها كما ينبغى. قال الزجاج: أى: اجعل من ذرّيتى من يقيم الصلاة، ثم سأل اللّه سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم، و يدخل فى ذلك دعاؤه فى هذا المقام دخولا أوّليا.

قيل: و المراد بالدعاء هنا العبادة، فيكون المعنى: و تقبّل عبادتى التى أعبدك بها، ثم طلب من اللّه سبحانه أن يغفر له ما وقع منه ممّا يستحق أن يغفره اللّه و إن لم يكن كبيرا؛ لما هو معلوم من عصمة الأنبياء عن الكبائر.

ثم طلب من اللّه سبحانه أن يغفر لوالديه. و قد قيل: إنه دعا لهما بالمغفرة قبل أن يعلم أنهما عدوّان للّه سبحانه كما فى قوله سبحانه: وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ «۱». و قيل: كانت أمه مسلمة، و قيل: أراد بوالديه آدم و حوّاء. و قرأ سعيد بن جبير «و لوالدى» بالتوحيد على إرادة الأب وحده. و قرأ إبراهيم النخعى «و لولدىّ» يعنى إسماعيل و إسحاق، و كذا قرأ يحيى ابن يعمر، ثم استغفر للمؤمنين. و ظاهره شمول كلّ مؤمن سواء كان من ذرّيته أو لم يكن منهم، و قيل: أراد المؤمنين من ذريته فقط يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ أى: يوم يثبت حساب المكلّفين فى المحشر، استعير له لفظ يقوم الذى هو حقيقته فى قيام الرجل لدلالة على أنه فى غاية الاستقامة؛ و قيل: إن المعنى يوم يقوم الناس للحساب، و الأول أولى.

و قد أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ الآية قال: فاستجاب اللّه لإبراهيم دعوته فى ولده، فلم يعبد أحد من ولده صنما بعد دعوته، و استجاب اللّه له، و جعل هذا البلد آمنا، و رزق أهله من الثمرات، و جعله إماما، و جعل من ذرّيّته من يقيم الصلاة، و تقبل دعاءه فأراه مناسكه و تاب عليه. و أخرج أبو نعيم فى «الدلائل» عن عقيل بن أبى طالب أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم لما أتاه الستة النفر من الأنصار جلس إليهم عند جمرة العقبة، فدعاهم إلى اللّه و إلى عبادته و المؤازرة على دينه، فسألوه أن يعرض عليهم ما أوحى إليه، فقرأ من سورة إبراهيم: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ

الْأَصْنامَ إلى آخر السورة، فرقّ القوم و أخبتوا حين سمعوا منه ما سمعوا و أجابوه. و أخرج الواقدى و ابن عساكر عن طريق عامر ابن سعد عن أبيه قال: كانت سارة تحت إبراهيم، فمكثت تحته دهرا لا ترزق منه ولدا، فلما رأت ذلك وهبت له هاجر أمة لها قبطية، فولدت له إسماعيل، فغارت من ذلك سارة و وجدت فى نفسها و عتبت على هاجر، فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أشرافا «٢»، فقال لها إبراهيم: هل لك أن تبرّى يمينك؟ قالت: كيف أصنع؟

(١). التوبة: ١١٤.

(٢). أشراف الإنسان: أذناه و أنفه. (اللسان: شرف)

فتح القدير، ج٣، ص: ١٣٧

قال: اثقبى أذنيها و اخفضيها، و الخفض: هو الختان، ففعلت ذلك بها، فوضعت هاجر فى أذنيها قرطين فازدادت بهما حسنا، فقالت سارة: أرانى إنما زدتها جمالا فلم تقارّه «١» على كونه معها، و وجد بها إبراهيم وجدا شديدا، فنقلها إلى مكة، فكان يزورها فى كلّ يوم من الشام على البراق من شغفه بها و قلّة صبره عنها. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي قال: أسكن إسماعيل و أمه مكة. و أخرج ابن المنذر عنه قال: إن إبراهيم حين قال فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ لو قال أفئدة الناس تهوى إليهم لازدحمت عليه فارس و الروم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحكم قال: سألت عكرمة و طاوسا و عطاء بن أبى رباح عن هذه الآية: فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ فقالوا: البيت تهوى إليه قلوبهم يأتونه؛ و فى لفظ قالوا: هواهم إلى مكة أن يحجّوا. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: تَهْوِي إِلَيْهِمْ قال: تنزع إليهم.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن محمد بن مسلم الطائفى أن إبراهيم لما دعا للحرم وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ نقل اللّه الطائف من فلسطين!. و أخرج ابن أبى حاتم عن الزهرى قال: إن اللّه نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى فى شعب الإيمان، قال السيوطى: بسند حسن عن ابن عباس قال: لو كان إبراهيم عليه السلام قال فاجعل أفئدة الناس تهوى إليهم لحجّ اليهود و النصارى و الناس كلهم، و لكنه قال أفئدة من الناس فخصّ به المؤمنين. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: ما نُخْفِي وَ ما نُعْلِنُ قال: من الحزن. و أخرج ابن أبى حاتم عن إبراهيم النخعى فى قوله:

رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي قال: من حبّ إسماعيل و أمه وَ ما نُعْلِنُ قال: ما نظهر لسارة من الجفاء لهما. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ قال: هذا بعد ذلك بحين. و أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: بشر إبراهيم بعد سبع عشرة سنة و مائة سنة.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٤٢ الى ٤٦]

وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ (٤٣) وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَ وَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ (٤٤) وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَ ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ (٤٥) وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ (٤٦)

(۱). قارّة مقارة: أى قرّ معه و سكن.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۱۳۸

قوله: وَ لا تَحْسَبَنَ خطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو تعريض لأمته، فكأنه قال: و لا تحسب أمتك يا محمد، و يجوز أن يكون خطابا لكلّ من يصلح له من المكلّفين، و إن كان الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم من غير تعريض لأمته فمعناه التثبيت على ما كان عليه من عدم الحسبان كقوله: وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* «۱» و نحوه؛ و قيل: المراد: و لا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عمّا يعملون، و لكن معاملة الرقيب عليهم؛ أو يكون المراد بالنهى عن الحسبان الإيذان بأنه عالم بذلك لا تخفى عليه منه خافية. و فى هذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و إعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضا بأفعالهم، بل سنّة اللّه سبحانه فى إمهال العصاة إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ أى: يؤخّر جزاءهم و لا يؤاخذهم بظلمهم. و هذه الجملة تعليل للنهى السابق.

و قرأ الحسن و السلمى و هو رواية عن أبى عمرو بالنون فى نؤخرهم. و قرأ الباقون بالتحتية. و اختارها أبو عبيد و أبو حاتم لقوله: وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ و معنى لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ أى: ترفع فيه أبصار أهل الموقف، و لا تغمض من هول ما تراه فى ذلك اليوم، هكذا قال الفراء. يقال: شخص الرجل بصره و شخص البصر نفسه إلى السماء من هول ما يرى، و المراد أن الأبصار بقيت مفتوحة لا تتحرّك من شدّة الحيرة و الدهشة مُهْطِعِينَ أى: مسرعين، من أهطع يهطع إهطاعا؛ إذا أسرع؛ و قيل: المهطع: الذى ينظر فى ذلّ و خشوع. و منه:

بدجلة دارهم و لقد أراهم‏بدجلة مهطعين إلى السّماع «۲»

و قيل: المهطع: الذى يديم النظر. قال أبو عبيدة: قد يكون الوجهان جميعا، يعنى الإسراع مع إدامة النظر؛ و قيل: المهطع الذى لا يرفع رأسه. و قال ثعلب: المهطع الذى ينظر فى ذلّ و خضوع؛ و قيل: هو الساكت. قال النحاس: و المعروف فى اللغة أهطع؛ إذا أسرع مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ أى: رافعى رؤوسهم، و إقناع الرأس: رفعه، و أقنع صوته: إذا رفعه، و المعنى: أنهم يومئذ رافعون رؤوسهم إلى السماء ينظرون إليها نظر فزع و ذلّ و لا ينظر بعضهم إلى بعض. و قيل: إن إقناع الرأس نكسه؛ و قيل: يقال أقنع؛ إذا رفع رأسه، و أقنع: إذا طأطأ ذلة و خضوعا، و الآية محتملة للوجهين. قال المبرد: و القول الأوّل أعرف فى اللغة.

قال الشاعر:

أنغض «۳» نحوى رأسه و أقنعا كأنّما أبصر شيئا أطمعا

لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ أى: لا ترجع إليهم أبصارهم، و أصل الطرف: تحريك الأجفان؛ و سمّيت العين طرفا لأنه يكون بها، و من إطلاق الطرف على العين قول عنترة:

و أغضّ طرفى ما بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

---

(۱). الأنعام: ۱۴.

(۲). فى المطبوع: السماء. و المثبت من تفسير القرطبى (۹/ ۳۷۶)

(۳). «أنغض» حرّك.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۱۳۹

وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ الهواء فى اللغة: المجوّف الخالى الذى لم تشغله الأجرام، و المعنى: أن قلوبهم خالية عن العقل و الفهم لما شاهدوا من الفزع و الحيرة و الدهش، و جعلها نفس الهوى مبالغة، و منه قيل للأحمق و الجبان قلبه هواء، أى: لا رأى فيه و لا

قوّة؛ و قيل: معنى الآية أنها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت فى الحناجر.

و قيل: المعنى: إنّ أفئدة الكفار فى الدنيا خالية عن الخير؛ و قيل: المعنى: و أفئدتهم ذات هواء. و ممّا يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى: وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً «١» أى: خاليا من كل شىء إلا من همّ موسى وَ أَنْذِرِ النَّاسَ هذا رجوع إلى خطاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أمره اللّه سبحانه بأن ينذر الناس، و المراد الناس على العموم، و قيل: المراد كفّار مكة، و قيل: الكفار على العموم. و الأوّل أولى لأنّ الإنذار كما يكون للكافر يكون أيضا للمسلم. و منه قوله تعالى: إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ «٢». و معنى: يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ يوم القيامة، أى: خوّفهم هذا اليوم، و هو يوم إتيان العذاب، و إنما اقتصر على ذكر إتيان العذاب فيه مع كونه يوم إتيان الثواب؛ لأنّ المقام مقام تهديد؛ و قيل: المراد به يوم موتهم؛ فإنه أوّل أوقات إتيان العذاب؛ و قيل: المراد يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، و انتصاب يوم على أنه مفعول ثان لأنذر فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ المراد بالذين ظلموا هاهنا هم الناس، أى: فيقولون، و العدول إلى الإظهار مكان الإضمار للإشعار بأن الظلم هو العلة فيما نزل بهم، هذا إذا كان المراد بالناس هم الكفار. و على تقدير كون المراد بهم من يعمّ المسلمين، فالمعنى: فيقول الذين ظلموا منهم و هم الكفار رَبَّنا أَخِّرْنا أمهلنا إلى أجل قريب إلى أمد من الزمان معلوم غير بعيد نُجِبْ دَعْوَتَكَ أى دعوتك لعبادك على ألسن أنبيائك إلى توحيدك وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ المرسلين منك إلينا فنعمل بما بلغوه إلينا من شرائعك، و نتدارك ما فرط منّا من الإهمال، و إنما جمع الرسل، لأن دعوتهم إلى التوحيد متفقة، فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم، و هذا منهم سؤال للرجوع إلى الدنيا لما ظهر لهم الحق فى الآخرة: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ «٣». ثم حكى سبحانه ما يجاب به عنهم عند أن يقولوا هذه المقالة، فقال: أَ وَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ أى: فيقال لهم هذا القول توبيخا و تقريعا، أى: أو لم تكونوا أقسمتم من قبل هذا اليوم ما لكم من زوال من دار الدنيا؛ و قيل: إنه لا قسم منهم حقيقة، و إنما كان لسان حالهم ذلك لاستغراقهم فى الشهوات و إخلادهم إلى الحياة الدنيا، و قيل: قسمهم هذا هو ما حكاه اللّه عنهم فى قوله: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ «٤»، و جواب القسم ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ و إنما جاء بلفظ الخطاب فى ما لكم من زوال لمراعاة أقسمتم، و لو لا ذلك لقال: ما لنا من زوال وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أى: استقررتم، يقال: سكن الدار و سكن فيها، و هى بلاد ثمود و نحوهم من الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر باللّه و العصيان له وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ قرأ عبد الرحمن السّلمى نبين بالنون و الفعل المضارع. و قرأ من عداه بالتاء الفوقية و الفعل الماضى، أى: تبين لكم بمشاهدة الآثار كيف فعلنا بهم من العقوبة و العذاب الشديد بما فعلوه من الذنوب، و فاعل تبيّن ما دلّت عليه الجملة المذكورة بعده، أى: تبيّن لكم فعلنا العجيب بهم

---

(١). القصص: ١٠.

(٢). يس: ١١.

(٣). الأنعام: ٢٨.

(٤). النحل: ٣٨.

وَ ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ فى كتب اللّه و على ألسن رسله إيضاحا لكم و تقريرا و تكميلا للحجّة عليكم وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ الجملة فى محل نصب على الحال، أى: فعلنا بهم ما فعلنا، و الحال أنهم قد مكروا فى ردّ الحق و إثبات الباطل مكرهم العظيم، الذى استفرغوا فيه وسعهم وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ أى: و عند اللّه جزاء مكرهم، أو و عند اللّه مكتوب مكرهم فهو مجازيهم، أو عند اللّه مكرهم الذى يمكرهم به على أن يكون المكر مضافا إلى المفعول؛ و قيل: و المراد بهم قوم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم مكروا

بـالنبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم حين همّوا بقتله أو نفيه؛ و قيـل: المراد ما وقع من النمروذ حيث حاول الصـعود إلى السـماء، فاتّخذ لنفسه تابوتا و ربط قوائمه بأربعـة نسور وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ قرأ عمر و على و ابن مسـعود و أبىّ و إن كاد مكرهم بالـدال المهملـة مكـان النون. و قرأ غيرهم من القراء وَ إِنْ كـانَ بـالنون. و قرأ ابن محيصن و ابن جريـج و الكسائى «لتزول» بفتح اللام على أنهـا لام الابتـداء. و قرأ الجمهـور بكسـرها على أنهـا لام الجحـود. قـال ابن جرير: الاختيـار هـذه القراءة، يعنى قراءة الجمهور لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة؛ فعلى قراءة الكسائى و من معه تكون إن هى المخففة من الثقيلة، و اللام هى الفارقة، و زوال الجبـال مثـل لعظم مكرهم و شـدّته، أى: و إن الشـأن كـان مكرهم معـدّا لـذلك. قال الزجاج: و إن كان مكرهم يبلغ فى الكيد إلى إزالة الجبال؛ فإنّ اللّه ينصر دينه؛ و على قراءة الجمهور يحتمل وجهين: أحدهما أن تكون إن هى المخفّفة من الثقيلة، و المعنى كمـا مرّ. و الثانى أن تكون نافيـة و اللام المكسورة لتأكيـد النفى كقوله: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ «۱» و المعنى: و محال أن تزول الجبال بمكرهم، على أن الجبال مثل لآيات اللّه و شرائعه الثابتة على حالها مدى الدّهر، فالجملة على هذا حال من الضمير فى مكروا لا من قوله: وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ أى: و الحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الخرائطى فى مساوئ الأخلاق، عن ميمون بن مهران فى قوله: وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ قال: هى تعزية للمظلوم و وعيد للظالم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ قال: شخصت فيه و اللّه أبصارهم فلا ترتـدّ إليهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عبـاس فى قوله: مُهْطِعِينَ قـال: يعنى بالإهطـاع النظر من غير أن يطرف مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ قـال: الإقنـاع رفع رؤوسـهم لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ قال: شاخصة أبصارهم وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ ليس فيها شىء من الخير، فهى كالخربة.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد مُهْطِعِينَ قال: مديمى النظر. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة مُهْطِعِينَ قال: مسرعين. و أخرج هؤلاء عن قتادة فى قوله: وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ قال: ليس فيها شـىء، خرجت من صدورهم فنشبت فى حلوقهم. و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عن مرة وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ قـال: منخرقـة لا تعى شـيئا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ يقول: أنذرهم فى الدنيا من قبل أن يأتيهم العذاب. و أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ هو يوم القيامة.

---

(۱). البقرة: ۱۴۳.

و أخرج ابن المنـذر عن ابن عباس ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ قال: عما أنتم فيه إلى ما تقولون. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ قال: بعث بعد الموت.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن الحسن فى قوله: وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ قال: عملتم بمثل أعمالهم. و أخرج ابن جرير عن ابن عبـاس فى قـوله: وَ إِنْ كـانَ مَكْرُهُمْ يقـول: مـا كـان مكرهم لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبـالُ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ يقول: شركهم كقوله: تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا «۱». و أخرج عبـد بن حميـد و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم و ابن الأنبارى عن علىّ بن أبى طالب أنه قرأ هذه الآية: وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ ثم فسّرها فقال: إن جبارا من الجبابرة قال:

لا أنتهى حتى أنظر إلى مـا فى السـماء، فأمر بفراخ النسور تعلف اللحم حتى شبّت و غلظت، و أمر بتابوت فنجر يسع رجلين، ثم جعل فى وسطه خشبة، ثم ربط أرجلهنّ بأوتاد، ثم جوّعهنّ، ثم جعل على رأس الخشبة لحمة، ثم دخل هو و صاحبه فى التابوت،

ثم ربطهنّ إلى قوائم التابوت، ثم خلى عنهنّ يردن اللحم، فذهبن به ما شاء اللّه، ثم قال لصاحبه: افتح فانظر ماذا ترى ففتح فقال: أنظر إلى الجبال كأنها الذباب، قال:

أغلق فأغلق، فطرن به ما شاء اللّه، ثم قال: افتح ففتح، فقال: انظر ماذا ترى؟ فقال: ما أرى إلا السماء و ما أراها تزداد إلا بعدا، قال: صوّب الخشبة، فصوّبها فانقضت تريد اللحم، فسمع الجبال هدّتها فكادت تزول عن مراتبها. و قد روى نحو هذه القصة لبختنصر و للنمروذ من طرق ذكرها فى «الدرّ المنثور».

[سورة إبراهيم (١۴): الآيات ۴٧ الى ۵٢]

فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ (۴٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (۴٨) وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (۴٩) سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَ تَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (۵٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۵١)

هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (۵٢)

مُخْلِفَ منتصب على أنه مفعول تحسبنّ، و انتصاب رسله على أنه مفعول وعده، و قيل: و ذلك على الاتساع، و المعنى: مخلف رسله وعده. قال القتبى: هو من المقدّم الذى يوضّحه التأخير، و المؤخر الذى يوضّحه التقديم و سواء فى ذلك مخلف وعده رسله و مخلف رسله وعده، و مثل ما فى الآية قول الشاعر:

ترى الدّور مدخل الظّلّ رأسهو سائره باد إلى الشّمس أجمع

و قال الزّمخشرى: قدّم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا كقوله: إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ* «٢» ثم قال رسله: ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحدا، و ليس من شأنه إخلاف المواعيد، فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته و صفوته و المراد بالوعد هنا هو ما وعدهم سبحانه بقوله: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا «٣» و

---

(١). مريم: ٩٠.

(٢). آل عمران: ٩.

(٣). غافر: ۵١.

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي «١» و قرئ: «مخلف وعده رسله» بجرّ رسله و نصب وعده. قال الزّمخشرى: و هذه القراءة فى الضعف كمن قرأ: «قتل أولادهم شركائهم». إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غالب لا يغالبه أحد ذُو انتِقامٍ ينتقم من أعدائه لأوليائه و الجملة تعليل للنهى، و قد مرّ تفسيره فى أوّل آل عمران يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ قال الزجاج: انتصاب يوم على البدل من يوم يأتيهم، أو على الظرف للانتقام انتهى، و يجوز أن ينتصب بمقدّر يدل عليه الكلام، أى: و اذكر أو و ارتقب، و التبديل قد يكون فى الذات كما فى بدّلت الدراهم دنانير، و قد يكون فى الصفات كما فى بدّلت الحلقة خاتما، و الآية تحتمل الأمرين، و قد قيل: المراد تغير صفاتها، و به قال الأكثر، و قيل: تغير ذاتها، و معنى وَ السَّماواتُ أى: و تبدّل السّموات غير السّموات على الاختلاف الذى مرّ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ أى: برز العباد للّه أو الظّالمون كما يفيده السياق؛ أى:

ظهروا من قبورهم، أو ظهر من أعمالهم ما كانوا يكتمونه، و التعبير على المستقبل بلفظ الماضى للتنبيه على تحقّق وقوعه، كما فى قوله: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ* «٢» و الْواحِدِ الْقَهَّارِ «٣» المتفرّد بالألوهية الكثير القهر لمن عانده وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي

الْأَصْفادِ معطوف على برزوا أو على تبدّل، و المجيء بالمضارع لاستحضار الصورة، و المجرمون هم المشركون، و يومئذ يعنى يوم القيامة، و مُقَرَّنِينَ أى: مشدودين إما بجعل بعضهم مقرونا مع بعض، أو قرنوا مع الشياطين كما فى قوله: نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ «۴» أو جعلت أيديهم مقرونة إلى أرجلهم، و الأصفاد: الأغلال و القيود، و الجار و المجرور متعلّق بمقرّنين أو حال من ضميره، يقال: صفدته صفدا، أى: قيدته. و الاسم الصّفد، فإذا أردت التكثير قلت: صفّدته. قال عمرو بن كلثوم:

فآبوا بالنّهاب و بالسّباياو أبنا بالملوك مصفّدينا

و قال حسّان بن ثابت:

من بين مأسور يشدّ صفادهصقر إذا لاقى الكريهة حام

و يقال: صفدته و أصفدته؛ إذا أعطيته، و منه قول النّابغة:

....

و لم أعرض أبيت اللعن بالصّفد «۵» سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ السّرابيل: القمص، واحدها سربال، و منه قول كعب بن مالك:

تلقاكم عصب حول النّبىّ لهممن نسج داود فى الهيجا سرابيل

و القطران: هو قطران الإبل الذى تهنأ به؛ أى: قمصانهم من قطران تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل؛ و خصّ القطران لسرعة اشتعال النهار فيه مع نتن رائحته. و قال جماعة هو

---

(۱). المجادلة: ۲۱.

(۲). الكهف: ۹۹.

(۳). يوسف: ۳۹.

(۴). الزخرف: ۳۶.

(۵). و صدره: هذا الثناء فإن تسمع لقائله. و معنى «أبيت اللعن»: أبيت أن تأتى شيئا تلعن عليه.

النحاس: أى: قمصانهم من نحاس. و قرأ عيسى بن عمر مِنْ قَطِرانٍ بفتح القاف و تسكين الطاء.

و قرئ بكسر القاف و سكون الطاء، و قرئ بفتح القاف و الطاء، رويت هذه القراءة عن ابن عباس و أبى هريرة و عكرمة و سعيد بن جبير و يعقوب، و هذه الجملة فى محل نصب على الحال وَ تَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ أى: تعلو وجههم و تضربها؛ و خصّ الوجوه لأنّها أشرف ما فى البدن، و فيها الحواس المدركة، و الجملة فى محل نصب على الحال أيضا، و لِيَجْزِيَ اللَّهُ متعلق بمحذوف، أى: يفعل ذلك بهم ليجزى كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ من المعاصى؛ أى: جزاء موافقا لما كسبت من خير أو شرّ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ لا يشغله عنه شىء. و قد تقدّم تفسيره هذا بَلاغٌ أى: هذا الذى أنزل إليك بلاغ، أى: تبليغ و كفاية فى الموعظة و التذكير. قيل: إنّ الإشارة إلى ما ذكره سبحانه هنا من قوله: وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا إلى سَرِيعُ الْحِسابِ أى: هذا فيه كفاية من غير ما انطوت عليه السورة، و قيل: الإشارة إلى جميع السورة، و قيل: إلى القرآن، و معنى لِلنَّاسِ للكفار، أو لجميع الناس على ما قيل فى قوله: وَ أَنْذِرِ النَّاسَ

وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ معطوف على محذوف، أى: لينصحوا و لينذروا به، و المعنى: و ليخوّفوا به، و قرئ «و لينذروا» بفتح الياء التحتية و الذال المعجمة، يقال: نذرت بالشىء أنذر؛ إذا علمت به فاستعددت له وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ أى: ليعلموا بالأدلة التكوينية المذكورة سابقا وحدانية اللّه سبحانه، و أنه لا شريك له وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ أى: و ليتّعظ أصحاب العقول، و هذه اللامات

متعلّقة بمحذوف، و التقدير: و كذلك أنزلنا، أو متعلقة بالبلاغ المذكور، أى: كفاية لهم فى أن ينصحوا و ينذروا و يعلموا بما أقام اللّه من الحجج و البراهين وحدانيته سبحانه و أنه لا شريك له، و ليتّعظ بذلك أصحاب العقول التى تعقل و تدرك.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ قال: عزيز و اللّه فى أمره، يملى و كيده متين، ثم إذا انتقم انتقم بقدرة. و أخرج مسلم و غيره من حديث ثوبان قال: «جاء رجل من اليهود إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: أين يكون الناس يوم تبدّل الأرض غير الأرض؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فى الظلمة دون الجسر». و أخرج مسلم أيضا و غيره من حديث عائشة. قالت: «أنا أوّل من سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن هذه الآية يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ قلت: أين الناس يومئذ؟ قال: على الصراط». و أخرج البزار و ابن المنذر و الطبرانى فى الأوسط و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، و ابن عساكر عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «فى قول اللّه يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ قال: أرض بيضاء، كأنها فضة لم يسفك فيها دم حرام، و لم يعمل بها خطيئة». و أخرجه عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صحّحه البيهقى فى البعث، عنه موقوفا نحوه، قال البيهقى: الموقوف أصح. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن زيد ابن ثابت قال: «أتى اليهود النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: جاءونى يسألوننى و سأخبرهم قبل أن يسألونى يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ قال: أرض بيضاء كالفضة، فسألهم فقالوا: أرض بيضاء كالنقىّ». و أخرج ابن

فتح القدير، ج‌٣، ص: ١۴۴

مردويه مرفوعا عن علىّ نحو ما تقدّم عن ابن مسعود. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن أنس موقوفا نحوه، و قد روى نحو ذلك عن جماعة من الصحابة. و ثبت فى الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقى». و فيهما أيضا من حديث أبى سعيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفّؤها الجبّار بيده» الحديث. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ قال الكبول.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن قتادة فِي الْأَصْفادِ قال: القيود و الأغلال. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: فى السلاسل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فِي الْأَصْفادِ يقول: فى وثاق. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى سَرابِيلُهُمْ قال: قمصهم. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله:

مِنْ قَطِرانٍ قال: قطران الإبل. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى الآية قال: هذا القطران يطلى به حتى يشتعل نارا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: هو النحّاس المذاب. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير أنه قرأ مِنْ قَطِرانٍ فقال: القطر: الصّفر، و: الآن: الحارّ. و أخرج أبو عبيد و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر عن عكرمة نحوه. و أخرج مسلم و غيره عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «النّائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة و عليها سربال من قطران، و درع من جرب». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ قال: القرآن وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ قال: بالقرآن.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ١۴۵

سورة الحجر

اشارة

و هی مکیة بالاتفاق کما قال القرطبی. و أخرج النحّاس فی ناسخه، و ابن مردویه عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحجر بمکة. و أخرج ابن مردویه عن عبد اللّه بن الزبیر مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحجر (١٥): الآيات ١ الى ١٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْکَ آياتُ الْکِتابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ کَفَرُوا لَوْ کانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْکُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَ ما أَهْلَکْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَ لَها کِتابٌ مَعْلُومٌ (۴)

ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ (۵) وَ قالُوا يا أَيُّهَا الَّذِی نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّکْرُ إِنَّکَ لَمَجْنُونٌ (۶) لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِکَةِ إِنْ کُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) ما نُنَزِّلُ الْمَلائِکَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ ما کانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (٩)

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ فِی شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ کانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (١١) کَذلِکَ نَسْلُکُهُ فِی قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١۴)

لَقالُوا إِنَّما سُکِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١۵)

قوله: الر قد تقدّم الکلام فی محله مستوفی، و الإشارة بقوله: تِلْکَ إلی ما تضمنته السورة من الآیات و التعریف فی الکتاب. قیل: هو للجنس، و المراد جنس الکتب المتقدّمة؛ و قیل: المراد به القرآن، و لا یقدح فی هذا ذکر القرآن بعد الکتاب، فقد قیل إنه جمع له بین الاسمین؛ و قیل: المراد بالکتاب هذه السورة، و تنکیر القرآن للتفخیم، أی: القرآن الکامل رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ کَفَرُوا لَوْ کانُوا مُسْلِمِينَ قرأ نافع و عاصم بتخفیف الباء من ربما. و قرأ الباقون بتشدیدها، و هما لغتان. قال أبو حاتم: أهل الحجاز یخففون، و منه قول الشاعر «١»:

ربما ضربة بسیف صقیل بین بصری و طعنة نجلاء

و تمیم و ربیعة یثقّلونها. و قد تزداد فیها التاء الفوقیة «٢»، و أصلها أن تستعمل فی القلیل. و قد تستعمل فی الکثیر. قال الکوفیون: أی یودّ الکفار فی أوقات کثیرة لو کانوا مسلمین. و منه قول الشاعر:

ربّ رفد هرقته ذلک الیوم و أسری من معشر أقیال

---

(١). هو عدی بن الرعلاء الغسانی.

(٢). أی: ربّتما أو: ربتما، و کذلک بضم الراء و فتحها.

فتح القدیر، ج٣، ص: ١۴۶

و قیل: هی هنا للتقلیل؛ لأنهم ودّوا ذلک فی بعض المواضع لا فی کلّها لشغلهم بالعذاب. قیل: و ما هنا لحقت ربّ لتهیئها للدخول علی الفعل؛ و قیل: هی نکرة بمعنی شیء، و إنما دخلت ربّ هنا علی المستقبل مع کونها لا تدخل إلا علی الماضی، لأنّ المترقب فی أخباره سبحانه کالواقع المتحقّق، فکأنه قیل: ربما ودّ الذین کفروا لو کانوا مسلمین، أی: منقادین لحکمه مذعنین له من جملة أهله. و کانت هذه الودادة منهم عند موتهم أو یوم القیامة. و المراد أنه لما انکشف لهم الأمر، و اتّضح

بطلان ما كانوا عليه من الكفر، و أن الدين عند اللّه سبحانه هو الإسلام لا دين غيره، حصلت منهم هذه الودادة التى لا تسمن و لا تغنى من جوع، بل هى لمجرد التحسّر و التندّم و لوم النفس على ما فرّطت فى جنب اللّه؛ و قيل: كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم و حال المسلمين؛ و قيل: عند خروج عصاة الموحّدين من النار، و الظاهر أن هذه الودادة كائنة منهم فى كلّ وقت مستمرة فى كلّ لحظة بعد انكشاف الأمر لهم ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا هذا تهديد لهم، أى: دعهم عمّا أنت بصدده من الأمر لهم و النهى، فهم لا يرعوون أبدا، و لا يخرجون من باطل، و لا يدخلون فى حق، بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالأكل و التمتع بزهرة الدنيا، فإنهم كالأنعام التى لا تهتم إلا بذلك و لا تشتغل بغيره، و المعنى: اتركهم على ما هم عليه من الاشتغال بالأكل و نحوه من متاع الدنيا، و من إلهاء الأمل لهم عن اتباعك فسوف يعلمون عاقبة أمرهم و سوء صنيعهم. و فى هذا من التهديد و الزجر ما لا يقدر قدره، يقال: ألهاه كذا، أى: شغله، و لهى هو عن الشىء يلهى، أى: شغلهم الأمل عن اتباع الحق، و ما زالوا فى الآمال الفارغة و التمنيات الباطلة حتى أسفر الصبح لذى عينين، و انكشف الأمر، و رأوا العذاب يوم القيامة، فعند ذلك يذوقون وبال ما صنعوا. و الأفعال الثلاثة مجزومة على أنها جواب الأمر، و هذه الآية منسوخة بآية السيف وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَ لَها كِتابٌ مَعْلُومٌ أى: و ما أهلكنا قرية من القرى بنوع من أنواع العذاب إِلَّا وَ لَها أى: لتلك القرية كِتابٌ أى: أجل مقدّر لا تتقدم عليه و لا تتأخر عنه مَعْلُومٌ غير مجهول و لا منسىّ، فلا يتصوّر التخلف عنه بوجه من الوجوه، و جملة لَها كِتابٌ فى محل نصب على الحال من قرية و إن كانت نكرة لأنها قد صارت بما فيها من العموم فى حكم الموصوفة، و الواو للفرق بين كون هذه الجملة حالا، أو صفة فإنها تعينها للحالية كقولك: جاءنى رجل على كتفه سيف، و قيل: إنّ الجملة صفة لقرية، و الواو لتأكيد اللصوق بين الصفة و الموصوف ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها أى: ما تسبق أمة من الأمم أجلها المضروب لها المكتوب فى اللوح المحفوظ؛ و المعنى: أنه لا يأتى هلاكها قبل مجىء أجلها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ أى: و ما يتأخرون عنه، فيكون مجىء هلاكهم بعد مضى الأجل المضروب له، و إيراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب و لرعاية الفواصل، و لذلك حذف الجار و المجرور، و الجملة مبينة لما قبلها، فكأنه قيل: إنّ هذا الإمهال لا ينبغى أن يغترّ به العقلاء، فإن لكل أمة وقتا معينا فى نزول العذاب لا يتقدّم و لا يتأخر. و قد تقدم تفسير الأجل فى أوّل سورة الأنعام. ثم لما فرغ من تهديد الكفار شرع فى بيان بعض عتوّهم فى الكفر، و تماديهم فى الغىّ مع تضمنه لبيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب، فقال: وَ قالُوا يا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ أى: قال كفار

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٤٧

مكة مخاطبين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و متهكمين به حيث أثبتوا له إنزال الذكر عليه، مع إنكارهم لذلك فى الواقع أشدّ إنكار و نفيهم له أبلغ نفى، أو أرادوا: يا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ فى زعمه، و على وفق ما يدعيه إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ أى: إنك بسبب هذه الدعوى التى تدّعيها من كونك رسولا للّه مأمورا بتبليغ أحكامه لمجنون، فإنه لا يدّعى مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلا، فقولهم هذا لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم هو كقول فرعون: إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ «١».

لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ لو ما: حرف تحضيض، مركب من لو المفيدة للتمنى و من ما المزيدة، فأفاد المجموع الحثّ على الفعل الداخلة هى عليه؛ و المعنى:

هلا تأتينا بالملائكة ليشهدوا على صدقك إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قال الفراء: الميم فى «لو ما» بدل من اللام فى لو لا. و قال الكسائى: لو لا و لو ما سواء فى الخبر و الاستفهام. قال النحاس: لو ما و لو لا و هلا واحد؛ و قيل: المعنى: لو ما تأتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِ قرئ «ما نُنَزِّلُ» بالنون مبنيا للفاعل، و هو اللّه سبحانه فهو على هذا من التنزيل؛ و المعنى على هذه القراءة: قال اللّه سبحانه مجيبا على الكفار لما طلبوا إتيان الملائكة إليهم ما ننزل نحن الْمَلائِكَةَ إِلَّا

بِالْحَقِ أى: تنزيلا متلبسا بالحق الذى يحقّ عنده تنزيلنا لهم فيما تقتضيه الحكمة الإلهية و المشيئة الربانية، و ليس هذا الذى اقترحتموه مما يحق عنده تنزيل الملائكة، و قرئ «ننزل» مخففا من الإنزال، أى: ما ننزل نحن الملائكة إلا بالحق، و قرئ «ما تنزل» بالمثناة من فوق؛ مضارعا مثقلا مبنيا للفاعل من التنزيل بحذف إحدى التاءين، أى: تتنزل، و قرئ أيضا بالفوقية مضارعا مبنيا للمفعول؛ و قيل: معنى إلا بالحق؛ إلا بالقرآن، و قيل: بالرسالة، و قيل:

بالعذاب وَ ما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ فى الكلام حذف، و التقدير: و لو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة و ما كانوا إذا منظرين، فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة، ثم أنكر على الكفار استهزاءهم برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بقولهم: يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ فقال سبحانه: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ أى: نحن نزلنا ذلك الذكر الذى أنكروه و نسبوك بسببه إلى الجنون وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ عن كل ما لا يليق به من تصحيف و تحريف و زيادة و نقص و نحو ذلك. و فيه وعيد شديد للمكذّبين به، المستهزئين برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و قيل: الضمير فى لَهُ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و الأوّل أولى بالمقام. ثم ذكر سبحانه أنّ عادة أمثال هؤلاء الكفار مع أنبيائهم كذلك تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ أى: رسلا، و حذف لدلالة الإرسال عليه، أى: رسلا كائنة من قبلك فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ فى أممهم و أتباعهم و سائر فرقهم و طوائفهم.

قال الفراء: الشيع الأمة التابعة بعضهم بعضا فيما يجتمعون عليه، و أصله من شاعه إذا تبعه، و إضافته إلى الأوّلين من إضافة الصفة إلى الموصوف عند بعض النحاة، أو من حذف الموصوف عند آخرين منهم وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى: ما يأتى رسول من الرسل شيعته إلا كانوا به يستهزئون كما يفعله هؤلاء الكفار مع محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و جملة إلا كانوا به يستهزئون فى محل نصب على الحال، أو فى محل

---

(١). الشعراء: ٢٧.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٤٨

رفع على أنّها صفة رسول، أو فى محل جر على أنّها صفة له على اللفظ لا على المحل كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ أى: مثل ذلك الذى سلكناه فى قلوب أولئك المستهزئين برسلهم نَسْلُكُهُ أى: الذكر فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ فالإشارة إلى ما دلّ عليه الكلام السابق من إلقاء الوحى مقرونا بالاستهزاء، و السلك إدخال الشىء فى الشىء كالخيط فى المخيط، قاله الزجّاج، قال: و المعنى كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا نسلك الضلال فى قلوب المجرمين، و جملة لا يُؤْمِنُونَ بِهِ فى محل نصب على الحال من ضمير نسلكه: أى: لا يؤمنون بالذكر الذى أنزلناه، و يجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما قبلها فلا محل لها؛ و قيل:

إن الضمير فى نسلكه للاستهزاء، و فى لا يؤمنون به للذكر، و هو بعيد، و الأولى أن الضميرين للذكر وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أى: مضت طريقتهم التى سنها اللّه فى إهلاكهم، حيث فعلوا ما فعلوا من التكذيب و الاستهزاء. و قال الزجّاج: و قد مضت سنة اللّه فى الأولين بأن سلك الكفر و الضلال فى قلوبهم. ثم حكى اللّه سبحانه إصرارهم على الكفر و تصميمهم على التكذيب و الاستهزاء، فقال: وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أى:

على هؤلاء المعاندين لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم المكذبين له المستهزئين به باباً مِنَ السَّماءِ أى: من أبوابها المعهودة و مكناهم من الصعود إليه فَظَلُّوا فِيهِ أى: فى ذلك الباب يَعْرُجُونَ يصعدون بآلة أو بغير آلة حتى يشاهدوا ما فى السماء من عجائب الملكوت التى لا يجحدها جاحد و لا يعاند عند مشاهدتها معاند، و قيل: الضمير فى فَظَلُّوا للملائكة، أى: فظل الملائكة يعرجون فى ذلك الباب، و الكفار يشاهدونهم و ينظرون صعودهم من ذلك الباب لَقالُوا أى: الكفار؛ لفرط عنادهم و زيادة عتوّهم إِنَّما

سُكِّرَتْ أَبْصارُنا قرأ ابن كثير سكرت بالتخفيف، و قرأ الباقون بالتشديد و هو من سكر الشراب، أو من السكر، و هو سدّها عن الإحساس، يقال: سكر النهر؛ إذا سدّه و حبسه عن الجرى، و رجح الثانى بقراءة التخفيف. و قال أبو عمرو بن العلاء: سكرت غشيت و غطيت، و منه قول الشاعر:

و طلعت شمس عليها مغفر «١»و جعلت عين الحرور تسكر

و به قال أبو عبيد و أبو عبيدة، و روى عن أبى عمرو أيضا أنه من سكر الشراب، أى: غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشى السكران ما غطى عقله؛ و قيل: معنى سكرت حبست كما تقدم، و منه قول أوس بن حجر:

قصرت «٢» على ليلة ساهرةفليست بطلق و لا ساكره

قال النحّاس: و هذه الأقوال متقاربة بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ أضربوا عن قولهم سكرت أبصارنا، ثم ادّعوا أنهم مسحورون، أى: سحرهم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و فى هذا بيان لعنادهم العظيم الذى لا يقلعهم عنه شىء من الأشياء كائنا ما كان، فإنهم إذا رأوا آية توجب عليهم الإيمان باللّه و ملائكته و كتبه و رسله نسبوا إلى أبصارهم أن إدراكها غير حقيقى لعارض السكر، أو أن عقولهم قد سحرت فصار إدراكهم غير صحيح، و من بلغ فى التعنّت إلى هذا الحدّ فلا تنفع فيه موعظة، و لا يهتدى بآية.

---

(١). فى اللسان مادة سكر: جاء الشّتاء و اجثألّ القبّر.

(٢). فى اللسان مادة سكر: جذلت.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٤٩

و قد أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ قال: التوراة و الإنجيل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم فى تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ قال: الكتب التى كانت قبل القرآن وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ قال: مبين و اللّه هداه و رشده و خيره. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس و ابن مسعود و ناس من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ قال: ودّ المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم فعرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى الآية قال: هذا فى الجهنميين إذا رأوهم يخرجون من النار. و أخرج سعيد بن منصور و هناد ابن السرىّ فى الزهد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى البعث و النشور، عن ابن عباس قال: ما يزال اللّه يشفع و يدخل و يشفع و يرحم حتى يقول: من كان مسلما فليدخل الجنة، فذلك قوله:

رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ و أخرج ابن المبارك فى الزهد، و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس و أنس أنهما تذاكرا هذه الآية رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ فقالا: هذا حيث يجمع اللّه من أهل الخطايا من المسلمين و المشركين فى النار، فيقول المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون، فيغضب اللّه لهم فيخرجهم بفضله و رحمته. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه بسند، قال السيوطى: صحيح، عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«إنّ ناسا من أمتى يعذّبون بذنوبهم، فيكونون فى النار ما شاء اللّه أن يكونوا، ثم يعيّرهم أهل الشرك، فيقولون: ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم، فلا يبقى موحّد إلا أخرجه اللّه من النار، ثم قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ .

و أخرج ابن أبى عاصم فى السنّة، و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا نحوه. و أخرج إسحاق بن راهويه و ابن حبان و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا

نحوه أيضا. و أخرج هناد بن السرىّ و الطبرانى فى الأوسط و أبو نعيم عن أنس مرفوعا نحوه أيضا. و فى الباب أحاديث فى تعيين هذا السبب فى نزول هذه الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا الآية قال: هؤلاء الكفرة. و أخرج أيضا عن أبى مالك فى قوله: ذَرْهُمْ قال: خلّ عنهم. و أخرج ابن جرير عن الزهرى فى قوله: ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ قال: نرى أنه إذا حضره أجله، فإنه لا يؤخر ساعة و لا يقدّم، و أما ما لم يحضر أجله فإن اللّه يؤخر ما شاء و يقدّم ما شاء. قلت: و كلام الزهرى هذا لا حاصل له و لا مفاد فيه. و أخرج ابن جرير عن الضحّاك فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ قال: القرآن. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِ قال: بالرسالة و العذاب.

و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ ما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ قال: و ما كانوا لو نزلت الملائكة بمنظرين من أن يعذبوا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ قال: عندنا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فِي شِيَعِ

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٥٠

فتح القدير ج‏٣ ١٩٩

الْأَوَّلِينَ قال: أمم الأوّلين.

و أخرج ابن أبى حاتم عن أنس فى قوله: كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ قال: الشرك نسلكه فى قلوب المشركين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة مثله. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عن الحسن مثله أيضا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ قال: وقائع اللّه فيمن خلا من الأمم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ قال ابن جريج: قال ابن عباس: فظلت الملائكة تعرج فنظروا إليهم لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا قال: قريش تقوله. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم فى الآية عن ابن عباس أيضا يقول: و لو فتحنا عليهم بابا من أبواب السماء فظلت الملائكة تعرج فيه يختلفون فيه ذاهبين و جائين لقال أهل الشرك: إنما أخذت أبصارنا، و شبّه علينا، و إنما سحرنا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد سُكِّرَتْ أَبْصارُنا قال: سدّت. و أخرج ابن جرير عن قتادة نحوه قال: و من قرأ: سُكِرَتْ مخففة، فإنه يعنى سحرت.

[سورة الحجر (١٥): الآيات ١٦ الى ٢٥]

وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (١٨) وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ (٢٠)

وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَ ما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ (٢٢) وَ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ الْوارِثُونَ (٢٣) وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)

لما ذكر سبحانه كفر الكافرين و عجزهم و عجز أصنامهم، ذكر قدرته الباهرة و خلقه البديع ليستدل بذلك على وحدانيته، فقال: وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً الجعل إن كان بمعنى الخلق، ففى السّماء متعلّق به، و إن كان بمعنى التّصيير ففى السماء خبره، و

البروج فى اللغة: القصور و المنازل، و المراد بها هنا منازل الشمس و القمر و النجوم السيارة، و هى الاثنا عشر المشهورة كما تدلّ على ذلك التجربة، و العرب تعدّ المعرفة بمواقع النجوم و منازلها من أجلّ العلوم، و يستدلّون بها على الطرقات و الأوقات و الخصب و الجدب، و قالوا:

الفلك اثنا عشر برجا، و أسماء هذه البروج: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدى، الدلو، الحوت. كل ثلاثة منها على طبيعة عنصر من العناصر الأربعة و المشتغلين بهذا العلم يسمون الحمل و الأسد و القوس مثلثة نارية، و الثور و السنبلة و الجدى مثلثة أرضية، و الجوزاء و الميزان و الدلو مثلثة هوائية، و السرطان و العقرب و الحوت مثلثة مائية. و أصل البروج الظهور، و منه تبرّج المرأة بإظهار زينتها. و قال الحسن و قتادة: البروج النجوم، و سميت بذلك لظهورها و ارتفاعها، و قيل: السبعة

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۵۱

السيارة منها؛ قاله أبو صالح، و قيل: هى قصور و بيوت فى السماء فيها حرس، و الضمير فى وَ زَيَّنَّاها راجع إلى السماء، أى: و زينا السماء بالشمس و القمر و النجوم و البروج للناظرين إليها، أو للمتفكرين المعتبرين المستدلّين إذا كان من النظر، و هو الاستدلال وَ حَفِظْناها أى: السماء مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ قال أبو عبيدة: الرجيم المرجوم بالنجوم، كما فى قوله: رُجُوماً لِلشَّياطِينِ و الرجم فى اللغة هو الرمى بالحجارة، ثم قيل للّعن و الطرد و الإبعاد رجم؛ لأن الرامى بالحجارة يوجب هذه المعانى إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ استثناء متصل، أى: إلا ممن استرق السمع، و يجوز أن يكون منقطعا، أى: و لكن من استرق السمع فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ و المعنى: حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحى و غيره، إلا من استرق السمع فإنها تتبعه الشهب فتقتله أو تخبله. و معنى فَأَتْبَعَهُ تبعه و لحقه أو أدركه. و الشهاب:

الكوكب أو النار المشتعلة الساطعة كما فى قوله: بِشِهابٍ قَبَسٍ قال ذو الرّمة:

كأنّه كوكب فى إثر عفرية «۱» ....

و سمّى الكوكب شهابا لبريقه شبه النار، و المبين: الظاهر للمبصرين يرونه لا يلتبس عليهم. قال القرطبى: و اختلف فى الشهاب هل يقتل أم لا؟ فقال ابن عباس: الشهاب يجرح و يحرق و يخبل و لا يقتل، و قال الحسن و طائفة: يقتل. فعلى هذا القول فى قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجنّ قولان؛ أحدهما:

أنهم يقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم، فلا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، و لذلك انقطعت الكهانة. و الثانى: أنهم يقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجنّ، قال: ذكره الماوردى، ثم قال: و القول الأوّل أصحّ. قال: و اختلف هل كان رمى بالشهب قبل المبعث، فقال الأكثرون:

نعم، و قيل: لا، و إنما ذلك بعد المبعث. قال الزجاج: و الرمى بالشهب من آيات النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ممّا حدث بعد مولده لأن الشعراء فى القديم لم يذكروه فى أشعارهم. قال كثير من أهل العلم: نحن نرى انقضاض الكواكب، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى، ثم يصير نارا إذا أدرك الشيطان، و يجوز أن يقال: يرمون بشعلة من نار الهواء فيخيل إلينا أنه نجم يسرى وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها أى: بسطناها و فرشناها كما فى قوله:

وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها «۲»، و فى قوله: وَ الْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ «۳»، و فيه ردّ على من زعم أنها كالكرة «۴» وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ أى: جبال ثابتة لئلا تحرك بأهلها، و قد تقدم بيان ذلك فى سورة الرعد وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْ‌ءٍ مَوْزُونٍ أى: أنبتنا فى الأرض من كلّ شىء مقدّر معلوم، فعبّر عن ذلك بالوزن؛ لأنه مقدار تعرف به الأشياء، و منه قول الشاعر:

(۱). و عجزه: مسوّم فی سواد اللیل منقضب.

(۲). النازعات: ۳۰.

(۳). الذاریات: ۴۸.

(۴). قوله تعالی: «فرشناها» هذا ما یبدو للناظر أنها مبسوطة ممدودة، و «دحاها»: جعلها کالبیضة لیست تامة الکرویة، فهی مفلطحة من جانبیها. و لیس فی الآیات المذکورة ما ینفی أن الأرض کرویة، خاصة و قد أثبتت الحقائق العلمیة کرویتها.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۱۵۲ قد کنت قبل لقائکم ذا مرّةعندی لکلّ مخاصم میزانه

و قیل: معنی موزون مقسوم، و قیل: معدود، و المقصود من الإنبات: الإنشاء و الإیجاد؛ و قیل: الضمیر راجع إلی الجبال، أی: أنبتنا فی الجبال من کلّ شیء موزون من الذهب و الفضة و النحاس و الرصاص و نحو ذلک؛ و قیل: موزون بمیزان الحکمة، و مقدّر بقدر الحاجة؛ و قیل: الموزون هو المحکوم بحسنه کما یقال کلام موزون، أی: حسن وَ جَعَلْنا لَکُمْ فِیها مَعایِشَ تعیشون بها من المطاعم و المشارب جمع معیشة، و قیل:

هی الملابس، و قیل: هی التصرف فی أسباب الرزق مدّة الحیاة. قال الماوردی: و هو الظاهر. قلت: بل القول الأوّل أظهر، و منه قول جریر:

تکلّفنی معیشة آل زیدو من لی بالمرقّق و الصّنابا «۱»

وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِینَ معطوف علی معایش؛ أی: و جعلنا لکم فیها من لستم له برازقین؛ و هم الممالیک و الخدم و الأولاد الذین رازقهم فی الحقیقة هو اللّه، و إن ظنّ بعض العباد أنه الرازق لهم باعتبار استقلاله بالکسب، و یجوز أن یکون معطوفا علی محل لکم، أی: جعلنا لکم فیها معایش و جعلنا لمن لستم له برازقین فیها معایش، و هم من تقدّم ذکره، و یدخل فی ذلک الدوابّ علی اختلاف أجناسها، و لا یجوز العطف علی الضمیر المجرور فی لکم؛ لأنه لا یجوز عند الأکثر إلا بإعادة الجارّ؛ و قیل: أراد الوحش وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ إن هی النافیة و من مزیدة للتأکید، و هذا الترکیب عام لوقوع النکرة فی حیز النفی مع زیادة من، و مع لفظ شیء المتناول لکل الموجودات الصادق علی کل فرد منها، فأفاد ذلک أن جمیع الأشیاء عند اللّه خزائنها لا یخرج منها شیء. و الخزائن: جمع خزانة، و هی المکان الذی یحفظ فیه نفائس الأمور، و ذکر الخزائن تمثیل لاقتداره علی کل مقدور؛ و المعنی: أن کل الممکنات مقدورة و مملوکة یخرجها من العدم إلی الوجوب بمقدار کیف شاء. و قال جمهور المفسرین: إن المراد بما فی هذه الآیة هو المطر؛ لأنه سبب الأرزاق و المعایش؛ و قیل: الخزائن: المفاتیح، أی: ما من شیء إلا عندنا فی السماء مفاتیحه، و الأولی ما ذکرناه من العموم لکل موجود، بل قد یصدق الشیء علی المعدوم علی الخلاف المعروف فی ذلک وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ أی: ما ننزله من السماء إلی الأرض أو نوجده للعباد إلا بقدر معلوم، و القدر المقدار؛ و المعنی:

أن اللّه سبحانه لا یوجد للعباد شیئا من تلک الأشیاء المذکورة إلا متلبسا ذلک الإیجاد بمقدار معین حسبما تقتضیه مشیئته علی مقدار حاجة العباد إلیه کما قال سبحانه: وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِی الْأَرْضِ وَ لکِنْ یُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما یَشاءُ «۲» و قد فسّر الإنزال بالإعطاء، و فسّر بالإنشاء، و فسّر بالإیجاد، و المعنی متقارب، و جملة و ما ننزله معطوفة علی مقدّر: أی و إن من شیء إلا عندنا خزائنه ننزله و ما ننزله، أو فی محل نصب علی الحال وَ أَرْسَلْنَا الرِّیاحَ لَواقِحَ معطوف علی وَ جَعَلْنا لَکُمْ فِیها مَعایِشَ و ما بینهما اعتراض. قرأ حمزة «الریح» بالتوحید. و قرأ من عداه «الرِّیاحَ» بالجمع، و علی قراءة حمزة فتکون اللام فی الریح للجنس. قال

(۱). «المرقّق»: الأرغفة الرقيقة الواسعة. «الصناب»: صباغ يتّخذ من الخردل و الزبيب، يؤتدم به.

(۲). الشورى: ۲۷.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۵۳

الأزهرى: و جعل الرّياح لواقح لأنها تحمل السحاب، أى: تقله و تصرفه، ثم تمرّ به فتنزله. قال اللّه سبحانه: حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا، أى: حملت. و ناقة لاقح؛ إذا حملت الجنين فى بطنها، و به قال الفراء و ابن قتيبة؛ و قيل: لواقح بمعنى ملقحة. قال ابن الأنبارى: تقول العرب: أبقل النبت فهو باقل، و قيل: مبقل؛ و المعنى: أنها تلقح الشجر، أى: بقوّتها؛ و قيل: معنى لواقح: ذوات لقح. قال الزجّاج:

معناه: ذات لقحة؛ لأنها تعصر السحاب و تدرّه كما تدرّ اللقحة؛ يقال رامح، أى: ذو رمح، و لابن، أى:

ذو لبن، و تامر، أى: ذو تمر. قال أبو عبيدة: لواقح بمعنى ملاقح، ذهب إلى أنها جمع ملقحة. و فى هذه الآية تشبيه الرياح التى تحمل الماء بالحامل، و لقاح الشجر بلقاح الحمل فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً أى:

من السحاب، و كلّ ما علاك فأظلّك فهو سماء، و قيل: من جهة السماء، و المراد بالماء هنا ماء المطر فَأَسْقَيْناكُمُوهُ أى: جعلنا ذلك المطر لسقياكم و لشرب مواشيكم و أرضكم. قال أبو علىّ: يقال سقيته الماء إذا أعطيته قدر ما يروى؛ و أسقيته نهرا، أى: جعلته شربا له، و على هذا فَأَسْقَيْناكُمُوهُ أبلغ من سقيناكموه؛ و قيل: سقى و أسقى بمعنى واحد وَ ما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ أى: ليست خزائنه عندكم، بل خزائنه عندنا، و نحن الخازنون له، فنفى عنهم سبحانه ما أثبته لنفسه فى قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ و قيل: المعنى: ما أنتم له بخازنين بعد أن أنزلناه عليكم، أى: لا تقدرون على حفظه فى الآبار و الغدران و العيون، بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة إليه وَ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ أى: نوجد الحياة فى المخلوقات و نسلبها عنها متى شئنا، و الغرض من ذلك الاستدلال بهذه الأمور على كمال قدرته عزّ و جلّ، و أنه القادر على البعث و النشور و الجزاء لعباده على حسب ما يستحقونه و تقتضيه مشيئته، و لهذا قال: وَ نَحْنُ الْوارِثُونَ أى: للأرض و من عليها؛ لأنه سبحانه الباقى بعد فناء خلقه، الحىّ الذى لا يموت، الدائم الذى لا ينقطع وجوده، وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ* «۱». وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ هذه اللام هى الموطئة للقسم، و هكذا اللام فى وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ و المراد من تقدّم ولادة و موتا، و من تأخر فيهما؛ و قيل: من تقدّم طاعة و من تأخر فيها، و قيل: من تقدم فى صف القتال و من تأخر؛ و قيل: المراد بالمستقدمين الأموات، و بالمستأخرين الأحياء؛ و قيل: المستقدمين هم الأمم المتقدّمون على أمة محمد، و المستأخرون هم أمة محمد، و قيل: المستقدمون من قتل فى الجهاد، و المستأخرون من لم يقتل. وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ و هو المتولى لذلك، القادر عليه دون غيره، كما يفيده ضمير الفصل من الحصر. و فيه أنه سبحانه يجازى المحسن بإحسانه، و المسيئ بإساءته؛ لأنه الأمر المقصود من الحشر إِنَّهُ حَكِيمٌ يجرى الأمور على ما تقتضيه حكمته البالغة عَلِيمٌ أحاط علمه بجميع الأشياء لا يخفى عليه شىء منها، و من كان كذلك فله القدرة البالغة على كلّ شىء ممّا وسعه علمه، و جرى فيه حكمه سبحانه لا إله إلا هو.

---

(۱). آل عمران: ۱۸۰.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۵۴

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً قال: كواكب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح قال:

الكواكب العظام. و أخرج أيضا عن عطية قال: قصورا فى السماء فيها الحرس. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى

حاتم عن قتادة قال الرجيم: الملعون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:
إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ أراد أن يخطف السمع كقوله: إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ «۱». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الضحّاك قال: كان ابن عباس يقول: إن الشهب لا تقتل، و لكن تحرق و تخبل و تجرح من غير أن تقتل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى قوله: وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ مَوْزُونٍ قال: معلوم.
و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ مَوْزُونٍ قال: بقدر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: الأشياء التى توزن. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: ما أنبتت الجبال مثل الكحل و شبهه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ قال: الدوابّ و الأنعام. و أخرج هؤلاء عن منصور قال: الوحش. و أخرج البزار و ابن مردويه، و أبو الشيخ فى العظمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «خزائن اللّه الكلام، فإذا أراد شيئا قال له كن فكان». و أخرج ابن جرير عن ابن جريج فى قوله: إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ قال:
المطر خاصة. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ما نقص المطر منذ أنزله اللّه، و لكن تمطر أرض أكثر مما تمطر أخرى، ثم قرأ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ
و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: ما من عام بأمطر من عام، و لكنّ اللّه يصرفه حيث يشاء، ثم قرأ: وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ و أخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا.
و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن ابن مسعود فى قوله: وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ قال: يرسل اللّه الريح فتحمل الماء، فتلقح به السحاب، فتدرّ كما تدرّ اللقحة، ثم تمطر. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عبيد بن عمير قال: يبعث اللّه المبشرة فتقمّ «۲» الأرض قمّا، ثم يبعث المثيرة فتثير السحاب فتجعله كسفا، ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فيجعله ركاما، ثم يبعث اللواقح فتلقحه فتمطر. و أخرج ابن أبى الدنيا و ابن جرير، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه و الديلمى بسند ضعيف عن أبى هريرة قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «ريح الجنوب من الجنة، و هى الريح اللواقح التى ذكر اللّه فى كتابه». و أخرج الطيالسى و سعيد بن منصور و أحمد و الترمذى و النسائى و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن خزيمة و ابن حبّان و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: «كانت امرأة تصلّى خلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم،

---

(۱). الصافات: ۱۰.

(۲). «قمّ»: كنس.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۱۵۵

حسناء من أحسن النساء، فكان بعض القوم يتقدّم حتى يكون فى الصف الأول لئلا يراها، و يستأخر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه، فأنزل اللّه: وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ و هذا الحديث هو من رواية أبى الجوزاء عن ابن عباس. و قد رواه عبد الرزاق و ابن المنذر من قول أبى الجوزاء، قال الترمذى: و هذا أشبه أن يكون أصح. و قال ابن كثير:
فى هذا الحديث نكارة شديدة.
و أخرج الحاكم و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: المستقدمين: الصفوف المقدّمة، و المستأخرين:
الصفوف المؤخرة. و قد وردت أحاديث كثيرة فى أن خير صفوف الرجال أوّلها و شرها آخرها، و خير صفوف النساء آخرها، و

شرّها أولها. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء و مقاتل بن حيان أن الآيـة فى صـفوف [الصـلاة و] «۱» القتال. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الحسن قال: المسـتقدمين فى طاعـة اللّه، و المسـتأخرين فى معصـية اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: يعنى بالمستقدمين من مات، و بالمستأخرين من هو حىّ لم يمت. و أخرج هؤلاء عنه أيضا قال: المستقدمين آدم و من مضى من ذريته، و المستأخرين فى أصلاب الرجال. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن قتادة نحوه.

[سورة الحجر (۱۵): الآيات ۲۶ الى ۴۴]

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۲۶) وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ (۲۷) وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۲۸) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (۲۹) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (۳۰)

إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (۳۱) قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (۳۲) قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۳۳) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (۳۴) وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ (۳۵)

قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۳۶) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (۳۷) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (۳۸) قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (۳۹) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (۴۰)

قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (۴۱) إِنَّ عِبادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (۴۲) وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (۴۳) لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (۴۴)

المراد بالإنسان فى قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ هو آدم لأنه أصل هذا النوع، و الصـلصال قال أبو عبيدة: هو الطين المخلوط بالرمل الذى يتصلصل إذا حرّك، فإذا طبخ فى النار فهو الفخار. و هذا قول أكثر المفسرين. و قال الكسائى: هو الطين المنتن، مأخوذ من قول العرب صلّ اللحم و أصلّ: إذا أنتن؛ مطبوخا كان أو نيئا. قال الحطيئة:

ذاك فتى يبذل ذا قدره‌لا يفسد اللحم لديه الصّلول

---

(۱). من الدر المنثور (۵/ ۷۵)

و الحمأ: الطين الأسود المتغير. أو الطين الأسود من غير تقييد بالمتغير. قال ابن السكّيت: تقول منه:

حمئت البئر حمـأ بالتسـكين؛ إذا نزعت حمأتهـا، و حمئت البئر حمـأ بالتحريـك: كثرت حمأتهـا، و أحمأتهـا إحمـاء: ألقيت فيها الحمـأة. قال أبو عبيـدة: الحمأة بسكون الميم مثل الكمأة يعنى بالتحريك، و الجمع حمء مثل تمرة و تمر، و الحمأ المصـدر مثل الهلع و الجزع، ثم سـمّى به. و المسـنون قال الفراء: هو المتغيّر، و أصله من سننت الحجر على الحجر؛ إذا حككته، و ما يخرج بين الحجرين يقال له السنانة و السّنين، و منه قول عبد الرحمن بن حسان:

ثم خاصرتها إلى القبّة الحمراء «۱» تمشى فى مرمر مسنون

أى: محكوك، و يقال: أسن الماء إذا تغير، و منه قوله: لَمْ يَتَسَنَّهْ «۲» و قوله: ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ «۳».

و كلا الاشـتقاقين يـدلّ على التغير، لأن ما يخرج بين الحجرين لا يكون إلا منتنا. و قال أبو عبيدة: المسـنون المصـبوب، و هو من قول العرب سـننت المـاء على الوجه؛ إذا صـببته، و السنّ الصب. و قـال سـيبويه: المسـنون المصوّر، مأخوذ من سـنّة الوجه، و هى

صورته، و منه قول ذى الرمة:

تريك سنّة وجه غير مقرفةملساء ليس بها خال و لا ندب «۴»

و قال الأخفش: المسنون المنصوب القائم، من قولهم: وجه مسنون؛ إذا كان فيه طول. و الحاصل على هذه الأقوال أن التراب لما بلّ صار طينا، فلما أنتن صار حمأ مسنونا، فلما يبس صار صلصالا. فأصل الصلصال: هو الحمأ المسنون، و لهذا وصف بهما وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ الجانّ أبو الجنّ عند جمهور المفسرين. و قال عطاء و الحسن و قتادة و مقاتل: هو إبليس. و سمى جانا لتواريه عن الأعين.

يقال: جن الشىء إذا ستره. فالجانّ يستر نفسه عن أعين بنى آدم، و معنى من قبل: من قبل خلق آدم، و السّموم: الريح الحادة النافذة فى المسامّ، تكون بالنهار و قد تكون بالليل، كذا قال أبو عبيدة، و ذكر خلق الإنسان و الجانّ فى هذا الموضع للدلالة على كمال القدرة الإلهية، و بيان أن القادر على النشأة الأولى قادر على النشأة الأخرى وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ الظرف منصوب بفعل مقدّر، أى: اذكر، بيّن سبحانه بعد ذكره الخلق الإنسان ما وقع عند خلقه له و قد تقدّم تفسير ذلك فى البقرة، و البشر مأخوذ من البشرة، و هى ظاهر الجلد، و قد تقدّم تفسير الصلصال و الحمأ المسنون قريبا مستوفى. فَإِذا سَوَّيْتُهُ أى: سويت خلقه و عدلت صورته الإنسانية و كملت أجزائه وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي النفخ: إجراء الريح فى تجاويف جسم آخر؛ فمن قال: إن الروح جسم لطيف كالهواء فمعناه ظاهر، و من قال: إنه جوهر مجرد غير متحيز و لا حال فى متحيز. فمعنى النفخ عنده تهيئة البدن لتعلّق النفس الناطقة به. قال النيسابورى: و لا خلاف فى أن الإضافة فى روحى للتشريف و التكريم، مثل ناقة اللّه، و بيت اللّه. قال القرطبى: و الروح: جسم لطيف

---

(۱). فى لسان العرب: الخضراء.

(۲). البقرة: ۲۵۹.

(۳). محمد: ۱۵.

(۴). «السنة»: الصورة. «المقرفة»: التى دنت من الهجينة. «خال»: شامة. «ندب»: الأثر من الجرح و القراح.

أجرى اللّه العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع ذلك الجسم، و حقيقته إضافة خلق إلى خالق، فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفا و تكريما، قال: و مثله: وَ رُوحٌ مِنْهُ «۱»، و قد تقدّم فى النساء فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ الفاء تدلّ على أن سجودهم واجب عليهم عقب التسوية و النفخ من غير تراخ، و هو أمر بالوقوع من وقع يقع. و فيه دليل على أن المأمور به هو السجود لا مجرّد الانحناء كما قيل، و هذا السجود هو سجود تحية و تكريم لا سجود عبادة، و للّه أن يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء، و قيل: كان السجود للّه تعالى و كان آدم قبلة لهم فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ أخبر سبحانه بأن الملائكة سجدوا جميعا عند أمر اللّه سبحانه لهم بذلك من غير تراخ، قال المبرد: قوله: كُلُّهُمْ أزال احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد، و قوله: أَجْمَعُونَ توكيد بعد توكيد، و رجّح هذا الزجّاج. قال النيسابورى: و ذلك لأن أجمع معرفة فلا يقع حالا و لو صح أن يكون حالا لكان منتصبا، ثم استثنى إبليس من الملائكة فقال: إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قيل: هذا الاستثناء متصل لكونه كان من جنس الملائكة، و لكنه أبى ذلك استكبارا و استعظاما لنفسه و حسدا لآدم، فحقّت عليه كلمة اللّه؛ و قيل: إنه لم يكن من الملائكة، و لكنه كان معهم، فغلب اسم الملائكة عليه و أمر بما أمروا به، فكان الاستثناء بهذا الاعتبار متصلا؛ و قيل: إن الاستثناء منفصل بناء على عدم كونه منهم، و عدم تغليبهم عليه، أى: و لكن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين و قد تقدّم الكلام فى هذا

فی سورة البقرة. و جملة أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ استئناف مبين لكيفية ما فيهم من الاستثناء من عدم السجود؛ لأنّ عدم السجود قد يكون مع التردّد، فبيّن سبحانه أنه كان على وجه الإباء، و جملة قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ مستأنفة أيضا جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال اللّه سبحانه لإبليس بعد أن أبى السجود؟ و هذا الخطاب له ليس للتشريف و التكريم، بل للتقريع و التوبيخ، و المعنى: أىّ غرض لک فی الامتناع؟ و أىّ سبب حملک عليه على أن لا تكون مع الساجدين لآدم مع الملائكة؟ و هم فی الشرف و علوّ المنزلة و القرب من اللّه بالمنزلة التی قد علمتها، و جملة قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ مستأنفة كالتی قبلها، جعل العلّة لترک سجوده كون آدم بشرا مخلوقا من صلصال من حمأ مسنون زعما منه أنه مخلوق من عنصر أشرف من عنصر آدم، و فيه إشارة إجمالية فی كونه خيرا منه. و قد صرّح بذلک فی موضع آخر، فقال: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ* «۲»، و قال فی موضع آخر: أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً «۳»، و اللام فی لأسجد لتأكيد النفی، أی: لا يصح ذلک منی، فأجاب اللّه سبحانه عليه بقوله: قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ و الضمير فی منها، قيل: عائد إلى الجنة، و قيل: إلى السماء، و قيل: إلى زمرة الملائكة، أی: فاخرج من زمرة الملائكة؛ فإنک رجيم، أی: مرجوم بالشهب. و قيل: معنى رجيم ملعون، أی: مطرود، لأن من يطرد يرجم بالحجارة وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ أی: عليک الطرد و الإبعاد من رحمة اللّه سبحانه مستمرا عليک لازما لک إلى يوم الجزاء، و هو يوم القيامة، و جعل يوم الدين غاية للّعنة لا يستلزم انقطاعها

---

(۱). النساء: ۱۷۱.

(۲). ص: ۷۶.

(۳). الإسراء: ۶۱.

فی ذلک الوقت؛ لأنّ المراد دوامها من غير انقطاع، و ذكر يوم الدين للمبالغة، كما فی قوله تعالى: ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ* «۱»، أو أن المراد أنه فی يوم الدين و ما بعده يعذب بما هو أشدّ من اللعن من أنواع العذاب، فكأنه لا يجد له ما كان يجده قبل أن يمسّه العذاب قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی أی: أخّرنی و أمهلنی و لا تمتنی إلى يوم يبعثون؛ أی: آدم و ذريته. طلب أن يبقى حيا إلى هذا اليوم لما سمع ذلک علم أن اللّه قد أخّر عذابه إلى الدّار الآخرة، و كأنه طلب أن لا يموت أبدا، لأنّه إذا أخّر موته إلى ذلک اليوم فهو يوم لا موت فيه؛ و قيل: إنه لم يطلب أن لا يموت، بل طلب أن يؤخّر عذابه إلى يوم القيامة و لا يعذّب فی الدنيا قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ لما سأل الإنظار أجابه اللّه سبحانه إلى ما طلبه و أخبره بأنه من جملة من أنظره ممّن أخّر آجالهم من مخلوقاته، أو من جملة من أخّر عقوبتهم بما اقترفوا، ثم بيّن سبحانه الغاية التی أمهله إليها. فقال: إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ و هو يوم القيامة، فإن يوم الدين و يوم يبعثون و يوم الوقت المعلوم كلّها عبارات عن يوم القيامة؛ و قيل: المراد بالوقت المعلوم هو الوقت القريب من البعث، فعند ذلک يموت قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِی لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ الباء للقسم، و ما مصدرية، و جواب القسم لأزينن لهم، أی: أقسم بإغوائک إیای لأزينن لهم فی الأرض، أی: ما داموا فی الدنيا، و التزيين منه إما بتحسين المعاصی و إيقاعهم فيها، أو بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل ما أمرهم اللّه به فلا يلتفتون إلى غيرها. و إقسامه هاهنا بإغواء اللّه له لا ينافی إقسامه فی موضع آخر بعزة اللّه التی هی سلطانه و قهره؛ لأن الإغواء له هو من جملة ما تصدق عليه العزّة وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ أی: لأضلنهم عن طريق الهدى، و أوقعهم فی طريق الغواية و أحملهم عليها إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قرأ أهل المدينة و أهل الكوفة بفتح اللام، أی: الذين استخلصتهم من العباد.

و قرأ الباقون بكسر اللام، أى: الذين أخلصوا لك العبادة فلم يقصدوا بها غيرك قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ أى: حق علىّ أن أراعيه، و هو أن لا يكون لك على عبادى سلطان. قال الكسائى: هذا على الوعيد و التهديد، كقولك لمن تهدد: طريقك علىّ و مصيرك إلىّ، و كقوله: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ، فكأنّ معنى هذا الكلام هذا طريق مرجعه إلىّ فأجازى كلا بعمله، و قيل: على هنا بمعنى إلىّ؛ و قيل: المعنى على أن أدلّ على الصراط المستقيم بالبيان و الحجة؛ و قيل: بالتوفيق و الهداية. و قرأ ابن سيرين و قتادة و الحسن و قيس بن عباد و أبو رجاء و حميد و يعقوب «هذا صراط علىّ» على أنه صفة مشبهة، و معناه رفيع إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ المراد بالعباد هنا هم المخلصون، و المراد أنه لا تسلّط له عليهم بإيقاعهم فى ذنب يهلكون به و لا يتوبون منه، فلا ينافى هذا ما وقع من آدم و حواء و نحوهما، فإنه ذنب مغفور لوقوع التوبة عنه إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ استثنى سبحانه من عباده هؤلاء، و هم المتبعون لإبليس من الغاوين عن طريق الحقّ، الواقعين فى الضلال، و هو موافق لما قاله إبليس اللعين من قوله: لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ- إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ و يمكن أن يقال: إن بين الكلامين فرقا، فكلام اللّه سبحانه فيه نفى سلطان إبليس على جميع عباده إلا من اتبعه من الغاوين، فيدخل فى ذلك المخلصون و غيرهم ممن لم يتبع إبليس من الغاوين؛ و كلام

---

(١). هود: ١٠٧، ١٠٨.

إبليس اللعين يتضمّن إغواء الجميع إلا المخلصين، فدخل فيهم من لم يكن مخلصا و لا تابعا لإبليس غاويا. و الحاصل أنّ بين المخلصين و الغاوين التابعين لإبليس طائفة لم تكن مخلصة و لا غاوية تابعة لإبليس؛ و قد قيل: إن الغاوين المتبعين لإبليس هم المشركون، و يدلّ على ذلك قوله تعالى: إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ «١»، ثم قال اللّه سبحانه متوعّدا لأتباع إبليس: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ أى: موعد المتبعين الغاوين، و أجمعين تأكيد للضمير أو حال لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ يدخل أهل النار منها و إنما كانت سبعة لكثرة أهلها لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ أى: من الأتباع الغواة جُزْءٌ مَقْسُومٌ أى: قدر معلوم متميز عن غيره؛ و قيل: المراد بالأبواب الأطباق طبق فوق طبق، و هى: جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية؛ فأعلاها للموحدين، و الثانية لليهود، و الثالثة للنصارى، و الرابعة للصابئين، و الخامسة للمجوس، و السادسة للمشركين، و السابعة للمنافقين، فجهنّم أعلى الطباق، ثم ما بعدها تحتها، ثم كذلك، كذا قيل.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن عباس قال: خلق الإنسان من ثلاث من طين لازب و صلصال و حمأ مسنون، فالطين اللازب: اللازم الجيد، و الصلصال: المدقّق الذى يصنع منه الفخار، و الحمأ المسنون: الطين الذى فيه الحمأة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه قال: الصلصال الماء يقع على الأرض الطيبة ثم يحسر عنها فتشقق ثم تصير مثل الخزف الرقاق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الصلصال هو التراب اليابس الذى يبلّ بعد يبسه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا: قال: الصلصال طين خلط برمل. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا. قال: الصلصال الذى إذا ضربته صلصل. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا. قال: الصلصال: الطين تعصر بيدك فيخرج الماء من بين أصابعك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله:

مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قال: من طين رطب. و أخرج هؤلاء عنه أيضا: مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قال: من طين منتن. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الجان مسيخ الجنّ، كالقردة و الخنازير مسيخ الإنس. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة: قال: الجانّ. هو إبليس خلق من قبل آدم.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ قال: من أحسن النار. و أخرج ابن جرير و

ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: نار السموم: الحارة التى تقتل. و أخرج الطيالسى و الفريابى و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مسعود قال: السموم التى خلق منها الجانّ جزء من سبعين جزءا من نار جهنم، ثم قرأ: وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ و أخرج ابن مردويه عنه مرفوعا.

و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلى یَوْمِ یُبْعَثُونَ قال:

---

(١). النحل: ١٠٠.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٦٠

أراد إبليس أن لا يذوق الموت فقيل إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس، و بين النفخة و النفخة أربعون سنة. و أخرج أبو عبيدة و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن سيرين هذا صِراطٌ عَلَیَّ مُسْتَقِیمٌ أى: رفيع. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ بعدد أطباق جهنم كما قدّمنا. و أخرج ابن المبارك و ابن أبى شيبة، و أحمد فى الزهد، و هناد و عبد بن حميد، و ابن أبى الدنيا فى صفة النار، و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، من طرق عن علىّ قال: أطباق جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيملأ الأوّل، ثم الثانى، ثم الثالث حتى تملأ كلها. و أخرج البخارى فى تاريخه، و الترمذى و ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «بجهنّم سبعة أبواب: باب منها لمن سلّ السّيف على أمتى». و قد ورد فى صفة النار أحاديث و آثار. و أخرج ابن مردويه، و الخطيب فى تاريخه، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «فى قوله تعالى: لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ قال: جزء أشركوا باللّه، و جزء شكّوا فى اللّه، و جزء غفلوا عن اللّه».

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٤٥ الى ٦٦]

إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی جَنَّاتٍ وَ عُیُونٍ (٤٥) ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِینَ (٤٦) وَ نَزَعْنا ما فِی صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِینَ (٤٧) لا یَمَسُّهُمْ فِیها نَصَبٌ وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِینَ (٤٨) نَبِّئْ عِبادِی أَنِّی أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِیمُ (٤٩)

وَ أَنَّ عَذابِی هُوَ الْعَذابُ الْأَلِیمُ (٥٠) وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَیْفِ إِبْراهِیمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَیْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْکُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُکَ بِغُلامٍ عَلِیمٍ (٥٣) قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِی عَلى أَنْ مَسَّنِیَ الْکِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤)

قالُوا بَشَّرْناکَ بِالْحَقِّ فَلا تَکُنْ مِنَ الْقانِطِینَ (٥٥) قالَ وَ مَنْ یَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) قالَ فَما خَطْبُکُمْ أَیُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِینَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِینَ (٥٩)

إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِینَ (٦٠) فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قالَ إِنَّکُمْ قَوْمٌ مُنْکَرُونَ (٦٢) قالُوا بَلْ جِئْناکَ بِما کانُوا فِیهِ یَمْتَرُونَ (٦٣) وَ أَتَیْناکَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (٦٤)

فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّیْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَ لا یَلْتَفِتْ مِنْکُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَیْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَ قَضَیْنا إِلَیْهِ ذلِکَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِینَ (٦٦)

قوله: إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی جَنَّاتٍ وَ عُیُونٍ أى: المتقين للشرك باللّه كما قاله جمهور الصحابة و التابعين، و قيل: هم الذين اتقوا جميع المعاصى فى جنات و هى البساتين، و عيون و هى الأنهار. قرئ بضم العين من عيون على الأصل، و بالكسر مراعاة للياء، و التركيب يحتمل أن يكون لجميع المتقين جنات و عيون، أو لكل واحد منهم جنات و عيون، أو لكل واحد منهم جنة و عين ادْخُلُوها قرأ الجمهور بلفظ الأمر على تقدير القول، أى: قيل لهم ادخلوها. و قرأ الحسن و أبو العالية، و روى عن يعقوب؛ بضم

الهمزة مقطوعة، و فتح الخاء، على أنه فعل مبنى للمفعول، أى: أدخلهم اللّه إياها. و قد قيل: إنهم إذا كانوا فى جنات و عيون،

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۶۱

فكيف يقال لهم بعد ذلك ادخلوها على قراءة الجمهور؟ فإن الأمر لهم بالدخول يشعر بأنهم لم يكونوا فيها.

و أجيب بأن المعنى أنهم لما صاروا فى الجنات، فإذا انتقلوا من بعضها إلى بعض يقال لهم عند الوصول إلى التى أرادوا الانتقال إليها ادخلوها، و معنى بِسَلامٍ آمِنِينَ بسلامة من الآفات، و أمن من المخافات، أو مسلمين على بعضهم بعضا، أو مسلما عليهم من الملائكة، أو من اللّه عزّ و جلّ. وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ الغلّ: الحقد و العداوة، و قد مرّ تفسيره فى الأعراف، و انتصاب إِخْواناً* على الحال، أى: إخوة فى الدين و التعاطف عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ أى: حال كونهم على سرر، و على صورة مخصوصة و هى التقابل، ينظر بعضهم إلى وجه بعض، و السرر جمع سرير، و قيل: هو المجلس الرفيع المهيّأ للسرور، و منه قولهم:

سرّ الوادى؛ لأفضل موضع منه لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ أى: تعب و إعياء؛ لعدم وجود ما يتسبب عنه ذلك فى الجنة؛ لأنها نعيم خالص، و لذّة محضة، تحصل لهم بسهولة، و توافيهم مطالبهم بلا كسب و لا جهد، بل بمجرد خطور شهوة الشىء بقلوبهم يحصل ذلك الشىء عندهم صفوا عفوا وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ أبدا، و فى هذا الخلود الدائم و علمهم به تمام اللذة و كمال النعيم، فإنّ علم من هو فى نعمة و لذّة بانقطاعها و عدمها بعد حين موجب لتنغص نعيمه و تكدّر لذّته، ثم قال سبحانه بعد أن قصّ علينا ما للمتقين عنده من الجزاء العظيم و الأجر الجزيل نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ أى: أخبرهم يا محمد أنى أنا الكثير المغفرة لذنوبهم، الكثير الرحمة لهم، كما حكمت به على نفسى: «إنّ رحمتى سبقت غضبى». اللهم اجعلنا من عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة، و أدخلتهم تحت واسع الرحمة. ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة، أمره بأن يذكر لهم شيئا ممّا يتضمن التخويف و التحذير حتى يجتمع الرجاء و الخوف، و يتقابل التبشير و التحذير ليكونوا راجين خائفين فقال: وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ أى: الكثير الإيلام، و عند ما جمع اللّه لعباده بين هذين الأمرين من التبشير و التحذير صاروا فى حالة وسطا بين اليأس و الرجاء، و خير الأمور أوساطها، و هى القيام على قدمى الرجاء و الخوف، و بين حالتى الأنس و الهيبة، و جملة وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ معطوفة على جملة نبىء عبادى؛ أى: أخبرهم بما جرى على إبراهيم من الأمر الذى اجتمع فيه له الرجاء و الخوف، و التبشير الذى خالطه نوع من الوجل ليعتبروا بذلك و يعلموا أنها سنّة اللّه سبحانه فى عباده. و أيضا لما اشتملت القصة على إنجاء المؤمنين و إهلاك الظالمين؛ كان فى ذلك تقديرا لكونه الغفور الرحيم و أن عذابه هو العذاب الأليم، و قد مرّ تفسير هذه القصة فى سورة هود، و انتصاب إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ بفعل مضمر معطوف على نَبِّئْ عِبادِي أى: و اذكر لهم دخولهم عليه، أو فى محل نصب على الحال، و الضيف فى الأصل مصدر، و لذلك وحّد و إن كانوا جماعة، و سمى ضيفا لإضافته إلى المضيف فَقالُوا سَلاماً أى: سلمنا سلاما قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ أى: فزعون خائفون، و إنما قال هذا بعد أن قرّب إليهم العجل فرآهم لا يأكلون منه، كما تقدم فى سورة هود: فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً «۱». و قيل: أنكر السلام منهم لأنه لم يكن فى بلادهم، و قيل: أنكر دخولهم عليه بغير استئذان

---

(۱). هود: ۷۰.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۶۲

قالُوا لا تَوْجَلْ أى: قالت الملائكة لا تخف، و قرئ لا تأجل و لا توجل؛ من أوجله، أى: أخافه، و جملة إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ مستأنفة لتعليل النهى عن الوجل، و العليم: كثير العلم، و قيل: هو الحليم كما وقع فى موضع آخر من القرآن؛ و هذا الغلام: هو إسحاق كما تقدّم فى هود، و لم يسمّه هنا و لا ذكر التبشير بيعقوب اكتفاء بما سلف قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي قرأ الجمهور بألف

الاستفهام، و قرأ الأعمش «بشرتمونى» بغير الألف عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فى محل نصب على الحال، أى: مع حالة الكبر و الهرم فَبِمَ تُبَشِّرُونَ استفهام تعجب، كأنه عجب من حصول الولد له مع ما قد صار إليه من الهرم الذى جرت العادة بأنه لا يولد لمن بلغ إليه، و المعنى: فبأىّ شىء تبشرون، فإن البشارة بما لا يكون عادة لا تصحّ. و قرأ نافع «تبشرون» بكسر النون و التخفيف و إبقاء الكسرة لتدلّ على الياء المحذوفة. و قرأ ابن كثير و ابن محيصن بكسر النون مشدّدة على إدغام النون فى النون، و أصله تبشروننى. و قرأ الباقون «تبشرون» بفتح النون قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِ أى: باليقين الذى لا خلف فيه، فإن ذلك وعد اللّه و هو لا يخلف الميعاد و لا يستحيل عليه شىء، فإنه القادر على كلّ شىء فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ هكذا قرأ الجمهور بإثبات الألف. و قرأ الأعمش و يحيى بن وثّاب «من القنطين» بغير ألف، و روى ذلك عن أبى عمرو، أى: من الآيسين من ذلك الذى بشرناك به قالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ قرئ بفتح النون من يقنط و بكسرها و هما لغتان. و حكى فيه ضم النون. و الضالون: المكذبون، أو المخطئون الذاهبون عن طريق الصواب، أى: إنما استبعدت الولد لكبر سنّى لا لقنوطى من رحمة ربى؛ ثم سألهم عمّا لأجله أرسلهم اللّه سبحانه ف قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ الخطب: الأمر الخطير و الشأن العظيم، أى: فما أمركم و شأنكم و ما الذى جئتم به غير ما قد بشرتمونى به، و كأنه قد فهم أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ أى: إلى قوم لهم إجرام، فيدخل تحت ذلك الشّرك و ما هو دونه، و هؤلاء القوم: هم قوم لوط، ثم استثنى منهم من ليسوا مجرمين فقال: إِلَّا آلَ لُوطٍ و هو استثناء متصل؛ لأنه من الضمير فى مجرمين، و لو كان من قوم لكان منقطعا لكونهم قد وصفوا بكونهم مجرمين، و ليس آل لوط مجرمين، ثم ذكر ما سيختص به آل لوط من الكرامة لعدم دخولهم مع القوم فى إجرامهم فقال: إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ أى: آل لوط، و هم أتباعه و أهل دينه، و هذه الجملة مستأنفة على تقدير كون الاستثناء متصلا، كأنه قيل:

ماذا يكون حال آل لوط؟ فقال: إنا لمنجوهم أجمعين، و أما على تقدير كون الاستثناء منقطعا فهى خبر، أى: لكن آل لوط ناجون من عذابنا. و قرأ حمزة و الكسائى لَمُنَجُّوهُمْ بالتخفيف من أنجى. و قرأ الباقون بالتشديد من نجّى. و اختار هذه القراءة الأخيرة أبو عبيد و أبو حاتم، و التنجية و الإنجاء: التخليص ممّا وقع فيه غيرهم إِلَّا امْرَأَتَهُ هذا الاستثناء من الضمير فى منجوهم إخراجا لها من التنجية؛ أى: إلا امرأته فليست ممّن ننجيه بل ممّن نهلكه؛ و قيل: إن الاستثناء من آل لوط باعتبار ما حكم لهم به من التنجية، و المعنى:

قالوا: إننا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم إلا آل لوط إنا لمنجوهم إلا امرأته فإنها من الهالكين، و معنى قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ قضينا و حكمنا أنها من الباقين فى العذاب مع الكفرة، و الغابر الباقى، قال الشاعر «١»:

---

(١). هو الحارث بن حلزة.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٦٣ لا تكسع الشّول بأغبارهاإنّك لا تدرى من النّاتج «١»

و الإغبار: بقايا اللبن. قال الزجّاج: معنى قدّرنا دبرنا، و هو قريب من معنى قضينا، و أصل التقدير:

جعل الشىء على مقدار الكفاية. و قرأ عاصم من رواية أبى بكر و المفضل «قدرنا» بالتخفيف، و قرأ الباقون بالتشديد. قال الهروى: هما بمعنى، و إنما أسند التقدير إلى الملائكة مع كونه من فعل اللّه سبحانه لما لهم من القرب عند اللّه فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ هذه الجملة مستأنفة لبيان و إهلاك من يستحق الهلاك و تنجية من يستحق النجاة قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ أى: قال لوط مخاطبا لهم إنكم قوم منكرون، أى: لا أعرفكم بل أنكركم قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ أى: بالعذاب الذى كانوا يشكون فيه، فالإضراب هو عن مجيئهم بما ينكره؛ كأنهم قالوا: ما جئناك بما خطر ببالك من المكروه، بل جئناك بما فيه

سرورک، و هو عـذابهم الذى کنت تحذرهم منه و هم یکذبونک وَ أَتَیْناکَ بِالْحَقِ أى: بالیقین الذى لا مریة فیه و لا تردّد، و هو العـذاب النازل بهم لا محالـة وَ إِنَّا لَصادِقُونَ فى ذلک الخبر الذى أخبرناک. و قد تقدّم تفسیر قوله: فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّیْلِ «۲» فى سورة هود: وَ اتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ کن من ورائهم تـذودهم لئلا یتخلف منهم أحـد فیناله العـذاب وَ لا یَلْتَفِتْ مِنْکُمْ أَحَدٌ أى: لا تلتفت أنت و لا یلتفت أحد منهم فیرى ما نزل بهم من العذاب، فیشتغل بالنظر فى ذلک و یتباطأ عن سرعة السیر و البعد عن دیار الظالمین؛ و قیل:

معنى لا یلتفت؛ لا یتخلف وَ امْضُوا حَیْثُ تُؤْمَرُونَ أى: إلى الجهة التى أمرکم اللّه سبحانه بالمضیّ إلیها، و هى جهة الشام، و قیل: مصر، و قیل: قریة من قرى لوط، و قیل: أرض الخلیل وَ قَضَیْنا إِلَیْهِ أى:

أوحینـا إلى لوط ذلِکَ الْأَمْرَ و هو إهلاک قومه، ثم فسّره بقوله: أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ قال الزّجّاج: موضع أن نصب، و هو بـدل من ذلـک الأـمر، و الـدابر هو الآخر، أى: أن آخر من یبقى منهم یهلک وقت الصبح، و انتصاب مُصْبِحِینَ على الحال، أى: حال کونهم داخلین فى وقت الصبح، و مثله:

فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِینَ ظَلَمُوا.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاک فى قوله: آمِنِینَ قال: أمنوا الموت فلا یموتون و لا یکبرون و لا یسقمون و لا یعرون و لا یجوعون. و أخرج ابن جریر عن علیّ وَ نَزَعْنا ما فِی صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ قال: العـداوة. و أخرج سعید بن منصور و ابن جریر و ابن المنذر و ابن مردویه عن الحسن البصرى قال: قال علیّ بن أبى طالب: فینا و اللّه أهل الجنة نزلت وَ نَزَعْنا ما فِی صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِینَ

و أخرج ابن عساکر و ابن مردویه عنه فى الآیـة قال: نزلت فى ثلاثـة أحیاء من العرب: فى بنى هاشم، و بنى تیم، و بنى عدیّ، فیّ و فى أبى بکر و عمر. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن عساکر عن کثیر النّوّاء. قال: قلت

---

(۱). «الکسع»: ضرب ضرع الناقة بالماء البارد لیجف لبنها و یترادّ فى ظهرها فیکون أقوى لها على الجدب فى العام القابل.

«الشول»: جمع شائلة، و هى من الإبل التى أتى علیها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فخفّ لبنها.

(۲). هود: ۸۱.

لأبى جعفر: إن فلانا حـدثنى عن علیّ بن الحسین أن هذه الآیة نزلت فى أبى بکر و عمر و علیّ: وَ نَزَعْنا ما فِی صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ قال: و اللّه إنها لفیهم أنزلت؛ و فیمن تنزل إلا فیهم؟ قلت: و أى غلّ هو؟ قال:

غـلّ الجاهلیـة، إن بنى تیم و بنى عـدیّ و بنى هـاشم کـان بینهم فى الجاهلیـة، فلمـا أسـلم هؤلاـء القوم تحـابّوا، فأخـذت أبـا بکر الخاصرة «۱»، فجعل علیّ یسـخن یده فیکمد بها خاصـرة أبى بکر، فنزلت هذه الآیة. و أخرج سـعید ابن منصور و ابن أبى شیبة و ابن جریر و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و الحاکم و ابن مردویه عن علیّ من طرق أنه قال لابن طلحـة: إنى لأرجو أن أکون أنا و أبوک من الذین قال اللّه فیهم وَ نَزَعْنا ما فِی صُدُورِهِمْ الآیة، فقال رجل من همدان: اللّه أعدل من ذلک، فصاح علیّ علیه صیحة تـداعى لها القصر و قال: فیمن إذن إن لم نکن نحن أولئک. و أخرج سعید بن منصور و ابن أبى شیبة و الطبرانى و ابن مردویه عن علیّ قـال: إنى لأـرجو أن أکون أنـا و عثمـان و الزبیر و طلحـة فیمن قـال اللّه: وَ نَزَعْنـا مـا فِی صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ و أخرج ابن مردویه و ابن عسـاکر من طریق الکلبى عن أبى صالـح عن ابن عبـاس فى هـذه الآیـة قـال: نزلت فى عشرة: أبى بکر، و عمر، و عثمان، و علیّ، و طلحة، و الزبیر، و سـعد، و سـعید، و عبـد الرحمن بن عوف، و عبد اللّه بن مسعود. و أخرجه ابن المنذر و ابن

أبى حاتم عن أبى صالح موقوفا عليه. و أخرج ابن أبى شيبة و هناد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ قال: لا يرى بعضهم قفا بعض. و أخرجه ابن المنذر و ابن مردويه عن مجاهد عن ابن عباس. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو القاسم البغوى و ابن مردويه و ابن عساكر عن زيد بن أبى أوفى قال: «خرج علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فتلا هذه الآية إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ قال: المتحابّون فى اللّه فى الجنّة ينظر بعضهم إلى بعض». و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ قال: المشقة و الأذى. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه من طريق عطاء بن أبى رباح عن رجل من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: اطلع علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الباب الذى يدخل منه بنو شيبة فقال: «ألا أراكم تضحكون، ثم أدبر حتّى إذا كان عند الحجر رجع القهقرى فقال: إنى لما خرجت جاء جبريل فقال: يا محمد إن اللّه عزّ و جلّ يقول: لم تقنط عبادى؟ نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ . و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مصعب بن ثابت قال: مرّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم على ناس من أصحابه يضحكون فقال: «اذكروا الجنة و اذكروا النار، فنزلت نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

و أخرج الطبرانى و البزار و ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير قال: مرّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فذكر نحوه. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ اللّه خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا و تسعين رحمة، و أرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر كل الذى عند اللّه من رحمته لم ييأس من الرحمة، و لو يعلم المؤمن بكل الذى عند اللّه من العذاب لم يأمن من النار».

---

(١). أى وجع الخاصرة.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١۶۵

و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قالُوا لا تَوْجَلْ لا تخف. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى مِنَ الْقانِطِينَ قال: الآيسين. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ يعنى الباقين فى عذاب اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ قال: أنكرهم لوط، و فى قوله: بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ قال: بعذاب قوم لوط. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ قال: يشكون. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ اتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ قال: أمر أن يكون خلف أهله يتبع أدبارهم فى آخرهم إذا مشوا. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ قال: أخرجهم اللّه إلى الشام. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ قال: أوحيناه إليه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ يعنى: استئصالهم و هلاكهم.

[سورة الحجر (١۵): الآيات ۶٧ الى ٧٧]

وَ جاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (۶٧) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (۶٨) وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ (۶٩) قالُوا أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ (٧٠) قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (٧١)

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧۴) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧۵) وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧۶)

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)

ذكر سبحانه ما كان من قوم لوط عند وصول الملائكة إلى قريتهم فقال: وَ جاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ أى: أهل مدينة قوم لوط،

و هى سدوم كما سبق، و جملة يستبشرون فى محل نصب على الحال، أى: مستبشرون بأضياف لوط طمعا فى ارتكاب الفاحشة منهم ف قالَ لهم لوط إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي و حدّ الضيف لأنه مصدر كما تقدّم، و المراد أضيافى، و سماهم ضيفا لأنه رآهم على هيئة الأضياف، و قومه رأوهم مردا حسان الوجوه، فلذلك طمعوا فيهم فَلا تَفْضَحُونِ يقال: فضحه يفضحه فضيحة و فضحا؛ إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بإظهاره، و المعنى: لا تفضحون عندهم بتعرّضكم لهم بالفاحشة فيعلمون أنى عاجز عن حماية من نزل بى، أو لا تفضحون فضيحة ضيفى، فإن من فعل ما يفضح الضيف فقد فعل ما يفضح المضيف وَ اتَّقُوا اللَّهَ فى أمرهم وَ لا تُخْزُونِ يجوز أن تكون من الخزى؛ و هو الذلّ و الهوان، و يجوز أن يكون من الخزاية و هى الحياء و الخجل، و قد تقدّم تفسير ذلك فى هود قالُوا أى: قوم لوط مجيبين له أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ الاستفهام للإنكار، و الواو للعطف على مقدّر، أى: ألم نتقدّم إليك و ننهك عن أن تكلمنا فى شأن أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة؟ و قيل: نهوه عن ضيافة الناس، و يجوز حمل ما فى الآية على ما هو أعمّ من هذين الأمرين قالَ هؤُلاءِ بَناتِي فتزوّجوهنّ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ ما عزمتم عليه من فعل الفاحشة بضيفى فهؤلاء بناتى تزوّجوهنّ حلالا و لا ترتكبوا الحرام؛ و قيل: أراد بناته نساء قومه؛ لكون النبىّ بمنزلة الأب لقومه، و قد تقدّم تفسير هذا فى هود لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ العمر و العمر بالفتح و الضم واحد، لكنهم خصّوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فإنه كثير الدور على ألسنتهم، ذكر ذلك

فتح القدير، ج٣، ص: ١٦٦

الزجاج. قال القاضى عياض: اتفق أهل التفسير فى هذا أنه قسم من اللّه جلّ جلاله بمدة حياة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و كذا حكى إجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربى فقال: قال المفسرون بأجمعهم: أقسم اللّه تعالى هاهنا بحياة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم تشريفا له. قال أبو الجوزاء: ما أقسم اللّه سبحانه بحياة أحد غير محمد صلّى اللّه عليه و سلّم لأنه أكرم البرية عنده. قال ابن العربى: ما الذى يمتنع أن يقسم اللّه سبحانه بحياة لوط و يبلغ به من التشريف ما شاء، و كلّ ما يعطيه اللّه تعالى للوط من فضل يؤتى ضعفه من شرف لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم لأنه أكرم على اللّه منه، أو لا تراه سبحانه أعطى إبراهيم الخلة و موسى التكليم، و أعطى ذلك لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم؟ فإذا أقسم اللّه سبحانه بحياة لوط فحياة محمد أرفع. قال القرطبى: ما قاله حسن، فإنه يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم كلاما معترضا فى قصة لوط، فإن قيل: قد أقسم اللّه سبحانه بالتين و الزيتون و طور سينين، و نحو ذلك فما فيهما من فضل؟ و أجيب بأنه ما من شىء أقسم اللّه به إلا و فى ذلك دلالة على فضله على جنسه، و ذكر صاحب الكشاف و أتباعه أن هذا القسم هو من الملائكة على إرادة القول، أى: قالت الملائكة للوط لعمرك، ثم قال: و قيل: الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و أنه أقسم بحياته و ما أقسم بحياة أحد قط كرامة له انتهى. و قد كره كثير من العلماء القسم بغير اللّه سبحانه، و جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة فى النهى عن القسم بغير اللّه، فليس لعباده أن يقسموا بغيره، و هو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته: لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ «١»، و قيل: الإقسام منه سبحانه بالتين و الزيتون و طور سينين و النجم و الضحى و الشمس و الليل و نحو ذلك هو على حذف مضاف هو المقسم به، أى: و خالق التين و كذلك ما بعده، و فى قوله: لَعَمْرُكَ أى: و خالق عمرك، و معنى إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ لفى غوايتهم يتحيرون، جعل الغواية لكونها تذهب بعقل صاحبها كما تذهب به الخمر سكرة، و الضمير لقريش على أن القسم بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لقوم لوط على أن القسم للرسول عليه السلام فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ العظيمة أو صيحة جبريل حال كونهم مُشْرِقِينَ أى: داخلين فى وقت الشروق، يقال: أشرقت الشمس، أى: أضاءت و شرقت إذا طلعت، و قيل: هما لغتان بمعنى واحد، و أشرق القوم إذا دخلوا فى وقت شروق الشمس؛ و قيل: أراد شروق الفجر؛ و قيل: أوّل العذاب كان عند شروق الفجر و امتدّ إلى طلوع الشمس. و الصيحة: العذاب فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها أى: عالى المدينة سافلها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ من

طين متحجّر، و قد تقدّم الكلام مستوفى على هذا فى سورة هود إِنَّ فِي ذلِكَ أى: فى المذكور من قصّتهم و بيان ما أصابهم لَآياتٍ لعلامات يستدلّ بها لِلْمُتَوَسِّمِينَ للمتفكرين الناظرين فى الأمر، و منه قول زهير:

و فيهنّ ملهى للصّديق و منظرأنيق لعين النّاظر المتوسّم

و قال آخر «٢»:

أو كلّما وردت عكاظ قبيلةبعثوا إلىّ عريفهم يتوسّم

---

(١). الأنبياء: ٢٣.

(٢). هو طريف بن تميم العنبرى.

و قال أبو عبيدة: للمتبصرين، و قال ثعلب: الواسم الناظر إليك من فرقك إلى قدمك، و المعنى متقارب.

و أصل التوسّم التثبت و التفكّر، مأخوذ من الوسم و هو التأثير بحديدة فى جلد البعير وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ يعنى قرى قوم لوط أو مدينتهم على طريق ثابت، و هى الطريق من المدينة إلى الشام؛ فإن السالك فى هذه الطريق يمرّ بتلك القرى إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور من المدينة أو القرى لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ يعتبرون بها فإنّ المؤمنين من العباد هم الذين يعتبرون بما يشاهدونه من الآثار.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ جاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قال: استبشروا بأضياف نبىّ اللّه لوط حين نزلوا به لما أرادوا أن يأتوا إليهم من المنكر. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ قال: يقولون أو لم ننهك أن تضيف أحدا أو تؤويه. قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ أمرهم لوط بتزويج النساء، و أراد أن يقى أضيافه ببناته.

و أخرج ابن أبى شيبة و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و أبو نعيم عن ابن عباس قال: ما خلق اللّه و ما ذرأ و ما برأ نفسا أكرم عليه من محمد صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و ما سمعت اللّه أقسم بحياة أحد غيره قال: لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ يقول: و حياتك يا محمد و عمرك و بقائك فى الدنيا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: لَعَمْرُكَ قال: لعيشك. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: ما حلف اللّه بحياة أحد إلا بحياة محمد قال: لَعَمْرُكَ الآية. و أخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعى قال: كانوا يكرهون أن يقول الرجل لعمرى، يرونه كقوله و حياتى. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ أى: فى ضلالهم يلعبون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الأعمش فى الآية: لفى غفلتهم يتردّدون.

و أخرج ابن جرير عنه مُشْرِقِينَ قال: حين أشرقت الشمس. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً قال: علامة أما ترى الرجل يرسل خاتمه إلى أهله، فيقول: هاتوا كذا و كذا، فإذا رأوه عرفوا أنه حق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه لِلْمُتَوَسِّمِينَ قال: للناظرين. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن قتادة قال: للمعتبرين. و أخرج ابن جريج و ابن المنذر عن مجاهد قال: للمتفرّسين. و أخرج البخارى فى التاريخ، و الترمذى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن السنى و أبو نعيم و ابن مردويه و الخطيب عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «اتّقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور اللّه، ثم قرأ: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ . و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ يقول: لبهلاك. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: لبطريق مقيم. و أخرج ابن جرير و ابن

أبى حاتم عن قتادة قال: لبطريق واضح.

فتح القدير، ج‌۳، ص: ۱۶۸

[سورة الحجر (۱۵): الآيات ۷۸ الى ۸۶]

وَ إِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ (۷۸) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ (۷۹) وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (۸۰) وَ آتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (۸۱) وَ كانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (۸۲)

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (۸۳) فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (۸۴) وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (۸۵) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (۸۶)

قوله: وَ إِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ إن هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير الشأن المحذوف، أى:

و إن الشأن كان أصحاب الأيكة. و الأيكة: الغيضة، و هى جماع الشجر، و الجمع: الأيك. و يروى أن شجرهم كان دوما، و هو المقل، فالمعنى: و إن كان أصحاب الشجر المجتمع؛ و قيل: الأيكة اسم القرية التى كانوا فيها. قال أبو عبيدة: الأيكة و ليكة مدينتهم كمكة و بكّة، و أصحاب الأيكة هم قوم شعيب، و قد تقدّم خبرهم، و اقتصر اللّه سبحانه هنا على وصفهم بالظلم، و قد فصّل ذلك الظلم فيما سبق، و الضمير فى وَ إِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ يرجع إلى مدينة قوم لوط، و مكان أصحاب الأيكة أى: و إن المكانين لبطريق واضح، و الإمام اسم لما يؤتمّ به، و من جملة ذلك الطريق التى تسلك. قال الفراء و الزجاج: سمّى الطريق إماما لأنه يؤتمّ و يتبع. و قال ابن قتيبة: لأن المسافر يأتمّ به حتى يصل إلى الموضع الذى يريده؛ و قيل: الضمير للأيكة و مدين لأن شعيبا كان ينسب إليهما. ثم إنّ اللّه سبحانه ختم القصص بقصة ثمود فقال: وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ الحجر: اسم لديار ثمود. قاله الأزهرى، و هى ما بين مكة و تبوك. و قال ابن جرير:

هى أرض بين الحجاز و الشام. و قال: المرسلين، و لم يرسل إليهم إلا صالح، لأنّ من كذّب واحدا من الرسل فقد كذب الباقين؛ لكونهم متفقين فى الدعوة إلى اللّه؛ و قيل: كذّبوا صالحا و من تقدّمه من الأنبياء، و قيل:

كذّبوا صالحا و من معه من المؤمنين وَ آتَيْناهُمْ آياتِنا أى: الآيات المنزلة على نبيهم، و من جملتها الناقة؛ فإن فيها آيات جمة كخروجها من الصخرة و دنوّ نتاجها عند خروجها و عظمها و كثرة لبنها فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ أى: غير معتبرين، و لهذا عقروا الناقة و خالفوا ما أمرهم به نبيّهم وَ كانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً النحت فى كلام العرب: البرى و النجر، نحته ينحته بالكسر نحتا، أى: براه، و فى التنزيل:

أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ «۱» أى: تنجرون، و كانوا يتّخذون لأنفسهم من الجبال بيوتا؛ أى: يخرقونها فى الجبال، و انتصاب آمِنِينَ على الجر، قال الفراء: آمنين من أن يقع عليهم، و قيل: آمنين من الموت، و قيل: من العذاب، ركونا منهم على قوّتها و وثاقتها فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ أى: داخلين فى وقت الصبح، و قد تقدم ذكر الصيحة فى الأعراف و فى هود، و تقدم أيضا قريبا فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ أى: لم يدفع عنهم شيئا من عذاب اللّه ما كانوا يكسبون من الأموال و الحصون فى الجبال وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِ أى: متلبّسة بالحق، و هو ما فيهما من الفوائد و المصالح، و قيل: المراد بالحق مجازاة المحسن بإحسانه و المسيئ بإساءته، كما فى قوله سبحانه: وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ‌

---

(۱). الصافات: ۹۵.

فتح القدير، ج‌۳، ص: ۱۶۹

وَ ما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى «۱»، و قيل: المراد بالحق الزوال لأنها مخلوقة و كلّ مخلوق زائل وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ و عند إتيانها ينتقم اللّه ممن يستحق العذاب، و يحسن إلى من يستحق الإحسان، و فيه وعيد للعصاة و تهديد، ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يصفح عن قومه، فقال: فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ أى: تجاوز عنهم و اعف عفوا حسنا؛ و قيل: فأعرض عنهم إعراضا جميلا و لا تعجل عليهم، و عاملهم معاملة الصفوح الحليم. قيل: و هذا منسوخ بآية السيف إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ أى: الخالق للخلق جميعا العليم بأحوالهم و بالصالح و الطالح منهم.

و قد أخرج ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عمرو قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّ مدين و أصحاب الأيكة أمّتان بعث اللّه إليهما شعيبا». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قال: أصحاب الأيكة هم قوم شعيب، و الأيكة ذات آجام و شجر كانوا فيها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الأيكة الغيضة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: أصحاب الأيكة أهل مدين، و الأيكة: الملتفة من الشجر. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الأيكة: مجمع الشىء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال فى قوله: وَ إِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ طريق ظاهر. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى أصحاب الحجر قال: أصحاب الوادى. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: كان أصحاب الحجر: ثمود و قوم صالح. و أخرج البخارى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأصحاب الحجر «۲»: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم». و أخرج ابن مردويه عنه قال: نزل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من مياه الآبار التى كانت تشرب منها ثمود و عجنوا منها و نصبوا القدور باللحم، فأمرهم بإهراق القدور، و علفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة، و نهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذّبوا، فقال: «إنى أخشى أن يصيبكم مثل الذى أصابهم فلا تدخلوا عليهم». و أخرج ابن مردويه عن سبرة بن معبد أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال بالحجر لأصحابه: «من عمل من هذا الماء شيئا فليلقه». قال: و منهم من عجن العجين، و منهم من حاس الحيس. و أخرج ابن مردويه و ابن النجار عن علىّ فى قوله: فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ قال: الرضا بغير عتاب. و أخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد قال: هذه الآية قبل القتال. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة مثله.

---

(۱). النجم: ۳۱.

(۲). قال فى فتح البارى فى شرح الحديث (۴۴۲۰): اللام فى قوله: لأصحاب الحجر بمعنى: عن، و حذف المقول لهم ليعم كل سامع، و التقدير: قال لأمته عن أصحاب الحجر، و هم ثمود.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۷۰

[سورة الحجر (۱۵): الآيات ۸۷ الى ۹۹]

وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (۸۷) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (۸۸) وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (۸۹) كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (۹۰) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (۹۱)
فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (۹۲) عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (۹۳) فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (۹۴) إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (۹۵) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۹۶)

وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّکَ یَضِیقُ صَدْرُکَ بِما یَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ کُنْ مِنَ السَّاجِدِینَ (٩٨) وَ اعْبُدْ رَبَّکَ حَتَّى یَأْتِیَکَ الْیَقِینُ (٩٩)

اختلف أهل العلم فى السبع المثانى ماذا هى؟ فقال جمهور المفسرين: إنها الفاتحة. قال الواحدى و أكثر المفسرين على أنها فاتحة الكتاب، و هو قول عمر و علىّ و ابن مسعود و الحسن و مجاهد و قتادة و الربيع و الكلبى.

و زاد القرطبى أبا هريرة و أبا العالية، و زاد النيسابورى الضحّاك و سعيد بن جبير. و قد روى ذلك من قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كما سيأتى بيانه فتعيّن المصير إليه. و قيل: هى السبع الطوال: البقرة، و آل عمران، و النساء، و المائدة، و الأنعام، و الأعراف. و السابعة الأنفال و التوبة، لأنها كسورة واحدة إذ ليس بينهما تسمية، روى هذا القول عن ابن عباس. و قيل: المراد بالمثانى السبعة الأحزاب فإنها سبع صحائف، و المثانى جمع مثناة من التثنية أو جمع مثنية. و قال الزجاج: تثنى بما يقرأ بعدها معها. فعلى القول الأوّل يكون وجه تسمية الفاتحة مثانى أنها تثنى، أى: تكرّر فى كل صلاة، و على القول بأنها السبع الطوال فوجه التسمية إن العبر و الأحكام و الحدود كررت فيها، و على القول بأنها السبعة الأحزاب يكون وجه التسمية هو تكرير ما فى القرآن من القصص و نحوها. و قد ذهب إلى أن المراد بالسبع المثانى القرآن كله الضحّاك و طاوس و أبو مالك، و هو رواية عن ابن عباس، و استدلوا بقوله تعالى: کِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِیَ «١». و قيل: المراد بالسبع المثانى أقسام القرآن؛ و هى الأمر، و النهى، و التبشير، و الإنذار، و ضرب الأمثال، و تعريف النعم، و أنباء قرون ماضية. قاله زياد ابن أبى مريم، و لا يخفى عليك أن تسمية الفاتحة مثانى لا تستلزم نفى تسمية غيرها بهذا الاسم، و قد تقرّر أنها المرادة بهذه الآية، فلا يقدح فى ذلك صدق وصف المثانى على غيرها وَ الْقُرْآنَ الْعَظِیمَ معطوف على سَبْعاً مِنَ الْمَثانِی و يكون من عطف العام على الخاص؛ لأن الفاتحة بعض من القرآن، و كذلك إن أريد بالسبع المثانى السبع الطوال لأنّها بعض من القرآن، و أما إذا أريد بها السبعة الأحزاب أو جميع القرآن أو أقسامه، فيكون من باب عطف أحد الوصفين على الآخر، كما قيل فى قول الشاعر:

إلى الملك القرم و ابن الهمام «٢» ....

و مما يقوّى كون السبع المثانى هى الفاتحة أن هذه السورة مكية، و أكثر السبع الطوال مدنية، و كذلك أكثر القرآن و أكثر أقسامه، و ظاهر قوله: وَ لَقَدْ آتَیْناکَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِی أنه قد تقدّم إيتاء السبع على

---

(١). الزمر: ٢٣.

(٢). و عجزه: و ليث الكتيبة فى المزدحم.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٧١

نزول هذه الآية، و «من» فى من المثانى للتبعيض أو البيان على اختلاف الأقوال، ذكر معنى ذلك الزجاج فقال: هى للتبعيض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال، و للبيان إذا أردت الأسباع. ثم لمّا بيّن لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم ما أنعم به عليه من هذه النعمة الدينية نفره عن اللذات العاجلة الزائلة فقال: لا تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ أى: لا تطمح ببصرك إلى زخارف الدنيا طموح رغبة فيها و تمنّ لها، و الأزواج الأصناف، قاله ابن قتيبة. و قال الجوهرى: الأزواج: القرناء. قال الواحدى: إنما يكون مادا عينيه إلى الشىء إذا أدام النظر نحوه، و إدامة النظر إليه تدلّ على استحسانه و تمنيه. و قال بعضهم: معنى الآية لا تحسدنّ أحدا على ما أوتى من الدنيا، و ردّ بأن الحسد منهى عنه مطلقا، و إنما قال فى هذه السورة لا تمدنّ بغير واو، لأنه لم يسبقه طلب بخلاف ما فى سورة طه، ثم لما نهاه عن الالتفات إلى أموالهم و أمتعتهم نهاه عن الالتفات إليهم، فقال: وَ لا تَحْزَنْ عَلَیْهِمْ حيث لم يؤمنوا و صمّموا على الكفر و العناد؛ و قيل: المعنى: لا تحزن على ما متعوا به فى الدنيا فلك الآخرة، و الأوّل

أولى، ثم لما نهاه عن أن يمدّ عينيه إلى أموال الكفار و لا يحزن عليهم.
و كان ذلك يستلزم التهاون بهم و بما معهم أمره أن يتواضع للمؤمنين، فقال: وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ و خفض الجناح كناية عن التواضح و لين الجانب، و منه قوله سبحانه: وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِ و قول الكميت:
خفضت لهم منى جناحى مودّةإلى كنف عطفاه أهل و مرحب
و أصله أن الطائر إذا ضمّ فرخه إلى نفسه بسط جناحه، ثم قبضه على الفرخ، فجعل ذلك وصفا لتواضع الإنسان لأتباعه؛ و يقال: فلان خافض الجناح، أى: وقور ساكن، و الجناحان من ابن آدم جانباه، و منه:
وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ و منه قول الشاعر:
و حسبك فتية لزعيم قوميمدّ على أخى سقم جناحا
وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ أى: المنذر المظهر لقومه ما يصيبهم من عذاب اللّه كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ قيل: المفعول محذوف، أى: مفعول أنزلنا، و التقدير: كما أنزلنا على المقتسمين عذابا، فيكون المعنى: إنى أنا النذير المبين لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين الذى أنزلناه عليهم، كقوله تعالى: أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ «١»، و قيل: إن الكاف زائدة، و التقدير: إنى أنا النذير المبين أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين من العذاب؛ و قيل: هو متعلّق بقوله: وَ لَقَدْ آتَيْناكَ أى: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب و هم المقتسمون، و الأولى أن يتعلّق بقوله: إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ لأنه فى قوّة الأمر بالإنذار. و قد اختلف فى المقتسمين من هم؟ فقال الفراء: هم ستة عشر رجلا، بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقتسموا أنقاب مكة و فجاجها يقولون لمن دخلها: لا تغترّوا بهذا الخارج فينا فإنه مجنون، و ربما قالوا ساحر، و ربما قالوا شاعر، و ربما قالوا كاهن، فقيل لهم مقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق. و قيل:

---

(١). فصلت: ١٣.

إنهم قوم من قريش اقتسموا كتاب اللّه، فجعلوا بعضه شعرا، و بعضه سحرا، و بعضه كهانة، و بعضه أساطير الأوّلين. قاله قتادة، و قيل: هم أهل الكتاب، و سمّوا مقتسمين لأنهم كانوا يقتسمون القرآن استهزاء، فيقول بعضهم هذه السورة لى و هذه لك، روى هذا عن ابن عباس. و قيل: إنهم قسموا كتابهم و فرّقوه و بدّدوه و حرّفوه؛ و قيل: المراد قوم صالح تقاسموا على قتله قسموا مقتسمين كما قال تعالى: تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ «١»، و قيل: تقاسموا أيمانا تحالفوا عليها، قاله الأخفش؛ و قيل: إنهم العاص بن وائل و عتبة و شيبة ابنا ربيعة و أبو جهل بن هشام و النضر بن الحارث و أمية بن خلف و منبه بن الحجاج؛ ذكره الماوردى. الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ جمع عضة، و أصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أجزاء، فيكون المعنى على هذا: الذين جعلوا القرآن أجزاء متفرّقة، بعضه شعر، و بعضه سحر، و بعضه كهانة و نحو ذلك؛ و قيل:
هو مأخوذ من عضهه إذا بهته، فالمحذوف منه الهاء لا الواو، و جمعت العضة على المعنيين جمع العقلاء لما لحقها من الحذف فجعلوا ذلك عوضا عما لحقها من الحذف؛ و قيل: معنى عضين: إيمانهم ببعض الكتاب و كفرهم ببعض، و ممّا يؤيد أن معنى عضين التفريق، قول رؤبة:
و ليس دين اللّه بالعضين «٢» أى: بالمفرّق، و قيل: العضة و العضين فى لغة قريش السحر؛ و هم يقولون للساحر عاضه، و للساحرة عاضهة، و منه قول الشاعر:
أعوذ بربّى من النافثات فى عقد العاضه المعضه

و فى الحديث أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لعن العاضهة و المستعضهة، و فسّر بالساحرة و المستسحرة، و المعنى:
أنهم أكثروا البهت على القرآن، و سمّوه سحرا و كذبا و أساطير الأوّلين، و نظير عضة فى النقصان شفة، و الأصل شفهة، و كذلك سنة، و الأصل سنهة، قال الكسائى: العضة الكذب و البهتان، و جمعها عضون. و قال الفراء: إنه مأخوذ من العضاء، و هى شجر يؤذى و يجرح كالشّوك، و يجوز أن يراد بالقرآن التوراة و الإنجيل لكونهما مما يقرأ، و يراد بالمقتسمين هم اليهود و النصارى، أى: جعلوهما أجزاء متفرّقة، و هو أحد الأقوال المتقدّمة فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ أى: لنسألنّ هؤلاء الكفرة أجمعين يوم القيامة عمّا كانوا يعملون فى الدنيا من الأعمال التى يحاسبون عليها و يسألون عنها؛ و قيل: إن المراد سؤالهم عن كلمة التوحيد، و العموم فى عمّا كانوا يعملون، يفيد ما هو أوسع من ذلك؛ و قيل: إن المسؤولين هاهنا هم جميع المؤمنين و العصاة و الكفار، و يدلّ عليه قوله: ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ «٣»، و قوله: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ «۴»، و قوله: إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ- ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ «۵»، و يمكن أن يقال: إن قصر هذا السؤال على المذكورين فى السياق و صرف العموم إليهم لا ينافى سؤال غيرهم فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ قال الزجّاج: يقول أظهر ما

---

(۱). النمل: ۴۹.

(۲). فى تفسير القرطبى (۱۰/ ۵۹): بالمعضّى.

(۳). التكاثر: ۸.

(۴). الصافات: ۲۴.

(۵). الغاشية: ۲۵ و ۲۶.

تؤمر به، أخذ من الصديع و هو الصبح انتهى. و أصل الصّدع الفرق و الشق، يقال: صدعته فانصدع؛ أى:
انشق، و تصدّع القوم، أى: تفرّقوا، و منه: يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ «۱» أى: يتفرّقون. قال الفراء: أراد فاصدع بالأمر؛ أى: أظهر دينك فما مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر، و قال ابن الأعرابى: معنى اصدع بما تؤمر؛ أى: اقصد؛ و قيل: فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ أى: فرق جمعهم و كلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرّقون، و الأولى أن الصدع الإظهار، كما قاله الزجّاج و الفراء و غيرهم. قال النحويون: المعنى بما تؤمر به من الشرائع، و جوّزوا أن تكون مصدرية، أى: بأمرك و شأنك. قال الواحدى: قال المفسرون: أى: اجهر بالأمر. أى: بأمرك بعد إظهار الدعوة، و ما زال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مستخفيا حتى نزلت هذه الآية، ثم أمره سبحانه بعد أمره بالصدع بالإعراض و عدم الالتفات إلى المشركين، فقال: وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ أى: لا تبال بهم و لا تلتفت إليهم إذا لاموك على إظهار الدعوة، ثم أكّد هذا الأمر و ثبّت قلب رسوله بقوله:
إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ مع كونهم كانوا من أكابر الكفار، و أهل الشوكة فيهم، فإذا كفاه اللّه أمرهم بقمعهم و تدميرهم كفاه أمر من هو دونهم بالأولى، و هؤلاء المستهزئون كانوا خمسة من رؤساء أهل مكة:
الوليد بن المغيرة، و العاص بن وائل، و الأسود بن المطلب بن الحارث بن زمعة، و الأسود بن عبد يغوث، و الحارث بن الطلاطلة.
كذا قال القرطبى و وافقه غيره من المفسرين. و قد أهلكهم اللّه جميعا، و كفاه أمرهم فى يوم واحد، ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال: الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فلم يكن ذنبهم مجرّد الاستهزاء، بل لهم ذنب آخر و هو الشرك باللّه سبحانه، ثم توعدهم فقال: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ كيف عاقبتهم فى الآخرة و ما يصيبهم من عقوبة اللّه سبحانه، ثم ذكر تسلية أخرى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعد التسلية الأولى بكفايته شرهم و دفعه لمكرهم فقال: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ من

الأقوال الكفرية المتضمنة للطعن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالسحر و الجنون و الكهان و الكذب، و قد كان يحصل ذلك مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بمقتضى الجبلة البشرية و المزاج الإنسانى، ثم أمره سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح اللّه سبحانه و حمده فقال: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أى: متلبّسا بحمده؛ أى: افعل التسبيح المتلبس بالحمد وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ أى: المصلّين، فإنك إذا فعلت ذلك كشف اللّه همك و أذهب غمك و شرح صدرك، ثم أمره بعبادة ربه، أى: بالدوام عليها إلى غاية هى قوله حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ أى: الموت.

قال الواحدى. قال جماعة المفسرين: يعنى الموت لأنه موقن به. قال الزّجّاج: المعنى اعبد ربك أبدا؛ لأنه لو قيل اعبد ربك بغير توقيت لجاز إذا عبد الإنسان مرّة أن يكون مطيعا، فإذا قال حتى يأتيك اليقين، فقد أمره بالإقامة على العبادة أبدا ما دام حيا.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن عمر فى قوله: وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي قال: السبع المثانى فاتحة الكتاب. و أخرجه سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الدارقطنى و ابن مردويه و البيهقى من طرق عن علىّ بمثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن مسعود مثله و زاد: و القرآن العظيم

---

(١). الروم: ٤٣.

سائر القرآن. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس فى الآية قال: فاتحة الكتاب استثناها اللّه لأمة محمد، فرفعها فى أمّ الكتاب فادّخرها لهم حتى أخرجها و لم يعطها أحد قبل؛ و قيل: فأين الآية السابعة؟ قال: بسم اللّه الرحمن الرحيم. و روى عنه نحو هذا من طرق. و أخرج ابن الضّريس و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: السبع المثانى فاتحة الكتاب. و أخرج ابن جرير عن أبىّ بن كعب قال: السبع المثانى الحمد للّه رب العالمين. و روى نحو قول هؤلاء الصحابة عن جماعة من التابعين.

و قد ثبت فى صحيح البخارى من حديث أبى سعيد بن المعلى أنه قال له النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «ألا أعلّمك أفضل سورة قبل أن أخرج من المسجد؟ فذهب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليخرج فذكرته، فقال: الحمد للّه رب العالمين هى السبع المثانى و القرآن العظيم».

و أخرج البخارى أيضا من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أمّ القرآن هى السبع المثانى و القرآن العظيم» فوجب بهذا المصير إلى القول بأنها فاتحة الكتاب، و لكن تسميتها بذلك لا ينافى تسمية غيرها به كما قدّمنا. و أخرج الفريابى و أبو داود و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال فى الآية: هى السبع الطوال. و أخرج الدارمى و ابن مردويه عن أبىّ بن كعب مثله. و روى نحو ذلك عن جماعة من التابعين. و أخرج ابن مردويه من طريق سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: هى فاتحة الكتاب و السبع الطوال. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: ما ثنى من القرآن، ألم تسمع لقول اللّه: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ «١». و أخرج ابن جرير عن الضحّاك قال: المثانى القرآن يذكر اللّه القصة الواحدة مرارا. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن زياد بن أبى مريم فى الآية قال: أعطيتك سبعة أجزاء. مر، و انه، و بشّر، و أنذر، و اضرب الأمثال، و اعدد النعم، و اتل نبأ القرآن.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ قال: نهى الرجل أن يتمنّى مال صاحبه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: أَزْواجاً مِنْهُمْ قال: الأغنياء، و الأمثال، و الأشباه. و أخرج ابن المنذر عن سفيان بن عيينة

قال: من أعطى القرآن فمدّ عينه إلى شيء منها فقد صغر القرآن أى: فقد خالف القرآن، ألم يسمع إلى قوله: وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي و إلى قوله: وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقى و قد فسّر ابن عيينة أيضا الحديث الصحيح: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن» فقال:

إن المعنى يستغنى به.

و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ اخْفِضْ جَناحَكَ قال: اخضع. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و البخارى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله: كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الآية قال: هم أهل الكتاب جزّءوه أجزاء فآمنوا ببعضه و كفروا

---

(١). الزمر: ٢٣.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٧٥

ببعضه. و أخرج ابن جرير من طريق علىّ بن أبى طلحة عنه قال: عضين: فرقا. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم و أبو نعيم و البيهقى عن ابن عباس أنها نزلت فى نفر من قريش كانوا يصدّون الناس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم منهم الوليد بن المغيرة. و أخرج الترمذى و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أنس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ قال: «عن قول لا إله إلا اللّه». و أخرجه ابن أبى شيبة و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر من وجه آخر عن أنس موقوفا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عمر مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ فامضه، و فى علىّ بن أبى طلحة مقال معروف. و أخرج ابن جرير عن أبى عبيدة بن عبد اللّه بن مسعود قال: ما زال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مستخفيا حتى نزل فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ فخرج هو و أصحابه.

و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: هذا أمر من اللّه لنبيه بتبليغ رسالته قومه و جميع من أرسل إليه. و أخرج ابن المنذر عنه فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ قال: أعلن بما تؤمر. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ قال: نسخه قوله تعالى: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ «١».

و أخرج الطبرانى فى الأوسط و ابن مردويه و أبو نعيم، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس فى قوله: إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ قال: المستهزئون: الوليد بن المغيرة، و الأسود بن عبد يغوث، و الأسود بن المطلب، و الحارث بن عيطل السهمى، و العاص بن وائل، و ذكر قصة هلاكهم. و قد روى هذا عن جماعة من الصّحابة مع زيادة فى عددهم و نقص على طول فى ذلك. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر، و الحاكم فى التّاريخ، و ابن مردويه و الديلمى عن أبى مسلم الخولانى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما أوحى إلىّ أن أجمع المال و أكن من التّاجرين، و لكن أوحى إلىّ أن سبّح بحمد ربك و كن من السّاجدين، و اعبد ربّك حتى يأتيك اليقين». و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا مثله. و أخرج ابن مردويه و الديلمى عن أبى الدرداء مرفوعا نحوه. و أخرج الخطيب فى المتفق و المفترق من طريق عبيد اللّه بن أبان بن عثمان بن حذيفة بن أوس الطائفى قال: حدّثنى أبان بن عثمان عن أبيه عن جدّه يرفعه مثل حديث أبى مسلم الخولانى. و أخرج ابن أبى شيبة عن سالم بن عبد اللّه بن عمر حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ قال الموت. و أخرج ابن المبارك عن الحسن مثله.

و أخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله.

---

(١). التوبة: ۵.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٧۶

سورة النّحل

اشارة

و هى مكية كلّها فى قول الحسن و عكرمة و عطاء و جابر، و رواه ابن مردويه عن ابن عباس و عن أبى الزبير.
و أخرج النحّاس من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: سورة النحل نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها فإنهن نزلن بين مكة و المدينة فى منصرف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من أحد، و قيل: و هى قوله: وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ «١» الآية، و قوله: وَ اصْبِرْ وَ ما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ «٢» فى شأن التّمثيل بحمزة و قتلى أحد، و قوله: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا «٣» الآية، و قيل: الثالثة: وَ لا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا إلى قوله: بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ «۴» و تسمّى هذه السورة سورة النّعم؛ بسبب ما عدّد اللّه فيها.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النحل (١۶): الآيات ١ الى ٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (۴) وَ الْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَ مَنافِعُ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (۵) وَ لَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ (۶) وَ تَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٧) وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ (٨) وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْها جائِرٌ وَ لَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)
قوله: أَتى أَمْرُ اللَّهِ أى: عقابه للمشركين، و قال جماعة من المفسّرين: القيامة. قال الزجّاج:
هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم، و عبّر عن المستقبل بلفظ الماضى تنبيها على تحقّق وقوعه؛ و قيل:
إن المراد بأمر اللّه حكمه بذلك، و قد وقع و أتى، فأما المحكوم به فإنه لم يقع؛ لأنه سبحانه حكم بوقوعه فى وقت معين، فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج إلى الوجود؛ و قيل: إن المراد بإتيانه إتيان مباديه و مقدّماته فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ نهاهم عن استعجاله، أى: فلا تطلبوا حضوره قبل ذلك الوقت، و قد كان المشركون يستعجلون عذاب اللّه كما قال النّضر بن الحارث: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ «۵» الآية، و المعنى:
قرب أمر اللّه فلا تستعجلوه، و قد كان استعجالهم له على طريقة الاستهزاء من دون استعجال على الحقيقة،

---

(١). النحل: ١٢۶.

(٢). النحل: ١٢٧.

(٣). النحل: ١١٠.

(۴). النحل: ۹۵ و ۹۶.

(۵). الأنفال: ۳۲.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۱۷۷

و فى نهيهم عن الاستعجال تهكّم بهم سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ أى: تنزّه و ترفّع عن إشراكهم، أو عن أن يكون له شريك، و شركهم هاهنا هو ما وقع منهم من استعجال العذاب، أو قيام الساعة استهزاء و تكذيبا، فإنّه يتضمّن وصفهم له سبحانه بأنه لا يقدر على ذلك، و أنه عاجز عنه و العجز و عدم القدرة من صفات المخلوق لا من صفات الخالق، فكان ذلك شركا يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ قرأ المفضّل عن عاصم: تنزّل الملائكة، و الأصل تتنزل، فالفعل مسند إلى الملائكة. و قرأ الأعمش تنزّل على البناء للمفعول، و قرأ الجعفىّ عن أبى بكر عن عاصم «ننزّل» بالنون، و الفاعل هو اللّه سبحانه. و قرأ الباقون «ينزّل الملائكة» بالياء التحتية، إلا أن ابن كثير و أبا عمرو يسكنان النون، و الفاعل هو اللّه سبحانه؛ و وجه اتّصال هذه الجملة بما قبلها أنه صلّى اللّه عليه و سلّم لما أخبرهم عن اللّه أنه قد قرب أمره، و نهاهم عن الاستعجال تردّدوا فى الطريق التى علم بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بذلك، فأخبر أنه علم بها بالوحى على ألسن رسل اللّه سبحانه من ملائكته، و الروح: الوحى، و مثله: يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ «۱» و سمّى الوحى روحا لأنه يحيى قلوب المؤمنين، فإن من جملة الوحى القرآن، و هو نازل من الدين منزلة الروح من الجسد؛ و قيل:

المراد أرواح الخلائق؛ و قيل: الروح الرحمة، و قيل: الهداية لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا الأبدان بالأرواح.

قال الزجّاج: الروح ما كان فيه من اللّه حياة بالإرشاد إلى أمره. و قال أبو عبيد: الروح هنا جبريل، و تكون الباء على هذا بمعنى مع، «و من» فى «من أمره» بيانية، أى: بأشياء أو مبتدأ من أمره أو صفة للروح، أو متعلّق بينزل، و معنى عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ على من اختصّه بذلك، و هم الأنبياء أَنْ أَنْذِرُوا قال الزجّاج: «أَنْ أَنْذِرُوا» بدل من الروح، أى: ينزلهم بأن أنذروا، و أن إما مفسرة لأن تنزل الوحى فيه معنى القول، و إما مخففة من الثقيلة و ضمير الشأن مقدّر، أى: بأن الشأن أقول لكم أنذروا، أى: أعلموا الناس أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا أى: مروهم بتوحيدى و أعلموهم ذلك مع تخويفهم؛ لأن فى الإنذار تخويفا و تهديدا، و الضمير فى أنه للشأن فَاتَّقُونِ الخطاب للمستعجلين على طريق الالتفات، و هو تحذير لهم من الشرك باللّه، ثم إنّ اللّه سبحانه لما أرشدهم إلى توحيده ذكر دلائل التوحيد فقال: خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ أى: أوجدهما على هذه الصفة التى هما عليها بالحق؛ أى: للدلالة على قدرته و وحدانيته؛ و قيل: المراد بالحق هنا الفناء و الزوال تَعالى اللّه عَمَّا يُشْرِكُونَ أى: ترفّع و تقدّس عن إشراكهم أو عن شركة الذى يجعلونه شريكا له. ثم لما كان نوع الإنسان أشرف أنواع المخلوقات السفلية قدّمه و خصّه بالذكر، فقال: خَلَقَ الْإِنْسانَ و هو اسم لجنس هذا النوع مِنْ نُطْفَةٍ من جماد يخرج من حيوان، و هو المنىّ «۲»، فنقله أطوارا إلى أن كملت صورته، و نفخ فيه الروح و أخرجه من بطن أمه إلى هذه الدار فعاش

---

(۱). غافر: ۱۵.

(۲). المنىّ: هو مجموع المواد المفرزة من الجهاز التناسلى الذكرى أثناء الدفق من القضيب، و يشمل: النطاف من الخصية و مفرزات الغدد الجنسية اللاحقة، و يحتوى كل ۱ سم ۳ منه على (۵۰- ۳۵۰) مليون نطفة، و عدد المتحركة فيها: (۶۰- ۷۵) و النطاف المتوسطة الحركة (۱۵) و غير المتحركة (۱۰)

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۱۷۸

فيها فَإِذا هُوَ بعد خلقه على هذه الصفة خَصِيمٌ أى: كثير الخصومة و المجادلة، و المعنى: أنه كالمخاصم للّه سبحانه فى قدرته، و

معنى مُبِينٌ ظاهر الخصومة واضحها، و قيل: يبين عن نفسه ما يخاصم به من الباطل، و المبين هو المفصح عمّا فى ضميره بمنطقه، و مثله قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ «١»، عقب ذكر خلق الإنسان بخلق الأنعام لما فيها من النفع لهذا النوع، فالامتنان بها أكمل من الامتنان بغيرها، فقال: وَ الْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ و هى الإبل و البقر و الغنم، و أكثر ما يقال نعم و أنعام للإبل، و يقال للمجموع، و لا يقال للغنم مفردة، و منه قول حسّان:

و كانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم و شاء

فعطف الشاء على النعم، و هى هنا الإبل خاصة. قال الجوهرى: و النّعم واحد الأنعام، و أكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل. ثم لما أخبر سبحانه بأنه خلقها لبنى آدم بين المنفعة التى فيها لهم فقال: فِيها دِفْءٌ الدفء: السخانة، و هو ما استدفئ به من أصوافها و أوبارها و أشعارها، و الجملة فى محلّ النصب على الحال وَ مَنافِعُ معطوف على دفء، و هى درّها و ركوبها و نتاجها و الحراثة بها و نحو ذلك. و قد قيل: إن الدفء: النتاج و اللبن. قال فى الصّحاح: الدفء نتاج الإبل و ألبانها و ما ينتفع به منها، ثم قال: و الدفء أيضا السّخونة، و على هذا فإن أريد بالدفء المعنى الأوّل، فلا بدّ من حمل المنافع على ما عداه مما ينتفع به منها، و إن حمل على المعنى الثانى كان تفسير المنافع بما ذكرناه واضحا؛ و قيل: المراد بالمنافع النتاج خاصة؛ و قيل: الركوب وَ مِنْها تَأْكُلُونَ أى: من لحومها و شحومها؛ و خصّ هذه المنفعة بالذكر مع دخولها تحت المنافع لأنها أعظمها؛ و قيل: خصّها لأن الانتفاع بلحمها و شحمها تعدم عنده عينها بخلاف غيره من المنافع التى فيها، و تقديم الظرف المؤذن بالاختصاص للإشارة إلى أن الأكل منها هو الأصل، و غيره نادر وَ لَكُمْ فِيها جَمالٌ أى: لكم فيها مع ما تقدّم ذكره جمال، و الجمال: ما يتجمّل به و يتزين، و الجمال: الحسن، و المعنى هنا: لكم فيها تجمل و تزين عند الناظرين إليها حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ أى: فى هذين الوقتين، و هما وقت ردّها من مراعيها، و وقت تسريحها إليها، فالرواح رجوعها بالعشىّ من المراعى؛ و السراح: مسيرها إلى مراعيها بالغداة، يقال: سرحت الإبل أسرحها سرحا و سروحا؛ إذا غدوت بها إلى المرعى، و قدّم الإراحة على التسريح لأن منظرها عند الإراحة أجمل، و ذواتها أحسن لكونها فى تلك الحالة قد نالت حاجتها من الأكل و الشرب، فعظمت بطونها و انتفخت ضروعها، و خصّ هذين الوقتين لأنهما وقت نظر الناظرين إليها لأنها عند استقرارها فى الحظائر لا يراها أحد، و عند كونها فى مراعيها هى متفرّقة غير مجتمعة كل واحد منها يرعى فى جانب وَ تَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ الأثقال: جمع ثقل، و هو متاع المسافر من طعام و غيره، و سمّى ثقلا لأنه يثقل الإنسان حمله؛ و قيل: المراد أبدانهم إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ أى: لم تكونوا واصلين إليه لو لم يكن معكم إبل تحمل أثقالكم إلا بشق الأنفس لبعده عنكم، و عدم وجود ما يحمل ما لا بدّ لكم منه فى السفر. و ظاهره يتناول كل بلد بعيدة من غير تعيين؛ و قيل: المراد بالبلد مكة،

---

(١). يس: ٧٧.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٧٩

و قيل: اليمن و مصر و الشام لأنها متاجر العرب، و شق الأنفس: مشقتها. قرأ الجمهور بكسر الشين، و قرأ أبو جعفر بفتحها. قال الجوهرى: و الشق: المشقة، و منه قوله: لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ و حكى أبو عبيدة بفتح الشين، و هما بمعنى؛ و يجوز أن يكون المفتوح مصدرا من شققت عليه أشقّ شقّا، و المكسور بمعنى النصف، يقال: أخذت شقّ الشاة و شقّة الشاة، و يكون المعنى على هذا فى الآية: لم تكونوا بالغيه إلا بذهاب نصف الأنفس من التعب، و قد امتنّ اللّه سبحانه على عباده بخلق الأنعام على العموم، ثم خصّ الإبل بالذكر لما فيها من نعمة حمل الأثقال دون البقر و الغنم، و الاستثناء من أعمّ العام، أى: لم تكونوا بالغيه بشىء من الأشياء إلا بشقّ الأنفس وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِيرَ بالنصب عطفا على الأنعام؛ أى:

و خلق لكم هذه الثلاثة الأصناف، و قرأ ابن أبى عبلة بالرفع فيها كلها؛ و سميت الخيل خيلا لاختيالها فى مشيها، و واحد الخيل خائل كضائن واحد الضأن، و قيل: لا واحد له. ثم علّل سبحانه خلق هذه الثلاثة الأنواع بقوله: لِتَرْكَبُوها و هذه العلة هى باعتبار معظم منافعها لأن الانتفاع بها فى غير الركوب معلوم كالتحميل عليها وَ عطف زِينَةً على محل لِتَرْكَبُوها لأنه فى محل نصب على أنه علة لخلقها و لم يقل لتتزينوا بها حتى يطابق لتركبوها؛ لأن الركوب فعل المخاطبين، و الزينة فعل الزائن و هو الخالق، و التحقيق فيه أن الركوب هو المعتبر فى المقصود، بخلاف الزينة فإنه لا يلتفت إليه أهل الهمم العالية لأنه يورث العجب، فكأنه سبحانه قال: خلقتها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الإعياء و المشقة، و أما التزين بها فهو حاصل فى نفس الأمر و لكنه غير مقصود بالذات. و قد استدلّ بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بأن التعليل بالركوب يدلّ على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها. قالوا: و يؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر و إخراجها عن الأنعام فيفيد ذلك اتحاد حكمها فى تحريم الأكل. قالوا: و لو كان أكل الخيل جائزا لكان ذكره و الامتنان به أولى من ذكر الركوب، لأنه أعظم فائدة منه، و قد ذهب إلى هذا مالك و أبو حنيفة و أصحابهما و الأوزاعى و مجاهد و أبو عبيد و غيرهم. و ذهب الجمهور من الفقهاء و المحدّثين و غيرهم إلى حلّ لحوم الخيل، و لا حجة لأهل القول الأوّل فى التعليل: لِتَرْكَبُوها لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها لا ينافى غيره، و لا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر و يكون ذكره أقدم من ذكر الركوب، و أيضا لو كانت هذه الآية تدلّ على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الأهلية، و حينئذ لا يكون ثم حاجة لتحديد التحريم لها عام خيبر، و قد قدّمنا أن هذه السورة مكية. و الحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حلّ أكل لحوم الخيل، فلو سلمنا أن فى هذه الآية متمسكا للقائلين بالتحريم لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال، و دافعة لهذا الاستدلال، و قد أوضحنا هذه المسألة فى مؤلفاتنا بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ أى: يخلق ما لا يحيط علمكم به من المخلوقات غير ما قد عدّده هاهنا؛ و قيل: المراد من أنواع الحشرات و الهوامّ فى أسافل الأرض، و فى البحر ممّا لم يره البشر و لم يسمعوا به؛ و قيل: هو ما أعدّ اللّه لعباده فى الجنة و فى النار ممّا لم تره عين، و لم تسمع به أذن، و لا خطر على قلب بشر؛ و قيل: هو خلق السوس فى النبات و الدود فى الفواكه؛ و قيل: عين تحت العرش؛ و قيل: نهر من النور؛ و قيل: أرض بيضاء، و لا

وجه للاقتصار فى تفسير هذه الآية على نوع من هذه الأنواع، بل المراد أنه سبحانه يخلق ما لا يعلم به العباد، فيشمل كل شي‌ء لا يحيط علمهم به، و التعبير هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة؛ لأنه سبحانه قد خلق ما لا يعلم به العباد وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ القصد مصدر بمعنى الفاعل، فالمعنى و على اللّه قاصد السّبيل؛ أى: هداية قاصد الطريق المستقيم بموجب وعده المحتوم و تفضله الواسع؛ و قيل: هو على حذف مضاف، و التقدير: و على اللّه بيان قصد السبيل، و السبيل: الإسلام، و بيانه بإرسال الرسل و إقامة الحجج و البراهين، و القصد فى السبيل هو كونه موصلا إلى المطلوب، فالمعنى: و على اللّه بيان الطريق الموصل إلى المطلوب وَ مِنْها جائِرٌ الضمير فى «منها» راجع إلى السبيل بمعنى الطريق، لأنها تذكر و تؤنث؛ و قيل: راجع إليها بتقدير مضاف، أى: و من جنس السبيل جائر مائل عن الحق عادل منه، فلا يهتدى به، و منه قول امرئ القيس:

و من الطريقة جائر و هدىقصد السبيل منه ذو دخل «1»

و قيل: إن الطريق كناية عن صاحبها، و المعنى: و منهم جائر عن سبيل الحق؛ أى: عادل عنه، فلا يهتدى إليه قيل و هم أهل الأهواء المختلفة، و قيل: أهل الملل الكفرية، و فى مصحف عبد اللّه: «و منكم جائر» و كذا قرأ عليّ وَ لَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ أى: و لو شاء أن يهديكم جميعا إلى الطريق الصحيح، و المنهج الحق لفعل ذلك، و لكنه لم يشأ، بل اقتضت مشيئته سبحانه إراءة الطريق و الدلالة عليها: وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ و أما الإيصال إليها بالفعل فذلك يستلزم أن لا يوجد فى العباد كافر، و لا من

يستحق النار من المسلمين، و قد اقتضت المشيئة الربانية أنه يكون البعض مؤمنا و البعض كافرا، كما نطق بذلك القرآن فى غير موضع.
و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزل أَتى أَمْرُ اللَّهِ ذعر أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى نزلت فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ فسكنوا». و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى بكر بن حفص قال: «لما نزلت أَتى أَمْرُ اللَّهِ قاموا، فنزلت فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .
و أخرج ابن مردويه من طريق الضحّاك عن ابن عباس أَتى أَمْرُ اللَّهِ قال: خروج محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج قال: «لما نزلت هذه الآية أَتى أَمْرُ اللَّهِ قال رجال من المنافقين بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن أمر اللّه أتى، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن، فلما رأوا أنه لا ينزل شىء قالوا: ما نراه نزل شىء، فنزلت: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ «٢»، فقالوا: إن هذا يزعم مثلها أيضا، فلما رأوا أنه لا ينزل شىء قالوا: ما نراه نزل شىء، فنزلت: وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ الآية» «٣». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الضحّاك فى قوله: أَتى أَمْرُ اللَّهِ قال: الأحكام و الحدود و الفرائض. و أخرج هؤلاء عن ابن عباس فى قوله: يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ قال:
بالوحى. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه و البيهقى عنه قال الروح: أمر من أمر اللّه و خلق من خلق اللّه، و صورهم على صورة بنى آدم، و ما ينزل من السماء

---

(١). «دخل»: أى: فساد.

(٢). الأنبياء: ١.

(٣). هود: ٨.

ملك إلا و معه واحد من الروح، ثم تلا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا «١». و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ قال: القرآن. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لَكُمْ فِيها دِفْءٌ قال: الثياب وَ مَنافِعُ قال: ما تنتفعون به من الأطعمة و الأشربة. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: نسل كل دابة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ تَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ يعنى مكة لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ قال: لو تكلفتموه لم تطيقوه إلا بجهد شديد.
و قد ورد فى حلّ أكل لحوم الخيل أحاديث منها فى الصحيحين و غيرهما من حديث أسماء قالت: «نحرنا فرسا على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأكلناه». و أخرج أبو عبيد و ابن أبى شيبة، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن جابر قال: «أطعمنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لحوم الخيل، و نهانا عن لحوم الحمر الأهلية». و أخرج أبو داود نحوه من حديثه أيضا، و هما على شرط مسلم. و ثبت أيضا فى الصحيحين من حديث جابر قال: «نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن لحوم الحمر الأهلية و أذن فى الخيل». و أما ما أخرجه أبو عبيد و أبو داود و النسائى من حديث خالد بن الوليد قال: «نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن أكل كل ذى ناب من السباع، و عن لحوم الخيل و البغال و الحمير». ففى إسناده صالح بن يحيى بن أبى المقدام و فيه مقال. و لو فرضنا أن الحديث صحيح لم يقو على معارضة أحاديث الحلّ على أنه يكون أن هذا الحديث المصرّح بالتحريم متقدّم على يوم خيبر فيكون منسوخا. و أخرج الخطيب و ابن عساكر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله:

وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ قال: البراذين. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّ ممّا خلق اللّه أرضا من لؤلؤة بيضاء». ثم ساق من أوصافها ما يدلّ على أن الحديث موضوع، ثم قال فى آخره: «فذلك قوله وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ . و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ يقول: على اللّه أن يبيّن الهدى و الضلالة وَ مِنْها جائِرٌ قال: من السبل ناكب عن الحق، قال: و فى قراءة ابن مسعود «و منكم جائر». و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن علىّ أنه كان يقرأ هذه الآية: «و منكم جائر».

---

(١). النبأ: ٣٨.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٨٢

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٠ الى ١٩]

هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِی ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِی ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَ ما ذَرَأَ لَكُمْ فِی الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ إِنَّ فِی ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَ هُوَ الَّذِی سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَ تَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَ أَلْقى فِی الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهاراً وَ سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَ عَلاماتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَ ما تُعْلِنُونَ (١٩)

لما استدل سبحانه على وجوده و كمال قدرته و بديع صنعته بعجائب أحوال الحيوانات، أراد أن يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب أحوال النبات فقال: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ أى: من جهة السماء، و هى السحاب ماءً أى: نوعا من أنواع الماء، و هو المطر لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ يجوز أن يتعلّق لكم بأنزل أو هو خبر مقدّم، و شراب مبتدأ مؤخر، و الجملة صفة لماء وَ مِنْهُ فى محل نصب على الحال، و الشارب اسم لما يشرب كالطعام لما يطعم، و المعنى: أن الماء النازل من السماء قسمان: قسم يشربه الناس، و من جملته ماء الآبار و العيون، فإنه من المطر لقوله: فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِی الْأَرْضِ و قسم يحصل منه شجر ترعاه المواشى. قال الزجاج: كلّ ما ينبت من الأرض فهو شجر؛ لأن التركيب يدل على الاختلاط، و منه تشاجر القوم إذا اختلط أصوات بعضهم بالبعض، و معنى الاختلاط حاصل فى العشب و الكلأ و فيما له ساق. و قال ابن قتيبة: المراد من الشجر فى الآية الكلأ، و قيل: الشجر كل ما له ساق كقوله تعالى: وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدانِ «١» و العطف يقتضى التغاير، فلما كان النجم ما لا ساق له وجب أن يكون الشجر ما له ساق، و أجيب بأن عطف الجنس على النوع جائز فِيهِ تُسِيمُونَ أى: فى الشجر ترعون مواشيكم، يقال:
سامت السائمة تسوم سوما: رعت: فهى سائمة، و أسمتها، أى: أخرجتها إلى الرّعى فأنا مسيم، و هى مسامة و سائمة، و أصل السّوم الإبعاد فى المرعى. قال الزجاج: أخذ من السّومة و هى العلامة، لأنها تؤثر فى الأرض علامات برعيها يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنابَ قرأ أبو بكر عن عاصم «ننبت» بالنون، و قرأ الباقون بالياء التحتية؛ أى: ينبت اللّه لكم بذلك الماء الذى أنزله من السماء، و قدّم الزرع لأنه أصل الأغذية التى يعيش بها الناس، و أتبعه بالزيتون لكونه فاكهة من وجه و إداما من وجه لكثرة ما فيه من الدّهن، و هو جمع زيتونة، و يقال للشجرة نفسها زيتونة؛ ثم ذكر النخيل لكونه غذاء و فاكهة و هو مع العنب أشرف الفواكه، و جمع الأعناب لاشتمالها على الأصناف المختلفة، ثم أشار إلى سائر الثمرات فقال: وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كما

أجمل الحيوانات التى لم يذكرها فيما سبق بقوله: وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ و قرأ أبىّ ابن كعب «ينبت لكم به الزرع» برفع الزرع و ما بعده إِنَّ فِي ذٰلِكَ أى: الإنزال و الإنبات لَآيَةً عظيمة دالة على كمال القدرة و التفرّد بالربوبية لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فى مخلوقات اللّه و لا يهملون النظر فى مصنوعاته وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ معنى تسخيرهما للناس تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم و تستدعيه حاجاتهم، يتعاقبان دائما كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمره به و لا يخرج عن إرادته و لا يهمل السعى فى نفعه، و كذا الكلام فى تسخير الشمس و القمر و النجوم، فإنها تجرى على نمط متّحد يستدل

---

(۱). الرحمن: ۶.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۸۳

بها العباد على مقادير الأوقات، و يهتدون بها و يعرفون أجزاء الزمان؛ و معنى مسخرات مذلّلات. و قرأ ابن عامر و أهل الشام وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بالرفع على الابتداء و الخبر. و قرأ الباقون بالنصب عطفا على الليل و النهار، و قرأ حفص عن عاصم برفع النجوم على أنه مبتدأ و خبره: مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ و على قراءة النصب فى مسخرات يكون حالا مؤكدة؛ لأن التسخير قد فهم من قوله: «وَ سَخَّرَ»؛ و قرأ حفص فى رواية برفع مسخرات مع نصب ما قبله على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هى مسخرات إِنَّ فِي ذٰلِكَ التسخير لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أى: يعملون عقولهم فى هذه الآثار الدالة على وجود الصانع و تفرّده و عدم وجود شريك له، و ذكر الآيات لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، و أبين شهادة للكبرياء و العظمة، و جمعها ليطابق قوله مسخرات؛ و قيل: إن وجه الجمع هو أن كلا من تسخير الليل و النهار و الشمس و القمر و النجوم آية فى نفسها بخلاف ما تقدّم من الإنبات فإنه آية واحدة، و لا يخلو كل هذا عن تكلّف؛ و الأولى أن يقال: إن هذه المواضع الثلاثة التى أفرد الآية فى بعضها و جمعها فى بعضها كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار و للإفراد باعتبار، فلم يجرها على طريقة واحدة افتنانا و تنبيها على جواز الأمرين و حسن كل واحد منهما وَ ما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ أى: خلق، يقال: ذرأ اللّه الخلق يذرؤهم ذرءا: خلقهم، فهو ذارئ، و منه الذّرية، و هى نسل الثقلين، و قد تقدّم تحقيق هذا، و هو معطوف على النجوم رفعا و نصبا، أى: و سخر لكم ما ذرأ فى الأرض. فالمعنى: أنه سبحانه سخر لهم تلك المخلوقات السماوية و المخلوقات الأرضية، و انتصاب مختلفا ألوانه على الحال، و ألوانه: هيئاته و مناظره، فإن ذرء هذه الأشياء على اختلاف الألوان و الأشكال مع تساوى الكلّ فى الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه و تفرّده إِنَّ فِي ذٰلِكَ التسخير لهذه الأمور لَآيَةً واضحة لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ فإن من تذكّر اعتبر، و من اعتبر استدلّ على المطلوب؛ و قيل: و إنما خصّ المقام الأوّل بالتفكر لإمكان إيراد الشبهة المذكورة؛ و خصّ المقام الثانى بالعقل لذكره بعد إماطة الشبه و إزاحة العلة، فمن لم يعترف بعدها بالوحدانية فلا عقل له؛ و خصّ المقام الثالث بالتذكر لمزيد الدلالة، فمن شك بعد ذلك فلا حسّ له، و فى هذا من التكلّف ما لا يخفى. و الأولى أن يقال هنا كما قلنا فيما تقدّم فى إفراد الآية فى البعض و جمعها فى البعض الآخر، و بيانه أن كلا من هذه المواضع الثلاثة يصلح لذكر التفكر و لذكر التعقل و لذكر التذكر لاعتبارات ظاهرة غير خفية، فكان فى التعبير فى كلّ موضع بواحد منها افتنان حسن لا يوجد فى التعبير بواحد منها فى جميع المواضع الثلاثة وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ امتنّ اللّه سبحانه بتسخير البحر بإمكان الركوب عليه و استخراج ما فيه من صيد و جواهر؛ لكونه من جملة النعم التى أنعم اللّه بها على عباده مع ما فيه من الدلالة على وحدانية الربّ سبحانه و كمال قدرته، و قد جمع اللّه سبحانه لعباده فى هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية و السماوية و البحرية، فأرشدهم إلى النظر و الاستدلال بالآيات المتنوّعة المختلفة الأمكنة إتماما للحجة، و تكميلا للإنذار، و توضيحا لمنازع الاستدلال و مناطات البرهان، و مواضع النظر و الاعتبار؛ ثم ذكر العلّة فى تسخير البحر فقال: لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا المراد به السمك، و وصفه بالطراوة للإشعار بلطافته، و

الإرشاد إلى المسارعة بأكله لكونه مما يفسد بسرعة

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٨٤

وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها أی: لؤلؤا و مرجانا كما فی قوله سبحانه: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ و ظاهر قوله: تَلْبَسُونَها أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ و المرجان؛ أی: يجعلونه حلية لهم كما يجوز للنساء، و لا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين فی تأويل قوله: تَلْبَسُونَها بقوله تلبسه نساؤهم، لأنهنّ من جملتهم، أو لكونهنّ يلبسها لأجلهم، و ليس فی الشريعة المطهرة ما يقتضی منع الرجال من التحلی باللؤلؤ و المرجان ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة، فإن ذلك ممنوع من جهة كونه تشبها بهنّ، و قد ورد الشرع بمنعه لا من جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجان وَ تَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ أی: ترى السفن شواقّ للماء تدفعه بصدرها. و مخر السفينة: شقّها الماء بصدرها. قال الجوهری: مخر السابح: إذا شقّ الماء بصدره، و مخر الأرض: شقّها للزراعة، و قيل: مواخر: جواری، و قيل: معترضة، و قيل: تذهب و تجی‏ء، و قيل: ملججة. قال ابن جرير: المخر فی اللغة: صوت هبوب الريح، و لم يقيّد بكونه فی ماء وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ معطوف على تستخرجوا، و ما بينهما اعتراض، أو على علّة محذوفة تقديره لتنتفعوا بذلك و لتبتغوا، أو على تقدير فعل ذلك لتبتغوا، أی: لتتجروا فيه فيحصل لكم الربح من فضل اللّه سبحانه وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أی: إذا وجدتم فضله عليكم و إحسانه إليكم اعترفتم بنعمته عليكم فشكرتم ذلك باللسان و الأركان. قيل: و لعلّ وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث أن فيها قطعا لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة من غير مزاولة أسباب السفر، بل من غير حركة أصلا مع أنها فی تضاعيف المهالك، و يمكن أن يضم إلى ما ذكر من قطع المسافة على الصفة المذكورة ما اشتمل عليه البحر من كون فيه أطيب مأكول و أنفس ملبوس و كثرة النعم مع نفاستها و حسن موقعها من أعظم الأسباب المستدعية للشكر الموجبة له، ثم أردف هذه النعم الموجبة للتوحيد المفيدة للاستدلال على المطلوب بنعمة أخرى و آية كبرى فقال: وَ أَلْقى‏ فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أی: جبالا ثابتة، يقال: رسا يرسو؛ إذا ثبت و أقام، قال الشاعر «١»:

فصبرت عارفة لذلك حرّةترسو إذا نفس الجبان تطلّع

أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ أی: كراهة أن تميد بكم على ما قاله البصريون، أو لئلا تميد بكم على ما قاله الكوفيون.

و الميد: الاضطراب يمينا و شمالا، ماد الشی‏ء يميد ميدا تحرّك، و مادت الأغصان تمايلت، و ماد الرجل تبختر وَ أَنْهاراً أی: و جعل فيها أنهارا، لأن الإلقاء هاهنا بمعنى الجعل و الخلق كقوله: وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّی «٢»- وَ سُبُلًا أی: و جعل فيها سبلا و أظهرها و بينها لأجل تهتدون بها فی أسفاركم إلى مقاصدكم.

و السبل: الطرق وَ عَلاماتٍ أی: و جعل فيها علامات و هی معالم الطرق. و المعنى: أنه سبحانه جعل للطرق علامات يهتدون بها وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ المراد بالنجم الجنس، أی: يهتدون به فی سفرهم ليلا.

و قرأ ابن وثاب و بالنجم بضم النون و الجيم، و مراده النجوم فقصره، أو هو جمع نجوم كسقف و سقف؛ و قيل: المراد بالنجم هنا الجدی و الفرقدان قاله الفراء؛ و قيل: الثريا، و قيل: العلامات الجبال، و قيل: هی النجوم؛

---

(١). هو عنترة العبسی.

(٢). طه: ٣٩.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٨٥

لأن من النجوم ما يهتدى به، و منها ما يكون علامة لا يهتدى بها. و ذهب الجمهور إلى أن المراد فی الآية الاهتداء فی الأسفار؛ و قيل: هو الاهتداء إلى القبلة، و لا مانع من حمل ما فی الآية على ما هو أعمّ من ذلك. قال الأخفش: تمّ الكلام عند قوله و

علامات، و قوله: وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ كلام منفصل عن الأول؛ ثم لما عدّد الآيات الدالة على الصانع و وحدانيته و كمال قدرته أراد أن يوبخ أهل الشرك و العناد فقال: أَ فَمَنْ يَخْلُقُ هذه المصنوعات العظيمة و يفعل هذه الأفاعيل العجيبة كَمَنْ لا يَخْلُقُ شيئا منها و لا يقدر على إيجاد واحد منها، و هو هذه الأصنام التى تعبدونها و تجعلونها شركاء للّه سبحانه، و أطلق عليها لفظ «من» إجراء لها مجرى أولى العلم جريا على زعمهم بأنها آلهة، أو مشاكلة لقوله: «أ فمن يخلق» لوقوعها فى صحبته، و فى هذا الاستفهام من التقريع و التوبيخ للكفار ما لا يخفى، و ما أحقهم بذلك، فإنهم جعلوا بعض المخلوقات شريكا لخالقه: فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ «١»- أَ فَلا تَذَكَّرُونَ مخلوقات اللّه الدالة على وجوده و تفرّده بالربوبية و بديع صنعته فتستدلون بها على ذلك، فإنها لوضوحها يكفى فى الاستدلال بها مجرّد التذكر لها؛ ثم لما فرغ من تعديد الآيات التى هى بالنسبة إلى المكلفين نعم قال: وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها و قد مرّ تفسير هذا فى سورة إبراهيم، قال العقلاء: إن كلّ جزء من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدنى خلل و أيسر نقص لنغّص النعم على الإنسان، و تمنى أن ينفق الدنيا لو كانت فى ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل، فهو سبحانه يدبّر بدن هذا الإنسان على الوجه الملائم له، مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك، فكيف يطيق حصر بعض نعم اللّه عليه أو يقدر على إحصائها، أو يتمكّن من شكر أدناها؟

يا ربنا هذه نواصينا بيدك، خاضعة لعظيم نعمك، معترفة بالعجز عن تأدية الشكر لشىء منها، لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، و لا نطيق التعبير بالشكر لك، فتجاوز عنا، و اغفر لنا، و أسبل ذيول سترك على عوراتنا، فإنك إن لا تفعل ذلك نهلك بمجرّد التقصير فى شكر نعمك، فكيف بما قد فرط منا من التساهل فى الائتمار بأوامرك و الانتهاء عن مناهيك، و ما أحسن ما قال من قال:

العفو يرجى من بنى آدمفكيف لا يرجى من الرّب

فقلت مذيّلا لهذا البيت الذى هو قصر مشيد:

فإنه أرأف بى منهمحسبى به حسبى به حسبى

و ما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذى لا يلتبس على إنسان مشيرا إلى عظيم غفرانه وسعة رحمته، فقال:

إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ أى: كثير المغفرة و الرحمة لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه، و القصور عن إحصائها، و العجز عن القيام بأدناها، و من رحمته إدامتها عليكم و إدرارها فى كل لحظة و عند كل نفس تتنفسونه و حركة تتحركون بها. اللهم إنى أشكرك عدد ما شكرك الشاكرون بكلّ لسان فى كلّ زمان، و عدد ما سيشكرك الشاكرون بكل لسان فى كل زمان، فقد خصصتنى بنعم لم أرها على كثير من خلقك، و إن رأيت

---

(١). الأعراف: ١٩٠.

منها شيئا على بعض خلقك لم أر عليه بقيتها، فإنّى أطيق شكرك! و كيف أستطيع تأدية أدنى شكر أدناها فكيف أستطيع أعلاها؟ فكيف أستطيع شكر نوع من أنواعها؟ ثم بيّن لعباده بأنه عالم بجميع ما يصدر منهم، لا تخفى عليه منه خافية، فقال: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ أى: تضمرونه من الأمور وَ ما تُعْلِنُونَ أى:

تظهرونه منها، و فيه وعيد و تعريض و توبيخ، و تنبيه على أنّ الإله يجب أن يكون عالما بالسرّ و العلانية لا- كالأصنام التى يعبدونها، فإنها جمادات لا شعور لها بشىء من الظواهر فضلا عن السرائر فكيف يعبدونها؟

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ ما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ قال: ما خلق لكم

فى الأرض مختلفا من الدواب، و الشجر و الثمار نعم من اللّه متظاهرة فاشكروها للّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا يعنى حيتان البحر وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها قال: هذا اللؤلؤ. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا قال: هو السمك و ما فيه من الدواب. و أخرج ابن أبى شيبة عن أبى جعفر قال: ليس فى الحلى زكاة، ثم قرأ: وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها. أقول: و فى هذا الاستدلال نظر. و الذى ينبغى التعويل عليه أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها فى شىء من أنواع المال فتلزم، و قد ورد فى الذهب و الفضة ما هو معروف، و لم يرد فى الجواهر على اختلاف أصنافها ما يدلّ على وجوب الزكاة فيها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس مواخر قال: جوارى. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة مَواخِرَ قال: تشقّ الماء بصدرها. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الضحّاك مَواخِرَ قال: تشقّ الماء بصدرها. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الضحّاك مَواخِرَ قال: السفينتان تجريان بريح واحدة مقبلة و مدبرة. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ قال: هى التجارة. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: رَواسِيَ قال: الجبال أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ قال: حتى لا تميد بكم، كانوا على الأرض تمور بهم لا تستقرّ، فأصبحوا صبحا و قد جعل اللّه الجبال، و هى الرواسى أوتادا فى الأرض.

و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ سُبُلًا قال: السبل هى الطرق بين الجبال. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الخطيب عن قتادة وَ سُبُلًا قال: طرقا، وَ عَلاماتٍ قال: هى النّجوم. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية قال: علامات النهار الجبال.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عن الكلبى وَ عَلاماتٍ قال: الجبال: و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس وَ عَلاماتٍ يعنى معالم الطرق بالنهار، وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ يعنى بالليل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ قال: اللّه هو الخالق الرازق، و هذه الأوثان التى تعبد من دون اللّه تخلق و لا تخلق شيئا و لا تملك لأهلها ضرّا و لا نفعا.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۸۷

[سورة النحل (۱۶): الآيات ۲۰ الى ۲۶]

وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (۲۰) أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (۲۱) إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (۲۲) لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (۲۳) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۲۴)

لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (۲۵) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ أَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (۲۶)

شرع سبحانه فى تحقيق كون الأصنام التى أشار إليها بقوله: كَمَنْ لا يَخْلُقُ عاجزة على أن يصدر منها خلق شىء فلا تستحق عبادة فقال: وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى: الآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون اللّه سبحانه صفتهم هذه الصفات المذكورة، و هى أنهم لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً من المخلوقات أصلا لا كبيرا و لا صغيرا، و لا جليلا و لا حقيرا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ أى: وصفتهم أنهم يخلقون، فكيف يتمكن المخلوق من أن يخلق غيره؟ ففى هذه الآية زيادة بيان لأنه أثبت لهم صفة النقصان بعد أن سلب عنهم صفة الكمال، بخلاف قوله: أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ فإنه اقتصر على مجرد سلب صفة الكمال. و قراءة الجمهور و الذين تدعون

بالمثناة الفوقية على الخطاب مطابقة لما قبله. و روى أبو بكر عن عاصم، و روى هبيرة عن حفص «يدعون» بالتحتية، و هى قراءة يعقوب، ثم ذكر صفة أخرى من صفاتهم فقال: أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ يعنى أن هذه الأصنام أجسادها ميتة لا حياة بها أصلا، فزيادة «غَيْرُ أَحْياءٍ» لبيان أنها ليست كبعض الأجساد التى تموت بعد ثبوت الحياة لها بل لا حياة لهذه أصلا، فكيف يعبدونها و هم أفضل منها؟

لأنهم أحياء وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ الضمير فى يشعرون للآلهة، و فى يبعثون للكفار الذين يعبدون الأصنام، و المعنى: ما تشعر هذه الجمادات من الأصنام أيان يبعث عبدتهم من الكفار، و يكون هذا على طريقة التهكّم بهم؛ لأنّ شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة فضلا عن الأمور التى لا يعلمها إلا اللّه سبحانه؛ و قيل: يجوز أن يكون الضمير فى يبعثون للآلهة، أى: و ما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث، و يؤيد ذلك ما روى أن اللّه يبعث الأصنام و يخلق لها أرواحا معها شياطينها فيؤمر بالكل إلى النار، و يدلّ على هذه قوله: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ «١»، و قيل قد تمّ الكلام عند قوله: وَ هُمْ يُخْلَقُونَ ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات غير أحياء و ما يشعرون أيان يبعثون، فيكون الضميران على هذا للكفار، و على القول بأن الضميرين أو أحدهما للأصنام يكون التعبير عنها مع كونها لا تعقل بما هو للعقلاء جريا على اعتقاد من يعبدها بأنها تعقل. و قرأ السلمى «إيان» بكسر الهمزة، و هما لغتان، و هو فى

---

(١). الأنبياء: ٩٨.

محل نصب بالفعل الذى قبله إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لما زيف سبحانه طريقة عبدة الأوثان صرح بما هو الحق فى نفس الأمر، و هو وحدانيته سبحانه، ثم ذكر ما لأجله أصرّ الكفار على شركهم فقال: فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ للوحدانية لا يؤثر فيها وعظ و لا ينجع فيها تذكير وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ عن قبول الحق، متعظمون عن الإذعان للصواب، مستمرون على الجحد لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ قال الخليل: لا جرم كلمة تحقيق و لا تكون إلا جوابا، أى: حقا أن اللّه يعلم ما يسرّون من أقوالهم و أفعالهم و ما يعلنون من ذلك، و قد مرّ تحقيق الكلام فى لا جرم إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ أى: لا يحبّ هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيد اللّه و الاستجابة لأنبيائه، و الجملة تعليل لما تضمنه الكلام المتقدّم وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ أى: و إذا قال لهؤلاء الكفار المنكرين المستكبرين قائل ماذا أنزل ربكم؟ أى:

أىّ شى‏ء أنزل ربكم؟ أو ماذا الذى أنزل؟ قيل: القائل النضر بن الحارث و الآية نزلت فيه، فيكون هذا القول منه على طريق التهكم؛ و قيل: القائل هو من يفد عليهم؛ و قيل: القائل المسلمون، فأجاب المشركون المنكرون المستكبرون ف قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ بالرفع؛ أى: ما تدّعون أيها المسلمون نزوله أساطير الأوّلين، أو أن المشركين أرادوا السخرية بالمسلمين فقالوا المنزل عليكم أساطير الأوّلين، و على هذا فلا يرد ما قيل من أن هذا لا يصلح أن يكون جوابا من المشركين، و إلا لكان المعنى الذى أنزله ربّنا أساطير الأوّلين و الكفار لا يقرّون بالإنزال، و وجه عدم وروده هو ما ذكرناه؛ و قيل: هو كلام مستأنف، أى: ليس ما تدّعون إنزاله أيها المسلمون منزلا بل هو أساطير الأوّلين؛ و قد جوّز على مقتضى علم النحو نصب أساطير و إن لم تقع القراءة به، و لا بد فى النصب من التأويل الذى ذكرنا، أى: أنزل على دعواكم أساطير الأولين، أو يقولون ذلك من أنفسهم على طريق السخرية. و الأساطير: الأباطيل و الترّهات التى يتحدّث الناس بها عن القرون الأولى، و ليس من كلام اللّه فى شى‏ء و لا مما أنزله اللّه أصلا فى زعمهم لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً أى: قالوا هذه المقالة لكى يحملوا أوزارهم كاملة، لم يكفر منها شى‏ء لعدم إسلامهم الذى هو سبب لتكفير الذنوب؛ و قيل: إن اللام هى لام العاقبة، لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لأجل يحملون

الأوزار، و لكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن التعليل به كقوله: لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً «۱». و قيل: هى لام الأمر وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ أى: و يحملون بعض أوزار الذى أضلوهم لأن من سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها و وزر من عمل بها؛ و قيل: من للجنس لا للتبعيض، أى: يحملون كل أوزار الذين يضلّونهم، و محلّ بِغَيْرِ عِلْمٍ النصب على الحال من فاعل «يُضِلُّونَهُمْ» أى: يضلون الناس جاهلين غير عالمين بما يدعونهم إليه، و لا عارفين بما يلزمهم من الآثام؛ و قيل: إنه حال من المفعول، أى: يضلون من لا علم له، و مثل هذه الآية:

وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ «۲». و قد تقدّم فى الأنعام الكلام على قوله: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى «۳». أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ أى: بئس شيئا يزرونه ذلك. ثمّ حكى سبحانه حال أضرابهم من المتقدّمين فقال: قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد به نمروذ بن كنعان حيث

---

(۱). القصص: ۸.

(۲). العنكبوت: ۱۳.

(۳). الأنعام: ۱۶۴.

بنى بناء عظيما ببابل، و رام الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها، فأهبّ اللّه الريح، فخرّ ذلك البناء عليه و على قومه فهلكوا، و الأولى أن الآية عامة فى جميع المبطلين من المتقدّمين الذين يحاولون إلحاق الضرّ بالمحقّين؛ و معنى المكر هنا الكيد و التدبير الذى لا يطابق الحق، و فى هذا وعيد للكفار المعاصرين له صلّى اللّه عليه و سلّم بأن مكرهم سيعود عليهم كما عاد مكر من قبلهم على أنفسهم فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ أى: أتى أمر اللّه، و هو الريح التى أخربت بنيانهم. قال المفسرون: أرسل اللّه ريحا فألقت رأس الصرح فى البحر، و خرّ عليهم الباقى مِنَ الْقَواعِدِ قال الزجّاج: من الأساطين، و المعنى: أنه أتاها أمر اللّه من جهة قواعدها فزعزعها فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ قرأ ابن أبى هريرة و ابن محيصن «السقف» بضم السين و القاف جميعا. و قرأ مجاهد بضم السين و سكون القاف، و قرأ الباقون «السقف» بفتح السين و سكون القاف، و المعنى: أنه سقط عليهم السّقف؛ لأنه بعد سقوط قواعد البناء يسقط جميع ما هو معتمد عليها. قال ابن الأعرابى: و إنما قال من فوقهم ليعلمك أنهم كانوا حالين تحته، و العرب تقول: خرّ علينا سقف، و وقع علينا حائط إذا كان يملكه و إن لم يكن وقع عليه، فجاء بقوله: مِنْ فَوْقِهِمْ ليخرج هذا الشك الذى فى كلام العرب، فقال: مِنْ فَوْقِهِمْ أى: عليهم وقع، و كانوا تحته فهلكوا، و ما أفلتوا؛ و قيل: إن المراد بالسقف السماء، أى: أتاهم العذاب من السماء التى فوقهم؛ و قيل: إن هذه الآية تمثيل لهلاكهم؛ و المعنى: أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه عليه.

و قد اختلف فى هؤلاء الذين خرّ عليهم السقف، فقيل: هو نمروذ كما تقدّم، و قيل: إنه بختنصر و أصحابه، و قيل: هم المقتسمون الذين تقدّم ذكرهم فى سورة الحجر وَ أَتاهُمُ الْعَذابُ أى: الهلاك مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ به، بل من حيث أنهم فى أمان، ثم بيّن سبحانه أن عذابهم غير مقصور على عذاب الدنيا.

فقال: ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ بإدخالهم النار، و يفضحهم بذلك و يهينهم، و هو معطوف على مقدّر، أى: هذا عذابهم فى الدنيا، ثم يوم القيامة يخزيهم وَ يَقُولُ لهم مع ذلك توبيخا و تقريعا أَيْنَ شُرَكائِيَ كما تزعمون و تدّعون، قرأ ابن كثير من رواية البزى «شركاى» من دون همز، و قرأ الباقون بالهمز، ثم وصف هؤلاء الشركاء بقوله: الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قرأ نافع بكسر النون على الإضافة، و قرأ الباقون بفتحها، أى: تخاصمون الأنبياء و المؤمنين فيهم، و على قراءة نافع تخاصموننى فيهم و تعادوننى: ادعوهم فليدفعوا عنكم هذا العذاب النازل بكم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: لا جَرَمَ يقول: بلى. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك لا جَرَمَ قال: يعنى الحق. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحّاك قال: لا كذب. و أخرج مسلم و أبو داود و الترمذى و ابن ماجة و غيرهم عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا يدخل الجنّة من كان فى قلبه مثقال ذرّة من كبر، و لا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرّة من إيمان، فقال رجل: يا رسول اللّه الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا و نعله حسنا،

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۹۰

فقال: إن اللّه جميل يحبّ الجمال، الكبر بطر الحق و غمص الناس «۱»»، و فى ذمّ الكبر و مدح التواضع أحاديث كثيرة، و كذلك فى إخراج محبة حسن الثوب و حسن النعل، و نحو ذلك من الكبر أحاديث كثيرة. و الحاصل أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قد بين ماهية الكبر أنه بطر الحق و غمص الناس، فهذا هو الكبر المذموم. و قد ساق صاحب الدرّ المنثور عند تفسيره لهذه الآية؛ أعنى قوله سبحانه: إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ أحاديث كثيرة ليس هذا مقام إيرادها، بل المقام مقام ذكر ماله علاقة بتفسير الكتاب العزيز. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أن ناسا من مشركى العرب كان يقعدون بطريق من أتى نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فإذا مرّوا سألوهم فأخبروهم بما سمعوا من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا إنما هو أساطير الأوّلين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ الآية يقول يحملون مع ذنوبهم ذنوب الذى يضلونهم بغير علم و ذلك مثل قوله سبحانه: وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه، و زاد: و لا يخفف ذلك عمن أطاعهم من العذاب شيئا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قال: نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن زيد بن أسلم أنه النمروذ أيضا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ قال: أتاها أمر اللّه من أصلها فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ و السقف: أعالى البيوت فائتفكت بهم بيوتهم، فأهلكهم اللّه و دمرهم وَ أَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قال: تخالفونى.

[سورة النحل (۱۶): الآيات ۲۷ الى ۳۲]

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ وَ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ (۲۷) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۸) فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۲۹) وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَ لَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ (۳۰) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (۳۱)

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۳۲)

قوله: قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ قيل: هم العلماء قالوه لأممهم الذين كانوا يعظونهم و لا يلتفتون إلى وعظهم. و كان هذا القول منهم على طريق الشماتة؛ و قيل: هم الأنبياء، و قيل: الملائكة، و الظاهر الأوّل لأن ذكرهم بوصف العلم يفيد ذلك و إن كان الأنبياء و الملائكة هم من أهل العلم، بل هم أعرق فيه لكن لهم وصف يذكرون به هو أشرف من هذا الوصف، و هو كونهم أنبياء أو

كونهم ملائكة، و لا يقدح فى هذا

(١). (غمص الناس) و (غمط الناس) بمعنى واحد، و هو: الاستهانة بهم. انظر النهاية: غمص، غمط.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٩١

جواز الإطلاق؛ لأن المراد الاستدلال على الظهور فقط إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ أى: الذلّ و الهوان و الفضيحة يوم القيامة وَ السُّوءَ أى: العذاب عَلَى الْكافِرِينَ مختصّ بهم الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قد تقدّم تفسيره، و الموصول فى محل الجر على أنه نعت للكافرين، أو بدل منه، أو فى محل نصب على الاختصاص، أو فى محل رفع على تقدير مبتدأ، أى: هم الذين تتوفاهم، و انتصاب ظالمى أنفسهم على الحال فَأَلْقَوُا السَّلَمَ معطوف على «وَ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ» و ما بينهما اعتراض أى أقرّوا بالربوبية، و انقادوا عند الموت، و معناه الاستسلام قاله قطرب، و قيل معناه المسالمة، أى: سالموا و تركوا المشاقة قاله الأخفش؛ و قيل معناه الإسلام أى أقرّوا بالإسلام و تركوا ما كانوا فيه من الكفر، و جملة ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ يجوز أن تكون تفسيرا للسلم على أن يكون المراد بالسلم الكلام الدال عليه، و يجوز أن يكون المراد بالسوء هنا الشرك، و يكون هذا القول منهم على وجه الجحود و الكذب، و من لم يجوّز الكذب على أهل القيامة حمله على أنهم أرادوا أنهم لم يعملوا سوءا فى اعتقادهم و على حسب ظنونهم، و مثله قولهم: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ فلما قالوا هذا أجاب عليهم أهل العلم بقولهم: بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى: بلى كنتم تعملون السوء إن اللّه عليم بالذى كنتم تعملونه فمجازيكم عليه و لا ينفعكم هذا الكذب شيئا فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ أى: يقال لهم ذلك عند الموت. و قد تقدّم ذكر أبواب جهنم و أن جهنم درجات بعضها فوق بعض، و خالِدِينَ فِيها حال مقدرة لأن خلودهم مستقبل فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ المخصوص بالذم محذوف، و التقدير: لبئس مثوى المتكبرين جهنم، و المراد بتكبرهم هنا هو تكبرهم عن الإيمان و العبادة كما فى قوله: إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ «١»، ثم أتبع أوصاف الأشقياء بأوصاف السعداء، فقال: وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا و هم المؤمنون ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً أى: أنزل خيرا.

قال الثّعلبى: فإن قيل لم ارتفع الجواب فى قوله: أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ و انتصب فى قوله: خَيْراً فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل، فكأنهم قالوا الذى يقولونه محمد هو أساطير الأوّلين، و المؤمنون آمنوا بالنزول، فقالوا أنزل خيرا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ قيل: هذا من كلام اللّه عزّ و جلّ، و قيل: هو حكاية لكلام الذين اتقوا، فيكون على هذا بدلا من خيرا، و على الأوّل يكون كلاما مستأنفا مسوقا للمدح للمتقين، و المعنى: للذين أحسنوا أعمالهم فى الدنيا حسنة، أى: مثوبة حسنة وَ لَدارُ الْآخِرَةِ أى مثوبتها خَيْرٌ مما أوتوا فى الدنيا وَ لَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ دار الآخرة، فحذف المخصوص بالمدح لدلالة ما قبله عليه، و ارتفاع جَنَّاتُ عَدْنٍ على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها، أو خبر مبتدأ محذوف، و قيل: يجوز أن تكون هى المخصوص بالمدح يَدْخُلُونَها هو إما خبر المبتدأ، أو خبر بعد خبر، و على تقدير تنكير عدن تكون صفة لجنات و كذلك تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ و قيل يجوز أن تكون الجملتان فى محل نصب على الحال على تقدير أن لفظ عدن علم، و قد تقدّم معنى جرى الأنهار من تحت الجنات لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ أى: لهم فى الجنات ما تقع عليه مشيئتهم صفوا عفوا يحصل لهم بمجرّد ذلك

(١). الصافات: ٣٥.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٩٢

كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ أى مثل ذلك الجزاء يجزيهم، و المراد بالمتقين كل من يتقى الشرك و ما يوجب النار من المعاصى، و الموصول فى قوله: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ فى محل نصب نعت للمتقين المذكور قبله، قرأ الأعمش و حمزة «تتوفاهم»

فى هذا الموضع، و فى الموضع الأوّل بالياء التحتية، و قرأ الباقون بالمثناة الفوقية. و اختار القراءة الأولى أبو عبيد مستدلا بما روى عن ابن مسعود أنه قال: إن قريشا زعموا أن الملائكة إناث فذكروهم أنتم. و طيبين فيه أقوال: طاهرين من الشرك، أو الصالحين، أو زاكية أفعالهم و أقوالهم، أو طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب اللّه، أو طيبة نفوسهم بالرجوع إلى اللّه، أو طيبين الوفاة، أى: هى عليهم سهلة لا صعوبة فيها، و جملة يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ فى محل نصب على الحال من الملائكة: أى قائلين سلام عليكم؛ و معناه يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون السلام إنذارا لهم بالوفاة. الثانى أن يكون تبشيرا لهم بالجنة لأن السلام أمان. و قيل: إن الملائكة يقولون: السلام عليك ولىّ اللّه إن اللّه يقرأ عليك السلام ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى: بسبب عملكم، قيل: يحتمل هذا وجهين: الأوّل أن يكون تبشيرا بدخول الجنة عند الموت، الثانى أن يقولوا ذلك لهم فى الآخرة. و لا ينافى هذا دخول الجنة بالتفضل كما فى الحديث الصحيح: «سدّدوا و قاربوا و اعلموا أنه لن يدخل أحد الجنّة بعمله، قيل: و لا أنت يا رسول اللّه؟ قال: و لا أنا إلا أن يتغمدنى اللّه برحمته» و قد قدّمنا البحث عن هذا.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا قال: هؤلاء المؤمنون، يقال لهم: ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ فيقولون: خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا أى: آمنوا باللّه و كتبه و أمروا بطاعته و حثوا عباد اللّه على الخير و دعوهم إليه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ قال: أحياء و أمواتا قدّر اللّه لهم ذلك.

[سورة النحل (۱۶): الآيات ۳۳ الى ۴۰]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۳۳) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۳۴) وَ قالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۳۵) وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۳۶) إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (۳۷)

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۳۸) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ (۳۹) إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۴۰)

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۹۳

قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ الآية هذا جواب شبهة أخرى لمنكرى النبوّة، فإنهم طلبوا من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن ينزل عليهم ملكا من السماء يشهد على صدقه فى ادّعاء النبوّة، فقال: هل ينظرون فى تصديق نبوتك إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ شاهدين بذلك، و يحتمل أن يقال: إنهم لما طعنوا فى القرآن بأنه أساطير الأوّلين أوعدهم اللّه بقوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ لقبض أرواحهم أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ أى: عذابه فى الدنيا المستأصل لهم، أو المراد بأمر اللّه القيامة. و قرأ الأعمش و ابن وثّاب و حمزة و الكسائى و خلف «إلا أن يأتيهم الملائكة» بالياء التحتية و قرأ الباقون بالمثناة الفوقية؛ و المراد بكونهم ينظرون- أى: ينتظرون إتيان الملائكة، أو إتيان أمر اللّه على التفسير الآخر- أنهم قد فعلوا فعل من وجب عليه العذاب و صار منتظرا له، و ليس المراد أنهم ينتظرون ذلك حقيقة، فإنهم لا يؤمنون بذلك و لا يصدّقونه كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: مثل فعل هؤلاء من الإصرار على الكفر و التكذيب و الاستهزاء؛ فعل الذين خلوا من قبلهم من طوائف الكفار، فأتاهم أمر اللّه فهلكوا وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ بتدميرهم بالعذاب فإنه أنزل بهم ما استحقّوه بكفرهم وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بما ارتكبوه من القبائح، و فيه أن ظلمهم

مقصور عليهم باعتبار ما إليه يؤول، و جملة فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا معطوفة على فعل الذين من قبلهم، و ما بينهما اعتراض؛ و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: كذلك فعل الذين من قبلهم، فأصابهم سيئات ما عملوا و ما ظلمهم اللّه، و المعنى: فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم، أو جزاء أعمالهم السيئة وَ حاقَ بِهِمْ أى: نزل بهم على وجه الإحاطة ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى: العذاب الذى كانوا به يستهزئون أو عقاب استهزائهم وَ قالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا هذا نوع آخر من كفرهم الذى حكاه اللّه عنهم، و المراد بالذين أشركوا هنا أهل مكة لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْ‌ءٍ أى: لو شاء عدم عبادتنا لشى‌ء غيره ما عبدنا ذلك نَحْنُ وَ لا آباؤُنا الذين كانوا على ما نحن عليه الآن من دين الكفر و الشرك باللّه. قال الزجاج: إنهم قالوا هذا على جهة الاستهزاء، و لو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين، و قد مضى الكلام على مثل هذا فى سورة الأنعام وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْ‌ءٍ من السوائب و البحائر و نحوهما، و مقصودهم بهذا القول المعلّق بالمشيئة الطعن فى الرسالة، أى: لو كان ما قاله الرسول حقا من المنع من عبادة غير اللّه، و المنع من تحريم ما لم يحرّمه اللّه، حاكيا ذلك عن اللّه لم يقع منا ما يخالف ما أراده منا فإنه قد شاء ذلك، و ما شاءه كان و ما لم يشأه لم يكن، فلما وقع منا العبادة لغيره و تحريم ما لم يحرمه؛ كان ذلك دليلا على أن ذلك هو المطابق لمراده و الموافق لمشيئته، مع أنهم فى الحقيقة لا يعترفون بذلك و لا يقرّون به، لكنهم قصدوا ما ذكرنا من الطعن على الرسل كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من طوائف الكفر فإنهم أشركوا باللّه، و حرّموا ما لم يحرمه، و جادلوا رسله بالباطل، و استهزءوا بهم، ثم قال: فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ الذين يرسلهم اللّه إلى عباده بما شرعه لهم من شرائعه التى رأسها توحيده، و ترك الشرك به إِلَّا الْبَلاغُ إلى من أرسلوا إليهم بما أمروا بتبليغه بلاغا واضحا يفهمه المرسل إليهم و لا يلتبس عليهم، ثم إنه سبحانه أكّد هذا و زاده إيضاحا فقال: وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا كما بعثنا فى هؤلاء لإقامة الحجة عليهم، وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا «١»،

---

(١). الإسراء: ١٥.

و «أن» فى قوله: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ إما مصدرية، أى: بعثنا بأن اعبدوا اللّه، أو مفسرة لأن فى البعث معنى القول وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ أى: اتركوا كلّ معبود دون اللّه كالشيطان و الكاهن و الصنم و كلّ من دعا إلى الضلال فَمِنْهُمْ أى: من هذه الأمم التى بعث اللّه إليها رسله مَنْ هَدَى اللَّهُ أى: أرشده إلى دينه و توحيده و عبادته و اجتناب الطاغوت وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ أى: وجبت و ثبتت لإصراره على الكفر و العناد. قال الزّجّاج: أعلم اللّه أنه بعث الرسل بالأمر بالعبادة، و هو من وراء الإضلال و الهداية، و مثل هذه الآية قوله تعالى: فَرِيقاً هَدى وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ «١». و فى هذه الآية التصريح بأن اللّه أمر جميع عباده بعبادته، و اجتناب الشيطان و كل ما يدعو إلى الضلال، و أنهم بعد ذلك فريقان فمنهم من هدى و منهم من حقّت عليه الضلالة، فكان فى ذلك دليل على أن أمر اللّه سبحانه لا يستلزم موافقة إرادته فإنه يأمر الكل بالإيمان، و لا يريد الهداية إلا للبعض، إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد، و هذا معنى ما حكيناه عن الزجّاج هنا فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ سير معتبرين فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ من الأمم السابقة عند مشاهدتكم لآثارهم كعاد و ثمود، أى: كيف صار آخر أمرهم إلى خراب الديار بعد هلاك الأبدان بالعذاب، ثم خصّص الخطاب برسوله صلّى اللّه عليه و سلّم مؤكدا لما تقدّم، فقال: إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ أى: تطلب بجهدك ذلك فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ قرأ ابن مسعود و أهل الكوفة «لا يَهْدِي» بفتح حرف المضارعة على أنه فعل مستقبل مسند إلى اللّه سبحانه، أى: فإن اللّه لا يرشد من أضله، و «مَنْ» فى موضع نصب على المفعولية. و قرأ الباقون «لا يهدى» بضم حرف المضارعة على أنه مبنى للمجهول «٢»، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم على معنى أنه لا يهديه هاد كائنا من كان، و «مَنْ» فى

موضع رفع على أنها نائب الفاعل المحذوف، فتكون هذه الآية على هذه القراءة كقوله فى الآية الأخرى: مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ «٣»، و العائد على القراءتين محذوف، أى: من يضله. و روى أبو عبيد عن الفراء على القراءة الأولى أن معنى لا يَهْدِي لا يهتدى، كقوله تعالى: أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى «٤»، بمعنى يهتدى. قال أبو عبيد: و لا نعلم أحدا روى هذا غير الفراء، و ليس بمتهم فيما يحكيه. قال النحّاس: حكى عن محمد بن يزيد المبرّد:

كأن معنى لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ من علم ذلك منه و سبق له عنده وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ ينصرونهم على الهداية لمن أضله اللّه أو ينصرونهم بدفع العذاب عنهم؛ ثم ذكر عناد قريش و إنكارهم للبعث فقال:

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ مصدر فى موضع الحال؛ أى: جاهدين لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ من عباده، زعموا أن اللّه سبحانه عاجز عن بعث الأموات، فردّ اللّه عليهم ذلك بقوله: بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا هذا إثبات لما بعد النفى، أى: بلى يبعثهم، و «وَعْداً» مصدر مؤكد لما دلّ عليه بلى و هو يبعثهم؛ لأن البعث وعد من اللّه وعد عباده به، و التقدير: وعد البعث وعدا عليه حقا لا خلف فيه، و حقا صفة لوعد، و كذا «عَلَيْهِ» فإنه صفة لوعد، أى: كائنا عليه، أو نصب حقا على المصدرية، أى: حق حقا

---

(١). الأعراف: ٣٠.

(٢). يراجع فى ذلك زاد المسير (٤/ ٤٤٦)

(٣). الأعراف: ١٨٦.

(٤). يونس: ٣٥.

وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أن ذلك يسير عليه سبحانه غير عسير. و قوله: لِيُبَيِّنَ لَهُمُ أى:

ليظهر لهم، و هو غاية لما دلّ عليه بلى من البعث، و الضمير فى لَهُمُ راجع إلى من يموت، و الموصول فى قوله: الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ فى محل نصب على أنه مفعول ليبين، أى: الأمر الذى وقع الخلاف بينهم فيه، و بيانه إذ ذاك يكون بما جاءتهم به الرسل، و نزلت عليهم فيه كتب اللّه؛ و قيل: إن ليبين متعلّق بقوله:

وَ لَقَدْ بَعَثْنا أى: بعثنا فى كلّ أمة رسولا ليبيّن، و هو بعيد وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا باللّه سبحانه و أنكروا البعث أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ فى جدالهم و إنكارهم البعث بقولهم: لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ و جملة إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْ‏ءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ مستأنفة لبيان كيفية الإبداء و الإعادة بعد بيان سهولة البعث عليه سبحانه. قال الزجّاج: أعلمهم بسهولة خلق الأشياء عليه، فأخبر أنه متى أراد الشى‏ء كان، و هذا كقوله: وَ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «١»، و قرأ ابن عامر و الكسائى «فيكون» بالنصب عطفا على أن نقول. قال الزجّاج: يجوز أن يكون نصبا على جواب كن. و قرأ الباقون بالرفع على معنى: فهو يكون. قال ابن الأنبارى: أوقع لفظ الشى‏ء على المعلوم عند اللّه تعالى قبل الخلق؛ لأنه بمنزلة ما قد وجد و شوهد. و قال الزجّاج: إن معنى «لشى‏ء» لأجل شى‏ء، فجعل اللام سببية؛ و قيل: هى لام التبليغ، كما فى قولك: قلت له قم فقام، و إِنَّما قَوْلُنا مبتدأ و أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ خبره، و هذا الكلام من باب التمثيل على معنى: أنه لا يمتنع عليه شى‏ء، و أن وجوده عند إرادته كوجود المأمورية عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع، و ليس هناك قول و لا مقول له، و لا أمر و لا مأمور، حتى يقال إنه يلزم منه أحد محالين: إما خطاب المعدوم، أو تحصيل لحاصل. و قد مضى تفسير ذلك فى سورة البقرة مستوفى.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ قال: بالموت، و قال فى آية أخرى: وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ «٢» و هو ملك الموت، و له رسل أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ و

ذاكم يوم القيامة. و أخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه.

و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ قال: من يضله اللّه لا يهديه أحد. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين، فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به: و الذى أرجوه بعد الموت إنه لكذا و كذا، فقال له المشرك: إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت، فأقسم باللّه جهد يمينه لا يبعث اللّه من يموت، فأنزل اللّه وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ الآية. و أخرج ابن العقيلى و ابن مردويه عن علىّ فى قوله: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ قال: نزلت فىّ «٣» .... و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن المنذر عن أبى هريرة قال: قال اللّه تعالى: سبّنى ابن آدم و لم يكن ينبغى له أن يسبنى، و كذبنى

---

(١). البقرة: ١١٧.

(٢). الأنفال: ٥٠.

(٣). كذا فى الدر المنثور.

و لم يكن ينبغى له أن يكذبنى، أما تكذيبه إياى فقال: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ و قلت: بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا و أما سبّه إياى، فقال: إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ، و قلت: هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ. وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ هكذا ذكره أبو هريرة موقوفا، و هو فى الصحيحين مرفوعا بلفظ آخر. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ يقول: للناس عامة.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٤١ الى ٥٠]

وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَ فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥)

أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٤٧) أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَ هُمْ داخِرُونَ (٤٨) وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَ الْمَلائِكَةُ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (٥٠)

قد تقدّم تحقيق معنى الهجرة فى سورة النساء، و هى ترك الأهل و الأوطان، و معنى هاجَرُوا فِي اللَّهِ فى شأن اللّه سبحانه و فى رضاه، و قيل: فِي اللَّهِ فى دين اللّه، و قيل: «فى» بمعنى اللام، أى: للّه مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا أى: عذّبوا و أهينوا، فإنّ أهل مكة عذّبوا جماعة من المسلمين حتى قالوا ما أرادوا منهم، فلما تركوهم هاجروا. و قد اختلف فى سبب نزول الآية، فقيل: نزلت فى صهيب و بلال و خبّاب و عمار.

و اعترض بأن السورة مكية، و ذلك يخالف قوله: وَ الَّذِينَ هاجَرُوا. و أجيب بأنه يمكن أن تكون هذه الآية من جملة الآيات المدنية فى هذه السورة كما قدّمنا فى عنوانها، و قيل: نزلت فى أبى جندل بن سهيل، و قيل: نزلت فى أصحاب محمد صلّى اللّه

عليه و سلّم لما ظلمهم المشركون بمكة و أخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً.

اختلف فى معنى هذا على أقوال؛ فقيل: المراد نزولهم المدينة قاله ابن عباس و الحسن و الشعبى و قتادة؛ و قيل: المراد الرزق الحسن؛ قاله مجاهد؛ و قيل: النصر على عدوّهم؛ قاله الضحّاك: و قيل: ما استولوا عليه من فتوح البلاد و صار لهم فيها من الولايات؛ و قيل: ما بقى لهم فيها من الثناء و صار لأولادهم من الشرف.

و لا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور؛ و معنى لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً لنبوّئنهم مباءة حسنة أو تبوئة حسنة، فحسنة صفة مصدر محذوف وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أى: جزاء أعمالهم فى الآخرة أَكْبَرُ من أن يعلمه أحد من خلق اللّه قبل أن يشاهده، و منه قوله تعالى: وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً

فتح القدير، ج٣، ص: ١٩٧

كَبِيراً «١». لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ أى: لو كان هؤلاء الظلمة يعلمون ذلك، و قيل: إن الضمير فى يَعْلَمُونَ راجع إلى المؤمنين، أى: لو رأوا ثواب الآخرة و عاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا الَّذِينَ صَبَرُوا الموصول فى محل نصب على المدح، أو الرفع على تقدير مبتدأ، أو هو بدل من الموصول الأوّل، أو من الضمير فى «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ» وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ أى: على ربهم خاصّة يتوكلون فى جميع أمورهم معرضين عمّا سواه، و الجملة معطوفة على الصلة، أو فى محل نصب على الحال وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ قرأ حفص عن عاصم «نوحى» بالنون، و قرأ الباقون «يوحى» بالياء التحتية، و هذه الآية ردّ على قريش حيث زعموا أن اللّه سبحانه أجلّ من أن يرسل رسولا من البشر، فردّ اللّه عليهم بأن هذه عادته و سنته أن لا يرسل إلا رجالا من البشر يوحى إليهم. و زعم أبو علىّ الجبائى أن معنى الآية أن اللّه سبحانه لم يرسل إلى الأنبياء بوحيه إلا من هو على صورة الرجال من الملائكة. و يردّ عليه بأن جبريل كان يأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على صورة مختلفة، و لما كان كفار مكة مقرّين بأن اليهود و النصارى هم أهل العلم بما أنزل اللّه فى التوراة و الإنجيل، صرف الخطاب إليهم، و أمرهم أن يرجعوا إلى أهل الكتاب، فقال: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ أى: فاسألوا أيها المشركون مؤمنى أهل الكتاب إن كنتم لا تعلمون؛ فإنهم سيخبروكم أن جميع الأنبياء كانوا بشرا، أو اسألوا أهل الكتاب من غير تقييد بمؤمنيهم كما يفيده الظاهر فإنهم كانوا يعترفون بذلك و لا يكتمونه؛ و قيل: المعنى: فاسألوا أهل القرآن، و بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ يتعلّق بأرسلنا، فيكون داخلا فى حكم الاستثناء مع رجالا، و أنكر الفرّاء ذلك، و قال: إن صلة ما قبل إلا لا تتأخر إلى ما بعدها، لأن المستثنى منه هو مجموع ما قبل إلا مع صلته، كما لو قيل: أرسلنا إلا رجالا بالبينات، فلما لم يصر هذا المجموع مذكورا بتمامه امتنع إدخال الاستثناء عليه؛ و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: و ما أرسلنا من قبلك بالبينات و الزبر إلا رجالا؛ و قيل: يتعلّق بمحذوف دل عليه المذكور، أى: أرسلناهم بالبينات و الزّبر، و يكون جوابا عن سؤال مقدّر كأنه قيل: لما ذا أرسلهم؟ فقال: أرسلناهم بالبينات و الزبر؛ و قيل: متعلّق بتعلمون على أنه مفعوله و الباء زائدة، أى: إن كنتم لا تعلمون بالبينات و الزبر، و قيل: متعلق برجالا، أى: رجالا متلبسين بالبينات و الزبر؛ و قيل: بنوحى، أى: نوحى إليهم بالبينات و الزبر؛ و قيل: منصوب بتقدير أعنى، و الباء زائدة، و أهل الذكر هم أهل الكتاب كما تقدّم. و قال الزجّاج: اسألوا كل من يذكر بعلم، و البينات: الحجج و البراهين، و الزّبر: الكتب. و قد تقدّم الكلام على هذا فى آل عمران وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ أى: القرآن، ثم بيّن الغاية المطلوبة من الإنزال، فقال: لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ جميعا ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ فى هذا الذكر من الأحكام الشرعية و الوعد و الوعيد وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ أى: إرادة أن يتأملوا و يعملوا أفكارهم فيتّعظوا أَ فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ يحتمل أن تكون السيئات صفة مصدر محذوف، أى: مكروا المكرات السيئات، و أن تكون مفعولة للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل، أى: عملوا السيئات، أو صفة لمفعول مقدّر، أى: أ فأمن الماكرون العقوبات السيئات، أو على حذف حرف الجرّ،

(۱). الإنسان: ۲۰.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۹۸

أی: مكروا بالسيئات أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ هو مفعول أمن، أو بدل من مفعوله على القول بأن مفعوله محذوف، و أن السيئات صفة للمحذوف، و الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و مكر السيئات: سعيهم فی إيذاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و إيذاء أصحابه على وجه الخفية، و احتيالهم فی إبطال الإسلام، و كيد أهله أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ كما خسف بقارون، يقال: خسف المكان يخسف خسوفا؛ ذهب فی الأرض، و خسف اللّه به الأرض خسوفا، أی: غاب به فيها، و منه قوله: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ «۱»، و خسف هو فی الأرض و خسف به أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ به فی حال غفلتهم عنه كما فعل بقوم لوط و غيرهم، و قيل: يريد يوم بدر فإنهم أهلكوا ذلک اليوم و لم يكن فی حسبانهم. أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِی تَقَلُّبِهِمْ ذكر المفسرون فيه وجوها؛ فقيل: المراد فی أسفارهم و متاجرهم، فإنه سبحانه قادر على أن يهلكهم فی السفر كما يهلكهم فی الحضر، و هم لا يفوتونه بسبب ضربهم فی الأرض، و بعدهم عن الأوطان؛ و قيل: المراد فی حال تقلّبهم فی قضاء أو طارهم بوجود الحيل، فيحول اللّه بينهم و بين مقاصدهم و حيلهم؛ و قيل: فی حال تقلّبهم فی الليل على فرشهم، و قيل: فی حال إقبالهم و إدبارهم، و ذهابهم و مجيئهم بالليل و النهار، و القلب بالمعنى الأوّل مأخوذ من قوله: لا يَغُرَّنَّکَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِی الْبِلادِ «۲»، و بالمعنى الثانی مأخوذ من قوله:

وَ قَلَّبُوا لَکَ الْأُمُورَ «۳». فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ أی: بفائتين و لا ممتنعين أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ أی: حال تخوّف و توقع للبلايا بأن يكونوا متوقعين للعذاب حذرين منه غير غافلين عنه، فهو خلاف ما تقدّم من قوله: أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ و قيل: معنى «على تخوّف»: على تنقص. قال ابن الأعرابی، أی: على تنقص من الأموال و الأنفس و الثمرات حتى أهلكهم. قال الواحدی: قال عامّة المفسّرين: على تخوّف، قال: تنقّص؛ إما بقتل أو بموت، يعنی بنقص من أطرافهم و نواحيهم يأخذهم الأوّل فالأوّل حتى يأتی الأخذ على جميعهم. قال: و التخوّف التنقص، يقال: هو يتخوف المال؛ أی: يتنقصه، و يأخذ من أطرافه، انتهى. يقال: تخوّفه الدهر و تخونه بالفاء و النون: تنقصه، قال ذو الرّمة:

لا بل هو الشّوق من دار تخوّنهامرّا سحاب و مرّا بارح «۴» ترب

و قال لبيد:

....

تخوّنها نزولی و ارتحالی «۵» أی: تنقص لحمها و شحمها. قال الهيثم بن عدیّ: التخوّف، بالفاء، التنقص لغة لأزد شنوءة، و أنشد:

تخوّف غدرهم مالی و أهدیسلاسل فی الحلوق لها صليل

(۱). القصص: ۸۱.

(۲). آل عمران: ۱۹۶.

(۳). التوبة: ۴۸.

(۴). «البارح»: الريح الحارة فی الصيف التی فيها تراب كثير.

(۵). هذا عجز البيت، و صدره كما فی اللسان: عذافرة تقمّص بالرّدافی.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۹۹

و قيل: على تخوف: على تعجل، قاله الليث بن سعد، و قيل: على تقريع بما قدّموه من ذنوبهم، روى ذلك عن ابن عباس؛ و قيل: على تخوّف: أن يعاقب و يتجاوز، قاله قتادة فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ لا يعاجل، بل يمهل رأفة بكم و رحمة لكم مع استحقاقكم «۱» للعقوبة أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‌ءٍ لما خوّف سبحانه الماكرين بما خوّف أتبعه ذكر ما يدل على كمال قدرته فى تدبير أحوال العالم العلوى و السفلى و مكانهما، و الاستفهام فى أَ وَ لَمْ يَرَوْا للإنكار، و «ما» مبهمة مفسرة بقوله: مِنْ شَيْ‌ءٍ، قرأ حمزة و الكسائى و خلف و يحيى بن وثاب و الأعمش «تروا» بالمثناة الفوقية على أنه خطاب لجميع الناس، و قرأ الباقون بالتحتية بإرجاع الضمير إلى الذين مكروا السيئات. و قرأ أبو عمرو و يعقوب تتفيؤا ظلاله بالمثناة الفوقية. و قرأ الباقون بالتحتية، و اختارها أبو عبيد، أى: يميل من جانب إلى جانب، و يكون أوّل النهار على حال و يتقلّص، ثم يعود فى آخر النهار على حالة أخرى. قال الأزهرى: تفيؤ الظلال: رجوعها بعد انتصاف النهار، فالتفيؤ لا يكون إلا بالعشىّ و ما انصرف عنه الشمس و القمر، و الذى يكون بالغداة هو الظلّ. و قال ثعلب: أخبرت عن أبى عبيدة أن رؤبة قال: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فىء، و ما لم تكن عليه الشمس فهو ظلّ؛ و معنى مِنْ شَيْ‌ءٍ من شىء له ظلّ، و هى الأجسام، فهو عام أريد به الخاص، و ظلاله: جمع ظلّ، و هو مضاف إلى مفرد؛ لأنه واحد يراد به الكثرة عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمائِلِ أى: عن جهة أيمانها و شمائلها، أى: عن جانبى كل واحد منها. قال الفراء: وحّد اليمين؛ لأنه أراد واحدا من ذوات الأظلال، و جمع الشمائل لأنه أراد كلّها، لأن ما خلق اللّه لفظه مفرد و معناه جمع. و قال الواحدى: وحّد اليمين و المراد به الجميع إيجازا فى اللفظ كقوله: وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ، و دلّت الشمائل على أن المراد به الجمع؛ و قيل: إن العرب إذا ذكرت صيغتى جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله: وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ «۲»، و: خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ «۳»؛ و قيل: المراد باليمين: النقطة التى هى مشرق الشمس، و أنها واحدة. و الشمائل: عبارة عن الانحراف فى فلك الإظلال بعد وقوعها على الأرض و هى كثيرة، و إنما عبّر عن المشرق باليمين لأن أقوى جانبى الإنسان يمينه، و منه تظهر الحركة القوية سُجَّداً لِلَّهِ منتصب على الحال، أى: حال كون الظلال سجدا للّه. قال الزجّاج: يعنى أن هذه الأشياء مجبولة على الطاعة.

و قال أيضا: سجود الجسم انقياده و ما يرى من أثر الصنعة وَ هُمْ داخِرُونَ فى محل نصب على الحال، أى: خاضعون صاغرون، و الدّخور: الصغار و الذلّ، يقال: دخر الرجل فهو داخر، و أدخره اللّه. قال الشاعر «۴»:

فلم يبق إلّا داخر فى مخيّس و منجحر فى غير أرضك فى جحر

و مخيس: اسم سجن كان بالعراق. وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ أى:

---

(۱). فى المطبوع: (استحقاقهم) و الصواب ما أثبتناه.

(۲). الأنعام: ۱.

(۳). البقرة: ۷.

(۴). نسبه الجوهرى للفرزدق.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۰۰

فتح القدير ج۳ ۲۴۹

له وحده يخضع و ينقاد لا لغيره ما فى السموات جميعا، و ما فى الأرض من دابة تدبّ على الأرض، و المراد به كلّ دابة. قال الأخفش: هو كقولك ما أتانى من رجل مثله، و ما أتانى من الرجال مثله. و قد دخل فى عموم ما فى السموات و ما فى الأرض جميع الأشياء الموجودة فيهما، و إنما خصّ الدابة بالذكر لأنه قد علم من قوله: أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‌ءٍ انقياد

الجمادات، و عطف الملائكة على ما قبلهم تشريفا لهم، و تعظيما لدخولهم فى المعطوف عليه وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ أى: و الحال أنهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم و المراد الملائكة؛ و يحتمل أن تكون الجملة مستأنفة. و فى هذا ردّ على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات اللّه، و يجوز أن تكون حالا من فاعل يسجد و ما عطف عليه، أى: يسجد للّه ما فى السموات و ما فى الأرض و الملائكة و هم جميعا لا يستكبرون عن السجود يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ هذه الجملة فى محل نصب على الحال، أى: حال كونهم يخافون ربهم من فوقهم، أو جملة مستأنفة لبيان نفى استكبارهم، و من آثار الخوف عدم الاستكبار، و من فوقهم متعلق بيخافون على حذف مضاف، أى: يخافون عذاب ربهم من فوقهم، أو يكون حالا من الربّ، أى: يخافون ربهم حال كونه من فوقهم، و قيل: معنى يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ يخافون الملائكة فيكون على حذف المضاف، أى: يخافون ملائكة ربهم كائنين من فوقهم، و هو تكلّف لا حاجة إليه، و إنما اقتضى مثل هذه التأويلات البعيدة المحماة على مذاهب قد رسخت فى الأذهان، و تقرّرت فى القلوب، قيل: و هذه المخافة هى مخافة الإجلال، و اختاره الزجّاج فقال: يَخافُونَ رَبَّهُمْ خوف مجلّين، و يدلّ على صحة هذا المعنى قوله: وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ* «۱»، و قوله إخبارا عن فرعون:

وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ «۲». وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ أى: ما يؤمرون به من طاعة اللّه، يعنى الملائكة، أو جميع من تقدّم ذكره، و حمل هذه الجمل على الملائكة أولى؛ لأن فى مخلوقات اللّه من يستكبر عن عباده، و لا يخافه و لا يفعل ما يؤمر به، كالكفار و العصاة الذين لا يتّصفون بهذه الصفات و إبليس و جنوده.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا قال: هم قوم من أهل مكة هاجروا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعد ظلمهم. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن عساكر عن داود بن أبى هند قال: نزلت هذه الآية فى أبى جندل بن سهيل.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ الآية قال: هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة، فأخرجوهم من ديارهم، حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة، ثم بوّأهم اللّه المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة، و جعل لهم أنصارا من المؤمنين وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ قال: إى و اللّه لما يصيبهم اللّه من جنته و نعمته أكبر لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ و أخرج ابن جرير المنذر عن الشعبى فى قوله: فِي الدُّنْيا حَسَنَةً قال: المدينة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال: لنرزقنهم فى الدنيا رزقا حسنا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم

---

(۱). الأنعام: ۶۱.

(۲). الأعراف: ۱۲۷.

عن ابن عباس قال: لما بعث اللّه محمدا رسولا أنكرت العرب ذلك، فأنزل اللّه وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى قوله: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ الآية، يعنى: مشركى قريش أن محمدا رسول اللّه فى التوراة و الإنجيل. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: نزلت فى عبد اللّه بن سلام و نفر من أهل التوراة.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: بِالْبَيِّناتِ قال: الآيات وَ الزُّبُرِ قال: الكتب. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: أَ فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ قال: نمروذ بن كنعان و قومه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال:

أى: الشرك. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضّحاك قال: تكذيبهم الرسل، و إعمالهم بالمعاصى.
و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ قال: فى اختلافهم.
و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فِي تَقَلُّبِهِمْ قال: إن شئت أخذته فى سفره أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ يقول: على أثر موت صاحبه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا عَلى تَخَوُّفٍ قال: تنقّص من أعمالهم. و أخرج ابن جرير عن عمر أنه سألهم عن هذه الآية أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فقالوا: ما نرى إلا أنه عند تنقص ما يردّده من الآيات، فقال عمر: ما أرى إلا أنه على ما يتنقصون من معاصى اللّه، فخرج رجل ممن كان عند عمر فلقى أعرابيا، فقال: يا فلان، ما فعل ربك؟ قال: قد تخيفته، يعنى انتقصته، فرجع إلى عمر فأخبره، فقال: قد رأيته ذلك. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ قال: يأخذهم بنقص بعضهم بعضا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يَتَفَيَّؤُا قال: يتميل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ هُمْ داخِرُونَ قال: صاغرون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ الآية قال: لم يدع شيئا من خلقه إلا عبده له طائعا أو كارها. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال: يسجد من فى السّموات طوعا، و من فى الأرض طوعا و كرها.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٥١ الى ٦٢]

وَ قالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَ ما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)
وَ يَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ (٥٧) وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)
وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢)

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٠٢

لما بيّن سبحانه أن مخلوقاته السماوية و الأرضية منقادة له، خاضعة لجلاله، أتبع ذلك بالنهى عن الشرك بقوله: وَ قالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فنهى سبحانه عن اتّخاذ إلهين، ثم أثبت أن الإلهية منحصرة فى إله واحد و هو اللّه سبحانه؛ و قد قيل: إنّ التثنية فى إلهين قد دلّت على الاثنينية، و الإفراد فى إله قد دلّ على الوحدة، فما وجه وصف إلهين باثنين، و وصف إله بواحد؟ فقيل فى الجواب: إن فى الكلام تقديما و تأخيرا، و التقدير: لا تتخذوا اثنين إلهين إنما هو واحد إله، و قيل: إن التكرير لأجل المبالغة فى التنفير عن اتخاذ الشريك؛ و قيل: إن فائدة زيادة اثنين هى أن يعلم أن النهى راجع إلى التعدّد لا إلى الجنسية، و فائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد إثبات الإلهية دون الواحدية، مع أن الإلهية له سبحانه مسلمة فى نفسها، و إنما خلاف المشركين فى الواحدية، ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة إلى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب، فقال: فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ أى: إن كنتم راهبين شيئا فإياى فارهبون لا غيرى، و قد مرّ مثل هذا فى أوّل البقرة. ثم لما قرّر سبحانه وحدانيته، و أنه الذى يجب أن يخصّ بالرهبة منه و الرغبة إليه، ذكر أن الكلّ فى ملكه و تحت تصرّفه فقال: وَ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و هذه الجملة مقررة لمن تقدّم فى قوله: وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ إلى آخره، و تقديم الخبر لإفادة الاختصاص

وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً أی: ثابتا واجبا دائما لا يزول، و الدين: هو الطاعة و الإخلاص. قال الفراء: واصِباً معناه دائما، و منه قول الدّؤلی:

أبتغی الحمد القليل بقاؤهبذمّ يكون الدّهر أجمع واصبا

أی: دائما. و روی عن الفراء أيضا أنه قال: الواصب: الخالص، و الأوّل أولی، و منه قوله سبحانه:

وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ «۱» أی: دائم. و قال الزجّاج: أی: طاعته واجبة أبدا. ففسّر الواصب بالواجب.

و قال ابن قتيبة فی تفسير الواصب: أی: ليس أحد يطاع إلا انقطع ذلک بزوال أو بهلكة غير اللّه تعالی فإن الطاعة تدوم له، ففسّر الواصب بالدائم، و إذا دام الشیء دواما لا ينقطع فقد وجب و ثبت، يقال وصب الشیء يصب وصوبا فهو واصب؛ إذا دام، و وصب الرجل علی الأمر؛ إذا واظب عليه؛ و قيل: الوصب التعب و الإعياء، أی: يجب طاعة اللّه سبحانه و إن تعب العبد فيها و هو غير مناسب لما فی الآية، و الاستفهام فی قوله: أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ للتقريع و التوبيخ، و هو معطوف علی مقدّر كما فی نظائره، و المعنی: إذا كان الدين، أی: الطاعة واجبا له دائما لا ينقطع؛ كان المناسب لذلک تخصيص التقوی به و عدم إيقاعها لغيره. ثم امتنّ سبحانه عليهم بأن جميع ما هم متقلبون فيه من النعم هو منه لا من غيره فقال: وَ ما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ أی: ما يلابسكم من النعم علی اختلاف أنواعها فمن اللّه: أی فهی منه، فتكون ما شرطية، و يجوز أن تكون موصولة متضمّنة معنی الشرط، و بكم صلتها، و من نعمة حال من الضمير فی الجار و المجرور،

---

(۱). الصافات: ۹.

أو بيان لما. و قوله: فَمِنَ اللَّهِ الخبر، و علی كون ما شرطية يكون فعل الشرط محذوفا أی: ما يكن، و النعمة إما دينية و هی معرفة الحق لذاته و معرفة الخير لأجل العمل به، و إما دنيوية نفسانية، أو بدنية أو خارجية كالسعادات المالية و غيرها، و كلّ واحدة من هذه جنس تحته أنواع لا حصر لها، و الكل من اللّه سبحانه فعلی العاقل أن لا يشكر إلا إياه، ثم بيّن تلوّن الإنسان بعد استغراقه فی بحر النعم فقال: ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ أی: إذا مسكم الضرّ، أیّ مس، فإلی اللّه سبحانه لا إلی غيره تتضرّعون فی كشفه فلا كاشف له إلا هو، يقال: جأر يجأر جؤارا: إذا رفع صوته فی تضرع. قال الأعشی «۱» يصف بقرة:

فطافت ثلاثا بين يوم و ليلةو كان النّكير أن تضيف «۲» و تجأرا

و الضرّ: المرض و البلاء و الحاجة و القحط، و كلّ ما يتضرّر به الإنسان ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ أی: إذا رفع عنكم ما نزل بكم من الضرّ إِذا فَرِيقٌ أی: جماعة منكم بِرَبِّهِمْ الذی رفع الضر عنهم يشركون فيجعلون معه إلها آخر من صنم أو نحوه، و الآية مسوقة للتعجيب من فعل هؤلاء حيث يضعون الإشراک باللّه الذی أنعم عليهم بكشف ما نزل بهم من الضرّ مكان الشكر له، و هذا المعنی قد تقدّم فی الأنعام و يونس، و يأتی فی سبحان «۳». قال الزجّاج: هذا خاص بمن و كفر.

و قابل كشف الضرّ عنه بالجحود و الكفر، و علی هذا فتكون «من» فی «مِنْكُمْ» للتبعيض حيث كان الخطاب للناس جميعا، و الفريق هم الكفرة و إن كان الخطاب موجها إلی الكفار فمن للبيان، و اللام فی لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ لام كی، أی: لكی يكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضرّ، و حتی كأن هذا الكفر منهم الواقع فی موضع الشكر الواجب عليهم غرض لهم و مقصد من مقاصدهم، و هذا غاية فی العتوّ و العناد ليس وراءها غاية؛ و قيل: اللام للعاقبة، يعنی: ما كانت عاقبة تلک التضرعات إلا هذا الكفر. ثم قال سبحانه علی سبيل التهديد و الترهيب ملتفتا من الغيبة إلی الخطاب فَتَمَتَّعُوا بما أنتم فيه من ذلک فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عاقبة أمركم و ما يحل بكم فی هذه الدار و ما تصيرون إليه فی الدار الآخرة. ثم حكی سبحانه نوعا آخر من قبائح أعمالهم فقال: وَ يَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ أی: يقع منهم هذا الجعل بعد ما وقع منهم الجؤار إلی اللّه سبحانه فی كشف الضرّ

عنهم و ما يعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله و الإشراك به، و مع ذلك يجعلون لما لا يعلمون حقيقته من الجمادات و الشياطين نصيبا مما رزقناهم من أموالهم يتقرّبون به إليه. و قيل: المعنى: أنهم، أى: الكفار، يجعلون للأصنام و هم لا يعلمون شيئا لكونهم جمادات، ففاعل يعلمون على هذا هى الأصنام، و أجراها مجرى العقلاء فى جمعها بالواو و النون جريا على اعتقاد الكفار فيها.

و حاصل المعنى: و يجعل هؤلاء الكفار للأصنام التى لا تعقل شيئا نصيبا من أموالهم التى رزقهم اللّه إياها

---

(۱). الذى فى اللسان مادة «ضيف» أنه النابغة الجعدى.

(۲). فى المطبوع: تطيف، و التصحيح من اللسان و تفسير القرطبى (۱۰/ ۱۱۵). «تضيف»: تشفق و تحذر.

«النكير»: الإنكار. «تجأر»: تصيح.

(۳). أى: فى سورة الإسراء.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۰۴

تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب، و هذا السؤال سؤال تقريع و توبيخ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ تختلقونه من الكذب على اللّه سبحانه فى الدنيا وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ هذا نوع آخر من فضائحه و قبائحهم، و قد كانت خزاعة و كنانة تقول: الملائكة بنات اللّه سُبْحانَهُ نزّه سبحانه نفسه عما نسبه إليه هؤلاء الجفاة الذين لا عقول لهم صحيحة و لا أفهام مستقيمة إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ «۱» و فى هذا التنزيه تعجيب من حالهم وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ أى: و يجعلون لأنفسهم ما يشتهونه من البنين على أن «ما» فى محل نصب بالفعل المقدّر، و يجوز أن تكون فى محل رفع على الابتداء. و أنكر النصب الزجاج قال: لأن العرب لا يقولون جعل له كذا و هو يعنى نفسه، و إنما يقولون جعل لنفسه كذا، فلو كان منصوبا لقال و لأنفسهم ما يشتهون. و قد أجاز النصب الفراء. ثم ذكر سبحانه كراهتهم للإناث التى جعلوها للّه سبحانه فقال: وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى أى: إذا أخبر أحدهم بولادة بنت له ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا أى:

متغيرا، و ليس المراد السواد الذى هو ضدّ البياض، بل المراد الكناية بالسواد عن الانكسار و التغير بما يحصل من الغمّ، و العرب تقول لكل من لقى مكروها قد اسودّ وجهه غمّا و حزنا قاله الزجاج. و قال الماوردى:

بل المراد سواد اللون حقيقة، قال: و هو قول الجمهور، و الأوّل أولى، فإن المعلوم بالوجدان أن من غضب و حزن و اغتمّ لا يحصل فى لونه إلا مجرد التغير و ظهور الكآبة و الانكسار لا السواد الحقيقى، و جملة وَ هُوَ كَظِيمٌ فى محل نصب على الحال، أى: ممتلئ من الغمّ، مأخوذ من الكظامة و هو سدّ فم البئر قاله علىّ ابن عيسى، و قد تقدّم فى سورة يوسف «۲» يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ أى: يتغيب و يختفى مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أى: من سوء الحزن و العار و الحياء الذى يلحقه بسبب حدوث البنت له أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أى:

لا يزال متردّدا بين الأمرين: و هو إمساك البنت التى بشّر بها، أو دفنها فى التراب عَلى هُونٍ أى: هوان، و كذا قرأ عيسى الثقفىّ. قال اليزيدىّ: و الهون الهوان بلغة قريش، و كذا حكاه أبو عبيد عن الكسائىّ، و حكى عن الكسائىّ أنه البلاء و المشقة، قالت الخنساء:

نهين النفوس و هون النفوس يوم الكريهة أبقى لها

و قال الفراء: الهون القليل بلغة تميم. و حكى النحاس عن الأعمش أنه قرأ: «أ يمسكه على سوء» أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أى: يخفيه فى التراب بالوأد كما كانت تفعله العرب، فلا يزال الذى بشر بحدوث الأنثى متردّدا بين هذين الأمرين، و التذكير فى يمسكه و

يدسه مع كونه عبارة عن الأنثى لرعاية اللفظ. و قرأ الجحدرى «أم يدسها فى التراب» و يلزمه أن يقرأ أ يمسكها، و قيل: دسّها: إخفاؤها عن الناس حتى لا تعرف كالمدسوس لإخفائه عن الأبصار أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ حيث أضافوا البنات التى يكرهونها إلى اللّه سبحانه و أضافوا البنين المحبوبين عندهم إلى أنفسهم، و مثل هذا قوله تعالى: أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى «٣». لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ أى: لهؤلاء الذين وصفهم اللّه سبحانه بهذه القبائح

---

(١). الفرقان: ۴۴.

(٢). أى: الآية: ٨۴.

(٣). النجم: ٢١ و ٢٢.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٠۵

الفظيعة مثل السوء، أى: صفة السوء من الجهل و الكفر باللّه؛ و قيل: هو وصفهم للّه سبحانه بالصاحبة و الولد؛ و قيل: هو حاجتهم إلى الولد ليقوم مقامهم و وأد البنات لدفع العار و خشية الإملاق؛ و قيل: العذاب و النار وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى و هو أضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل و الجود الشامل و العلم الواسع، أو التوحيد و إخلاص العبادة، أو أنه خالق رازق قادر مجاز؛ و قيل: شهادة أن لا إله إلا اللّه، و قيل: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ «١». وَ هُوَ الْعَزِيزُ الذى لا يغالب فلا يضرّه نسبتهم إليه ما لا يليق به الْحَكِيمُ فى أفعاله و أقواله. ثم لما حكى سبحانه عن القوم عظيم كفرهم بيّن سعة كرمه و حلمه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة و لم يؤاخذهم بظلمهم، فقال: وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ و المراد بالناس هنا الكفار أو جميع العصاة ما تَرَكَ عَلَيْها أى: على الأرض و إن لم يذكر فقد دلّ عليها ذكر الناس و ذكر الدابة، فإن الجميع مستقرّون على الأرض، و المراد بالدابة الكافر، و قيل: كلّ ما دبّ؛ و قد قيل على هذا كيف يعمّ بالهلاك مع أن فيهم من لا ذنب له؟ و أجيب بإهلاك الظالم انتقاما منه، و إهلاك غيره إن كان من أهل التكليف فلأجل توفير أجره، و إن كان من غيرهم فبشؤم ظلم الظالمين، و للّه الحكمة البالغة لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ «٢»، و مثل هذا قوله: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً «٣». و فى معنى هذا أحاديث منها ما عند مسلم و غيره من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إذا أراد اللّه بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم»، و كذلك حديث الجيش: «الذين يخسف بهم فى البيداء، و فى آخره: أنهم يبعثون على نياتهم» و قد قدّمنا عند تفسير قوله سبحانه: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً الآية تحقيقا حقيقا بالمراجعة له وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى معلوم عنده و هو منتهى حياتهم و انقضاء أعمارهم أو أجل عذابهم، و فى هذا التأخير حكمة بالغة منها الإعذار إليهم و إرخاء العنان معهم، و منها حصول من سبق فى علمه من أولادهم فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ الذى سمّاه لهم حقت عليهم كلمة اللّه سبحانه فى ذلك الوقت من دون تقدّم عليه و لا تأخر عنه، و الساعة المدّة القليلة، و قد تقدّم تفسيرها هذا و تحقيقه.

ثم ذكر نوعا آخر من جهلهم و حمقهم فقال: وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ أى: ينسبون إليه سبحانه ما يكرهون نسبته إلى أنفسهم من البنات، و هو تكرير لما قد تقدّم لقصد التأكيد و التقرير و لزيادة التوبيخ و التقريع وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ هذا من النوع الآخر الذى ذكره سبحانه من قبائحهم و هو، أى: هذا الذى تصفه ألسنتهم من الكذب هو قولهم: أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى أى: الخصلة الحسنى، أو العاقبة الحسنى. قال الزجّاج: يصفون أن لهم مع قبح قولهم من اللّه الجزاء الحسن. قال الزجاج أيضا و الفراء: أبدل من قوله و تصف ألسنتهم الكذب قوله أن لهم الحسنى، و الكذب منصوب على أنه مفعول تصف. و قرأ ابن عباس و أبو العالية و مجاهد و ابن محيصن: الكذب برفع الكاف و الذال و الباء على أنه صفة للألسن و هو جمع كذوب، فيكون المفعول على هذا هو أن لهم الحسنى. ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ أى: حقا أن لهم مكان ما جعلوه لأنفسهم من الحسنى

النار، و قد تقدّم تحقيق هذا وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ قال ابن الأعرابى

---

(۱). النور: ۳۵.

(۲). الأنبياء: ۲۳.

(۳). الأنفال: ۲۵.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۰۶

و أبو عبيدة: أى: متروكون منسيون فى النار، و به قال الكسائى و الفراء فيكون مشتقا من أفرطت فلانا خلفى:
إذا خلفته و نسيته. و قال قتادة و الحسن: معجّلون إليها مقدّمون فى دخولها من أفرطته، أى: قدّمته فى طلب الماء، و الفارط هو الذى يتقدّم إلى الماء، و الفرّاط المتقدّمون فى طلب الماء، و الورّاد المتأخرون، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «أنا فرطكم على الحوض» أى: متقدّمكم. قال القطامىّ:

فاستعجلونا و كانوا من صحابتناكما تعجّل فرّاط لورّاد

و قرأ نافع فى رواية ورش مُفْرِطُونَ بكسر الراء و تخفيفها، و هى قراءة ابن مسعود و ابن عباس؛ و معناه: مسرفون فى الذنوب و المعاصى؛ يقال: أفرط فلان على فلان؛ إذا أربى عليه و قال له أكثر مما قال من الشرّ. و قرأ أبو جعفر القارى: مُفْرِّطُونَ بكسر الراء و تشديدها؛ أى: مضيعون أمر اللّه، فهو من التفريط فى الواجب. و قرأ الباقون «مفرطون» بفتح الراء مخففا، و معناه: مقدّمون إلى النار.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً قال: الدين الإخلاص، و واصبا دائما. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً قال:
لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس واصِباً قال: دائما. و أخرج الفريابى و ابن جرير عنه قال واجبا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد تَجْئَرُونَ قال: تتضرعون دعاء. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: تصيحون بالدعاء. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ قال: وعيد. و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: وَ يَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ الآية قال: يعلمون أن اللّه خلقهم و يضرّهم و ينفعهم، ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرّهم و لا ينفعهم نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: هم مشركو العرب جعلوا لأوثانهم و شياطينهم مما رزقهم اللّه، و جزءوا من أموالهم جزءا؛ فجعلوه لأوثانهم و شياطينهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية قال: هو قولهم: «هذا للّه بزعمهم و هذا لشركائنا» «۱». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ الآية يقول: يجعلون لى البنات يرتضونهن لى و لا يرتضونهنّ لأنفسهم، و ذلك أنهم كانوا فى الجاهلية إذا ولد للرجل منهم جارية أمسكها على هوان أو دسّها فى التراب و هى حيّة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الضحّاك وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ قال: يعنى به البنين. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ قال: يئد ابنته. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ قال: بئس ما حكموا، يقول: شىء لا يرضونه لأنفسهم فكيف يرضونه لى. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى قال: شهادة أن لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى قال: يقول ليس كمثله شىء.

---

(۱). الأنعام: ۱۳۶.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۰۷

و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ قال: ما سقاهم المطر.

و أخرج أيضا عن السدّى نحوه. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال: قد فعل ذلك فى زمن نوح، أهلك اللّه ما على ظهر الأرض من دابة إلا ما حمل فى سفينته. و أخرج أحمد فى الزهد، عن ابن مسعود قال: ذنوب ابن آدم قتلت الجعل فى جحره، ثم قال: إى و اللّه، زمن غرق قوم نوح. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عنه قال: كاد الجعل أن يعذب فى جحره بذنب ابن آدم، ثم قرأ: وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا عن أنس نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن جرير، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة، أنه سمع رجلا يقول: إن الظالم لا يضرّ إلا نفسه، قال أبو هريرة: بلى و اللّه إن الحبارى لتموت هزالا فى و كرها من ظلم الظالم. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ قال: يجعلون له البنات و يكرهون ذلك لأنفسهم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى قال:

قول كفار قريش لنا البنون و له البنات. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ قال: منسيّون. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة قال: معجلون. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه.

[سورة النحل (۱۶): الآيات ۶۳ الى ۶۹]

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۶۳) وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۶۴) وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۶۵) وَ إِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ (۶۶) وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۶۷)

وَ أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ (۶۸) ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۶۹)

بيّن سبحانه أن مثل صنيع قريش قد وقع من سائر الأمم، فقال مسليا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ أى: رسلا فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ الخبيثة فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ يحتمل أن يكون اليوم عبارة عن زمان الدنيا، فيكون المعنى: فهو قرينهم فى الدنيا، و يحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة و ما بعده، فيكون للحال الآتية، و يكون الولىّ بمعنى الناصر، و المراد نفى الناصر عنهم على أبلغ الوجوه؛ لأن الشيطان لا يتصوّر منه النصرة أصلا فى الدار الآخرة، و إذا كان الناصر منحصرا فيه لزم أن لا نصرة من غيره، و يحتمل أن يراد باليوم بعض زمان الدنيا، و هو على وجهين: الأوّل: أن يراد البعض

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۰۸

الذى قد مضى، و هو الذى وقع فيه التزيين من الشيطان للأمم الماضية فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية.

الثانى: أن يراد البعض الحاضر، و هو وقت نزول الآية. و المراد تزيين الشيطان لكفار قريش فيكون الضمير فى وَلِيُّهُمُ لكفار

قريش، أی: فهو ولیّ هؤلاء اليوم، أو على حذف مضاف، أی: فهو ولیّ أمثال أولئك الأمم اليوم وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أی: فی الآخرة و هو عذاب النار. ثم ذكر سبحانه أنه ما هلك من هلك إلا بعد إقامة الحجة عليهم و إزاحة العلة منهم، فقال: وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِی اخْتَلَفُوا فِيهِ و هذا خطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و المراد بالكتاب القرآن، و الاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال، أی: ما أنزلناه عليك لحال من الأحوال و لا لعلة من العلل إلا لعلّة التبيين لهم، أی: للناس الذی اختلفوا فيه من التوحيد و أحوال البعث و سائر الأحكام الشرعية، وَ انتصاب هُدىً وَ رَحْمَةً على أنهما مفعول لهما معطوفان على محل لتبين، و لا حاجة إلى اللام؛ لأنهما فعلا فاعل الفعل المعلل، بخلاف التبيين فإنه فعل المخاطب لا فعل المنزل لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ باللّه سبحانه و يصدّقون ما جاءت به الرسل و نزلت به الكتب.

ثم عاد سبحانه إلى تقرير وجوده و تفرّده بالإلهية بذكر آياته العظام فقال: وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً أی: من السحاب، أو من جهة العلو كما مرّ، أی: نوعا من أنواع الماء فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها أی: أحياها بالنبات بعد أن كانت يابسة لا حياة بها إِنَّ فِی ذلِكَ الإنزال و الإحياء لَآيَةً أی:

علامة دالة على وحدانيته و على بعثه للخلق و مجازاتهم لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ كلام اللّه و يفهمون ما يتضمنه من العبر، و يتفكّرون فی خلق السموات و الأرض وَ إِنَّ لَكُمْ فِی الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً الأنعام هی الإبل و البقر و الغنم و يدخل فی الغنم المعز، و العبرة أصلها تمثيل الشیء بالشیء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة، و منه: فَاعْتَبِرُوا يا أُولِی الْأَبْصارِ «١». و قال أبو بكر الوراق: العبرة فی الأنعام تسخيرها لأربابها و طاعتها لهم، و الظاهر أن العبرة هی قوله: نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِی بُطُونِهِ فتكون الجملة مستأنفة لبيان العبرة. قرأ أهل المدينة و ابن عامر و عاصم فی رواية أبی بكر نَسْقِيكُمْ بفتح النون من سقى يسقی. و قرأ الباقون و حفص عن عاصم بضم النون من أسقى يسقی، قيل: هما لغتان. قال لبيد:

سقى قومی بنی مجد و أسقى‌نميرا و القبائل من هلال

و قرئ بالتاء الفوقية على أن الضمير راجع إلى الأنعام، و قرئ بالتحتية على إرجاع الضمير إلى اللّه سبحانه، و هما ضعيفتان، و جميع القرّاء على القراءتين الأولیين، و الفتح لغة قريش، و الضم لغة حمير؛ و قيل: إن بين سقى و أسقى فرقا، فإذا كان الشراب من يد الساقی إلى فم المسقی فيقال سقيته، و إن كان بمجرّد عرضه عليه و تهيئته له قيل أسقاه. و الضمير فی قوله: مِمَّا فِی بُطُونِهِ راجع إلى الأنعام. قال سيبويه: العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد. و قال الزجّاج: لما كان لفظ الجمع يذكّر و يؤنّث، فيقال هو الأنعام، و هی الأنعام جاز عود الضمير بالتذكير. و قال الكسائی: معناه ممّا فی بطون ما ذكرنا فهو على هذا عائد إلى المذكور.

---

(١). الحشر: ٢.

قال الفراء: و هو صواب. و قال المبرد: هذا فاش فی القرآن كثير مثل قوله للشمس هذا رَبِّی* «١» يعنی هذا الشیء الطالع، و كذلك: وَ إِنِّی مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ «٢»، ثم قال: فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ «٣»، و لم يقل جاءت لأن المعنى جاء الشیء الذی ذكرنا انتهى، و من ذلك قوله: إِنَّها تَذْكِرَةٌ- فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ «۴» و مثله قول الشاعر:

مثل الفراخ نتفت حواصله و لم يقل حواصلها. و قول الآخر:

و طاب إلقاح اللبان و برد و لم يقل و بردت. و حكى عن الكسائی أن المعنى مما فی بطون بعضه و هی الإناث؛ لأن الذكور لا ألبان لها، و به قال أبو عبيدة، و حكى عن الفراء أنه قال: النعم و الأنعام واحد يذكر و يؤنث، و لهذا تقول العرب:

هذه نعم وارد فرجع الضمير إلى لفظ النعم الذی هو بمعنى الأنعام، و هو كقول الزجّاج و رجّحه ابن العربی فقال: إنما يرجع

التـذكير إلى معنى الجمـع، و التـأنيث إلى معنى الجماعـة، فـذكّره هنـا باعتبـار لفـظ الجمع و أنّثه فى سورة المؤمنين باعتبـار لفظ الجماعة مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ الفرث: الزبل الذى ينزل إلى الكرش، فإذا خرج منه لم يسم فرثا، يقال: أفرثت الكرش إذا أخرجت ما فيها. و المعنى: أن الشـىء الذى تأكله يكون منه ما فى الكرش، و هو الفرث و يكون منه الدم، فيكون أسفله فرثا، و أعلاه دما، و أوسطه لَبَناً فيجرى الدم فى العروق و اللبن فى الضروع، و يبقى الفرث كما هو خالِصاً يعنى من حمرة الدم و قذارة الفرث بعد أن جمعهما وعاء واحـد سائِغاً لِلشَّارِبِينَ أى: لذيذا هنيئا لا يغصّ به من شـربه، يقال: ساغ الشـراب يسوغ سوغا، أى: سـهل مدخله فى الحلق وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنابِ قال ابن جرير: التقدير:

و من ثمرات النخيل و الأعناب ما تتخذون، فحـذف و دلّ على حـذفه قوله منه، و قيل: هو معطوف على الأنعام، و التقـدير: و إن لكم من ثمرات النخيل و الأعناب لعبرة، و يجوز أن يكون معطوفا على مما فى بطونه، أى:

نسقيكم مما فى بطونه و من ثمرات النخيل، و يجوز أن يتعلق بمحذوف دلّ عليه ما قبله تقديره: و نسقيكم من ثمرات النخيل، و يكون على هـذا تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً بيانا للإسـقاء و كشـفا عن حقيقته، و يجوز أن يتعلّق بتتخذون، تقديره و من ثمرات النخيل و الأعناب ثمر تتخـذون منه سـكرا، و يكون تكرير الظرف، و هو قوله منه للتأكيـد كقولك زيد فى الدار فيها، و إنما ذكر الضـمير فى منه لأنـه يعود إلى المـذكور، أو إلى المضـاف المحـذوف؛ و هو العصـير، كـأنه قيـل: و من عصـير ثمرات النخيـل و الأعناب تتخـذون منه، و السـكر مـا يسـكر من الخمر، و الرزق الحسن جميع مـا يؤكـل من هاتين الشـجرتين كالثمر و الـدبس و الزبيب و الخل، و كان نزول هـذه الآيـة قبل تحريم الخمر؛ و قيل: إن السـكر الخلّ بلغـة الحبشـة، و الرزق الحسن الطعام من الشـجرتين؛ و قيل:

السكر العصير الحلو الحلال، و سمّى سكرا لأنه قد يصير مسكرا إذا بقى، فإذا بلغ الإسكار حرم. و القول

---

(١). الأنعام: ٧٨.

(٢). النمل: ٣٥.

(٣). النمل: ٣٦.

(۴). عبس: ١١ و ١٢.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢١٠

الأوّل أولى و عليه الجمهور، و قد صرّح أهل اللغة بأن السـكر اسم للخمر، و لم يخالف فى ذلك إلا أبو عبيدة، فإنه قال: السكر: الطعم، و ممّا يدلّ على ما قاله جمهور أهل اللغة قول الشاعر:

بئس الصحاب «١» و بئس الشرب شربهمإذا جرى فيهم الهذى «٢» و السّكر

و ممّا يدلّ على ما قاله أبو عبيدة ما أنشده:

جعلت عيب الأكرمين سـكرا أى: جعلت ذمّهم طعما، و رجّح هذا ابن جرير فقال: إن السـكر ما يطعم من الطعام و يحلّ شربه من ثمـار النخيـل و الأعنـاب و هو الرزق الحسن، فاللفـظ مختلف و المعنى واحـد، مثـل: إِنَّمـا أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ «٣». قال الزجاج: قول أبى عبيدة هذا لا يعرف، و أهل التفسير على خلافه و لا حجة فى البيت الذى أنشده لأن معناه عند غيره أنه يصـف أنها تتخمر بعيوب الناس، و قـد حمل السـكر جماعة من الحنفية على ما لا يسـكر من الأنبذة و على ما ذهب ثلثاه بالطبخ، قالوا: و إنما يمتنّ اللّه على عباده بما أحلّه لهم لا بما حرّمه عليهم، و هذا مردود بالأحاديث الصـحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريـم الخمر، اه. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أى: لدلالـة لمن يسـتعمل العقـل و يعمـل بمـا يقتضـيه عنـد النظر فى الآيـات

التكوينية وَ أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ قد تقدّم الكلام فى الوحى و أنه يكون بمعنى الإلهام، و هو ما يخلقه فى القلب ابتداء من غير سبب ظاهر، و منه قوله سبحانه: وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها «۴»، و من ذلك إلهام البهائم لفعل ما ينفعها و ترك ما يضرّها، و قرأ يحيى بن وثّاب إِلَى النَّحَلِ بفتح الحاء. قال الزجاج: و سمى نحلا لأن اللّه سبحانه نحله العسل الذى يخرج منه. قال الجوهرى: و النحل و النحلة الدّبر يقع على الذكر و الأنثى أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً أى: بأن اتخذى، على أنّ «أن» هى المصدرية، و يجوز أن تكون تفسيرية؛ لأن فى الإيحاء معنى القول، و أنّث الضمير فى اتخذى لكونه أحد الجائزين كما تقدّم، أو للحمل على المعنى أو لكون النحل جمعا، و أهل الحجاز يؤنّثون النحل و مِنَ فى «مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً» و كذا فى مِنَ الشَّجَرِ و كذا فى مِمَّا يَعْرِشُونَ للتبعيض، أى: مساكن توافقها و تليق بها فى كوى الجبال و تجويف الشجر، و فى العروش التى يعرشها بنو آدم من الأجباح «۵» و الحيطان و غيرها، و أكثر ما يستعمل فيما يكون من الخشب، يقال عرش يعرش بكسر الراء و ضمها. و بالضم قرأ ابن عامر و شعبة. و قرأ الباقون بالكسر.

و قرئ أيضا بيوتا بكسر الباء و ضمّها ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ من للتبعيض لأنها تأكل النّور من الأشجار فإذا أكلتها فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ أى: الطرق التى فهّمك اللّه و علّمك، و أضافها إلى الربّ لأنه خالقها

---

(۱). فى تفسير القرطبى: الصّحاة.

(۲). فى تفسير القرطبى: المزّاء.

(۳). يوسف: ۸۶.

(۴). الشمس: ۷ و ۸.

(۵). جاء فى القاموس: الجبح- يثلث-: خلية العسل، ج أجبح و أجباح.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۱۱

و ملهم النحل أن تسلكها؛ أى ادخلى طرق ربّك لطلب الرزق فى الجبال و خلال الشجر، أو اسلكى ما أكلت فى سبل ربك، أى: فى مسالكه التى يحيل فيها بقدرته النّور عسلا أو إذا أكلت الثمار فى الأمكنة البعيدة فاسلكى إلى بيوتك راجعة سبل ربك لا تضلّين فيها، و انتصاب ذُلُلًا على الحال من السّبل، و هى جمع ذلول؛ أى: مذلّلة غير متوعّرة، و اختار هذا الزجاج و ابن جرير، و قيل: حال من النحل، يعنى: مطيعة للتسخير و إخراج العسل من بطونها، و اختار هذا ابن قتيبة، و جملة يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها مستأنفة عدل به عن خطاب النحل، تعديدا للنعم، و تعجيبا لكل سامع، و تنبيها على العبرة، و إرشادا إلى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الشبيه بالذباب، و المراد بال شَرابٌ فى الآية هو العسل، و معنى مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ أن بعضه أبيض و بعضه أحمر و بعضه أزرق و بعضه أصفر باختلاف ذوات النحل و ألوانها و مأكولاتها. و جمهور المفسّرين على أن العسل يخرج من أفواه النحل؛ و قيل: من أسفلها؛ و قيل: لا يدرى من أين يخرج منها، و الضمير فى قوله: فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ راجع إلى الشراب الخارج من بطون النحل و هو العسل، و إلى هذا ذهب الجمهور. و قال الفراء و ابن كيسان و جماعة من السلف: إن الضمير راجع إلى القرآن، و يكون التقدير فيما قصصنا عليكم من الآيات و البراهين شفاء للناس، و لا وجه للعدول عن الظاهر و مخالفة المرجع الواضح و السياق البيّن.

و قد اختلف أهل العلم: هل هذا الشّفاء الذى جعله اللّه فى العسل عام لكل داء أو خاص ببعض الأمراض؟

فقالت طائفة: هو على العموم، و قالت طائفة: إن ذلك خاصّ ببعض الأمراض، و يدل على هذا أن العسل نكرة فى سياق الإثبات فلا يكون عاما، و تنكيره إن أريد به التعظيم لا يدل إلا على أن فيه شفاء عظيما لمرض أو أمراض، لا لكل مرض، فإن تنكير

التعظيم لا يفيد العموم، و الظاهر المستفاد من التجربة و من قوانين علم الطب، أنه إذا استعمل منفردا كان دواء لأمراض خاصة و إن خلط مع غيره كالمعاجين و نحوها كان مع ما خلط به دواء لكثير من الأمراض. و بالجملة فهو من أعظم الأغذية و أنفع الأدوية، و قليلا ما يجتمع هذان الأمران فى غيره إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور من أمر النحل لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ أى: يعملون أفكارهم عند النظر فى صنع اللّه سبحانه و عجائب مخلوقاته، فإن أمر النحل من أعجبها و أغربها و أدقّها و أحكمها.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور، و أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحّاس، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، و ابن مردويه عن ابن عباس أنه سئل عن قوله:

تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً قال: السكر: ما حرم من ثمرتهما، و الرزق الحسن: ما حلّ. و أخرج الفريابى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه قال: السكر: الحرام، و الرزق الحسن: زبيبه و خلّه و عنبه و منافعه.

و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: السكر النبيذ، و الرزق الحسن الزبيب، فنسختها هذه الآية: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عنه أيضا فى الآية قال: فحرّم اللّه بعد ذلك السكر منع تحريم الخمر لأنه منه، ثم قال: وَ رِزْقاً حَسَناً فهو الحلال من الخلّ و الزبيب و النبيذ و أشباه ذلك، فأقرّه اللّه و جعله حلالا للمسلمين. و أخرج الفريابى و ابن أبى

شيبة و ابن حاتم عن ابن عمر أنه سئل عن السكر، فقال: الخمر بعينها. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن مسعود قال: السكر خمر. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ قال: ألهمها. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله:

فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا قال: طرقا لا يتوعر عليها مكان سلكته. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة ذُلُلًا قال: مطيعة. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: ذليلة.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ قال: العسل. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال: هو العسل فيه الشفاء و فى القرآن. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير عن ابن مسعود قال: إن العسل شفاء من كل داء، و القرآن شفاء لما فى الصدور. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: عليكم بالشفاءين العسل و القرآن. و أخرج ابن ماجة، و الحاكم و صحّحه و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، و ابن السنى و أبو نعيم و الخطيب عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «عليكم بالشّفاءين العسل و القرآن». و قد وردت أحاديث فى كون العسل شفاء؛ منها ما أخرجه البخارى من حديث ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الشّفاء فى ثلاثة فى شرطة محجم أو شربة عسل أو كيّة بنار، و أنا أنهى أمتى عن الكيّ».

و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث أبى سعيد: «أن رجلا أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه إن أخى استطلق بطنه، فقال: اسقه عسلا، فسقاه عسلا، ثم جاء فقال: سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا، قال: اذهب فاسقه عسلا فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: ما زاده إلا استطلاقا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: صدق اللّه و كذب بطن أخيك؛ اذهب فاسقه عسلا، فذهب فسقاه عسلا فبرأ» «١».

[سورة النحل (١٦): الآيات ٧٠ الى ٧٤]

وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَ اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ

عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ أَ فَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئاً وَ لا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤)

لما ذكر سبحانه بعض أحوال الحيوان و ما فيها من عجائب الصنعة الباهرة، و خصائص القدرة القاهرة، أتبعه بعجائب خلق الإنسان و ما فيه من العبر، فقال: وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ و لم تكونوا شيئا ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ عند انقضاء آجالكم وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ يقال: رذل يرذل رذالة، و الأرذل و الرذالة: أردأ الشيء و أوضعه. قال النيسابوري: و اعلم أن العقلاء ضبطوا مراتب عمر الإنسان في أربع: أولاها سنّ النشو.

---

(١). جاء في لسان العرب: أهل الحجاز يقولون: برأت من المرض برءا بالفتح، و سائر العرب يقولون: برئت من المرض.

و ثانيها: سنّ الوقوف و هو سنّ الشباب. و ثالثها: سنّ الانحطاط اليسير، و هو سنّ الكهولة. و رابعها: سنّ الانحطاط الظاهر، و هو سنّ الشيخوخة. قيل: و أرذل العمر هو عند أن يصير الإنسان إلى الخرف، و هو أن يصير بمنزلة الصبيّ الذي لا عقل له؛ و قيل: خمس و سبعون سنة، و قيل: تسعون سنة، و مثل هذه الآية قوله سبحانه: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ- ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ «١». ثم علل سبحانه ردّ من يرده إلى أرذل العمر بقوله: لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ كان قد حصل له شَيْئاً من العلم لا كثيرا و لا قليلا أو شيئا من المعلومات إذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم؛ و قيل: المراد بالعلم هنا العقل، و قيل: المراد لئلا يعلم زيادة على علمه الذي قد حصل له قبل ذلك. ثم لما بيّن سبحانه خلق الإنسان و تقلبه في أطوار العمر ذكر طرفا من أحواله لعلّه يتذكر عند ذلك فقال: وَ اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فجعلكم متفاوتين فيه فوسّع على بعض عباده حتى جعل له من الرزق ما يكفي ألوفا مؤلفة من بني آدم، و ضيّقه على بعض عباده حتى صار لا يجد القوت إلا بسؤال الناس و التكفّف لهم، و ذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقّلها و الاطلاع على حقيقة أسبابها، و كما جعل التفاوت بين عباده في المال جعله بينهم في العقل و العلم و الفهم و قوّة البدن و ضعفه و الحسن و القبح و الصحة و السقم و غير ذلك من الأحوال؛ و قيل: معنى الآية: أن اللّه سبحانه أعطى الموالي أفضل مما أعطى مماليكهم بدليل قوله: فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ أي: فما الذين فضلهم اللّه بسعة الرزق على غيرهم برادّي رزقهم الذي رزقهم اللّه إياه على ما ملكت أيمانهم من المماليك فَهُمْ أي: المالكون و المماليك فِيهِ أي: في الرزق سَواءٌ أي: لا يردّونه عليهم بحيث يساوونهم، فالفاء على هذا للدلالة على أن التساوي مترتب على الترادّ، أي: لا يردونه عليهم ردّا مستتبعا للتساوي، و إنما يردّون عليهم منه شيئا يسيرا، و هذا مثل ضربه اللّه سبحانه لعبدة الأصنام، أي: إذا لم يكونوا عبيدكم معكم سواء و لا ترضون بذلك، فكيف تجعلون عبيدي معي سواء و الحال أن عبيدكم مساوون لكم في البشرية و المخلوقية، فلما لم تجعلوا عبيدكم مشاركين لكم في أموالكم، فكيف تجعلون بعض عباد اللّه سبحانه شركاء له فتعبدونهم معه، أو كيف تجعلون بعض مخلوقاته كالأصنام شركاء له في العبادة ذكر معنى هذا ابن جرير، و مثل هذه الآية قوله سبحانه: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ «٢». و قيل: إن الفاء في «فهم فيه سواء» بمعنى حتى أَ فَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ حيث تفعلون ما تفعلون من الشرك، و النعمة هي كونه سبحانه جعل المالكين مفضلين على المماليك، و قد قرئ يَجْحَدُونَ بالتحتية و الفوقية. قال أبو عبيدة و أبو حاتم: و قراءة الغيبة أولى لقرب المخبر عنه، و لأنه لو كان خطابا لكان ظاهره للمسلمين، و الاستفهام للإنكار، و الفاء للعطف على مقدّر، أي: يشركون به

فيجحدون نعمته، و يكون المعنى على قراءة الخطاب أن المالكين ليسوا برادّى رزقهم على مماليكهم، بل أنا الذى أرزقهم و إياهم فلا يظنوا أنهم يعطونهم شيئا، و إنما هو رزقى أجريه على أيديهم، و هم جميعا فى ذلك سواء لا مزية لهم على مماليكهم، فيكون المعطوف عليه المقدّر فعلا يناسب هذا المعنى، كأن

---

(١). التين: ۴ و ۵.

(٢). الروم: ٢٨.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢١۴

يقال: لا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة اللّه. ثم ذكر سبحانه الحالة الأخرى من أحوال الإنسان فقال: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً قال المفسرون: يعنى النساء فإنه خلق حوّاء من ضلع آدم، أو المعنى:

خلق لكم من جنسكم أزواجا لتستأنسوا بها، لأن الجنس يأنس إلى جنسه و يستوحش من غير جنسه، و بسبب هذه الأنسة يقع بين الرجال و النساء ما هو سبب للنسل الذى هو المقصود بالزواج، و لهذا قال: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً الحفدة: جمع حافد، يقال: حفد يحفد حفدا و حفودا؛ إذا أسرع، فكل من أسرع فى الخدمة فهو حافد، قال أبو عبيد: الحفد: العمل و الخدمة.

قال الخليل بن أحمد: الحفدة عند العرب الخدم، و من ذلك قول الشاعر، و هو الأعشى:

كلّفت مجهولها نوقا يمانيةإذا الحداة على أكتافها «١» حفدوا

أى: الخدم و الأعوان. و قال الأزهرى: قيل: الحفدة: أولاد الأولاد، و روى عن ابن عباس؛ و قيل:

الأختان، قاله ابن مسعود و علقمة و أبو الضّحى و سعيد بن جبير و إبراهيم النّخعى، و منه قول الشاعر «٢»:

فلو أنّ نفسى طاوعتنى لأصبحتلها حفد مما يعدّ كثير

و لكنّها نفس علىّ أبيةعيوف لإصهار «٣» اللئام قذور

و قيل: الحفدة الأصهار. قال الأصمعى: الختن من كان من قبل المرأة كابنها و أخيها و ما أشبههما، و الأصهار منهما جميعا، يقال: أصهر فلان إلى بنى فلان و صاهر؛ و قيل: هم أولاد امرأة الرجل من غيره؛ و قيل: الأولاد الذين يخدمونه؛ و قيل: البنات الخادمات لأبيهنّ. و رجّح كثير من العلماء أنهم أولاد الأولاد؛ لأنه سبحانه امتنّ على عباده بأن جعل لهم من الأزواج بنين و حفدة، فالحفدة فى الظاهر معطوفون على البنين و إن كان يجوز أن يكون المعنى: جعل لكم من أزواجكم بنين و جعل لكم حفدة، و لكن لا يمتنع على هذا المعنى الظاهر أن يراد بالبنين من لا يخدم، و بالحفدة من يخدم الأب منهم، أو يراد بالحفدة البنات فقط، و لا يفيد أنهم أولاد الأولاد إلا إذا كان تقدير الآية: و جعل لكم من أزواجكم بنين، و من البنين حفدة وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ التى تستطيبونها و تستلذونها، و من للتبعيض؛ لأن الطيبات لا تكون مجتمعة إلا فى الجنة، ثم ختم سبحانه الآية بقوله: أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ و الاستفهام للإنكار التوبيخى، و الفاء للعطف على مقدّر، أى: يكفرون باللّه فيؤمنون بالباطل، و فى تقدّم فَبِالْباطِلِ على الفعل دلالة على أنه ليس لهم إيمان إلا به، و الباطل هو اعتقادهم فى أصنامهم أنها تضر و تنفع؛ و قيل: الباطل ما زيّن لهم الشيطان من تحريم البحيرة و السائبة و نحوهما. قرأ الجمهور يُؤْمِنُونَ بالتحتية، و قرأ أبو بكر بالفوقية على الخطاب وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ أى: ما أنعم به عليهم مما لا يحيط به حصر، و فى تقديم النعمة و توسيط ضمير الفصل دليل على أن كفرهم مختص بذلك، لا يتجاوزه لقصد المبالغة و التأكيد وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هو معطوف على

---

(١). فى تفسير القرطبى (١٠/ ١۴٣): اكسائها. و هو جمع كسى، و هو مؤخّر العجز.

(۲). هو جميل بن معمر.
(۳). فى البحر: لأصحاب.
فتح القدير، ج۳، ص: ۲۱۵
يكفرون داخل تحت الإنكار التوبيخى إنكارا منه سبحانه عليهم حيث يعبدون الأصنام، و هى لا تنفع و لا تضرّ، و لهذا قال: ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئاً قال الأخفش: إن شيئا بدل من الرزق. و قال الفراء: هو منصوب بإيقاع الرزق عليه، فجعل رزقا مصدرا عاملا فى شيئا، و الأخفش جعله اسما للرزق؛ و قيل: يجوز أن يكون تأكيدا لقوله: لا يَمْلِكُ أى: لا يملك شيئا من الملك، و المعنى:
أن هؤلاء الكفار يعبدون معبودات لا تملك لهم رزقا أىّ رزق، و من السموات و الأرض صفة لرزق، أى:
كائنا منهما، و الضمير فى وَ لا يَسْتَطِيعُونَ راجع إلى ما، و جمع جمع العقلاء بناء على زعمهم الباطل، و الفائدة فى نفى الاستطاعة عنهم أن من لا- يملك شيئا قد يكون موصوفا باستطاعة التملك بطريق من الطرق، فبيّن سبحانه أنها لا تملك و لا تستطيع؛ و قيل: يجوز أن يكون الضمير فى يستطيعون للكفار: أى لا يستطيع هؤلاء الكفار مع كونهم أحياء متصرّفين، فكيف بالجمادات التى لا- حياة لها و لا تستطيع التصرّف؟ ثم نهاهم سبحانه عن أن يشبهوه بخلقه، فقال: فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ فإن ضارب المثل يشبه حالا- بحال و قصة بقصة. قال الزجاج: لا تجعلوا للّه مثلا لأنه واحد لا مثل له، و كانوا يقولون: إن إله العالم أجلّ من أن يعبده الواحد منا، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام و الكواكب، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك، و أولئك الأكابر يخدمون الملك فنهوا عن ذلك، و علل النهى بقوله: إِنَّ اللَّهَ عليم يَعْلَمُ ما عليكم من العبادة وَ أَنْتُمْ لا- تَعْلَمُونَ ما فى عبادتها من سوء العاقبة، و التعرّض لعذاب اللّه سبحانه، أو أنتم لا تعلمون بشىء من ذلك، و فعلكم هذا هو عن توهم فاسد و خاطر باطل و خيال مختلّ، و يجوز أن يراد فلا تضربوا للّه الأمثال إن اللّه يعلم كيف تضرب الأمثال و أنتم لا تعلمون ذلك.
و قد أخرج ابن جرير عن علىّ فى قوله: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ قال: خمس و سبعون سنة. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: هو الخرف. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: من قرأ القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر، ثم قرأ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً.
و أخرج ابن أبى شيبة عن طاوس قال: العالم لا يخرف. و قد ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الصحيح و غيره أنه كان يتعوّذ باللّه أن يردّ إلى أرذل العمر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ قال: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم و نسائهم فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال: هذا مثل لآلهة الباطل مع اللّه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً قال: خلق آدم، ثم خلق زوجته منه. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور، و البخارى فى تاريخه، و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، عن ابن مسعود فى قوله: بَنِينَ وَ حَفَدَةً قال: الحفدة الأختان. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الحفدة الأصهار. و أخرجا عنه قال: الحفدة الولد و ولد الولد. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الحفدة بنو البنين.
و أخرج ابن جرير عن أبى جمرة قال: سئل ابن عباس عن قوله: بَنِينَ وَ حَفَدَةً قال: من أعابك فقد
فتح القدير، ج۳، ص: ۲۱۶
حفدك، أما سمعت الشاعر يقول:
حفد الولائد حولهنّ و أسلمتبأكفهنّ أزمّة الإجمال

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الحفدة بنو امرأة الرجل ليسوا منه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ قال: الشرك. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: هو الشيطان وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ قال: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ الآية قال: هذه الأوثان التى تعبد من دون اللّه لا- تملك لمن يعبدها رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و لا خيرا و لا حياة و لا نشورا فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ فإنه أحد صمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله سبحانه: فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ يعنى اتّخاذهم الأصنام، يقول: لا تجعلوا معى إلها غيرى، فإنه لا إله غيرى.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٧٥ الى ٧٩]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَ مَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)

قوله: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لما قال سبحانه إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أى: بالمعلومات التى من جملتها كيف يضرب الأمثال و أنتم لا تعلمون، علمهم سبحانه كيف تضرب الأمثال فقال: ضرب اللّه مثلا؛ أى: ذكر شيئا يستدلّ به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه، و بين ما جعلوه شريكا له من الأصنام، ثم ذكر ذلك فقال: عَبْداً مَمْلُوكاً و المثل فى الحقيقة هى حالة للعبد عارضة له، و هى المملوكية و العجز عن التصرّف، فقوله: عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ تفسير للمثل و بدل منه، و وصفه بكونه مملوكا؛ لأن العبد و الحرّ مشتركان فى كون كل واحد منهما عبدا للّه سبحانه، و وصفه بكونه لا يقدر على شيء؛ لأن المكاتب و المأذون يقدران على بعض التصرفات، فهذا الوصف لتمييزه عنهما وَ مَنْ رَزَقْناهُ من هى الموصولة، و هى معطوفة على عَبْداً أى: و الذى رزقناه مِنَّا أى: من جهتنا رِزْقاً حَسَناً من الأحرار الذين يملكون الأموال و يتصرّفون بها كيف شاؤوا، و المراد يكون الرزق حسنا أنه ممّا يحسن فى عيون الناس؛ لكونه رزقا كثيرا مشتملا على أشياء مستحسنة نفيسة تروق الناظرين إليها، و الفاء فى قوله:

فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ لترتيب الإنفاق على الرزق، أى: ينفق منه فى وجوه الخير و يصرف منه إلى أنواع البرّ

فتح القدير، ج٣، ص: ٢١٧

و المعروف، و انتصاب سِرًّا وَ جَهْراً على الحال، أى: ينفق منه فى حال السرّ و حال الجهر؛ و المراد بيان عموم الإنفاق للأوقات، و تقديم السرّ على الجهر مشعر بفضيلته عليه، و أن الثواب فيه أكثر؛ و قيل: إن مَنْ فى وَ مَنْ رَزَقْناهُ موصوفة كأنه قيل: و حرّا رزقناه ليطابق عبدا هَلْ يَسْتَوُونَ أى: الحرّ و العبد الموصوفان بالصّفات المتقدّمة، و جمع الضمير لمكان من؛ لأنه اسم مبهم يستوى فيه الواحد و الاثنان و الجمع و المذكر و المؤنث؛ و قيل: إنه أريد بالعبد و الموصول الذى هو عبادة عن الحرّ الجنس، أى: من اتّصف بتلك الأوصاف من الجنسين، و الاستفهام للإنكار، أى: هل يستوى العبيد و الأحرار الموصوفون بتلك الصفات مع كون كلا الفريقين مخلوقين للّه سبحانه من جملة البشر، و من المعلوم أنهم لا يستوون عندهم، فكيف يجعلون للّه سبحانه شركاء لا يملكون لهم ضرّا و لا نفعا، و يجعلونهم مستحقّين للعبادة مع اللّه سبحانه؟

و حاصل المعنى: أنه كما لا يستوى عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء و رجل حرّ قد رزقه اللّه رزقا حسنا فهو

ينفق منه، كذلك لا يستوى الربّ الخالق الرازق و الجمادات من الأصنام التى تعبدونها و هى لا تبصر و لا تسمع و لا تضرّ و لا تنفع؛ و قيل: المراد بالعبد المملوك فى الآية هو الكافر المحروم من طاعة اللّه و عبوديته، و الآخر هو المؤمن؛ و الغرض أنهما لا يستويان فى الرتبة و الشرف؛ و قيل: العبد هو الصنم، و الثانى عابد الصنم، و المراد أنهما لا يستويان فى القدرة و التصرّف؛ لأن الأوّل جماد، و الثانى إنسان الْحَمْدُ لِلَّهِ أى: الحمد للّه كله؛ لأنه المنعم لا يستحق غيره من العباد شيئا منه، فكيف تستحق الأصنام منه شيئا و لا نعمة منها أصلا لا بالأصالة و لا بالتوسط؛ و قيل: أراد الحمد للّه على ما أنعم به على أوليائه من نعمة التوحيد؛ و قيل: أراد قل الحمد للّه، و الخطاب إما لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم أو لمن رزقه اللّه رزقا حسنا؛ و قيل: إنه لما ذكر مثلا مطابقا للغرض كاشفا عن المقصود قال الحمد للّه، أى: على قوّة هذه الحجة بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ذلك حتى يعبدوا من تحقّ له العبادة و يعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة، و نفى العلم عنهم إما لكونهم من الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليهم، أو هم يتركون الحق عنادا مع علمهم به فكانوا كمن لا علم له، و خصّ الأكثر بنفى العلم؛ إما لكونه يريد الخلق جميعا، و أكثرهم المشركون، أو ذكر الأكثر و هو يريد الكلّ، أو المراد أكثر المشركين، لأن فيهم من يعلم و لا يعمل بموجب العلم. ثم ذكر سبحانه مثلا ثانيا ضربه لنفسه، و لما يفيض على عباده من النعم الدينية و الدنيوية، و للأصنام التى هى أموات لا تضرّ و لا تنفع فقال: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا أى: مثلا آخر أوضح مما قبله و أظهر منه، و رَجُلَيْنِ بدل من مثل و تفسير له، و الأبكم:

العيىّ المفحم؛ و قيل: هو الأقطع اللسان الذى لا يحسن الكلام، و روى ثعلب عن ابن الأعرابى أنه الذى لا يسمع و لا يبصر، ثم وصف الأبكم فقال: لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره لعدم فهمه و عدم قدرته على النطق، و معنى كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ ثقيل على وليه و قرابته و عيال على من يلى أمره و يعوله و وبال على إخوانه، و قد يسمّى اليتيم كلا لثقله على من يكفله، و منه قول الشاعر:

أكول لمال الكلّ قبل شبابهإذا كان عظم الكلّ غير شديد

و فى هذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شىء مطلقا. ثم وصفه بصفة

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٢١٨

رابعة فقال: أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ أى: إذا وجّهه إلى أىّ جهة لا يأت بخير قط؛ لأنه لا يفهم و لا يعقل ما يقال له و لا يمكنه أن يقول. و قرأ يحيى بن وثّاب «أينما يوجّه» على البناء للمجهول، و قرأ ابن مسعود «أينما توجّه» على صيغة الماضى هَلْ يَسْتَوِي هُوَ فى نفسه مع هذه الأوصاف التى اتّصف بها وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ أى: يأمر الناس بالعدل مع كونه فى نفسه ينطق بما يريد النطق به و يفهم، و يقدر على التصرّف فى الأشياء وَ هُوَ فى نفسه عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ على دين قويم و سيرة صالحة ليس فيه ميل إلى أحد جانبى الإفراط و التفريط، قابل أوصاف الأول بهذين الوصفين المذكورين للآخر؛ لأن حاصل أوصاف الأوّل عدم استحقاقه لشىء، و حاصل وصفى هذا أنه مستحق أكمل استحقاق، و المقصود الاستدلال بعدم تساوى هذين المذكورين على امتناع التساوى بينه سبحانه و بين ما يجعلونه شريكا له. و لما فرغ سبحانه من ذكر المثلين مدح نفسه بقوله: وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: يختصّ ذلك به لا يشاركه فيه غيره و لا يستقل به، و المراد علم ما غاب عن العباد فيهما، أو أراد بغيبهما يوم القيامة؛ لأن علمه غائب عن العباد، و معنى الإضافة إليهما التعلق بهما. و المعنى: التوبيخ للمشركين و التقريع لهم، أى: أن العبادة إنما يستحقها من كانت هذه صفته لا من كان جاهلا عاجزا لا يضرّ و لا ينفع و لا يعلم بشىء من أنواع العلم وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ التى هى أعظم ما وقعت فيه المماراة من الغيوب المختصّة به سبحانه إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ اللمح النظر بسرعة، و لا بدّ فيه من زمان تتقلب فيه الحدقة نحو المرئى و كل زمان قابل للتجزئة، و لذا قال: أَوْ هُوَ أى: أمرهما أَقْرَبُ و ليس هذا من قبيل المبالغة، بل هو كلام فى غاية الصدق؛ لأن مدّة ما بين الخطاب و قيام الساعة متناهية، و منها إلى الأبد غير متناه، و لا نسبة للمتناهى إلى غير المتناهى؛ أو

يقال: إن الساعة لما كانت آتية و لا بدّ جعلت من القرب كلمح البصر. و قال الزجاج: لم يرد أن الساعة تأتى فى لمح البصر، و إنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها، لأنه يقول للشىء كن فيكون؛ و قيل: المعنى: هى عند اللّه كذلك و إن لم تكن عند المخلوقين بهذه الصفة، و مثله قوله سبحانه: إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً- وَ نَراهُ قَرِيباً «١». و لفظ أو فى:
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ليس للشك بل للتمثيل؛ و قيل: دخلت لشك المخاطب، و قيل: هى بمنزلة بل إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و مجىء الساعة بسرعة من جملة مقدوراته. ثم إنه سبحانه ذكر حالة أخرى للإنسان دالة على غاية قدرته و نهاية رأفته فقال: وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً و هذا معطوف على قوله: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً منتظم معه فى سلك أدلة التوحيد؛ أى: أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشىء، و جملة لا تعلمون شيئا فى محل نصب على الحال؛ و قيل: المراد لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق، و قيل: لا تعلمون شيئا ممّا قضى به عليكم من السعادة و الشقاوة، و قيل: لا تعلمون شيئا من منافعكم. و الأولى التعميم لتشمل الآية هذه الأمور و غيرها اعتبارا بعموم اللفظ، فإن شيئا نكرة واقعة فى سياق النفى. و قرأ الأعمش و ابن وثاب و حمزة «إمهاتكم» بكسر الهمزة و الميم- هنا- و فى النور و الزمر و النجم. و قرأ الكسائى بكسر الهمزة و فتح الميم. و قرأ الباقون بضم الهمزة و فتح الميم

---

(١). المعارج: ۶ و ۷.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٢١٩

وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ أى: ركب فيكم هذه الأشياء، و هو معطوف على أخرجكم، و ليس فيه دلالة على تأخير هذا الجعل عن الإخراج لما أن مدلول الواو هو مطلق الجمع. و المعنى: جعل لكم هذه الأشياء لتحصلوا بها العلم الذى كان مسلوبا عنكم عند إخراجكم من بطون أمهاتكم، و تعملوا بموجب ذلك العلم من شكر المنعم و عبادته و القيام بحقوقه، و الأفئدة: جمع فؤاد، و هو وسط القلب، منزل منه بمنزلة القلب من الصدر، و قد قدّمنا الوجه فى إفراد السمع و جمع الأبصار و الأفئدة، و هو أن أفراد السمع لكونه مصدرا فى الأصل يتناول القليل و الكثير لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى: لكى تصرفوا كلّ آلة فيما خلقت له، فعند ذلك تعرفون مقدار ما أنعم اللّه به عليكم فتشكرونه، أو أن هذا الصرف هو نفس الشكر. ثم ذكر سبحانه دليلا آخر على كمال قدرته، فقال: أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ أى: ألم ينظروا إليها حال كونها مسخرات، أى: مذللات للطيران بما خلق اللّه لها من الأجنحة و سائر الأسباب المؤاتية لذلك كرقة قوام الهواء، و إلهامها بسط الجناح و قبضه؛ كما يفعل السابح فى الماء فِي جَوِّ السَّماءِ أى: فى الهواء المتباعد من الأرض فى سمت العلو، و إضافته إلى السماء لكونه فى جانبها ما يُمْسِكُهُنَ فى الجوّ إِلَّا اللَّهُ سبحانه بقدرته الباهرة، فإن ثقل أجسامها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها، لأنها لم تتعلق بشىء من فوقها، و لا اعتمدت على شىء تحتها. و قرأ يحيى بن وثاب و الأعمش و ابن عامر و حمزة و يعقوب «ألم تروا» بالفوقية على الخطاب، و اختار هذه القراءة أبو عبيد. و قرأ الباقون بالتحتية إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أى: إن فى ذلك التسخير على تلك الصفة لآيات ظاهرات تدلّ على وحدانية اللّه سبحانه و قدرته الباهرة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ باللّه سبحانه و بما جاءت به رسله من الشرائع التى شرعها اللّه.
و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً الآية.
قال: يعنى الكافر أنه لا يستطيع أن ينفق نفقة فى سبيل اللّه وَ مَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً الآية قال:
يعنى المؤمن، و هذا المثل فى النفقة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم نحوه بأطول منه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية، و فى قوله: مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ قال: كل هذا مثل إله الحق و ما تدعون من دونه الباطل. و أخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال: فى المثل الأوّل يعنى

بذلك الآلهة التى لا تملك ضرّا و لا نفعا و لا تقدر على شيء ينفعها وَ مَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْراً قال: علانية، الذى ينفق سرّا و جهرا للّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عنه قال: نزلت هذه الآية: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً فى رجل من قريش و عبده، و فى هشام بن عمرو، و هو الذى ينفق سرّا و جهرا، و فى عبده أبى الجوزاء الذى كان ينهاه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ الآية قال: يعنى بالأبكم الذى: هُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ الكافر وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ المؤمن، و هذا المثل فى الأعمال. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عنه أيضا قال: نزلت هذه الآية: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ الآية فى عثمان بن عفان و مولى له كافر، و هو أسيد

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٢٢٠

ابن أبى العيص كان يكره الإسلام، و كان عثمان ينفق عليه و يكفله و يكفيه المؤنة، و كان الآخر ينهاه عن الصدقة و المعروف، فنزلت فيهما. و أخرج ابن سعد و ابن أبى شيبة، و البخارى فى تاريخه، و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عنه أيضا فى قوله: وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ قال: عثمان بن عفان. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: كَلٌّ قال: الكلّ: العيال، كانوا إذا ارتحلوا حملوه على بعير ذلول، و جعلوا معه نفرا يمسكونه خشية أن يسقط عليهم، فهو عناء و عذاب و عيال عليهم هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ يعنى نفسه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ هو أن يقول: كن فهو كلمح البصر أَوْ هُوَ أَقْرَبُ فالساعة كلمح البصر أو هى أقرب. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ قال: من الرحم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فِي جَوِّ السَّماءِ أى: فى كبد السماء.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٨٠ الى ٨٣]

وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وَ أَشْعارِها أَثاثاً وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ (٨٠) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَ سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَ أَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ (٨٣)

قوله: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ معطوف على ما قبله و هذا المذكور من جملة أحوال الإنسان، و من تعديد نعم اللّه عليه، و السكن مصدر يوصف به الواحد و الجمع، و هو بمعنى مسكون، أى: تسكنون فيها و تهدأ جوارحكم من الحركة، و هذه نعمة؛ فإن اللّه سبحانه لو شاء لخلق العبد مضطربا دائما كالأفلاك، و لو شاء لخلقه ساكنا أبدا كالأرض وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً لما ذكر سبحانه بيوت المدن، و هى التى للإقامة الطويلة عقبها بذكر بيوت البادية و الرحلة، أى: جعل لكم من جلود الأنعام، و هى الأنطاع و الأدم بيوتا كالخيام و القباب تَسْتَخِفُّونَها أى: يخفّ عليكم حملها فى الأسفار و غيرها، و لهذا قال: يَوْمَ ظَعْنِكُمْ و الظعن بفتح العين و سكونها، و قرئ بهما، سير أهل البادية للانتجاع، و التحوّل من موضع إلى موضع، و منه قول عنترة:

ظعن الّذين فراقهم أتوقّعو جرى ببينهم الغراب الأبقع

و الظعن: الهودج أيضا. وَ مِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وَ أَشْعارِها أَثاثاً معطوف على جَعَلَ أى:

و جعل لكم من أصواف الأنعام و أوبارها و أشعارها، و الأنعام تعمّ الإبل و البقر و الغنم كما تقدّم، و الأصواف للغنم، و الأوبار للإبل، و الأشعار للمعز، و هى من جملة الغنم، فيكون ذكر هذه الثلاثة على وجه التنويع

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۲۲۱

كل واحد منها لواحد من الثلاثة، أعنى الإبل، و نوعى الغنم، و الأثاث متاع البيت، و أصله الكثرة و الاجتماع، و منه شعر أثيث: أى كثير مجتمع، قال الشاعر «۱»:

و فرع يزين المتن أسود فاحم‏أثيث كقنو النّخلة المتعثكل «۲»

قال الخليل: أثاثا، أى: منضمّا بعضه إلى بعض، من أثّ إذا أكثر، قال الفراء: لا واحد له، و المتاع:

ما يتمتع به بأنواع التمتع، و على قول أبى زيد الأنصارى: إن الأثاث المال أجمع: الإبل و الغنم و العبيد و المتاع، يكون عطف المتاع على الأثاث من عطف الخاص على العام؛ و قيل: إن الأثاث ما يكتسى به الإنسان و يستعمله من الغطاء و الوطاء، و المتاع: ما يفرش فى المنازل و يتزيّن به، و معنى إِلى‏ حِينٍ إلى أن تقضوا أو طاركم منه، أو إلى أن يبلى و يفنى، أو إلى الموت، أو إلى القيامة؛ ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيام، أو أبنية يستظل بها لفقر، أو لعارض آخر فيحتاج إلى أن يستظلّ بشجر أو جدار أو غمام أو نحو ذلك نبه سبحانه على ذلك فقال: جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالًا أى: أشياء تستظلون بها كالأشياء المذكورة. و الحاصل أن الظلال تعمّ الأشياء التى تظلّ؛ ثم لما كان المسافر قد يحتاج إلى ركن يأوى إليه فى نزوله، و إلى ما يدفع به عن نفسه آفات الحر و البرد، نبّه سبحانه على ذلك فقال: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً و هى جمع كنّ، و هو ما يستكنّ به من المطر، و هى هنا الغيران فى الجبال، و جعلها اللّه سبحانه عدّة للخلق يأوون إليها، و يتحصنون بها، و يعتزلون عن الخلق فيها: وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ جمع سربال، و هى القمصان و الثياب من الصوف و القطن و الكتان و غيرهما. قال الزجاج: كل ما لبسته فهو سربال، و معنى تَقِيكُمُ الْحَرَّ تدفع عنكم ضرر الحرّ، و خصّ الحرّ و لم يذكر البرد اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر؛ لأن ما وقى من الحرّ وقى من البرد. و وجه تخصيص الحرّ بالذكر أن الوقاية منه كانت أهمّ عندهم من الوقاية من البرد لغلبة الحرّ فى بلادهم وَ سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ و هى الدروع و الجواشن يتقون بها الطعن و الضرب و الرمى.

و المعنى: أنها تقيم البأس الذى يصل من بعضهم إلى بعض فى الحرب كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ أى:

مثل ذلك الإتمام البالغ يتمّ نعمته عليكم، فإنه سبحانه قد منّ على عباده بصنوف النعم المذكورة هاهنا و بغيرها، و هو بفضله و إحسانه سيتمّ لهم نعمة الدين و الدنيا لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ إرادة أن تسلموا، إن من أمعن النظر فى هذه النعم لم يسعه إلا الإسلام و الانقياد للحق. و قرأ ابن محيصن و حميد «تتم نعمته» بتاءين فوقيتين على أن فاعله نعمته، و قرأ الباقون بالتحتية على أن الفاعل هو اللّه سبحانه. و قرأ ابن عباس و عكرمة تُسْلِمُونَ بفتح التاء و اللام من السلامة من الجراح، و قرأ الباقون بضم التاء و كسر اللام من الإسلام. قال أبو عبيد:

و الاختيار قراءة العامة؛ لأن ما أنعم اللّه به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح؛ و قيل:

الخطاب لأهل مكة، أى: لعلّكم يا أهل مكة تخلصون للّه الربوبية، و الأولى الحمل على العموم، و إفراد النعمة،

---

(۱). هو امرؤ القيس.

(۲). «الفرع»: الشعر التام. «المتن»: ما عن يمين الصلب و شماله من العصب و اللحم. «الفاحم»: الشديد السواد. «القنو»: العذق و هو الشمراخ. «المتعثكل»: الذى قد دخل بعضه فى بعض لكثرته.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۲۲۲

هنا، لأنّ المراد بها المصدر فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ أى: إن تولوا عنك و لم يقبلوا ما جئت به فقد تمهّد «۱» عذرك، فإنما عليك البلاغ لما أرسلت به إليهم المبين، أى: الواضح، و ليس عليك غير ذلك، و صرف الخطاب إلى رسول اللّه صلّى

اللّه عليه و سلّم تسلية له، و جملة يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها استئناف لبيان توليهم، أى: هم يعرفون نعمة اللّه التى عدّدها، و يعترفون بأنها من عند اللّه سبحانه، ثم ينكرونها بما يقع من أفعالهم القبيحة من عبادة غير اللّه و بأقوالهم الباطلة، حيث يقولون هى من اللّه و لكنها بشفاعة الأصنام، و حيث يقولون: إنهم ورثوا تلك النعم من آبائهم، و أيضا كونهم لا يستعملون هذه النعم فى مرضاة الربّ سبحانه، و فى وجوه الخير التى أمرهم اللّه بصرفها فيها؛ و قيل: نعمة اللّه نبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم كانوا يعرفونه ثم ينكرون نبوّته وَ أَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ أى: الجاحدون لنعم اللّه أو الكافرون باللّه، و عبّر هنا بالأكثر عن الكلّ، أو أراد بالأكثر العقلاء دون الأطفال و نحوهم، أو أراد كفر الجحود و لم يكن كفر كلهم كذلك، بل كان كفر بعضهم كفر جهل، و كفر بعضهم بسبب تكذيب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مع اعترافهم باللّه و عدم الجحد لربوبيته، و مثل هذه الآية قوله تعالى: وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ «٢».

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد سكنا قال: تسكنون فيها. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى نحوه قال: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً و هى خيام العرب تَسْتَخِفُّونَها يقول: فى الحمل وَ مَتاعاً يقول بلاغا إِلى حِينٍ قال: إلى الموت. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ قال: بعض بيوت السيارة بنيانه فى ساعة، و فى قوله: وَ أَوْبارِها قال: الإبل وَ أَشْعارِها قال الغنم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: أَثاثاً قال: الأثاث: المتاع. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الأثاث: المال وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ يقول: تنتفعون به إلى حين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالًا قال: من الشجر و من غيرها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً قال: غيران يسكن فيها وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ قال: من القطن و الكتان و الصوف وَ سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ من الحديد كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ و لذلك هذه السورة تسمّى سورة النعم. و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ قال:

يعنى الثياب، وَ سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ قال: يعنى الدروع و السلاح كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ يعنى من الجراحات، و كان ابن عباس يقرؤها تسلمون كما قدّمنا، و إسناده ضعيف.

---

(١). «تمهّد»: قبل.

(٢). النمل: ١۴.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٢٣

[سورة النحل (١۶): الآيات ٨۴ الى ٩٠]

وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨۴) وَ إِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨۵) وَ إِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ (٨۶) وَ أَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨)

وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)

لمّا بيّن سبحانه من حال هؤلاء أنهم عرفوا نعمة اللّه ثم أنكروها، و أن أكثرهم كافرون أتبعه بأصناف وعيد يوم القيامة، فقال: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً أى: و اذكر يوم نبعث، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه، و شهيد كل أمة نبيها يشهد لهم بالإيمان و التصديق، و عليهم بالكفر و الجحود و التكذيب ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أى: فى الاعتذار، إذ لا حجة لهم و لا عذر كقوله سبحانه: وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ أو فى كثرة الكلام، أو فى الرجوع إلى دار الدنيا، و إيراد ثم هاهنا للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبئ عن الإقناط الكلى أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ لأنّ العتاب إنما يطلب لأجل العود إلى الرضا، فإذا كان على عزم السخط فلا فائدة فى العتاب. و المعنى: أنهم لا يسترضون؛ أى: لا يكلفون أن يرضوا ربهم، لأن الآخرة ليست بدار تكليف، و لا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون، و أصل الكلمة من العتب و هو الموجد، يقال عتب عليه يعتب؛ إذا وجد عليه، فإذا أفاض عليه ما عتب فيه عليه قيل عاتبه، فإذا رجع إلى مسرّته قيل أعتبه، و الاسم العتبى، و هو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب قاله الهروى، و منه قول النابغة:

فإن كنت مظلوما فعبدا ظلمتهو إن كنت ذا عتبى فمثلك يعتب

وَ إِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ أى: و إذا رأى الذين أشركوا العذاب الذى يستحقونه بشركهم، و هو عذاب جهنم فَلا يُخَفَّفُ ذلك العذاب عَنْهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ أى: و لا هم يمهلون ليتوبوا إذ لا توبة هنالك وَ إِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ أى: أصنامهم و أوثانهم التى عبدوها، لما تقرّر من أنهم يبعثون مع المشركين ليقال لهم من كان يعبد شيئا فليتبعه، كما ثبت فى الصحيح من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم. قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ أى: الذين كنّا نعبدهم من دونك. قال أبو مسلم الأصفهانى: مقصود المشركين بهذا القول إحالة الذنب على تلك الأصنام تعللا بذلك و استرواحا مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة، و لكن الغريق يتعلّق بكل ما تقع يده عليه فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۲۴

أى: ألقى أولئك الأصنام و الأوثان و الشياطين و نحوهم إلى المشركين القول إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ أى: قالوا لهم إنكم أيها المشركون لكاذبون فيما تزعمون من إحالة الذنب علينا، الذى هو مقصودكم من هذا القول.

فإن قيل إن المشركين أشاروا إلى الأصنام و نحوها أن هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك، و قد كانوا صادقين فى ذلك، فكيف كذبتهم الأصنام و نحوها؟ فالجواب بأن مرادهم من قولهم هؤلاء شركاؤنا: هؤلاء شركاء اللّه فى المعبودية، فكذبتهم الأصنام فى دعوى هذه الشركة؛ و الأصنام و الأوثان و إن كانت لا تقدر على النطق فإنّ اللّه سبحانه ينطقها فى تلك الحال لتخجيل المشركين و توبيخهم، و هذا كما قالت الملائكة: بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَ «۱» يعنون أن الجنّ هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لهم وَ أَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ أى: ألقى المشركون يوم القيامة الاستسلام و الانقياد لعذابه و الخضوع لعزّته، و قيل: استسلم العابد و المعبود و انقادوا لحكمه فيهم وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى: ضاع و بطل ما كانوا يفترونه من أن للّه سبحانه شركاء و ما كانوا يزعمون من شفاعتهم لهم، و أن عبادتهم لهم تقرّبهم إلى اللّه سبحانه الَّذِينَ كَفَرُوا فى أنفسهم وَ صَدُّوا غيرهم عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى: عن طريق الحق، و هى طريق الإسلام و الإيمان بأن منعوهم من سلوكها و حملوهم على الكفر؛ و قيل: المراد بالصدّ عن سبيل اللّه: الصدّ عن المسجد الحرام، و الأولى العموم. ثم أخبر عن هؤلاء الذين صنعوا هذا الصنع بقوله: زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ أى:

زادهم اللّه عذابا لأجل الإضلال لغيرهم فوق العذاب الذى استحقوه لأجل ضلالهم؛ و قيل: المعنى: زدنا القادة عذابا فوق عذاب أتباعهم، أى: أشد منه؛ و قيل: إن هذه الزيادة هى إخراجهم من النار إلى الزمهرير، و قيل غير ذلك وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ أى: نبيا يشهد عليهم مِنْ أَنْفُسِهِمْ من جنسهم، إتماما للحجة و قطعا للمعذرة، و هذا تكرير لما سبق لقصد التأكيد و

التهديد وَ جِئْنا بِكَ يا محمد شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ أى: تشهد على هذه الأمم و تشهد لهم، و قيل: على أمتك، و قد تقدّم مثل هذا فى البقرة و النساء وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ أى: القرآن، و الجملة مستأنفة أو فى محل نصب على الحال بتقدير قد تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ أى: بيانا له، و التاء للمبالغة، و نظيره من المصادر التلقاء، و لم يأت غيرهما، و مثل هذه الآية قوله سبحانه: ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ «٢»، و معنى كونه تبيانا لكلّ شيء أن فيه البيان لكثير من الأحكام، و الإحالة فيما بقى منها على السنة، و أمرهم باتباع رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم فيما يأتى به من الأحكام، و طاعته كما فى الآيات القرآنية الدالة على ذلك، و قد صحّ عنه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «إنّى أوتيت القرآن و مثله معه».

وَ هُدىً للعباد وَ رَحْمَةً لهم وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ خاصة دون غيرهم، أو يكون الهدى و الرحمة و البشرى خاصة بهم، لأنهم المنتفعون بذلك. ثم لما ذكر سبحانه أن فى القرآن تبيان كل شيء ذكر عقبه آية جامعة لأصول التكليف كلها تصديقا لذلك فقال: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ

و قد اختلف أهل العلم فى تفسير العدل و الإحسان، فقيل: العدل لا إله إلا اللّه، و الإحسان أداء الفرائض؛ و قيل: العدل الفرض، و الإحسان النافلة. و قيل: العدل استواء العلانية و السريرة، و الإحسان أن تكون

---

(١). سبأ: ٤١.

(٢). الأنعام: ٣٨.

السريرة أفضل من العلانية. و قيل: العدل الإنصاف، و الإحسان التفضل. و الأولى تفسير العدل بالمعنى اللغوى، و هو التوسط بين طرفى الإفراط و التفريط؛ فمعنى أمره سبحانه بالعدل أن يكون عباده فى الدين على حالة متوسطة؛ ليست بمائلة إلى جانب الإفراط و هو الغلوّ المذموم فى الدين، و لا إلى جانب التفريط و هو الإخلال بشيء مما هو من الدين؛ و أما الإحسان فمعناه اللغوى يرشد إلى أنه التفضل بما لم يجب كصدقة التطوّع، و من الإحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه اللّه عليه فى العبادات و غيرها، و قد صحّ عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنه فسّر الإحسان بأن يعبد اللّه العبد حتى كأنه يراه، فقال فى حديث ابن عمر الثابت فى الصحيحين:

«و الإحسان أن تعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» و هذا هو معنى الإحسان شرعا وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى أى: إعطاء القرابة ما تدعو إليه حاجتهم، و فى الآية إرشاد إلى صلة الأقارب و ترغيب فى التصدق عليهم، و هو من باب عطف الخاص على العام إن كان إعطاء الأقارب قد دخل تحت العدل و الإحسان؛ و قيل:

من باب عطف المندوب على الواجب، و مثل هذه الآية قوله: وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ «١». و إنما خصّ ذوى القربى لأن حقهم آكد، فإن الرحم قد اشتق اللّه اسمها من اسمه، و جعل صلتها من صلته و قطيعتها من قطيعته وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ هى الخصلة المتزايدة فى القبح من قول أو فعل، و قيل: هى الزنا، و قيل: البخل وَ الْمُنْكَرِ ما أنكره الشرع بالنهى عنه، و هو يعمّ جميع المعاصى على اختلاف أنواعها، و قيل: هو الشرك وَ أما الْبَغْيِ فقيل: هو الكبر، و قيل: الظلم، و قيل: الحقد، و قيل: التعدّى، و حقيقته تجاوز الحدّ فيشمل هذه المذكورة و يندرج بجميع أقسامه تحت المنكر، و إنما خصّ بالذكر اهتماما به لشدّة ضرره و وبال عاقبته، و هو من الذنوب التى ترجع على فاعلها لقوله سبحانه: إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ «٢»، و هذه الآية هى من الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله:

يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أى: يعظكم بما ذكره فى هذه الآية مما أمركم به و نهاكم عنه، فإنها كافية فى باب الوعظ و التذكير،

لعلّكم تذكرون إرادة أن تتذكروا ما ينبغى تذكره فتتّعظوا بما وعظكم اللّه به.
و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً قال: شهيدها نبيها على أنه قد بلغ رسالات ربه، قال اللّه: وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ قال: ذكر لنا أن نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ قال: حدّثوهم. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج وَ أَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ قال: استسلموا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة نحوه. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و هناد بن السرىّ و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى البعث و النشور، عن ابن مسعود فى قوله: زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ قال: زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال. و أخرج ابن مردويه و الخطيب عن البراء: «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم سئل عن قول اللّه تعالى زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ فقال: عقارب أمثال

---

(۱). الإسراء: ۲۶.

(۲). يونس: ۲۳.

النخل الطوال ينهشونهم فى جهنّم». و أخرج أبو يعلى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:
زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ قال: خمسة أنهار من نار صبّها اللّه عليهم يعذّبون ببعضها بالليل، و ببعضها بالنهار. و قد روى ابن مردويه من حديث جابر عن النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الزيادة خمسة أنهار تجرى من تحت العرش على رؤوس أهل النار: ثلاثة أنهار على مقدار الليل، و نهران على مقدار النهار» فذلك قوله:
زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: إن اللّه أنزل فى هذا الكتاب تبيانا لكل شىء، و لكن علمنا يقصر عمّا بيّن لنا فى القرآن، ثم قرأ: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن الضريس فى فضائل القرآن، و محمد بن نصر فى كتاب الصلاة، و الطبرانى، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مسعود قال: من أراد العلم فليتنوّر القرآن، فإن فيه علم الأوّلين و الآخرين. و أخرج أحمد عن عثمان بن أبى العاص قال: «كنت عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم جالسا إذ شخص بصره فقال: أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ الآية». و فى إسناده شهر بن حوشب. و قال ابن كثير فى تفسيره: إسناده لا بأس به. و قد أخرجه مطوّلا أحمد، و البخارى فى الأدب، و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه من حديث ابن عباس، و حسّن ابن كثير إسناده. و أخرج الباوردى و ابن السكن و ابن مندة، و أبو نعيم فى معرفة الصحابة، عن عبد الملك بن عمير أن هذه الآية لما بلغت أكثم ابن صيفى حكيم العرب قال: إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق، و ينهى عن ملائمها، ثم قال لقومه: كونوا فى هذا الأمر رؤوسا، و لا تكونوا فيه أذنابا، و كونوا فيه أوّلا و لا تكونوا فيه آخرا.
و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله:
إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ قال: شهادة أن لا إله إلا اللّه، و الإحسان أداء الفرائض وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى قال: إعطاء ذوى الأرحام الحق الذى أوجبه اللّه عليك بسبب القرابة و الرحم وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ قال:
الزنا وَ الْمُنْكَرِ قال: الشرك وَ الْبَغْيِ قال: الكبر و الظلم يَعِظُكُمْ قال: يوصيكم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ و أخرج سعيد بن منصور، و البخارى فى الأدب، و محمد بن نصر فى الصلاة، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و

البيهقى فى الشعب قال: أعظم آية فى كتاب اللّه اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ «١»، و أجمع آية فى كتاب اللّه للخير و الشرّ الآية التى فى النحل إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ و أكثر آية فى كتاب اللّه تفويضا: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً- وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ «٢»، و أشدّ آية فى كتاب اللّه رجاء: يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ «٣» الآية.

و أخرج البيهقى فى الشعب عن الحسن أنه قرأ هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ إلى آخرها ثم قال: إن اللّه عزّ و جلّ جمع لكم الخير كله و الشرّ كله فى آية واحدة، فو اللّه ما ترك العدل و الإحسان من طاعة اللّه شيئا إلا جمعه، و لا ترك الفحشاء و المنكر و البغى من معصية اللّه شيئا إلا جمعه. و أخرج البخارى

---

(١). البقرة: ٢٥٥.

(٢). الطلاق: ٢ و ٣.

(٣). الزمر: ٥٣.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٢٧

فى تاريخه، من طريق الكلبى عن أبيه قال: مرّ علىّ بن أبى طالب بقوم يتحدّثون فقال: فيم أنتم؟ قالوا: نتذاكر المروءة، فقال: أو ما كفاكم اللّه عزّ و جلّ ذلك فى كتابه إذ يقول: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ فالعدل الإنصاف، و الإحسان التفضل، فما بقى بعد هذا؟.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٩١ الى ٩٦]

وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (٩١) وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَ لا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَ لا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥)

ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)

خصّ سبحانه من جملة المأمورات التى تضمّنها قوله: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ الوفاء بالعهد فقال:

وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ و ظاهره العموم فى كل عهد يقع من الإنسان من غير فرق بين عهد البيعة و غيره، و خصّ هذا العهد المذكور فى هذه الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن فى بيعة النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم على الإسلام و هو خلاف ما يفيده العهد المضاف إلى اسم اللّه سبحانه من العموم الشامل لجميع عهود اللّه، و لو فرض أن السبب خاص بعهد من العهود لم يكن ذلك موجبا لقصره على السبب، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و فسره بعضهم باليمين، و هو مدفوع بذكر الوفاء بالأيمان بعده حيث قال سبحانه: وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها أى: بعد تشديدها و تغليظها و توثيقها، و ليس المراد اختصاص النهى عن النقض بالأيمان المؤكدة، لا بغيرها مما لا تأكيد فيه، فإن تحريم النقض يتناول الجميع، و لكن فى نقض اليمين المؤكدة من الإثم فوق الإثم الذى فى نقض ما لم يوكد منها، يقال وكد و أكد توكيدا و تأكيدا، و هما لغتان. و قال الزجاج:

الأصل الواو و الهمزة بدل منها، و هذا العموم مخصوص بما ثبت فى الأحاديث الصحيحة من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «من

حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير و ليكفّر عن يمينه» حتى بالغ فى ذلك صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «و اللّه لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير و كفّرت عن يمينى» و هذه الألفاظ ثابتة فى الصحيحين و غيرهما، و يخصّ أيضا من هذا العموم يمين اللغو؛ لقوله سبحانه: لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ* «١»، و يمكن أن يكون التقييد بالتوكيد هنا لإخراج أيمان اللغو، و قد تقدّم بسط الكلام على الأيمان فى البقرة وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا أى: شهيدا، و قيل: حافظا، و قيل: ضامنا، و قيل:

---

(١). البقرة: ٢٢٥.

رقيبا؛ لأن الكفيل يراعى حال المكفول به، و قيل: إن توكيد اليمين هو حلف الإنسان على الشىء الواحد مرارا. و حكى القرطبيّ عن ابن عمر أن التوكيد هو أن يحلف مرتين، فإن حلف واحدة فلا كفارة عليه إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ فيجازيكم بحسب ذلك، إن خيرا فخير، و إن شرّا فشرّ، و فيه ترغيب و ترهيب.

ثم أكد وجوب الوفاء و تحريم النقض فقال: وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها أى: لا تكونوا فيما تصنعون من النقض بعد التوكيد كالتى نقضت غزلها، أى: ما غزلته مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أى: من بعد إبرام الغزل و إحكامه، و هو متعلق بنقضت أَنْكاثاً جمع نكث بكسر النون، ما ينكث فتله. قال الزجّاج:

انتصب أنكاثا على المصدر؛ لأن معنى نقضت نكثت؛ و ردّ بأن أنكاثا ليس بمصدر، و إنما هو جمع كما ذكرنا.

و قال الواحدى: هو منصوب على أنه مفعول ثان كما تقول كسرته أقطاعا و أجزاء، أى: جعلته أقطاعا و أجزاء، و يحتمل أن يكون حالا. قال ابن قتيبة: هذه الآية متعلّقة بما قبلها، و التقدير: و أوفوا بعهد اللّه و لا تنقضوا الأيمان، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلا و أحكمته ثم جعلته أنكاثا، و جملة تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فى محل نصب على الحال. قال الجوهرى: و الدّخل المكر و الخديعة، و قال أبو عبيدة: كلّ أمر لم يكن صحيحا فهو دخل. و قيل: الدّخل ما أدخل فى الشىء على فساده. و قال الزجاج: غشا و دغلا أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ أى بأن تكون جماعة هى أربى من جماعة؛ أى: أكثر عددا منها و أوفر مالا. يقال: ربا الشىء يربو إذا كثر. قال الفرّاء: المعنى لا تغدروا بقوم لقلتهم و كثرتكم أو لقلتكم و كثرتهم و قد عزّرتموهم بالأيمان. قيل: و قد كانت قريش إذا رأوا شوكة فى أعادى حلفائهم نقضوا عهدهم و حالفوا أعداءهم، و قيل: هو تحذير للمؤمنين أن يغترّوا بكثرة قريش وسعة أموالهم فينقضوا بيعة النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ أى: يختبركم بكونكم أكثر و أوفر لينظر هل تتمسكون بحبل الوفاء أم تنقضون اغترارا بالكثرة؟

فالضمير فى «به» راجع إلى مضمون جملة أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ أى: إنما يبلوكم اللّه بتلك الكثرة ليعلم ما تصنعون، أو إنما يبلوكم اللّه بما يأمركم و ينهاكم وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فيوضح الحق و المحقين و يرفع درجاتهم، و يبين الباطل و المبطلين فينزل بهم من العذاب ما يستحقونه، و فى هذا إنذار و تحذير من مخالفة الحق و الركون إلى الباطل، أو يبين لكم ما كنتم تختلفون فيه من البعث و الجنة و النار.

ثم بين سبحانه أنه قادر على أن يجمع المؤمنين و الكافرين على الوفاء أو على الإيمان فقال: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً متفقة على الحق وَ لكِنْ بحكم الإلهية يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ بخذلانه إياهم عدلا منه فيهم وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ بتوفيقه إياهم فضلا منه عليهم: لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ «١»، و لهذا قال:

وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من الأعمال فى الدنيا، و اللام فى. «و ليبيننّ لكم»، و فى «و لتسألنّ» هما الموطئتان للقسم. ثم لما

نهاهم سبحانه عن نقض مطلق الأيمان نهاهم عن نقض أيمان مخصوصة فقال: وَ لا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ و هى أيمان البيعة. قال الواحدى: قال المفسرون: و هذا فى نهى الذين بايعوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن نقض العهد على الإسلام و نصرة الدين، و استدلوا على هذا التخصيص بما فى قوله:

---

(١). الأنبياء: ٢٣.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٢٩

فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها من المبالغة، و بما فى قوله: وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ لأنهم إذا نقضوا العهد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صدّوا غيرهم عن الدخول فى الإسلام. و على تسليم أن هذه الأيمان مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هى سبب نزول هذه الآية، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. و قال جماعة من المفسرين: إن هذا تكرير لما قبله لقصد التأكيد و التقرير، و معنى «فتزلّ قدم بعد ثبوتها» فتزل قدم من اتخذ يمينه دخلا عن محجة الحق بعد ثبوتها عليها و رسوخها فيها. قيل: و أفرد القدم للإيذان بأن زلل قدم واحد أىّ قدم كانت عزّت أو هانت محذور عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟ و هذا استعارة للمستقيم الحال يقع فى شرّ عظيم و يسقط فيه لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شرّ، و يقال لمن أخطأ فى شىء: زلّت به قدمه، و منه قول الشاعر «١»:

تداركتما عبسا «٢» و قد ثلّ عرشهاو ذبيان قد زلّت بأقدامها النّعل

وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ أى: تذوقوا العذاب السيئ فى الدنيا أو فى الآخرة، أو فيهما بما صددتم عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى: بسبب صدودكم أنتم عن سبيل اللّه و هو الإسلام، أو بسبب صدّكم لغيركم عن الإسلام، فإن من نقض البيعة و ارتدّ اقتدى به غيره فى ذلك فكان فعله سنة سيئة عليه وزرها و وزر من عمل بها، و لهذا قال: وَ لَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ أى: متبالغ فى العظم، و هو عذاب الآخرة إن كان المراد بما قبله عذاب الدنيا.

ثم نهاهم سبحانه عن الميل إلى عرض الدنيا و الرجوع عن العهد لأجله فقال: وَ لا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا أى: لا تأخذوا فى مقابلة عهدكم عوضا يسيرا حقيرا، و كل عرض دنيوى و إن كان فى الصورة كثيرا فهو لكونه ذاهبا زائلا يسير، و لهذا ذكر سبحانه بعد تقليل عرض الدنيا خيرية ما عند اللّه فقال: إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ أى: ما عنده من النصر فى الدنيا و الغنائم و الرزق الواسع، و ما عنده فى الآخرة من نعيم الجنة الذى لا يزول و لا ينقطع هو خير لهم، ثم علّل النهى عن أن يشتروا بعهد اللّه ثمنا قليلا- و أن ما عند اللّه هو خير لهم بقوله: إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أى: إن كنتم من أهل العلم و التمييز بين الأشياء. ثم ذكر دليلا قاطعا على حقارة عرض الدنيا و خيرية ما عند اللّه فقال: ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ و معلوم لكل عاقل أن ما ينفد و يزول، و إن بلغ فى الكثرة إلى أى مبلغ فهو حقير يسير، و ما كان يبقى و لا- يزول فهو كثير جليل، أما نعيم الآخرة فظاهر، و أما نعيم الدنيا الذى أنعم اللّه به على المؤمنين فهو و إن كان زائلا- لكنه لما كان متصلا بنعيم الآخرة كان من هذه الحيثية فى حكم الباقى الذى لا- ينقطع، ثم قال: وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ اللام هى الموطئة، أى: لنجزينهم بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاقّ التكليف و جهاد الكافرين و الصبر على ما ينالهم منهم من الإيذاء بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات. قيل: و إنما خصّ أحسن أعمالهم، لأن ما عداه و هو الحسن مباح، و الجزاء إنما يكون على الطاعة؛ و قيل: المعنى: و لنجزينهم بجزاء أشرف و أوفر من عملهم، كقوله: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها «٣»

---

(١). هو زهير بن أبى سلمى.

(۲). فى اللسان: الأحلاف.

(۳). الأنعام: ۱۶۰.

فتح القدير، ج‌۳، ص: ۲۳۰

أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الأعلى منها من الجزاء الجزيل، لا أنّا نعطى الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة فى مراتب الحسن بأن نجزى الحسن منها بالأجر الحسن، و الأحسن بالأحسن، كذا قيل. قرأ عاصم و ابن كثير «لنجزين» بالنون.

و قرأ الباقون بالياء التحتية.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مزيد بن جابر فى قوله: وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ قال: أنزلت هذه الآية فى بيعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، كأنّ من أسلم بايع على الإسلام، فقال:

وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ الآية فلا يحملنكم قلة محمد و أصحابه و كثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها يقول: بعد تغليظها. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه. و أخرج ابن مردويه من طريق عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس أن سعيدة الأسدية كانت تجمع الشّعر و الليف، فنزلت فيها هذه الآية وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر بن حفص مثله، و فى الروايتين جميعا أنها كانت مجنونة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى فى سبب نزول الآية قال: كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكة، كانت تغزل، فإذا أبرمت غزلها نقضته. و أخرج ابن جرير عن عبد اللّه بن كثير معناه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ قال: ناس أكثر من ناس. و أخرجوا عن مجاهد فى الآية قال: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم و أعزّ؛ فينقضون حلف هؤلاء، و يحالفون هؤلاء الذين هم أعزّ، فنهوا عن ذلك.

[سورة النحل (۱۶): الآيات ۹۷ الى ۱۰۵]

مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۹۷) فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (۹۸) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۹۹) إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (۱۰۰) وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۱۰۱)

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (۱۰۲) وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (۱۰۳) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۰۴) إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ (۱۰۵)

هذا شروع فى ترغيب كلّ مؤمن فى كلّ عمل صالح، و تعميم للوعد؛ و معنى مَنْ عَمِلَ صالِحاً من عمل عملا صالحا أىّ عمل كان، و زيادة التمييز بذكر أو أنثى مع كون لفظ مَنْ شاملا لهما لقصد

فتح القدير، ج‌۳، ص: ۲۳۱

التأكيد و المبالغة فى تقرير الوعد؛ و قيل: إن لفظ «من» ظاهر فى الذكور، فكان فى التنصيص على الذكر و الأنثى بيان لشموله للنوعين و جملة وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فى محل نصب على الحال، جعل سبحانه الإيمان قيدا فى الجزاء المذكور لأن عمل الكافر لا اعتداد

به لقوله سبحانه: وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً «۱»، ثم ذكر سبحانه الجزاء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال: فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً و قد وقع الخلاف فى الحياة الطيبة بما ذا تكون؟ فقيل: بالرزق الحلال، روى ذلك عن ابن عباس و سعيد بن جبير و عطاء و الضحّاك. و قيل: بالقناعة، قاله الحسن البصرى و زيد بن وهب و وهب بن منبه. و روى أيضا عن علىّ و ابن عباس. و قيل: بالتوفيق إلى الطاعة قاله الضحّاك. و قيل: الحياة الطيبة هى حياة الجنة، روى عن مجاهد و قتادة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. و حكى عن الحسن أنه قال: لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة، و قيل: الحياة الطيبة هى السعادة، روى ذلك عن ابن عباس. و قيل: هى المعرفة باللّه، حكى ذلك عن جعفر الصادق. و قال أبو بكر الورّاق: هى حلاوة الطاعة. و قال سهل بن عبد اللّه التسترى: هى أن ينزع عن العبد تدبير نفسه و يردّ تدبيره إلى الحق. و قيل: هى الاستغناء عن الخلق و الافتقار إلى الحق، و أكثر المفسرين على أن هذه الحياة الطيبة هى فى الدنيا لا فى الآخرة، لأن حياة الآخرة قد ذكرت بقوله: وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ و قد قدّمنا قريبا تفسير الجزاء بالأحسن، و وحّد الضمير فى لنحيينه، و جمعه فى و لنجزينهم حملا على لفظ من، و على معناه. ثم لما ذكر سبحانه العمل الصالح و الجزاء عليه أتبعه بذكر الاستعاذة التى تخلص بها الأعمال الصالحة عن الوساوس الشيطانية فقال: فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ و الفاء لترتيب الاستعاذة على العمل الصالح، و قيل: هذه الآية متصلة بقوله: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ «۲»، و التقدير: فإذا أخذت فى قراءته فاستعذ. قال الزجاج و غيره من أئمة اللغة:

معناه إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ، و ليس معناه استعذ بعد أن تقرأ القرآن، و مثله: إذا أكلت فقل بسم اللّه. قال الواحدى: و هذا إجماع الفقهاء أن الاستعاذة قبل القراءة، إلا ما روى عن أبى هريرة و ابن سيرين و داود و مالك و حمزة من القراء فإنهم قالوا: الاستعاذة بعد القراءة، ذهبوا إلى ظاهر الآية؛ و معنى فاستعذ باللّه: اسأله سبحانه أن يعيذك من الشيطان الرجيم، أى: من وساوسه، و تخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها للتنبيه على أنها لسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها أهمّ، لأنه إذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه كانت عند إرادة غيره أولى، كذا قيل. و توجيه الخطاب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم للإشعار بأن غيره أولى منه بفعل الاستعاذة؛ لأنه إذا أمر بها لدفع وساوس الشيطان مع عصمته، فكيف بسائر أمته؟ و قد ذهب الجمهور إلى أن الأمر فى الآية للندب. و روى عن عطاء الوجوب أخذا بظاهر الأمر. و قد تقدّم الكلام فى الاستعاذة مستوفى فى أوّل هذا التفسير، و الضمير فى إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ للشأن أو للشيطان، أى: ليس له تسلط عَلَى إغواء الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ و حكى الواحدى عن جميع المفسرين أنهم فسروا السلطان بالحجة. و قالوا: المعنى ليس

(۱). الفرقان: ۲۳.

(۲). النحل: ۸۹.

له حجّة على المؤمنين فى إغوائهم و دعائهم إلى الضلالة؛ و معنى وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ يفوضون أمورهم إليه فى كل قول و فعل، فإن الإيمان باللّه و التوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم، و إن وسوس لأحد منهم لا تؤثر فيه وسوسته و هذه الجملة تعليل للأمر بالاستعاذة، و هؤلاء الجامعون بين الإيمان و التوكل هم الذين قال فيهم إبليس: إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ* و قال اللّه فيهم: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ «۱»، ثم حصر سبحانه سلطان الشيطان، فقال: إِنَّما سُلْطانُهُ أى: تسلطه على الإغواء عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ أى: يتخذونه وليا و يطيعونه فى وساوسه وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ الضمير فى

به يرجع إلى اللّه تعالى، أى: الذين هم باللّه مشركون، و قيل: يرجع إلى الشيطان؛ و المعنى:
و الذين هم من أجله و بسبب وسوسته مشركون باللّه وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ هذا شروع منه سبحانه فى حكاية شبه كفرية و دفعها، و معنى التبديل: رفع الشىء مع وضع غيره مكانه، و تبديل الآية رفعها بأخرى غيرها، و هو نسخها بآية سواها. و قد تقدّم الكلام فى النسخ فى البقرة قالُوا أى: كفار قريش الجاهلون للحكمة فى النسخ إِنَّما أَنْتَ يا محمد مُفْتَرٍ أى: كاذب مختلق على اللّه متقوّل عليه بما لم يقل، حيث تزعم أنه أمرك بشىء، ثم تزعم أنه أمرك بخلافه، فردّ اللّه سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم فقال: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شيئا من العلم أصلا، أو لا يعلمون بالحكمة فى النسخ، فإنه مبنىّ على المصالح التى يعلمها اللّه سبحانه، فقد يكون فى شرع هذا الشىء مصلحة مؤقتة بوقت، ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت فى شرع غيره، و لو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعرفوا أنّ ذلك وجه الصواب و منهج العدل و الرفق و اللطف.
ثم بيّن سبحانه لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند اللّه، و أن رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم افتراه فقال: قُلْ نَزَّلَهُ أى: القرآن المدلول عليه بذكر الآية رُوحُ الْقُدُسِ أى جبريل، و القدس التطهير؛ و المعنى: نزله الروح المطهر من أدناس البشرية، فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة مِنْ رَبِّكَ أى: ابتداء تنزيله من عنده سبحانه، و بِالْحَقِ فى محل نصب على الحال: أى متلبسا بكونه حقا ثابتا لحكمة بالغة لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا على الإيمان، فيقولون: كلّ من الناسخ و المنسوخ من عند ربنا، و لأنهم أيضا إذا عرفوا ما فى النسخ من المصالح ثبتت أقدامهم على الإيمان و رسخت عقائدهم. و قرئ لِيُثْبِتَ من الإثبات وَ هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ و هما معطوفان على محل ليثبت، أى: تثبيتا لهم و هداية و بشارة، و فيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم. ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبههم فقال: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ اللام هى الموطئة، أى: و لقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون إنما يعلم محمدا القرآن بشر من بنى آدم غير ملك. و قد اختلف أهل العلم فى تعيين هذا البشر الذى زعموا عليه ما زعموا، فقيل هو غلام الفاكه بن المغيرة، و اسمه جبر، و كان نصرانيا فأسلم، و كان كفار قريش إذا سمعوا من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أخبار القرون الأولى مع كونه أميا، قالوا: إنما يعلمه جبر. و قيل: اسمه يعيش، عبد لبنى الحضرمىّ، و كان يقرأ الكتب الأعجمية. و قيل: غلام لبنى عامر بن لؤىّ. و قيل: هما غلامان؛ اسم أحدهما

---

(١). الحجر: ۴۲.

يسار، و اسم الآخر جبر، و كانا صيقلين «١» يعملان السيوف. و كانا يقرآن كتابا لهم، و قيل: كانا يقرآن التوراة و الإنجيل. و قيل: عنوا سلمان الفارسى. و قيل: عنوا نصرانيا بمكة اسمه بلعام، و كان يقرأ التوراة. و قيل:
عنوا رجلا نصرانيا كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية، و فى رواية اسمه عداس. قال النحاس: و هذه الأقوال غير متناقضة، لأنه يجوز أنهم زعموا أنهم جميعا يعلمونه، و لكن لا يمكن الجمع باعتبار قول من قال إنه سلمان، لأن هذه الآية مكية، و هو إنما أتى إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بالمدينة. ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال: لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ الإلحاد: الميل، يقال: لحد و ألحد؛ أى: مال عن القصد. و قد تقدّم فى الأعراف. و قرأ حمزة و الكسائى يلحدون بفتح الياء و الحاء. و قرأ من عداهما بضم الياء و كسر الحاء، أى:
لسان الذين يميلون إليه و يزعمون أنه يعلمك أعجمىّ، يقال: رجل أعجم و امرأة عجماء؛ أى: لا يفصحان، و العجمة: الإخفاء، و هى ضدّ البيان، و العرب تسمّى كلّ من لا يعرف لغتهم و لا يتكلم بها أعجميا. قال الفرّاء: الأعجم الذى فى لسانه عجمة و إن كان من العرب، و الأعجمىّ: هو العجمى الذى أصله من العجم.

و قال أبو على الفارسى: العجمى المنسوب إلى العجم الذى لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم، و كذلك الأعجم، و الأعجمى المنسوب إلى العجم و إن كان فصيحا وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ الإشارة إلى القرآن، و سمّاه لسانا لأن العرب تقول للقصيدة و البيت لسانا، و منه قول الشاعر:

لسان الشرّ تهديها إليناو خنت و ما حسبتك أن تخونا

أو أراد باللسان البلاغة، فكأنه قال: و هذا القرآن ذو بلاغة عربية و بيان واضح، فكيف تزعمون أن بشرا يعلمه من العجم. و قد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه، و أنتم أهل اللسان العربى و رجال الفصاحة و قادة البلاغة و هاتان الجملتان مستأنفتان سيقتا لإبطال طعنهم و دفع كذبهم. و لما ذكر سبحانه جوابهم وبخهم و هدّدهم فقال: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ أى: لا يصدّقون بها لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ إلى الحق الذى هو سبيل النجاة هداية موصلة إلى المطلوب لما علم من شقاوتهم وَ لَهُمْ فى الآخرة عَذابٌ أَلِيمٌ بسبب ما هم عليه من الكفر و التكذيب بآيات اللّه. ثم لما وقع منهم نسبة الافتراء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ردّ عليهم بقوله: إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ فكيف يقع الافتراء من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو رأس المؤمنين بها، و الداعين إلى الإيمان بها، و هؤلاء الكفار هم الذين لا يؤمنون بها، فهم المفترون للكذب.

قال الزجاج: المعنى إنما يفترى الكذب الذين إذا رأوا الآيات التى لا يقدر عليها إلا اللّه كذبوا بها هؤلاء أكذب الكذبة، ثم سمّاهم الكاذبين، فقال: وَ أُولئِكَ أى: المتّصفون بذلك هُمُ الْكاذِبُونَ أى: إن الكذب نعت لازم لهم و عادة من عاداتهم فهم الكاملون فى الكذب، إذ لا كذب أعظم من تكذيبهم بآيات اللّه.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن الحياة الطيبة المذكورة فى الآية فقال: الحياة الطيبة الرزق الحلال فى هذه الحياة الدنيا، و إذا صار

---

(١). الصيقل: الصقّال و هو من صناعته صقل السيوف.

إلى ربه جازاه بأحسن ما كان يعمل. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: الكسب الطيب و العمل الصالح. و أخرج العسكرى فى الأمثال عن علىّ فى الآية قال: القناعة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشّعب، من طرق عن ابن عباس قال: القنوع، قال: و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يدعو:

«اللهم قنّعنى بما رزقتنى، و بارك لى فيه، و اخلف على كلّ غائبة لى بخير». و أخرج أحمد و مسلم و الترمذى و ابن ماجة عن ابن عمرو أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «قد أفلح من أسلم، و رزق كفافا، و قنّعه اللّه بما آتاه».

و أخرج الترمذى و النسائى من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «قد أفلح من هدى إلى الإسلام، و كان عيشه كفافا، و قنع به». و أخرج عبد الرزاق فى المصنف، و ابن المنذر عن عطاء قال:

الاستعاذة واجبة لكل قراءة فى الصلاة و غيرها من أجل قوله: فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ و قد ورد فى مشروعية الاستعاذة عند التلاوة ما لعلنا قد قدّمنا ذكره. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ يقول: سلطان الشيطان على من تولى الشيطان و عمل بمعصية اللّه. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن مردويه، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ و قوله: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا «١» قال:

عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح كان يكتب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأزلّه الشيطان فلحق بالكفار، فأمر به رسول اللّه صلّى

اللّه عليه و سلّم أن يقتل يوم الفتح، فاستجار له عثمان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأجاره. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ قال: هو كقوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها «٢». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند ضعيف، عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعلم بمكة قينا اسمه بلعام، و كان أعجميا، فكان المشركون يرون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يدخل عليه و يخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلّمه بلعام، فأنزل اللّه: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ الآية. و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى شعب الإيمان، عنه فى الآية. قال: قالوا إنما يعلم محمدا عبد ابن الحضرمى و هو صاحب الكتب، فأنزل اللّه هذه الآية. و أخرج آدم بن أبى إياس و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن عبد اللّه بن مسلم الحضرمى قال: كان لنا عبدان من أهل عين التمر، يقال لأحدهما يسار و الآخر جبر، و كانا يصنعان السيوف بمكة، و كانا يقرآن الإنجيل، فربما مرّ بهما النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و هما يقرآن فيقف و يستمع، فقال المشركون: إنما يتعلّم منهما، فنزلت هذه الآية.

---

(١). النحل: ١١٠.

(٢). البقرة: ١٠٦.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٢٣٥

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٠٦ الى ١١١]

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (١٠٧) أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (١٠٨) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)
يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (١١١)

قوله: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ قد اختلف أهل العلم فى إعرابه، فذهب الأكثرون على أنه بدل، إما من الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ و ما بينهما اعتراض، و المعنى: إنما يفترى الكذب من كفر، و استثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء. ثم قال: وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً أى: اعتقده، و طابت به نفسه، و اطمأن إليه فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ و إما من المبتدأ الذى هو: أُولئِكَ أو من الخبر الذى هو: الْكاذِبُونَ و ذهب الزجاج إلى الأوّل، و قال الأخفش: إن من مبتدأ و خبره محذوف اكتفى منه بخبر من الثانية، كقولك: من يأتنا من يحسن نكرمه؛ و قيل: هو، أى مَنْ ١٠٦ فى مَنْ كَفَرَ منصوب على الذمّ، و قيل: إن من شرطية و الجواب محذوف؛ لأن جواب مَنْ شَرَحَ دالّ عليه، و هو كقول الأخفش، و إنما خالفه فى إطلاق لفظ الشرط على من و الجواب على خبرها فكأنه قيل على هذا من كفر باللّه فعليهم غضب إلا من أكره، و لكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب، و إنما صح استثناء المكره من الكافر مع أنه ليس بكافر لأنه ظهر منه بعد الإيمان ما لا يظهر إلا من الكافر لو لا الإكراه. قال القرطبى: أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر و قلبه مطمئن بالإيمان، و لا تبين منه زوجته، و لا يحكم عليه بحكم الكفر. و حكى عن محمد بن الحسن: أنه إذا أظهر الكفر كان مرتدا فى الظاهر، و فيما بينه و بين اللّه على الإسلام، و تبين منه امرأته، و لا يصلى عليه إن مات، و لا يرث أباه إن مات مسلما، و هذا القول مردود على قائله، مدفوع بالكتاب و السنة، و ذهب الحسن البصرى و الأوزاعى و الشافعى و سحنون إلى أن هذه الرخصة المذكورة فى هذه الآية

إنما جاءت فى القول، و أما فى الفعل فلا رخصة، مثل أن يكره على السجود لغير اللّه و يدفعه ظاهر الآية، فإنها عامة فيمن أكره من غير فرق بين القول و الفعل، و لا دليل لهؤلاء القاصرين للآية على القول و خصوص السبب لا اعتبار به مع عموم اللفظ؛ كما تقرر فى علم الأصول، و جملة وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ فى محل نصب على الحال من المستثنى، أى:

إلا من كفر بإكراه، و الحال أن قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيدته، و ليس بعد هذا الوعيد العظيم و هو الجمع للمرتدين بين غضب اللّه و عظيم عذابه، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الكفر بعد الإيمان، أو إلى الوعيد بالغضب و العذاب، و الباء فى بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا للسببية، أى: ذلك بسبب تأثيرهم للحياة الدنيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ معطوف على: بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا، أى: ذلك بأنهم استحبوا، و بأن اللّه لا يهدى القوم الكافرين إلى الإيمان به، ثم وصفهم بقوله: أُولئِكَ أى:

الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ فلم يفهموا المواعظ و لا سمعوها. و لا أبصروا الآيات التى يستدل بها على الحق، و قد سبق تحقيق الطبع فى أوّل البقرة، ثم أثبت لهم صفة نقص غير الصفة المتقدّمة فقال: وَ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ عمّا يراد بهم، و ضمير الفصل

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٢٣٦

يفيد أنهم متناهون فى الغفلة، إذ لا غفلة أعظم من غفلتهم هذه لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ أى:

الكاملون فى الخسران البالغون إلى غاية منه ليس فوقها غاية، و قد تقدّم تحقيق الكلام فى معنى: لا جَرَمَ فى مواضع منها ما هو فى هذه السورة ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا من دار الكفر إلى دار الإسلام، و خبر إن محذوف، و التقدير لَغَفُورٌ رَحِيمٌ و إنما حذف لدلالة خبر إن ربك المتأخرة عليه؛ و قيل: الخبر هو لِلَّذِينَ هاجَرُوا أى: إن ربك لهم بالولاية و النصرة لا عليهم، و فيه بعد؛ و قيل: إن خبرها هو قوله لَغَفُورٌ رَحِيمٌ و إن ربك الثانية تأكيد للأولى. قال فى الكشاف: ثم ها هنا للدلالة على تباعد حال هؤلاء، يعنى الذين نزلت الآية فيهم عن حال أولئك، و هم عمار و أصحابه، و يدل على ذلك ما روى أنها نزلت فى عبد اللّه بن أبى سرح «١»، و سيأتى بيان ذلك مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا أى: فتنهم الكفار بتعذيبهم لهم ليرجعوا فى الكفر، و قرئ فتنوا على البناء للفاعل، أى: الذين فتنوا المؤمنين و عذّبوهم على الإسلام ثُمَّ جاهَدُوا فى سبيل اللّه و صبروا على ما أصابهم من الكفار، و على ما يلقونه من مشاق التكليف لَغَفُورٌ رَحِيمٌ أى: كثير الغفران و الرحمة لهم، و معنى الآية على قراءة من قرأ فتنوا على البناء للفاعل واضح ظاهر، أى: إن ربك لهؤلاء الكفار الذين فتنوا من أسلم و عذبوهم ثم جاهدوا و صبروا لغفور رحيم، و أما على قراءة البناء للمفعول و هى قراءة الجمهور، فالمعنى: أن هؤلاء المفتونين الذين تكلّموا بكلمة الكفر مكرهين و صدورهم غير منشرحة للكفر إذا صلحت أعمالهم، و جاهدوا فى اللّه، و صبروا على المكاره، لغفور لهم رحيم بهم؛ و أما إذا كان سبب الآية هذه هو عبد اللّه بن أبى سرح الذى ارتدّ عن الإسلام، ثم رجع بعد ذلك إلى الإسلام، فالمعنى: أن هذا المفتون فى دينه بالرّدة إذا أسلم و جاهد و صبر فاللّه غفور له رحيم به، و الضمير فى بعدها يرجع إلى الفتنة أو إلى المهاجرة و الجهاد و الصبر، أو إلى الجميع يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها قال الزجاج: يوم تأتى منتصب بقوله «رحيم»، أو بإضمار اذكر، أو ذكرهم، أو أنذرهم، و قد استشكل إضافة ضمير النفس إلى النفس، و لا بد من التغاير بين المضاف و المضاف إليه. و أجيب بأن المراد بالنفس الأولى جملة بدن الإنسان، و بالنفس الثانية الذات، فكأن قيل: يوم يأتى كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمّه غيرها، و معنى المجادلة عنها الاعتذار عنها، فهو مجادل و مخاصم عن نفسه لا يتفرّغ لغيرها يوم القيامة.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما أراد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يهاجر إلى المدينة قال لأصحابه: تفرّقوا عنى، فمن كانت به قوّة فليتأخر إلى آخر الليل، و من لم تكن به قوّة فليذهب فى أوّل الليل، فإذا سمعتم بى قد استقرّت بى الأرض فالحقوا بى، فأصبح بلال المؤذن و خبّاب و عمار و جارية من قريش كانت أسلمت، فأخذهم

المشركون و أبو جهل، فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى، فجعلوا يضعون درعا من حديد فى الشمس ثم يلبسونها إياه، فإذا ألبسوها إياه قال: أحد أحد؛ و أما خباب فجعلوا يجرّونه فى الشوك؛ و أما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية؛ و أما الجارية فوتد لها أبو جهل أربعة أوتاد، ثم مدّها فأدخل الحربة فى قبلها حتى قتلها، ثم خلّوا عن بلال و خباب و عمار فلحقوا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبروه بالذى كان من أمرهم، و اشتدّ على عمار الذى كان تكلّم به، فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: كيف كان قلبك حين قلت

---

(١). هو عبد اللّه بن سعد بن أبى السرح.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٣٧

الذى قلت؟ كان منشرحا بالذى قلت أم لا؟ قال: لا، فأنزل اللّه إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ

و أخرج عبد الرزاق و ابن سعد و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى و ابن عساكر من طريق أبى عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و ذكر آلهتهم بخير؛ فتركوه، فلما أتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: ما وراءك؟ قال: شرّ ما تركت حتى نلت منك و ذكرت آلهتهم بخير، قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئنا بالإيمان، قال: إن عادوا فعد، فنزلت إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ قال: ذاك عمار بن ياسر وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً عبد اللّه بن أبى سرح. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن عساكر عن أبى مالك فى قوله: إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ قال: نزلت فى عمار بن ياسر، و فى الباب روايات مصرّحة بأنها نزلت فى عمار بن ياسر. و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن سيرين قال: نزلت هذه الآية إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ فى عياش بن أبى ربيعة. و أخرج ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: فى سورة النحل: فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ ثم نسخ و استثنى من ذلك فقال: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا الآية قال: و هو عبد اللّه بن أبى سرح الذى كان يكتب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأزلّه الشيطان فلحق بالكفار، فأمر به النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقتل يوم فتح مكة، فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير عن عكرمة و الحسن مثله. و أخرج ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا فيمن كان يفتن من أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن مردويه عنه قال: كان قوم من أهل مكة قد أسلموا و كانوا يستخفون بالإسلام فنزلت فيهم ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا الآية، فكتبوا إليهم بذلك إنّ اللّه قد جعل لكم مخرجا فاخرجوا، فأدركهم المشركون فقاتلوهم فنجا من نجا، و قتل من قتل. و أخرج ابن أبى شيبة عن الحسن أن عيونا لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما، فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدا رسول اللّه؟ قال:

نعم، قال: أتشهد أنى رسول اللّه؟ فأهوى إلى أذنيه فقال: إنى أصمّ، فأمر به فقتل؛ و قال للآخر: أتشهد أن محمدا رسول اللّه؟ قال: نعم، قال: أتشهد أنى رسول اللّه؟ قال: نعم، فأرسله فأتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال له أما صاحبك فمضى على إيمانه، و أما أنت فأخذت بالرخصة. و هو مرسل.

[سورة النحل (١٦): الآيات ١١٢ الى ١١٩]

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَ لَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً

طَيِّباً وَ اشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦)

مَتاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٣٨

قوله: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً قد قدّمنا أن ضرب مضمن معنى جعل حتى تكون قرية المفعول الأوّل و مثلا المفعول الثانى، و إنما تأخرت قرية لئلا يقع الفصل بينها و بين صفاتها. و قدّمنا أيضا أنه يجوز أن يكون ضرب على بابه غير مضمن و يكون مثلا مفعوله الأوّل و قرية بدلا منه. و قد اختلف المفسرون هل المراد بهذه القرية قرية معينة، أو المراد قرية غير معينة، بل كل قوم أنعم اللّه عليهم، فأبطرتهم النعمة؟ فذهب الأكثر إلى الأوّل و صرّحوا بأنها مكة، و ذلك لما دعا عليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، و اجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف»، فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام. و الثانى أرجح لأن تنكير قرية يفيد ذلك، و مكة تدخل فى هذا العموم البدلى دخولا أوّليا، و أيضا يكون الوعيد أبلغ، و المثل أكمل، و غير مكة مثلها، و على فرض إرادتها ففى المثل إنذار لغيرها من مثل عاقبتها، ثم وصف القرية بأنها كانَتْ آمِنَةً غير خائفة مُطْمَئِنَّةً غير منزعجة، أى: لا يخاف أهلها و لا ينزعجون يَأْتِيها رِزْقُها أى: ما يرتزق به أهلها رَغَداً واسعا مِنْ كُلِّ مَكانٍ من الأمكنة التى يجلب ما فيها إليها فَكَفَرَتْ أى: كفر أهلها بِأَنْعُمِ اللَّهِ التى أنعم بها عليهم، و الأنعم جمع نعمة كالأشدّ جمع شدّة، و قيل: جمع نعمى، مثل بؤسى و أبؤس، و هذا الكفر منهم هو كفرهم باللّه سبحانه و تكذيب رسله فَأَذاقَهَا اللَّهُ أى: أذاق أهلها لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ سمى ذلك لباسا لأنه يظهر به عليهم من الهزال و شحوبة اللون و سوء الحال ما هو كاللباس، فاستعير له اسمه و أوقع عليه الإذاقة، و أصلها الذوق بالفم، ثم استعيرت لمطلق الاتصال مع إنبائها بشدّة الإصابة لما فيها من اجتماع الإدراكين: إدراك اللمس، و الذوق. روى أن ابن الراوندى الزنديق قال لابن الأعرابى إمام اللغة و الأدب: هل يذاق اللباس؟ فقال له ابن الأعرابى: لا بأس أيها النسناس، هب أن محمدا ما كان نبيا، أما كان عربيا؟ كأنه طعن فى الآية بأن المناسب أن يقال: فكساها اللّه لباس الجوع أو فأذاقها اللّه طعم الجوع، فردّ عليه ابن الأعرابى. و قد أجاب علماء البيان أن هذا من تجريد الاستعارة، و ذلك أنه استعار اللباس لما غشى الإنسان من بعض الحوادث كالجوع و الخوف لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس، ثم ذكر الوصف ملائما للمستعار له و هو الجوع و الخوف، لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع و الخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة، فيقولون: ذاق فلان البؤس و الضر و أذاقه غيره، فكانت الاستعارة مجرّدة، و لو قال فكساها كانت مرشحة. و قيل: و ترشيح الاستعارة و إن كان مستحسنا من جهة المبالغة، إلا أنّ للتجريد ترجيحا من حيث إنه روعى جانب المستعار له، فازداد الكلام وضوحا، و قيل: إن أصل الذوق بالفم، ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف و الاختبار، و من ذلك قول الشاعر:

و من يذق الدّنيا فإنّى طعمتهاو سيق إلينا عذبها و عذابها

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٣٩

و قرأ حفص بن غياث و نصر بن عاصم و ابن أبى إسحاق و أبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث بنصب الخوف عطفا على لباس، و قرأ الباقون بالخفض عطفا على الجوع. قال الفراء: كلّ الصفات أجريت على القرية إلا قوله: يَصْنَعُونَ تنبيها على أن المراد فى الحقيقة أهلها وَ لَقَدْ جاءَهُمْ يعنى أهل مكة رَسُولٌ مِنْهُمْ من جنسهم يعرفونه و يعرفون نسبه، فأمرهم بما فيه نفعهم و نهاهم عما فيه ضرّهم فَكَذَّبُوهُ فيما جاء به فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ النازل بهم من اللّه سبحانه، و الحال أنهم فى حال أخذ العذاب لهم

ظالِمُونَ لأنفسهم بإيقاعها فى العذاب الأبدىّ و لغيرهم بالإضرار بهم و صدّهم عن سبيل اللّه، و هذا الكلام من تمام المثل المضروب. و قيل: إن المراد بالعذاب هنا هو الجوع الذى أصابهم، و قيل: القتل يوم بدر، ثم لما وعظهم اللّه سبحانه بما ذكره من حال أهل القرية المذكورة أمرهم أن يأكلوا مما رزقهم اللّه من الغنائم و نحوها، و جاء بالفاء للإشعار بأن ذلك متسبب عن ترك الكفر. و المعنى: أنكم لما آمنتم و تركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب و هو الغنيمة و اتركوا الخبائث و هو الميتة و الدم وَ اشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ التى أنعم بها عليكم و اعرفوا حقّها إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ و لا تعبدون غيره، أو إن صحّ زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة التى زعمتم عبادة اللّه تعالى، و قيل: إن الفاء فى فكلوا داخلة على الأمر بالشكر، و إنما أدخلت على الأمر بالأكل لأن الأكل ذريعة إلى الشكر إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ كرّر سبحانه ذكر هذه المحرمات فى البقرة و المائدة و الأنعام و فى هذه السورة قطعا للأعذار و إزالة للشبهة، ثم ذكر الرخصة فى تناول شىء مما ذكر فقال: فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ و قد تقدّم الكلام على جميع ما هو مذكور هنا مستوفى. ثم زيف طريقة الكفار فى الزيادة على هذه المحرمات كالبحيرة و السائبة و فى النقصان عنها كتحليل الميتة و الدمّ فقال: وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ قال الكسائى و الزجاج: ما هنا مصدرية و انتصاب الكذب بلا تقولوا، أى: لا تقولوا الكذب لأجل وصف ألسنتكم، و معناه: لا تحرموا و لا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة، و يجوز أن تكون ما موصولة و الكذب منتصب بتصف، أى: لا تقولوا للذى تصف ألسنتكم الكذب فيه هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ فحذف لفظة فيه لكونه معلوما، فيكون قوله هذا حلال و هذا حرام بدلا من الكذب. و يجوز أن يكون فى الكلام حذف بتقدير القول، أى: و لا تقولوا لما تصف ألسنتكم فتقول هذا حلال و هذا حرام، أو قائلة هذا حلال و هذا حرام، و يجوز أن ينتصب الكذب أيضا بتصف و تكون ما مصدرية، أى: لا تقولوا هذا حلال و هذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب. و قرئ الكذب بضم الكاف و الذال و الباء على أنه نعت للألسنة، و قرأ الحسن بفتح الكاف و كسر الذال و الباء نعتا لما. و قيل: على البدل من ما، أى: و لا تقولوا الكذب الذى تصفه ألسنتكم هذا حلال و هذا حرام، و اللام فى لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ هى لام العاقبة لا ـ لام العرض، أى: فيتعقب ذلك افتراؤكم على اللّه الكذب بالتحليل و التحريم و إسناد ذلك إليه من غير أن يكون منه إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ أىّ افتراء كان لا يُفْلِحُونَ بنوع من أنواع الفلاح و هو الفوز بالمطلوب؛ و ارتفاع مَتاعٌ قَلِيلٌ على أنه خبر مبتدأ محذوف. قال الزجاج: أى: متاعهم متاع قليل،

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٢٤٠

أو هو مبتدأ خبره محذوف، أى: لهم متاع قليل وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ يردّون إليه فى الآخرة. ثم خصّ محرمات اليهود بالذكر فقال: وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا أى: حرّمنا عليهم خاصة دون غيرهم ما قَصَصْنا عَلَيْكَ بقولنا: حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما «١» الآية، و مِنْ قَبْلُ متعلّق بقصصنا أو بحرمنا وَ ما ظَلَمْناهُمْ بذلك التحريم بل جزيناهم ببغيهم وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ حيث فعلوا أسباب ذلك فحرّمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم. ثم بيّن سبحانه أن الافتراء على اللّه سبحانه و مخالفة أمره لا ـ يمنعهم من التوبة و حصول المغفرة فقال: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ أى: متلبسين بجهالة، و قد تقدّم تفسير هذه الآية فى سورة النساء ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أى من بعد عملهم للسوء، و فيه تأكيد فإن ثم قد دلّت على البعدية فأكدها بزيادة ذكر البعدية وَ أَصْلَحُوا أعمالهم التى كان فيها فساد بالسوء الذى عملوه، ثم كرّر ذلك تأكيدا و تقريرا فقال: إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها أى:

من بعد التوبة لَغَفُورٌ رَحِيمٌ كثير الغفران واسع الرحمة.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً قال: يعنى مكة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عطية فى الآية مثله و زاد فقال: ألا ترى أنه قال: وَ لَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و

ابن المنذر نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب قال: القريۀ التى قال اللّه: كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً هى: يثرب. قلت: و لا أدرى أىّ دليل دلّه على هذا التعيين، و لاـ أىّ قرينۀ قامت له على ذلك، و متى كفرت دار الهجرۀ و مسكن الأنصار بأنعم اللّه، و أىّ وقت أذاقها اللّه لباس الجوع و الخوف، و هى التى تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد كما صحّ ذلك عن الصادق المصدوق. و صحّ عنه أيضا أنه قال: «و المدينۀ خير لهم لو كانوا يعلمون». و أخرج ابن أبى شيبۀ و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ الآيۀ قال: فى البحيرۀ و السائبۀ. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى نضرۀ قال: قرأت هذه الآيۀ فى سورۀ النحل وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ إلى آخر الآيۀ، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا. قلت: صدق رحمه اللّه، فإن هذه الآيۀ تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما فى كتاب اللّه أو فى سنۀ رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم، كما يقع كثيرا من المؤثرين للرأى المقدّمين له على الروايۀ، أو الجاهلين لعلم الكتاب و السنّۀ كالمقلدۀ، و إنهم لحقيقون بأن يحال بينهم و بين فتاويهم و يمنعوا من جهالاتهم، فإنهم أفتوا بغير علم من اللّه و لا هدى و لا كتاب منير فضلّوا و أضلّوا، فهم و من يستفتيهم كما قال القائل:

كبهيمۀ عمياء قاد زمامهاأعمى على عوج الطريق الجائر

و أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال: عسى رجل أن يقول إن اللّه أمر بكذا أو نهى عن كذا، فيقول اللّه عزّ و جلّ له: كذبت؛ أو يقول: إن اللّه حرّم كذا أو أحلّ كذا، فيقول اللّه له: كذبت. و أخرج ابن

---

(۱). الأنعام: ۱۴۶.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۴۱

جرير و ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ قال: فى سورۀ الأنعام. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادۀ مثله، و قال حيث يقول: وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا إلى قوله: وَ إِنَّا لَصادِقُونَ «۱»

[سورۀ النحل (۱۶): الآيات ۱۲۰ الى ۱۲۸]

إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۲۰) شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَ هَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۲۱) وَ آتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (۱۲۲) ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۲۳) إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۲۴)

ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۱۲۵) وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (۱۲۶) وَ اصْبِرْ وَ ما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (۱۲۷) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (۱۲۸)

لما فرغ سبحانه من دفع شبه المشركين و إبطال مطاعنهم، و كان إبراهيم عليه السلام من الموحّدين، و هو قدوۀ كثير من النبيين، ذكره اللّه فى آخر هذه السورۀ فقال: إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قال ابن الأعرابىّ:

يقال للرجل العالم أمۀ، و الأمۀ: الرجل الجامع للخير. قال الواحدى: قال أكثر أهل التفسير: أى: معلّما للخير، و على هذا فمعنى كون إبراهيم كان أمۀ أنه كان معلما للخير، أو جامعا لخصال الخير، أو عالما بما علّمه اللّه من الشرائع؛ و قيل: أمۀ بمعنى مأموم، أى: يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير، كما قال سبحانه: إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً «۲». و القانت: المطيع، و قد تقدّم بيان معانى القنوت فى البقرۀ. و الحنيف: المائل عن الأديان الباطلۀ إلى دين الحق، و قد تقدم بيانه فى الأنعام وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ باللّه

كما تزعمه كفار قريش أنه كان على دينهم الباطل شاكِراً لِأَنْعُمِهِ التى أنعم اللّه بها عليه، و إن كانت قليلة، كما يدلّ عليه جمع القلة، فهو شاكر لما كثر منها بالأولى اجْتَباهُ أى: اختاره للنبوة، و اختصّه بها وَ هَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ و هو ملّة الإسلام و دين الحق وَ آتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً أى: خصلة حسنة أو حالة حسنة، و قيل: هى الولد الصالح، و قيل: الثناء الحسن، و قيل: النبوّة، و قيل: الصلاة منا عليه فى التشهد، و قيل:

هى أنه يتولاه جميع أهل الأديان، و لا مانع أن يكون ما آتاه اللّه شاملا لذلك كلّه و لما عداه من خصال الخير وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ حسبما وقع منه السؤال لربه حيث قال: وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ- وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ- وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ «٣». ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ يا محمّد مع علوّ درجتك و سموّ منزلتك و كونك سيد ولد آدم أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ و أصل الملة: اسم لما شرعه اللّه لعباده على لسان نبىّ من أنبيائه، قيل: و المراد هنا اتباع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لملة إبراهيم فى التوحيد و الدعوة إليه. و قال ابن جرير:

---

(١). الأنعام: ١۴۶.

(٢). البقرة: ١٢۴.

(٣). الشعراء: ٨٣- ٨۵.

فى التبرّى من الأوثان و التديّن بدين الإسلام؛ و قيل: فى مناسك الحج؛ و قيل: فى الأصول دون الفروع؛ و قيل: فى جميع شريعته إلا ما نسخ منها، و هذا هو الظاهر. و قد أمر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بالاقتداء بالأنبياء مع كونه سيدهم، فقال تعالى: فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ «١»، و انتصاب حَنِيفاً على الحال من إبراهيم، و جاز مجى‏ء الحال منه؛ لأنّ الملّة كالجزء منه، و قد تقرّر فى علم النحو أن الحال من المضاف إليه جائز، إذا كان يقتضى المضاف العمل فى المضاف إليه، أو كان جزءا منه، أو كالجزء وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ و هو تكرير لما سبق للنكتة التى ذكرناها إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ أى: إنما جعل وبال السبت، و هو المسخ، على الذين اختلفوا فيه، أو إنما جعل فرض تعظيم السبت و ترك الصيد فيه على الذين اختلفوا فيه لا على غيرهم من الأمم.

و قد اختلف العلماء فى كيفية الاختلاف الكائن بينهم فى السبت، فقالت طائفة: إن موسى أمرهم بيوم الجمعة، و عيّنه لهم، و أخبرهم بفضيلته على غيره، فخالفوه، و قالوا: إن السبت أفضل، فقال اللّه له: دعهم و ما اختاروا لأنفسهم. و قيل: إن اللّه سبحانه أمرهم بتعظيم يوم فى الأسبوع، فاختلف اجتهادهم فيه، فعينت اليهود السبت لأن اللّه سبحانه فرغ فيه من الخلق، و عينت النصارى يوم الأحد لأن اللّه بدأ فيه الخلق، فألزم اللّه كلا منهم ما أدّى إليه اجتهاده، و عين لهذه الأمة الجمعة من غير أن يكلهم إلى اجتهادهم فضلا منه و نعمة.

و وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من شرائع إبراهيم، فأخبر اللّه سبحانه أنه إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه و لم يجعله على إبراهيم و لا على غيره وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أى:

بين المختلفين فيه يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فيجازى كلا فيه بما يستحقه ثوابا و عقابا، كما وقع منه سبحانه من المسخ لطائفة منهم و التنجية لأخرى، ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يدعو أمّته إلى الإسلام فقال:

ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ و حذف المفعول للتعميم؛ لكونه بعث إلى الناس كافة، و سبيل اللّه هو الإسلام بِالْحِكْمَةِ أى: بالمقالة المحكمة الصحيحة، قيل: و هى الحجج القطعية المفيدة لليقين وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ و هى المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة

التى يستحسنها السامع، و تكون فى نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها. قيل: و هى الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدّمات مقبولة، قيل: و ليس للدعوة إلا هاتان الطريقتان، و لكن الداعى قد يحتاج مع الخصم الألدّ إلى استعمال المعارضة و المناقضة و نحو ذلك من الجدل، و لهذا قال سبحانه: وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أى: بالطريق التى هى أحسن طرق المجادلة، و إنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعى محقّا و غرضه صحيحا، و كان خصمه مبطلا و غرضه فاسدا إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ لما حثّ سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة؛ بيّن أن الرشد و الهداية ليس إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و إنما ذلك إليه تعالى، فقال: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ أى: هو العالم بمن يضلّ و من يهتدى وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ أى: بمن يبصر الحقّ فيقصده غير متعنت، و إنما شرع لك الدعوة و أمرك بها قطعا للمعذرة و تتميما للحجة و إزاحة للشبهة، و ليس عليك غير ذلك، ثم لما كانت الدعوة تتضمّن تكليف

---

(١). الأنعام: ٩٠.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٢٤٣

المدعوّين بالرجوع إلى الحق فإن أبوا قوتلوا، أمر الداعى بأن يعدل فى العقوبة فقال: وَ إِنْ عاقَبْتُمْ أى:

أردتم المعاقبة فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ أى: بمثل ما فعل بكم لا تجاوزوا ذلك. قال ابن جرير: أنزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة أن لا ينال من ظالمه إذا تمكن إلا مثل ظلامته لا يتعدّاها إلى غيرها، و هذا صواب؛ لأن الآية و إن قيل إن لها سببا خاصا كما سيأتى، فالاعتبار بعموم اللفظ، و عمومه يؤدّى هذا المعنى الذى ذكره، و سمّى سبحانه الفعل الأوّل الذى هو فعل البادئ بالشرّ عقوبة، مع أن العقوبة ليست إلا فعل الثانى و هو المجازى للمشاكلة، و هى باب معروف وقع فى كثير من الكتاب العزيز. ثم حثّ سبحانه على العفو فقال:

وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ أى: لئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل فالصبر خير لكم من الانتصاف، و وضع الصابرين موضع الضمير، ثناء من اللّه عليهم بأنهم صابرون على الشدائد. و قد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية محكمة لأنها واردة فى الصبر عن المعاقبة و الثناء على الصابرين على العموم؛ و قيل: هى منسوخة بآيات القتال، و لا وجه لذلك. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله بالصبر فقال: وَ اصْبِرْ على ما أصابك من صنوف الأذى وَ ما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ أى: بتوفيقه و تثبيته، و الاستثناء مفرغ من أعمّ الأشياء، أى: و ما صبرك مصحوبا بشى‏ء من الأشياء إلا بتوفيقه لك، و فيه تسلية للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. ثم نهاه عن الحزن فقال: وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ أى: على الكافرين فى إعراضهم عنك، أو لا تحزن على قتلى أحد، فإنهم قد أفضوا إلى رحمة اللّه وَ لا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ قرأ الجمهور بفتح الضاد، و قرأ ابن كثير بكسرها. قال ابن السّكّيت:

هما سواء، يعنى المفتوح و المكسور. و قال الفراء: الضّيق بالفتح ما ضاق عنه صدرك، و الضّيق بالكسر ما يكون فى الذى يتسع مثل الدار و الثوب، و كذا قال الأخفش، و هو من الكلام المقلوب؛ لأنّ الضّيق وصف للإنسان يكون فيه و لا يكون الإنسان فيه، و كأنه أراد وصف الضيق بالعظم حتى صار كالشى‏ء المحيط بالإنسان من جميع جوانبه؛ و معنى مِمَّا يَمْكُرُونَ من مكرهم لك فيما يستقبل من الزمان. ثم ختم هذه السورة بآية جامعة لجميع المأمورات و المنهيات فقال: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا أى: اتقوا المعاصى على اختلاف أنواعها وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ بتأدية الطاعات و القيام بما أمروا بها منها؛ و قيل: المعنى: إن اللّه مع الذين اتقوا الزيادة فى العقوبة، و الذين هم محسنون فى أصل الانتقام، فيكون الأوّل إشارة إلى قوله: فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ و الثانى إشارة إلى قوله: وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ و قيل: الَّذِينَ اتَّقَوْا إشارة إلى التعظيم لأمر اللّه وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ إشارة إلى الشفقة على عباد اللّه تعالى.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن مسعود: أنه سئل عن الأمة ما هى؟ فقال: الذى يعلّم الناس الخير، قالوا:
فما القانت؟ قال: الذى يطيع اللّه و رسوله. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ قال: كان على الإسلام، و لم يكن فى زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره، فلذلك قال اللّه: كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ و أخرج ابن المنذر عند فى قوله: كانَ أُمَّةً قال: إماما فى الخير قانِتاً قال: مطيعا. و أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما من عبد
فتح القدير، ج‏٣، ص: ٢۴۴
تشهد له أمة إلا قبل اللّه شهادتهم»، و الأمة: الرجل فما فوقه، إن اللّه يقول: إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً و الأمة: الرجل فما فوقه. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عمرو قال: صلى جبريل بإبراهيم الظهر و العصر بعرفات، ثم وقف حتى إذا غابت الشمس دفع به، ثم صلى المغرب و العشاء بجمع، ثم صلى الفجر به كأسرع ما يصلى أحدكم من المسلمين، ثم وقف به حتى إذا كان كأبطأ ما يصلى أحد من المسلمين دفع به، ثم رمى الجمرة ثم ذبح ثم حلق ثم أفاض به إلى البيت فطاف به، فقال اللّه لنبيه: ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ قال: أراد الجمعة فأخذوا السبت مكانها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق السدّى عن أبى مالك و سعيد ابن جبير فى الآية قال: باستحلالهم إياه؛ رأى موسى رجلا- يحمل حطبا يوم السبت فضرب عنقه. و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «نحن الآخرون السّابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا و أوتيناه من بعدهم، ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم: يعنى الجمعة، فاختلفوا فيه فهدانا اللّه له فالناس فيه لنا تبع، اليهود غدا و النصارى بعد غد». و أخرج مسلم و غيره من حديث حذيفة نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله:
وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ قال: أعرض عن أذاهم إياك. و أخرج الترمذى و حسّنه، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و النسائى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن خزيمة فى الفوائد، و ابن حبان و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، و الضياء فى المختارة، عن أبىّ بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة و ستون رجلا، و من المهاجرين ستة منهم حمزة فمثّلوا بهم، فقالت الأنصار:
لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربينّ عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل اللّه تعالى وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «نصبر و لا نعاقب، كفّوا عن القوم إلا أربعة». و أخرج ابن سعد و البزار و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و أبو نعيم فى المعرفة، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن أبى هريرة: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم وقف على حمزة حيث استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى شى‏ء قط كان أوجع لقلبه منه، و نظر إليه قد مثّل به، فقال: «رحمة اللّه عليك، فإنك كنت ما علمت وصولا للرحم، فعولا للخير، و لو لا حزن من بعدك عليك لسرنى أن أتركك حتى يحشرك اللّه من أرواح شتى، أما و اللّه لأمثلنّ بسبعين منهم مكانك» فنزل جبريل و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم واقف بخواتيم سورة النحل وَ إِنْ عاقَبْتُمْ الآية، فكفّر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن يمينه، و أمسك عن الذى أراد و صبر. و أخرج ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس مرفوعا نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنْ عاقَبْتُمْ الآية، قال: هذا حين أمر اللّه نبيه أن يقاتل من قاتله، ثم نزلت براءة و انسلاخ الأشهر الحرم، فهذا منسوخ. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: إِنَّ

اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ قال: اتقوا فيما حرّم عليهم، و أحسنوا فيما افترض عليهم.
فتح القدير، ج۳، ص: ۲۴۵

سورة الإسراء

اشارة

آياتها مائة و إحدى عشرة آية، و هى مكية إلا ثلاث آيات: قوله عزّ و جلّ: وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ نزلت حين جاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم وفد ثقيف، و حين قالت اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء، و قوله:
وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ و قوله: إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ و زاد مقاتل قوله: إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ و أخرج النحاس و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة بنى إسرائيل بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البخارى و ابن الضريس و ابن مردويه عن ابن مسعود قال فى بنى إسرائيل و الكهف و مريم: إنهنّ من العتاق الأول، و هنّ من تلادى «۱». و أخرج أحمد و الترمذى و حسّنه، و النسائى و الحاكم و ابن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل و الزمر. و أخرج ابن أبى شيبة عن أبى عمرو الشيبانى قال: صلى بنا عبد اللّه الفجر فقرأ السورتين الآخرة منهما بنو إسرائيل.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱ الى ۳]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۱) وَ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً (۲) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً (۳)
قوله: سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا هو مصدر سبّح، يقال سبّح يسبّح تسبيحا و سبحانا، مثل كفّر اليمين تكفيرا و كفرانا، و معناه: التنزيه و البراءة للّه من كل نقص. و قال سيبويه: العامل فيه فعل [من معناه «۲» لا من لفظه، و التقدير: أنزّه اللّه تنزيها، فوقع سبحان مكان تنزيها، فهو على هذا مثل قعد القرفصاء و اشتمل الصّمّاء «۳»؛ و قيل: هو علم للتسبيح كعثمان للرجل، و انتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره أسبح اللّه سبحان، ثم نزل منزلة الفعل و سدّ مسدّه، و قد قدّمنا فى قوله: سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا «۴» طرفا من الكلام المتعلق بسبحان. و الإسراء قيل: هو سير الليل، يقال: سرى و أسرى؛

---

(۱). العتاق: هو كل ما بلغ الغاية فى الجودة. و التلاد: يريد أن هذه السور من أول ما تعلم من القرآن، و أن لهنّ فضلا لما فيهن من القصص و أخبار الأنبياء و الأمم.
(۲). من تفسير القرطبى (۱۰/ ۲۰۴)
(۳). هو أن يردّ الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى و عاتقه الأيسر، ثم يرده ثانية من خلفه على يده اليمنى و عاتقه الأيمن، فيغطيهما جميعا.

(۴). البقرة: ۳۲.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۴۶

كسقى و أسقى لغتان، و قد جمع بينهما الشاعر «۱» فى قوله:

حىّ النّضيرة ربّة الخدرأسرت إلىّ و لم تكن تسرى

و قيل: هو سير أوّل الليل خاصة، و إذا كان الإسراء لا يكون إلا فى الليل فلا بدّ للتصريح بذكر الليل بعده من فائدة، فقيل: أراد بقوله ليلا تقليل مدّة الإسراء، و أنه أسرى به فى بعض الليل من مكة إلى الشام مسافة أربعين ليلة. و وجه دلالة ليلا على تقليل المدّة ما فيه من التنكير الدالّ على البعضية، بخلاف ما إذا قلت سريت الليل فإنه يفيد استيعاب السير له جميعا. و قد استدلّ صاحب الكشاف على إفادة ليلا للبعضية بقراءة عبد اللّه و حذيفة «من الليل». و قال الزجّاج: معنى أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا سيّر عبده يعنى محمدا ليلا، و على هذا فيكون معنى أسرى معنى سير؛ فيكون للتقييد بالليل فائدة، و قال بعبده و لم يقل بنبيه أو رسوله أو بمحمد تشريفا له صلّى اللّه عليه و سلّم، قال أهل العلم: لو كان غير هذا الاسم أشرف منه لسمّاه اللّه سبحانه به فى هذا المقام العظيم و الحالة العلية:

لا تدعنى إلا بياعبدهافإنه أشرف أسمائى

ادعاء بأسماء نبزا فى قبائلهاكأن أسماء أضحت بعض أسمائى

مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ قال الحسن و قتادة: يعنى المسجد نفسه، و هو ظاهر القرآن. و قال عامة المفسرين: أسرى برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من دار أم هانئ، فحملوا المسجد الحرام على مكة أو الحرم لإحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام، أو لأن الحرم كله مسجد. ثم ذكر سبحانه الغاية التى أسرى برسوله صلّى اللّه عليه و سلّم إليها فقال: إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى و هو بيت المقدس، و سمّى الأقصى لبعد المسافة بينه و بين المسجد الحرام، و لم يكن حينئذ وراءه مسجد، ثم وصف المسجد الأقصى بقوله: الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ بالثمار و الأنهار و الأنبياء و الصالحين، فقد بارك اللّه سبحانه حول المسجد الأقصى ببركات الدنيا و الآخرة، و فى باركنا بعد قوله أسرى التفات من الغيبة إلى التكلم. ثم ذكر العلّة التى أسرى به لأجلها فقال: لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا أى: ما أراه اللّه سبحانه فى تلك الليلة من العجائب التى من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة فى جزء من الليل إِنَّهُ سبحانه هُوَ السَّمِيعُ بكل مسموع، و من جملة ذلك قول رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم: الْبَصِيرُ بكل مبصر، و من جملة ذلك ذات رسوله و أفعاله.

و قد اختلف أهل العلم هل كان الإسراء بجسده صلّى اللّه عليه و سلّم مع روحه أو بروحه فقط؟ فذهب معظم السلف و الخلف إلى الأوّل. و ذهب إلى الثانى طائفة من أهل العلم منهم عائشة و معاوية و الحسن و ابن إسحاق، و حكاه ابن جرير عن حذيفة بن اليمان. و ذهبت طائفة إلى التفصيل فقالوا: كان الإسراء بجسده يقظة إلى بيت المقدس، و إلى السماء بالروح، و استدلّوا على هذا التفصيل بقوله إلى المسجد الأقصى، فجعله غاية للإسراء بذاته صلّى اللّه عليه و سلّم، فلو كان الإسراء من بيت المقدس إلى السماء وقع بذاته لذكره، و الذى دلّت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة

---

(۱). هو حسان بن ثابت.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۴۷

هو ما ذهب إليه معظم السلف و الخلف من أن الإسراء بجسده و روحه يقظه إلى بيت المقدس، ثم إلى السموات، و لا حاجة إلى التأويل و صرف هذا النظم القرآنى و ما يماثله من ألفاظ الأحاديث إلى ما يخالف الحقيقة، و لا مقتضى لذلك إلا مجرد الاستبعاد و تحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ما هو معلوم من أنه لا يستحيل عليه سبحانه شىء، و لو كان مجرد رؤيا كما

يقوله من زعم أن الإسراء كان بالروح فقط، و أن رؤيا الأنبياء حق لم يقع التكذيب من الكفرة للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم عند إخباره لهم بذلك حتى ارتدّ من ارتدّ ممّن لم يشرح بالإيمان صدرا، فإن الإنسان قد يرى فى نومه ما هو مستبعد، بل ما هو محال و لا ينكر ذلك أحد؛ و أما التمسك لمن قال بأن هذا الإسراء إنما كان بالروح على سبيل الرؤيا بقوله: وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ «١» فعلى تسليم أن المراد بهذه الرؤيا هو هذا الإسراء، فالتّصريح الواقع هنا بقوله: سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا و التصريح فى الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأنه أسرى به لا تقصر عن الاستدلال بها على تأويل هذه الرؤيا الواقعة فى الآية برؤية العين، فإنه قد يقال لرؤية العين رؤيا، و كيف يصحّ حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريح الأحاديث الصحيحة بأن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ركب البراق؟ و كيف يصحّ وصف الروح بالركوب؟ و هكذا كيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريحه صلّى اللّه عليه و سلّم بأنه كان عند ما أسرى به بين النائم و اليقظان؟.

و قد اختلف أيضا فى تاريخ الإسراء، فروى أن ذلك كان قبل الهجرة إلى المدينة بسنة. و روى أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام. و وجه ذلك أن خديجة صلّت مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و قد ماتت قبل الهجرة بخمس سنين، و قيل: بثلاث، و قيل: بأربع، و لم تفرض الصلاة إلا ليلة الإسراء. و قد استدل بهذا ابن عبد البرّ على ذلك، و قد اختلفت الرواية عن الزهرى. و ممّن قال بأن الإسراء كان قبل الهجرة بسنة الزهرى فى رواية عنه، و كذلك الحربى فإنه قال: أسرى بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة سبع و عشرين من ربيع الأوّل قبل الهجرة بسنة. و قال ابن القاسم فى تاريخه: كان الإسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهرا. قال ابن عبد البرّ: لا أعلم أحدا من أهل السير قال بمثل هذا. و روى عن الزهرى أنه أسرى به قبل مبعثه بسبعة أعوام، و روى عنه أنه قال: كان قبل مبعثه بخمس سنين. و روى يونس عن عروة عن عائشة أنها قالت: توفيت خديجة قبل أن تفرض الصلاة.

وَ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ أى: التوراة، قيل: و المعنى: كرّمنا محمدا بالمعراج و أكرمنا موسى بالكتاب وَ جَعَلْناهُ أى: ذلك الكتاب، و قيل: موسى هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ يهتدون به أَلَّا تَتَّخِذُوا.

قرأ أبو عمرو بالياء التحتية، و قرأ الباقون بالفوقية، أى: لئلا يتخذوا. و المعنى: آتيناه الكتاب لهداية بنى إسرائيل لئلا يتخذوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا قال الفراء: أى: كفيلا بأمورهم، و روى عنه أنه قال: كافيا؛ و قيل: معناه: أى: متوكلون عليه فى أمورهم؛ و قيل: شريكا، و معنى الوكيل فى اللغة: من توكل إليه الأمور ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ نصب على الاختصاص أو النداء، ذكرهم سبحانه إنعامه عليهم فى ضمن إنجاء آبائهم من الغرق، و يجوز أن يكون المفعول الأوّل لقوله أَلَّا تَتَّخِذُوا أى: لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دونى وكيلا، كقوله: وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْباباً «٢». و قرئ بالرفع

---

(١). الإسراء: ٦٠.

(٢). آل عمران: ٨٠.

على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من فاعل تتخذوا. و قرأ مجاهد بفتح الذال. و قرأ زيد بن ثابت بكسرها، و المراد بالذرية هنا جميع من فى الأرض لأنهم من ذرية من كان فى السفينة، و قيل: موسى و قومه من بنى إسرائيل، و هذا هو المناسب لقراءة النصب على النداء و النصب على الاختصاص، و الرفع على البدل و على الخبر؛ فإنها كلها راجعة إلى بنى إسرائيل المذكورين، و أما على جعل النصب على أن ذرية هى المفعول الأوّل لقوله: أَلَّا تَتَّخِذُوا فالأولى تفسير الذرية بجميع من فى الأرض من بنى آدم إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً أى: نوحا، وصفه اللّه بكثرة الشكر، و جعله كالعلة لما قبله إيذانا بكون الشكر من أعظم أسباب الخير، و من أفضل الطاعات، حثّا لذريته على شكر اللّه سبحانه.

و قد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه، قال: أسرى بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة. و أخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب قال: أسرى برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة. و أخرج البيهقى عن عروة مثله. و أخرج البيهقى أيضا عن السدّى قال: أسرى برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قبل مهاجرته بستة عشر شهرا. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله:

الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ قال: أنبتنا حوله الشجر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

وَ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ قال: جعله اللّه هدى يخرجهم من الظلمات إلى النور، و جعله رحمة لهم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا قال: شريكا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ قال:

هو على النداء: يا ذرية من حملنا مع نوح. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن زيد الأنصارى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ ما كان مع نوح إلا أربعة أولاد: حام، و سام، و يافث، و كوش، فذلك أربعة أولاد انتسلوا هذا الخلق». و اعلم أنه قد أطال كثير من المفسرين كابن كثير و السيوطى و غيرهما فى هذا الموضع بذكر الأحاديث الواردة فى الإسراء على اختلاف ألفاظها، و ليس فى ذلك كثير فائدة، فهى معروفة فى موضعها من كتب الحديث، و هكذا أطالوا بذكر فضائل المسجد الحرام و المسجد الأقصى، و هو مبحث آخر، و المقصود فى كتب التفسير ما يتعلّق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز، و ذكر أسباب النزول، و بيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية، و ما عدا ذلك فهو فضلة لا تدعو إليه حاجة.

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ۴ الى ١١]

وَ قَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً (۴) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَ كانَ وَعْداً مَفْعُولاً (۵) ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (۶) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً (۷) عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَ جَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً (۸)

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (۹) وَ أَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۰) وَ يَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً (۱۱)

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۴۹

قوله: وَ قَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ أى: أعلمنا و أخبرنا، أو حكمنا و أتممنا؛ و أصل القضاء: الإحكام للشيء و الفراغ منه؛ و قيل: أوحينا، و يدلّ عليه قوله: إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ و لو كان بمعنى الإعلام و الإخبار لقال: قضينا بنى إسرائيل، و لو كان بمعنى حكمنا لقال: على بنى إسرائيل، و لو كان بمعنى أتممنا: لقال لبنى إسرائيل؛ و المراد بالكتاب: التوراة، و يكون إنزالها على نبيهم موسى كإنزالها عليهم لكونهم قومه؛ و قيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ. و قرأ أبو العالية و سعيد بن جبير «فى الكتب». و قرأ عيسى الثقفى لَتَفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ بفتح المثناة، و معنى هذه القراءة قريب من معنى قراءة الجمهور، لأنهم إذا أفسدوا فسدوا فى نفوسهم، و المراد بالفساد: مخالفة ما شرعه اللّه لهم فى التوراة، و المراد بالأرض:

أرض الشام و بيت المقدس، و قيل: أرض مصر، و اللام فى لَتُفْسِدُنَ جواب قسم محذوف. قال النيسابورى: أو أجرى القضاء المبتوت مجرى القسم، كأنه قيل: و أقسمنا لتفسدنّ و انتصاب مَرَّتَيْنِ على أنه صفة مصدر محذوف، أو على أنه فى نفسه مصدر عمل فيه ما هو من غير جنسه، و المرة الأولى قتل شعياء، أو حبس أرمياء، أو مخالفة أحكام التوراة، و الثانية قتل يحيى بن زكريا

و العزم على قتل عيسى وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً هذه اللام كاللام التى قبلها، أى: لتستكبرنّ عن طاعة اللّه، و لتستعلنّ على الناس بالظلم و البغى مجاوزين للحدّ فى ذلك فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما أى: أولى المرتين المذكورتين بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ أى: قوّة فى الحروب و بطش عند اللقاء. قيل: هو بختنصر و جنوده، و قيل: جالوت، و قيل: جند من فارس، و قيل: جند من بابل فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ أى: عاثوا و تردّدوا، يقال:

جاسوا و هاسوا و داسوا بمعنى، ذكره ابن عزيز و القتبى. قال الزجاج: معناه طافوا خلال الديار هل بقى أحد لم يقتلوه؟ قال: و الجوس: طلب الشىء باستقصاء. قال الجوهرى: الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار؛ أى: تخلّلوها كما يجوس الرجل للأخبار؛ أى: يطلبها، و كذا قال أبو عبيدة. و قال: ابن جرير:

معنى جاسوا طافوا بين الديار يطلبونهم و يقتلونهم ذاهبين و جائين. و قال الفراء: معناه قتلوهم بين بيوتهم، و أنشد لحسان:

و منّا الذى لاقى بسيف محمدفجاس به الأعداء عرض العساكر

و قال قطرب: معناه نزلوا، و أنشد قول الشاعر:

فجسنا ديارهم عنوةو أبنا بساداتهم موثّقينا

و قرأ ابن عباس «فحاسوا» بالحاء المهملة. قال أبو زيد: الحوس و الجوس و العوس و الهوس: الطوف بالليل. و قيل: الطوف بالليل هو الجوسان محركا، كذا قال أبو عبيدة. و قرئ «خلل الديار» و معناه معنى خلال و هو وسط الديار وَ كانَ ذلك وَعْداً مَفْعُولًا أى: كائنا لا- محالة ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ أى: الدولة و الغلبة و الرجعة و ذلك عند توبتهم. قيل: و ذلك حين قتل داود جالوت، و قيل: حين

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٥٠

فتح القدير ج٣ ٢٩٩

قتل بختنصر وَ أَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ بعد نهب أموالكم و سبى أبنائكم حتى عاد أمركم كما كان وَ جَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً قال أبو عبيدة: النفير العدد من الرجال؛ فالمعنى: أكثر رجالا من عدوكم.

و النفير: من ينفر مع الرجل من عشيرته، يقال: نفير و نافر مثل قدير و قادر، و يجوز أن يكون النفير جمع نفر إِنْ أَحْسَنْتُمْ أى: أفعالكم و أقوالكم على الوجه المطلوب منكم أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ لأن ثواب ذلك عائد إليكم وَ إِنْ أَسَأْتُمْ أفعالكم و أقوالكم فأوقعتموها لا على الوجه المطلوب منكم فَلَها أى:

فعليها. و مثله قول الشاعر:

....

فخرّ صريعا لليدين و للفم «١» أى: على اليدين و على الفم. قال ابن جرير: اللام بمعنى إلى، أى: فإليها ترجع الإساءة كقوله تعالى:

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها أى: إليها؛ و قيل: المعنى: فلها الجزاء أو العقاب. و قال الحسين بن الفضل:

فلها ربّ يغفر الإساءة. و هذا الخطاب قيل: هو لبنى إسرائيل الملابثين لما ذكر فى هذه الآيات؛ و قيل: لبنى إسرائيل الكائنين فى زمن محمد صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و معناه: إعلامهم ما حلّ بسلفهم فليرتقبوا مثل ذلك، و قيل: هو خطاب لمشركى قريش فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ أى: حضر وقت ما وعدوا من عقوبة المرة الآخرة، و المرة الآخرة هى قتلهم يحيى بن زكريا كما سبق، و قصة قتله مستوفاة فى الإنجيل و اسمه فيه يوحنا، قتله ملك من ملوكهم بسبب امرأة حملته على قتله، و اسم الملك لاخت قاله ابن قتيبة. و قال ابن جرير: هيردوس، و جواب إذا محذوف تقديره: بعثناهم لدلالة جواب إذا الأولى عليه، و لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ متعلق

بهذا الجواب المحذوف، أى: ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم حتى تظهر عليكم آثار المساءة و تتبين فى وجوهكم الكآبة؛ و قيل: المراد بالوجوه السادة منهم. و قرأ الكسائى «لنسوء» بالنون؛ على أن الضمير للّه سبحانه. و قرأ أبىّ «لنسوءن» بنون التأكيد. و قرأ أبو بكر و الأعمش و ابن وثاب و حمزة و ابن عامر «ليسوء» بالتحتية و الإفراد.

قال الزجاج: كلّ شىء كسرته و فتته فقد تبرته، و الضمير للّه أو الوعد وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ معطوف على ليسوءوا كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا أى: يدمروا و يهلكوا، و قال قطرب: يهدموا، و منه قول الشاعر:

فما الناس إلا عاملان فعامل يتبر ما يبنى و آخر رافع

و قرأ الباقون بالتحتية و ضم الهمزة و إثبات واو بعدها على أن الفاعل عباد لنا ما عَلَوْا أى: ما غلبوا عليه من بلادكم أو مدة علوهم تَتْبِيراً أى: تدميرا، ذكر المصدر إزالة للشك و تحقيقا للخبر عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ يا بنى إسرائيل بعد انتقامه منكم فى المرة الثانية وَ إِنْ عُدْتُمْ للثالثة عُدْنا إلى عقوبتكم. قال أهل السير: ثم إنهم عادوا إلا ما لا ينبغى، و هو تكذيب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و كتمان ما ورد فى

---

(١). و صدره: و هتكت بالرمح الطويل إهانة. و البيت لربيعة بن مكدم.

بعثه فى التوراة و الإنجيل، فعاد اللّه إلى عقوبتهم على أيدى العرب، فجرى على بنى قريظة و النضير و بنى قينقاع و خيبر ما جرى من القتل و السبى و الإجلاء و ضرب الجزية على من بقى منهم، و ضرب الذلة و المسكنة وَ جَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً و هو المحبس، فهو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول. و المعنى: أنهم محبوسون فى جهنّم لا يتخلّصون عنها أبدا. قال الجوهرى: حصره يحصره حصرا؛ ضيق عليه و أحاط به، و قيل: فراشا و مهادا، و أراد على هذا بالحصير الحصير الذى يفرشه الناس إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ يعنى القرآن يهدى الناس الطريقة التى هى أقوم من غيرها من الطرق و هى ملّة الإسلام، فالتى هى أقوم صفة لموصوف محذوف و هى الطريق. و قال الزجّاج: للحال التى هى أقوم الحالات، و هى توحيد اللّه و الإيمان برسله، و كذا قال الفراء وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ قرأ حمزة و الكسائى «يبشر» بفتح الياء و ضم الشين. و قرأ الباقون بضم الياء و كسر الشين من التبشير؛ أى: يبشر بما اشتمل عليه من الوعد بالخير آجلا و عاجلا للمؤمنين الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ التى أرشد إلى عملها القرآن أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً أى: بأنّ لهم وَ أَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ و أحكامها المبينة فى القرآن أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً و هو عذاب النار، و هذه الجملة معطوفة على جملة يبشر بتقدير يخبر، أى: و يخبر بأن الذين لا يؤمنون بالآخرة، و قيل: معطوفة على قوله: أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً و يراد بالتبشير مطلق الإخبار، أو يكون المراد منه معناه الحقيقى، و يكون الكلام مشتملا على تبشير المؤمنين ببشارتين: الأولى: ما لهم من الثواب، و الثانية: ما لأعدائهم من العقاب وَ يَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ المراد بالإنسان هنا الجنس لوقوع هذا الدعاء من بعض أفراده و هو دعاء الرجل على نفسه و ولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ أى: مثل دعائه لربه بالخير لنفسه و لأهله كطلب العافية و الرزق و نحوهما، فلو استجاب اللّه دعاءه على نفسه بالشرّ هلك، لكنه لم يستجب تفضلا منه و رحمة، و مثل ذلك: وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ «١» و قد تقدّم؛ و قيل: المراد بالإنسان هنا القائل هذه المقالة هو الكافر يدعو لنفسه بالشرّ، و هو استعجال العذاب دعاءه بالخير كقول القائل: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ «٢». و قيل: هو أن يدعو فى طلب المحظور كدعائه فى طلب المباح، و حذفت الواو من و يدع الإنسان فى رسم المصحف لعدم التلفظ بها لوقوع اللام الساكنة بعدها كقوله: سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ «٣»، وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ «۴»، وَ سَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ «۵» و نحو ذلك وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا أى: مطبوعا على العجلة، و من عجلته أنه يسأل

الشرّ كما يسأل الخير؛ و قيل: إشارته إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تكمل فيه الروح، و المناسب للسّياق هو الأول.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ قَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ قال: أعلمناهم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: أخبرناهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا قضينا

---

(١). يونس: ١١.

(٢). الأنفال: ٣٢.

(٣). العلق: ١٨.

(۴). الشورى: ٢۴.

(۵). النساء: ١۴۶.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢۵٢

إلى بنى إسرائيل: قضينا عليهم. و أخرج ابن عساكر فى تاريخه عن علىّ فى قوله: لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ قال: الأولى قتل زكريا، و الآخرة قتل يحيى. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى الآية قال:

كان أوّل الفساد قتل زكريا، فبعث اللّه عليهم ملك النبط، ثم إن بنى إسرائيل تجهزوا فغزوا النبط فأصابوا منهم، فذلك قوله: ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال:

بعث اللّه عليهم فى الأولى جالوت، و بعث عليهم فى المرة الأخرى بختنصر، فعادوا فسلط اللّه عليهم المؤمنين.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فَجاسُوا قال: فمشوا. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال:

تَتْبِيراً تدميرا. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحّاك فى قوله: عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ قال: كانت الرحمة التى وعدهم بعث محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا قال: فعادوا فبعث اللّه سبحانه عليهم محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم، فهم يعطون الجزية عن يد و هم صاغرون.

و اعلم أنها قد اختلفت الروايات فى تعيين الواقع منهم فى المرّتين، و فى تعيين من سلّطه اللّه عليهم، و فى كيفية الانتقام منهم، و لا يتعلّق بذلك كثير فائدة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ جَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً قال: سجنا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه. قال:

معنى حَصِيراً جعل اللّه مأواهم فيها. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: حَصِيراً قال: فراشا و مهادا. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله: إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ قال: للتى هى أصوب. و أخرج الحاكم عن ابن مسعود أنه كان يتلو كثيرا إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ بالتخفيف. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ يَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ يعنى قول الإنسان: اللهم العنه و اغضب عليه. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا قال: ضجرا لا صبر له على سرّاء و لا ضرّاء. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن عساكر عن سلمان الفارسى قال: أوّل ما خلق اللّه من آدم رأسه، فجعل ينظر و هو يخلق و بقيت رجلاه، فلما كان بعد العصر قال: يا ربّ أعجل قبل الليل، فذلك قوله: وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا.

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٢ الى ١٧]

وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ وَ

كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا (١٢) وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً (١٣) اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤) مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً (١٦) وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧)

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٥٣

لمّا ذكر سبحانه دلائل النبوة و التوحيد أكّدها بدليل آخر من عجائب صنعه و بدائع خلقه، فقال:

وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ و ذلك لما فيهما من الإظلام و الإنارة مع تعاقبهما و سائر ما اشتملا عليه من العجائب التى تحارّ فى وصفها الأفهام، و معنى كونهما آيتين أنهما يدلّان على وجود الصانع و قدرته، و قدّم الليل على النهار لكونه الأصل فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ أى: طمسنا نورها، و قد كان القمر كالشّمس فى الإنارة و الضوء. قيل: و من آثار المحو السواد الذى يرى فى القمر، و قيل: المراد بمحوها أنه سبحانه خلقها ممحوة الضوء مطموسة، و ليس المراد أنه محاها بعد أن لم تكن كذلك وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً أى جعل سبحانه شمسه مضيئة تبصر فيها الأشياء. قال أبو عمرو بن العلاء و الكسائى: هو من قول العرب: أبصر النهار؛ إذا صار بحالة يبصر بها؛ و قيل: مبصرة للناس من قوله أبصره فبصر. فالأوّل وصف لها بحال أهلها، و الثانى وصف لها بحال نفسها، و إضافة آية إلى الليل و النهار بيانية، أى: فمحونا الآية التى هى الليل و الآية التى هى النهار كقولهم نفس الشىء و ذاته لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ أى: لتتوصلوا ببياض النهار إلى التصرّف فى وجوه المعاش، و اللام متعلّق بقوله: وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً أى: جعلناها لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ أى: رزقا، إذ غالب تحصيل الأرزاق و قضاء الحوائج يكون بالنهار، و لم يذكر هنا السّكون فى الليل اكتفاء بما قاله فى موضع آخر: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً «١»، ثم ذكر مصلحة أخرى فى ذلك الجعل فقال: وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ و هذا متعلّق بالفعلين جميعا، أعنى محونا آية الليل و جعلنا آية النهار مبصرة لا بأحدهما فقط كالأوّل، إذ لا يكون علم عدد السنين و الحساب، إلا باختلاف الجديدين «٢» و معرفة الأيام و الشهور و السنين. و الفرق بين العدد و الحساب أن العدد إحصاء ما له كمية بتكرير أمثاله من غير أن يتحصّل منه شىء، و الحساب إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حدّ معين منه له اسم خاص؛ فالسنة مثلا إن وقع النظر إليها من حيث عدد أيامها فذلك هو العدد؛ و إن وقع النظر إليها من حيث تحققها و تحصلها من عدّة أشهر، قد يحصل كل شهر من عدّة أيام، قد يحصل كل يوم من عدّة ساعات، قد تحصلت كلّ ساعة من عدّة دقائق، فذلك هو الحساب وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا أى: كل ما تفتقرون إليه فى أمر دينكم و دنياكم بيّناه تبيينا واضحا لا يلتبس، و عند ذلك تنزاح العلل و تزول الأعذار: لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ «٣»، و لهذا قال: وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ قال أبو عبيدة: الطائر عند العرب الحظ، و يقال له البخت، فالطائر ما وقع للشخص فى الأزل بما هو نصيبه من العقل و العمل و العمر و الرزق و السعادة و الشقاوة، كأنّ طائرا يطير إليه من و كر الأزل و ظلمات عالم الغيب طيرانا لا نهاية له و لا غاية إلى أن انتهى إلى ذلك الشخص فى وقته المقدّر من غير خلاص و لا مناص. و قال الأزهرى: الأصل فى هذا أن اللّه سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته و العاصى، فكتب ما علمه منهم أجمعين، و قضى سعادة من علمه مطيعا و شقاوة من علمه عاصيا، فطار لكل منهم ما هو صائر إليه عند خلقه و إنشائه، و ذلك قوله: وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ أى: ما طار له فى علم اللّه، و فى عنقه

---

(١). يونس: ٦٧.

(٢). الجديدان و الأجدّان: الليل و النهار.

(۳). الأنفال: ۴۲.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۵۴

عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس. قال الزجاج: ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً قرأ ابن عباس و الحسن و مجاهد و ابن محيصن و أبو جعفر و يعقوب «و يخرج» بالمثناة التحتية المفتوحة و بالراء المضمومة على معنى: و يخرج له الطائر، و كتابا منصوب على الحال، و يجوز أن يكون المعنى: يخرج له الطائر فيصير كتابا. و قرأ يحيى بن وثّاب «يخرج» بضم الياء و كسر الراء: أى يخرج اللّه. و قرأ شيبة و محمد بن السّميقع. و روى أيضا عن أبى جعفر «يخرج» بضم الياء و فتح الراء على البناء للمفعول، أى: و يخرج له الطائر كتابا. و قرأ الباقون «و نخرج» بالنون على أن المخرج هو اللّه سبحانه و كتابا مفعول به، و احتج أبو عمرو لهذه القراءة بقوله تعالى: أَلْزَمْناهُ و قرأ أبو جعفر و الحسن و ابن عامر يلقاه بضم الياء و فتح اللام و تشديد القاف. و قرأ الباقون بفتح الياء و سكون اللام و تخفيف القاف، و إنما قال سبحانه يَلْقاهُ مَنْشُوراً تعجيلا للبشرى بالحسنة و للتوبيخ على السيئة اقْرَأْ كِتابَكَ أى: نقول له: اقرأ كتابك، أو قائلين له، قيل: يقرأ ذلك الكتاب من كان قارئا، و من لم يكن قارئا. كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً الباء فى بِنَفْسِكَ زائدة و حَسِيباً تمييز؛ أى:

حاسبا. قال سيبويه: ضريب القداح بمعنى ضاربها، و صريم بمعنى صارم، و يجوز أن يكون الحسيب بمعنى الكافى، ثم وضع موضع الشهيد فعدّى بعلى، و النفس بمعنى الشخص، و يجوز أن يكون الحسيب بمعنى المحاسب؛ كالشريك و الجليس. مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ بيّن سبحانه أنّ ثواب العمل الصالح و عقاب ضدّه يختصان بفاعلهما لا يتعدان منه إلى غيره، فمن اهتدى بفعل ما أمره اللّه به و ترك ما نهاه اللّه عنه، فإنما تعود منفعة ذلك إلى نفسه وَ مَنْ ضَلَ عن طريق الحق فلم يفعل ما أمر به، و لم يترك ما نهى عنه فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها أى: فإن وبال ضلاله واقع على نفسه لا يجاوزها، فكل أحد محاسب عن نفسه، مجزىّ بطاعته، معاقب بمعصيته، ثم أكّد هذا الكلام بأبلغ تأكيد فقال: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى و الوزر: الإثم، يقال: وزر يزر وزرا و وزرة. أى: إثما، و الجمع أوزار، و الوزر: الثقل. و منه: يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ «۱» أى: أثقال ذنوبهم. و معنى الآية: لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى تخلص الأخرى عن وزرها و تؤخذ به الأولى، و قد تقدّم مثل هذا فى الأنعام. قال الزجاج فى تفسير هذه الآية: إن الآثم و المذنب لا يؤاخذ بذنب غيره وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا لما ذكر سبحانه اختصاص المهتدى بهدايته و الضالّ بضلاله، و عدم مؤاخذة الإنسان بجناية غيره، ذكر أنه لا يعذب عباده إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسله، و إنزال كتبه، فبيّن سبحانه أنه لم يتركهم سدى، و لا يؤاخذهم قبل إقامة الحجّة عليهم، و الظاهر أنه لا يعذّبهم لا فى الدنيا و لا فى الآخرة إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال الرسل، و به قالت طائفة من أهل العلم. و ذهب الجمهور إلى أن المنفى هنا هو عذاب الدنيا لا عذاب الآخرة وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا اختلف المفسرون فى معنى أمرنا على قولين: الأوّل: أن المراد به الأمر الذى هو نقيض النهى، و على هذا اختلفوا فى المأمور به، فالأكثر على أنه الطاعة و الخير. و قال فى الكشاف: معناه أمرناهم

---

(۱). الأنعام: ۳۱.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۵۵

بالفسق ففسقوا، و أطال الكلام فى تقرير هذا و تبعه المقتدون به فى التفسير، و ما ذكره هو و من تابعه معارض بمثل قول القائل أمرته فعصانى، فإن كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا أن المأمور به شىء غير المعصية، لأن المعصية منافية للأمر مناقضة له، فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شىء غير الفسق، لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به، فكونه فسقا

ينافى كونه مأمورا به و يناقضه. القول الثانى: أن معنى أَمَرْنا مُتْرَفِيها أكثرنا فسّاقها. قال الواحدى: تقول العرب: أمر القوم إذا كثروا، و أمرهم اللّه إذا أكثرهم. و قد قرأ أبو عثمان النهدى و أبو رجاء و أبو العالية و الربيع و مجاهد و الحسن أَمَّرْنا بتشديد الميم، أى: جعلناهم أمراء مسلّطين. و قرأ الحسن أيضا و قتادة و أبو حيوة الشامى و يعقوب و خارجة عن نافع و حماد بن سلمة عن ابن كثير و علىّ و ابن عباس «آمرنا» بالمدّ و التخفيف، أى: أكثرنا جبابرتها و أمراءها، قاله الكسائى. و قال أبو عبيدة: آمرته بالمدّ و أمرته لغتان بمعنى كثرته، و منه الحديث: «خير المال مهرة مأمورة» أى: كثيرة النتاج و النسل، و كذا قال ابن عزيز. و قرأ الحسن أيضا و يحيى بن يعمر «أمرنا» بالقصر و كسر الميم على معنى فعلنا، و رويت هذه القراءة عن ابن عباس. قال قتادة و الحسن: المعنى أكثرنا. و حكى نحوه أبو زيد و أبو عبيد، و أنكره الكسائى و قال: لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمدّ. قال فى الصحاح: و قال أبو الحسن: أمر ماله- بالكسر- أى: كثر، و أمر القوم: أى كثروا، و منه قول لبيد:

إن يغبطوا يهبطوا و إن أمروايوما يصيروا للهلك و النّكد «١»

و قرأ الجمهور أَمَرْنا من الأمر، و معناه ما قدّمنا فى القول الأوّل، و معنى مُتْرَفِيها المنعمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش، و المفسرون يقولون فى تفسير المترفين: إنهم الجبارون المتسلطون و الملوك الجائرون، قالوا: و إنما خصّوا بالذكر لأن من عداهم أتباع لهم، و معنى فَفَسَقُوا فِيها خرجوا عن الطاعة، و تمردوا فى كفرهم؛ لأن الفسوق الخروج إلى ما هو أفحش فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ أى: ثبت و تحقق عليهم العذاب بعد ظهور فسقهم فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً أى: تدميرا عظيما لا يوقف على كنهه لشدته و عظم موقعه؛ و قد قيل فى تأويل أمرنا بأنه مجاز عن الأمر الحامل لهم على الفسق، و هو إدرار النعم عليهم؛ و قيل أيضا:

إن المراد بأردنا أن نهلك قرية أنه قرب إهلاك قرية، و هو عدول عن الظاهر بدون ملجئ إليه. ثم ذكر سبحانه أن هذه عادته الجارية مع القرون الخالية، فقال: وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ أى: كثيرا ما أهلكنا منهم، ف «كم» مفعول «أهلكنا»، و «من القرون» بيان ل «كم» و تمييز له، أى: كم من قوم كفروا من بعد نوح كعاد و ثمود، فحلّ بهم البوار، و نزل بهم سوط العذاب، و فيه تخويف لكفار مكة. ثم خاطب رسوله بما هو ردع للناس كافة فقال: وَ كَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً قال الفراء: إنما يجوز إدخال الباء فى المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذمّ به، كقولك: كفاك، و أكرم به رجلا، و طاب بطعامك طعاما، و لا يقال قام بأخيك و أنت تريد قام أخوك. و فى الآية بشارة عظيمة لأهل الطاعة، و تخويف شديد لأهل

---

(١). فى المطبوع: يوما يكن للهلاك و الفند. و المثبت من الديوان ص (١٦٠). «يهبطوا»- هنا-: يموتوا.

المعصية؛ لأن العلم التام و الخبرة الكاملة و البصيرة النافذة تقتضى إيصال الجزاء إلى مستحقّه بحسب استحقاقه، و لا ينافيه مزيد التفضّل على من هو أهل لذلك، و المراد بكونه سبحانه خبيرا بصيرا أنه محيط بحقائق الأشياء ظاهرا و باطنا، لا تخفى عليه منها خافية.

و قد أخرج البيهقى فى دلائل النبوّة، و ابن عساكر عن سعيد المقبرى «أن عبد اللّه بن سلام سأل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن السواد الذى فى القمر؛ فقال: كانا شمسين، قال اللّه: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ فالسواد الذى رأيت هو المحو».
و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم معنى هذا بأطول منه. قال السيوطى: و إسناده واه.
و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن علىّ فى قوله: فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ قال: هو السواد الذى فى القمر.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ

مُبْصِـرَةً قال: منيرة لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ قال: جعل لكم سبحا طويلا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَصَّلْنـاهُ قال: بيّناه. و أخرج أحمـد و عبـد بن حميـد و ابن جرير بسـند حسن عن جابر: سـمعت رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم يقول: «طـائر كلّ إنسان فى عنقه». و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ قال: سعادته و شقاوته، و ما قدّر اللّه له و عليه، لازمه أينما كان. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن أنس فى قوله: طائِرَهُ قال: كتابه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: عمله: وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَـةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً قال: هو عمله الـذى أحصى عليه، فأخرج له يوم القيامة ما كتب له من العمل فقرأه منشورا.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: اقْرَأْ كِتابَكَ قال: سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئا فى الدنيا. و أخرج ابن عبد البرّ فى «التمهيد» عن عائشة فى قوله: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى قال:

سألت خديجة «١» عن أولاـد المشـركين فقـال: «هم مع آبـائهم»، ثم سألته بعـد ذلك فقال: «اللّه أعلم بما كانوا عاملين» ثم سألته بعـد مـا اسـتحكم الإسـلام، فنزلت: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى فقال: «هم على الفطرة، أو قال، فى الجنـة». قال السـيوطى: و سـنده ضعيف. و قد ثبت فى الصحيحين و غيرهما:

«أن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم سئل فقيل له: يا رسول اللّه إنّا نصيب فى البيات من ذرارى المشركين، قال: «هم منهم» «٢» و فى ذلك أحاديث كثيرة و بحث طويل. و قـد ذكر ابن كثير فى تفسـير هـذه الآية غالب الأحاديث الواردة فى أطفال المشـركين، ثم نقل كلام أهل العلم فى المسألة فليرجع إليه. و أخرج إسـحاق بن راهويه و أحمد و ابن حبان، و أبو نعيم فى المعرفة، و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى كتاب الاعتقاد، عن الأسود بن سريع

---

(١). يعنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

(٢). «البيات»: أن يغار على المشركين بالليل حيث لا يعرف الرجل من المرأة و الصبى.

«هم منهم»: أى فى الحكم، و ليس المراد إباحـة قتلهم بطريق القصـد إليهم، بـل المراد إذا لم يمكن الوصول إلى الآباء إلا بوطء الذرية- أى بالأرجل-، فإذا أصيبوا لاختلاطهم بهم، جاز قتلهم.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٥٧

أن النبىّ صـلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أربعة يحتجّون يوم القيامة: رجل أصمّ لا يسـمع شـيئا، و رجل أحمق، و رجل هرم، و رجل مات فى الفترة ... ثم قال: فيأخـذ اللّه مواثيقهم ليطيعنه، و يرسل إليهم رسولا أن ادخلوا النار، قال: فو الـذى نفس محمـد بيـده لو دخلوها لكانت عليهم بردا و سـلاما، و من لم يدخلها يسـحب إليها» و إسناده عند أحمد هكذا: حدثنا معاذ بن هشام حدثنى أبى عن أبى قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود بن سريع.

و أخرج نحوه إسـحاق بن راهويه و أحمد و ابن مردويه عن أبى هريرة، و هو عند أحمد بالإسـناد المذكور عن قتادة عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة. و أخرج قاسم بن أصبغ و البزار و أبو يعلى، و ابن عبد البرّ فى التمهيد، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فـذكره نحوه، و جعل مكان الأحمق المعتوه. و أخرج الحكيم الترمـذى فى نوادر الأصول و الطبرانى و أبو نعيم عن معـاذ بن جبـل عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم قـال: «يؤتى يوم القيامـة بـالممسوح عقلاـ و بالهالك فى الفترة، و بالهالك صـغيرا» فـذكر معناه مطولا. و أخرج ابن جرير من طريق ابن جريـج عن ابن عباس فى قوله: أَمَرْنا مُتْرَفِيها قال: بطاعة اللّه فعصوا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن سـعيد بن جبير مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن شـهر بن حوشب قال: سـمعت ابن عباس يقول فى الآيـة: أَمَرْنا مُتْرَفِيها بحقّ فخالفوه، فحق عليهم بـذلك التدمير. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و

البيهقى فى الأسماء و الصفات، عنه فى الآية قال: سلطنا شرارها فعصوا، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. و هو كقوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها «۱». و أخرج البخارى و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: كنا نقول للحى إذا كثروا فى الجاهلية: قد أمر بنو فلان.

[سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۸ الى ۲۴]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً (۱۸) وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (۱۹) كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (۲۰) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلاً (۲۱) لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (۲۲)

وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما وَ قُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً (۲۳) وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً (۲۴)

قوله: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ هذا تأكيد لما سلف من جملة كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ و من جملة مَنِ اهْتَدى و المراد بالعاجلة: المنفعة العاجلة أو الدار العاجلة. و المعنى: من كان يريد بأعمال البرّ أو بأعمال الآخرة ذلك، فيدخل تحته الكفرة و الفسقة و المراؤون و المنافقون عَجَّلْنا لَهُ أى: عجلنا لذلك المريد فِيها أى: فى تلك العاجلة، ثم قيّد المعجل بقيدين: الأوّل: قوله: ما نَشاءُ أى: ما يشاء اللّه سبحانه تعجيله له منها، لا ما يشاؤه ذلك المريد، و لهذا ترى كثيرا من هؤلاء المريدين للعاجلة يريدون

---

(۱). الأنعام: ۱۲۳.

من الدنيا ما لا ينالون، و يتمنون ما لا يصلون إليه؛ و القيد الثانى: قوله: لِمَنْ نُرِيدُ أى: لمن نريد التعجيل له منهم ما اقتضته مشيئتنا، و جملة لِمَنْ نُرِيدُ بدل من الضمير فى له بإعادة الجار؛ بدل البعض من الكل؛ لأن الضمير يرجع إلى «من» و هو للعموم، و هذه الآية تقيد الآيات المطلقة، كقوله سبحانه: وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها «۱». مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ «۲». و قد قيل: إنه قرئ «ما يشاء» بالياء التحتية، و لا ندرى من قرأ بذلك من أهل الشواذّ، و على هذه القراءة قيل: الضمير للّه سبحانه، أى: ما يشاؤه اللّه، فيكون معناها معنى القراءة بالنون، و فيه بعد لمخالفته لما قبله، و هو عجلنا و ما بعده و هو لمن نريد؛ و قيل: الضمير راجع إلى من فى قوله: مَنْ كانَ يُرِيدُ فيكون ذلك مقيدا بقوله: لِمَنْ نُرِيدُ؛ أى: عجلنا له ما يشاؤه، لكن بحسب إرادتنا فلا يحصل لمن أراد العاجلة ما يشاؤه إلا إذا أراد اللّه له ذلك، ثم بعد هذا كله فمن وراء هذه الطلبة الفارغة التى لا تأثير لها إلا بالقيدين المذكورين عذاب الآخرة الدائم، و لهذا قال: ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ أى: جعلنا له بسبب تركه لما أمر به من العمل للآخرة و إخلاصه عن الشوائب عذاب جهنم على اختلاف أنواعه يَصْلاها فى محل نصب على الحال، أى: يدخلها مَذْمُوماً مَدْحُوراً أى: مطرودا من رحمة اللّه مبعدا عنها، فهذه عقوبته فى الآخرة مع أنه لا ينال من الدنيا إلا ما قدره اللّه سبحانه له، فأين حال هذا الشقىّ من حال المؤمن التقىّ؟ فإنه ينال من الدنيا ما قدّره اللّه له و أراده بلا هلع منه و لا جزع، مع سكون نفسه و اطمئنان قلبه و ثقته بربه، و هو مع ذلك عامل للآخرة منتظر للجزاء من اللّه سبحانه، و هو الجنة، و لهذا قال: وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ أى: أراد بأعماله الدار الآخرة وَ سَعى لَها سَعْيَها أى: السعى الحقيق بها اللائق بطالبها، و هو الإتيان بما أمر به و ترك ما نهى عنه خالصا للّه غير مشوب، و كان الإتيان به على القانون الشرعى من دون ابتداع و لا هوى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ

بـالله إيمانا صـحيحا، لأن العمل الصالـح لا يسـتحق صاحبه الجزاء عليه إلا إذا كان من المؤمنين إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ «۳» و الجملة فى محل نصب على الحال، و الإشارة بقوله:

فَأُولئِكَ إلى المريـدين للآخرة الساعين لها سعيها و خبره كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً عند اللّه، أى: مقبولا غير مردود؛ و قيل: مضاعفا إلى أضعاف كثيرة، فقد اعتبر سبحانه فى كون السعى مشكورا أمورا ثلاثة:

الأول: إرادة الآخرة. الثانى: أن يسـعى لها السـعى الذى يحقّ لها. و الثالث: أن يكون مؤمنا. ثم بيّن سـبحانه كمال رأفته و شـمول رحمته، فقال: كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ التنوين فى كلا عوض عن المضاف إليه، و التقدير: كل واحد من الفريقين نمدّ، أى: نزيـده من عطائنـا على تلاحق من غير انقطاع، نرزق المؤمنين و الكفار و أهل الطاعـة و أهل المعصـية، لا تؤثر معصـية العاصى فى قطع رزقه، و ما به الإمداد:

هو مـا عجله لمن يريـد الـدنيا، و ما أنعم به فى الأولى و الأخرى على من يريـد الآخرة، و فى قوله: مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ إشارة إلى أن ذلك بمحض التفضل، و هو متعلق بنمدّ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً أى:

ممنوعا، يقال: حظره يحظره حظرا؛ منعه، و كل ما حال بينك و بين شى‌ء فقد حظره عليك، و هؤُلاءِ

---

(۱). الشورى: ۲۰.

(۲). هود: ۱۵.

(۳). المائدة: ۲۷.

فتح القدير، ج‌۳، ص: ۲۵۹

بدل من كُلًّا و هؤُلاءِ معطوف على البدل. قال الزجاج: أعلم اللّه سـبحانه أنه يعطى المسلم و الكافر و أنه يرزقهما جميعا الفريقين، فقـال: هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ الخطاب لمحمـد صـلّى اللّه عليه و سـلّم، و يحتمل أن يكون لكل من له أهليـة النظر و الاعتبار، و هـذه الجملـة مقررة لما مرّ من الإمـداد و موضـحة له؛ و المعنى: انظر كيف فضّلنا فى العطايا العاجلـة بعض العباد على بعض، فمن غنىّ و فقير، و قوى و ضـعيف، و صـحيح و مريض و عاقل و أحمق و ذلك لحكمة بالغـة تقصـر العقول عن إدراكهـا وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا و ذلـك لأن نسـبة التفاضـل فى درجـات الآخرة أكبر درجات و أكبر تفضـيلا. و قيل: المراد أن المؤمنين يدخلون الجنة و الكافرين يدخلون النار فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين. و حاصل المعنى أن التفاضل فى الآخرة و درجاتها فوق التفاضل فى الدنيا و مراتب أهلها فيها من بسط و قبض و نحوهما. ثم لما أجمل سـبحانه أعمال البرّ فى قوله: وَ سَعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ أخذ فى تفصيل ذلك مبتدئا بأشرفها الذى هو التوحيد فقال: لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ و الخطاب للنبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم، و المراد به أمته تهييجا و إلهابا، أو لكل متأهل له صالـح لتوجيهه إليه؛ و قيل: هو على إضمار القول، و التقدير:

قـل لكـل مكلّف لا تجعـل، و انتصاب تقعـد على جواب النهى، و التقـدير: لا يكن منك جعل فقعود؛ و معنى تقعـد تصـير، من قولهم: شـحذ الشـفرة حتى قعـدت كأنها حربـة، و ليس المراد حقيقة القعود المقابل للقيام؛ و قيل: هو كناية عن عدم القدرة على تحصـيل الخيرات، فـإن السـعى فيه إنما يتأتّى بالقيام، و العجز عنه يلزمه أن يكون قاعـدا عن الطلب؛ و قيل: إن من شأن المـذموم المخـذول أن يقعـد نادما مفكرا على ما فرط منه، فالقعود على هـذا حقيقـة، و انتصاب مَذْمُوماً مَخْذُولًا على خبرية تقعد أو على الحال، أى: فتصـير جامعا بين الأمرين الذمّ لك من اللّه و من ملائكته، و من صالحى عباده، و الخذلان لك منه سـبحانه، أو حال كونك جامعا بين الأمرين. ثم لما ذكر ما هو الركن الأعظم و هو التوحيد أتبعه سائر الشـعائر و الشـرائع فقال: وَ قَضـى رَبُّكَ أى:

أمر أمرا جزما، و حكما قطعا، و حتما مبرما أَلَّا تَعْبُدُوا أى: بأن لا تعبدوا، فتكون أن ناصبة، و يجوز أن تكون مفسرة و لا نهى. و قرئ و وصّى ربك أى: وصّى عباده بعبادته وحده، ثم أردفه بالأمر ببرّ الوالدين فقال: وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً أى: و قضى بأن تحسنوا بالوالدين إحسانا، أو و أحسنوا بهما إحسانا، و لا يجوز أن يتعلّق بالوالدين بإحسانا، لأن المصدر لا يتقدّم عليه ما هو متعلّق به.

قيل: و وجه ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد عبادة اللّه سبحانه أنهما السبب الظاهر فى وجود المتولّد بينهما، و فى جعل الإحسان إلى الأبوين قرينا لتوحيد اللّه و عبادته من الإعلان بتأكد حقّهما و العناية بشأنهما ما لا يخفى، و هكذا جعل سبحانه فى آية أخرى شكرهما مقترنا بشكره فقال: أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ «١»، ثم خصّ سبحانه حالة الكبر بالذّكر لكونها إلى البرّ من الولد أحوج من غيرها فقال: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما إما مركبة من إن الشرطية و ما الإبهامية لتأكيد معنى الشرط، ثم أدخلت نون التوكيد فى الفعل لزيادة التقرير كأنه قيل: إن هذا الشرط مما سيقع البتة عادة «٢». قال النحويون: إن الشرط يشبه النهى من

---

(١). لقمان: ١٤.

(٢). قال الرازى فى تفسيره: المراد أن هذا الحكم المتقرر المتأكد إما أن يقع و إما ألا يقع.

حيث الجزم و عدم الثبوت، فلهذا صحّ دخول النون المؤكدة عليه. و قرأ حمزة و الكسائى «يبلغانّ» قال الفراء: ثنّى لأن الوالدين قد ذكرا قبله فصار الفعل على عددهما، ثم قال: أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما على الاستئناف، و أما على قراءة يَبْلُغَنَ فأحدهما فاعل بالاستقلال و قوله: أَوْ كِلاهُما فاعل أيضا لكن لا بالاستقلال بل بتبعية العطف، و الأولى أن يكون أحدهما على قراءة «يبلغان» بدل من الضمير الراجع إلى الوالدين فى الفعل و يكون كلاهما عطفا على البدل، و لا يصحّ جعل كلاهما تأكيدا للضمير لاستلزام العطف المشاركة، و معنى عندك فى كنفك و كفالتك، و توحيد الضمير فى عندك و لا تقل و ما بعدهما للإشعار بأن كل فرد من الأفراد منهىّ بما فيه النهى، و مأمور بما فيه الأمر، و معنى فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍ لا تقل لواحد منهما فى حالتى الاجتماع و الانفراد، و ليس المراد حالة الاجتماع فقط؛ و فى أفّ لغات: ضم الهمزة مع الحركات الثلاث فى الفاء، و بالتنوين و عدمه، و بكسر الهمز و الفاء بلا تنوين، و أفّى ممالا «١»، و أفّه بالهاء. قال الفراء: تقول العرب: فلان يتأفف من ريح وجدها، أى: يقول أف أف. و قال الأصمعى: الأف: وسخ الأذن، و التّف: وسخ الأظفار، يقال ذلك عند استقذار الشى‌ء، ثم كثر حتى استعملوه فى كل ما يتأذون به. و روى ثعلب عن ابن الأعرابىّ أن الأف الضجر، و قال القتبى: أصله أنه إذا سقط عليه تراب و نحوه نفخ فيه ليزيله، فالصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قول القائل: أفّ، ثم توسّعوا فذكروه عند كل مكروه يصل إليهم.

و قال الزجاج: معناه النتن. و قال أبو عمرو بن العلاء: الأف وسخ بين الأظفار و التّف قلامتها. و الحاصل أنه اسم فعل ينبئ عن التضجر و الاستثقال، أو صوت ينبئ عن ذلك، فنهى الولد عن أن يظهر منه ما يدل على التضجر من أبويه أو الاستثقال لهما، و بهذا النهى يفهم النهى عن سائر ما يؤذيهما بفحوى الخطاب أو بلحنه كما هو متقرّر فى الأصول وَ لا تَنْهَرْهُما النهر: الزجر و الغلظة، يقال: نهره و انتهره؛ إذا استقبله بكلام يزجره، قال الزجاج: معناه لا تكلّمهما ضجرا صائحا فى وجوههما وَ قُلْ لَهُما بدل التأفيف و النهر قَوْلًا كَرِيماً أى: لينا لطيفا أحسن ما يمكن التعبير عنه من لطف القول و كرامته مع التأدب و الحياء و الاحتشام وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ذكر القفال فى معنى خفض الجناح وجهين: الأوّل:

أن الطائر إذا أراد ضم فراخه إليه للتربية خفض لها جناحه، فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير، فكأنه قال للولد:

اکفل والدیک بأن تضمهما إلى نفسک کما فعلا ذلک بک فی حال صغرک. و الثانی: أن الطائر إذا أراد الطیران و الارتفاع نشر جناحه، و إذا أراد النزول خفض جناحه، فصار خفض الجناح کنایة عن التواضع و ترک الارتفاع. و فی إضافة الجناح إلى الذلّ وجهان: الأوّل: أنها کإضافة حاتم إلى الجود فی قولک حاتم الجود، فالأصل فیه الجناح الذلیل، و الثانی: سلوک سبیل الاستعارة، کأنه تخیل للذلّ جناحا، ثم أثبت لذلک الجناح خفضا. و قرأ الجمهور الذلّ بضم الذال من ذلّ یذلّ ذلا و ذلة و مذلة فهو ذلیل. و قرأ سعید بن جبیر و عروة بن الزبیر بکسر الذال، و روی ذلک عن ابن عباس و عاصم، من قولهم دابة ذلول بیّنة الذّلّ؛ أی: منقادة سهلة لا صعوبة فیها، و من الرحمة فیه معنى التعلیل، أی: من أجل فرط الشفقة و العطف

---

(۱). قراءة على الإمالة.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۲۶۱

علیهما لکبرهما و افتقارهما الیوم لمن کان أفقر خلق اللّه إلیهما بالأمس، ثم کأنه قال له سبحانه و لا تکتف برحمتک التی لا دوام لها وَ لکن قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما کَما رَبَّیانِی صَغِیراً و الکاف فی محل نصب على أنه صفة لمصدر محذوف، أی: رحمة مثل تربیتهما لی أو مثل رحمتهما لی؛ و قیل: لیس المراد رحمة مثل الرحمة بل الکاف لاقترانهما فی الوجود فلتقع هذه کما وقعت تلک. و التربیة: التنمیة، و یجوز أن یکون الکاف للتعلیل، أی:

لأجل تربیتهما لی کقوله: وَ اذْکُرُوهُ کَما هَداکُمْ «۱» و لقد بالغ سبحانه فی التوصیة بالوالدین مبالغة تقشعرّ لها جلود أهل العقوق، و تقف عندها شعورهم.

و قد أخرج ابن أبی حاتم عن الضحّاک فی قوله: مَنْ کانَ یُرِیدُ الْعاجِلَةَ قال: من کان یرید بعمله الدنیا عَجَّلْنا لَهُ فِیها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِیدُ ذاک به. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم، و أبو نعیم فی الحلیة، عن الحسن فی قوله: کُلًّا نُمِدُّ الآیة قال: کل یرزق اللّه فی الدنیا البرّ و الفاجر. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر عن ابن عباس فی الآیة قال: یرزق من أراد الدنیا و یرزق من أراد الآخرة. و أخرج ابن أبی حاتم عن الضحّاک قال: مَحْظُوراً ممنوعا. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن ابن زید مثله. و أخرج الطبرانی و ابن مردویه، و أبو نعیم فی الحلیة، عن سلمان عن النبی صلّى اللّه علیه و سلّم قال: «ما من عبد یرید أن یرتفع فی الدنیا درجة فارتفع بها إلا وضعه اللّه فی الآخرة درجة أکبر منها و أطول، ثم قرأ: أَکْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَکْبَرُ تَفْضِیلًا» و هو من روایة زاذان عن سلمان. و ثبت فی الصحیحین «أن أهل الدرجات العلى لیرون أهل علیین کما یرون الکوکب الغابر فی أفق السماء». و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: مَذْمُوماً یقول: ملوما. و أخرج الفریابی و سعید بن منصور و ابن جریر و ابن المنذر، و ابن الأنباری فی المصاحف، من طریق سعید بن جبیر عن ابن عباس أنه قرأ: و وصّى ربّک، مکان وَ قَضى و قال: التزقت الواو و الصاد و أنتم تقرؤونها «وَ قَضى رَبُّکَ». و أخرج ابن أبی حاتم من طریق الضحّاک عنه مثله. و أخرج أبو عبید و ابن منیع و ابن المنذر و ابن مردویه من طریق میمون بن مهران عنه أیضا مثله، و زاد: و لو نزلت على القضاء ما أشرک به أحد. و أقول: إنما یلزم هذا لو کان القضاء بمعنى الفراغ من الأمر، و هو و إن کان أحد معانی مطلق القضاء، کما فی قوله: قُضِیَ الْأَمْرُ الَّذِی فِیهِ تَسْتَفْتِیانِ «۲»، و قوله: فَإِذا قَضَیْتُمْ مَناسِکَکُمْ «۳» فَإِذا قَضَیْتُمُ الصَّلاةَ «۴» و لکنه- هاهنا- بمعنى الأمر، و هو أحد معانی القضاء، و الأمر لا یستلزم ذلک، فإنه سبحانه قد أمر عباده بجمیع ما أوجبه، و من جملة ذلک إفراده بالعبادة و توحیده و ذلک لا یستلزم أن لا یقع الشرک من المشرکین، و من معانی مطلق القضاء معان أخر غیر هذین المعنیین کالقضاء بمعنى الخلق، و منه: فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ «۵». و بمعنى الإرادة کقوله: إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ* «۶». و بمعنى العهد کقوله: وَ ما کُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِیِّ إِذْ قَضَیْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ «۷». و قد أخرج ابن جریر و ابن المنذر من طریق علیّ بن أبی طلحة عن ابن عباس

فى قوله:

---

(١). البقرة: ١٩٨.

(٢). يوسف: ٤١.

(٣). البقرة: ٢٠٠.

(٤). النساء: ١٠٣.

(٥). فصلت: ١٢.

(٦). البقرة: ١١٧.

(٧). القصص: ٤٤.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٦٢

وَ قَضى رَبُّكَ قال: أمر. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد فى الآيهٔ قال: عهد ربک. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً يقول: برّا. و أخرج ابن أبى شيبهٔ و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍ فيما تميط عنهما من الأذى: الخلاء و البول، كما كانا لا يقولانه فيما كانا يميطان عنک من الخلاء و البول. و أخرج الديلمى عن الحسن بن علىّ مرفوعا: «لو علم اللّه شيئا من العقوق أدنى من أف لحرّمه». و أخرج ابن أبى حاتم عن زهير بن محمد فى قوله: وَ قُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً قال: إذا دعواک فقل لبيكما و سعديكما. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادهٔ فى الآيهٔ قال: قولا لينا سهلا. و أخرج البخارى فى الأدب، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عروهٔ فى قوله:

وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِ قال: يلين لهما حتى لا يمتنع من شىء أحبّاه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير فى الآيهٔ قال: اخضع لوالديک كما يخضع العبد للسيد الفظّ الغليظ. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحهٔ عن ابن عباس فى قوله: وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما ثم أنزل اللّه بعد هذا: ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى «١». و أخرج البخارى فى الأدب المفرد، و أبو داود و ابن جرير و ابن المنذر من طرق عنه نحوه، و قد ورد فى برّ الوالدين أحاديث كثيرهٔ ثابتهٔ فى الصحيحين و غيرهما، و هى معروفهٔ فى كتب الحديث.

[سورهٔ الإسراء (١٧): الآيات ٢٥ الى ٣٣]

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (٢٥) وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وَ كانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧) وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً (٢٨) وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (٢٩)

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٣٠) وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً (٣١) وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَ ساءَ سَبِيلاً (٣٢) وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً (٣٣)

قوله: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ أى: بما فى ضمائركم من الإخلاص و عدمه فى كلّ الطاعات، و من التوبهٔ من الذنب الذى فرط منكم أو الإصرار عليه، و يندرج تحت هذا العموم ما فى النفس من البرّ و العقوق اندراجا أوّليا؛ و قيل: إن الآيهٔ خاصهٔ بما يجب للأبوين من البرّ، و يحرم على الأولاد من العقوق، و الأوّل أولى اعتبارا بعموم اللفظ، فلا تخصّصه دلالهٔ السياق و لا تقيده

إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ قاصدين الصلاح، و التوبة من الذنب و الإخلاص للطاعة فلا يضرّكم ما وقع من الذنب الذى تبتم عنه فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً أى: الرجّاعين عن الذنوب إلى التوبة، و عن عدم الإخلاص إلى محض الإخلاص غفورا لما فرط منهم من قول

---

(١). التوبة: ١١٣.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٦٣

أو فعل أو اعتقاد، فمن تاب تاب اللّه عليه، و من رجع إلى اللّه رجع اللّه إليه، ثم ذكر سبحانه التوصية بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما فقال: وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ و الخطاب إمّا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تهييجا و إلهابا لغيره من الأمة، أو لكل من هو صالح لذلك من المكلّفين، كما فى قوله: وَ قَضى رَبُّكَ و المراد بذى القربى ذو القرابة، و حقّهم هو صلة الرحم التى أمر اللّه بها، و كرّر التوصية فيها، و الخلاف بين أهل العلم فى وجوب النفقة للقرابة، أو لبعضهم كالوالدين على الأولاد، و الأولاد على الوالدين معروف، و الذى ينبغى الاعتماد عليه وجوب صلتهم بما تبلغ إليه القدرة و حسبما يقتضيه الحال وَ الْمِسْكِينَ معطوف على «ذا القربى» و فى هذا العطف دليل على أن المراد بالحق الحق المالىّ وَ ابْنَ السَّبِيلِ معطوف على المسكين، و المعنى: و آت من اتصف بالمسكنة، أو بكونه من أبناء السبيل حقه. و قد تقدّم بيان حقيقة المسكين و ابن السبيل فى البقرة، و فى التوبة، و المراد فى هذه الآية التصدّق عليهما بما بلغت إليه القدرة من صدقة النفل، أو ممّا فرضه اللّه لهما من صدقة الفرض، فإنهما من الأصناف الثمانية التى هى مصرف الزكاة. ثم لما أمر سبحانه بما أمر به هاهنا نهى عن التبذير فقال: وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً التبذير: تفريق المال، كما يفرّق البذر كيفما كان من غير تعمّد لمواقعه، و هو الإسراف المذموم لمجاوزته للحدّ المستحسن شرعا فى الإنفاق، أو هو الإنفاق فى غير الحق، و إن كان يسيرا. قال الشافعى: التبذير: إنفاق المال فى غير حقه، و لا تبذير فى عمل الخير.

قال القرطبىّ بعد حكايته لقول الشافعى هذا: و هذا قول الجمهور. قال أشهب عن مالك: التبذير: هو أخذ المال من حقه، و وضعه فى غير حقه، و هو الإسراف، و هو حرام لقوله: إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ فإن هذه الجملة تعليل للنهى عن التبذير، و المراد بالأخوة المماثلة التامة، و تجنّب مماثلة الشيطان و لو فى خصلة واحدة من خصاله واجب، فكيف فيما هو أعمّ من ذلك كما يدلّ عليه إطلاق المماثلة، و الإسراف فى الإنفاق من عمل الشيطان، فإذا فعله أحد من بنى آدم فقد أطاع الشيطان و اقتدى به وَ كانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً أى: كثير الكفران، عظيم التمرّد عن الحق؛ لأنه مع كفره لا يعمل إلا شرا، و لا يأمر إلا بعمل الشرّ، و لا يوسوس إلا بما لا خير فيه. و فى هذه الآية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين، ثم التسجيل على جنس الشيطان بأنه كفور، فاقتضى ذلك أن المبذر مماثل للشيطان، و كل مماثل للشيطان له حكم الشيطان، و كل شيطان كفور، فالمبذّر كفور وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ قد تقدّم قريبا أن أصل إما هذه مركب من إن الشرطية و ما الإبهامية، و أن دخول نون التأكيد على الشرط لمشابهته للنهى، أى: إن أعرضت عن ذى القربى و المسكين و ابن السبيل لأمر اضطرك إلى ذلك الإعراض ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ أى: لفقد رزق من ربك و لكنه أقام المسبب الذى هو ابتغاء رحمة اللّه مقام السبب الذى هو فقد الرزق؛ لأن فاقد الرزق مبتغ له؛ و المعنى: و إن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح اللّه به عليك فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً أى: قولا سهلا لينا؛ كالوعد الجميل أو الاعتذار المقبول. قال الكسائى: يسرت له القول أى لينته. قال الفراء: معنى الآية إن تعرض عن السائل إضاقة و إعسارا فقل لهم قولا ميسورا؛ عدهم عدة حسنة. و يجوز أن يكون المعنى: و إن تعرض عنهم و لم تنفعهم لعدم استطاعتك فقل لهم قولا ميسورا، و ليس المراد هنا الإعراض

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۶۴

بالوجه. و فى هذه الآية تأديب من اللّه سبحانه لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون و بما يردّون، و لقد أحسن من قال:

إن لا يكن ورق يوما أجود بهاللسّائلين فإنى ليّن العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقىإمّا نوالى و إما حسن مردودى

لما ذكر سبحانه أدب المنع بعد النهى عن التذيير بين أدب الإنفاق فقال: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ و هذا النهى يتناول كلّ مكلّف، سواء كان الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم تعريضا لأمته و تعليما لهم، أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين، و المراد النهى للإنسان بأن يمسك إمساكا يصير به مضيقا على نفسه و على أهله، و لا يوسع فى الإنفاق توسيعا لا حاجة إليه بحيث يكون به مسرفا، فهو نهى عن جانبى الإفراط و التفريط. و يتحصّل من ذلك مشروعية التوسط، و هو العدل الذى ندب اللّه إليه:

و لا تك فيها مفرطا أو مفرّطاكلا طرفى قصد الأمور ذميم

و قد مثّل اللّه سبحانه فى هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة إلى عنقه بحيث لا يستطيع التصرّف بها، و مثل حال من يجاوز الحدّ فى التصرف بحال من يبسط يده بسطا لا يتعلق بسببه فيها شىء مما تقبض الأيدى عليه، و فى هذا التصوير مبالغة بليغة، ثم بيّن سبحانه غائلة الطرفين المنهىّ عنهما فقال: فَتَقْعُدَ مَلُوماً عند الناس بسبب ما أنت عليه من الشح مَحْسُوراً بسبب ما فعلته من الإسراف، أى: منقطعا عن المقاصد بسبب الفقر، و المحسور فى الأصل: المنقطع عن السير، من حسره السفر إذا بلغ منه، و البعير الحسير: هو الذى ذهبت قوّته فلا انبعاث به، و منه قوله تعالى: يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ «۱»، أى: كليل منقطع، و قيل: معناه نادما على ما سلف، فجعله هذا القائل من الحسرة التى هى الندامة، و فيه نظر لأن الفاعل من الحسرة حسران، و لا يقال محسور إلا للملوم ثم سلّى رسوله و المؤمنين بأن الذين يرهقهم من الإضافة ليس لهوانهم على اللّه سبحانه، و لكن لمشيئة الخالق الرازق فقال: إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ أى: يوسعه على بعض و يضيقه على بعض؛ لحكمة بالغة، لا لكون من وسّع له رزقه مكرما عنده، و من ضيّقه عليه هائنا لديه. قيل: و يجوز أن يراد أن البسط و القبض إنما هما من أمر اللّه الذى لا تفنى خزائنه، فأما عباده فعليهم أن يقتصدوا، ثم علل ما ذكره من البسط للبعض و التضييق على البعض بقوله:

إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً أى: يعلم ما يسرّون و ما يعلنون، لا يخفى عليه من ذلك خافية، فهو الخبير بأحوالهم، البصير بكيفية تدبيرهم فى أرزاقهم. و فى هذه الآية دليل على أنه المتكفّل بأرزاق عباده، فلذلك قال بعدها: وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ أملق الرجل: لم يبق له إلا الملقات؛ و هى الحجارة العظام الملس. قال الهذلى يصف صائدا:

أتيح لها أقيدر ذو حشيفإذا سامت على الملقات ساما

---

(۱). الملك: ۴.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۶۵

الأقيدر: تصغير الأقدر؛ و هو الرجل القصير، و الحشيف من الثياب: الخلق، و سامت: مرّت، و يقال: أملق إذا افتقر و سلب الدهر ما بيده. قال أوس:

....

و أملق ما عندى خطوب تنبّل «۱» نهاهم اللّه سبحانه عن أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر، و قد كانوا يفعلون ذلك، ثم بيّن لهم أن

خوفهم من الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلك إلى قتل الأولاد لا وجه له، فإن اللّه سبحانه هو الرازق لعباده، يرزق الأبناء كما يرزق الآباء فقال نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ و لستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع، و قد مرّ مثل هذه الآية فى الأنعام، ثم علّل سبحانه النهى عن قتل الأولاد لذلك بقوله: إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً قرأ الجمهور بكسر الخاء و سكون الطاء و بالهمز المقصور. و قرأ ابن عامر، خطأ، بفتح الخاء و الطاء و القصر فى الهمز، يقال: خطىء فى ذنبه خطأ؛ إدا أثم، و أخطأ: إذا سلك سبيل خطأ عامدا أو غير عامد. قال الأزهرى: خطىء يخطأ خطئا مثل أثم يأثم إثما؛ إذا تعمّد الخطأ، و أخطأ: إذا لم يتعمّد، إخطاء و خطأ، قال الشاعر:

دعينى إنما خطئى و صوبىعلىّ و إنّ ما أهلكت مال «٢»

و الخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء، و فيه لغتان القصر، و هو الجيد، و المدّ و هو قليل. و قرأ ابن كثير بكسر الخاء و فتح الطاء و مد الهمز. قال النحاس: و لا أعرف لهذه القراءة وجها، و كذلك جعلها أبو حاتم غلطا.

و قرأ الحسن «خطىّ» بفتح الخاء و الطاء منوّنة من غير همزة. و لما نهى سبحانه عن قتل الأولاد المستدعى لإفناء النسل ذكر النهى عن الزنا المفضى إلى ذلك لما فيه من اختلاط الأنساب فقال: وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى و فى النهى عن قربانه بمباشرة مقدماته نهى عنه بالأولى، فإن الوسيلة إلى الشىء إذا كانت حراما كان المتوسل إليه حراما بفحوى الخطاب، و الزنى فيه لغتان: المد، و القصر. قال الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كماكان الزّناء فريضة الرّجم

ثم علّل النهى عن الزنا بقوله: إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً أى: قبيحا متبالغا فى القبح مجاوزا للحدّ وَ ساءَ سَبِيلًا أى: بئس طريقا طريقه، و ذلك لأنه يؤدى إلى النار، و لا خلاف فى كونه من كبائر الذنوب.

و قد ورد فى تقبيحه و التنفير عنه من الأدلة ما هو معلوم، و لما فرغ من ذكر النهى عن القتل لخصوص الأولاد و عن النهى عن الزنا الذى يفضى إلى ما يفضى إليه قتل الأولاد من اختلاط الأنساب و عدم استقرارها، نهى عن قتل الأنفس المعصومة على العموم فقال: وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِ و المراد بالتى

---

(١). و صدره: لما رأيت العدم قيد نائلى.

(٢). فى المطبوع: دعينى إنما خطاء و صداعلى و إنما أهلكت مالى

و المثبت من اللسان و الشعر و الشعراء لابن قتيبة.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٢۶۶

حرّم اللّه التى جعلها معصومة بعصمة الدين أو عصمة العهد، و المراد بالحق الذى استثناه هو ما يباح به قتل الأنفس المعصومة فى الأصل، و ذلك كالردّة و الزنا من المحصن، و كالقصاص من القاتل عمدا عدوانا و ما يلتحق بذلك، و الاستثناء مفرّغ، أى: لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب متلبّس بالحق، أو إلا متلبسين بالحق، و قد تقدّم الكلام فى هذا فى الأنعام. ثم بين حكم بعض المقتولين بغير حق فقال: وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً أى: لا بسبب من الأسباب المسوّغة لقتله شرعا فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً أى: لمن يلى أمره من ورثته إن كانوا موجودين، أو ممن له سلطان إن لم يكونوا موجودين، و السلطان: التسلط على القاتل إن شاء قتل، و إن شاء عفا، و إن شاء أخذ الدية. ثم لما بيّن إباحة القصاص لمن هو مستحق لدم المقتول، أو ما هو عوض عن القصاص نهاه عن مجاوزة الحدّ فقال: فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ أى: لا يجاوز ما أباحه اللّه له فيقتل بالواحد اثنين أو جماعة، أو يمثّل بالقاتل، أو يعذّبه. قرأ الجمهور «لا يسرف» بالياء التحتية، أى: الولى، و قرأ حمز و الكسائى تسرف بالتاء الفوقية، و هو خطاب للقاتل الأوّل،

و نهى له عن القتل، أى: فلا تسرف أيها القاتل بالقتل فإن عليك القصاص مع ما عليك من عقوبة اللّه و سخطه و لعنته. و قال ابن جرير:

الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم و للأئمة من بعده، أى: لا تقتل يا محمد غير القاتل و لا يفعل ذلك الأئمة بعدك. و فى قراءة أبىّ «و لا تسرفوا» ثم علّل النهى عن السرف فقال: إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً أى: مؤيدا معانا، يعنى الولى، فإن اللّه سبحانه قد نصره بإثبات القصاص له بما أبرزه من الحجج، و أوضحه من الأدلة، و أمر أهل الولايات بمعونته و القيام بحقّه حتى يستوفيه، و يجوز أن يكون الضمير راجعا إلى المقتول، أى: إن اللّه نصره بوليه، قيل: و هذه الآية من أوّل ما نزل من القرآن فى شأن القتل؛ لأنها مكية.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ قال: تكون البادرة من الولد إلى الوالد، فقال اللّه: إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ إن تكن النية صادقة فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً للبادرة التى بدرت منه. و أخرج ابن أبى الدنيا، و البيهقى فى الشعب، عنه فى قوله:

فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً قال: الرجّاعين إلى الخير. و أخرج سعيد بن منصور و هناد و ابن أبى حاتم و البيهقى عن الضحّاك فى الآية قال: الرجّاعين من الذنب إلى التوبة، و من السيئات إلى الحسنات. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لِلْأَوَّابِينَ قال: للمطيعين المحسنين. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عنه قال: للتوابين. و أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ قال: أمره بأحقّ الحقوق، و علّمه كيف يصنع إذا كان عنده، و كيف يصنع إذا لم يكن عنده فقال: وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها قال: إذا سألوك و ليس عندك شىء انتظرت رزقا من اللّه فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً يقول: إن شاء اللّه يكون شبه العدة. قال سفيان: و العدة من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم دين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: هو أن تصل ذا القرابة و تطعم المسكين و تحسن إلى ابن السبيل. و أخرج ابن جرير عن على بن الحسين أنه قال لرجل من أهل الشام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: فما قرأت فى بنى إسرائيل وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ قال:

فتح القدير، ج‌3، ص: 267

و إنكم للقرابة التى أمر اللّه أن يؤتى حقهم. قال: نعم. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية. قال:

و القربى قربى بنى عبد المطلب.

و أقول: ليس فى السياق ما يفيد هذا التخصيص، و لا دلّ على ذلك دليل، و معنى النظم القرآنى واضح إن كان الخطاب مع كل من يصلح له من الأمة، لأن معناه أمر كل مكلف متمكن من صلة قرابته بأن يعطيهم حقّهم، و هو الصّلة التى أمر اللّه بها. و إن كان الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فإن كان على وجه التعريض لأمته فالأمر فيه كالأوّل، و إن كان خطابا له من دون تعريض، فأمته أسوته، فالأمر له صلّى اللّه عليه و سلّم بإيتاء ذى القربى حقه أمر لكل فرد من أفراد أمته، و الظاهر أن هذا الخطاب ليس خاصا بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم بدليل ما قبل هذه الآية، و هى قوله: وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ و ما بعدها، و هى قوله: وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً- إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ

و فى معنى هذه الآية الدالة على وجوب صلة الرحم أحاديث كثيرة. و أخرج أحمد، و الحاكم و صحّحه، عن أنس «أن رجلا قال: يا رسول اللّه إنى ذو مال كثير و ذو أهل و ولد و حاضرة، فأخبرنى كيف أنفق و كيف أصنع؟ قال: تخرج الزكاة المفروضة، فإنها طهرة تطهرك، و تصل أقاربك، و تعرف حق السائل و الجار و المسكين، فقال: يا رسول اللّه أقلل لى؟ قال: فآت ذا القربى حقه و المسكين و ابن السبيل و لا تبذر تبذيرا. قال: حسبى يا رسول اللّه». و أخرج البزار و أبو يعلى و ابن أبى حاتم و ابن

مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: لما نزلت هذه الآية وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فاطمة فأعطاها فدك.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ أقطع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فاطمة فدك. قال ابن كثير بعد أن ساق حديث أبى سعيد هذا ما لفظه: و هذا الحديث مشكل لو صحّ إسناده، لأن الآية مكية، و فدك إنما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة، فكيف يلتئم هذا مع هذا؟ انتهى. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة، و البخارى فى الأدب، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مسعود فى قوله: وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً قال:

التبذير: إنفاق المال فى غير حقه. و أخرج ابن جرير عنه قال: كنا أصحاب محمد نتحدّث أن التبذير النفقة فى غير حقه. و أخرج سعيد بن منصور، و البخارى فى الأدب، و ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ قال: هم الذين ينفقون المال فى غير حقه. و أخرج البيهقى فى الشعب عن علىّ قال: ما أنفقت على نفسك و أهل بيتك فى غير سرف و لا تبذير و ما تصدقت فلك، و ما أنفقت رياء و سمعة فذلك حظ الشيطان. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً قال: العدة. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن سيار أبى الحكم قال: أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم برّ من العراق، و كان معطاء كريما، فقسمه بين الناس، فبلغ ذلك قوما من العرب، فقالوا: إنا نأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم نسأله، فوجدوه قد فرغ منه، فأنزل اللّه: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ قال: محبوسة وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً يلومك الناس مَحْسُوراً ليس بيدك شىء.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۶۸

أقول: و لا أدرى كيف هذا؟ فالآية مكية، و لم يكن إذ ذاك عرب يقصدون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لا يحمل إليه شىء من العراق و لا ـ مما هو أقرب منه، على أن فتح العراق لم يكن إلا بعد موته صلّى اللّه عليه و سلّم! و أخرج ابن جرير عن المنهال بن عمرو «بعثت امرأة إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بابنها فقالت: قل له اكسنى ثوبا. فقال: ما عندى شىء، فقالت: ارجع إليه فقل له اكسنى قميصك، فرجع إليه فنزع قميصه فأعطاها إياه، فنزلت وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً الآية». و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه. و أخرج ابن مردويه عن أبى أمامة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «قال لعائشة و ضرب بيده: أنفقى ما على ظهر كفى، قالت: إذن لا يبقى شىء. قال ذلك ثلاث مرات، فأنزل اللّه وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً الآية» و يقدح فى ذلك أنه صلّى اللّه عليه و سلّم لم يتزوج بعائشة إلا بعد الهجرة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً قال: يعنى بذلك البخل. و أخرجا عنه فى الآية قال: هذا فى النفقة يقول: لا تجعلها مغلولة لا تبسطها بخير، وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ، يعنى التبذير فَتَقْعُدَ مَلُوماً، يلوم نفسه على ما فاته من ماله مَحْسُوراً ذهب ماله كله.

و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ قال: ينظر له، فإن كان الغنى خيرا له أغناه، و إن كان الفقر خيرا له أفقره. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: خَشْيَةَ إِمْلاقٍ قال: مخافة الفقر و الفاقة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى قوله:

خِطْأً قال: خطيئة. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى قال: يوم نزلت هذه الآية لم يكن حدود، فجاءت بعد ذلك الحدود فى سورة النور. و أخرج أبو يعلى و ابن مردويه عن أبىّ ابن كعب أنه قرأ: «و لا تقربوا الزّنا إنه كان فاحشة و مقتا و ساء سبيلاـ إلا من تاب فإنّ اللّه كان غفورا رحيما» فذكر لعمر فأتاه فسأله، فقال: أخذتها من فى رسول اللّه، و ليس لك عمل إلا الصفق بالبقيع. و قد ورد فى الترهيب عن فاحشة الزنا أحاديث كثيرة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن الضحّاك فى

قوله: وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الآيةَ قال: هذا بمكة و نبى اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بها، و هو أوّل شىء نزل من القرآن فى شأن القتل، كان المشركون من أهل مكة يغتالون أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال اللّه: من قتلكم من المشركين، فلا يحملنكم قتله إياكم على أن تقتلوا له أبا أو أخا أو واحدا من عشيرته و إن كانوا مشركين، فلا تقتلوا إلا قاتلكم، و هذا قبل أن تنزل براءة، و قبل أن يؤمر بقتال المشركين فذلك قوله: فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً يقول: لا تقتل غير قاتلك، و هى اليوم على ذلك الموضع من المسلمين لا يحل لهم أن يقتلوا إلا قاتلهم. و أخرج البيهقى فى سننه عن زيد بن أسلم: إن الناس فى الجاهلية كانوا إذا قتل الرجل من القوم رجلا لم يرضوا حتى يقتلوا به رجلا شريفا، إذا كان قاتلهم غير شريف، لم يقتلوا قاتلهم و قتلوا غيره، فوعظوا فى ذلك بقول اللّه سبحانه: وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ إلى قوله: فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله: وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً قال: بينة من اللّه أنزلها يطلبها ولىّ المقتول القود أو العقل، و ذلك السلطان. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق مجاهد عنه فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ قال: لا يكثر فى القتل. و أخرج ابن المنذر من طريق أبى صالح عنه أيضا: لا يقتل إلا قاتل رحمه.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۶۹

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٣٤ الى ٤١]

وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً (٣٤) وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥) وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً (٣٦) وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (٣٨)

ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (٣٩) أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (٤٠) وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَ ما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً (٤١)

لما ذكر سبحانه النهى عن إتلاف النفوس أتبعه بالنهى عن إتلاف الأموال، و كان أهمها بالحفظ و الرعاية مال اليتيم، فقال: وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ و النهى عن قربانه مبالغة فى النهى عن المباشرة له و إتلافه، ثم بيّن سبحانه أن النهى عن قربانه، ليس المراد منه النهى عن مباشرته فيما يصلحه و يفسده، بل يجوز لولىّ اليتيم أن يفعل فى مال اليتيم ما يصلحه، و ذلك يستلزم مباشرته، فقال: إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أى: إلا بالخصلة التى هى أحسن الخصال، و هى حفظه و طلب الربح فيه و السعى فيما يزيد به. ثم ذكر الغاية التى للنهى عن قربان مال اليتيم فقال: حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ أى: لا تقربوه إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ اليتيم أشدّه، فإذا بلغ أشدّه كان لكم أن تدفعوه إليه، أو تتصرّفوا فيه بإذنه، و قد تقدّم الكلام على هذا مستوفى فى الأنعام.

وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ قد مضى الكلام فيه فى غير موضع. قال الزجّاج: كلّ ما أمر اللّه به و نهى عنه فهو من العهد، فيدخل فى ذلك ما بين العبد و ربه، و ما بين العباد بعضهم البعض. و الوفاء بالعهد: هو القيام بحفظه على الوجه الشرعى و القانون المرضى، إلا إذا دلّ دليل خاص على جواز النقض إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا أى: مسؤولا عنه، فالمسؤول هنا هو صاحبه، و قيل: إن العهد يسأل تبكيتا لناقضه وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ أى: أتموا الكيل و لا تخسروه وقت كيلكم للناس وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ قال الزجّاج: هو ميزان العدل، أىّ ميزان كان من موازين الدراهم و غيرها، و فيه لغتان: ضم القاف، و كسرها. و قيل: هو القبان المسمّى بالقرسطون؛ و قيل: هو العدل نفسه، و هى لغة الروم؛ و قيل: لغة سريانية. و قرأ ابن كثير و نافع و أبو عمرو و ابن عامر و عاصم فى رواية أبى بكر القسطاس بضم القاف. و قرأ حمزة و الكسائى و حفص عن عاصم بكسر القاف، و الإشارة

بقوله: ذلِكَ إلى إيفاء الكيل و الوزن، و هو مبتدأ و خبره خَيْرٌ أى: خير لكم عند اللّه و عند الناس يتأثر عنه حسن الذكر و ترغيب الناس فى معاملة من كان كذلك وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا أى: أحسن عاقبة، من آل إذا رجع. ثم أمر سبحانه بإصلاح اللسان و القلب فقال: وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أى: لا تتبع ما لا تعلم، من قولك: قفوت فلانا إذا اتبعت أثره، و منه قافية الشعر لأنها تقفو كل بيت، و منه القبيلة المشهورة بالقافة لأنهم يتبعون آثار أقدام الناس. و حكى ابن جرير عن فرقة أنها قالت: قفا و قاف مثل عتا و عات. قال منذر بن سعيد البلوطى: قفا و قاف، مثل جذب و جبذ. و حكى الكسائى عن بعض القراء أنه قرأ: تقف بضم القاف و سكون الفاء. و قرأ الفراء بفتح القاف و هى لغة

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۷۰

لبعض العرب، و أنكرها أبو حاتم و غيره. و معنى الآية: النهى عن أن يقول الإنسان ما لا يعلم أو يعمل بما لا علم له به، و هذه قضية كلية، و قد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بأمور؛ فقيل: لا تذم أحدا بما ليس لك به علم؛ و قيل: هى فى شهادة الزور، و قيل: هى فى القذف. و قال القتبى: معنى الآية: لا تتبع الحدس و الظنون، و هذا صواب، فإن ما عدا ذلك هو العلم؛ و قيل: المراد بالعلم هنا هو الاعتقاد الراجح المستفاد من مستند قطعيا كان أو ظنيا، قال أبو السعود فى تفسيره: و استعماله بهذا المعنى ممّا لا ينكر شيوعه. و أقول:

إن هذه الآية قد دلّت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم، و لكنها عامة مخصّصة بالأدلة الواردة بجواز العمل بالظنّ، كالعمل بالعامّ، و بخبر الواحد، و العمل بالشهادة، و الاجتهاد فى القبلة، و فى جزاء الصيد، و نحو ذلك، فلا تخرج من عمومها و من عموم إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً* إلا ما قام دليل جواز العمل به، فالعمل بالرأى فى مسائل الشرع إن كان لعدم وجود الدليل فى الكتاب و السنة، فقد رخّص فيه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كما فى قوله صلّى اللّه عليه و سلّم لمعاذ لما بعثه قاضيا: «بم تقضى؟ قال: بكتاب اللّه، قال: فإن لم تجد؟ قال: فبسنّة رسول اللّه، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيى» و هو حديث صالح للاحتجاج به، كما أوضحنا ذلك فى بحث مفرد. و أما التوثب على الرأى مع وجود الدليل فى الكتاب أو السنّة- و لكنه قصر صاحب الرأى عن البحث فجاء برأيه- فهو داخل تحت هذا النهى دخولا أوّليا، لأنه محض رأى فى شرع اللّه، و بالناس عنه غنى بكتاب اللّه سبحانه و بسنّة رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم، و لم تدع إليه حاجة، على أن الترخيص فى الرأى عند عدم وجود الدليل إنما هو رخصة للمجتهد يجوز له أن يعمل به، و لم يدل دليل على أنه يجوز لغيره العمل به و ينزله منزلة مسائل الشرع، و بهذا يتّضح لك أتمّ اتضاح، و يظهر لك أكمل ظهور أن هذه الآراء المدوّنة فى الكتب الفروعية ليست من الشرع فى شىء، و العامل بها على شفا جرف هار، فالمجتهد المستكثر من الرأى قد قفا ما ليس له به علم، و المقلّد المسكين العامل برأى ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم و لا لمن قلّده ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ و قد قيل: إن هذه الآية خاصة بالعقائد، و لا دليل على ذلك أصلا. ثم علّل سبحانه النهى عن العمل بما ليس بعلم بقوله: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا إشارة إلى الأعضاء الثلاثة، و أجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها. و قال الزجّاج: إن العرب تعبّر عمّا يعقل و عمّا لا يعقل بأولئك، و أنشد ابن جرير مستدلا على جواز هذا قول الشاعر «۱»:

ذمّ المنازل بعد منزلة اللّوىو العيش بعد أولئك الأيّام

و اعترض بأن الرواية بعد أولئك الأقوام، و تبعه غيره على هذا الخطأ كصاحب الكشاف. و الضمير فى كان من قوله: كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا يرجع إلى كل، و كذا الضمير فى عنه، و قيل: الضمير فى كان يعود إلى القافى المدلول عليه بقوله: وَ لا تَقْفُ و قوله: عَنْهُ فى محل رفع لإسناد مسؤولا إليه، ورد بما حكاه النحاس من الإجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل إذا كان جارا أو مجرورا. قيل: و الأولى

(۱). هو جرير.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۷۱

أن يقال إنه فاعل مسؤولا المحذوف، و المذكور مفسر له. و معنى سؤال هذه الجوارح أنه يسأل صاحبها عما استعملها فيه لأنها آلات، و المستعمل لها هو الروح الإنسانى، فإن استعملها فى الخير استحقّ الثواب، و إن استعملها فى الشرّ استحق العقاب. و قيل: إن اللّه سبحانه ينطق الأعضاء هذه عند سؤالها فتخبر عما فعله صاحبها وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً المرح: قيل هو شدّة الفرح، و قيل: التكبر فى المشى، و قيل:

تجاوز الإنسان قدره، و قيل: الخيلاء فى المشى، و قيل: البطر و الأشر، و قيل: النشاط. و الظاهر أن المراد به هنا الخيلاء و الفخر، قال الزجّاج فى تفسير الآية: لا تمش فى الأرض مختالا فخورا، و ذكر الأرض مع أن المشى لا يكون إلا عليها أو على ما هو معتمد عليها تأكيدا و تقريرا، و لقد أحسن من قال:

و لا تمش فوق الأرض إلا تواضعافكم تحتها قوم هم منك أرفع

و إن كنت فى عزّ و حرز و منعةفكم مات من قوم هم منك أمنع

و المرح مصدر وقع حالا أى: ذا مرح، و فى وضع المصدر موضع الصفة نوع تأكيد. و قرأ الجمهور مَرَحاً بفتح الراء على المصدر. و حكى يعقوب عن جماعة كسرها على أنه اسم فاعل، ثم علّل سبحانه هذا النهى فقال: إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ يقال خرق الثوب، أى: شقّه، و خرق الأرض قطعها، و الخرق: الواسع من الأرض، و المعنى: إنك لن تخرق الأرض بمشيك عليها تكبرا، و فيه تهكّم بالمختال المتكبر وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا أى: و لن تبلغ قدرتك إلى أن تطاول الجبال حتى يكون عظم جثتك حاملا لك على الكبر و الاختيال، فلا قوّة لك حتى تخرق الأرض بالمشى عليها، و لا عظم فى بدنك حتى تطاول الجبال، فما الحامل لك على ما أنت فيه؟ و طولا مصدر فى موضع الحال أو تمييز أو مفعول له. و قيل: المراد بخرق الأرض نقبها لا قطعها بالمسافة. و قال الأزهرى: خرقها: قطعها. قال النحّاس: و هذا أبين؛ كأنه مأخوذ من الخرق، و هو الفتحة الواسعة؛ و يقال: فلان أخرق من فلان، أى: أكثر سفرا، و الإشارة بقوله: كُلُّ ذلِكَ إلى جميع ما تقدّم ذكره من الأوامر و النواهى، أو إلى ما نهى عنه فقط من قوله: وَ لا تَقْفُ- وَ لا تَمْشِ قرأ عاصم و ابن عامر و حمزة و الكسائى و مسروق سَيِّئُهُ على إضافة سيئ إلى الضمير، و يؤيد هذه القراءة قوله: مَكْرُوهاً فإن السيئ هو المكروه، و يؤيدها أيضا قراءة أبىّ: «كان سيئاته»، و اختار هذه القراءة أبو عبيد. و قرأ ابن كثير و نافع و أبو عمرو «سيئة» على أنها واحدة السيئات، و انتصابها على خبرية كان، و يكون مَكْرُوهاً صفة لسيئة على المعنى، فإنها بمعنى سيئا، أو هو بدل من سيئة؛ و قيل: هو خبر ثان لكان حملا على لفظ كل، و رجح أبو على الفارسى البدل، و قد قيل فى توجيهه بغير هذا ممّا فيه تعسف لا يخفى. قال الزجّاج: و الإضافة أحسن؛ لأن ما تقدّم من الآيات فيها سيئ و حسن، فسيئه المكروه و يقوّى ذلك التذكير فى المكروه؛ قال: و من قرأ بالتنوين جعل كُلُّ ذلِكَ إحاطة بالمنهىّ عنه دون الحسن، المعنى: كل ما نهى اللّه عنه كان سيئة و كان مكروها، قال: و المكروه على هذه القراءة بدل من السيئة و ليس بنعت، و المراد بالمكروه عند اللّه هو الذى يبغضه و لا يرضاه، لا أنه غير مراد مطلقا؛ لقيام الأدلة القاطعة على أن الأشياء واقعة بإرادته سبحانه، و ذكر مطلق الكراهة مع أن فى الأشياء المتقدّمة ما هو

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۷۲

من الكبائر إشعارا بأن مجرّد الكراهة عنده تعالى يوجب انزجار السامع و اجتنابه لذلك. و الحاصل أن فى الخصال المتقدّمة ما هو حسن و هو المأمور به، و ما هو مكروه و هو المنهىّ عنه، فعلى قراءة الإضافة تكون الإشارة بقوله:

كُلَّ ذلِكَ إلى جميع الخصال حسنها و مكروهها، ثم الإخبار بأن ما هو سيئ من هذه الأشياء و هو المنهى عنه مكروه عند اللّه، و على قراءة الإفراد من دون إضافة تكون الإشارة إلى المنهيات، ثم الإخبار عن هذه المنهيات بأنها سيئة مكروهة عند اللّه ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الإشارة إلى ما تقدّم ذكره من قوله:

لا تَجْعَلْ إلى هذه الغاية، و ترتقى إلى خمسة و عشرين تكليفا، مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ أى: من جنسه أو بعض منه، و سمّى حكمة لأنه كلام محكم، و هو ما علمه من الشرائع أو من الأحكام المحكمة التى لا يتطرّق إليها الفساد. و عند الحكماء أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته، و مِنَ الْحِكْمَةِ متعلّق بمحذوف وقع حالا، أى: كائنا من الحكمة، أو بدل من الموصول بإعادة الجار، أو متعلّق بأوحى وَ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ كرّر سبحانه النهى عن الشرك تأكيدا و تقريرا و تنبيها على أنه رأس خصال الدين و عمدته. قيل: و قد راعى سبحانه فى هذا التأكيد دقيقة «۱» فرتب على الأوّل كونه مذموما مخذولا، و ذلك إشارة إلى حال الشرك فى الدنيا، و رتّب على الثانى أنه يلقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً و ذلك إشارة إلى حاله فى الآخرة، و فى القعود هناك، و الإلقاء هنا، إشارة إلى أن للإنسان فى الدنيا صورة اختيار بخلاف الآخرة، و قد تقدّم تفسير الملوم و المدحور. أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً قال أبو عبيدة:

أصفاكم خصّكم، و قال الفضل: أخلصكم، و هو خطاب للكفار القائلين بأن الملائكة بنات اللّه، و فيه توبيخ شديد و تقريع بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل، و الفاء للعطف على مقدّر كنظائره ممّا قد كررناه. إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ يعنى القائلين بأن لهم الذكور و للّه الإناث قَوْلًا عَظِيماً بالغا فى العظم و الجرأة على اللّه إلى مكان لا يقادر قدره وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ أى: بيّنا ضروب القول فيه من الأمثال و غيرها، أو كرّرنا فيه؛ و قيل: فِي زائدة، و التقدير و لقد صرّفنا هذا القرآن، و التصريف فى الأصل: صرف الشىء من جهة إلى جهة؛ و قيل: معنى التصريف المغايرة، أى: غايرنا بين المواعظ ليتذكّروا و يعتبروا، و قراءة الجمهور صَرَّفْنا بالتشديد، و قرأ الحسن بالتخفيف، ثم علّل تعالى ذلك فقال: لِيَذَّكَّرُوا أى: ليتّعظوا و يتدبّروا بعقولهم و يتفكروا فيه؛ حتى يقفوا على بطلان ما يقولونه.

قرأ يحيى بن وثّاب و الأعمش و حمزة و الكسائى «ليذكروا» مخففا، و الباقون بالتشديد، و اختارها أبو عبيد لما تفيده من معنى التكثير، و جملة وَ ما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً فى محل نصب على الحال؛ أى: و الحال أن هذا التصريف و التذكير ما يزيدهم إلا تباعدا عن الحقّ و غفلة عن النظر فى الصواب؛ لأنهم قد اعتقدوا فى القرآن أنه حيلة و سحر و كهانة و شعر، و هم لا ينزعون عن هذه الغواية و لا وازع لهم يزعهم إلى الهداية.

و قد أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله: وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ قال: كانوا لا يخالطونهم فى مال

---

(۱). أى: مسألة دقيقة.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۷۳

و لا مأكل و لا مركب حتى نزلت: وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ «۱». و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا قال: يسأل اللّه ناقض العهد عن نقضه. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال: يسأل عهده من أعطاه إياه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله:

وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ يعنى لغيركم وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ يعنى الميزان، و بلغة الروم: الميزان:

القسطاس ذلِكَ خَيْرٌ يعنى وفاء الكيل و الميزان خير من النقصان وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا عاقبة. و أخرج ابن أبى شيبة و الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: القسطاس: العدل، بالرومية. و أخرج ابن المنذر عن

الضحّاك قال: القسطاس: القبّان. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال:

الحديث. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لاـ تَقْفُ قال: لا تقل. و أخرج ابن جرير عنه قال: لا ترم أحدا لما ليس لك به علم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن الحنفية فى الآية قال: شهادة الزور. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا يقول: سمعه و بصره و فؤاده تشهد عليه. و أخرج الفريابى عن ابن عباس فى قوله: كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا قال: يوم القيامة أ كذلك كان أم لا؟. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ لاـ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً قال: لا تمش فخرا و كبرا، فإن ذلك لا يبلغ بك الجبال و لا أن تخرق الأرض بفخرك و كبرك. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إن التوراة فى خمس عشرة آية من بنى إسرائيل، ثم تلاـ وَ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: مَدْحُوراً قال: مطرودا.

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٤٢ الى ٤٨]

قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤٤) وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لاـ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً (٤٥) وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (٤٦)

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ إِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً (٤٧) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨)

قوله: قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ قرأ ابن كثير و حفص يقولون بالياء التحتية، و قرأ الباقون بالفوقية على الخطاب للقائلين بأن مع اللّه آلهة أخرى، و إِذاً جواب عن مقالتهم الباطلة و جزاء للو لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ و هو اللّه سبحانه سَبِيلًا طريقا للمغالبة و الممانعة، كما تفعل الملوك مع بعضهم البعض من المقاتلة و المصاولة؛ و قيل: معناه: إذا لابتغت الآلهة إلى اللّه القربة و الزّلفى عنده، لأنهم دونه، و المشركون

---

(١). البقرة: ٢٢٠.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٧۴

إنما اعتقدوا أنها تقرّبهم إلى اللّه. و الظاهر المعنى الأول، و مثل معناه قوله سبحانه: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا «١». ثم نزّه تعالى نفسه، فقال: سُبْحانَهُ و التسبيح: التنزيه، و قد تقدّم. وَ تَعالى متباعد عَمَّا يَقُولُونَ من الأقوال الشنيعة و الفرية العظيمة عُلُوًّا أى: تعاليا، و لكنه وضع العلوّ موضع التعالى كقوله: وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً «٢». ثم وصف العلوّ بالكبر مبالغة فى النزاهة، و تنبيها على أن بين الواجب لذاته و الممكن لذاته، و بين الغنىّ المطلق و الفقير المطلق، مباينة لا تعقل الزيادة عليها.

ثم بيّن سبحانه جلالة ملكه و عظمة سلطانه فقال: تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَ قرئ بالمثناة التحتية فى يسبح و بالفوقية، و قال: فِيهِنَ بضمير العقلاء لإسناده إليها التسبيح الذى هو فعل العقلاء، و قد أخبر سبحانه عن السموات و الأرض بأنها تسبّحه، و كذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول، و هم الملائكة و الإنس و الجن و غيرهم من الأشياء التى لا تعقل، ثم زاد ذلك تعميما و تأكيدا فقال:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ فشمل كل ما يسمى شيئا كائنا ما كان، و قيل: إنه يحمل قوله: وَ مَنْ فِيهِنَ على الملائكة و الثقلين، و يحمل وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ على ما عدا ذلك من المخلوقات.

و قد اختلف أهل العلم فى هذا العموم هل هو مخصوص أم لا؟ فقالت طائفة: ليس بمخصوص، و حملوا التسبيح على تسبيح الدلالة لأن كل مخلوق يشهد على نفسه و يدلّ غيره بأن اللّه خالق قادر. و قالت طائفة:

هذا التسبيح على حقيقته و العموم على ظاهره. و المراد أن كل المخلوقات تسبح للّه سبحانه هذا التسبيح الذى معناه التنزيه، و إن كان البشر لا يسمعون ذلك و لا يفهمونه، و يؤيد هذا قوله سبحانه: وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ فإنّه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمرا مفهوما لكل أحد. و أجيب بأن المراد بقوله لا تفقهون الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار. و قالت طائفة: إن هذا العموم مخصوص بالملائكة و الثقلين دون الجمادات، و قيل: خاص بالأجسام النامية فيدخل النباتات، كما روى هذا القول عن عكرمة و الحسن، و خصّا تسبيح النباتات بوقت نموها لا بعد قطعها، و قد استدلّ لذلك بحديث «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مرّ على قبرين» و فيه «ثم دعا بعسيب رطب فشقّه اثنين، و قال: إنه يخفّف عنهما ما لم ييبسا» و يؤيد حمل الآية على العموم قوله: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ «٣» و قوله: وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ «۴»، و قوله: وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا «۵» و نحو ذلك من الآيات، و ثبت فى الصحيح أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام، و هم يأكلون مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و هكذا حديث حنين الجذع، و حديث «أن حجرا بمكة كان يسلّم على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم»، و كلها فى الصحيح «و من ذلك تسبيح الحصى فى كفه» صلّى اللّه عليه و سلّم، و مدافعة عموم هذه الآية بمجرّد الاستبعادات ليس دأب من يؤمن باللّه سبحانه و يؤمن بما جاء من عنده، و معنى إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ إلا يسبح متلبسا بحمده وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ قرأ الحسن و أبو عمرو و يعقوب و حفص و حمزة و الكسائى و خلف تُسَبِّحُ بالمثناة الفوقية على الخطاب، و قرأ الباقون بالتحتية، و اختار هذه القراءة أبو عبيد إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً فمن حلمه الإمهال لكم، و عدم إنزال عقوبته عليكم، و من مغفرته لكم

---

(۱). الأنبياء: ۲۲.

(۲). نوح: ۱۷.

(۳). ص: ۱۸.

(۴). البقرة: ۷۴.

(۵). مريم: ۹۰.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۷۵

أنه لا يؤاخذ من تاب منكم. و لما فرغ سبحانه من الإلهيات شرع فى ذكر بعض من آيات القرآن و ما يقع من سامعيه فقال: وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً جعلنا بينك يا محمد و بين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا، أى: إنهم لإعراضهم عن قراءتك و تغافلهم عنك كمن بينك و بينه حجاب يمرّون بك و لا يرونك. ذكر معناه الزجّاج و غيره، و معنى مستورا ساتر.

قال الأخفش: أراد ساترا، و الفاعل قد يكون فى لفظ المفعول كما تقول: إنك لمشئوم و ميمون، و إنما هو شائم و يا من؛ و قيل: معنى مستورا ذا ستر، كقولهم سيل مفعم: أى ذو إفعام، و قيل: هو حجاب لا تراه الأعين فهو مستور عنها، و قيل: حجاب من دونه حجاب فهو مستور بغيره، و قيل: المراد بالحجاب المستور الطبع و الختم وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً الأكنة: جمع كنان. و قد تقدّم تفسيره فى الأنعام، و قيل: هو حكاية لما كانوا يقولونه من قولهم قُلُوبُنا غُلْفٌ* «۱» وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ «۲»

و أَنْ يَفْقَهُوهُ مفعول لأجله، أي: كراهة أن يفقهوه، أو لئلا يفقهوه، أي: يفهموا ما فيه من الأوامر و النواهى و الحكم و المعانى وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً أي: صمما و ثقلا، و فى الكلام حذف، و التقدير: أن يسمعوه. و من قبائح المشركين أنهم كانوا يحبون أن يذكر آلهتهم كما يذكر اللّه سبحانه، فإذا سمعوا ذكر اللّه دون ذكر آلهتهم نفروا عن المجلس، و لهذا قال اللّه: وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ أى: واحدا غير مشفوع بذكر آلهتهم، فهو مصدر وقع موقع الحال وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً هو مصدر، و التقدير: هربوا نفورا، أو نفروا نفورا؛ و قيل: جمع نافر كقاعد و قعود. و الأوّل أولى. و يكون المصدر فى موضع الحال: أى: ولّوا نافرين نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ أى: يستمعون إليك متلبسين به من الاستخفاف بك و بالقرآن و اللغو فى ذكرك لربك وحده، و قيل: الباء زائدة و الظرف فى إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ متعلق بأعلم، أى: نحن أعلم وقت يستمعون إليك بما يستمعون به، و فيه تأكيد للوعيد، و قوله: وَ إِذْ هُمْ نَجْوى متعلق بأعلم أيضا، أى: و نحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيهم، و قد كانوا يتناجون بينهم بالتكذيب و الاستهزاء، يقول: بدل من إِذْ هُمْ نَجْوى إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً أى: يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم: ما تتبعون إلا رجلا سحر فاختلط عقله و زال عن حدّ الاعتدال.

قال ابن الأعرابىّ: المسحور: الذاهب العقل الذى أفسد من قولهم طعام مسحور إذا أفسد عمله، و أرض مسحورة: أصابها من المطر أكثر مما ينبغى فأفسدها. و قيل: المسحور: المخدوع؛ لأن السحر حيلة و خديعة، و ذلك لأنهم زعموا أن محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم كان يتعلّم من بعض الناس، و كانوا يخدعونه بذلك التعليم. و قال أبو عبيدة:

معنى مسحورا أن له سحرا؛ أى: رئة، فهو لا يستغنى عن الطعام و الشراب فهو مثلكم، و تقول العرب للجبان: قد انتفخ سحره، و كل من كان يأكل من آدمى أو غيره مسحور، و منه قول امرئ القيس:

أرانا موضعين لأمر غيب «٣»و نسحر بالطّعام و بالشّراب

---

(١). البقرة: ٨٨.

(٢). فصلت: ٥.

(٣). «موضعين»: مسرعين. «لأمر غيب»: أى للموت المغيّب.

أىّ: نغذى و نعلّل. قال ابن قتيبة: لا أدرى ما حمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسّروه بالوجوه الواضحة. انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ أى: قالوا تارة إنك كاهن، و تارة ساحر، و تارة شاعر، و تارة مجنون فَضَلُّوا عن طريق الصواب فى جميع ذلك فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا إلى الهدى، أو إلى الطعن الذى تقبله العقول و يقع التصديق له لا أصل الطعن، فقد فعلوا منه ما قدروا عليه؛ و قيل: لا يستطيعون مخرجا لتناقض كلامهم كقولهم: ساحر مجنون.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا قال:

على أن يزيلوا ملكه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن عبد الرحمن بن قرط «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة أسرى به إلى المسجد الأقصى كان جبريل عن يمينه و ميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بلغ السّموات العلى، فلما رجع قال: سمعت تسبيحا من «١» السّموات العلى مع تسبيح كثير، سبحت السّموات العلى من ذى المهابة، مشفقات لذى العلوّ بما علا، سبحان العلىّ الأعلى سبحانه و تعالى». و أخرج ابن مردويه عن أنس «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال و هو جالس مع أصحابه إذ سمع هدّة فقال: أطّت السماء و حقّ لها أن تئطّ، و الذى نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح بحمده». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم، و أبو

الشيخ فى العظمة، عن جابر قال: «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: ألا أخبركم بشىء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحا قال لابنه: يا بنى آمرك أن تقول سبحان اللّه، فإنها صلاة الخلائق، و تسبيح الخلق، و بها يرزق الخلق» قال اللّه تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ و أخرج أحمد و ابن مردويه من حديث ابن عمر نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى أمامة قال: «ما من عبد سبّح تسبيحة إلا سبّح ما خلق اللّه من شيء» قال اللّه: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ قال ابن كثير: إسناده فيه ضعف. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «قرصت نملة نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى اللّه إليه: من أجل نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبّح». و أخرج النسائى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عمرو قال «نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قتل الضفدع و قال: نقيقها تسبيح».

و أخرج أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ قال: الزرع يسبح و أجره لصاحبه، و الثوب يسبح، و يقول الوسخ: إن كنت مؤمنا فاغسلنى إذا. و أخرج أبو الشيخ عنه قال: كل شيء يسبح إلا الكلب و الحمار. و أخرج ابن راهويه فى مسنده من طريق الزهرى قال: أتى أبو بكر بغراب وافر الجناحين، فجعل ينشر جناحيه و يقول: ما صيد من صيد و لا عضد من شجرة إلا بما ضيّعت من التسبيح. و أخرج أحمد فى الزهد و أبو الشيخ عن ميمون بن مهران قال: أتى أبو بكر الصديق فذكره من قوله غير مرفوع. و أخرج أبو نعيم فى الحلية، و ابن مردويه من حديث أبى هريرة بنحوه. و أخرج

---

(١). فى الحلية (٢/ ٧): فى.

ابن مردويه من حديث ابن مسعود بمعنى بعضه. و أخرج أبو الشيخ من حديث أبى الدرداء بمعناه. و أخرج ابن عساكر من حديث أبى رهم نحوه.

و أخرج ابن المنذر عن الحسن قال: هذه الآية فى التوراة كقدر ألف آية وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ قال: فى التوراة تسبح له الجبال، و يسبح له الشجر، و يسبح له كذا، و يسبح له كذا. و أخرج أحمد و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: صلى داود ليلة حتى أصبح، فلما أصبح وجد فى نفسه سرورا «١»، فنادته ضفدعة: يا داود كنت أدأب منك، قد أغفيت إغفاء. و أخرج البيهقى فى الشعب، عن صدقة بن يسار قال: كان داود فى محرابه فأبصر دودة صغيرة ففكر فى خلقها و قال: ما يعبأ اللّه بخلق هذه؟ فأنطقها اللّه فقالت: يا داود أ تعجبك نفسك؟ لأنا على قدر ما آتانى اللّه أذكر للّه و أشكر له منك على ما آتاك اللّه، قال اللّه: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ و فى الباب أحاديث و روايات عن السلف فيها التصريح بتسبيح جميع المخلوقات. و أخرج أبو يعلى و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن أسماء بنت أبى بكر قال: لما نزلت تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ أقبلت العوراء أم جميل و لها ولولة، و فى يدها فهر «٢»، و هى تقول:

مذمّما أبيناو دينه قلينا

و أمره عصينا و رسول اللّه جالس و أبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه و أنا أخاف أن تراك، فقال:

إنها لن ترانى، و قرأ قرآنا اعتصم به، كما قال تعالى: وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً فجاءت حتى قامت على أبى بكر فلم تر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقالت: يا أبا بكر بلغنى أن صاحبك هجانى، فقال أبو بكر: لا و ربّ هذا البيت ما هجاك، فانصرفت و هى تقول: قد علمت قريش أنى بنت سيدها. و قد رويت هذه القصة بألفاظ مختلفة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً قال: الحجاب المستور أكنة على قلوبهم أن يفقهوه و أن ينتفعوا به أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن زهير ابن محمد فى الآية قال: ذاك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا قرأ القرآن على المشركين بمكة سمعوا قراءته و لا يرونه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً قال:

الشياطين. و أخرج ابن مردويه عنه فى قوله: إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ قال: عتبة و شيبة ابنا ربيعة و الوليد ابن المغيرة و العاص بن وائل.

---

(١). فى الدر المنثور (٥/ ٩٣): غرورا.

(٢). «فهر»: حجر ملء الكف.

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٤٩ الى ٥٥]

وَ قالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً (٥٠) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (٥٢) وَ قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً (٥٣)

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَ ما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (٥٥)

لما فرغ سبحانه من حكاية شبه القوم فى النبوّات حكى شبهتهم فى أمر المعاد، فقال: وَ قالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً و الاستفهام للاستنكار و الاستبعاد. و تقرير الشبهة أنّ الإنسان إذا مات جفت عظامه و تناثرت و تفرقت فى جوانب العالم، و اختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر، فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها، ثم عود الحياة إلى ذلك المجموع؟ فأجاب سبحانه عنهم بأن إعادة بدن الميت إلى حال الحياة أمر ممكن، و لو فرضتم أن بدنه قد صار أبعد شيء من الحياة و من رطوبة الحى كالحجارة و الحديد، فهو كقول القائل: أ تطمع فى و أنا ابن فلان، فيقول: كن ابن السلطان أو ابن من شئت، فسأطلب منك حقى. و الرفات: ما تكسر و بلى من كلّ شيء كالفتات و الحطام و الرضاض، قاله أبو عبيدة و الكسائى و الفراء و الأخفش، تقول منه:

رفت الشيء رفتا، أى: حطم؛ فهو مرفوت. و قيل الرفات: الغبار، و قيل: التراب أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً كرّر الاستفهام الدالّ على الاستنكار و الاستبعاد تأكيدا و تقريرا، و العامل فى إذا هو ما دلّ عليه لمبعوثون، لا هو نفسه، لأن ما بعد إنّ و الهمزة و اللام لا يعمل فيما قبلها، و التقدير: أَ إِذا كُنَّا عِظاماً و رفاتا نبعث أ إنا لمبعوثون، و انتصاب خلقا على المصدرية من غير لفظه، أو على الحال، أى: مخلوقين، و جديدا صفة له قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً- أَوْ خَلْقاً آخر مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ قال ابن جرير:

معناه إن عجبتم من إنشاء اللّه لكم عظاما و لحما فكونوا أنتم حجارة أو حديدا إن قدرتم على ذلك، و قال على ابن عيسى: معناه إنكم لو كنتم حجارة أو حديدا لم تفوتوا اللّه عزّ و جلّ إذا أرادكم. إلا أنه خرج مخرج الأمر لأنه أبلغ فى الإلزام؛ و قيل: معناه: لو كنتم حجارة أو حديدا لأعادكم كما بدأكم و لأماتكم ثم أحياكم، قال النحاس: و هذا قول حسن، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة أو حديدا، و إنما المعنى أنهم قد أقرّوا بخالقهم و أنكروا البعث، فقيل لهم: استشعروا أن تكونوا ما شئتم، فلو كنتم حجارة أو حديدا لبعثتم كما خلقتم أول مرة. قلت: و على هذا الوجه قررنا جواب الشبهة قبل هذا أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ

أى: يعظم عندكم مما هو أكبر من الحجارة و الحديد مباينة للحياة فإنكم مبعوثون لا محالة، و قيل: المراد به السموات و الأرض و الجبال لعظمها فى النفوس. و قال جماعة من الصحابة و التابعين: المراد به الموت؛ لأنه ليس شىء أكبر فى نفس ابن آدم منه. و المعنى: لو كنتم الموت لأماتكم اللّه ثم بعثكم، و لا يخفى ما فى هذا من البعد، فإن معنى الآية الترقى من الحجارة إلى الحديد، ثم من الحديد إلى ما هو أكبر فى صدور القوم منه، و الموت

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۷۹

نفسه ليس بشىء يعقل و يحسّ حتى يقع الترقى من الحديد إليه فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا إذا كنا عظاما و رفاتا، أو حجارة أو حديدا مع ما بين الحالتين من التفاوت قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أى: يعيدكم الذى خلقكم و اخترعكم عند ابتداء خلقكم من غير مثال سابق و لا صورة متقدّمة فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ أى:

يحرّكونها استهزاء، يقال: نغض رأسه ينغض و ينغض نغضا و نغوضا، أى: تحرّك، و أنغض رأسه حرّكه كالمتعجّب، و منه قول الراجز:

أنغض نحوى رأسه و أقنعا و قول الراجز الآخر:

و نغضت من هرم أسنانها و قال آخر:

لمّا رأتنى أنغضت لى رأسها «۱» وَ يَقُولُونَ مَتى هُوَ أى: البعث و الإعادة، استهزاء منهم و سخرية قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً أى: هو قريب؛ لأن عسى فى كلام اللّه واجب الوقوع، و مثله وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً «۲» و كلّ ما هو آت قريب يَوْمَ يَدْعُوكُمْ الظرف منتصب بفعل مضمر، أى: اذكر، أو بدل من قريبا، أو التقدير: يوم يدعوكم كان ما كان، الدعاء: النداء إلى المحشر بكلام يسمعه الخلائق؛ و قيل: هو الصيحة التى تسمعونها، فتكون داعية لهم إلى الاجتماع فى أرض المحشر فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ أى: منقادين له، حامدين لما فعله بكم، فهو فى محل نصب على الحال. و قيل: المعنى: فتستجيبون و الحمد للّه، كما قال الشاعر:

و إنى بحمد اللّه لا ثوب فاجرلبست و لا من غدرة أتقنّع

و قد روى أنّ الكفّار عند خروجهم من قبورهم يقولون: سبحانك و بحمدك؛ و قيل: المراد بالدعاء هنا البعث و بالاستجابة أنهم يبعثون، فالمعنى: يوم يبعثكم فتبعثون منقادين وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا أى:

تظنون عند البعث أنكم ما لبثتم فى قبوركم إلا زمنا قليلا؛ و قيل: بين النفختين، و ذلك أن العذاب يكفّ عن المعذبين بين النفختين، و ذلك أربعون عاما ينامون فيها، فلذلك: قالُوا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا «۳»، و قيل:

إن الدنيا تحقرت فى أعينهم و قلت حين رأوا يوم القيامة، فقالوا هذه المقالة وَ قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أى: قل يا محمد لعبادى المؤمنين إنهم يقولون عند محاورتهم للمشركين الكلمة التى هى أحسن من غيرها من الكلام الحسن، كقوله سبحانه: وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ «۴» و قوله:

فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً «۵» لأن المخاشنة لهم ربما تنفرهم عن الإجابة أو تؤدى إلى ما قال سبحانه: وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ «۶» و هذا كان قبل نزول آية السيف؛ و قيل: المعنى:

---

(۱). فى تفسير القرطبى (۱۰/ ۲۷۵): الرأسا.

(۲). الأحزاب: ۶۳.

(۳). يس: ۵۲.

(۴). العنكبوت: ۴۶.

(۵). طه: ۴۴.

(۶). الأنعام: ۱۰۸.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۸۰

قل لهم يأمروا بما أمر اللّه و ينهوا عما نهى عنه؛ و قيل: هـذه الآية للمؤمنين فيما بينهم خاصة، و الأوّل أولى كما يشـهد به السـبب الذى سنذكره إن شاء اللّه إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ أى: بالفساد و إلقاء العداوة و الإغراء. قال اليزيدى: يقال: نزغ بيننا، أى: أفسد. و قال غيره: النزغ: الإغراء إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً أى: متظاهرا بالعداوة مكاشفا بها، و هو تعليل لما قبله، و قد تقدّم مثل هـذا فى البقرة رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ قيـل: هـذا خطـاب للمشـركين. و المعنى: إن يشـأ يـوفقكم للإسلام فيرحمكم أو يميتكم على الشرك فيعذبكم؛ و قيل: هو خطاب للمؤمنين، أى: إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من الكفار، أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم؛ و قيل: إن هذا تفسير لكلمة «التى هى أحسن» وَ ما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا أى: ما وكّلناك فى منعهم من الكفر، و قسرهم على الإيمان؛ و قيل: ما جعلناك كفيلا لهم تؤخذ بهم، و منه قول الشاعر:

ذكرت أبا أروى فبتّ كأنّنى‌بردّ الأمور الماضيات وكيل

أى: كفيـل وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أعلم بهم ذاتا و حالا و اسـتحقاقا، و هو أعمّ من قوله: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ لأن هذا يشـمل كل ما فى السـموات و الأرض من مخلوقاته، و ذاك خاص ببنى آدم أو ببعضهم، و هذا كالتوطئة لقوله: وَ لَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ أى: إن هذا التفضـيل عن علم منه بمن هو أعلى رتبة و بمن دونه، و بمن يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله و فواضـله. و قد تقدّم هذا فى البقرة. و قد اتخذ اللّه إبراهيم خليلا، و موسـى كليما، و جعل عيسى كلمته و روحه، و جعل لسليمان ملكا عظيما، و غفر لمحمد ما تقدّم من ذنبه و ما تأخر، و جعله سيد ولد آدم. و فى هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفار ممّا يحكيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من ارتفـاع درجته عنـد ربه عزّ و جلّ، ثم ذكر ما فضل به داود، فقال: وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً أى: كتابا مزبورا. قال الزجّاج: أى: فلا تنكروا تفضيل محمد و إعطاءه القرآن؛ فقد أعطى اللّه داود زبورا.

و قـد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ رُفاتاً قال: غبارا. و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ رُفاتاً قال: ترابا، و فى قوله:

قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً قال: ما شـئتم فكونوا، فسيعيدكم اللّه كما كنتم. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهـد، و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عن ابن عمر فى قوله: أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ قـال: الموت، لو كنتم موتى لأحييتكم. و أخرج عبـد اللّه بن أحمـد فى زوائـد الزهـد، و ابن جرير و الحاكم عن ابن عباس مثله. و أخرج أبو الشـيخ فى العظمـة، عن الحسن مثله أيضا. و أخرج عبد اللّه ابن أحمد و ابن جرير و ابن المنذر عن سـعيد بن جبير نحوه، و زاد: قال: فكونوا الموت إن اسـتطعتم فـإن الموت سـيموت. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عن ابن عبـاس فى قوله: فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ قال: سـيحركونها اسـتهزاء. و أخرج ابن المنـذر عن مجاهـد فى قوله: وَ يَقُولُونَ مَتى هُوَ قال: الإعادة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله:

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۸۱

فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ قال: بأمره. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية قال: يخرجون من قبورهم و هم يقولون: سبحانك اللهم و بحمدك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ قال: بمعرفته و طاعته وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا أى: فى الـدنيا تحاقرت الـدنيا فى أنفسـهم، و قلّت حين عاينوا يوم القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم

عن ابن سيرين فى قوله:

وَ قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ قال: لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال: يعفوا عن السيئة. و أخرج ابن جرير عن الحسن قال: يقول له يرحمك اللّه، يغفر اللّه لك. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال: نزغ الشيطان: تحريشه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً قال: كنا نحدّث أنه دعاء علمه داود و تحميد و تمجيد للّه عزّ و جلّ، ليس فيه حلال و لا حرام و لا فرائض و لا حدود. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس قال: الزبور: ثناء على اللّه و دعاء و تسبيح. قلت: الأمر كما قاله قتادة و الربيع، فإنا وقفنا على الزّبور فوجدناه خطبا يخطبها داود عليه السلام، و يخاطب بها ربه سبحانه عند دخوله الكنيسة، و جملته مائة و خمسون خطبة، كل خطبة تسمى مزمورا بفتح الميم الأولى و سكون الزاى و ضم الميم الثانية و آخره راء، ففى بعض هذه الخطب يشكو داود إلى ربه من أعدائه و يستنصره عليهم، و فى بعضها يحمد اللّه و يمجده و يثنى عليه بسبب ما وقع من النصر عليهم و الغلبة لهم، و كان عند الخطبة يضرب بالقيثارة، و هى آلة من آلات الملاهى. و قد ذكر السيوطى فى «الدرّ المنثور» ها هنا روايات عن جماعة من السّلف يذكرون ألفاظا وقفوا عليها فى الزبور ليس لها كثير فائدة، فقد أغنى عنها و عن غيرها ما اشتمل عليه القرآن من المواعظ و الزواجر.

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٥٦ الى ٦٠]

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ يَخافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً (٥٧) وَ إِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (٥٨) وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَ ما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (٥٩) وَ إِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَ نُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً (٦٠)

قوله: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ هذا ردّ على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنها صور الملائكة، و على طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلهية عيسى و مريم و عزير، فأمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يقول لهم: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون اللّه؛ و قيل: أراد بالذين زعمتم نفرا من الجن عندهم ناس من العرب، و إنما خصصت الآية بمن ذكرنا لقوله: يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ فإن هذا لا يليق بالجمادات فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ أى: لا يستطيعون ذلك، و المعبود الحق هو الذى يقدر على كشف الضرّ، و على تحويله من حال إلى حال، و من مكان إلى مكان، فوجب القطع بأن

هذه التى تزعمونها آلهة ليست بآلهة، ثم إنه سبحانه أكّد عدم اقتدارهم ببيان غاية افتقارهم إلى اللّه فى جلب المنافع و دفع المضارّ، فقال: أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ فأولئك مبتدأ و الذين يدعون صفته، و ضمير الصلة محذوف، أى: يدعونهم، و خبر المبتدأ يبتغون إلى ربهم الوسيلة، و يجوز أن يكون الذين يدعون خبر المبتدأ، أى: الذين يدعون عباده إلى عبادتهم، و يكون يبتغون فى محل نصب على الحال. و قرأ ابن مسعود تدعون بالفوقية على الخطاب. و قرأ الباقون بالتحتية على الخبر؛ و لا خلاف فى يبتغون أنه بالتحتية و الوسيلة القربة بالطاعة و العبادة: أى يتضرّعون إلى اللّه فى طلب ما يقربهم إلى ربهم، و الضمير فى ربهم يعود إلى العابدين أو المعبودين أَيُّهُمْ أَقْرَبُ مبتدأ و خبر. قال الزجّاج: المعنى: أيهم أقرب بالوسيلة إلى اللّه،

أی: یتقرّب إلیه بالعمل الصالح، و یجوز أن یکون بدلا من الضمیر فی یبتغون، أی: یبتغی من هو أقرب إلیه تعالی الوسیلة، فکیف بمن دونه؟ و قیل: إن یبتغون مضمن معنی یحرصون، أی: یحرصون أیهم أقرب إلیه سبحانه بالطاعة و العبادة وَ یَرْجُونَ رَحْمَتَهُ کما یرجوها غیرهم وَ یَخافُونَ عَذابَهُ کما یخافه غیرهم إِنَّ عَذابَ رَبِّکَ کانَ مَحْذُوراً تعلیل قوله: یَخافُونَ عَذابَهُ أی: إن عذابه سبحانه حقیق بأن یحذره العباد من الملائکة و الأنبیاء و غیرهم. ثم بیّن سبحانه مآل الدنیا و أهلها فقال: وَ إِنْ مِنْ قَرْیَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِکُوها قَبْلَ یَوْمِ الْقِیامَةِ إن نافیة، و من للاستغراق، أی: ما من قریة، أیّ قریة کانت من قری الکفار. قال الزجّاج: أی ما من أهل قریة إلا سیهلکون إما بموت و إما بعذاب یستأصلهم، فالمراد بالقریة أهلها، و إنما قیل قبل یوم القیامة لأن الإهلاک یوم القیامة غیر مختص بالقری الکافرة، بل یعم کل قریة لانقضاء عمر الدنیا؛ و قیل: الإهلاک للصالحة و التعذیب للطالحة، و الأوّل أولی لقوله: وَ ما کُنَّا مُهْلِکِی الْقُری إِلَّا وَ أَهْلُها ظالِمُونَ «۱». کانَ ذلِکَ المذکور من الإهلاک، و التعذیب فِی الْکِتابِ أی: اللوح المحفوظ مَسْطُوراً أی: مکتوبا، و السطر الخط و هو فی الأصل مصدر، و السطر بالتحریک مثله. قال جریر:

من شاء بایعته مالی و خلعته‌ما تکمل التّیم فی دیوانها سطرا

و الخلعة بضم الخاء خیار المال، و السطر: جمع أسطار، و جمع السطر بالسکون أسطر. وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآیاتِ إِلَّا أَنْ کَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ قال المفسرون: إن أهل مکة سألوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أن یجعل لهم الصفا ذهبا و أن ینحّی عنهم جبال مکة، فأتاه جبریل فقال: إن شئت کان ما سأل قومک، و لکنهم إن لم یؤمنوا لم یمهلوا، و إن شئت استأنیت بهم، فأنزل اللّه هذه الآیة. و المعنی: و ما منعنا من إرسال الآیات التی سألوها إلا تکذیب الأوّلین، فإن أرسلناها و کذب بها هؤلاء عوجلوا و لم یمهلوا کما هو سنّة اللّه سبحانه فی عباده، فالمنع مستعار للترک، و الاستثناء مفرّغ من أعمّ الأشیاء، أی: ما ترکنا إرسالها لشیء من الأشیاء إلا تکذیب الأوّلین، فإن کذب بها هؤلاء کما کذب بها أولئک لاشتراکهم فی الکفر و العناد حلّ بهم ما حلّ

(۱). القصص: ۵۹.

بهم، و «أن» الأولی فی محل نصب بإیقاع المنع علیها، و أن الثانیة فی محل رفع، و الباء فی الآیات زائدة.

و الحاصل أن المانع من إرسال الآیات التی اقترحوها هو أن الاقتراح مع التکذیب موجب للهلاک الکلی و هو الاستئصال، و قد عزمنا علی أن نؤخر أمر من بعث إلیهم محمد صلّی اللّه علیه و سلّم إلی یوم القیامة؛ و قیل: معنی الآیة:

إن هؤلاء الکفار من قریش و نحوهم مقلدون لآبائهم، فلا یؤمنون البتة کما لم یؤمن أولئک، فیکون إرسال الآیات ضائعا، ثم إنه سبحانه استشهد علی ما ذکر بقصة صالح و ناقته، فإنهم لما اقترحوا علیه ما اقترحوا من الناقة و صفتها التی قد بینت فی محل آخر، و أعطاهم اللّه ما اقترحوا فلم یؤمنوا استؤصلوا بالعذاب، و إنما خصّ قوم صالح بالاستشهاد؛ لأن آثار إهلاکهم فی بلاد العرب قریبة من قریش و أمثالهم یبصرها صادرهم و واردهم، فقال: وَ آتَیْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً أی: ذات إبصار یدرکها الناس بأبصارهم، کقوله:

وَ جَعَلْنا آیَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً أو أسند إلیها حال من یشاهدها مجازا، أو أنها جعلتهم ذوی إبصار، من أبصره جعله بصیرا. و قرئ علی صیغة المفعول. و قرئ بفتح المیم و الصاد و انتصابها علی الحال. و قرئ برفعها علی أنها خبر مبتدأ محذوف، و الجملة معطوفة علی محذوف یقتضیه سیاق الکلام، أی: فکذّبوها؛ و آتینا ثمود الناقة. و معنی فَظَلَمُوا بِها فظلموا بتکذیبها أو علی تضمین ظلموا معنی جحدوا أو کفروا، أی:

فجحدوا بها أو کفروا بها ظالمین، و لم یکتفوا بمجرد الکفر أو الجحد وَ ما نُرْسِلُ بِالْآیاتِ إِلَّا تَخْوِیفاً اختلف فی تفسیر الآیات

على وجوه: الأوّل: أن المراد بها العبر و المعجزات التى جعلها اللّه على أيـدى الرسل من دلائل الإنـذار تخويفا للمكذبين؛ الثانى: أنهـا آيات الانتقام تخويفا من المعاصـى؛ الثالث: تقلّب الأحوال من صـغر إلى شـباب ثم إلى تكهل ثم إلى شـيب؛ ليعتبر الإنسان بتقلّب أحواله فيخـاف عاقبـة أمره؛ الرابع: آيـات القرآن؛ الخامس: الموت الـذريع و المناسب للمقام أن تفسـر الآيات المـذكورة بالآيـات المقترحـة، أى: لا نرسل الآيات المقترحـة إلا تخويفا من نزول العـذاب، فإن لم يخافوا وقع عليهم. و الجملـة مسـتأنفة لا محـل لهـا؛ و يجوز أن تكون فى محـل نصب على الحال من ضـمير ظلموا بها، أى: فظلموا بها و لم يخافوا، و الحال أنّ ما نرسـل بالآيـات التى هى من جملتهـا إلا تخويفا. قال ابن قتيبـة: و ما نرسل بالآيات المقترحـة إلا تخويفا من نزول العـذاب العاجل. و لما ذكر سـبحانه الامتناع من إرسال الآيات المقترحـة على رسوله للصارف المـذكور قوّى قلبه بوعـد النصـر و الغلبـة، فقال: وَ إِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ الظرف متعلق بمحـذوف، أى: اذكر إذ قلنا لك، أى: أنهم فى قبضـته و تحت قـدرته، فلا سبيل لهم إلى الخروج ممّا يريده بهم لإحاطته لهم بعلمه و قدرته؛ و قيل: المراد بالناس أهل مكة، و إحاطته بهم إهلاكه إياهم، أى: إن اللّه سيهلكهم، و عبّر بالماضـى تنبيها على تحقق وقوعه، و ذلك كما وقع يوم بدر و يوم الفتح؛ و قيل: المراد أنه سـبحانه عصـمه من النـاس أن يقتلوه حتى يبلّغ رسالـة ربه وَ مـا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنـاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ لمـا بيّن سـبحانه أن إنزال الآيـات يتضـمّن التخويف ضمّ إليه ذكر آية الإسراء، و هى المذكورة فى صدر السورة وجها آخر فى تفسير هذه الرؤيا، و كانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه أسرى به، و قيل: كانت رؤيا نوم، و أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم رأى أنه يدخل مكة فافتتن المسلمون لذلك، فلما فتح اللّه مكة نزل قوله: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ

الرُّؤْيا بِالْحَقِ «۱» و قد تعقب هذا بأن هذه الآية مكية، و الرؤيا المذكورة كانت بالمدينة؛ و قيل: إن هذه الرؤيا المذكورة فى هذه الآية هى أنه رأى بنى مروان ينزون «۲» على منبره نزو القردة فساءه ذلك، فقيل: إنما هى الدنيا أعطوها فسرّى عنه، و فيه ضعف، فإنه لا فتنـة للناس فى هـذه الرؤيا إلا أن يراد بالناس رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم وحـده، و يراد بالفتنة ما حصل من المساءة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أو يحمل على أنه قد كان أخبر الناس بها فافتتنوا.

و قيل: إن اللّه سـبحانه أراه فى المنام مصارع قريش، حتى قال: «و اللّه لكأنى أنظر مصارع القوم» و هو يومئ إلى الأرض و يقول: «هذا مصرع فلان، هذا مصرع فلان»، فلما سمعت قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية.

وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَـةَ فِي الْقُرْآنِ عطف على الرؤيـا، قيـل: و فى الكلام تقـديم و تأخير، و التقـدير: و ما جعلنا الرؤيا التى أريناك و الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس. قال جمهور المفسرين: و هى شجرة الزقوم، و المراد بلعنها لعن آكلها كما قال سبحانه: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ- طَعامُ الْأَثِيمِ «۳». و قال الزجّاج: إن العرب تقول لكل طعام مكروه ملعون، و معنى الفتنة فيها أن أبا جهل و غيره قالوا: زعم صاحبكم أن نار جهنم تحرق الحجر، ثم يقول ينبت فيها الشـجر، فأنزل اللّه هـذه الآيـة. و روى أن أبا جهل أمر جارية فأحضـرت تمرا و زبـدا و قـال لأصـحابه: تزقّموا. و قال ابن الزّبعرى: كثر اللّه من الزقّوم فى داركم فإنه التمر بالزبـد بلغـة اليمن. و قيل:

إن الشجرة الملعونة هى الشجرة التى تلتوى على الشجر فتقتلها، و هى شجرة الكشوث، و قيل: هى الشيطان، و قيل: اليهود، و قيل: بنو أمية وَ نُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيـدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً أى: نخوّفهم بالآيات فما يزيـدهم التخويف إلا طغيانا متجاوزا للحد، متماديا غاية التمـادى، فمـا يفيـدهم إرسـال الآيـات إلاـ الزيـادة فى الكفر، فعنـد ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار، و هو عـذاب الاستئصال، و لكنّا قد قضينا بتأخير العقوبة.

و قـد أخرج عبـد الرزاق و الفريابى و سـعيد بن منصور و ابن أبى شـيبة و البخارى و النسائى و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى

حاتم و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، عن ابن مسعود فى قوله: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لا تَحْوِيلًا قال: كان نفر من الإنس يعبدون نفرا من الجنّ، فأسلم النفر من الجنّ، و تمسّك الإنسيون بعبادتهم، فأنزل اللّه أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ كلاهما، يعنى الفعلين بالياء التحتيهٔ، و روى نحو هذا عن ابن مسعود من طرق أخرى.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآيهٔ قال: كان أهل الشرك يعبدون الملائكهٔ و المسيح و عزيرا. و روى عنه من وجه آخر بلفظ عيسى و أمه و عزير. و روى عنه أيضا من وجه آخر بلفظ:

هم عيسى، و عزير، و الشمس، و القمر. و أخرج الترمذى و ابن مردويه عن أبى هريرهٔ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «سلوا اللّه لى الوسيلهٔ، قالوا: و ما الوسيلهٔ؟ قال: القرب من اللّه، ثم قرأ: يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ . و أخرج ابن أبى حاتم عن إبراهيم التيمى فى قوله: كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً قال: فى اللوح المحفوظ. و أخرج أحمد و النسائى و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، و الضياء فى المختارهٔ، عن ابن عباس قال: سأل أهل مكهٔ

---

(۱). الفتح: ۲۷.

(۲). «ينزون»: يتحرّكون.

(۳). الدخان: ۴۳ و ۴۴.

النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجعل لهم الصفا ذهبا، و أن ينحّى عنهم الجبال فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأنى بهم، و إن شئت أن نؤتيهم الذى سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم، قال: لا، بل أستأنى بهم، فأنزل اللّه وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ الآيهٔ. و أخرج أحمد و البيهقى من طريق أخرى عنه نحوه. و أخرج البيهقى فى الدلائل، عن الربيع بن أنس قال: قال الناس لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: لو جئتنا بآيهٔ كما جاء بها صالح و النبيون؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن شئتم دعوت اللّه فأنزلها عليكم، فإن عصيتم هلكتم، فقالوا: لا نريدها». و أخرج ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمهٔ، عن ابن عباس وَ ما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً قال: الموت. و أخرج سعيد بن منصور، و أحمد فى الزهد، و ابن جرير و ابن المنذر عن الحسن قال: هو الموت الذريع. و أخرج ابن أبى شيبهٔ و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله:

وَ إِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ قال: عصمك من الناس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآيهٔ قال: فهم فى قبضته.

و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و أحمد و البخارى و الترمذى و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس فى قوله: وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الآيهٔ قال: هى رؤيا عين أريها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ليلهٔ أسرى به إلى بيت المقدس، و ليست برؤيا منام.

وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ قال: هى شجرهٔ الزقوم. و أخرج أبو سعيد و أبو يعلى و ابن عساكر عن أمّ هانئ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لما أسرى به أصبح يحدّث نفرا من قريش و هم يستهزئون به، فطلبوا منه آيهٔ فوصف لهم بيت المقدس، و ذكر لهم قصهٔ العير، فقال الوليد بن المغيرهٔ: هذا ساحر، فأنزل اللّه إليه وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الآيهٔ. و أخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال: رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بنى فلان ينزون على منبره نزو القردهٔ فساءه ذلك، فما استجمع ضاحكا حتى مات، فأنزل

اللّه وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِی أَرَیْناکَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ قال ابن کثیر بعد أن ساق إسناده: و هذا السند ضعیف جدّا، و ذکر من جملة رجال السند محمد بن الحسن بن زبالة و هو متروک، و شیخه عبد المهیمن بن عباس بن سهل بن سعد ضعیف جدّا. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عمرو أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «رأیت ولد الحکم بن أبی العاص علی المنابر کأنهم القردة، فأنزل اللّه وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْیَا الَّتِی أَرَیْناکَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ، وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ»: یعنی الحکم و ولده.

و أخرج ابن أبی حاتم عن یعلی بن مرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «رأیت بنی أمیة علی منابر الأرض، و سیملکونکم، فتجدونهم أرباب سوء، و اهتمّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم لذلک، فأنزل اللّه الآیة». و أخرج ابن مردویه عن الحسین بن علیّ نحوه مرفوعا، و هو مرسل. و أخرج ابن أبی حاتم و ابن مردویه و البیهقی و ابن عساکر عن سعید بن المسیّب نحوه، و هو مرسل. و أخرج ابن مردویه عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحکم:

سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یقول لأبیک و جدّک: «إنکم الشجرة الملعونة فی القرآن» و فی هذا نکارة لقولها:

یقول لأبیک و جدّک، و لعل جدّ مروان لم یدرک زمن النبوّة. و أخرج ابن جریر و ابن مردویه عن ابن عباس فی الآیة قال: إن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أری أنه دخل مکة هو و أصحابه، و هو یومئذ بالمدینة، فسار إلی مکة قبل

فتح القدیر، ج۳، ص: ۲۸۶

الأجل فردّه المشرکون، فقال ناس: قد ردّ، و قد کان حدّثنا أنه سیدخلها فکانت رجعته فتنتهم، و قد تعارضت هذه الأسباب و لم یمکن الجمع بینها، فالواجب المصیر إلی الترجیح، و الراجح کثرة و صحة هو کون سبب نزول هذه الآیة قصة الإسراء فیتعین ذلک. و قد حکی ابن کثیر إجماع الحجة من أهل التأویل علی ذلک فی الرؤیا، و فی تفسیر الشجرة و أنها شجرة الزقوم، فلا اعتبار بغیرهم معهم. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبی حاتم و ابن مردویه، و البیهقی فی البعث، عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لما ذکر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم شجرة الزقوم تخویفا لهم: یا معشر قریش هل تدرون ما شجرة الزقوم التی یخوفکم بها محمد؟ قالوا: لا، قال:

عجوة یثرب بالزّبد. و اللّه لئن استمکنا منها لنزقمنها تزقما، قال اللّه سبحانه: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ- طَعامُ الْأَثِیمِ «۱»، و أنزل وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِی الْقُرْآنِ الآیة. و أخرج ابن المنذر عنه فی قوله: وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ قال: ملعونة لأنه قال: طَلْعُها کَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّیاطِینِ و الشیاطین ملعونون.

[سورة الإسراء (۱۷): الآیات ۶۱ الی ۶۵]

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِکَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِیسَ قالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِیناً (۶۱) قالَ أَ رَأَیْتَکَ هذَا الَّذِی کَرَّمْتَ عَلَیَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلی یَوْمِ الْقِیامَةِ لَأَحْتَنِکَنَّ ذُرِّیَّتَهُ إِلاَّ قَلِیلاً (۶۲) قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُکُمْ جَزاءً مَوْفُوراً (۶۳) وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِکَ وَ أَجْلِبْ عَلَیْهِمْ بِخَیْلِکَ وَ رَجِلِکَ وَ شارِکْهُمْ فِی الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ وَ عِدْهُمْ وَ ما یَعِدُهُمُ الشَّیْطانُ إِلاَّ غُرُوراً (۶۴) إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ وَ کَفی بِرَبِّکَ وَکِیلاً (۶۵)

لما ذکر سبحانه أنّ الرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم کان فی بلیة عظیمة من قومه و محنة شدیدة؛ أراد أن یبین أن جمیع الأنبیاء کانوا کذلک، حتی أن هذه عادة قدیمة سنّها إبلیس اللعین، و أیضا لما ذکر أن الذین یدعون یبتغون إلی ربهم الوسیلة أیهم أقرب و یرجون رحمته و یخافون عذابه، ذکر هاهنا ما یحقق ذلک فقال: وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِکَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ هذه القصة قد ذکرها اللّه سبحانه فی سبعة مواضع: فی البقرة، و الأعراف، و الحجر، و هذه السورة، و الکهف، و طه، و ص، و قد تقدّم تفسیرها مبسوطا، فلنقتصر هاهنا علی تفسیر ما لم یتقدّم ذکره من الألفاظ، فقوله: طِیناً منتصب بنزع الخافض، أی: من طین، أو علی الحال.

قال الزجّاج: المعنى لمن خلقته طينا، و هو منصوب على الحال أَ رَأَيْتَكَ أى: أخبرنى عن هذا الذى فضلته علىّ لم فضلته؟ و قد: خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ* «٢» فحذف هذا للعلم به لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ أى: لأستولينّ عليهم بالإغواء و الإضلال، قال الواحدى: أصله من احتناك الجراد الزرع، و هو أن تستأصله بإحناكها و تفسده، هذا هو الأصل، ثم سمّى الاستيلاء على الشىء و أخذه كله احتناكا؛ و قيل: معناه:

لأسوقنهم حيث شئت، و أقودنهم حيث أردت، من قولهم حنكت الفرس أحنكه حنكا؛ إذا جعلت فى فيه الرّسن، و المعنى الأوّل أنسب بمعنى هذه الآية، و منه قول الشاعر:

---

(١). الدخان: ٤٣ و ٤٤.

(٢). الأعراف: ١٢.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٨٧ أشكو إليك سنة قد أجحفت جهدا إلى جهد بنا و أضعفت

و احتنكت أموالنا و اجتلفت أى: استأصلت أموالنا. و اللام فى لَئِنْ أَخَّرْتَنِ هى الموطئة، و إنما أقسم اللعين هذا القسم على أنه سيفعل بذرية آدم ما ذكره لعلم قد سبق إليه من سمع استرقه، أو قاله لما ظنّه من قوة نفوذ كيده فى بنى آدم، و أنه يجرى منهم فى مجارى الدم، و أنهم بحيث يروج عندهم كيده، و تنفق لديهم وسوسته؛ إلا من عصم اللّه، و هم المرادون بقوله: إِلَّا قَلِيلًا و فى معنى هذا الاستثناء قوله سبحانه: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ و يؤيد ما ذكرناه قوله تعالى: وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ «١» فإنه يفيد أنه قال ما قاله هنا اعتمادا على الظنّ؛ و قيل: إنه استنبط ذلك من قول الملائكة: أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها «٢»، و قيل: علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشهوات، أو ظنّ ذلك لأنه وسوس لآدم؛ فقبل منه ذلك، و لم يجد له عزما، كما روى عن الحسن قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أى: أطاعك فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ أى: إبليس و من أطاعه جَزاءً مَوْفُوراً أى: وافرا مكملا، يقال: و فرته أفره وفرا، و وفر المال بنفسه يفر وفورا، فهو وافر، فهو مصدر، و منه قول زهير:

و من يجعل المعروف من دون عرضه يفره و من لا يتّقى الشّتم يشتم

ثم كرّر سبحانه الإمهال لإبليس اللعين فقال: وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ أى: استزعج و استخف من استطعت من بنى آدم، يقال: أفزه و استفزه، أى: أزعجه و استخفّه، و المعنى: استخفهم بصوتك داعيا لهم إلى معصية اللّه، و قيل: هو الغناء و اللهو و اللعب و المزامير وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ قال الفراء و أبو عبيدة: أجلب من الجلبة و الصياح، أى: صح عليهم. و قال الزجّاج: أى اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك، فالإجلاب: الجمع، و الباء فى بِخَيْلِكَ زائدة. و قال ابن السّكّيت:

الإجلاب الإعانة، و الخيل تقع على الفرسان كقوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «يا خيل اللّه اركبى»، و تقع على الأفراس، و الرجل بسكون الجيم: جمع رجل، كتاجر و تجر، و صاحب و صحب؛ و قرأ حفص بكسر الجيم على أنه صفة.

قال أبو زيد: يقال رجل و رجل، بمعنى راجل، فالخيل و الرجل كناية عن جميع مكايد الشيطان، أو المراد كل راكب و راجل فى معصية اللّه وَ شارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ أما المشاركة فى الأموال، فهى:

كلّ تصرّف فيها يخالف وجه الشرع، سواء كان أخذا من غير حق، أو وضعا فى غير حق كالغصب و السرقة و الربا، و من ذلك تبتيك آذان الأنعام و جعلها بحيرة و سائبة، و المشاركة فى الأولاد دعوى الولد بغير سبب شرعى، و تحصيله بالزنا و تسميتهم بعبد اللات و عبد العزّى، و الإساءة فى تربيتهم على وجه يألفون فيه خصال الشر و أفعال السوء، و يدخل فيه ما قتلوا من أولادهم خشية إملاق، و وأد البنات و تصيير أولادهم على الملة الكفرية التى هم عليها، و من ذلك مشاركة الشيطان للمجامع إذا لم يسمّ، ثم قال: وَ عِدْهُمْ قال الفراء:

(١). سبأ: ٢٠.

(٢). البقرة: ٣٠.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٨٨

قل لهم لا جنة لا نار. و قال الزجّاج: وعدهم بأنهم لا يبعثون وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً أى: باطلا، و أصل الغرور تزيين الخطأ بما يوهم الصواب؛ و قيل: معناه: وعدهم النصرة على من خالفهم، و هذه الأوامر للشيطان من باب التهديد و الوعيد الشديد؛ و قيل: هى على طريقة الاستخفاف به و بمن تبعه إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ يعنى عباده المؤمنين كما فى غير هذا الموضع من الكتاب العزيز من أن إضافة العباد إليه يراد بها المؤمنون؛ لما فى الإضافة من التشريف؛ و قيل: المراد جميع العباد بدليل الاستثناء بقوله فى غير هذا الموضع: إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ «١»، و المراد بالسلطان: التّسلّط وَ كَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا يتوكّلون عليه، فهو الذى يدفع عنهم كيد الشيطان، و يعصمهم من إغوائه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: قال إبليس: إنّ آدم خلق من تراب و من طين، خلق ضعيفا و إنى خلقت من نار، و النار تحرق كلّ شيء لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا فصدّق ظنّه عليهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ قال: لأستولينّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ قال: لأحتوينهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال:

لأضلنّهم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد مَوْفُوراً قال: وافرا.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ قال: صوته كلّ داع إلى معصية اللّه وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ قال: كل راكب فى معصية اللّه وَ رَجِلِكَ قال: كل راجل فى معصية اللّه وَ شارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ قال: كل مال فى معصية اللّه وَ الْأَوْلادِ قال: كل ما قتلوا من أولادهم و أتوا فيهم الحرام. و أخرج الفريابى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى الآية قال: كلّ خيل تسير فى معصية اللّه، و كل مال أخذ بغير حقّه، و كل ولد زنا. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: الْأَمْوالِ ما كانوا يحرّمون من أنعامهم وَ الْأَوْلادِ أولاد الزنا. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الْأَمْوالِ البحيرة و السائبة و الوصيلة لغير اللّه وَ الْأَوْلادِ سمّوا عبد الحارث و عبد شمس.

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٦٦ الى ٧٠]

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (٦٦) وَ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً (٦٧) أَ فَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً (٦٩) وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً (٧٠)

(١). الحجر: ٤٢.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٨٩

قوله: رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ الإزجاء: السّوق و الإجراء و التسيير، و منه قوله سبحانه: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي

سَحاباً «۱»، و قول الشاعر «۲»:

يا أيّها الراكب المزجى مطيّتهسائل بنى أسد ما هذه الصّوت؟

و قول الآخر:

عوذا تزجى خلفها أطفالها و المعنى: أن اللّه سبحانه يسير الفلك فى البحر بالريح، و الفلك هاهنا جمع، و قد تقدّم، و البحر: هو الماء الكثير عذبا كان أو مالحا، و قد غلب هذا الاسم على المشهور لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ أى: من رزقه الذى تفضّل به على عباده أو من الربح بالتجارة، و من زائدة أو للتبعيض، و فى هذه الآية تذكير لهم بنعم اللّه سبحانه عليهم حتى لا يعبدوا غيره و لا يشركوا به أحدا، و جملة إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً تعليل لما تقدّم، أى:

كان بكم رحيما فهداكم إلى مصالح دنياكم وَ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ يعنى خوف الغرق فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ من الآلهة و ذهب عن خواطركم، و لم يوجد لإغاثتكم ما كنتم تدعون من دونه من صنم، أو جنّ، أو ملك، أو بشر إِلَّا إِيَّاهُ وحده فإنكم تعقدون رجاءكم برحمته و إغاثته، و الاستثناء منقطع، و معنى الآية: أن الكفار إنما يعتقدون فى أصنامهم و سائر معبوداتهم أنها نافعة لهم فى غير هذه الحالة، فأما فى هذه الحالة فإن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علما لا يقدر على مدافعته أن الأصنام و نحوها لا فعل لها. فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ عن الإخلاص للّه و توحيده، و رجعتم إلى دعاء أصنامكم و الاستغاثة بها وَ كانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً أى: كثير الكفران لنعمة اللّه، و هو تعليل لما تقدّمه، و المعنى: أنهم عند الشدائد يتمسكون برحمة اللّه، و فى الرخاء يعرضون عنه. ثم أنكر سبحانه عليهم سوء معاملتهم قائلا: أَ فَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ الهمزة للإنكار، و الفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض، فبيّن لهم أنه قادر على هلاكهم فى البرّ و إن سلموا من البحر. و الخسف: أن تنهار الأرض بالشىء، يقال: بئر خسيف، إذا انهدم أصلها، و عين خاسف، أى: غائرة حدقتها فى الرأس، و خسفت عين الماء: إذا غار ماؤها، و خسفت الشمس: إذا غابت عن الأرض، و جانب البرّ: ناحية الأرض، و سمّاه جانبا لأنه يصير بعد الخسف جانبا، و أيضا فإن البحر جانب من الأرض و البرّ جانب. و قيل: إنهم كانوا على ساحل البحر، و ساحله جانب البرّ، فكانوا فيه آمنين من مخاوف البحر، فحذّرهم ما أمنوه من البرّ كما حذرهم ما خافوه من البحر أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً قال أبو عبيدة و القتبى: الحاصب: التراب الذى فيه حصباء، فالحاصب ذو الحصباء؛ كاللابن و التامر؛ و قيل: الحاصب حجارة من السماء تحصبهم كما فعل بقوم لوط؛

---

(۱). النور: ۴۳.

(۲). هو رويشد بن كثير الطائى.

«ما هذه الصوت»: ما هذه القصة التى تتأدّى إلىّ عنكم.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۹۰

و يقال للسحابة التى ترمى بالبرد حاصب، و منه قول الفرزدق:

مستقبلين جبال «۱» الشام تضربنابحاصب كنديف القطن منثور

ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا أى: حافظا و نصيرا يمنعكم من بأس اللّه أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى أى: فى البحر مرة أخرى بأن يقوى دواعيكم و يوفر حوائجكم إلى ركوبه، و جاء بفى و لم يقل إلى البحر للدلالة على استقرارهم فيه فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ القاصف: الريح الشديدة التى تكسر بشدّة، من قصف الشىء يقصفه، أى: كسره بشدّة، و القصف: الكسر، أو هو الريح التى لها قصيف، أى: صوت شديد، من قولهم: رعد قاصف، أى: شديد الصوت فَيُغْرِقَكُمْ قرأ أبو جعفر و شيبة و رويس و مجاهد

فتغرقكـم بالتـاء الفوقيـة على أن فـاعله الريـح، و قرأ الحسن و قتـادة و ابن وردان فيغرّقكم بالتحتيـة و التشديـد فى الراء. و قرأ أبو جعفر أيضا: الرياح. و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بالنون فى جميع هـذه الأفعال. و قرأ الباقون بالياء التحتيـة فى جميعها أيضا، و الباء فى بما كفرتم للسببية؛ أى:

بسبب كفركم ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً أى: ثائرا يطالبنا بما فعلنا. قال الزّجّاج: لا تجـدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم. قال النحّاس: و هو من الثأر، و كـذا يقال لكل من طلب بثأر أو غيره: تبيع و تابع وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ هـذا إجمال لـذكر النعمـة التى أنعم اللّه بها على بنى آدم، أى: كرّمناهم جميعا، و هـذه الكرامـة يـدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسـنة و تخصيصـهم بما خصّهم به من المطاعم و المشارب و الملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله. و حكى ابن جرير عن جماعة أن هذا التّكريم هو أنهم يأكلون بأيـديهم، و سائر الحيوانات تأكل بالفم، و كـذا حكاه النحّاس. و قيل: ميّزهم بالنطق و العقل و التمييز، و قيـل: أكرم الرجـال بـاللّحى و النساء بالـذوائب. و قال ابن جرير: أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق و تسخير سائر الخلق لهم، و قيـل: بالكلام و الخط و الفهم، و لا مانع من حمل التكريم المـذكور فى الآيـة على جميع هـذه الأشياء. و أعظم خصال التكريم العقل، فإن به تسلّطوا على سائر الحيوانات، و ميّزوا بين الحسن و القبيح، و توسّعوا فى المطاعم و المشارب، و كسبوا الأموال التى تسبّبوا بها إلى تحصـيل أمور لا يقـدر عليها الحيوان، و به قـدروا على تحصـيل الأبنيـة التى تمنعهم ممّا يخافون، و على تحصـيل الأكسيـة التى تقيهم الحرّ و البرد؛ و قيل: تكريمهم هو أن جعل محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم منهم وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ هذا تخصـيص لبعض أنواع التكريم، حملهم سبحانه فى البرّ على الـدواب، و فى البحر على السـفن، و قيـل: حملنـاهم فيهما حيث لم نخسف بهم و لم نغرقهم وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أى: لذيذ المطاعم و المشارب و سائر ما يسـتلذّونه و ينتفعون به وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا أجمـل سبحانه هـذا الكـثير و لم يـبين أنواعه، فأفـاد ذلـك أن بنى آدم فضّلهم سبحانه على كثير من مخلوقاته، و قد جعل بعض أهل العلم الكثير هنا بمعنى الجميع، و هو تعسف لا حاجة إليه.

و قد شغل كثير من أهل العلم بما لم تكن إليه حاجة و لا تتعلّق به فائدة، و هو مسألة تفضيل الملائكة على

---

(١). فى تفسير القرطبى (١٠/ ٢٩٢): شمال.

الأنبياء أو الأنبياء على الملائكـة، و من جملـة ما تمسّك به مفضّلو الأنبياء على الملائكـة هذه الآية، و لا دلالة لها على المطلوب لمـا عرفت من إجمـال الكـثير و عـدم تبيينه، و التعصب فى هـذه المسألـة هو الـذى حمـل بعض الأشـاعرة على تفسـير الكثير هنا بالجميع حتى يتمّ له التفضيل على الملائكة، و تمسّك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء، و لا دلالة بها على ذلـك، فـإنه لم يقم دليـل على أن الملائكـة من القليل الخارج عن هـذا الكثير، و لو سـلّمنا ذلك فليس فيما خرج عن هـذا الكثير مـا يفيـد أنه أفضـل من بنى آدم، بـل غايـة مـا فيه أنه لم يكن الإنسـان مفضّلا عليه، فيحتمـل أن يكون مساويا للإنسان، و يحتمل أن يكون أفضل منه، و مع الاحتمال لا يتمّ الاسـتدلال، و التأكيد بقوله: تَفْضِيلًا يدلّ على عظم هذا التفضـيل و أنه بمكان مكين، فعلى بنى آدم أن يتلقّوه بالشكر، و يحذروا من كفرانه.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يُزْجِي قال: يجرى.

و أخرجوا عن قتادة قال: يسيّرها فى البحر. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: حاصِباً قال:

مطر الحجارة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: حجارة من السماء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ قـال: التى تغرق. و أخرج أبو عبيـد و ابن المنـذر عن عبـد اللّه بن عمرو قـال: القاصف و العاصف فى البحر. و

أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:
قاصِفاً قال: عاصفا، و فى قوله: ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً قال: نصيرا. و أخرج الطبرانى، و البيهقى فى الشعب، و الخطيب فى تاريخه، عن عبد اللّه بن عمرو قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما من شىء أكرم على اللّه يوم القيامة من ابن آدم، قيل: يا رسول اللّه و لا الملائكة؟ قال: و لا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس و القمر». و أخرجه البيهقى من وجه آخر عن ابن عمرو موقوفا قال: و هو الصحيح.
و أخرج البيهقى فى الشّعب عن أبى هريرة قال: المؤمن أكرم على اللّه من ملائكته. و أخرج الطبرانى عن ابن عمرو عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ الملائكة قالت: يا ربّ أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها و يشربون و يلبسون، و نحن نسبح بحمدك و لا نأكل و لا نشرب و لا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة، قال: لا أجعل صالح ذرّية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان». و أخرجه عبد الرزاق و ابن جرير عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة. و إسناد الطبرانى هكذا: حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادى، حدّثنا إبراهيم بن عبد اللّه بن خالد المصيصى، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد اللّه بن عمرو، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فذكره. و أخرج ابن عساكر من طريق عروة بن رويم قال: حدثنى أنس بن مالك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فذكر نحو حديث ابن عمرو الأول مع زيادة. و أخرج نحوه البيهقى أيضا فى الأسماء و الصفات من وجه آخر عن عروة بن رويم عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكره. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ قال: جعلناهم يأكلون بأيديهم و سائر الخلق

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٢٩٢

يأكلون بأفواههم. و أخرج الحاكم فى التاريخ، و الديلمى عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الكرامة: الأكل بالأصابع».

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٧١ الى ٧٧]

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَ أَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَ إِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (٧٤) إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً (٧٥)
وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَ إِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً (٧٧)
قوله: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ قال الزجّاج: يعنى يوم القيامة، و هو منصوب على معنى اذكر يوم ندعوا. و قرئ يدعوا بالياء التحتية على البناء للفاعل، و يدعى على البناء للمفعول، و الباء فى بإمامهم للإلصاق، كما تقول: أدعوك باسمك، و يجوز أن تكون متعلّقة بمحذوف هو حال، و التقدير:
ندعو كل أناس متلبسين بإمامهم، أى يدعون و إمامهم فيهم، نحو ركب بجنوده، و الأوّل أولى. و الإمام فى اللغة: كلّ ما يؤتمّ به من نبىّ، أو مقدّم فى الدين، أو كتاب.
و قد اختلف المفسرون فى تعيين الإمام الذى يدعى كل أناس به، فقال ابن عباس و الحسن و قتادة و الضحّاك:

إنه كتاب كل إنسان الذى فيه عمله، أى: يدعى كلّ إنسان بكتاب عمله، و يؤيد هذا قوله: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ* الآية، و قال ابن زيد: الإمام: هو الكتاب المنزّل عليهم، فيدعى أهل التوراة بالتوراة، و أهل الإنجيل بالإنجيل، و أهل القرآن بالقرآن، فيقال: يا أهل التوراة، يا أهل الإنجيل، يا أهل القرآن. و قال مجاهد و قتادة: إمامهم نبيهم، فيقال: هاتوا متبعى إبراهيم، هاتوا متبعى موسى، هاتوا متبعى عيسى، هاتوا متبعى محمد، و به قال الزجاج. و قال علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه: المراد بالإمام إمام عصرهم، فيدعى أهل كل عصر بإمامهم الذى كانوا يأتمرون بأمره و ينتهون بنهيه. و قال الحسن و أبو العالية: المراد بإمامهم أعمالهم، فيقال مثلا: أين المجاهدون؟ أين الصابرون؟ أين الصائمون؟ أين المصلون؟ و نحو ذلك. و روى عن ابن عباس و أبى هريرة. و قال أبو عبيدة: المراد بإمامهم صاحب مذهبهم، فيقال مثلا: أين التابعون للعالم فلان ابن فلان؟ و هذا من البعد بمكان. و قال محمد بن كعب: بِإِمامِهِمْ بأمهاتهم، على أنّ إمام جمع أمّ كخف و خفاف، و هذا بعيد جدّا. و قيل: الإمام هو كل خلق يظهر من الإنسان حسن كالعلم و الكرم و الشجاعة، أو قبيح كأضدادها، فالداعى إلى تلك الأفعال خلق باطن هو كالإمام، ذكر معناه الرازى فى تفسيره فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ من أولئك المدعوّين، و تخصيص اليمين بالذكر للتشريف و التبشير فَأُولئِكَ الإشارة إلى من باعتبار معناه. قيل: و وجه الجمع الإشارة إلى أنهم مجتمعون على شأن جليل، أو الإشعار بأن قراءتهم

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۹۳

لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ الذى أوتوه وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا أى لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل، و هو القشرة التى فى شق النواة، أو هو عبارة عن أقلّ شيء و لم يذكر أصحاب الشمال تصريحا، و لكنه ذكر سبحانه ما يدلّ على حالهم القبيح فقال: وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى أى من كان من المدعوّين فى هذه الدنيا أعمى: أى فاقد البصيرة. قال النيسابورى: لا خلاف أن المراد بهذا العمى عمى القلب، و أما قوله: فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى فيحتمل أن يراد به عمى البصر كقوله: وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً و فى هذا زيادة العقوبة. و يحتمل أن يراد عمى القلب. و قيل: المراد بالآخرة عمل الآخرة، أى: فهو فى عمل، أو فى أمر الآخرة أعمى؛ و قيل: المراد من عمى عن النّعم التى أنعم اللّه بها عليه فى الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى؛ و قيل: من كان فى الدنيا التى تقبل فيها التوبة أعمى فهو فى الآخرة التى لا توبة فيها أعمى؛ و قيل: من كان فى الدنيا أعمى عن حجج اللّه فهو فى الآخرة أعمى، و قد قيل: إن قوله: فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى أفعل تفضيل؛ أى: أشدّ عمى، و هذا مبنىّ على أنه من عمى القلب إذ لا يقال ذلك فى عمى العين. قال الخليل و سيبويه: لأنه خلقة بمنزلة اليد و الرجل، فلا يقال ما أعماه كما لا يقال ما أيداه. و قال الأخفش: لا يقال فيه ذلك لأنه أكثر من [ثلاثة] «۱» أحرف. و قد حكى الفراء عن بعض العرب أنه سمعه يقول: ما أسود شعره، و من ذلك قول الشاعر:

أما الملوك فأنت اليوم ألأمهملؤما و أبيضهم سربال طبّاخ

و البحث مستوفى فى النحو. و قرأ أبو بكر و حمزة و الكسائى و خلف أَعْمى بالإمالة فى الموضعين و قرأهما أبو عمرو و يعقوب و الباقون بغير إمالة، و أمال أبو عبيد الأوّل دون الثانى. وَ أَضَلُّ سَبِيلًا يعنى أن هذا أضلّ سبيلا من الأعمى لكونه لا يجد طريقا إلى الهداية، بخلاف الأعمى فقد يهتدى فى بعض الأحوال.

ثم لمّا عدّد سبحانه فى الآيات المتقدّمة أقسام النّعم على بنى آدم أردفه بما يجرى مجرى التّحذير من الاغترار بوساوس الأشقياء، فقال: وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ إن هى المخفّفة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن محذوف، و اللام هى الفارقة بينها و بين النافية؛ و المعنى: و إن الشأن قاربوا أن يخدعوك فاتنين، و أصل الفتنة: الاختبار، و منه فتن الصائغ الذّهب، ثم استعمل فى كلّ من أزال الشيء عن حدّه و جهته، و ذلك لأن فى إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن، و افتراء على اللّه سبحانه من تبديل الوعد بالوعيد و غير ذلك عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ من الأوامر و النواهى و الوعد و الوعيد لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ

لتتقوّل علينا غير الذى أوحينا إليك مما اقترحه عليك كفار قريش وَ إِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا أى: لو اتبعت أهواءهم لاتخذوك خليلا- لهم، أى: والوك و صافوك، مأخوذ من الخلّة بفتح الخاء وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ على الحق و عصمناك عن موافقتهم لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ لقاربت أن تميل إليهم أدنى ميل، و الركون: هو الميل

---

(۱). من تفسير القرطبى (۱۰/ ۲۹۹)

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۲۹۴

اليسير، و لهذا قال: شَيْئاً قَلِيلًا لكن أدركته صلّى اللّه عليه و سلّم العصمة فمنعته من أن يقرب من أدنى مراتب الركون إليهم، فضلا عن نفس الركون، و هذا دليل على أنه صلّى اللّه عليه و سلّم ما همّ بإجابتهم، ذكر معناه القشيرى و غيره؛ و قيل:

المعنى: و إن كادوا ليخبرون عنك بأنك ملت إلى قولهم، فنسب فعلهم إليه مجازا و اتساعا، كما تقول للرجل:

كدت تقتل نفسك، أى: كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت، ذكر معناه المهدوى. ثم توعّده سبحانه فى ذلك أشدّ الوعيد، فقال: إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ أى: لو قاربت أن تركن إليهم، أى: مثلى ما يعذّب به غيرك ممن يفعل هذا الفعل فى الدارين، و المعنى: عذابا ضعفا فى الحياة و عذابا ضعفا فى الممات، أى: مضاعفا، ثم حذف الموصوف و أقيمت الصفة مقامه و أضيفت، و ذلك لأن خطأ العظيم عظيم كما قال سبحانه: يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ «۱» و ضعف الشي‏ء: مثلاه، و قد يكون الضعف النصيب كقوله: لِكُلٍّ ضِعْفٌ «۲» أى: نصيب. قال الرازى: حاصل الكلام أنك لو مكّنت خواطر الشيطان من قلبك، و عقدت على الركون همّك، لاستحققت تضعيف العذاب عليك فى الدنيا و الآخرة؛ و لصار عذابك مثلى عذاب المشرك فى الدنيا و مثلى عذابه فى الآخرة ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً ينصرك فيدفع عنك هذا العذاب. قال النيسابورى: اعلم أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها، و التهديد على المعصية لا يدلّ على الإقدام عليها، فلا يلزم من الآية طعن فى العصمة وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ الكلام فى هذا كالكلام فى وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ أى: و إن الشأن أنهم قاربوا أن يزعجوك من أرض مكة لتخرج عنها، و لكنه لم يقع ذلك منهم، بل منعهم اللّه منه حتى هاجر بأمر ربه بعد أن همّوا به، و قيل: إنّه أطلق الإخراج على إرادة الإخراج تجويزا وَ إِذاً لا- يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا معطوف على ليستفزونك، أى: لا يبقون بعد إخراجك إلا زمنا قليلا، ثم عوقبوا عقوبة تستأصلهم جميعا.

و قرأ عطاء بن أبى رباح لا يلبثوا بتشديد الباء الموحدة. و قرئ لا يلبثوا بالنصب على إعمال إذن على أن الجملة معطوف على جملة: وَ إِنْ كادُوا لا على الخبر فقط. و قرأ نافع و ابن كثير و أبو بكر و أبو عمرو خَلْفَكَ و معناه بعدك. و قرأ ابن عامر و حفص و حمزة و الكسائى خِلافَكَ و معناه أيضا بعدك. و قال ابن الأنبارى: خلافك بمعنى مخالفتك، و اختار أبو حاتم القراءة الثانية لقوله: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ «۳» و ممّا يدلّ على أن خلاف بمعنى بعد قول الشاعر «۴»:

عفت الدّيار خلافها «۵» فكأنّمابسط الشّواطب بينهنّ حصيرا

يقال: شطبت المرأة الجريد إذا شقّته لتعمل منه الحصر. قال أبو عبيدة: ثم تلقيه الشاطبة إلى المنقّية سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا سنة منتصبة على المصدرية، أى: سنّ اللّه سنة. و قال الفراء: أى يعذبون كسنّة من قد أرسلنا، فلما سقط الخافض عمل الفعل. و قيل المعنى: سنّتنا سنّة من قد أرسلنا. قال الزجّاج: يقول إن سنّتنا هذه السنة فيمن أرسلنا قبلك إليهم أنهم إذا أخرجوا نبيهم من بين أظهرهم أو قتلوه

---

(۱). الأحزاب: ۳۰.

(٢). الأعراف: ٣٨.

(٣). التوبة: ٨١.

(٤). هو الحارث بن خالد المخزومى.

(٥). كذا فى مجاز القرآن لأبى عبيدة (١/ ٣٨٧)، و ابن جرير (١٥/ ١٣٣) و فى تفسير القرطبى: خلافهم.

أن ينزل العذاب بهم وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا أى: ما أجرى اللّه به العادة لم يتمكّن أحد من تحويله، و لا يقدر على تغييره.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ قال: إمام هدى و إمام ضلالة. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و الخطيب فى تاريخه، عن أنس فى الآية قال: نبيهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد مثله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: بكتاب أعمالهم. و أخرج ابن مردويه عن على فى الآية قال: يدعى كل قوم بإمام زمانهم، و كتاب ربّهم، و سنّة نبيهم. و أخرج الترمذى و حسّنه، و البزار و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، و يمدّ له فى جسمه ستين ذراعا و يبيض وجهه، و يجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد، فيقولون: اللهم ائتنا بهذا، و بارك لنا فى هذا، حتى يأتيهم فيقول:

أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا؛ و أما الكافر فيسودّ وجهه و يمدّ له فى جسمه ستين ذراعا على صورة آدم، و يلبس تاجا من نار فيراه أصحابه فيقولون: نعوذ باللّه من شر هذا، اللهم لا تأتنا بهذا، قال: فيأتيهم، فيقولون: اللهم أخزه، فيقول: أبعدكم اللّه، فإن لكل رجل منكم مثل هذا». قال البزار بعد إخراجه:

لا يروى إلا من هذا الوجه. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن عباس فى قوله: وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى يقول: من كان فى الدنيا أعمى عمّا يرى من قدرتى من خلق السماء و الأرض و الجبال و البحار و الناس و الدواب و أشباه هذا فَهُوَ عمّا و صفت له فِي الْآخِرَةِ و لم يره أَعْمى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا يقول: أبعد حجة. و أخرج الفريابى و ابن أبى حاتم من طريق عكرمة عنه نحو هذا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا يقول: من عمى عن قدرة اللّه فى الدنيا فهو فى الآخرة أعمى. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا قال: «إنّ أمية بن خلف و أبا جهل بن هشام و رجالا من قريش أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: تعال فتمسح «١» آلهتنا و ندخل معك فى دينك، و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يشتدّ عليه فراق قومه و يحب إسلامهم، فرقّ لهم، فأنزل اللّه وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ إلى قوله: نَصِيراً».

و أخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن باذان عن جابر بن عبد اللّه مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يستلم الحجر، فقالوا: لا ندعك تستلمه حتى تستلم آلهتنا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: و ما علىّ لو فعلت و اللّه يعلم منّى خلافه؟ فأنزل اللّه وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ الآية». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن جبير بن نفير «أن قريشا أتوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا له: إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس و مواليهم لنكون نحن أصحابك، فركن إليهم، فأوحى اللّه إليه وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ الآية». و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال: أنزل اللّه وَ النَّجْمِ إِذا هَوى «٢» فقرأ عليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآية

---

(١). فى الدر المنثور (٥/ ٣١٨): فاستلم.

(٢). النجم: ١.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٩۶

أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى «١» فألقى عليه الشّيطان: تلك الغرانيق العلى، و إن شفاعتهم لترتجى، فقرأ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ما بقى من السورة و سجد، فأنزل اللّه وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ الآية، فما زال مهموما مغموما حتى أنزل اللّه: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى «٢» الآية. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس «أن ثقيفا قالوا للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: أجّلنا سنة حتى يهدى لآلهتنا، فإذا قبضنا الذى يهدى للآلهة أحرزناه ثم أسلمنا و كسرنا الآلهة، فهمّ أن يؤجلهم، فنزلت وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ الآية.

و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ يعنى ضعف عذاب الدنيا و الآخرة.

و أخرج البيهقى عن الحسن فى الآية قال: هو عذاب القبر. و أخرج أيضا عن عطاء مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: قال المشركون للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: كانت الأنبياء تسكن الشام، فمالك و المدينة؟

فهمّ أن يشخص، فأنزل اللّه وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ الآية. و أخرج ابن جرير عن حضرمى أنه بلغه أن بعض اليهود فذكر نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الدلائل، و ابن عساكر عن عبد الرحمن ابن غنم أن اليهود أتوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: إن كنت نبيا فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر و أرض الأنبياء، فصدّق النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم ما قالوا، فتحرّى غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل اللّه عليه آيات من سورة بنى إسرائيل بعد ما ختمت السورة: وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ إلى قوله: تَحْوِيلًا فأمره بالرجوع إلى المدينة، و قال: فيها محياك و فيها مماتك و منها تبعث، و قال له جبريل: سل ربّك فإن لكلّ نبىّ مسألة، فقال: ما تأمرنى أن أسأل؟ قال: قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً فهؤلاء نزلن عليه فى رجعته من تبوك. قال ابن كثير: و فى هذا الإسناد نظر، و الظاهر أنه ليس بصحيح فإن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لم يغز تبوك عن قول اليهود، و إنما غزاها امتثالا لقوله: قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ «٣» و غزاها ليقتصّ و ينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ قال: همّ أهل مكة بإخراج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من مكة و قد فعلوا بعد ذلك فأهلكهم اللّه يوم بدر و لم يلبثوا بعده إلا قليلا حتى أهلكهم اللّه يوم بدر، و كذلك كانت سنّة اللّه فى الرسل إذا فعل بهم قومهم مثل ذلك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا قال: يعنى بالقليل يوم أخذهم ببدر، فكان ذلك هو القليل الذين لبثوا بعده.

---

(١). النجم: ١٩.

(٢). الحج: ٥٢.

(٣). التوبة: ١٢٣.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٩٧

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٧٨ الى ٨٥]

أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (٧٨) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (٧٩) وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ

سُلْطاناً نَصِيراً (۸۰) وَ قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (۸۱) وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً (۸۲)

وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً (۸۳) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلًا (۸۴) وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (۸۵)

لما ذكر سبحانه الإلهيات و المعاد و الجزاء أردفها بذكر أشرف الطاعات، و هى الصلاة، فقال: أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ و قد أجمع المفسرون على أن هذه الآية المراد بها الصلوات المفروضة.

و قد اختلف العلماء فى الدلوك المذكور فى هذه الآية على قولين: أحدهما: أنه زوال الشمس عن كبد السماء، قاله عمر و ابنه و أبو هريرة و أبو برزة و ابن عباس و الحسن و الشعبى و عطاء و مجاهد و قتادة و الضحّاك و أبو جعفر الباقر، و اختاره ابن جرير.

و القول الثانى: أنه غروب الشمس، قاله على و ابن مسعود و أبيّ بن كعب، و روى عن ابن عباس. قال الفراء: دلوك الشمس من لدن زوالها إلى غروبها. قال الأزهرى:

معنى الدلوك فى كلام العرب الزوال، و لذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار: دالكة، و قيل لها إذا أفلت:

دالكة؛ لأنها فى الحالتين زائلة. قال: و القول عندى أنه زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس، و المعنى: أقم الصلاة من وقت دلوك الشمس إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ فيدخل فيها الظهر و العصر و صلاتا غسق الليل، و هما العشاءان، ثم قال: وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ هذه خمس صلوات. و قال أبو عبيد: دلوكها غروبها، و دلكت براح: يعنى الشمس، أى: غابت، و أنشد قطرب على هذا قول الشاعر:

هذا مقام قدمى رباحذبّب حتى دلكت براح

اسم من أسماء الشمس «۱» على وزن حذام و قطام، و من ذلك قول ذى الرّمّة:

مصابيح ليست باللواتى تقودهانجوم و لا بالآفات الدوالك

أى: الغوارب، و غسق الليل: اجتماع الظلمة. قال الفرّاء و الزجّاج: يقال: غسق الليل و أغسق؛ إذا أقبل بظلامه. قال أبو عبيد: الغسق سواد الليل. قال ابن قيس الرّقيّات:

إنّ هذا الليل قد غسقاو اشتكيت الهمّ و الأرقا

و قيل: غسق الليل: مغيب الشفق، و منه قول زهير:

ظلّت تجود يداها و هى لاهيةحتى إذا جعجع «۲» الإظلام و الغسق

و أصل الكلمة من السيلان، يقال: غسقت إذا سالت. و حكى الفراء غسق الليل و أغسق، و ظلم و أظلم، و دجا و أدجى، و غبش و أغبش، و قد استدل بهذه الغاية أعنى قوله: إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ من قال إن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب، روى ذلك عن الأوزاعى و أبى حنيفة، و جوّزه مالك

---

(۱). فى حاشية القرطبى (۱۰/ ۳۰۳): و الصواب: من أسماء النساء.

(۲). فى تفسير القرطبى (۱۰/ ۳۰۴): جنح.

و الشافعى فى حال الضرورة، و قد وردت الأحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى تعيين أوقات الصلوات، فيجب حمل مجمل هذه الآية على ما بينته السنّة، فلا نطيل بذكر ذلك. قوله: وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ انتصاب قرآن لكونه

معطوفا على الصلاة؛ أى: و أقم قرآن الفجر، قاله الفرّاء. و قال الزّجّاج و البصريون: انتصابه على الإغراء، أى: فعليك قرآن الفجر. قال المفسرون: المراد بقرآن الفجر صلاة الصبح. قال الزجاج: و فى هذه فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة حتى سمّيت الصلاة قرآنا، و قد دلّت الأحاديث الصحيحة على أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، و فى بعض الأحاديث: الخارجة من مخرج حسن و قرآن معها، و ورد ما يدل على وجوب الفاتحة فى كل ركعة، و قد حرّرته فى مؤلفاتى تحريرا مجوّدا. ثم علّل سبحانه ذلك بقوله: إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً أى: تشهده ملائكة الليل و ملائكة النهار كما ورد ذلك فى الحديث الصحيح، و بذلك قال جمهور المفسرين وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ من للتبعيض، و انتصابه على الظرفية بمضمر، أى: قم بعض الليل فتهجد به، و الضمير المجرور راجع إلى القرآن، و ما قيل من أنه منتصب على الإغراء، و التقدير: عليك بعض الليل فبعيد جدّا، و التهجد مأخوذ من الهجود. قال أبو عبيدة و ابن الأعرابى: هو من الأضداد؛ لأنه يقال هجد الرجل: إذا نام، و هجد إذا سهر، فمن استعماله فى السهر قول الشاعر:

ألا زارت و أهل منىّ هجودفليت خيالها بمنىّ يعود

يعنى منتبهين، و من استعماله فى النوم قول الآخر:

ألا طرقتنا و الرّفاق هجودفباتت بعلّات «١» النّوال تجود

يعنى نياما. و قال الأزهرى: الهجود فى الأصل هو النوم بالليل، و لكن جاء التفعل فيه لأجل التجنب، و منه تأثم تتحرّج؛ أى: تجنب الإثم و الحرج، فالمتهجّد من تجنّب الهجود، فقام بالليل. و روى عن الأزهرى أيضا أنه قال: المتهجد القائم إلى الصلاة من النوم، هكذا حكى عنه الواحدى، فقيّد التهجد بالقيام من النوم، و هكذا قال مجاهد و علقمة و الأسود فقالوا: التهجّد بعد النوم. قال الليث: تهجد إذا استيقظ للصلاة نافِلَةً لَكَ معنى النافلة فى اللغة الزيادة على الأصل، فالمعنى أنها للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم نافلة زائدة على الفرائض، و الأمر بالتهجد و إن كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قرينة صارفة للأمر؛ و قيل: المراد بالنافلة هنا أنها فريضة زائدة على الفرائض الخمس فى حقه صلّى اللّه عليه و سلّم، و يدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة؛ و قيل: كانت صلاة الليل فريضة فى حقّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوّعا، و على هذا يحمل ما ورد فى الحديث أنها عليه فريضة، و لأمته تطوّع. قال الواحدى: إن صلاة الليل كانت زيادة للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة لرفع الدرجات، لا للكفارات، لأنّه غفر له من ذنبه ما تقدم و ما تأخّر، و ليس لنا بنافلة لكثرة ذنوبنا إنما نعمل لكفارتها، قال: و هو قول جميع المفسرين. و الحاصل أن الخطاب فى هذه الآية و إن كان خاصا بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: أَقِمِ الصَّلاةَ*

---

(١). أى ما يتعلّل به.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٢٩٩

فالأمر له أمر لأمته، فهو شرع عام، و من ذلك الترغيب فى صلاة الليل، فإنه يعمّ جميع الأمة، و التصريح بكونه نافلة يدلّ على عدم الوجوب، فالتهجد من الليل مندوب إليه و مشروع لكل مكلّف. ثم وعده سبحانه على إقامة الفرائض و النوافل فقال: عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً قد ذكرنا فى مواضع أن عسى من الكريم إطماع واجب الوقوع، و انتصاب مقاما على الظرفية بإضمار فعل، أو بتضمين البعث معنى الإقامة، و يجوز أن يكون انتصابه على الحال؛ أى: يبعثك ذا مقام محمود؛ و معنى كون المقام محمودا؛ أنه يحمده كل من علم به. و قد اختلف فى تعيين هذا المقام على أقوال: الأوّل أنه المقام الذى يقومه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم سبحانه ممّا هم فيه، و هذا القول هو الذى دلت عليه الأدلة الصحيحة فى تفسير الآية، و حكاه ابن جرير عن أكثر أهل التأويل. قال الواحدى: و إجماع المفسرين على أن المقام المحمود هو مقام

الشفاعة. القول الثانى: أن المقام المحمود إعطاء النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لواء الحمد يوم القيامة. و يمكن أن يقال إن هذا لا ينافى القول الأوّل، إذ لا منافاة بين كونه قائما مقام الشفاعة و بيده لواء الحمد. القول الثالث: أن المقام المحمود هو أن اللّه سبحانه يجلس محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم معه على كرسيه، حكاه ابن جرير عن فرقة منهم مجاهد، و قد ورد فى ذلک حديث. و حكى النقاش عن أبى داود السجستانى أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متّهم، ما زال أهل العلم يتحدّثون بهذا الحديث. قال ابن عبد البرّ: مجاهد و إن كان أحد الأئمة بالتأويل فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم: أحدهما هذا، و الثانى فى تأويل: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ- إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ «١» قال: معناه تنتظر الثواب، و ليس من النظر، انتهى. و على كل حال فهذا القول غير مناف للقول الأوّل لإمكان أن يقعده اللّه سبحانه هذا المقعد و يشفع تلك الشفاعة. القول الرابع: أنه مطلق فى كل مقام يجلب الحمد من أنواع الكرامات، ذكره صاحب الكشاف و المقتدون به فى التفسير، و يجاب عنه بأن الأحاديث الصحيحة الواردة فى تعيين هذا المقام المحمود متواترة، فالمصير إليها متعين، و ليس فى الآية عموم فى اللفظ حتى يقال: الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و معنى قوله و هو مطلق فى كل ما يجلب الحمد أنه عام فى كل ما هو كذلک، و لكنه يعبر عن العام بلفظ المطلق، كما ذكره فى ذبح البقرة، و لهذا قال هنا. و قيل:

المراد الشفاعة، و هى نوع واحد مما يتناوله يعنى لفظ المقام، و الفرق بين العموم البدلىّ و العموم الشمولىّ معروف، فلا نطيل بذكره وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ و قرأ الجمهور مُدْخَلَ صِدْقٍ و مُخْرَجَ صِدْقٍ بضم الميمين. و قرأ الحسن و أبو العالية و نصر بن عاصم بفتحهما، و هما مصدران بمعنى الإدخال و الإخراج، و الإضافة إلى الصدق لأجل المبالغة نحو حاتم الجود؛ أى: إدخالا يستأهل أن يسمّى إدخالا، و لا يرى فيه ما يكره. قال الواحدى: و إضافتهما إلى الصدق مدح لهما، و كل شىء أضفته إلى الصدق فهو مدح.

و قد اختلف المفسّرون فى معنى الآية، فقيل: نزلت حين أمر بالهجرة، يريد إدخال المدينة و الإخراج من مكة و اختاره ابن جرير؛ و قيل: المعنى: أمتنى إماتة صدق و ابعثنى يوم القيامة مبعث صدق؛ و قيل المعنى:

---

(١). القيامة: ٢٢- ٢٣.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٠٠

فتح القدير ج٣ ٣٤٩

أدخلنى فيما أمرتنى به، و أخرجنى مما نهيتنى عنه؛ و قيل: إدخاله موضع الأمن و إخراجه من بين المشركين، و هو كالقول الأوّل؛ و قيل: المراد إدخال عزّ و إخراج نصر؛ و قيل: المعنى: أدخلنى فى الأمر الذى أكرمتنى به من النبوّة مدخل صدق، و أخرجنى منه إذا أمتنى مخرج صدق؛ و قيل: أدخلنى القبر عند الموت مدخل صدق، و أخرجنى منه عند البعث مخرج صدق؛ و قيل: أدخلنى حيثما أدخلتنى بالصدق و أخرجنى بالصدق؛ و قيل: الآية عامة فى كل ما تتناوله من الأمور فهى دعاء، و معناها: ربّ أصلح لى وردى فى كل الأمور و صدرى عنها وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً أى: حجة ظاهرة قاهرة تنصرنى بها على جميع من خالفنى، و قيل: اجعل لى من لدنک ملكا و عزا قويّا، و كأنه صلّى اللّه عليه و سلّم علم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسأل سلطانا نصيرا. و به قال الحسن و قتادة و اختاره ابن جرير. قال ابن كثير: و هو الأرجح، لأنه لا بدّ مع الحق من قهر لمن عاداه و ناوأه، و لهذا يقول تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ «١».

و فى الحديث: «إن اللّه ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» أى: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش و الآثام ما لا يمنع كثيرا من

الناس بالقرآن، و ما فيه من الوعيد الأكيد و التهديد الشديد، و هذا هو الواقع، انتهى.
وَ قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ المراد بالحق الإسلام، و قيل: القرآن، و قيل: الجهاد، و لا مانع من حمل الآية على جميع ذلك و على ما هو حق كائنا ما كان، و المراد بالباطل الشرك؛ و قيل: الشيطان و لا يبعد أن يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل و باطل. و معنى زهق: بطل و اضمحل، و منه زهوق النفس و هو بطلانها إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً أي: إن هذا شأنه فهو يبطل و لا يثبت، و الحق ثابت دائما وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ قرأ الجمهور نُنَزِّلُ بالنون «٢». و قرأ أبو عمرو بالتخفيف. و قرأ مجاهد بالياء التحتية و التخفيف، و رواها المروزى عن حفص، و من لابتداء الغاية، و يصحّ أن تكون لبيان الجنس، و قيل: للتبعيض، و أنكره بعض المفسرين لاستلزامه أن بعضه لا شفاء فيه، و ردّه ابن عطية بأن المبعض هو إنزاله.
و اختلف أهل العلم فى معنى كونه شفاء على القولين؛ الأوّل: أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها و ذهاب الريب و كشف الغطاء عن الأمور الدالة على اللّه سبحانه. القول الثانى: أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى و التعوّذ و نحو ذلك، و لا مانع من حمل الشفاء على المعنيين من باب عموم المجاز، أو من باب حمل المشترك على معنييه. ثم ذكر سبحانه أنه رحمة للمؤمنين لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين و الدنيا، و لما فى تلاوته و تدبّره من الأجر العظيم الذى يكون سببا لرحمة اللّه سبحانه و مغفرته و رضوانه، و مثل هذه الآية قوله تعالى: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ، وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى «٣».
ثم لما ذكر سبحانه ما فى القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين ذكر ما فيه لمن عداهم من المضرّة عليهم فقال: وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً أي: و لا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الظالمين الذى وضعوا التكذيب موضع

---

(١). الحديد: ٢٥.

(٢). (قوله بالنون)، صوابه: بالنون و التشديد للزاى.

(٣). فصلت: ۴۴.

التصديق، و الشك و الارتياب موضع اليقين و الاطمئنان إِلَّا خَساراً أي: هلاكا؛ لأن سماع القرآن يغيظهم و يحنقهم و يدعوهم إلى زيادة ارتكاب القبائح تمرّدا و عنادا، فعند ذلك يهلكون؛ و قيل: الخسار:
النقص، كقوله: فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ «١» ثم نبّه سبحانه على فتح بعض ما جبل عليه الإنسان من الطبائع المذمومة فقال: وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أي: على هذا الجنس بالنعم التى توجب الشكر كالصحة و الغنى أَعْرَضَ عن الشكر للّه و الذكر له وَ نَأى بِجانِبِهِ النأى: البعد، و الباء للتعدية أو للمصاحبة، و هو تأكيد للإعراض، لأن الإعراض عن الشيء هو أن يوليه عرض وجهه، أي: ناحيته، و النأى بالجانب أن يلوى عنه عطفه و يوليه ظهره، و لا يبعد أن يراد بالإعراض هنا الإعراض عن الدعاء و الابتهال الذى كان يفعله عند نزول البلوى و المحنة به، و يراد بالنأى بجانبه التكبر و البعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم. و قرأ ابن عامر فى رواية ابن ذكوان و أبو جعفر «ناء» مثل باغ بتأخير الهمزة على القلب، و قرأ حمزة «نئى» بإمالة الفتحتين، و وافقه الكسائى، و أمال شعبة و السوسى الهمزة فقط. و قرأ الباقون بالفتح فيهما. وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ من مرض أو فقر كانَ يَؤُساً شديد اليأس من رحمة اللّه؛ و المعنى: أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوى، و ظفر بالمقصود نسى المعبود، و إن فاته شيء من ذلك استولى عليه الأسف، و غلب عليه القنوط، و كلتا الخصلتين قبيحة مذمومة، و لا ينافى ما فى هذه الآية قوله تعالى: وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ «٢» و نظائره، فإن ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض المذكور فى هذه الآية، و لا يبعد أن يقال لا منافاة بين الآيتين فقد يكون مع

شـدة يأسه و كثرة قنوطه كثير الدعاء بلسانه قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ الشاكلة قال الفراء: الطريقة، و قيل: الناحية، و قيل: الطبيعة، و قيل: الـدين، و قيل: النيـة، و قيل: الجبلّة، و هى مأخوذة من الشـكل، يقال: لست على شـكلى و لا على شاكلتى، و الشـكل: هو المثل و النظير. و المعنى:

أن كـل إنسـان يعمـل على ما يشاكل أخلاقه التى ألفها، و هـذا ذمّ للكافر و مـدح للمؤمن فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلًا لأنه الخالق لكم العالم بما جبلتم عليه من الطبائع و ما تباينتم فيه من الطرائق، فهو الـذى يميز بين المؤمن الذى لا يعرض عند النعمة و لا ييأس عند المحنة، و بين الكافر الذى شأنه البطر للنعم و القنوط عند النقم. ثم لما انجرّ الكلام إلى ذكر الإنسان و ما جبل عليه، ذكر سـبحانه سؤال السائلين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن الروح فقال: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قد اختلف الناس فى الروح المسؤول عنه، فقيل: هو الروح المـدبّر للبـدن الـذى تكون به حياته، و بهذا قال أكثر المفسـرين. قال الفراء: الروح الذى يعيش به الإنسـان لـم يخبر اللّه سبحانه بـه أحـدا من خلقه، و لم يعـط علمه أحـدا من عبـاده، فقـال: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی أى: إنكم لا تعلمونه، و قيـل: الروح المسؤول عنه جبريـل، و قيل: عيسـى، و قيل: القرآن، و قيل: ملك من الملائكـة عظيم الخلق، و قيل: خلق كخلق بنى آدم، و قيـل غير ذلـك مما لا طائل تحته و لا فائـدة فى إيراده، و الظاهر القول الأوّل، و سـيأتى ذكر سـبب نزول هـذه الآيـة، و بيـان السائلين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن الروح، ثم الظـاهر أن السؤال عن حقيقـة الروح، لأـن معرفـة حقيقة الشیء أهمّ و أقدم من معرفة حال من أحواله، ثم

(۱). التوبة: ۱۲۵.

(۲). فصلت: ۵۱.

أمره سـبحانه أن يجيب على السائلين له عن الروح فقال: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی من بيانيـة، و الأمر الشأن، و الإضافـة للاختصاص، أى: هو من جنس ما اسـتأثر اللّه بعلمه من الأشياء التى لم يعلم بها عباده؛ و قيل: معنى مِنْ أَمْرِ رَبِّی من وحيه و كلامه لا من كلام البشـر؛ و فى هـذه الآيـة مـا يزجر الخائضـين فى شأن الرّوح المتكلّفين لبيان ما هيئته و إيضاح حقيقته أبلغ زجر، و يردعهم أعظم ردع، و قد أطالوا المقال فى هذا البحث بما لا يتمّ له المقام، و غالبه بل كلّه من الفضول الذى لا يأتى بنفع فى دين و لا دنيا.

و قـد حكى بعض المحقّقين أنّ أقوال المختلفين فى الروح بلغت إلى ثمانيـة عشر و مائة قول، فـانظر إلى هـذا الفضول الفارغ و التعب العاطـل عن النفع، بعـد أن علموا أن اللّه سـبحانه قـد اسـتأثر بعلمه، و لم يطلع عليه أنبيـاءه، و لاـ أذن لهم بـالسؤال عنه و لا البحث عن حقيقته، فضـلا عن أممهم المقتـدين بهم، فيا للّه العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول إلى هذا الحدّ الذى لم تبلغه و لا بعضه فى غير هذه المسألة مما أذن اللّه بالكلام فيه، و لم يستـأثر بعلمه. ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله سبحانه: وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا أى: إن علمكم الذى علمكم اللّه، ليس إلا المقدار القليل بالنسـبة إلى علم الخالق سبحانه، و إن أوتى حظا من العلم وافرا، بل علم الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة إلى علم اللّه سبحانه إلا كما يأخذ الطائر فى منقاره من البحر، كما فى حديث موسى و الخضر عليهما السلام.

و قـد أخرج عبـد الرزاق و سـعيد بن منصور و ابن أبى شـيبة و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم و الطبرانى، و الحـاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: دلوك الشمس غروبها، تقول العرب إذا غربت الشمس: دلكت الشمس. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن على قال: دلوكها: غروبها.

و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس، قال: لِدُلُوكِ الشَّمْسِ لزوال الشمس، و أخرج البزار

و أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «دلوك الشمس زوالها» و ضعّف السيوطى إسناده. و أخرجه مالك فى الموطأ و عبد الرزاق و الفريابى و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عمر من قوله. و أخرج عبد الرزاق عنه قال: «دلوك الشمس زياغها بعد نصف النهار». و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير عن ابن عباس قال: دلوكها: زوالها.
و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عنه فى قوله: لِدُلُوكِ الشَّمْسِ قال: إذا فاء الفيء. و أخرج ابن جرير عن أبى مسعود و عقبة بن عمرو قالا: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أتانى جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلّى بى الظهر». و أخرج ابن جرير عن أبى برزة الأسلمى قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى الظهر إذا زالت الشمس، ثم تلا أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ و أخرج ابن مردويه من حديث أنس نحوه، مما يستشهد به على أن الدلوك الزوال وسط النهار ما أخرجه ابن جرير عن جابر قال دعوت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و من شاء من أصحابه يطعمون عندى، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشّمس»، و فى إسناده رجل مجهول، و لكنه أخرجه عنه من طريق أخرى عن سهل بن بكار عن أبى عوانة عن الأسود بن قيس عن نبيح العنزى عن جابر فذكر نحوه مرفوعا. و أخرج الطبرانى عن
فتح القدير، ج‏٣، ص: ٣٠٣
ابن مسعود فى قوله: إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ قال: إلى العشاء الآخرة. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال:
غَسَقِ اللَّيْلِ اجتماع الليل و ظلمته. و أخرج ابن جرير عنه قال: غَسَقِ اللَّيْلِ بدوّ الليل. و أخرج عبد الرزاق عن أبى هريرة قال: دلوك الشمس إذا زالت الشمس عن بطن السماء، و غسق الليل غروب الشمس.
و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ قال: صلاة الصبح. و أخرج أحمد، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً قال: «تشهده ملائكة الليل و ملائكة النهار تجتمع فيها»، و هو فى الصحيحين عنه مرفوعا بلفظ: «تجتمع ملائكة الليل و ملائكة النهار فى صلاة الفجر» ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى عن ابن مسعود موقوفا نحوه. و أخرج الحكيم الترمذى و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى الدرداء قال: قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً قال: «تشهده ملائكة الليل و ملائكة النهار».
و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: نافِلَةً لَكَ يعنى خاصة للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أمر بقيام الليل و كتب عليه. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى فى سننه، عن عائشة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال:
«ثلاث هنّ علىّ فرائض و هنّ لكم سنة: الوتر، و السواك، و قيام الليل». و أخرج أحمد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى أمامة فى قوله: نافِلَةً لَكَ قال: كانت للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم نافلة و لكم فضيلة، و فى لفظ: إنما كانت النافلة خاصة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج أحمد، و الترمذى و حسّنه، و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: عَسى‏ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً و سئل عنه، قال: «هو المقام المحمود الذى أشفع فيه لأمتى». و أخرج أحمد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن كعب بن مالك أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا و أمتى على تلّ، و يكسونى ربى حلّة خضراء، ثم يؤذن لى فأقول ما شاء اللّه أن أقول، فذلك المقام المحمود». و أخرج البخارى و غيره عن ابن عمر قال: إن كل أمة يوم

القيامة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فذلك يوم يبعثه اللّه مقاما محمودا. و أخرج عنه نحوه مرفوعا، و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدّا ثابتة فى الصحيحين و غيرهما فلا نطيل بذكرها، و من رام الاستيفاء نظر فى أحاديث الشفاعة فى الأمهات «١» و غيرها. و أخرج الطبرانى فى قوله: عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً قال: يجلسه فيما بينه و بين جبريل و يشفع لأمته، فذلك المقام المحمود. و أخرج الديلمى عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً قال: يجلسنى معه على السرير» و ينبغى الكشف عن إسناد هذين الحديثين.

---

(١). الصواب أن يقول: الأمّات.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٠٤

و أخرج أحمد، و الترمذى و صحّحه، و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس قال: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل اللّه وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الدلائل، عن قتادة فى قوله: وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي الآية قال: أخرجه اللّه من مكة مخرج صدق، و أدخله المدينة مدخل صدق. قال: و علم نبى اللّه أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسأل سلطانا نصيرا لكتاب اللّه و حدوده و فرائضه و لإقامة كتاب اللّه، فإن السلطان عزة من اللّه جعلها بين أظهر عباده، و لو لا ذلك لأغار بعضهم على بعض، و أكل شديدهم ضعيفهم. و أخرج الخطيب عن عمر بن الخطاب قال: و اللّه لما يزع اللّه بالسلطان أعظم ممّا يزع بالقرآن. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن مسعود قال: «دخل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مكة و حول البيت ستون و ثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود فى يده و يقول: جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً جاءَ الْحَقُّ وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ «١» و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ نَأى بِجانِبِهِ قال: تباعد.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كانَ يَؤُساً قال: قنوطا، و فى قوله: كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ قال: على ناحيته. و أخرج هناد و ابن المنذر عن الحسن قال: عَلى شاكِلَتِهِ على نيته. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن مسعود قال: «كنت أمشى مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى خرب المدينة و هو متكئ على عسيب، فمرّ بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض: اسألوه عن الروح، فقال بعضهم: لا تسألوه، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال متّكئا على العسيب فظننت أنه يوحى إليه، فقال: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا». و أخرج أحمد، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن المنذر و ابن حبان، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل، قالوا:

سلوه عن الروح، فنزلت وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا قالوا: أوتينا علما كثيرا، أوتينا التوراة، و من أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا، فأنزل اللّه: قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً «٢». و فى الباب أحاديث و آثار.

---

(١). سبأ: ٤٩.

(٢). الكهف: ١٠٩.

[سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۸۶ الى ۹۳]

وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلاً (۸۶) إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (۸۷) قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (۸۸) وَ لَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (۸۹) وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (۹۰) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً (۹۱) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (۹۲) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً (۹۳)

لمّا بيّن سبحانه أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلا بيّن أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل، فقال:

وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ و اللام هى الموطئة، و لنذهبن جواب القسم سادّ مسد جواب الشرط. قال الزجّاج: معناه لو شئنا لمحوناه من القلوب و من الكتب حتى لا يوجد له أثر، انتهى. و عبّر عن القرآن بالموصول تفخيما لشأنه ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ أى: بالقرآن عَلَيْنا وَكِيلًا أى: لا تجد من يتوكل علينا فى ردّ شى‏ء منه بعد أن ذهبنا به، و الاستثناء بقوله: إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إن كان متّصلا فمعناه إلا أن يرحمك ربك فلا نذهب به، و إن كان منقطعا فمعناه لكن لا يشأ ذلك رحمة من ربك، أو لكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً حيث جعلك رسولا و أنزل عليك الكتاب و صيّرك سيد ولد آدم، و أعطاك المقام المحمود و غير ذلك مما أنعم به عليه. ثم احتجّ سبحانه على المشركين بإعجاز القرآن فقال: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ المنزل من عند اللّه الموصوف بالصفات الجليلة من كمال البلاغة و حسن النظم و جزالة اللفظ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ أظهر فى مقام الإضمار، و لم يكتف بأن يقول لا يأتون به على أن الضمير راجع إلى المثل المذكور، لدفع توهّم أن يكون له مثل معين، و للإشعار بأن المراد نفى المثل على أى صفة كان، و هو جواب قسم محذوف كما تدلّ عليه اللام الموطئة، و سادّ مسدّ جواب الشرط، ثم أوضح سبحانه عجزهم عن المعارضة سواء كان المتصدّى لها كل واحد منهم على الانفراد، أو كان المتصدّر بها المجموع بالمظاهرة فقال: وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً أى:

عونا و نصيرا، و جواب لو محذوف، و التقدير: و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا لا يأتون بمثله، فثبت أنهم لا يأتون بمثله على كل حال، و قد تقدّم وجه إعجاز القرآن فى أوائل سورة البقرة فى هذه الآية ردّ لما قاله الكفار:

لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا «۱» و إكذاب لهم. ثم بيّن سبحانه أنّ الكفار مع عجزهم عن المعارضة استمروا على كفرهم و عدم إيمانهم، فقال: وَ لَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ أى: رددنا القول فيه بكلّ مثل يوجب الاعتبار من الآيات و العبر و الترغيب و الترهيب و الأوامر و النواهى و أقاصيص الأوّلين و الجنة و النار و القيامة فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً يعنى من أهل مكة، فإنهم جحدوا و أنكروا كون القرآن كلام اللّه بعد قيام الحجة عليهم، و اقترحوا من الآيات ما ليس لهم، و أظهر فى مقام الإضمار حيث قال:

فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ توكيدا أو توضيحا، و لما كان أبى مؤوّلا بالنفى، أى: ما قبل أو لم يرض صحّ الاستثناء منه قوله: إِلَّا كُفُوراً وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ أى: قال رؤساء مكة كعتبة و شيبة ابنى ربيعة

---

(۱). الأنفال: ۳۱.

فتح القدير، ج‏3، ص: 306

و أبى سفيان و النضر بن الحارث، ثم علّقوا نفى إيمانهم بغاية طلبوها فقالوا: حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً قرأ حمزة و الكسائى و عاصم «حتى تفجر» مخففا مثل تقتل. و قرأ الباقون بالتشديد، و لم يختلفوا فى فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ أنها مشدّدة، و وجّه ذلك أبو حاتم بأن الأولى بعدها ينبوع و هو واحد، و الثانية بعدها الأنهار و هى جمع. و أجيب عنه بأن الينبوع و إن كان واحدا فى اللفظ فالمراد به الجمع، فإن الينبوع العيون التى لا تنضب.

و يردّ بأن الينبوع عين الماء و الجمع الينابيع، و إنما يقال للعين ينبوع إذا كانت غزيرة من شأنها النبوع من غير انقطاع، و الياء زائدة كيعبوب من عبّ الماء أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ أى: بستان تستر أشجاره أرضه.

و المعنى: هب أنك لا تفجر الأنهار لأجلنا ففجرها من أجلك بأن تكون لك جنة مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ أى: تجريها بقوة خِلالَها تَفْجِيراً أى: وسطها تفجيرا كثيرا أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً قرأ مجاهد أَوْ تُسْقِطَ مسندا إلى السماء. و قرأ من عداه أَوْ تُسْقِطَ على الخطاب، أى: أو تسقط أنت يا محمد السماء. و الكسف بفتح السين جمع كسفة، و هى قراءة نافع و ابن عامر و عاصم، و الكسفة: القطعة. و قرأ الباقون كِسَفاً بإسكان السّين. قال الأخفش: من قرأ بإسكان السين جعله واحدا و من قرأ بفتحها جعله جمعا. قال المهدوى: و يجوز أن يكون على قراءة السكون جمع كسفة، و يجوز أن يكون مصدرا. قال الجوهرى: الكسفة القطعة من الشى‏ء، يقال: أعطنى كسفة من ثوبك، و الجمع كسف و كسف، و يقال: الكسف و الكسفة واحد، و انتصاب كسفا على الحال، و الكاف فى كما زعمت فى محل نصب على أنه صفة مصدر محذوف، أى: إسقاطا مماثلا لما زعمت، يعنون بذلك قول اللّه سبحانه:

إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ «1». قال أبو على: الكسف: بالسكون؛ الشى‏ء المقطوع، كالطحن للمطحون، و اشتقاقه على ما قال أبو زيد من كسفت الثوب كسفا إذا قطعته.

و قال الزجّاج: من كسفت الشى‏ء إذا غطّيته، كأنه قيل: أو تسقطها طبقا علينا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ قَبِيلًا.

اختلف المفسرون فى معنى قَبِيلًا فقيل: معناه: معاينة، قاله قتادة و ابن جريج، و اختاره أبو على الفارسى فقال: إذا حملته على المعاينة كان القبيل مصدرا كالنكير و النذير. و قيل: معناه كفيلا، قاله الضحّاك، و قيل: شهيدا، قاله مقاتل، و قيل: هو جمع القبيلة، أى: تأتى بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة، قاله مجاهد و عطاء، و قيل: ضمنا، و قيل: مقابلا كالعشير و المعاشر أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أى: من ذهب، و به قرأ ابن مسعود، و أصله الزينة، و المزخرف: المزيّن، و زخارف الماء: طرائقه. و قال الزجاج: هو الزينة، فرجع إلى الأصل معنى الزخرف، و هو بعيد لأنه يصير المعنى: أو يكون لك بيت من زينة أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ أى: تصعد فى معارجها، يقال: رقيت فى السلم إذا صعدت و ارتقيت مثله. وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ أى: لأجل رقيك، و هو مصدر نحو مضى يمضى مضيا و هوى يهوى هويا حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ أى حتى تنزل علينا من السماء كتابا يصدقك و يدل على نبوّتك نقرؤه جميعا، أو يقرؤه

---

(1). سبأ: 9.

فتح القدير، ج‏3، ص: 307

كل واحد منا، و قيل: معناه: كتابا من اللّه إلى كل واحد منا كما فى قوله: بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً «1» فأمر سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يأتى بما يفيد التعجب من قولهم، و التنزيه للربّ سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة فقال: قُلْ سُبْحانَ رَبِّي أى: تنزيها للّه عن أن يعجز عن شى‏ء. و قرأ أهل مكة و الشام «قال سبحان ربى» يعنى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم هَلْ

كُنْتُ إِلَّا بَشَراً من البشر لا ملكا حتى أصعد السماء رَسُولًا مأمورا من اللّه سبحانه بإبلاغكم، فهل سمعتم أيها المقترحون لهذه الأمور أن بشرا قدر على شىء منها؟ و إن أردتم أنّى أطلب ذلك من اللّه سبحانه حتى يظهرها على يدى، فالرسول إذا أتى بمعجزة واحدة كفاه ذلك، لأنّ بها يتبيّن صدقه، و لا ضرورة إلى طلب الزيادة، و أنا عبد مأمور ليس لى أن أتحكّم على ربى بما ليس بضرورى، و لا دعت إليه حاجة، و لو لزمتنى الإجابة لكل متعنّت لاقترح كلّ معاند فى كل وقت اقتراحات، و طلب لنفسه إظهار آيات، فتعالى اللّه عما يقول الظالمون علوّا كبيرا، و تنزّه عن تعنتاتهم، و تقدّس عن اقتراحاتهم.

و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مسعود قال: إن هذا القرآن سيرفع، قيل: كيف يرفع و قد أثبته اللّه فى قلوبنا و أثبتناه فى المصاحف؟ قال: يسرى عليه فى ليلة واحدة فلا يترك منه آية فى قلب و لا مصحف إلا رفعت، فتصبحون و ليس فيكم منه شىء، ثم قرأ: وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِی أَوْحَيْنا إِلَيْكَ و قد روى عنه هذا من طرق. و أخرج ابن عدىّ عن أبى هريرة مرفوعا نحوه. و أخرج محمد بن نصر عن عبد اللّه بن عمرو نحوه موقوفا. و أخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن معاذ بن جبل مرفوعا نحوه أيضا.

و أخرج ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن أبى هريرة موقوفا نحوه أيضا. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى عن حذيفة بن اليمان مرفوعا نحوه أيضا. و أخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا نحوه أيضا. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن عمر مرفوعا نحوه. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: «أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم محمود بن سيحان و نعيمان بن أحى «۲» و بحرى بن عمرو و سلام بن مشكم، فقالوا: أخبرنا يا محمد بهذا الذى جئت به أحق من عند اللّه، فإنا لا نراه متناسقا كما تناسق التوراة؟

فقال لهم: و اللّه إنكم لتعرفونه أنه من عند اللّه، قالوا: إنا نجيئك بمثل ما تأتى به، فأنزل اللّه: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ الآية. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أن عتبة و شيبة ابنى ربيعة و أبا سفيان بن حرب، و رجلا من بنى عبد الدار و أبا البخترى أخا بنى أسيد و الأسود ابن عبد المطلب و زمعة بن الأسود و الوليد بن المغيرة و أبا جهل بن هشام و عبد اللّه بن أبى أمية و أمية بن خلف و العاص بن وائل و نبيها و منبها ابنى الحجاج السهميين اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد و كلموه و خاصموه، و ذكر حديثا طويلا يشتمل على ما سألوه عنه و تعنتوه، و أن ذلك كان سبب نزول قوله: وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ إلى قوله: بَشَراً رَسُولًا. و إسناده عند

---

(۱). المدثر: ۵۲.

(۲). كذا فى الدر المنثور. و فى ابن جرير: عمر بن أضا.

ابن جرير هكذا: حدّثنا أبو كريب حدّثنا يونس بن بكير حدّثنا محمد بن إسحاق حدّثنى شيخ من أهل مصر، قدم منذ بضع و أربعين سنة، عن عكرمة عن ابن عباس فذكره، ففيه هذا الرجل المجهول.

و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ قال: نزلت فى أخى أمّ سلمة عبد اللّه بن أبى أمية. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: يَنْبُوعاً قال: عيونا. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: الينبوع هو النهر الذى يجرى من العين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ يقول:

ضيعة. و أخرج ابن جرير عنه كِسَفاً قال: قطعا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا: قَبِيلًا قال: عيانا. و أخرج ابن جرير عنه أيضا: مِنْ زُخْرُفٍ قال: من ذهب. و أخرج أبو عبيد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى و أبو نعيم عن مجاهد قال: لم أكن أحسن ما الزخرف؟

حتى سمعتها فى قراءة عبد اللّه أو يكون لك بيت من ذهب. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: كِتاباً نَقْرَؤُهُ قال: من ربّ العالمين إلى فلان بن فلان. يصبح عند كل رجل صحيفة عند رأسه موضوعة يقرؤها.

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٩٤ الى ١٠٠]

وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلاَّ أَنْ قالُوا أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً (٩٤) قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً (٩٥) قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٩٦) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً (٩٧) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا وَ قالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٩٨) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً (١٠٠)

حكى سبحانه عنهم شبهة أخرى، قد تكرر فى الكتاب العزيز التعرّض لإيرادها و ردّها فى غير موضع، فقال: وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا المراد الناس على العموم، و قيل: المراد أهل مكة على الخصوص، أى: ما منعهم الإيمان بالقرآن و النبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و هو المفعول الثانى لمنع؛ و معنى إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى أنه جاءهم الوحى من اللّه سبحانه على رسوله، و بيّن ذلك لهم و أرشدهم إليه، و هو ظرف لمنع أو يؤمنوا، أى: ما منعهم وقت مجيء الهدى أن يؤمنوا بالقرآن و النبوّة إِلَّا أَنْ قالُوا أى: ما منعهم إلا قولهم، فهو فى محل رفع على أنه فاعل منع، و الهمزة فى أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا للإنكار منهم أن يكون الرسول بشرا، و المعنى: أن هذا الاعتقاد الشامل لهم، و هو إنكار أن يكون الرسول من جنس البشر، هو الذى منعهم عن

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٣٠٩

الإيمان بالكتاب و بالرسول، و عبّر عنه بالقول للإشعار بأنه ليس إلا مجرد قول قالوه بأفواههم، ثم أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجيب عن شبهتهم هذه، فقال: قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ أى: لو وجد و ثبت أن فى الأرض بدل من فيها من البشر ملائكة يمشون على الأقدام كما يمشى الإنس مطمئنين مستقرين فيها ساكنين بها. قال الزجّاج: مطمئنين: مستوطنين فى الأرض، و معنى الطمأنينة السكون، فالمراد هاهنا المقام و الاستيطان، فإنه يقال سكن البلد فلان إذا أقام فيها و إن كان ماشيا متقلّبا فى حاجاته لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا حتى يكون من جنسهم، و فيه إعلام من اللّه سبحانه بأن الرسل ينبغى أن تكون من جنس المرسل إليهم، فكأنّه سبحانه اعتبر فى تنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين: الأوّل: كون سكان الأرض ملائكة. و الثانى: كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها، و سمعوا من أهلها ما يجب معرفته و سماعه، فلا يكون فى بعثة الملائكة إليهم فائدة. و انتصاب بشرا و ملكا على أنهما مفعولان للفعلين، و رسولا فى الموضعين وصف لهما. و جوّز صاحب الكشاف أن يكونا حالين فى الموضعين من رسولا فيهما و قوّاه صاحب الكشاف، و لعل وجه ذلك أن الإنكار يتوجه إلى الرسول المتصف بالبشرية فى الموضع الأوّل، فيلزم بحكم التقابل أن يكون الآخر كذلك، ثم ختم الكلام بما يجرى مجرى التهديد، فقال: قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ أى: قل لهم يا محمد من جهتك كفى باللّه وحده شهيدا على إبلاغى إليكم ما أمرنى به من أمور الرسالة، و قال بينى و بينكم، و لم

يقل بيننا، تحقيقا للمفارقة الكلية؛ و قيل: إن إظهار المعجزة على وفق دعوى النبيّ شهادة من اللّه له على الصدق، ثم علّل كونه سبحانه شهيدا كافيا بقوله: إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً أى: عالما بجميع أحوالهم محيطا بظواهرها و بواطنها بصيرا بما كان منها و ما يكون، ثم بيّن سبحانه أن الإقرار و الإنكار مستندان إلى مشيئته فقال:

وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ أى: من يرد اللّه هدايته فهو المهتدى إلى الحق أو إلى كل مطلوب وَ مَنْ يُضْلِلْ أى: يرد إضلاله فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ ينصرونهم مِنْ دُونِهِ يعنى اللّه سبحانه و يهدونهم إلى الحق الذى أضلّهم اللّه عنه أو إلى طريق النجاة، و قوله: فَهُوَ الْمُهْتَدِ حملا على لفظ من، و قوله:

فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ حملا على المعنى، و الخطاب فى قوله: فلن تجد إما للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لكلّ من يصلح له وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ هذا الحشر على الوجوه فيه وجهان للمفسرين: الأوّل: أنه عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم، من قول العرب: قد مرّ القوم على وجوههم؛ إذا أسرعوا. الثانى: أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم حقيقة كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى إهانته و تعذيبه، و هذا هو الصحيح، لقوله تعالى: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ «١»، و لما صحّ فى السّنّة كما سيأتى، و محل على وجوههم النصب على الحال من ضمير المفعول و عُمْياً منتصب على الحال وَ بُكْماً وَ صُمًّا معطوفان عليه، و الأبكم:

الذى لا ينطق، و الأصمّ: الذى لا يسمع، و هذه هيئة يبعثون عليها فى أقبح صورة، و أشنع منظر، قد جمع اللّه لهم بين عمى البصر و عدم النطق و عدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم، ثم من وراء ذلك

---

(١). القمر: ۴۸.

مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ أى: المكان الذى يأوون إليه، و الجملة فى محل نصب على الحال أو هى مستأنفة لا محل لها كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً أى: كلما سكن لهبها، يقال: خبت النار تخبو خبوا: إذا خمدت و سكن لهبها. قال ابن قتيبة: و معنى زِدْناهُمْ سَعِيراً تسعرا، و هو التلهب. و قد قيل: إن فى خبوّ النار تخفيفا لعذاب أهلها، فكيف يجمع بينه و بين قوله: لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ «١»؟ و أجيب بأن المراد بعدم التخفيف أنه لا يتخلل زمان محسوس بين الخبوّ و التسعر؛ و قيل: إنها تخبو من غير تخفيف عنهم من عذابها ذلِكَ أى: العذاب جَزاؤُهُمْ الذى أوجبه اللّه لهم و استحقوه عنده، و الباء فى قوله: بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا للسببية، أى: بسبب كفرهم بها فلم يصدّقوا بالآيات التنزيلية و لا تفكّروا فى الآيات التكوينية، و اسم الإشارة مبتدأ و خبره جزاؤهم، و بأنهم كفروا خبر آخر، و يجوز أن يكون جزاؤهم مبتدأ ثانيا، و خبره ما بعده، و الجملة خبر المبتدأ الأوّل وَ قالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً الهمزة للإنكار، و قد تقدّم تفسير الآية فى هذه السورة، و خلقا فى قوله: أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً مصدر من غير لفظه أو حال، أى: مخلوقين. فجاء سبحانه بحجّة تدفعهم عن الإنكار و تردّهم عن الجحود. فقال: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ أى: من هو قادر على خلق هذا، فهو على إعادة ما هو أدون منه أقدر، و قيل:

المراد أنه قادر على إفنائهم و إيجاد غيرهم، و على القول الأوّل يكون الخلق بمعنى الإعادة، و على هذا القول هو على حقيقته، و جملة وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لا رَيْبَ فِيهِ عطف على أو لم يروا، و المعنى: قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات و الأرض فهو قادر على خلق أمثالهم، لأنهم ليسوا بأشدّ خلقا منهنّ كما قال: أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ «٢». وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لا رَيْبَ فِيهِ و هو الموت أو القيامة، و يحتمل أن تكون الواو للاستئناف، و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، أى: أو لم يروا أن اللّه الذى خلق السموات و الأرض، و جعل لهم أجلا لا ريب فيه، قادر على أن يخلق مثلهم فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً أى: أبى

المشركون إلا جحودا، و فيه وضع الظاهر موضع المضمر للحكم عليهم بالظلم و مجاوزة الحدّ؛ ثم لما وقع من هؤلاء الكفار طلب إجراء الأنهار و العيون فى أراضيهم لتتّسع معايشهم، بيّن اللّه سبحانه أنهم لا يقنعون، بل يبقون على بخلهم و شحّهم، فقال: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى أنتم مرتفع على أنه فاعل فعل محذوف يفسره ما بعده، أى: لو تملكون أنتم تملكون، على أن الضمير المنفصل مبدل من الضمير المتصل و هو الواو، و خزائن رحمته سبحانه: هى خزائن الأرزاق. قال الزجّاج: أعلمهم اللّه أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لأمسكوا شحّا و بخلا، و هو خشية الإنفاق، أى: خشية أن ينفقوا فيفتقروا، و فى حذف الفعل الذى ارتفع به أنتم، و إيراد الكلام فى صورة المبتدأ و الخبر دلالة على أنهم هم المختصّون بالشحّ. قال أهل اللغة: أنفق و أصرم و أعدم و أقتر؛ بمعنى قلّ ماله، فيكون المعنى: لأمسكتم خشية قلّ المال وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً أى: بخيلا مضيّقا عليه. يقال: قتر على عياله يقتر و يقتر قترا و قتورا: ضيّق عليهم فى النفقة، و يجوز أن يراد وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً أى: قليل المال، و الظاهر أن المراد المبالغة فى وصفه بالشحّ، لأن الإنسان ليس

---

(۱). البقرة: ۱۶۲.

(۲). النازعات: ۲۷.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۱۱

بقليل المال على العموم. بل بعضهم كثير المال، إلا أن يراد أن جميع النوع الإنسانى قليل المال بالنسبة إلى خزائن اللّه و ما عنده. و قد اختلف فى هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها نزلت فى المشركين خاصة، و به قال الحسن، و الثانى: أنها عامة، و هو قول الجمهور، حكاه الماوردى.

و قد أخرج و مسلم و غيرهما عن أنس قال: «قيل: يا رسول اللّه؛ كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم». و أخرج أبو داود، و الترمذى و حسّنه، و ابن جرير و ابن مردويه و البيهقى عن أبى هريرة. قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنف مشاة، و صنف ركبانا، و صنف على وجوههم» ثم ذكر نحو حديث أنس.

و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس، فى قوله: مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ قال:

يعنى أنهم وقودها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عنه فى قوله:

كُلَّما خَبَتْ قال: سكنت. و أخرج هؤلاء عنه أيضا فى الآية قال: كلما أحرقتهم سعرتهم حطبا، فإذا أحرقتهم فلم يبق منهم شىء صارت جمرا تتوهّج فذلك خبوها، فإذا بدّلوا خلقا جديدا عاودتهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله: خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى قال: الرزق. و أخرج أيضا عن عكرمة فى قوله:

إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ قال: إذا ما أطعمتم أحدا شيئا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ قال: الفقر وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً قال: بخيلا. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ قال: خشية الفاقة وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً قال:

بخيلا ممسكا.

[سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۹]

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِی إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً (۱۰۱) قالَ لَقَدْ

عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ وَ إِنِّی لَأَظُنُّکَ یا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (۱۰۲) فَأَرادَ أَنْ یَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِیعاً (۱۰۳) وَ قُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِی إِسْرائِیلَ اسْکُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِکُمْ لَفِیفاً (۱۰۴) وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً (۱۰۵)

وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُکْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِیلاً (۱۰۶) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا یُتْلى عَلَیْهِمْ یَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً (۱۰۷) وَ یَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ کانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً (۱۰۸) وَ یَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ یَبْکُونَ وَ یَزِیدُهُمْ خُشُوعاً (۱۰۹)

قوله: وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسى تِسْعَ آیاتٍ أی: علامات دالّة على نبوّته. قیل: و وجه اتصال هذه الآیة بما قبلها أن المعجزات المذکورة کأنها مساویة لتلک الأمور التی اقترحها کفّار قریش، بل أقوى منها، فلیس عدم الاستجابة لما طلبوه من الآیات إلا لعدم المصلحة فی استئصالهم إن لم یؤمنوا بها قال أکثر المفسرین: الآیات التسع: هی الطوفان، و الجراد، و القمل، و الضفادع، و الدم، و العصا، و الید، و السنین، و نقص الثمرات. و جعل الحسن مکان السنین و نقص الثمرات: البحر و الجبل. و قال محمد بن کعب القرظی: هی

الخمس التی فی الأعراف، و البحر، و العصا، و الحجر، و الطمس على أموالهم. و قد تقدم الکلام على هذه الآیات مستوفى، و سیأتی حدیث صفوان بن عسال فی تعداد هذه الآیات التسع. فَسْئَلْ بَنِی إِسْرائِیلَ قرأ ابن عباس و ابن نهیک «فسئل» على الخبر، أی: سأل موسى فرعون أن یخلی بنی إسرائیل و یطلق سبیلهم و یرسلهم معه، و قرأ الآخرون فَسْئَلْ على الأمر، أی: سلهم یا محمد حین جاءَهُمْ موسى، و السؤال سؤال استشهاد لمزید الطمأنینة و الإیقان؛ لأن الأدلة إذا تضافرت کان ذلک أقوى، و المسؤولون مؤمنو بنی إسرائیل کعبد اللّه بن سلام و أصحابه فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّی لَأَظُنُّکَ یا مُوسى مَسْحُوراً الفاء هی الفصیحة، أی فأظهر موسى عند فرعون ما آتیناه من الآیات البینات و بلغه ما أرسل به فقال له فرعون.

المسحور: الذی سحر فخولط عقله. و قال أبو عبیدة و الفراء: هو بمعنى الساحر، فوضع المفعول موضع الفاعل، ف قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ یعنی الآیات التی أظهرها، و أنزل بمعنى أوجد إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ أی: دلالات یستدلّ بها على قدرته و وحدانیته، و انتصاب بصائر على الحال.

قرأ الکسائی بضمّ التاء من علمت على أنها لموسى، و روی ذلک عن علیّ، و قرأ الباقون بفتحها على الخطاب لفرعون. و وجه القراءة الأولى أن فرعون لم یعلم ذلک، و إنما علمه موسى. و وجه قراءة الجمهور أن فرعون کان عالما بذلک کما قال تعالى: وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَیْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا «۱» قال أبو عبید: المأخوذ به عندنا فتح التاء، و هو الأصح للمعنى، لأن موسى لا یقول علمت أنا و هو الداعی، و روی نحو هذا عن الزجاج وَ إِنِّی لَأَظُنُّکَ یا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً الظنّ هنا بمعنى الیقین، و الثبور: الهلاک و الخسران. قال الکمیت:

و رأت قضاعة فی الأیامن رأی مثبور و ثابر

أی: مخسور و خاسر، و قیل: المثبور: الملعون، و منه قول الشاعر «۲»:

یا قومنا لا تروموا حربنا سفهاإنّ السّفاه و إن البغی مثبور

أی: ملعون، و قیل: المثبور: ناقص العقل، و قیل: هو الممنوع من الخیر، یقال: ما ثبرک عن کذا؛ ما منعک منه، حکاه أهل اللغة، و قیل: المسحور فَأَرادَ أَنْ یَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ أی: أراد فرعون أن یخرج بنی إسرائیل و موسى و یزعجهم من الأرض، یعنی أرض مصر بإبعادهم عنها، و قیل: أراد أن یقتلهم و على هذا یراد بالأرض مطلق الأرض، و قد تقدم قریبا معنى الاستفزاز فَأَغْرَقْناهُ

وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعاً فوقع عليه و عليهم الهلاك بالغرق، و لم يبق منهم أحدا وَ قُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ أى: من بعد إغراقه و من معه، و المراد بالأرض هنا: أرض مصر التى أراد أن يستفزّهم منها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ أى: الدار الآخرة و هو القيامة، أو الكرّة الآخرة، أو الساعة الآخرة جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً قال الجوهرى:

اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى، يقال: جاء القوم بلّفهم و لفيفهم، أى: بأخلاطهم، فالمراد هنا

---

(۱). النمل: ۱۴.

(۲). هو: أبان بن تغلب.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۱۳

جئنا بكم من قبوركم مختلطين من كل موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر. قال الأصمعى: اللفيف جمع و ليس له واحد، و هو مثل الجمع وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ الضمير يرجع إلى القرآن، و معنى بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ أوحيناه متلبسا بالحق و معنى وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ أنه نزل و فيه الحق، و قيل: الباء فى «و بالحق» الأول بمعنى مع، أى: مع الحق أنزلناه، كقولهم: ركب الأمير بسيفه، أى: مع سيفه وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ أى:

بمحمد كما تقول نزلت بزيد. و قال أبو على الفارسى: الباء فى الموضعين بمعنى مع، و قيل: يجوز أن يكون المعنى:

و بالحق قدرنا أن ينزل و كذلك نزل، أو ما أنزلناه من السماء إلا محفوظا، و ما نزل على الرسول إلا محفوظا من تخليط الشياطين، و التقديم فى الموضعين للتخصص وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً أى: مبشرا لمن أطاع بالجنة و نذيرا مخوّفا لمن عصى بالنار وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ انتصاب قرآنا بفعل مضمر يفسره ما بعده، قرأ على و ابن عباس و ابن مسعود و أبيّ بن كعب و قتادة و أبو رجاء و الشعبى فَرَقْناهُ بالتشديد؛ أى:

أنزلناه شيئا بعد شىء لا جملة واحدة. و قرأ الجمهور فرقناه بالتخفيف، أى: بيناه و أوضحناه، و فرقنا فيه بين الحق و الباطل. و قال الزجاج: فرقه فى التنزيل ليفهمه الناس. قال أبو عبيد: التخفيف أعجب إلىّ؛ لأن تفسيره بيناه، و ليس للتشديد معنى إلا أنه نزل متفرقا. و يؤيده ما رواه ثعلب عن ابن الأعرابى أنه قال:

فرقت مخففا بين الكلام، و فرقت مشددا بين الأجسام، ثم ذكر سبحانه العلة لقوله: فرقناه، فقال: لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ أى: على تطاول فى المدّة شيئا بعد شىء على القراءة الأولى، أو أنزلناه آية آية، و سورة سورة. و معناه على القراءة الثانية على مكث، أى: على ترسل و تمهل فى التلاوة، فإن ذلك أقرب إلى الفهم و أسهل للحفظ. و قد اتفق القراء على ضم الميم فى مكث إلا ابن محيصن فإنه قرأ بفتح الميم وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا التأكيد بالمصدر للمبالغة، و المعنى: أنزلناه منجما مفرّقا لما فى ذلك من المصلحة، و لو أخذوا بجميع الفرائض فى وقت واحد لنفروا و لم يطيقوا قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا أمر اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقول للكافرين المقترحين للآيات آمنوا به أو لا تؤمنوا، فسواء إيمانكم به و امتناعكم عنه لا يزيده ذلك و لا ينقصه. و فى هذا وعيد شديد لأمره صلّى اللّه عليه و سلّم بالإعراض عنهم و احتقارهم، ثم علّل ذلك بقوله: إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ أى: أن العلماء الذين قرءوا الكتب السابقة قبل إنزال القرآن، و عرفوا حقيقة الوحى و أمارات النبوّة كزيد ابن عمرو بن نفيل و ورقة بن نوفل و عبد اللّه بن سلام إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ أى: القرآن يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً أى: يسقطون على وجوههم ساجدين للّه سبحانه. و إنما قيد الخرور، و هو السقوط بكونه للأذقان، أى: عليها، لأن الذقن، و هو مجتمع اللحيين، أوّل ما يحاذى الأرض. قال الزجّاج: لأنّ الذقن مجتمع اللحيين، و كما يبتدئ الإنسان بالخرور للسجود، فأوّل ما يحاذى الأرض به من وجهه الذقن؛ و قيل: المراد تعفير اللحية فى التراب، فإن ذلك غاية الخضوع، و إيثار اللام فى الأذقان على الدلالة على الاختصاص، فكأنهم

خصّوا أذقانهم بالخرور، أو خصّوا الخرور بأذقانهم؛ و قيل: الضمير فى قوله: مِنْ قَبْلِهِ راجع إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و الأولى ما ذكرناه من رجوعه إلى القرآن لدلالة السياق على ذلك، و فى هذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.
و حاصلها أنه إن لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لا علم عندهم و لا معرفة بكتب اللّه و لا بأنبيائه، فلا تبال

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۱۴

بذلك، فقد آمن به أهل العلم و خشعوا له و خضعوا عند تلاوته عليهم خضوعا ظهر أثره البالغ بكونهم يخرّون على أذقانهم سجدا للّه وَ يَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا أى: يقولون فى سجودهم تنزيها لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب أو تنزيها له عن خلف وعده إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا إن هذه هى المخففة من الثقيلة، و اللام هى الفارقة. ثم ذكر أنهم خروا لأذقانهم باكين فقال: وَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ و كرّر ذكر الخرور للأذقان لاختلاف السبب، فإن الأول لتعظيم اللّه سبحانه و تنزيهه، و الثانى للبكاء بتأثير مواعظ القرآن فى قلوبهم و مزيد خشوعهم، و لهذا قال: وَ يَزِيدُهُمْ أى: سماع القرآن، أو القرآن بسماعهم له خُشُوعاً أى: لين قلب و رطوبة عين.
و قد أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:
تِسْعَ آياتٍ فذكر ما ذكرناه عن أكثر المفسرين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: يده، و عصاه و لسانه، و البحر، و الطوفان، و الجراد، و القمل، و الضّفادع، و الدم. و أخرج الطيالسى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و أحمد، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن ماجة و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن قانع، و الحاكم و صحّحه، و أبو نعيم و البيهقى و ابن مردويه عن صفوان بن عسّال: «أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: انطلق بنا إلى هذا النبىّ نسأله، فأتياه فسألاه عن قول اللّه وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فقال: لا تشركوا باللّه شيئا، و لا تزنوا، و لا تسرفوا، و لا تقتلوا النفس التى حرم اللّه إلا بالحق، و لا تسرقوا، و لا تسحروا، و لا تمشوا ببرىء إلى سلطان فيقتله، و لا تأكلوا الربا، و لا تقذفوا محصنة. أو قال: لا تفروا من الزحف- شك شعبة- و عليكم يا يهود خاصة أن لا تعتدوا فى السبت، فقبّلا يديه و رجليه و قالا: نشهد أنك نبىّ اللّه، قال: فما يمنعكما أن تسلما؟ قالا: إن داود دعا اللّه أن يزاد فى ذريته نبىّ، و إنا نخاف إن أسلمنا أن يقتلنا اليهود». و أخرج ابن أبى الدنيا فى «ذمّ الغضب» عن أنس بن مالك أنه سئل عن قوله: وَ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً قال: مخالفا، و قال: الأنبياء أكرم من أن تلعن أو تسبّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس مَثْبُوراً قال:
ملعونا. و أخرج الشيرازى فى الألقاب، و ابن مردويه عنه قال: قليل العقل. و أخرج ابن جرير عنه أيضا لفيفا قال: جميعا. و أخرج النسائى و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس أنه قرأ «و قرآنا فرقناه» مثقلا قال: نزل القرآن إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر من رمضان جملة واحدة، فكان المشركون إذا أحدثوا شيئا أحدث اللّه لهم جوابا، ففرّقه اللّه فى عشرين سنة. و قد روى نحو هذا عنه من طرق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا فَرَقْناهُ قال: فصّلناه على مكث بأمد يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يقول: للوجوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قال:
كتابهم.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۱۵

[سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۱۰ الى ۱۱۱]

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَ لا تُخافِتْ بِها وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً (۱۱۰) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيراً (۱۱۱)

أراد سبحانه أن يعلم عباده كيفية الدعاء و الخشوع فقال: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ و معناه:
أنهما مستويان فى جواز الإطلاق و حسن الدعاء بهما، و لهذا قال: أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى التنوين فى «أيّا» عوض عن المضاف إليه، و ما مزيدة لتوكيد الإبهام فى أيّا، و الضمير فى له راجع إلى المسمّى، و كان أصل الكلام: أيّا ما تدعوا فهو حسن، فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة، و للدلالة على أنها إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان، و معنى حسن الأسماء استقلالها بنعوت الجلال و الإكرام، ذكر معنى هذا النيسابورى و تبعه أبو السعود. قال الزجاج: أعلمهم اللّه أن دعاءهم اللّه و دعاءهم الرحمن يرجعان إلى قول واحد، و سيأتى ذكر سبب نزول الآية، و به يتّضح المراد منها، ثم ذكر كيفية أخرى للدعاء فقال:
وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَ لا تُخافِتْ بِها أى: بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بأن الجهر و المخافتة من نعوت الصوت، لا من نعوت أفعال الصلاة، فهو من إطلاق الكل و إرادة الجزء، يقال: خفت صوته خفوتا؛ إذا انقطع كلامه و ضعف و سكن، و خفت الزرع إذا ذبل، و خافت الرجل بقراءته: إذا لم يرفع بها صوته؛ و قيل: معناه: لا تجهر بصلاتك كلها و لا تخافت بها كلها، و الأوّل أولى وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ أى: الجهر و المخافتة المدلول عليها بالفعلين سَبِيلًا أى: طريقا متوسطا بين الأمرين فلا تكن مجهورة و لا مخافتا بها، و على التفسير الثانى يكون معنى ذلك النهى عن الجهر بقراءة الصلوات كلها، و النهى عن المخافتة بقراءة الصلوات كلها، و الأمر بجعل البعض منها مجهورا به، و هو صلاة الليل و المخافتة بصلاة النهار، و ذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله: ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً «١» و لما أمر أن لا يذكر و لا ينادى إلا بأسمائه الحسنى نبّه على كيفية الحمد له، فقال: وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً كما تقوله اليهود و النصارى، و من قال من المشركين إن الملائكة بنات اللّه، تعالى عن ذلك علوّا كبيرا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ أى: مشارك له فى ملكه و ربوبيته كما تزعمه الثنوية و نحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِ أى: لم يحتج إلى موالاة أحد لذلّ يلحقه فهو مستغن عن الوليّ و النصير. قال الزجّاج:
أى: لم يحتج أن ينتصر بغيره، و فى التعرّض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذان بأن المستحق للحمد من له هذه الصفات، لأنّه القادر على الإيجاد و إفاضة النعم لكون الولد مجبنة و مبخلة، و لأنه أيضا يستلزم حدوث الأب لأنه متولد من جزء من أجزائه، و المحدث غير قادر على كمال الإنعام، و الشركة فى الملك إنما تتصور لمن لا يقدر على الاستقلال به، و من لا يقدر على الاستقلال عاجز، عن تمام ما هو له، فضلا عن تمام ما هو عليه، و أيضا الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين، فقد يمنعه الشريك من إفاضة الخير إلى أوليائه، و مؤدية

---

(١). الأعراف: ٥٥.

إلى الفساد: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا «١» و المحتاج إلى وليّ يمنعه من الذلّ و ينصره على من أراد إذلاله ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغن بنفسه وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيراً أى: عظّمه تعظيما وصفه بأنه أعظم من كل شىء.
و قد أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «صلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بمكة ذات يوم فقال فى دعائه: يا اللّه يا رحمن، فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين، و هو يدعو إلهين، فأنزل اللّه: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ الآية». و أخرج ابن أبى حاتم عن إبراهيم النخعى قال: إن اليهود سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن الرحمن، و كان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمن، فنزلت الآية.

و هو مرسل. و أخرج ابن جرير عن مكحول «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يتهجّد بمكة ذات ليلة يقول فى سجوده يا رحمن يا رحيم، فسمعه رجل من المشركين، فلما أصبح قال لأصحابه: إن ابن أبى كبشة يدعو الليلة الرحمن الذى باليمن، و كان رجل باليمن يقال له رحمن، فنزلت». و أخرج البيهقى فى الدلائل، من طريق نهشل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس قال: «سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قول اللّه: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا إلى آخر الآية، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «هو أمان من السرق» و إن رجلا من المهاجرين من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تلاها حيث أخذ مضجعه، فدخل عليه سارق فجمع ما فى البيت و حمله، و الرجل ليس بنائم، حتى انتهى إلى الباب فوجد الباب مردودا، فوضع الكارة، ففعل ذلك ثلاث مرات، فضحك صاحب الدار ثم قال: إنى حصّنت بيتى. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ الآية قال: نزلت و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم متوار، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبّوا القرآن و من أنزله و من جاء به، فقال اللّه لنبيه: وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ أى: بقراءتك، فيسمع المشركون، فيسبّوا القرآن وَ لا تُخافِتْ بِها عن أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا يقول: بين الجهر و المخافتة. و أخرج ابن مردويه عنه قال: كان نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يجهر بالقراءة بمكة فيؤذى، فأنزل اللّه وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ

و أخرج ابن أبى شيبة عنه أيضا نحوه. و أخرج أبو داود فى ناسخه عنه نحوه. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه أيضا قال: كان مسيلمة الكذاب قد سمّى الرحمن، فكان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إذا صلى فجهر ببسم اللّه الرحمن الرحيم قال المشركون: يذكر إله اليمامة، فأنزل اللّه وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى الشعب، عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا قرأ خفض، و كان عمر إذا قرأ جهر، فقيل لأبى بكر لم تصنع هذا؟ قال: أنا أناجى ربى، و قد عرف حاجتى؛ و قيل:

لعمر لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان و أوقظ الوسنان، فلما نزل وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَ لا تُخافِتْ بِها قيل لأبى بكر: ارفع شيئا، و قيل لعمر: اخفض شيئا. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و البخارى و مسلم و غيرهم عن عائشة قالت: إنما نزلت هذه الآية: وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَ لا تُخافِتْ بِها

---

(١). الأنبياء: ٢٢.

فى الدعاء. و أخرج ابن جرير و الحاكم عنها قالت: نزلت فى التشهد. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن منيع و ابن جرير و محمد بن نصر و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس مثل حديث عائشة الأوّل. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال: إن اليهود و النصارى قالوا: اتخذ اللّه ولدا، و قالت العرب:

لبيك لا شريك لك إلا شريكا، هو لك تملكه و ما ملك، و قال الصابئون و المجوس: لو لا أولياء اللّه لذلّ، فأنزل اللّه هذه الآية: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ إلى آخرها.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِ قال: لم يحالف أحدا و لم يبتغ نصر أحد. و أخرج أحمد و الطبرانى عن معاذ بن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «آية العزّ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً الآية كلها». و أخرج أبو يعلى و ابن السنى عن أبى هريرة قال: «خرجت أنا و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و يده فى يدى، فأتى علىّ رجل رثّ الهيئة فقال: أى فلان ما بلغ بك ما أرى؟ قال: السقم و الضرّ، قال: ألا أعلمك كلمات

تـذهب عنک السـقم و الضـرّ؟ توکلت على الحيّ الـذى لا يموت الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً إلى آخر الآية، فأتى عليه رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم و قـد حسـنت حاله فقال: مَم؟ قال: لم أزل أقول الكلمات التى علمتنى». و فى لفظ أن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم علّم ذلک أبا هريرة. قال ابن كثير: و إسـناده ضـعيف، و فى متنه نكارة. و أخرج ابن جرير عن قتادة قال: «ذكر لنا أن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم كان يعلّم أهله هذه الآية الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً إلى آخرها الصغير من أهله و الكبير». و أخرج عبد الرزاق فى المصنف عن عبد الكريم بن أبى أمية قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعلّم الغلام من بنى هاشم إذا أفصح سـبع مرّات الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً إلى آخر السورة» و أخرج ابن أبى شـيبة فى المصنف، من طريق عبد الكريم عن عمرو بن شعيب فذكره. و أخرجه ابن السنى فى «عمل اليوم و الليلة» من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣١٨

سورة الكهف

اشارة

قال القرطبى: و هى مكية فى قول جميع المفسرين. و روى عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله:

جُرُزاً و الأـوّل أصـحّ انتهى. و من القـائلين إنهـا مكيـة جميعهـا ابن عبـاس، أخرجه عنه النحّـاس و ابن مردويه، و منهم ابن الزبير، أخرجه عنه ابن مردويه. و قد ورد فى فضلها أحاديث: منها ما أخرجه أحمد و مسلم و أبو داود و الترمذى و النسائى و غيرهم عن أبى الـدرداء عن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم قال: «من حفظ عشـر آيات من أوّل سورة الكهف عصم من فتنة الدجّال». و أخرج أحمد و مسـلم و النسائى و ابن حبّان عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنـة الـدجّال». و أخرج البخـارى و مسـلم و غيرهمـا عن البراء قال: «قرأ رجل سورة الكهف و فى الـدار دابـة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضـبابة أو سـحابة قد غشـيته، فذكر ذلک للنبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم، فقال: اقرأ فلان، فإن السكينة نزلت للقرآن» و هذا الذى كان يقرأ هو أسيد بن حضير كما بيّنه الطبرانى. و أخرج الترمذى و صحّحه، عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم: «من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجّال» و فى قراءة العشر الآيات من أوّلها أو من آخرها أحاديث. و أخرج ابن مردويه، و الضـياء فى المختارة، عن علىّ قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ الكهف يوم الجمعـة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون، فإن خرج الدجّال عصم منه». و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و الحاكم و صـحّحه، و ابن مردويه و البيهقى و الضـياء عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ سورة الكهف كانت له نورا من مقامه إلى مكة، و من قرأ عشـر آيات من آخرها ثم خرج الدجّال لم يضـرّه». و أخرج الحاكم و صحّحه، من حديث أبى سعيد أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة أضاء له من النّور ما بين الجمعتين». و أخرجه البيهقى أيضـا فى السـنن من هـذا الوجه و من وجه آخر. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر قـال: قـال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم: «من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعـة سـطع له نور من تحت قـدمه إلى عنان السـماء، يضـىء له يوم القيامة، و غفر له ما بين الجمعتين». و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السـماء و الأرض، و لكاتبها من الأجر مثل ذلک، و من قرأها يوم الجمعـة غفر له ما بينه و بين الجمعـة الأـخرى و زيادة ثلاثـة أيام، و من قرأ الخمس الأواخر منها عنـد نومه بعثه اللّه من أىّ الليل شاء؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه، قال: سورة أصـحاب الكهف». و أخرج ابن مردويه عن عبـد اللّه بن مغفل قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم: «البيت

الذى تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة» و فى الباب أحاديث و آثار، و فيما أوردناه كفاية مغنية.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٣١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (١) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (٢) ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً (٣) وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (٤)

ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً (٥) فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (٦) إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً (٨)

علّم عباده كيف يحمدونه على إفاضة نعمه عليهم، و وصفه بالموصول يشعر بعلية ما فى حيز الصلة لما قبله، و وجه كون إنزال الكتاب، و هو القرآن، نعمة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كونه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد، و أحوال الملائكة و الأنبياء، و على كيفية الأحكام الشرعية التى تعبّده اللّه و تعبّد أمته بها، و كذلك العباد كان إنزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم لمثل ما ذكرناه فى النبىّ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً أى: شيئا من العوج بنوع من أنواع الاختلال فى اللفظ و المعنى، و العوج بالكسر فى المعانى، و بالفتح فى الأعيان كذا قيل: و يرد عليه قوله سبحانه: لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً «١» يعنى الجبال، و هى من الأعيان. قال الزجاج: المعنى فى الآية لم يجعل فيها اختلافا كما قال: وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «٢». و القيّم: المستقيم الذى لا ميل فيه، أو القيم بمصالح العباد الدينية و الدنيوية، أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمنا عليها، و على الأوّل يكون تأكيدا لما دل عليه نفى العوج، فربّ مستقيم فى الظاهر لا يخلو عن أدنى عوج فى الحقيقة، و انتصاب قيما بمضمر، أى: جعله قيما، و منع صاحب الكشاف أن يكون حالا من الكتاب، لأن قوله: وَ لَمْ يَجْعَلْ معطوف على أَنْزَلَ فهو داخل فى حيز الصلة، فجاعله حالا من الكتاب فاصل بين الحال و ذى الحال ببعض الصلة. و قال الأصفهانى: هما حالان متواليان إلا أن الأوّل جملة و الثانى مفرد، و هذا صواب لأن قوله: وَ لَمْ يَجْعَلْ لم يكن معطوفا على ما قبله بل الواو للحال، فلا فصل بين الحال و ذى الحال ببعض الصلة، و قيل: إن قَيِّماً حال من ضمير لَمْ يَجْعَلْ لَهُ و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: أنزل على عبده الكتاب قيما و لم يجعل له عوجا، ثم أراد سبحانه أن يفصل ما أجمله فى قوله قيما فقال: لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً و حذف المنذر للعلم به مع قصد التعميم، و المعنى لينذر الكافرين. و البأس العذاب، و معنى مِنْ لَدُنْهُ صادرا من لدنه نازلا من عنده. روى أبو بكر عن عاصم أنه قرأ من لدنه بإشمام الدال الضمة، و بكسر النون و الهاء. و هى لغة الكلابيين. و روى أبو زيد عن جميع القراء فتح اللام و ضم الدال و سكون النون وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ قرئ يبشر بالتشديد و التخفيف، و أجرى الموصول على موصوفه المذكور، لأنّ مدار قبول الأعمال هو الإيمان أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً

---

(١). طه: ١٠٧.

(٢). النساء: ٨٢.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٣٢٠

و هو الجنة حال كونهم ماكِثِينَ فِيهِ أى: فى ذلك الأجر أَبَداً أى: مكثا دائما لا انقطاع له، و تقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار، ثم كرر الإنذار و ذكر المنذر لخصوصه و حذف المنذر به، و هو البأس الشديد، لتقدّم ذكره فقال: وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً و هم اليهود و النصارى و بعض كفار قريش. القائلون بأن الملائكة بنات اللّه، فذكر سبحانه أوّلا قضية كلية، و هى إنذار عموم الكفار، ثم عطف عليها قضية خاصة هى بعض جزئيات تلك الكلية، تنبيها على كونها أعظم جزئيات تلك الكلية. فأفاد ذلك أن نسبة الولد إلى اللّه سبحانه أقبح أنواع الكفر ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ أى: بالولد، أو اتّخاذ اللّه إياه، و من مزيدة لتأكيد النفى، و الجملة فى محل نصب على الحال أو هى مستأنفة، و المعنى:

ما لهم بذلك علم أصلا وَ لا لِآبائِهِمْ علم، بل كانوا فى زعمهم هذا على ضلالة، و قلدهم أبناؤهم فضلوا جميعا كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ انتصاب كلمة على التمييز، و قرئ بالرفع على الفاعلية. قال الفراء: كبرت تلك الكلمة كلمة. و قال الزجاج: كبرت مقالتهم كلمة، و المراد بهذه الكلمة هى قولهم اتخذ اللّه ولدا. ثم وصف الكلمة بقوله: تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ و فائدة هذا الوصف استعظام اجترائهم على التفوّه بها، و الخارج من الفم و إن كان هو مجرد الهوى، لكن لما كانت الحروف و الأصوات كيفيات قائمة بالهوى أسند إلى الحالّ ما هو من شأن المحل. ثم زاد فى تقبيح ما وقع منهم فقال: إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً أى:

ما يقولون إلا كذبا لا مجال للصدق فيه بحال، ثم سلّى رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بقوله: فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ قال الأخفش و الفراء: البخع: الجهد. و قال الكسائى: بخعت الأرض بالزراعة إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة، و بخع الرجل نفسه إذا نهكها. و قال أبو عبيدة: معناه مهلك نفسك، و منه قول ذى الرمّة:

ألا أيّهذا الباخع الوجد نفسه «1» ....

فيكون المعنى على هذه الأقوال لعلك مجهد نفسك أو مضعفها أو مهلكها عَلى آثارِهِمْ على فراقهم و من بعد توليهم و إعراضهم إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أى: القرآن، و جواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله. و قرئ بفتح أن: أى لأن لم يؤمنوا أَسَفاً أى غيظا و حزنا و هو مفعول له أو مصدر فى موضع الحال كذا قال الزجّاج إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها هذه الجملة استئناف. و المعنى: إنا جعلنا ما على الأرض ممّا يصلح أن يكون زينة لها من الحيوانات و النبات و الجماد كقوله سبحانه: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً «2» و انتصاب زينة على أنها مفعول ثان لجعل، و اللام فى لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا متعلّقة بجعلنا، و هى إما للغرض أو للعاقبة، و المراد بالابتلاء أنه سبحانه يعاملهم معاملة لو كانت تلك المعاملة من غيره لكانت من قبيل الابتلاء و الامتحان. و قال الزجّاج: أيهم رفع بالابتداء إلا أن لفظه لفظ الاستفهام، و المعنى: لنمتحن أ هذا أحسن عملا أم ذاك؟ قال الحسن: أيهم أزهد، و قال مقاتل: أيّهم أصلح

---

(1). و عجزه: لشىء نحته عن يديك المقادر.

(2). البقرة: 29.

فتح القدير، ج3، ص: 321

فيما أوتى من المال، ثم أعلم سبحانه أنه مبيد لذلك كله و مفنيه، فقال: وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً أى: لجاعلون ما عليها من هذه الزينة عند تناهى عمر الدنيا صعيدا ترابا. قال أبو عبيدة: الصعيد المستوى من الأرض. و قال الزجّاج: هو الطريق الذى لا نبات فيه. قال الفراء: الجرز الأرض التى لا نبات فيها، و من قولهم: امرأة جرزا إذا كانت أكولا، و سيفا جرازا إذا كان مستأصلا، و جرز الجراد و الشاة و الإبل الأرض إذا أكلت ما عليها. قال ذو الرمّة:

طوى النحز و الأجراز ما فى بطونها «1» ....

و معنى النظم: لا تحزن يا محمد مما وقع من هؤلاء من التكذيب فإنا قد جعلنا ما على الأرض زينة لاختبار أعمالهم، و إنا لمذهبون ذلك عند انقضاء عمر الدنيا فمجازوهم إن خيرا فخير، و إن شرا فشر.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی أَنْزَلَ عَلی عَبْدِهِ الْكِتابَ الآية قال: أنزل الكتاب عدلا قيما وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ملتبسا. و أخرج ابن المنذر عن الضحّاك قَيِّماً قال: مستقيما. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة مِنْ لَدُنْهُ أى: من عنده. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدى حَسَناً يعنى الجنة وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً قال: هم اليهود و النصارى. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: اجتمع عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة و أبو جهل و النضر بن الحارث و أمية بن خلف و العاص بن وائل و الأسود بن عبد المطلب و أبو البخترى فى نفر من قريش، و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه، و إنكارهم ما جاء به من النصيحة، فأحزنه حزنا شديدا، فأنزل اللّه سبحانه فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه باخِعٌ نَفْسَكَ يقول: قاتل نفسك. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى مثله. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد أَسَفاً قال:

جزعا. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة أَسَفاً قال: حزنا. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله: إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها قال:

الرجال. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير من قوله مثله. و أخرج أبو نصر السجزى فى الإبانة، من طريق مجاهد عن ابن عباس فى الآية قال: العلماء زينة الأرض. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: هم الرجال العباد العمال للّه بالطاعة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم فى التاريخ، و ابن مردويه عن ابن عمر قال: «تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآية لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا فقلت: ما معنى ذلك يا رسول اللّه؟ قال: ليبلوكم أيكم أحسن عقلا و أورع عن محارم اللّه و أسرعكم فى طاعة اللّه». و أخرج

---

(١). و عجزه: فما بقيت إلا الضلوع الجراشع.

«النحز»: الضرب و الدفع. «الجراشع»: الغلاظ، واحدها جرشع.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٣٢٢

ابن أبى حاتم عن قتادة قال: ليختبرهم أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا قال: أيهم أتمّ عقلا. و أخرج عن الحسن أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا قال: أشدهم للدنيا تركا. و أخرج أيضا عن الثورى قال: أزهدهم فى الدنيا.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً قال: يهلك كل شى‌ء و يبيد. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: الصعيد: التراب و الجبال التى ليس فيها زرع. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: يعنى بالجرز الخراب.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٩ الى ١٦]

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً (١٠) فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (١١) ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً (١٣)

وَ رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً (۱۴) هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً (۱۵) وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً (۱۶)

قوله: أَمْ حَسِبْتَ «أم» هى المنقطعة المقدّرة ببل و الهمزة عند الجمهور، و ببل وحدها عند بعضهم، و التقدير: بل أحسبت، أو: بل حسبت، و معناها الانتقال من حديث إلى حديث آخر، لا لإبطال الأول و الإضراب عنه كما هو معنى بل فى الأصل. و المعنى: أن القوم لما تعجّبوا من قصة أصحاب الكهف و سألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان، قال سبحانه: بل أ ظننت يا محمد أنهم كانوا عجبا من آياتنا فقط؟

لا- تحسب ذلك فإن آياتنا كلّها عجب، فإن من كان قادرا على جعل ما على الأرض زينة لها للابتلاء، ثم جعل ما عليها صعيدا جرزا كأن لم تغن بالأمس، لا تستبعد قدرته و حفظه و رحمته بالنسبة إلى طائفة مخصوصة، و إن كانت قصتهم خارقة للعادة، فإن آيات اللّه سبحانه كذلك و فوق ذلك. و عَجَباً منتصبة على أنه خبر كان، أى ذات عجب، أو موصوفة بالعجب مبالغة، و «مِنْ آياتِنا» فى محل نصب على الحال، و إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ ظرف لحسبت أو لفعل مقدّر، و هو اذكر، أى: صاروا إليه و جعلوه مأواهم، و الفتية هم أصحاب الكهف، و الكهف: هو الغار الواسع فى الجبل. فإن كان صغيرا سمّى غارا، و الرقيم قال كعب و السدى: إنه اسم القرية التى خرج منها أصحاب الكهف. و قال سعيد بن جبير و مجاهد: إنه لوح من حجارة أو رصاص رقمت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف. قال الفراء: و يروى أنه إنّما سمّى رقيما لأن أسماءهم كانت مرقومة فيه. و الرقم: الكتابة. و روى مثل ذلك عن ابن عباس. و منه قول العجاج فى أرجوزة له:

و مستقرّ المصحف المرقّم و قيل: إن الرقيم اسم كلبهم، و قيل: هو اسم الوادى الذى كانوا فيه، و قيل: اسم الجبل الذى فيه الغار.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۲۳

قال الزجّاج: أعلم اللّه سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات اللّه، لأنّ خلق السماوات و الأرض و ما بينهما أعجب من قصة أصحاب الكهف فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً أى: من عندك، و من ابتدائية متعلقة بآتنا، أو لمحذوف وقع حالا، و التنوين فى رحمة إما للتعظيم أو للتنويع، و تقديم من لدنك للاختصاص، أى: رحمة مختصة بأنها من خزائن رحمتك، و هى المغفرة فى الآخرة و الأمن من الأعداء، و الرزق فى الدنيا وَ هَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً أى: أصلح لنا، من قولك هيأت الأمر فتهيأ، و المراد بأمرهم الأمر الذى هم عليه و هو مفارقتهم للكفار، و الرشد نقيض الضلال، و من للابتداء. و يجوز أن تكون للتجريد كما فى قولك رأيت منك رشدا: و تقديم المجرورين للاهتمام بهما فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ قال المفسرون: أنمناهم.

و المعنى: سددنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات، و المفعول محذوف، أى: ضربنا على آذانهم الحجاب تشبيها للإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها، و فِي الْكَهْفِ ظرف لضربنا، و انتصاب سِنِينَ على الظرفية، و عَدَداً صفة لسنين؛ أى: ذوات عدد على أنه مصدر أو بمعنى معدودة على أنه لمعنى المفعول، و يستفاد من وصف السنين بالعدد الكثرة. قال الزجّاج: إن الشىء إذا قلّ فهم مقدار عدده فلم يحتج إلى العدد، و إن كثر احتاج إلى أن يعدّ، و قيل: يستفاد منه التقليل لأن الكثير قليل عند اللّه: وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ «۱». ثُمَّ بَعَثْناهُمْ أى: أيقظناهم من تلك النومة لِنَعْلَمَ أى: ليظهر معلومنا، و قرئ بالتحتية مبنيا للفاعل على طريقة الالتفات، و أَيُّ الْحِزْبَيْنِ مبتدأ معلق عنه العلم لما فى أى من الاستفهام، و خبره أَحْصى و هو فعل ماض، قيل:

و المراد بالعلم الذى جعل علّة للبعث هو الاختبار مجازا، فيكون المعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم، و الأولى ما ذكرناه من أن المراد به ظهور معلوم اللّه سبحانه لعباده، و المراد بالحزبين الفريقان من المؤمنين و الكافرين من أصحاب الكهف

المختلفين فى مدّه لبثهم. و معنى أحصى: أضبط. و كأنه وقع بينهم تنازع فى مدة لبثهم فى الكهف، فبعثهم اللّه ليتبين لهم ذلك، و يظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه، و ما فى لِما لَبِثُوا مصدرية؛ أى: أحصى للبثهم، و قيل: اللام زائدة، و ما: بمعنى الذى، و أَمَداً تمييز، و الأمد: الغاية، و قيل: إن أحصى أفعل تفضيل. و ردّ بأنه خلاف ما تقرر فى علم الإعراب، و ما ورد من الشاذ لا يقاس عليه، كقولهم: أفلس من ابن المذلّق «۲»، و أعدى من الجرب. و أجيب بأن أفعل التفضيل من المزيد قياس مطرد عند سيبويه و ابن عصفور، و قيل: إن الحزبين هم أصحاب الكهف اختلفوا بعد انتباههم كم لبثوا، و قيل: إن أصحاب الكهف حزب و أصحابهم حزب. و قال الفرّاء: إن طائفتين من المسلمين فى زمان أصحاب الكهف اختلفوا فى مدة لبثهم نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِ هذا شروع فى تفصيل ما أجمل فى قوله: إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ أى: نحن نخبرك بالحق، أى: قصصناه بالحق، أو متلبّسا بالحق إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ أى: أحداث شبان، و آمَنُوا بِرَبِّهِمْ صفة لفتية و الجملة مستأنفة بتقدير سؤال،

---

(۱). الحج: ۴۷.

(۲). ابن المذلق: من عبد شمس، لم يكن يجد بيت ليلة، و لا أبوه، و لا أجداده، فقيل: أفلس من ابن المذلّق.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۲۴

و الفتية جمع قلّة، و زِدْناهُمْ هُدىً بالتثبيت و التوفيق، و فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب وَ رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أى: قويناها بالصبر على هجر الأهل و الأوطان، و فراق الخلان و الأخدان إِذْ قامُوا الظرف منصوب بربطنا. و اختلف أهل التفسير فى هذا القيام على أقوال، فقيل: إنهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد، فقال رجل منهم هو أكبر القوم: إنى لأجد فى نفسى شيئا، إن ربى ربّ السماوات و الأرض، فقالوا: و نحن أيضا كذلك نجد فى أنفسنا، فقاموا جميعا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قاله مجاهد.

و قال أكثر المفسرين: إنه كان لهم ملك جبار يقال له دقيانوس، و كان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت، فثبت اللّه هؤلاء الفتية و عصمهم حتى قاموا بين يديه فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و قال عطاء و مقاتل: إنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً أى: لن نعبد معبودا آخر غير اللّه لا اشتراكا و لا استقلالا لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً أى: قولا ذا شطط، أو قولا هو نفس الشطط لقصد المبالغة بالوصف بالمصدر و اللام هى الموطئة للقسم، و الشطط: الغلو و مجاوزة الحد. قال أعشى بنى قيس:

أ تنتهون و لن ينهى ذوى شططكالطعن يذهب فيه الزّيت و الفتل

هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً هؤلاء مبتدأ، و خبره اتخذوا، و قومنا عطف بيان، و فى هذا الإخبار معنى للإنكار، و فى الإشارة إليهم تحقير لهم لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ أى: هلا يأتون بحجّة ظاهرة تصلح للتمسّك بها فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فزعم أن له شريكا فى العبادة، أى: لا أحد أظلم منه وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ أى: فارقتموهم و تنحيتم عنهم جانبا، أى: عن العابدين للأصنام، و قوله: وَ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ معطوف على الضمير المنصوب، و «ما» موصولة أو مصدرية، أى: و إذ اعتزلتموهم و اعتزلتم معبودهم أو الذى يعبدونه، و قوله: إِلَّا اللَّهَ استثناء منقطع على تقدير أنهم لم يعبدوا إلا الأصنام، أو متّصل على تقدير أنهم أشركوها فى العبادة مع اللّه سبحانه، و قيل: هو دليل على جوابه، أى: إذ اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا، فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا، و إذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ أى: يبسط و يوسّع وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً أى: يسهّل و ييسّر لكم من أمركم الذى أنتم بصدده مِرْفَقاً المرفق بفتح الميم و كسرها لغتان قرئ بهما، مأخوذ من الارتفاق و هو الانتفاع؛ و قيل: فتح الميم أقيس، و كسرها أكثر. قال الفراء: و أكثر العرب على كسر الميم من الأمر، و من مرفق الإنسان، و قد تفتح العرب الميم فيهما، فهما لغتان، و كأن الذين فتحوا أرادوا أن يفرقوا بين المرفق من الأمر، و المرفق من الإنسان. و قال الكسائى: الكسر فى مرفق اليد، و قيل: المرفق بالكسر ما ارتفقت به، و المرفق: بالفتح الأمر الرافق، و المراد هنا ما

يرتفقون به و ينتفعون بحصوله، و التقديم فى الموضعين يفيد الاختصاص.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: الرقيم: الكتاب.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق العوفىّ عنه قال: الرقيم: واد دون فلسطين قريب من أيلة. و الراويان

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٣٢٥

عن ابن عباس ضعيفان. و أخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عنه أيضا قال: هو الجبل الذى فيه الكهف.

و أخرج ابن المنذر عنه، قال: و اللّه ما أدرى ما الرقيم الكتاب أم بنيان؟ و فى رواية عنه من طريق أخرى قال:

و سألت كعبا فقال: اسم القرية التى خرجوا منها. و أخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال: الرقيم: الكلب.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً يقول: الذى آتيتك من العلم و السنة و الكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف و الرقيم. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ يقول: أرقدناهم ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ من قوم الفتية، أهل الهدى، و أهل الضلالة أَحْصى‏ لِما لَبِثُوا، و ذلك أنهم كتبوا اليوم الذى خرجوا فيه و الشهر و السنة. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله: وَ زِدْناهُمْ هُدىً قال: إخلاصا. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

وَ رَبَطْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ قال: بالإيمان. و فى قوله: لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً قال: كذبا. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: جورا. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى فى قوله: وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ قال: كان قوم الفتية يعبدون اللّه و يعبدون معه آلهة شتى، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة و لم تعتزل عبادة اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآى قال: هى فى مصحف ابن مسعود، و ما يعبدون من دون اللّه، فهذا تفسيرها.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١٧ الى ٢٠]

وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ إِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً (١٧) وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ ذاتَ الشِّمالِ وَ كَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (١٨) وَ كَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى‏ طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لْيَتَلَطَّفْ وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً (٢٠)

قوله: وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ شرع سبحانه فى بيان حالهم، بعد ما أووا إلى الكهف تَزاوَرُ قرأ أهل الكوفة بحذف تاء التفاعل، و قرأ ابن عامر «تزوّر» قال الأخفش: لا يوضع الازورار فى هذا المعنى، إنما يقال هو مزوّر عنى، أى: منقبض. و قرأ الباقون بتشديد الزاى و إدغام تاء التفاعل فيه بعد تسكينها، و تزاور مأخوذ من الزّور بفتح الواو، و هو الميل، و منه زاره إذا مال إليه، و الزور: الميل، فمعنى الآية أن الشمس إذا طلعت تميل و تتنحّى عَنْ كَهْفِهِمْ قال الرّاجز الكليبى:

جدب المندّى عن هوانا أزور أى: مائل ذاتَ الْيَمِينِ أى: ناحية اليمين، و هى الجهة المسمّاة باليمين، و انتصاب ذات على الظرف،

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٣٢٦

وَ إِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ القرض: القطع. قال الكسائى و الأخفش و الزجاج و أبو عبيدة: تعدل عنهم و تتركهم، قرضت المكان:

عدلت عنه، تقول لصاحبك: هل وردت مكان كذا؟ فيقول: إنما قرضته:
إذا مرّ به و تجاوز عنه، و المعنى: أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين؛ أى: يمين الكهف، و إذا غربت تمرّ ذاتَ الشِّمالِ أى: شمال الكهف لا تصيبه. بل تعدل عن سمته إلى الجهتين، و الفجوة:
المكان المتسع، و جملة وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ فى محل نصب على الحال، و للمفسرين فى تفسير هذه الجملة قولان: الأوّل: أنهم مع كونهم فى مكان منفتح انفتاحا واسعا فى ظلّ جميع نهارهم، لا تصيبهم الشمس فى طلوعها و لا فى غروبها؛ لأن اللّه سبحانه حجبها عنهم. و الثانى: أنّ باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف، و إذا غربت كانت عن يساره، و يؤيّد القول الأوّل قوله: ذٰلِكَ مِنْ آياتِ اللّٰهِ فإنّ صرف الشمس عنهم مع توجّه الفجوة إلى مكان تصل إليه عادة أنسب بمعنى كونها آية، و يؤيده أيضا إطلاق الفجوة و عدم تقييدها بكونها إلى جهة كذا، و ممّا يدلّ على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر:
ألبست قومك مخزاة و منقصةحتى أبيحوا و حلّوا فجوة الدّار
ثم أثنى سبحانه عليه بقوله: مَنْ يَهْدِ اللّٰهُ أى: إلى الحق فَهُوَ الْمُهْتَدِ الذى ظفر بالهدى، و أصاب الرشد و الفلاح وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً أى: ناصرا يهديه إلى الحق كدقيانوس و أصحابه.
ثم حكى سبحانه طرفا آخر من غرائب أحوالهم، فقال: وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً جمع يقظ بكسر القاف و فتحها وَ هُمْ رُقُودٌ أى: نيام، و هو جمع راقد، كقعود فى قاعد. قيل: و سبب هذا الحسبان أن عيونهم كانت مفتحة و هم نيام. و قال الزجاج: لكثرة تقلّبهم وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ ذاتَ الشِّمالِ أى: نقلّبهم فى رقدتهم إلى الجهتين لئلا تأكل الأرض أجسادهم وَ كَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ حكاية حال ماضية؛ لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان بمعنى المضىّ كما تقرر فى علم النحو. قال أكثر المفسرين: هربوا من ملكهم ليلا، فمرّوا براع معه كلب فتبعهم. و الوصيد، قال أبو عبيد و أبو عبيدة: هو فناء الباب، و كذا قال المفسرون، و قيل:
العتبة، و ردّ بأن الكهف لا يكون له عتبة و لا باب، و إنما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً قال الزجّاج: فرارا منصوب على المصدرية بمعنى التولية، و الفرار: الهرب.
وَ لَمُلِئْتَ قرئ بتشديد اللام و تخفيفها مِنْهُمْ رُعْباً قرئ بسكون العين و ضمّها، أى: خوفا يملأ الصدر، و انتصاب رعبا على التمييز، أو على أنه مفعول ثان، و سبب الرّعب الهيبة التى ألبسهم اللّه إياها؛ و قيل:
طول أظفارهم و شعور هم و عظم أجرامهم و وحشة مكانهم، و يدفعه قوله تعالى: لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فإن ذلك يدلّ على أنهم لم ينكروا من حالهم شيئا، و لا وجدوا من أظفارهم و شعورهم ما يدلّ على طول المدّة وَ كَذٰلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ الإشارة إلى المذكور قبله، أى: و كما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات بعثناهم من نومهم، و فيه تذكير لقدرته على الإماتة و البعث جميعا، ثم ذكر الأمر الذى لأجله بعثهم فقال:
لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ أى: ليقع التساؤل بينهم و الاختلاف و التنازع فى مدة اللبث لما يترتب على ذلك من
فتح القدير، ج٣، ص: ٣٢٧
انكشاف الحال و ظهور القدرة الباهرة، و الاقتصار على علّة التساؤل لا ينفى غيرها، و إنما أفرده لاستتباعه لسائر الآثار، و جملة:
قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ مبينة لما قبلها من التساؤل، أى: كم مدّة لبثكم فى النوم؟
قالوا ذلك لأنهم رأوا فى أنفسهم غير ما يعهدونه فى العادة قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ أى: قال بعضهم جوابا عن سؤال من سأل منهم، قال المفسرون: إنهم دخلوا الكهف غدوة، و بعثهم اللّه سبحانه آخر النهار، فلذلك قالوا يوما، فلما رأوا الشمس قالوا: أو بعض يوم، و كان قد بقيت بقية من النهار، و قد مرّ مثل هذا الجواب فى قصة عزير فى البقرة: قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ أى: قال

البعض الآخر هذا القول، إما على طريق الاستدلال، أو كان ذلك إلهاما لهم من اللّه سبحانه، أى: إنكم لا تعلمون مدّة لبثكم، و إنما يعلمها اللّه سبحانه فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ أعرضوا عن التحاور فى مدّة اللبث، و أخذوا فى شىء آخر، كأنه قال القائل منهم: اتركوا ما أنتم فيه من المحاورة، و خذوا فى شىء آخر ممّا يهمّكم، و الفاء للسببية، و الورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة. و قرأ ابن كثير و نافع و ابن عامر و الكسائى و حفص عن عاصم بكسر الراء، و قرأ أبو عمرو و حمزة و أبو بكر عن عاصم بسكونها، و قرئ بكسر الراء و إدغام القاف فى الكاف، و قرأ ابن محيصن بكسر الواو و سكون الراء. و فى حملهم لهذه الورق معهم دليل على أن إمساك بعض ما يحتاج إليه الإنسان لا ينافى التوكل على اللّه، و المدينة دقسوس، و هى مدينتهم التى كانوا فيها، و يقال لها اليوم طرسوس، كذا قال الواحدى: فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً أى: ينظر أىّ أهلها أطيب طعاما، و أحلّ مكسبا، أو أرخص سعرا؛ و قيل: يجوز أن يعود الضمير إلى الأطعمة المدلول عليها فى المقام، كما يقال:

زيد طبت أبا على أن الأب هو زيد، و فيه بعد. و استدل بالآية على حلّ ذبائح أهل الكتاب؛ لأن عامة أهل المدينة كانوا كفارا، و فيهم قوم يخفون إيمانهم، و وجه الاستدلال أن الطعام يتناول اللحم كما يتناول غيره مما يطلق عليه اسم الطعام وَ لْيَتَلَطَّفْ أى: يدقّق النظر حتى لا يعرف أو لا يغبن، و الأوّل أولى، و يؤيّده وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً أى: لا يفعلنّ ما يؤدّى إلى الشعور و يتسبّب له، فهذا النهى يتضمّن التأكيد للأمر بالتلطف. ثم علّل ما سبق من الأمر و النهى فقال: إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ أى: يطلعوا عليكم و يعلموا بمكانكم، يعنى أهل المدينة يَرْجُمُوكُمْ يقتلوكم بالرجم، و هذه القتلة هى أخبث قتلة، و كان ذلك عادة لهم، و لهذا خصّه من بين أنواع ما يقع به القتل أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ أى: يردّوكم إلى ملتهم التى كنتم عليها قبل أن يهديكم اللّه، أو المراد بالعود هنا الصيرورة على تقدير أنهم لم يكونوا على ملّتهم، و إيثار كلمة فى على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً فى إذا معنى الشرط، كأنه قال:

إن رجعتم إلى دينهم فلن تفلحوا إذا أبدا، لا فى الدنيا و لا فى الآخرة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: تَزاوَرُ قال: تميل، و فى قوله: تَقْرِضُهُمْ قال: تذرهم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله:

تَقْرِضُهُمْ قال: تتركهم وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ قال: المكان الداخل. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير، قال: الفجوة: الخلوة من الأرض، و يعنى بالخلوة: الناحية من الأرض. و أخرج ابن أبى حاتم

فتح القدير، ج‏3، ص: 328

و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ نُقَلِّبُهُمْ الآية قال: ستة أشهر على ذى الجنب اليمين، و ستة أشهر على ذى الجنب الشمال. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن سعيد بن جبير فى الآية قال: كى لا تأكل الأرض لحومهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد: أن اسم كلبهم قطمور. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: اسمه قطمير. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: بِالْوَصِيدِ قال: بالفناء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: بالباب. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: أَزْكى طَعاماً قال: أحلّ ذبيحة، و كانوا يذبحون للطّواغيت. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أَزْكى طَعاماً: يعنى أطهر؛ لأنهم كانوا يذبحون للطّواغيت.

[سورة الكهف (18): الآيات 21 الى 26]

وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (21) سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ

رَجْماً بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظاهِراً وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (٢٢) وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فاعِلٌ ذلِكَ غَداً (٢٣) إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً (٢٤) وَ لَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً (٢٥)

قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَداً (٢٦)

قوله: وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ أى: و كما أنمناهم و بعثناهم، أعثرنا عليهم؛ أى أطلعنا الناس عليهم، و سمّى الإعلام إعثارا؛ لأنّ من كان غافلا عن شىء فعثر به نظر إليه و عرفه، فكان الإعثار سببا لحصول العلم لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أى: ليعلم الذين أعثرهم اللّه عليهم أن وعد اللّه بالبعث حق. قيل: و كان ملك ذلك العصر ممن ينكر البعث، فأراه اللّه هذه الآية. قيل: و سبب الإعثار عليهم أن ذلك الرجل الذى بعثوه بالورق، و كانت من ضربة «١» دقيانوس، إلى السوق، لما اطلع عليها أهل السوق اتهموه بأنه وجد كنزا، فذهبوا به إلى الملك، فقال له: من أين وجدت هذه الدراهم؟ قال: بعت بها أمس شيئا من التمر، فعرف الملك صدقه، ثم قصّ عليه القصة، فركب الملك و ركب أصحابه معه حتى و صلوا إلى الكهف وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها أى: و ليعلموا أن القيامة لا شكّ فى حصولها، فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد اللّه به من البعث إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ الظرف متعلق بأعثرنا، أى: أعثرنا عليهم وقت التّنازع و الاختلاف بين أولئك الذين أعثرهم اللّه فى أمر البعث؛ و قيل: فى أمر أصحاب الكهف فى

---

(١). ضرب الدرهم: سكّه و طبعه.

قدر مكثهم، و فى عددهم، و فيما يفعلونه بعد أن اطلعوا عليهم فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً لئلا يتطرّق الناس إليهم، و ذلك أن الملك و أصحابه لما وقفوا عليهم و هم أحياء أمات اللّه الفتية، فقال بعضهم: ابنوا عليهم بنيانا يسترهم عن أعين الناس، ثم قال سبحانه حاكيا لقول المتنازعين فيهم و فى عددهم، و فى مدّة لبثهم، و فى نحو ذلك ممّا يتعلق بهم رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ من هؤلاء المتنازعين فيهم، قالوا ذلك تفويضا للعلم إلى اللّه سبحانه، و قيل: هو من كلام اللّه سبحانه، ردّا لقول المتنازعين فيهم؛ أى: دعوا ما أنتم فيه من التنازع، فإنى أعلم بهم منكم؛ و قيل: إن الظرف فى إِذْ يَتَنازَعُونَ متعلّق بمحذوف هو اذكر، و يؤيده أن الإعثار ليس فى زمن التنازع بل قبله، و يمكن أن يقال: إن أولئك القوم ما زالوا متنازعين فيما بينهم قرنا بعد قرن، منذ أووا إلى الكهف إلى وقت الإعثار، و يؤيد ذلك أن خبرهم كان مكتوبا على باب الغار، كتبه بعض المعاصرون لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون إيمانهم كما قاله المفسرون: قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ذكر اتخاذ المسجد يشعر بأن هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم هم المسلمون، و قيل: هم أهل السلطان و الملك من القوم المذكورين فإنهم الذين يغلبون على أمر من عداهم، و الأوّل أولى. قال الزجاج:

هذا يدلّ على أنه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث و النشور؛ لأن المساجد للمؤمنين سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ هؤلاء القائلون بأنهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة، هم المتنازعون فى عددهم فى زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من أهل الكتاب و المسلمين، و قيل: هم أهل الكتاب خاصة، و على كلّ تقدير فليس المراد أنهم جميعا قالوا جميع ذلك، بل قال بعضهم بكذا، و بعضهم بكذا، و بعضهم بكذا ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ أى: هم ثلاثة أشخاص، و جملة رابعهم كلبهم فى محل نصب على الحال، أى: حال كون كلبهم جاعلهم أربعة بانضمامه إليهم وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ الكلام فيه كالكلام فيما قبله، و انتصاب رَجْماً بِالْغَيْبِ على الحال، أى: راجمين أو على المصدر، أى: يرجمون رجما، و الرجم بالغيب: هو القول بالظن و الحدس من غير يقين،

و الموصوفون بالرجم بالغيب هم كلا الفريقين القائلين بأنهم ثلاثة، و القائلين بأنهم خمسة وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ كأن قول هذه الفرقة أقرب إلى الصواب بدلالة عدم إدخالهم فى سلك الراجمين بالغيب. قيل: و إظهار الواو فى هذه الجملة يدلّ على أنها مرادة فى الجملتين الأوليين. قال أبو علىّ الفارسى قوله: رابعهم كلبهم، و سادسهم كلبهم، جملتان استغنى عن حرف العطف فيهما بما تضمنتا من ذكر الجملة الأولى و هى قوله ثلاثة، و التقدير: هم ثلاثة، هكذا حكاه الواحدى عن أبى علىّ، ثم قال: و هذا معنى قول الزجاج فى دخول الواو فى و ثامنهم و إخراجها من الأوّل، و قيل: هى مزيدة للتوكيد، و قيل: إنها واو الثمانية، و إن ذكره متداول على ألسن العرب إذا و صلوا إلى الثمانية كما فى قوله تعالى: وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها و قوله: ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً. ثم أمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يخبر المختلفين فى عددهم بما يقطع التنازع بينهم فقال:

قُلْ رَبِّی أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ منكم أيها المختلفون، ثم أثبت علم ذلك لقليل من الناس فقال: ما يَعْلَمُهُمْ أى: يعلم ذواتهم فضلا عن عددهم، أو ما يعلم عددهم على حذف المضاف إِلَّا قَلِيلٌ من الناس، ثم نهى اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم عن الجدال مع أهل الكتاب فى شأن أصحاب الكهف فقال: فَلا تُمارِ

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۳۰

فِيهِمْ المراء فى اللغة الجدال: يقال مارى يمارى مماراة و مراء، أى: جادل، ثم استثنى سبحانه من المراء ما كان ظاهرا واضحا فقال: إِلَّا مِراءً ظاهِراً أى: غير متعمق فيه و هو أن يقصّ عليهم ما أوحى اللّه إليه فحسب. و قال الرازى: هو أن لا يكذبهم فى تعيين ذلك العدد، بل يقول هذا التعيين لا دليل عليه، فوجب التوقف، ثم نهاه سبحانه عن الاستفتاء فى شأنهم فقال: وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً أى:

لا تستفت فى شأنهم من الخائضين فيهم أحدا منهم، لأن المفتى يجب أن يكون أعلم من المستفتى، و هاهنا الأمر بالعكس، و لا سيما فى واقعة أهل الكهف، و فيما قصّ اللّه عليك فى ذلك ما يغنيك عن سؤال من لا علم له وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّی فاعِلٌ ذلِكَ غَداً أى: لأجل شىء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان، فعبّر عنه بالغد، و لم يرد الغد بعينه، فيدخل فيه الغد دخولا أوّليا. قال الواحدى: قال المفسرون لما سألت اليهود النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن خبر الفتية فقال: أخبركم غدا، و لم يقل إن شاء اللّه، فاحتبس الوحى عنه حتى شقّ عليه، فأنزل اللّه هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة اللّه يقول: إذا قلت لشىء إنى فاعل ذلك غدا، فقل إن شاء اللّه. و قال الأخفش و المبرد و الكسائى و الفراء: لا تقولنّ لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن تقول إن شاء اللّه، فأضمر القول و لما حذف تقول نقل شاء إلى لفظ الاستقبال، قيل: و هذا الاستثناء مفرّغ، أى: لا تقولنّ ذلك فى حال من الأحوال، إلا حال ملابسته لمشيئة اللّه و هو أن تقول إن شاء اللّه، أو فى وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء اللّه أن تقوله مطلقا؛ و قيل: الاستثناء جار مجرى التأبيد، كأنه قيل: لا تقولنه أبدا كقوله: وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ «۱» لأن عودهم فى ملّتهم ممّا لا يشاؤه اللّه وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ الاستثناء بمشيئة اللّه؛ أى: فقل إن شاء اللّه، سواء كانت المدّة قليلة أو كثيرة.

و قد اختلف أهل العلم فى المدّة التى يجوز إلحاق الاستثناء فيها بعد المستثنى منه على أقوال معروفة فى مواضعها، و قيل: المعنى وَ اذْكُرْ رَبَّكَ بالاستغفار إِذا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّی لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً المشار إليه بقوله من هذا هو نبأ أصحاب الكهف، أى: قل يا محمد عسى أن يوفّقنى ربى لشىء أقرب من هذا النبأ من الآيات و الدلائل الدالة على نبوّتى. قال الزجاج: عسى أن يعطينى ربى من الآيات و الدلالات على النبوة ما يكون أقرب فى الرشد، و أدلّ من قصة أصحاب الكهف، و قد فعل اللّه به ذلك حيث آتاه من علم غيوب المرسلين و خبرهم ما كان أوضح فى الحجّة، و أقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف؛ و قيل: الإشارة إلى قوله: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ أى: عسى أن يهدينى ربى عند هذا النسيان لشىء آخر بدل هذا المنسىّ، و أقرب منه رشدا و أدنى منه خيرا و منفعة، و الأوّل أولى وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً قرأ

الجمهور بتنوين مائة و نصب سنين، فيكون سنين على هذه القراءة بدلا أو عطف بيان. و قال الفرّاء و أبو عبيدة و الزجاج و الكسائى: فيه تقديم و تأخير، و التقدير سنين ثلاثمائة. و رجح الأوّل أبو علىّ الفارسى. و قرأ حمزة و الكسائى بإضافة مائة إلى سنين، و على هذه القراءة تكون سنين تمييزا على وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز، كقوله تعالى: بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا «٢». قال الفراء: و من العرب من يضع

---

(١). الأعراف: ٨٩.

(٢). الكهف: ١٠٣.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٣٣١

سنين موضع سنة. قال أبو على الفارسى: هذه الأعداد التى تضاف فى المشهور إلى الآحاد نحو ثلاثمائة رجل و ثوب قد تضاف إلى المجموع، و فى مصحف عبد اللّه «ثلاثمائة سنة». و قال الأخفش: لا تكاد العرب تقول مائة سنين. و قرأ الضحّاك «ثلاثمائة سنون» بالواو. و قرأ الجمهور «تسعا» بكسر التاء. و قرأ أبو عمرو بفتحها، و هذا إخبار من اللّه سبحانه بمدّة لبثهم. قال ابن جرير: إن بنى إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدّة بعد الإعثار عليهم، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة و تسع سنين، فأخبر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن هذه المدّة فى كونهم نياما، و أن ما بعد ذلك مجهول للبشر، فأمر اللّه أن يردّ علم ذلك إليه، فقال: قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا قال ابن عطية: فقوله على هذا لبثوا الأوّل يريد فى يوم الكهف، و لبثوا الثانى يريد بعد الإعثار عليهم إلى مدة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، أو إلى أن ماتوا. و قال بعضهم: إنه لما قال: وَ ازْدَادُوا تِسْعاً لم يدر الناس أهى ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام، و اختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمر اللّه بردّ العلم إليه فى التسع، فهى على هذا مبهمة. و الأوّل أولى، لأن الظاهر من كلام العرب المفهوم بحسب لغتهم أن التسع أعوام، بدليل أن العدد فى هذه الكلام للسنين لا للشهور و لا للأيام و لا للساعات. و عن الزجاج أن المراد ثلاثمائة سنة شمسية و ثلاثمائة و تسع سنين قمرية، و هذا إنما يكون من الزّجّاج على جهة التقريب. ثم أكد سبحانه اختصاصه بعلم ما لبثوا بقوله: لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: ما خفى فيهما و غاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شى‏ء، ثم زاد فى المبالغة و التأكيد فجاء بما يدلّ على التعجب من إدراكه للمبصرات و المسموعات، فقال: أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ فأفاد هذا التعجّب على أن شأنه سبحانه فى علمه بالمبصرات و المسموعات خارج عمّا عليه إدراك المدركين، و أنه يستوى فى علمه الغائب و الحاضر، و الخفىّ و الظاهر، و الصغير و الكبير، و اللطيف و الكثيف، و كأن أصله ما أبصره و ما أسمعه، ثم نقل إلى صيغة الأمر للإنشاء، و الباء زائدة عند سيبويه و خالفه الأخفش، و البحث مقرّر فى علم النحو ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍ الضمير لأهل السموات و الأرض، و قيل: لأهل الكهف، و قيل: لمعاصرى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم من الكفار، أى: ما لهم من موال يواليهم أو يتولى أمورهم أو ينصرهم، و فى هذا بيان لغاية قدرته و أن الكل تحت قهره وَ لا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً قرأ الجمهور برفع الكاف فى يشرك على الخبر عن اللّه سبحانه. و قرأ ابن عباس و الحسن و أبو رجاء و قتادة بالتاء الفوقية و إسكان الكاف على أنه نهى للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجعل اللّه شريكا فى حكمه، و رويت هذه القراءة عن ابن عامر. و قرأ مجاهد بالتحتية و الجزم. قال يعقوب: لا أعرف وجهها، و المراد بحكم اللّه: ما يقضيه، أو علم الغيب. و الأوّل أولى. و يدخل علم الغيب فى ذلك دخولا أوّليا، فإن علمه سبحانه من جملة قضائه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ قال: أطلعنا. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى‏ أَمْرِهِمْ قال: الأمراء، أو قال: السلاطين. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ قال: اليهود وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ قال: النصارى. و أخرج عبد

الرزاق و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: رَجْماً بِالْغَيْبِ قال:

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۳۲

قذفا بالظنّ. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ قال: أنا من القليل، كانوا سبعة. و أخرج الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس، قال السيوطى: بسند صحيح، فى قوله: ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ قال: أنا من أولئك القليل، كانوا سبعة، ثم ذكر أسماءهم. و حكاه ابن كثير عن ابن عباس فى رواية قتادة و عطاء و عكرمة، ثم قال: فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَلا تُمارِ فِيهِمْ يقول: حسبك ما قصصت عليك. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً قال: اليهود. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ الآية قال: إذا نسيت أن تقول لشىء إنى أفعله فنسيت أن تقول إن شاء اللّه، فقل إذا ذكرت إن شاء اللّه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه عنه: أنه كان يرى الاستثناء و لو بعد سنة، ثم قرأ: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: هى خاصّة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و ليس لأحد أن يستثنى إلا فى صلة يمين. و أخرج سعيد بن منصور عن ابن عمر قال: كل استثناء موصول فلا حنث على صاحبه، و إذا كان غير موصول فهو حانث. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «قال سليمان بن داود: لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة، و فى رواية: تسعين، تلد كل امرأة منهنّ غلاما يقاتل فى سبيل اللّه، فقال له الملك: قل إن شاء اللّه، فلم يقل، فطاف فلم يلد منهنّ إلا امرأة واحدة نصف إنسان، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: و الذى نفسى بيده لو قال إن شاء اللّه لم يحنث، و كان دركا لحاجته». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الشعب عن عكرمة إِذا نَسِيتَ قال: إذا غضبت. و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات عن الحسن إِذا نَسِيتَ قال: إذا لم تقل إن شاء اللّه.

و أخرج ابن أبى حاتم ابن مردويه عن ابن عباس قال: إن الرجل ليفسر الآية يرى أنها كذلك فيهوى أبعد ما بين السماء و الأرض، ثم تلا وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ الآية، ثم قال: كم لبث القوم؟ قالوا: ثلاثمائة و تسع سنين، قال: لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل اللّه قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا و لكنه حكى مقالة القوم فقال:

سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ إلى قوله: رَجْماً بِالْغَيْبِ فأخبر أنهم لا يعلمون، ثم قال: سيقولون: وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى حرف ابن مسعود، و قالوا: وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ الآية: يعنى إنما قاله الناس ألا ترى أنه قال: قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا. و أخرج ابن مردويه عن الضحاك عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ قيل: يا رسول اللّه؛ أياما أم أشهرا أم سنين؟ فأنزل اللّه سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً.

و أخرجه ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الضحّاك بدون ذكر ابن عباس. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ قال: اللّه يقوله.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۳۳

[سورة الكهف (۱۸): الآيات ۲۷ الى ۳۱]

وَ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (۲۷) وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ

أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨) وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ إِنّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُولئِكَ لَهُمْ جَنّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (٣١)

قوله: وَ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ أمره اللّه سبحانه أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى إليه، قيل:

و يحتمل أن يكون معنى قوله: وَ اتْلُ و اتبع، أمرا من التلوّ، لا من التلاوة، و مِنْ كِتابِ رَبِّكَ بيان للذى أوحى إليه لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ أى: لا قادر على تبديلها و تغييرها، و إنما يقدر على ذلك هو وحده. قال الزجّاج: أى: ما أخبر اللّه به و ما أمر به فلا مبدّل له، و على هذا يكون التقدير: لا مبدّل لحكم كلماته وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً الملتحد: الملتجأ، و أصل اللحد: الميل. قال الزجاج: لن تجد معدلا عن أمره و نهيه، و المعنى: أنك إن لم تتبع القرآن و تتله، و تعمل بأحكامه لن تجد معدلا تعدل إليه و مكانا تميل إليه، و هذه الآية آخر قصة أهل الكهف. ثم شرع سبحانه فى نوع آخر، كما هو دأب الكتاب العزيز، فقال: وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ قد تقدّم فى الأنعام نهيه صلّى اللّه عليه و سلّم عن طرد فقراء المؤمنين بقوله:

وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ «١» و أمره سبحانه هاهنا بأن يحبس نفسه معهم، فصبر النفس هو حبسها، و ذكر الغداة و العشى كناية عن الاستمرار على الدعاء فى جميع الأوقات. و قيل: فى طرفى النهار، و قيل: المراد صلاة العصر و الفجر. و قرأ نصر بن عاصم و مالك بن دينار و أبو عبد الرحمن و ابن عامر «بالغدوة» بالواو، و احتجّوا بأنها فى المصحف كذلك مكتوبة بالواو. قال النحّاس: و هذا لا يلزم لكتبهم الحياة و الصلاة بالواو، و لا تكاد العرب تقول الغدوة، و معنى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ أنهم يريدون بدعائهم رضا اللّه سبحانه، و الجملة فى محل نصب على الحال، ثم أمره سبحانه بالمراقبة لأحوالهم، فقال: وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ أى: لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم. قال الفرّاء: معناه لا تصرف عيناك عنهم، و قال الزجّاج: لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوى الهيئات و الزينة، و استعماله ب «عن» لتضمّنه معنى النبوّ، من عدوته عن الأمر، أى: صرفته منه، و قيل: معناه لا تحتقرهم عيناك تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا أى: مجالسة أهل الشرف و الغنى، و الجملة فى محل نصب على الحال، أى: حال كونك مريدا لذلك، هذا إذا كان فاعل تريد هو النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و إن كان الفاعل ضميرا يعود إلى العينين، فالتقدير: مريدة زينة الحياة الدنيا، و إسناد الإرادة إلى العينين مجاز، و توحيد

---

(١). الأنعام: ٥٢.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٣٤

الضمير للتلازم كقول الشاعر:

لمن زحلوقة زلّ بها العينان تنهلّ

وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا أى: جعلناه غافلا بالختم عليه، نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن طاعة من جعل اللّه قلبه غافلا عن ذكره، كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحّى الفقراء عن مجلسه، فإنهم طالبو تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة و العشىّ يريدون وجهه و هم غافلون عن ذكر اللّه، و مع هذا فهم ممّن اتبع هواه، و آثره على الحق، فاختار الشرك على التوحيد وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً أى: متجاوزا عن حدّ الاعتدال، من قولهم: فرس فرط إذا كان متقدما للخيل، فهو على هذا من الإفراط، و قيل: هو من التفريط، و هو التقصير و التضييع. قال الزجّاج: و من قدم العجز فى أمره أضاعه و أهلكه، ثم بين سبحانه لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم ما يقوله لأولئك الغافلين، فقال: وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ أى: قل لهم: إن ما أوحى إليك، و أمرت بتلاوته، هو الحق الكائن

من جهة اللّه، لا من جهة غيره حتى يمكن فيه التبديل و التغيير؛ و قيل: المراد بالحق الصبر مع الفقراء.
قال الزجّاج: أى: الذى أتيتكم به الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ يعنى لم آتكم به من قبل نفسى إنما أتيتكم به من اللّه فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ قيل: هو من تمام القول الذى أمر رسوله أن يقوله، و الفاء لترتيب ما قبلها على ما بعدها، و يجوز أن يكون من كلام اللّه سبحانه لا- من القول الذى أمر به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و فيه تهديد شديد، و يكون المعنى: قل لهم يا محمد الحقّ من ربكم، و بعد أن تقول لهم هذا القول؛ من شاء أن يؤمن باللّه و يصدقك فليؤمن، و من شاء أن يكفر به و يكذّبك فليكفر. ثم أكّد الوعيد و شدّده فقال: إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ أى: أعددنا و هيأنا للظالمين الذين اختاروا الكفر باللّه و الجحد له و الإنكار لأنبيائه نارا عظيمة أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها أى: اشتمل عليهم. و السرادق: واحد السرادقات. قال الجوهرى: و هى التى تمدّ فوق صحن الدار، و كل بيت من كرسف «١» فهو سرادق، و منه قول رؤبة:
يا حكم بن المنذر بن الجارودسرادق المجد عليك ممدود
و قال الشاعر:
هو المدخل النّعمان بيتا سماؤهصدور الفيول بعد بيت مسردق
يقوله سلامة بن جندل لما قتل ملك الفرس ملك العرب النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة. و قال ابن الأعرابى: سرادقها: سورها. و قال القتبى: السرادق: الحجرة التى تكون حول الفسطاط. و المعنى: أنه أحاط بالكفار سرادق النار على تشبيه ما يحيط بهم من النار بالسرادق المحيط بمن فيه وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا من حرّ النار يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ و هو الحديد المذاب. قال الزجّاج: إنهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب أو الصفر، و قيل: هو درديّ الزيت. و قال أبو عبيدة و الأخفش: هو كلّ ما أذيب من جواهر الأرض من

---

(١). «الكرسف»: القطن.

حديد و رصاص و نحاس. و قيل: هو ضرب من القطران. ثم وصف هذا الماء الذى يغاثون به بأنه يَشْوِي الْوُجُوهَ إذا قدّم إليهم صارت وجوههم مشوية لحرارته بِئْسَ الشَّرابُ شرابهم هذا وَ ساءَتْ النار مُرْتَفَقاً متكأ، يقال ارتفقت: أى: اتكأت، و أصل الارتفاق نصب المرفق، و يقال:
ارتفق الرجل: إذا نام على مرفقه، و قال القتبى: هو المجلس، و قيل: المجتمع. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ هذا شروع فى وعد المؤمنين بعد الفراغ من وعيد الكافرين. و المعنى: إن الذين آمنوا بالحق الذى أوحى إليك و عملوا الصالحات من الأعمال إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا هذا خبر إن الذين آمنوا، و العائد محذوف، أى: من أحسن منهم عملا، و جملة أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ استئناف لبيان الأجر، و الإشارة إلى من تقدّم ذكره، و قيل: يجوز أن يكون أولئك خبر إن الذين آمنوا، و تكون جملة إِنَّا لا نُضِيعُ اعتراضا، و يجوز أن يكون أولئك خبرا بعد خبر، و قد تقدّم الكلام فى جنات عدن، و فى كيفية جرى الأنهار من تحتها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ قال الزجّاج: أساور جمع أسورة، و أسورة جمع سوار، و هى زينة تلبس فى الزند من اليد، و هى من زينة الملوك، قيل: يحلّى كل واحد منهم ثلاثة أساور؛ واحد من فضة واحد من لؤلؤ واحد من ذهب، و ظاهر الآية أنها جميعها من ذهب، و يمكن أن يكون قول القائل هذا جمعا بين الآيات لقوله سبحانه فى آية أخرى: أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ «١»، و لقوله فى آية أخرى وَ لُؤْلُؤاً «٢» و من فى قوله من أساور للابتداء، و فى من ذهب للبيان. و حكى الفراء يحلّون بفتح الياء و سكون الحاء و فتح اللام، يقال: حليت المرأة تحلّى، فهى حالية إذا لبست الحلىّ وَ يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ قال

الکسائی: السندس الرقیق واحده سندسة، و الإستبرق: ما ثخن، و کذا قال المفسرون، و قیل: الإستبرق هو الدیباج؛ کما قال الشاعر:

....

و إستبرق الدیباج طورا لباسها «۳» و قیل: هو المنسوج بالذهب. قال القتبی: هو فارسیّ معرّب. قال الجوهری: و تصغیره أبیرق، و خصّ الأخضر لأنه الموافق للبصر، و لکونه أحسن الألوان مُتَّکِئِینَ فِیها عَلَی الْأَرائِکِ قال الزجّاج: الأرائک:

جمع أریکة، و هی السرر فی الحجال، و قیل: هی أسرة من ذهب مکلّلة بالدرّ و الیاقوت، و أصل اتکأ اوتکأ، و أصل متکئین موتکئین، و الاتکاء: التحامل علی الشیء نِعْمَ الثَّوابُ ذلک الذی أثابهم اللّه.

وَ حَسُنَتْ تلک الأرائک مُرْتَفَقاً أی: متکأ، و قد تقدّم قریبا.

و قد أخرج ابن أبی شیبة و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: مُلْتَحَداً قال: ملتجأ. و أخرج ابن مردویه، و أبو نعیم فی الحلیة، و البیهقی فی الشعب، عن سلمان قال: جاءت المؤلفة قلوبهم: عیینة بن بدر، و الأقرع بن حابس، فقالوا: یا رسول اللّه لو جلست فی صدر المجلس، و تغیبت عن هؤلاء و أرواح جبابهم، یعنون سلمان و أبا ذر و فقراء المسلمین و کانت علیهم جباب الصوف، جالسناک و حادثناک و أخذنا

---

(۱). الإنسان: ۲۱.

(۲). الحج: ۲۳، و فاطر: ۳۳.

(۳). و صدره: تراهنّ یلبسن المشاعر مرّة.

عنک، فأنزل اللّه وَ اتْلُ ما أُوحِیَ إِلَیْکَ إلی قوله: إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِینَ ناراً زاد أبو الشیخ عن سلمان: أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قام یلتمسهم، حتی أصابهم فی مؤخر المسجد یذکرون اللّه تعالی فقال: «الحمد للّه الذی لم یمتنی حتی أمرنی أن أصبر نفسی مع رجال من أمتی، معکم المحیا و الممات». و أخرج ابن جریر و الطبرانی و ابن مردویه عن عبد الرحمن بن سهل بن حنیف قال: نزلت علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و هو فی بعض أبیاته وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِیِ فخرج یلتمسهم فوجد قوما یذکرون اللّه منهم ثائر الرأس و جاف الجلد و ذو الثوب الخلق، فلما رآهم جلس معهم و قال: «الحمد للّه الذی جعل فی أمتی من أمرنی أن أصبر نفسی معهم».

و أخرج البزار عن أبی سعید و أبی هریرة قالا: «جاء رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و رجل یقرأ سورة الحجر أو سورة الکهف فسکت، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: هذا المجلس الذی أمرت أن أصبر نفسی معهم» و فی الباب روایات. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن نافع قال: أخبرنی عبد اللّه بن عمر فی هذه الآیة وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ أنهم الذین یشهدون الصلوات الخمس. و أخرج ابن أبی شیبة و ابن المنذر عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن أبی حاتم و ابن مردویه من طریق عمرو بن شعیب عن أبیه عن جدّه فی قوله: وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ الآیة قال: نزلت فی صلاة الصبح و صلاة العصر. و أخرج ابن مردویه من طریق جویبر عن الضحاک عن ابن عباس فی قوله: وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِکْرِنا قال: نزلت فی أمیة بن خلف، و ذلک أنه دعا النبی صلّی اللّه علیه و سلّم إلی أمر کرهه اللّه من طرد الفقراء عنه و تقریب صنادید أهل مکة، فأنزل اللّه هذه الآیة، یعنی من ختمنا علی قلبه یعنی التوحید وَ اتَّبَعَ هَواهُ یعنی الشرک وَ کانَ أَمْرُهُ فُرُطاً یعنی فرطا فی أمر اللّه و جهالة باللّه. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن بریدة قال: دخل عیینة بن حصن علی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فی یوم

حارّ، و عنده سلمان عليه جبة صوف، فثار منه ريح العرق فى الصوف، فقال عيينة: يا محمد إذا نحن أتيناك فأخرج هذا و ضرباءه من عندك لا يؤذونا، فإذا خرجنا فأنت و هم أعلم، فأنزل اللّه وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ الآية. و قد ثبت فى صحيح مسلم فى سبب نزول الآية المتضمنة لمعنى هذه الآية، و هى قوله تعالى: وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِ «1» عن سعد بن أبى وقاص قال:

كنّا مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ستة نفر، فقال المشركون للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: اطرد هؤلاء لا يجترءون علينا، قال: و كنت أنا و ابن مسعود و رجل من هذيل و بلال و رجلان نسيت اسمهما، فوقع فى نفس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما شاء اللّه أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل اللّه وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ الآية.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً قال: ضياعا.

و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة وَ قُلِ الْحَقُّ قال: هو القرآن. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ

---

(1). الأنعام: 52.

يقول: من شاء اللّه له الإيمان آمن، و من شاء له الكفر كفر، و هو قوله: وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ «1». و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: فى الآية هذه تهديد و وعيد. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها قال: حائط من نار. و أخرج أحمد و الترمذى و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و أبو يعلى و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لسرادق النار أربعة جدر، كثافة كلّ جدار منها مسيرة أربعين سنة». و أخرج أحمد و البخارى و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن يعلى بن أمية قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن البحر هو من جهنم، ثم تلا ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها». و أخرج أحمد و الترمذى و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: بِماءٍ كَالْمُهْلِ قال: «كعكر الزيت، فإذا قرّب إليه سقطت فروة وجهه فيه».

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كَالْمُهْلِ قال: أسود كعكر الزيت.

و أخرج ابن أبى شيبة و هناد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عطية قال: سئل ابن عباس عن المهل فقال: ماء غليظ كدرديّ الزيت. و أخرج هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن ابن مسعود أنه سئل عن المهل، فدعا بذهب و فضة فأذابه، فلما ذاب قال: هذا أشبه شىء بالمهل الذى هو شراب أهل النار و لونه لون السماء، غير أن شراب أهل النار أشدّ حرا من هذا. و أخرج ابن جرير عن ابن عمر قال: هل تدرون ما المهل؟ مهل الزيت، يعنى آخره «2».

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً قال: مجتمعا. و أخرج البخارى و مسلم عن أبى هريرة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء». و أخرج البيهقى عن أبى الخير مرثد بن عبد اللّه قال: فى الجنة شجرة تنبت السندس منه يكون ثياب أهل الجنة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير عن عكرمة قال: الإستبرق: الديباج الغليظ. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم عن مجاهد مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن الهيثم بن مالك الطائى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّ الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحوّل منه و لا يمله، يأتيه ما اشتهت نفسه و لذّت عينه». و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الأرائك: السرر

فى جوف الحجال، عليها الفرش منضود فى السماء فرسخ. و أخرج البيهقى فى البعث عنه قال: لا تكون أريكة حتى يكون السرير فى الحجلة «۳». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن عكرمة أنه سئل عن الأرائك فقال: هى الحجال على السرر.

---

(۱). التكوير: ۲۹.

(۲). أى: الزيت العكر.

(۳). الحجلة: ساتر كالقبة يتخذ للعروس، يزين بالثياب و الستور (ج: حجل، حجال)

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۳۸

[سورة الكهف (۱۸): الآيات ۳۲ الى ۴۴]

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً (۳۲) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (۳۳) وَ كانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَ أَعَزُّ نَفَراً (۳۴) وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (۳۵) وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً (۳۶)

قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (۳۷) لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَداً (۳۸) وَ لَوْ لا- إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَ وَلَداً (۳۹) فَعَسى رَبِّى أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَ يُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (۴۰) أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (۴۱) وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَ هِىَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَداً (۴۲) وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مُنْتَصِراً (۴۳) هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْباً (۴۴)

قوله: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ هذا المثل ضربه اللّه سبحانه لمن يتعزّز بالدنيا و يستنكف عن مجالسة الفقراء فهو على هذا متصل بقوله: وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ

و قد اختلف فى الرجلين هل هما مقدّران أو محقّقان؟ فقال بالأوّل بعض المفسرين. و قال بالآخر بعض آخر. و اختلفوا فى تعيينهما؛ فقيل: هما أخوان من بنى إسرائيل؛ و قيل: هما أخوان مخزوميان من أهل مكة؛ أحدهما مؤمن، و الآخر كافر؛ و قيل: هما المذكوران فى سورة الصافات فى قوله: قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّى كانَ لِى قَرِينٌ «۱» و انتصاب مثلا- و رجلين على أنهما مفعولا اضرب، قيل و الأوّل هو الثانى و الثانى هو الأوّل جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ هو الكافر، و مِنْ أَعْنابٍ بيان لما فى الجنتين، أى: من كروم متنوعة وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ الحفّ: الإحاطة، و منه: حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ «۲» و يقال: حف القوم بفلان يحفّون حفّا، أى: أطافوا به، فمعنى الآية: و جعلنا النخل مطيفا بالجنتين من جميع جوانبهما وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً أى: بين الجنتين، و هو وسطهما، ليكون كل واحد منهما جامعا للأقوات و الفواكه، ثم أخبر سبحانه عن الجنتين بأن كلّ واحدة منهما كانت تؤدّى حملها و ما فيها، فقال: كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها أخبر عن كلتا بآتت، لأن لفظه مفرد، فراعى جانب اللفظ. و قد ذهب البصريون إلى أن كلتا و كلا- اسم مفرد غير مثنى. و قال الفراء: هو مثنى، و هو مأخوذ من كلّ فخفّفت اللام و زيدت الألف للتثنية. و قال سيبويه: ألف كلتا للتأنيث، و التاء بدل من لام الفعل، و هى واو، و الأصل كلو، و قال أبو عمرو: التاء ملحقة. و أكلهما: هو ثمرهما، و فيه دلالة على أنه قد صار صالحا للأكل. و قرأ عبد اللّه بن مسعود «كلّ الجنتين آتى أكله» وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً أى: لم تنقص من أكلها شيئا، يقال: ظلمه حقّه، أى: نقصه، و وصف الجنتين بهذه الصفة للإشعار بأنهما على خلاف ما يعتاد فى سائر البساتين فإنها فى

الغالب تكثر فى عام، و تقلّ

---

(١). الصافات: ٥١.

(٢). الزمر: ٧۵.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٣٩

فى عام وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً أى: أجرينا و شققنا وسط الجنتين نهرا ليسقيهما دائما من غير انقطاع، و قرئ «فجرنا» بالتشديد للمبالغة، و بالتخفيف على الأصل وَ كانَ لَهُ أى: لصاحب الجنتين ثَمَرٌ قرأ أبو جعفر و شيبة و عاصم و يعقوب و ابن أبى إسحاق «ثمر» بفتح الثاء و الميم، و كذلك قرءوا فى قوله: أُحِيطَ بِثَمَرِهِ و قرأ أبو عمرو بضم الثاء و إسكان الميم فيهما، و قرأ الباقون بضمهما جميعا فى الموضعين. قال الجوهرى: الثمرة واحدة الثمر، و جمع الثمر ثمار؛ مثل جبل و جبال. قال الفراء: و جمع الثمار ثمر، مثل كتاب و كتب، و جمع الثمر أثمار، مثل عنق و أعناق، و قيل: الثمر جميع المال من الذهب و الفضة و الحيوان و غير ذلك. و قيل: هو الذهب و الفضة خالصة فَقالَ لِصاحِبِهِ أى: قال صاحب الجنتين الكافر لصاحبه المؤمن وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أى: و الكافر يحاور المؤمن، و المعنى: يراجعه الكلام و يجاوبه، و المحاورة:

المراجعة، و التحاور: التجاوب أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً النفر: الرهط، و هو ما دون العشرة، و أراد هاهنا الأتباع و الخدم و الأولاد وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ أى دخل الكافر جنة نفسه. قال المفسرون: أخذ بيد أخيه المسلم، فأدخله جنته يطوف به فيها، و يريه عجائبها، و إفراد الجنة هنا يحتمل أن وجهه كونه لم يدخل أخاه إلا واحدة منهما، أو لكونهما لما اتصلا كانا كواحدة، أو لأنه أدخله فى واحدة، ثم واحدة أو لعدم تعلّق الغرض بذكرهما، و ما أبعد ما قاله صاحب الكشاف أنه وحد الجنة للدلالة على أنه لا نصيب له فى الجنة التى وعد المؤمنون، و جملة وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ فى محل نصب على الحال، أى: و ذلك الكافر ظالم لنفسه بكفره و عجبه قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً أى: قال الكافر لفرط غفلته و طول أمله: ما أظن أن تفنى هذه الجنة التى تشاهدها وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته. قال الزجاج: أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا و قيام الساعة وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً اللام هى الموطئة للقسم، و المعنى: أنه إن يردّ إلى ربه فرضا و تقديرا كما زعم صاحبه، و اللام فى «لأجدن» جواب القسم، و الشرط، أى: لأجدنّ يومئذ خيرا من هذه الجنة، فى مصاحف مكة و المدينة و الشام خيرا منهما و فى مصاحف أهل البصرة و الكوفة «خَيْراً مِنْها» على الإفراد، و مُنْقَلَباً منتصب على التمييز، أى: مرجعا و عاقبة، قال هذا قياسا للغائب على الحاضر، و أنه لما كان غنيا فى الدنيا، سيكون غنيا فى الأخرى، اغترارا منه بما صار فيه من الغنى الذى هو استدراج له من اللّه قالَ لَهُ صاحِبُهُ أى: قال للكافر صاحبه المؤمن حال محاورته له منكرا عليه ما قاله: أَ كَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ بقولك: ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً و قال: خلقك من تراب؛ أى: جعل أصل خلقك من تراب حيث خلق أباك آدم منه، و هو أصلك، و أصل البشر فلكلّ فرد حظ من ذلك؛ و قيل: يحتمل أنه كان كافرا باللّه فأنكر عليه ما هو عليه من الكفر، و لم يقصد أن الكفر حدث له بسبب هذه المقالة ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ و هى المادّة القريبة ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا أى: صيرك إنسانا ذكرا و عدل أعضاءك و كمّلك، و فى هذا تلويح بالدليل على البعث، و أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة، و انتصاب رجلا على الحال أو التمييز لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى كذا قرأ الجمهور بإثبات الألف بعد لكنّ المشدّدة. و أصله لكن أنا حذفت الهمزة و ألقيت حركتها على النون الساكنة قبلها فصار لكننا، ثم

فتح القدير، ج٣، ص: ٣۴٠

استثقلوا اجتماع النونين فسكنت الأولى و أدغمت الثانية، و ضمير هو للشأن، و الجملة بعده خبره و المجموع خبر أنا، و الراجع ياء

الضمير، و تقدير الكلام: لكن أنا الشأن اللّه ربى. قال أهل العربية: إثبات ألف أنا فى الوصل ضعيف. قال النحاس: مذهب الكسائى و الفراء و المازنى أن الأصل لكن أنا، و ذكر نحو ما قدّمنا.

و روى عن الكسائى أن الأصل لكن اللّه هو ربى أنا. قال الزجاج: إثبات الألف فى لكنا فى الإدراج جيد لأنها قد حذفت الألف من أنا فجاؤوا بها عوضا، قال: و فى قراءة أبىّ «لكن أنا هو اللّه ربى» و قرأ ابن عامر و المسيّبى عن نافع، و ورش عن يعقوب «لكِنَّا» فى حال الوصل و الوقف معا بإثبات الألف، و مثله قول الشاعر:

أنا سيف العشيرة فاعرفونى حميدا فإنّى قد تذرّيت السّناما

و منه قول الأعشى:

فكيف أنا و انتحال «۱» القوافى بعد الشيب يكفى ذاك عارا

و لا خلاف فى إثباتها فى الوقف، و قرأ أبو عبد الرحمن السّلمى و أبو العالية، و روى عن الكسائى «لكن هو اللّه ربى»، ثم نفى عن نفسه الشرك باللّه، فقال: وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَداً و فيه إشارة إلى أن أخاه كان مشركا، ثم أقبل عليه يلومه فقال: وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لو لا للتحضيض:

أى: هلا قلت عند ما دخلتها هذا القول. قال الفرّاء و الزّجّاج: ما فى موضع رفع على معنى الأمر ما شاء اللّه، أى: هلا قلت حين دخلتها الأمر بمشيئة اللّه، و ما شاء اللّه كان، و يجوز أن تكون ما مبتدأ و الخبر مقدّر، أى: ما شاء اللّه كائن، و يجوز أن تكون ما شرطية و الجواب محذوف، أى: أىّ شىء شاء اللّه كان لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ أى: هلا قلت ما شاء اللّه لا قوّة إلا باللّه، تحضيضا له على الاعتراف بأنها و ما فيها بمشيئة اللّه، إن شاء أبقاها و إن شاء أفناها، و على الاعتراف بالعجز، و أن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة اللّه لا بقوّته و قدرته. قال الزجّاج: لا يقوى أحد على ما فى يده من ملك و نعمة إلا باللّه، و لا يكون إلا ما شاء اللّه. ثم لمّا علمه الإيمان و تفويض الأمور إلى اللّه سبحانه أجابه على افتخاره بالمال و النفر فقال: إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالًا وَ وَلَداً المفعول الأوّل ياء الضمير، و أنا ضمير فصل، و أقلّ المفعول الثانى للرؤية إن كانت علمية، و إن جعلت بصرية كان انتصاب أقلّ على الحال، و يجوز أن يكون أنا تأكيد لياء الضمير، و انتصاب مالا و ولدا على التمييز فَعَسى رَبِّى أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ هذا جواب الشرط، أى: إن ترنى أفقر منك، فأنا أرجو أن يرزقنى اللّه سبحانه جنة خيرا من جنتك فى الدنيا أو فى الآخرة أو فى فيهما وَ يُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً أى: و يرسل على جنتك حسبانا، و الحسبان مصدر، بمعنى الحساب كالغفران؛ أى: مقدار قدّره اللّه عليها، و وقع فى حسابه سبحانه، و هو الحكم بتخريبها. قال الزجّاج: الحسبان من الحساب؛ أى: يرسل عليها عذاب الحساب، و هو حساب ما كسبت يداك. و قال الأخفش: حسبانا؛ أى: مرامى مِنَ السَّماءِ واحدها حسبانة، و كذا قال أبو عبيدة و القتبى. و قال ابن الأعرابى: الحسبانة: السّحابة،

---

(۱). فى المطبوع: و ألحان.

و الحسبانة: الوسادة، و الحسبانة: الصّاعقة، و قال النّضر بن شميل: الحسبان سهام يرمى بها الرجل فى جوف قصبة تنزع فى قوس، ثم يرمى بعشرين منها دفعة؛ و المعنى: يرسل عليها مرامى من عذابه؛ إما برد، و إما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب. و منه قول زياد الكلابى: أصاب الأرض حسبان، أى: جراد فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً أى: فتصبح جنة الكافر بعد إرسال اللّه سبحانه عليها حسبانا صعيدا، أى: أرضا لا نبات بها، و قد تقدّم تحقيقه، زلقا: أى: تزلّ فيها الأقدام لملاستها، يقال: مكان زلق بالتحريك: أى دحض، و هو فى الأصل مصدر قولك: زلقت رجله تزلق زلقا، و أزلقها غيره، و المزلقة: الموضع الذى لا يثبت عليه قدم، و

كذا الزّلاقة، وصف الصعيد بالمصدر مبالغة، أو أريد به المفعول، و جملة أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً معطوفة على الجملة التى قبلها، و الغور: الغائر. وصف الماء بالمصدر مبالغة، و المعنى: أنها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له، و كان خلالها ذلك النهر يسقيها دائما، و يجيء الغور بمعنى الغروب، و منه قول أبى ذؤيب:

هل الدهر إلا ليلة و نهارهاو إلا طلوع الشمس ثم غيارها

فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً أى: لن تستطيع طلب الماء الغائر فضلا عن وجوده و ردّه، و لا تقدر عليه بحيلة من الحيل؛ و قيل: المعنى: فلن تستطيع طلب غيره عوضا عنه. ثم أخبر سبحانه عن وقوع ما رجاه ذلك المؤمن و توقعه من إهلاك جنة الكافر، فقال: وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ قد قدّمنا اختلاف القراء فى هذا الحرف و تفسيره، و أصل الإحاطة من إحاطة العدوّ بالشخص كما تقدّم فى قوله: إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ «١» و هى عبارة عن إهلاكه و إفنائه، و هو معطوف على مقدّر كأنه قيل فوقع ما توقعه المؤمن و أحيط بثمره فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ أى: يضرب إحدى يديه على الأخرى، و هو كناية عن الندم، كأنه قيل فأصبح يندم عَلى ما أَنْفَقَ فِيها أى: فى عمارتها و إصلاحها من الأموال؛ و قيل: المعنى: يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق؛ لأن الملك قد يعبر عنه باليد من قولهم: فى يده مال، و هو بعيد جدّا، و جملة وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أن تلك الجنة ساقطة على دعائمها التى تعمد بها الكروم، أو ساقط بعض تلك الجنة على بعض، مأخوذ من خوت النجوم تخوى إذا سقطت و لم تمطر فى نوئها، و منه قوله تعالى: فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا «٢» قيل: و تخصيص ماله عروش بالذكر دون النخل و الزرع لأنه الأصل، و أيضا إهلاكها مغن عن ذكر إهلاك الباقى، و جملة وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً معطوفة على يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ أو حال من ضميره، أى: و هو يقول تمنى عند مشاهدته لهلاك جنته بأنه لم يشرك باللّه حتى تسلم جنته من الهلاك، أو كان هذا القول منه على حقيقته، لا لما فاته من الغرض الدنيوى، بل لقصد التوبة من الشرك و الندم على ما فرط منه وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فئة اسم كان و له خبرها، و ينصرونه صفة لفئة، أى: فئة ناصرة، و يجوز أن تكون ينصرونه الخبر، و رجّح الأوّل سيبويه و رجّح الثانى المبرّد، و احتج بقوله: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ «٣» و المعنى: أنه لم تكن له فرقة و جماعة يلتجئ

---

(١). يوسف: ۶۶.

(٢). النمل: ۵۲.

(٣). الإخلاص: ۴.

إليها و ينتصر بها، و لا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق وَ ما كانَ فى نفسه مُنْتَصِراً أى: ممتنعا بقوته عن إهلاك اللّه لجنته، و انتقامه منه هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِ قرأ أبو عمرو و الكسائى «الحقّ» بالرفع نعتا للولاية، و قرأ أهل المدينة و أهل مكة و عاصم و حمزة «الحقّ» بالجرّ نعتا للّه سبحانه. قال الزجاج: و يجوز النصب على المصدر و التوكيد كما تقول: هذا لك حقا. و قرأ الأعمش و حمزة و الكسائى الولاية بكسر الواو، و قرأ الباقون بفتحها، و هما لغتان بمعنى؛ و المعنى هنالك: أى: فى ذلك المقام النصر للّه وحده لا يقدر عليها غيره؛ و قيل: هو على التقديم و التأخير، أى: الولاية للّه الحق هنالك هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْباً أى:

هو سبحانه خير ثوابا لأوليائه فى الدنيا و الآخرة وَ خَيْرٌ عُقْباً أى: عاقبة، و قرأ الأعمش و عاصم و حمزة «عقبا» بسكون القاف، و قرأ الباقون بضمها، و هما بمعنى واحد، أى: هو خير عاقبة لمن رجاه و آمن به، يقال هذا عاقبة أمر فلان، و عقباه: أى: أخراه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ قال: الجنة هى البستان، فكان له بستان واحد و جدار واحد، و كان بينهما نهر، فلذلك كانتا جنتين، و لذلك سمّاه جنة من قبل الجدار الذى يليها. و أخرج ابن أبى حاتم عن يحيى بن أبى

عمرو الشيبانى قال: نهر أبى فرطس نهر الجنتين. قال ابن أبى حاتم: و هو نهر مشهور بالرملة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً قال: لم تنقص، كل شجر الجنة أطعم. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عنه وَ كانَ لَهُ ثَمَرٌ يقول: مال. و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة، قال: قرأها ابن عباس وَ كانَ لَهُ ثَمَرٌ بالضم، و قال: هى أنواع المال. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ كانَ لَهُ ثَمَرٌ قال: ذهب و فضة. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ يقول: كفور لنعمة ربه. و أخرج ابن أبى حاتم عن أسماء بنت عميس قالت: علّمنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كلمات أقولهنّ عند الكرب: «اللّه اللّه ربى لا أشرك به شيئا». و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، عن يحيى بن سليم الطائفى عمّن ذكره قال: «طلب موسى من ربه حاجة فأبطأت عليه فقال: ما شاء اللّه، فإذا حاجته بين يديه، فقال: يا رب إنى أطلب حاجتى منذ كذا و كذا أعطيتها الآن، فأوحى اللّه إليه: يا موسى، أما علمت أن قولك ما شاء اللّه أنجح ما طلبت به الحوائج». و أخرج أبو يعلى و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما أنعم اللّه على عبد نعمة فى أهل أو مال أو ولد فيقول: ما شاء اللّه لا قوّة إلا باللّه؛ إلا دفع اللّه عنه كل آفة حتى تأتيه منيته، و قرأ: وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ و فى إسناده عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس. قال أبو الفتح الأزدى:

عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس لا يصح حديثه. و أخرج ابن أبى حاتم من وجه آخر عن أنس نحوه موقوفا. و أخرج البيهقى فى الشعب عنه نحوه مرفوعا. و أخرج أحمد من حديث أبى هريرة قال:

قال لى نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟ قلت: نعم، قال: أن تقول لا قوّة إلا باللّه». و قد ثبت فى الصحيح من حديث أبى موسى أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال له: «ألا أدلّك على كنز

من كنوز الجنة؟ لا حول و لا قوّة إلا باللّه» و قد وردت أحاديث و آثار عن السلف فى فضل هذه الكلمة.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً قال: مثل الجرز. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: حُسْباناً مِنَ السَّماءِ قال: عذابا فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً أى: قد حصد ما فيها فلم يترك فيها شىء أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً أى: ذاهبا قد غار فى الأرض وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ قال: يصفق عَلى ما أَنْفَقَ فِيها متلهّفا على ما فاته.

[سورة الكهف (18): الآيات 45 الى 46]

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (45) الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلًا (46)

ثم ضرب سبحانه مثلا آخر لجبابرة قريش فقال: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا أى: اذكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا فى حسنها و نضارتها و سرعة زوالها لئلا يركنوا إليها، و قد تقدّم هذا المثل فى سورة يونس، ثم بيّن سبحانه هذا المثل فقال: كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ و يجوز أن يكون هذا هو المفعول الثانى لقوله:

اضْرِبْ على جعله بمعنى صير فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ أى: اختلط بالماء نبات الأرض حتى استوى؛ و قيل: المعنى: إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء؛ لأن النبات إنما يختلط و يكثر بالمطر، فتكون الباء فى «به» سببية فَأَصْبَحَ النبات هَشِيماً الهشيم: الكسير، و هو من النبات ما تكسر بسبب انقطاع الماء عنه و تفتت، و رجل هشيم: ضعيف البدن، و تهشم عليه فلان: إذا تعطف، و اهتشم ما فى ضرع الناقة: إذا احتلبه، و هشم الثريد: كسره و ثرده، و منه قول ابن الزّبعرى:

عمرو الذى «۱» هشم الثريد لقومهو رجال مكة مسنتون عجاف

تَذْرُوهُ الرِّياحُ تفرّقه. قال أبو عبيدة و ابن قتيبة: تذروه: تنسفه، و قال ابن كيسان: تذهب به و تجىء، و المعنى متقارب. و قرأ طلحة بن مصرّف «تذريه الريح»، قال الكسائى: و فى قراءة عبد اللّه «تذريه» يقال: ذرته الريح تذروه، و أذرته تذريه. و حكى الفراء: أذريت الرجل عن فرسه، أى: قلبته وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً أى: على كل شىء من الأشياء يحييه و يفنيه بقدرته لا يعجز عن شىء الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا هذا ردّ على الرؤساء الذين كانوا يفتخرون بالمال و الغنى و الأبناء فأخبرهم سبحانه أن ذلك مما يتزيّن به فى الدنيا لا مما ينفع فى الآخرة، كما قال فى الآية الأخرى: أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ «۲» و قال: إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ «۳» و لهذا عقب هذه الزينة الدنيوية بقوله:

وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ أى: أعمال الخير، و هى ما كان يفعله فقراء المسلمين من الطاعات

---

(۱). عمرو العلا فى اللسان مادة «هشم»، و تفسير القرطبى (۱۰/ ۴۱۳): العلا.

(۲). التغابن: ۱۵.

(۳). التغابن: ۱۴.

خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً أى: أفضل من هذه الزينة بالمال و البنين ثوابا، و أكثر عائدة و منفعة لأهلها وَ خَيْرٌ أَمَلًا أى: أفضل أملا، يعنى أن هذه الأعمال الصالحة لأهلها من الأمل أفضل ممّا يؤمله أهل المال و البنين؛ لأنهم ينالون بها فى الآخرة أفضل ممّا كان يؤمله هؤلاء الأغنياء فى الدنيا، و ليس فى زينة الدنيا خير حتى تفضل عليها الآخرة، و لكن هذا التفضيل خرّج مخرج قوله تعالى: أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا «۱»، و الظاهر أن الباقيات الصالحات كل عمل خير، فلا وجه لقصرها على الصلاة كما قال بعض «۲»، و لا لقصرها على نوع من أنواع الذكر كما قاله بعض آخر، و لا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و بهذا تعرف أن تفسير الباقيات الصالحات فى الأحاديث بما سيأتى لا ينافى إطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن علىّ قال: الْمالُ وَ الْبَنُونَ حرث الدنيا، و العمل الصالح حرث الآخرة، و قد جمعهما اللّه لأقوام. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ قال: سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلا اللّه و اللّه أكبر. و أخرج سعيد بن منصور و أحمد و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن حبّان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«استكثروا من الباقيات الصّالحات، قيل: و ما هنّ يا رسول اللّه؟ قال: التكبير و التهليل و التسبيح و التحميد و لا حول و لا قوّة إلا باللّه» و أخرج الطبرانى و ابن شاهين و ابن مردويه عن أبى الدرداء مرفوعا بلفظ:

«سبحان اللّه، و الحمد للّه، و لا إله إلا اللّه، و اللّه أكبر، و لا حول و لا قوّة إلا باللّه، هنّ الباقيات الصّالحات». و أخرج النسائى و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الصغير، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن أبى هريرة مرفوعا: «خذوا جنّتكم، قيل: يا رسول اللّه من أىّ عدوّ قد حضر؟ قال:

بل جنتكم من النار قول سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلا اللّه و اللّه أكبر، فإنهنّ يأتين يوم القيامة مقدّمات معقبات و مجنّبات، و هى الباقيات الصّالحات». و أخرج سعيد بن منصور و أحمد و ابن مردويه عن النعمان ابن بشير أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ألا و إن سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلا اللّه الباقيات الصالحات».

و أخرج ابن مردويه نحوه من حديث أنس مرفوعا، و زاد التكبير و سمّاهنّ الباقيات الصالحات. و أخرج ابن مردويه نحوه من حديث أبى هريرة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن مردويه من حديث عائشة مرفوعا نحوه، و زادت «و لا حول و لا قوّة إلا باللّه». و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه من حديث علىّ مرفوعا نحوه. و أخرج ابن مردويه من طريق الضحّاك عن ابن عباس مرفوعا فذكر نحوه دون الحوقلة. و أخرج الطبرانى عن سعد بن جنادة مرفوعا نحوه. و أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن جرير عن ابن عمر من قوله نحوه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس من قوله نحوه. و كل هذه الأحاديث مصرحة بأنها الباقيات الصالحات، و أما ما ورد فى فضل هذه الكلمات من غير تقييد بكونها المرادة فى الآية فأحاديث كثيرة لا فائدة

---

(١). الفرقان: ٢۴.

(٢). أى بعض المفسّرين.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣۴۵

فى ذكرها هنا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: كل شيء من طاعة اللّه؛ فهو من الباقيات الصالحات.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ۴٧ الى ۵٣]

وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (۴٧) وَ عُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (۴٨) وَ وُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (۴٩) وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (۵٠) ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (۵١)

وَ يَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً (۵٢) وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً (۵٣)

و قوله: وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ قرأ الحسن و ابن كثير و أبو عمرو و ابن عامر تسير بمثناة فوقية مضمومة و فتح الياء التحتية على البناء للمفعول، و رفع الجبال على النيابة عن الفاعل. و قرأ ابن محيصن و مجاهد «تسير» بفتح التاء الفوقية و التخفيف على أن الجبال فاعل. و قرأ الباقون «نسير» بالنون على أن الفاعل هو اللّه سبحانه و الجبال منصوبة على المفعولية، و يناسب القراءة الأولى قوله تعالى: وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ «١»، و يناسب القراءة الثانية قوله تعالى: وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً «٢»، و اختار القراءة الثالثة أبو عبيدة لأنها المناسبة لقوله:

وَ حَشَرْناهُمْ قال بعض النحويين: التقدير و الباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسيّر الجبال؛ و قيل: العامل فى الظرف فعل محذوف، و التقدير: و اذكر يوم نسير الجبال، و معنى تسيير الجبال إزالتها من أماكنها و تسييرها كما تسير السحاب، و منه قوله تعالى: وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ «٣»، ثم تعود إلى الأرض بعد أن جعلها اللّه كما قال: وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا- فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا «۴». و الخطاب فى قوله: وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لكل من يصلح للرؤية، و معنى بروزها: ظهورها و زوال ما يسترها من الجبال و الشجر و البنيان؛ و قيل: المعنىّ ببروزها بروز ما فيها من الكنوز و الأموات، كما قال سبحانه:

وَ أَلْقَتْ ما فِيها وَ تَخَلَّتْ «۵»، و قال: وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها «۶»، فيكون المعنى: و ترى الأرض بارزا ما فى جوفها وَ حَشَرْناهُمْ أى: الخلائق، و معنى الحشر: الجمع؛ أى: جمعناهم إلى الموقف من كلّ مكان فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً فلم نترك منهم أحدا، يقال: غادره و أغدره إذا تركه، قال عنترة:

(۱). التكوير: ۳.

(۲). الطور: ۱۰.

(۳). النمل: ۸۸.

(۴). الواقعة: ۵- ۶.

(۵). الانشقاق: ۴.

(۶). الزلزلة: ۲.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۴۶ غادرته متعفّرا أوصالهو القوم بين مجرّح و مجندل «۱»

أى: تركته، و منه الغدر؛ لأن الغادر ترك الوفاء للمغدور، قالوا: و إنّما سمّى الغدير غديرا؛ لأن الماء ذهب و تركه، و منه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها وَ عُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا انتصاب صفا على الحال، أى: مصفوفين كل أمة و زمرة صفا؛ و قيل: عرضوا صفا واحدا، كما فى قوله: ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا «۲» أى:

جميعا؛ و قيل: قياما. و فى الآية تشبيه حالهم بحال الجيش الذى يعرض على السلطان لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ هو على إضمار القول، أى: قلنا لهم لقد جئتمونا، و الكاف فى كما خلقناكم نعت مصدر محذوف، أى: مجيئا كائنا كمجيئكم عند ما خلقناكم أوّل مرّة، أو كائنين كما خلقناكم أوّل مرّة، أى: حفاة عراة غرلا، كما ورد ذلك فى الحديث. قال الزجّاج: أى: بعثناكم و أعدناكم كما خلقناكم؛ لأن قوله لقد جئتمونا معناه بعثناكم بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً هذا إضراب و انتقال من كلام إلى كلام للتقريع و التوبيخ، و هو خطاب لمنكرى البعث، أى: زعمتم فى الدنيا أن لن تبعثوا، و أن لن نجعل لكم موعدا نجازيكم بأعمالكم، و ننجز ما وعدناكم به من البعث و العذاب، و جملة وَ وُضِعَ الْكِتابُ معطوفة على عرضوا، و المراد بالكتاب صحائف الأعمال، و أفرده لكون التعريف فيه للجنس، و الوضع إما حسّى بأن توضع صحيفة كل واحد فى يده: السعيد فى يمينه، و الشقىّ فى شماله؛ أو فى الميزان. و إما عقلى: أى: أظهر عمل كل واحد من خير و شرّ بالحساب الكائن فى ذلك اليوم فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ أى: خائفين وجلين ممّا فى الكتاب الموضوع لما يتعقّب ذلك من الافتضاح فى ذلك الجمع، و المجازاة بالعذاب الأليم وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا يدعون على أنفسهم بالويل لوقوعهم فى الهلاك، و معنى هذا النداء قد تقدّم تحقيقه فى المائدة ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها أى: أىّ شىء له لا يترك معصية صغيرة و لا معصية كبيرة إلا حواها و ضبطها و أثبتها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا فى الدنيا من المعاصى الموجبة للعقوبة، أو وجدوا جزاء ما عملوا حاضِراً مكتوبا مثبتا وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً أى: لا يعاقب أحدا من عباده بغير ذنب، و لا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذى يستحقّه، ثم إنه سبحانه عاد إلى الردّ على أرباب الخيلاء من قريش، فذكر قصة آدم و استكبار إبليس عليه، فقال: وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ أى: و اذكر وقت قولنا لهم اسجدوا سجود تحية و تكريم، كما مرّ تحقيقه فَسَجَدُوا طاعة لأمر اللّه و امتثالا لطلبه السجود إِلَّا إِبْلِيسَ فإنه أبى و استكبر و لم يسجد، و جملة كانَ مِنَ الْجِنِ مستأنفة لبيان سبب عصيانه و أنه كان من الجنّ و لم يكن من الملائكة فلهذا عصى، و معنى فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أنه خرج عن طاعة ربه.

قال الفراء: العرب تقول فسقت الرطبة عن قشرها لخروجها منه. قال النحّاس: اختلف فى معنى فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ على قولين:

الأوّل مذهب الخليل و سيبويه أن المعنى: أتاه الفسق لما أمر فعصى، فكان سبب

---

(۱). فى الديوان: مجدّل.

«المتعفر»: اللاصق بالعفر؛ و هو التراب.

(۲). طه: ۶۴.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۴۷

الفسق أمر ربه. كما تقول: أطعمته عن جوع. و القول الآخر قول قطرب: أن المعنى على حذف المضاف: أى فسق عن ترك أمره. ثم إنه سبحانه عجب من حال من أطاع إبليس فى الكفر و المعاصى و خالف أمر اللّه، فقال: أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ كأنه قال: أ عقيب ما وجد منه من الإباء و الفسق تتخذونه و تتخذون ذريته، أى: أولاده؛ و قيل: أتباعه- مجازا- أولياء مِنْ دُونِي فتطيعونهم بدل طاعتى، و تستبدلونهم بى، و الحال أنهم، أى: إبليس و ذريته لَكُمْ عَدُوٌّ أى: أعداء، و أفرده لكونه اسم جنس، أو لتشبيهه بالمصادر، كما فى قوله: فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي «۱»، و قوله: هُمُ الْعَدُوُّ «۲» أى: كيف تصنعون هذا الصنع و تستبدلون بمن خلقكم و أنعم عليكم بجميع ما أنتم فيه من النعم؟ بمن لم يكن لكم منه منفعة قط، بل هو عدوّ لكم يترقب حصول ما يضركم فى كل وقت بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا أى: الواضعين للشىء فى غير موضعه المستبدلين بطاعة ربهم طاعة الشيطان، فبئس ذلك البدل الذى استبدلوه بدلا عن اللّه سبحانه ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال أكثر المفسرين: إنّ الضمير للشركاء، و المعنى: أنهم لو كانوا شركاء لى فى خلق السموات و الأرض و فى خلق أنفسهم لكانوا شاهدين خلق ذلك مشركين لى فيه، و لم يشاهدوا ذلك و لا أشهدتهم إياه أنا فليسوا لى بشركاء. و هذا استدلال بانتفاء الملزوم المساوى على انتفاء اللازم. و قيل:

الضمير للمشركين الذين التمسوا طرد فقراء المؤمنين، و المراد أنهم ما كانوا شركاء لى فى تدبير العالم؛ بدليل أنى ما أشهدتهم خلق السموات و الأرض وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ما اعتضدت بهم بل هم كسائر الخلق؛ و قيل: المعنى: أن هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلم فى الأزل؛ لأنهم لم يكونوا مشاهدين خلق العالم، فكيف يمكنهم أن يحكموا بحسن حالهم عند اللّه، و الأوّل من هذه الوجوه أولى لما يلزم فى الوجهين الآخرين من تفكيك الضميرين، و هذه الجملة مستأنفة لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور، و قرأ أبو جعفر «ما أشهدناهم»، و قرأ الباقون «ما أشهدتهم»، و يؤيده وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً و العضد يستعمل كثيرا فى معنى العون، و ذلك أن العضد قوام اليد، و منه قوله: سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ «۳» أى: سنعينك و نقوّيك به، و يقال: أعضدت بفلان إذا استعنت به، و ذكر العضد على جهة المثل، و خصّ المضلين بالذكر لزيادة الذمّ و التوبيخ. و المعنى: ما استعنت على خلق السماوات و الأرض بهم و لا شاورتهم، و ما كنت متخذ الشياطين أو الكافرين أعوانا، و وحد العضد لموافقة الفواصل. و قرأ أبو جعفر الجحدرى «و ما كنت» بفتح التاء على أن الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: و ما كنت يا محمد متّخذا لهم عضدا، و لا صحّ لك ذلك، و قرأ الباقون بضم التاء، و فى عضد لغات ثمان أفصحها فتح العين و ضمّ الضاد، و بها قرأ الجمهور. و قرأ الحسن «عضدا» بضم العين و الضاد، و قرأ عكرمة بضم العين و إسكان الضاد، و قرأ الضحّاك بكسر العين و فتح الضاد، و قرأ عيسى بن عمر بفتحهما، و لغة تميم فتح العين و سكون الضاد. ثم عاد سبحانه إلى ترهيبهم بأحوال القيامة فقال: وَ يَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ قرأ حمزة و يحيى بن وثّاب و عيسى بن عمر «نقول» بالنون، و قرأ الباقون بالياء التحتية؛ أى: اذكر يوم يقول اللّه عزّ و جلّ للكفار توبيخا لهم و تقريعا: نادوا

---

(۱). الشعراء: ۷۷.

(۲). المنافقون: ۴.

(۳). القصص: ۳۵.

شركائى الـذين زعمتم أنهم ينفعونكم و يشـفعون لكم، و أضافهم سـبحانه إلى نفسه جريا على ما يعتقـده المشـركون، تعالى اللّه عن ذلـك فَدَعَوْهُمْ أى: فعلوا مـا أمرهم اللّه به من دعاء الشـركاء فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ إذ ذاک، أى: لم يقع منهم مجرد الاسـتجابة لهم، فضـلا عن أن ينفعوهم أو يـدفعوا عنهم وَ جَعَلْنـا بَيْنَهُمْ مَوْبِقـاً أى: جعلنا بين هؤلاء المشـركين و بين من جعلوهم شـركاء للّه موبقـا، ذكر جماعـة من المفسـرين أنه اسم واد عميق، فرّق اللّه به تعالى بينهم، و على هـذا فهو اسم مكان. قال ابن الأعرابى: كل حاجز بين شيئين فهو موبق. و قال الفرّاء: الموبق: المهلک. و المعنى: جعلنا تواصـلهم فى الـدنيا مهلكا لهم فى الآخرة، يقال: وبق يوبق فهو وبق، هكـذا ذكره الفراء فى المصادر. و حكى الكسائى وبق يبق وبوقا فهو وابق، و المراد بالمهلک على هـذا هو عذاب النـار يشتركون فيه. و الأـوّل أولى، لأـن من جملـة من زعموا أنهم شـركاء اللّه الملائكـة و عزير و المسـيح، فـالموبق هو المكـان الحائل بينهم. و قال أبو عبيدة: الموبق هنا الموعد للهلاک، و قد ثبت فى اللغة أوبقه بمعنى أهلكه، و منه قول زهير:

و من يشترى حسن الثّناء بماله‌يصن عرضه عن كلّ شنعاء موبق

و لكن المنـاسب لمعنى الآيـة هـو المعنى الأـوّل وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها المجرمـون موضوع موضع الضـمير للإشارة إلى زيادة الذمّ لهم بهذا الوصف المسجّل عليهم به، و الظن هنا بمعنى اليقين.

و المواقعة: المخالطة بـالوقوع فيهـا؛ و قيل: إن الكفار يرون النار من مكان بعيـد فيظنّون ذلک ظنا وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً أى: معدلا يعدلون إليه، أو انصـرافا؛ لأن النار قد أحاطت بهم من كل جانب. قال الواحدى: المصـرف: الموضع الذى ينصرف إليه. و قال القتبى: أى معدلا ينصرفون إليه، و قيل: ملجأ يلجئون إليه. و المعنى متقارب فى الجميع.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً قال: ليس عليها بناء و لا شجر.

و أخرج ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عن مجاهـد نحوه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عبـاس فى قوله: لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً قال: الصـغيرة: التبسم، و الكبيرة: الضـحک. و زاد ابن أبى الدنيا و ابن أبى حاتم عنه قال: الصغيرة: التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين، و الكبيرة: القهقهة بذلک. و أقول: صغيرة و كبيرة نكرتان فى سياق النفى، فيدخل تحت ذلک كل ذنب يتّصف بصغر، و كل ذنب يتّصف بالكبر، فلا يبقى من الذنوب شـىء إلا أحصاه اللّه، و ما كان من الذنوب ملتبسا بين كونه صغيرا أو كبيرا، فذلک إنما هو بالنسـبة إلى العباد لا بالنسبة إلى اللّه سبحانه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس قال: إنّ من الملائكـة قبيلـة يقال لم الجنّ فكان إبليس منهم، و كان يوسوس ما بين السـماء و الأرض، فعصـى فسـخط اللّه عليه، فمسـخه اللّه شـيطانا رجيمـا. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: كـانَ مِنَ الْجِنِ قـال: كـان خـازن الجنان، فسـمى بالجنّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر عنه أيضـا: قـال إن إبليس كان من أشـرف الملائكـة و أكرمهم قبيلـة، و كان خازنا على الجنان. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن قال:

قاتل اللّه أقواما زعموا أن إبليس كان من الملائكة طرفة عين، إنه لأصل الجنّ كما أن آدم أصل الإنس. و أخرج

ابن أبى حاتم عن السـدّى فى قوله: ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: يقول: ما أشـهدت الشياطين الـذين اتخذتم معى هذا وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً قال: الشياطين عضدا، قال: و لا اتخذتهم عضدا على شىء عضدونى عليه فأعانونى. و أخرج

ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم من طريق علىّ بن أبى طلحـة عن ابن عبـاس فى قوله: وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً يقول: مهلكا. و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن المنذر عن مجاهد مثله. و أخرج أبو عبيد و هناد و ابن المنذر عنه قال: واد فى جهنم. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائـد الزهـد، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن أنس فى الآية قال: واد فى جهنم من قيح و دم. و أخرج أحمـد فى الزهـد، و ابن جرير و ابن أبى حـاتم و البيهقى عن ابن عمرو قـال: هو واد عميق فى النـار فرق اللّه به يوم القيامة بين أهل الهدى و أهل الضـلالة. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها قال: علموا.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ۵۴ الى ۵۹]

وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ كانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (۵۴) وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً (۵۵) وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ ما أُنْذِرُوا هُزُواً (۵۶) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَ نَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (۵۷) وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (۵۸)
وَ تِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (۵۹)

لمـا ذكر سبحانه افتخـار الكفرة على فقراء المسـلمين بـأموالهم و عشائرهم، و أجابهم عن ذلك و ضـرب لهم الأمثال الواضـحة، حكى بعض أهوال الآخرة فقال: وَ لَقَدْ صَرَّفْنا أى: كرّرنا و رددنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ أى: لأجلهم و لرعاية مصلحتهم و منفعتهم مِنْ كُلِّ مَثَلٍ من الأمثال التى من جملتها الأمثال المذكورة فى هذه السورة، و قد تقدّم تفسـير هذه الآية فى سورة بنى إسـرائيل، و حين لم يترك الكفار ما هم فيه من الجدال بالباطل، ختم الآية بقوله: وَ كانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا قال الزجّاج: المراد بالإنسان الكافر، و اسـتدل على أن المراد الكفار بقوله تعالى: وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ و قيل: المراد به فى الآية النضر بن الحارث، و الظاهر العموم و أن هذا النوع أكثر الأشياء التى يتأتّى منها الجدال جدلا، و يؤيّد هذا ما ثبت فى الصّحيحين و غيرهما من حديث علىّ: «أن النبى صلّى اللّه عليه و سـلّم طرقه و فاطمـة ليلا، فقال: ألا تصـليان؟ فقلت: يا رسول اللّه إنما أنفسـنا بيـد اللّه إن شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصـرف حين قلت ذلك و لم يرجع إلىّ شـيئا، ثم سـمعته يضرب فخذه و يقول: وَ كانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا». و انتصاب جدلا على التمييز. وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ قد تقدّم الكلام على مثل هذا فى سورة بنى إسرائيل، و ذكرنا أنّ «أن» الأولى فى محل نصب، و الثانية فى

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۵۰

فتح القدير ج۳ ۳۹۹

محل رفع، و الهـدى القرآن و محمـد صـلّى اللّه عليه و سـلّم، و الناس- هنا- هم أهل مكة، و المعنى على حذف مضاف، أى: ما منع الناس من الإيمان و الاسـتغفار إلا طلب إتيان سـنة الأوّلين، أو انتظار إتيان سـنة الأوّلين، و زاد الاسـتغفار فى هذه السورة لأنه قـد ذكر هنـا مـا فرط منهم من الـذنوب الـتى من جملتهـا جـدالهم بالباطـل، و سـنة الأـوّلين هو أنهم إذا لم يؤمنوا عـذبوا عـذاب الاستئصال. قال الزجّاج: سـنّتهم هو قولهم: إِنْ كانَ هـذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ «١» الآيـة: أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ أى: عذاب الآخرة قُبُلًا قـال الفراء: إن قبلاـ جمع قبيـل؛ أى: متفرّقـا يتلو بعضه بعضـا، و قيـل: عيانا، و قيل: فجأة. و يناسب ما قاله الفرّاء قراءة أبى جعفر و عاصم و الأعمش و حمزة و الكسائى و يحيى بن وثّاب و خلف قُبُلًا بضمتين، فإنه جمع قبيل، نحو سبيل و سبل، و المراد أصناف

العذاب؛ و يناسب التفسير الثانى؛ أى عيانا، قراءة الباقين بكسر القاف و فتح الباء: أى: مقابلة و معاينة، و قرئ بفتحتين على معنى أو يأتيهم العذاب مستقبلا، و انتصابه على الحال.

فحاصل معنى الآية أنهم لا يؤمنون و لا يستغفرون إلا عند نزول عذاب الدنيا المستأصل لهم، أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة أو معاينته وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ من رسلنا إلى الأمم إِلَّا حال كونهم مُبَشِّرِينَ للمؤمنين وَ مُنْذِرِينَ للكافرين، فالاستثناء مفرّغ من أعمّ العام، و قد تقدّم تفسير هذا وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَ أى: ليزيلوا بالجدال بالباطل الحق و يبطلوه. و أصل الدحض الزّلق؛ يقال دحضت رجله: أى: زلقت تدحض دحضا، و دحضت الشمس عن كبد السماء زالت، و دحضت حجّته دحوضا: بطلت، و من ذلك قول طرفة:

أبا منذر رمت الوفاء فهبتهوحدت كما حاد البعير عن الدّحض

و من مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسل: ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا «٢»، و نحو ذلك: وَ اتَّخَذُوا آياتِي أى: القرآن وَ ما أُنْذِرُوا به من الوعيد و التهديد هُزُواً أى: لعبا و باطلا، و قد تقدّم هذا فى البقرة وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها أى: لا أحد أظلم لنفسه ممّن وعظ بآيات ربه التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما، فتهاون بها و أعرض عن قبولها، و لم يتدبّرها حقّ التدبر، و يتفكّر فيها حقّ التفكّر وَ نَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ من الكفر و المعاصى، فلم يتب عنها. قيل: و النسيان هنا بمعنى الترك، و قيل: هو على حقيقته إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ أى: أغطية. و الأكنة: جمع كنان، و الجملة تعليل لإعراضهم و نسيانهم. قال الزجاج: أخبر اللّه سبحانه أن هؤلاء طبع على قلوبهم وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً أى: و جعلنا فى آذانهم ثقلا يمنع من استماعه، و قد تقدّم تفسير هذا فى الأنعام وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً لأنّ اللّه قد طبع على قلوبهم بسبب كفرهم و معاصيهم وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ أى: كثير المغفرة، و صاحب الرحمة التى وسعت كل شيء فلم يعاجلهم بالعقوبة، و لهذا قال:

لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا أى: بسبب ما كسبوه من المعاصى التى من جملتها الكفر و المجادلة و الإعراض

---

(١). الأنفال: ٣٢.

(٢). يس: ١٥.

لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ لاستحقاقهم لذلك بَلْ جعل لَهُمْ مَوْعِدٌ أى: أجل مقدّر لعذابهم، قيل: هو عذاب الآخرة، و قيل: يوم بدر لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا أى: ملجأ يلجئون إليه. و قال أبو عبيدة: منجى، و قيل: محيصا، و منه قول الشاعر:

لا و ألت نفسك خلّيتهاللعامريّين و لم تكلم

و قال الأعشى:

و قد أخالس ربّ البيت غفلتهو قد يحاذر منّى ثم ما يئل

أى: ما ينجو.

وَ تِلْكَ الْقُرى أى: قرى عاد و ثمود و أمثالها أَهْلَكْناهُمْ هذا خبر اسم الإشارة و القرى صفته، و الكلام على حذف مضاف، أى: أهل القرى أهلكناهم لَمَّا ظَلَمُوا أى: وقت وقوع الظلم منهم بالكفر و المعاصى وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً أى: وقتا معينا، و قرأ أبو بكر عن عاصم «مهلكهم» بفتح الميم و اللام، و هو مصدر هلك، و أجاز الكسائى و الفراء و كسر اللام و فتح الميم، و بذلك قرأ حفص، و قرأ الجمهور بضم الميم و فتح اللام. و قال الزجّاج: مهلك اسم للزمان، و التقدير: لوقت مهلكهم.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ قال: عقوبة الأوّلين. و أخرج ابن أبى حاتم عن الأعمش فى قوله: قُبُلًا قال: جهارا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: فجأة. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ نَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ قال: نسى ما سلف من الذنوب الكثيرة. و أخرج أيضا عن ابن عباس بِما كَسَبُوا يقول: بما عملوا. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ قال: الموعد يوم القيامة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: مَوْئِلًا قال: ملجأ. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد مَوْئِلًا قال: محرزا.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٦٠ الى ٧٠]

وَ إِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (٦٠) فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (٦١) فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً (٦٢) قالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ ما أَنْسانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً (٦٣) قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً (٦٤)

فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (٦٥) قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (٦٦) قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٦٧) وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (٦٨) قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (٦٩)

قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (٧٠)

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٥٢

الظرف فى قوله: وَ إِذْ قالَ متعلّق بفعل محذوف هو اذكر. قيل: و وجه ذكر هذه القصة فى هذه السورة، أن اليهود لما سألوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن قصة أصحاب الكهف و قالوا: إن أخبركم فهو نبىّ و إلا فلا. ذكر اللّه قصة موسى و الخضر تنبيها على أن النبىّ لا يلزمه أن يكون عالما بجميع القصص و الأخبار. و قد اتّفق أهل العلم على أن موسى المذكور هو موسى بن عمران النبىّ المرسل إلى فرعون، و قالت فرقة- لا التفات إلى ما تقوله- منهم نوف البكالى: إنه ليس ابن عمران، و إنما هو موسى بن ميشى بن يوسف بن يعقوب، و كان نبيا قبل موسى بن عمران، و هذا باطل قد ردّه السلف الصالح من الصحابة و من بعدهم كما فى صحيح البخارى و غيره، و المراد بفتاه هنا هو يوشع بن نون. قال الواحدى: أجمعوا على أنه يوشع بن نون، و قد مضى ذكره فى المائدة، و فى آخر سورة يوسف، و من قال: إن موسى هو ابن ميشى قال: إن هذا الفتى لم يكن هو يوشع ابن نون. قال الفراء: و إنما سمّى فتى موسى لأنه كان ملازما له يأخذ عنه العلم و يخدمه، و معنى لا أَبْرَحُ لا أزال، و منه قوله: لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ «١». و منه قول الشاعر:

و أبرح ما أدام اللّه قومى بحمد اللّه منتطقا مجيدا

و برح إذا كان بمعنى زال فهو من الأفعال الناقصة، و خبره هنا محذوف اعتمادا على دلالة ما بعده و هو حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ قال الزجاج: لا أبرح بمعنى لا أزال، و قد حذف الخبر لدلالة حال السفر عليه، و لأن قوله: حَتَّى أَبْلُغَ غاية مضروبة، فلا بدّ لها من ذى غاية، فالمعنى: لا أزال أسير إلى أن أبلغ، و يجوز أن يراد لا يبرح مسيرى حتى أبلغ؛ و قيل: معنى لا أبرح: لا أفارقك حتى أبلغ مجمع البحرين؛ و قيل:

يجوز أن يكون من برح التام، بمعنى زال يزال، و مجمع البحرين ملتقاهما. قيل: المراد بالبحرين بحر فارس و الروم، و قيل: بحر

الأردن و بحر القلزم، و قيل: مجمع البحرين عند طنجة، و قيل: بإفريقية. و قالت طائفة:
المراد بالبحرين موسى و الخضر، و هو من الضعف بمكان، و قد حكى عن ابن عباس و لا يصحّ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً أى: أسير زمانا طويلا. قال الجوهرى: الحقب بالضم ثمانون سنة. و قال النحّاس: الذى يعرفه أهل اللغة أن الحقب و الحقبة زمان من الدهر مبهم غير محدود، كما أن رهطا و قوما منهم غير محدود، و جمعه أحقاب. و سبب هذه العزيمة على السير من موسى عليه السلام: ما روى أنه سئل موسى من أعلم الناس؟ فقال:
أنا، فأوحى اللّه إليه: إنّ أعلم منك عبد لى عند مجمع البحرين فَلَمَّا بَلَغا أى: موسى و فتاه مَجْمَعَ بَيْنِهِما أى: بين البحرين، و أضيف مجمع إلى الظرف توسّعا، و قيل: البين: بمعنى الافتراق، أى: البحران المفترقان يجتمعان هناك، و قيل: الضمير لموسى و الخضر، أى: وصلا الموضع الذى فيه اجتماع شملهما، و يكون البين على هذا بمعنى الوصل، لأنه من الأضداد، و الأوّل أولى نَسِيا حُوتَهُما قال المفسرون: إنهما تزوّدا حوتا مملّحا فى زنبيل، و كان يصيبان منه عند حاجتهما إلى الطعام، و كان قد جعل اللّه فقدانه أمارة لهما على وجدان المطلوب. و المعنى أنهما نسيا تفقّد أمره، و قيل: الذى نسى إنما هو فتى موسى؛ لأنه و كل أمر الحوت إليه، و أمره أن يخبره إذا فقده، فلما انتهيا إلى ساحل البحر وضع فتاه المكتل الذى فيه الحوت فأحياه اللّه،

---

(١). طه: ٩١.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٥٣

فتحرّك و اضطرب فى المكتل، ثم انسرب فى البحر، و لهذا قال: فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً انتصاب سربا على أنه المفعول الثانى لاتخذ، أى: اتّخذ سبيلا سربا، و السرب: النّفق الذى يكون فى الأرض للضبّ و نحوه من الحيوانات، و ذلك أن اللّه سبحانه أمسك جرية الماء على الموضع الذى انسرب فيه الحوت، فصار كالطاق، فشبّه مسلك الحوت فى البحر مع بقائه و انجياب الماء عنه بالسرب الذى هو الكوّة المحفورة فى الأرض.
قال الفراء: لما وقع فى الماء جمد مذهبه فى البحر فكان كالسرب، فلما جاوزا ذلك المكان الذى كانت عنده الصخرة و ذهب الحوت فيه انطلقا، فأصابهما ما يصيب المسافر من النصب و الكلال، و لم يجدا النصب حتى جاوزا الموضع الذى فيه الخضر، و لهذا قال سبحانه: فَلَمَّا جاوَزا أى: مجمع البحرين الذى جعل موعدا للملاقاة قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا و هو ما يأكل بالغداة، و أراد موسى أن يأتيه بالحوت الذى حملاه معهما لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً أى: تعبا و إعياء، قال المفسرون: الإشارة بقوله سفرنا هذا إلى السفر الكائن منهما بعد مجاوزة المكان المذكور، فإنهما لم يجدا النصب إلا فى ذلك دون ما قبله قالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ أى: قال فتى موسى لموسى، و معنى الاستفهام تعجيبه لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك الأمر ممّا لا ينسى؛ لأنه قد شاهد أمرا عظيما من قدرة اللّه الباهرة، و مفعول أ رأيت محذوف لدلالة ما ذكره من النسيان عليه، و التقدير: أ رأيت ما دهانى، أو نابنى فى ذلك الوقت و المكان. و تلك الصّخرة كانت عند مجمع البحرين الذى هو الموعد، و إنما ذكرها دون أن يذكر مجمع البحرين لكونها متضمّنة لزيادة تعيين المكان؛ لاحتمال أن يكون المجمع مكانا متّسعا يتناول مكان الصخرة و غيره، و أوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذى تقدّم ذكره لبيان أن ذلك الغداء المطلوب هو ذلك الحوت الذى جعلاه زادا لهما، و أمارة لوجدان مطلوبهما. ثم ذكر ما يجرى مجرى السبب فى وقوع ذلك النسيان، فقال: وَ ما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ بما يقع منه من الوسوسة، و أَنْ أَذْكُرَهُ بدل اشتمال من الضمير فى أنسانيه، و فى مصحف عبد اللّه: «و ما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان». وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً انتصاب عجبا على أنه المفعول الثانى كما مرّ فى سربا، و الظرف فى محل نصب على الحال، يحتمل أن يكون هذا من كلام يوشع، أخبر موسى أن الحوت اتخذ سبيله عجبا للناس، و موضع التعجّب أن

يحيا حوت قد مات و أكل شقّه، ثم يثب إلى البحر، و يبقى أثر جريته فى الماء لا يمحو أثرها جريان ماء البحر، و يحتمل أن يكون من كلام اللّه سبحانه لبيان طرف آخر من أمر الحوت، فيكون ما بين الكلامين اعتراضا قالَ ذٰلِكَ ما كُنّٰا نَبْغِ أى: قال موسى لفتاه ذلك الذى ذكرت من فقد الحوت فى ذلك الموضع هو الذى كنّا نطلبه، فإن الرجل الذى نريده هو هنالك فَارْتَدّٰا عَلىٰ آثٰارِهِمٰا قَصَصاً أى: رجعا على الطريق التى جاءا منها يقصّان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما، و انتصاب قصصا على أنه مصدر لفعل محذوف، أو على الحال، أى: قاصين أو مقتصين، و القصص فى اللغة: اتباع الأثر فَوَجَدٰا عَبْداً مِنْ عِبٰادِنٰا هو الخضر فى قول جمهور المفسرين، و على ذلك دلّت الأحاديث الصحيحة، و خالف فى ذلك ما لا يعتدّ بقوله، فقال ليس هو الخضر بل عالم آخر، قيل: سمّى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضرّ ما حوله، قيل: و اسمه بليا بن ملكان، ثم وصفه اللّه سبحانه فقال: آتَيْنٰاهُ

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۵۴

رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنٰا قيل: الرحمة هى النبوّة، و قيل: النعمة التى أنعم اللّه بها عليه وَ عَلَّمْنٰاهُ مِنْ لَدُنّٰا عِلْماً و هو ما علمه اللّه سبحانه من علم الغيب الذى استأثر به. و فى قوله من لدنا تفخيم لشأن ذلك العلم، و تعظيم له. قال الزجاج: و فيما فعل موسى و هو من جملة الأنبياء من طلب العلم، و الرحلة فى ذلك ما يدلّ على أنه لا ينبغى لأحد أن يترك طلب العلم و إن كان قد بلغ نهايته، و أن يتواضع لمن هو أعلم منه. ثم قصّ اللّه سبحانه علينا ما دار بين موسى و الخضر بعد اجتماعهما فقال: قٰالَ لَهُ مُوسىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّٰا عُلِّمْتَ رُشْداً فى هذا السؤال ملاطفة و مبالغة فى حسن الأدب؛ لأنه استأذنه أن يكون تابعا له على أن يعلمه ممّا علمه اللّه من العلم. و الرشد: الوقوف على الخير و إصابة الصواب، و انتصابه على أنه مفعول ثان لتعلمنى، أى: علما ذا رشد أرشد به، و قرئ «رشدا» بفتحتين، و هما لغتان كالبخل و البخل. و فى الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم و إن تفاوتت المراتب. و ليس فى ذلك ما يدلّ على أن الخضر أفضل من موسى، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل، و قد يأخذ الفاضل عن المفضول إذا اختص أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر، فقد كان علم موسى علم الأحكام الشرعية و القضاء بظاهرها، و كان علم الخضر علم بعض الغيب و معرفة البواطن قٰالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً أى: قال الخضر لموسى: إنك لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمى؛ لأن الظواهر التى هى علمك لا توافق ذلك، ثم أكّد ذلك مشيرا إلى علّة عدم الاستطاعة، فقال: وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلىٰ مٰا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً أى: كيف تصبر على علم ظاهره منكر، و أنت لا تعلم، و مثلك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكر و الإقرار عليه، و خبرا منتصب على التمييز، أى: لم تحط به خبرك، و الخبر: العلم بالشىء، و الخبير بالأمور: هو العالم بخفاياها، و بما يحتاج إلى الاختبار منها قٰالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شٰاءَ اللّٰهُ صٰابِراً أى: قال موسى للخضر: ستجدنى صابرا معك، ملتزما طاعتك وَ لاٰ أَعْصِي لَكَ أَمْراً فجملة و لا أعصى معطوفة على صابرا، فيكون التقييد بقوله: إن شاء اللّه شاملا للصبر و نفى المعصية؛ و قيل: إن التقييد بالمشيئة مختصّ بالصبر؛ لأنه أمر مستقبل لا يدرى كيف يكون حاله فيه، و نفى المعصية معزوم عليه فى الحال، و يجاب عنه بأن الصبر، و نفى المعصية متفقان فى كون كل واحد منهما معزوم عليه فى الحال، و فى كون كل واحد منهما لا يدرى كيف حاله فيه فى المستقبل. قٰالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاٰ تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ممّا تشاهده من أفعالى المخالفة لما يقتضيه ظاهر الشرع الذى بعثك اللّه به حَتّٰى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً أى: حتى أكون أنا المبتدئ لك بذكره، و بيان وجهه و ما يؤول إليه، و هذه الجمل المعنونة بقال و قال مستأنفة؛ لأنها جوابات عن سؤالات مقدّرة كل واحدة ينشأ السؤال عنها ممّا قبلها.

و قد أخرج الدارقطنى فى الأفراد، و ابن عساكر من طريق مقاتل بن سليمان عن الضحّاك عن ابن عباس قال: الخضر ابن آدم لصلبه، و نسئ له فى أجله، حتى يكذّب الدجّال. و أخرج البخارى و غيره عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّما سمّى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هى تهتزّ من خلفه خضراء». و أخرجه ابن عساكر من حديث ابن عباس. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن عساكر عن مجاهد: إنما سمى الخضر لأنه إذا صلّى اخضرّ ما حوله. و

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد

فى قوله: لاـ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ قال: بحر فارس و الروم، و هما نحو المشرق و المغرب و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس مثله. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب قال: مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ إفريقية. و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب قال: طنجة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً قال: سبعين خريفا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: دهرا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: نَسِيا حُوتَهُما قال: كان مملوحا مشقوق البطن. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً قال: أثره يابس فى البحر كأنه فى حجر. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً قال: عودهما على بدئهما. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا قال: أعطيناه الهدى و النبوة.

و اعلم أنها قد رويت فى قصة الخضر مع موسى المذكورة فى الكتاب العزيز أحاديث كثيرة، و أتمها و أكملها ما روى عن ابن عباس و لكنها اختلفت فى بعض الألفاظ، و كلها مروية من طريق سعيد بن جبير عنه، و بعضها فى الصحيحين و غيرهما، و بعضها فى أحدهما، و بعضها خارج عنهما. و قد رويت من طريق العوفى عنه كما أخرجه ابن جرير و ابن أبى حاتم، و من طريق هارون بن عنترة عن أبيه عنه عند ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الخطيب و ابن عساكر، فلنقتصر على الرواية التى هى أتمّ الروايات الثابتة فى الصحيحين، ففى ذلك ما يغنى عن غيره، و هى: قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: إنّ نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بنى إسرائيل، قال ابن عباس: كذب عدوّ اللّه. حدّثنا أبىّ بن كعب أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل، فسئل: أىّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب اللّه عليه إذ لم يردّ العلم إليه، فأوحى اللّه إليه: إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لى به؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله فى مكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ، فأخذ حوتا فجعله فى مكتل. ثم انطلق و انطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، و اضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر، فاتخذ سبيله فى البحر سربا، و أمسك اللّه عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما و ليلتهما، حتى إذا كانا من الغد قال موسى لفتاه: آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً قال: و لم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره اللّه به، فقال له فتاه: أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ ما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً قال: فكان للحوت سربا، و لموسى و فتاه عجبا؛ فقال موسى: ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً قال سفيان: يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة لا يصيب ماؤها ميتا إلا عاش، قال: و كان الحوت قد أكل منه، فلما قطر عليه الماء عاش، قال: فرجعا يقصّان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجّى بثوب، فسلّم عليه موسى، فقال الخضر: و أنّى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، قال: أتيتك

لتعلّمنى ممّا علّمت رشدا، قال: إنك لن تستطيع معى صبرا، يا موسى إنى على علم من اللّه علّمنيه لا تعلمه أنت، و أنت على علم من اللّه علّمكه اللّه لاـ أعلمه؛ قال موسى: ستجدنى إن شاء اللّه صابرا و لا أعصى لك أمرا، فقال له الخضر: فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرّت بهما سفينة فكلّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا و الخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم؛ فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً؟ قال: أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً، قال: لا

تُؤاخِذْنِی بِما نَسِیتُ وَ لا تُرْهِقْنِی مِنْ أَمْرِی عُسْراً. قال: و قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم:
فكانت الأولى من موسى نسيانا. قال: و جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة، فقال له الخضر: ما نقص علمى و علمك من علم اللّه إلا مثل ما نقص هذا العصفور الذى وقع على حرف السفينة من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده؛ فقتله، فقال موسى: أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً- قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً قال: و هذه أشدّ من الأولى. قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً- فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قال: مائل، فقال خضر بيده هكذا فأقامه، ف قالَ موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا و لم يضيفونا لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً- قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: وددنا أن موسى كان صبر حتى يقصّ اللّه علينا من خبرهما. قال سعيد بن جبير: و كان ابن عباس يقرأ: «و كان أمامهم ملك يأخذ كلّ سفينة غصبا» و كان يقرأ: «و أما الغلام فكان كافرا و كان أبواه مؤمنين» و بقية روايات سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب هى موافقة لهذه الرواية فى المعنى، و إن تفاوتت الألفاظ فى بعضها، فلا فائدة فى الإطالة بذكرها، و كذلك روايات غير سعيد عنه.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٧١ الى ٨٢]

فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ أَ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (٧١) قالَ أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٢) قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَ لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (٧٣) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (٧٤) قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٥)
قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (٧٦) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (٧٧) قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (٧٩) وَ أَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً (٨٠)
فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً (٨١) وَ أَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَ يَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (٨٢)

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٥٧

قوله: فَانْطَلَقا أى: موسى و الخضر على ساحل البحر يطلبان السفينة، فمرّت بهم سفينة فكلّموهم أن يحملوهم فحملوهم حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قيل: قلع لوحا من ألواحها، و قيل: لوحين ممّا يلى الماء، و قيل: خرق جدار السفينة ليعيبها، و لا يتسارع الغرق إلى أهلها قالَ موسى: أَ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً أى: لقد أتيت أمرا عظيما، يقال: أمر الأمر إذا كبر، و الإمر: الاسم منه. و قال أبو عبيدة: الإمر: الداهية العظيمة؛ و أنشد:

قد لقى الأقران منّى نكراداهية دهياء إدّا «١» إمرا

و قال القتبى: الإمر: العجب. و قال الأخفش: أمر أمره يأمر إذا اشتد، و الاسم الإمر. قرأ حمزة و الكسائى ليغرق أهلها بالياء التحتية المفتوحة، و رفع أهلها على أنه فاعل. و قرأ الباقون بالفوقية المضمومة و نصب أهلها على المفعولية قالَ أى: الخضر أَ لَمْ أَقُلْ

إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْراً أذکره ما تقدم من قوله له سابقا: إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْراً ف قالَ له موسى لا تُؤاخِذْنِی بِما نَسِیتُ یحتمل أن تکون ما مصدریة، أی: لا تؤاخذنی بنسیانی أو موصولة، أی: لا تؤاخذنی بالذی نسیته، و هو قول الخضر: فَلا تَسْئَلْنِی عَنْ شَیْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَکَ مِنْهُ ذِکْراً فالنسیان إمّا على حقیقته على تقدیر أن موسى نسی ذلک، أو بمعنى الترک على تقدیر أنه لم ینس ما قاله له، و لکنه ترک العمل به وَ لا تُرْهِقْنِی مِنْ أَمْرِی عُسْراً قال أبو زید: أرهقته عسرا: إذا کلفته ذلک، و المعنى عاملنی بالیسر لا بالعسر. و قرئ عسرا بضمتین فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِیا غُلاماً فَقَتَلَهُ أی: الخضر، و لفظ الغلام یتناول الشاب البالغ کما یتناول الصغیر، قیل: کان الغلام یلعب مع الصبیان فاقتلع الخضر رأسه قالَ موسى أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَکِیَّةً بِغَیْرِ نَفْسٍ قرأ نافع و ابن کثیر و أبو عمرو و أبو جعفر و أویس بألف بعد الزای و تخفیف الیاء اسم فاعل.

و قرأ الباقون بتشدید الیاء من دون ألف، الزاکیة: البریئة من الذنوب. قال أبو عمرو: الزاکیة: التی لم تذنب، و الزکیة: التی أذنبت ثم تابت. و قال الکسائی: الزاکیة و الزکیة لغتان. و قال الفراء: الزاکیة و الزکیة مثل القاسیة و القسیّة، و معنى بِغَیْرِ نَفْسٍ بغیر قتل نفس محرّمة حتى یکون قتل هذه قصاصا لَقَدْ جِئْتَ شَیْئاً نُکْراً أی: فظیعا منکرا لا یعرف فی الشرع. قیل: معناه أنکر من الأمر الأوّل لکون القتل لا یمکن تدارکه، بخلاف نزع اللوح من السفینة فإنه یمکن تدارکه بإرجاعه؛ و قیل: النکر أقلّ من الأمر؛ لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفینة. قیل: استبعد موسى أن یقتل نفسا بغیر نفس، و لم یتأوّل للخضر بأنه یحلّ القتل بأسباب أخرى قالَ الخضر أَ لَمْ أَقُلْ لَکَ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْراً زاد هنا لفظ لک؛ لأن سبب العتاب أکثر، و موجبه أقوى؛ و قیل: زاد لفظ لک لقصد التأکید کما تقول لمن توبّخه:

---

(۱). فی المطبوع: و أمرا، و المثبت من مجاز القرآن (۱/ ۴۰۹) و تفسیر القرطبی (۱۱/ ۱۹)

لک أقول و إیاک أعنی قالَ موسى إِنْ سَأَلْتُکَ عَنْ شَیْءٍ بَعْدَها أی: بعد هذه المرّة، أو بعد هذه النفس المقتولة فَلا تُصاحِبْنِی أی: لا تجعلنی صاحبا لک، نهاه عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره، و لذا قال: قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّی عُذْراً یرید أنک قد أعذرت حیث خالفتک ثلاث مرّات، و هذا کلام نادم شدید الندامة، اضطره الحال إلى الاعتراف و سلوک سبیل الإنصاف. قرأ الأعرج تصحبنی بفتح التاء و الباء و تشدید النون. و قرأ الجمهور تُصاحِبْنِی و قرأ یعقوب تصحبنی بضم التاء و کسر الحاء و رواها سهل عن أبی عمرو. قال الکسائی: معناه لا تترکنی أصحبک. و قرأ الجمهور لَدُنِّی بضم الدال إلا أن نافعا و عاصما خففا النون، و شددها الباقون. و قرأ أبو بکر عن عاصم لَدُنِّی بضم اللام و سکون الدال. قال ابن مجاهد: و هی غلط. قال أبو علیّ: هذا التغلیط لعلّه من جهة الروایة، فأما على قیاس العربیة فصحیحة. و قرأ الجمهور عُذْراً بسکون الذال. و قرأ عیسى بن عمر بضم الذال. و حکى الدّانی أن أبیّا روى عن النبی صلّى اللّه علیه و سلّم بکسر الراء و یاء بعدها، بإضافة العذر إلى نفسه فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَیا أَهْلَ قَرْیَةٍ قیل: هی أیلة، و قیل: أنطاکیة، و قیل: برقة، و قیل: قریة من قرى أذربیجان، و قیل: قریة من قرى الروم اسْتَطْعَما أَهْلَها هذه الجملة فی محلّ الجر على أنها صفة لقریة، و وضع الظاهر موضع المضمر لزیادة التأکید، أو لکراهة اجتماع الضمیرین فی هذه الکلمة لما فیه من الکلفة، أو لزیادة التشنیع على أهل القریة بإظهارهم فَأَبَوْا أَنْ یُضَیِّفُوهُما أی: أبوا أن یعطوهما ما هو حقّ واجب علیهم من ضیافتهما، فمن استدل بهذه الآیة على جواز السؤال و حلّ الکدیة «۱» فقد أخطأ خطأ بینا، و من ذلک قول بعض الأدباء الذین یسألون الناس:

فإن رددت فما فی الرّدّ منقصةعلیّ قد ردّ موسى قبل و الخضر

و قد ثبت فی السنة تحریم السؤال بما لا یمکن دفعه من الأحادیث الصحیحة الکثیرة فَوَجَدا فِیها أی:

فى القرية جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ إسناد الإرادة إلى الجدار مجاز. قال الزجّاج: الجدار لا يريد إرادة حقيقية إلا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المريدين القاصدين فوصف بالإرادة، و منه قول الرّاعى:

فى مهمه فلقت به هاماتهافلق الفؤوس إذا أردن نصولا

و معنى الانقضاض: السقوط بسرعة، يقال: انقضّ الحائط إذا وقع، و انقضّ الطائر: إذا هوى من طيرانه فسقط على شىء، و معنى فأقامه: فسوّاه؛ لأنه وجده مائلا فردّه كما كان، و قيل: نقضه و بناه، و قيل:

أقامه بعمود، و قد تقدّم فى الحديث الصحيح أنه مسحه بيده قالَ موسى لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً أى: على إقامته و إصلاحه، تحريضا من موسى للخضر على أخذ الأجر. قال الفراء: معناه لو شئت لم تقمه حتى يقرونا فهو الأجر، قرأ أبو عمرو و يعقوب و ابن كثير و ابن محيصن و اليزيدى و الحسن «لتخذت» يقال: تخذ فلان يتخذ تخذا مثل اتخذ. و قرأ الباقون لَاتَّخَذْتَ قالَ الخضر هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ

---

(١). «الكدية»: تكفّف الناس و الاستجداء.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٥٩

على إضافة فراق إلى الظرف اتساعا، أى: هذا الكلام و الإنكار منك على ترك الأجر هو المفرق بيننا. قال الزجاج: المعنى هذا فراق بيننا، أى: هذا فراق اتصالنا، و كرّر بين تأكيدا، و لما قال الخضر لموسى بهذا أخذ فى بيان الوجه الذى فعل بسببه تلك الأفعال التى أنكرها موسى فقال: سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً و التأويل: رجوع الشىء إلى مآله. ثم شرع فى البيان له فقال: أَمَّا السَّفِينَةُ يعنى التى خرقها فَكانَتْ لِمَساكِينَ لضعفاء لا يقدرون على دفع من أراد ظلمهم يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ و لم يكن لهم مال غير تلك السفينة يكرونها من الذى يركبون البحر و يأخذون الأجرة، و قد استدلّ الشافعى بهذه الآية على أن الفقير أسوأ حالا من المسكين فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها أى: أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ قال المفسرون: يعنى أمامهم، و وراء يكون بمعنى أمام، و قد مرّ الكلام على هذا فى قوله: وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ «١» و قيل: أراد خلفهم، و كان طريقهم فى الرجوع عليه، و ما كان عندهم خبر بأنه يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً أى كل سفينة صالحة لا معيبة، و قد قرئ بزيادة «صالحة» روى ذلك عن أبىّ و ابن عباس. و قرأ جماعة بتشديد السين من مساكين، و اختلف فى معناها، فقيل: هم ملاحو السفينة، و ذلك أن المساك هو الذى يمسك السفينة، و الأظهر قراءة الجمهور: بالتخفيف وَ أَمَّا الْغُلامُ يعنى الذى قتله فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ أى: و لم يكن هو كذلك فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما أى: يرهق الغلام أبويه، يقال: رهقه، أى: غشيه، و أرهقه: أغشاه. قال المفسرون: معناه خشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه فى دينه، و هو الكفر، و طُغْياناً مفعول يرهقهما وَ كُفْراً معطوف عليه، و قيل: المعنى: فخشينا أن يرهق الوالدين طغيانا عليهما و كفرا لنعمتهما بعقوقه. قيل: و يجوز أن يكون فخشينا من كلام اللّه، و يكون المعنى: كرهنا كراهة من خشى سوء عاقبة أمره فغيره، و هذا ضعيف جدا، فالكلام كلام الخضر. و قد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلّة، فقيل: إنه كان بالغا، و قد استحقّ ذلك بكفره، و قيل: كان يقطع الطريق فاستحقّ القتل لذلك، و يكون معنى فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً: أنّ الخضر خاف على الأبوين أن يذبّا عنه و يتعصّبا له فيقعا فى المعصية، و قد يؤدّى ذلك إلى الكفر و الارتداد. و الحاصل أنه لا إشكال فى قتل الخضر له إذا كان بالغا كافرا، أو قاطعا للطريق، هذا فيما تقتضيه الشريعة الإسلامية، و يمكن أن يكون للخضر شريعة من عند اللّه سبحانه تسوّغ له ذلك، و أما إذا كان الغلام صبيا غير بالغ، فقيل: إن الخضر علم بإعلام اللّه له أنه لو صار بالغا لكان كافرا يتسبّب عن كفره إضلال أبويه و كفرهما، و هذا و إن كان ظاهر الشريعة الإسلامية يأباه، فإن قتل من لا ذنب له و لا قد جرى عليه قلم التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله لا يحلّ فى

الشريعة المحمدية، و لكنه حلّ فى شريعة أخرى، فلا إشكال. و قد ذهب الجمهور إلى أن الخضر كان نبيا فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ قرأ الجمهور بفتح الباء الموحدة و تشديد الدال. و قرأ عاصم و ابن عامر و أبو جعفر و يعقوب بسكون الباء و تخفيف الدال، و المعنى: أردنا أن يرزقهما اللّه بدل هذا الولد ولدا خيرا منه زَكاةً أى: دينا و صلاحا

---

(۱). إبراهيم: ۱۷.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۶۰

و طهارة من الذنوب وَ أَقْرَبَ رُحْماً قرأ ابن عباس و حمزة و الكسائى و ابن كثير و ابن عامر رُحْماً بضم الحاء. و قرأ الباقون بسكونها، و معنى الرحم: الرحمة، يقال: رحمه اللّه رحمة و رحمى، و الألف للتأنيث وَ أَمَّا الْجِدارُ يعنى الذى أصلحه فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ هى القرية المذكورة سابقا، و فيه جواز إطلاق اسم المدينة على القرية لغة وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما قيل: كان مالا- جسيما كما يفيده اسم الكنز، إذ هو المال المجموع. قال الزجّاج: المعروف فى اللغة أن الكنز إذا أفرد؛ فمعناه المال المدفون، فإذا لم يكن مالا قيل: كنز علم و كنز فهم؛ و قيل: لوح من ذهب؛ و قيل: صحف مكتوبة وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً فكان صلاحه مقتضيا لرعاية ولديه و حفظ مالهما، قيل: هو الذى دفنه، و قيل هو الأب السابع من عند الدافن له، و قيل العاشر فَأَرادَ رَبُّکَ أى: مالكك و مدبّر أمرك، و أضاف الرب إلى ضمير موسى تشريفا له أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما أى: كمالهما و تمام نموّهما وَ يَسْتَخْرِجا كَنزَهُما من ذلك الموضع الذى عليه الجدار، و لو انقضّ لخرج الكنز من تحته رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ لهما، و هو مصدر فى موضع الحال، أى:

مرحومين من اللّه سبحانه وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِی أى: عن اجتهادى و رأيى، و هو تأكيد لما قبله، فقد علم بقوله: فَأَرادَ رَبُّکَ أنه لم يفعله الخضر عن أمر نفسه ذلِکَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً أى: ذلك المذكور من تلك البيانات التى بينتها لك و أوضحت وجوهها تأويل ما ضاق صبرك عنه و لم تطق السكوت عليه؛ و معنى التأويل هنا هو المآل الذى آلت إليه تلك الأمور، و هو اتّضاح ما كان مشتبها على موسى و ظهور وجهه، و حذف التاء من تسطع تخفيفا.

و قد أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً يقول: نكرا.

و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: إِمْراً فقال: عجبا. و أخرج ابن جرير عن أبىّ بن كعب فى قوله: لا تُؤاخِذْنِی بِما نَسِيتُ قال: لم ينس، و لكنها من معاريض الكلام. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: كان الخضر عبدا لا تراه الأعين، إلا من أراد اللّه أن يريه إياه، فلم يره من القوم إلا موسى، و لو رآه القوم لحالوا بينه و بين خرق السفينة و بين قتل الغلام. و أقول: ينبغى أن ينظر من أين له هذا؟ فإن لم يكن مستنده إلا قوله:

و لو رآه القوم إلخ، فليس ذلك بموجب لما ذكره، أما أوّلا فإن من الجائز أن يفعل ذلك من غير أن يراه أهل السفينة و أهل الغلام، لا لكونه لا تراه الأعين، بل لكونه فعل ذلك من غير اطلاعهم. و أما ثانيا فيمكن أن أهل السفينة و أهل الغلام قد عرفوه و عرفوا أنه لا يفعل ذلك إلا بأمر من اللّه كما يفعل الأنبياء، فسلموا لأمر اللّه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: نَفْساً زَكِيَّةً قال: مسلمة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير، قال: لم تبلغ الخطايا. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن الحسن نحوه. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: شَيْئاً نُكْراً قال:

النكر: أنكر من العجب. و أخرج أحمد عن عطاء قال: كتب نجدة الحرورى إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان، فكتب إليه إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم. و زاد ابن أبى شيبة من طريق أخرى

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۶۱
عنه: و لكنك لا تعلم، قد نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قتلهم فاعتزلهم. و أخرج مسلم و أبو داود و الترمذى، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و ابن مردويه عن أبىّ بن كعب عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا، و لو أدرك لأرهق أبويه طغيانا و كفرا. و أخرج أبو داود و الترمذى و عبد اللّه بن أحمد و البزار و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه عن أبىّ أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً مثقلة. و أخرج ابن مردويه عن أبىّ أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ: أَنْ يُضَيِّفُوهُما مشددة. و أخرج ابن الأنبارى فى المصاحف، و ابن مردويه عن أبىّ بن كعب عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قرأ: فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فهدمه، ثم قعد يبنيه. قلت: و رواية الصحيحين التى قدّمناها أنه مسحه بيده أولى. و أخرج الفريابى فى معجمه، و ابن حبان و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أبىّ أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ: لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً مخففة. و أخرج ابن أبى شيبة و أبو داود و الترمذى و النسائى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «رحمة اللّه علينا و على موسى، لو صبر لقصّ اللّه علينا من خبره، و لكن قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ: و كان أمامهم ملك يأخذ كلّ سفينة صالحة غصبا. و أخرج ابن الأنبارى عن أبىّ بن كعب أنه قرأها كذلك. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر عن أبى الزاهرية قال: كتب عثمان «و كان وراءهم ملك يأخذ كلّ سفينة صالحة غصبا».

و أخرج أبو عبيد و سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «و أما الغلام فكان كافرا و كان أبواه مؤمنين». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: هى فى مصحف عبد اللّه «فخاف ربك أن يرهقهما طغيانا و كفرا». و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

خَيْراً مِنْهُ زَكاةً قال: دينا وَ أَقْرَبَ رُحْماً قال: مودّة، فأبدلا جارية ولدت نبيا. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما قال: كان الكنز لمن قبلنا و حرّم علينا، و حرّمت الغنيمة على من كان قبلنا و أحلّت لنا، فلا يعجبنّ الرجل، فيقول: فما شأن الكنز؟ أحلّ لمن قبلنا و حرّم علينا؟ فإن اللّه يحل من أمره ما يشاء و يحرّم ما يشاء، و هى السنن و الفرائض، يحلّ لأمة و يحرّم على أخرى. و أخرج البخارى فى تاريخه، و الترمذى و حسّنه، و البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أبى الدرداء عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما قال:

«ذهب و فضة». و أخرج الطبرانى عن أبى الدرداء فى قوله: وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما قال: أحلّت لهم الكنوز و حرّمت عليهم الغنائم، و أحلت لنا الغنائم، و حرّمت علينا الكنوز. و أخرج البزار و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى ذرّ رفعه قال: إن الكنز الذى ذكره اللّه فى كتابه لوح من ذهب مصمت فيه: عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب، و عجبت لمن ذكر النار ثم ضحك، و عجبت لمن ذكر الموت ثم غفل، لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه. و فى نحو هذا روايات كثيرة لا تتعلّق بذكرها فائدة. و أخرج ابن المبارك و سعيد بن منصور، و أحمد فى الزهد، و الحميدى فى مسنده، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس فى

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۶۲
قوله: وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً قال: حفظا بصلاح أبيهما. و أخرج ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه عزّ و جلّ يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده و ولد ولده و أهل دويرته و أهل دويرات حوله، فما يزالون فى حفظ اللّه تعالى

ما دام فيهم». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: إن اللّه يصلح بصلاح الرجل ولده و ولد ولده و يحفظه فى دويرته، و الدويرات حوله، فما يزالون فى ستر من اللّه و عافية.
و أخرج ابن جرير من طريق الحسن بن عمارة عن أبيه قال: قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى بذكر و قد كان معه؟ فقال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى قال: إنه شرب من الماء فخلد، فأخذه العالم فطابق به سفينة ثم أرسله فى البحر، فإنها لتموج به إلى يوم القيامة، و ذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه. قال ابن كثير: إسناده ضعيف، الحسن متروك، و أبوه غير معروف.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٨٣ الى ٩١]

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨۴) فَأَتْبَعَ سَبَباً (٨۵) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (٨۶) قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً (٨٧)
وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٨٩) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً (٩٠) كَذلِكَ وَ قَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً (٩١)
لما أجاب سبحانه عن سؤالين من سؤالات اليهود، و انتهى الكلام إلى حيث انتهى؛ شرع سبحانه فى السؤال الثالث و الجواب عنه، فالمراد بالسائلين هنا هم اليهود.
و اختلفوا فى ذى القرنين اختلافا كثيرا؛ فقيل: هو الإسكندر بن فيلقوس؛ الذى ملك الدنيا بأسرها؛ اليونانى بانى الإسكندرية. و قال ابن إسحاق: هو رجل من أهل مصر، اسمه مرزبان بن مردبة اليونانى، من ولد يونان بن يافث بن نوح. و قيل: هو ملك اسمه هرمس، و قيل: ملك اسمه هرديس، و قيل: شاب من الروم، و قيل: كان نبيا، و قيل: كان عبدا صالحا، و قيل: اسمه عبد اللّه بن الضحاك، و قيل: مصعب بن عبد اللّه، من أولاد كهلان بن سبأ. و حكى القرطبى عن السهيلى أنه قال: إن الظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان: أحدهما كان على عهد إبراهيم عليه السلام، و الآخر كان قريبا من عيسى عليه السلام. و قيل: هو أبو كرب الحميرى، و قيل: هو ملك من الملائكة، و رجّح الرازى القول الأوّل، قال: لأن من بلغ ملكه من السعة و القوّة إلى الغاية التى نطق بها التنزيل إنما هو الإسكندر اليونانى كما تشهد به كتب التاريخ، قال:
فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الإسكندر، قال: و فيه إشكال لأنه كان تلميذا لأرسطاطاليس الحكيم، و كان على مذهبه، فتعظيم اللّه إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق و صدق، و ذلك ممّا لا سبيل إليه.
قال النيسابورى: قلت: ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلا فلعله أخذ منهم ما صفا و ترك ما كدر و اللّه أعلم. و رجّح ابن كثير ما ذكره السّهيلى أنهما اثنان كما قدّمنا ذلك، و بيّن أن الأوّل طاف بالبيت مع إبراهيم أوّل ما بناه و آمن به و اتبعه، و كان وزيره الخضر. و أما الثانى فهو الإسكندر المقدونى اليونانى، و كان وزيره

الفيلسوف المشهور أرسطاطاليس، و كان قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة. فأما الأوّل المذكور فى القرآن فكان فى زمن الخليل، هذا معنى ما ذكره ابن كثير فى تفسيره راويا له عن الأزرقى و غيره؛ ثم قال: و قد ذكرنا طرفا صالحا من أخباره فى كتاب «البداية و النهاية» بما فيه كفاية. و حكى أبو السعود فى تفسيره عن ابن كثير أنه قال: و إنّما بينا هذا؛ يعنى أنهما اثنان؛ لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد، و أن المذكور فى القرآن العظيم هو هذا المتأخر، فيقع بذلك خطأ كبير و فساد كثير، كيف لا، و الأوّل كان عبدا صالحا مؤمنا، و ملكا عادلا، و وزيره الخضر، و قد قيل: إنه كان نبيا. و أما الثانى فقد كان كافرا، و وزيره

أرسطاطاليس الفيلسوف، و كان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفى سنة، فأين هذا من ذاك؟ انتهى. قلت: لعله ذكر هذا فى الكتاب الذى ذكره سابقا، و سمّاه بالبداية و النهاية، و لم يقف عليه، و الذى يستفاد من كتب التاريخ هو أنهما اثنان كما ذكره السهيلى و الأزرقى و ابن كثير و غيرهم، لا كما ذكره الرازى و ادّعى أنه الذى تشهد به كتب التواريخ، و قد وقع الخلاف هل هو نبيّ أم لا؟ و سيأتى ما يستفاد منه المطلوب آخر هذا البحث إن شاء اللّه.

و أما السبب الذى لأجله سمّى ذا القرنين، فقال الزجّاج و الأزهرى: إنما سمّى ذا القرنين، لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها، و قرن الشمس من مغربها، و قيل: إنه كان له ضفيرتان من شعر، و الضفائر تسمّى قرونا، و منه قول الشاعر «١»:

فلثمت فاها آخذا بقرونهاشرب النّزيف «٢» ببرد ماء الحشرج

و الحشرج: ماء من مياه العرب؛ و قيل: إنه رأى فى أوّل ملكه كأنه قابض على قرنى الشمس فسمى بذلك؛ و قيل: كان له قرنان تحت عمامته؛ و قيل: إنه دعا إلى اللّه فشجّه قومه على قرنه، ثم دعا إلى اللّه فشجوه على قرنه الآخر؛ و قيل: إنما سمّى بذلك لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه و أمه؛ و قيل: لأنه انقرض فى وقته قرنان من الناس و هو حيّ؛ و قيل: لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه و ركابيه جميعا؛ و قيل: لأنه أعطى علم الظاهر و الباطن؛ و قيل: لأنه دخل النور و الظلمة؛ و قيل: لأنه ملك فارس و الروم؛ و قيل: لأنه ملك الروم و الترك؛ و قيل: لأنه كان لتاجه قرنان. قوله: قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً أى: سأتلو عليكم أيها السائلون من ذى القرنين خبرا، و ذلك بطريق الوحى المتلوّ. ثم شرع سبحانه فى بيان ما أمر به رسوله أن يقوله لهم من أنه سيتلو عليهم منه ذكرا، فقال: إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ أى: أقدرناه بما مهّدنا له من الأسباب، فجعلنا له مكنة و قدرة على التصرّف فيها، و سهّل عليه المسير فى مواضعها، و ذلّل له طرقها حتى تمكّن منها أين شاء و كيف شاء؟ و من جملة تمكينه فيها أنه جعل له الليل و النهار سواء فى الإضاءة وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ممّا يتعلّق بمطلوبه سَبَباً أى: طريقا يتوصّل بها إلى ما يريده فَأَتْبَعَ سَبَباً من تلك الأسباب. قال المفسرون: و المعنى طريقا تؤديه إلى مغرب الشمس. قال الزجاج: فاتبع سببا من

---

(١). هو عمر بن أبى ربيعة.

(٢). «النزيف»: المحموم الذى منع من الماء.

الأسباب التى أوتى، و ذلك أنه أوتى من كل شيء سببا، فاتبع من تلك الأسباب التى أوتى سببا فى المسير إلى المغرب، و قيل: اتبع من كل شيء علما يتسبّب به إلى ما يريد؛ و قيل: بلاغا إلى حيث أراد؛ و قيل: من كل شيء يحتاج إليه الخلق، و قيل: من كل شيء تستعين به الملوك من فتح المدائن و قهر الأعداء. و أصل السبب الحبل، فاستعير لكل ما يتوصّل به إلى شيء. قرأ ابن عامر و أهل الكوفة و عاصم و حمزة و الكسائى فَأَتْبَعَ بقطع الهمزة، و قرأ أهل المدينة و أهل مكة و أبو عمرو بوصلها. قال الأخفش: تبعته و أتبعته بمعنى، مثل ردفته و أردفته، و منه قوله: فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ «١». قال النحّاس: و اختار أبو عبيدة قراءة أهل الكوفة، قال:

لأنها من السّير. و حكى هو و الأصمعى أنه يقال: تبعه و اتّبعه إذا سار و لم يلحقه، و أتبعه إذا لحقه. قال أبو عبيدة: و مثله: فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ «٢» .. قال النحاس: و هذا من الفرق و إن كان الأصمعى قد حكاه فلا يقبل إلا بعلّة أو دليل، و قوله عزّ و جلّ: فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ليس فى الحديث أنهم لحقوهم، و إنما الحديث لما خرج موسى و أصحابه من البحر و حصر فرعون و أصحابه فى البحر انطبق عليهم البحر. و الحقّ فى هذا أن تبع و اتّبع و أتبع لغات بمعنى واحد، و هو بمعنى السّير حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ أى: نهاية الأرض من جهة المغرب؛ لأنّ من وراء هذه النهاية البحر المحيط، و هو لا يمكن المضيّ فيه وَجَدَها تَغْرُبُ فِي

عَيْنٍ حَمِئَةٍ قرأ ابن عامر و عاصم و حمزة و الكسائى حامية: أى حارة. و قرأ الباقون حَمِئَةٍ أى: كثيرة الحمأة، و هى الطينة السوداء، تقول: حمأت البئر حمأ بالتسكين إذا نزعت حمأتها، و حمئت البئر حمأ بالتحريك كثرت حمأتها، و يجوز أن تكون حامية من الحمأة، فخففت الهمزة و قلبت ياء، و قد يجمع بين القراءتين فيقال كانت حارة و ذات حمأة. قيل: و لعل ذا القرنين لما بلغ ساحل البحر المحيط رآها كذلك فى نظره؛ و لا يبعد أن يقال: لا مانع من أن يمكنه اللّه من عبور البحر المحيط حتى يصل إلى تلك العين التى تغرب فيها الشمس «٣»، و ما المانع من هذا بعد أن حكى اللّه عنه أنه بلغ مغرب الشمس، و مكّن له فى الأرض و البحر من جملتها، و مجرد الاستبعاد لا يوجب حمل القرآن على خلاف ظاهره وَ وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً الضمير فى عندها إما للعين أو للشمس. قيل: هم قوم لباسهم جلود الوحش، و كانوا كفارا، فخيّره اللّه بين أن يعذّبهم و بين أن يتركهم، فقال: إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً أى: إما أن تعذّبهم بالقتل من أوّل الأمر، و إما أن تتّخذ فيهم أمرا ذا حسن، أو أمرا حسنا، مبالغة بجعل المصدر صفة للأمر، و المراد دعوتهم إلى الحق و تعليمهم الشرائع. قالَ ذو القرنين مختارا للدعوة التى هى الشق الأخير من الترديد أَمَّا مَنْ ظَلَمَ نفسه بالإصرار على الشرك و لم يقبل دعوتى فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ بالقتل فى الدنيا ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فى الآخرة فَيُعَذِّبُهُ فيها عَذاباً نُكْراً أى: منكرا فظيعا. قال الزجّاج: خيّره اللّه بين الأمرين. قال النحّاس: و ردّ علىّ بن سليمان قوله لأنه لم يصحّ أن ذا القرنين نبىّ فيخاطب بهذا، فكيف يقول لربه عزّ و جلّ: ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ و كيف يقول فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ فيخاطبه بالنون، قال: و التقدير قلنا يا محمد قالوا يا ذا القرنين. قال النحّاس: و هذا الذى ذكره لا يلزم لجواز أن يكون اللّه عزّ و جلّ خاطبه

---

(١). الحجر: ١٨.

(٢). الشعراء: ٦٠.

(٣). القول الأول هو السديد الذى يتطابق مع الحقيقة العلمية.

على لسان نبىّ فى وقته، و كأن ذا القرنين خاطب أولئك القوم فلا يلزم ما ذكره. و يمكن أن يكون مخاطبا للنبىّ الذى خاطبه اللّه على لسانه، أو خاطب قومه الذين وصل بهم إلى ذلك الموضع. قال ثعلب: إنّ فى قوله: إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فى موضع نصب، و لو رفعت لكان صوابا بمعنى فأما هو، كقول الشاعر:

فسيرا فإمّا حاجة تقضيانهاو إمّا مقيل صالح و صديق

وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ باللّه و صدّق دعوتى وَ عَمِلَ عملا صالِحاً ممّا يقتضيه الإيمان فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى قرأ أهل المدينة و أبو عمرو و عاصم و ابن كثير و ابن عامر فَلَهُ جَزاءً بالرفع على الابتداء، أى: جزاء الخصلة الحسنى عند اللّه، أو الفعلة الحسنى و هى الجنة، قاله الفرّاء. و إضافة الجزاء إلى الحسنى التى هى الجنة كإضافة حق اليقين و دار الآخرة، و يجوز أن يكون هذا الجزاء من ذى القرنين، أى: أعطيه و أتفضّل عليه، و قرأ سائر الكوفيين فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى بنصب جزاء و تنوينه. قال الفراء: انتصابه على التمييز. و قال الزجاج: هو مصدر فى موضع الحال، أى: مجزيا بها جزاء، و قرأ ابن عباس و مسروق بنصب جَزاءً من غير تنوين. قال أبو حاتم: هى على حذف التنوين لالتقاء الساكنين. قال النحّاس: و هذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين. و قرئ برفع جزاء منوّنا على أنه مبتدأ، و الحسنى بدل منه و الخبر الجارّ و المجرور وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً أى: ممّا نأمر به قولا ذا يسر ليس بالصعب الشاق، أو أطلق عليه المصدر مبالغة ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً أى: طريقا آخر غير الطريق الأولى، و هى التى رجع بها من المغرب، و سار فيها إلى المشرق حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ أى: الموضع الذى تطلع عليه الشمس أوّلا من معمور الأرض، مكان طلوع، لعدم المانع شرعا و لا عقلا من وصوله إليه كما أوضحناه فيما سبق وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ

دُونِها سِتْراً يسترهم، لا- من البيوت و لا من اللباس، بل هم حفاة عراة لا يأوون إلى شـيء من العمارة. قيل: لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقرّ عليها البناء كَذلِكَ وَ قَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً أى: كذلك أمر ذى القرنين أتبع هذه الأسباب حتى بلغ، و قد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك و الاستقلال به؛ و قيل: المعنى: لم نجعل لهم سترا مثل ذلك الستر الذى جعلنا لكم من الأبنية و الثياب؛ و قيل: المعنى: كذلك بلغ مطلع الشمس مثل ما بلغ من مغربها؛ و قيل:

المعنى: كذلك تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم، فقضى فى هؤلاء كما قضى فى أولئك من تعذيب الظالمين و الإحسان إلى المؤمنين، و يكون تأويل الإحاطة بما لديه فى هذه الوجوه على ما يناسب ذلك، كما قلنا فى الوجه الأوّل.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: قالت اليهود للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: يا محمد إنك إنما تذكر إبراهيم و موسى و عيسى و النبيين، إنك سمعت ذكرهم منّا، فأخبرنا عن نبىّ لم يذكره اللّه فى التوراة إلا فى مكان واحد، قال: و من هو؟ قالوا: ذو القرنين، قال: ما بلغنى عنه شىء، فخرجوا فرحين قد غلبوا فى أنفسهم، فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات وَ يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ و أخرج عبد الرزاق

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٦٦

و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم، و صحّحه، و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما أدرى أتبع كان نبيا أم لا؟ و ما أدرى أ ذو القرنين كان نبيا أم لا؟ و ما أدرى الحدود كفارات لأهلها أم لا؟». و أخرج ابن مردويه عن سالم بن أبى الجعد قال: سئل علىّ عن ذى القرنين أ نبىّ هو؟ قال: سمعت نبيكم صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «هو عبد ناصح اللّه فنصحه». و أخرج ابن عبد الحكم فى «فتوح مصر»، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى المصاحف، و ابن أبى عاصم فى السّنّة، و ابن مردويه من طريق أبى الطفيل أن ابن الكواء سأل علىّ بن أبى طالب عن ذى القرنين: أ نبيا كان أم ملكا؟ قال: لم يكن نبيا و لا ملكا، و لكن كان عبدا صالحا أحبّ اللّه فأحبه اللّه، و نصح للّه فنصحه اللّه، بعثه اللّه إلى قومه فضربوه على قرنه فمات، ثم أحياه اللّه لجهادهم، ثم بعثه اللّه إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر فمات، فأحياه اللّه لجهادهم، فلذلك سمّى ذا القرنين، و إن فيكم مثله. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عمرو قال: ذو القرنين نبىّ.

و أخرج ابن أبى حاتم عن الأحوص بن حكيم عن أبيه أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم سئل عن ذى القرنين فقال: «هو ملك مسح الأرض بالأسباب». و أخرج ابن عبد الحكم فى «فتوح مصر»، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن خالد بن معدان الكلاعى مرفوعا مثله. و أخرج ابن عبد الحكم و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى كتاب «الأضداد»، و أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب أنه سمع رجلا ينادى بمنى:

يا ذا القرنين، فقال عمر: ها أنتم قد سمعتم بأسماء الأنبياء فما بالكم و أسماء الملائكة؟ و فى الباب غير ما ذكرناه مما يغنى عنه ما قد أوردناه. و قد أخرج ابن عبد الحكم فى «فتوح مصر»، و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و البيهقى فى الدلائل، عن عقبة بن عامر الجهنى حديثا يتضمّن أن نفرا من اليهود سألوا النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن ذى القرنين، فأخبرهم بما جاءوا له ابتداء، و كان فيما أخبرهم به أنه كان شابا من الروم، و أنه بنى الإسكندرية، و أنه علا به ملك فى السماء، و ذهب به إلى السدّ. و إسناده ضعيف، و فى متنه نكارة، و أكثر ما فيه أنه من أخبار بنى إسرائيل، ذكر معنى هذا ابن كثير فى تفسيره و عزاه إلى ابن جرير و الأموى فى مغازيه؛ ثم قال بعد ذلك: و العجب أن أبا زرعة الرازى مع جلالة قدره ساقه بتمامه فى كتابه «دلائل النبوّة» انتهى.

و قد ساقه بتمامه السيوطى فى «الدرّ المنثور»، و ساق أيضا خبرا طويلا عن وهب بن منبه و عزاه إلى ابن إسحاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الشيرازى فى الألقاب؛ و أبى الشيخ، و فيه أشياء منكرة جدّا، و كذلك ذكر خبرا طويلا عن محمد الباقر أخرجه

ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و لعل هذه الأخبار و نحوها منقولة عن أهل الكتاب، و قد أمرنا بأن لا نصدقهم و لا نكذبهم فيما ينقلونه إلينا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً قال: علما. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن أبى هلال أن معاوية بن أبى سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا، قال له كعب:

إن كنت قلت ذلك فإن اللّه قال: وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق عثمان بن حاضر «١» أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبى

---

(١). فى المطبوع: عثمان بن أبى حاضر، قال ابن حجر فى التقريب (٢/ ٧): و هو و هم.

سفيان قرأ الآية التى فى سورة الكهف «تغرب فى عين حامية» قال ابن عباس: فقلت لمعاوية ما نقرؤها إلا حَمِئَةٍ فسأل معاوية عبد بن عمرو كيف تقرؤها؟ فقال عبد اللّه: كما قرأتها، قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: فى بيتى نزل القرآن، فأرسل إلى كعب، فقال له: أين تجد الشمس تغرب فى التوراة؟ فقال له كعب:

سل أهل العربية فإنهم أعلم بها، و أما أنا فإنى أجد فى التوراة فى ماء و طين، و أشار بيده إلى المغرب. قال ابن حاضر: لو أنى عند كما أيدتك بكلام تزداد به بصيرة فى حمئة: قال ابن عباس: و ما هو؟ قلت: فيما نأثر قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين فى كلفه بالعلم و اتّباعه إياه:

قد كان ذو القرنين عمرو مسلماملكا تذلّ له الملوك و تحسد

فأتى المشارق و المغارب يبتغى أسباب ملك من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبهافى عين ذى خلب و ثأط حرمد

فقال ابن عباس: ما الخلب؟ قلت: الطين بكلامهم، قال: فما الثأط؟ قلت: الحمأة. قال: فما الحرمد؟ قلت: الأسود؛ فدعا ابن عباس غلاما فقال: اكتب ما يقول هذا الرجل. و أخرج الترمذى و أبو داود الطيالسى و ابن جرير و ابن المنذر عن أبىّ بن كعب أن النبى كان يقرأ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ. و أخرج الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا مثله.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٩٢ الى ٩٨]

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٩٢) حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣) قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْماً (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (٩٦)

فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً (٩٧) قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)

ثم حكى سبحانه سفر ذى القرنين إلى ناحية أخرى، و هى ناحية القطر الشمالى بعد تهيئة أسبابه، فقال:

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً أى: طريقا ثالثا معترضا بين المشرق و المغرب حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ قرأ ابن كثير و أبو عمرو و حفص و ابن محيصن و يحيى اليزيدى و أبو زيد عن المفضل بفتح السين. و قرأ الباقون بضمها.

قال أبو عبيدة و ابن الأنبارى و أبو عمرو بن العلاء: السد إن كان بخلق اللّه سبحانه فهو بضم السين حتى يكون بمعنى مفعول، أى: هو مما فعله اللّه و خلقه، و إن كان من عمل العباد فهو بالفتح حتى يكون حدثا. و قال ابن الأعرابى: كل ما قابلك فسدّ ما وراءه فهو سدّ و سدّ نحو الضّعف و الضّعف، و الفقر و الفقر، و السدّان هما جبلان من قبل أرمينية و أذربيجان، و انتصاب بين على أنه مفعول به كما ارتفع بالفاعلية فى قوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ «١». و قيل: موضع بين السدّين هو منقطع أرض الترك مما يلى المشرق لا جبلا أرمينية و أذربيجان.

---

(١). الأنعام: ٩۴.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣۶٨

و حكى ابن جرير فى «تاريخه» أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجه إنسانا من ناحية الجزر فشاهده، و وصف أنه بنيان رفيع وراء خندق وثيق منيع، و وَجَدَ مِنْ دُونِهِما أى: من ورائهما مجازا عنهما، و قيل: أمامهما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قرأ حمزة و الكسائى يفقهون بضم الياء و كسر القاف من أفقه إذا أبان، أى: لا يبينون لغيرهم كلاما، و قرأ الباقون بفتح الياء و القاف، أى: لا يفهمون كلام غيرهم، و القراءتان صحيحتان، و معناهما لا يفهمون عن غيرهم و لا يفهمون غيرهم، لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم قالُوا أى: هؤلاء القوم الذين لا يفهمون قولا، قيل: إن فهم ذى القرنين لكلامهم من جملة الأسباب التى أعطاه اللّه، و قيل: إنهم قالوا ذلك لترجمانهم، فقال لذى القرنين بما قالوا له: يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ يأجوج و مأجوج اسمان عجميان بدليل منع صرفهما، و به قال الأكثر.

و قيل: مشتقان من أجّ الظليم فى مشيه إذا هرول، و تأججت النار إذا تلهبت، قرأهما الجمهور غير همز، و قرأ عاصم بالهمز. قال ابن الأنبارى: وجه همزهما و إن لم يعرف له أصل أن العرب قد همزت حروفا لا يعرف للهمز فيها أصل كقولهم: كبأثت و رثأت و استشأت الريح. قال أبو على: يجوز أن يكونا عربيين، فمن همز فهو على وزن يفعول مثل يربوع، و من لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلبها ألفا مثل رأس. و أما مأجوج، فهو مفعول من أجّ، و الكلمتان من أصل واحد فى الاشتقاق. قال: و ترك الصرف فيهما على تقدير كونهما عربيين للتأنيث و التعريف كأنه اسم للقبيلة.

و اختلف فى نسبهم؛ فقيل: هم من ولد يافث بن نوح، و قيل يأجوج من الترك و مأجوج من الجيل و الديلم. و قال كعب الأحبار: احتلم آدم فاختلط ماؤه بالتراب فخلقوا من ذلك الماء. قال القرطبى: و هذا فيه نظر، لأنّ الأنبياء لا يحتلمون، و إنما هم من ولد يافث، كذلك قال مقاتل و غيره.

و قد وقع الخلاف فى صفتهم؛ فمن الناس من يصفهم بصغر الجثث و قصر القامة، و منهم من يصفهم بكبر الجثث و طول القامة، و منهم من يقول لهم مخالب كمخالب السباع، و إن منهم صنفا يفترش إحدى أذنيه و يلتحف بالأخرى، و لأهل العلم من السلف و من بعدهم أخبار مختلفة فى صفاتهم و أفعالهم.

و اختلف فى إفسادهم فى الأرض، فقيل: هو أكل بنى آدم، و قيل: هو الظلم و الغشم و القتل و سائر وجوه الإفساد؛ و قيل: كانوا يخرجون إلى أرض هؤلاء القوم الذين شكوهم إلى ذى القرنين فى أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئا أخضر إلا أكلوه فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً هذا الاستفهام من باب حسن الأدب مع ذى القرنين.

و قرئ خراجا. قال الأزهرى: الخراج يقع على الضريبة، و يقع على مال الفىء، و يقع على الجزية، و على الغلّة. و الخراج أيضا: اسم لما يخرج من الفرائض فى الأموال، و الخرج المصدر. و قال قطرب: الخرج الجزية، و الخراج فى الأرض؛ و قيل: الخرج ما يخرجه كل أحد من ماله، و الخراج: ما يجبيه السلطان؛ و قيل:

هما بمعنى واحد عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا أى: ردما حاجزا بيننا و بينهم. و قرئ سدّا بفتح السين.
قال الخليل و سيبويه: الضم هو الاسم، و الفتح المصدر. و قال الكسائى: الفتح و الضم لغتان بمعنى واحد، و قد سبق قريبا ما حكيناه عن أبى عمرو بن العلاء و أبى عبيدة و ابن الأنبارى من الفرق بينهما. و قال ابن أبى

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٦٩

إسحاق: ما رأته عيناك فهو سدّ بالضم، و ما لا ترى فهو سدّ بالفتح، و قد قدّمنا بيان من قرأ بالفتح و بالضم فى السدّين قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي أى: قال لهم ذو القرنين: ما بسطه اللّه لى من القدرة و الملك خَيْرٌ من خرجكم، ثم طلب منهم المعاونة له فقال: فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أى: برجال منكم يعملون بأيديهم، أو أعينونى بآلات البناء، أو بمجموعهما. قال الزّجّاج: بعمل تعملونه معى. قرأ ابن كثير وحده «ما مكننى» بنونين، و قرأ الباقون بنون واحدة أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْماً هذا جواب الأمر، و الردم: ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل. قال الهروى: يقال ردمت الثلمة أردمها بالكسر ردما، أى: سددتها، و الردم أيضا الاسم، و هو السدّ، و قيل: الردم أبلغ من السدّ، إذ السدّ كل ما يسدّ به، و الردم: وضع الشىء على الشىء من حجارة أو تراب أو نحوهما حتى يقوم من ذلك حجاب منيع، و منه ردم ثوبه: إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض، و منه قول عنترة:

هل غادر الشّعراء من متردّم «١» ....

أى: من قول يركب بعضه على بعض آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ أى: أعطونى و ناولونى، و زبر الحديد جمع زبرة، و هى القطعة. قال الخليل: الزّبرة من الحديد القطعة الضخمة. قال الفراء: معنى آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ايتونى بها، فلما ألقيت الياء زيدت ألفا، و على هذا فانتصاب زبر بنزع الخافض حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ و الصدفان: جانبا الجبل. قال الأزهرى: يقال لجانبى الجبل صدفان إذا تحاذيا لتصادفهما، أى: تلاقيهما، و كذا قال أبو عبيدة و الهروى. قال الشاعر:

كلا الصّدفين ينفذه سناهاتوقّد مثل مصباح الظّلام

و قد يقال لكلّ بناء عظيم مرتفع صدف، قاله أبو عبيدة، قرأ نافع و حمزة و الكسائى و حفص الصدفين بفتح الصاد و الدال. و قرأ ابن كثير و ابن عامر و أبو عمرو و يعقوب و اليزيدى و ابن محيصن بضم الصاد و الدال.

و قرأ عاصم فى رواية أبى بكر بضم الصاد و سكون الدال. و قرأ ابن الماجشون بفتح الصاد و ضم الدال، و اختار القراءة الأولى أبو عبيد لأنها أشهر اللغات، و معنى الآية: أنهم أعطوه زبر الحديد، فجعل يبنى بها بين الجبلين حتى ساواهما قالَ انْفُخُوا أى: قال للعملة «٢»: انفخوا على هذه الزبر بالكيران حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً أى جعل ذلك المنفوخ فيه، و هو الزبر نارا: أى كالنار فى حرّها و إسناد الجعل إلى ذى القرنين مجاز لكونه الآمر بالنفخ. قيل: كان يأمر بوضع طاقة من الزبر و الحجارة ثم يوقد عليها الحطب و الفحم بالمنافخ حتى يتحمّى، و الحديد إذا أوقد عليه صار كالنار، ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة، و هو معنى قوله: قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً قال أهل اللغة: القطر النحاس الذائب، و الإفراغ: الصبّ، و كذا قال أكثر المفسرين. و قالت طائفة: القطر الحديد المذاب. و قالت فرقة أخرى منهم ابن الأنبارى:

هو الرصاص المذاب فَمَا اسْطاعُوا أصله استطاعوا، فلما اجتمع المتقاربان، و هما التاء و الطاء خففوا

---

(١). و عجزه: أم هل عرفت الدّار بعد توهّم.

(٢). أى العمّال.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٧٠

بالحذف. قال ابن السّكّيت: يقال ما أستطيع، و ما أسطيع، و ما أستيع. و بالتخفيف قرأ الجمهور، و قرأ حمزة وحده فَمَا اسْطاعُوا

بتشديد الطاء كأنه أراد استطاعوا فأدغم التاء فى الطاء و هى قراءة ضعيفة الوجه، قال أبو على الفارسى: هى غير جائزة. و قرأ الأعمش فما استطاعوا على الأصل، و معنى أَنْ يَظْهَرُوهُ أن يعلوه؛ أى فما استطاع يأجوج و مأجوج أن يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه و ملاسته وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً يقال نقبت الحائط: إذا خرقت فيه خرقا فخلص إلى ما وراءه. قال الزجّاج: ما قدروا أن يعلوا عليه لارتفاعه و انملاسه، و ما استطاعوا أن ينقبوه من أسفله لشدّته و صلابته قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى أى قال ذو القرنين مشيرا إلى السدّ: هذا السدّ رحمة من ربى، أى: أثر من آثار رحمته لهؤلاء المتجاوزين للسدّ و لمن خلفهم ممن يخشى عليه معرّتهم لو لم يكن ذلك السدّ؛ و قيل: الإشارة إلى التمكين من بنائه فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّى أى: أجل ربى أن يخرجوا منه، و قيل: هو مصدر بمعنى المفعول، و هو يوم القيامة جَعَلَهُ دَكَّاءَ أى: مستويا بالأرض، و منه قوله: كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا «١». قال الترمذى: أى:

مستويا، يقال ناقة دكاء: إذا ذهب سنامها. و قال القتبى: أى: جعله مدكوكا ملصقا بالأرض. و قال الحليمى: قطعا متكسرا. قال الشاعر:

هل غير غاد دكّ غارا فانهدم قال الأزهرى: دككته، أى: دققته. و من قرأ دكاء بالمد و هو عاصم و حمزة و الكسائى أراد التشبيه بالناقة الدكاء، و هى التى لا سنام لها، أى: مثل دكاء؛ لأن السد مذكر فلا يوصف بدكاء. و قرأ الباقون دكا بالتنوين على أنه مصدر، و معناه ما تقدّم، و يجوز أن يكون مصدرا بمعنى الحال، أى: مدكوكا وَ كانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا أى: وعده بالثواب و العقاب، أو الوعد المعهود حقا ثابتا لا يتخلّف، و هذا آخر قول ذى القرنين.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ قال: الجبلين أرمينية و أذربيجان. و أخرج أيضا عن ابن جريج لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قال: الترك. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: يأجوج و مأجوج شبر و شبران و أطولهم ثلاثة أشبار؛ و هم من ولد آدم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، و ابن عساكر عن ابن عمرو عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن يأجوج و مأجوج من ولد آدم و لو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم، و لا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا، و إن من ورائهم ثلاث أمم:

تأويل، و تاريس، و منسك». و أخرج النسائى من حديث عمرو بن أوس عن أبيه مرفوعا: «إنه لا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا». و أخرج أحمد، و الترمذى و حسّنه، و ابن ماجة و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن أبى هريرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

---

(١). الفجر: ٢١.

«إنّ يأجوج و مأجوج مفسدون فى الأرض يحفرون السدّ كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم: ارجعوا فستفتحونه غدا، فيعودون إليه أشدّ ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، و أراد اللّه أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم: ارجعوا فستفتحونه غدا إن شاء اللّه، و يستثنى، فيعودون إليه و هو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه و يخرجون على الناس فيستقون المياه، و يتحصّن الناس منهم فى حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون: قهرنا من فى الأرض و علونا من فى السماء قسرا و علوا، فيبعث اللّه عليهم نغفا فى أقفائهم فيهلكون» قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «فو الذى نفس محمد بيده، إن دوابّ الأرض لتسمن و تبطر و تشكر شكرا من لحومهم». و قد ثبت فى

الصحيحين من حديث زينب بنت جحش قالت: «استيقظ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من نومه و هو محمرّ وجهه و هو يقول: لا إله إلا اللّه، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج و مأجوج مثل هذه، و حلّق، قلت: يا رسول اللّه أ نهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث». و أخرجا نحوه من حديث أبى هريرة مرفوعا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً قال: أجرا عظيما. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: رَدْماً قال: هو كأشد الحجاب. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: زُبَرَ الْحَدِيدِ قال:

قطع الحديد. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قال: الجبلين. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: رؤوس الجبلين. و أخرج هؤلاء عن ابن عباس فى قوله: قِطْراً قال: النحاس. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى حاتم عن قتادة فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ قال: أن يرتقوه.

و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: أن يعلوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: جَعَلَهُ دَكَّاءَ قال: لا أدرى الجبلين يعنى به أم بينهما.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٩٩ الى ١٠٨]

وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (٩٩) وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً (١٠٠) الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَ كانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (١٠١) أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً (١٠٣)

الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (١٠٤) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (١٠٥) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ رُسُلِي هُزُواً (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً (١٠٨)

قوله: وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ هذا من كلام اللّه سبحانه بعد انقضاء كلام ذى القرنين، و الضمير فى بعضهم ليأجوج و مأجوج، أى: تركنا بعض يأجوج و مأجوج يوم مجىء الوعد، أو يوم خروج يأجوج و مأجوج يموج فى بعض آخر منهم، يقال: ماج الناس؛ إذا دخل بعضهم فى بعض حيارى كموج الماء. و المعنى أنهم يضطربون و يختلطون؛ و قيل: الضمير فى بعضهم للخلق، و اليوم يوم القيامة، أى: و جعلنا

بعض الخلق من الجنّ و الإنس يموج فى بعض؛ و قيل: المعنى: و تركنا يأجوج و مأجوج يوم كمال السدّ و تمام عمارته بعضهم يموج فى بعض، و قد تقدّم تفسير وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فى الأنعام، قيل: هى النفخة الثانية بدليل قوله بعد فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً فإن الفاء تشعر بذلك، و لم يذكر النفخة الأولى؛ لأن المقصود هنا ذكر أحوال القيامة.

و المعنى: جمعنا الخلائق بعد تلاشى أبدانهم و مصيرهم ترابا جمعا تاما على أكمل صفة و أبدع هيئة و أعجب أسلوب وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً المراد بالعرض هنا الإظهار، أى: أظهرنا لهم جهنم حتى شاهدوها يوم جمعنا لهم، و فى ذلك وعيد للكفار عظيم لما يحصل معهم عند مشاهدتها من الفزع و الروعة.

ثم وصف الكافرين المذكورين بقوله: الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي أى: كانت أعينهم فى الدنيا فى غطاء و هو ما غطّى الشى‌ء و ستره من جميع الجوانب عَنْ ذِكْرِي عن سبب ذكرى، و هو الآيات التى يشاهدها من له تفكّر و اعتبار، فيذكر اللّه بالتوحيد و التمجيد، فأطلق المسبّب على السبب، أو عن القرآن العظيم، و تأمّل معانيه و تدبّر فوائده. ثم لما وصفهم سبحانه

بالعمى عن الدلائل التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما، أراد أن يصفهم بالصمم عن استماع الحق فقال: وَ كانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً أى: لا يقدرون على الاستماع لما فيه الحق من كلام اللّه و كلام رسوله، و هذا أبلغ ممّا لو قال و كانوا صما؛ لأن الأصمّ قد يستطيع السمع إذا صيح به، و هؤلاء لا استطاعة لهم بالكلية، و فى ذكر غطاء الأعين و عدم استطاعة السماع تمثيل لتعاميهم عن المشاهدة بالأبصار و إعراضهم عن الأدلة السمعية أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا الحسبان هنا بمعنى الظنّ، و الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و الفاء للعطف على مقدّر، كنظائره. و المعنى: أ فظنوا أنهم ينتفعون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبّر آيات اللّه، و تمرّدهم عن قبول الحق، و معنى أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أى: يتخذوهم من دون اللّه، و هم الملائكة و المسيح و الشياطين أَوْلِياءَ أى: معبودين، قال الزجّاج:

المعنى أ يحسبون أن ينفعهم ذلك، و قرئ أَ فَحَسِبَ بسكون السين، و معناه أكافيهم و محسبهم أن يتخذوهم أولياء على أنه مبتدأ و خبر، يريد أن ذلك لا يكفيهم و لا ينفعهم عند اللّه كما حسبوا إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا أى: هيأناها لهم نزلا يتمتعون به عند ورودهم. قال الزجّاج: النزل: المأوى و المنزل، و قيل: إنه الذى يعدّ للضيف، فيكون تهكما بهم كقوله: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ* «١»، و المعنى: أن جهنم معدّة لهم عندنا كما يعد النزل للضيف قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا انتصاب أعمالا على التّمييز، و الجمع للدلالة على إرادة الأنواع منها، و محل الموصول و هو الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا الفعل على أنه خبر مبتدأ محذوف، كأنه قيل: من هم؟ فقيل: هم الذين ضلّ سعيهم، و المراد بضلال السعى بطلانه و ضياعه، و يجوز أن يكون فى محل نصب على الذمّ، و يكون الجواب أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ و يجوز أن يكون فى محل جرّ على أنه نعت للأخسرين أو بدل منه، و يكون الجواب أيضا هو أولئك و ما بعده، و أوّل هذه الوجوه هو أولاها، و جملة وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً فى محل نصب على الحال من

---

(١). آل عمران: ٢١.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٣٧٣

فاعل ضلّ، أى: و الحال أنهم يظنون أنهم محسنون فى ذلك منتفعون بآثاره، و تكون جملة أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ مستأنفة مسوقة لتكميل الخسران و بيان سببه، هذا على الوجه الأوّل الراجح لا على الوجوه الآخرة، فإنها هى الجواب كما قدّمنا، و معنى كفرهم بآيات ربهم: كفرهم بدلائل توحيده من الآيات التكوينية و التنزيلية، و معنى كفرهم بلقائه: كفرهم بالبعث و ما بعده من أمور الآخرة، ثم رتّب على ذلك قوله: فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ أى: التى عملوها ممّا يظنونه حسنا، و هو خسران و ضلال، ثم حكم عليهم بقوله: فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً أى: لا يكون لهم عندنا قدر و لا نعبأ بهم، و قيل: لا يقام لهم ميزان توزن به أعمالهم، لأن ذلك إنما يكون لأهل الحسنات و السيئات من الموحدين، و هؤلاء لا حسنات لهم. قال ابن الأعرابى: العرب تقول ما لفلان عندنا وزن، أى: قدر لخسته، و يوصف الرجل بأنه لا وزن له لخفته، و سرعة طيشه، و قلّة تثبته. و المعنى على هذا أنهم لا يعتدّ بهم و لا يكون لهم عند اللّه قدر و لا منزلة، و قرأ مجاهد يقيم بالياء التحتية، أى: فلا يقيم اللّه، و قرأ الباقون بالنون. ثم بيّن سبحانه عاقبة هؤلاء و ما يؤول إليه أمرهم فقال: ذلِكَ أى: الذى ذكرناه من أنواع الوعيد جزاؤهم، و يكون قوله: جهنم عطف بيان للجزاء، أو جملة جزاؤهم جهنم مبتدأ و خبر الجملة خبر ذلك، و السبب فى ذلك أنهم ضمّوا إلى الكفر اتخاذ آيات اللّه و اتخاذ رسله هزوا، فالباء فى بِما كَفَرُوا للسببية، و معنى كونهم هزوا أنهم مهزوء بهم. و قد اختلف السلف فى تعيين هؤلاء الأخسرين أعمالا، فقيل: اليهود و النصارى، و قيل: كفار مكة، و قيل: الخوارج، و قيل: الرهبان أصحاب الصوامع، و الأولى حمل الآية على العموم لكل من اتصف بتلك الصفات المذكورة. ثم ذكر سبحانه بعد هذا الوعيد لهؤلاء الكفار الوعد للمؤمنين فقال:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أی: جمعوا بینهما حتی کانوا علی ضدّ صفهٔ من قبلهم کانَتْ لَهُمْ قال ابن الأنباری: کانت فیما سبق من علم اللّه کانت لأهل طاعته جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا قال المبرد: الفردوس فیما سمعت من کلام العرب الشجر الملتف و الأغلب علیه العنب. و اختار الزجّاج ما قاله مجاهد: إن الفردوس البستان باللغهٔ الرومیهٔ، و قد تقدّم بیان النزل، و انتصابه علی أنه خبر کان. و المعنی:

کانت لهم ثمار جنهٔ الفردوس نزلا معدّا لهم مبالغهٔ فی إکرامهم، و انتصاب خالِدِینَ فِیها علی الحال، و کذلک جملهٔ لا یَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا فی محل نصب علی الحال، و الحول مصدر، أی: لا یطلبون تحوّلا عنها إذ هی أعزّ من أن یطلبوا غیرها، أو تشتاق أنفسهم إلی سواها. قال ابن الأعرابی و ابن قتیبهٔ و الأزهری:

الحول اسم بمعنی التحوّل یقوم مقام المصدر، و قال أبو عبیدهٔ و الفراء: إن الحول التحویل.

و قد أخرج ابن أبی شیبهٔ و ابن المنذر و ابن أبی حاتم من طریق هارون بن عنترهٔ عن أبیه عن ابن عباس فی قوله: وَ تَرَکْنا بَعْضَهُمْ الآیهٔ قال: الجنّ و الإنس یَمُوجُ بعضهم فِی بَعْضٍ و أخرج ابن أبی شیبهٔ و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: لا یَسْتَطِیعُونَ سَمْعاً قال: لا یعقلون سمعا. و أخرج أبو عبید و سعید بن منصور و ابن المنذر عن علیّ أنه قرأ أَ فَحَسِبَ الَّذِینَ کَفَرُوا قال أبو عبید بجزم السین و ضم الباء. و أخرج أبو عبید و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن عکرمهٔ أنه قرأ کذلک. و أخرج عبد الرزاق

فتح القدیر، ج۳، ص: ۳۷۴

و البخاری و النسائی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الحاکم و ابن مردویه من طریق مصعب بن سعد قال:

سألت أبی قُلْ هَلْ نُنَبِّئُکُمْ بِالْأَخْسَرِینَ أَعْمالًا أهم الحروریهٔ؟ قال: لا، هم الیهود و النصاری، أما الیهود فکذبوا محمدا صلّی اللّه علیه و سلّم و أما النصاری فکذبوا بالجنهٔ و قالوا: لا طعام فیها و لا شراب، و الحروریهٔ الَّذِینَ یَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِیثاقِهِ* «۱»، و کان سعد یسمیهم الفاسقین. و أخرج عبد الرزاق و الفریابی و سعید ابن منصور و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و الحاکم و صحّحه، و ابن مردویه عن مصعب قال: قلت لأبی: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُکُمْ بِالْأَخْسَرِینَ أَعْمالًا الحروریهٔ هم؟ قال: لا، و لکنهم أصحاب الصوامع، و الحروریهٔ: قوم زاغوا فأزاغ اللّه قلوبهم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن أبی خمیصهٔ عبد اللّه بن قیس قال: سمعت علیّ ابن أبی طالب یقول: فی هذه الآیهٔ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُکُمْ بِالْأَخْسَرِینَ أَعْمالًا إنهم الرهبان الذین حبسوا أنفسهم فی السواری.

و أخرج ابن مردویه عن أبی الطفیل قال: سمعت علیّ بن أبی طالب و سأله ابن الکوّاء فقال:

هَلْ نُنَبِّئُکُمْ بِالْأَخْسَرِینَ أَعْمالًا قال: فجرهٔ قریش. و أخرج عبد الرزاق و الفریابی و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه من طریقین عن علیّ أنه سئل عن هذه الآیهٔ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُکُمْ بِالْأَخْسَرِینَ أَعْمالًا قال:

لا أظنّ إلا أن الخوارج منهم. و فی الصحیحین من حدیث أبی هریرهٔ أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «إنه لیأتی الرجل العظیم السمین یوم القیامهٔ لا یزن عند اللّه جناح بعوضهٔ، و قال: اقرءوا إن شئتم فَلا نُقِیمُ لَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَهِٔ وَزْناً». و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی و الحاکم و ابن مردویه عن أبی أمامهٔ قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «سلوا اللّه الفردوس، فإنها سرّهٔ الجنهٔ، و إن أهل الفردوس یسمعون أطیط العرش». و فی الصحیحین و غیرهما من حدیث أبی هریرهٔ قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «إذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنهٔ، و أعلی الجنهٔ، و فوقه عرش الرحمن، و منه تفجر أنهار الجنهٔ». و أخرج ابن أبی شیبهٔ و عبد بن حمید و أحمد و الترمذی و ابن جریر و الحاکم و البیهقی و ابن مردویه عن عبادهٔ بن الصامت أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «إن فی الجنهٔ مائهٔ درجهٔ، کل درجهٔ منها ما بین السماء و الأرض، و الفردوس أعلاها درجهٔ، و من فوقها یکون العرش، و منه تفجر أنهار الجنهٔ الأربعهٔ، فإذا سألتم اللّه فاسألوه

الفردوس»، و الأحاديث بهذا المعنى كثيرة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال:
الفردوس بستان بالرومية. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: هو الكرم بالنبطية، و أخرج ابن أبى شيبة و هناد و ابن المنذر عن عبد اللّه بن الحارث أنّ ابن عباس سأل كعبا عن الفردوس قال: هى جنات الأعناب بالسريانية. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا قال: متحوّلا.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١٠٩ الى ١١٠]

قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (١٠٩) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠)

---

(١). البقرة: ٢٧.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٣٧٥

لما ذكر سبحانه أنواع الدلائل نبّه على كمال القرآن فقال: قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي قال ابن الأنبارى: سمّى المداد مدادا لإمداده الكاتب، و أصله من الزيادة و مجى‌ء الشى‌ء بعد الشى‌ء، و يقال للزيت الذى يوقد به السراج مداد، و المراد بالبحر هنا الجنس. و المعنى: لو كتبت كلمات علم اللّه و حكمته، و فرض أن جنس البحر مدادا لها لنفد البحر قبل نفود الكلمات، و لو جئنا بمثل البحر مدادا لنفد أيضا، و قيل فى بيان المعنى: لو كان البحر مدادا للقلم و القلم يكتب لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي و قوله:
وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت قوله: قُلْ لَوْ كانَ و فيه زيادة مبالغة و تأكيد، و الواو لعطف ما بعده على جملة مقدّرة مدلول عليها بما قبلها، أى: لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته لو لم يجى‌ء بمثله مدادا و لو جئنا بمثله مددا، و المدد الزيادة؛ و قيل: عنى سبحانه بالكلمات الكلام القديم الذى لا غاية له و لا منتهى، و هو و إن كان واحدا فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من الفوائد، و قد عبّرت العرب عن الفرد بلفظ الجمع، قال الأعشى:
و وجه نقىّ اللون صاف يزينه مع الجيد لبّات لها و معاصم
فعبّر باللبات عن اللبة. قال الجبائى: إن قوله: قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي يدل على أن كلماته قد تنفد فى الجملة، و ما ثبت عدمه امتنع قدمه. و أجيب بأن المراد الألفاظ الدالة على متعلقات تلك الصفة الأزلية؛ و قيل فى الجواب: إن نفاد شى‌ء قبل نفاد شى‌ء آخر لا يدلّ على نفاد الشى‌ء الآخر، و لا على عدم نفاده، فلا يستفاد من الآية إلا كثرة كلمات اللّه بحيث لا تضبطها عقول البشر؛ أما أنها متناهية، أو غير متناهية فلا دليل على ذلك فى الآية. و الحق أن كلمات اللّه تابعة لمعلوماته، و هى غير متناهية، فالكلمات غير متناهية.
و قرأ مجاهد و ابن محيصن و حميد و لو جئنا بمثله مدادا و هى كذلك فى مصحف أبىّ، و قرأ الباقون مَدَداً و قرأ حمزة و الكسائى قبل أن ينفد بالتحتية، و قرأ الباقون بالفوقية، ثم أمر سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يسلك مسلك التواضع، فقال: قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أى: إن حالى مقصور على البشرية لا يتخطّاها إلى الملكية، و من كان هكذا فهو لا يدّعى الإحاطة بكلمات اللّه إلا أنه امتاز عنهم بالوحى إليه من اللّه سبحانه فقال: يُوحى إِلَيَّ و كفى بهذا الوصف فارقا بينه و بين سائر أنواع البشر، ثم بين أن الذى أوحى إليه هو قوله: أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا شريك له فى ألوهيته، و فى هذا إرشاد إلى التوحيد، ثم أمرهم بالعمل الصالح و التوحيد فقال: فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ الرجاء توقع وصول الخير فى المستقبل، و المعنى، من كان له

هـذا الرجاء الذى هو شأن المؤمنين فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً و هو ما دلّ الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً من خلقه سواء كان صالحا، أو طالحا، حيوانا أو جمادا، قال الماوردى: قال جميع أهل التأويل فى تفسير هذه الآيةٔ: إن المعنى لا يرائى بعمله أحدا. و أقول:

إن دخول الشرك الجلىّ الذى كان يفعله المشركون تحت هذه الآيةٔ هو المقدّم على دخول الشرك الخفى الذى هو الرياء، و لا مانع من دخول هذا الخفى تحتها، إنما المانع من كونه هو المراد بهذه الآيةٔ.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۷۶

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: لِكَلِماتِ رَبِّي يقول: علم ربى. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآيةٔ قال: يقول ينفد ماء البحر قبل أن ينفد كلام اللّه و حكمته. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ الآيةٔ قال: أنزلت فى المشركين الذين عبدوا مع اللّه إلها غيره، و ليست هذه فى المؤمنين. و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن ابن عباس قال: «قال رجل: يا نبىّ اللّه إنى أقف المواقف أبتغى وجه اللّه، و أحبّ أن يرى موطنى، فلم يردّ عليه شيئا حتى نزلت هذه الآيةٔ وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً». و أخرج ابن مندةٔ، و أبو نعيم فى الصّحابةٔ، و ابن عساكر من طريق السدّى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدّق فذكر بخير ارتاح له، فزاد فى ذلك لقالةٔ الناس فلا يريد به اللّه، فنزل فى ذلك فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ الآيةٔ. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: «قال رجل: يا رسول اللّه أعتق و أحبّ أن يرى، و أتصدّق و أحبّ أن يرى، فنزلت فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ الآيةٔ» و هو مرسل. و أخرجه هناد فى الزهد عنه أيضا. و أخرج ابن سعد و أحمد و الترمذى و ابن ماجةٔ، و البيهقى فى الشعب، عن أبى سعيد بن أبى فضالةٔ الأنصارى و كان من الصحابةٔ: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول:

«إذا جمع اللّه الأوّلين و الآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك فى عمل عمله للّه أحدا فليطلب ثوابه من عند غير اللّه، فإن اللّه أغنى الشركاء عن الشرك». و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن أبى هريرةٔ «أن رجلا- قال: يا رسول اللّه الرجل يجاهد فى سبيل اللّه و هو يبتغى عرضا من الدنيا؟ فقال:

لا- أجر له، فأعظم الناس ذلك، فعاد الرجل فقال: لا أجر له». و أخرج ابن أبى الدنيا فى الإخلاص، و ابن جرير فى تهذيبه، و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن شدّاد بن أوس قال: كنا نعدّ الرياء على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الشرك الأصغر. و أخرج الطيالسىّ و أحمد و ابن أبى الدنيا و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن شدّاد بن أوس أيضا قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «من صلى يرائى فقد أشرك، و من صام يرائى فقد أشرك، و من تصدّق يرائى فقد أشرك، ثم قرأ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ الآيةٔ». و أخرج الطيالسىّ و أحمد و ابن مردويه و أبو نعيم عن شدّاد أيضا قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن اللّه يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بى، من أشرك بى شيئا فإن عمله قليله و كثيره لشريكه الذى أشركه أنا عنه غنىّ». و أخرج أحمد و الحكيم و الترمذى، و ابن جرير فى تهذيبه، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن أبى سعيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيخ: الشرك الخفىّ، أن يقوم الرجل يصلى لمكان رجل». و أخرج أحمد و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن شدّاد بن أوس: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «أتخوّف على أمتى الشرك و الشهوةٔ الخفيةٔ، قلت: أ تشرك أمتك من بعدك؟ قال: نعم، أما إنهم لا يعبدون شمسا و لا قمرا و لا حجرا و لا وثنا، و لكن يراءون الناس بأعمالهم، قلت: يا رسول اللّه ما الشهوةٔ الخفيةٔ؟ قال: يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوةٔ من شهواته فيترك صومه و يواقع شهوته». و أخرج أحمد و مسلم و ابن جرير

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۷۷

و ابن أبی حـاتم و ابن مردویه و البیهقی عن أبی هریرة عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم عن ربه أنه قال: «أنا خیر الشرکاء، فمن عمل عملا- أشرک فیه غیری فأنا بریء منه، و هو للذی أشرک» و فی لفظ: «فمن أشرک بی أحدا فهو له کله»، و فی الباب أحادیث کثیرة فی التحذیر من الریاء و أنه الشرک الأصغر، و أن اللّه لا یقبله، و قد استوفاها صاحب «الدرّ المنثور» فی هذا الموضع فلیرجع إلیه، و لکنها لا تدلّ علی أنه المراد بالآیة، بل الشرک الجلیّ یدخل تحتها دخولا أوّلیا، و علی فرض أن سبب النزول هو الریاء کما یشیر إلی ذلک ما قدّمنا، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب کما هو مقرّر فی علم الأصول.

و قد ورد فی فضائل هذه الآیة بخصوصها ما أخرجه الطبرانی و ابن مردویه عن أبی حکیم قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «لو لم ینزل علی أمتی إلا خاتمة سورة الکهف لکفتهم». و أخرج ابن راهویه و البزار، و الحاکم و صحّحه، و الشیرازی فی الألقاب، و ابن مردویه عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «من قرأ فی لیلة فَمَنْ کانَ یَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ الآیة، کان له نور من عدن أبین إلی مکة حشوه الملائکة» قال ابن کثیر بعد إخراجه: غریب جدا. و أخرج ابن الضریس عن أبی الدرداء قال: من حفظ خاتمة الکهف کان له نور یوم القیامة من لدن قرنه إلی قدمه. و أخرج ابن جریر و ابن مردویه عن معاویة بن أبی سفیان أنه تلا هذه الآیة فَمَنْ کانَ یَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ و قال: إنها آخر آیة نزلت من القرآن. قال ابن کثیر: و هذا أثر مشکل، فإن هذه الآیة هی آخر سورة الکهف، و الکهف کلها مکیة، و لعل معاویة أراد أنه لم ینزل بعدها ما ینسخها و لا یغیر حکمها، بل هی مثبتة محکمة، فاشتبه ذلک علی بعض الرواة؛ فروی بالمعنی علی ما فهمه.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۷۸

سورة مریم

اشارة

أخرج النحّاس و ابن مردویه عن ابن عباس قال: أنزلت بمکة سورة کهیعص و أخرج ابن مردویه عن ابن الزبیر قال: نزلت سورة مریم بمکة. و أخرج ابن مردویه عن عائشة مثله. و أخرج أحمد و ابن أبی حاتم، و البیهقی فی الدلائل، عن أمّ سلمة أن النجاشی قال لجعفر بن أبی طالب: هل معک ممّا جاء به، یعنی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، عن اللّه شیء؟ قال: نعم، فقرأ علیه صدرا من کهیعص فبکی النجاشی حتی أخضل لحیته، و بکت أساقفته حتی أخضلوا مصاحفهم حین سمعوا ما تلا- علیهم، ثم قال النجاشی: إن هذا و الذی جاء به موسی لیخرج من مشکاة واحدة. و قد ذکر ابن إسحاق القصّة بطولها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة مریم (۱۹): الآیات ۱ الی ۱۱]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

کهیعص (۱) ذِکْرُ رَحْمَتِ رَبِّکَ عَبْدَهُ زَکَرِیَّا (۲) إِذْ نادی رَبَّهُ نِداءً خَفِیًّا (۳) قالَ رَبِّ إِنِّی وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّی وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَیْباً وَ لَمْ أَکُنْ بِدُعائِکَ رَبِّ شَقِیًّا (۴)

وَ إِنِّی خِفْتُ الْمَوالِیَ مِنْ وَرائِی وَ کانَتِ امْرَأَتِی عاقِراً فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا (۵) یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِیًّا (۶) یا زَکَرِیَّا إِنَّا نُبَشِّرُکَ بِغُلامٍ اسْمُهُ یَحْیی لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیًّا (۷) قالَ رَبِّ أَنَّی یَکُونُ لِی غُلامٌ وَ کانَتِ امْرَأَتِی عاقِراً

وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً (٩)
قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا (١١)

قوله: كهيعص قرأ أبو جعفر هذه الحروف مقطّعة، و وصلها الباقون، و أمال أبو عمرو الهاء و فتح الياء، و عكس ذلك ابن عامر و حمزة، و أمالهما جميعا الكسائى و أبو بكر و خلف، و قرأهما بين اللفظين أهل المدينة، و فتحهما الباقون. و عن خارجة أن الحسن كان يضمّ كاف، و حكى عن غيره أنه كان بضم ها.

و قال أبو حاتم: لا يجوز ضمّ الكاف و لا الهاء و لا الياء. قال النحاس: قراءة أهل المدينة من أحسن ما فى هذا، و الإمالة جائزة فى ها و فى يا، و قد اعترض على قراءة الحسن جماعة. و قيل فى تأويلها أنه كان يشمّ الرفع فقط. و أظهر الدال من هجاء: صاد نافع و أبو جعفر و ابن كثير و عاصم و يعقوب، و هو اختيار أبى عبيد و أدغمها الباقون. و قد قيل فى توجيه هذه القراءات أن التفخيم هو الأصل، و الإمالة فرع عنه، فمن قرأ بتفخيم الهاء و الياء فقد عمل بالأصل، و من أمالهما فقد عمل بالفرع، و من أمال أحدهما و فخم الآخر فقد عمل بالأمرين، و قد تقدّم الكلام فى هذه الحروف الواقعة فى فواتح السور مستوفى فى أوائل سورة البقرة، و محل هذه الفاتحة إن جعلت اسما للسورة على ما عليه الأكثر الرفع على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها، قاله الفرّاء. و اعترضه

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٧٩

الزجاج فقال: هذا محال لأن كهيعص ليس هو مما أنبأنا اللّه عزّ و جلّ به عن زكريا، و قد أخبر اللّه تبارك و تعالى عنه و عما بشّر به، و ليس كهيعص من قصته، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف، و إن جعلت مسرودة على نمط التعديد، فقوله: ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ خبر لمبتدأ محذوف، أى: هذا ذكر رحمة ربك. و قيل: هو مبتدأ خبره محذوف، أى: فيما يتلى عليك ذكر رحمة ربك. قال الزجّاج: ذكر مرتفع بالمضمر، و المعنى: هذا الذى نتلوه عليك ذكر رحمة ربك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا يعنى إجابته إياه حين دعاه و سأله الولد، و انتصاب عبده على أنه مفعول للرحمة قاله الأخفش. و قيل: للذكر. و معنى ذكر الرحمة بلوغها و إصابتها، كما يقال: ذكرنى معروف فلان، أى: بلغنى. و قرأ يحيى بن يعمر ذِكْرُ بالنصب، و قرأ أبو العالية «عبده» بالرفع على أن المصدر مضاف إلى المفعول، و فاعل الذكر هو عبده، و زكريا على القراءتين عطف بيان له أو بدل منه، و قرأ الكلبى ذكر على صيغة الفعل الماضى مشدّدا و مخفّفا على أن الفاعل عبده، و قرأ ابن معمر على الأمر، و تكون الرحمة على هذا عبارة عن زكريا، لأنّ كل نبىّ رحمة لأمته إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا العامل فى الظرف رحمة، و قيل: ذكر، و قيل: هو بدل اشتمال من زكريا. و اختلف فى وجه كون ندائه هذا خفيا، فقيل: لأنه أبعد عن الرياء، و قيل: أخفاه؛ لئلا يلام على طلبه للولد فى غير وقته، و لكونه من أمور الدنيا، و قيل: أخفاه مخافة من قومه، و قيل: كان ذلك منه لكونه قد صار ضعيفا، هرما، لا يقدر على الجهر قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي هذه الجملة مفسرة لقوله: نادى ربه، يقال: وهن يهن و هنا إذا ضعف، فهو واهن، و قرئ بالحركات الثلاث، أراد أن عظامه فترت و ضعفت قوّته، و ذكر العظم؛ لأنه عمود البدن، و به قوامه، و هو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى و تساقطت قوّته، و لأن أشدّ ما فى الإنسان صلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، و وحّد العظم قصدا إلى الجنس المفيد لشمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً قرأ أبو عمرو بإدغام السين فى الشين، و الباقون بعدمه، و الاشتعال فى الأصل: انتشار شعاع النار، فشبّه به انتشار بياض شعر الرأس فى سواده بجامع البياض و الإنارة، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية، بأن حذف المشبه به و أداة التشبيه، و هذه الاستعارة من أبدع الاستعارات و أحسنها. قال الزجّاج: يقال للشيب إذا كثر جدّا قد اشتعل رأس فلان، و أنشد للبيد:

إن ترى رأسى أمسى واضحاسلّط الشّيب عليه فاشتعل

و انتصاب شيبا على التميز، قاله الزجّاج. و قال الأخفش: انتصابه على المصدر؛ لأن معنى اشتعل: شاب.

قال النّحاس: قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل، و المصدرية أظهر فيما كان كذلك، و كان الأصل اشتعل شيب رأسى، فأسند الاشتعال إلى الرأس لإفادة الشمول وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا أى: لم أكن بدعائى إياك خائبا فى وقت من الأوقات، بل كلما دعوتك استجبت لى.

قال العلماء: يستحبّ للمرء أن يجمع فى دعائه بين الخضوع، و ذكر نعم اللّه عليه كما فعل زكريا هاهنا، فإن فى قوله: وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً غاية الخضوع و التذلل و إظهار الضعف و القصور عن نيل مطالبه، و بلوغ مآربه، و فى قوله: وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ذكر ما عوّده اللّه من الإنعام

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۸۰

عليه بإجابة أدعيته، يقال: شقى بكذا، أى: تعب فيه، و لم يحصل مقصوده منه وَ إِنِّى خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِى قرأ عثمان بن عفان و محمد بن على بن الحسين و أبوه على و يحيى بن يعمر «خفّت» بفتح الخاء و تشديد الفاء و كسر التاء و فاعله الْمَوالِيَ أى: قلّوا و عجزوا عن القيام بأمر الدين بعدى، أو انقطعوا بالموت، مأخوذا من خفت القوم إذا ارتحلوا، و هذه قراءة شاذة بعيدة عن الصواب. و قرأ الباقون «خفت» بكسر الخاء و سكون الفاء على أن فاعله ضمير يعود إلى زكريا، و مفعوله الموالى، و من ورائى متعلّق بمحذوف لا بخفت، و تقديره: خفت فعل الموالى من بعدى. قرأ الجمهور وَرائِى بالهمز و المدّ و سكون الياء، و قرأ ابن كثير بالهمز و المدّ و فتح الياء. و روى عنه أنه قرأ بالقصر مفتوح الياء، مثل عصاى، و الموالى هنا:

هم الأقارب الذين يرثون و سائر العصبات من بنى العمّ و نحوهم، و العرب تسمّى هؤلاء موالى، قال الشاعر «۱»:

مهلا بنى عمّنا مهلا موالينالا تنشروا «۲» بيننا ما كان مدفونا

قيل: الموالى الناصرون له. و اختلفوا فى وجه المخافة من زكريا لمواليه من بعده، فقيل: خاف أن يرثوا ماله، و أراد أن يرثه ولده، فطلب من اللّه سبحانه أن يرزقه ولدا. و قال آخرون: إنهم كانوا مهملين لأمر الدين، فخاف أن يضيع الدين بموته، فطلب وليا يقوم به بعد موته. و هذا القول أرجح من الأوّل؛ لأن الأنبياء لا يورثون، و هم أجلّ من أن يعتنوا بأمور الدنيا، فليس المراد هنا وراثة المال، بل المراد وراثة العلم و النبوّة و القيام بأمر الدين، و قد ثبت عن نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة». وَ كانَتِ امْرَأَتِى عاقِراً العاقر: هى التى لا تلد لكبر سنها، و التى لا تلد أيضا لغير كبر، و هى المرادة هنا، و يقال للرجل الذى لا يلد عاقر أيضا، و منه قول عامر بن الطفيل:

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقرا «۳» ....

قال ابن جرير: و كان اسم امرأته أشاع بنت فاقود بن ميل، و هى أخت حنة، و حنة هى أمّ مريم. و قال القتبى: هى أشاع بنت عمران، فعلى القول يكون يحيى بن زكريا ابن خالة أمّ عيسى، و على القول الثانى يكونان ابنى خالة كما ورد فى الحديث الصحيح. فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا أى: أعطنى من فضلك وليا، و لم يصرح بطلب الولد لما علم من نفسه بأنه قد صار هو و امرأته فى حالة لا يجوز فيها حدوث الولد بينهما و حصوله منهما. و قد قيل: إنه كان ابن بضع و تسعين سنة، و قيل: بل أراد بالولىّ الذى طلبه هو الولد، و لا مانع من سؤال من كان مثله لما هو خارق للعادة، فإن اللّه سبحانه قد يكرم رسله بما يكون كذلك، فيكون من جملة المعجزات الدالّة على صدقهم يَرِثُنِى وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ قرأ أهل الحرمين و الحسن و عاصم

---

(۱). هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب.

(۲). فى تفسير القرطبى (۱۱/ ۷۸): لا تنبشوا.

(٣). و عجزه: جبانا فما عذرى لدى كلّ محضر.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٨١

و حمزة و ابن محيصن و اليزيدى و يحيى بن المبارک «١» بالرفع فى الفعلين جميعا على أنهما صفتان للولىّ و ليسا بجواب للدعاء. و قرأ يحيى بن يعمر و أبو عمرو و يحيى بن وثّاب و الأعمش و الكسائى بالجزم فيهما على أنهما جواب للدّعاء. و رجّح القراءة الأولى أبو عبيد، و قال: هى أصوب فى المعنى؛ لأنه طلب وليا هذه صفته فقال: هب لى الذى يكون وارثى. و رجّح ذلک النحّاس و قال: لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط و المجازاة، تقول: أطع اللّه يدخلک الجنة، أى: إن تطعه يدخلک الجنة، و كيف يخبر اللّه سبحانه بهذا، أعنى كونه أن يهب له وليا يرثه، و هو أعلم بذلک، و الوراثة هنا هى وراثة العلم و النبوّة على ما هو الراجح كما سلف. و قد ذهب أكثر المفسرين إلى أن يعقوب المذكور هنا هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. و زعم بعض المفسرين أنه يعقوب بن ماهان أخو عمران بن ماهان، و به قال الكلبى و مقاتل، و آل يعقوب هم خاصته الذين يؤول أمرهم إليه للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين، و قد كان فيهم أنبياء و ملوک، و قرئ: يرثنى وارث من آل يعقوب، على أنه فاعل يرثنى. و قرئ و أرث آل يعقوب أى: أنا. و قرئ أو يرث آل يعقوب بلفظ التخيير على أن المخيّر فاعل و هذه القراءات فى غاية الشذوذ لفظا و معنى وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا أى: مرضيا فى أخلاقه و أفعاله، و قيل: راضيا بقضائک و قدرک، و قيل: رجلا صالحا ترضى عنه، و قيل: نبيا كما جعلت آباءه أنبياء يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُکَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى قال جمهور المفسرين: إن هذا النداء من اللّه سبحانه، و قيل: إنه من جهة الملائكة، لقوله فى آل عمران: فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ «٢»، و فى الكلام حذف، أى: فاستجاب له دعاءه، فقال: يا زكريا، و قد تقدّم فى آل عمران وجه التسمية بيحيى و زكريا.

قال الزجّاج: سمّى يحيى لأنه حيى بالعلم و الحكمة التى أوتيها لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قال أكثر المفسرين:

معناه لم نسمّ أحدا قبله يحيى. و قال مجاهد و جماعة: معنى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا أنه لم يجعل له مثلا و لا نظيرا، فيكون على هذا مأخوذ من المساماة أو السموّ، و ردّ هذا بأنه يقتضى تفضيله على إبراهيم و موسى؛ و قيل: معناه: لم تلد عاقر مثله، و الأوّل أولى. و فى إخباره سبحانه بأنه لم يسمّ بهذا الاسم قبله أحد فضيلة له من جهتين: الأولى أن اللّه سبحانه هو الذى تولّى تسميته به، و لم يكلها إلى الأبوين. و الجهة الثانية: أن تسميته باسم لم يوضع لغيره يفيد تشريفه و تعظيمه قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ أى: كيف أو من أين يكون لى غلام؟ و ليس معنى هذا الاستفهام الإنكار، بل التعجب من قدرة اللّه و بديع صنعه، حيث يخرج ولدا من امرأة عاقر و شيخ كبير، و قد تقدّم الكلام على مثل هذا فى آل عمران وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا يقال: عتا الشيخ يعتو عتيا إذا انتهى سنّه و كبر، و شيخ عات إذا صار إلى حال اليبس و الجفاف، و الأصل عتوّ لأنه من ذوات الواو فأبدلوه ياء لكونها أخفّ، و مثل ما فى الآية قول الشاعر:

إنّما يعذر الوليد و لا يعذر من كان فى الزّمان عتيّا

و قرأ يحيى بن وثّاب و حمزة و الكسائى و حفص و الأعمش عِتِيًّا بكسر العين، و قرأ الباقون بضم

---

(١). قوله: (و اليزيدى و يحيى بن المبارک)، الصواب: و يحيى بن المبارک اليزيدى.

(٢). آل عمران: ٣٩.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٨٢

العين، و هما لغتان، و محل جملة وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً النصب على الحال من ضمير المتكلم، و محل جملة وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا النصب أيضا على الحال، و كلا الجملتين لتأكيد الاستبعاد و التعجب المستفاد من قوله: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ أى: كيف

يحصل بيننا ولد الآن، و قد كانت امرأتى عاقرا لم تلد فى شبابها و شبابى، و هى الآن عجوز، و أنا شيخ هرم؟ ثم أجاب اللّه سبحانه على هذا السؤال المشعر بالتعجّب و الاستبعاد بقوله: قالَ كَذٰلِكَ قالَ رَبُّكَ الكاف فى محل رفع، أى: الأمر كذلك، و الإشارة إلى ما سبق من قول زكريا، ثم ابتدأ بقوله: قالَ رَبُّكَ و يحتمل أن يكون محله النصب على المصدرية، أى:

قال قولا مثل ذلك، و الإشارة بذلك إلى مبهم يفسّره قوله: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ و أما على الاحتمال الأوّل فتكون جملة هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ مستأنفة مسوقة لإزالة استبعاد زكريا بعد تقريره، أى: قال هو مع بعده عندك علىّ هين، و هو فيعل من هان الشىء يهون إذا لم يصعب و لم يمتنع من المراد. قال الفراء: أى: خلقه علىّ هين وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً هذه الجملة مقرّرة لما قبلها. قال الزجاج: أى: فخلق الولد لك كخلقك، و المعنى: أن اللّه سبحانه خلقه ابتداء و أوجده من العدم المحض، فإيجاد الولد له بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلك و أسهل منه، و إنما لم ينسب ذلك إلى آدم عليه السلام لكونه المخلوق من العدم حقيقة بأن يقول: و قد خلقت أباك آدم من قبل و لم يك شيئا، للدلالة على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشاء آدم من العدم قرأ أهل المدينة و أهل مكة و البصرة و عاصم و ابن عامر وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ و قرأ سائر الكوفيين و قد خلقناك من قبل قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً أى علامة تدلنى على وقوع المسؤول و تحقّقه و حصول الحبل، و المقصود من هذا السؤال تعريفه وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه.

قال ابن الأنبارى: وجه ذلك أن نفسه تاقت إلى سرعة الأمر، فسأل اللّه آية يستدلّ بها على قرب ما منّ به عليه، و قيل: طلب آية تدله على أن البشرى من اللّه سبحانه لا من الشيطان؛ لأن إبليس أوهمه بذلك، كذا قال الضحاك و السدّى، و هو بعيد جدّا قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا قد تقدّم تفسير هذا فى آل عمران مستوفى، و انتصاب «سويا» على الحال، و المعنى: آيتك أن لا تقدر على الكلام و الحال أنك سوىّ الخلق ليس بك آفة تمنعك منه، و قد دلّ بذكر الليالى هنا و الأيام فى آل عمران أن المراد ثلاثة أيام و لياليهنّ فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ و هو مصلّاه، و اشتقاقه من الحرب، كأنّ ملازمه يحارب الشيطان؛ و قيل: من الحرب محركا، كأن ملازمه يلقى حربا و تعبا و نصبا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا قيل: معنى أوحى: أومأ، بدليل قوله فى آل عمران: إِلَّا رَمْزاً؛ و قيل: كتب لهم فى الأرض، و بالأوّل قال الكلبى و القرظى و قتادة و ابن منبه، و بالثانى قال مجاهد، و قد يطلق الوحى على الكتابة، و منه قول ذى الرّمّة:

سوى الأربع الدّهم اللواتى كأنّهابقيّة وحى فى بطون الصّحائف

و قال عنترة:

فتح القدير، ج‏3، ص: 383 كوحى صحائف من عهد كسرىفأهداها لأعجم طمطمىّ «1»

و أَنْ فى قوله: أَنْ سَبِّحُوا مصدرية أو مفسرة، و المعنى: فأوحى إليهم بأن صلّوا، أو أى صلّوا، و انتصاب بكرة و عشيا على الظرفية. قال الفراء: العشى يؤنث، و يجوز تذكيره إذا أبهم. قال: و قد يقال العشىّ جمع عشية، قيل: و المراد صلاة الفجر و العصر، و قيل: المراد بالتسبيح هو قولهم سبحان اللّه فى الوقتين، أى: نزّهوا ربكم طرفى النهار.

و قد أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس فى قوله:

كهيعص كبير هاد أمين عزيز صادق، و فى لفظ كاف بدل كبير. و أخرج عبد الرزاق و آدم بن أبى إياس، و عثمان بن سعيد الدارمى فى التوحيد، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس كهيعص قال: كاف من كريم، و هاء من هاد، و ياء من حكيم، و عين من عليم، و صاد من صادق. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود و ناس من الصحابة كهيعص هو الهجاء المقطّع؛ الكاف من الملك، و الهاء من اللّه، و الياء

و العيـن من العزيز، و الصـاد من المصـوّر. و أخرج ابن مردويه عن الكلـبى أنه سـئل عن كهيعص فحـدّث عن أبى صالـح عن أمّ هـانئ عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم قـال: «كاف هاد عالم صادق». و أخرج عثمان بن سـعيد الـدارمى و ابن ماجـة و ابن جرير عن فاطمـة ابنـة علىّ قـالت: كـان علىّ يقـول يـا كهيعص اغفر لى. و أخرج أبو الشـيخ فى العظمـة، و ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالـح عن ابن عباس فى كهيعص قال: الكاف الكافى، و الهاء الهادى، و العين العالم، و الصاد الصادق. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر عن السدّى قال: كان ابن عباس يقول فى كهيعص و حم و يس و أشـباه هذا: هو اسم اللّه الأعظم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: هو قسم أقسم اللّه به، و هو من أسماء اللّه.

و كمـا وقع الخلاـف فى هـذا و أمثـاله بين الصـحابة وقع بين من بعـدهم و لم يصـح مرفوعا فى ذلك شـىء، و من روى عنه من الصـحابة فى ذلك شـىء فقـد روى عن غيره ما يخالفه، و قـد يروى عن الصـحابى نفسه التفاسـير المتخالفـة المتناقضـة فى هـذه الفواتـح، فلا يقوم شـىء من ذلك حجة، بل الحق الوقف، و ردّ العلم فى مثلها إلى اللّه سـبحانه، و قد قدّمنا تحقيق هذا فى فاتحة سورة البقرة. و أخرج أحمـد و أبو يعلى، و الحاكم و صـحّحه، و ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم قال: «كـان زكريا نجارا». و أخرج الحاكم و صـحّحه، عن ابن مسـعود قال: كان آخر أنبياء بنى إسـرائيل زكريا بن آزر بن مسـلم، من ذريـة يعقـوب دعـا ربّه سرّا قـالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي إلى قـوله: خِفْتُ الْمَـوالِيَ قـال: و هم العصبة يَرِثُنِي نبـوتى و نبـوّة آل يعقوب، فنادته الملائكة، و هو جبريل: أن اللّه يبشرك بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى فلما سمع النداء جاءه الشيطان فقال:

---

(۱). «الطمطمى»: الأعجم الذى لا يفصح.

فتح القدير، ج‌۳، ص: ۳۸۴

يا زكريا إن الصوت الذى سـمعت ليس من اللّه إنما هو من الشـيطان سـخر بك، فشكّ و قال: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ يقول من أين يكون و قـد بلغنى الكبر و امرأتى عاقر، قال اللّه: وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَـيْئاً. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي قال: الورثـة، و هم عصـبة الرجل. و أخرج الفريابى عنه قال: كان زكريا لا يولد له فسأل ربه فقال: ربّ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ قال: يرث مالى و يرث من آل يعقوب النبوّة. و أخرج الفريابى و ابن أبى شـيبة و عبـد بن حميـد و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صـحّحه، عن ابن عباس فى قوله: لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قال: مثلا. و أخرج سـعيد بن منصور و عبد بن حميد و أبو داود و ابن جرير، و الحاكم و صـحّحه، و ابن مردويه عنه قال: لا أدرى كيف كان رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم يقرأ هذا الحرف عتيا أو عسـيا. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله: عِتِيًّا قال: لبث زمانا فى الكبر. و أخرج أيضا عن السدّى قال: هرما.

و أخرج ابن جرير عن ابن عبـاس فى قوله: أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا قـال: اعتقـل لسانه من غير مرض، و فى لفظ من غير خرس؛ أخرجه ابن المنذر و ابن أبى حاتم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا:

فَأَوْحى إِلَيْهِمْ قـال: كتب لهم كتابا. و أخرج ابن أبى الـدنيا، و الحاكم و صـحّحه، عن ابن عباس فى قوله: أَنْ سَبِّحُوا قال: أمرهم بالصلاة بُكْرَةً وَ عَشِيًّا.

[سورة مريم (۱۹): الآيات ۱۲ الى ۱۵]

يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (۱۲) وَ حَناناً مِنْ لَدُنَّا وَ زَكاةً وَ كانَ تَقِيًّا (۱۳) وَ بَرًّا بِوالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا (۱۴) وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (۱۵)

قوله: يا يَحْيى هاهنا حذف، و تقديره: و قال اللّه للمولود يا يحيى، أو فولد له مولود فبلغ المبلغ الذى يجوز أن يخاطب فيه، فقلنا له: يا يحيى. و قال الزجّاج: المعنى فوهبنا له و قلنا له يا يحيى. و المراد بالكتاب التوراة لأنه المعهود حينئذ، و يحتمل أن يكون كتابا مختصّا به و إن كنّا لا نعرفه الآن، و المراد بالأخذ إما الأخذ الحسى أو الأخذ من حيث المعنى، و هو القيام بما فيه كما ينبغى، و ذلك بتحصيل ملكة تقتضى سهولة الإقدام على المأمور به، و الإحجام عن المنهىّ عنه، ثم أكّده بقوله: بِقُوَّةٍ أى: بجدّ و عزيمة و اجتهاد وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا المراد بالحكم الحكمة، و هى الفهم للكتاب الذى أمر بأخذه و فهم الأحكام الدينية، و قيل: هى العلم و حفظه و العمل به، و قيل: النبوة، و قيل: العقل، و لا مانع من أن يكون الحكم صالحا لحمله على جميع ما ذكر. قيل: كان يحيى عند هذا الخطاب له ابن سنتين، و قيل: ابن ثلاث وَ حَناناً مِنْ لَدُنَّا معطوف على الحكم. قال جمهور المفسرين: الحنان: الرحمة و الشفقة و العطف و المحبة، و أصله توقان النفس، مأخوذ من حنين الناقة على ولدها. قال أبو عبيدة: تقول حنانك يا ربّ و حنانيك يا ربّ، بمعنى واحد، يريد رحمتك. قال طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضناحنانيك بعض الشّرّ أهون من بعض

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۸۵

و قال امرؤ القيس:

و يمنحها بنو شمجى بن جرم «۱»معيزهم حنانك ذا الحنان

قال ابن الأعرابى: الحنّان: مشدّدا، من صفات اللّه عزّ و جلّ، و الحنان مخفّفا: العطف و الرحمة، و الحنان: الرزق و البركة. قال ابن عطية: و الحنان فى كلام العرب أيضا ما عظم من الأمور فى ذات اللّه، و منه قول زيد بن عمرو بن نفيل: و اللّه لئن قتلتم هذا العبد لأتّخذن قبره حنانا، يعنى بلالا، لما مرّ به و هو يعذب؛ و قيل: إن القائل لذلك هو ورقة بن نوفل. قال الأزهرى: معنى ذلك لأترحمنّ عليه، و لأتعطفنّ عليه لأنه من أهل الجنة، و مثله قول الحطيئة:

تحنّن علىّ هداك المليكفإنّ لكلّ مقام مقالا

و معنى مِنْ لَدُنَّا من جنابنا، قيل: و يجوز أن يكون المعنى أعطيناه رحمة من لدنا كائنة فى قلبه يتحنّن بها على الناس، و منهم أبواه و قرابته حتى يخلصهم من الكفر وَ زَكاةً معطوف على ما قبله، و الزكاة:

التطهير و البركة و التنمية و البرّ، أى: جعلناه مباركا للناس يهديهم إلى الخير؛ و قيل: زكّيناه بحسن الثناء عليه كتزكية الشهود؛ و قيل: صدقة تصدّقنا به على أبويه، قاله ابن قتيبة وَ كانَ تَقِيًّا أى: متجنّبا لمعاصى اللّه مطيعا له. و قد روى أنه لم يعمل معصية قط وَ بَرًّا بِوالِدَيْهِ معطوف على «تَقِيًّا»، البرّ هنا بمعنى:

البارّ، فعل بمعنى فاعل، و المعنى: لطيفا بهما محسنا إليهما وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا أى: لم يكن متكبرا و لا عاصيا لوالديه أو لربه، و هذا وصف له عليه السلام بلين الجانب و خفض الجناح وَ سَلامٌ عَلَيْهِ قال ابن جرير و غيره: معناه أمان عليه من اللّه. قال ابن عطية: و الأظهر عندى أنها التحية المتعارفة، فهى أشرف و أنبه من الأمان، لأن الأمان متحصل له بنفى العصيان عنه، و هو أقلّ درجاته، و إنما الشرف فى أن يسلم اللّه عليه، و معنى يَوْمَ وُلِدَ أنه أمن من الشيطان و غيره فى ذلك اليوم، أو أن اللّه حياه فى ذلك اليوم، و هكذا معنى يَوْمَ يَمُوتُ و هكذا معنى يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا قيل: أوحش ما يكون الإنسان فى ثلاثة مواطن: يوم ولد لأنه خرج مما كان فيه، و يوم يموت لأنه يرى قوما لم يكن قد عرفهم و أحكاما ليس له بها عهد، و يوم يبعث لأنه يرى هول يوم القيامة. فخصّ اللّه سبحانه يحيى بالكرامة و السلامة فى المواطن الثلاثة.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ قال: بجدّ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا قال: الفهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: يقول اعمل بما فيه من فرائض. و أخرج ابن

المنذر عن مالك بن دينار قال: اللب. و أخرج أبو نعيم و الديلمى و ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا قال: «أعطى الفهم و العبادة و هو ابن سبع سنين». و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن أبى حاتم عن قتادة بدله: و هو ابن ثلاث سنين. و أخرج الحاكم فى تاريخه، من طريق نهشل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس

---

(١). فى المطبوع: بنو سلخ بن بكر، و المثبت من الديوان ص (١۴٣)

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٨۶

قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «قال الغلمان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال يحيى: ما للعب خلقنا، اذهبوا نصلى، فهو قول اللّه وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا». و أخرج ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممّن أوتى الحكم صبيا». و أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس موقوفا. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله: وَ حَناناً قال: لا أدرى ما هو إلا أنّى أظنّه يعطف اللّه على عبده بالرحمة، و قد فسّرها جماعة من السّلف بالرحمة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ زَكاةً قال: بركة، و فى قوله: وَ كانَ تَقِيًّا قال: طهر فلم يعمل بذنب.

[سورة مريم (١٩): الآيات ١۶ الى ٢۶]

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا (١۶) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا (١٧) قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (١٩) قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)

قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا (٢٢) فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (٢٣) فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢۴) وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (٢۵)

فَكُلِي وَ اشْرَبِي وَ قَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢۶)

قوله: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ هذا شروع فى ابتداء خلق عيسى، و المراد بالكتاب هذه السورة، أى: اذكر يا محمد للناس فى هذه السورة قصة مريم، و يجوز أن يراد بالكتاب جنس القرآن، و هذه السورة منه، و لما كان الذكر لا يتعلّق بالأعيان احتيج إلى تقدير مضاف يتعلّق به الذكر، و هو قصة مريم، أو خبر مريم إِذِ انْتَبَذَتْ العامل فى الظرف هو ذلك المضاف المقدّر، و يجوز أن يجعل بدل اشتمال من مريم؛ لأن الأزمان مشتملة على ما فيها، و يكون المراد بمريم خبرها، و فى هذا الإبدال دلالة على تفخيم شأن الوقت لوقوع قصّتها العجيبة فيه، و النبذ: الطرح و الرمى. قال اللّه سبحانه: فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ «١». و المعنى: أنها تنحّت و تباعدت. و قال ابن قتيبة: اعتزلت، و قيل: انفردت، و المعانى متقاربة. و اختلفوا فى سبب انتباذها، فقيل: لأجل أن تعبد اللّه سبحانه، و قيل: لتطهر من حيضها، و مِنْ أَهْلِها متعلّق بانتبذت، و انتصاب مَكاناً شَرْقِيًّا على المفعولية للفعل المذكور، أى: مكانا من جانب الشرق، و الشّرق بسكون الراء:

المكان الذى تشرق فيه الشمس، و إنما خصّ المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظّمون جهة الشرق لأنها مطلع الأنوار، حكى معناه

ابن جرير.

---

(۱). آل عمران: ۱۸۷.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۸۷

و قـد اختلف النـاس فى نبوّة مريم، فقيـل: إنهـا نبيـة بمجرّد هـذا الإرسال إليها و مخاطبتها للملك؛ و قيل: لم تكن نبيـة؛ لأنّه إنّما كلّمها الملك و هو على مثال البشـر، و قـد تقـدّم الكلام فى هـذا فى آل عمران فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً أى: اتخذت من دون أهلهـا حجابا يسترها عنهم لئلا يروها حال العبادة، أو حال التطهر من الحيض، و الحجاب: الستر و الحاجز فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا هو جبريل عليه السـلام، و قيل: هو روح عيسـى؛ لأن اللّه سبحانه خلق الأرواح قبل الأجساد، و الأوّل أولى لقوله: فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا أى:

تمثّل جبريل لها بشرا مستوى الخلق لم يفقد من نعوت بنى آدم شيئا، قيل: و وجه تمثل الملك لها بشرا أنها لا تطيق أن تنظر إلى الملـك و هـو على صـورته، فلمـا رأته فى صـورة إنسـان حسن كامـل الخلق قـد خرق عليهـا الحجـاب ظنت أنه يريـدها بسـوء، فاستعاذت باللّه منه، و قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا أى:

ممّن يتقى اللّه و يخافه؛ و قيل: إن تقيا اسم رجل صالح، فتعوّذت منه تعجّبا؛ و قيل: إنه اسم رجل فاجر معروف فى ذلك الوقت، و الأوّل أولى. و جواب الشـرط محـذوف، أى: فلا تتعرّض لى قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ أى: قال لها جبريل: إنما أنا رسول ربك الـذى استعذت به، و لست ممّن يتوقع منه مـا خطر ببالك من إرادة السوء لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا جعل الهبـة من قبله لكونه سـببا فيهـا من جهـة كون الإعلام لهـا من جهته، أو من جهـة كون النفـخ قـام به فى الظاهر. و قرأ أبو عمرو و يعقوب و ورش عن نافع ليهب على معنى أرسلنى ليهب لك، و قرأ الباقون بالهمز. و الزكىّ: الطاهر من الـذنوب الـذى ينمو على النزاهـة و العفـة، و قيل: المراد بـالزكىّ النبىّ قـالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ أى: لم يقربنى زوج و لا غيره وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا البغىّ: هى الزانية التى تبغى الرجـال. قـال المبرد: أصـله بغوى على فعول، قلبت الواو يـاء، ثم أدغمت فى الياء و كسـرت الغين للمناسبة. و قال ابن جنى: إنه فعيـل؛ و زيـادة ذكر كونهـا لم تـك بغيا مع كون قولها لم يمسسـنى بشر يتناول الحلال و الحرام لقصـد التأكيـد تنزيها لجانبها من الفحشاء؛ و قيل: ما اسـتبعدت من قـدرة اللّه شـيئا، و لكن أرادت كيف يكون هـذا الولد هل من قبل زوج تتزوّجه فى المسـتقبل أم يخلقه اللّه سبحانه ابتداء؟ و قيل: إن المسّ عبادة عن النكاح الحلال، و على هذا لا يحتاج إلى بيان وجه قولها: وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا، و ما ذكرناه من شموله أولى باستعمالات أهل اللغة، و ما يوجد فى محاوراتهم ممّا يطول تعداده اه. وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ أى: و لنجعل هـذا الغلام، أو خلقه من غير أب، آية للناس يستدلون بها على كمال القدرة، و هو علّة لمعلّل محذوف، و التقدير: خلقناه لنجعله، أو معطوف على علّة أخرى مضـمرة تتعلّق بما يدلّ عليه قوله سـبحانه هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ و جملة: قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ مسـتأنفة، و القائـل هو الملـك، و الكلام فيها كالكلام فيما تقـدّم من قول زكريا. و قوله: وَ رَحْمَةً مِنَّا معطوف على آيـة: أى و لنجعله رحمـة عظيمـة كائنـة منا للناس لما ينالونه منه من الهدايـة و الخير الكثير؛ لأنّ كل نبىّ رحمة لأمته وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا أى: و كان ذلك المذكور أمرا مقدّرا قد قدّره اللّه سبحانه و جف به القلم فَحَمَلَتْهُ هاهنا كلام مطوىّ، و التقدير: فاطمأنت إلى قوله فـدنا منها فنفخ فى جيب درعها فوصـلت النفخة إلى بطنها فحملته؛ و قيل: كانت النفخة فى ذيلها، و قيل: فى فمها. قيل: إن وضعها كان متّصلا بهذا الحمل من

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۸۸

غير مضىّ مدة للحمل، و يدلّ على ذلك قوله: فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا أى: تنحّت و اعتزلت إلى مكان بعيد، و القصّى: هو البعيد.

قيل: كان هذا المكان وراء الجبل، و قيل: أبعد مكان فى تلك الدار، و قيل:
أقصى الوادى، و قيل: إنها حملت به ستة أشهر، و قيل: ثمانية أشهر، و قيل: سبعة فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ أى: ألجأها و اضطرها، و منه قول زهير:
أجاءته المخافة و الرّجاء «١» و قرأ شبيل فاجأها من المفاجأة، و رويت هذه القراءة عن عاصم، و قرأ الحسن بغير همز، و فى مصحف أبىّ فلمّا أجاءها قال فى الكشاف: إن أجاءها منقول من جاء، إلا أن استعماله قد تعين بعد النقل إلى معنى الإلجاء، و فيه بعد، و الظاهر أن كل واحد من الفعلين موضوع بوضع مستقلّ، و المخاض مصدر مخضت المرأة تمخض مخاضا و مخاضا؛ إذا دنا ولادها. و قرأ الجمهور بفتح الميم، و قرأ ابن كثير بكسرها، و الجذع: ساق النخلة اليابسة، كأنها طلبت شيئا تستند إليه و تتعلق به، كما تتعلق الحامل؛ لشدّة وجع الطلق بشىء ممّا تجده عندها، و التعريف إما للجنس أو للعهد قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا أى: قبل هذا الوقت، تمنّت الموت لأنها خافت أن يظنّ بها السوء فى دينها، أو لئلا يقع قوم بسببها فى البهتان وَ كُنْتُ نَسْياً النّسى فى كلام العرب: الشىء الحقير الذى من شأنه أن ينسى، و لا يذكر، و لا يتألم لفقده؛ كالوتد و الحبل، و منه قول الكميت:
أ تجعلنا جسرا لكلب قضاعةو لسنا بنسى فى معدّ و لا دخل
و قال الفراء: النّسى: ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها، فتقول مريم نَسْياً مَنْسِيًّا أى: حيضة ملقاة، و قد قرئ بفتح النون و كسرها، و هما لغتان مثل الحجر و الحجر، و الوتر و الوتر. و قرأ محمد بن كعب القرظى نسئا بالهمز مع كسر النون. و قرأ نوف البكالى بالهمز مع فتح النون. و قرأ بكر بن حبيب نسيّا بفتح النون و تشديد الياء بدون همز، و المنسى: المتروك الذى لا يذكر و لا يخطر ببال أحد من الناس فَناداها مِنْ تَحْتِها أى: جبريل لما سمع قولها، و كان أسفل منها تحت الأكمة، و قيل: تحت النخلة، و قيل: المنادى هو عيسى. و قد قرئ بفتح الميم من مِنْ و كسرها. و قوله: أَلَّا تَحْزَنِي تفسير للنداء؛ أى:
لا تحزنى، أو المعنى بأن لا تحزنى على أنها المصدرية قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا قال جمهور المفسرين:
السرىّ النهر الصغير، المعنى: قد جعل ربك تحت قدمك نهرا. قيل: كان نهرا قد انقطع عنه الماء، فأرسل اللّه فيه الماء لمريم، و أحيا به ذلك الجذع اليابس الذى اعتمدت عليه حتى أورق و أثمر؛ و قيل: المراد بالسرىّ هنا عيسى، و السرىّ: العظيم من الرجال؛ و منه قولهم فلان سرىّ، أى: عظيم، و من قوم سراة، أى:
عظام وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ الهزّ التحريك: يقال هزّه فاهتزّ، و الباء فى بجذع النخلة مزيدة للتوكيد. و قال الفراء: العرب تقول هزّه و هزّ به، و الجذع: هو أسفل الشجرة. قال قطرب: كلّ خشبة

---

(١). و صدره: و جار سار معتمدا إلينا.

فى أصل شجرة فهى جذع، و معنى إليك: إلى جهتك، و أصل تساقط تتساقط فأدغم التاء فى السين. و قرأ حمزة و الأعمش تُساقِطْ مخففا. و قرأ عاصم فى رواية حفص و الحسن بضم التاء مع التخفيف و كسر القاف. و قرئ تتساقط بإظهار التاءين. و قرئ بالتحتية مع تشديد السين. و قرئ تسقط، و يسقط. و قرأ الباقون بإدغام التاء فى السين، فمن قرأ بالفوقية جعل الضمير للنخلة، و من قرأ بالتحتية جعل الضمير للجذع؛ و انتصاب رُطَباً على بعض هذه القراءات للتميز، و على البعض الآخر على المفعولية لتساقط. قال المبرد و الأخفش: يجوز انتصاب رطبا بهزّى، أى: هزّى إليك رطبا جَنِيًّا بجذع النّخلة، أى: على جذعها، و ضعّفه الزمخشرى، و الجنّى: المأخوذ طريا، و قيل: هو ما طلب و صلح للاجتناء، و هو فعيل بمعنى مفعول. قال الفراء: الجنّى و المجنى واحد. و قيل: هو فعيل بمعنى فاعل، أى:

رطبا طريا طيبا فَكُلِي وَ اشْرَبِي أي: من ذلك الرطب و ذلك الماء، أو من الرطب و عصيره، و قدّم الأكل مع أن ذكر النهر مقدّم على الرطب؛ لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشدّ من احتياجها إلى شرب الماء.

ثم قال: وَ قَرِّي عَيْناً قرأ الجمهور بفتح القاف. و حكى ابن جرير أنه قرئ بكسرها، قال: و هى لغة نجد. و المعنى: طيبى نفسا و ارفضى عنك الحزن، و هو مأخوذ من القرّ و القرّة و هما البرد، و المسرور بارد القلب ساكن الجوارح؛ و قيل: المعنى: و قرّى عينا برؤية الولد الموهوب لك. و قال الشيبانى: معناه نامى.

قال أبو عمرو: أقرّ اللّه عينه، أى: أنام عينه و أذهب سهره فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً أصله ترأيين، مثل تسمعين، خففت الهمزة و سقطت النون للجزم و ياء الضمير للساكنين بعد لحوق نون التوكيد، و مثل هذا مع عدم لحوق نون التوكيد قول ابن دريد:

إما ترى رأسى حاكى لونهطرّة صبح تحت أذيال الدّجى

و قرأ طلحة و أبو جعفر و شيبة ترين بسكون الياء و فتح النون مخففة. قال أبو الفتح: و هى شاذة، و جواب الشرط فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً أى: قولى إن طلب منك الكلام أحد من الناس إنى نذرت للرحمن صوما أى صمتا؛ و قيل المراد به الصوم الشرعى، و هو الإمساك عن المفطرات، و الأوّل أولى.

و فى قراءة أبىّ «إنّى نذرت للرّحمن صوما صمتا» بالجمع بين اللفظين، و كذا روى عن أنس. و روى عنه أنه قرأ: «صوما و صمتا» بالواو، و الذى عليه جمهور المفسرين أن الصوم هنا الصمت، و يدل عليه: فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا و معنى الصوم فى اللغة أوسع من المعنيين. قال أبو عبيدة: كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم. و قراءة أبىّ تدل على أن المراد بالصوم هنا الصمت؛ لأنه تفسير للصوم. و قراءة أنس تدل على أن الصوم هنا غير الصمت كما تفيده الواو. و معنى فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا أنها لا تكلم أحدا من الإنس بعد إخبارهم بهذا الخبر، بل إنما تكلم الملائكة و تناجى ربها؛ و قيل: إنها لم تخبرهم هنا باللفظ، بل بالإشارة المفيدة للنذر.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا قال: مكانا أظلتها الشمس أن يراها أحد منهم. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى

حاتم عنه قال: إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة؛ لأن مريم اتخذت من أهلها مكانا شرقيا، فاتخذوا ميلاده قبلة، و إنما سجدت اليهود على حرف حين نتق فوقهم الجبل، فجعلوا ينحرفون و هم ينظرون إليه، يتخوّفون أن يقع عليهم، فسجدوا سجدة رضيها اللّه، فاتخذوها سنة. و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و ابن عساكر من طريق السدّى عن أبى مالك عن ابن عباس، و عن مرّة عن ابن مسعود قالا:

خرجت مريم بنت عمران إلى جانب المحراب لحيض أصابها، فلما طهرت إذا هى برجل معها فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً ففزعت و قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا فخرجت و عليها جلبابها، فأخذ بكمها فنفخ فى جيب درعها، و كان مشقوقا من قدّامها، فدخلت النفخة صدرها فحملت، فأتتها أختها امرأة زكريا ليلة تزورها، فلما فتحت لها الباب التزمتها، فقالت امرأة زكريا: يا مريم أشعرت أنى حبلى، قالت مريم: أشعرت [أيضا] «1» أنى حبلى، فقالت امرأة زكريا: فإنى وجدت ما فى بطنى سجد للذى فى بطنك، فذلك قوله تعالى:

مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ «2» فولدت امرأة زكريا يحيى، و لما بلغ أن تضع مريم خرجت إلى جانب المحراب فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا الآية فَناداها جبريل مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي فلما ولدته ذهب الشيطان، فأخبر بنى إسرائيل أن مريم ولدت، فلما أرادوها على الكلام أشارت إلى عيسى فتكلم ف قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ الآيات، و لما ولد لم يبق فى

الأرض صنم إلا- خرّ لوجهه. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى مريم قال: حين حملت وضعت. و أخرج ابن عساكر عنه قال: وضعت لثمانية أشهر. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:
فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا قال: جبريل. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه.
و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و ابن عساكر عن أبىّ بن كعب فى الآية قال: تمثل لها روح عيسى فى صورة بشر فحملته، قال:
حملت الذى خاطبها، دخل فى فيها. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: مَكاناً قَصِيًّا قال:
نائيا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قال: كان جذعا يابسا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا قال: لم أخلق و لم أك شيئا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا قال: حيضة ملقاة.
و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد نحوه و أخرج عبد بن حميد عن نوف البكالى و الضحّاك مثله، و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة فى قوله: فَناداها مِنْ تَحْتِها قال: الذى ناداها جبريل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: الذى ناداها من تحتها جبريل، و لم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. و قد اختلفت الروايات عن السلف، هل هذا المنادى هو جبريل أو عيسى. و أخرج عبد بن حميد عن أبى بكر بن عياش قال: قرأ عاصم بن أبى النّجود فَناداها مِنْ تَحْتِها بالنصب، قال: و قال عاصم من قرأ بالنصب فهو عيسى، و من قرأ بالخفض فهو جبريل. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه و ابن النجار عن

---

(١). ما بين حاصرتين من الدر المنثور.

(٢). آل عمران: ٣٩.

ابن عمر: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن السرىّ الذى قال اللّه لمريم قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا نهر أخرجه اللّه لها لتشرب منه». و فى إسناده أيوب بن نهيك الحلبى قال فيه أبو حاتم الرازى: ضعيف، و قال أبو زرعة: منكر الحديث، قال أبو فتح الأزدى: متروك الحديث، و قال الطبرانى بعد إخراج هذا الحديث: إنه غريب جدّا. و أخرج الطبرانى فى الصغير و ابن مردويه عن البراء بن عازب عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا قال «النهر». و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و عبد ابن حميد و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم و صحّحه، و الحاكم و ابن مردويه عن البراء قال فى الآية: هو الجدول، و هو النهر الصغير، فظهر بهذا أن الموقوف أصح. و قد روى عن جماعة من التابعين أن السرىّ هو عيسى.
و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: رُطَباً جَنِيًّا قال: طريا. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه فى قوله: إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً قال: صمتا. و أخرج عبد بن حميد و ابن الأنبارى عنه أنه قرأ:
«صوما صمتا».

[سورة مريم (١٩): الآيات ٢٧ الى ٣٣]

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا (٢٧) يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً

أَيْنَ ما كُنْتُ وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (٣١)
وَ بَرًّا بِوالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (٣٢) وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)

لما اطمأنت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات و فرغت من نفاسها فَأَتَتْ بِهِ أى: بعيسى، و جملة تَحْمِلُهُ فى محل نصب على الحال، و كان إتيانها إليهم من المكان القصىّ الذى انتبذت فيه، فلما رأوا الولد معها حزنوا، و كانوا أهل بيت صالحين ف قالُوا منكرين لذلك يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ أى: فعلت شَيْئاً فَرِيًّا قال أبو عبيدة: الفرىّ العجيب النادر، و كذا قال الأخفش. و الفرى: القطع، كأنه ممّا يخرق العادة، أو يقطع بكونه عجيبا نادرا. و قال قطرب: الفرى: الجديد من الأسقية، أى: جئت بأمر بديع جديد لم تسبقى إليه. و قال سعيد بن مسعدة: الفرىّ: المختلق المفتعل، يقال: فريت و أفريت بمعنى واحد، و الولد من الزّنا كالشىء المفترى، قال تعالى: وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ «١». و قال مجاهد: الفرىّ: العظيم.

يا أُخْتَ هارُونَ قد وقع الخلاف فى معنى هذه الأخوّة، و فى هارون المذكور من هو؟ فقيل: هو هارون أخو موسى، و المعنى: أن من كانت نظنّها مثل هارون فى العبادة كيف تأتى بمثل هذا؟ و قيل: كانت مريم من ولد هارون أخى موسى، فقيل لها يا أخت هارون، كما يقال لمن كان من العرب: يا أخا العرب؛ و قيل: كان لها آخر من أبيها اسمه هارون؛ و قيل: هارون هذا رجل صالح فى ذلك الوقت؛ و قيل: بل كان

---

(١). الممتحنة: ١٢.

فى ذلك الوقت رجل فاجر اسمه هارون، فنسبوها إليه على و جهة التعيير و التوبيخ، حكاه ابن جرير و لم يسمّ قائله و هو ضعيف. ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ، وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا هذا فيه تقرير لما تقدّم من التعيير و التوبيخ، و تنبيه على أن الفاحشة من ذرّية الصالحين مما لا ينبغى أن تكون فَأَشارَتْ إِلَيْهِ أى: إلى عيسى، و إنما اكتفت بالإشارة و لم تأمره بالنطق؛ لأنها نذرت للرحمن صوما عن الكلام كما تقدّم، هذا على تقدير أنها كانت إذ ذاك فى أيام نذرها، و على تقدير أنها قد خرجت من أيام نذرها، فيمكن أن يقال: إن اقتصارها على الإشارة للمبالغة فى إظهار الآية العظيمة، و أن هذا المولود يفهم الإشارة و يقدر على العبارة قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا هذا الاستفهام للإنكار و التعجب من إشارتها إلى ذلك المولود بأن يكلمهم.

قال أبو عبيدة: فى الكلام حشو زائد، و المعنى: كيف نكلّم صبيا فى المهد، كقول الشاعر «١»:

.. ..

و جيران لنا كانوا كرام «٢» و قال الزجّاج: الأجود أن تكون «من» فى معنى الشرط و الجزاء، و المعنى: من يكون فى المهد صبيا فكيف نكلّمه. و رجّحه ابن الأنبارى و قال: لا يجوز أن يقال: إن «كان» زائدة و قد نصبت صبيا، و يجاب عنه بأن القائل بزيادتها يجعل الناصب له الفعل، و هو نكلم كما سبق تقديره؛ و قيل: إن «كان» هنا هى التامة التى بمعنى الحدوث و الوجود. و ردّ بأنها لو كانت تامة لاستغنت عن الخبر. و المهد: هو شى‏ء معروف يتخذ لتنويم الصبى. و المعنى كيف نكلم من سبيله أن ينوّم فى المهد لصغره، و قيل: هو هنا حجر الأمّ، و قيل:

سرير كالمهد، فلما سمع عيسى كلامهم قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ فكان أوّل ما نطق به الاعتراف بالعبودية له آتانِيَ الْكِتابَ أى: الإنجيل، أى: حكم لى بإيتائى الكتاب و النبوّة فى الأزل، و إن لم يكن قد نزل عليه فى تلك الحال و لا قد صار نبيا؛ و قيل: إنه آتاه الكتاب و جعله نبيا فى تلك الحال، و هو بعيد وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ أى: حيثما كنت، و البركة: أصلها من بروك البعير، و المعنى: جعلنى ثابتا فى دين اللّه؛ و قيل: البركة هى الزيادة و العلوّ، فكأنه قال: جعلنى فى جميع الأشياء زائدا عاليا منجحا؛ و

قیـل معنی المبـارک النفـاع للعبـاد، و قیل: المعلم للخیر، و قیل: الآمر بالمعروف الناهی عن المنكر وَ أَوْصانِی بِالصَّلاةِ أی: أمرنی بها وَ الزَّكاةِ زكاة المال، أو تطهیر النفس ما دُمْتُ حَیًّا أی: مدة دوام حیاتی، و هذه الأفعال الماضیـة هی من باب تنزیل ما لم یقع منزلـة الواقع؛ تنبیهـا علی تحقیق وقوعه لكونه قـد سـبق فی القضـاء المبرم وَ بَرًّا بِوالِدَتِی معطوف علی مبارکـا، و اقتصـر علی البرّ بوالـدته لأنه قـد علم فی تلـک الحال أنه لم یکن له أب، و قرئ وَ بَرًّا بکسـر الباء علی أنه مصـدر وصف به مبالغـة وَ لَمْ یَجْعَلْنِی جَبَّاراً شَقِیًّا الجبار: المتعظّم الذی لا یری لأحد علیه حقا، و الشـقیّ: العاصی لربه، و قیل: الخائب، و قیل: العاقّ وَ السَّلامُ عَلَیَّ یَوْمَ وُلِدْتُ وَ یَوْمَ أَمُوتُ وَ یَوْمَ أُبْعَثُ حَیًّا قال المفسرون: السلام هنا بمعنی السلامة، أی: السلامة علیّ یوم ولدت، فلم یضرّنی الشیطان فی ذلک الوقت و لا أغوانی عند الموت و لا عند البعث؛

---

(۱). هو الفرزدق.

(۲). و صدره: فكیف إذا رأیت دیار قوم.

و قیل: المراد به التحیة. قیل: و اللام للجنس، و قیل: للعهد، أی: و ذلک السـلام الموجّه إلی یحیی فی هذه المواطن الثلاثة موجّه إلیّ. قیل: إنه لم یتكلّم المسیح بعد هذا الكلام حتی بلغ المدّة التی تتكلم فیها الصبیان فی العادة.

و قد أخرج سعید بن منصور و ابن عساکر عن ابن عباس فی قوله: فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قال:

بعد أربعین یوما بعد ما تعافت من نفاسـها. و أخرج ابن أبی شـیبة و أحمد و عبد بن حمید و مسلم و الترمذی و النسائی و غیرهم عن المغیرة بن شـعبة قـال: بعثنی رسـول اللّه صـلّی اللّه علیه و سـلّم إلی أهـل نجران، فقـالوا: أ رأیت ما تقرؤون یا أُخْتَ هارُونَ و موسی قبل عیسی بكذا و كذا، قال: فرجعت فذكرت ذلک لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، فقال:

«ألا أخبرتهم أنهم كانوا یسمّون بالأنبیاء و الصالحین قبلهم؟» و هذا التفسیر النبویّ یغنی عن سائر ما روی عن السلف فی ذلک.

و أخرج ابن أبی حـاتم عن أنس قـال: کـان عیسـی قـد درس الإنجیل و أحكامها فی بطن أمه، فـذلک قوله: إِنِّی عَبْدُ اللَّهِ آتانِیَ الْكِتابَ و أخرج عبـد الرزاق و ابن أبی شـیبة و عبـد بن حمیـد و ابن المنـذر و ابن أبی حاتم عن عكرمة فی قوله: آتانِیَ الْكِتابَ الآیـة، قال: قضـی أن أكون كـذلک. و أخرج الإسـماعیلی فی معجمه، و أبو نعیم فی الحلیـة، و ابن مردویه و ابن النجار عن أبی هریرة قال: «قال النبی صـلّی اللّه علیه و سـلّم فی قول عیسی: وَ جَعَلَنِی مُبارَكاً أَیْنَ ما كُنْتُ قال: جعلنی نفاعا للناس أینما اتجهت».

و أخرج ابن عدیّ و ابن عساکر عن ابن مسعود عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فی قوله: وَ جَعَلَنِی مُبارَكاً قال: «معلما و مؤدّبا».

و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ لَمْ یَجْعَلْنِی جَبَّاراً شَقِیًّا یقول: عصیّا.

[سورة مریم (۱۹): الآیات ۳۴ الی ۴۰]

ذلِكَ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِی فِیهِ یَمْتَرُونَ (۳۴) ما كانَ لِلَّهِ أَنْ یَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ كُنْ فَیَكُونُ (۳۵) وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّی وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِیمٌ (۳۶) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَیْنِهِمْ فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۳۷) أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ یَوْمَ یَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْیَوْمَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ (۳۸)

وَ أَنْذِرْهُمْ یَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِیَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِی غَفْلَةٍ وَ هُمْ لا یُؤْمِنُونَ (۳۹) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَیْها وَ إِلَیْنا یُرْجَعُونَ (۴۰)

الإشـارة بقوله: ذلِكَ إلی المتّصف بالأوصاف السابقـة. قال الزجّاج: ذلک الـذی قالَ إِنِّی عَبْدُ اللَّهِ عیسـی ابن مریم، لا ما تقوله النصـاری من أنه ابن اللّه و أنه إله. و قرأ ابن عامر و عاصم و یعقوب قَوْلَ الْحَقِ بالنصب. و قرأ الباقون بالرفع. فوجه القراءة الأولی

أنه منتصب على المدح، أو على أنه مصدر مؤكد ل قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ قاله الزجّاج. و وجه القراءة الثانية أنه نعت لعيسى؛ أى: ذلك عيسى ابن مريم قول الحقّ، قاله الكسائى. و سمّى قول الحق كما سمّى كلمة اللّه، و الحقّ: هو اللّه عزّ و جلّ. و قال أبو حاتم:

المعنى هو قول الحق؛ و قيل: التقدير: هذا الكلام قول الحق، و هو من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، مثل حَقُّ الْيَقِينِ* و قيل: الإضافة للبيان، و قرئ: «قال الحق»، و روى ذلك عن ابن مسعود، و قرأ الحسن قَوْلَ الْحَقِ بضم القاف، و القول و القول و القال و المقال بمعنى واحد، و الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٩٤

صفة لعيسى؛ أى: ذلك عيسى ابن مريم الذى فيه يمترون قول الحق، و معنى يمترون يختلفون على أنه من المماراة، أو يشكو على أنه من المرية. و قد وقع الاختلاف فى عيسى؛ فقالت اليهود: هو ساحر، و قالت النصارى: هو ابن اللّه ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ أى: ما صحّ و لا استقام ذلك، و «أن» فى محل رفع على أنها اسم كان. قال الزجاج: «من» فى مِنْ وَلَدٍ مؤكدة تدلّ على نفى الواحد و الجماعة؛ ثم نزّه سبحانه نفسه فقال: سُبْحانَهُ أى: تنزّه و تقدّس عن مقالتهم هذه؛ ثم صرّح سبحانه بما هو شأنه، تعالى سلطانه، فقال: إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ أى: إذا قضى أمرا من الأمور فيكون حينئذ بلا تأخير. و قد سبق الكلام على هذا مستوفى فى البقرة، و فى إيراده فى هذا الموضع تبكيت عظيم للنصارى، أى: من كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ قرأ أهل المدينة و ابن كثير و أبو عمرو بفتح أن، و قرأ ابن عامر و أهل الكوفة بكسرها، و هو من تمام كلام عيسى، و قرأ أبىّ إِنَّ اللَّهَ بغير واو، قال الخليل و سيبويه فى توجيه قراءة النصب بأن المعنى: و لأن اللّه ربى و ربكم، و أجاز الفراء أن يكون فى موضع خفض عطفا على الصلاة، و جوز أبو عمرو بن العلاء عطفه على أمرا هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ أى: هذا الذى ذكرته لكم من أنه ربى و ربكم، هو الطريق القيم الذى لا اعوجاج فيه، و لا يضلّ سالكه فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ من زائدة للتوكيد، و الأحزاب: اليهود و النصارى، أى: فاختلفت الفرق من أهل الكتاب فى أمر عيسى، فاليهود قالوا: إنه ساحر، كما تقدّم، و قالوا: إنه ابن يوسف النجار، و النصارى اختلفت فرقهم فيه، فقالت النسطورية منهم: هو ابن اللّه، و قالت الملكية: هو ثالث ثلاثة، و قالت اليعقوبية: هو اللّه تعالى، فأفرطت النصارى و غلت، و فرّطت اليهود و قصّرت فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا و هم المختلفون فى أمره مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ أى: من شهود يوم القيامة و ما يجرى فيه من الحساب و العقاب، أو من مكان الشهود فيه، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم؛ و قيل:

المعنى: فويل لهم من حضورهم المشهد العظيم الذى اجتمعوا فيه للتشاور أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ قال أبو العباس: العرب تقول هذا فى موضع التعجب، فيقولون: أسمع بزيد و أبصر به، أى: ما أسمعه و أبصره، فعجّب اللّه سبحانه نبيّه صلّى اللّه عليه و سلّم منهم. يَوْمَ يَأْتُونَنا أى: للحساب و الجزاء لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ أى: فى الدنيا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أى: واضح ظاهر، و لكنهم أغفلوا التفكّر و الاعتبار و النظر فى الآثار وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ أى: يوم يتحسّرون جميعا، فالمسىء يتحسّر على إساءته، و المحسن على عدم استكثاره من الخير إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ أى: فرغ من الحساب و طويت الصحف، و صار أهل الجنة فى الجنة و أهل النار فى النار، و جملة وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ فى محل نصب على الحال، أى: غافلين عمّا يعمل بهم، و كذلك جملة وَ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ فى محل نصب على الحال إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْها أى: نميت سكانها فلا يبقى بها أحد يرث الأموات، فكأنه سبحانه ورث الأرض و من عليها حيث أماتهم جميعا وَ إِلَيْنا يُرْجَعُونَ أى: يردّون إلينا يوم القيامة فنجازى كلا بعمله، و قد تقدّم مثل هذا فى سورة الحجر.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: قَوْلَ الْحَقِ قال: اللّه الحقّ عزّ و جلّ. و أخرج

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٩٥

عبد الرزاق و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ قال: اجتمع بنو إسرائيل و أخرجوا منهم أربعة نفر، من كل قوم عالمهم، فامتروا فى عيسى حين رفع، فقال أحدهم: هو اللّه هبط إلى الأرض، و أحيا من أحيا، و أمات من أمات، ثم صعد إلى السماء، و هم اليعقوبية؛ فقالت الثلاثة: كذبت؛ ثم قال اثنان منهم للثالث: قل فيه، فقال: هو ابن اللّه، و هم النسطورية؛ فقال اثنان: كذبت؛ ثم قال أحد الاثنين للآخر: قل فيه، فقال: هو ثالث ثلاثة، اللّه إله، و عيسى إله، و أمه إله، و هم الإسرائيلية، و هم ملوك النصارى؛ فقال الرابع: كذبت، هو عبد اللّه و رسوله و روحه من كلمته، و هم المسلمون، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال فاقتتلوا، فظهروا على المسلمين، فذلك قول اللّه سبحانه: وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ «١»، قال قتادة: و هم الذى قال اللّه: فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قال: اختلفوا فيه فصاروا أحزابا، فاختصم القوم، فقال المرء المسلم: أنشدكم باللّه هل تعلمون أن عيسى كان يطعم الطعام و أن اللّه لا يطعم؟ قالوا: اللهم نعم، قال: فهل تعلمون أن عيسى كان ينام و أن اللّه لا ينام؟ قالوا: اللهم نعم، فخصمهم المسلمون فاقتتل القوم، فذكر لنا أن اليعقوبية ظهرت يومئذ و أصيب المسلمون، فأنزل اللّه فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يقول: الكفار يومئذ أسمع شيء و أبصره، و هم اليوم لا يسمعون و لا يبصرون. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: يَوْمَ يَأْتُونَنا قال: ذلك يوم القيامة. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا دخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة و النار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون و ينظرون إليه، فيقولون:

نعم هذا الموت، و كلهم قد رآه؛ ثم ينادى: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون و ينظرون، فيقولون: نعم هذا الموت، و كلهم قد رآه، فيؤمر به فيذبح و يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، و يا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ الآية، و أشار بيده و قال:

أهل الدنيا فى غفلة». و أخرج النسائى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا نحوه. و أخرج ابن جرير من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس، قال: يوم الحسرة: هو من أسماء يوم القيامة، و قرأ:

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ «٢»، و علىّ هذا ضعيف، و الآية التى استدلّ بها ابن عباس لا تدل على المطلوب لا بمطابقة و لا تضمّن و لا التزام.

[سورة مريم (١٩): الآيات ٤١ الى ٥٠]

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (٤١) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (٤٢) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (٤٣) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (٤٤) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (٤٥)

قالَ أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا (٤٩) وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)

---

(١). آل عمران: ٢١.

(٢). الزمر: ٥۶.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٩۶

قوله: وَ اذْكُرْ معطوف على و أنذر، و المراد بذكر الرسول إياه فى الكتاب أن يتلو ذلك على الناس كقوله: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ «١»، و جملة إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا تعليل لما تقدّم من الأمر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يذكره، و هى معترضة ما بين البدل و المبدل منه، و الصدّيق كثير الصدق، و انتصاب نبيا على أنه خبر آخر لكان، أى: اذكر إبراهيم الجامع لهذين الوصفين، و إِذْ قالَ لِأَبِيهِ بدل اشتمال من إبراهيم، و تعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة، و أبو إبراهيم هو آزر على ما تقدّم تقريره، و التاء فى «يا أبت» عوض عن الياء، و لهذا لا يجتمعان، و الاستفهام فى لِمَ تَعْبُدُ للإنكار و التوبيخ ما لا يَسْمَعُ ما تقوله من الثناء عليه و الدعاء له وَ لا يُبْصِرُ ما تفعله من عبادته و من الأفعال التى تفعلها مريدا بها الثواب، و يجوز أن يحمل نفى السمع و الإبصار على ما هو أعمّ من ذلك؛ أى: لا يسمع شيئا من المسموعات، و لا يبصر شيئا من المبصرات وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً من الأشياء، فلا يجلب لك نفعا و لا يدفع عنك ضررا، و هى الأصنام التى كان يعبدها آزر، أورد إبراهيم عليه السلام على أبيه الدلائل و النصائح، و صدّر كلا منها بالنداء المتضمّن للرفق و اللين استمالة لقلبه، و امتثالا لأمر ربه، ثم كرّر دعوته إلى الحق فقال: يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فأخبر أنه قد وصل إليه من العلم نصيب لم يصل إلى أبيه، و أنه قد تجدّد له حصول ما يتوصل به منه إلى الحق، و يقتدر به على إرشاد الضالّ، و لهذا أمره باتباعه فقال: فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا مستويا موصلا إلى المطلوب منجيا من المكروه، ثم أكّد ذلك بنصيحة أخرى زاجرة له عمّا هو فيه، فقال: يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ أى: لا تطعه، فإن عبادة الأصنام هى من طاعة الشيطان، ثم علّل ذلك بقوله: إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا حين ترك ما أمره به من السجود لآدم، و من أطاع من هو عاص للّه سبحانه فهو عاص للّه، و العاصى حقيق بأن تسلب عنه النعم و تحلّ به النقم. قال الكسائى: العصىّ و العاصى بمعنى واحد. ثم بيّن له الباعث على هذه النصائح فقال: يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ قال الفراء: معنى أخاف هنا أعلم. و قال الأكثرون: إن الخوف هنا محمول على ظاهره؛ لأنّ إبراهيم غير جازم بموت أبيه على الكفر، إذ لو كان جازما بذلك لم يشتغل بنصحه، و معنى الخوف على الغير: هو أن يظنّ وصول الضرر إلى ذلك الغير فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا أى: إنك إذا أطعت الشيطان كنت معه فى النار و اللعنة، فتكون بهذا السبب مواليا، أو تكون بسبب موالاته فى العذاب معه، و ليس هناك ولاية حقيقية لقوله سبحانه:

---

(١). الشعراء: ۶٩.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٩٧

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ «١» و قيل: الولىّ بمعنى التالى، و قيل: الولىّ بمعنى القريب، أى: تكون للشيطان قريبا منه فى النار، فلما مرّت هذه النصائح النافعة و المواعظ المقبولة بسمع آزر قابلها بالغلظة و الفظاظة و القسوة، ف قالَ أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ و الاستفهام للتقريع و التوبيخ و التعجيب، و المعنى: أ معرض أنت عن ذلك و منصرف إلى غيره؟ ثم توعّده فقال: لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ أى: بالحجارة، و قيل: باللسان، فيكون معناه لأشتمنك، و قيل: معناه لأضربنك، و قيل: لأظهرنّ أمرك وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا أى: زمانا طويلا.

قال الكسائى: يقال: هجرته مليّا و ملوة و ملوة و ملاوة و ملاوة، بمعنى الملاوة من الزمان، و هو الطويل، و منه قول مهلهل:

فتصدّعت صمّ الجبال لموته و بكت عليه المرملات مليّا

و قيل: معناه: اعتزلنى سالم العرض لا تصيبك منى معرّة، و اختار هذا ابن جرير، فمليا على هذا منتصب على الحال من إبراهيم، و

على القول الأوّل منتصب على الظرفية، فلما رأى إبراهيم إصرار أبيه على العناد قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ أى: تحية توديع و متاركة، كقوله: وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً «٢» و قيل معناه:
أمنة منى لك، قاله ابن جرير، و إنما أمنه مع كفره لأنه لم يؤمر بقتاله، و الأوّل أولى، و به قال الجمهور؛ و قيل: معناه: الدعاء له بالسلامة، استمالة له و رفقا به، ثم وعده بأن يطلب له المغفرة من اللّه سبحانه تألفا له و طمعا فى لينه و ذهاب قسوته:
و الشّيخ لا يترك أخلاقهحتى يوارى فى ثرى رمسه «٣»
و كان منه هذا الوعد قبل أن يعلم أنه يموت على الكفر، و تحقّ عليه الكلمة، و لهذا قال اللّه سبحانه فى موضع آخر: فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ «٤» بعد قوله: وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ «٥». و جملة إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا تعليل لما قبلها؛ و المعنى: سأطلب لك المغفرة من اللّه، فإنه كان بى كثير البرّ و اللطف، يقال: حفى به و تحفّى إذا برّه. قال الكسائى: يقال حفى بى حفاوة و حفوة.
و قال الفراء: إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا أى: عالما لطيفا يجيبنى إذا دعوته. ثم صرّح الخليل بما تضمّنه سلامه من التوديع و المتاركة فقال: وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى: أهاجر بدينى عنكم و عن معبوداتكم؛ حيث لم تقبلوا نصحى، و لا نجعت فيكم دعوتى وَ أَدْعُوا رَبِّي وحده عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا أى: خائبا، و قيل: عاصيا. قيل: أراد بهذا الدعاء: هو أن يهب اللّه له ولدا و أهلا يستأنس بهم فى اعتزاله، و يطمئن إليهم عند وحشته؛ و قيل: أراد دعاءه لأبيه بالهداية، و عسى للشك لأنه كان لا يدرى هل يستجاب له فيه أم لا، و الأوّل أولى لقوله: فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ أى: جعلنا هؤلاء الموهوبين له أهلا و ولدا بدل الأهل الذين فارقهم

---

(١). الزخرف: ٦٧.

(٢). الفرقان: ٦٩.

(٣). البيت لصالح بن عبد القدوس. (تاريخ بغداد ٩/ ٣٠٣)

(٤). التوبة: ١١٤.

(٥). التوبة: ١١٤.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٣٩٨

وَ كُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا أى: كل واحد منهما، و انتصاب «كلا» على أنه المفعول الأوّل لجعلنا، قدّم عليه للتخصيص، لكن بالنسبة إليهم أنفسهم لا بالنسبة إلى من عداهم، أى: كل واحد منهم جعلنا نبيا، لا بعضهم دون بعض وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا بأن جعلناهم أنبياء، و ذكر هذا بعد التصريح بجعلهم أنبياء لبيان أن النبوّة هى من باب الرحمة. و قيل: المراد بالرحمة هنا المال، و قيل: الأولاد، و قيل: الكتاب، و لا يبعد أن يندرج تحتها جميع هذه الأمور وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا لسان الصدق: الثناء الحسن، عبّر عنه باللسان لكونه يوجد به «١»، كما عبّر باليد عن العطية، و إضافته إلى الصدق و وصفه بالعلوّ للدلالة على أنهم أحقاء بما يقال فيهم من الثناء على ألسن العباد.
و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لَأَرْجُمَنَّكَ قال: لأشتمنّك وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا قال: حينا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا قال: اجتنبنى سويّا.
و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: اجتنبنى سالما قبل أن تصيبك منى عقوبة. و أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير و عكرمة مَلِيًّا: دهرا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة قال: سالما.

و أخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا قال: لطيفا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ قال: يقول وهبنا له إسحاق ولدا «۲» و يعقوب ابن ابنه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله:

وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا قال: الثناء الحسن.

[سورة مريم (۱۹): الآيات ۵۱ الى ۶۳]

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَ كانَ رَسُولاً نَبِيًّا (۵۱) وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا (۵۲) وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (۵۳) وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَ كانَ رَسُولاً نَبِيًّا (۵۴) وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (۵۵)

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (۵۶) وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا (۵۷) أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا (۵۸) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (۵۹) إِلاَّ مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (۶۰)

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (۶۱) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا (۶۲) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا (۶۳)

قفّى سبحانه قصة إبراهيم بقصة موسى لأنه تلوه فى الشرف، و قدّمه على إسماعيل لئلا يفصل بينه و بين ذكر يعقوب، أى: و اقرأ عليهم من القرآن قصة موسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً قرأ أهل الكوفة بفتح اللام،

---

(۱). أى الثناء الحسن.

(۲). من الدر المنثور (۵/ ۵۱۴)

أى: جعلناه مختارا و أخلصناه، و قرأ الباقون بكسرها، أى: أخلص العبادة و التوحيد للّه غير مراء للعباد وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا أى: أرسله اللّه إلى عباده فأنبأهم عن اللّه بشرائعه التى شرعها لهم، فهذا وجه ذكر النبىّ بعد الرسول مع استلزام الرسالة للنبوّة، فكأنه أراد بالرسول معناه اللغوى لا الشرعى، و اللّه أعلم. و قال النيسابورى: الرسول: الذى معه كتاب من الأنبياء، و النبىّ: الذى ينبئ عن اللّه عزّ و جلّ و إن لم يكن معه كتاب، و كان المناسب ذكر الأعمّ قبل الأخص، إلا أن رعاية الفاصلة اقتضت عكس ذلك، كقوله فى:

طه: بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى «۱» انتهى. وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ أى: كلّمناه من جانب الطور، و هو جبل بين مصر و مدين اسمه زبير، و معنى الأيمن: أنه كان ذلك الجانب عن يمين موسى، فإن الشجرة كانت فى ذلك الجانب و النداء وقع منها، و ليس المراد يمين الجبل نفسه. فإن الجبال لا يمين لها و لا شمال. و قيل: معنى الأيمن الميمون، و معنى النداء: أنه تمثل له الكلام من ذلك الجانب وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا أى: أدنيناه بتقريب المنزلة حتى كلّمناه، و النجىّ بمعنى المناجى كالجليس و النديم، فالتقريب هنا هو تقريب التشريف و الإكرام، مثلت حاله بحال من قربه الملك لمناجاته. قال الزجاج: قرّبه منه فى المنزلة حتى سمع مناجاته. و قيل: إن اللّه سبحانه رفعه حتى سمع صريف القلم. روى هذا عن بعض السلف. وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أى: من نعمتنا، و قيل: من

أجل رحمتنا، و هارُونَ عطف بيان، و نَبِيًّا حال منه، و ذلك حين سأل ربه قال: وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي- هارُونَ أَخِي «۲». و وصف اللّه سبحانه إسماعيل بصدق الوعد مع كون جميع الأنبياء كذلك؛ لأنه كان مشهورا بذلك مبالغا فيه، و ناهيك بأنه وعد الصبر من نفسه على الذبح فوفّى بذلك، و كان ينتظر لمن وعده بوعد الأيام و الليالى، حتى قيل: إنه انتظر بعض من وعده حولا. و المراد بإسماعيل هنا هو إسماعيل بن إبراهيم، و لم يخالف فى ذلك إلا من لا يعتدّ به، فقال:

هو إسماعيل بن حزقيل، بعثه اللّه إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه، فخيره اللّه فيما شاء من عذابهم، فاستعفاه و رضى بثوابه، و قد استدل بقوله تعالى فى إسماعيل وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة؛ فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته، و قيل: إنه وصفه بالرسالة لكون إبراهيم أرسله إلى جرهم وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ قيل: المراد بأهله هنا أمته، و قيل: جرهم، و قيل: عشيرته كما فى قوله: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ «۳». و المراد بالصلاة و الزكاة- هنا- هما العبادتان الشرعيتان، و يجوز أن يراد معناهما اللغوى وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا أى: رضيا زاكيا صالحا. قال الكسائى و الفراء: من قال مرضىّ بنى على رضيت، قالا: و أهل الحجاز يقولون مرضوّ وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ اسم إدريس أخنوخ، قيل: هو جدّ نوح، فإن نوحا هو ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ، و على هذا فيكون جدّ أبى نوح، ذكره الثعلبى و غيره، و قد قيل: إن هذا خطأ، و امتناع إدريس للعجمة و العلمية. و هو أوّل من خط بالقلم، و نظر فى النجوم و الحساب، و أوّل من خاط الثياب. قيل: و هو أوّل من أعطى النبوّة من بنى آدم.

و قد اختلف فى معنى قوله: وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا فقيل: إن اللّه رفعه إلى السماء الرابعة، و قيل: إلى

---

(۱). طه: ۷۰.

(۲). طه: ۲۹- ۳۰.

(۳). الشعراء: ۲۱۴.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۰۰

فتح القدير ج۳ ۴۴۹

السادسة، و قيل: إلى الثانية. و قد روى البخارى فى صحيحه من حديث الإسراء و فيه: «و منهم إدريس فى الثانية»، و هو غلط من رواية شريك بن عبد اللّه بن أبى نمر. و الصحيح أنه فى السماء الرابعة كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أنس بن مالك عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و قيل: إن المراد برفعه مكانا عليا: ما أعطيه من شرف النبوّة، و قيل: إنه رفع إلى الجنة أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ الإشارة إلى المذكورين من أول السورة إلى هنا، و الموصول صفته، و من النبيين بيان للموصول، و مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ بدل منه بإعادة الخافض، و قيل: إن من فى «من ذرية آدم» للتبعيض وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ أى: من ذرية من حملنا معه و هم من عدا إدريس، فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ و هم الباقون وَ إِسْرائِيلَ أى: و من ذرية إسرائيل، و منهم موسى و هارون و يحيى و عيسى؛ و قيل: إنه أراد بقوله:

مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ إدريس وحده، و أراد بقوله: وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إبراهيم وحده، و أراد بقوله:

وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ إسماعيل و إسحاق و يعقوب، و أراد بقوله: وَ من ذرّية إِسْرائِيلَ موسى و هارون و زكريا و يحيى و عيسى وَ مِمَّنْ هَدَيْنا أى: من جملة من هدينا إلى الإسلام وَ اجْتَبَيْنا بالإيمان إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا و هذا خبر لأولئك، و يجوز أن يكون الخبر هو الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ و هذا استئناف لبيان خشوعهم للّه و خشيتهم منه. و قد تقدم فى سبحان «۱» بيان معنى خرّوا سجدا؛ يقال: بكى يبكى بكاء و بكيا. قال الخليل: إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن؛ أى: ليس معه

صوت، و منه قول الشاعر «٢»:

بكت عينى و حقّ لها بكاهاو ما يغنى البكاء و لا العويل

و «سُجَّداً» منصوب على الحال. قال الزجاج: قد بيّن اللّه أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا آيات اللّه بكوا و سجدوا، و قد استدلّ بهذه الآية على مشروعية سجود التلاوة، و لما مدح هؤلاء الأنبياء بهذه الأوصاف ترغيبا لغيرهم فى الاقتداء بهم و سلوك طريقتهم ذكر أضدادهم تنفيرا للناس عن طريقتهم، فقال: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أى: عقب سوء. قال أهل اللغة: يقال لعقب الخير خلف بفتح اللام، و لعقب الشر خلف بسكون اللام، و قد قدّمنا الكلام على هذا فى آخر الأعراف أَضاعُوا الصَّلاةَ قال الأكثر: معنى ذلك أنهم أخّروها عن وقتها، و قيل: أضاعوا الوقت، و قيل: كفروا بها و جحدوا وجوبها، و قيل: لم يأتوا بها على الوجه المشروع. و الظاهر أنّ من أخّر الصلاة عن وقتها، أو ترك فرضا من فروضها، أو شرطا من شروطها، أو ركنا من أركانها؛ فقد أضاعها، و يدخل تحت الإضاعة من تركها بالمرّة أو جحدها دخولا أوّليا.

و اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية؟ فقيل: فى اليهود، و قيل: فى النصارى، و قيل: فى قوم من أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم يأتون فى آخر الزمان، و معنى وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ أى: فعلوا ما تشتهيه أنفسهم و ترغب إليه من المحرّمات كشرب الخمر و الزّنا فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا الغىّ: هو الشرّ عند أهل اللغة، كما أن الخير هو

---

(١). سورة الإسراء.

(٢). هو عبد اللّه بن رواحة.

الرشاد. و المعنى: أنهم سيلقون شرّا لا خيرا؛ و قيل: الغىّ الضلال، و قيل: الخيبة، و قيل: هو اسم واد فى جهنم، و قيل: فى الكلام حذف، و التقدير: سيلقون جزاء الغىّ، كذا قال الزجاج، و مثله قوله سبحانه:

يَلْقَ أَثاماً «١»، أى: جزاء أثام إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً أى: تاب ممّا فرط منه من تضييع الصلوات و اتباع الشهوات، فرجع إلى طاعة اللّه و آمن به و عمل عملا صالحا، و فى هذا الاستثناء دليل على أن الآية فى الكفرة لا فى المسلمين فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قرأ أبو جعفر و شيبة و ابن كثير و ابن محيصن و أبو عمرو و يعقوب و أبو بكر يَدْخُلُونَ بضم الياء و فتح الخاء، و قرأ الباقون بفتح الياء و ضم الخاء وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً أى: لا ينقص من أجورهم شىء و إن كان قليلا، فإن اللّه سبحانه يوفى إليهم أجورهم، و انتصاب جَنَّاتِ عَدْنٍ على البدل من الجنة، بدل البعض لكون جنات عدن بعض من الجنة. قال الزجاج: و يجوز جنات عدن بالرفع على الابتداء، و قرئ كذلك. قال أبو حاتم: و لو لا الخط لكان جنة عدن، يعنى: بالإفراد مكان الجمع، و ليس هذا بشىء، فإن الجنة اسم لمجموع الجنات التى هى بمنزلة الأنواع للجنس. و قرئ بنصب الجنات على المدح، و قد قرئ جنة بالإفراد الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ هذه الجملة صفة لجنات عدن، و بالغيب فى محل نصب على الحال من الجنات، أو من عباده، أى: متلبسة، أو متلبسين بالغيب، و قرئ بصرف عدن، و منعها على أنها علم لمعنى العدن و هو الإقامة، أو علم لأرض الجنة إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا أى: موعوده على العموم، فتدخل فيه الجنات دخولا أوّليا. قال الفراء:

لم يقل آتيا، لأن كل ما أتاك فقد أتيته، و كذا قال الزجاج لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً هو الهذر من الكلام الذى يلغى و لا طائل تحته، و هو كناية عن عدم صدور اللغو منهم، و قيل: اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر اللّه إِلَّا سَلاماً هو استثناء منقطع: أى سلام بعضهم على بعض، أو سلام الملائكة عليهم. و قال الزّجّاج:

السلام اسم جامع للخير، لأنه يتضمّن السلامة، و المعنى: إن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤلمهم و إنما يسمعون ما يسلمهم وَ لَهُمْ

رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا قال المفسرون: ليس فى الجنة بكرة و لا عشية، و لكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء و العشاء تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا أى:

هذه الجنة التى وصفنا أحوالها نورثها من كان من أهل التقوى كما يبقى على الوارث مال موروثه. قرأ يعقوب نُورِثُ بفتح الواو و تشديد الراء، و قرأ الباقون بالتخفيف؛ و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير:

نورث من كان تقيا من عبادنا.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا قال:

النبيّ الذى يكلم و ينزل عليه و لا يرسل، و لفظ ابن أبى حاتم: الأنبياء الذين ليسوا برسل يوحى إلى أحدهم و لا يرسل إلى أحد. و الرسل: الأنبياء الذين يوحى إليهم و يرسلون. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ قال: جانب الجبل الأيمن وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا قال:

نجا بصدقه. و أخرج عبد بن حميد عن أبى العالية قال: قربه حتى سمع صريف القلم، يكتب فى اللوح. و أخرجه الديلمى عنه مرفوعا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ

---

(۱). الفرقان: ۶۸.

قال: كان هارون أكبر من موسى، و لكن إنما وهب له نبوّته. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا قال: كان إدريس خياطا، و كان لا يغرز غرزة إلا قال سبحان اللّه، و كان يمسى حين يمسى و ليس على الأرض أفضل عملا منه، فاستأذن ملك من الملائكة ربه فقال: يا ربّ ائذن لى فأهبط إلى إدريس، فأذن له فأتى إدريس فقال: إنى جئتك لأخدمك، قال: كيف تخدمنى و أنت ملك و أنا إنسان؟ ثم قال إدريس: هل بينك و بين ملك الموت شى‌ء؟ قال الملك: ذاك أخى من الملائكة، قال: هل يستطيع أن ينسئنى؟ قال: أما أن يؤخّر شيئا أو يقدّمه فلا، و لكن سأكلّمه لك فيرفق بك عند الموت، فقال:

اركب بين جناحيّ، فركب إدريس فصعد إلى السماء العليا، فلقى ملك الموت و إدريس بين جناحيه، فقال له الملك: إن لى إليك حاجة، قال: علمت حاجتك تكلّمنى فى إدريس، و قد محى اسمه من الصحيفة فلم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين، فمات إدريس بين جناحى الملك. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصاحف، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: سألت كعبا فذكر نحوه، فهذا هو من الإسرائيليات التى يرويها كعب.

و أخرج ابن أى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: رفع إدريس إلى السماء السادسة. و أخرج الترمذى و صحّحه، و ابن المنذر و ابن مردويه قال: حدثنا أنس بن مالك عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لمّا عرج بى رأيت إدريس فى السماء الرابعة». و أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدريّ مرفوعا نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال: رفع إدريس كما رفع عيسى و لم يمت. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: إدريس هو إلياس. و حسّنه السيوطى. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إلى آخره، قال: هذه تسمية الأنبياء الذين ذكرهم؛ أما من ذرية آدم: فإدريس و نوح؛ و أما من حمل مع نوح فإبراهيم؛ و أما ذرية إبراهيم: فإسماعيل، و إسحاق، و يعقوب؛ و أما ذرية إسرائيل: فموسى، و هارون، و زكريا، و يحيى، و عيسى. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ قال: هم اليهود و النصارى. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد فى الآية قال: هم من هذه الأمة يتراكبون فى الطرق كما تراكب الأنعام، لا يستحيون من الناس، و لا يخافون من اللّه فى السماء. و أخرج عبد بن حميد عن ابن

مسعود فی قوله: أَضاعُوا الصَّلاةَ قال: لیس إضاعتها ترکها، قد یضیع الإنسان الشیء و لا یترکه، و لکن إضاعتها: إذا لم یصلّها لوقتها. و أخرج أحمد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن حبان، و الحاکم و صحّحه، و ابن مردویه، و البیهقی فی الشعب، عن أبی سعید الخدری سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و تلا هذه الآیة فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ الآیة قال: «یکون خلف من بعد ستین سنة أضاعوا الصلاة و اتبعوا الشهوات فَسَوْفَ یَلْقَوْنَ غَیًّا ثم یکون خلف یقرءون القرآن لا یعدو تراقیهم، و یقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، و منافق، و فاجر». و أخرج أحمد، و الحاکم و صحّحه، عن عقبة بن عامر: سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یقول: «سیهلک من أمتی أهل الکتاب و أهل اللّین، قلت: یا رسول اللّه ما أهل الکتاب؟ قال: قوم یتعلّمون الکتاب یجادلون به الذین آمنوا. قلت: ما أهل اللّین؟ قال: قوم یتبعون الشهوات و یضیعون الصلوات». و أخرج

فتح القدیر، ج۳، ص: ۴۰۳

ابن أبی حاتم و ابن مردویه، و الحاکم و صحّحه، عن عائشة أنها کانت ترسل بالصدقة لأهل الصدقة و تقول:

لا تعطوا منها بربریا و لا بربریة، فإنی سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یقول: «هم الخلف الذین قال اللّه فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ . و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: فَسَوْفَ یَلْقَوْنَ غَیًّا قال:

خسرا. و أخرج الفریابی و سعید بن منصور و هناد و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی، و الحاکم و صحّحه، و البیهقی فی البعث، من طرق عن ابن مسعود فی قوله: فَسَوْفَ یَلْقَوْنَ غَیًّا قال: الغیّ نهر، أو واد فی جهنم؛ من قیح بعید القعر، خبیث الطعم، یقذف فیه الذین یتبعون الشهوات. و قد قال بأنه واد فی جهنم البراء بن عازب. و روی ذلک عنه ابن المنذر و الطبرانی. و أخرج ابن جریر و الطبرانی و ابن مردویه و البیهقی عن أبی أمامة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفیر جهنم ما بلغت قعرها سبعین خریفا، ثم تنتهی إلی غیّ و أثام، قلت: و ما غیّ و أثام؟

قال: نهران فی أسفل جهنم یسیل فیهما صدید أهل النار، و هما اللذان ذکر اللّه فی کتابه فَسَوْفَ یَلْقَوْنَ غَیًّا وَ مَنْ یَفْعَلْ ذلِکَ یَلْقَ أَثاماً «۱»». و أخرج ابن مردویه عن ابن عباس عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «الغیّ واد فی جهنّم». و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أیضا فی قوله: بُکْرَةً وَ عَشِیًّا قال: یؤتون به فی الآخرة علی مقدار ما کانوا یؤتون به فی الدنیا. و أخرج الحکیم الترمذی فی نوادر الأصول، من طریق أبان عن الحسن و أبی قلابة قالا: قال رجل: یا رسول اللّه هل فی الجنة من لیل؟ قال: و ما هیّجک علی هذا؟ قال: سمعت اللّه یذکر فی الکتاب وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِیها بُکْرَةً وَ عَشِیًّا فقلت: اللیل من البکرة و العشی، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: لیس هناک لیل، و إنما هو ضوء و نور، یرد الغدوّ علی الرواح و الرواح علی الغدوّ، تأتیهم طرف الهدایا من اللّه لمواقیت الصلاة التی کانوا یصلون فیها فی الدنیا، و تسلم علیهم الملائکة». و أخرج ابن أبی حاتم عن أبی هریرة عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «ما من غداة من غدوات الجنة، و کل الجنة غدوات، إلّا أنه یزف إلی ولیّ اللّه فیها زوجة من الحور العین و أدناهنّ التی خلقت من الزعفران» قال بعد إخراجه: قال أبو محمد: هذا حدیث منکر.

[سورة مریم (۱۹): الآیات ۶۴ الی ۷۲]

وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّکَ لَهُ ما بَیْنَ أَیْدِینا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَیْنَ ذلِکَ وَ ما کانَ رَبُّکَ نَسِیًّا (۶۴) رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِیًّا (۶۵) وَ یَقُولُ الْإِنْسانُ أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَیًّا (۶۶) أَ وَ لا یَذْکُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ یَکُ شَیْئاً (۶۷) فَوَ رَبِّکَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّیاطِینَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِیًّا (۶۸)

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ کُلِّ شِیعَةٍ أَیُّهُمْ أَشَدُّ عَلَی الرَّحْمنِ عِتِیًّا (۶۹) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِینَ هُمْ أَوْلی بِها صِلِیًّا (۷۰) وَ إِنْ مِنْکُمْ إِلاَّ وارِدُها

كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا (٧٢)

---

(١). الفرقان: ۶٨.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴٠۴

قوله: وَ ما نَتَنَزَّلُ أى: قال اللّه سبحانه: قل يا جبريل و ما نتنزل، و ذلك أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم استبطأ نزول جبريل عليه، فأمر جبريل أن يخبره بأن الملائكة ما تتنزل عليه إلا بأمر اللّه. قيل: احتبس جبريل عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أربعين يوما، و قيل: خمسة عشر، و قيل: اثنى عشر، و قيل: ثلاثة أيام، و قيل: إن هذا حكاية عن أهل الجنة، و أنهم يقولون عند دخولها: و ما نتنزل هذه الجنان إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ و الأوّل أولى بدلالة ما قبله، و معناه يحتمل وجهين: الأوّل: و ما نتنزّل عليك إلا بأمر ربك لنا بالتنزل. و الثانى: و ما نتنزل عليك إلا بأمر ربك الذى يأمرك به بما شرعه لك و لأمتك، و التنزّل: النزول على مهل، و قد يطلق على مطلق النزول. ثم أكّد جبريل ما أخبر به النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ أى:

من الجهات و الأماكن، أو من الأزمنة الماضية و المستقبلة، و ما بينهما من الزمان أو المكان الذى نحن فيه، فلا نقدر على أن ننتقل من جهة إلى جهة، أو من زمان إلى زمان إلا بأمر ربك و مشيئته؛ و قيل: المعنى: له ما سلف من أمر الدنيا و ما يستقبل من أمر الآخرة و ما بين ذلك، و هو ما بين النفختين؛ و قيل: الأرض التى بين أيدينا إذا نزلنا، و السماء التى وراءنا و ما بين السماء و الأرض؛ و قيل: ما مضى من أعمارنا و ما غبر «١» منها و الحالة التى نحن فيها. و على هذه الأقوال كلها يكون المعنى: أن اللّه سبحانه هو المحيط بكل شىء، لا يخفى عليه خافية، و لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة، فلا نقدم على أمر إلا بإذنه، و قال: «و ما بين ذلك»، و لم يقل و ما بين ذينك؛ لأن المراد: و ما بين ما ذكرنا، كما فى قوله سبحانه: عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ «٢». وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا أى: لم ينسك و إن تأخّر عنك الوحى؛ و قيل: المعنى: إنه عالم بجميع الأشياء لا ينسى منها شيئا؛ و قيل: المعنى: و ما كان ربك ينسى الإرسال إليك عند الوقت الذى يرسل فيه رسله رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما أى: خالقهما و خالق ما بينهما، و مالكهما و مالك ما بينهما، و من كان هكذا فالنسيان محال عليه. ثم أمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بعبادته و الصبر عليها فقال: فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ و الفاء للسببية؛ لأن كونه ربّ العالمين سبب موجب لأن يعبد، و عدّى فعل الصبر باللام دون على التى يتعدّى بها لتضمّنه معنى الثبات هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا الاستفهام للإنكار. و المعنى: أنه ليس له مثل و لا نظير حتى يشاركه فى العبادة، فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه، فلما انتفى المشارك استحق اللّه سبحانه أن يفرد بالعبادة و تخلص له، هذا مبنىّ على أن المراد بالسمىّ هو الشريك فى المسمى؛ و قيل: المراد به: الشريك فى الاسم كما هو الظاهر من لغة العرب، فقيل المعنى: إنه لم يسمّ شىء من الأصنام و لا غيرها باللّه قط، يعنى بعد دخول الألف و اللام التى عوّضت عن الهمزة و لزمت؛ و قيل: المراد هل تعلم أحدا اسمه الرحمن غيره.

قال الزّجّاج: تأويله و اللّه أعلم: هل تعلم له سميّا يستحق أن يقال له خالق و قادر و عالم بما كان و بما يكون، و على هذا لا سمىّ للّه فى جميع أسمائه؛ لأن غيره و إن سمّى بشىء من أسمائه، فلله سبحانه حقيقة ذلك الوصف، و المراد بنفى العلم المستفاد من الإنكار هنا نفى المعلوم على أبلغ وجه و أكمله وَ يَقُولُ الْإِنْسانُ أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا قرأ الجمهور على الاستفهام، و قرأ ابن ذكوان «إذا ما متّ» على الخبر، و المراد بالإنسان

---

(١). غبر هنا: بمعنى بقى، و تأتى بمعنى: مضى. انظر القاموس.

(۲). البقرة: ۶۸.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۰۵

هاهنا الكافر؛ لأن هذا الاستفهام هنا للإنكار و الاستهزاء و التكذيب بالبعث؛ و قيل: اللام فى الإنسان للجنس بأسره و إن لم يقل هذه المقالة إلا البعض، و هم الكفرة فقد يسند إلى الجماعة ما قام بواحد منهم، و المراد بقوله «أخرج» أى: من القبر، و العامل فى الظرف فعل دلّ عليه «أخرج»؛ لأن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً الهمزة للإنكار التوبيخى، و الواو لعطف الجملة التى بعدها على الجملة التى قبلها، و المراد بالذكر هنا إعمال الفكر، أى: ألا يتفكر هذا الجاحد فى أوّل خلقه فيستدلّ بالابتداء على الإعادة، و الابتداء أعجب و أغرب من الإعادة؛ لأن النشأة الأولى هى إخراج لهذه المخلوقات من العدم إلى الوجود ابتداعا و اختراعا، لم يتقدّم عليه ما يكون كالمثال له، و أما النشأة الآخرة فقد تقدّم عليها النشأة الأولى فكانت كالمثال لها، و معنى مِنْ قَبْلُ قبل الحالة التى هو عليها الآن، و جملة وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أنه لم يكن حينئذ شيئا من الأشياء أصلا، فإعادته بعد أن كان شيئا موجودا أسهل و أيسر. قرأ أهل مكة و أبو عمرو و أبو جعفر و أهل الكوفة إلا عاصما أ و لا يذّكّر بالتشديد، و أصله يتذكر. و قرأ شيبة و نافع و عصام و ابن عامر يَذْكُرُ بالتخفيف، و فى قراءة أبيّ أو لا يتذكّر. ثم لما جاء سبحانه و تعالى بهذه الحجة التى أجمع العقلاء على أنه لم يكن فى حجج البعث حجّة أقوى منها، أكّدها بالقسم باسمه سبحانه مضافا إلى رسوله تشريفا له و تعظيما، فقال: فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ و معنى لنحشرنهم: لنسوقنهم إلى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياء كما كانوا، و الواو فى قوله: وَ الشَّياطِينَ للعطف على المنصوب، أو بمعنى مع. و المعنى: أن هؤلاء الجاحدين يحشرهم اللّه مع شياطينهم الذين أغروهم و أضلّوهم، و هذا ظاهر على جعل اللام فى الإنسان للعهد، و هو الإنسان الكافر، و أما على جعلها للجنس فكونه قد وجد فى الجنس من يحشر مع شيطانه ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا الجثىّ: جمع جاث، من قولهم جثا على ركبتيه يجثو جثوا، و هو منتصب على الحال؛ أى: جاثين على ركبهم لما يصيبهم من هول الموقف و روعة الحساب، أو لكون الجثى على الركب شأن أهل الموقف كما فى قوله سبحانه:

وَ تَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً «۱»، و قيل: المراد بقوله جثيا جماعات، و أصله جمع جثوة، و الجثوة: هى المجموع من التراب أو الحجارة. قال طرفة:

ترى جثوتين من تراب عليهماصفائح صمّ من صفيح منضّد

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ الشيعة: الفرقة التى تبعت دينا من الأديان، و خصّص ذلك الزمخشرى فقال: هى الطائفة التى شاعت، أى: تبعت غاويا من الغواة، قال اللّه تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً «۲». و معنى: أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا من كان أعصى للّه و أعتى فإنه ينزع من كل طائفة من طوائف الغىّ و الفساد أعصاهم و أعتاهم، فإذا اجتمعوا طرحهم فى جهنم. و العتىّ هاهنا مصدر كالعتوّ، و هو التمرّد فى العصيان. و قيل: المعنى: لننزعن من أهل كلّ دين قادتهم و رؤوسهم فى الشرّ. و قد

---

(۱). الجاثية: ۲۸.

(۲). الأنعام: ۱۵۹.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۰۶

اتفق القراء على قراءة «أيهم» بالضم إلا هارون القارئ فإنه قرأها بالفتح. قال الزجاج: فى رفع «أيهم» ثلاثة أقوال: الأوّل قول الخليل بن أحمد إنه مرفوع على الحكاية. و المعنى: ثم لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم أيهم أشدّ، و أنشد الخليل فى ذلك قول الشاعر:

و قد أبيت من الفتاة بمنزلفأبيت لا حرج و لا محروم

أى: فأبيت بمنزلة الذى يقال له هو لا- حرج و لا- محروم. قال النحّاس: و رأيت أبا إسحاق، يعنى الزجّاج، يختار هذا القول و يستحسنه. القول الثانى قول يونس: و هو أن لننزعنّ بمنزلة الأفعال التى تلغى و تعلق، فهذا الفعل عنده معلّق عن العمل فى أىّ، و خصّص الخليل و سيبويه و غيرهما التعليق بأفعال الشك و نحوها ممّا لم يتحقّق وقوعه. القول الثالث قول سيبويه: إن أيهم هاهنا مبنىّ على الضم؛ لأنه خالف أخواته فى الحذف، و قد غلّط سيبويه فى قوله هذا جمهور النحويين حتى قال الزجاج: ما تبيّن لى أن سيبويه غلط فى كتابه إلا فى موضعين هذا أحدهما. و للنحويين فى إعراب أيهم هذه فى هذا الموضع كلام طويل. ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا يقال: صلى يصلى صليا «١»، مثل مضى الشىء يمضى مضيا، قال الجوهرى: يقال:

صليت الرجل نارا إذا أدخلته النار و جعلته يصلاها، فإن ألقيته إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت: أصليته بالألف و صلّيته تصلية، و منه وَ يَصْلى سَعِيراً «٢» و من خفّف فهو من قولهم: صلى فلان النار بالكسر يصلى صليا احترق، قال اللّه تعالى: بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا. قال العجّاج «٣»:

و اللّه لو لا النار أن نصلاها و معنى الآية: أن هؤلاء الذين هم أشدّ على الرحمن عتيا هم أولى بصليها، أو صليهم أولى بالنار وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها الخطاب للناس من غير التفات، أو للإنسان المذكور، فيكون التفاتا، أى: ما منكم من أحد إلا واردها، أى: واصلها.

و قد اختلف الناس فى هذا الورود، فقيل: الورود الدخول، و يكون على المؤمنين بردا و سلاما كما كانت على إبراهيم. و قالت فرقة: الورود هو المرور على الصراط؛ و قيل: ليس الورود الدخول، إنما هو كما تقول:

وردت البصرة و لم أدخلها. و قد توقّف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورود، و حمله على ظاهره لقوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ «٤» قالوا: فلا يدخل النار من ضمن اللّه أن يبعده عنها، و ممّا يدلّ على أن الورود لا يستلزم الدخول قوله تعالى: وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ «٥» فإن المراد أشرف عليه لا أنه دخل فيه، و منه قول زهير:

فلمّا وردن الماء زرقا جمامهو ضعن عصىّ الحاضر المتخيّم

و لا يخفى أن القول بأن الورود هو المرور على الصراط، أو الورود على جهنم و هى خامدة فيه جمع بين

---

(١). صليا: بضم الصاد، قراءة نافع و عليها التفسير.

(٢). الانشقاق: ١٢.

(٣). نسبه فى اللسان مادة (فيه) إلى الزفيان، و أورده فى أبيات.

(٤). الأنبياء: ١٠١.

(٥). القصص: ٢٣.

الأدلة من الكتاب و السنة، فينبغى حمل هذه الآية على ذلك؛ لأنه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعدا من عذابها، أو بحمله على المضىّ فوق الجسر المنصوب عليها، و هو الصراط كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا أى: كان ورودهم المذكور أمرا محتوما قد قضى سبحانه أنه لا بدّ من وقوعه لا محالة، و قد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن العقاب واجب على اللّه، و عند الأشاعرة أن هذا مشبه بالواجب من جهة استحالة تطرّق الخلف إليه ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا أى: اتقوا ما يوجب النار، و هو الكفر باللّه و معاصيه، و ترك ما شرعه، و أوجب العمل به. قرأ عاصم الجحدرى و معاوية بن قرة

نجى بالتخفيف من أنجى، و بها قرأ حميـد و يعقوب و الكسائى، و قرأ الباقون بالتشديد، و قرأ ابن أبى ليلى «ثمّه نذر» بفتح الثاء «١» من ثم، و المراد بالظالمين الذين ظلموا أنفسهم بفعل ما يوجب النار، أو ظلموا غيرهم بمظلمة فى النفس أو المال أو العرض، و الجثىّ: جمع جاث، و قد تقدّم قريبا تفسير الجثىّ و إعرابه.

و قـد أخرج البخـارى و غيره عن ابن عبـاس قـال: قـال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم لجبريل: «ما يمنعک أن تزورنا أكثر مما تزورنـا؟ فنزلت وَ مـا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّکَ إلى آخر الآيـة» و زاد ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم: و كـان ذلـک الجـواب لمحمد. و أخرج ابن مردويه من حديث أنس قال: «سـئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أىّ البقاع أحبّ إلى اللّه، و أيها أبغض إلى اللّه؟ قـال: ما أدرى حتى أسأل، فنزل جبريل، و كان قـد أبطأ عليه، فقال: لقـد أبطأت علىّ حتى ظننت أن بربى علىّ موجـدة، فقال: و ما نتنزّل إلا بأمر ربک».

و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: «أبطأ جبريل على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أربعين يوما ثم نزل، فقال له النبى صـلّى اللّه عليه و سلّم: «ما نزلت حتى اشتقت إليک، فقال له جبريل: أنا كنت إليک أشوق، و لكنى مأمور، فأوحى اللّه إلى جبريـل أن قل له وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّکَ و هو مرسل. و أخرج سـعيد بن منصور و عبـد بن حميـد و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: أبطأت الرسل على رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم، ثم أتاه جبريل فقال: «ما حبسک عنى؟ قال: و كيف نأتيكم و أنتم لاـ تقصّون أظفـاركم، و لاـ تنقون براجمكم، و لا تأخـذون شواربكم، و لا تسـتاكون؟ و قرأ وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّکَ و هو مرسل أيضا. و أخرج ابن أبى حاتم عن سـعيد بن جبير لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا قال: من أمر الآخرة وَ ما خَلْفَنا قال: من أمر الدنيا وَ ما بَيْنَ ذلِکَ قال: ما بين الـدنيا و الآخرة. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة وَ ما بَيْنَ ذلِکَ قال: ما بين النفختين. و أخرج ابن المنـذر عن أبى العاليـة مثله. و أخرج البزار و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم و ابن مردويه و الطبرانى و البيهقى، و الحـاكم و صـحّحه، عن أبى الدرداء رفع الحديث قال: «ما أحلّ اللّه فى كتابه فهو حلال، و ما حرّم فهو حرام، و ما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من اللّه عافيته، فـإن اللّه لم يكن لينسـى شيئا، ثم تلا وَ ما كانَ رَبُّکَ نَسِيًّا»، و أخرج ابن مردويه من حـديث جابر مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا قال: هل تعرف للربّ شبها أو مثلا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم

---

(١). فى القرطبى: أى: هناک.

و صـحّحه، و البيهقى فى الشـعب، عنه هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا؟ قال: ليس أحد يسـمّى الرحمن غيره. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآيـة قال: يا محمـد هل تعلم لإلهک من ولد؟. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: وَ يَقُولُ الْإِنْسانُ قال: العاص بن وائل. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: جِثِيًّا قال: قعودا، و فى قوله: عِتِيًّا قال: معصـية. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: عِتِيًّا قال: عصيا.

و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ثُمَّ لَنَنْزِعَنَ قال: لننزعنّ من أهل كلّ دين قادتهم و رؤوسـهم فى الشـرّ. و أخرج ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن ابن مسـعود قال: نحشـر الأوّل على الآخر حتى إذا تكاملت العـدة أثارهم جميعا، ثم بـدأ بالأكابر جرما، ثم قرأ: فَوَ رَبِّکَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ إلى قوله:

عِتِيًّا. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا قال:

يقول إنهم أولى بالخلود فى جهنم. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و الحكيم الترمذى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و

صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن أبى سمية قال: اختلفنا فى الورود، فقال بعضنا لا- يدخلها مؤمن، و قال بعضنا يدخلونها جميعا ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا فلقيت جابر بن عبد اللّه فذكرت له، فقال و أهوى بإصبعه إلى أذنيه صمّتا إن لم أكن سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «لا يبقى برّ و لا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن بردا و سلاما كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجا من بردها ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا».

و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن مجاهد قال: خاصم نافع بن الأزرق ابن عباس، فقال ابن عباس: الورود الدخول، و قال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ «١»، و قال: وردوا أم لا؟ و قرأ: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النّارَ «٢» أوردوا أم لا؟ أما أنا و أنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا؟. و أخرج الحاكم عن ابن مسعود فى قوله: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلاّ وارِدُها قال: و إن منكم إلا- داخلها. و أخرج هناد و الطبرانى عنه فى الآية قال: ورودها الصراط. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى و ابن الأنبارى و ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلاّ وارِدُها قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ليرد الناس كلّهم النار، ثم يصدرون عنها بأعمالهم، فأوّلهم كلمح البرق، ثم كالريح، ثم كحضر الفرس «٣»، ثم كالراكب فى رحله، ثم كشدّ الرحل، ثم كمشيه» و قد روى نحو هذا من حديث ابن مسعود من طرق. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «و إن منكم إلا واردها» يقول: مجتاز فيها. و أخرج مسلم و غيره عن أم مبشر قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا يدخل النار أحد شهد بدرا و الحديبية، قالت حفصة: أليس اللّه يقول: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلاّ وارِدُها قالت: ألم تسمعيه يقول: ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما

---

(١). الأنبياء: ٩٨.

(٢). هود: ٩٨.

(٣). الحضر بالضم: العدو.

قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلّة القسم» ثم قرأ سفيان:

وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلاّ وارِدُها.

و أخرج أحمد، و البخارى فى تاريخه، و أبو يعلى و الطبرانى و ابن مردويه عن معاذ بن أنس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من حرس من وراء المسلمين فى سبيل اللّه متطوّعا، لا يأخذه سلطان، لم ير النار بعينيه إلا تحلّة القسم، فإن اللّه يقول: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلاّ وارِدُها» و الأحاديث فى تفسير هذه الآية كثيرة جدّا.

و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: حَتْماً مَقْضِيًّا قال: قضاء من اللّه. و أخرج الخطيب فى تالى التلخيص عن عكرمة حَتْماً مَقْضِيًّا قال: قسما واجبا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ نَذَرُ الظّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا قال: باقين فيها.

[سورة مريم (١٩): الآيات ٧٣ الى ٨٠]

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً (٧٤) قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَ إِمَّا

السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً (٧٥) وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦) أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَ قالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَ وَلَداً (٧٧)
أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا (٧٩) وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ وَ يَأْتِينا فَرْداً (٨٠)

الضمير فى عَلَيْهِمْ راجع إلى الكفار الذين سبق ذكرهم فى قوله: أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أى: هؤلاء إذا قرئ عليهم القرآن تعذروا بالدنيا، و قالوا: لو كنتم على الحق و كنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أطيب من حالنا، و لم يكن بالعكس؛ لأن الحكيم لا يليق به أن يهين أولياءه و يعزّ أعداءه، و معنى «البينات»: الواضحات التى لا تلتبس معانيها؛ و قيل: ظاهرات الإعجاز، و قيل: إنها حجج و براهين، و الأوّل أولى. و هى حال مؤكدة؛ لأن آيات اللّه لا تكون إلا واضحة، و وضع الظاهر موضع المضمر فى قوله: قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا للإشعار بأن كفرهم هو السبب لصدور هذا القول عنهم، و قيل:
المراد بالذين كفروا هنا هم المتمرّدون المصرّون منهم، و معنى قالوا: لِلَّذِينَ آمَنُوا قالوا: لأجلهم، و قيل: هذه اللام هى لام التبليغ، كما فى قوله: وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ أى: خاطبوهم بذلك و بلغوا القول إليهم أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً المراد بالفريقين المؤمنون و الكافرون، كأنهم قالوا أ فريقنا خير أم فريقكم، قرأ ابن كثير و ابن محيصن و حميد و شبل بن عباد «مقاما» بضم الميم و هو موضع الإقامة، و يجوز أن يكون مصدرا بمعنى الإقامة، و قرأ الباقون بالفتح، أى: منزلا و مسكنا، و قيل: المقام الموضع الذى يقام فيه بالأمور الجليلة، و المعنى: أىّ الفريقين أكبر جاها و أكثر أنصارا و أعوانا، و الندىّ و النادى: مجلس القوم و مجتمعهم، و منه قوله تعالى: تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ «١» و ناداه: جالسه فى النادى، و منه دار الندوة؛ لأن

---

(١). العنكبوت: ٢٩.

المشركين كانوا يتشاورون فيها فى أمورهم، و منه أيضا قول الشاعر:
أنادى به آل الوليد و جعفرا وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ القرن: الأمة و الجماعة هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً الأثاث: المال أجمع:
الإبل و الغنم و البقر و العبيد و المتاع، و قيل: هو متاع البيت خاصة، و قيل: هو الجديد من الفرش، و قيل:
اللباس خاصة. و اختلفت القراءات فى «و رئيا» فقرأ أهل المدينة و ابن ذكوان «وريا» بياء مشدّدة، و فى ذلك وجهان: أحدهما أن يكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء و أدغمت الياء فى الياء، و المعنى على هذه القراءة: هم أحسن منظرا و به قول جمهور المفسرين، و حسن المنظر يكون من جهة حسن اللباس، أو حسن الأبدان و تنعمها، أو مجموع الأمرين. و قرأ أهل الكوفة و أبو عمرو و ابن كثير «و رئيا» بالهمز، و حكاها ورش عن نافع و هشام عن ابن عامر، و معناها معنى القراءة الأولى. قال الجوهرى: من همز جعله من المنظر من رأيت، و هو ما رأته العين من حال حسنة و كسوة ظاهرة، و أنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثّقفى:
أ شاقتك الظّعائن يوم بانوا بذى الرّئى الجميل من الأثاث
و من لم يهمز: إما أن يكون من تخفيف الهمزة، أو يكون من رويت ألوانهم أو جلودهم ريا؛ أى: امتلأت و حسنت. و قد ذكر الزّجاج معنى هذا كما حكاه عنه الواحدى. و حكى يعقوب أن طلحة بن مصرّف قرأ بياء واحدة خفيفة، فقيل إن هذه القراءة غلط، و وجّهها بعض النحويين أنه كان أصلها الهمزة فقلبت ياء ثم حذفت إحدى الياءين، و روى عن ابن عباس أنه قرأ بالزاى مكان الراء، و روى مثل ذلك عن أبىّ بن كعب و سعيد بن جبير و الأعسم المكى و يزيد البربرى، و الزىّ: الهيئة و الحسن. قيل:

و يجوز أن يكون من زويت، أى: جمعت، فيكون أصلها زويا فقلبت الواو ياء، و الزىّ: محاسن مجموعة قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجيب على هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية، أى: من كان مستقرّا فى الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا هذا و إن كان على صيغة الأمر، فالمراد به الخبر، و إنما خرج مخرج الأمر لبيان الإمهال منه سبحانه للعصاة، و أن ذلك كائن لا محالة لتنقطع معاذير أهل الضلال، و يقال لهم يوم القيامة:

أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ «١»، أو للاستدراج كقوله سبحانه: إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً «٢» و قيل: المراد بالآية الدعاء بالمد و التنفيس. قال الزجّاج: تأويله أن اللّه جعل جزاء ضلالته أن يتركه و يمدّه فيها؛ لأن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر كأن المتكلم يقول أفعل ذلك و آمر به نفسى حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ يعنى الذين مدّ لهم فى الضلالة، و جاء بضمير الجماعة اعتبارا بمعنى من، كما أن قوله: كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ اعتبار بلفظها، و هذه غاية للمدّ، لا لقول المفتخرين إذ ليس فيه امتداد إِمَّا الْعَذابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ هذا تفصيل لقوله ما يوعدون؛ أى: هذا الذى توعدون هو أحد أمرين إما العذاب فى الدنيا بالقتل و الأسر، و إما يوم القيامة و ما يحلّ بهم حينئذ من العذاب الأخروى فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً

---

(١). فاطر: ٣٧.

(٢). آل عمران: ١٧٨.

هذا جواب الشرط، و هو جواب على المفتخرين؛ أى: هؤلاء القائلون؛ أىّ الفريقين خير مقاما، إذا عاينوا ما يوعدون به من العذاب الدنيوى بأيدى المؤمنين، أو الأخروى، فسيعلمون عند ذلك من هو شرّ مكانا من الفريقين، و أضعف جندا منهما، أى: أنصارا و أعوانا. و المعنى: أنهم سيعلمون عند ذلك أنهم شرّ مكانا لا خير مكانا، و أضعف جندا لا أقوى و لا أحسن من فريق المؤمنين؛ و ليس المراد أن للمفتخرين هنالك جندا ضعفاء، بل لا- جند لهم أصلا؛ كما فى قوله سبحانه: وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مُنْتَصِراً «١». ثم لما أخبر سبحانه عن حال أهل الضلالة، أراد أن يبين حال أهل الهداية فقال: وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً و ذلك أن بعض الهدى يجرّ إلى البعض الآخر، و الخير يدعو إلى الخير؛ و قيل: المراد بالزيادة العبادة من المؤمنين، و الواو فى «و يزيد» للاستئناف، و الجملة مستأنفة لبيان حال المهتدين؛ و قيل: الواو للعطف على فليمدد؛ و قيل: للعطف على جملة: من كان فى الضلالة. قال الزجّاج: المعنى أن اللّه يجعل جزاء المؤمنين أن يزيدهم يقينا، كما جعل جزاء الكافرين أن يمدّهم فى ضلالتهم وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً هى الطاعات المؤدية إلى السعادة الأبدية، و معنى كونها خيرا عند اللّه ثوابا، أنها أنفع عائدة ممّا يتمتّع به الكفار من النعم الدنيوية وَ خَيْرٌ مَرَدًّا المردّ هاهنا مصدر كالردّ، و المعنى: و خير مردّ للثواب على فاعلها ليست كأعمال الكفار التى خسروا فيها، و المردّ: المرجع و العاقبة و التفضل؛ للتهكم بهم و للقطع بأن أعمال الكفار لا خير فيها أصلا. ثم أردف سبحانه مقالة أولئك المفتخرين بأخرى مثلها على سبيل التعجب فقال: أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا أى: أخبرنى بقصة هذا الكافر و اذكر حديثه عقب حديث أولئك، و إنما استعملوا أ رأيت بمعنى أخبر؛ لأن رؤية الشي‏ء من أسباب صحة الخبر عنه، و الآيات تعمّ كل آية و من جملتها آية البعث، و الفاء للعطف على مقدّر يدل عليه المقام، أى: أنظرت فرأيت، و اللام فى لَأُوتَيَنَّ مالًا وَ وَلَداً هى الموطئة للقسم، كأنه قال: و اللّه لأوتينّ فى الآخرة مالا و ولدا، أى: انظر إلى حال هذا الكافر، و تعجّب من كلامه؛ و تألّيه على اللّه مع كفره به و تكذيبه بآياته. ثم أجاب سبحانه عن قول هذا الكافر بما يدفعه و يبطله، فقال: أَطَّلَعَ على الْغَيْبَ أى:

أعلم ما غاب عنه حتى يعلم أنه فى الجنة أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً بذلك، فإن لا- يتوصّل إلى العلم إلا- بإحدى هاتين

الطريقتين؛ و قيل: المعنى: أنظر فى اللوح المحفوظ؟ أم اتّخذ عند الرحمن عهدا؟ و قيل:
معنى أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً؟: أم قال لا إله إلا اللّه فأرحمه بها. و قيل: المعنى أم قدّم عملا صالحا فهو يرجوه. و اطلع مأخوذ من قولهم: اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه. و قرأ حمزة و الكسائى و يحيى بن وثّاب و الأعمش و ولدا بضم الواو، و الباقون بفتحها، فقيل: هما لغتان معناهما واحد، يقال: ولد و ولد كما يقال عدم و عدم، قال الحارث بن حلّزة:
و لقد رأيت معاشراقد ثمّروا مالا و ولدا

(١). الكهف: ٤٣.
فتح القدير، ج٣، ص: ٤١٢
و قال آخر:
فليت فلانا كان فى بطن أمّهو ليت فلانا كان ولد حمار
و قيل: الولد بالضم للجمع و بالفتح للواحد. و قد ذهب الجمهور إلى أن هذا الكافر أراد بقوله: لأوتينّ مالا و ولدا أنه يؤتى ذلك فى الدنيا. و قال جماعة: فى الجنة، و قيل: المعنى: إن أقمت على دين آبائى لأوتينّ، و قيل: المعنى: لو كنت على باطل لما أوتيت مالا و ولدا كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ كلا حرف ردع و زجر؛ أى: ليس الأمر على ما قال هذا الكافر من أنه يؤتى المال و الود سيكتب ما يقول، أى: سنحفظ عليه ما يقوله فنجازيه فى الآخرة، أو سنظهر ما يقول، أو سننتقم منه انتقام من كتبت معصيته وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا أى: نزيده عذابا فوق عذابه مكان ما يدّعيه لنفسه من الإمداد بالمال و الولد، أو نطوّل له من العذاب ما يستحقّه و هو عذاب من جمع بين الكفر و الاستهزاء وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ أى: نميته فنرثه المال و الولد الذى يقول إنه يؤتاه. و المعنى: مسمّى ما يقول و مصداقه، و قيل: المعنى: نحرمه ما تمنّاه و نعطيه غيره وَ يَأْتِينا فَرْداً أى: يوم القيامة لا مال له و لا ولد، بل نسلبه ذلك، فكيف يطمع فى أن نؤتيه. و قيل: المراد بما يقول نفس القول لا مسمّاه، و المعنى: إنما يقول هذا القول ما دام حيا، فإذا أمتناه حلنا بينه و بين أن يقوله، و يأتينا رافضا له منفردا عنه، و الأوّل أولى.
و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً قال: قريش تقوله لها و لأصحاب محمد. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: خَيْرٌ مَقاماً قال: المنازل وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا قال: المجالس، و فى قوله: أَحْسَنُ أَثاثاً قال: المتاع و المال وَ رِءْياً قال: المنظر. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا فليدعه اللّه فى طغيانه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن حبيب بن أبى ثابت قال فى حرف أبىّ:
«قل من كان فى الضلالة فإنه يزيده اللّه ضلالة». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما فى قوله: أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ من حديث خبّاب بن الأرت قال: كنت رجلا قينا «١» و كان لى على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه فقال: لا و اللّه لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: و اللّه لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال: فإنى إذا متّ ثم بعثت جئتنى ولى ثمّ مال و ولد فأعطيك، فأنزل اللّه فيه هذه الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً قال: لا إله إلا اللّه يرجو بها. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ قال: ماله و ولده.

(١). أى حدّادا.

[سورة مريم (١٩): الآيات ٨١ الى ٩٥]

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (٨٥)

وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى‏ جَهَنَّمَ وِرْداً (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (٨٧) وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (٨٩) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (٩٠)

أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (٩١) وَ ما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (٩٣) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً (٩٥)

حكى سبحانه ما كان عليه هؤلاء الكفار الذين تمنّوا ما لا يستحقّونه، و تألّوا على اللّه سبحانه من اتّخاذهم الآلهة من دون اللّه لأجل يتعزّزون بذلك. قال الهرويّ: معنى لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ليكونوا لهم أعوانا.

قال الفراء: معناه ليكونوا لهم شفعاء في الآخرة، و قيل: معناه: ليتعزّزوا بهم من عذاب اللّه و يمتنعوا بها كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ أي: ليس الأمر كما ظنّوا و توهّموا، و الضمير في الفعل إما للآلهة، أي: ستجحد هذه الأصنام عبادة الكفار لها يوم ينطقها اللّه سبحانه؛ لأنها عند ما عبدوها جمادات لا تعقل ذلك، و إما للمشركين، أي: سيجحد المشركون أنهم عبدوا الأصنام، و يدلّ على الوجه الأوّل قوله تعالى: ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ «١» و قوله: فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ «٢»، و يدلّ على الوجه الثاني قوله تعالى: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ «٣» و قرأ أبو نهيك كلا بالتنوين، و روى عنه مع ذلك ضمّ الكاف و فتحها، فعلى الضمّ هي بمعنى جميعا و انتصابها بفعل مضمر، كأنه قال: سيكفرون «كَلًّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ» «٤»، و على الفتح يكون مصدرا لفعل محذوف تقديره: كلّ هذا الرأي كلّا، و قراءة الجمهور هي الصواب، و هي حرف ردع و زجر وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا أي: تكون هذه الآلهة التي ظنوها عزّا لهم ضدّا عليهم: أي ضدا للعزّ و ضدّ العزّ: الذلّ هذا على الوجه الأوّل، و أما على الوجه الثاني فيكون المشركون للآلهة ضدّا و أعداء يكفرون بها بعد أن كانوا يحبّونها و يؤمنون بها أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ ذكر الزجاج في معنى هذا وجهين: أحدهما: أن معناه خلينا بين الكافرين و بين الشياطين فلم نعصمهم منهم و لم نعذهم، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ* «٥». الوجه الثاني: أنهم أرسلوا عليهم و قيّضوا لهم بكفرهم، قال: وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً «٦» فمعنى الإرسال هاهنا التسليط، و من ذلك قوله سبحانه لإبليس: وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ «٧» و يؤيد الوجه الثاني تمام الآية، و هو تَؤُزُّهُمْ أَزًّا فإن الأزّ و الهزّ و الاستفزاز معناه التحريك و التهييج و الإزعاج، فأخبر اللّه سبحانه أن الشياطين

---

(١). القصص: ٦٣.

(٢). النحل: ٨٦.

(٣). الأنعام: ٢٣.

(٤). أي اتخاذهم الآلهة.

(٥). الحجر: ٤٢ و الإسراء: ٦٥.

(٦). الزخرف: ٣٦.

(٧). الإسراء: ۶۴.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴۱۴

تحرّك الكافرين و تهيّجهم و تغويهم، و ذلك هو التسليط لها عليهم، و قيل: معنى الأزّ الاستعجال، و هو مقارب لما ذكرنا؛ لأن الاستعجال تحريك و تهييج و استفزاز و إزعاج، و سياق هذه الآية لتعجيب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من حالهم و للتنبيه له على أن جميع ذلك بإضلال الشياطين و إغوائهم، و جملة: «تؤزهم أزّا» فى محل نصب على الحال، أو مستأنفة على تقدير سؤال يدلّ عليه المقام، كأنه قيل: ماذا تفعل الشياطين بهم؟ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ بأن تطلب من اللّه إهلاكهم بسبب تصميمهم على الكفر، و عنادهم للحق، و تمرّدهم عن داعى اللّه سبحانه، ثم علّل سبحانه هذا النهى بقوله: إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا يعنى نعدّ الأيام و الليالى و الشهور و السنين من أعمارهم إلى انتهاء آجالهم، و قيل: نعدّ أنفاسهم، و قيل: خطواتهم، و قيل: لحظاتهم، و قيل:

الساعات. و قال قطرب: نعدّ أعمالهم. و قيل: المعنى: لا تعجل عليهم؛ فإنما نؤخّرهم ليزدادوا إثما. ثم لما قرّر سبحانه أمر الحشر و أجاب عن شبهة منكريه؛ أراد أن يشرح حال المكلفين حينئذ، فقال: يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً الظرف منصوب بفعل مقدّر، أى: اذكر يا محمد يوم الحشر، و قيل:

منصوب بالفعل الذى بعده، و معنى حشرهم إلى الرحمن؛ حشرهم إلى جنته و دار كرامته، كقوله: إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي «١» و الوفد: جمع وافد؛ كالركب جمع راكب، و صحب جمع صاحب، يقال: وفد يفد وفدا إذا خرج إلى ملك أو أمر خطير كذا قال الجوهرى وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً السوق: الحثّ على السير، و الورد: العطاش، قاله الأخفش و غيره. و قال الفراء و ابن الأعرابى: هم المشاة، و قال الأزهرى:

هم المشاة العطاش كالإبل ترد الماء. و قيل: وردا، أى: للورد، كقولك: جئتك إكراما، أى: للإكرام، و قيل: أفرادا. قيل: و لا تناقض بين هذه الأقوال، فهم يساقون مشاة عطاشا أفرادا، و أصل الورد الجماعة التى ترد الماء من طير أو إبل أو قوم أو غير ذلك. و الورد: الماء الذى يورد، و جملة لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ مستأنفة لبيان بعض ما يكون فى ذلك اليوم من الأمور، و الضمير فى «يملكون» راجع إلى الفريقين، و قيل:

للمتقين خاصة، و قيل: للمجرمين خاصة، و الأوّل أولى. و معنى «لا يملكون الشفاعة»: أنهم لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم. و قيل: لا يملك غيرهم أن يشفع لهم، و الأوّل أولى إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً هذا الاستثناء متّصل على الوجه الأوّل؛ أى: لا يملك الفريقان المذكوران الشفاعة إلا من استعدّ لذلك بما يصير به من جملة الشافعين لغيرهم بأن يكون مؤمنا متقيا، فهذا معنى اتّخاذ العهد عند اللّه. و قيل: معنى اتّخاذ العهد أن اللّه أمره بذلك، كقولهم: عهد الأمير إلى فلان إذا أمره به. و قيل: معنى اتّخاذ العهد شهادة أن لا إله إلا اللّه، و قيل غير ذلك. و على الاتصال فى هذا الاستثناء يكون محل «من» فى مَنِ اتَّخَذَ الرفع على البدل، أو النصب على أصل الاستثناء. و أما على الوجه الثانى فالاستثناء منقطع؛ لأن التقدير: لا يملك المجرمون الشفاعة إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً و هم المسلمون، و قيل: هو متصل على هذا الوجه أيضا، و التقدير: لا يملك المجرمون الشفاعة إلا من كان منهم مسلما وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً قرأ يحيى بن وثّاب و الأعمش و حمزة و الكسائى ولدا بضم الواو و إسكان اللام. و قرأ الباقون فى المواضع

---

(١). الصافات: ٩٩.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴۱۵

الأربعة المذكورة فى هذه السورة بفتح الواو و اللام، و قد قدّمنا الفرق بين القراءتين، و الجملة مستأنفة لبيان قول اليهود و

النصارى و من يزعم من العرب أن الملائكة بنات اللّه، و فى قوله: لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا التفات من الغيبة إلى الخطاب، و فيه ردّ لهذه المقالة الشنعاء، و الإدّ كما قال الجوهرى: الداهية و الأمر الفظيع، و كذلك الإدّة، و جمع الإدّة إدد، يقال: أدّت فلانا الداهية تؤدّه أدا بالفتح. و قرأ أبو عبد الرحمن السلمى «أدا» بفتح الهمزة، و قرأ الجمهور بالكسر، و قرأ ابن عباس و أبو العالية «آدا» مثل «مادّا»، و هى مأخوذة من الثقل، يقال: آده الحمل يؤوده أودا: أثقله. قال الواحدى لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا أى: عظيما فى قول الجميع، و معنى الآية: قلتم قولا عظيما. و قيل: الإدّ: العجب، و الإدّة: الشدة، و المعنى متقارب، و التركيب يدور على الشدة و الثقل. تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ قرأ نافع و الكسائى و حفص و يحيى بن وثّاب «يكاد» بالتحتية، و قرأ الباقون بالفوقية، و قرأ نافع و ابن كثير و حفص تتفطّرن بالتاء الفوقية، و قرأ حمزة و ابن عامر و أبو عمرو و أبو بكر و المفضّل ينفطرن بالتحتية من الانفطار، و اختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ «١» و قوله: السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ «٢» و قرأ ابن مسعود «يتصدّعن» و الانفطار و التفطر: التشقق وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ أى: و تكاد أن تنشق الأرض، و كرّر الفعل للتأكيد؛ لأن تتفطرن و تنشق معناهما واحد وَ تَخِرُّ الْجِبالُ أى: تسقط و تنهدم، و انتصاب هَدًّا على أنه مصدر مؤكد لأن الخرور فى معناه، أو هو مصدر لفعل مقدّر، أى: و تنهد هدّا، أو على الحال، أى: مهدودة، أو على أنه مفعول له، أى: لأنها تنهد. قال الهروى: يقال هدنى الأمر و هدّ ركنى، أى: كسرنى و بلغ منى.

قال الجوهرى: هدّ البناء يهدّه هدّا كسره و ضعضعه، و هدّته المصيبة أوهنت ركنه، و انهدّ الجبل، أى:

انكسر، و الهدّة: صوت وقع الحائط، كما قال ابن الأعرابى، و محل أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً الجرّ بدلا من الضمير فى منه. و قال الفراء: فى محل نصب بمعنى لأن دعوا. و قال الكسائى: هو فى محل خفض بتقدير الخافض، و قيل: فى محل رفع على أنه فاعل هدّا. و الدعاء بمعنى التسمية، أى: سمّوا للرحمن ولدا، أو بمعنى النسبة، أى: نسبوا له ولدا وَ ما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً أى: لا يصلح له و لا يليق به؛ لاستحالة ذلك عليه؛ لأن الولد يقتضى الجنسية و الحدوث، و الجملة فى محل نصب على الحال، أى: قالوا اتخذ الرحمن ولدا، أو أن دعوا للرحمن ولدا، و الحال أنه ما يليق به سبحانه ذلك إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: ما كل من فى السموات و الأرض إلّا و هو آتِى اللّه يوم القيامة مقرّا بالعبودية خاضعا ذليلا، كما قال: وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ «٣» أى: صاغرين. و المعنى: أن الخلق كلهم عبيده فكيف يكون واحد منهم ولدا له؟ و قرئ «آتى» على الأصل لَقَدْ أَحْصاهُمْ أى: حصرهم و علم عددهم وَ عَدَّهُمْ عَدًّا أى: عدّ أشخاصهم بعد أن حصرهم، فلا يخفى عليه أحد منهم وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً أى:

كلّ واحد منهم يأتيه يوم القيامة فردا لا ناصر له و لا مال معه، كما قال سبحانه: يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ «۴».

---

(١). الإنفطار: ١.

(٢). المزمل: ١٨.

(٣). النمل: ٨٧.

(۴). الشعراء: ١٨٨.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴١۶

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا قال: أعوانا.

و أخرج عبد بن حميد عنه ضِدًّا قال: حسرة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: تَؤُزُّهُمْ أَزًّا تغويهم إغواء. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا: تَؤُزُّهُمْ أَزًّا قال: تحرّض المشركين على محمد و أصحابه. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: تزعجهم إزعاجا إلى معاصى اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى

حاتم، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس وَفْداً قال: ركبانا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن أبى هريرة وَفْداً قال: على الإبل. و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق: راغبين و راهبين، و اثنان على بعير، و أربعة على بعير، و عشرة على بعير، و تحشر بقيتهم النار، تقيل معهم حيث قالوا، و تبيت معهم حيث باتوا» و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس وِرْداً قال: عطاشا. و أخرج ابن المنذر عن أبى هريرة مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصّفات، عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً قال: شهادة أن لا إله إلا اللّه، و تبرأ من الحول و القوّة، و لا يرجو إلا اللّه. و أخرج ابن مردويه عنه فى الآية قال: من مات لا يشرك باللّه شيئا دخل الجنة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ: إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً قال: إن اللّه يقول يوم القيامة: من كان له عندى عهد فليقم، فلا يقوم إلا من قال هذا فى الدنيا، قولوا: اللهم فاطر السموات و الأرض عالم الغيب و الشهادة؛ إنّى أعهد إليك فى الحياة الدنيا أنك إن تكلنى إلى عملى تقربنى من الشرّ و تباعدنى من الخير، و إنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعله لى عندك عهدا تؤديه إلىّ يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من أدخل على مؤمن سرورا فقد سرّنى، و من سرّنى فقد اتخذ عند الرحمن عهدا، و من اتّخذ عند الرحمن عهدا فلا تمسّه النار، إن اللّه لا يخلف الميعاد». و أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها و مواقيتها و ركوعها و سجودها لم ينقص منها شيئا جاء و له عند اللّه عهد أن لا يعذّبه، و من جاء قد انتقص منهم شيئا فليس له عند اللّه عهد، إن شاء رحمه و إن شاء عذّبه». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا قال: قولا عظيما، و فى قوله: تَكادُ السَّماواتُ قال: إن الشرك فرغت منه السموات و الأرض و الجبال و جميع الخلائق إلا الثقلين، و كادت تزول منه لعظمة اللّه سبحانه، و كما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك يرجو أن يغفر اللّه ذنوب الموحدين، و فى قوله: وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا قال: هدما. و أخرج ابن المبارك و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة، و أحمد فى الزهد، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و الطبرانى، و البيهقى فى الشعب من طريق عون عن ابن مسعود قال: إن الجبل لينادى الجبل باسمه، يا فلان هل مرّ بك اليوم أحد ذكر اللّه؟ فإذا قال نعم استبشر.

فتح القدير، ج‌3، ص: 417

قال عون: أ فيسمعن الزور إذا قيل و لا يسمعن الخير؟ هنّ للخير أسمع، و قرأ: وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً الآيات.

[سورة مريم (19): الآيات 96 الى 98]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (96) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (97) وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (98)

ذكر سبحانه من أحوال المؤمنين بعض ما خصّهم به بعد ذكره لقبائح الكافرين، فقال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا أى: حبّا فى قلوب عباده يجعله لهم من دون أن يطلبوه بالأسباب التى توجب ذلك كما يقذف فى قلوب أعدائهم الرعب، و السين فى سيجعل للدلالة على أن ذلك لم يكن من قبل و أنه مجعول من بعد نزول الآية. و قرئ ودا بكسر الواو، و الجمهور من السبعة و غيرهم على الضم. ثم ذكر سبحانه تعظيم القرآن خصوصا هذه السورة لاشتمالها على التوحيد و النبوة، و بيان حال المعاندين فقال: فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ أى: يسرنا القرآن بإنزالنا له على لغتك، و فصّلناه و سهّلناه، و الباء

بمعنى على، و الفاء لتعليل كلام ينساق إليه النظم كأنه قيل: بلغ هـذا المنزل أو بشـر به أو أنذر فَإِنَّما يَسَّرْناهُ الآيهٔ. ثم علّل ما ذكره من التيسير فقال: لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ أى: المتلبّسين بالتقوى، المتّصفين بها وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا اللدّ: جمع الألد، و هو الشديد الخصومهٔ، و منه قوله تعالى: أَلَدُّ الْخِصامِ «۱» قال الشاعر:

أبيت نجيا للهموم كأنّنىأخاصم أقواما ذوى جدل لدّا

و قال أبو عبيدهٔ: الألد الذى لا يقبل الحق و يدّعى الباطل، و قيل: اللدّ الصّم، و قيل: الظلمهٔ وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ أى: من أمهٔ و جماعهٔ من الناس، و فى هذا وعد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بهلاك الكافرين و وعيد لهم هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ هـذه الجملهٔ مقرّرهٔ لمضمون ما قبلها، أى: هل تشعر بأحد منهم أو تراه أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً الركز: الصوت الخفى، و منه ركز الرمح إذا غيّب طرفه فى الأرض. قال طرفهٔ:

و صادقنا «۲» سمع التّوجّس للسّرىلركز خفى أو لصوت مفند «۳»

و قال ذو الرّمّهٔ:

إذا توجس ركزا مقفر ندسبنبأة الصّوت ما فى سمعه كذب

---

(۱). البقرهٔ: ۲۰۴.

(۲). فى المطبوع: و صادفتها. و المثبت من شرح المعلقات السبع ص (۹۹) تحقيق يوسف بديوى، طبع دار ابن كثير.

(۳). فى شرح المعلقات السبع: مندّد.

أى: ما فى استماعه كذب بل هو صادق الاستماع، و النّدس: الحاذق، و النّبأة: الصوت الخفى. و قال اليزيدى و أبو عبيدة: الركز: ما لا يفهم من صوت أو حركهٔ.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف؛ أنه لما هاجر إلى المدينهٔ وجد فى نفسه على فراق أصحابه بمكهٔ منهم شيبهٔ بن ربيعهٔ و عتبهٔ بن ربيعهٔ و أميهٔ بن خلف، فأنزل اللّه إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ الآيهٔ، قال ابن كثير: و هو خطأ، فإن السورهٔ مكيهٔ بكمالها لم ينزل شىء منها بعد الهجرهٔ، و لم يصحّ سند ذلك. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت فى على بن أبى طالب إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا قال: محبهٔ فى قلوب المؤمنين. و أخرج ابن مردويه و الديلمى عن البراء قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لعلىّ: «قل اللهم اجعل لى عندك عهدا، و اجعل لى عندك ودّا، و اجعل لى فى صدور المؤمنين مودهٔ، فأنزل اللّه الآيهٔ فى علىّ». و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير عن ابن عباس وُدًّا قال: محبهٔ فى الناس فى الدنيا. و أخرج الحكيم الترمذى و ابن مردويه عن علىّ قال: «سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قوله: سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا ما هو؟

قال: المحبهٔ الصادقهٔ فى صدور المؤمنين». و ثبت فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى هريرهٔ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إذا أحب اللّه عبدا نادى جبريل: إنى قد أحببت فلانا فأحبه، فينادى فى السماء، ثم ينزل له المحبهٔ فى أهل الأرض فذلك قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا و إذا أبغض اللّه عبدا نادى جبريل: إنى قد أبغضت فلانا، فينادى فى أهل السماء، ثم ينزل له البغضاء فى الأرض» و الأحاديث و الآثار فى هذا الباب كثيرهٔ. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا قال: فجّارا. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن قال: صمّا. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ قال: هل ترى منهم من أحد. و

أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: رِكْزاً قال: صوتا.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۱۹

سورة طه

اشارة

قال القرطبى: مكية فى قول الجميع. و أخرج النحّاس و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة طه بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج الدارمى، و ابن خزيمة فى التوحيد، و العقيلى فى الضعفاء، و الطبرانى فى الأوسط، و ابن عدىّ و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه تبارك و تعالى قرأ طه و يس قبل أن يخلق السّموات و الأرض بألفى عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالت: طوبى لأمة ينزل عليها هذا، و طوبى لأجواف تحمل هذا، و طوبى لألسنة تكلمت بهذا». قال ابن خزيمة بعد إخراجه: حديث غريب، و فيه نكارة، و إبراهيم بن مهاجر و شيخه تكلّم فيهما، يعنى إبراهيم بن مهاجر بن مسمار و شيخه عمر بن حفص بن ذكوان، و هما من رجال إسناده. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أعطيت السورة التى ذكرت فيها الأنعام من الذكر الأوّل، و أعطيت سورة طه و الطواسين من ألواح موسى، و أعطيت فواتح القرآن و خواتيم البقرة من تحت العرش، و أعطيت المفصّل نافلة». و أخرج ابن مردويه عن أبى أمامة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «كل قرآن يوضع عن أهل الجنة فلا يقرءون منه شيئا إلا سورة طه و يس، فإنهم يقرءون بهما فى الجنة». و أخرج الدارقطنى فى سننه عن أنس بن مالك؛ فذكر قصة عمر بن الخطاب مع أخته و خبّاب و قراءتهما طه، و كان ذلك بسبب إسلام عمر، و القصّة مشهورة فى كتب السير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة طه (۲۰): الآيات ۱ الى ۱۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
طه (۱) ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى (۲) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى (۳) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّماواتِ الْعُلى (۴)
الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى (۵) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ ما تَحْتَ الثَّرى (۶) وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ
السِّرَّ وَ أَخْفى (۷) اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى (۸) وَ هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (۹)
إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً (۱۰) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى
(۱۱) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (۱۲) وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى (۱۳) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (۱۴)
إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى (۱۵) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى (۱۶)

قوله: طه قرأ بإمالة الهاء و فتح الطاء أبو عمرو و ابن أبى إسحاق، و أمالهما جميعا أبو بكر و حمزة و الكسائى و الأعمش. و قرأهما أبو جعفر و شيبة و نافع بين اللفظين، و اختار هذه القراءة أبو عبيد. و قرأ الباقون بالتفخيم. قال الثعلبى: و هى كلّها لغات صحيحة فصيحة. و قال النحّاس: لا وجه للإمالة عند أكثر أهل

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۲۰

العربیة لعلّتین: الأولی: أنه لیس هاهنا یاء و لا کسرة حتی تکون الإمالة، و العلّة الثانیة: أن الطاء من موانع الإمالة.
و قد اختلف أهل العلم فی معنی هذه الکلمة علی أقوال: الأوّل: أنها من المتشابه الذی لا یفهم المراد به، و الثانی: أنها بمعنی یا رجل فی لغة عکل، و فی لغة عکّ. قال الکلبی: لو قلت لرجل من عکّ یا رجل لم یجب حتی تقول طه، و أنشد ابن جریر فی ذلک:

دعوت بطه فی القتال فلم یجبفخفت علیه أن یکون موائلا «۱»

و یروی: مزایلا، و قیل: إنها فی لغة عکّ بمعنی یا حبیبی. و قال قطرب: هی کذلک فی لغة طیّ؛ أی:
بمعنی یا رجل، و کذلک قال الحسن و عکرمة. و قیل: هی کذلک فی اللغة السریانیة، حکاه المهدوی. و حکی ابن جریر أنها کذلک فی اللغة النّبطیة، و به قال السدّی و سعید بن جبیر. و حکی الثعلبی عن عکرمة أنها کذلک فی لغة الحبشة، و رواه عن عکرمة، و لا مانع من أن تکون هذه الکلمة موضوعة لذلک المعنی فی تلک اللغات کلها إذا صحّ النقل. القول الثالث: أنها اسم من أسماء اللّه سبحانه. و القول الرابع: أنها اسم للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم.
القول الخامس: أنها اسم للسورة. القول السادس: أنها حروف مقطّعة یدلّ کلّ واحد منها علی معنی. ثم اختلفوا فی هذه المعانی التی تدلّ علیها هذه الحروف علی أقوال کلها متکلّفة متعسّفة. القول السابع: أن معناها طوبی لمن اهتدی. القول الثامن: أن معناها: طإ الأرض یا محمد. قال ابن الأنباری: و ذلک أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم کان یتحمّل مشقّة الصّلاة حتی کادت قدماه تتورّم و یحتاج إلی التروّح، فقیل له طإ الأرض، أی: لا تتعب حتی تحتاج إلی التروّح. و حکی القاضی عیاض فی «الشفاء» عن الربیع بن أنس قال: کان النبی صلّی اللّه علیه و سلّم إذا صلی قام علی رجل و رفع الأخری، فأنزل اللّه طه یعنی: طإ الأرض یا محمد. و حکی عن الحسن البصری أنه قرأ طه علی وزن دع، أمر بالوطء، و الأصل طأ فقلبت الهمزة هاء. و قد حکی الواحدی عن أکثر المفسرین أن هذه الکلمة معناها: یا رجل، یرید النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قال: و هو قول الحسن و عکرمة و سعید بن جبیر و الضحّاک و قتادة و مجاهد و ابن عباس فی روایة عطاء و الکلبی، غیر أن بعضهم یقول: هی بلسان الحبشة و النبطیة و السریانیة، و یقول الکلبی: هی بلغة عکّ. قال ابن الأنباری: و لغة قریش وافقت تلک اللغة فی هذا المعنی؛ لأن اللّه سبحانه لم یخاطب نبیه بلسان غیر قریش، انتهی. و إذا تقرّر أنها لهذا المعنی فی لغة من لغات العرب کانت ظاهرة المعنی، واضحة الدلالة، خارجة عن فواتح السور التی قدّمنا بیان کونها من المتشابه فی فاتحة سورة البقرة، و هکذا إذا کانت لهذا المعنی فی لغة من لغات العجم، و استعملتها العرب فی کلامها فی ذلک المعنی کسائر الکلمات العجمیة التی استعملتها العرب الموجودة فی الکتاب العزیز، فإنها صارت بذلک الاستعمال من لغة العرب، و جملة ما أَنْزَلْنا عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لِتَشْقی مستأنفة مسوقة لتسلیة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم

---

(۱). البیت لمتمّم بن نویرة.

«موائل»: واءل: طلب النجاة.

عمّا کان یعتریه من جهة المشرکین من التعب، و الشقاء یجی‏ء فی معنی التعب. قال ابن کیسان: و أصل الشقاء فی اللغة العناء و التعب، و منه قول الشاعر:

ذو العقل یشقی فی النّعیم بعقلهو أخو الجهالة فی الشّقاوة ینعم

و المعنی: ما أنزلنا علیک القرآن لتتعب بفرط تأسّفک علیهم و علی کفرهم، و تحسّرک علی أن یؤمنوا، فهو کقوله سبحانه:

فَلَعَلَّکَ باخِعٌ نَفْسَکَ «۱» قال النّحاس: بعض النحويين يقول: هذه اللام فى لِتَشْقى لام النفى، و بعضهم يقول لام الجحود. و قال ابن كيسان: هى لام الخفض، و هذا التفسير للآية هو على قول من قال إن طه كسائر فواتح السور التى ذكرت تعديدا لأسماء الحروف، و إن جعلت اسما للسورة كان قوله: ما أَنْزَلْنا عَلَيْکَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى خبرا عنها، و هى فى موضع المبتدأ، و أما على قول من قال: إن معناها يا رجل، أو بمعنى الأمر بوطء الأرض فتكون الجملة مستأنفة لصرفه صلّى اللّه عليه و سلّم عمّا كان عليه من المبالغة فى العبادة، و انتصاب إِلَّا تَذْكِرَةً على أنه مفعول له لأنزلنا، كقولك: ما ضربتک للتأديب إلا إشفاقا عليک. و قال الزجّاج: هو بدل من لتشقى، أى: ما أنزلناه إلا تذكرة. و أنكره أبو على الفارسى من جهة أن التذكرة ليست بشقاء، قال: و إنما هو منصوب على المصدرية، أى: أنزلناه لتذكر به تذكرة، أو على المفعول من أجله، أى: ما أنزلنا عليک القرآن لتشقى به، ما أنزلناه إلا للتذكرة، و انتصاب تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّماواتِ الْعُلى على المصدرية، أى: أنزلناه تنزيلا، و قيل: بدل من قوله تذكرة، و قيل:

هو منصوب على المدح، و قيل: منصوب بيخشى، أى: يخشى تنزيلا من اللّه على أنه مفعول به، و قيل:

منصوب على الحال بتأوله باسم الفاعل. و قرأ أبو حيوة الشامى تنزيل بالرفع على معنى هذا تنزيل؛ و ممن خلق متعلّق بتنزيلا؛ أو بمحذوف هو صفة له؛ و تخصيص خلق الأرض و السموات لكونهما أعظم ما يشاهده العباد من مخلوقاته عزّ و جلّ، و العلا: جمع العليا، أى: المرتفعة، كجمع كبرى و صغرى على كبر و صغر. و معنى الآية إخبار العباد عن كمال عظمته سبحانه و عظيم جلاله، و ارتفاع الرَّحْمنُ على أنه خبر مبتدأ محذوف كما قال الأخفش، و يجوز أن يكون مرتفعا على المدح أو على الابتداء. و قرئ بالجر، قال الزجاج: على البدل من «ممن»، و جوّز النحاس أن يكون مرتفعا على البدل من المضمر فى خلق، و جملة عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى فى محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أو على أنها خبر الرحمن عند من جعله مبتدأ.

قال أحمد بن يحيى: قال ثعلب: الاستواء: الإقبال على الشى‌ء، و كذا قال الزجّاج و الفرّاء. و قيل: هو كناية عن الملک و السلطان، و البحث فى تحقيق هذا يطول، و قد تقدّم البحث عنه فى الأعراف. و الذى ذهب إليه أبو الحسن الأشعرى أنه سبحانه مستو على عرشه بغير حدّ و لا كيف، و إلى هذا القول سبقه الجماهير من السلف الصالح الذى يقرّون الصفات كما وردت من دون تحريف و لا تأويل لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أى: أنه مالک كل شى‌ء و مدبّره وَ ما بَيْنَهُما من الموجودات وَ ما تَحْتَ الثَّرى الثرى فى اللغة: التراب

---

(۱). الكهف: ۶.

الندىّ، أى: ما تحت التراب من شى‌ء. قال الواحدى: و المفسرون يقولون إنه سبحانه أراد الثرى الذى تحت الصخرة التى عليها الثور الذى تحت الأرض «۱» و لا يعلم ما تحت الثرى إلا اللّه سبحانه وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى الجهر بالقول: هو رفع الصوت به و السرّ ما حدّث به الإنسان غيره و أسرّه إليه، و الأخفى من السرّ هو ما حدّث به الإنسان نفسه و أخطره بباله. و المعنى: إن تجهر بذكر اللّه و دعائه فاعلم أنه غنىّ عن ذلک، فإنه يعلم السر و ما هو أخفى من السر، فلا حاجة لک إلى الجهر بالقول، و فى هذا معنى النّهى عن الجهر كقوله سبحانه: وَ اذْكُرْ رَبَّکَ فِي نَفْسِکَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً «۲» و قيل: السرّ ما أسرّ الإنسان فى نفسه، و الأخفى منه هو ما خفى على ابن آدم مما هو فاعله و هو لا يعلمه، و قيل: السرّ ما أضمره الإنسان فى نفسه، و الأخفى منه ما لم يكن و لا أضمره أحد؛ و قيل: السرّ سر الخلائق، و الأخفى منه سرّ اللّه عزّ و جلّ، و أنكر ذلک ابن جرير و قال: إن الأخفى ما ليس فى سرّ الإنسان و سيكون فى نفسه. ثم ذكر أن الموصوف بالعبادة على الوجه المذكور هو اللّه سبحانه المنزّه عن

الشريك، المستحق لتسميته بالأسماء الحسنى، فقال: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فالله خبر مبتدأ محذوف، أي: الموصوف بهذه الصفات الكمالية اللّه، و جملة «لا إله إلا هو» مستأنفة لبيان اختصاص الإلهية به سبحانه، أي: لا إله في الوجود إلا هو، و هكذا جملة له الأسماء الحسنى مبينة لاستحقاقه تعالى للأسماء الحسنى، و هي التسعة و التسعون التي ورد بها الحديث الصحيح.

و قد تقدم بيانها في قوله سبحانه: وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى من سورة الأعراف «٣»، و الحسنى: تأنيث الأحسن، و الأسماء مبتدأ و خبرها الحسنى، و يجوز أن يكون اللّه مبتدأ و خبره الجملة التي بعده، و يجوز أن يكون بدلا من الضمير في «يعلم». ثم قرّر سبحانه أمر التوحيد بذكر قصة موسى المشتملة على القدرة الباهرة، و الخبر الغريب، فقال: وَ هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى الاستفهام للتقرير، و معناه: أليس قد أتاك حديث موسى، و قيل: معناه: قد أتاك حديث موسى، و قال الكلبي: لم يكن قد أتاه حديث موسى إذ ذاك. و في سياق هذه القصة تسلية للنبي صلّى اللّه عليه و سلّم لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوّة، و تحمّل أثقالها و مقاساة خطوبها، و أن ذلك شأن الأنبياء قبله. و المراد بالحديث القصة الواقعة لموسى، و إِذْ رَأى ناراً ظرف للحديث، و قيل: العامل فيه مقدر، أي: اذكر، و قيل: يقدر مؤخرا، أي: حين رأى نارا كان كيت و كيت؛ و كانت رؤيته للنار في ليلة مظلمة لما خرج مسافرا إلى أمه بعد استئذانه لشعيب فلما رآها قال لأهله امكثوا و المراد بالأهل هنا امرأته، و الجمع لظاهر لفظ الأهل أو للتفخيم، و قيل: المراد بهم المرأة و الولد و الخادم، و معنى امكثوا: أقيموا مكانكم، و عبّر بالمكث دون الإقامة؛ لأن الإقامة تقتضي الدوام، و المكث ليس كذلك.

و قرأ حمزة لأهله بضم الهاء، و كذا في القصص. قال النحّاس: و هذا على لغة من قال: مررت بهو

---

(١). هذا القول لا يستند إلى أي دليل شرعي و يتنافى مع الحقائق العلمية فلا يعتد به.

(٢). الأعراف: ٢٠٥.

(٣). الأعراف: ١٨٠.

يا رجل، فجاء به على الأصل، و هو جائز، إلا أن حمزة خالف أصله في هذين الموضعين خاصة إِنِّي آنَسْتُ ناراً أي: أبصرت، يقال: آنست الصوت سمعته، و آنست الرجل: أبصرته. و قيل: الإيناس الإبصار البين، و قيل: الإيناس مختصّ بإبصار ما يؤنس، و الجملة تعليل للأمر بالمكث، و لما كان الإتيان بالقبس، و وجود الهدى، متوقعين؛ بنى الأمر على الرجاء فقال: لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أي: أجيئكم من النار بقبس، و القبس: شعلة من النار، و كذا المقباس، يقال: قبست منه نارا أقبس قبسا فأقبسني؛ أي: أعطاني، و كذا اقتبست. قال اليزيدي: أقبست الرجل علما و قبسته نارا؛ فإن كنت طلبتها له قلت أقبسته. و قال الكسائي: أقبسته نارا أو علما سواء، قال: و قبسته أيضا فيهما. أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً أي: هاديا يهديني إلى الطريق و يدلني عليها. قال الفرّاء: أراد هاديا، فذكره بلفظ المصدر، أو عبّر بالمصدر لقصد المبالغة على حذف المضاف، أي: ذا هدى، و كلمة «أو» في الموضعين لمنع الخلوّ دون الجمع، و حرف الاستعلاء للدلالة على أن أهل النار مستعلون على أقرب مكان إليها فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ أي: فلما أتى النار التي آنسها نُودِيَ من الشجرة، كما هو مصرّح بذلك في سورة القصص، أي: من جهتها، و من ناحيتها يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ أي: نودي، فقيل: يا موسى. و قرأ أبو عمرو و ابن كثير و أبو جعفر و ابن محيصن و حميد و اليزيدي أني بفتح الهمزة. و قرأ الباقون بكسرها، أي: إني فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ أمره اللّه سبحانه بخلع نعليه؛ لأن ذلك أبلغ في التواضع، و أقرب إلى التشريف و التكريم و حسن التأدب. و قيل: إنهما كانا من جلد حمار غير مدبوغ، و قيل: معنى الخلع للنعلين: تفريغ القلب من الأهل و المال،

و هو من بدع التفاسير.

ثم علّل سبحانه الأمر بالخلع فقال: إِنَّکَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً المقدّس: المطهر، و القدس: الطهارة، و الأرض المقدّسة: المطهرة، سمّيت بذلک لأن اللّه أخرج منها الكافرين و عمّرها بالمؤمنين، و طوى: اسم للوادى. قال الجوهرى: و طوى اسم موضع بالشام يكسر طاؤه و يضم، يصرف و لا يصرف، فمن صرفه جعله اسم واد و مكان و جعله نكرة، و من لم يصرفه جعله بلدة و بقعة و جعله معرفة، و قرأ عكرمة «طوى» بكسر الطاء، و قرأ الباقون بضمها. و قيل: إن طوى كثنى من الطى مصدر لنودى، أو للمقدس، أى:

نودى نداءين، أو قدّس مرة بعد أخرى وَ أَنَا اخْتَرْتُکَ قرأ أهل المدينة و أهل مكة و أبو عمرو و ابن عامر و عاصم و الكسائى وَ أَنَا اخْتَرْتُکَ بالإفراد. و قرأ حمزة و أنّا اخترناک بالجمع. قال النحاس:

و القراءة الأولى أولى من جهتين: إحداهما أنها أشبه بالخط، و الثانية أنها أولى بنسق الكلام؛ لقوله: يا مُوسى إِنِّی أَنَا رَبُّکَ و معنى اخترتک: اصطفيتک للنبوّة و الرسالة، و الفاء فى قوله: فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و ما موصولة أو مصدرية، أى: فاستمع للذى يوحى إليک، أو للوحى، و جملة إِنَّنِی أَنَا اللَّهُ بدل من «ما» فى «لما يوحى». ثم أمره سبحانه بالعبادة فقال: فَاعْبُدْنِی و الفاء هنا كالفاء التى قبلها؛ لأن اختصاص الإلهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبادة وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِی خصّ الصلاة بالذكر مع كونها داخلة تحت الأمر بالعبادة، لكونها أشرف طاعة و أفضل عبادة، و علّل الأمر بإقامة الصلاة بقوله لذكرى، أى: لتذكرنى فإن الذكر الكامل لا يتحقّق إلا فى ضمن العبادة

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۲۴

و الصلاة، أو المعنى: لتذكرنى فيهما لاشتمالهما على الأذكار، أو المعنى: أقم الصلاة متى ذكرت أن عليک صلاة. و قيل: المعنى: لأذكرک بالمدح فى عليين، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول، و جملة إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ تعليل لما قبلها من الأمر، أى: إن الساعة التى هى وقت الحساب و العقاب آتية، فاعمل الخير من عبادة اللّه و الصلاة.

و معنى أَكادُ أُخْفِيها مختلف فيه. قال الواحدى: قال أكثر المفسرين: أخفيها من نفسى، و هو قول سعيد بن جبير و مجاهد و قتادة. و قال المبرّد و قطرب: هذا على عادة مخاطبة العرب يقولون إذا بالغوا فى كتمان الشىء: كتمته حتى من نفسى، أى: لم أطلع عليه أحدا؛ و معنى الآية أن اللّه بالغ فى إخفاء الساعة، فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب. و قد روى عن سعيد بن جبير أنه قرأ: أُخْفِيها بفتح الهمزة و معناه أظهرها، و كذا روى أبو عبيد عن الكسائى عن محمد بن سهل عن وقاء بن إياس عن سعيد بن جبير. قال النحاس:

و ليس لهذه الرواية طريق غير هذا. قال القرطبى: و كذا رواه ابن الأنبارى فى كتاب «الردّ» قال: حدّثنى أبى، حدثنا محمد بن الجهم، حدّثنا الفراء، حدّثنا الكسائى فذكره. قال النحاس: و أجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطّان عن الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير أنه قرأ: أُخْفِيها بضم الهمزة.

قال ابن الأنبارى: قال الفراء: و معنى قراءة الفتح أكاد أظهرها، من خفيت الشىء إذا أظهرته أخفيه. قال القرطبى: و قد قال بعض اللغويين: يجوز أن يكون أخفيها بضم الألف معناه أظهرها، لأنه يقال خفيت الشىء و أخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر و الإظهار. قال أبو عبيدة: خفيت و أخفيت بمعنى واحد. قال النحاس: و هذا حسن، و قد أنشد الفرّاء و سيبويه ما يدل على أن معنى أخفاه أظهره، و ذلک قول امرئ القيس:

فإن تكتموا «۱» الدّاء لا نخفهو إن تبعثوا الحرب لا نقعد

أى: و إن تكتموا الداء لا نظهره. و قد حكى أبو عبيدة عن أبى الخطاب أنه بضم النون من تخفه، و قال امرؤ القيس:

خفاهنّ من إنفاقهنّ كأنّماخفاهنّ ودق من عشيّ مجلّب «۲»

أی: أظهرهن. و قد زيف النحاس هذا القول و قال: ليس المعنى على أظهرها، و لا سيما و أخفيها قراءة شاذة، فكيف تردّ القراءة الصحيحة الشائعة! و قال ابن الأنبارى: فى الآية تفسير آخر، و هو أن الكلام ينقطع على أكاد، و بعده مضمر، أى: أكاد آتى بها، و وقع الابتداء ب أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى و مثله قول عمير بن ضابئ البرجمى:

---

(۱). فى الديوان ص (۱۸۶): تدفنوا.

(۲). «الودق»: المطر. «المجلب»: الذى له جلبة.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۲۵ هممت و لم أفعل و كدت و ليتنی‌تركت على عثمان تبكى حلائله

أى: و كدت أفعل، و اختار هذا النحاس. و قال أبو علىّ الفارسى: هو من باب السلب و ليس من الأضداد، و معنى أخفيها: أزيل عنها خفاءها، و هو سترها، و من هذا قولهم أشكيته، أى: أزلت شكواه.

و حكى أبو حاتم عن الأخفش أن «أكاد» زائدة للتأكيد، قال: و مثله: إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها «۱»، و مثله قول الشاعر «۲»:

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه‌فما إن يكاد قرنه يتنفّس

قال: و المعنى أكاد أخفيها، أى: أقارب ذلك، لأنك إذا قلت: كاد زيد يقوم؛ جاز أن يكون قام و أن يكون لم يقم، و دلّ على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه الآية على هذا، و قوله: لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى متعلّق بآتية، أو بأخفيها، و ما مصدرية، أى: لتجزى كل نفس بسعيها، و السعى و إن كان ظاهرا فى الأفعال، فهو هنا يعمّ الأفعال و التروك؛ للقطع بأن تارك ما يجب عليه معاقب بتركه مأخوذ به فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها أى: لا يصرفنك عن الإيمان بالساعة، و التصديق بها، أو عن ذكرها و مراقبتها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها من الكفرة، و هذا النهى و إن كان للكافر بحسب الظاهر، فهو فى الحقيقة نهى له صلّى اللّه عليه و سلّم عن الانصداد، أو عن إظهار اللين للكافرين، فهو من باب: لا أرينك هاهنا، كما هو معروف. و قيل: الضمير فى «عنها» للصلاة و هو بعيد، و قوله: وَ اتَّبَعَ هَواهُ معطوف على ما قبله، أى: من لا يؤمن، و من اتبع هواه، أى: هوى نفسه بالانهماك فى اللذات الحسية الفانية فَتَرْدى أى: فتهلك؛ لأن انصدادك عنها بصدّ الكافرين لك مستلزم للهلاك و مستتبع له.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، و ابن عساكر عن ابن عباس أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «أوّل ما نزل عليه الوحى كان يقوم على صدر قدميه إذا صلى، فأنزل اللّه طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه قال: قالوا: لقد شقى هذا الرجل بربه، فأنزل اللّه هذه الآية. و أخرج ابن عساكر عنه أيضا قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا قام من الليل يربط نفسه بحبل لئلا ينام، فأنزل اللّه هذه الآية. و أخرج البزار عن علىّ قال: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يراوح بين قدميه، يقوم على كلّ رجل حتى نزلت ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى و حسّن السّيوطى إسناده. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا بأطول منه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ربما قرأ القرآن إذا صلى، فقام على رجل واحدة، فأنزل اللّه طه برجليك ف ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عنه فى قوله: طه قال: يا رجل. و أخرج الحارث بن أبى أسامة و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: طه بالنبطية. أى: طأ يا رجل. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: هو كقولك اقعد. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه قال: طه بالنبطية يا رجل. و أخرج ابن

---

(۱). النور: ۴۰.

(٢). هو زيد الخيل.

فتح القدير، ج٣، ص: ٤٢٦

جرير عنه قال: طه يا رجل بالسريانية. و أخرج الحاكم عنه أيضا قال: طه هو كقولك يا محمد بلسان الحبش. و فى هذه الروايات عن ابن عباس اختلاف و تدافع. و أخرج ابن مردويه عن أبى الطفيل قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن لى عند ربى عشرة أسماء، قال أبو الطفيل: حفظت منها ثمانية: محمد، و أحمد، و أبو القاسم، و الفاتح، و الخاتم، و الماحى، و العاقب، و الحاشر» و زعم سيف أن أبا جعفر قال له الاسمان الباقيان طه و يس. و أخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى قال: يا رجل ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، و كان يقوم الليل على رجليه فهى لغة لعكّ إن قلت لعكّى يا رجل لم يلتفت، و إذا قلت طه التفت إليك. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: طه قسم أقسم اللّه به، و هو من أسمائه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ ما تَحْتَ الثَّرى قال:

الثرى كل شىء مبتل. و أخرج أبو يعلى عن جابر «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم سئل ما تحت هذه الأرض؟ قال: الماء، قيل: فما تحت الماء؟ قال: ظلمة، قيل: فما تحت الظلمة؟ قال: الهواء، قيل: فما تحت الهواء؟

قال: الثرى، قيل: فما تحت الثرى؟ قال: انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق». و أخرج ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: و يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى قال: السرّ ما أسرّه ابن آدم فى نفسه، و أخفى ما خفى عن ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعمله، فإنه يعلم ذلك كله فيما مضى من ذلك و ما بقى علم واحد، و جميع الخلائق عنده فى ذلك كنفس واحدة، و هو كقوله: ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ «١». و أخرج الحاكم و صحّحه عنه فى الآية قال: السرّ ما علمته أنت، و أخفى ما قذف اللّه فى قلبك ممّا لم تعلمه. و أخرجه عبد اللّه ابن أحمد فى زوائد الزهد، و أبو الشيخ فى العظمة، و البيهقى بلفظ: يعلم ما تسرّ فى نفسك و يعلم ما تعمل غدا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً يقول: من يدلّ على الطريق.

و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن علىّ فى قوله: فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ قال: كانتا من جلد حمار ميت فقيل له اخلعهما. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً قال: المبارك طُوىً قال: اسم الوادى. و أخرج ابن أبى حاتم عنه بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً يعنى الأرض المقدسة، و ذلك أنه مرّ بواديها ليلا فطوى، يقال: طويت وادى كذا و كذا. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: طُوىً قال: طأ الوادى. و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إذا رقد أحدكم عن الصّلاة أو غفل عنها فليصلّها إذا ذكرها، فإن اللّه قال: أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي . و أخرج الترمذى و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان و ابن مردويه من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها، فإن اللّه قال: أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي و كان ابن شهاب يقرؤها للذكرى. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

---

(١). لقمان: ٢٨.

فتح القدير، ج٣، ص: ٤٢٧

أَكادُ أُخْفِيها قال: لا أظهر عليها أحدا غيرى. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: أَكادُ أُخْفِيها من نفسى.

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٧ الى ٣٥]

وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى (١٧) قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَ أَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى (١٨) قالَ أَلْقِها يا مُوسى (١٩) فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى (٢٠) قالَ خُذْها وَ لا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى (٢١)

وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى (٢٣) اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (٢٤) قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦)

وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (٢٩) هارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١)

وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣) وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً (٣٥)

قوله: وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى قال الزجّاج و الفرّاء: إن تلك اسم ناقص وصلت بيمينك، أى: ما التى بيمينك؟ و روى عن الفرّاء أنه قال: تلك بمعنى هذه، و لو قال ما ذلك لجاز، أى: ما ذلك الشيء؟ و بالأوّل قال الكوفيون. قال الزّجّاج: و معنى سؤال موسى عمّا فى يده من العصا التنبيه له عليها لتقع المعجزة بها بعد التثبيت فيها و التأمل لها. قال الفراء: و مقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى هى عصاى لتثبيت الحجة عليه بعد ما اعترف، و إلا فقد علم اللّه ما هى فى الأزل، و محل ما الرفع على الابتداء، و تلك خبره، و بيمينك فى محل نصب على الحال إن كانت تلك اسم إشارة على ما هو ظاهر اللفظ، و إن كانت اسما موصولا كان بيمينك صلة للموصول قالَ هِيَ عَصايَ قرأ ابن أبى إسحاق عصيّ على لغة هذيل.

و قرأ الحسن عصاى بكسر الياء لالتقاء الساكنين، أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها أى: أتحامل عليها فى المشى، و أعتمدها عند الإعياء و الوقوف، و منه الاتكاء وَ أَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي هشّ بالعصا يهشّ هشا؛ إذا خبط بها الشجر ليسقط منه الورق. قال الشاعر:

أهشّ بالعصا على أغنامى من ناعم الأراك و البشام

و قرأ النخعى: أهسّ بالسين المهملة، و هو زجر الغنم، و كذا قرأ عكرمة، و قيل: هما لغتان لمعنى واحد وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى أى: حوائج واحدها مأربة و مأربة و مأربة، مثلّث الراء، كذا قال ابن الأعرابى و قطرب، ذكر تفصيل منافع العصا، ثم عقبه بالإجمال.

و قد تعرّض قوم لتعداد منافع العصا فذكروا من ذلك أشياء: منها قول بعض العرب: عصاى أركزها لصلاتى، و أعدّها لعداتى، و أسوق بها دابتى، و أقوى بها على سفرى، و أعتمد بها فى مشيتى، لتتسع خطوتى، و أثب بها النهر، و تؤمننى العثر، و ألقى عليها كسائى؛ فتقينى الحرّ، و تدفئنى من القرّ، و تدنى إلىّ ما بعد منى، و هى محمل سفرتى، و علاقة إداوتى، أعصى بها عند الضّراب، و أقرع به الأبواب، و أقى بها عقور

الكلاب، و تنوب عن الرمح فى الطعان، و عن السيف عند منازلة الأقران، ورثتها عن أبى، و أورّثها بعدى بنىّ، انتهى.

و قد وقفت على مصنّف فى مجلد لطيف فى منافع العصا لبعض المتأخرين، و ذكر فيه أخبارا و أشعارا و فوائد لطيفة و نكتا رشيقة. و قد جمع اللّه سبحانه لموسى فى عصاه من البراهين العظام و الآيات الجسام ما أمن به من كيد السحرة و معرّة المعاندين، و اتخذها سليمان لخطبته و موعظته و طول صلاته، و كان ابن مسعود صاحب عصا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و عنزته «١»، و كان يخطب بالقضيب و كذلك الخلفاء من بعده، و كان عادة العرب العرباء أخذ العصا و الاعتماد عليها عند الكلام، و فى المحافل و الخطب، قالَ أَلْقِها يا مُوسى هذه جملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، أمره سبحانه بإلقائها ليريه ما جعل له

فيها من المعجزة الظاهرة فَأَلْقاها موسى على الأرض فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى و ذلك بقلب اللّه سبحانه لأوصافها و أعراضها حتى صارت حية تسعى، أى: تمشى بسرعة و خفة، قيل: كانت عصا ذات شعبتين، فصار الشعبتان فما و باقيها جسم حية، تنتقل من مكان إلى مكان، و تلتقم الحجارة مع عظم جرمها و فظاعة منظرها، فلما رآها كذلك خاف و فزع و ولى مدبرا و لم يعقب، فعند ذلك قالَ سبحانه خُذْها وَ لا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى قال الأخفش و الزجاج: التقدير إلى سيرتها، مثل: وَ اخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ «٢» قال: و يجوز أن يكون مصدرا؛ لأن معنى سنعيدها: سنسيرها، و يجوز أن يكون المصدر بمعنى اسم الفاعل، أى: سائرة، أو بمعنى اسم المفعول، أى: مسيرة. و المعنى: سنعيدها بعد أخذك لها إلى حالتها الأولى التى هى العصوية. قيل: إنه لما قيل له لا تخف بلغ من عدم الخوف إلى أن كان يدخل يده فى فمها و يأخذ بلحيها وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ قال الفرّاء و الزّجاج: جناح الإنسان عضده، و قال قطرب: جناح الإنسان جنبه، و عبّر عن الجنب بالجناح لأنه فى محل الجناح، و قيل: إلى بمعنى مع، أى: مع جناحك، و جواب الأمر تَخْرُجْ بَيْضاءَ أى: تخرج يدك حال كونها بيضاء، و محل مِنْ غَيْرِ سُوءٍ النصب على الحال، أى: كائنة من غير سوء، و السوء العيب، كنى به عن البرص، أى: تخرج بيضاء ساطعا نورها تضىء بالليل و النهار كضوء الشمس من غير برص، و انتصاب آيَةً أُخْرى على الحال أيضا؛ أى: معجزة أخرى غير العصا. و قال الأخفش: إن آية منتصبة على أنها بدل من بيضاء. قال النحّاس: و هو قول حسن. و قال الزجّاج: المعنى آتيناك أو نؤتيك آية أخرى، لأنه لما قال: تَخْرُجْ بَيْضاءَ دلّ على أنه قد آتاه آية أخرى، ثم علّل سبحانه ذلك بقوله:

لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى قيل: و التقدير: فعلنا ذلك لنريك، و «من آياتنا» متعلّق بمحذوف وقع حالا، و الكبرى: معناها العظمى، و هو صفة لموصوف محذوف، و التقدير: لنريك من آياتنا الآية الكبرى، أى: لنريك بهاتين الآيتين يعنى اليد و العصا بعض آياتنا الكبرى، فلا يلزم أن تكون اليد هى الآية الكبرى وحدها حتى تكون أعظم من العصا، فيرد على ذلك أنه لم يكن فى اليد إلا تغير اللون فقط، بخلاف العصا؛ فإن فيها مع تغير اللون الزيادة فى الحجم، و خلق الحياة، و القدرة على الأمور الخارقة. ثم صرّح سبحانه بالغرض

---

(١). «العنزة»: مثل نصف الرمح أو أكبر قليلا، و فيها سنان مثل سنان الرمح.

(٢). الأعراف: ١٥٥.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٤٢٩

المقصود من هذه المعجزات فقال: اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ و خصّه بالذكر لأن قومه تبع له، ثم علّل ذلك بقوله: إِنَّهُ طَغى أى: عصى و تكبر و كفر و تجبر و تجاوز الحدّ، و جملة قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال؟ و معنى شرح الصدر توسيعه، تضرّع عليه السلام إلى ربه و أظهر عجزه بقوله: وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِي «١»، و معنى تيسير الأمر تسهيله وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يعنى العجمة التى كانت فيه من الجمرة التى ألقاها فى فيه و هو طفل، أى: أطلق عن لسانى العقدة التى فيه، قيل: أذهب اللّه سبحانه تلك العقدة جميعها بدليل قوله: قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى و قيل: لم تذهب كلها لأنه لم يسأل حلّ عقدة لسانه بالكلية، بل سأل حلّ عقدة تمنع الإفهام، بدليل قوله: مِنْ لِسانِي أى: كائنة من عقد لسانى، و يؤيد ذلك قوله: هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً «٢»، و قوله حكاية عن فرعون: وَ لا يَكادُ يُبِينُ «٣»، و جواب الأمر قوله: يَفْقَهُوا قَوْلِي أى: يفهموا كلامى، و الفقه فى كلام العرب الفهم، ثم خصّ به علم الشريعة، و العالم به فقيه، قاله الجوهرى: وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي- هارُونَ أَخِي الوزير: المؤازر كالأكيل المؤاكل؛ لأنه يحمل عن السلطان وزره، أى:

ثقله. قال الزجاج: و اشتقاقه فى اللغة من الوزر، و هو الجبل الذى يعتصم به لينجى من الهلكة، و الوزير:

الذی یعتمد الملک علی رأیه فی الأمور و یلتجئ إلیه. و قال الأصمعی: هو مشتق من المؤازرة، و هی المعاونة، و انتصاب وزیرا و هارون علی أنهما مفعولا اجعل، و قیل: مفعولاه: لی وزیرا، و یکون هارون عطف بیان للوزیر، و الأوّل أظهر، و یکون لی متعلقا بمحذوف، أی: کائنا لی، و من أهلی صفة لوزیرا، و أخی بدل من هارون. قرأ الجمهور اشْدُدْ بهمزة وصل، و أَشْرِكْهُ بهمزة قطع کلاهما علی صیغة الدعاء، أی: یا رب أحکم به قوّتی و اجعله شریکی فی أمر الرسالة، و الأزر: القوة، یقال: آزره؛ أی: قوّاه؛ و قیل: الظهر، أی: اشدد به ظهری. و قرأ ابن عامر و یحیی بن الحارث و أبو حیوة و الحسن و عبد اللّه بن أبی إسحاق اشْدُدْ بهمزة قطع وَ أَشْرِكْهُ بضم الهمزة، أی أشدد أنا به أزری، و أشرکه أنا فی أمری. قال النّحاس: جعلوا الفعلین فی موضع جزم جوابا لقوله «اجْعَلْ لِی وَزِیراً»، و قرأ بفتح الیاء من أخی ابن کثیر و أبو عمرو کَیْ نُسَبِّحَکَ کَثِیراً وَ نَذْکُرَکَ کَثِیراً هذا التسبیح و الذکر هما الغایة من الدعاء المتقدّم، و المراد: التسبیح هنا باللسان؛ و قیل: المراد به الصلاة، و انتصاب کثیرا فی الموضعین علی أنه نعت مصدر محذوف، أو لزمان محذوف إِنَّکَ کُنْتَ بِنا بَصِیراً البصیر: المبصر، و البصیر: العالم بخفیات الأمور، و هو المراد هنا، أی: إنک کنت بنا عالما فی صغرنا فأحسنت إلینا، فأحسن إلینا أیضا کذلک الآن.

و قد أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی عصا موسی قال: أعطاه إیاها ملک من الملائکة إذ توجه إلی مدین فکانت تضیء له باللیل، و یضرب بها الأرض فتخرج له النبات، و یهشّ بها علی غنمه ورق الشجر. و أخرج ابن أبی شیبة و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن عکرمة فی قوله: وَ أَهُشُّ بِها عَلی غَنَمِی قال: أضرب بها الشجر فیتساقط منه الورق علی غنمی، و قد روی نحو هذا عن جماعة من السلف. و أخرج ابن المنذر و ابن

---

(۱). الشعراء: ۱۳.

(۲). القصص: ۳۴.

(۳). الزخرف: ۵۲.

أبی حاتم فی قوله: وَ لِیَ فِیها مَآرِبُ قال: حوائج. و أخرج ابن أبی شیبة و عبد بن حمید و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبی حاتم عن السدّی نحوه، و أخرج أیضا عن قتادة قال: کانت تضیء له باللیل، و کانت عصا آدم علیه السلام. و أخرج أیضا عن ابن عباس فی قوله: فَأَلْقاها فَإِذا هِیَ حَیَّةٌ تَسْعی قال: و لم تکن قبل ذلک حیة فمرّت بشجرة فأکلتها، و مرّت بصخرة فابتلعتها، فجعل موسی یسمع وقع الصخرة فی جوفها فولی مدبرا فنودی أن یا موسی خذها، فلم یأخذها، ثم نودی الثانیة أن خذها و لا تخف، فقیل له فی الثالثة: إنک من الآمنین فأخذها. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه سَنُعِیدُها سِیرَتَهَا الْأُولی قال: حالتها الأولی. و أخرجا عنه أیضا: مِنْ غَیْرِ سُوءٍ قال: من غیر برص. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله: وَ اجْعَلْ لِی وَزِیراً مِنْ أَهْلِی- هارُونَ أَخِی قال: کان أکبر من موسی.

و أخرج ابن أبی حاتم عنه فی قوله: وَ أَشْرِکْهُ فِی أَمْرِی قال: نبیء هارون ساعتئذ حین نبیء موسی.

[سورة طه (۲۰): الآیات ۳۶ الی ۴۴]

قالَ قَدْ أُوتِیتَ سُؤْلَکَ یا مُوسی (۳۶) وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَیْکَ مَرَّةً أُخْری (۳۷) إِذْ أَوْحَیْنا إِلی أُمِّکَ ما یُوحی (۳۸) أَنِ اقْذِفِیهِ فِی التَّابُوتِ فَاقْذِفِیهِ فِی الْیَمِّ فَلْیُلْقِهِ الْیَمُّ بِالسَّاحِلِ یَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِی وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَیْتُ عَلَیْکَ مَحَبَّةً مِنِّی وَ لِتُصْنَعَ عَلی عَیْنِی (۳۹) إِذْ تَمْشِی أُخْتُکَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّکُمْ عَلی مَنْ یَکْفُلُهُ فَرَجَعْناکَ إِلی أُمِّکَ کَیْ تَقَرَّ عَیْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّیْناکَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاکَ

فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى (۴۰)
وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (۴۱) اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي (۴۲) اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (۴۳) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (۴۴)

لما سأل موسى ربه سبحانه أن يشرح صدره، و ييسر له أمره، و يحلل عقدة من لسانه، و يجعل له وزيرا من أهله، أخبره اللّه سبحانه بأنه قد أجاب ذلك الدعاء، فقال: قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى أى:

أعطيت ما سألته، و السؤل: المسؤول، أى: المطلوب كقولك: خبر بمعنى مخبور، و زيادة قوله يا موسى لتشريفه بالخطاب مع رعاية الفواصل، و جملة وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى كلام مستأنف لتقوية قلب موسى بتذكيره نعم اللّه عليه، و المنّ: الإحسان و الإفضال. و المعنى: و لقد أحسنا إليك مرّة أخرى قبل هذه المرّة، و هى حفظ اللّه سبحانه له من شرّ الأعداء كما بينه سبحانه ها هنا، و أخرى تأنيث آخر بمعنى غير إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى أى: مننا ذلك الوقت، و هو وقت الإيحاء فإذ ظرف للإيحاء، و المراد بالإيحاء إليها إما مجرّد الإلهام لها أو فى النوم بأن أراها ذلك أو على لسان نبىّ أو على لسان ملك، لا على طريق النبوّة كالوحى إلى مريم أو بإخبار الأنبياء المتقدّمين بذلك و انتهى الخبر إليها، و المراد بما يوحى ما سيأتى من الأمر لها، أبهمه أوّلا و فسّره ثانيا تفخيما لشأنه، و جملة أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ مفسرة لأن الوحى فيه معنى القول، أو مصدرية على تقدير بأن اقذفيه، و القذف هاهنا الطرح، أى: اطرحيه فى التابوت، و قد مرّ تفسير التابوت فى البقرة فى قصة طالوت فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ أى: اطرحيه فى البحر، و اليم: البحر أو النهر الكبير.

قال الفرّاء: هذا أمر و فيه المجازاة، أى: اقذفيه يلقه اليم بالساحل، و الأمر للبحر مبنى على تنزيله منزلة من

يفهم و يميز، لما كان إلقاؤه إياه بالساحل أمرا واجب الوقوع، و الساحل: هو شط البحر، سمّى ساحلا لأن الماء سحله قاله ابن دريد، و المراد هنا ما يلى الساحل من البحر لا نفس الساحل، و الضمائر هذه كلها لموسى لا للتابوت، و إن كان قد ألقى معه لكن المقصود هو موسى مع كون الضمائر قبل هذا و بعده له، و جملة يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ جواب الأمر بالإلقاء، و المراد بالعدوّ فرعون، فإن أمّ موسى لما ألقته فى البحر و هو النيل المعروف، و كان يخرج منه نهر إلى دار فرعون فساقه اللّه فى ذلك النهر إلى داره، فأخذ التابوت فوجد موسى فيه، و قيل: إن البحر ألقاه بالساحل، فنظره فرعون فأمر من يأخذه؛ و قيل: وجدته ابنة فرعون، و الأوّل أولى وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي أى: ألقى اللّه على موسى محبة كائنة منه تعالى فى قلوب عباده لا يراه أحد إلا أحبه؛ و قيل: جعل عليه مسحة من جمال لا يراه أحد من الناس إلا أحبه. و قال ابن جرير: المعنى و ألقيت عليك رحمتى، و قيل: كلمة من متعلقة بألقيت، فيكون المعنى: ألقيت منى عليك محبة، أى: أحببتك، و من أحبه اللّه أحبه الناس وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي أى: و لتربى و تغذى بمرأى منى، يقال: صنع الرجل جاريته؛ إذا رباها، و صنع فرسه؛ إذا داوم على علفه و القيام عليه، و تفسير عَلى عَيْنِي بمرأى منى صحيح. قال النحاس: و ذلك معروف فى اللغة، و لكن لا يكون فى هذا تخصيص لموسى، فإن جميع الأشياء بمرأى من اللّه. و قال أبو عبيدة و ابن الأنبارى: إن المعنى لتغذى على محبتى و إرادتى، تقول:

أتخذ الأشياء على عينى، أى: على محبتى. قال ابن الأنبارى: العين فى هذه الآية يقصد بها قصد الإرادة و الاختيار، من قول العرب: غدا فلان على عينى، أى: على المحبة منى. قيل: و اللام متعلقة بمحذوف، أى: فعلت ذلك لتصنع، و قيل: متعلّقة بألقيت، و قيل: متعلقة بما بعده، أى: و لتصنع على عينى قدّرنا مشى أختك. و قرأ ابن القعقاع وَ لِتُصْنَعَ بإسكان اللام على الأمر، و قرأ أبو نهيك بفتح التاء. و المعنى:

و لتكون حركتك و تصرّفك بمشيئتى، و على عين منى إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ظرف لألقيت، أو لتصنع، و يجوز أن يكون بدلا من

«إذ أوحينا» و أخته اسمها مريم فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ و ذلك أنها خرجت متعرّفة لخبره فوجدت فرعون و امرأته آسية يطلبان له مرضعة، فقالت لهما هذا القول، أى: هل أدلكم على من يضمّه إلى نفسه و يربّيه، فقالا لها: و من هو؟ قالت: أمى، فقالا: هل لها لبن؟ قالت:

نعم، لبن أخى هارون، و كان هارون أكبر من موسى بسنة، و قيل: بأكثر، فجاءت الأم فقبل ثديها، و كان لا يقبل ثدى مرضعة غيرها، و هذا هو معنى فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ و فى مصحف أبىّ «فرددناك»، و الفاء فصيحة كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها قرأ ابن عامر فى رواية عبد الحميد عنه كى تقرّ بكسر القاف، و قرأ الباقون بفتحها. قال الجوهرى: قررت به عينا قرّة و قرورا، و رجل قرير العين، و قد قرّت عينه تقرّ و تقرّ، نقيض سخنت، و المراد بقرّة العين: السرور برجوع ولدها إليها بعد أن طرحته فى البحر و عظم عليها فراقه وَ لا تَحْزَنَ أى: لا يحصل لها ما يكدّر ذلك السرور من الحزن بسبب من الأسباب، و لو أراد الحزن بالسبب الذى قرّت عينها بزواله لقدّم نفى الحزن على قرّة العين، فيحمل هذا النفى للحزن على ما يحصل بسبب يطرأ بعد ذلك، و يمكن أن يقال: إن الواو لما كانت لمطلق الجمع كان هذا الحمل غير متعيّن؛ و قيل: المعنى: و لا

فتح القدير، ج‏3، ص: 432

تحزن أنت يا موسى بفقد إشفاقها، و هو تعسّف وَ قَتَلْتَ نَفْساً المراد بالنفس هنا: نفس القبطى الذى وكزه موسى فقضى عليه، و كان قتله له خطأ فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِ أى: الغمّ الحاصل معك من قتله خوفا من العقوبة الأخروية أو الدنيوية أو منهما جميعا؛ و قيل: الغمّ هو القتل بلغة قريش، و ما أبعد هذا! وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً الفتنة تكون بمعنى المحنة، و بمعنى الأمر الشاقّ، و كلّ ما يبتلى به الإنسان، و الفتون يجوز أن يكون مصدرا كالثبور و الشكور و الكفور، أى: ابتليناك ابتلاء، و اختبرناك اختبارا، و يجوز أن يكون جمع فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجور فى حجرة، و بدور فى بدرة، أى: خلصناك مرّة بعد مرّة مما وقعت فيه من المحن التى سبق ذكرها قبل أن يصطفيه اللّه لرسالته، و لعلّ المقصود بذكر تنجيته من الغمّ الحاصل له بذلك السبب، و تنجيته من المحن هو الامتنان عليه بصنع اللّه سبحانه له، و تقوية قلبه عند ملاقاة ما سيقع له من ذلك مع فرعون و بنى إسرائيل فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ قال الفرّاء: تقدير الكلام و فتناك فتونا، فخرجت إلى أهل مدين فلبثت سنين، و مثل هذا الحذف كثير فى التنزيل، و كذا فى كلام العرب فإنهم يحذفون كثيرا من الكلام إذا كان المعنى معروفا، و مدين: هى بلد شعيب، و كانت على ثمانى مراحل من مصر؛ هرب إليها موسى فأقام بها عشر سنين، و هى أتمّ الأجلين؛ و قيل: أقام عند شعيب ثمان و عشرين سنة؛ منها عشر مهر امرأته ابنة شعيب، و منها ثمانى عشرة سنة بقى فيها عنده حتى ولد له، و الفاء فى «فلبثت» تدل على أن المراد بالمحن المذكورة هى ما كان قبل لبثه فى أهل مدين ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى أى: فى وقت سبق فى قضائى و قدرى أن أكلمك و أجعلك نبيا، أو على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء، و هو رأس أربعين سنة، أو على موعد قد عرفته بإخبار شعيب لك به. قال الشاعر:

نال الخلافة إذ كانت له قدراكما أتى ربّه موسى على قدر

و كلمة ثُمَ المفيدة للتراخى للدلالة على أن مجيئه عليه السلام كان بعد مدّة، و ذلك بسبب ما وقع له من ضلال الطريق و تفرّق غنمه و نحو ذلك وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي الاصطناع: اتخاذ الصنعة، و هى الخير تسديه إلى إنسان، و المعنى: اصطنعتك لوحيى و رسالتى لتتصرّف على إرادتى. قال الزجاج: تأويله اخترتك لإقامة حجتى، و جعلتك بينى و بين خلقى، و صرت بالتبليغ عنى بالمنزلة التى أكون أنا بها لو خاطبتهم و احتججت عليهم. قيل: و هو تمثيل لما خوّله اللّه سبحانه من الكرامة العظمى بتقريب الملك لبعض خواصّه اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ أى: و ليذهب أخوك، و هو كلام مستأنف مسوق لبيان ما هو المقصود من الاصطناع. و معنى بِآياتِي بمعجزاتى التى جعلتها لك آية، و هى التسع الآيات وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي أى: لا تضعفا و لا تفترا، يقال:

ونى ينى ونيا؛ إذا ضعف. قال الشاعر «۱»:

فما ونى محمّد مذ أن غفرله الإله ما مضى و ما غبر

---

(۱). هو العجاج.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۳۳

و قال امرؤ القيس:

مسحّ إذا ما السّابحات على الونىأثرن غبارا بالكديد المركّل «۱»

قال الفراء: فى ذكرى و عن ذكرى سواء، و المعنى: لا تقصرا عن ذكرى بالإحسان إليكما، و الإنعام عليكما و ذكر النعمة شكرها. و قيل: معنى «لا تنيا» لا تبطئا فى تبليغ الرسالة، و فى قراءة ابن مسعود «لا تهنا فى ذكرى» اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى هذا أمر لهما جميعا بالذهاب، و موسى حاضر و هارون غائب تغليبا لموسى؛ لأنه الأصل فى أداء الرسالة، و علّل الأمر بالذهاب بقوله: إِنَّهُ طَغى أى: جاوز الحدّ فى الكفر و التمرّد، و خصّ موسى وحده بالأمر بالذهاب فيما تقدم، و جمعهما هنا تشريفا لموسى بإفراده، و تأكيدا للأمر بالذهاب بالتكرير. و قيل: إن فى هذا دليلا على أنه لا يكفى ذهاب أحدهما. و قيل: الأوّل:

أمر لموسى بالذهاب إلى كل الناس، و الثانى: أمر لهما بالذهاب إلى فرعون. ثم أمرهما سبحانه بإلانة القول له لما فى ذلك من التأثير فى الإجابة، فإن التخشين بادئ بدء يكون من أعظم أسباب النفور و التصلّب فى الكفر، و القول اللين: هو الذى لا خشونة فيه، يقال: لان الشىء يلين لينا، و المراد تركهما للتعنيف، كقولهما: هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى «۲»، و قيل: القول اللين هو الكنية له، و قيل: أن يعداه بنعيم الدنيا إن أجاب، ثم علّل الأمر بإلانة القول له بقوله: لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى أى: باشرا ذلك مباشرة من يرجو و يطمع، فالرجاء راجع إليهما كما قاله جماعة من النحويين: سيبويه و غيره. و قد تقدّم تحقيقه فى غير موضع.

قال الزجاج: «لعلّ» لفظة طمع و ترجّ، فخاطبهم بما يعقلون. و قيل: لعلّ ها هنا بمعنى الاستفهام. و المعنى:

فانظرا هل يتذكر أو يخشى، و قيل: بمعنى كى. و التذكير: النظر فيما بلغاه من الذكر و إمعان الفكر فيه حتى يكون ذلك سببا فى الإجابة، و الخشية هى خشية عقاب اللّه الموعود به على لسانهما، و كلمة «أو» لمنع الخلوّ دون الجمع.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ قال: هو النيل. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي قال: كان كل من رآه ألقيت عليه منه محبته. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سلمة بن كهيل قال: حبّبتك إلى عبادى. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى عمران الجونى فى قوله: وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي قال: تربّى بعين اللّه. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: لتغذى على عينى. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال: يقول: أنت بعينى إذ جعلتك أمّيك فى التابوت، ثم فى البحر، و إذ تمشى أختك. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه و الخطيب عن ابن عمر: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إنما قتل موسى الذى

---

(۱). «مسح»: سحّ: انصبّ. «السابحات»: التى تبسط يديها إذا عدت. «الونى»: الفتور. «الكديد»: ما غلظ من الأرض. «المركل»: الذى ركلته الخيل بحوافرها.

(۲). النازعات: ۱۸.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۳۴

قتل من آل فرعون خطأ، يقول اللّه سبحانه: وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ قال: من قتل النفس وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً قال: أخلصناك

إخلاصا». و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ فَتَنّاکَ فُتُوناً قال: ابتليناک ابتلاء. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه قال: اختبرناک اختبارا. و قد أخرج عبد بن حميد و النسائی و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس أثرا طويلا فی تفسير الآية، فمن أحبّ استيفاء ذلک فلينظره فی كتاب التفسير من سنن النسائی. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فی قوله: ثُمَّ جِئْتَ عَلی قَدَرٍ قال: لميقات. و أخرج عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد و قتادة عَلی قَدَرٍ قال: موعد. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس وَ لا تَنِيا قال: لا تبطئا. و أخرج ابن أبی حاتم عن علیّ فی قوله: قَوْلًا لَيِّناً قال: كنّه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس قال: كنّياه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه فی قوله: لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشی قال: هل يتذكر.

[سورة طه (۲۰): الآيات ۴۵ الی ۵۹]

قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغی (۴۵) قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَری (۴۶) فَأْتِياهُ فَقُولا إِنّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلامُ عَلی مَنِ اتَّبَعَ الْهُدی (۴۷) إِنّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلی مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلّی (۴۸) قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسی (۴۹)

قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطی كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدی (۵۰) قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولی (۵۱) قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَ لا يَنْسی (۵۲) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتّی (۵۳) كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهی (۵۴)

مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْری (۵۵) وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَ أَبی (۵۶) قالَ أَ جِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسی (۵۷) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لا أَنْتَ مَكاناً سُویً (۵۸) قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النّاسُ ضُحًی (۵۹)

قرأ الجمهور أَنْ يَفْرُطَ بفتح الياء و ضم الراء، و معنی ذلک: إننا نخاف أن يعجل و يبادر بعقوبتنا، يقال: فرط منه أمر، أی: بدر، و منه الفارط، و هو الذی يتقدّم القوم إلی الماء، أی: يعذّبنا عذاب الفارط فی الذنب، و هو المتقدّم فيه، كذا قال المبرد. و قال أيضا: فرط منه أمر و أفرط: أسرف، و فرط: ترک.

و قرأ ابن محيصن يَفْرُطَ بضم الياء و فتح الراء، أی: يحمله حامل علی التسرّع إلينا، و قرأت طائفة بضم الياء و كسر الراء، و منهم ابن عباس و مجاهد و عكرمة من الإفراط، أی: يشتطّ فی أذيتنا. قال الراجز:

قد أفرط العلج علينا و عجل و معنی أَوْ أَنْ يَطْغی قد تقدّم قريبا، و جملة قالَ لا تَخافا مستأنفة جواب سؤال مقدّر، نهی لهما عن الخوف الذی حصل معهما من فرعون، ثم علّل ذلک بقوله: إِنَّنِي مَعَكُما أی: بالنصر

لهما، و المعونة علی فرعون، و معنی أَسْمَعُ وَ أَری إدراک ما يجری بينهما و بينه بحيث لا يخفی عليه سبحانه منه خافية، و ليس بغافل عنهما، ثم أمرهما بإتيانه الذی هو عبارة عن الوصول إليه بعد أمرهما بالذهاب إليه، فلا تكرار فَقُولا إِنّا رَسُولا رَبِّكَ أرسلنا إليک فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ أی: خلّ عنهم و أطلقهم من الأسر وَ لا تُعَذِّبْهُمْ بالبقاء علی ما كانوا عليه، و قد كانوا عند فرعون فی عذاب شديد: يذبح أبناءهم، و يستحيی نساءهم، و يكلفهم من العمل ما لا يطيقونه. ثم أمرهما سبحانه أن يقولا لفرعون قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ قيل: هی العصا و اليد، و قيل: إن فرعون قال لهما: و ما هی؟ فأدخل موسی يده فی جيب قميصه، ثم أخرجها لها شعاع كشعاع الشمس، فعجب فرعون من ذلک، و لم يره موسی العصا إلا يوم الزّينة وَ السَّلامُ عَلی مَنِ اتَّبَعَ الْهُدی

أي: السلامة. قال الزّجّاج: أي: من اتبع الهدى سلم من سخط اللّه عزّ و جلّ و من عذابه، و ليس بتحية. قال: و الدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء و لا خطاب. قال الفراء:

السلام على من اتبع الهدى، و لمن اتبع الهدى سواء إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا من جهة اللّه سبحانه أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى المراد بالعذاب: الهلاك و الدمار فى الدنيا و الخلود فى النار، و المراد بالتكذيب:

التكذيب بآيات اللّه و برسله، و التولى: الإعراض عن قبولها و الإيمان بها قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى أى:

قال فرعون لهما: فمن ربكما؟ فأضاف الربّ إليهما و لم يضفه إلى نفسه لعدم تصديقه لهما و لجحده للربوبية، و خصّ موسى بالنداء لكونه الأصل فى الرسالة، و قيل: لمطابقة رؤوس الآى قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ أى: قال موسى مجيبا له، و «ربنا» مبتدأ، و خبره الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ و يجوز أن يكون «ربنا» خبر مبتدأ محذوف، و ما بعده صفته، قرأ الجمهور خَلْقَهُ بسكون اللام، و روى زائدة عن الأعمش أنه قرأ «خلقه» بفتح اللام على أنه فعل، و هى قراءة ابن أبى إسحاق، و رواها نصير عن الكسائى. فعلى القراءة الأولى يكون خلقه ثانى مفعولى أعطى. و المعنى: أعطى كل شىء صورته و شكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به المطابقة له؛ كاليد للبطش، و الرجل للمشى، و اللسان للنطق، و العين للنظر، و الأذن للسمع، كذا قال الضحّاك و غيره. و قال الحسن و قتادة: أعطى كل شىء صلاحه و هداه لما يصلحه. و قال مجاهد: المعنى لم يخلق خلق الإنسان فى خلق البهائم، و لا خلق البهائم فى خلق الإنسان، و لكن خلق كلّ شىء فقدّره تقديرا، و منه قول الشاعر:

و له فى كلّ شىء خلقةو كذاك اللّه ما شاء فعل

و قال الفرّاء: المعنى: خلق للرجل المرأة، و لكل ذكر ما يوافقه من الإناث، و يجوز أن يكون خلقه على القراءة الأولى هو المفعول الأوّل لأعطى، أى: أعطى خلقه كلّ شىء يحتاجون إليه، و يرتفقون به، و معنى ثُمَّ هَدى أنه سبحانه هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم فانتفعوا بكل شىء فيما خلق له، و أما على القراءة الآخرة، فيكون الفعل صفة للمضاف أو للمضاف إليه، أى: أعطى كل شىء خلقه اللّه سبحانه و لم يخله من عطائه، و على هذه القراءة يكون المفعول الثانى محذوفا: أى أعطى كل شىء خلقه ما يحتاج إليه، فيوافق معناها معنى القراءة الأولى.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۳۶

قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى لما سمع فرعون ما احتجّ به موسى فى ضمن هذا الكلام على إثبات الربوبية كما لا يخفى من أن الخلق و الهداية ثابتان بلا خلاف، و لا بدّ لهما من خالق و هاد، و ذلك الخالق و الهادى هو اللّه سبحانه لا ربّ غيره. قال فرعون: فما بال القرون الأولى؟ فإنها لم تقرّ بالربّ الذى تدعو إليه يا موسى، بل عبدت الأوثان و نحوها من المخلوقات، و معنى البال: الحال و الشأن، أى: ما حالهم؟ و ما شأنهم؟ و قيل:

إن سؤال فرعون عن القرون الأولى مغالطة لموسى لما خاف أن يظهر لقومه أنه قد قهره بالحجة، أى: ما حال القرون الماضية؟ و ماذا جرى عليهم من الحوادث؟ فأجابه موسى، ف قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي أى: إن هذا الذى سألت عنه ليس ممّا نحن بصدده، بل هو من علم الغيب الذى استأثر اللّه به لا تعلمه أنت و لا أنا. و على التفسير الأوّل يكون معنى عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي أنّ علم هؤلاء الذين عبدوا الأوثان و نحوها محفوظ عند اللّه فى كتابه سيجازيهم عليها، و معنى كونها فى كتاب أنها مثبتة فى اللوح المحفوظ. قال الزجاج: المعنى أن أعمالهم محفوظة عند اللّه يجازى بها، و التقدير: علم أعمالها عند ربّى فى كتاب.

و قد اختلف فى معنى لا يَضِلُّ رَبِّي وَ لا يَنْسى على أقوال: الأوّل: أنه ابتداء كلام تنزيه للّه تعالى عن هاتين الصفتين. و قد تمّ الكلام عند قوله «فِي كِتابٍ»، كذا قال الزجاج. قال: و معنى لا يَضِلُّ لا يهلك، من قوله: أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ «۱»، وَ لا يَنْسى شيئا من الأشياء، فقد نزّهه عن الهلاك و النسيان. القول الثانى: أن معنى لا يَضِلُّ لا يخطئ. القول الثالث: أن معناه لا يغيب. قال

ابن الأعرابى: أصل الضلال الغيبوبة. القول الرابع: أن المعنى لا يحتاج إلى كتاب، و لا يضلّ عنه علم شيء من الأشياء، و لا ينسى ما علمه منها، حكى هذا عن الزجاج أيضا. قال النحاس: و هو أشبهها بالمعنى. و لا يخفى أنه كقول ابن الأعرابى. القول الخامس: أن هاتين الجملتين صفة لكتاب، و المعنى: أن الكتاب غير ذاهب عن اللّه و لا هو ناس له الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً الموصول فى محل رفع على أنه صفة لربى متضمّنة لزيادة البيان، و يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أو فى محل نصب على المدح. قرأ الكوفيون مَهْداً على أنه مصدر لفعل مقدّر، أى: مهدها مهدا، أو على تقدير مضاف محذوف، أى: ذات مهد، و هو اسم لما يمهد كالفراش لما يفرش. و قرأ الباقون مهادا و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم قالا: لاتفاقهم على قراءة: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً. قال النحاس: و الجمع أولى من المصدر؛ لأن هذا الموضوع ليس موضع المصدر إلا على حذف المضاف. قيل: يجوز أن يكون مهادا مفردا كالفراش، و يجوز أن يكون جمعا، و معنى المهاد: الفراش، فالمهاد: جمع المهد، أى: جعل كل موضع منها مهدا لكل واحد منكم وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا السلك: إدخال الشيء فى الشيء. و المعنى: أدخل فى الأرض لأجلكم طرقا تسلكونها و سهّلها لكم. و فى الآية الأخرى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ثم قال سبحانه ممتنّا على عباده وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً هو ماء المطر، قيل: إلى هنا انتهى كلام موسى، و ما بعده هو فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى من كلام اللّه سبحانه، و قيل:

هو من الكلام المحكيّ عن موسى، معطوف على أنزل، و إنما التفت إلى التكلّم للتنبيه على ظهور ما فيه من

---

(١). السجدة: ١٠.

الدلالة على كمال القدرة. و نوقش بأن هذا خلاف الظاهر مع استلزامه فوت الالتفات لعدم اتحاد المتكلّم، و يجاب عنه بأن الكلام كله محكيّ عن واحد هو موسى، و الحاكى للجميع هو اللّه سبحانه. و المعنى: فأخرجنا بذلك الماء بسبب الحرث و المعالجة أزواجا، أى: ضروبا و أشباها من أصناف النبات المختلفة. و قوله: «من نبات» صفة لأزواجا، أو بيان له، و كذا «شتى» صفة أخرى له، أى: متفرّقة، جمع شتيت. و قال الأخفش: التقدير أزواجا شتى من نبات. قال: و قد يكون النبات شتى، فيجوز أن يكون «شتى» نعتا لأزوجا، و يجوز أن يكون نعتا للنبات، يقال: أمر شتّ، أى: متفرّق، و شتّ الأمر شتّا و شتاتا تفرّق، و اشتتّ مثله، و الشّتيت: المتفرّق. قال رؤبة:

جاءت معا و اطّرقت شتيتا «١» ....

و جملة كُلُوا وَ ارْعَوْا فى محل نصب على الحال بتقدير القول، أى: قائلين لهم ذلك، و الأمر للإباحة، يقال: رعت الماشية الكلأ و رعاها صاحبها رعاية، أى: أسامها و سرّحها، يجيء لازما و متعدّيا، و الإشارة بقوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى إلى ما تقدّم ذكره فى هذه الآيات، و النهى: العقول، جمع نهية، و خصّ ذوى النّهى لأنهم الذين ينتهى إلى رأيهم، و قيل: لأنهم ينهون النفس عن القبائح، و هذا كلّه من موسى احتجاج على فرعون فى إثبات الصانع جوابا لقوله: فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى و الضمير فى مِنْها خَلَقْناكُمْ و ما بعده راجع إلى الأرض المذكورة سابقا. قال الزّجّاج و غيره: يعنى أن آدم خلق من الأرض و أولاده منه. و قيل: المعنى: أن كل نطفة مخلوقة من التراب فى ضمن خلق آدم؛ لأنّ كلّ فرد من أفراد البشر له حظّ من خلقه وَ فِيها أى: فى الأرض نُعِيدُكُمْ بعد الموت فتدفنون فيها و تتفرّق أجزاؤكم حتى تصير من جنس الأرض، و جاء بفى دون إلى للدلالة على الاستقرار وَ مِنْها أى: من الأرض نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى أى: بالبعث و النشور و تأليف الأجسام و ردّ الأرواح إليها على ما كانت عليه قبل الموت، و التارة كالمرّة وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها أى: أرينا فرعون و عرّفناه آياتنا كلها، و المراد بالآيات هى الآيات التسع

المذكورة فى قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ على أن الإضافة للعهد. و قيل:
المراد جميع الآيات التى جاء بها موسى، و التى جاء بها غيره من الأنبياء، و أن موسى قد كان عرّفه جميع معجزاته و معجزات سائر الأنبياء، و الأوّل أولى. و قيل: المراد بالآيات حجج اللّه سبحانه الدالة على توحيده فَكَذَّبَ وَ أَبى أى: كذب فرعون موسى، و أبى عليه أن يجيبه إلى الإيمان، و هذا يدلّ على أن كفر فرعون كفر عناد؛ لأنه رأى الآيات و كذب بها، كما فى قوله: وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا. و جملة قالَ أَ جِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال فرعون بعد هذا؟ و الهمزة للإنكار لما جاء به موسى من الآيات، أى: جئت يا موسى لتوهم الناس بأنك نبىّ يجب

---

(۱). و تمامه: و هى تثير السّاطع السّخّيتا.
«السخيت»: دقاق التراب.
فتح القدير، ج۳، ص: ۴۳۸
عليهم اتباعك، و الإيمان بما جئت به، حتى تتوصل بذلك الإيهام الذى هو شعبة من السحر إلى أن تغلب على أرضنا و تخرجنا منها. و إنما ذكر الملعون الإخراج من الأرض لتنفير قومه عن إجابة موسى، فإنه إذا وقع فى أذهانهم و تقرّر فى أفهامهم أن عاقبة إجابتهم لموسى الخروج من ديارهم و أوطانهم؛ كانوا غير قابلين لكلامه، و لا ناظرين فى معجزاته، و لا ملتفتين إلى ما يدعو إليه من الخير فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها و اللام هى الموطئة للقسم، أى: و اللّه لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر، حتّى يتبيّن للناس أن الذى جئت به سحر يقدر على مثله الساحر فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً هو مصدر، أى:
وعدا، و قيل: اسم مكان، أى: اجعل لنا يوما معلوما، أو مكانا معلوما لا نخلفه. قال القشيرى: و الأظهر أنه مصدر، و لهذا قال: لا نُخْلِفُهُ أى: لا نخلف ذلك الوعد، و الإخلاف: أن تعد شيئا و لا تنجزه.
قال الجوهرى: الميعاد: المواعدة و الوقت و الموضع، و كذلك الوعد. و قرأ أبو جعفر بن القعقاع و شيبة و الأعرج لا نُخْلِفُهُ بالجزم على أنه جواب لقوله اجعل. و قرأ الباقون بالرفع على أنه صفة لموعدا، أى:
لا نخلف ذلك الوعد نَحْنُ وَ لا أَنْتَ و فوّض تعيين الموعد إلى موسى إظهارا لكمال اقتداره على الإتيان بمثل ما أتى به موسى، و انتصاب مَكاناً سُوىً بفعل مقدّر يدل عليه المصدر، أو على أنه بدل من موعد.
قرأ ابن عامر و عاصم و حمزة سُوىً بضم السين، و قرأ الباقون بكسرها، و هما لغتان. و اختار أبو عبيد و أبو حاتم كسر السين لأنها اللغة العالية الفصيحة؛ و المراد مكانا مستويا، و قيل: مكانا منصفا عدلا بيننا و بينك. قال سيبويه: يقال سوى و سوى، أى: عدل، يعنى عدلا بين المكانين. قال زهير:
أرونا خطّة لا ضيم فيهايسوّى بيننا فيها السّواء
قال أبو عبيدة و القتبى: معناه مكانا وسطا بين الفريقين، و أنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفى:
و إنّ أبانا كان حلّ ببلدةسوى بين قيس عيلان و الفزر
و الفزر: سعد بن زيد مناة. ثم واعده موسى بوقت معلوم ف قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ قال مجاهد و قتادة و مقاتل و السدّى: كان ذلك يوم عيد يتزينون فيه، و قال سعيد بن جبير: كان ذلك يوم عاشوراء، و قال الضحّاك: يوم السبت، و قيل: يوم النيروز، و قيل: يوم كسر الخليج. و قرأ الحسن و الأعمش و عيسى الثقفى و السّلمى و هبيرة عن حفص يَوْمُ الزِّينَةِ بالنصب، و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو، أى:

فی یوم الزینة إنجاز موعدنا. و قرأ الباقون بالرفع علی أنه خبر موعدکم، و إنما جعل المیعاد زمانا بعد أن طلب منه فرعون أن یکون سوی، لأن یوم الزینة یدلّ علی مکان مشهور یجتمع فیه الناس ذلک الیوم، أو علی تقدیر مضاف محذوف، أی: موعدکم مکان یوم الزینة وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى معطوف علی یوم الزینة فیکون فی محل رفع، أو علی الزینة فیکون فی محل جر، یعنی ضحی ذلک الیوم، و المراد بالناس أهل مصر. و المعنی:

یحشرون إلی العید وقت الضحی، و ینظرون فی أمر موسی و فرعون. قال الفرّاء: المعنی إذا رأیت الناس یحشرون من کل ناحیة ضحی فذلک الموعد. قال: و جرت عادتهم بحشر الناس فی ذلک الیوم. و الضحی قال الجوهری:

ضحوة النهار بعد طلوع الشمس، ثم بعده الضحی، و هو حین تشرق الشمس، و خصّ الضحی لأنه أوّل

فتح القدیر، ج۳، ص: ۴۳۹

النهار، فإذا امتدّ الأمر بینهما کان فی النهار متسع. و قرأ ابن مسعود و الجحدری و أن یحشر علی البناء للفاعل: أی: و أن یحشر اللّه الناس ضحی. و روی عن الجحدری أنه قرأ و أن نحشر بالنون. و قرأ بعض القرّاء بالتاء الفوقیة، أی: و أن تحشر أنت یا فرعون، و قرأ الباقون بالتحتیة علی البناء للمفعول.

و قد أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا قال: یعجل أَوْ أَنْ يَطْغى قال: یعتدی. و أخرج ابن المنذر عن ابن جریج فی قوله: أَسْمَعُ وَ أَرى قال: أسمع ما یقول و أری ما یجاوبکما به، فأوحی إلیکما فتجاوبانه. و أخرج ابن أبی شیبة و ابن أبی حاتم عن ابن مسعود قال:

لما بعث اللّه موسی إلی فرعون قال: ربّ أیّ شیء أقول؟ قال: قل أهیا شراهیا. قال الأعمش: تفسیر ذلک:

الحیّ قبل کل شیء، و الحیّ بعد کل شیء. و جوّد السیوطی إسناده، و سبقه إلی تجوید إسناده ابن کثیر فی تفسیره. و أخرج ابن أبی حاتم عن قتادة فی قوله: عَلى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى قال: کذب بکتاب اللّه و تولی عن طاعة اللّه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و البیهقی فی الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فی قوله:

أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ قال: خلق لکل شیء زوجة ثُمَّ هَدى قال: هداه لمنکحه و مطعمه و مشربه و مسکنه. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: لا يَضِلُّ رَبِّي قال:

لا یخطئ. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: مِنْ نَباتٍ شَتَّى قال:

مختلف. و فی قوله: لِأُولِي النُّهى قال: لأولی التقی. و أخرج ابن المنذر عنه لِأُولِي النُّهى قال:

لأولی الحجا و العقل. و أخرج عبد بن حمید و ابن المنذر عن عطاء الخراسانی قال: إن الملک ینطلق فیأخذ من تراب المکان الذی یدفن فیه، فیذرّه علی النطفة، فیخلق من التراب و من النطفة، و ذلک قوله: مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ و أخرج أحمد و الحاکم عن أبی أمامة قال: لما وضعت أمّ کلثوم بنت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فی القبر قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «منها خلقناکم و فیها نعیدکم و منها نخرجکم تارة أخری، بسم اللّه و فی سبیل اللّه و علی ملّة رسول اللّه». و فی حدیث فی السنن: «أنه أخذ قبضة من التراب فألقاها فی القبر و قال:

منها خلقناکم، ثم أخری و قال: و فیها نعیدکم، ثم أخری و قال: و منها نخرجکم تارة أخری». و أخرج سعید بن منصور و عبد بن حمید و ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله: مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ قال: یوم عاشوراء. و أخرج ابن المنذر عن ابن عمرو نحوه.

[سورة طه (۲۰): الآیات ۶۰ الی ۷۰]

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى (۶۰) قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى

(۶۱) فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوى (۶۲) قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (۶۳) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (۶۴)

قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (۶۵) قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى (۶۶) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (۶۷) قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (۶۸) وَ أَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى (۶۹)

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى (۷۰)

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۴۰

قوله: فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ أى: انصرف من ذلك المقام ليهيئ ما يحتاج إليه ممّا تواعدا عليه، و قيل:

معنى تولى أعرض عن الحق، و الأوّل أولى فَجَمَعَ كَيْدَهُ أى: جمع ما يكيد به من سحره و حيلته، و المراد أنه جمع السحرة، قيل: كانوا اثنين و سبعين، و قيل أربعمائة، و قيل: اثنا عشر ألفا، و قيل: أربعة عشر ألفا، و قال ابن المنذر: كانوا ثمانين ألفا ثُمَّ أَتى أى: أتى الموعد الذى تواعدا إليه مع جمعه الذى جمعه، و جملة قالَ لَهُمْ مُوسى مستأنفة جواب سؤال مقدّر وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً دعا عليهم بالويل، و نهاهم عن افتراء الكذب. قال الزّجّاج: هو منصوب بمحذوف، و التقدير: ألزمهم اللّه ويلا. قال: و يجوز أن يكون نداء كقوله: يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا «۱». فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ السحت: الاستئصال، يقال: سحت و أسحت بمعنى، و أصله استقصاء الشعر. و قرأ الكوفيون إلا شعبة فَيُسْحِتَكُمْ بضم حرف المضارعة من أسحت، و هى لغة بنى تميم، و قرأ الباقون بفتحه من سحت، و هى لغة الحجاز، و انتصابه على أنه جواب للنهى وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى أى: خسر و هلك؛ و المعنى: قد خسر من افترى على اللّه أىّ كذب كان فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ أى: السحرة لما سمعوا كلام موسى تناظروا و تشاوروا و تجاذبوا أطراف الكلام فى ذلك وَ أَسَرُّوا النَّجْوى أى: من موسى، و كان نجواهم هى قولهم إِنْ هذانِ لَساحِرانِ و قيل: إنهم تناجوا فيما بينهم فقالوا: إن كان ما جاء به موسى سحرا فسنغلبه، و إن كان من عند اللّه فسيكون له أمر؛ و قيل: الذى أسروه أنه إذا غلبهم اتبعوه، قاله الفرّاء و الزّجّاج؛ و قيل: الذى أسروه أنهم لما سمعوا قول موسى: «وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ»، قالوا: «ما هذا بقول ساحر». و النجوى: المناجاة، يكون اسما و مصدرا.

قرأ أبو عمرو إنّ هذين لساحران بتشديد الحرف الداخل على الجملة، و بالياء فى اسم الإشارة على إعمال إن عملها المعروف، و هو نصب الاسم و رفع الخبر؛ و رويت هذه القراءة عن عثمان و عائشة و غيرهما من الصحابة، و بها قرأ الحسن و سعيد بن جبير و النّخعى و غيرهم من التابعين، و بها قرأ عاصم الجحدرى و عيسى ابن عمر كما حكاه النّحّاس، و هذه القراءة موافقة للإعراب الظاهر، مخالفة لرسم المصحف فإنه مكتوب بالألف. و قرأ الزهرى و الخليل بن أحمد و المفضل و أبان و ابن محيصن و ابن كثير و عاصم فى رواية حفص عنه إِنْ هذانِ بتخفيف إن على أنها نافية، و هذه القراءة موافقة لرسم المصحف و للإعراب، و قرأ ابن كثير مثل قراءتهم إلا أنه يشدّد النون من «هذانّ». و قرأ المدنيون و الكوفيون و ابن عامر إِنْ هذانِ بتشديد إن و بالألف، فوافقوا الرسم و خالفوا الإعراب الظاهر. و قد تكلّم جماعة من أهل العلم فى توجيه قراءة المدنيين

---

(۱). يس: ۵۲.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۴۱

و الكوفيين و ابن عامر، و قد استوفى ذكر ذلك ابن الأنبارى و النحّاس، فقيل: إنها لغة بنى الحارث بن كعب، و خثعم، و كنانة يجعلون رفع المثنى و نصبه و جره بالألف، و منه قول الشاعر «۱»:

فأطرق إطراق الشّجاع و لو يرى مساغا لناباه الشّجاع لصمّما

و قول الآخر:

تزوّد منّا بين أذناه ضربة «٢» ....

و قول الآخر «٣»:

إنّ أباها و أبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

و ممّا يؤيّد هذا تصريح شيبويه و الأخفش و أبى زيد و الكسائى و الفراء: إنّ هذه القراءة على لغة بنى الحارث ابن كعب، و حكى أبو عبيدة عن أبى الخطاب أنها لغة بنى كنانة، و حكى غيره أنها لغة خثعم، و قيل: إن «إنّ» بمعنى نعم هاهنا كما حكاه الكسائى عن عاصم، و كذا حكاه سيبويه. قال النحاس: رأيت الزجاج و الأخفش يذهبان إليه، فيكون التقدير: نعم هذان لساحران، و منه قول الشاعر:

ليت شعرى هل للمحبّ شفاء من جوى حبّهنّ إنّ اللّقاء

أى: نعم اللقاء. قال الزجّاج: و المعنى فى الآية: إن هذان لهما ساحران، ثم حذف المبتدأ و هو هما.

و أنكره أبو على الفارسى و أبو الفتح بن جنى، و قيل: إن الألف فى هذا مشبهة بالألف فى يفعلان؛ فلم تغير، و قيل: إن الهاء مقدّرة، أى: إنه هذان لساحران، حكاه الزجّاج عن قدماء النحويين، و كذا حكاه ابن الأنبارى. و قال ابن كيسان: إنه لما كان يقال هذا بالألف فى الرفع و النصب و الجرّ على حال واحدة، و كانت التثنية لا تغير الواحد أجريت التثنية مجرى الواحد، فثبت الألف فى الرفع و النصب و الجر، فهذه أقوال تتضمّن توجيه هذه القراءة توجيها تصح به و تخرج به عن الخطأ، و بذلك يندفع ما روى عن عثمان و عائشة أنه غلط من الكاتب للمصحف. يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ و هى أرض مصر بِسِحْرِهِما الذى أظهراه وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى قال الكسائى: بطريقتكم: بسنّتكم، و المثلى نعت، كقولك: امرأة كبرى، تقول العرب: فلان على الطريقة المثلى؛ يعنون على الهدى المستقيم. قال الفراء: العرب تقول: هؤلاء طريقة قومهم و طرائق قومهم لأشرافهم، و المثلى تأنيث الأمثل، و هو الأفضل، يقال: فلان أمثل قومه، أى:

أفضلهم، و هم الأماثل. و المعنى: أنهما إن يغلبا بسحرهما مال إليهما السادة و الأشراف منكم، أو يذهبا بمذهبكم الذى هو أمثل المذاهب فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ الإجماع: الإحكام و العزم على الشىء، قاله الفراء.

---

(١). رجل من بنى أسد، قال الفراء: ما رأيت أفصح منه. و فى اللسان: هو المتلمس.

(٢). و عجزه: دعته إلى هابى التّراب عقيم. و البيت لهوبر الحارثى. و الهابى من التراب: ما ارتفع و دقّ.

(٣). هو أبو النجم، و قال بعضهم: هو رؤبة.

تقول: أجمعت على الخروج، مثل أزمعت. و قال الزجّاج: معناه ليكن عزمكم كلكم كالكيد مجمعا عليه، و قد اتفق القراء على قطع الهمزة فى أجمعوا إلا أبا عمرو، فإنه قرأ بوصلها و فتح الميم من الجمع. قال النحّاس:

و فيما حكى لى عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال: يجب على أبى عمرو أن يقرأ بخلاف هذه القراءة، و هى القراءة التى عليها أكثر الناس ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا أى: مصطفين مجتمعين؛ ليكون أنظم لأمورهم و أشد لهيبتهم، و هذا قول جمهور المفسرين. و قال أبو عبيدة: الصف: موضع المجمع، و يسمّى المصلّى الصف. قال الزّجّاج:

و على هذا معناه: ثم ائتوا الموضع الذى تجتمعون فيه لعيدكم و صلاتكم، يقال: أتيت الصف بمعنى أتيت المصلّى، فعلى التفسير

الأول يكون انتصاب صفا على الحال، و على تفسير أبى عبيدة يكون انتصابه على المفعولية. قال الزّجّاج: يجوز أن يكون المعنى ثم ائتوا و الناس مصطفون، فيكون على هذا مصدرا فى موضع الحال، و لذلك لم يجمع. و قرئ بكسر الهمزة بعدها ياء، و من ترك الهمزة أبدل منها ألفا. وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى أى: من غلب، يقال: استعلى عليه إذا غلبه، و هذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض، و قيل: من قول فرعون لهم. و جملة قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ مستأنفة جوابا لسؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا فعلوا بعد ما قالوا فيما بينهم ما قالوا؟ فقيل: قالوا يا موسى إما أن تلقى، و «أن» مع ما فى حيزها فى محل نصب بفعل مضمر، أى: اختر إلقاءك أوّلا أو إلقاءنا، و يجوز أن تكون فى محل رفع على أنها و ما بعدها خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا، و مفعول تلقى محذوف، و التقدير: إما أن تلقى ما تلقيه أوّلا وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نحن أَوَّلَ مَنْ أَلْقى ما يلقيه، أو أوّل من يفعل الإلقاء، و المراد: إلقاء العصىّ على الأرض، و كانت السحرة معهم عصىّ، و كان موسى قد ألقى عصاه يوم دخل على فرعون، فلما أراد السحرة معارضته قالوا له هذا القول، ف قالَ لهم موسى: بَلْ أَلْقُوا أمرهم بالإلقاء أوّلا لتكون معجزته أظهر إذا ألقوا هم ما معهم، ثم يلقى هو عصاه فتبتلع ذلك، و إظهارا لعدم المبالاة بسحرهم فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ فى الكلام حذف، و التقدير: ألقوا فإذا حبالهم، و الفاء فصيحة، و إذا للمفاجأة أو ظرفية. و المعنى: فألقوا، ففاجأ موسى وقت أن يُخَيَّلُ إِلَيْهِ سعى حبالهم و عصيهم، و قرأ الحسن عِصِيُّهُمْ بضم العين، و هى لغة بنى تميم، و قرأ الباقون بكسرها اتباعا لكسرة الصاد، و قرأ ابن عباس و ابن ذكوان و روح عن يعقوب تخيّل بالمثناة؛ لأن العصىّ و الحبال مؤنثة، و ذلك أنهم لطخوها بالزئبق، فلما أصابها حرّ الشمس ارتعشت و اهتزّت، و قرئ نخيّل بالنون على أن اللّه سبحانه هو المخيّل لذلك، و قرئ يخيّل بالياء التحتية مبنيا للفاعل على أن المخيّل هو الكيد، و قيل: المخيّل هو «أنها تسعى»، ف «أنّ» فى موضع رفع، أى: يخيّل إليه سعيها. ذكر معناه الزجاج. و قال الفراء: إنها فى موضع نصب، أى: بأنها، ثم حذف الباء. قال الزجاج: و من قرأ بالتاء، يعنى الفوقية، جعل أنّ فى موضع نصب، أى:

تخيل إليه ذات سعى. قال: و يجوز أن يكون فى موضع رفع بدلا من الضمير فى تخيل، و هو عائد على الحبال و العصىّ، و البدل فيه بدل اشتمال، يقال: خيل إليه إذا شبه له و أدخل عليه البهمة و الشبهة. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى أى: أحسّ، و قيل: وجد، و قيل: أضمر، و قيل: خاف، و ذلك لما يعرض من الطباع

فتح القدير، ج٣، ص: ۴۴۳

البشرية عند مشاهدة ما يخشى منه، و قيل: خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقى عصاه، و قيل: إنّ سبب خوفه هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم فى العصا، فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا، فأذهب اللّه سبحانه ما حصل معه من الخوف بما بشّره به بقوله: قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى أى: المستعلى عليهم بالظفر و الغلبة، و الجملة تعليل للنّهى عن الخوف وَ أَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ يعنى العصا، و إنما أبهمها تعظيما و تفخيما، و جزم تَلْقَفْ ما صَنَعُوا على أنه جواب الأمر. قرئ بتشديد القاف، و الأصل: تتلقف، فحذف إحدى التاءين، و قرئ «تلقف» بكسر اللام من لقفه إذا ابتلعه بسرعة، و قرئ «تلقف» بالرفع على تقدير فإنها تتلقف، و معنى ما صَنَعُوا الذى صنعوه من الحبال و العصىّ. قال الزّجّاج: القراءة بالجزم جواب الأمر، و يجوز الرفع على معنى الحال، كأنه قال: ألقها متلقفة، و جملة إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ تعليل لقوله تلقف، و ارتفاع كيد على أنه خبر لأن، و هى قراءة الكوفيين إلا عاصما. و قرأ هؤلاء «سحر» بكسر السين و سكون الحاء، و إضافة الكيد إلى السحر على الاتساع من غير تقدير، أو بتقدير ذى سحر. و قرأ الباقون كَيْدُ ساحِرٍ. وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى أى: لا يفلح جنس الساحر حيث أتى و أين توجه، و هذا من تمام التعليل فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً أى: فألقى ذلك الأمر الذى شاهدوه من موسى و العصا السّحرة سجدا للّه تعالى، و قد مرّ تحقيق هذا فى سورة الأعراف قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى إنما قدّم هارون على موسى فى حكاية كلامهم رعاية لفواصل الآى، و عناية بتوافق رؤوسها.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ قال: يهلككم.

و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة فَيُسْحِتَكُمْ قال: يستأصلكم. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن أبى صالح قال: فيذبحكم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن علىّ وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى قال: يصرفا وجوه الناس إليهما. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: يقول أمثلكم، و هم بنو إسرائيل. و أخرج عبد بن حميد و عبد الرزاق فى قوله: تَلْقَفْ ما صَنَعُوا:

ما يأفكون، عن قتادة قال: ألقاها موسى فتحوّلت حية تأكل حبالهم و ما صنعوا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة: أن سحرة فرعون كانوا تسعمائة، فقالوا لفرعون: إن يكن هذان ساحران فإنا نغلبهما فإنه لا أسحر منا، و إن كانا من ربّ العالمين فإنه لا طاقة لنا بربّ العالمين، فلما كان من أمرهم أن خرّوا سجدا. أراهم اللّه فى سجودهم منازلهم التى إليها يصيرون، فعندها قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ إلى قوله: وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى

[سورة طه (٢٠): الآيات ٧١ الى ٧٦]

قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَ أَبْقى (٧١) قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى (٧٤) وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)

فتح القدير، ج٣، ص: ٤٤٤

قوله: قالَ آمَنْتُمْ لَهُ يقال: آمن له و آمن به، فمن الأوّل قوله: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ «١»، و من الثانى: قوله فى الأعراف: آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ «٢». و قيل: إن الفعل هنا متضمّن معنى الاتباع.

و قرئ على الاستفهام التوبيخى، أى: كيف آمنتم به من غير إذن منى لكم بذلك إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ أى: إن موسى لكبيركم، أى: أسحركم و أعلاكم درجة فى صناعة السحر، أو معلّمكم و أستاذكم، كما يدلّ عليه قوله: الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ قال الكسائى: الصبى بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال:

جئت من عند كبيرى. و قال محمد بن إسحاق: إنه لعظيم السحر. قال الواحدى: و الكبير فى اللغة: الرئيس، و لهذا يقال للمعلم: الكبير. أراد فرعون بهذا القول أن يدخل الشبهة على الناس حتى لا يؤمنوا، و إلا فقد علم أنهم لم يتعلّموا من موسى، و لا كان رئيسا لهم، و لا بينه و بينهم مواصلة فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ أى: و اللّه لأفعلنّ بكم ذلك «٣»، و التقطيع للأيدى و الأرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى و الرجل اليسرى، و من للابتداء وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ أى: على جذوعها، كقوله: أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ «٤» أى: عليه، و منه قول سويد بن أبى كاهل:

هم صلبوا العبدىّ فى جذع نخلةفلا عطست شيبان إلا بأجدعا

و إنما آثر كلمة فِي للدلالة على استقرارهم عليها كاستقرار المظروف فى الظرف وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَ أَبْقى أراد: لتعلمنّ هل أنا أشدّ عذابا لكم أم موسى؟ و معنى أبقى: أدوم، و هو يريد بكلامه هذا الاستهزاء بموسى؛ لأن موسى لم يكن من التعذيب فى شىء، و يمكن أن يريد العذاب الذى توعّدهم به موسى إن لم يؤمنوا؛ و قيل: أراد بموسى ربّ موسى على حذف المضاف قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ أى: لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات الواضحة من عند اللّه سبحانه؛

كاليد و العصا. و قيل:

إنهم أرادوا بالبينات ما رأوه فى سجودهم من المنازل المعدّة لهم فى الجنة وَ الَّذِى فَطَرَنا معطوف على «ما جاءنا»، لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات، و على الذى فطرنا، أى: خلقنا، و قيل: هو قسم، أى: و اللّه الذى فطرنا لن نؤثرك، أو لا نؤثرك، و هذان الوجهان فى تفسير الآية ذكرهما الفرّاء و الزجّاج.

فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ هذا جواب منهم لفرعون لما قال لهم «لأقطعنّ» إلخ، و المعنى: فاصنع ما أنت صانع، و احكم ما أنت حاكم، و التقدير: ما أنت صانعه إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا أى: إنما سلطانك علينا و نفوذ أمرك فينا فى هذه الدنيا، و لا سبيل لك علينا فيما بعدها، فاسم الإشارة فى محل نصب على الظرفية أو على المفعولية، و ما كافّة، و أجاز الفراء الرفع على أن تجعل ما بمعنى الذى، أى: أن الذى تقضيه هذه الحياة

---

(۱). العنكبوت: ۲۶.

(۲). الأعراف: ۱۲۳.

(۳). فرعون كان ينكر وجود اللّه تعالى. و لعله أقسم بنفسه.

(۴). الطور: ۳۸.

الدنيا فقضاؤك و حكمك منحصر فى ذلك إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا التى سلفت منا من الكفر و غيره وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ معطوف على «خطايانا»، أى: و يغفر لنا الذى أكرهتنا عليه من عمل السحر فى معارضة موسى، فما فى محل نصب على المفعولية، و قيل: هى نافية، قال النحّاس: و الأوّل أولى.

قيل: و يجوز أن يكون فى محل رفع بالابتداء و الخبر مقدّر، أى: و ما أكرهتنا عليه من السحر موضوع عنّا وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى أى: خير منك ثوابا و أبقى منك عقابا، و هذا جواب قوله: «و لتعلمنّ أيّنا أشدّ عذابا و أبقى». إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى المجرم: هو المتلبّس بالكفر و المعاصى، و معنى «لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى: أنه لا يموت فيستريح و لا يحيا حياة تنفعه. قال المبرّد: لا يموت ميتة مريحة، و لا يحيا حياة ممتعة، فهو يألم كما يألم الحى، و يبلغ به حال الموت فى المكروه، إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم، و العرب تقول: فلان لا حىّ و لا ميت إذا كان غير منتفع بحياته. و أنشد ابن الأنبارى فى مثل هذا:

ألا من لنفس لا تموت فينقضى شقاها و لا تحيا حياة لها طعم

و هذه الآية من جملة ما حكاه اللّه سبحانه من قول السحرة، و قيل: هو ابتداء كلام، و الضمير فى «إنه» على هذا الوجه للشأن. وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ أى: و من يأت ربّه مصدّقا به قد عمل الصالحات، أى: الطاعات، و الموصوف محذوف، و التقدير: الأعمال الصالحات، و جملة «قد عمل» فى محل نصب على الحال، و هكذا مؤمنا منتصب على الحال، و الإشارة ب فَأُولئِكَ إلى من باعتبار معناه لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى أى: المنازل الرفيعة التى قصرت دونها الصفات جَنَّاتُ عَدْنٍ بيان للدرجات أو بدل منها، و العدن: الإقامة، و قد تقدّم بيانه، و جملة تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ حال من الجنات؛ لأنها مضافة إلى عدن، و عدن علم للإقامة كما سبق، و انتصاب خالِدِينَ فِيها على الحال من ضمير الجماعة فى «لهم»، أى: ماكثين دائمين، وَ الإشارة ذلِكَ إلى ما تقدّم لهم من الأجر، و هو مبتدأ، و جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى خبره، أى: جزاء من تطهّر من الكفر و المعاصى الموجبة للنار.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ قال: أخذ فرعون أربعين غلاما من بنى إسرائيل،

فأمر أن يعلّموا السحر بالفرما «۱»؛ قال: علّموهم تعليما لا يغلبهم أحد فى الأرض. قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى، و هم الذين قالوا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى فى قوله: وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى قال: خير منك إن أطيع، و أبقى منك عذابا إن عصى. و أخرج أحمد و مسلم و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى سعيد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خطب فأتى على هذه الآية إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أما أهلها الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون

---

(۱). «الفرما»: مدينة بمصر.

فيها و لا يحيون، و أما الذين ليسوا بأهلها فإن النار تميتهم إماتة، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فيؤتى بهم ضبائر «۱» على نهر يقال له الحياة أو الحيوان، فينبتون كما ينبت الغثاء فى حميل السيل». و أخرج أبو داود و ابن مردويه عن أبى سعيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدرىّ فى أفق السماء، و إن أبا بكر و عمر منهم، و أنعما». و فى الصحيحين بلفظ: «إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء».

[سورة طه (۲۰): الآيات ۷۷ الى ۹۱]

وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى (۷۷) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (۷۸) وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ ما هَدى (۷۹) يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ واعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَ نَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى (۸۰) كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى (۸۱)

وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى (۸۲) وَ ما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى (۸۳) قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى (۸۴) قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (۸۵) فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَ فَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (۸۶)
قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَ لكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (۸۷) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى فَنَسِيَ (۸۸) أَ فَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَ لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً (۸۹) وَ لَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي (۹۰) قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى (۹۱)

هذا شروع فى إنجاء بنى إسرائيل و إهلاك عدوّهم، و قد تقدّم فى البقرة، و فى الأعراف، و فى يونس، و اللام فى «لَقَدْ» هى الموطئة للقسم، و فى ذلك من التأكيد ما لا يخفى، و أَنْ فى «أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي»، إما المفسرة لأن فى الوحى معنى القول، أو مصدرية، أى: بأن أسر، أى: أسر بهم من مصر. و قد تقدّم هذا مستوفى. فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً أى: اجعل لهم طريقا، و معنى يبسا: يابسا، وصف به الفاعل مبالغة، و ذلك أن اللّه تعالى أيبس لهم تلك الطريق حتى لم يكن فيها ماء و لا طين. و قرئ يَبَساً بسكون الباء على أنه مخفف من يبسا المحرك، أو جمع يابس كصحب فى صاحب. و جملة لا تَخافُ دَرَكاً فى محل نصب على الحال، أى: آمنا من أن يدرككم العدوّ، أو صفة أخرى لطريق، و الدرك: اللحاق بهم من فرعون و جنوده. و قرأ حمزة لا تخف على أنه جواب الأمر، و التقدير: إن تضرب لا تخف، و لا تخشى على هذه القراءة مستأنف، أى: و لا أنت تخشى

من فرعون أو من البحر. و قرأ الجمهور لا تَخافُ و هى أرجح لعدم الجزم فى تخشى، و يجوز أن تكون هذه الجملة على قراءة الجمهور صفة أخرى لطريق، أى:

---

(١). أى جماعات.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴۴۷

لا تخاف منه و لا تخشى منه فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ أتبع هنا مطاوع تبع، يقال: أتبعتهم إذا تبعتهم، و ذلك إذا سبقوك فلحقتهم، فالمعنى: تبعهم فرعون و معه جنوده. و قيل: الباء زائدة، و الأصل: اتبعهم جنوده، أى: أمرهم أن يتبعوا موسى و قومه، و قرئ فاتبعهم بالتشديد؛ أى: لحقهم بجنوده و هو معهم، كما يقال: ركب الأمير بسيفه، أى: معه سيفه، و محل بجنوده النصب على الحال، أى: سابقا جنوده معه فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ أى: علاهم و أصابهم ما علاهم و أصابهم، و التكرير للتعظيم و التهويل، كما فى قوله: الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ. و قيل: غشيهم ما سمعت قصته. و قال ابن الأنبارى: غشيهم البعض الذى غشيهم؛ لأنه لم يغشهم كلّ ماء البحر، بل الذى غشيهم بعضه. فهذه العبارة للدلالة على أن الذى غرّقهم بعض الماء، و الأوّل أولى لما يدلّ عليه من التهويل و التعظيم. و قرئ: فغشاهم من اليمّ ما غشاهم؛ أى: غطّاهم ما غطّاهم وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ ما هَدى أى: أضلهم عن الرشد، و ما هداهم إلى طريق النجاة؛ لأنه قدّر أن موسى و من معه لا يفوتونه لكونهم بين يديه يمشون فى طريق يابسة، و بين أيديهم البحر، و فى قوله: وَ ما هَدى تأكيد لإضلاله؛ لأن المضل قد يرشد من يضلّه فى بعض الأمور يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ذكر سبحانه ما أنعم به على بنى إسرائيل بعد إنجائهم، و التقدير: قلنا لهم بعد إنجائهم: يا بَنِي إِسْرائِيلَ و يجوز أن يكون خطابا لليهود المعاصرين لنبينا صلّى اللّه عليه و سلّم، لأن النعمة على الآباء معدودة من النعم على الأبناء، و المراد بعدوّهم هنا فرعون و جنوده، و ذلك بإغراقه و إغراق قومه فى البحر بمرأى من بنى إسرائيل وَ واعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ انتصاب جانب على أنه مفعول به، لا على الظرفية لأنه مكان معين غير مبهم، و إنما تنتصب الأمكنة على الظرفية إذا كانت مبهمة. قال مكى:

و هذا أصل لا خلاف فيه. قال النحّاس: و المعنى أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه لنكلّمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام، و قيل: وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتى جانب الطور، فالوعد كان لموسى، و إنما خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم. و قرأ أبو عمرو و أبو جعفر و يعقوب «و وعدناكم» بغير ألف، و اختاره أبو عبيدة؛ لأن الوعد إنما هو من اللّه لموسى خاصة، و المواعدة لا تكون إلا من اثنين، و قد قدّمنا فى البقرة هذا المعنى، و «الأيمن» منصوب على أنه صفة للجانب، و المراد يمين الشخص؛ لأن الجبل ليس له يمين و لا شمال، فإذا قيل: خذ عن يمين الجبل فمعناه عن يمينك من الجبل. و قرئ بجرّ «الأيمن» على أنه صفة للمضاف إليه وَ نَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى قد تقدّم تفسير المنّ بالترنجبين و السلوى بالسّمانى، و أوضحنا ذلك بما لا مزيد عليه، و إنزال ذلك عليهم كان فى التّيه. كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ أى: و قلنا لهم كلوا، و المراد بالطيبات:

المستلذات، و قيل: الحلال، على الخلاف المشهور فى ذلك. و قرأ حمزة و الكسائى و الأعمش: قد أنجيتكم من عدوّكم و وعدتكم جانب الطور كلوا من طيبات ما رزقتكم بتاء المتكلم فى الثلاثة. و قرأ الباقون بنون العظمة فيها. وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ الطغيان: التجاوز؛ أى: لا تتجاوزوا ما هو جائز إلى ما لا يجوز؛ و قيل:

المعنى: لا تجحدوا نعمة اللّه فتكونوا طاغين؛ و قيل: لا تكفروا النعمة و لا تنسوا شكرها؛ و قيل: لا تعصوا المنعم، أى: لا تحملنكم السعة و العافية على المعصية. و لا مانع من حمل الطغيان على جميع هذه المعانى، فإن

فتح القدير، ج٣، ص: ۴۴۸

كل واحد منها يصدق عليه أنه طغيان فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي هذا جواب النهى؛ أى: يلزمكم غضبى و ينزل بكم، و هو مأخوذ من حلول الدّين، أى: حضور وقت أدائه وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى قرأ الأعمش و يحيى بن وثّاب و الكسائى فَيَحِلَ بضم الحاء و كذلك قرءوا «يحلل» بضم اللام الأولى، و قرأ الباقون بالكسر فيهما، و هما لغتان. قال الفراء: و الكسر أحبّ إلىّ من الضم؛ لأن الضم من الحلول بمعنى الوقوع، و يحل بالكسر يجب، و جاء التفسير بالوجوب لا بالوقوع، و ذكر نحو هذا أبو عبيدة و غيره.

و معنى فَقَدْ هَوى فقد هلك. قال الزجّاج فَقَدْ هَوى أى: صار إلى الهاوية، و هى قعر النار، من هوى يهوى هويا، أى: سقط من علو إلى سفل، و هوى فلان، أى: مات وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً أى: لمن تاب من الذنوب التى أعظمها الشرك بالله، و آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و عمل عملا صالحا ممّا ندب إليه الشرع و حسّنه ثُمَّ اهْتَدى أى: استقام على ذلك حتى يموت، كذا قال الزجاج و غيره. و قيل: لم يشكّ فى إيمانه، و قيل: أقام على السّنّة و الجماعة، و قيل: تعلّم العلم ليهتدى به، و قيل: علم أن لذلك ثوابا و على تركه عقابا، و الأوّل أرجح ممّا بعده. وَ ما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى هذا حكاية لما جرى بين اللّه سبحانه و بين موسى عند موافاته الميقات. قال المفسرون:

و كانت المواعدة أن يوافى موسى و جماعة من وجوه قومه، فسار موسى بهم، ثم عجل من بينهم شوقا إلى ربه، فقال اللّه له: ما أعجلك؟ أى: ما الذى حملك على العجلة؛ حتى تركت قومك و خرجت من بينهم؟ فأجاب موسى عن ذلك قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي أى: هم بالقرب منى، تابعون لأثرى، واصلون بعدى.

و قيل: لم يرد أنهم يسيرون خلفه، بل أراد أنهم بالقرب منه ينتظرون عوده إليهم، ثم قال مصرحا بسبب ما سأله اللّه عنه فقال: وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى أى: لترضى عنى بمسارعتى إلى امتثال أمرك أو لتزداد رضا عنى بذلك. قال أبو حاتم: قال عيسى بن عمر: بنو تيم يقولون أولى مقصورة، و أهل الحجاز يقولون أُولاءِ ممدودة. و قرأ ابن أبى إسحاق و نصر و رويس عن يعقوب عَلى أَثَرِي بكسر الهمزة و إسكان الثاء، و قرأ الباقون بفتحها، و هما لغتان. و معنى «عجلت إليك»: عجلت إلى الموضع الذى أمرتنى بالمصير إليه لترضى عنى، يقال: رجل عجل و عجول و عجلان: بيّن العجلة، و العجلة: خلاف البطء.

و جملة قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال اللّه له؟

فقيل: قال إنا قد فتنا قومك من بعدك، أى: ابتليناهم و اختبرناهم و ألقيناهم فى فتنة و محنة. قال ابن الأنبارى:

صيّرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من بينهم، و هم الذين خلفهم مع هارون وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ أى: دعاهم إلى الضلالة، و كان من قوم يعبدون البقر، فدخل فى دين بنى إسرائيل فى الظاهر و فى قلبه ما فيه من عبادة البقر، و كان من قبيلة تعرف بالسّامرة، و قال لمن معه من بنى إسرائيل: إنما تخلّف موسى عن الميعاد الذى بينكم و بينه لما صار معكم من الحلّى، و هى حرام عليكم، و أمرهم بإلقائها فى النار، فكان من أمر العجل ما كان فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قيل: و كان الرجوع إلى قومه بعد ما استوفى أربعين يوما: ذا القعدة، و عشر ذى الحجة، و الأسف: الشديد الغضب، و قيل: الحزين، و قد

فتح القدير، ج‏3، ص: 449

مضى فى الأعراف بيان هذا مستوفى. قالَ يا قَوْمِ أَ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً الاستفهام للإنكار التوبيخى، و الوعد الحسن: وعدهم بالجنة إذا أقاموا على طاعته، و وعدهم أن يسمعهم كلامه فى التوراة فى لسان موسى ليعملوا بما فيها، فيستحقّوا ثواب عملهم، و قيل: وعدهم النصر و الظفر، و قيل: هو قوله:

وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ الآية أَ فَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ الفاء للعطف على مقدّر، أى: أوعدكم ذلك، فطال عليكم الزمان فنسيتم أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ أى: يلزمكم و ينزل بكم، و الغضب: العقوبة و النقمة، و المعنى: أم أردتم أن تفعلوا فعلا

يكون سبب حلول غضب اللّه عليكم فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي أى: موعدكم إياى، فالمصدر مضاف إلى المفعول؛ لأنهم و عدوه أن يقيموا على طاعة اللّه عزّ و جلّ إلى أن يرجع إليهم من الطور، و قيل: و عدوه أن يأتوا على أثره إلى الميقات، فتوقّفوا فأجابوه، و قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ الذى وعدناك بِمَلْكِنا بفتح الميم، و هى قراءة نافع و أبى جعفر و عاصم و عيسى بن عمر، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو و ابن عامر بكسر الميم، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم لأنها على اللغة العالية الفصيحة، و هو مصدر ملكت الشىء أملكه ملكا، و المصدر مضاف إلى الفاعل و المفعول محذوف، أى: بملكنا أمورنا، أو بملكنا الصواب، بل أخطأنا و لم نملك أنفسنا و كنا مضطرين إلى الخطأ، و قرأ حمزة و الكسائى بِمُلْكِنا بضمّ الميم، و المعنى بسلطاننا، أى: لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك، و قيل: إنّ الفتح و الكسر و الضم فى بملكنا كلها لغات فى مصدر ملكت الشىء وَ لكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ قرأ نافع و ابن كثير و ابن عامر و حفص و أبو جعفر و رويس حُمِّلْنا بضم الحاء و تشديد الميم، و قرأ الباقون بفتح الحاء و الميم مخففة، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم لأنهم حملوا حلية القوم معهم باختيارهم، و ما حملوها كرها، فإنهم كانوا استعاروها منهم حين أرادوا الخروج مع موسى، و أوهموهم أنهم يجتمعون فى عيد لهم أو وليمة؛ و قيل: هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل، و سمّيت أوزارا، أى: آثاما؛ لأنه لا يحلّ لهم أخذها، و لا تحل لهم الغنائم فى شريعتهم. و الأوزار فى الأصل الأثقال كما صرح به أهل اللغة، و المراد بالزينة هنا الحلّى فَقَذَفْناها أى: طرحناها فى النار طلبا للخلاص من إثمها؛ و قيل: المعنى: طرحناها إلى السامرىّ لتبقى لديه حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُ أى: فمثل ذلك القذف ألقاها السامرىّ، قيل: إن السامرىّ قال لهم حين استبطأ القوم رجوع موسى. إنما احتبس عنكم لأجل ما عندكم من الحلّى، فجمعوه و دفعوه إليه، فرمى به فى النار و صاغ لهم منه عجلا، ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول و هو جبريل، فصار عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ أى: يخور كما يخور الحىّ من العجول، و الخوار: صوت البقر، و قيل: خواره كان بالريح؛ لأنه كان عمل فيه خروقا، فإذا دخلت الريح فى جوفه خار و لم يكن فيه حياة، فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى أى قال السامرىّ و من وافقه هذه المقالة فَنَسِيَ أى: فضلّ موسى و لم يعلم مكان إلهه هذا، و ذهب يطلبه فى الطور؛ و قيل:

المعنى: فنسى موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه و إلهكم؛ و قيل: الناسى هو السامرىّ، أى: ترك السامرىّ ما أمر به موسى من الإيمان و ضلّ، كذا قال ابن الأعرابى أَ فَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا أى: أفلا

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٤٥٠

فتح القدير ج‏٣ ٤٩٩

يعتبرون و يتفكّرون فى أن هذا العجل لا يرجع إليهم قولا، أى: لا يردّ عليهم جوابا، و لا يكلّمهم إذا كلّموه، فكيف يتوهّمون أنه إله و هو عاجز عن المكالمة، فأن فى أَلَّا يَرْجِعُ هى المخففة من الثقيلة، و فيها ضمير مقدّر يرجع إلى العجل، و لهذا ارتفع الفعل بعدها، و منه قول الشاعر:

فى فتية من سيوف الهند قد علمواأن هالك كلّ من يحفى و ينتعل

أى: أنه هالك. و قرئ بنصب الفعل على أنها الناصبة، و جملة وَ لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً معطوفة على جملة لا يرجع، أى: أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرّا و لا يجلب إليهم نفعا وَ لَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ اللام هى الموطئة للقسم، و الجملة مؤكدة لما تضمنته الجملة التى قبلها من الإنكار عليهم و التوبيخ لهم، أى: و لقد قال لهم هارون من قبل أن يأتى موسى و يرجع إليهم يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ أى: وقعتم فى الفتنة بسبب العجل، و ابتليتم به، و ضللتم عن طريق الحقّ لأجله، قيل: و معنى القصر المستفاد من «إنما» هو أن العجل صار سببا لفتنتهم لا لرشادهم، و ليس معناه أنهم فتنوا بالعجل لا بغيره. وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي أى: ربكم الرحمن لا العجل، فاتبعونى فى أمرى لكم بعبادة اللّه، و لا تتبعوا السامرىّ فى أمره

لكم بعبادة العجل، و أطيعوا أمرى لا أمره قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى أجابوا هارون عن قوله المتقدّم بهذا الجواب المتضمّن لعصيانه، و عدم قبول ما دعاهم إليه من الخير و حذّرهم عنه من الشرّ؛ أى: لن نزال مقيمين على عبادة هذا العجل؛ حتى يرجع إلينا موسى، فينظر هل يقرّرنا على عبادته أو ينهانا عنها، فعند ذلك اعتزلهم هارون فى اثنى عشر ألفا من المنكرين لما فعله السامرىّ.

و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب فى قوله: يَبَساً قال:

يابسا ليس فيه ماء و لا طين. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس لا تَخافُ دَرَكاً من آل فرعون وَ لا تَخْشى من البحر غرقا.

و أخرجا عنه أيضا فى قوله: فَقَدْ هَوى شقى. و أخرجا عنه أيضا وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ قال:

من الشرك وَ آمَنَ قال: وحّد اللّه وَ عَمِلَ صالِحاً قال: أدّى الفرائض ثُمَّ اهْتَدى قال: لم يشكّك. و أخرج سعيد بن منصور و الفريابى عنه أيضا وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ قال: من تاب من الذنب، و آمن من الشرك، و عمل صالحا فيما بينه و بين ربه ثُمَّ اهْتَدى علم أن لعمله ثوابا يجزى عليه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ثُمَّ اهْتَدى قال: ثم استقام و لزم السنة و الجماعة.

و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة، و البيهقى فى البعث، من طريق عمرو بن ميمون عن رجل من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: تعجل موسى إلى ربه، فقال اللّه: وَ ما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى الآية، قال: فرأى فى ظلّ العرش رجلا فعجب له، فقال: من هذا يا ربّ؟ قال: لا أحدثك من هو، لكن سأخبرك بثلاث فيه:

كان لا يحسد الناس على ما آتاهم اللّه من فضله، و لا يعقّ والديه، و لا يمشى بالتميمة. و أخرج الفريابى و عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن علىّ قال: لما تعجّل موسى إلى ربّه عمد السامرىّ

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۵۱

فجمع ما قدر عليه من حلىّ بنى إسرائيل فضربه عجلا، ثم ألقى القبضة فى جوفه فإذا هو عجل جسد له خوار، فقال لهم السامرىّ: هذا إلهكم و إله موسى، فقال لهم هارون: يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا، فلما أن رجع موسى أخذ برأس أخيه، فقال له هارون ما قال، فقال موسى للسامرىّ: ما خطبك قال:

فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي «۱» فعمد موسى إلى العجل، فوضع موسى عليه المبارد فبرده بها و هو على شط نهر، فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد ذلك العجل إلا اصفرّ وجهه مثل الذهب، فقالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضا، فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه و أباه و ابنه، و لا يبالى بمن قتل، حتى قتل منهم سبعون ألفا، فأوحى اللّه إلى موسى: مرهم فليرفعوا أيديهم، فقد غفرت لمن قتل و تبت على من بقى. و الحكايات لهذه القصة كثيرة جدّا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بِمَلْكِنا قال: بأمرنا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة بِمَلْكِنا قال: بطاقتنا. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى مثله. و أخرج أيضا عن الحسن قال: بسلطاننا.

و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى فَنَسِيَ قال: فنسى موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه.

[سورة طه (۲۰): الآيات ۹۲ الى ۱۰۱]

قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (۹۲) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي (۹۳) قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (۹۴) قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ (۹۵) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ

فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِی نَفْسِی (٩۶)
قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَکَ فِی الْحَیاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَ إِنَّ لَکَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَ انْظُرْ إِلی إِلهِکَ الَّذِی ظَلْتَ عَلَیْهِ عاکِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِی الْیَمِّ نَسْفاً (٩٧) إِنَّما إِلهُکُمُ اللَّهُ الَّذِی لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ کُلَّ شَیْءٍ عِلْماً (٩٨) کَذلِکَ نَقُصُّ عَلَیْکَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَیْناکَ مِنْ لَدُنَّا ذِکْراً (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ یَحْمِلُ یَوْمَ الْقِیامَةِ وِزْراً (١٠٠) خالِدِینَ فِیهِ وَ ساءَ لَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ حِمْلاً (١٠١)

جملة قالَ یا هارُونُ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و المعنی: أن موسی لما وصل إلیهم أخذ بشعور رأس أخیه هارون و بلحیته، و قال: ما مَنَعَکَ من اتباعی و اللحوق بی عند ما وقعوا فی هذه الضلالة و دخلوا فی الفتنة، و قیل معنی ما مَنَعَکَ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ما منعک من اتباعی فی الإنکار علیهم، و قیل:

معناه: هلّا قاتلتهم إذ قد علمت أنّی لو کنت بینهم لقاتلتهم؛ و قیل: معناه: هلّا فارقتهم، و «لا» فی «أن لا تتبعنی» زائدة، و هو فی محل نصب علی أنه مفعول ثان لمنع، أی: أیّ شیء منعک حین رؤیتک لضلالهم من اتباعی. و الاستفهام فی أَ فَعَصَیْتَ أَمْرِی للإنکار و التوبیخ، و الفاء للعطف علی مقدّر کنظائره، و المعنی: کیف خالفت أمری لک بالقیام للّه و منابذة من خالف دینه و أقمت بین هؤلاء الذین اتّخذوا العجل

---

(١). طه: ٩۶.

فتح القدیر، ج٣، ص: ۴۵٢

إلها؟ و قیل: المراد بقوله «أمری»: هو قوله الذی حکی اللّه عنه: وَ قالَ مُوسی لِأَخِیهِ هارُونَ اخْلُفْنِی فِی قَوْمِی وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِیلَ الْمُفْسِدِینَ «١»، فلما أقام معهم و لم یبالغ فی الإنکار علیهم نسبه إلی عصیانه قالَ یَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْیَتِی وَ لا بِرَأْسِی قرئ بالفتح و الکسر للمیم، و قد تقدّم الکلام علی هذا فی سورة الأعراف، و نسبه إلی الأمّ مع کونه أخاه لأبیه و أمه عند الجمهور استعطافا له و ترقیقا لقلبه، و معنی وَ لا بِرَأْسِی و لا بشعر رأسی، أی: لا تفعل هذا بی عقوبة منک لی، فإن لی عذرا هو إِنِّی خَشِیتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَیْنَ بَنِی إِسْرائِیلَ أی: خشیت إن خرجت عنهم و ترکتهم أن یتفرقوا فتقول إنی فرقت جماعتهم، و ذلک لأنّ هارون لو خرج لتبعه جماعة منهم و تخلّف مع السامریّ عند العجل آخرون، و ربما أفضی ذلک إلی القتال بینهم، و معنی وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِی و لم تعمل بوصیتی لک فیهم، إنی خشیت أن تقول فرّقت بینهم و تقول لم تعمل بوصیتی لک فیهم و تحفظها، و مراده بوصیة موسی له هو قوله: اخْلُفْنِی فِی قَوْمِی وَ أَصْلِحْ قال أبو عبید: معنی وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِی و لم تنتظر عهدی و قدومی؛ لأنک أمرتنی أن أکون معهم، فاعتذر هارون إلی موسی هاهنا بهذا، و اعتذر إلیه فی الأعراف بما حکاه اللّه عنه هنالک حیث قال:

إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِی وَ کادُوا یَقْتُلُونَنِی «٢» ثم ترک موسی الکلام مع أخیه و خاطب السامریّ ف قالَ فَما خَطْبُکَ یا سامِرِیُّ أی: ما شأنک؟ و ما الذی حملک علی ما صنعت؟ قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ یَبْصُرُوا بِهِ أی: قال السامریّ مجیبا علی موسی: رأیت ما لم یروا، أو علمت بما لم یعلموا، و فطنت لما لم یفطنوا له، و أراد بذلک أنه رأی جبریل علی فرس الحیاة، فألقی فی ذهنه أن یقبض قبضة من أثر الرسول، و أن ذلک الأثر لا یقع علی جماد إلا صار حیا. و قرأ حمزة و الکسائی و الأعمش و خلف ما لم تبصروا به بالمثناة من فوق علی الخطاب. و قرأ الباقون بالتحتیة، و هی أولی، لأنه یبعد کلّ البعد أن یخاطب موسی بذلک، و یدّعی لنفسه أنه علم ما لم یعلم به موسی، و قرئ بضم الصاد فیهما و بکسرها فی الأوّل و فتحها فی الثانی، و قرأ أبیّ بن کعب و ابن مسعود و الحسن و قتادة فقبصت قبصة بالصاد المهملة فیهما، و قرأ الباقون بالضاد المعجمة فیهما، و الفرق بینهما أن القبض

بالمعجمة: هو الأخذ بجميع الكف، و بالمهملة: بأطراف الأصابع، و القبضة بضم القاف: القدر المقبوض. قال الجوهرى: هى ما قبضت عليه من شىء، قال: و ربما جاء بالفتح، و قد قرئ قَبْضَةً بضم القاف و فتحها، و معنى الفتح المرّة من القبض، ثم أطلقت على المقبوض و هو معنى القبضة بضم القاف، و معنى مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ من المحل الذى وقع عليه حافر فرس جبريل، و معنى فَنَبَذْتُها فطرحتها فى الحلّى المذابة المسبوكة على صورة العجل وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِی نَفْسِی قال الأخفش: أى: زيّنت؛ أى: و مثل ذلك التّسويل سوّلت لى نفسى؛ و قيل: معنى سَوَّلَتْ لِی نَفْسِی حدّثتنى نفسى، فلما سمع موسى منه ذلك قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِی الْحَیاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ أى: فاذهب من بيننا، و اخرج عنّا، فإنّ لك فى الحياة؛ أى: ما دمت حيا، و طول حياتك، أن تقول لا مساس. المساس: مأخوذ من المماسّة؛ أى: لا يمسك أحد و لا تمسّ أحدا، لكن لا بحسب الاختيار منك،

---

(١). الأعراف: ١٤٢.

(٢). الأعراف: ١٥٠.

فتح القدير، ج٣، ص: ٤٥٣

بل بموجب الاضطرار الملجئ إلى ذلك؛ لأنّ اللّه سبحانه أمر موسى أن ينفى السامرىّ عن قومه، و أمر بنى إسرائيل أن لا يخالطوه و لا يقربوه و لا يكلّموه عقوبة له. قيل: إنه لما قال له موسى ذلك هرب، فجعل يهيم فى البريّة مع السّباع و الوحش لا يجد أحدا من الناس يمسّه، حتى صار كمن يقول لا مساس لبعده عن الناس و بعد الناس عنه، كما قال الشاعر:

حمّال رايات بها قناعساحتى تقول الأزد لا مسايسا

قال سيبويه: و هو مبنى على الكسر. قال الزجاج: كسرت السين لأنّ الكسرة من علامة التأنيث.

قال الجوهرى فى الصحاح: و أما قول العرب لا مساس مثل قطام فإنما بنى على الكسر لأنه معدول عن المصدر، و هو المسّ. قال النحاس: و سمعت علىّ بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد المبرد يقول: إذا اعتلّ الشىء من ثلاث جهات وجب أن يبنى، و إذا اعتل من جهتين وجب أن لا ينصرف، لأنه ليس بعد الصرف إلا البناء، فمساس و دراك اعتل من ثلاث جهات: منها أنه معدول، و منها أنه مؤنث، و منها أنه معرفة، فلما وجب البناء فيه و كانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لالتقاء الساكنين. و قد رأيت أبا إسحاق يعنى الزجاج ذهب إلى أن هذا القول خطأ، و ألزم أبا العباس: إذا سميت امرأة بفرعون: أن يبنيه، و هذا لا يقوله أحد. و قد قرأ بفتح الميم أبو حيوة، و الباقون بكسرها. و حاصل ما قيل فى معنى لا مساس ثلاثة أوجه: الأوّل:

أنه حرم عليه مماسة الناس، و كان إذا ماسّه أحد حمّ الماسّ و الممسوس، فلذلك كان يصيح إذا رأى أحدا:

لا مساس. و الثانى: أنّ المراد منع الناس من مخالطته؛ و اعترض بأنّ الرجل إذا صار مهجورا فلا يقول هو لا مساس و إنما يقال له، و أجيب بأن المراد الحكاية، أى: أجعلك يا سامرىّ بحيث إذا أخبرت عن حالك قلت لا مساس. و القول الثالث: أن المراد انقطاع نسله، و أن يخبر بأنه لا يتمكّن من مماسّة المرأة، قاله أبو مسلم و هو ضعيف جدا. ثم ذكر حاله فى الآخرة فقال: وَ إِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ أى: لن يخلفك اللّه ذلك الموعد، و هو يوم القيامة، و الموعد مصدر، أى: إنّ لك وعدا لعذابك، و هو كائن لا محالة. قال الزجاج: أى: يكافئك اللّه على ما فعلت فى القيامة، و اللّه لا يخلف الميعاد. و قرأ ابن كثير و أبو عمرو و يعقوب و ابن محيصن و اليزيدى و الحسن «لن تخلفه» بكسر اللام، و له على هذا القراءة معنيان: أحدهما: ستأتيه و لن تجده مخلفا، كما تقول: أحمدته، أى: وجدته محمودا. و الثانى: على التهديد، أى: لا بدّ لك من أن تصير إليه. و قرأ ابن مسعود لن نخلفه بالنون؛ أى: لن يخلفه اللّه. و قرأ الباقون بفتح اللام، و بالفوقية مبنيا للمفعول، معناه ما قدّمناه وَ انْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِی ظَلْتَ عَلَیْهِ عاكِفاً ظلت أصله ظللت، فحذفت اللام الأولى تخفيفا، و العرب تفعل ذلك كثيرا. و قرأ الأعمش باللامين على الأصل. و

فی قراءة ابن مسعود ظَلْتَ بکسر الظاء. و المعنی: انظر إلی إلهك الذی دمت و أقمت علی عبادته، و العاكف: الملازم لَنُحَرِّقَنَّهُ قرأ الجمهور بضم النون و تشدید الراء من حرّقه یحرّقه. و قرأ الحسن بضم النون و سکون الحاء و تخفیف الراء من أحرقه یحرقه. و قرأ علیّ و ابن عباس و أبو جعفر و ابن محیصن و أشهب و العقیلی لَنُحَرِّقَنَّهُ بفتح النون و ضم الراء مخففة، من حرقت الشیء أحرقه حرقا إذا بردته و حككت بعضه ببعض، أی: لنبردنّه

فتح القدیر، ج۳، ص: ۴۵۴

بالمبارد، و یقال للمبرد المحرق. و القراءة الأولی أولی، و معناها الإحراق بالنار، و كذا معنی القراءة الثانیة، و قد جمع بین هذه القراءات الثلاث بأنه أحرق، ثم برد بالمبرد، و فی قراءة ابن مسعود «لنذبحنه ثم لنحرقنه»، و اللام هی الموطئة للقسم ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِی الْیَمِّ نَسْفاً النسف: نفض الشیء لیذهب به الریح. قرأ أبو رجاء لَنَنْسِفَنَّهُ بضم السین، و قرأ الباقون بکسرها، و هما لغتان. و المنسف: ما ینسف به الطعام، و هو شیء متصوب الصدر أعلاه مرتفع، و النّسافة: ما یسقط منه إِنَّما إِلهُکُمُ اللَّهُ الَّذِی لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لا هذا العجل الذی فتنکم به السامریّ وَسِعَ کُلَّ شَیْءٍ عِلْماً قرأ الجمهور «وسع» بکسر السین مخفّفة.

و هو متعدّ إلی مفعول واحد، و هو كل شیء، و انتصاب علما علی التمییز المحوّل عن الفاعل، أی: وسع علمه كل شیء. و قرأ مجاهد و قتادة «وسّع» بتشدید السین و فتحها فیتعدی إلی مفعولین، و یکون انتصاب علما علی أنه المفعول الأوّل و إن كان متأخرا، لأنه فی الأصل فاعل، و التقدیر: وسع علمه كل شیء، و قد مرّ نحو هذا فی الأعراف کَذلِکَ نَقُصُّ عَلَیْکَ الكاف فی محل نصب علی أنها نعت لمصدر محذوف، أی:

کما قصصنا علیك خبر موسی كذلك نقصّ علیك مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ أی: من أخبار الحوادث الماضیة فی الأمم الخالیة لتكون تسلیة لك و دلالة علی صدقك، و من للتبعیض، أی: بعض أخبار ذلك وَ قَدْ آتَیْناکَ مِنْ لَدُنَّا ذِکْراً المراد بالذكر القرآن، و سمّی ذكرا لما فیه من الموجبات للتذكر و الاعتبار، و قیل: المراد بالذكر الشرف؛ كقوله: وَ إِنَّهُ لَذِکْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ ثم توعّد سبحانه المعرضین علی هذا الذكر فقال:

مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ یَحْمِلُ یَوْمَ الْقِیامَةِ وِزْراً أی: أعرض عنه فلم یؤمن به و لا عمل بما فیه، و قیل:

أعرض عن اللّه سبحانه، فإن المعرض عنه یحمل یوم القیامة وزرا؛ أی: إثما عظیما و عقوبة ثقیلة بسبب إعراضه خالِدِینَ فِیهِ فی الوزر، و المعنی: أنهم یقیمون فی جزائه، و انتصاب خالدین علی الحال وَ ساءَ لَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ حِمْلًا أی: بئس الحمل یوم القیامة، و المخصوص بالذمّ محذوف؛ أی: ساء لهم حملا وزرهم، و اللام للبیان كما فی هَیْتَ لَکَ

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن جریج فی قوله: أَ فَعَصَیْتَ أَمْرِی قال: أمره موسی أن یصلح و لا یتبع سبیل المفسدین. فكان من إصلاحه أن ینكر العجل. و أخرج عنه أیضا فی قوله: وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِی قال:

لم تنتظر قولی ما أنا صانع، و قال ابن عباس: لم ترقب و لم تحفظ قولی. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حمید و ابن أبی حاتم عن قتادة فی قوله: فَإِنَّ لَکَ فِی الْحَیاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ قال: عقوبة له وَ إِنَّ لَکَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ قال: لن تغیب عنه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ انْظُرْ إِلی إِلهِکَ الَّذِی ظَلْتَ عَلَیْهِ عاکِفاً قال: أقمت لَنُحَرِّقَنَّهُ قال بالنار ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِی الْیَمِ قال:

لنذرینه فی البحر. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس أنه كان یقرأ لَنُحَرِّقَنَّهُ خفیفة و یقول: إن الذهب و الفضة لا تحرق بالنار، بل تسحل بالمبرد، ثم تلقی علی النار فتصیر رمادا. و أخرج ابن أبی حاتم عنه قال:

الْیَم البحر. و أخرج أیضا عن علیّ قال: الْیَم النهر. و أخرج أیضا عن قتادة فی قوله:

وَسِعَ کُلَّ شَیْءٍ عِلْماً قال: ملأ. و أخرج أیضا عن ابن زید فی قوله: مِنْ لَدُنَّا ذِکْراً قال:

فتح القدير، ج‌٣، ص: ۴۵۵

القرآن. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد وِزْراً قال: إثما. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ ساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا يقول: بئس ما حملوا.

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٠٢ الی ١١٢]

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (١٠٢) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً (١٠۴) وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً (١٠۵) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً (١٠۶)

لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (١١٠) وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (١١١)

وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَ لا هَضْماً (١١٢)

الظرف هو يَوْمَ يُنْفَخُ متعلّق بمقدّر هو اذكر، و قيل: هو بدل من يوم القيامة، و الأوّل أولی.

قرأ الجمهور يُنْفَخُ بضم الياء التحتية مبنيا للمفعول، و قرأ أبو عمرو و ابن أبی إسحاق بالنون مبنيا للفاعل، و استدلّ أبو عمرو علی قراءته هذه بقوله: وَ نَحْشُرُ فإنه بالنون. و قرأ ابن هرمز يُنْفَخُ بالتحتية مبنيا للفاعل؛ علی أن الفاعل هو اللّه سبحانه أو إسرافيل، و قرأ أبو عياض فِي الصُّورِ بفتح الواو، جمع صورة، و قرأ الباقون بسكون الواو، و قرأ طلحة بن مصرّف و الحسن يحشر بالياء التحتية مبنيا للمفعول، و رفع «المجرمون» و هو خلاف رسم المصحف. و قرأ الباقون بالنون، و قد سبق تفسير هذا فی الأنعام. و المراد بالمجرمين المشركون و العصاة المأخوذون بذنوبهم التی لم يغفرها اللّه لهم، و المراد ب يَوْمَئِذٍ يوم النفخ فی الصور، و انتصاب زرقا علی الحال من المجرمين، أی: زرق العيون، و الزرقة: الخضرة فی العين كعين السنور، و العرب تتشاءم بزرقة العين، و قال الفرّاء زُرْقاً: أی عميا. و قال الأزهری: عطاشا، و هو قول الزجاج؛ لأن سواد العين يتغيّر بالعطش إلی الزّرقة. و قيل: إنه كنی بقوله زرقا عن الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة، و قيل: هو كناية عن شخوص البصر من شدّة الخوف، و منه قول الشاعر:

لقد زرقت عيناك يا ابن معكبر كما كلّ ضبّیّ من اللّؤم أزرق

و القول الأوّل أولی، و الجمع بين هذه الآية و بين قوله: وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلی وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا «١» ما قيل من أن ليوم القيامة حالات و مواطن تختلف فيها صفاتهم، و يتنوع عندها عذابهم، و جملة يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ فی محل نصب علی الحال، أو مستأنفة لبيان ما هم فيه فی ذلك اليوم، و الخفت فی اللغة: السكون، ثم قيل لمن خفض صوته: خفته. و المعنی يتساررون، أی: يقول بعضهم لبعض سرّا إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً أی: ما لبثتم فی الدنيا إلا عشر ليال، و قيل: فی القبور، و قيل: بين النفختين.

و المعنی: أنهم يستقصرون مدة مقامهم فی الدنيا، أو فی القبور، أو بين النفختين لشدّة ما يرون من أهوال

---

(١). الإسراء: ٩٧.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ۴۵۶

القيامة. و قيل: المراد بالعشر عشر ساعات. ثم لما قالوا هذا القول قال اللّه سبحانه: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً أی: أعدلهم قولا و أكملهم رأيا، و أعلمهم عند نفسه إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً أی: ما لبثتم إلا يوما واحدا، و نسبة هذا القول إلی

أمثلهم؛ لكونه أدلّ على شدّة الهول، لا لكونه أقرب إلى الصدق وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ أى: عن حال الجبال يوم القيامة، و قد كانوا سألوا النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن ذلك، فأمره اللّه سبحانه أن يجيب عنهم، فقال: فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّى نَسْفاً قال ابن الأعرابى و غيره:

يقلعها قلعا من أصولها، ثم يصيرها رملا يسيل سيلا، ثم يسيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا و هكذا، ثم كالهباء المنثور. و الفاء فى قوله: فَقُلْ لجواب شرط مقدّر، و التقدير: إن سألوك فقل، أو للمسارعة إلى إلزام السائلين، و الضمير فى قوله: فَيَذَرُها راجع إلى الجبال باعتبار مواضعها، أى:

فيذر مواضعها بعد نسف ما كان عليها من الجبال قاعاً صَفْصَفاً قال ابن الأعرابى: القاع الصفصف:

الأرض الملساء بلا نبات و لا بناء، و قال الفراء: القاع: مستنقع الماء، و الصفصف: القرعاء الملساء التى لا نبات فيها. و قال الجوهرى: القاع: المستوى من الأرض، و الجمع: أقوع و أقواع وقيعان. و الظاهر من لغة العرب أن القاع: الموضع المنكشف، و الصفصف: المستوى الأملس، و أنشد سيبويه:

و كم دون بيتك من صفصفو دكداك رمل و أعقادها «۱»

و انتصاب قاعا على أنه مفعول ثان ليذر على تضمينه معنى التصيير، أو على الحال، و الصفصف صفة له، و محل لا تَرى فِيها عِوَجاً النصب على أنه صفة ثانية لقاعا، و الضمير راجع إلى الجبال بذلك الاعتبار، و العوج بكسر العين التعوّج، قاله ابن الأعرابى. و الأمت: التلال الصغار، و الأمت فى اللغة: المكان المرتفع، و قيل: العوج: الميل، و الأمت: الأثر، مثل الشراك، و قيل: العوج: الوادى، و الأمت: الرابية، و قيل:

هما الارتفاع، و قيل: العوج: الصدوع، و الأمت: الأكمة، و قيل: الأمت: الشقوق فى الأرض، و قيل:

الأمت: أن يغلظ فى مكان و يدق فى مكان، و وصف مواضع الجبال بالعوج بكسر العين هاهنا يدفع ما يقال:

إن العوج بكسر العين فى المعانى و بفتحها فى الأعيان، و قد تكلّف لذلك صاحب الكشاف فى هذا الموضع بما عنه غنى، و فى غيره سعة يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ أى: يوم نسف الجبال يتبع الناس داعى اللّه إلى المحشر. و قال الفرّاء: يعنى صوت الحشر، و قيل: الداعى هو إسرافيل إذا نفخ فى الصور لا عوج له، أى: لا معدل لهم عن دعائه فلا يقدرون على أن يزيغوا عنه، أو ينحرفوا منه، بل يسرعون إليه، كذا قال أكثر المفسرين، و قيل: لا عوج لدعائه وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ أى: خضعت لهيبته، و قيل:

ذلت، و قيل: سكتت، و منه قول الشاعر:

لما أتى خبر الزّبير تواضعتسور المدينة و الجبال الخشّع

---

(۱). البيت للأعشى.

«الدكداك»: الرمل المستوى. «الأعقاد»: المنعقد من الرمل المتراكب.

فتح القدير، ج‌۳، ص: ۴۵۷

فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً الهمس: الصوت الخفى. قال أكثر المفسرين: هو صوت نقل الأقدام إلى المحشر، و منه قول الشاعر:

و هنّ يمشين بنا هميسا يعنى صوت أخفاف الإبل.

و قال رؤبة يصف نفسه:

ليث يدقّ الأسد الهموساو الأقهبين «۱» الفيل و الجاموسا

يقال للأسد: الهموس، لأنه يهمس فى الظلمة، أى: يطأ وطأ خفيا. و الظاهر أن المراد هنا كل صوت خفىّ سواء كان بالقدم، أو من الفم، أو غير ذلك، و يؤيده قراءة أبىّ بن كعب «فلا ينطقون إلا همسا» يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ أى: يوم يقع ما ذكر لا تنفع الشفاعة من شافع كائنا من كان إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ أى: إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع له وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا أى: رضى قوله فى الشفاعة، أو رضى لأجله قول الشافع. و المعنى: إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له، و كان له قول يرضى، و مثل هذه الآية قوله: وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى «٢»، و قوله: لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً «٣»، و قوله: فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ «٤». يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ أى: ما بين أيديهم من أمر الساعة، و ما خلفهم من أمر الدنيا، و المراد هنا جميع الخلق، و قيل:

المراد بهم الذين يتبعون الداعى، و قال ابن جرير: الضمير يرجع إلى الملائكة، أعلم اللّه من يعبدها أنها لا تعلم ما بين أيديها و ما خلفها وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً أى: باللّه سبحانه، لا تحيط علومهم بذاته، و لا بصفاته، و لا بمعلوماته، و قيل: الضمير راجع إلى ما فى الموضعين؛ فإنهم لا يعلمون جميع ذلك وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ أى: ذلت و خضعت، قاله ابن الأعرابى. قال الزجّاج: معنى عنت فى اللغة خضعت، يقال:

عنا يعنو عنوا إذا خضع، و منه قيل للأسير: عان، و منه قول أمية بن أبى الصّلت:

مليك على عرش السّماء مهيمن لعزّته تعنو الوجوه و تسجد

و قيل هو من العناء، بمعنى التعب. وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً أى: خسر من حمل شيئا من الظلم، و قيل: هو الشرك وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ أى: الأعمال الصالحة وَ هُوَ مُؤْمِنٌ باللّه؛ لأن العمل لا يقبل من غير إيمان، بل هو شرط فى القبول فَلا يَخافُ ظُلْماً يصاب به من نقص ثواب فى الآخرة وَ لا هَضْماً الهضم: النقص و الكسر، يقال هضمت لك من حقّى، أى: حططته و تركته، و هذا يهضم الطعام، أى: ينقص ثقله، و امرأة هضيم الكشح، أى: ضامرة البطن، و قرأ ابن كثير و مجاهد «لا يخف» بالجزم جوابا لقوله: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ و قرأ الباقون يَخافُ على الخبر.

---

(١). سمّى الفيل و الجاموس أقهبين للونهما؛ و هو الغبرة.

(٢). الأنبياء: ٢٨.

(٣). مريم: ٨٧.

(٤). المدثر: ٤٨.

فتح القدير، ج٣، ص: ٤٥٨

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن رجلا أتاه، فقال: رأيت قوله: وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً و أخرى عُمْياً «١» قال: إن يوم القيامة فيه حالات يكونون فى حال زرقا، و فى حال عميا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ قال: يتساررون. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً قال: أوفاهم عقلا، و فى لفظ قال: أعلمهم فى نفسه. و أخرج ابن المنذر و ابن جريج قال: قالت قريش: كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ الآية. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً قال: لا نبات فيه لا تَرى فِيها عِوَجاً قال: واديا وَ لا أَمْتاً قال: رابية. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة أنه سئل عن قوله: قاعاً صَفْصَفاً لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً قال: كان ابن عباس يقول: هى الأرض الملساء التى ليس فيها رابية مرتفعة و لا انخفاض. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس عِوَجاً قال: ميلا؛ وَ لا أَمْتاً قال: الأمت:

الأثر، مثل الشراك. و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال: يحشر الناس يوم القيامة فى ظلمة تطوى السماء، و تتناثر النجوم، و تذهب الشمس و القمر، و ينادى مناد فيتبع الناس الصوت يؤمّونه، فذلك قول اللّه: يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح فى الآية: قال: لا عوج عنه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ قال: سكتت فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً قال: الصوت الخفىّ. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: إِلَّا هَمْساً قال: صوت وطء الأقدام. و أخرج عبد بن حميد عن الضحّاك و عكرمة و سعيد بن جبير و الحسن مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد قال: الصوت الخفىّ. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير قال: سرّ الحديث و صوت الأقدام. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ قال: ذلّت. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: خشعت. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: خضعت. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ الركوع و السجود. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً قال: شركا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً قال: شركا فَلا يَخافُ ظُلْماً وَ لا هَضْماً قال: ظُلْماً أن يزاد فى سيئاته وَ لا هَضْماً قال: ينقص من حسناته. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: لا يخاف أن يظلم فى سيئاته، و لا يهضم فى حسناته. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه وَ لا هَضْماً قال:

غصبا.

---

(١). هى فى قوله تعالى: وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً [الإسراء: ٩٧].

فتح القدير، ج٣، ص: ۴۵۹

[سورة طه (٢٠): الآيات ١١٣ الى ١٢٢]

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (١١٣) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (١١٤) وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥) وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى (١١٦) فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى (١١٧)

إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى (١١٨) وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى (١٢٠) فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى (١٢١) ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى (١٢٢)

قوله: وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ معطوف على قوله: كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ أى: مثل ذلك الإنزال أنزلناه، أى: القرآن حال كونه قُرْآناً عَرَبِيًّا أى: بلغة العرب ليفهموه وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ بينا فيه ضروبا من الوعيد تخويفا و تهديدا، أو كررنا فيه بعضا منه لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أى: كى يخافوا اللّه فيتجنبوا معاصيه، و يحذروا عقابه أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً أى: اعتبارا و اتّعاظا، و قيل: ورعا، و قيل:

شرفا، و قيل: طاعة و عبادة؛ لأن الذكر يطلق عليها. و قرأ الحسن «أو نحدث» بالنون فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لما بين للعباد عظيم نعمته عليهم بإنزال القرآن نزّه نفسه عن مماثلة مخلوقاته فى شيء من الأشياء، أى:

جلّ اللّه عن إلحاد الملحدين و عمّا يقول المشركون فى صفاته، فإنه الملك الذى بيده الثواب و العقاب، و إنه الْحَقُّ أى ذو

الحق. وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ أى: يتمّ إليك وحيه.

قال المفسرون: كان النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحى؛ حرصا منه على ما كان ينزل عليه منه، فنهاه اللّه عن ذلك، و مثله قوله: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ «١» على ما يأتى إن شاء اللّه، و قيل: المعنى: و لا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله، و قرأ ابن مسعود و يعقوب و الحسن و الأعمش «من قبل أن نقضى» بالنون و نصب وحيه وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً أى: سل ربّك زيادة العلم بكتابه وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ اللام هى الموطئة للقسم، و الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من تصريف الوعيد، أى: لقد أمرناه و وصّيناه، و المعهود محذوف، و هو ما سيأتى من نهيه عن الأكل من الشجرة، و معنى مِنْ قَبْلِ أى: من قبل هذا الزمان فَنَسِيَ قرأ الأعمش بإسكان الياء، و المراد بالنسيان هنا: ترك العمل بما وقع به العهد إليه فيه، و به قال أكثر المفسرين، و قيل: النسيان على حقيقته، و أنه نسى ما عهد اللّه به إليه و ينتهى عنه، و كان آدم مأخوذا بالنسيان فى ذلك الوقت، و إن كان النسيان مرفوعا عن هذه الأمة، و المراد من الآية تسلية النبى صلّى اللّه عليه و سلّم على القول الأوّل. أى: إن طاعة بنى آدم للشيطان أمر قديم، و إن هؤلاء المعاصرين له إن نقضوا العهد فقد نقض أبوهم آدم، كذا قال ابن جرير و القشيرى، و اعترضه ابن عطية قائلا بأن كون

---

(١). القيامة: ١٦.

آدم مماثلا للكفار الجاحدين باللّه ليس بشى‏ء، و قرئ فنسى بضم النون و تشديد السين مكسورة مبنيا للمفعول، أى: فنسّاه إبليس وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً العزم فى اللغة: توطين النفس على الفعل و التصميم عليه، و المضىّ على المعتقد فى أىّ شى‏ء كان، و قد كان آدم عليه السلام قد وطّن نفسه على أن لا يأكل من الشجرة و صمّم على ذلك، فلما وسوس إليه إبليس لانت عريكته، و فتر عزمه، و أدركه ضعف البشر؛ و قيل: العزم الصبر، أى: لم نجد له صبرا عن أكل الشجرة. قال النحاس: و هو كذلك فى اللغة، يقال: لفلان عزم، أى: صبر و ثبات على التحفظ عن المعاصى حتى يسلم منها، و منه: كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ و قيل: المعنى: و لم نجد له عزما على الذنب، و به قال ابن كيسان، و قيل: و لم نجد له رأيا معزوما عليه، و به قال ابن قتيبة. ثم شرع سبحانه فى كيفية ظهور نسيانه و فقدان عزمه، و العامل فى إذ مقدّر، أى: وَ اذكر إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ و تعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث للمبالغة؛ لأنه إذا وقع الأمر بذكر الوقت كان ذكر ما فيه من الحوادث لازما بطريق الأولى، و قد تقدّم تفسير هذه القصّة فى البقرة مستوفى، و معنى فَتَشْقى فتتعب فى تحصيل ما لا بدّ منه فى المعاش كالحرث و الزرع، و لم يقل فتشقيا؛ لأن الكلام من أوّل القصة مع آدم وحده، ثم علّل ما يوجبه ذلك النهى بما فيه الراحة الكاملة عن التعب و الاهتمام فقال: إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى أى: فى الجنة. و المعنى: إن لك فيها تمتّعا بأنواع المعايش و تنعّما بأصناف النعم من المآكل الشهية و الملابس البهية، فإنه لما نفى عنه الجوع و العرى أفاد ثبوت الشبع و الاكتساء له، و هكذا قوله: وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى فإن نفى الظمأ يستلزم حصول الرّىّ و وجود المسكن؛ الذى يدفع عنه مشقة الضحو. يقال ضحا الرجل يضحو ضحوا؛ إذا برز للشمس فأصابه حرّها، فذكر سبحانه هاهنا أنه قد كفاه الاشتغال بأمر المعاش و تعب الكدّ فى تحصيله، و لا ريب أن أصول المتاعب فى الدنيا هى تحصيل الشبع و الرىّ و الكسوة و الكنّ، و ما عدا هذه ففضلات يمكن البقاء بدونها، و هو إعلام من اللّه سبحانه لآدم أنه إن أطاعه فله فى الجنة هذا كله، و إن ضيّع وصيته و لم يحفظ عهده أخرجه من الجنة إلى الدنيا، فيحلّ به التعب و النصب بما يدفع الجوع و العرى و الظمأ و الضحو، فالمراد بالشقاء شقاء الدنيا كما قاله كثير من المفسرين لا شقاء الأخرى. قال الفراء: هو أن يأكل من كدّ يديه، و قرأ أبو عمرو و الكوفيون إلا عاصما

«و أنک لا تظمأ» بفتح أن، و قرأ الباقون بكسرها على العطف على «إنّ لک».

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قد تقدّم تفسيره فى الأعراف فى قوله: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ أى: أنهى إليه وسوسته، و جملة قالَ يا آدَمُ إلى آخره إما بدل من وسوس أو مستأنفة بتقدير سؤال، كأنه قيل:

فماذا قال له فى وسوسته؟ و شَجَرَةِ الْخُلْدِ هى الشجرة التى من أكل منها لم يمت أصلا وَ مُلْكٍ لا يَبْلى أى: لا يزول و لا ينقضى فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما قد تقدّم تفسير هذا و ما بعده فى الأعراف. قال الفراء: و معنى «طفقا» فى العربية: أقبلا، و قيل: جعلا- يلصقان عليهما من ورق التين وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى أى: عصاه بالأكل من الشجرة، فغوى، فضلّ عن الصواب أو عن مطلوبه، و هو الخلود بأكل تلك الشجرة، و قيل: فسد عليه عيشته بنزوله إلى الدنيا، و قيل: جهل موضع رشده،

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۶۱

و قيل: بشم من كثرة الأكل. قال ابن قتيبة: أكل آدم من الشجرة التى نهى عنها باستزلال إبليس و خدائعه إياه، و القسم له باللّه إنه لمن الناصحين، حتى دلّاه بغرور، و لم يكن ذنبه عن اعتقاد متقدّم و نية صحيحة، فنحن نقول: عصى آدم ربه فغوى، انتهى. قال القاضى أبو بكر بن العربى: لا يجوز لأحد أن يخبر اليوم بذلک عن آدم. قلت: لا مانع من هذا بعد أن أخبرنا اللّه فى كتابه بأنه عصاه، و كما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، و ممّا قلته فى هذا المعنى:

عصى أبو العالم و هو الذى من طينة صوّره اللّه

و أسجد الأملاک من أجله و صيّر الجنة مأواه

أغواه إبليس فمن ذا أنا المسكين إن إبليس أغواه

ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ أى: اصطفاه و قرّبه. قال ابن فورک: كانت المعصية من آدم قبل النبوّة بدليل ما فى هذه الآية، فإنه ذكر الاجتباء و الهداية بعد ذكر المعصية، و إذا كانت المعصية قبل النبوّة فجائز عليهم الذنوب وجها واحدا فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى أى: تاب عليه من معصيته، و هداه إلى الثبات على التوبة. قيل: و كانت توبة اللّه عليه قبل أن يتوب هو و حواء بقولهما: رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ «۱» و قد مرّ وجه تخصيص آدم بالذكر دون حواء.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ أى: القرآن ذِكْراً قال: جدّا و ورعا. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ يقول: لا تعجل حتى نبينه لک. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن الحسن قال: لطم رجل امرأته، فجاءت إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم تطلب قصاصا، فجعل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بينهما القصاص، فأنزل اللّه وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ الآية، فوقف النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حتى نزلت: الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ «۲» الآية. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ لا تَعْجَلْ الآية قال: لا تتله على أحد حتى نتمه لک. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن مندة فى التوحيد، و الطبرانى فى الصغير و صحّحه، عن ابن عباس قال: إنما سمّى الإنسان لأنه عهد إليه فنسى.

و أخرج عبد الغنى بن سعيد عن ابن عباس وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ أن لا تقرب الشجرة فَنَسِيَ

فترک عهدى وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً قال: حفظا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فَنَسِيَ فترک وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً يقول: لم نجعل له عزما. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا: أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى قال: لا يصيبک فيها عطش و لا حرّ. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها، و هى شجرة الخلد». و فى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «حاجّ

(۱). الأعراف: ۲۳.

(۲). النساء: ۳۴.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۶۲

آدم موسى قال له: أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك و أشقيتهم بمعصيتك، قال آدم: يا موسى أنت الذى اصطفاك اللّه برسالته و بكلامه، أ تلومنى على أمر كتبه اللّه علىّ قبل أن يخلقنى، أو قدّره علىّ قبل أن يخلقنى؟ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فحجّ آدم موسى».

[سورة طه (۲۰): الآيات ۱۲۳ الى ۱۲۷]

قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى (۱۲۳) وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى (۱۲۴) قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً (۱۲۵) قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (۱۲۶) وَ كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقى (۱۲۷)

قوله: قالَ اهْبِطا قد مرّ تفسيره فى البقرة، أى: انزلا من الجنة إلى الأرض، خصّهما اللّه سبحانه بالهبوط لأنهما أصل البشر، ثم عمّم الخطاب لهما و لذرّيتهما فقال: بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ و الجملة فى محل نصب على الحال، و يجوز أن يقال خاطبهما فى هذا و ما بعده خطاب الجمع؛ لأنهما منشأ الأولاد. و معنى بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ تعاديهم فى أمر المعاش و نحوه، فيحدث بسبب ذلك القتال و الخصام فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً بإرسال الرسل و إنزال الكتب فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى أى: لا يضل فى الدنيا، و لا يشقى فى الآخرة وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي أى: عن دينى، و تلاوة كتابى، و العمل بما فيه، و لم يتبع هداى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً أى: فإن له فى هذه الدنيا معيشة ضنكا، أى: عيشا ضيقا.

يقال: منزل ضنك و عيش ضنك، مصدر يستوى فيه الواحد و ما فوقه و المذكر و المؤنث، قال عنترة:

إنّ المنيّة لو تمثّل مثّلت مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل

و قرئ ضنكى بضم الضاد على فعلى. و معنى الآية: إن اللّه عزّ و جلّ جعل لمن اتبع هداه و تمسّك بدينه أن يعيش فى الدنيا عيشا هنيا غير مهموم و لا مغموم و لا متعب نفسه، كما قال سبحانه: فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً «۱»، و جعل لمن لم يتبع هداه و أعرض عن دينه أن يعيش عيشا ضيقا و فى تعب و نصب، و مع ما يصيبه فى هذه الدنيا من المتاعب، فهو فى الأخرى أشدّ تعبا و أعظم ضيقا و أكثر نصبا، و ذلك معنى وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى أى: مسلوب البصر، و قيل: المراد العمى عن الحجة، و قيل: أعمى عن جهات الخير لا يهتدى إلى شيء منها، و قد قيل: إن المراد بالمعيشة الضنكى عذاب القبر، و سيأتى ما يرجّح هذا و يقوّيه قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً فى الدنيا قالَ كَذلِكَ أى: مثل ذلك فعلت أنت، ثم فسّره بقوله: أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها أى: أعرضت عنها، و تركتها، و لم تنظر فيها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى أى: مثل ذلك النسيان الذى كنت فعلته فى الدنيا تنسى، أى: تترك فى العمى و العذاب فى النار، قال الفراء: يقال: إنه يخرج بصيرا من قبره فيعمى فى حشره وَ كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ أى: مثل

(۱). النحل: ۹۷.

فتح القدير، ج‏3، ص: 463

ذلك الجزاء نجزيه، و الإسراف: الانهماك في الشهوات، و قيل: الشرك وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ بل كذّب بها وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ أي: أفظع من المعيشة الضنكى وَ أَبْقى‏ أي: أدوم و أثبت؛ لأنه لا ينقطع.

و قد أخرج ابن أبي شيبة و الطبراني، و أبو نعيم في الحلية، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من اتّبع كتاب اللّه هداه اللّه من الضّلالة في الدنيا، و وقاه سوء الحساب يوم القيامة» و ذلك أن اللّه يقول: فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى‏ و أخرج الفريابي و سعيد بن منصور و ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و محمد بن نصر و ابن المنذر و ابن أبي حاتم؛ و الحاكم و صحّحه، و البيهقي في الشعب، من طرق عن ابن عباس قال: أجار اللّه تابع القرآن من أن يضلّ في الدنيا أو يشقى في الآخرة، ثم قرأ: فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى‏ قال: لا يضلّ في الدنيا، و لا يشقى في الآخرة. و أخرج عبد الرزاق و سعيد ابن منصور، و مسدّد في مسنده، و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقي عن أبي سعيد الخدري مرفوعا في قوله: مَعِيشَةً ضَنْكاً قال: «عذاب القبر».

و لفظ عبد الرزاق قال: «يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه». و لفظ ابن أبي حاتم قال: «ضمة القبر».

و في إسناده ابن لهيعة، و فيه مقال معروف. و قد روي موقوفا. قال ابن كثير: الموقوف أصح. و أخرج البزار و ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه و سلّم في قوله: فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً قال: «المعيشة الضّنكى:

أن يسلّط عليه تسعة و تسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة». و أخرج ابن أبي الدنيا و الحكيم الترمذي و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن حبان و ابن مردويه و البيهقي عن أبي هريرة مرفوعا نحوه بأطول منه. قال ابن كثير: رفعه منكر جدا. و أخرج ابن أبي شيبة و البزار و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم و ابن مردويه و البيهقي عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه و سلّم في قوله: فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً قال: «عذاب القبر». قال ابن كثير بعد إخراجه: إسناد جيد. و أخرج هناد و عبد بن حميد و ابن المنذر و الطبراني و البيهقي عن ابن مسعود في قوله: فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً قال: عذاب القبر، و مجموع ما ذكرنا هنا يرجّح تفسير المعيشة الضنكى بعذاب القبر. و أخرج ابن أبي حاتم و الطبراني و البيهقي في كتاب «عذاب القبر» عن ابن مسعود أنه فسر المعيشة الضنكى بالشقاء. و أخرج هناد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله:

وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏ قال: عمي عليه كل شي‏ء إلا جهنم، و في لفظ: لا يبصر إلا النار. و أخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في قوله: وَ كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ قال: من أشرك باللّه.

[سورة طه (20): الآيات 128 الى 135]

أَ فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى‏ (128) وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى (129) فَاصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِها وَ مِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى‏ (130) وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى‏ ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏ (131) وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى‏ (132)

وَ قالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى‏ (133) وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى‏ (134) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَ مَنِ اهْتَدى‏ (135)

فتح القدير، ج‏3، ص: 464

قوله: أَ فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و الفاء للعطف على مقدّر، كما مرّ غير مرّة، و الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها، و فاعل يهد هو الجملة المذكورة بعدها، و المفعول محذوف، و أنكر البصريون مثل هذا لأن الجمل لا تقع فاعلا، و جوّزه غيرهم. قال القفال: جعل كثرة ما أهلك من القرون مبينا لهم.

قال النحاس: و هذا خطأ لأن كم استفهام، فلا يعمل فيها ما قبلها. و قال الزجاج: المعنى أو لم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكناه، و حقيقته تدلّ على الهدى، فالفاعل هو الهدى، و قال: كَمْ فى موضع نصب بأهلكنا، و قيل: إن فاعل يهد ضمير للّه أو للرسول، و الجملة بعده تفسّره، و معنى الآية على ما هو الظاهر:

أ فلم يتبين لأهل مكة خبر من أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ حال كون القرون يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ و يتقلّبون فى ديارهم، أو حال كون هؤلاء يمشون فى مساكن القرون الذى أهلكناهم عند خروجهم للتجارة و طلب المعيشة؛ فيرون بلاد الأمم الماضية؛ و القرون الخالية خاوية خاربة من أصحاب الحجر و ثمود و قرى قوم لوط؛ فإنّ ذلك ممّا يوجب اعتبارهم لئلا يحلّ بهم مثل ما حلّ بأولئك. و قرأ ابن عباس و السّلمى نهد بالنون، و المعنى على هذه القراءة واضح، و جملة إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى تعليل للإنكار و تقرير للهداية، و الإشارة بقوله ذلك إلى مضمون كم أهلكنا إلى آخره. و النهى: جمع نهية، و هى العقل: أى لذوى العقول التى تنهى أربابها عن القبيح وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ أى: و لو لا الكلمة السابقة، و هى وعد اللّه سبحانه بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الدار الآخرة لَكانَ عقاب ذنوبهم لِزاماً أى: لازما لهم، لا ينفكّ عنهم بحال و لا يتأخّر. و قوله: وَ أَجَلٌ مُسَمًّى معطوف على كلمة، قاله الزجّاج و غيره؛ و الأجل المسمى: هو يوم القيامة، أو يوم بدر؛ و اللزام مصدر لازم، قيل: و يجوز عطف «و أجل مسمى» على الضمير المستتر فى كان العائد؛ إلى الأخذ العاجل المفهوم من السياق، تنزيلا للفصل بالخبر منزلة التأكيد، أى: لكان الأخذ العاجل وَ أَجَلٌ مُسَمًّى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد و ثمود، و فيه تعسّف ظاهر.

ثم لمّا بيّن اللّه سبحانه أنه لا يهلكهم بعذاب الاستئصال أمره بالصبر فقال: فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ من أنك ساحر كذّاب، و نحو ذلك من مطاعنهم الباطلة، و المعنى: لا تحتفل بهم؛ فإن لعذابهم وقتا مضروبا لا يتقدّم و لا يتأخّر. و قيل: هذا منسوخ بآية القتال وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أى: متلبّسا بحمده، قال أكثر المفسرين: و المراد الصلوات الخمس كما يفيد قوله: قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فإنه إشارة إلى صلاة الفجر وَ قَبْلَ غُرُوبِها فإنه إشارة إلى صلاة العصر وَ مِنْ آناءِ اللَّيْلِ العتمة، و المراد بالآناء: الساعات، و هى جمع إنّى بالكسر و القصر، و هو الساعة، و معنى فَسَبِّحْ أى: فصلّ وَ أَطْرافَ النَّهارِ أى:

المغرب و الظهر؛ لأن الظهر فى آخر طرف النهار الأوّل، و أوّل طرف النهار الآخر. و قيل: إن الإشارة إلى

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۶۵

صلاة الظهر هى بقوله: وَ قَبْلَ غُرُوبِها لأنها هى و صلاة العصر قبل غروب الشمس، و قيل: المراد بالآية صلاة التطوّع، و لو قيل: ليس فى الآية إشارة إلى الصلاة، بل المراد التسبيح فى هذه الأوقات، أى: قول القائل سبحان اللّه، لم يكن ذلك بعيدا من الصواب، و التسبيح و إن كان يطلق على الصلاة و لكنه مجاز، و الحقيقة أولى إلا لقرينة تصرف ذلك إلى المعنى المجازى، و جملة لَعَلَّكَ تَرْضى متعلقة بقوله فسبح، أى: سبّح فى هذه الأوقات رجاء أن تنال عند اللّه سبحانه ما ترضى به نفسك، هذا على قراءة الجمهور. و قرأ الكسائى و أبو بكر عن عاصم ترضى بضم التاء مبنيا للمفعول؛ أى: يرتضيك ربك وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ قد تقدّم تفسير هذه الآية فى الحجر «۱». و المعنى: لا تطل نظر عينيك، و «أَزْواجاً» مفعول «متعنا»، و «زهرة» منصوبة على الحال، أو بفعل محذوف، أى: جعلنا أو أعطينا، ذكر معنى هذا الزّجّاج. و قيل: هى بدل من الهاء فى «به» باعتبار محلّه، و هو النصب لا باعتبار لفظه، فإنه مجرور كما تقول: مررت به أخاك. و رجّح الفرّاء النصب على الحال، و يجوز أن تكون بدلا، و يجوز أن تكون منتصبة على المصدر، مثل «صبغة اللّه» و «وعد اللّه» و زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا: زينتها و بهجتها

بالنبات و غيره.
و قرأ عيسى بن عمر زَهْرَةَ بفتح الهاء، و هى نور النبات، و اللام فى لِنَفْتِنَهُمْ فيه متعلق بمتعنا، أى: لنجعل ذلك فتنة لهم و ضلالة، ابتلاء منّا لهم، كقوله: إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ «٢»، و قيل: لنعذبنهم، و قيل: لنشدّد عليهم فى التكليف وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقى أى: ثواب اللّه، و ما ادّخر لصالحى عباده فى الآخرة خير ممّا رزقهم فى الدّنيا على كل حال، و أيضا فإن ذلك لا ينقطع، و هذا ينقطع، و هو معنى: وَ أَبْقى و قيل: المراد بهذا الرزق ما يفتح اللّه على المؤمنين من الغنائم و نحوها. و الأوّل أولى؛ لأنّ الخيرية المحقّقة و الدوام الذى لا ينقطع إنّما يتحقّقان فى الرّزق الأخروى لا الدنيوى، و إن كان حلالا طيبا: ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ «٣». وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ أمره اللّه سبحانه بأن يأمر أهله بالصلاة، و المراد بهم أهل بيته، و قيل: جميع أمته، و لم يذكر هاهنا الأمر من اللّه له بالصلاة، بل قصر الأمر على أهله، إما لكون إقامته لها أمرا معلوما، أو لكون أمره بها قد تقدّم فى قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ إلى آخر الآية، أو لكون أمره بالأمر لأهله أمرا له، و لهذا قال: وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها أى: اصبر على الصلاة، و لا تشتغل عنها بشىء من أمور الدنيا لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً أى: لا نسألك أن ترزق نفسك و لا أهلك، و تشتغل بذلك عن الصلاة نَحْنُ نَرْزُقُكَ و نرزقهم و لا نكلّفك ذلك وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى أى: العاقبة المحمودة، و هى الجنة لأهل التقوى على حذف المضاف كما قال الأخفش، و فيه دليل على أنّ التّقوى هى ملاك الأمر، و عليها تدور دوائر الخير وَ قالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أى: قال كفار مكة: هلّا يأتينا محمد بآية من آيات ربه، كما كان يأتى بها من قبله من الأنبياء؟ و ذلك كالناقة و العصا، أو هلّا يأتينا بآية من الآيات التى قد اقترحناها عليه؟ فأجاب اللّه سبحانه و تعالى عليهم بقوله: أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِى الصُّحُفِ الْأُولى يريد بالصحف

---

(١). الحجر: ٨٨.

(٢). الكهف: ٧.

(٣). النحل: ٩٦.

الأولى التوراة و الإنجيل و الزبور و سائر الكتب المنزلة، و فيها التصريح بنبوّته و التبشير به، و ذلك يكفى، فإن هذه الكتب المنزلة هم معترفون بصدقها و صحتها، و فيها ما يدفع إنكارهم لنبوّته، و يبطل تعنّتاتهم و تعسّفاتهم.
و قيل: المعنى: أو لم يأتهم إهلاكنا للأمم الذين كفروا و اقترحوا الآيات، فما يؤمنهم إن أتتهم الآيات التى اقترحوها أن يكون حالهم كحالهم. و قيل: المراد أو لم تأتهم آية هى أمّ الآيات و أعظمها فى باب الإعجاز يعنى القرآن، فإنه برهان لما فى سائر الكتب المنزلة. و قرأ أبو جعفر و شيبة و نافع و أبو عمرو و يعقوب و ابن أبى إسحاق و حفص أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بالتاء الفوقية، و قرأ الباقون بالتحتية؛ لأن معنى البينة البيان و البرهان، فذكروا الفعل اعتبارا بمعنى البينة، و اختار هذه القراءة ابن عبيد و أبو حاتم. قال الكسائى: و يجوز «بينة» بالتنوين. قال النحاس: إذا نوّنت بينة و رفعت جعلت «ما» بدلا منها، و إذا نصبت فعلى الحال. و المعنى: أو لم يأتهم ما فى الصحف الأولى مبيّنا، و هذا على ما يقتضيه الجواز النحوى و إن لم تقع القراءة به وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ أى: من قبل بعثة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، أو من قبل إتيان البينة لنزول القرآن لَقالُوا يوم القيامة رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا أى: هلّا أرسلت إلينا رسولا فى الدنيا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ التى يأتى بها الرسول مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ بالعذاب فى الدنيا وَ نَخْزى بدخول النار، و قرئ نَذِلَّ، وَ نَخْزى على البناء للمفعول، و قد قطع اللّه معذرة هؤلاء الكفرة بإرسال الرسول إليهم قبل إهلاكهم، و لهذا حكى اللّه عنهم أنهم: قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَ قُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ «١». قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا أى: قل لهم يا

محمد كل واحد منا و منكم متربّص، أی: منتظر لما يؤول إليه الأمر، فتربصوا أنتم فَسَتَعْلَمُونَ عن قريب مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِ أی: فستعلمون بالنصر و العاقبة من هو من أصحاب الصراط المستقيم وَ مَنِ اهْتَدى من الضلالة و نزع عن الغواية، و «من» فی الموضعين فی محل رفع بالابتداء. قال النحاس: و الفراء يذهب إلی أن معنی مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِ من لم يضلّ، و إلی أن معنی مَنِ اهْتَدى من ضلّ ثم اهتدی، و قيل: «من» فی الموضعين فی محل نصب، و كذا قال الفراء. و حكی عن الزجّاج أنه قال: هذا خطأ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله. و قرأ أبو رافع «فسوف تعلمون»، و قرأ يحيی بن يعمر و عاصم الجحدری السَّوِيِ علی فعلی، و ردّت هذه القراءة بأن تأنيث الصراط شاذ، و قيل: هی بمعنی الوسط و العدل، اه.

و قد أخرج ابن أبی حاتم و ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله: أَ فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ألم نبين لهم كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ نحو عاد و ثمود و من أهلك من الأمم، و فی قوله: وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى يقول: هذا من مقاديم الكلام، يقول: لو لا كلمة و أجل مسمی لكان لزاما. و أخرج ابن أبی حاتم عن السدّی نحوه. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: الأجل المسمّی:

الكلمة التی سبقت من ربک. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس لَكانَ لِزاماً قال: موتا. و أخرج الفريابی و عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه فی قوله:

---

(١). الملک: ٩.

وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الآية قال: هی الصلاة المكتوبة. و أخرج الطبرانی و ابن مردويه و ابن عساكر عن جرير عن النبی صلّی اللّه عليه و سلّم فی قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ قال: «قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، و قبل غروبها صلاة العصر». و فی الصحيحين و غيرهما من حديث جرير قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم: «إنّكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فی رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس و قبل غروبها فافعلوا، و قرأ: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِها». و فی صحيح مسلم و سنن أبی داود و النسائی عن عمارة بن رؤيبة سمعت رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم يقول: «لن يلج النار أحد صلّی قبل طلوع الشمس و قبل غروبها». و أخرج ابن أبی شيبة و ابن راهويه و البزار و أبو يعلی و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردويه و الخرائطی و أبو نعيم عن أبی رافع قال: «أضاف النبی صلّی اللّه عليه و سلّم ضيفا، و لم يكن عند النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم ما يصلحه، فأرسلنی إلی رجل من اليهود أن بعنا أو سلفنا دقيقا إلی هلال رجب، فقال: لا؛ إلا برهن، فأتيت النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم فأخبرته، فقال: أما و اللّه إنی لأمين فی السماء، أمين فی الأرض، و لئن أسلفنی أو باعنی لأدّيت إليه، اذهب بدرعی الجديد، فلم أخرج من عنده حتی نزلت هذه الآية:

وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ كأنه يعزّيه عن الدنيا. و أخرج ابن أبی حاتم عن أبی سعيد أن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم قال:

«إنّ أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح اللّه لكم من زهرة الدنيا، قالوا: و ما زهرة الدنيا يا رسول اللّه؟

قال: بركات الأرض». و أخرج ابن مردويه و ابن عساكر و ابن النجار عن أبی سعيد الخدریّ قال: لما نزلت:

وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ كان النبی صلّی اللّه عليه و سلّم يجیء إلی باب علیّ صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول: «الصلاة رحمكم اللّه»: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً «١». و أخرج ابن مردويه عن أبی الحمراء نحوه. و أخرج أحمد فی الزهد، و ابن أبی حاتم، و البيهقی فی الشعب، عن ثابت، قال: «كان النبی صلّی اللّه عليه و سلّم إذا أصابت أهله خصاصة نادی أهله: يا أهلاه صلّوا صلّوا» قال ثابت: و كانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلی الصلاة. و أخرج أبو عبيد و سعيد بن

منصور و ابن المنذر و الطبرانی فی الأوسط، و أبو نعيم فی الحلية، و البيهقی فی الشعب، بإسناد قال السيوطی: صحيح، عن عبد اللّه بن سلام قال: «كان النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم إذا نزلت بأهله شدّة أو ضيق أمرهم بالصّلاة، و قرأ: وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ الآية.

---

(١). الأحزاب: ٣٣.

فتح القدير، ج٣، ص: ٤٦٨

سورة الأنبياء

اشارة

و هی مكية، قال القرطبی: فی قول الجميع. و هی مائة و اثنتا عشرة آية.

و أخرج البخاری و غيره عن ابن مسعود قال: بنو إسرائيل و الكهف و مريم و الأنبياء هنّ من العتاق الأول، و هنّ من تلادی «١».

و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم فی الحلية عن عامر بن ربيعة: أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه، و كلّم فيه رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم، فجاءه الرجل فقال: إنی استقطعت رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم واديا ما فی العرب واد أفضل منه، و قد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك و لعقبك من بعدك، فقال عامر:

لا حاجة لی فی قطعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا. اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١ الی ٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤)

بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ ما كانُوا خالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَ مَنْ نَشاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩)

يقال: قرب الشیء و اقترب، و قد اقترب الحساب: أی قرب الوقت الذی يحاسبون فيه. قال الزجاج:

المعنی اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ وقت حِسابُهُمْ أی: القيامة، كما فی قوله: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ «٢». و اللام فی للناس متعلقة بالفعل، و تقديمها هی و مجرورها علی الفاعل لإدخال الروعة، و معنی اقتراب وقت الحساب:

دنوّه منهم؛ لأنه فی كل ساعة أقرب إليهم من الساعة التی قبلها. و قيل: لأنّ كلّ ما هو آت قريب، و موت كلّ إنسان قيام ساعته، و القيامة أيضا قريبة بالإضافة إلی ما مضی من الزمان، فما بقی من الدنيا أقلّ مما مضی، و المراد بالناس: العموم. و قيل: المشركون مطلقا، و قيل: كفّار مكة، و علی هذا الوجه قيل: المراد بالحساب: عذابهم يوم بدر، و جملة وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ

فى محل نصب على الحال، أى: هم فى

---

(١). قال القرطبى: يريد من قديم ما كسب و حفظ من القرآن، كالمال التّلاد.

(٢). القمر: ١.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴۶۹

غفلة بالدنيا معرضون عن الآخرة، غير متأهبين بما يجب عليهم من الإيمان باللّه، و القيام بفرائضه، و الانزجار عن مناهيه ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ من لابتداء الغاية، و قد استدلّ بوصف الذكر لكونه محدثا على أن القرآن محدث؛ لأن الذكر هنا هو القرآن. و أجيب بأنه لا نزاع فى حدوث المركب من الأصوات و الحروف؛ لأنه متجدد فى النزول. فالمعنى محدث تنزيله، و إنما النزاع فى الكلام النفسى، و هذه المسألة:

أعنى قدم القرآن و حدوثه قد ابتلى بها كثير من أهل العلم و الفضل فى الدولة المأمونية و المعتصمية و الواثقية، و جرى للإمام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد و الحبس الطويل، و ضرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعى، و صارت فتنة عظيمة فى ذلك الوقت و ما بعده، و القصة أشهر من أن تذكر، و من أحبّ الوقوف على حقيقتها طالع ترجمة الإمام أحمد بن حنبل فى كتاب «النبلاء» لمؤرخ الإسلام الذهبى. و لقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن و حدوثه، و حفظ اللّه بهم أمة نبيه عن الابتداع، و لكنهم رحمهم اللّه جاوزوا ذلك إلى الجزم بقدمه و لم يقتصروا على ذلك حتى كفّروا من قال بالحدوث، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال لفظى: القرآن مخلوق، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف، وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف و إرجاع العلم إلى علام الغيوب، فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة و التابعين و من بعدهم إلى وقت قيام المحنة و ظهور القول فى هذه المسألة شىء من الكلام، و لا نقل عنهم كلمة فى ذلك، فكان الامتناع من الإجابة إلى ما دعوا إليه، و التمسّك بأذيال الوقف، و إرجاع علم ذلك إلى عالمه هو الطريقة المثلى، و فيه السلامة و الخلوص من تكفير طوائف من عباد اللّه، و الأمر للّه سبحانه. و قوله: إِلَّا اسْتَمَعُوهُ استثناء مفرغ فى محل نصب على الحال، و جملة وَ هُمْ يَلْعَبُونَ فى محل نصب على الحال أيضا من فاعل استمعوه، و لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ حال أيضا، و المعنى: ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث فى حال من الأحوال إلا فى الاستماع مع اللعب و الاستهزاء و لهوة القلوب، و قرئ «لاهية» بالرفع، كما قرئ «محدث» بالرفع وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا النجوى: اسم من التناجى، و التناجى لا يكون إلا سرّا، فمعنى إسرار النجوى: المبالغة فى الإخفاء. و قد اختلف فى محل الموصول على أقوال، فقيل: إنه فى محل رفع بدل من الواو فى «أَسَرُّوا»، قاله المبرد و غيره؛ و قيل: هو فى محل رفع على الذمّ؛ و قيل: هو فاعل لفعل محذوف، و التقدير:

يقول الذين ظلموا، و اختار هذا النحاس؛ و قيل: فى محل نصب بتقدير أعنى، و قيل: فى محل خفض على أنه بدل من الناس ذكر ذلك المبرد؛ و قيل: هو فى محل رفع على أنه فاعل «أسرّوا» على لغة من يجوّز الجمع بين فاعلين، كقولهم: أكلونى البراغيث، ذكر ذلك الأخفش، و مثله ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ و منه قول الشاعر:

....

فاهتدين النّبال للأغراض «١»

---

(١). و صدره: بك نال النّضال دون المساعى.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴۷۰

و قول الآخر «١»:

و لكن ديافىّ أبوه و أمّهبحوران يعصرن السّليط أقاربه «٢»

و قال الكسائى: فيه تقديم و تأخير؛ أى: و الذين ظلموا أسرّوا النجوى. قال أبو عبيدة: أسرّوا هنا من الأضداد، يحتمل أن يكون بمعنى أخفوا كلامهم، و يحتمل أن يكون بمعنى أظهروه و أعلنوه هَلْ هـذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ هـذه الجملة بتقدير القول قبلها، أى: قالوا هل هـذا الرسول إلا بشر مثلكم لا يتميز عنكم بشىء؟ و يجوز أن تكون هـذه الجملة بدلا من النجوى، و هل بمعنى النفى، أى: و أسرّوا هذا الحديث، و الهمزة فى أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ للإنكار، و الفاء للعطف على مقدّر كنظائره، و جملة وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ فى محل نصب على الحال. و المعنى: إذا كان بشرا مثلكم، و كان الذى جاء به سحرا، فكيف تجيبونه إليه و تتبعونه، فأطلع اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم على ما تناجوا به، و أمره اللّه سبحانه أن يجيب عليهم فقال: قل رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أى: لا يخفى عليه شىء ممّا يقال فيهما، و فى مصاحف أهل الكوفة «قال ربّى» أى:

قال محمد: ربى يعلم القول، فهو عالم بما تناجيتم به. قيل: القراءة الأولى أولى؛ لأنهم أسرّوا هـذا القول، فأطلع اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم على ذلك، و أمره أن يقول لهم هذا. قال النحاس: و القراءتان صحيحتان، و هما بمنزلة آيتين وَ هُوَ السَّمِيعُ لكل ما يسمع الْعَلِيمُ بكل معلوم، فيدخل فى ذلك ما أسرّوا دخولا أوليا بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ قال الزجّاج: أى: قالوا الذى تأتى به أضغاث أحلام. قال القتبى: أضغاث الأحلام:

الرؤيا الكاذبة. و قال اليزيدى: الأضغاث: ما لم يكن له تأويل، و هذا إضراب من جهة اللّه سبحانه حكاية لما وقع منهم، و انتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية هذا القول. ثم حكى سبحانه إضرابهم عن قولهم:

أضغاث أحلام، قال: بَلِ افْتَراهُ أى: بل قالوا افتراه من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل. ثم حكى سبحانه عنهم أنهم أضربوا عن هـذا، و قالوا: بَلْ هُوَ شاعِرٌ و ما أتى به من جنس الشعر، و فى هـذا الاضطراب منهم، و التلوّن و التردّد أعظم دليل على أنهم جاهلون بحقيقة ما جاء به، لا يدرون ما هو و لا يعرفون كنهه؟ أو كانوا قد علموا أنه حقّ، و أنه من عند اللّه، و لكن أرادوا أن يدفعوه بالصدر، و يرموه بكل حجر و مدر، و هذا شأن من غلبته الحجة و قهره البرهان. ثم بعد هذا كله، قالوا: فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ و هذا جواب شرط محذوف، أى: إن لم يكن كما قلنا فليأتنا بآية كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ أى: كما أرسل موسى بالعصا و غيرها، و صالح بالناقة، و محل الكاف الجرّ صفة لآية، و يجوز أن يكون نعت مصدر محذوف، و كان سؤالهم هذا سؤال تعنّت؛ لأن اللّه سبحانه قد أعطاهم من الآيات ما يكفى، و لو علم اللّه سبحانه أنهم يؤمنون إذا أعطاهم ما يقترحوه لأعطاهم ذلك، كما قال: وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ، وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ «٣». قال الزّجّاج: اقترحوا الآيات التى لا يقع معها إمهال، فقال اللّه مجيبا لهم:

---

(١). هو الفرزدق.

(٢). «دياف»: موضع بالجزيرة، و هم نبط الشام. «السليط»: الزيت.

(٣). الأنفال: ٢٢.

ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أى: قبل مشركى مكة. و معنى «مِنْ قَرْيَةٍ» من أهل قرية، و وصف القرية بقوله:

أَهْلَكْناها أى: أهلكنا أهلها، أو أهلكناها بإهلاك أهلها، و فيه بيان سنّة اللّه فى الأمم السالفة أن المقترحين إذا أعطوا ما اقترحوه، ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة، و «من» فى «مِنْ قَرْيَةٍ» مزيدة للتأكيد. و المعنى: ما آمنت قرية من القرى التى أهلكناها بسبب اقتراحهم قبل هؤلاء، فكيف نعطيهم ما يقترحون، و هم أسوة من قبلهم. و الهمزة فى أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ للتقريع و

التوبيخ، و المعنى: إن لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوا، فكيف يؤمن هؤلاء لو أعطوا ما اقترحوا، ثم أجاب سبحانه عن قولهم: «هل هذا إلا بشر مثلكم» بقوله: وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ أي: لم نرسل قبلك إلى الأمم السابقة إلا رجالا من البشر، و لم نرسل إليهم ملائكة، كما قال سبحانه: قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا «١» و جملة «نُوحِي إِلَيْهِمْ» مستأنفة لبيان كيفية الإرسال، و يجوز أن تكون صفة ل «رجالا»، أي: متّصفين بصفة الإيحاء إليهم. قرأ حفص و حمزة و الكسائي نُوحِي بالنون، و قرأ الباقون بالياء «يوحى». ثم أمرهم اللّه بأن يسألوا أهل الذكر إن كانوا يجهلون هذا، فقال: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ و أهل الذكر هم أهل الكتابين: اليهود و النصارى، و معنى «إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ»: إن كنتم لا تعلمون أنّ رسل اللّه من البشر، كذا قال أكثر المفسرين. و قد كان اليهود و النصارى لا يجهلون ذلك و لا ينكرونه، و تقدير الكلام: إن كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أهل الذكر. و قد استدل بالآية على أن التقليد جائز، و هو خطأ، و لو سلم لكان المعنى سؤالهم عن النصوص من الكتاب و السنة، لا عن الرأي البحت، و ليس التقليد إلا قبول قول الغير دون حجته. و قد أوضحنا هذا في رسالة بسيطة سمّيناها «القول المفيد في حكم التقليد». ثم لما فرغ سبحانه من الجواب عن شبهتهم أكّد كون الرسل من جنس البشر فقال: وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ أي: أن الرسل أسوة لسائر أفراد بني آدم في حكم الطبيعة، يأكلون كما يأكلون، و يشربون كما يشربون، و الجسد جسم الإنسان. قال الزجاج: هو واحد، يعني الجسد ينبئ عن جماعة، أي: و ما جعلناهم ذوي أجساد لا يأكلون الطعام، فجملة «لا يأكلون الطعام» صفة ل «جسدا»، أي: و ما جعلناهم جسدا مستغنيا عن الأكل، بل هو محتاج إلى ذلك وَ ما كانُوا خالِدِينَ بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر، و قد كانوا يعتقدون أن الرسل لا يموتون، فأجاب اللّه عليهم بهذا، و جملة ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ معطوفة على جملة يدلّ عليها السياق، و التقدير: أوحينا إليهم ما أوحينا، ثم صدقناهم الوعد، أي: أنجزنا وعدهم الذي وعدناهم بإنجائهم و إهلاك من كذبهم، و لهذا قال سبحانه: فَأَنْجَيْناهُمْ وَ مَنْ نَشاءُ من عبادنا المؤمنين، و المراد إنجاؤهم من العذاب و إهلاك من كفر بالعذاب الدنيوي، و المراد ب الْمُسْرِفِينَ المجاوزون للحدّ في الكفر و المعاصي، و هم المشركون.

---

(١). الإسراء: ٩٥.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٤٧٢

و قد أخرج النّسائي عن أبي سعيد عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم في قوله: وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ قال: «في الدنيا». و أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم في الآية قال: «من أمر الدنيا». و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ أي: فعل الأحلام إنما هي رؤيا رآها بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ كل هذا قد كان منه فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ كما جاء عيسى و موسى بالبينات و الرسل ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أي: أن الرسل كانوا إذا جاءوا قومهم بالبينات فلم يؤمنوا لم ينظروا. و أخرج ابن جرير عن قتادة قال: قال أهل مكة للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم: إذا كان ما تقوله حقا، و يسرّك أن نؤمن، فحوّل لنا الصفا ذهبا، فأتاه جبريل فقال: إن شئت كان الذي سألك قومك، و لكنه إن كان، ثم لم يؤمنوا لم ينظروا، و إن شئت استأنيت بقومك، قال: «بل أستأني بقومي»، فأنزل اللّه ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ الآية. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ يقول: لم نجعلهم جسدا ليس يأكلون الطعام، إنما جعلناهم جسدا يأكلون الطعام.

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٠ الى ٢٥]

لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (١٠) وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَ أَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (١٣) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (١٤)

فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ (١٥) وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩)

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤)

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)

نبّه عباده على عظيم نعمته عليهم بقوله: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً يعنى القرآن فِيهِ ذِكْرُكُمْ صفة ل «كتابا»، و المراد بالذكر هنا الشرف، أي: فيه شرفكم، كقوله: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ «١» و قيل:

فيه ذكركم، أي: ذكر أمر دينكم، و أحكام شرعكم و ما تصيرون إليه من ثواب أو عقاب، و قيل: فيه حديثكم. قاله مجاهد. و قيل: مكارم أخلاقكم و محاسن أعمالكم. و قيل: فيه العمل بما فيه حياتكم. قاله سهل بن عبد اللّه. و قيل: فيه موعظتكم، و الاستفهام فى أَ فَلا تَعْقِلُونَ للتوبيخ و التقريع، أي: أفلا تعقلون أن الأمر كذلك، أو لا تعقلون شيئا من الأشياء التى من جملتها ما ذكر، ثم أوعدهم و حذّرهم ما

---

(١). الزخرف: ۴۴.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ۴٧٣

جرى على الأمم المكذّبة، فقال: وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً كَمْ فى محل نصب على أنها مفعول قصمنا، و هى الخبرية المفيدة للتكثير، و القصم: كسر الشي‌ء و دقّه، يقال: قصمت ظهر فلان إذا كسرته، و انقصمت سنّه إذا انكسرت. و المعنى هنا: الإهلاك و العذاب، و أما الفصم بالفاء فهو الصدع فى الشي‌ء من غير بينونة، و جملة كانَتْ ظالِمَةً فى محل جرّ صفة لقرية، و فى الكلام مضاف محذوف، أي: و كم قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين، أي: كافرين باللّه مكذّبين بآياته، و الظلم فى الأصل: وضع الشي‌ء فى غير موضعه، و هم وضعوا الكفر فى موضع الإيمان وَ أَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ أي: أوجدنا و أحدثنا بعد إهلاك أهلها قوما ليسوا منهم فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا أي: أدركوا، أو رأوا عذابنا، و قال الأخفش:

خافوا و توقّعوا، و البأس: العذاب الشديد. إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ الركض: الفرار و الهرب و الانهزام، و أصله من ركض الرجل الدابة برجليه، يقال: ركض الفرس إذا كدّه بساقيه، ثم كثر حتى قيل: ركض الفرس إذا عدا، و منه: ارْكُضْ بِرِجْلِكَ «١». و المعنى: أنهم يهربون منها راكضين دوابهم، فقيل لهم:

لا تَرْكُضُوا أي: لا تهربوا. قيل: إن الملائكة نادتهم بذلك عند فرارهم. و قيل: إن القائل لهم ذلك هم من هنالك من المؤمنين استهزاء بهم و سخرية منهم وَ ارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ أي: إلى نعمكم التى كانت سبب بطركم و كفركم، و المترف: المنعم، يقال: أترف على فلان، أي: وسّع عليه فى معاشه.

وَ مَساكِنِكُمْ أي: و ارجعوا إلى مساكنكم التى كنتم تسكنونها و تفتخرون بها لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ أي:

تقصدون للسؤال و التشاور و التدبير فى المهمات، و هذا على طريقة التهكّم بهم و التوبيخ لهم. و قيل: المعنى:
لعلكم تسألون عمّا نزل بكم من العقوبة فتخبرون به. و قيل: لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول العذاب بكم. قال المفسرون و أهل الأخبار: إنّ المراد بهذه الآية أهل حضور من اليمن، و كان اللّه سبحانه قد بعث إليهم نبيا اسمه شعيب بن مهدم، و قبره بجبل من جبال اليمن يقال له ضين، و بينه و بين حضور نحو يريد، قالوا: و ليس هو شعيبا صاحب مدين. قلت: و آثار القبر بجبل ضين موجودة، و و العامة من أهل تلك الناحية يزعمون أنه قبر قدم بن قادم قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ أى: قالوا لما قالت لهم الملائكة لا تركضوا: يا ويلنا، أى: بإهلاكنا إنّا كنّا ظالمين لأنفسنا، مستوجبين العذاب بما قدّمنا، فاعترفوا على أنفسهم بالظّلم الموجب للعذاب فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ أى: ما زالت هذه الكلمة دعواهم، أى:
دعوتهم، و الكلمة: هى قولهم يا ويلنا، أى: يدعون بها و يردّدونها حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً أى:
بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل، و الحصيد هنا بمعنى المحصود، و معنى خامِدِينَ أنهم ميتون، من خمدت إذا طفئت، فشبّه خمود الحياة بخمود النار، كما يقال لمن مات قد طفئ وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ أى: لم نخلقهما عبثا و لا باطلا، بل للتنبيه على أن لهما خالقا قادرا يجب امتثال أمره، و فيه إشارة إجمالية إلى تكوين العالم، و المراد بما بينهما سائر المخلوقات الكائنة بين السماء و الأرض على اختلاف أنواعها و تباين أجناسها لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً اللهو: ما يتلهّى به، قيل: اللهو، الزوجة و الولد،

---

(١). ص: ۴۲.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴۷۴

و قيل: الزوجة فقط، و قيل: الولد فقط. قال الجوهرى: قد يكنّى باللهو عن الجماع، و يدلّ على ما قاله قول امرئ القيس:

ألا زعمت بساسة اليوم أنّنى كبرت و ألّا يحسن اللّهو أمثالى

و منه قول الآخر «١»:

و فيهنّ ملهى للصديق و منظر «٢» ....

و الجملة مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها، و جواب لقوله: لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا أى: من عندنا و من جهة قدرتنا لا من عندكم. قال المفسرون: أى: من الحور العين، و فى هذا ردّ على من قال بإضافة الصاحبة و الولد إلى اللّه، تعالى عن ذلك علوّا كبيرا. و قيل: أراد الردّ على من قال: الأصنام أو الملائكة بنات اللّه.

و قال ابن قتيبة: الآية ردّ على النصارى إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ قال الواحدى: قال المفسرون: ما كنّا فاعلين.

قال الفرّاء و المبرّد و الزجّاج: يجوز أن تكون «إن» للنفى كما ذكره المفسرون، أى: ما فعلنا ذلك و لم نتّخذ صاحبة و لا ولدا؛ و يجوز أن تكون للشرط، أى: إن كنا ممّن يفعل ذلك لاتّخذناه من لدنا. قال الفراء:

و هذا أشبه الوجهين بمذهب العربية بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ هذا إضراب عن اتخاذ اللهو، أى:
دع ذلك الذى قالوا فإنه كذب و باطل، بل شأننا أن نرمى بالحق على الباطل فَيَدْمَغُهُ أى: يقهره، و أصل الدمغ شجّ الرأس حتى يبلغ الدماغ، و منه الدامغة. قال الزجاج: المعنى نذهبه ذهاب الصغار و الإذلال، و ذلك أن أصله إصابة الدماغ بالضرب. قيل: أراد بالحق الحجة و بالباطل شبههم اه. و قيل: الحق المواعظ، و الباطل المعاصى، و قيل: الباطل الشيطان. و قيل: كذبهم. و وصفهم اللّه سبحانه بغير صفاته فَإِذا هُوَ زاهِقٌ أى: زائل ذاهب، و قيل: هالك تالف، و المعنى متقارب، و إذا هى الفجائية وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ أى: العذاب فى الآخرة بسبب وصفكم للّه بما لا يجوز عليه. و قيل: الويل واد فى جهنم، و هو وعيد لقريش

بأن لهم من العذاب مثل الذى لأولئك؛ و من هى التعليلية وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ عبيدا و ملكا، و هو خالقهم و رازقهم و مالكهم، فكيف يجوز أن يكون له بعض مخلوقاته شريكا يعبد كما يعبد، و هذه الجملة مقررة لما قبلها وَ مَنْ عِنْدَهُ يعنى الملائكة، و فيه رد على القائلين بأن الملائكة بنات اللّه، و فى التعبير عنهم بكونهم عنده إشارة إلى تشريفهم و كرامتهم، و أنهم بمنزلة المقرّبين عند الملوك، ثم وصفهم بقوله: لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ أى: لا يتعاظمون و لا يأنفون عن عبادة اللّه سبحانه و التذلّل له وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ أى: لا يعيون، مأخوذ من الحسير، و هو البعير المنقطع بالإعياء و التعب، يقال: حسر البعير يحسر حسورا أعيا و كلّ، و استحسر و تحسر مثله، و حسرته أنا حسرا، يتعدى و لا يتعدى. قال أبو زيد:

لا يكلّون «٣»، و قال ابن الأعرابى: لا يفشلون. قال الزجاج: معنى الآية أن هؤلاء الذين ذكرتم أنهم أولاد

---

(١). هو زهير بن أبى سلمى.

(٢). و عجزه: أنيق لعين النّاظر المتوسّم.

(٣). فى تفسير القرطبى (١١/ ٢٧٨): لا يملون.

اللّه عباد اللّه لا يأنفون عن عبادته و لا يتعظمون عنها، كقوله: إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ «١» و قيل: المعنى: لا ينقطعون عن عبادته. و هذه المعانى متقاربة يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ أى: ينزّهون اللّه سبحانه دائما لا يضعفون عن ذلك و لا يسأمون، و قيل: يصلون الليل و النهار.

قال الزجّاج: مجرى التسبيح منهم كمجرى النفس منا لا يشغلنا عن النفس شىء، فكذلك تسبيحهم دائم، و هذه الجملة إما مستأنفة جواب سؤال مقدّر، أو فى محل نصب على الحال أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ قال المفضل: مقصود هذا الاستفهام الجحد، أى: لم يتّخذوا آلهة تقدر على الإحياء، و «أم» هى المنقطعة، و الهمزة لإنكار الوقوع. قال المبرد: إن «أم» هنا بمعنى هل، أى: هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى، و لا تكون «أم» هنا بمعنى بل؛ لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدّر أم مع الاستفهام، فتكون «أم» المنقطعة، فيصحّ المعنى، و «من الأرض» متعلّق باتخذوا، أو بمحذوف هو صفة لآلهة، و معنى هُمْ يُنْشِرُونَ هم يبعثون الموتى، و الجملة صفة لآلهة، و هذه الجملة هى التى يدور عليها الإنكار و التجهيل، لا نفس الاتخاذ، فإنه واقع منهم لا محالة. و المعنى: بل اتخذوا آلهة من الأرض هن خاصة مع حقارتهم ينشرون الموتى، و ليس الأمر كذلك، فإن ما اتّخذوها آلهة بمعزل عن ذلك. قرأ الجمهور يُنْشِرُونَ بضم الياء و كسر الشين من أنشره، أى: أحياه، و قرأ الحسن بفتح الياء، أى: يحيون و لا يموتون، ثم إنه سبحانه أقام البرهان على بطلان تعدّد الآلهة، فقال: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا أى: لو كان فى السماوات و الأرض آلهة معبودون غير اللّه لفسدتا، أى: لبطلتا، يعنى السماوات و الأرض بما فيهما من المخلوقات. قال الكسائى و سيبويه و الأخفش و الزجاج و جمهور النحاة: إن «إلا» هنا ليست للاستثناء، بل بمعنى غير صفة لآلهة، و لذلك ارتفع الاسم الذى بعدها، و ظهر فيه إعراب غير التى جاءت إلا بمعناها، و منه قول الشاعر:

و كلّ أخ مفارقه أخوهلعمر أبيك إلّا الفرقدان

و قال الفرّاء: إنّ «إلا» هنا بمعنى سوى، و المعنى: لو كان فيهما آلهة سوى اللّه لفسدتا، و وجه الفساد أن كون مع اللّه إلها آخر يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادرا على الاستبداد بالتصرف، فيقع عند ذلك التنازع و الاختلاف، و يحدث بسببه الفساد، اه. فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان، أى: تنزّه عزّ و جلّ عمّا لا يليق به من ثبوت الشريك له، و فيه إرشاد للعباد أن ينزّهوا الربّ سبحانه عمّا لا يليق به لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ هذه الجملة مستأنفة

مبينة أنه سبحانه لقوّة سلطانه و عظيم جلاله لا يسأله أحد من خلقه عن شىء من قضائه و قدره وَ هُمْ أى: العباد يُسْئَلُونَ عمّا يفعلون، أى: يسألهم اللّه عن ذلك لأنهم عبيده. و قيل: إن المعنى أنه سبحانه لا يؤاخذ عل أفعاله و هم يؤاخذون. قيل: و المراد بذلك أنه سبحانه بين لعباده أن من يسأل عن أعماله كالمسيح و الملائكة لا يصلح لأن يكون إلها أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً أى: بل اتخذوا، و فيه إضراب و انتقال من

---

(١). الأعراف: ٢٠۶.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴٧۶

إظهار بطلان كونها آلهة بالبرهان السابق إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة مع توبيخهم بطلب البرهان منهم، و لهذا قال: قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ على دعوى أنها آلهة، أو على جواز اتخاذ آلهة سوى اللّه، و لا سبيل لهم إلى شىء من ذلك، لا من عقل و لا نقل؛ لأنّ دليل العقل قد مرّ بيانه، و أما دليل النقل فقد أشار إليه بقوله:

هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِي أى: هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ذكر أمتى و ذكر الأمم السالفة، و قد أقمته عليكم و أوضحته لكم، فأقيموا أنتم برهانكم. و قيل المعنى: هذا القرآن و هذه الكتب التى أنزلت قبلى، فانظروا هل فى واحد منها أن اللّه أمر باتّخاذ إله سواه. قال الزجّاج:

قيل لهم هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلها غير اللّه، فهل فى ذكر من معى و ذكر من قبلى إلا توحيد اللّه؟ و قيل: معنى الكلام و الوعيد و التهديد، أى: افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء.

و حكى أبو حاتم أن يحيى بن يعمر و طلحة بن مصرّف قرأ: «هذا ذكر من معى و ذكر من قبلى» بالتنوين و كسر الميم، و زعم أنه لا وجه لهذه القراءة. و قال الزجّاج فى توجيه هذه القراءة: إن المعنى هذا ذكر مما أنزل إلىّ و مما هو معى و ذكر من قبلى. و قيل: ذكر كائن من قبلى، أى: جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلى.

ثم لمّا توجهت الحجة عليهم ذمّهم بالجهل بمواضع الحق فقال: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَ و هذا إضراب من جهته سبحانه و انتقال من تبكيتهم بمطالبتهم بالبرهان إلى بيان أنه لا يؤثر فيهم إقامة البرهان لكونهم جاهلين للحق لا يميزون بينه و بين الباطل. و قرأ ابن محيصن و الحسن الحق بالرفع على معنى هذا الحق، أو هو الحق، و جملة فَهُمْ مُعْرِضُونَ تعليل لما قبله من كون أكثرهم لا يعلمون، أى: فهم لأجل هذا الجهل المستولى على أكثرهم معرضون عن قبول الحق مستمرّون على الإعراض عن التوحيد و اتباع الرسول، فلا يتأمّلون حجّة، و لا يتدبّرون فى برهان، و لا يتفكّرون فى دليل وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ قرأ حفص و حمزة و الكسائى نُوحِي بالنون، و قرأ الباقون بالياء، أى: نوحى إليه أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا و فى هذا تقرير لأمر التوحيد و تأكيد لما تقدّم من قوله: هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ و ختم الآية بالأمر لعباده بعبادته، فقال فَاعْبُدُونِ فقد اتّضح لكم دليل العقل، و دليل النقل، و قامت عليكم حجة اللّه.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ قال: شرفكم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال: فيه حديثكم. و فى رواية عنه قال: فيه دينكم. و أخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: بعث اللّه نبيا من حمير يقال له شعيب، فوثب إليه عبد فضربه بعصا، فسار إليهم بختنصر فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبق منهم شىء، و فيهم أنزل اللّه: وَ كَمْ قَصَمْنا إلى قوله: خامِدِينَ و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر عن الكلبى فى قوله:

وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ قال: هى حضور بنى أزد، و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله:

وَ ارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ قال: ارجعوا إلى دوركم و أموالكم. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله:
فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ قال: هم أهل حضور كانوا قتلوا نبيهم، فأرسل اللّه عليهم بختنصر فقتلهم،

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۷۷

و فى قوله: جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ قال: بالسيف ضرب الملائكة وجوههم حتى رجعوا إلى مساكنهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن وهب قال حدّثنى رجل من الجزريين قال: كان اليمن قريتان، يقال لإحداهما حضور و للأخرى قلابة، فبطروا و أترفوا حتى ما كانوا يغلقون أبوابهم، فلما أترفوا بعث اللّه إليهم نبيا فدعاهم فقتلوه، فألقى اللّه فى قلب بختنصر أن يغزوهم، فجهز لهم جيشا، فقاتلوهم فهزموا جيشه فرجعوا منهزمين إليه، فجهز إليهم جيشا آخر أكثف من الأوّل، فهزموهم أيضا؛ فلما رأى بختنصر ذلك غزاهم هو بنفسه، فقاتلوهم فهزمهم حتى خرجوا منها يركضون، فسمعوا مناديا يقول: لا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَساكِنِكُمْ فرجعوا، فسمعوا صوتا مناديا يقول: يا لثارات النبىّ فقتلوا بالسيف، فهى التى قال اللّه: وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ إلى قوله: خامِدِينَ قلت: و قرى حضور معروفة الآن بينها و بين مدينة صنعاء نحو بريد «۱» فى جهة الغرب منها. و أخرج ابن بالمنذر عن ابن عباس فى قوله: حَصِيداً خامِدِينَ قال: كخمود النار إذا طفئت. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً قال: اللهو: الولد. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن الحسن فى قوله: لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً قال: النساء. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ يقول: لا يرجعون. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ قال:
بعباده وَ هُمْ يُسْئَلُونَ قال: عن أعمالهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحّاك نحوه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن ابن عباس قال: ما فى الأرض قوم أبغض إلىّ من القدرية، و ما ذلك إلا لأنهم لا يعلمون قدرة اللّه، قال اللّه: لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ

[سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۲۶ الى ۳۵]

وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (۲۶) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (۲۷) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (۲۸) وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (۲۹) أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ (۳۰)
وَ جَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۳۱) وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (۳۲) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (۳۳) وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ (۳۴) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (۳۵)
قوله: وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً هؤلاء القائلون هم خزاعة، فإنهم قالوا: الملائكة بنات اللّه، و قيل: هم اليهود، و يصحّ حمل الآية على كلّ من جعل للّه ولدا. و قد قالت اليهود: عزير ابن اللّه، و قالت

---

(۱). البريد: يساوى نحو (۲۰) كم تقريبا على بعض التقديرات.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۷۸

النصارى: المسيح ابن اللّه، و قالت طائفة من العرب: الملائكة بنات اللّه. ثم نزّه عزّ و جلّ نفسه. فقال:

سُبْحانَهُ أی: تنزیها له عن ذلک، و هو مقول علی ألسنة العباد. ثم أضرب عن قولهم و أبطله فقال:
بَلْ عِبادٌ مُکْرَمُونَ أی: لیسوا کما قالوا، بل هم عباد اللّه سبحانه مکرمون بکرامته لهم، مقرّبون عنده.
و قرئ مُکْرَمُونَ بالتشدید، و أجاز الزجاج و الفراء نصب عباد علی معنی: بل اتخذ عبادا، ثم وصفهم بصفة أخری فقال: لا یَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ أی: لا یقولون شیئا حتی یقوله أو یأمرهم به. کذا قال ابن قتیبة و غیره، و فی هذا دلیل علی کمال طاعتهم و انقیادهم. و قرئ «لا یسبقونه» بضم الباء من سبقته أسبقه وَ هُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ أی: هم العاملون بما یأمرهم اللّه به، التابعون له المطیعون لربهم یَعْلَمُ ما بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ هذه الجملة تعلیل لما قبلها، أی: یعلم ما عملوا و ما هم عاملون، أو یعلم ما بین أیدیهم و هو الآخرة، و ما خلفهم و هو الدنیا، و وجه التعلیل أنهم إذا علموا بأنه عالم بما قدّموا و أخروا، لم یعملوا عملا و لم یقولوا قولا إلا بأمره وَ لا یَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضی أی: یشفع الشافعون له، و هو من رضی عنه، و قیل: هم أهل لا إله إلا اللّه، و قد ثبت فی الصحیح أن الملائکة یشفعون فی الدار الآخرة. وَ هُمْ مِنْ خَشْیَتِهِ مُشْفِقُونَ أی: من خشیتهم منه، فالمصدر مضاف إلی المفعول، و الخشیة: الخوف مع التعظیم، و الإشفاق: الخوف مع التوقع و الحذر، أی: لا یأمنون مکر اللّه وَ مَنْ یَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّی إِلهٌ مِنْ دُونِهِ أی:
من یقل من الملائکة إنی إله من دون اللّه. قال المفسرون: عنی بهذا إبلیس؛ لأنه لم یقل أحد من الملائکة إنی إله إلا إبلیس، و قیل: الإشارة إلی جمیع الأنبیاء فَذلِکَ نَجْزِیهِ جَهَنَّمَ أی: فذلک القائل، علی سبیل الفرض و التقدیر، نجزیه جهنم بسبب هذا القول الذی قاله، کما نجزی غیره من المجرمین کَذلِکَ نَجْزِی الظَّالِمِینَ أی: مثل ذلک الجزاء الفظیع نجزی الظالمین، أو مثل ما جعلنا جزاء هذا القائل جهنم، فکذلک نجزی الظالمین الواضعین الإلهیة و العبادة فی غیر موضعها، و المراد بالظالمین المشرکون أَ وَ لَمْ یَرَ الَّذِینَ کَفَرُوا الهمزة للإنکار، و الواو للعطف علی مقدّر، و الرؤیة هی القلبیة، أی: لم یتفکروا و لم یعلموا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ کانَتا رَتْقاً قال الأخفش: إنما قال کانتا، لأنهما صنفان، أی: جماعتا السماوات و الأرضین، کما قال سبحانه: إِنَّ اللَّهَ یُمْسِکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا «۱» و قال الزجاج: إنما قال کانتا لأنه یعبر عن السماوات بلفظ الواحد، لأن السماوات کانت سماء واحدة، و کذلک الأرضون، و الرتق: السدّ، ضدّ الفتق، یقال: رتقت الفتق أرتقه فارتتق، أی: التأم، و منه الرتقاء للمنضمة الفرج، یعنی: أنهما کانتا شیئا واحدا ملتزقتین ففصل اللّه بینهما، و قال رتقا و لم یقل رتقین لأنه مصدر، و التقدیر: کانتا ذواتی رتق، و معنی فَفَتَقْناهُما ففصلناهما؛ أی: فصلنا بعضهما من بعض، فرفعنا السماء، و أبقینا الأرض مکانها وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ کُلَّ شَیْءٍ حَیٍ أی: أحیینا بالماء الذی ننزله من السماء کل شیء، فیشمل الحیوان و النبات، و المعنی أن الماء سبب حیاة کل شیء. و قیل: المراد بالماء هنا النطفة، و به قال أکثر المفسرین، و هذا احتجاج علی المشرکین بقدرة اللّه سبحانه و بدیع صنعه، و قد تقدّم تفسیر هذه الآیة، و الهمزة فی أَ فَلا یُؤْمِنُونَ للإنکار

---

(۱). فاطر: ۴۱.

علیهم، حیث لم یؤمنوا مع وجود ما یقتضیه من الآیات الربانیة. وَ جَعَلْنا فِی الْأَرْضِ رَواسِیَ أی:
جبالا ثوابت أَنْ تَمِیدَ بِهِمْ المید: التحرّک و الدوران، أی: لئلا تتحرک و تدور بهم، أو کراهة ذلک، و قد تقدّم تفسیر ذلک فی النحل مستوفی. وَ جَعَلْنا فِیها أی: فی الرواسی، أو فی الأرض فِجاجاً، قال أبو عبیدة: هی المسالک. و قال الزجّاج: کلّ مخترق بین جبلین فهو فج و سُبُلًا تفسیر للفجاج؛ لأنّ الفجّ قد لا یکون طریقا نافذا مسلوکا لَعَلَّهُمْ یَهْتَدُونَ إلی مصالح معاشهم، و ما تدعو إلیه حاجاتهم وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً عن أن یقع و یسقط علی الأرض، کقوله: وَ یُمْسِکُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَی الْأَرْضِ «۱» و

قال الفراء: محفوظا بالنجوم من الشيطان، كقوله: وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ «٢» و قيل: محفوظا لا يحتاج إلى عماد، و قيل: المراد بالمحفوظ هنا المرفوع، و قيل: محفوظا عن الشرك و المعاصى، و قيل: محفوظا عن الهدم و النقض وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ أضاف الآيات إلى السماء؛ لأنها مجعولة فيها، و ذلك كالشمس و القمر و نحوهما، و معنى الإعراض أنهم لا يتدبرون فيها، و لا يتفكرون فيما توجبه من الإيمان وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ هذا تذكير لهم بنعمة أخرى مما أنعم به عليهم، و ذلك بأنه خلق لهم الليل ليسكنوا فيه، و النهار ليتصرفوا فيه فى معايشهم، و خلق الشمس و القمر، أى:

جعل الشمس آية النهار، و القمر آية الليل، ليعلموا عدد الشهور و الحساب كما تقدّم بيانه فى سبحان «٣».

كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ أى: كل واحد من الشمس و القمر و النجوم فى فلك يسبحون، أى: يجرون فى وسط الفلك، و يسيرون بسرعة كالسابح فى الماء، و الجمع فى الفعل باعتبار المطالع، قال سيبويه: إنه لما أخبر عنهنّ بفعل من يعقل، و جعلهنّ فى الطاعة بمنزلة من يعقل، جعل الضمير عنهنّ ضمير العقلاء، و لم يقل يسبحن أو تسبح، و كذا قال الفراء. و قال الكسائى: إنما قال يسبحون لأنه رأس آية، و الفلك واحد أفلاك النجوم، و أصل الكلمة من الدوران، و منه فلكة المغزل لاستدارتها وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أى: دوام البقاء فى الدنيا أَ فَإِنْ مِتَّ بأجلك المحتوم فَهُمُ الْخالِدُونَ أى: أفهم الخالدون. قال الفراء: جاء بالفاء لتدل على الشرط لأنه جواب قولهم سيموت. قال: و يجوز حذف الفاء و إضمارها، و المعنى: إن متّ فهم يموتون أيضا، فلا شماتة فى الموت. و قرئ مِتَ بكسر الميم و ضمها لغتان، و كان سبب نزول هذه الآية قول المشركين فيما حكاه اللّه عنهم: أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ «٤». كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ أى: ذائقة مفارقة جسدها، فلا يبقى أحد من ذوات الأنفس المخلوقة كائنا ما كان وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً أى: نختبركم بالشدّة و الرخاء، لننظر كيف شكركم و صبركم. و المراد أنه سبحانه يعاملهم معاملة من يبلوهم، و فتنة مصدر لنبلوكم من غير لفظه وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ لا إلى غيرنا فنجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير، و إن شرا فشرّ.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: قالت اليهود إن اللّه عزّ و جلّ صاهر الجنّ فكانت بنيهم الملائكة، فقال اللّه تكذيبا لهم بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ أى: الملائكة ليس كما قالوا، بل عباد أكرمهم بعبادته

---

(١). الحج: ٦٥.

(٢). الحجر: ١٧.

(٣). أى سورة الإسراء.

(٤). الطور: ٣٠.

لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ يثنى عليهم وَ لا يَشْفَعُونَ قال: لا تشفع الملائكة يوم القيامة إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى قال: لأهل التوحيد لمن رضى عنه. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن فى الآية قال: قول لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس فى الآية قال: الذين ارتضاهم لشهادة أن لا إله إلا اللّه. و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى البعث، عن جابر «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تلا قوله تعالى: وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى قال: إنّ شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى».

و أخرج الفريابى و عبد بن حميد، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله:

كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما قال: فتقت السماء بالغيث، و فتقت الأرض بالنبات. و أخرج ابن أبى حاتم عنه كانَتا رَتْقاً قال: لا يخرج منهما

شىء، و ذكر مثل ما تقدم. و أخرجه ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الحلية، عنه أيضا من طريق أخرى. و أخرج ابن جرير عنه كانَتا رَتْقاً قال: ملتصقتين. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن أبى العالية فى قوله: وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‌ءٍ حَيٍ قال: نطفة الرجل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس وَ جَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا قال: بين الجبال. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كُلٌّ فِي فَلَكٍ قال: دوران يَسْبَحُونَ قال: يجرون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عنه كُلٌّ فِي فَلَكٍ قال: فلك كفلكة المغزل يَسْبَحُونَ قال: يدورون فى أبواب السماء.

كما تدور الفلكة فى المغزل. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: هو فلك السماء. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى عن عائشة قالت: دخل أبو بكر على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و قد مات فقبله و قال: وا نبياه وا خليلاه وا صفياه، ثم تلا وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ الآية، و قوله:

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ «١». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً قال: نبتليكم بالشدة و الرخاء، و الصحة و السقم، و الغنى و الفقر، و الحلال و الحرام، و الطاعة و المعصية، و الهدى و الضلالة.

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٣٦ الى ٤٣]

وَ إِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَ هذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠)

وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣)

---

(١). الزمر: ٣٠.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٤٨١

قوله: وَ إِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يعنى المستهزئين من المشركين إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أى:

ما يتخذونك إلا مهزوءا بك، و الهزء: السخرية، و هؤلاء هم الذين قال اللّه فيهم: إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ «١» و المعنى: ما يفعلون بك إلا اتخذوك هزؤا أَ هذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ هو على تقدير القول، أى: يقولون أ هذا الذى، فعلى هذا هو جواب إذا، و يكون قوله: إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً اعتراضا بين الشرط و جوابه، و معنى يذكرها يعيبها. قال الزجاج: يقال فلان يذكر الناس، أى: يغتابهم، و يذكرهم بالعيوب، و فلان يذكر اللّه، أى: يصفه بالتعظيم و يثنى عليه، و إنما يحذف مع الذكر ما عقل معناه، و على ما قالوا لا يكون الذكر فى كلام العرب العيب، و حيث يراد به العيب يحذف منه السوء، قيل: و من هذا قول عنترة:

لا تذكرى مهرى و ما أطعمتهفيكون جلدك مثل جلد الأجرب

أى: لا تعيبى مهرى، و جملة وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ فى محل نصب على الحال، أى:

و هم بالقرآن كافرون، أو هم بذكر الرحمن الذى خلقهم كافرون، و المعنى: أنهم يعيبون على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن

يذكر آلهتهم التى لا تضرّ و لا تنفع بالسوء، و الحال أنهم بذكر اللّه سبحانه بما يليق به من التوحيد، أو القرآن كافرون، فهم أحق بالعيب لهم و الإنكار عليهم، فالضمير الأوّل مبتدأ خبره كافرون، و «بذكر» متعلق بالخبر، و الضمير الثانى تأكيد خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ أى: جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من العجل. قال الفراء: كأنه يقول بنيته و خلقته من العجلة و على العجلة. و قال الزجاج: خوطبت العرب بما تعقل، و العرب تقول للذى يكثر منه الشيء خلقت منه، كما تقول: أنت من لعب، و خلقت من لعب، تريد المبالغة فى وصفه بذلك. و يدلّ على هذا المعنى قوله: وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا «٢» و المراد بالإنسان الجنس. و قيل: المراد بالإنسان آدم، فإنه لما خلقه اللّه و نفخ فيه الروح صار الروح فى رأسه، فذهب لينهض قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه فوقع، فقيل: خلق الإنسان من عجل، كذا قال عكرمة و سعيد بن جبير و السدّى و الكلبى و مجاهد. و قال أبو عبيدة و كثير من أهل المعانى: العجل الطين بلغة حمير. و أنشدوا:

....

و النخل ينبت بين الماء و العجل «٣» و قيل: إن هذه الآية نزلت فى النضر بن الحارث، و هو القائل: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ «۴» و قيل: نزلت فى قريش لأنهم استعجلوا العذاب. و قال الأخفش: معنى «خلق الإنسان من عجل» أنه قيل له كن فكان. و قيل: إن هذه الآية من المقلوب، أى: خلق العجل من الإنسان، و قد حكى هذا عن أبى عبيدة و النحاس، و القول الأوّل أولى. سَأُرِيكُمْ آياتِي أى: سأريكم نقماتى منكم بعذاب النار فَلا تَسْتَعْجِلُونِ أى: لا تستعجلونى بالإتيان به، فإنه نازل بكم لا محالة. و قيل: المراد بالآيات ما

---

(١). الحجر: ٩٥.

(٢). الإسراء: ١١.

(٣). و صدره: و النبع فى الصخرة الصمّاء منبته.

(۴). الأنفال: ٣٢.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴٨٢

دلّ على صدق محمد صلّى اللّه عليه و سلّم من المعجزات، و ما جعله اللّه له من العاقبة المحمودة، و الأول أولى، و يدلّ عليه قولهم مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أى: متى حصول هذا الوعد؛ الذى تعدنا به من العذاب، قالوا ذلك على جهة الاستهزاء و السخرية. و قيل: المراد بالوعد هنا القيامة، و معنى إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ إن كنتم يا معشر المسلمين صادقين فى وعدكم، و الخطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و للمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المنذرة بمجيء الساعة و قرب حضور العذاب، و جملة لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا و ما بعدها مقرّرة لما قبلها، أى: لو عرفوا ذلك الوقت، و جواب لو محذوف، و التقدير: لو علموا الوقت الذى لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ لما استعجلوا الوعيد. و قال الزجاج فى تقدير الجواب: لعلموا صدق الوعد، و قيل: لو علموه ما أقاموا على الكفر. و قال الكسائى: هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة، أى: لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية، و يدلّ عليه قوله: بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً و تخصيص الوجوه و الظهور بالذكر بمعنى الأمام و الخلف؛ لكونهما أشهر الجوانب فى استلزام الإحاطة بها للإحاطة بالكلّ؛ بحيث لا يقدرون على دفعها من جانب من جوانبهم، و محل حين لا يكفون النصب على أنه مفعول العلم، و هو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه، و معنى و لا هم ينصرون: و لا ينصرهم أحد من العباد فيدفع ذلك عنهم، و جملة «بل تأتيهم بغتة» معطوفة على «يكفون»، أى: لا يكفونها، بل تأتيهم العدة أو النار أو الساعة بغتة، أى: فجأة فَتَبْهَتُهُمْ قال الجوهرى: بهته بهتا: أخذه بغتا، و قال الفراء:

«فتبهتهم» أی: تحیرهم، و قیل: فتفجؤهم فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها أی: صرفها عن وجوههم و لا عن ظهورهم، فالضمير راجع إلى النار، و قيل: راجع إلى الوعد بتأويله بالعدة، و قيل: راجع إلى الحين بتأويله بالساعة وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ أی: يمهلون و يؤخرون لتوبة و اعتذار، و جملة وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ مسوقة لتسلية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و تعزيته، كأنه قال: إن استهزأ بك هؤلاء فقد فعل ذلك بمن قبلك من الرسل على كثرة عددهم و خطر شأنهم فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ أی: أحاط و دار بسبب ذلك بالذين سخروا من أولئك الرسل و هزءوا بهم ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ «ما» موصولة، أو مصدرية، أی: فأحاط بهم الأمر الذی كانوا يستهزءون به، أو فأحاط بهم استهزاؤهم. أی: جزاؤه، على وضع السبب موضع المسبب، أو نفس الاستهزاء، إن أريد به العذاب الأخروی قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ أی: يحرسكم و يحفظكم، و الكلاءة: الحراسة و الحفظ، يقال: كلأه اللّه كلاء بالكسر: أی حفظه و حرسه. قال ابن هرمة:

إنّ سليمى و اللّه يكلؤهاضنّت بشیء ما كان يرزؤها

أی: قل يا محمد لأولئك المستهزئين بطريق التقريع و التوبيخ: من يحرسكم و يحفظكم بالليل و النهار من بأس الرحمن و عذابه؛ الذی تستحقون حلوله بكم و نزوله عليكم؟ و قال الزجّاج: معناه من يحفظكم من بأس الرحمن. و قال الفرّاء: المعنى من يحفظكم ممّا يريد الرحمن إنزاله بكم من عقوبات الدنيا و الآخرة.

و حكى الكسائی و الفراء: «من يكلوكم» بفتح اللام و إسكان الواو بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۸۳

أی: عن ذكره سبحانه فلا يذكرونه و لا يخطر ببالهم، بل يعرضون عنه، أو عن القرآن، أو عن مواعظ اللّه، أو عن معرفته أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا «أم» هی المنقطعة التی بمعنى بل و الهمزة، للإضراب و الانتقال عن الكلام السابق المشتمل على بيان جهلهم بحفظه سبحانه إياهم إلى توبيخهم و تقريعهم باعتمادهم على من هو عاجز عن نفع نفسه، و الدفع عنها. و المعنى: بل لهم آلهة تمنعهم من عذابنا. و قيل: فيه تقديم و تأخير، و التقدير: أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم. ثم وصف آلهتهم هذه التی زعموا أنها تنصرهم بما يدلّ على الضعف و العجز، فقال: لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ أی: هم عاجزون عن نصر أنفسهم فكيف يستطيعون أن ينصروا غيرهم «و لا هم منا يصحبون»، أی: و لا هم يجارون من عذابنا. قال ابن قتيبة: أی: لا يجيرهم منا أحد؛ لأن المجير صاحب الجار، و العرب تقول: صحبك اللّه، أی: حفظك و أجارك، و منه قول الشاعر:

ينادی بأعلى صوته متعوّذاليصحب منّا و الرّماح دوانی

تقول العرب: أنا لك جار و صاحب من فلان، أی: مجير منه. قال المازنی: هو من أصحبت الرجل إذا منعته.

و قد أخرج ابن أبی حاتم عن السدّی قال: «مرّ النبیّ صلّى اللّه عليه و سلّم على أبی سفيان و أبی جهل و هما يتحدّثان، فلما رآه أبو جهل ضحك و قال لأبی سفيان: هذا نبیّ عبد مناف، فغضب أبو سفيان فقال: ما تنكرون أن يكون لبنی عبد مناف نبیّ؟! فسمعها النبیّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فرجع إلى أبی جهل فوقع به و خوّفه و قال: ما أراك منتهيا حتى يصيبك ما أصاب عمّك، و قال لأبی سفيان: أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية» فنزلت هذه الآية: وَ إِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا. قلت: ينظر من الذی روى عنه السدّی؟. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نفخ فی آدم الروح صار فی رأسه فعطس فقال: الحمد للّه، فقالت: الملائكة، يرحمك اللّه، فذهب لينهض قبل أن تمور فی رجليه فوقع، فقال اللّه: خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ و قد أخرج نحو هذا ابن جرير و ابن أبی حاتم عن سعيد بن جبير. و أخرج نحوه أيضا ابن أبی شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ فی العظمة عن مجاهد، و كذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله: قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ قال:

يحرسكم، و فى قوله: وَ لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ قال: لا ينصرون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ قال: لا يجارون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى الآية:

قال: لا يمنعون.

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ۴۴ الى ۵۶]

بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَ فَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَ فَهُمُ الْغالِبُونَ (۴۴) قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ (۴۵) وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (۴۶) وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَ كَفى بِنا حاسِبِينَ (۴۷) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ (۴۸)

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (۴۹) وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (۵۰) وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ (۵۱) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ (۵۲) قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ (۵۳)

قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۵۴) قالُوا أَ جِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (۵۵) قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (۵۶)

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۸۴

لما أبطل كون الأصنام نافعة أضرب عن ذلك؛ منتقلا إلى بيان أنّ ما هم فيه من الخير و التمتع بالحياة العاجلة هو من اللّه، لا من مانع يمنعهم من الهلاك، و لا من ناصر ينصرهم على أسباب التمتع، فقال: بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ يعنى أهل مكة، متّعهم اللّه بما أنعم عليهم حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فاغترّوا بذلك، و ظنّوا أنهم لا يزالون كذلك، فردّ سبحانه عليهم قائلا أَ فَلا يَرَوْنَ أى: أفلا ينظرون فيرون أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أى: أرض الكفر، ننقصها بالظهور عليها من أطرافها، فنفتحها بلدا بعد بلد، و أرضا بعد أرض، و قيل: ننقصها بالقتل و السبى، و قد مضى فى الرعد الكلام على هذا مستوفى، و الاستفهام فى قوله: أَ فَهُمُ الْغالِبُونَ للإنكار، و الفاء للعطف على مقدّر كنظائره، أى: كيف يكونون غالبين بعد نقصنا لأرضهم من أطرافها؟ و فى هذا إشارة إلى أنّ الغالبين هم المسلمون قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ أى: أخوّفكم و أحذركم بالقرآن، و ذلك شأنى و ما أمرنى اللّه به، و قوله: وَ لا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إما من تتمة الكلام الذى أمر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقوله لهم، أو من جهة اللّه تعالى. و المعنى: أن من أصمّ اللّه سمعه، و ختم على قلبه، و جعل على بصره غشاوة، لا يسمع الدعاء. قرأ أبو عبد الرحمن السلمى و محمد بن السميقع «و لا يسمع» بضم الياء و فتح الميم على ما لم يسمّ فاعله. و قرأ ابن عامر و أبو حيوة و يحيى ابن الحارث بالتاء الفوقية مضمومة و كسر الميم، أى: إنك يا محمد لا تسمع هؤلاء. قال أبو على الفارسى:

و لو كان كما قال ابن عامر لكان: إذا ما تنذرهم، فيحسن نظم الكلام، فأما إذا ما يُنْذَرُونَ فحسن أن يتبع قراءة العامة، و قرأ الباقون بفتح الياء و فتح الميم و رفع الصم على أنه الفاعل وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ المراد بالنفحة القليل، مأخوذ من نفح المسك قاله ابن كيسان، و منه قول الشاعر «۱»:

و عمرة من سروات النّساءتنفّح بالمسك أردانها

و قال المبرد: النفحة: الدفعة من الشىء التى دون معظمه، يقال: نفحه نفحة بالسيف؛ إذا ضربه ضربة خفيفة، و قيل: هى النصيب، و قيل: هى الطرف. و المعنى متقارب، أى: و لئن مسّهم أقلّ شىء من العذاب لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ أى: ليدعون على

أنفسهم بالويل و الهلاك، و يعترفون عليها بالظلم

---

(١). هو قيس بن الخطيم.

فتح القدير، ج٣، ص: ٤٨٥

وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ الموازين: جمع ميزان، و هو يدلّ على أن هناك موازين، و يمكن أن يراد ميزان واحد، عبّر عنه بلفظ الجمع، و قد ورد في السنة في صفة الميزان ما فيه كفاية، و قد مضى في الأعراف، و في الكهف في هذا ما يغني عن الإعادة، و القسط صفة للموازين. قال الزجّاج: قسط مصدر يوصف به، تقول: ميزان قسط و موازين قسط. و المعنى: ذوات قسط، و القسط: العدل. و قرئ «القصط» بالصاد و الطاء. و معنى لِيَوْمِ الْقِيامَةِ لأهل يوم القيامة، و قيل: اللام بمعنى في، أي: في يوم القيامة فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً أي: لا ينقص من إحسان محسن، و لا يزاد في إساءة مسيء وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ قرأ نافع و شيبة و أبو جعفر برفع مثقال على أن كان تامة، أي: إن وقع أو وجد مثقال حبة. و قرأ الباقون بنصب المثقال، على تقدير: و إن كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين مثقال حبة، كذا قال الزجاج.

و قال أبو عليّ الفارسي: و إن كان الظلامة مثقال حبة. قال الواحدي: و هذا أحسن لتقدّم قوله: «فلا تظلم نفس شيئا»، و مثقال الشيء: ميزانه، أي: و إن كان في غاية الخفّة و الحقارة، فإنّ حبة الخردل مثل في الصغر أَتَيْنا بِها قرأ الجمهور بالقصر، أي: أحضرناها و جئنا بها للمجازاة عليها، و «بها» أي: بحبة الخردل.

و قرأ مجاهد و عكرمة «آتينا» بالمدّ على معنى جازينا بها، يقال: آتى يؤاتي مؤاتاة؛ جازى وَ كَفى بِنا حاسِبِينَ أي: كفى بنا محصين، و الحسب في الأصل معناه العدّ، و قيل: كفى بنا عالمين؛ لأن من حسب شيئا علمه و حفظه، و قيل: كفى بنا مجازين على ما قدّموه من خير و شرّ. ثم شرع سبحانه في تفصيل ما أجمله سابقا بقوله: وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ «١» فقال: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ المراد بالفرقان هنا التوراة؛ لأن فيها الفرق بين الحلال و الحرام، و قيل: الفرقان هنا هو النصر على الأعداء، كما في قوله: وَ ما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ «٢». قال الثعلبي: و هذا القول أشبه بظاهر الآية، و معنى «و ضياء» أنهم استضاءوا بها في ظلمات الجهل و الغواية، و معنى «و ذكرا» الموعظة، أي: أنهم يتّعظون بما فيها، و خصّ المتقين لأنهم الذين ينتفعون بذلك، و وصفهم بقوله: الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لأن هذه الخشية تلازم التقوى. و يجوز أن يكون الموصول بدلا من المتقين، أو بيانا له، و محل «بِالْغَيْبِ» النصب على الحال، أي: يخشون عذابه و هو غائب عنهم، أو هم غائبون عنه؛ لأنهم في الدنيا، و العذاب في الآخرة. و قرأ ابن عباس و عكرمة ضِياءً بغير واو. قال الفراء: حذف الواو و المجيء بها واحد، و اعترضه الزجاج بأن الواو تجيء لمعنى، فلا تزاد. وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ أي:

و هم من القيامة خائفون وجلون، و الإشارة بقوله: وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ إلى القرآن. قال الزجاج:

المعنى: و هذا القرآن ذكر لمن تذكر به و موعظة لمن اتّعظ به، و المبارك: كثير البركة و الخير. و قوله:

أَنْزَلْناهُ صفة ثانية للذكر، أو خبر بعد خبر، و الاستفهام في قوله: أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ للإنكار لما وقع منهم من الإنكار، أي: كيف تنكرون كونه منزلا من عند اللّه مع اعترافكم بأن التوراة منزلة من عنده؟

وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ أي: الرشد اللائق به و بأمثاله من الرسل، و معنى مِنْ قَبْلُ أنه أعطى

---

(١). الأنبياء: ٧.

(٢). الأنفال: ٤١.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ۴٨۶

رشده قبل إيتاء موسى و هارون التوراة. و قال الفراء: المعنى أعطيناه هداه من قبل النبوّة: أى وفقناه للنظر و الاستدلال لما جنّ عليه الليل فرأى الشمس و القمر و النجم، و على هذا أكثر المفسرين، و بالأوّل قال أقلهم:

وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ أنه موضع لإيتاء الرشد، و أنه يصلح لذلک، و الظرف فى قوله: إِذْ قالَ لِأَبِيهِ متعلّق بآتينا أو بمحذوف، أى: اذكر حين قال، و أبوه هو آزر وَ قَوْمِهِ نمروذ و من اتبعه، و التماثيل:

الأصنام، و أصل التمثال الشيء المصنوع مشابها لشيء من مخلوقات اللّه سبحانه، يقال: مثلت الشيء بالشيء؛ إذا جعلته مشابها له، و اسم ذلک الممثّل تمثال، أنكر عليهم عبادتها بقوله: ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ و العكوف: عبارة عن اللزوم و الاستمرار على الشيء، و اللام فى «لها» للاختصاص، و لو كانت للتعدية لجيء بكلمة على، أى: ما هذه الأصنام التى أنتم مقيمون على عبادتها؟ و قيل: إن العكوف مضمّن معنى العبادة قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ أجابوه بهذا الجواب الذى هو العصا التى يتوكأ عليها كل عاجز، و الحبل الذى يتشبث به كل غريق، و هو التمسک بمجرّد تقليد الآباء، أى: وجدنا آباءنا يعبدونها فعبدناها اقتداء بهم و مشيا على طريقتهم، و هكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملّة الإسلامية، و إن العالم بالكتاب و السنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأى المدفوع بالدليل قالوا هذا قد قال به إمامنا الذى وجدنا آباءنا له مقلدين و برأيه آخذين، و جوابهم هو ما أجاب به الخليل هاهنا قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أى: فى خسران واضح ظاهر لا يخفى على أحد و لا يلتبس على ذى عقل، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التى لا تضرّ و لا تنفع، و لا تسمع و لا تبصر، و ليس بعد هذا الضلال ضلال، و لا يساوى هذا الخسران خسران، و هؤلاء المقلدة من أهل الإسلام استبدلوا بكتاب اللّه و بسنّة رسوله كتابا قد دوّنت فيه اجتهادات عالم من علماء الإسلام زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها، إما لقصور منه أو لتقصير فى البحث فوجد ذلک الدليل من وجده، و أبرزه واضح المنار:

....

كأنه علم فى رأسه نار «١» و قال: هذا كتاب اللّه أو هذه سنة رسوله، و أنشدهم:

دعوا كلّ قول عند قول محمدفما آمن فى دينه كمخاطر

فقالوا كما قال الأوّل «٢»:

ما أنا إلّا من غزيّة إن غوت‌غويت و إن ترشد غزية أرشد

و قد أحسن من قال:

يأبى الفتى إلا اتّباع الهوىو منهج الحقّ له واضح

---

(١). و صدره: و إنّ صخرا لتأتمّ الهداة به. «العلم»: الجبل. و البيت للخنساء.

(٢). هو دريد بن الصّمّة.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ۴٨٧

ثم لما سمع أولئک مقالة الخليل قالُوا أَ جِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ أى: أ جادّ أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح؟ قال مضربا عمّا بنوا عليه مقالتهم من التقليد: بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ أى: خلقهن و أبدعهنّ وَ أَنَا عَلى ذلِكُمْ الذى ذكرته لكم من كون ربكم هو ربّ السموات و الأرض دون ما عداه مِنَ الشَّاهِدِينَ أى: العالمين به المبرهنين عليه، فإن الشاهد على الشيء هو من كان عالما به، مبرهنا عليه، مبينا له.

و قد أخرج أحمد و الترمذى، و ابن جرير فى تهذيبه، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن عائشة: «أن رجلا قال: يا رسول اللّه إن لى مملوكين يكذبوننى و يخوننى و يعصوننى، و أضربهم و أشتمهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: يحسب ما خانوك و عصوك و كذبوك و عقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك، و إن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لا عليك و لا لك، و إن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتصّ لهم منك الفضل، فجعل الرجل يبكى و يهتف، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أما تقرأ كتاب اللّه وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَ كَفى بِنا حاسِبِينَ فقال له الرجل: يا رسول اللّه؛ ما أجد لى و لهم خيرا من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار»، رواه أحمد هكذا: حدّثنا أبو نوح قراد، أخبرنا ليث بن سعد، عن مالك بن أنس، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة فذكره، و فى معناه أحاديث. و أخرج عبد بن حميد عن أبى صالح وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَ هارُونَ الْفُرْقانَ قال: التوراة. و أخرج ابن جرير عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن زيد قال: الْفُرْقانَ الحقّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أى: القرآن. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ قال: هديناه صغيرا، و فى قوله: ما هذِهِ التَّماثِيلُ قال: الأصنام.

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٥٧ الى ٧٠]

وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ (٦٠) قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ (٦٢) قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لا يَضُرُّكُمْ (٦٦)

أُفٍّ لَكُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (٦٨) قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ (٦٩) وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٤٨٨

قوله: وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ أخبرهم أنه سينتقل من المحاجة باللسان إلى تغيير المنكر بالفعل ثقة باللّه و محاماة على دينه، و الكيد: المكر، يقال: كاده يكيده كيدا و مكيدة، و المراد هنا الاجتهاد فى كسر الأصنام. قيل إنه عليه الصلاة و السلام قال ذلك سرّا، و قيل: سمعه رجل منهم بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ أى: بعد أن ترجعوا من عبادتها ذاهبين منطلقين. قال المفسرون: كان لهم عيد فى كل سنة يجتمعون فيه، فقالوا لإبراهيم:

لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا، فقال إبراهيم هذه المقالة. و الفاء فى قوله: فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً فصيحة، أى: فولوا، فجعلهم جذاذا، الجذّ: القطع و الكسر، يقال: جذذت الشى‏ء قطعته و كسرته، الواحد: جذاذة، و الجذاذ: ما كسر منه. قال الجوهرى: قال الكسائى: و يقال لحجارة الذهب الجذاذ لأنها تكسر. قرأ الكسائى و الأعمش و ابن محيصن «جذاذا» بكسر الجيم، أى: كسرا و قطعا، جمع جذيذ، و هو الهشيم، مثل خفيف و خفاف، و ظريف و ظراف. قال الشاعر:

جذّذ الأصام فى محرابهاذاك فى اللّه العلىّ المقتدر

و قرأ الباقون بالضم، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم، أى: الحطام و الرقاق، فعال بمعنى مفعول، و هذا هو الكيد الذى

وعـدهم به. و قرأ ابن عبـاس و أبو السـمال «جـذاذا» بفتـح الجيم. إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ أى: للأصـنام لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ أى: إلى إبراهيم يَرْجِعُونَ فيحـاجّهم بما سـيأتى فيحجّهم، و قيل: لعلّهم إلى الصـنم الكبير يرجعون فيسألونه عن الكاسـر؛ لأن من شأن المعبود أن يرجع إليه فى المهمات، فإذا رجعوا إليه لم يجدوا عنده خبرا، فيعلمون حينئذ أنها لا تجلب نفعا و لا تدفع ضـررا، و لا تعلم بخير و لا شرّ، و لا تخبر عن الـذى ينوبها من الأمر؛ و قيل: لعلهم إلى اللّه يرجعون، و هو بعيـد جـدّا قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ فى الكلام حـذف، و التقـدير: فلما رجعوا من عيـدهم، و رأوا ما حـدث بآلهتهم، قالوا هـذه المقالـة، و الاسـتفهام للتوبيخ؛ و قيل: إن «من» ليست اسـتفهامية، بل هى مبتـدأ، و خبرها «إنه لمن الظالمين»، أى: فاعل هـذا ظالم، و الأوّل أولى لقولهم: سَمِعْنا فَتًى إلـخ، فإنه قال بهذا بعضـهم مجيبا للمسـتفهمين لهم، و هذا القائل هو الذى سمع إبراهيم يقول: تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ و معنى يَذْكُرُهُمْ يعيبهم، و قد سبق تحقيق مثل هذه العبارة، و جملة يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ صفة ثانية لفتى.

قال الزجاج: و ارتفع إبراهيم على معنى: يقال له هو إبراهيم، فهو على هـذا خبر مبتدأ محذوف؛ و قيل: ارتفاعه على أنه مفعول ما لم يسمّ فاعله؛ و قيل: مرتفع على النداء.

و من غرائب التدقيقات النحوية، و عجائب التوجيهات الإعرابية، أن الأعلم الشنتمرى الإشبيلى قال:

إنه مرتفع على الإهمـال. قـال ابن عطيـة: ذهب إلى رفعه بغير شـىء. و الفتى: هو الشـاب، و الفتـاة الشابـة قـالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ القائلون هم السّائلون، أمروا بعضهم أن يأتوا به ظاهرا بمرأى من الناس. قيل:

إنه لما بلغ الخبر نمروذ و أشراف قومه كرهوا أن يأخذوه بغير بيّنة، فقالوا هذه المقالة ليكون ذلك حجّة عليه يستحلون بها منه ما قـد عزموا على أن يفعلوه به، و معنى لَعَلَّهُمْ يَشْـهَدُونَ لعلهم يحضـرون عقابه حتى ينزجر غيره عن الاقتداء به فى مثل هذا، و قيل: لعلهم يشهدون عليه بأنهم رأوه يكسر الأصنام، أو لعلهم

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۴۸۹

يشـهدون طعنه على أصـنامهم، و جملـة قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هـذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ مسـتأنفة جواب سؤال مقدّر، و فى الكلام حذف تقـديره: فجـاء إبراهيم حين أتوا به؛ فاسـتفهموه هـل فعل ذلك لإقامـة الحجّـة عليه فى زعمهم قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هـذا أى: قال إبراهيم مقيما للحجّة عليهم، مبكّتا لهم، بل فعله كبيرهم هذا، مشيرا إلى الصنم الذى تركه و لم يكسره فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ أى: إن كانوا ممّن يمكنه النطق و يقدر على الكلام و يفهم ما يقال له؛ فيجيب عنه بما يطابقه، أراد عليه الصلاة و السلام أن يبيّن لهم أن من لا يتكلم و لا يعلم ليس بمستحق للعبادة، و لا يصـحّ فى العقل أن يطلق عليه أنه إله. فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بمـا يوقعهم فى الاعتراف بأن الجمادات التى عبـدوها ليست بآلهـة، لأنهم إذا قالوا إنهم لا ينطقون، قال لهم: فكيف تعبـدون من يعجز عن النطق، و يقصـر عن أن يعلم بما يقع عنـده فى المكان الـذى هو فيه؟ فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصـم حتى تلزمه الحجّـة و يعترف بـالحق، فـإن ذلـك أقطع لشـبهته و أدفع لمكابرته، و قيل أراد إبراهيم عليه السـلام بنسبة الفعل إلى ذلك الكبير من الأصـنام أنه فعل ذلك لأنه غار و غضب من أن يعبد و تعبد الصـغار معه إرشادا لهم إلى أن عبادة هذه الأصـنام التى لا تسـمع و لا تبصر، و لا تنفع و لا تدفع، لا تستحسن فى العقل مع وجود خالقها و خالقهم، و الأوّل أولى. و قرأ ابن السّميقع بَلْ فَعَلَهُ بتشديـد اللام، على معنى بل فلعل الفاعل كبيرهم فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ أى: رجع بعضـهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجّته، المتفطّن لصـحة حجّة خصـمه المراجع لعقله، و ذلك أنهم تنبهوا و فهموا عند هذه المقاولة بينهم و بين إبراهيم أن من لا يقدر على دفع المضرّة عن نفسه، و لا على الإضرار بمن فعل به ما فعله إبراهيم بتلك الأصنام، يستحيل أن يكون مستحقّا للعبادة، و لهذا فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ أى:

قال بعضهم لبعض: أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادة هذه الجمادات، و ليس الظالم من نسبتم الظلم إليه بقولكم:

إنه لمن الظالمين ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ أى: رجعوا إلى جهلهم و عنادهم، شبّه سبحانه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشىء أعلاه، و قيل: المعنى: أنهم طأطئوا رؤوسهم خجلا من إبراهيم، و هو ضعيف، لأنه لم يقل نكسوا رؤوسهم بفتح الكاف، و إسناد الفعل إليهم، حتى يصحّ هذا التفسير، بل قال: «نكسوا على رؤوسهم» و قرئ «نكّسوا» بالتشديد، ثم قالوا بعد أن نكسوا مخاطبين لإبراهيم: لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ أى: قائلين لإبراهيم لقد علمت أن النطق ليس من شأن هذه الأصنام، ف قالَ إبراهيم مبكّتا لهم، و مزريا عليهم: أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً من النفع وَ لا يَضُرُّكُمْ بنوع من أنواع الضرر، ثم تضجّر عليه السلام منهم، فقال: أُفٍّ لَكُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ و فى هذا تحقير لهم و لمعبوداتهم، و اللام فى «لكم» لبيان المتأفّف به؛ أى: لكم و لآلهتكم، و التأفف: صوت يدلّ على التضجّر أَ فَلا تَعْقِلُونَ أى: ليس لكم عقول تتفكّرون بها، فتعلمون هذا الصنع القبيح الذى صنعتموه قالُوا حَرِّقُوهُ أى: قال بعضهم لبعض لما أعيتهم الحيلة فى دفع إبراهيم، و عجزوا عن مجادلته، و ضاقت عليهم مسالك المناظرة: حرّقوا إبراهيم، انصرافا منهم إلى طريق الظلم و الغشم، و ميلا منهم إلى إظهار الغلبة بأى وجه كان، و على أىّ أمر اتفق، و لهذا قالوا: وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ أى: انصروها

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۹۰

بالانتقام من هذا الذى فعل بها ما فعل؛ إن كنتم فاعلين للنصر و قيل: هذا القائل هو نمروذ؛ و قيل: رجل من الأكراد قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ فى الكلام حذف تقديره: فأضرموا النار، و ذهبوا بإبراهيم إليها، فعند ذلك قلنا: يا نار كونى ذات برد و سلام؛ و قيل: إن انتصاب سلاما على أنه مصدر لفعل محذوف، أى: و سلّمنا سلاما عليه وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً أى: مكرا فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ أى:

أخسر من كلّ خاسر؛ و رددنا مكرهم عليهم؛ فجعلنا لهم عاقبة السّوء؛ كما جعلنا لإبراهيم عاقبة الخير.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مرّوا عليه، فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إنى سقيم، و قد كان بالأمس قال: تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فسمعه ناس منهم، فلما خرجوا انطلق إلى أهله، فأخذ طعاما، ثم انطلق إلى آلهتهم فقرّبه إليهم، فقال: ألا تأكلون؟ فكسرها إلا كبيرهم، ثم ربط فى يده الذى كسر به آلهتهم، فلما رجع القوم من عيدهم دخلوا، فإذا هم بآلهتهم قد كسرت، و إذا كبيرهم فى يده الذى كسر الأصنام، قالوا: من فعل هذا بآلهتنا؟

فقال الذين سمعوا إبراهيم يقول: تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ فجادلهم عند ذلك إبراهيم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: جُذاذاً قال: حطاما.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: فتاتا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا قال: عظيم آلهتهم. و أخرج أبو داود و الترمذى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لم يكذب إبراهيم فى شىء قط إلا فى ثلاث كلهنّ فى اللّه: قوله: إِنِّي سَقِيمٌ و لم يكن سقيما، و قوله لسارة: أختى «۱»، و قوله: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا» و هذا الحديث هو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة بأطول من هذا. و قد روى نحو هذا أبو يعلى من حديث أبى سعيد. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لما جمع لإبراهيم ما جمع، و ألقى فى النار، جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ فكان أمر اللّه أسرع، قال اللّه: كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً فلم يبق فى الأرض نار إلا طفئت. و أخرج أحمد و ابن ماجة و ابن حبان و أبو يعلى و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن عائشة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ إبراهيم حين ألقى فى النار لم تكن دابة إلا تطفئ عنه النار، غير الوزغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم، فأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بقتله». و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و ابن المنذر عن ابن عمر، قال: أوّل كلمة قالها

إبراهيم حين ألقى فى النار حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ «۲». و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله:
يا نارُ كُونِي قال: كان جبريل هو الـذى ناداها. و أخرج الفريابى و عبـد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة، و أحمد فى الزهد، و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن علىّ نحوه. و أخرج ابن جرير عن معتمر بن سليمان التيمى عن بعض أصحابه قال: جاء جبريل إلى إبراهيم و هو يوثق ليلقى فى النار، فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟
قال: أمّا إليك فلا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن كعب قال: ما أحرقت النار من إبراهيم

---

(۱). يراجع فتح البارى حديث رقم (۶/ ۳۳۵۸)

(۲). آل عمران: ۱۷۳.

إلاـ وثاقه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن المنهال بن عمرو قال: أخبرت أن إبراهيم ألقى فى النار، فكان فيها إما خمسين و إما أربعين، قال: ما كنت أياما و ليالى قط أطيب عيشا إذ كنت فيها، وددت أنّ عيشى و حياتى كلّها مثل عيشى إذ كنت فيها.

[سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۷۱ الى ۷۷]

وَ نَجَّيْنـاهُ وَ لُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنـا فِيهـا لِلْعالَمِينَ (۷۱) وَ وَهَبْنـا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً وَ كُلاًّ جَعَلْنـا صـالِحِينَ (۷۲) وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ (۷۳) وَ لُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (۷۴) وَ أَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (۷۵)
وَ نُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (۷۶) وَ نَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (۷۷)

قـد تقـدّم أنّ لوطـا هو ابن أخى إبراهيم، فحكى اللّه سـبحانه هاهنا أنه نجّى إبراهيم و لوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين. قـال المفسـرون: و هى أرض الشـام، و كانـا بالعراق، و سـمّاها سبحانه مباركـة لكثرة خصـبها و ثمارها و أنهارها، و لأنها معادن الأنبيـاء؛ و أصـل البركـة ثبـوت الخير، و منـه بركـ البعير إذا لزم مكـانه فلـم يـبرح، و قيـل: الأرض المباركـة مكـة؛ و قيـل: بيت المقـدس؛ لأـن منهـا بعث اللّه أكثر الأنبيـاء، و هى أيضـا كثيرة الخصب، و قـد تقـدّم تفسـير العـالمين. ثم قال سـبحانه ممتنا على إبراهيم وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً النافلة: الزيادة، و كان إبراهيم قد سأل اللّه سـبحانه أن يهب له ولدا، فوهب له إسـحاق، ثم وهب لإسحاق يعقوب من غير دعاء، فكان ذلك نافلة، أى: زيادة؛ و قيل: المراد بالنافلة هنا العطية، قاله الزجاج؛ و قيل:
النافلـة هنا ولـد الولـد؛ لأنه زيادة على الولـد، و انتصاب نافلـة على الحال. قال الفراء: النافلـة: يعقوب خاصة؛ لأنه ولد الولد وَ كُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ أى: و كلّ واحد من هؤلاء الأربعة: إبراهيم و لوط و إسـحاق و يعقوب، لا بعضهم دون بعض جعلناه صالحا عاملا بطاعـة اللّه تاركا لمعاصـيه. و قيل: المراد بالصـلاح هنا النبوّة وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا أى: رؤساء يقتدى بهم فى الخيرات و أعمـال الطاعـات، و معنى بأمرنـا: بأمرنـا لهم بـذلك، أى: بما أنزلنا عليهم من الوحى وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ أى: أن يفعلوا الطاعات، و قيل: المراد بالخيرات شـرائع النبوّات وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ أى: كانوا لنا خاصة دون غيرنا مطيعين، فاعلين لما نأمرهم به، تاركين ما ننهاهم عنه وَ لُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً انتصاب لوطا بفعل مضـمر دلّ عليه قوله «آتيناه»، أى: و آتينا لوطا آتيناه؛ و قيل:

بنفس الفعل المذكور بعده؛ و قيل: بمحذوف هو اذكر، و الحكم: النبوّة، و العلم: المعرفة بأمر الدين؛ و قيل: الحكم: هو فصل الخصومات بالحق؛ و قيل: هو الفهم وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ القرية هى سدوم كما تقدّم، و معنى «تعمل الخبائث»: يعمل أهلها الخبائث، فوصفت القرية بوصف أهلها، و الخبائث التى كانوا يعملونها هى

فتح القدير، ج‌٣، ص: ۴۹۲

اللواطة و الضراط و خذف الحصى «۱» كما سيأتى، ثم علّل سبحانه ذلك بقوله: إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ أى: خارجين عن طاعة اللّه، و الفسوق: الخروج كما تقدّم وَ أَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا بإنجائنا إياه من القوم المذكورين، و معنى «فى رحمتنا»: فى أهل رحمتنا، و قيل: فى النبوّة، و قيل: فى الإسلام، و قيل: فى الجنة إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ الذين سبقت لهم منا الحسنى وَ نُوحاً إِذْ نادى أى: و اذكر نوحا إذ نادى ربه مِنْ قَبْلُ أى: من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين فَاسْتَجَبْنا لَهُ دعاءه فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ أى: من الغرق بالطوفان، و الكرب: الغمّ الشديد، و المراد بأهله المؤمنون منهم وَ نَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أى: نصرناه نصرا مستتبعا للانتقام من القوم المذكورين، و قيل: المعنى: منعناه من القوم. و قال أبو عبيدة: من بمعنى على. ثم علّل سبحانه ذلك بقوله: إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ أى: لم نترك منهم أحدا، بل أغرقنا كبيرهم و صغيرهم؛ بسبب إصرارهم على الذنب.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن أبيّ بن كعب فى قوله: إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها قال: الشام.

و أخرج ابن أبى شيبة عن أبى مالك نحوه. و أخرج الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: لوط كان ابن أخى إبراهيم. و أخرج ابن جرير عنه وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ قال: ولدا وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً قال: ابن الابن.

و أخرج ابن جرير عن قتادة نحوه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحكم نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ قال: أعطيناه وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً قال: عطية.

[سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۷۸ الى ۸۸]

وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ (۷۸) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَ كُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فاعِلِينَ (۷۹) وَ عَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ (۸۰) وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ (۸۱) وَ مِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ (۸۲)

وَ أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۸۳) فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ ذِكْرى لِلْعابِدِينَ (۸۴) وَ إِسْماعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (۸۵) وَ أَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (۸۶) وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (۸۷)

فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (۸۸)

---

(۱). أى: رميها.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ۴۹۳

قوله: وَ داوُدَ معطوف على «نُوحاً» و معمول لعامله المذكور، أو المقدّر كما مرّ وَ سُلَيْمانَ معطوف على داود، و الظرف فى إِذْ

يَحْكُمانِ متعلّق بما عمل فى داود، أى: و اذكرهما وقت حكمهما، و المراد من ذكرهما ذكر خبرهما. و معنى فِي الْحَرْثِ فى شأن الحرث، قيل: كان زرعا، و قيل: كرما، و اسم الحرث يطلق عليهما إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ أى: تفرّقت و انتشرت فيه غَنَمُ الْقَوْمِ قال ابن السّكّيت:

النّفش بالتحريك أن تنتشر الغنم بالليل من غير راع وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ أى: لحكم الحاكمين، و فيه جواز إطلاق الجمع على الاثنين، و هو مذهب طائفة من أهل العربية كالزمخشرى و الرضىّ، و تقدّمهما إلى القول به الفراء. و قيل: المراد الحاكمان و المحكوم عليه، و معنى «شاهدين»: حاضرين، و الجملة اعتراضية، و جملة فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ معطوفة على «إذ يحكمان»؛ لأنه فى حكم الماضى، و الضمير فى «ففهمناها» يعود إلى القضية المفهومة من الكلام، أو الحكومة المدلول عليها بذكر الحكم. قال المفسرون:

دخل رجلان على داود، و عنده ابنه سليمان؛ أحدهما صاحب حرث، و الآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا انفلتت غنمه ليلا فوقعت فى حرثى فلم تبق منه شيئا، فقال: لك رقاب الغنم، فقال سليمان:

أو غير ذلك، ينطلق أصحاب الكرم بالغنم فيصيبون من ألبانها و منافعها، و يقوم أصحاب الغنم على الكرم، حتى إذا كان كليلة نفشت فيه دفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم، و دفع هؤلاء إلى هؤلاء كرمهم، فقال داود:

القضاء ما قضيت، و حكم بذلك. قال النحّاس: إنما قضى داود بالغنم لصاحب الحرث لأن ثمنها كان قريبا منه، و أما فى حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمة ما نال من الغنم، و قيمة ما أفسدت الغنم، سواء. قال جماعة من العلماء: إن داود حكم بوحى، و حكم سليمان بوحى نسخ اللّه به حكم داود، فيكون التفهيم على هذا بطريق الوحى. و قال الجمهور: إن حكمهما كان باجتهاد، و كلام أهل العلم فى حكم اجتهاد الأنبياء معروف؛ و هكذا ما ذكره أهل العلم فى اختلاف المجتهدين، و هل كل مجتهد مصيب؛ أو الحق مع واحد؟

و قد استدلّ المستدلون بهذه الآية على أنّ كلّ مجتهد مصيب، و لا شك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ، و أما كون كل واحد منهما مصيبا، فلا تدلّ عليه هذه الآية و لا غيرها، بل صرّح الحديث المتفق عليه فى الصحيحين و غيرهما أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران، و إن اجتهد فأخطأ فله أجر، فسمّاه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مخطئا، فكيف يقال إنه مصيب لحكم اللّه موافق له، فإن حكم اللّه سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين، و إلا لزم توقف حكمه عزّ و جلّ على اجتهادات المجتهدين، و اللازم باطل فالملزوم مثله. و أيضا يستلزم أن تكون العين التى اختلف اجتهاد المجتهدين فيها بالحلّ و الحرمة حلالا و حراما فى حكم اللّه سبحانه. و هذا اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله. و أيضا يلزم أن حكم اللّه سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد له اجتهاد فى تلك الحادثة، و لا ينقطع ما يريده اللّه سبحانه فيها إلا بانقطاع المجتهدين و اللازم باطل فالملزوم مثله. و قد أوضحنا هذه المسألة بما لا مزيد عليه فى المؤلّف الذى سميناه «القول المفيد فى حكم التقليد» و فى «أدب الطلب و منتهى الأرب» فمن أحبّ الوقوف على تحقيق الحق فليرجع إليهما.

فإن قلت: فما حكم هذه الحادثة التى حكم فيها داود و سليمان فى هذه الشريعة المحمدية، و الملة

الإسلامية؟ قلت: قد ثبت عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من حديث البراء أنه شرع لأمته أن على أهل الماشية حفظها بالليل، و على أصحاب الحوائط حفظها بالنهار، و أن ما أفسدت المواشى بالليل مضمون على أهلها، و هذا الضمان هو مقدار الذاهب عينا أو قيمة. و قد ذهب جمهور العلماء إلى العمل بما تضمّنه هذا الحديث، و ذهب أبو حنيفة و أصحابه و جماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ، و أن البهائم إذا أفسدت زرعا فى ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شىء، و أدخلوا فسادها فى عموم قول

النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «جرح العجماء جبار» «۱» قياسا لجميع أفعالها على جرحها. و يجاب عنه بأن هذا القياس فاسد الاعتبار، لأنه فى مقابلة النص، و من أهل العلم من ذهب إلى أنه يضمن ربّ الماشية ما أفسدته من غير فرق بين الليل و النهار. و يجاب عنه بحديث البراء، و ممّا يدلّ على أن هذين الحكمين من داود و سليمان كانا بوحى من اللّه سبحانه لا باجتهاد. قوله: وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً فإن اللّه سبحانه أخبرنا بأنه أعطى كل واحد منهما هذين الأمرين، و هما إن كانا خاصّين فصدقهما على هذه القضية التى حكاها اللّه سبحانه عنهما مقدّم على صدقهما على غيرها، و إن كانا عامّين فهذا الفرد من الحكم و العلم، و هو ما وقع من كل واحد منهما فى هذه القضية أحق أفراد ذلك العام بدخوله تحته و دلالته عليه، و مما يستفاد من دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان بالتفهيم، من عدم كون حكم داود حكما شرعيا، أى: و كلّ واحد منهما أعطيناه حكما و علما كثيرا، لا سليمان وحده. و لما مدح داود و سليمان على سبيل الاشتراك، ذكر ما يختصّ بكل واحد منهما، فبدأ بداود فقال: وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ التسبيح إما حقيقة أو مجاز، و قد قال بالأوّل جماعة و هو الظاهر. و ذلك أن داود كان إذا سبّح سبّحت الجبال معه؛ و قيل: إنها كانت تصلّى معه إذا صلّى، و هو معنى التسبيح. و قال بالمجاز جماعة آخرون، و حملوا التسبيح على تسبيح من رآها تعجبا من عظيم خلقها و قدرة خالقها؛ و قيل: كانت الجبال تسير مع داود، فكان من رآها سائرة معه سبّح. وَ الطَّيْرَ معطوف على الجبال، و قرئ بالرفع على أنه مبتدأ و خبره محذوف، أى: و الطير مسخرات، و لا يصحّ العطف على الضمير فى «يسبحن» لعدم التأكيد و الفصل.

وَ كُنَّا فاعِلِينَ يعنى ما ذكر من التفهيم، و إيتاء الحكم و التسخير وَ عَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ اللبوس عند العرب السلاح كله درعا كان أو جوشنا «۲»، أو سيفا، أو رمحا. قال الهذلى:

و عندى لبوس فى اللباس كأنه، إلخ «۳» ......

---

(۱). «العجماء»: الدابة. و «الجبار»: الهدر.

(۲). «الجوشن»: الدرع.

(۳). فى تفسير القرطبى (۱۱/ ۳۲۱): و معى لبوس للبئيس كأنه.

و عجزه: روق بجبهة ذى نعاج مجفل.

«البئيس»: الشجاع. «الروق»: القرن. «ذو نعاج»: الثور الوحشى.

و المراد فى الآية الدروع خاصة، و هو بمعنى الملبوس، كالركوب و الحلوب، و الجار و المجرور أعنى «لكم» متعلّق ب «علّمناه» ليحصنكم من بأسكم قرأ الحسن و أبو جعفر و ابن عامر و حفص و روح «لِتُحْصِنَكُمْ» بالتاء الفوقية، بإرجاع الضمير إلى الصنعة، أو إلى اللبوس بتأويل الدرع. و قرأ شيبة و أبو بكر و المفضل و ابن أبى إسحاق «لنحصنكم» بالنون بإرجاع الضمير إليه سبحانه. و قرأ الباقون بالياء بإرجاع الضمير إلى اللبوس، أو إلى داود، أو إلى اللّه سبحانه. و معنى مِنْ بَأْسِكُمْ من حربكم، أو من وقع السلاح فيكم فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ لهذه النعمة التى أنعمنا بها عليكم، و الاستفهام فى معنى الأمر. ثم ذكر سبحانه ما خصّ به سليمان، فقال وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ أى: و سخرنا الريح عاصِفَةً أى: شديدة الهبوب. يقال: عصفت الريح، أى: اشتدت، فهى ريح عاصف و عصوف، و انتصاب الريح على الحال.

و قرأ عبد الرحمن الأعرج و السلمى و أبو بكر «و لسليمان الرّيح» برفع الريح على القطع مما قبله، و يكون مبتدأ و خبره «تجرى».

و أما على قراءة النصب فيكون محل تَجْرِي بِأَمْرِهِ النصب أيضا على الحالية، أو على البدلية إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها و هى

أرض الشام كما تقدّم. وَ كُنّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ أى:

بتدبير كلّ شىء وَ مِنَ الشَّياطِينِ أى: و سخّرنا من الشياطين مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ فى البحار و يستخرجون منها ما يطلبه منهم، و قيل: إن «من» مبتدأ و خبره ما قبله، و الغوص: النزول تحت الماء، يقال: غاص فى الماء، و الغوّاص: الذى يغوص فى البحر على اللؤلؤ. وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ قال الفراء: أى سوى ذلك، و قيل: يراد بذلك المحاريب و التماثيل و غير ذلك ممّا يسخرهم فيه وَ كُنّا لَهُمْ حافِظِينَ أى: لأعمالهم. و قال الفرّاء: حافظين لهم من أن يهربوا أو يتمنّعوا، أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره. قال الزجاج: كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا، و كان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار وَ أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ معطوف على ما قبله، و العامل فيه: إما المذكور أو المقدّر كما مرّ، و العامل فى الظرف و هو «إذ نادى ربه» هو العامل فى أيوب أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ أى: بأنى مسنى الضرّ. و قرئ بكسر «إنى».

و اختلف فى الضرّ الذى نزل به ماذا هو، فقيل: إنه قام ليصلى فلم يقدر على النهوض؛ و قيل: إنه أقرّ بالعجز، فلا يكون ذلك منافيا للصبر؛ و قيل: انقطع الوحى عنه أربعين عاما؛ و قيل: إن دودة سقطت من لحمه؛ فأخذها و ردّها فى موضعها فأكلت منه، فصاح: مسنى الضرّ؛ و قيل: كان الدود تناول بدنه فيصبر حتى تناولت دودة قلبه؛ و قيل: إن ضرّه قول إبليس لزوجته اسجدى لى، فخاف ذهاب إيمانها؛ و قيل:

إنه تقذّره قومه؛ و قيل: أراد بالضرّ الشماتة، و قيل غير ذلك. و لما نادى ربه متضرّعا إليه وصفه بغاية الرحمة فقال: وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ فأخبر اللّه سبحانه باستجابته لدعائه، فقال: فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ أى: شفاه اللّه ممّا كان به، و أعاضه بما ذهب عليه، و لهذا قال سبحانه: وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ قيل: تركهم اللّه عزّ و جلّ له، و أعطاه مثلهم فى الدنيا. قال النحّاس: و الإسناد بذلك صحيح، و قد كان مات أهله جميعا إلا امرأته، فأحياهم اللّه فى أقلّ من طرف البصر، و آتاه مثلهم معهم، و قيل: كان

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۹۶

ذلك بأن ولد له ضعف الذين أماتهم اللّه، فيكون معنى الآية على هذا: آتيناه مثل أهله و مثلهم معهم، و انتصاب رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا على العلّة، أى: آتيناه ذلك لرحمتنا له وَ ذِكْرى لِلْعابِدِينَ أى: و تذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر.

و اختلف فى مدّة إقامته على البلاء، فقيل: سبع سنين و سبعة أشهر و سبعة أيام و سبع ليال، و قيل: ثلاثين سنة، و قيل: ثمانى عشرة سنة وَ إِسْماعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ أى: و اذكر هؤلاء، و إدريس هو أخنوخ، و ذا الكفل إلياس، و قيل: يوشع بن نون، و قيل: زكريا. و الصّحيح أنه رجل من بنى إسرائيل كان لا يتورّع عن شىء من المعاصى، فتاب فغفر اللّه له؛ و قيل: إن اليسع لما كبر قال: من يتكفّل لى بكذا و كذا من خصال الخير حتى أستخلفه؟ فقال رجل: أنا، فاستخلفه و سمّى ذا الكفل. و قيل: كان رجلا يتكفّل بشأن كل إنسان إذا وقع فى شىء من المهمات، و قيل غير ذلك. و قد ذهب الجمهور إلى أنه ليس بنبىّ.

و قال جماعة: هو نبىّ. ثم وصف اللّه سبحانه هؤلاء بالصبر فقال: كُلٌّ مِنَ الصّابِرِينَ أى: كلّ واحد من هؤلاء من الصابرين على القيام بما كلّفهم اللّه به وَ أَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا أى: فى الجنة، أو فى النبوّة، أو فى الخير على عمومه، ثم علّل ذلك بقوله: إِنَّهُمْ مِنَ الصّالِحِينَ أى: الكاملين فى الصلاح وَ ذَا النُّونِ أى: و اذكر ذا النون، و هو يونس بن متى، و لقّب «ذا النون» لابتلاع الحوت له، فإن النون من أسماء الحوت؛ و قيل: سمّى «ذا النون» لأنه رأى صبيا مليحا فقال دسّموا نونته؛ لئلا تصيبه العين.

و حكى ثعلب عن ابن الأعرابى أن نونة الصبى هى الثقبة التى تكون فى ذقن الصبىّ الصغير، و معنى دسّموا:

سوّدوا إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً أى: اذكر ذا النون وقت ذهابه مغاضبا، أى: مراغما. قال الحسن و الشعبى و سعيد بن جبير: ذهب مغاضبا لربه، و اختاره ابن جرير و القتبى و المهدوى. و حكى عن ابن مسعود. قال النحاس: و ربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة، و هو

قول صحيح. و المعنى: مغاضبا من أجل ربه، كما تقول غضبت لك، أى: من أجلك. و قال الضحّاك: ذهب مغاضبا لقومه. و حكى عن ابن عباس. و قالت فرقة منهم الأخفش: إنما خرج مغاضبا للملك الذى كان فى وقته و اسمه حزقيا؛ و قيل: لم يغاضب ربه و لا قومه و لا الملك، و لكنه مأخوذ من غضب إذا أنف، و ذلك أنه لما وعد قومه بالعذاب و خرج عنهم تابوا و كشف اللّه عنهم العذاب، فلما رجع و علم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك، فخرج عنهم؛ و من استعمال الغضب فى هذا المعنى قول الشاعر:

و أغضب أن تهجى تميم بعامر «۱» أى: آنف. فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ قرأ الجمهور «نقدر» بفتح النون و كسر الدال.

و اختلف فى معنى الآية على هذه القراءة؛ فقيل: معناها: أنه وقع فى ظنه أن اللّه تعالى لا يقدر على معاقبته.

و قد حكى هذا القول عن الحسن و سعيد بن جبير، و هو قول مردود، فإن هذا الظنّ باللّه كفر، و مثل ذلك

---

(۱). فى تفسير القرطبى (۱۱/ ۳۳۱): بدارم.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۹۷

لا يقع من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام. و ذهب جمهور العلماء أن معناها: فظنّ أن لن نضيق عليه، كقوله:

يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ* «۱» أى: يضيق، و منه قوله: وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ يقال: قدر و قدر، و قتر و قتر؛ أى: ضيّق؛ و قيل: هو من القدر الذى هو القضاء و الحكم؛ أى: فظنّ أن لن نقضى عليه العقوبة، قاله قتادة و مجاهد، و اختاره الفرّاء و الزجّاج، مأخوذ من القدر و هو الحكم دون القدرة و الاستطاعة.

قال أحمد بن يحيى ثعلب: هو من التقدير ليس من القدرة، يقال منه: قدّر اللّه لك الخير يقدره قدرا، و أنشد ثعلب:

فليست عشيات اللّوى برواجعلنا أبدا ما أبرم «۲» السّلم النّضر

و لا عائد ذاك الزمان الذى مضىتباركت ما تقدر يقع و ذلك «۳» الشكر

أى: ما تقدره و تقضى به، و ممّا يؤيد ما قاله هؤلاء قراءة عمر بن عبد العزيز و الزهرى «فظنّ أن نقدّر» بضم النون و تشديد الدال، من التقدير. و حكى هذه القراءة الماوردى عن ابن عباس، و يؤيد ذلك أيضا قراءة عبيد بن عمير و قتادة و الأعرج «أن لن يقدّر» بضم الياء و التشديد مبنيا للمفعول، و قرأ يعقوب و عبد اللّه ابن إسحاق و الحسن «يقدر» بضم الياء و فتح الدال مخففا مبنيا للمفعول.

و قد اختلف العلماء فى تأويل الحديث الصحيح فى قول الرجل الذى لم يعمل خيرا قط لأهله أن يحرقوه إذا مات، ثم قال: فو اللّه لئن قدر اللّه علىّ ... الحديث. كما اختلفوا فى تأويل هذه الآية، و الكلام فى هذا يطول، و قد ذكرنا هاهنا ما لا يحتاج معه الناظر إلى غيره، و الفاء فى قوله: فَنادى فِي الظُّلُماتِ فصيحة أى: كان ما كان من التقام الحوت له، فنادى فى الظلمات، و المراد بالظلمات: ظلمة الليل، و ظلمة البحر، و ظلمة بطن الحوت، و كان نداؤه: هو قوله: أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ أى:

بأن لا إله إلّا أنت ... إلخ، و معنى سبحانك: تنزيها لك من أن يعجزك شىء، إنى كنت من الظالمين الذين يظلمون أنفسهم؛ قال الحسن و قتادة: هذا القول من يونس اعتراف بذنبه و توبة من خطيئته، قال ذلك و هو فى بطن الحوت، ثم أخبر اللّه سبحانه بأنه استجاب له فقال: فَاسْتَجَبْنا لَهُ دعاءه الذى دعانا به فى ضمن اعترافه بالذنب على ألطف وجه وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ بإخراجنا له من بطن الحوت حتى قذفه إلى الساحل وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ أى: نخلّصهم من همّهم بما سبق من علمهم، و ما أعددناه لهم من الرحمة، و هذا هو معنى الآية الأخرى، و هى قوله: فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ- لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ «۴». قرأ الجمهور نُنَجِّي بنونين، و قرأ ابن عامر «نجّى» بنون واحدة و جيم مشدّدة و تسكين الياء على الفعل الماضى و إضمار المصدر، و كذلك

نجى النجاء المؤمنين، كما تقول ضرّب زيدا، أى: ضرب

---

(١). الرعد: ٢۶ و فى غيرها.

(٢). فى تفسير القرطبى (١١/ ٣٣٢): أورق.

(٣). فى تفسير القرطبى (١١/ ٣٣٢): و لك.

(۴). الصافات: ١۴٣- ١۴۴.

الضرب زيدا، و منه قول الشاعر «١»:

و لو ولدت قفيرة «٢» جرو كلب‌لسبّ بذلك الجرو الكلابا

هكذا قال فى توجيه هذه القراءة الفرّاء و أبو عبيد و ثعلب، و خطأها أبو حاتم و الزجّاج و قالا: هى لحن لأنه نصب اسم ما لم يسمّ فاعله، و إنما يقال نجّى المؤمنون. و لأبى عبيدة قول آخر، و هو أنه أدغم النون فى الجيم، و به قال القتبى. و اعترضه النحاس فقال: هذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين لبعد مخرج النون من مخرج الجيم فلا يدغم فيها، ثم قال النحاس: لم أسمع فى هذا أحسن من شى‌ء سمعته من علىّ بن سليمان الأخفش قال: الأصل ننجى، فحذف إحدى النونين لاجتماعهما، كما تحذف إحدى التاءين لاجتماعهما، نحو قوله تعالى: وَ لا تَفَرَّقُوا «٣» و الأصل: و لا تتفرّقوا. قلت: و كذا الواحدى عن أبى علىّ الفارسى أنه قال: إن النون الثانية تخفى مع الجيم، و لا يجوز تبيينها، فالتبس على السامع الإخفاء بالإدغام، فظنّ أنه إدغام، و يدلّ على هذا إسكانه الياء من نجى و نصب المؤمنين، و لو كان على ما لم يسمّ فاعله ما سكن الياء و لوجب أن يرفع المؤمنين. قلت: و لا نسلم قوله إنه لا يجوز تبيينها فقد بينت فى قراءة الجمهور، و قرأ محمد بن السّميقع و أبو العالية وَ كَذلِكَ نُنْجِی الْمُؤْمِنِينَ على البناء للفاعل؛ أى: نجّى اللّه المؤمنين.

و قد أخرج ابن جرير عن مرّة فى قوله: إِذْ يَحْكُمانِ فِی الْحَرْثِ قال: كان الحرث نبتا فنفشت فيه ليلا، فاختصموا فيه إلى داود، فقضى بالغنم لأصحاب الحرث، فمرّوا على سليمان فذكروا ذلك له، فقال: لا، تدفع الغنم فيصيبون منها، و يقوم هؤلاء على حرثهم، فإذا كان كما كان ردّوا عليهم، فنزلت فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ و قد روى هذا عن مرّة عن ابن مسعود. و أخرج ابن جرير و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن مسعود فى قوله: وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِی الْحَرْثِ قال: كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته الغنم، فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبىّ اللّه، قال:

و ما ذاك؟ قال: يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، و تدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا عاد الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه و الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله:

فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن مسروق نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه، و لكنه لم يذكر الكرم. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا نَفَشَتْ قال: رعت.

و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و أبو داود و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن حرام بن محيّصة: أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطا فأفسدت فيه، فقضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار، و أن ما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها. و قد علّل هذا الحديث، و قد بسطنا الكلام عليه فى «شرح المنتقى». و أخرج ابن مردويه من حديث عائشة نحوه،

(۱). هو جرير.

(۲). أم الفرزدق.

(۳). آل عمران ۱۰۳.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۹۹

و زاد فی آخره، ثم تلا هذه الآيۀ وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ الآيۀ. و فی الصحيحين و غيرهما من حديث أبی هريرۀ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «بينما امرأتان معهما ابنان، جاء الذئب فأخذ أحد الاثنين، فتحا كما إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقّه بينهما، فقالت الصغرى: رحمك اللّه، هو ابنها لا تشقّه، فقضى به للصّغرى»، و هذا الحديث و إن لم يكن داخلا فيما حكته الآيۀ من حكمهما، لكنه من جملۀ ما وقع لهما.

و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و أبو الشيخ فی العظمۀ، عن قتادۀ فی قوله: وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ قال: يصلّين مع داود إذا صلّى، وَ عَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ قال: كانت صفائح، فأوّل من سردها و حلّقها داود عليه السلام. و أخرج ابن أبی شيبۀ، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: كان سليمان يوضع له ستّمائۀ ألف كرسی، ثم يجیء أشراف الإنس فيجلسون ممّا يليه، ثم يجیء أشراف الجنّ فيجلسون ممّا يلی أشراف الإنس، ثم يدعو الطير فتظلّهم، ثم يدعو الريح فتحملهم، تسير مسيرۀ شهر فی الغداۀ الواحدۀ. و أخرج ابن عساكر و الديلمی و ابن النجار عن عقبۀ ابن عامر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «قال اللّه لأيوب: تدری ما جرمك علیّ حتى ابتليتك؟ قال: لا، يا رب، قال: لأنك دخلت على فرعون فداهنت عنده فی كلمتين». و أخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: إنما كان ذنب أيوب أنه استعان به مسكين على ظالم يدرؤه فلم يعنه، و لم يأمر بالمعروف، و لم ينه الظالم عن ظلم المسكين، فابتلاه اللّه. و فی إسناده جويبر. و أخرج ابن أبی شيبۀ، و أحمد فی الزهد، و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و أبو نعيم فی الحليۀ، عن عبد اللّه بن عبيد بن عمير قال: كان لأيوب أخوان، جاءا يوما فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان علم اللّه من أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعا لم يجزع من شیء قطّ مثله، فقال: اللهمّ إن كنت تعلم أنی لم أبت ليلۀ قط شبعان، و أنا أعلم مكان جائع فصدّقنی فصدّق من السماء و هما يسمعان، ثم قال: اللهمّ إن كنت تعلم أنی لم ألبس قميصا قط و أنا أعلم مكان عار فصدّقنی، فصدّق من السماء و هما يسمعان، ثم خرّ ساجدا و قال: اللهمّ بعزّتك لا أرفع رأسی حتى تكشف عنی، فما رفع رأسه حتى كشف اللّه عنه. و قد رواه ابن أبی حاتم من وجه آخر مرفوعا بنحو هذا. و أخرج ابن أبی شيبۀ و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ قال: قيل له: يا أيوب إن أهلك لك فی الجنۀ، فإن شئت أتيناك بهم، و إن شئت تركناهم لك فی الجنۀ و عوّضناك مثلهم، قال: لا، بل اتركهم لی فی الجنۀ، قال: فتركوا له فی الجنۀ، و عوّض مثله فی الدنيا. و أخرج ابن أبی شيبۀ و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانی عن الضحّاك قال: بلغ ابن مسعود أن مروان قال فی هذه الآيۀ وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ قال: أوتی أهلا غير أهله، فقال ابن مسعود: بل أوتی أهله بأعيانهم و مثلهم معهم.

و أخرج ابن أبی الدنيا و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبی حاتم و الرويانی و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن أيوب لبث به بلاؤه ثمانی عشرۀ سنۀ، فرفضه القريب

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۰۰

فتح القدير ج۳ ۵۴۹

و البعيد؛ إلا رجلين من إخوانه كانا من أخصّ إخوانه، كانا يغدوان إليه و يروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم و اللّه لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد، قال: و ما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه اللّه فيكشف عنه ما به، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك، فقال أيوب:
لا أدرى ما تقول؛ غير أن اللّه يعلم أنى أمرّ بالرجلين يتنازعان يذكران اللّه فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهة أن يذكر اللّه إلا فى حق، و كان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى اللّه إلى أيوب فى مكانه أن ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ فاستبطأته فتلقّته، و أقبل عليها قد أذهب اللّه ما به من البلاء و هو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أى، بارك اللّه فيك، هل رأيت نبيّ اللّه المبتلى، و اللّه على ذاك ما رأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحا. قال: فإنى أنا هو، قال: و كان له أندران «١»: أندر للقمح، و أندر للشعير، فبعث اللّه سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، و أفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق «٢» حتى فاض».
و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ ذَا الْكِفْلِ قال: رجل صالح غير نبيّ تكفل لنبيّ قومه أن يكفيه أمر قومه و يقيمهم له، و يقضى بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمّى ذا الكفل. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان فى بنى إسرائيل قاض فحضره الموت، فقال: من يقوم مقامى على أن لا يغضب، فقال رجل: أنا، فسمّى ذا الكفل، فكان ليله جميعا يصلى، ثم يصبح صائما فيقضى بين الناس، و ذكر قصة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى قال: ما كان ذو الكفل نبيا، و لكن كان فى بنى إسرائيل رجل صالح يصلى كلّ يوم مائة صلاة فتوفى، فتكفّل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلى كل يوم مائة صلاة، فسمى ذا الكفل. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد، و الترمذى و حسّنه، و ابن المنذر و ابن حبان و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى شعب الإيمان، من طريق سعد مولى طلحة عن ابن عمر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «كان الكفل «٣» من بنى إسرائيل لا يتورّع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت و بكت، فقال: ما يبكيك؟ أكرهتك؟ قالت: لا، و لكنه عمل ما عملته قط، و ما حملنى عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنت هذا و ما فعلته؟! اذهبى فهى لك، و قال: و اللّه لا أعصى اللّه بعدها أبدا، فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه: إنّ اللّه قد غفر للكفل».
و أخرجه الترمذى و حسّنه، و الحاكم و ابن مردويه من طريق سعد مولى طلحة. و أخرجه ابن مردويه من

---

(١). «الأندر»: البيدر.

(٢). أى الفضّة.

(٣). رواه ابن حبان بلفظ (ذو الكفل) برقم (٣٨٧) و رواه الترمذى برقم: (٢٤٩٦) و أحمد برقم (٢/ ٢٣) بلفظ: (الكفل)

طريق نافع عن ابن عمرو قال: فيه ذو الكفل. و أخرج ابن جرير و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً يقول: غضب على قومه فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ يقول: أن لن نقضى عليه عقوبة و لا بلاء فيما صنع بقومه فى غضبه عليهم و فراره، قال: و عقوبته أخذ النون «١» إياه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ قال: ظنّ أن لن يأخذه العذاب الذى أصابه. و أخرج أحمد فى الزهد، و ابن أبى الدنيا و ابن أبى

حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود فَنادى فِي الظُّلُماتِ قال: ظلمة الليل، و ظلمة بطن الحوت، و ظلمة البحر. و أخرج أحمد و الترمذی و النسائی، و الحكيم الترمذی فی نوادر الأصول، و البزار و ابن جرير و ابن أبی حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقی فی الشعب، عن سعد بن أبی وقاص سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «دعوة ذی النون إذ هو فی بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إنی كنت من الظالمين، لم يدع بها مسلم ربّه فی شیء قط إلا استجاب له». و أخرج ابن جرير عنه قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول:

«اسم اللّه الذی إذا دعی به أجاب، و إذا سئل به أعطى: دعوة يونس بن متّى، قلت: يا رسول اللّه، هل ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هی ليونس خاصة و للمؤمنين عامة إذا دعوا به، ألم تسمع قول اللّه وَ كَذلِكَ نُنْجِی الْمُؤْمِنِينَ فهو شرط من اللّه لمن دعاه». و أخرج الحاكم من حديثه أيضا نحوه.

و قد ثبت فی الصّحيحين و غيرهما من حديث ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا ينبغی لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متی». و روی أيضا فی الصحيح و غيره من حديث ابن مسعود، و روی أيضا فی الصحيحين من حديث أبی هريرة.

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٨٩ الى ٩٧]

وَ زَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِی فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِی الْخَيْراتِ وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ (٩٠) وَ الَّتِی أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (٩١) إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (٩٣)

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنَّا لَهُ كاتِبُونَ (٩٤) وَ حَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِیَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِی غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ (٩٧)

قوله: وَ زَكَرِيَّا أی: و اذكر خبر زكريا وقت ندائه لربه قال: رَبِّ لا تَذَرْنِی فَرْداً أی:

منفردا وحيدا لا ولد لی. و قد تقدّم الكلام على هذه الآية فی آل عمران. وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ أی:

---

(١). أی الحوت.

خير من يبقى بعد كلّ من يموت، فأنت حسبی إن لم ترزقنی ولدا، فإنی أعلم أنك لا تضيع دينك، و أنه سيقوم بذلك من عبادك من تختاره له و ترتضيه للتبليغ فَاسْتَجَبْنا لَهُ دعاءه وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى و قد تقدّم مستوفى فی سورة مريم. وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ قال أكثر المفسرين: إنها كانت عاقرا فجعلها اللّه ولودا، فهذا هو المراد بإصلاح زوجه؛ و قيل: كانت سيّئة الخلق، فجعلها اللّه سبحانه حسنة الخلق، و لا مانع من إرادة الأمرين جميعا، و ذلك بأن يصلح اللّه سبحانه ذاتها، فتكون ولودا بعد أن كانت عاقرا، و يصلح أخلاقها، فتكون أخلاقها مرضية بعد أن كانت غير مرضية. و جملة إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِی الْخَيْراتِ للتعليل لما قبلها من إحسانه سبحانه إلى أنبيائه عليهم الصلاة و السلام، فالضمير المذكور راجع إليهم، و قيل:

هو راجع إلى زكريا و امرأته و يحيى. ثم وصفهم اللّه سبحانه بأنهم كانوا يدعونه رَغَباً وَ رَهَباً أی:

يتضرّعون إليه فی حال الرّخاء و حال الشدّة، و قيل: الرغبة: رفع بطون الأكفّ إلى السماء، و الرهبة رفع ظهورها. و انتصاب رغبا

و رهبا على المصدرية، أى: يرغبون رغبا و يرهبون رهبا، أو على العلة، أى: للرّغب و الرّهب، أو على الحال، أى: راغبين و راهبين. و قرأ طلحة بن مصرّف و يدعونا بنون واحدة، و قرأ الأعمش بضم الراء فيهما و إسكان ما بعده، و قرأ ابن وثّاب بفتح الراء فيهما مع إسكان ما بعده، و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو، و قرأ الباقون بفتح الراء و فتح ما بعده فيهما. وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ أى: متواضعين متضرّعين وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها أى: و اذكر خبرها، و هى مريم، فإنها أحصنت فرجها من الحلال و الحرام، و لم يمسسها بشر، و إنما ذكرها مع الأنبياء، و إن لم تكن منهم، لأجل ذكر عيسى، و ما فى ذكر قصّتها من الآية الباهرة فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا أضاف سبحانه الروح إليه، و هو للملك تشريفا و تعظيما، و هو يريد روح عيسى وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ قال الزجّاج: الآية فيهما واحدة؛ لأنها ولدته من غير فحل؛ و قيل: إن التقدير على مذهب سيبويه: و جعلناها آية و جعلنا ابنها آية، كقوله سبحانه: وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ «١»، و المعنى: إنّ اللّه سبحانه جعل قصّتهما آية تامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما. و قيل: أراد بالآية الجنس الشامل، لما لكلّ واحد منهما من الآيات، و معنى أحصنت: عفّت فامتنعت من الفاحشة و غيرها؛ و قيل: المراد بالفرج جيب القميص؛ أى: أنها طاهرة الأثواب، و قد مضى بيان مثل هذا فى سورة النساء و مريم. ثم لمّا ذكر سبحانه الأنبياء بيّن أنهم كلّهم مجتمعون على التوحيد فقال: إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً و الأمة: الدّين كما قال ابن قتيبة، و منه: إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ «٢» أى: على دين، كأنه قال: إن هذا دينكم دين واحد لا خلاف بين الأمم المختلفة فى التوحيد، و لا يخرج عن ذلك إلا الكفرة المشركون باللّه؛ و قيل: المعنى: إنّ هذه الشريعة التى بيّنتها لكم فى كتابكم شريعة واحدة؛ و قيل: المعنى:

إن هذه ملّتكم ملّة واحدة، و هى ملّة الإسلام. و انتصاب أمة واحدة على الحال، أى: متفقة غير مختلفة، و قرئ: إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ بنصب أمتكم على البدل من اسم إنّ و الخبر «أمة واحدة». و قرئ برفع أُمَّتُكُمْ و رفع أمة على أنهما خبران؛ و قيل: على إضمار مبتدأ، أى: هى أمة واحدة. و قرأ

(١). التوبة: ٦٢.

(٢). الزخرف: ٢٢.

الجمهور برفع أُمَّتُكُمْ على أنه الخبر و نصب أُمَّةً على الحال كما قدّمنا. و قال الفراء و الزجاج على القطع بسبب مجيء النكرة بعد تمام الكلام. وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ خاصة لا تعبدوا غيرى كائنا ما كان وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ أى: تفرقوا فرقا فى الدّين حتى صار كالقطع المتفرّقة. و قال الأخفش: اختلفوا فيه، و هو كالقول الأوّل. قال الأزهرى: أى: تفرقوا فى أمرهم، فنصب أمرهم بحذف فى، و المقصود بالآية المشركون، ذمّهم اللّه بمخالفة الحق و اتخاذهم آلهة من دون اللّه؛ و قيل: المراد جميع الخلق، و أنهم جعلوا أمرهم فى أديانهم قطعا و تقسّموه بينهم، فهذا موحّد، و هذا يهودىّ، و هذا نصرانىّ، و هذا مجوسىّ، و هذا عابد وثن. ثم أخبر سبحانه بأن مرجع الجميع إليه فقال: كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ أى: كلّ واحد من هذه الفرق راجع إلينا بالبعث، لا إلى غيرنا. فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ أى: من يعمل بعض الأعمال الصالحة، لا كلّها، إذ لا يطيق ذلك أحد وَ هُوَ مُؤْمِنٌ باللّه و رسله و اليوم الآخر فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ أى:

لا جحود لعمله، و لا تضييع لجزائه، و الكفر ضدّ الإيمان، و الكفر أيضا: جحود النعمة، و هو ضدّ الشكر، يقال: كفر كفورا و كفرانا، و فى قراءة ابن مسعود «فلا كفر لسعيه». وَ إِنَّا لَهُ كاتِبُونَ أى: لسعيه حافظون، و مثله قوله سبحانه: أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى «١». وَ حَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها قرأ زيد بن ثابت و أهل المدينة وَ حَرامٌ و قرأ أهل الكوفة «و حرم» و قد

اختـار القراءة الأولى أبو عبيـد و أبو حـاتم، و رويت القراءة الثانيـة عن علىّ و ابن مسـعود و ابن عبـاس، و همـا لغتان مثل حلّ و حلال. و قرأ سـعيد بن جبير «و حرم» بفتح الحاء و كسر الراء و فتح الميم. و قرأ عكرمة و أبو العالية «حرم» بضم الراء و فتح الحاء و الميم. و معنى أَهْلَكْناها: قـدّرنا إهلاكها، و جملـة أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ فى محلّ رفع على أنه مبتدأ، و خبره حرام، أو على أنه فاعل له سادّ مسـدّ خبره. و المعنى: و ممتنع ألبتـة عـدم رجوعهم إلينا للجزاء؛ و قيل: إن لا فى «لا يَرْجِعُونَ» زائـدة، أى: حرام على قرية أهلكناهـا أن يرجعوا بعـد الهلاـك إلى الـدنيا. و اختـار هـذا أبو عبيـدة؛ و قيل: إنّ لفظ حرام هنا بمعنى الواجب: أى واجب على قرية، و منه قول الخنساء:

و إنّ حرامـا لاـ أرى الـدّهر باكيـا* على شـجوه إلاـ بكيت على صـخر و قيل: حرام، أى: ممتنع رجوعهم إلى التوبـة، على أن «لا» زائـدة. قال النحّاس: و الآية مشـكلة، و من أحسن ما قيل فيها و أجلّه ما رواه ابن عيينة و ابن عليّة و هشـيم و ابن إدريس و محمد بن فضيل و سليمان بن حيان و معلّى عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى معنى الآية قال: واجب أنهم لا يرجعون، أى: لا يتوبون. قال الزجّاج و أبو على الفارسـى: إنّ فى الكلام إضـمارا، أى: و حرام على قرية حكمنا باستئصالها، أو بالختم على قلوب أهلها، أن يتقبّل منهم عمل لأنهم لا يرجعون، أى: لا يتوبون. حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ «حتى» هذه هى التى يحكى بعـدها الكلاـم، و يـأجوج و مـأجوج قبيلتـان من الإـنس، و المراد بفتـح يـأجوج و مـأجوج فتـح السـدّ الـذى عليهم، على حـذف المضاف؛ و قيل: إنّ «حتى»

---

(۱). آل عمران: ۱۹۵.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۰۴

هذه هى التى للغاية. و المعنى: إنّ هؤلاء المذكورين سابقا مستمرّون على ما هم عليه إلى يوم القيامة، و هى يوم فتح سدّ يأجوج و مأجوج وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ الضمير ليأجوج و مأجوج. و الحدب:

كلّ أكمة من الأرض مرتفعة و الجمع أحداب، مأخوذ من حدبة الأرض، و معنى يَنْسِلُونَ يسرعون، و قيل: يخرجون. قال الزجّاج: و النسـلان: مشيـة الـذئب إذا أسـرع. يقال: نسل فلان فى العـدو ينسل بالكسـر و الضم نسـلا و نسولا و نسـلانا؛ أى: إن يأجوج و مـأجوج من كـلّ مرتفـع من الأـرض يسـرعون المشـى، و يتفرقون فى الأـرض؛ و قيـل: الضـمير فى قوله: «و هم» لجميع الخلق؛ و المعنى أنهم يحشـرون إلى أرض الموقف و هم يسـرعون من كلّ مرتفع من الأرض. و قرئ بضم السـين، حكى ذلك المهـدوى عن ابن مسعود. و حكى هذه القراءة أيضا الثعلبى عن مجاهد و أبى الصهباء. وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ عطف على «فتحت»، و المراد ما بعد الفتح من الحساب. و قال الفراء و الكسائى و غيرهما: المراد بالوعد الحق القيامة، و الواو زائدة؛ و المعنى:

حتى إذا فتحت يأجوج و مأجوج اقترب الوعد الحق و هو القيامة، فاقترب جواب إذا، و أنشد الفراء:

فلمّا أجزنا ساحة الحىّ و انتحى «۱» ....

أى: انتحى. و منه قوله تعالى: وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ- وَ نادَيْناهُ «۲»، و أجاز الفراء أن يكون جواب إذا فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا و قال البصـريون: الجواب محـذوف، و التقـدير: قالوا يا ويلنا. و به قال الزّجّاج، و الضـمير فى فَإِذا هِيَ للقصّـة، أو مبهم يفسّـره ما بعده، و إذا للمفاجأة؛ و قيل إن الكلام تمّ عند قوله هى، و التقدير: فإذا هى، يعنى القيامة بارزة واقعة كأنها آتية حاضـرة، ثم ابتدأ فقال: شاخصـة أبصار الـذين كفروا، على تقديم الخبر على المبتدأ، أى: أبصار الذين كفروا شاخصة، و يا وَيْلَنا على تقدير القول قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا أى: من هذا الذى دهمنا من البعث و الحساب بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ أضربوا عن وصف أنفسهم بالغفلة، أى: لم نكن غافلين، بل كنّا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب و عدم الانقياد للرسل.

و قد أخرج الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس في قوله: وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ قال: كان في لسان امرأة زكريا طول فأصلحه اللّه. و روى نحو ذلك عن جماعة من التابعين. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: وهبنا له ولدها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن قتادة قال: كانت عاقرا فجعلها اللّه ولودا، و وهب له منها يحيى، و في قوله: وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ قال: أذلّاء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله: يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً قال: رغبا في رحمة اللّه و رهبا من

---

(١). البيت لامرئ القيس، و تمامه: بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل.

«البطن»: مكان مطمئن حوله أماكن مرتفعة. «الخبت» أرض مطمئنة. «الحقف»: رمل مشرف معوج.

«العقنقل»: الرمل المنعقد المتلبّد.

(٢). الصافات: ١٠٣، ١٠٤.

عذاب اللّه. و أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قول اللّه سبحانه:

وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً قال: «رغبا هكذا و رهبا هكذا، و بسط كفيه، يعني جعل ظهرهما للأرض في الرغبة و عكسه في الرهبة». و أخرج ابن أبي شيبة و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و أبو نعيم في الحلية، و الحاكم و صحّحه، و البيهقي في الشعب، عن عبد اللّه بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر الصديق فحمد اللّه و أثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإني أوصيكم بتقوى اللّه، و أن تثنوا عليه بما هو له أهل، و أن تخلطوا الرغبة بالرهبة، فإن اللّه أثنى على زكريا و أهل بيته فقال: إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً قال:

إنّ هذا دينكم دينا واحدا. و أخرج ابن جرير عن مجاهد مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ قال: تقطعوا:

اختلفوا في الدين. و أخرج الفريابي و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و البيهقي في الشعب، عن ابن عباس في قوله:

وَ حَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها قال: وجب إهلاكها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ قال: لا يتوبون. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ: و حرم على قرية قال: وجب على قرية أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ كما قال: أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ «١». و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة و سعيد بن جبير مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: مِنْ كُلِّ حَدَبٍ قال: شرف يَنْسِلُونَ قال: يقبلون، و قد ورد في صفة يأجوج و مأجوج و في وقت خروجهم أحاديث كثيرة لا يتعلّق بذكرها هنا كثير فائدة.

---

(١). يس: ٣١.

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٩٨ الى ١١٢]

إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (٩٨) لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَ كُلٌّ فِيها خالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ هُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَ هُمْ

فِی مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ (۱۰۲)
لا یَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَکْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِکَةُ هـذا یَوْمُکُمُ الَّذِی کُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۱۰۳) یَوْمَ نَطْوِی السَّماءَ کَطَیِّ السِّجِلِّ لِلْکُتُبِ کَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِیدُهُ وَعْداً عَلَیْنا إِنَّا کُنَّا فاعِلِینَ (۱۰۴) وَ لَقَدْ کَتَبْنا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّکْرِ أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُها عِبادِیَ الصَّالِحُونَ (۱۰۵) إِنَّ فِی هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِینَ (۱۰۶) وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِینَ (۱۰۷)
قُلْ إِنَّما یُوحی إِلَیَّ أَنَّما إِلهُکُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۰۸) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُکُمْ عَلی سَواءٍ وَ إِنْ أَدْرِی أَ قَرِیبٌ أَمْ بَعِیدٌ ما تُوعَدُونَ (۱۰۹) إِنَّهُ یَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ یَعْلَمُ ما تَکْتُمُونَ (۱۱۰) وَ إِنْ أَدْرِی لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَکُمْ وَ مَتاعٌ إِلی حِینٍ (۱۱۱) قالَ رَبِّ احْکُمْ بِالْحَقِّ وَ رَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلی ما تَصِفُونَ (۱۱۲)
بیّن سبحانه حال معبودهم یوم القیامة فقال: إِنَّکُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ و هذا خطاب منه سبحانه لأهل مکة، و المراد بقوله «و ما تعبدون»: الأصنام التی کانوا یعبدون. قرأ الجمهور حَصَبُ بالصاد المهملة، أی: وقود جهنم و حطبها، و کل ما أوقدت به النار أو هیّجتها به فهو حصب، کذا قال الجوهری. قال أبو عبیدة: کل ما قذفته فی النار فقد حصبتها به، و مثل ذلک قوله تعالی: فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِی وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ «۱» و قرأ علیّ بن أبی طالب و عائشة حطب جهنّم بالطاء، و قرأ ابن عباس «حضب» بالضاد المعجمة. قال القراء: ذکر لنا أن الحضب فی لغة أهل الیمن الحطب، و وجه إلقاء الأصنام فی النار، مع کونها جمادات لا تعقل ذلک و لا تحسّ به: التبکیت لمن عبدها، و زیادة التوبیخ لهم، و تضاعف الحسرة علیهم؛ و قیل: إنها تحمی فتلصق بهم زیادة فی تعذیبهم، و جملة أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ إما مستأنفة أو بدل من «حَصَبُ جَهَنَّمَ»، و الخطاب لهم و لما یعبدون تغلیبا، و اللام فی «لَها» للتقویة لضعف عمل اسم الفاعل؛ و قیل: هی بمعنی علی، و المراد بالورود هنا الدخول. قال کثیر من أهل العلم: و لا یدخل فی هذه الآیة عیسی و عزیر و الملائکة؛ لأن ما لمن لا یعقل، و لو أراد العموم لقال: «و من یعبدون».
قال الزّجّاج: و لأنّ المخاطبین بهذه الآیة مشرکو مکة دون غیرهم لَوْ کانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها أی:
لو کانت هذه الأصنام آلهة کما تزعمون ما وردوها، أی: ما ورد العابدون هم و المعبودون النار؛ و قیل: ما ورد العابدون فقط، لکنهم وردوها فلم یکونوا آلهة، و فی هذا تبکیت لعباد الأصنام و توبیخ شدید، وَ کُلٌّ فِیها خالِدُونَ أی: کلّ العابدین و المعبودین فی النار خالدون لا یخرجون منها. لَهُمْ فِیها زَفِیرٌ أی:
لهؤلاء الذین وردوا النار، و الزفیر: صوت نفس المغموم، و المراد هنا الأنین و التنفّس الشدید، و قد تقدّم بیان هذا فی هود. وَ هُمْ فِیها لا یَسْمَعُونَ أی: لا یسمع بعضهم زفیر بعض لشدّة الهول؛ و قیل: لا یسمعون شیئا؛ لأنهم یحشرون صمّا، کما قال سبحانه: وَ نَحْشُرُهُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ عَلی وُجُوهِهِمْ عُمْیاً وَ بُکْماً وَ صُمًّا «۲» و إنّما سلبوا السماع؛ لأن فیه بعض تروّح و تأنس؛ و قیل: لا یسمعون ما یسرّهم، بل یسمعون ما یسوءهم. ثم لمّا بیّن سبحانه حال هؤلاء الأشقیاء شرع فی بیان حال السعداء، فقال: إِنَّ الَّذِینَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنی أی: الخصلة الحسنی التی هی أحسن الخصال و هی السعادة، و قیل: التوفیق، أو التبشیر بالجنة، أو نفس الجنة أُولئِکَ عَنْها مُبْعَدُونَ إشارة إلی الموصوفین بتلک الصفة عَنْها أی: عن جهنم مُبْعَدُونَ لأنهم قد صاروا فی الجنة لا یَسْمَعُونَ حَسِیسَها الحسّ و الحسیس: الصوت تسمعه من الشیء یمرّ قریبا منک. و المعنی: لا یسمعون حرکة النار و حرکة أهلها، و هذه الجملة بدل من مبعدون، أو حال من ضمیره وَ هُمْ فِی مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ أی: دائمون، و فی الجنة ما تشتهیه الأنفس و تلذّ

---

(۱). البقرة: ۲۴.

(۲). الإسراء: ۹۷.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٠٧

به الأعين، كما قال سبحانه: وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ «١». لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ قرأ أبو جعفر و ابن محيصن «لا يحزنهم» بضم الياء و كسر الزاى، و قرأ الباقون لا يَحْزُنُهُمُ بفتح الياء و ضم الزاى. قال اليزيدى: حزنه لغة قريش، و أحزنه لغة تميم، و الفزع الأكبر: أهوال يوم القيامة من البعث و الحساب و العقاب وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ أى: تستقبلهم على أبواب الجنة يهنئونهم، و يقولون لهم: هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ أى: توعدون به فى الدنيا و تبشّرون بما فيه، هكذا قال جماعة من المفسرين: إن المراد بقوله: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى إلى هنا هم كافة الموصوفين بالإيمان و العمل الصالح، لا المسيح و عزير و الملائكة. و قال أكثر المفسرين: إنه لما نزل إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ الآية أتى ابن الزّبعرى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا محمد أ لست تزعم أن عزيرا رجل صالح، و أن عيسى رجل صالح، و أن مريم امرأة صالحة؟ قال: بلى، فقال: فإن الملائكة و عيسى و عزيرا و مريم يعبدون من دون اللّه، فهؤلاء فى النار، فأنزل اللّه إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى و سيأتى بيان من أخرج هذا قريبا إن شاء اللّه. يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ قرأ أبو جعفر ابن القعقاع و شيبة و الأعرج و الزهرى «تطوى» بمثناة فوقية مضمومة و رفع السماء، و قرأ مجاهد «يطوى» بالتحتية المفتوحة مبنيا للفاعل على معنى يطوى اللّه السماء، و قرأ الباقون نَطْوِي بنون العظمة. و انتصاب يوم بقوله: نُعِيدُهُ أى: نعيده يوم نطوى السماء، و قيل: هو بدل من الضمير المحذوف فى «تُوعَدُونَ»، و التقدير: الذى كنتم توعدونه يوم نطوى؛ و قيل بقوله «لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ»؛ و قيل: بقوله «تَتَلَقَّاهُمُ»؛ و قيل: متعلّق بمحذوف، و هو اذكر، و هذا أظهر و أوضح، و الطىّ: ضد النشر، و قيل: المحو، و المراد بالسماء الجنس، و السجل:

الصحيفة، أى: طيا كطىّ الطومار «٢»؛ و قيل: السجل: الصك، و هو مشتق من المساجلة و هى المكاتبة، و أصلها من السجل، و هو الدلو، يقال: ساجلت الرجل إذا نزعت دلوا و نزع دلوا، ثم استعيرت للمكاتبة و المراجعة فى الكلام، و منه قول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب:

من يساجلنى يساجل ماجدايملأ الدّلو إلى عقد الكرب «٣»

و قرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير: «السّجلّ» بضم السين و الجيم و تشديد اللام، و قرأ الأعمش و طلحة بفتح السين و إسكان الجيم و تخفيف اللام، و الطىّ فى هذه الآية يحتمل معنيين: أحدهما الطىّ الذى هو ضدّ النشر، و منه قوله: وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ و الثانى الإخفاء و التعمية و المحو؛ لأن اللّه سبحانه يمحو و يطمس رسومها و يكدّر نجومها. و قيل: السجل اسم ملك، و هو الذى يطوى كتب بنى آدم؛ و قيل:

هو اسم كاتب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و الأول أولى. قرأ الأعمش و حفص و حمزة و الكسائى و يحيى و خلف «للكتب» جمعا، و قرأ الباقون «للكتاب»، و هو متعلّق بمحذوف حال من السجل، أى: كطىّ السجل كائنا للكتب، أو صفة له، أى: الكائن للكتب، فإن الكتب عبارة عن الصحائف و ما كتب فيها، فسجلها

---

(١). فصلت: ٣١.

(٢). الطومار: الصحيفة.

(٣). «الكرب»: حبل يشدّ على عراقى الدلو، ثم يثنى ثم يثلث؛ ليكون هو الذى يلى الماء فلا يعفن الحبل الكبير.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٠٨

بعض أجزائها، و به يتعلّق الطىّ حقيقة. و أما على القراءة الثانية فالكتاب مصدر، و اللام للتعليل، أى: كما يطوى الطومار للكتابة، أى: ليكتب فيه، أو لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة، و هذا على تقدير أن المراد بالطىّ المعنى الأوّل، و هو ضدّ النشر. كَما بَدَأْنا

أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ أى: كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم، و أخرجناهم إلى الأرض حفاة عراة غرلا، كذلك نعيدهم يوم القيامة، ف «أول خلق» مفعول «نعيد» مقدّرا يفسره نعيده المذكور، أو مفعول ل «بدأنا»، و «ما» كافة أو موصولة، و الكاف متعلقة بمحذوف، أى:

نعيد مثل الذى بدأناه نعيده، و على هذا الوجه يكون أوّل ظرف لبدأنا، أو حال، و إنما خصّ أوّل الخلق بالذكر تصويرا للإيجاد عن العدم، و المقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على المبدأ لشمول الإمكان الذاتى لهما؛ و قيل:

معنى الآية: نهلك كلّ نفس كما كان أوّل مرة، و على هذا فالكلام متّصل بقوله: يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ و قيل: المعنى نغيّر السماء، ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها و زوالها، و الأوّل أولى، و هو مثل قوله: وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ «١»، ثم قال سبحانه: وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ انتصاب «وعدا» على أنه مصدر، أى: وعدنا وعدا علينا إنجازه و الوفاء به. و هو البعث و الإعادة، ثم أكّد سبحانه ذلك بقوله: إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ قال الزّجّاج: معنى إنا كنا فاعلين: إنا كنا قادرين على ما نشاء؛ و قيل إنا كنا فاعلين ما وعدناكم، و مثله قوله: كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا «٢»- وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ الزبر فى الأصل الكتب، يقال زبرت: أى كتبت، و على هذا يصح إطلاق الزبور على التوراة و الإنجيل، و على كتاب داود المسمى بالزبور، و قيل المراد به هنا كتاب داود، و معنى مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أى اللوح المحفوظ، و قيل هو التوراة: أى و اللّه لقد كتبنا فى كتاب داود من بعد ما كتبنا فى التوراة أو من بعد ما كتبنا فى اللوح المحفوظ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ قال الزجاج: الزبور جميع الكتب: التوراة و الإنجيل و القرآن، لأن الزبور و الكتاب فى معنى واحد، يقال زبرت و كتبت، و يؤيد ما قاله قراءة حمزة فى الزبور بضم الزاى، فإنه جمع زبر.

و قد اختلف فى معنى يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ فقيل: المراد أرض الجنة، و استدل القائلون بهذا بقوله سبحانه: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ «٣» و قيل: هى الأرض المقدّسة، و قيل:

هى أرض الأمم الكافرة يرثها نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم و أمته بفتحها، و قيل: المراد بذلك بنو إسرائيل، بدليل قوله سبحانه:

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها «٤» و الظاهر أن هذا تبشير لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بوراثة أرض الكافرين، و عليه أكثر المفسرين. و قرأ حمزة عبادى بتسكين الياء، و قرأ الباقون بتحريكها. إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً أى: فيما جرى ذكره فى هذه السورة من الوعظ و التنبيه لبلاغا لكفاية، يقال: فى هذا الشىء بلاغ و بلغة و تبلغ، أى: كفاية، و قيل الإشارة بقوله: إِنَّ فِي هذا إلى القرآن لِقَوْمٍ عابِدِينَ أى: مشغولين بعبادة اللّه مهتمين بها، و العبادة: هى الخضوع و التّذلّل، و هم أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و رأس العبادة الصلاة. وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ أى: و ما أرسلناك يا محمد

---

(١). الأنعام: ٩٤.

(٢). المزمل: ١٨.

(٣). الزمر: ٧٤.

(٤). الأعراف: ١٣٧.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٠٩

بالشرائع و الأحكام إلا رحمة لجميع الناس، و الاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال و العلل، أى: ما أرسلناك لعلة من العلل إلا لرحمتنا الواسعة، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين. قيل: و معنى كونه رحمة للكفار:

أنهم أمنوا به من الخسف و المسخ و الاستئصال. و قيل: المراد بالعالمين المؤمنون خاصة، و الأوّل أولى بدليل قوله سبحانه: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ «١» ثم بيّن سبحانه أن أصل تلك الرحمة هو التوحيد و البراءة من الشرك، فقال: قُلْ إِنَّما يُوحى

إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكَمْ إِلهٌ واحِدٌ إن كانت ما موصولة، فالمعنى: إن الذى يوحى إلىّ هو أن وصفه تعالى مقصور على الوحدانية لا يتجاوزها إلى ما يناقضها أو يضادّها، و إن كانت «ما» كافة فالمعنى: إن الوحى إلىّ مقصور على استئثار اللّه بالوحدة، و وجه ذلك أن القصر أبدا يكون لما يلى إنما، فإنما الأولى: لقصر الوصف على الشيء، كقولك: إنما يقوم زيد، أى: ما يقوم إلا زيد. و الثانية:

لقصر الشىء على الحكم، كقولك: إنما زيد قائم، أى: ليس به إلا صفة القيام. فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ منقادون مخلصون للعبادة و لتوحيد اللّه سبحانه فَإِنْ تَوَلَّوْا أى: أعرضوا عن الإسلام فَقُلْ لهم آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ أى: أعلمتكم أنا و إياكم حرب لا صلح بيننا كائنين على سواء فى الإعلام لم أخصّ به بعضكم دون بعض، كقوله سبحانه: وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ «٢» أى:

أعلمهم أنك نقضت العهد نقضا سوّيت بينهم فيه. و قال الزّجّاج: المعنى أعلمتكم ما يوحى إلىّ على استواء فى العلم به، و لا أظهر لأحد شيئا كتمته على غيره. وَ إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ أى: ما أدرى ما توعدون به قريب حصوله أم بعيد، و هو غلبة الإسلام و أهله على الكفر و أهله. و قيل: المراد بما توعدون القيامة، و قيل: آذنتكم بالحرب، و لكن لا أدرى ما يؤذن لى فى محاربتكم. إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ أى: يعلم سبحانه ما تجاهرون به من الكفر و الطعن على الإسلام و أهله و ما تكتمونه من ذلك و تخفونه وَ إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ أى: ما أدرى لعلّ الإمهال فتنة لكم و اختبار ليرى كيف صنيعكم وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ أى: و تمتيع إلى وقت مقدّر تقتضيه حكمته. ثم حكى سبحانه و تعالى دعاء نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بقوله: قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِ أى: احكم بينى و بين هؤلاء المكذّبين بما هو الحق عندك، ففوّض الأمر إليه سبحانه. و قرأ أبو جعفر بن القعقاع و ابن محيصن «ربّ» بضم الباء. قال النحاس: و هذا لحن عند النحويين لا يجوز عندهم: رجل أقبل، حتى تقول: يا رجل. و قرأ الضحاك و طلحة و يعقوب «أحكم» بقطع الهمزة و فتح الكاف و ضم الميم، أى: قال محمد: ربى أحكم بالحقّ من كل حاكم. و قرأ الجحدرى «أحكم» بصيغة الماضى؛ أى: أحكم الأمور بالحق. و قرئ «قل» بصيغة الأمر، أى: قل يا محمد. قال أبو عبيدة: الصفة هنا أقيمت مقام الموصوف، و التقدير: ربّ احكم بحكمك الحق، و ربّ فى موضع نصب؛ لأنه منادى مضاف إلى الضمير، و قد استجاب سبحانه دعاء نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم فعذّبهم ببدر، ثم جعل العاقبة و الغلبة و النصر لعباده المؤمنين و الحمد للّه ربّ العالمين. ثم قال سبحانه متمّما لتلك الحكاية وَ رَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ من الكفر و التكذيب، فربنا مبتدأ و خبره الرحمن، أى: هو كثير الرحمة

---

(١). الأنفال: ٣٣.

(٢). الأنفال: ٥٨.

لعباده، و المستعان خبر آخر، أى: المستعان به فى الأمور التى من جملتها ما تصفونه من أن الشوكة تكون لكم، و من قولكم: هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ «١» و قولكم: اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً «٢» و كثيرا ما يستعمل الوصف فى كتاب اللّه بمعنى الكذب، كقوله: وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ «٣»، و قوله:

سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ «٤» و قرأ المفضل و السلمى «على ما يصفون» بالياء التحتية. و قرأ الباقون بالفوقية على الخطاب.

و قد أخرج الفريابى و عبد بن حميد، و أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: لما نزلت إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ قال المشركون:

فالملائكة و عيسى و عزير يعبدون من دون اللّه، فنزلت إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ عيسى و عزير و الملائكة. و أخرج ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عنه قال: جاء عبد اللّه بن الزّبعرى إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: تزعم أن اللّه أنزل عليك هذه الآية: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ قال ابن الزّبعرى: قد عبدت الشمس و القمر و الملائكة و عزير و عيسى ابن مريم كل هؤلاء فى النار مع آلهتنا، فنزلت: وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ- وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ «۵»، ثم نزلت:

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن المنذر و الطبرانى من وجه آخر عنه أيضا نحوه بأطول منه. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى قال: «عيسى و عزير و الملائكة». و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: حَصَبُ جَهَنَّمَ قال: شجر جهنم، و فى إسناده العوفى. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه من وجه آخر أن حَصَبُ جَهَنَّمَ وقودها. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: هو حطب جهنم بالزنجية. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها قال: «حيات على الصراط تقول: حسّ حسّ». و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى عثمان النّهدى فى قوله: لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها قال: حيات على الصراط تلسعهم، فإذا لسعتهم قالوا:

حسّ حسّ. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير عن محمد بن حاطب قال: سئل علىّ عن هذه الآية إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى قال: هو عثمان و أصحابه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها يقول: لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزلوا منزلهم من الجنة.

---

(۱). الأنبياء: ۳.

(۲). الأنبياء: ۲۶.

(۳). الأنبياء: ۱۸.

(۴). الأنعام: ۱۳۹.

(۵). الزخرف: ۵۷- ۵۸.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ قال:

النفخة الآخرة، و فى إسناده العوفى. و أخرج أحمد، و الترمذى و حسّنه، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ثلاثة على كثبان المسك لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة: رجل أمّ قوما و هم له راضون، و رجل كان يؤذّن فى كل يوم و ليلة، و عبد أدّى حقّ اللّه و حقّ مواليه». و أخرج عبد بن حميد عن علىّ فى قوله: كَطَيِّ السِّجِلِ قال: ملك. و أخرج عبد بن حميد عن عطية مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال: السجل: ملك، فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبوها نورا. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن عساكر عن أبى جعفر الباقر قال: السجل: ملك. و أخرج أبو داود و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و ابن مندة فى المعرفة، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، و صحّحه، عن ابن عباس قال: السجل: كاتب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن المنذر و ابن عدىّ و ابن عساكر عن ابن عباس قال:

كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كاتب يسمى السجل، و هو قوله: يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ قال: كما يطوى السجل الكتاب كذلك نطوى السماء. و أخرج ابن مندة، و أبو نعيم فى المعرفة، و ابن مردويه و الخطيب و ابن عساكر عن ابن

عمر قال: كان للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم كاتب يقال له السجل، فأنزل اللّه يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ قال ابن كثير فى تفسيره بعد إخراج هذا الحديث: و هذا منكر جدا من حديث نافع عن ابن عمر، لا يصحّ أصلا. قال: و كذلك ما تقدّم عن ابن عباس من رواية أبى داود و غيره لا يصح أيضا. و قد صرّح جماعة من الحفاظ بوضعه، و إن كان فى سنن أبى داود، منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجّاج المزى، و قد أفردت لهذا الحديث جزءا له على حدة، و للّه الحمد. قال: و قد تصدّى الإمام أبو جعفر ابن جرير للإنكار على هذا الحديث، و ردّه أتمّ ردّ، و قال: و لا نعرف فى الصّحابة أحدا اسمه سجلّ، و كتّاب النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم كانوا معروفين، و ليس فيهم أحد اسمه السجلّ، و صدق رحمه اللّه فى ذلك، و هو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث. و أما من ذكر فى أسماء الصحابة هذا؛ فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره، و اللّه أعلم. قال: و الصحيح عن ابن عباس أن السجلّ هو الصحيفة، قاله عليّ بن أبى طلحة و العوفى عنه. و نصّ على ذلك مجاهد و قتادة و غير واحد، و اختاره ابن جرير لأنه المعروف فى اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: يوم نطوى السماء كطىّ السجلّ للكتاب، أى: على الكتاب، يعنى المكتوب، كقوله:

فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ «١» أى: على الجبين، و له نظائر فى اللغة و اللّه أعلم. قلت: أما كون هذا هو الصحيح عن ابن عباس فلا، فإن عليّ بن أبى طلحة و العوفيّ ضعيفان، فالأولى التعويل على المعنى اللغوى و المصير إليه. و قد أخرج النسائى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عباس قال:

السِّجِلِ هو الرجل، زاد ابن مردويه: بلغة الحبشة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى تفسير الآية قال: كطىّ الصحيفة على الكتاب. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ يقول: نهلك كل شىء كما كان أوّل مرّة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

---

(١). الصافات: ١٠٣.

وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ قال: القرآن أَنَّ الْأَرْضَ قال: أرض الجنة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا: وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ قال: الكتب مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ قال: التوراة. و فى إسناده العوفى.

و أخرج سعيد بن منصور عنه أيضا، قال: الزبور و التوراة و الإنجيل و القرآن. و الذكر: الأصل الذى نسخت منه هذه الكتب الذى فى السماء. و الأرض: أرض الجنة. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ قال: أرض الجنة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: أخبر اللّه سبحانه فى التوراة و الزبور و سابق علمه قبل أن تكون السماوات و الأرض أن يورث أمة محمد الأرض، و يدخلهم الجنة، و هم الصالحون، و فى قوله: لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ قال: عالمين، و فى إسناده عليّ بن أبى طلحة.

و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن أبى هريرة إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ قال: الصلوات الخمس. و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم و الديلمى عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قول اللّه إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ قال: «فى الصّلوات الخمس شغلا للعبادة». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس «أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ هذه الآية لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ قال: هى الصّلوات الخمس فى المسجد الحرام جماعة». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس فى قوله: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ قال: من آمن تمّت له الرحمة فى الدنيا و الآخرة، و من لم يؤمن عوفى ممّا كان يصيب الأمم فى عاجل الدنيا من العذاب من الخسف و المسخ و القذف. و أخرج مسلم عن أبى

هريرة قال: «قيل: يا رسول اللّه ادع اللّه على المشركين، قال: إنى لم أبعث لعانا، و إنما بعثت رحمة».
و أخرج الطيالسى و أحمد و الطبرانى، و أبو نعيم فى الدلائل، عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:
«إنّ اللّه بعثنى رحمة للعالمين و هدى للمتقين». و أخرج أحمد و الطبرانى عن سلمان أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال:
«أيما رجل من أمتى سببته سبّة فى غضبى، أو لعنته لعنة، فإنما أنا رجل من ولد آدم، أغضب كما يغضبون، و إنما بعثنى رحمة للعالمين، فأجعلها عليه صلاة يوم القيامة». و أخرج البيهقى فى الدلائل، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:
«إنّما أنا رحمة مهداة» و قد روى معنى هذا من طرق. و أخرج ابن أبى خيثمة و ابن عساكر عن الربيع بن أنس قال: لما أسرى بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم رأى فلانا، و هو بعض بنى أمية على المنبر يخطب الناس، فشقّ ذلك على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأنزل اللّه: وَ إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ يقول:
هذا الملك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ يقول: ما أخبركم به من العذاب و الساعة، لعلّ تأخير ذلك عنكم فتنة لكم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى قوله: قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِ قال: لا يحكم اللّه إلا بالحق، و إنما يستعجل بذلك فى الدنيا يسأل ربّه [على قومه «١»].

---

(١). من تفسير ابن جرير (١٧/ ١٠٨)

فتح القدير، ج٣، ص: ٥١٣

سورة الحجّ

اشارة

اختلف أهل العلم: هل هى مكية أو مدنية؟ فأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحجّ بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير مثله. و أخرج ابن المنذر عن قتادة قال: نزل بالمدينة من القرآن الحجّ غير أربع آيات مكيات: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍ إلى: عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ و حكى القرطبى عن ابن عباس أنها مكية سوى ثلاث آيات، و قيل: أربع آيات إلى قوله: عَذابَ الْحَرِيقِ و حكى عن النقّاش أنه نزل بالمدينة منها عشر آيات. قال القرطبى و قال الجمهور: إن السورة مختلطة، منها مكى، و منها مدنى. قال: و هذا هو الصحيح. قال الغزنوى: و هى من أعاجيب السور، نزلت ليلا و نهارا، سفرا و حضرا، مكيا و مدنيا، سلميا و حربيّا، ناسخا و منسوخا، محكما و متشابها. و قد ورد فى فضلها ما أخرجه أحمد و أبو داود و الترمذى و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن عقبة بن عامر قال: «قلت: يا رسول اللّه أ فضّلت سورة الحجّ على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما». قال الترمذى: هذا حديث ليس إسناده بالقوىّ. و أخرج أبو داود فى المراسيل، و البيهقى عن خالد بن معدان أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «فضّلت سورة الحج على القرآن بسجدتين». و أخرج سعيد ابن منصور و ابن أبى شيبة و الإسماعيلى و ابن مردويه و البيهقى عن عمر أنه كان يسجد سجدتين فى الحجّ و قال: إن هذه السورة فضّلت على سائر القرآن بسجدتين. و قد روى عن كثير من الصحابة أن فيها سجدتين، و به يقول ابن المبارك و الشافعى و أحمد و إسحاق. و قال بعضهم: إن فيها سجدة واحدة، و هو قول سفيان الثورى، و أخرجه ابن أبى شيبة عن ابن عباس و إبراهيم النخعى.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحج (٢٢): الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (۴)

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (۵) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۶) وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧)

فتح القدير، ج٣، ص: ۵۱۴

لمّا انجرّ الكلام فى خاتمة السورة المتقدمة إلى ذكر الإعادة و ما قبلها و ما بعدها، بدأ سبحانه فى هذه السورة بذكر القيامة و أهوالها، حثّا على التقوى التى هى أنفع زاد، فقال: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ أى:

احذروا عقابه بفعل ما أمركم به من الواجبات و ترك ما نهاكم عنه من المحرمات، و لفظ «الناس» يشمل جميع المكلّفين من الموجودين و من سيوجد، على ما تقرّر فى موضعه، و قد قدّمنا طرفا من تحقيق ذلك فى سورة البقرة، و جملة إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ تعليل لما قبلها من الأمر بالتقوى، و الزلزلة: شدّة الحركة، و أصلها من زلّ عن الموضع، أى: زال عنه و تحرّك، و زلزل اللّه قدمه، أى: حرّكها، و تكرير الحرف يدلّ على تأكيد المعنى، و هو من إضافة المصدر إلى فاعله، و هى على هذه الزلزلة التى هى أحد أشراط الساعة التى تكون فى الدنيا قبل يوم القيامة، هذا قول الجمهور، و قيل: إنها تكون فى النصف من شهر رمضان، و من بعدها طلوع الشمس من مغربها؛ و قيل: إن المصدر هنا مضاف إلى الظرف، و هو الساعة، إجراء له مجرى المفعول، أو بتقدير فى؛ كما فى قوله: بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ «۱» و هى المذكورة فى قوله: إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها «۲» قيل: و فى التعبير عنها بالشىء إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها. يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ انتصاب الظرف بما بعده، و الضمير يرجع إلى الزلزلة، أى: وقت رؤيتكم لها تذهل كل ذات رضاع عن رضيعها و تغفل عنه. قال قطرب: تذهل: تشتغل، و أنشد قول الشاعر «۳»:

ضربا يزيل الهام عن مقيله‌و يذهل الخليل عن خليله

و قيل: تنسى، و قيل: تلهو، و قيل: تسلو، و هذه معانيها متقاربة. قال المبرّد: إن «ما» فيما أرضعت بمعنى المصدر، أى: تذهل عن الإرضاع، قال: و هذا يدلّ على أن هذه الزلزلة فى الدنيا؛ إذ ليس بعد القيامة حمل و إرضاع، إلا أن يقال: من ماتت حاملا فتضع حملها للهول، و من ماتت مرضعة بعثت كذلك، و يقال هذا مثل كما يقال: يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً «۴». و قيل: يكون مع النفخة الأولى، قال: و يحتمل أن تكون الساعة عبارة عن أهوال يوم القيامة، كما فى قوله: مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا «۵». و معنى وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها أنها تلقى جنينها لغير تمام من شدّة الهول، كما أن المرضعة تترك ولدها بغير رضاع لذلك. وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى قرأ الجمهور بفتح التاء و الراء خطاب لكل واحد؛ أى: يراهم الرائى كأنهم سكارى حقيقة، قرأ حمزة و الكسائى سكرى بغير ألف، و قرأ الباقون بإثباتها، و هما لغتان يجمع بهما سكران، مثل كسلى و كسالى. و لما نفى

سبحانه عنهم السكر أوضح السبب

(١). سبأ: ٣٣.

(٢). الزلزلة: ١.

(٣). هو عبد اللّه بن رواحة.

(۴). المزمل: ١٧.

(۵). البقرة: ٢١۴.

الـذى لأجله شابهوا السـكارى فقال: وَ لٰكِنَّ عَذابَ اللّٰهِ شَدِيدٌ فبسبب هـذه الشـدّة و الهول العظيم طاشت عقولهم، و اضـطربت أفهـامهم فصـاروا كالسـكارى، بجـامع سـلب كمـال التميز و صـحة الإـدراك. و قرئ «و ترى» بضم التاء و فتـح الراء مسـندا إلى المخاطب من أ رأيتك، أي: تظنهم سـكارى. قال الفرّاء: و لهـذه القراءة وجه جيد فى العربية. ثم لما أراد سـبحانه أن يحتجّ على منكرى البعث قـدّم قبل ذلك مقدّمة تشـمل أهل الجدال كلهم، فقال: وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ و قد تقدّم إعراب مثـل هـذا الـتركيب فى قوله: وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يَقُولُ* «١». و معنى فِي اللّٰهِ فى شـأن اللّه و قـدرته، و محـل بِغَيْرِ عِلْمٍ النصب على الحال. و المعنى: أنه يخاصم فى قـدرة اللّه فيزعم أنه غير قادر على البعث بغير علم يعلمه، و لا حجـة يدلى بها وَ يَتَّبِعُ فيما يقوله و يتعاطاه و يحتـجّ به و يجادل عنه كُلَّ شَيْطٰانٍ مَرِيدٍ أي: متمرّد على اللّه، و هو العاتى، سـمّى بـذلك لخلوّه عن كل خير، و المراد إبليس و جنـوده، أو رؤسـاء الكفـار الـذين يـدعون أشـياعهم إلى الكفر. و قـال الواحـدى: قـال المفسـرون: نزلـت فى النضـر بن الحارث، و كان كثير الجـدال، و كان ينكر أن اللّه يقـدر على إحياء الأموات؛ و قيل: نزلت فى الوليد بن المغيرة و عتبة بن ربيعة. كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاّٰهُ أي: كتب على الشـيطان؛ و فاعـل «كُتِبَ» «أَنَّهُ مَنْ تَوَلاّٰهُ»، و الضـمير للشأن، أي: من اتخـذه وليا فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ أي: فشأن الشـيطان أن يضـلّه عن طريق الحقّ، فقوله: «أنه يضله» جواب الشرط إن جعلت من شرطية، أو خبر الموصول إن جعلت موصولة، فقد وصف الشيطان بوصفين: الأوّل أنه مريد، و الثانى ما أفاده جملة كتب عليه إلخ. و جملة وَ يَهْدِيهِ إِلىٰ عَذابِ السَّعِيرِ معطوفة على جملة يضله؛ أي:

يحمله على مباشرة ما يصير به فى عذاب السعير.

ثم ذكر سـبحانه ما هو المقصود من الاحتجاج على الكفار بعـد فراغه من تلك المقدّمة، فقال يا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ قرأ الحسن «البعث» بفتح العين و هى لغة، و قرأ الجمهور بالسـكون، و شـكّهم يحتمل أن يكون فى وقوعه أو فى إمكانه .. و المعنى: إن كنتم فى شـكّ من الإعـادة فـانظروا فى مبـدأ خلقكم، أي: خلـق أبيكم آدم، ليزول عنكم الريب و يرتفع الشـكّ و تدحض الشـبهة الباطلة فَإِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ تُرٰابٍ فى ضـمن خلق أبيكم آدم ثُمَ خلقناكم مِنْ نُطْفَةٍ أي: من منّى، سـمّى نطفة لقلّته، و النطفـة: القليل من الماء. و قـد يقع على الكثير منه، و النطفـة: القطرة، يقال: نطف ينطف، أى: قطر، و ليلة نطوفة، أى: دائمة القطر ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ و العلقـة: الـدم الجامـد، و العلق: الـدم العبيط، أي: الطرىّ أو المتجمد، و قيل: الشديد الحمرة، و المراد: الدم الجامد المتكوّن من المنىّ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ و هى القطعة من اللحم، قدر ما يمضغ الماضغ تتكوّن من العلقة مُخَلَّقَةٍ بالجرّ صفة لمضغة، أى: مستبينة الخلق، ظاهرة التصوير وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ أي: لم يستبن خلقها و لا ظهر تصويرها. قال ابن الأعرابى: «مُخَلَّقَةٍ» يريد قد بدا خلقه، و «غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ» لم تصوّر. قال الأكثر: ما أكمل خلقه بنفخ الروح فيه فهو المخلقة و هو الذى

(١). البقرة: ٨.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥١۶

ولـد لتمام، و ما سـقط كان غير مخلقة، أى: غير حىّ بإكمال خلقته بالروح. قال الفراء: مخلقة تامّ الخلق، و غير مخلقة: السـقط، و منه قول الشاعر:

أفى غير المخلقة البكاءفأين الحزم ويحك و الحياء؟

و اللام فى لِنُبَيِّنَ لَكُمْ متعلّق بخلقنا، أى: خلقناكم على هذا النمط البديع لنبيّن لكم كمال قدرتنا بتصريفنا أطوار خلقكم وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ روى أبو حـاتم عن أبى يزيـد عن المفضّـل عن عـاصم أنه قرأ بنصب «نقرّ» عطفا على نبين، و قرأ الجمهور نُقِرُّ بالرفع على الاستئناف، أى: و نحن نقرّ. قال الزجاج:

نقر بالرفع لا غير، لأنه ليس المعنى فعلنا ذلك لنقرّ فى الأرحام ما نشاء، و معنى الآية: و نثبت فى الأرحام ما نشاء فلا يكون سـقطا إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى و هو وقت الولادة، و قال ما نشاء و لم يقل من نشاء، لأنه يرجع إلى الحمل و هو جماد قبل أن ينفـخ فيه الروح، و قرئ ليبين و يقرّ و: يخرجكم بالتحتية فى الأفعال الثلاثة، و قرأ ابن أبى وثّاب «ما نشاء» بكسر النون. ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا أى:

نخرجكم من بطون أمهاتكم طفلا، أى: أطفالا، و إنما أفرده إرادة للجنس الشامل للواحـد و المتعدد. قال الزّجاج: طفلا فى معنى أطفالا، و دلّ عليه ذكر الجماعة؛ يعنى فى نخرجكم، و العرب كثيرا ما تطلق اسم الواحد على الجماعة، و منه قول الشاعر:

يلحيننى من حبّها و يلمننىإنّ العواذل لسن لى بأمير

و قال المبرد: هو اسم يستعمل مصدرا كالرضا و العدل، فيقع على الواحد و الجمع، قال اللّه سبحانه:

أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا «١». قال ابن جرير: هو منصوب على التمييز كقوله: فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً «٢» و فيه بعد، و الظاهر انتصابه على الحال بالتأويل المـذكور، و الطفل يطلق على الصـغير من وقت انفصاله إلى البلوغ. ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ قيل: هو علّـة لنخرجكم، معطوف على علـة أخرى مناسبة له، كأنه قيل: نخرجكم لتكبروا شـيئا فشـيئا ثم لتبلغوا إلى الأشـد؛ و قيل: إن ثم زائـدة؛ و التقدير لتبلغوا؛ و قيل: إنه معطوف على نبين، و الأشدّ هو كمال العقل و كمال القوّة و التمييز، قيل: و هو ما بين الثلاثين إلى الأـربعين. و قـد تقـدّم الكلام فى هـذا مسـتوفى فى الأنعـام. وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى يعنى قبـل بلـوغ الأشـدّ، و قرئ «يتوفى» مبنيا للفاعـل. و قرأ الجمهـور يُتَوَفَّى مبنيـا المفعول وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ أى: أخسه و أدونه، و هو الهرم و الخرف حـتى لا يعقل، و لهذا قال سـبحانه: لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً أى: شـيئا من الأشـياء، أو شـيئا من العلم، و المعنى: أنه يصـير من بعد أن كان ذا علم بالأشـياء و فهم لها، لا علم له و لا فهم، و مثله قوله: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ- ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ «٣» و قـوله: وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ «۴». وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً هـذه حجّة أخرى على البعث، فإنه سـبحانه احتجّ بإحياء الأرض بإنزال الماء على إحياء الأموات، و الهامدة: اليابسة التى لا تنبت

(١). النور: ٣١.

(٢). النساء: ۴.

(٣). التين: ۴ و ۵.

(۴). يس: ۶٨.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥١٧

شيئا. قال ابن قتيبة: أى: ميتة يابسة كالنار إذا طفئت، و قيل: دارسة، و الهمود: الدروس، و منه قول الأعشى:

قالت قتيلة ما لجسمك شاحباو أرى ثيابك باليات همّدا

و قيل: هى التى ذهب عنها النّدى، و قيل: هالكة، و معانى هذه الأقوال متقاربة. فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ المراد بالماء هنا المطر، و معنى اهتزّت تحركت، و الاهتزاز: شدّة الحركة، يقال:

هزرت الشىء فاهتزّ، أى: حركته فتحرك. و المعنى: تحرّكت بالنبات؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة حقيقة، فسمّاه اهتزازا مجازا. و قال المبرد: المعنى اهتزّ نباتها، فحذف المضاف، و اهتزازه: شدّة حركته، و الاهتزاز فى النبات أظهر منه فى الأرض، و معنى ربت: ارتفعت، و قيل:

انتفخت. و المعنى واحد، و أصله الزيادة، يقال: ربا الشىء يربو ربوّا إذا زاد، و منه الربا و الرّبوة. و قرأ يزيد بن القعقاع و خالد بن إلياس «و ربأت» أى: ارتفعت حتى صارت بمنزلة الربيئة، و هو الذى يحفظ القوم على مكان مشرف، يقال له رابئ و رابئة و ربيئة. وَ أَنْبَتَتْ أى: أخرجت مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ أى: من كلّ صنف حسن و لون مستحسن، و البهجة: الحسن، و جملة ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ مستأنفة. لما ذكر افتقار الموجودات إليه سبحانه و تسخيرها على وفق إرادته و اقتداره، قال بعد ذلك هذه المقالات، و هى إثبات أنه سبحانه الحق، و أنه المتفرد بإحياء الموتى، و أنه قادر على كل شىء من الأشياء.

و المعنى: أنه المتفرد بهذه الأمور، و أنها من شأنه، لا يدّعى غيره أنه يقدر على شىء منها، فدلّ سبحانه بهذا على أنه الحقّ الحقيقى الغنىّ المطلق؛ و أن وجود كل موجود مستفاد منه، و الحق: هو الموجود الذى لا يتغير و لا يزول؛ و قيل: ذو الحقّ على عباده، و قيل: الحقّ فى أفعاله. قال الزّجّاج: ذلك فى موضع رفع، أى:

الأمر ما وصفه لكم و بيّن بأن اللّه هو الحق. قال: و يجوز أن يكون ذلك نصبا، ثم أخبر سبحانه بأن السَّاعَةَ آتِيَةٌ أى: فى مستقبل الزمان، قيل: لا بدّ من إضمار فعل، أى: و لتعلموا أن الساعة آتية لا رَيْبَ فِيها أى: لا شك فيها و لا تردّد، و جملة لا رَيْبَ فِيها خبر ثان للساعة، أو فى محل نصب على الحال.

ثم أخبر سبحانه عن البعث فقال: وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ فيجازيهم بأعمالهم إن خيرا فخير و إن شرّا فشرّ، و أن ذلك كائن لا محالة.

و قد أخرج سعيد بن منصور و أحمد و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه من طرق عن الحسن و غيره عن عمران بن حصين قال:

«لما نزلت يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ إلى قوله وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ أنزلت عليه هذه و هو فى سفر، فقال: أ تدرون أىّ يوم ذلك؟ قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: ذلك يوم يقول اللّه لآدم ابعث بعث النار، قال: يا ربّ و ما بعث النار؟ قال: من كلّ ألف تسعمائة و تسعة و تسعون إلى النار، و واحد إلى الجنة. فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: قاربوا و سدّدوا و أبشروا، فإنها لم تكن نبوّة قط إلا كان بين يديها جاهلية، فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت و إلا كملت

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥١٨

من المنافقين، و ما مثلكم و الأمم إلا كمثل الرّقمة «١» فى ذراع الدابة، أو كالشّامة «٢» فى جنب البعير، ثم قال: إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبروا، ثم قال: إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فكبروا، ثم قال: إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، فكبروا، قال: و لا أدرى قال الثلثين أم لا».

و أخرج الترمذى و صحّحه، و ابن جرير و ابن المنذر عن عمران بن حصين مرفوعا نحوه، و قال فى آخره:

«اعملوا و أبشروا، فو الذى نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شىء إلا كثّرتاه يأجوج و مأجوج، و من مات من بنى

آدم و من بنی إبلیس، فسرّی عن القوم بعض الذی یجدون، قال: اعملوا و أبشروا، فو الذی نفس محمد بیده ما أنتم فی الناس إلا کالشامهٔ فی جنب البعیر، أو کالرّقمهٔ فی ذراع الدابهٔ». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن حبّان، و الحاکم و صحّحه، و ابن مردویه عن أنس مرفوعا نحوه. و أخرج البزار و ابن جریر و ابن أبی حاتم، و الحاکم و صحّحه، و ابن مردویه عن أنس مرفوعا نحوه أیضا، و فی الصحیحین و غیرهما عن أبی سعید الخدری قال: قال النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فذکر نحوه، و فی آخره فقال: «من یأجوج و مأجوج ألف و منکم واحد، و هل أنتم فی الأمم إلا کالشّعرهٔ السوداء فی الثور الأبیض، أو کالشّعرهٔ البیضاء فی الثور الأسود».

و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن قتادهٔ فی قوله: کُتِبَ عَلَیْهِ قال: کتب علی الشیطان. و أخرج ابن أبی شیبهٔ و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد مثله: أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ قال: اتبعه. و أخرج البخاری و مسلم و أهل السنن و غیرهم عن ابن مسعود قال: حدّثنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و هو الصادق المصدوق: «إن أحدکم یجمع خلقه فی بطن أمه أربعین یوما نطفهٔ، ثم یکون علقهٔ مثل ذلک، ثم یکون مضغهٔ مثل ذلک، ثم یرسل اللّه إلیه الملک فینفخ فیه الروح، و یؤمر بأربع کلمات؛ بکتب رزقه و أجله و عمله و شقی أو سعید، فو الذی لا إله غیره إن أحدکم لیعمل بعمل أهل الجنهٔ حتی ما یکون بینه و بینها إلا ذراع، فیسبق علیه الکتاب فیعمل بعمل أهل النار فیدخلها، و إن أحدکم لیعمل بعمل أهل النار حتی ما یکون بینه و بینها إلا ذراع، فیسبق علیه الکتاب فیعمل بعمل أهل الجنهٔ فیدخلها» و الأحادیث فی هذا الباب کثیرهٔ جدا. و أخرج ابن أبی حاتم و صحّحه، عن ابن عباس فی قوله: مُخَلَّقَةٍ وَ غَیْرِ مُخَلَّقَةٍ قال: المخلقهٔ ما کان حیا، و غیر المخلقهٔ ما کان سقطا. و روی نحو هذا عن جماعهٔ من التابعین. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: مِنْ کُلِّ زَوْجٍ بَهِیجٍ قال: حسن. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فی زوائد الزهد، عن معاذ بن جبل قال: من علم أنّ اللّه عزّ و جلّ حق، و أن الساعهٔ آتیهٔ لا ریب فیها، و أن اللّه یبعث من فی القبور، دخل الجنهٔ.

---

(۱). «الرقمهٔ»: الرقمتان: هما الأثران فی باطن عضد الحمار، و قیل: هی الدائرهٔ فی ذراعیه، و قیل: هی الرمّهٔ الناتئهٔ فی ذراع الدابهٔ من داخل.

(۲). «الشامهٔ»: الخال و العلامهٔ فی الجسد.

فتح القدیر، ج‏۳، ص: ۵۱۹

[سورهٔ الحج (۲۲): الآیات ۸ الی ۱۶]

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یُجادِلُ فِی اللَّهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدیً وَ لا کِتابٍ مُنِیرٍ (۸) ثانِیَ عِطْفِهِ لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ لَهُ فِی الدُّنْیا خِزْیٌ وَ نُذِیقُهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ عَذابَ الْحَرِیقِ (۹) ذلِکَ بِما قَدَّمَتْ یَداکَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَیْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِیدِ (۱۰) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یَعْبُدُ اللَّهَ عَلی حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَیْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلی وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْیا وَ الْآخِرَةَ ذلِکَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِینُ (۱۱) یَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا یَضُرُّهُ وَ ما لا یَنْفَعُهُ ذلِکَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِیدُ (۱۲)

یَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلی وَ لَبِئْسَ الْعَشِیرُ (۱۳) إِنَّ اللَّهَ یُدْخِلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللَّهَ یَفْعَلُ ما یُرِیدُ (۱۴) مَنْ کانَ یَظُنُّ أَنْ لَنْ یَنْصُرَهُ اللَّهُ فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ فَلْیَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَی السَّماءِ ثُمَّ لْیَقْطَعْ فَلْیَنْظُرْ هَلْ یُذْهِبَنَّ کَیْدُهُ ما یَغِیظُ (۱۵) وَ کَذلِکَ أَنْزَلْناهُ آیاتٍ بَیِّناتٍ وَ أَنَّ اللَّهَ یَهْدِی مَنْ یُرِیدُ (۱۶)

قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یُجادِلُ فِی اللَّهِ أی: فی شأن اللّه، کقول من قال: إن الملائکهٔ بنات اللّه، و المسیح ابن اللّه، و عزیر ابن اللّه.

قيل: نزلت فى النّضر بن الحارث، و قيل: فى أبى جهل، و قيل: هى عامة لكل من يتصدّى لإضلال الناس و إغوائهم، و على كل حال فالاعتبار بما يدلّ عليه اللفظ و إن كان السبب خاصا. و معنى اللفظ: و من الناس فريق يجادل فى اللّه، فيدخل فى ذلك كلّ مجادل فى ذات اللّه، أو صفاته أو شرائعه الواضحة، و بِغَيْرِ عِلْمٍ فى محل نصب على الحال، أى: كائنا بغير علم. قيل: و المراد بالعلم هو العلم الضرورى، و بالهدى هو العلم النظرى الاستدلالى. و الأولى حمل العلم على العموم، و حمل الهدى على معناه اللغوى، و هو الإرشاد. و المراد بالكتاب المنير هو القرآن، و المنير: النيّر البيّن الحجة الواضح البرهان، و هو و إن دخل تحت قوله: بِغَيْرِ عِلْمٍ فإفراده بالذكر كإفراد جبريل بالذكر عند ذكر الملائكة، و ذلك لكونه الفرد الكامل الفائق على غيره من أفراد العلم. و أما من حمل العلم على الضرورى و الهدى على الاستدلالى، فقد حمل الكتاب هنا على الدليل السمعى، فتكون الآية متضمّنة لنفى الدليل العقلى ضروريا كان أو استدلاليا، و متضمّنة لنفى الدليل النقلى بأقسامه، و ما ذكرناه أولى. قيل: و المراد بهذا المجادل فى هذه الآية هو المجادل فى الآية الأولى، أعنى قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ، و بذلك قال كثير من المفسرين، و التكرير للمبالغة فى الذمّ، كما تقول للرجل تذمّه و توبّخه: أنت فعلت هذا، أنت فعلت هذا. و يجوز أن يكون التكرير لكونه وصفه فى كل آية بزيادة على ما وصفه به فى الآية الأخرى، فكأنه قال: و من الناس من يجادل فى اللّه و يتبع كلّ شيطان مريد بغير علم وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ ليضل عن سبيل اللّه اه. و قيل: الآية الأولى فى المقلدين اسم فاعل. و الثانية فى المقلدين اسم مفعول. و لا وجه لهذا، كما أنه لا وجه لقول من قال: إن الآية الأولى خاصة بإضلال المتبوعين لتابعيهم، و الثانية عامة فى كلّ إضلال و جدال. و انتصاب ثانِيَ عِطْفِهِ على الحال من فاعل يجادل، و العطف: الجانب، و عطفا الرجل:

جانباه من يمين و شمال، و فى تفسيره وجهان: الأوّل أن المراد به من يلوى عنقه مرحا و تكبرا، ذكر معناه الزجّاج، و قال: و هذا يوصف به المتكبر. و المعنى: و من الناس من يجادل فى اللّه متكبرا. قال المبرد: العطف ما

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٢٠

انثنى من العنق. و الوجه الثانى أن المراد بقوله: ثانِيَ عِطْفِهِ الإعراض، أى: معرضا عن الذّكر، كذا قال الفراء و المفضّل و غيرهما، كقوله تعالى: وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها «١» و قوله: لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ «٢»، و قوله: أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ* «٣»، و اللام فى لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ متعلّق بيجادل، أى: إن غرضه هو الإضلال عن السبيل و إن لم يعترف بذلك. و قرئ «ليضلّ» بفتح الياء على أن تكون اللام هى لام العاقبة، كأنه جعل ضلاله غاية لجداله، و جملة لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ مستأنفة مبيّنة لما يحصل له بسبب جداله من العقوبة. و الخزى: الذل، و ذلك بما يناله من العقوبة فى الدنيا من العذاب المعجل و سوء الذكر على ألسن الناس. و قيل: الخزى الدنيوى هو القتل كما وقع فى يوم بدر وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ أى: عذاب النار المحرقة، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم من العذاب الدنيوى و الأخروى، و هو مبتدأ خبره بِما قَدَّمَتْ يَداكَ و الباء للسببية، أى: ذلك العذاب النازل بك بسبب ما قدّمته يداك من الكفر و المعاصى، و عبّر باليد عن جملة البدن لكون مباشرة المعاصى تكون بها فى الغالب، و محل أن و ما بعدها فى قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف؛ أى: و الأمر أنه سبحانه لا يعذّب عباده بغير ذنب. و قد مرّ الكلام على هذه الآية فى آخر آل عمران فلا نعيده. وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ هذا بيان لشقاق أهل الشقاق. قال الواحدى: قال أكثر المفسرين: الحرف:

الشك، و أصله من حرف الشي‏ء و هو طرفه، مثل حرف الجبل و الحائط، فإن القائم عليه غير مستقرّ، و الذى يعبد اللّه على حرف قلق فى دينه، على غير ثبات و طمأنينة، كالذى هو على حرف الجبل و نحوه يضطرب اضطرابا و يضعف قيامه، فقيل للشاكّ فى دينه إنه يعبد اللّه على حرف؛ لأنه على غير يقين من وعده و وعيده، بخلاف المؤمن لأنه يعبده على يقين و بصيرة

فلم يكن على حرف. و قيل: الحرف: الشرط، أى: و من الناس من يعبد اللّه على شرط، و الشرط هو قوله: فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ أى: خير دنيوى من رخاء و عافية و خصب و كثرة مال، و معنى اطمأنّ به ثبت على دينه و استمرّ على عبادته، أو اطمأن قلبه بذلك الخير الذى أصابه وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ أى: شىء يفتتن به من مكروه يصيبه فى أهله أو ماله أو نفسه انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ أى: ارتدّ و رجع إلى الوجه الذى كان عليه من الكفر، ثم بيّن حاله بعد انقلابه على وجهه فقال:

خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ أى: ذهبا منه و فقد هما، فلا حظّ له فى الدنيا من الغنيمة و الثناء الحسن، و لا فى الآخرة من الأجر و ما أعدّه اللّه للصالحين من عباده. و قرأ مجاهد و حميد بن قيس و الأعرج و الزهرى و ابن أبى إسحاق خاسرا الدنيا و الآخرة على صيغة اسم الفاعل منصوبا على الحال. و قرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف. و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى خسران الدنيا و الآخرة و هو مبتدأ و خبره هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ أى: الواضح الظاهر الذى لا خسران مثله. يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَ ما لا يَنْفَعُهُ أى: هذا الذى انقلب على وجهه و رجع إلى الكفر يدعو من دون اللّه، أى: يعبد متجاوزا عبادة اللّه إلى عبادة الأصنام ما لا يضرّه إن ترك عبادته، و لا ينفعه إن عبده؛ لكون ذلك المعبود جمادا لا يقدر على ضرّ و لا نفع،

---

(۱). الإسراء: ۸۳.

(۲). سبأ: ۲۴.

(۳). لقمان: ۷.

فتح القدير، ج‌۳، ص: ۵۲۱

و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الدعاء المفهوم من الفعل و هو يدعو، و اسم الإشارة مبتدأ و خبره هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ أى: عن الحق و الرشد، مستعار من ضلال من سلك غير الطريق، فصار بضلاله بعيدا عنها. قال الفرّاء: البعيد: الطويل. يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ يدعو بمعنى يقول، و الجملة مقرّرة لما قبلها من كون ذلك الدعاء ضلالا بعيدا. و الأصنام لا نفع فيها بحال من الأحوال، بل هى ضرر بحت لمن يعبدها، لأنه دخل النار بسبب عبادتها، و إيراد صيغة التفضيل مع عدم النفع بالمرّة للمبالغة فى تقبيح حال ذلك الداعى، أو ذلك من باب وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ «۱» اللام هى الموطئة للقسم، و من: موصولة أو موصوفة، و ضرّه مبتدأ خبره أقرب، و الجملة صلة الموصول. و جملة لَبِئْسَ الْمَوْلى وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ جواب القسم، و المعنى: أنه يقول ذلك الكافر يوم القيامة لمعبوده الذى ضرّه أقرب من نفعه:

لبئس المولى أنت و لبئس العشير. و المولى: الناصر، و العشير: الصاحب، و مثل ما فى هذه الآية قول عنترة:

يدعون عنتر و الرّماح كأنّهاأشطان بئر فى لبان الأدهم «۲»

و قال الزجّاج: يجوز أن يكون «يدعو» فى موضع الحال، و فيه هاء محذوفة؛ أى: ذلك هو الضلال البعيد يدعوه، و على هذا يوقف على يدعو، و يكون قوله: لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ كلاما مستأنفا مرفوعا بالابتداء، و خبره «لَبِئْسَ الْمَوْلى . قال: و هذا لأن اللام لليمين و التوكيد فجعلها أوّل الكلام. و قال الزجّاج و الفراء: يجوز أن يكون «يدعو» مكررة على ما قبلها على جهة تكثير هذا الفعل الذى هو الدعاء؛ أى: يدعو ما لا يضرّه و لا ينفعه يدعو، مثل: ضربت زيدا ضربت. و قال الفرّاء و الكسائى و الزجّاج: معنى الكلام القسم، و اللام مقدّمة على موضعها، و التقدير: يدعو من لضرّه أقرب من نفعه، فمن فى موضع نصب بيدعو، و اللام جواب القسم و ضرّه مبتدأ، و «أقرب» خبره، و من التصرّف فى اللام بالتقديم و التأخير قول الشاعر:

خالى لأنت و من جرير خاله‌ينل العلاء و يكرم الأخوالا

أى لخالى أنت. قال النحّاس: و حكى لنا على بن سليمان عن محمد بن يزيد قال: فى الكلام حذف، و المعنى: يدعو لمن ضرّه

أقرب من نفعه إلها. قال النحاس: و أحسب هـذا القول غلطا على محمد بن يزيد، و لعل وجهه أن ما قبل اللام هذه لا يعمل فيهما بعدها. و قال الفراء أيضا و القفال: اللام صلة، أى: زائدة، و المعنى: يدعو من ضـرّه أقرب من نفعه، أى: يعبده، و هكذا فى قراءة عبد اللّه بن مسعود بحذف اللام، و تكون اللام فى لَبِئْسَ الْمَوْلى و فى لَبِئْسَ الْعَشِيرُ على هذا موطئة للقسم. إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لما فرغ من ذكر حال المشركين، و من يعبد اللّه على حرف ذكر حال المؤمنين فى الآخرة، و أخبر أنه يدخلهم هذه الجنات المتصفة بهذه الصفة، و قد تقدم

---

(١). المنافقون: ٥.

(٢). «أشطان»: جمع شطن و هو الحبل الذى يستقى به. «اللبان»: الصدر. «الأدهم»: الفرس.

الكلام فى جرى الأنهار من تحت الجنات، و بيّنا أنه إن أريد بها الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر؛ و إن أريد بها الأرض فلا بدّ من تقدير مضاف، أى: من تحت أشجارها إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ هذه الجملة تعليل لما قبلها، أى: يفعل ما يريده من الأفعال لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ فيثيب من يشاء و يعذب من يشاء مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ قال النحاس: من أحسن ما قيل فى هذه الآية أن المعنى: من كان يظن أن لن ينصر اللّه محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم، و أنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذى أوتيه فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ أى: فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ثُمَّ لْيَقْطَعْ أى: ثم ليقطع النصر إن تهيأ له فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ و حيلته ما يَغِيظُ من نصر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: المعنى:

من كان يظن أن لن ينصر اللّه محمدا حتى يظهره على الدين كله فليمت غيظا، ثم فسّره بقوله: فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ أى: فليشدد حبلا فى سقف بيته ثُمَّ لْيَقْطَعْ أى: ثم ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقا، و المعنى: فليختنق غيظا حتى يموت، فإن اللّه ناصره و مظهره، و لا ينفعه غيظه؛ و معنى «فلينظر هل يذهبن كيده»: أى صنيعه و حيله، «ما يغيظ»: أى غيظه، و «ما» مصدرية.

و قيل: إن الضمير فى «ينصره» يعود إلى «من»، و المعنى: من كان يظنّ أن اللّه لا يرزقه فليقتل نفسه، و به قال أبو عبيدة.

و قيل: إن الضمير يعود إلى الدين، أى: من كان يظنّ أن لن ينصر اللّه دينه. و قرأ الكوفيون بإسكان اللام فى: «ثم ليقطع» قال النحاس: و هذه القراءة بعيدة من العربية «١». وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ أى: مثل ذلك الإنزال البديع أنزلناه آيات واضحات ظاهرة الدلالة على مدلولاتها وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ هدايته ابتداء أو زيادة فيها لمن كان مهديا من قبل.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ثانِيَ عِطْفِهِ قال: لاوى عنقه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس و السدّى و ابن يزيد و ابن جريج: أنه المعرض. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم فى قوله: ثانِيَ عِطْفِهِ قال: أنزلت فى النضر بن الحارث.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: هو رجل من بنى عبد الدار. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه ثانِيَ عِطْفِهِ قال: مستكبرا فى نفسه. و أخرج البخارى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاما و أنتجت خيله قال: هذا دين صالح، و إن لم تلد امرأته و لم تنتج خيله قال: هذا دين سوء.

و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه بسند صحيح قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإن وجدوا عام غيث و عام خصب و عام ولاد حسن قالوا: إنّ ديننا هذا لصالح فتمسّكوا به، و إن وجدوا عام جدب و عام ولاد سوء و عام قحط قالوا: ما فى ديننا هذا خير، فأنزل اللّه وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ

(١). و ذلک لأن «لمّ» ليست مثل الواو و الفاء؛ لأنها يوقف عليها و تنفرد.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٢٣

و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عنه أيضا نحوه. و فی إسناده العوفی. و أخرج ابن مردويه أيضا من طريقه أيضا عن أبی سعيد قال: أسلم رجل من اليهود فذهب بصره و ماله و ولده فتشاءم بالإسلام، فأتی النبی صلّی اللّه عليه و سلّم فقال: أقلنی أقلنی، قال: إن الإسلام لا يقال، فقال: لم أصب من دينی هذا خيرا؛ ذهب بصری و مالی و مات ولدی، فقال: يا يهودیّ الإسلام يسبک الرجال كما تسبک النار خبث الحديد و الذهب و الفضة، فنزلت وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلی حَرْفٍ و أخرج الفريابی و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس فی قوله: مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ قال: من كان يظنّ أن لن ينصر اللّه محمدا فی الدنيا و الآخرة فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ قال:

فليربط بحبل إِلَى السَّماءِ قال: إلی سماء بيته؛ السقف ثُمَّ لْيَقْطَعْ قال: ثم يختنق به حتی يموت.

و أخرج عبد بن حميد و ابن أبی حاتم عنه قال: مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ يقول: أن لن يرزقه اللّه فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ فليأخذ حبلا فليربطه فی سماء بيته فليختنق به فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ قال: فلينظر هل ينفعه ذلک أو يأتيه برزق.

[سورة الحج (٢٢): الآيات ١٧ الی ٢٤]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصارى وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَ مَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (١٨) هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ (٢٠) وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١)

كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (٢٣) وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ (٢٤)

قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أی: باللّه و برسوله، أو بما ذكر من الآيات البينات وَ الَّذِينَ هادُوا هم اليهود المنتسبون إلی ملّة موسی وَ الصَّابِئِينَ قوم يعبدون النجوم، و قيل: هم من جنس النصاری و ليس ذلک بصحيح، بل هم فرقة معروفة لا ترجع إلی ملّة من الملل المنتسبة إلی الأنبياء وَ النَّصارى هم المنتسبون إلی ملّة عيسی وَ الْمَجُوسَ هم الذين يعبدون النار، و يقولون: إن للعالم أصلين؛ النور و الظلمة. و قيل:

هم قوم يعبدون الشمس و القمر، و قيل: هم قوم يستعملون النجاسات، و قيل: هم قوم من النصاری اعتزلوهم و لبسوا المسوح، و قيل: إنهم أخذوا بعض دين اليهود و بعض دين النصاری وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الذين يعبدون الأصنام، و قد مضی تحقيق هذا فی البقرة، و لكنه سبحانه قدّم هنالک النصاری علی الصابئين، و أخّرهم عنهم هنا. فقيل: وجه تقديم النصاری هنالک أنهم أهل كتاب دون الصابئين، و وجه تقديم الصابئين

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٢٤

هنا أن زمنهم متقدّم علی زمن النصاری. و جملة إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فی محل رفع علی أنها خبر لإنّ المتقدّمة، و

معنى الفصل أنه سبحانه يقضى بينهم فيدخل المؤمنين منهم الجنة و الكافرين منهم النار. و قيل:

الفصل هو أن يميز المحقّ من المبطل بعلامة يعرف بها كل واحد منهما، و جملة إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ تعليل لما قبلها، أى: إنه سبحانه على كل شىء من أفعال خلقه و أقوالهم شهيد، لا يعزب عنه شىء منها. و أنكر الفراء أن تكون جملة إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ خبرا لإن المتقدّمة، و قال: لا يجوز فى الكلام: إن زيدا إن أخاه منطلق، و ردّ الزجاج ما قاله الفراء، و أنكره و أنكر ما جعله مماثلا للآية، و لا شك فى جواز قولك:

إن زيدا إن الخير عنده، و إن زيدا إنه منطلق، و نحو ذلك. أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ الرؤية هنا هى القلبية لا البصرية، أى: ألم تعلم، و الخطاب لكل من يصلح له، و هو من تتأتّى منه الرؤية، و المراد بالسجود هنا هو الانقياد الكامل، لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء، سواء جعلت كلمة من خاصة بالعقلاء، أو عامة لهم و لغيرهم، و لهذا عطف الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُ على من، فإن ذلك يفيد أن السجود هو الانقياد لا الطاعة الخاصة بالعقلاء، و إنما أفرد هذه الأمور بالذكر مع كونها داخلة تحت من، على تقدير جعلها عامة لكون قيام السجود بها مستبعدا فى العادة، و ارتفاع كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بفعل مضمر يدلّ عليه المذكور، أى: و يسجد له كثير من الناس. و قيل: مرتفع على الابتداء و خبره محذوف، و تقديره: و كثير من الناس يستحق الثواب، و الأوّل أظهر. و إنما لم يرتفع بالعطف على «من»؛ لأن سجود هؤلاء الكثير من الناس هو سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء، و المراد بالسجود المتقدّم هو الانقياد، فلو ارتفع بالعطف على «من» لكان فى ذلك جمع بين معنيين مختلفين فى لفظ واحد. و أنت خبير بأنه لا ملجئ إلى هذا بعد حمل السجود على الانقياد، و لا شك أنه يصح أن يراد من سجود كثير من الناس هو انقيادهم لا نفس السجود الخاص، فارتفاعه على العطف لا بأس به، و إن أبى ذلك صاحب الكشاف و متابعوه. و أما قوله: وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ فقال الكسائى و الفراء: إنه مرتفع بالابتداء و خبره ما بعده. و قيل: هو معطوف على «كثير» الأوّل، و يكون المعنى: و كثير من الناس يسجد و كثير منهم يأبى ذلك. و قيل: المعنى: و كثير من الناس فى الجنة، و كثير حق عليه العذاب، هكذا حكاه ابن الأنبارى.

وَ مَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ أى: من أهانه اللّه بأن جعله كافرا شقيا، فما له من مكرم يكرمه فيصير سعيدا عزيزا. و حكى الأخفش و الكسائى و الفراء أن المعنى: وَ مَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ أىّ إكرام، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ من الأشياء التى من جملتها ما تقدّم ذكره من الشقاوة و السعادة و الإكرام و الإهانة هذانِ خَصْمانِ الخصمان: أحدهما أنجس الفرق اليهود و النصارى و الصابئون و المجوس و الذين أشركوا، و الخصم الآخر المسلمون، فهما فريقان مختصمان. قاله الفراء و غيره. و قيل: المراد بالخصمين الجنة و النار.

قالت الجنة: خلقنى لرحمته، و قالت النار: خلقنى لعقوبته. و قيل: المراد بالخصمين هم الذين برزوا يوم بدر، فمن المؤمنين حمزة و علىّ و عبيدة، و من الكافرين عتبة و شيبة ابنا ربيعة و الوليد بن عتبة. و قد كان أبو ذرّ رضى اللّه عنه يقسم أن هذه الآية نزلت فى هؤلاء المتبارزين كما ثبت عنه فى الصحيح، و قال بمثل هذا جماعة

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۲۵

من الصحابة، و هم أعرف من غيرهم بأسباب النزول. و قد ثبت فى الصحيح أيضا عن علىّ أنه قال: فينا نزلت هذه الآية. و قرأ ابن كثير «هذانّ» بتشديد النون، و قال سبحانه: اخْتَصَمُوا و لم يقل اختصما.

قال الفراء: لأنهم جمع، و لو قال اختصما لجاز، و معنى فِي رَبِّهِمْ فى شأن ربهم، أى: فى دينه، أو فى ذاته، أو فى صفاته، أو فى شريعته لعباده، أو فى جميع ذلك. ثم فصّل سبحانه ما أجمله فى قوله: يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ فقال: فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ قال الأزهرى: أى سوّيت و جعلت لبوسا لهم، شبّهت النار بالثياب لأنها مشتملة عليهم كاشتمال الثياب، و عبّر بالماضى عن

المستقبل تنبيها على تحقّق وقوعه.

و قيل: إن هذه الثياب من نحاس قد أذيب فصار كالنار، و هى السرابيل المذكورة فى آية أخرى. و قيل: المعنى فى الآية: أحاطت النّار بهم. و قرئ «قطعت» بالتخفيف. ثم قال سبحانه: يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ و الحميم: هو الماء الحار المغلى بنار جهنم، و الجملة مستأنفة أو هى خبر ثان للموصول يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ الصّهر: الإذابة، و الصّهارة: ما ذاب منه، يقال: صهرت الشىء فانصهر، أى: أذابته فذاب، فهو صهير، و المعنى: أنه يذاب بذلك الحميم ما فى بطونهم من الأمعاء و الأحشاء وَ الْجُلُودُ معطوفة على ما، أى: و يصهر به الجلود، و الجملة فى محل نصب على الحال، و قيل: إن الجلود لا تذاب، بل تحرق، فيقدّر فعل يناسب ذلك، و يقال: و تحرق به الجلود، كما فى قول الشاعر:

علفتها تبنا و ماء باردا «١» أى: و سقيتها ماء. و لا يخفى أنه لا ملجئ لهذا، فإن الحميم إذا كان يذيب ما فى البطون فإذابته للجلد الظاهر بالأولى وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ المقامع: جمع مقمعة و مقمع، قمعته: ضربته بالمقمعة، و هى قطعة من حديد. و المعنى: لهم مقامع من حديد يضربون بها، أى: للكفرة، و سميت المقامع مقامع لأنها تقمع المضروب، أى: تذلله. قال ابن السّكّيت: أقمعت الرجل عنى إقماعا؛ إذا اطلع عليك فرددته عنك.

كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أى: من النار أُعِيدُوا فِيها أى: فى النار بالضرب بالمقامع، و مِنْ غَمٍّ بدل من الضمير فى «منها» بإعادة الجارّ أو مفعول له، أى: لأجل غمّ شديد من غموم النار.

وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ هو بتقدير القول، أى: أعيدوا فيها، و قيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق، أى:

العذاب المحرق، و أصل الحريق الاسم من الاحتراق، تحرّق الشىء بالنار و احترق حرقة و احتراقا، و الذّوق مماسّة يحصل معها إدراك الطعم، و هو هنا توسع، و المراد به إدراك الألم. قال الزجاج: و هذا لأحد الخصمين.

و قال فى الخصم الآخر و هم المؤمنون إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ فبيّن سبحانه حال المؤمنين بعد بيانه لحال الكافرين. ثم بيّن اللّه سبحانه بعض ما أعدّه لهم من النعيم بعد دخولهم الجنة فقال: يُحَلَّوْنَ فِيها قرأ الجمهور يحلون بالتشديد و البناء للمفعول، و قرئ مخففا، أى: يحليهم اللّه أو الملائكة بأمره. و «من» فى قوله: مِنْ أَساوِرَ للتبعيض، أى: يحلون بعض أساور،

---

(١). و عجزه: حتى شتت همّالة عيناها.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٥٢٦

أو للبيان، أو زائدة، و «من» فى مِنْ ذَهَبٍ للبيان، و الأساور: جمع أسورة، و الأسورة: جمع سوار، و فى السوار لغتان؛ كسر السين و ضمّها، و فيه لغة ثالثة، و هى أسوار. قرأ نافع و ابن كثير و عاصم و شيبة وَ لُؤْلُؤاً بالنصب عطف على محل أساور، أى: و يحلّون لؤلؤا، أو بفعل مقدّر ينصبه، و هكذا قرأ بالنصب يعقوب و الجحدرى و عيسى بن عمر، و هذه القراءة هى الموافقة لرسم المصحف فإن هذا الحرف مكتوب فيه بالألف، و قرأ الباقون بالجرّ عطفا على أساور، أى: يحلون من أساور و من لؤلؤ، و اللؤلؤ: ما يستخرج من البحر من جوف الصدف. قال القشيرى: و المراد ترصيع السوار باللؤلؤ، و لا يبعد أن يكون فى الجنة سوار من لؤلؤ مصمت «١» كما أن فيها أساور من ذهب. وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ أى: جميع ما يلبسونه حرير كما تفيده هذه الإضافة، و يجوز أن يراد أن هذا النوع من الملبوس الذى كان محرّما عليهم فى الدنيا حلال لهم فى الآخرة، و أنه من جملة ما يلبسونه فيها، ففيها ما تشتهيه الأنفس، و كل واحد منهم يعطى ما تشتهيه نفسه، و ينال ما يريده وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ أى: أرشدوا إليه، قيل: هو لا إله إلا اللّه، و قيل: الحمد للّه، و قيل: القرآن، و قيل: هو ما يأتيهم من اللّه سبحانه من البشارات. و قد ورد فى القرآن ما

يدلّ على هذا القول المجمل هنا، و هو قوله سبحانه: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی صَدَقَنا وَعْدَهُ «٢».
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی هَدانا لِهذا «٣». الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ «۴». و معنى: وَ هُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِیدِ أنهم أرشدوا إلى الصراط المحمود و هو طريق الجنة، أو صراط اللّه الذى هو دينه القويم، و هو الإسلام.
و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ الصَّابِئِینَ قال: هم قوم يعبدون الملائكة، و يصلّون القبلة، و يقرءون الزبور وَ الْمَجُوسَ عبدة الشمس و القمر و النيران، وَ الَّذِینَ أَشْرَكُوا عبدة الأوثان إِنَّ اللَّهَ یَفْصِلُ بَیْنَهُمْ قال: الأديان ستة؛ فخمسة للشيطان، و دين للّه عزّ و جلّ. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى الآية قال: فصل قضاءه بينهم فجعل الخمسة مشتركة و جعل هذه الأمة واحدة. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: الذين هادوا: اليهود، و الصابئون: ليس لهم كتاب، و المجوس: أصحاب الأصنام، و المشركون: نصارى العرب. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى ذرّ أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية هذانِ خَصْمانِ الآية نزلت فى الثلاثة و الثلاثة الذين تبارزوا يوم بدر، و هم حمزة بن عبد المطلب، و عبيدة بن الحارث، و علىّ بن أبى طالب، و عتبة و شيبة ابنا ربيعة، و الوليد بن عتبة، قال علىّ: و أنا أوّل من يجثو فى الخصومة على ركبتيه بين يدى اللّه يوم القيامة.
و أخرجه البخارى و غيره من حديث علىّ. و أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس بنحوه، و هكذا روى عن جماعة من التابعين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله:
قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِیابٌ مِنْ نارٍ قال: من نحاس، و ليس من الآنية شىء إذا حمى أشدّ حرّا منه، و فى قوله:

---

(١). «المصمت»: الذى لا يخالط غيره.

(٢). الزمر: ٧۴.

(٣). الأعراف: ۴٣.

(۴). فاطر: ٣۴.

یُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِیمُ قال: النحاس يذاب على رؤوسهم، و قوله: یُصْهَرُ بِهِ ما فِی بُطُونِهِمْ قال: تسيل أمعاؤهم وَ الْجُلُودُ قال: تتناثر جلودهم.
و أخرج عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و أبو نعيم فى الحلية، و ابن مردويه عن أبى هريرة أنه تلا هذه الآية یُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِیمُ فقال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إنّ الحميم ليصبّ على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت «١» ما فى جوفه حتى يمرق من قدميه و هو الصّهر، ثم يعاد كما كان». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: یُصْهَرُ بِهِ ما فِی بُطُونِهِمْ قال: يمشون و أمعاءهم تتساقط و جلودهم. و فى قوله: وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِیدٍ قال: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالويل و الثبور. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: يسقون ماء إذا دخل فى بطونهم أذابها و الجلود مع البطون. و أخرج أحمد و أبو يعلى و ابن أبى حاتم و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث و النشور، عن أبى سعيد الخدرى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لو أنّ مقمعا من حديد وضع فى الأرض فاجتمع الثقلان ما أقلّوه «٢» من الأرض، و لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان». و أخرج ابن المبارك و سعيد بن منصور و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن سلمان قال: النار سوداء مظلمة لا يضىء لهبها و لا جمرها، ثم قرأ: كُلَّما

أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها. و فى الصحيحين و غيرهما عن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة» و فى الباب أحاديث.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ قال: ألهموا. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: هدوا إلى الطيب من القول فى الخصومة إذ قالوا:

اللّه مولانا و لا مولى لكم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن إسماعيل بن أبى خالد فى الآية قال: القرآن وَ هُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ قال: الإسلام. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الضحّاك فى الآية قال: الإسلام. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: لا إله إلا اللّه، و اللّه أكبر، و الحمد للّه الذى قال: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ

---

(١). «يسلت»: يقطع و يستأصل.

(٢). أى: ما استطاعوا حمله.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٢٨

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٢٥ الى ٢٩]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِی جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)

قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ عطف المضارع على الماضى؛ لأنّ المراد بالمضارع ما مضى من الصدّ، و مثل هذا قوله: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ* «١»، أو المراد بالصدّ هاهنا الاستمرار لا مجرّد الاستقبال، فصحّ بذلك عطفه على الماضى، و يجوز أن تكون الواو فى و يصدون واو الحال، أى: كفروا و الحال أنهم يصدون. و قيل: الواو زائدة، و المضارع خبر إن، و الأولى أن يقدر خبر إن بعد قوله: وَ الْبادِ و ذلك نحو خسروا أو هلكوا. و قال الزجاج: إن الخبر: نذقه من عذاب أليم. و ردّ بأنه لو كان خبرا لأن لم يجزم، و أيضا لو كان خبرا لإن لبقى الشرط و هو وَ مَنْ يُرِدْ بغير جواب فالأولى أنه محذوف كما ذكرنا. و المراد بالصدّ المنع، و بسبيل اللّه: دينه، أى: يمنعون من أراد الدخول فى دين اللّه و المسجد الحرام، معطوف على سبيل اللّه. قيل: المراد به المسجد نفسه كما هو الظاهر من هذا النظم القرآنى، و قيل: الحرم كله؛ لأن المشركين صدّوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه عنه يوم الحديبية؛ و قيل: المراد به مكة بدليل قوله: الَّذِی جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ أى: جعلناه للناس على العموم يصلّون فيه و يطوفون به مستويا فيه العاكف، و هو المقيم فيه الملازم له، و الباد: أى الواصل من البادية، و المراد به الطارئ عليه من غير فرق بين كونه من أهل البادية أو من غيرهم. و انتصاب سواء على أنه المفعول الثانى لجعلناه، و هو بمعنى مستويا، و العاكف مرتفع به، وصف المسجد الحرام بذلك لزيادة التقريع و التوبيخ للصادّين عنه، و يحتمل أن يكون انتصاب سَواءً على الحال. و هذا على قراءة النصب، و بها قرأ حفص عن عاصم، و هى قراءة الأعمش، و قرأ الجمهور برفع سواء على أنه مبتدأ و خبره الْعاكِفُ أو على أنه خبر مقدّم، و المبتدأ الْعاكِفُ أى: العاكف فيه و البادى سواء، و قرئ بنصب سَواءً و جرّ العاكف على أنه صفة للناس، أى: جعلناه للناس العاكف و البادى سواء، و أثبت الياء فى «البادى» ابن كثير وصلا و وقفا، و

حذفها أبو عمرو فى الوقف، و حذفها نافع فى الوصل و الوقف. قال القرطبى:
و أجمع الناس على الاستواء فى المسجد الحرام نفسه.
و اختلفوا فى مكة فذهب مجاهد و مالك إلى أن دور مكة و منازلها يستوى فيها المقيم و الطارئ. و ذهب عمر بن الخطاب و ابن عباس و جماعة إلى أن للقادم أن ينزل حيث وجد، و على ربّ المنزل أن يؤويه شاء أم أبى. و ذهب الجمهور إلى أنّ دور مكة و منازلها ليست كالمسجد الحرام، و لأهلها منع الطارئ من النزول فيها. و الحاصل أن الكلام فى هذا راجع إلى أصلين: الأصل الأول: ما فى هذه الآية هل المراد بالمسجد الحرام المسجد نفسه، أو جميع الحرم، أو مكة على الخصوص؟ و الثانى: هل كان فتح مكة صلحا أو عنوة؟ و على فرض أن فتحها كان عنوة هل أقرّها النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى يد أهلها على الخصوص؟ أو جعلها لمن نزل بها على العموم؟
و قد أوضحنا هذا فى شرحنا على «المنتقى» بما لا يحتاج الناظر فيه إلى زيادة. وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ

---

(۱). النحل: ۸۸.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۲۹

مفعول يرد محذوف لقصد التعميم، و التقدير: و من يرد فيه مرادا؛ أىّ مراد بإلحاد، أى: بعدول عن القصد، و الإلحاد فى اللغة الميل، إلا أنه سبحانه بيّن هنا أنه الميل بظلم.
و قد اختلف فى هذا الظلم ماذا هو؟ فقيل: هو الشرك، و قيل: الشرك و القتل، و قيل: صيد حيواناته و قطع أشجاره، و قيل: هو الحلف فيه بالأيمان الفاجرة، و قيل: المراد المعاصى فيه على العموم، و قيل: المراد بهذه الآية أنه يعاقب بمجرد الإرادة للمعصية فى ذلك المكان. و قد ذهب إلى هذا ابن مسعود و ابن عمر و الضحّاك و ابن زيد و غيرهم، حتى قالوا: لو همّ الرجل فى الحرم بقتل رجل بعدن لعذّبه اللّه. و الحاصل أن هذه الآية دلت على أن من كان فى البيت الحرام مأخوذا بمجرّد الإرادة للظلم، فهى مخصّصة لما ورد من أن اللّه غفر لهذه الأمة ما حدّثت به أنفسها إلا أن يقال إن الإرادة فيها زيادة على مجرّد حديث النفس، و بالجملة فالبحث عن هذا و تقرير الحق فيه على وجه يجمع بين الأدلة و يرفع الإشكال يطول جدّا، و مثل هذه الآية حديث:
«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل و المقتول فى النار، قيل: يا رسول اللّه هذا القاتل فما بال المقتول؟
قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه» فدخل النار هنا بسبب مجرّد حرصه على قتل صاحبه. و قد أفردنا هذا البحث برسالة مستقلة. و الباء فى قوله: «بإلحاد» إن كان مفعول يرد محذوفا كما ذكرنا فليست بزائدة، و قيل إنها زائدة هنا كقول الشاعر:
نحن بنو جعدة أصحاب الفلج	نضرب بالسيف و نرجو بالفرج
أى: نرجو الفرج.
و مثله:
ألم يأتيک و الأنباء تنمى	بما لاقت لبون بنى زياد «۱»
أى ما لاقت.
و من القائلين بأنها زائدة الأخفش؛ و المعنى عنده: و من يرد فيه إلحادا بظلم. و قال الكوفيون: دخلت الباء لأن المعنى بأن يلحد، و الباء مع أن تدخل و تحذف، و يجوز أن يكون التقدير: و من يرد الناس بإلحاد.
و قيل إن يرد مضمن معنى يهمّ، و المعنى: و من يهمّ فيه بإلحاد. و أما الباء فى قوله «بظلم» فهى للسببية؛ و المعنى: و من يرد فيه بإلحاد بسبب الظلم، و يجوز أن يكون بظلم بدلا من بإلحاد بإعادة الجارّ و يجوز أن يكونا حالين مترادفين. وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ

مَكانَ الْبَيْتِ أى: و اذكر وقت ذلك؛ يقال: بوّأته منزلا- و بوّأت له، كما يقال: مكّنتك و مكّنت لك. قال الزجّاج: معناه جعلنا مكان البيت مبوّأ لإبراهيم، و معنى بوّأنا:

بيّنا له مكان البيت، و مثله قول الشاعر «٢»:

كم من أخ لى ماجدبوّأته بيدىّ لحدا

---

(١). البيت القيس بن زهير العبسى.

(٢). هو عمرو بن معديكرب الزبيدى.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٣٠

و قال الفراء: إن اللام زائدة، و مكان ظرف، أى: أنزلناه فيه أَنْ لا تُشْرِكْ بِی شَيْئاً قيل: إن هذه هى مفسرة لبوّأنا لتضمّنه معنى تعبدنا؛ لأن التبوئة هى للعبادة. و قال أبو حاتم: هى مصدرية، أى: لأن لا تشرك بى. و قيل: هى المخفّفة من الثقيلة، و قيل: هى زائدة، و قيل: معنى الآية: و أوحينا إليه أن لا تعبد غيرى. قال المبرّد: كأنه قيل له وحّدنى فى هذا البيت؛ لأنّ معنى لا تشرك بى: وحدنى وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ من الشرك و عبادة الأوثان. و فى الآية طعن على من أشرك من قطّان البيت، أى: هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده و أنتم فلم تفوا، بل أشركتم. و قالت فرقة: الخطاب بقوله: أَنْ لا تُشْرِكْ لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و هذا ضعيف جدّا. و معنى وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ تطهيره من الكفر و الأوثان و الدماء و سائر النجاسات، و قيل: عنى به التطهير عن الأوثان فقط، و ذلك أن جرهما و العمالقة كانت لهم أصنام فى محل البيت، و قد مرّ فى سورة براءة ما فيه كفاية فى هذا المعنى، و المراد بالقائمين هنا هم المصلون وَ ذكر الرُّكَّعِ السُّجُودِ بعده لبيان أركان الصلاة؛ دلالة على عظم شأن هذه العبادة، و قرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا فى البيت، فالطواف عنده و الصلاة إليه وَ أَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِ قرأ الحسن و ابن محيصن «و آذن» بتخفيف الذال و المدّ. و قرأ الباقون بتشديد الذال، و الأذان: الإعلام، و قد تقدّم فى براءة.

قال الواحدى: قال جماعة المفسرين: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت جاء جبريل فأمره أن يؤذّن فى الناس بالحج، فقال: يا ربّ و ما يبلغ صوتى؟ فقال اللّه سبحانه: أذّن و علىّ البلاغ، فعلا المقام فأشرف به حتى صار كأعلى الجبال، فأدخل إصبعيه فى أذنيه، و أقبل بوجهه يمينا و شمالا، و شرقا و غربا، و قال: يا أيها الناس كتب عليكم الحجّ إلى البيت فأجيبوا ربكم، فأجابه من كان فى أصلاب الرجال و أرحام النساء: لبيك اللهم لبيك. و قيل: إن الخطاب لنبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و المعنى: أعلمهم يا محمد بوجوب الحجّ عليهم، و على هذا فالخطاب لإبراهيم انتهى عند قوله: وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ و قيل: إن خطابه انقضى عند قوله: وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ و أن قوله: أَنْ لا تُشْرِكْ بِی و ما بعده خطاب لنبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قرأ الجمهور بِالْحَجِ بفتح الحاء، و قرأ ابن أبى إسحاق فى كلّ القرآن بكسرها. يَأْتُوكَ رِجالًا هذا جواب الأمر، وعده اللّه إجابة الناس له إلى حجّ البيت ما بين راجل و راكب، فمعنى رجالا مشاة جمع راجل، و قيل جمع رجل. و قرأ ابن أبى إسحاق «رجالا» بضم الراء و تخفيف الجيم، و قرأ مجاهد «رجالى» على وزن فعالى مثل كسالى، و قدّم الرجال على الركبان فى الذكر لزيادة تعبهم فى المشى، و قال: يأتوك و إن كانوا يأتون البيت؛ لأن من أتى الكعبة حاجّا فقد أتى إبراهيم، لأنه أجاب نداءه. وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ عطف على رجالا، أى: و ركبانا على كل بعير، و الضامر: البعير المهزول الذى أتعبه السفر، يقال: ضمر يضمر ضمورا، و وصف الضامر بقوله: يَأْتِينَ باعتبار المعنى، لأن ضامر فى معنى ضوامر، و قرأ أصحاب ابن مسعود و ابن أبى عبلة و الضحّاك «يأتون» على أنه صفة لرجالا. و الفجّ: الطريق الواسع، الجمع: فجاج، و العميق:

البعيد، و اللام فى لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ متعلقة بقوله يأتوك، و قيل: بقوله و أذن. و الشهود: الحضور، و المنافع: هى التى تعمّ منافع

الدنيا و الآخرة. و قيل: المراد بها المناسک، و قيل: المغفرة، و قيل: التجارة، کما

فی قوله: لَيسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ «۱». وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِی أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ أی: يـذكروا عنـد ذبح الهدايا و الضحايا اسم اللّه، و قيل: إن هذا الذكر كناية عن الذّبح لأنه لا ينفک عنه.

و الأيام المعلومات هی أيام النحر كما يفيد ذلک قوله: عَلی ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ و قيل: عشر ذی الحجّة. و قد تقدّم الكلام فی الأيـام المعلومـات و المعـدودات فی البقرة فلا نعيـده، و الكلام فی وقـت ذبـح الأضـحية معروف فی كتـب الفقـه و شـروح الحديث، و معنی: «عَلی ما رَزَقَهُمْ»: علی ذبح ما رزقهم من بهيمة الأنعام، و هی الإبل و البقر و الغنم، و بهيمة الأنعام: هی الأنعام، فالإضافـة فی هـذا كالإضافـة فی قولهم: مسجد الجامع و صـلاة الأولی. فَكُلُوا مِنْها الأمر هنا للندب عند الجمهور، و ذهبت طائفة إلی أن الأمر للوجوب، و هـذا التفات من الغيبـة إلی الخطاب وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ البائس: ذو البؤس، و هو شـدة الفقر، فـذكر الفقير بعـده لمزيد الإيضاح، و الأمر هنا للوجوب، و قيل: للندب. ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ المراد بالقضاء هنا هو التأدية، أی: ليؤدوا إزالة وسـخهم، لأن التفث هو الوسـخ و القذارة من طول الشـعر و الأظفار، و قد أجمع المفسـرون كما حكاه النيسابوری علی هذا. قال الزجّاج: إن أهل اللغة لا يعرفون التفث. و قال أبو عبيدة:

لم يأت فی الشرع ما يحتجّ به فی معنی التفث. و قال المبرّد: أصل التفث فی اللغة كل قاذورة تلحق الإنسان.

و قيل: قضاؤه ادّهانه؛ لأن الحاجّ مغبّر شـعث لم يدهن و لم يستحد، فإذا قضی نسكه و خرج من إحرامه حلق شعره و لبس ثيابه، فهذا هو قضاء التفث. قال الزجاج: كأنه خروج من الإحرام إلی الإحلال وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ أی: ما ينذرون به من البرّ فی حجّهم، و الأمر للوجوب، و قيل: المراد بالنـذور هنا أعمال الحـج وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ هـذا الطواف هو طواف الإفاضة. قال ابن جرير: لا خلاف فی ذلک بين المتأوّلين، و العتيق: القـديم كما يفيـده قوله سـبحانه: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ «۲» الآية، و قد سـمّی العتيق لأن اللّه أعتقه من أن يتسلّط عليه جبار، و قيل: لأن اللّه يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب، و قيل: لأنه أعتق من غرق الطوفان، و قيل: العتيق: الكريم.

و قـد أخرج عبـد بن حميـد عن ابن عباس فی قوله: وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ قال: الحرم كله، و هو المسـجد الحرام سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ قال: خلق اللّه فيه سواء. و أخرج ابن أبی شـيبة عن سـعيد بن جبير مثله. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی الآيـة قال: هم فی منـازل مكـة سواء، فينبغی لأهـل مكـة أن يوسـعوا لهم حتی يقضوا مناسـكهم. و قـال: البادی و أهل مكـة سواء، يعنی فی المنزل و الحرم. و أخرج ابن أبی شـيبة عن عبـد اللّه بن عمرو قال: من أخـذ من أجور بيوت مكة إنما يأكل فی بطونه «۳» نارا. و أخرج ابن سـعد عن عمر بن الخطاب أن رجلا قال له عند المروة: يا أمير المؤمنين أقطعنی مكانا لی و لعقبی، فأعرض عنه عمر و قال: هو حرم اللّه سواء العاكف فيه الباد. و أخرج ابن أبی شـيبة عن عطاء قال: كان عمر يمنع أهل مكـة أن يجعلوا لها أبوابا حتی ينزل الحاجّ فی عرصات الدّور. و أخرج ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردويه، قال

---

(۱). البقرة: ۱۹۸.

(۲). آل عمران: ۹۶.

(۳). لعلّ الصواب: بطنه.

السـيوطی: بإسـناد صـحيح، عن ابن عبـاس قال: قال رسول اللّه صـلّی اللّه عليه و سـلّم فی قول اللّه: «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ قال:

«سواء المقيم و الذى يدخل». و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال:
«مكة مباحة لا تؤجر بيوتها و لا تباع رباعها». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن ماجة عن علقمة بن نضلة قال:
توفى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أبو بكر و عمر و ما تدعى رباع مكة «١» إلا السّوائب «٢»، من احتاج سكن، و من استغنى أسكن «٣». رواه ابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن عيسى بن يونس، عن عمر بن سعيد بن أبى حسين، عن عثمان بن أبى سليمان، عن علقمة فذكره. و أخرج الدارقطنى عن ابن عمر مرفوعا: «من أكل كراء بيوت مكة أكل نارا» و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن راهويه و أحمد و عبد بن حميد و البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن مسعود رفعه فى قوله: وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ قال: «لو أن رجلا همّ فيه بإلحاد و هو بعدن أبين لأذاقه اللّه عذابا أليما». قال ابن كثير: هذا الإسناد صحيح على شرط البخارى، و وقفه أشبه من رفعه، و لهذا صمّم شعبة على وقفه. و أخرج سعيد بن منصور و الطبرانى عن ابن مسعود فى الآية قال: من همّ بخطيئة فلم يعملها فى سوى البيت لم تكتب عليه حتى يعملها، و من همّ بخطيئة فى البيت لم يمته اللّه من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فى عبد اللّه بن أنيس: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر و الآخر من الأنصار، فافتخروا فى الأنساب، فغضب عبد اللّه بن أنيس، فقتل الأنصارى، ثم ارتدّ عن الإسلام و هرب إلى مكة، فنزلت فيه وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ يعنى من لجأ إلى الحرم بإلحاد، يعنى بميل عن الإسلام. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ قال: بشرك. و أخرج عبد بن حميد، و البخارى فى تاريخه، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن يعلى بن أمية عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «احتكار الطعام فى الحرم إلحاد فيه». و أخرج سعيد بن منصور، و البخارى فى تاريخه، و ابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال: احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال: بيع الطعام بمكة إلحاد. و أخرج البيهقى فى الشعب عنه قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «احتكار الطعام بمكة إلحاد».
و أخرج ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، عن علىّ قال: لما أمر إبراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل و هاجر، فلما قدم مكة رأى على رابية فى موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس، فكلمه فقال: يا إبراهيم! ابن على ظلّى أو على قدرى، و لا تزد و لا تنقص، فلما بنى خرج و خلّف إسماعيل و هاجر، و ذلك حين يقول اللّه:
وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ الآية. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عطاء وَ الْقائِمِينَ قال: المصلين عنده. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن قتادة معناه. و أخرج ابن

---

(١). أى: بيوتها.

(٢). «السوائب»: أى غير المملوكة لأهلها، بل المتروكة للّه تعالى لينتفع بها المحتاج إليها.

(٣). أى: أسكن غيره بلا إجارة.

أبى شيبة فى المصنف، و ابن منيع و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى السّنن، عن ابن عباس قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال: ربّ قد فرغت، فقال وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِ قال: ربّ و ما يبلغ صوتى؟ قال: أذّن و علىّ البلاغ، قال: ربّ كيف أقول؟ قال: قل: يا أيها الناس كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق، فسمعه من فى السماء و الأرض، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبّون. و فى الباب آثار عن جماعة من الصحابة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن

أبى حاتم عن ابن عباس لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ قال: أسواقا كانت لهم، ما ذكر اللّه منافع إلا الدنيا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: منافع فى الدنيا و منافع فى الآخرة، فأما منافع الآخرة فرضوان اللّه، و أما منافع الدنيا فممّا يصيبون من لحوم البدن فى ذلك اليوم و الذبائح و التجارات. و أخرج أبو بكر المروزى فى «كتاب العيدين» عنه أيضا قال:

الأيام المعلومات: أيام العشر. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الأيام المعلومات:

يوم النحر و ثلاثة أيام بعده. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: أيام التشريق. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا فى الأيام المعلومات قال: قبل يوم التروية بيوم، و يوم التروية و يوم عرفة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: البائس: الزّمن «١». و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عمر قال:

التفث المناسك كلها. و أخرج هؤلاء عن ابن عباس نحوه. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: التفث: حلق الرأس، و الأخذ من العارضين، و نتف الإبط، و حلق العانة، و الوقوف بعرفة، و السّعى بين الصفا و المروة، و رمى الجمار، و قصّ الأظفار، و قصّ الشارب، و الذّبح. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ هو طواف الزيارة يوم النحر.

و ورد فى وجه تسمية البيت بالعتيق آثار عن جماعة من الصحابة، و قد أشرنا إلى ذلك سابقا، و ورد فى فضل الطواف أحاديث ليس هذا موضع ذكرها.

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٣٠ الى ٣٥]

ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥)

---

(١). أى: المريض مرضا يطول شفاؤه.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٣٤

محل ذلِكَ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمر ذلك، أو مبتدأ خبره محذوف، أو فى محل نصب بفعل محذوف، أى: افعلوا ذلك، و المشار إليه هو ما سبق من أعمال الحجّ، و هذا و أمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين طرفى كلام واحد، و الحرمات: جمع حرمة. قال الزجّاج: الحرمة ما وجب القيام به و حرم التفريط فيه، و هى فى هذه الآية ما نهى عنها و منع من الوقوع فيها. و الظاهر من الآية عموم كل حرمة فى الحجّ و غيره كما يفيده اللفظ و إن كانا السبب خاصا، و تعظيمها ترك ملابستها فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ أى: فالتعظيم خير له عِنْدَ رَبِّهِ يعنى فى الآخرة من التهاون بشى‏ء منها. و قيل: إن صيغة التفضيل هنا لا يراد بها معناه الحقيقى، بل المراد أن ذلك التعظيم خير ينتفع به، فهى عدة بخير وَ أُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ و هى الإبل و البقر و الغنم إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ أى: فى الكتاب العزيز من المحرّمات، و هى الميتة و ما ذكر معها فى سورة المائدة. و قيل: فى قوله: إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ «١». فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ الرجس: القذر، و الوثن: التمثال، و أصله من وثن الشى‏ء، أى: أقام فى مقامه، و سمّى الصليب وثنا لأنه ينصب و يركز فى مقامه، فلا يبرح عنه و المراد اجتناب عبادة الأوثان، و سمّاها

رجسا لأنها سبب الرّجس، و هو العذاب. و قيل: جعلها سبحانه رجسا حكما، و الرجس: النجس، و ليست النجاسة وصفا ذاتيا لها و لكنها وصف شرعى، فلا تزول إلا بالإيمان، كما أنها لا تزول النجاسة الحسية إلا بالماء.

قال الزّجّاج: «من» هنا لتخليص جنس من أجناس، أى: فاجتنبوا الرجس الذى هو وثن وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ الذى هو الباطل، و سمّى زورا لأنه مائل عن الحق، و منه قوله تعالى: تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ «٢»، و قولهم مدينة زوراء، أى: مائلة، و المراد هنا قول الزور على العموم، و أعظمه الشرك باللّه بأىّ لفظ كان.

و قال الزجاج: المراد بقول الزور هاهنا تحليلهم بعض الأنعام و تحريمهم بعضها، و قولهم: هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ «٣»، و قيل: المراد به شهادة الزور، و انتصاب حُنَفاءَ على الحال، أى: مستقيمين على الحق، أو مائلين إلى الحق. و لفظ حنفاء من الأضداد، يقع على الاستقامة، و يقع على الميل؛ و قيل: معناه حجّاجا، و لا وجه لهذا غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ هو حال كالأوّل، أى: غير مشركين به شيئا من الأشياء كما يفيده الحذف من العموم، و جملة وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الأمر بالاجتناب، و معنى خرّ من السماء: سقط إلى الأرض، أى: انحط من رفيع الإيمان إلى حضيض الكفر فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ، يقال: خطفه يخطفه إذا سلبه، و منه قوله: يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ أى: تخطف لحمه و تقطعه بمخالبها. قرأ أبو جعفر و نافع بتشديد الطاء و فتح الخاء، و قرئ بكسر الخاء و الطاء و بكسر التاء مع كسرهما أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ أى: تقذفه و ترمى به فِي مَكانٍ سَحِيقٍ أى: بعيد، يقال: سحق يسحق سحقا فهو سحيق؛ إذا بعد. قال الزّجّاج: أعلم اللّه أنّ بعد من أشرك به من الحقّ كبعد ما خرّ من السماء، فتذهب به الطير، أو هوت به الريح فى مكان بعيد ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ الكلام فى هذه الإشارة قد تقدّم قريبا، و الشعائر: جمع الشعيرة، و هى كل شىء فيه للّه تعالى شعار، و منه شعار القوم فى الحرب،

---

(١). المائدة: ٣.

(٢). الكهف: ١٧.

(٣). النحل ١١٤.

و هو علامتهم التى يتعارفون بها، و منه إشعار البدنة، و هو الطعن فى جانبها الأيمن، فشعائر اللّه أعلام دينه، و تدخل الهدايا فى الحجّ دخولا أوليا، و الضمير فى قوله: فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ راجع إلى الشعائر بتقدير مضاف محذوف، أى: فإن تعظيمها من تقوى القلوب، أى: من أفعال القلوب التى هى من التقوى، فإن هذا التعظيم ناشئ من التقوى لَكُمْ فِيها مَنافِعُ أى: فى الشعائر على العموم، أو على الخصوص، و هى البدن كما يدلّ عليه السياق. و من منافعها: الركوب و الدّرّ و النّسل و الصوف و غير ذلك. إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى و هو وقت نحرها ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ أى: حيث يحلّ نحرها، و المعنى: أنها تنتهى إلى البيت و ما يليه من الحرم، فمنافعهم الدنيوية المستفادة منها مستمرّة إلى وقت نحرها، ثم تكون منافعها بعد ذلك دينية. و قيل: إن محلها هاهنا مأخوذ من إحلال الحرام، و المعنى: أن شعائر الحجّ كلها من الوقوف بعرفة و رمى الجمار و السعى تنتهى إلى طواف الإفاضة بالبيت، فالبيت على هذا مراد بنفسه وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً المنسك هاهنا المصدر من نسك ينسك إذا ذبح القربان، و الذبيحة نسيكة، و جمعها نسك. و قال الأزهرى: إن المراد بالمنسك فى الآية موضع النحر، و يقال: منسك بكسر السين و فتحها لغتان، قرأ بالكسر الكوفيون إلا عاصما، و قرأ الباقون بالفتح. و قال الفرّاء: المنسك فى كلام العرب: الموضع المعتاد فى خير أو شرّ، و قال ابن عرفة وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً: أى مذهبا من طاعة اللّه. و روى عن الفراء أن المنسك العيد، و قيل: الحجّ، و الأوّل أولى لقوله: لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ إلى آخره، و الأمة: الجماعة المجتمعة على مذهب واحد، و المعنى: و جعلنا لكلّ أهل دين من الأديان

ذبحا يـذبحونه و دما يريقونه، أو متعبـدا أو طاعـة أو عيـدا أو حجا يحجّونه، ليـذكروا اسم اللّه وحده، و يجعلوا نسـكهم خاصا به عَلى مـا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَـةِ الْأَنْعـامِ أى: على ذبـح ما رزقهم منها، و فيه إشارة إلى أن القربان لا يكون إلا من الأنعام دون غيرها، و فى الآية دليل على أن المقصود من الذّبح المذكور هو ذكر اسم اللّه عليه. ثم أخبرهم سـبحانه بتفرّده بالإلهية و أنه لا شريك له، و الفـاء لترتيب مـا بعـدها على مـا قبلها، ثم أمرهم بالإسـلام له، و الانقياد لطاعته و عبادته، و تقـديم الجار و المجرور على الفعل للقصـر، و الفاء هنا كالفاء التى قبلها، ثم أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يبشّر الْمُخْبِتِينَ من عباده؛ أى: المتواضعين الخاشعين المخلصـين، و هو مأخوذ من الخبت، و هو المنخفض من الأرض، و المعنى: بشّرهم يا محمـد بما أعدّ اللّه لهم من جزيل ثوابه و جليل عطائه. و قيل: إن المخبتين هم الذى لا يظلمون غيرهم و إذا ظلمهم غيرهم لم ينتصـروا، ثم وصف سـبحانه هؤلاء المخبتين بقوله: الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ أى: خـافت و حـذرت مخالفته، و حصول الوجل منهم عنـد الـذكر له سـبحانه دليل على كمـال يقينهم و قوّة إيمانهم، و وصـفهم بالصبر عَلى ما أَصابَهُمْ من البلايا و المحن فى طاعـة اللّه ثم وصـفهم بإقامـة الصَّلاةِ أى: الإتيـان بها فى أوقاتها على وجه الكمال. قرأ الجمهور: «وَ الْمُقِيمِي الصَّلاةِ» بالجرّ على ما هو الظاهر، و قرأ أبو عمرو بالنصب على توهّم بقاء النون، و أنشد سيبويه على ذلك قول الشاعر:

الحافظو عورة العشيرة «١» ....

---

(١). البيت بتمامه:

الحافظو عورة العشيرة لايأتيهم من ورائنا نطف فتح القدير، ج٣، ص: ٥٣٦

البيت بنصب عورة. و قيل: لم يقرأ بهذه القراءة أبو عمرو، و قرأ ابن محيصن «و المقيمين»: بإثبات النون فى الأصل، و رويت هذه القراءة عن ابن مسـعود، ثم وصفهم سبحانه بقوله: وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ أى: يتصدّقون به و ينفقونه فى وجوه البرّ، و يضعونه فى مواضع الخير، و مثـل هـذه الآيـة قوله سـبحانه: إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيـاتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ «١».

و قد أخرج ابن أبى شـيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: حُرُماتِ اللَّهِ قال: الحرمة مكـة و الحجّ و العمرة و ما نهى اللّه عنه من معاصـيه كلها. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ يقول: اجتنبوا طاعة الشيطان فى عبادة الأوثان وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ يعنى الافتراء على اللّه و التكذيب به. و أخرج أحمد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن مردويه عن أيمن بن خريم قـال: قـام رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم خطيبا فقال: «يا أيها الناس عدلت شـهادة الزّور شـركا باللّه- ثلاثا- ثم قرأ: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ» قال أحمد: غريب إنما نعرفه من حـديث سـفيان بن زياد. و قـد اختلف عنه فى رواية هذا الحديث، و لا نعرف لأيمن بن خريم سـماعا من النبى صـلّى اللّه عليه و سلّم. و قـد أخرجه أحمـد و عبـد بن حميـد و أبـو داود و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الشـعب، من حـديث خريم. و قـد ثبت فى الصـحيحين و غيرهما من حديث أبى بكرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سـلّم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا؟ قلنا: بلى يا رسول اللّه، قال: الإشراك باللّه، و عقوق الوالدين، و كان متكئا فجلس فقال: ألا و قول الزور، ألا و شـهادة الزور، فما زال يكرّرها حتى قلنا: ليته سكت». و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ قال: حجّاجا للّه. غير مشركين به، و ذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين، فلما أظهر اللّه الإسـلام، قال اللّه للمسـلمين: حجّوا الآن غير مشركين باللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر الصدّيق نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ قال: البدن. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى

حاتم عن ابن عباس وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ قال: الاستسمان و الاستحسان و الاستعظام، و فی قوله: لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قال: إلى أن تسمّى بدنا. و أخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه، و فيه قال: و لكم فيها منافع إلى أجل مسمى، فی ظهورها و ألبانها و أوبارها و أشعارها و أصوافها إلى أن تسمّى هديا، فإذا سميت هديا ذهبت المنافع ثُمَّ مَحِلُّها يقول: حين تسمى إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن عكرمة قال: إذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً قال: عيدا. و أخرج ابن أبی شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی الآية قال: إهراق الدماء. و أخرج ابن أبی حاتم عن عكرمة

---

(١). الأنفال: ٢.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٣٧

قال: ذبحا. و أخرج ابن أبی حاتم عن زيد بن أسلم فی الآية قال: مكة لم يجعل اللّه لأمة قط منسكا غيرها.

و قد وردت أحاديث فی الأضحية ليس هذا موضع ذكرها. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ قال: المطمئنين. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبی شيبة و عبد بن حميد، و ابن أبی الدنيا فی ذمّ الغضب، و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و البيهقی فی شعب الإيمان، عن عمرو بن أوس قال: المخبتون فی الآية الذين لا يظلمون الناس، و إذا ظلموا لم ينتصروا.

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٣٦ الى ٣٧]

وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)

قرأ ابن أبی إسحاق «و البدن» بضم الباء و الدال، و قرأ الباقون بإسكان الدال، و هما لغتان، و هذا الاسم خاص بالإبل، و سمّيت بدنة لأنها تبدن، و البدانة: السّمن. و قال أبو حنيفة و مالك: إنه يطلق على غير الإبل، و الأوّل أولى لما سيأتی من الأوصاف التی هی ظاهرة فی الإبل، و لما تفيده كتب اللغة من اختصاص هذا الاسم بالإبل. و قال ابن كثير فی تفسيره: و اختلفوا فی صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين: أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعا كما صحّ فی الحديث. جَعَلْناها لَكُمْ و هی ما تقدّم بيانه قريبا لَكُمْ فِيها خَيْرٌ أی: منافع دينية و دنيوية كما تقدّم فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها أی: على نحرها، و معنى صَوافَ أنها قائمة قد صفّت قوائمها، لأنها تنحر قائمة معقولة، و أصل هذا الوصف فی الخيل، يقال: صفن الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم و ثنى الرابعة. و قرأ الحسن و الأعرج و مجاهد و زيد بن أسلم و أبو موسى الأشعری «صوافی» أی: خوالص للّه لا يشركون به فی التسمية على نحرها أحدا، و واحد صوافّ صافة، و هی قراءة الجمهور. و واحد صوافی صافية. و قرأ ابن مسعود و ابن عمر و ابن عباس و أبو جعفر محمد بن علی «صوافن» بالنون جمع صافنة، و الصافنة: هی التی قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب، و منه قوله تعالى:

الصَّافِناتُ الْجِيادُ «١»، و منه قول عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليهمقلّدة أعنّتها صفونا

و قال الآخر:

ألف الصّفون فما يزال كأنّهممّا يقوم على الثّلاث كسيرا

فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها الوجوب: السقوط، أي: فإذا سقطت بعد نحرها، و ذلك عند خروج روحها فَكُلُوا مِنْها ذهب الجمهور أن هذا الأمر للندب وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ هذا الأمر قبل هو للندب كالأوّل، و به قال مجاهد و النّخعى و ابن جرير و ابن سريج. و قال الشافعى و جماعة: هو للوجوب.

---

(١). ص: ٣١.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٣٨

و اختلف فى القانع من هو؟ فقيل: هو السائل، يقال: قنع الرجل بفتح النون يقنع بكسرها «١» إذا سأل، و منه قول الشّمّاخ:

لمال المرء يصلحه فيغنىمفاقره أعفّ من القنوع

أى: السؤال، و قيل: هو المتعفّف عن السؤال المستغنى ببلغة، ذكر معناه الخليل. قال ابن السّكّيت:

من العرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة، و هى الرّضا و التّعفف و ترك المسألة. و بالأوّل قال زيد بن أسلم و ابنه و سعيد بن جبير و الحسن، و روى عن ابن عباس. و بالثانى قال عكرمة و قتادة. و أما المعترّ، فقال محمد ابن كعب القرظى و مجاهد و إبراهيم و الكلبىّ و الحسن أنه الذى يتعرّض من غير سؤال. و قيل: هو الذى يعتريك و يسألك. و قال مالك: أحسن ما سمعت أن القانع: الفقير، و المعترّ: الزائر. و روى عن ابن عباس: أن كلاهما الذى لا يسأل، و لكن القانع الذى يرضى بما عنده و لا يسأل، و المعترّ الذى يتعرّض لك و لا يسألك.

و قرأ الحسن

«و المعترى» و معناه كمعنى المعترّ. و منه قول زهير:

على مكثريهم رزق من يعتريهمو عند المقلّين السّماحة و البذل

يقال: اعترّه و اعتراه و عرّه و عرّاه؛ إذا تعرّض لما عنده أو طلبه، ذكر النحّاس كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ أى: مثل ذلك التسخير البديع سخرناها لكم، فصارت تنقاد لكم إلى مواضع نحرها فتنحرونها و تنتفعون بها بعد أن كانت مسخرة للحمل عليها و الركوب على ظهرها و الحلب لها و نحو ذلك. لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ هذه النعمة التى أنعم اللّه بها عليكم لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها أى: لن يصعد إليه، و لا يبلغ رضاه، و لا يقع موقع القبول منه لحوم هذه الإبل التى تتصدّقون بها، و لا دماؤها التى تنصب عند نحرها؛ من حيث إنها لحوم و دماء وَ لكِنْ يَنالُهُ أى: يبلغ إليه تقوى قلوبكم، و يصل إليه إخلاصكم له و إرادتكم بذلك وجهه، فإن ذلك هو الذى يقبله اللّه و يجازى عليه. و قيل: المراد أصحاب اللحوم و الدماء، أى: لن يرضى المضحّون و المتقرّبون إلى ربهم باللحوم و الدماء و لكن بالتقوى. قال الزجاج: أعلم اللّه أن الذى يصل إليه تقواه و طاعته فيما يأمر به، و حقيقة معنى هذا الكلام تعود إلى القبول، و ذلك أن ما يقبله الإنسان يقال قد ناله و وصل إليه، فخاطب اللّه الخلق كعادتهم فى مخاطبتهم كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ كرّر هذا للتذكير، و معنى لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ هو قول الناحر: اللّه أكبر؛ عند النحر، فذكر فى الآية الأولى الأمر بذكر اسم اللّه عليها، و ذكر هنا التكبير للدلالة على مشروعية الجمع بين التسمية و التكبير. و قيل: المراد بالتكبير وصفه سبحانه بما يدلّ على الكبرياء. و معنى عَلى ما هَداكُمْ على ما أرشدكم إليه من علمكم بكيفية التقرّب بها، و «ما» مصدرية، أو موصولة وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ قيل: المراد بهم المخلصون، و قيل: الموحّدون.

و الظاهر أن المراد بهم كل من يصدر منه من الخير ما يصحّ به إطلاق اسم المحسن عليه.

---

(۱). لعلّ الصواب: قنع يقنع- بفتح النون-: إذا سأل. و قنع يقنع؛ إذا رضى.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۳۹

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن عبد اللّه بن عمر قال: لا نعلم البدن إلا من الإبل و البقر. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: البدن ذات الجوف. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: ليس البدن إلا من الإبل، و أخرجوا عن الحكم نحوه، و أخرجوا عن عطاء نحو ما قال ابن عمر. و أخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن المسيب نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد عن يعقوب الرّياحى عن أبيه قال: أوصى إلىّ رجل، و أوصى ببدنة، فأتيت ابن عباس فقلت له: إن رجلا أوصى إلىّ و أوصى ببدنة، فهل تجزئ عنى بقرة؟ قال: نعم، ثم قال: ممن صاحبكم؟ فقلت:

من بنى رياح، فقال: و متى اقتنى بنو رياح البقر إلى الإبل؟ و هم صاحبكم، إنما البقر لأسد و عبد القيس.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى الدنيا فى الأضاحى، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، عن أبى ظبيان قال: سألت ابن عباس عن قوله: فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ قال: إذا أردت أن تنحر البدنة فأقمها على ثلاث قوائم معقولة، ثم قل: بسم اللّه و اللّه أكبر. و أخرج الفريابى و أبو عبيد و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله:

صَوافَّ قال: قياما معقولة. و فى الصحيحين و غيرهما عنه أنه رأى رجلا قد أناخ بدنته و هو ينحرها، فقال: ابعثها قياما مقيّدة سنة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج أبو عبيدة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن ميمون بن مهران قال: فى قراءة ابن مسعود «صوافن» يعنى قياما. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فَإِذا وَجَبَتْ قال: سقطت على جنبها. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: نحرت. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الْقانِعَ المتعفف وَ الْمُعْتَرَّ السائل. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر قال: القانع الذى يقنع بما آتيته. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: القانع الذى يقنع بما أوتى، و المعترّ الذى يعترض. و أخرج عنه أيضا قال: القانع الذى يجلس فى بيته. و أخرج عبد بن حميد، و البيهقى فى سننه، عنه أنه سئل عن هذه الآية، فقال: أما القانع فالقانع بما أرسلت إليه فى بيته، و المعترّ الذى يعتريك. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال: القانع الذى يسأل، و المعترّ الذى يتعرض و لا يسأل. و قد روى عن التابعين فى تفسير هذه الآية أقوال مختلفة، و المرجع المعنى اللغوى؛ لا سيما مع الاختلاف بين الصحابة و من بعدهم فى تفسير ذلك. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان المشركون إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء فينضحون بها نحو الكعبة، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك، فأنزل اللّه لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج نحوه.

[سورة الحج (۲۲): الآيات ۳۸ الى ۴۱]

إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (۳۸) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (۳۹) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (۴۰) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (۴۱)

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۴۰

قرأ أبو عمرو و ابن كثير «يدفع» و قرأ الباقون يدافع، و صيغة المفاعلة هنا مجرّدة عن معناها الأصلى، و هو وقوع الفعل من

الجانبين كما تدلّ عليه القراءة الأخرى. و قد ترد هذه الصيغة و لا يراد بها معناها الأصلى كثيرا، مثل عاقبت اللصّ و نحو ذلك، و قد قدّمنا تحقيقه. و قيل: إن إيراد هذه الصيغة هنا للمبالغة، و قيل:

للدلالة على تكرّر الواقع. و المعنى: يدفع عن المؤمنين غوائل المشركين، و قيل: يعلى حجتهم، و قيل:

يوفّقهم، و الجملة مستأنفة لبيان هذه المزية الحاصلة للمؤمنين من ربّ العالمين، و أنه المتولى للمدافعة عنهم، و جملة إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ مقرّرة لمضمون الجملة الأولى، فإن المدافعة من اللّه لهم عن عباده المؤمنين مشعرة أتمّ إشعار بأنهم مبغضون إلى اللّه غير محبوبين له. قال الزجاج: من ذكر غير اسم اللّه و تقرّب إلى الأصنام بذبيحته فهو خوّان كفور، و إيراد صيغتى المبالغة للدلالة على أنهم كذلك فى الواقع لا لإخراج من خان دون خيانتهم، أو كفر دون كفرهم أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا قرئ «أذن» مبنيا للفاعل و مبنيا للمفعول، و كذلك «يقاتلون»، قرئ مبنيا للفاعل و مبنيا للمفعول، و على كلا القراءتين فالإذن من اللّه سبحانه لعباده المؤمنين بأنهم إذا صلحوا للقتال، أو قاتلهم المشركون قاتلوهم. قال المفسرون:

كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بألسنتهم و أيديهم، فيشكون ذلك إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فيقول لهم: «اصبروا فإنى لم أومر بالقتال» حتى هاجر، فأنزل اللّه سبحانه هذه الآية بالمدينة، و هى أول آية نزلت فى القتال. و هذه الآية مقرّرة أيضا لمضمون قوله: إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ فإن إباحة القتال لهم هى من جملة دفع اللّه عنهم، و الباء فى بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا للسببية، أى: بسبب أنهم ظلموا بما كان يقع عليهم من المشركين من سب و ضرب و طرد، ثم وعدهم سبحانه النصر على المشركين، فقال: وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ و فيه تأكيد لما مرّ من المدافعة أيضا. ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍ و يجوز أن يكون بدلا من الذين يقاتلون، أو فى محل نصب على المدح، أو محل رفع بإضمار مبتدأ، و المراد بالديار مكة إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ قال سيبويه: هو استثناء منقطع، أى: لكن لقولهم ربنا اللّه، أى أخرجوا بغير حق يوجب إخراجهم لكن لقولهم ربنا اللّه. و قال الفراء و الزجاج: هو استثناء متصل، و التقدير الذين أخرجوا من ديارهم بلا حق إلا بأن يقولوا ربنا اللّه، فيكون مثل قوله سبحانه:

وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا «١» و قول النّابغة:

و لا عيب فيهم غير أنّ سيوفهمبهنّ فلول من قراع الكتائب

وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ قرأ نافع «و لو لا دفاع» و قرأ الباقون وَ لَوْ لا دَفْعُ و المعنى: لو لا ما شرعه اللّه للأنبياء و المؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك، و ذهبت مواضع العبادة من الأرض، و معنى لَهُدِّمَتْ لخربت باستيلاء أهل الشرك على أهل الملل؛ فالصوامع: هى صوامع الرهبان، و قيل: صوامع الصابئين، و البيع: جمع بيعة، و هى كنيسة النصارى، و الصلوات هى كنائس اليهود، و اسمها بالعبرانية صلوثا

---

(١). الأعراف: ١٢٦.

بالمثلثة فعربت، و المساجد هى مساجد المسلمين. و قيل: المعنى: لو لا هذا الدفع لهدّمت فى زمن موسى الكنائس، و فى زمن عيسى الصوامع و البيع، و فى زمن محمد المساجد. قال ابن عطية: هذا أصوب ما قيل فى تأويل الآية. و قيل: المعنى: و لو لا دفع اللّه ظلم الظلمة بعدل الولاة؛ و قيل: لو لا دفع اللّه العذاب بدعاء الأخيار، و قيل غير ذلك. و الصوامع: جمع صومعة، و هى بناء مرتفع، يقال: صمّع الثريدة؛ إذا رفّع رأسها، و رجل أصمع القلب: أى حاد الفطنة، و الأصمع من الرجال: الحديد القول، و قيل: الصغير الأذن. ثم استعمل فى المواضع التى يؤذن عليها فى الإسلام، و قد ذكر ابن عطية فى صلوات تسع قراءات، و وجه تقديم

مواضع عبادات أهل الملل على موضع عبادة المسلمين كونها أقدم بناء و أسبق وجودا. و الظاهر من الهدم المذكور معناه الحقيقى كما ذكره الزجاج و غيره، و قيل: المراد به المعنى المجازى، و هو تعطّلها من العبادة، و قرئ «لهدّمت» بالتشديد، و انتصاب كثيرا فى قوله: يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً على أنه صفة لمصدر محذوف، أى: ذكرا كثيرا، أو وقتا كثيرا، و الجملة صفة للمساجد، و قيل: لجميع المذكورات وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ اللام هى جواب لقسم محذوف، أى: و اللّه لينصر اللّه من ينصره، و المراد بمن ينصر اللّه من ينصر دينه و أولياءه، و القوىّ: القادر على الشىء، و العزيز: الجليل الشريف، قاله الزجاج، و قيل: الممتنع الذى لا يرام و لا يدافع و لا يمانع، و الموصول فى قوله: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ فى موضع نصب صفة لمن فى قوله من ينصره، قاله الزجاج. و قال غيره: هو فى موضع جرّ صفة لقوله «للذين يقاتلون». و قيل: المراد بهم المهاجرون و الأنصار و التابعون لهم بإحسان، و قيل: أهل الصلوات الخمس، و قيل: ولاة العدل، و قيل غير ذلك. و فيه إيجاب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر على من مكّنه اللّه فى الأرض و أقدره على القيام بذلك، و قد تقدّم تفسير الآية، و معنى وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ أن مرجعها إلى حكمه و تدبيره دون غيره.

و قد أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد، و الترمذى و حسّنه، و النسائى و ابن ماجة و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدّلائل، عن ابن عباس قال: لما أخرج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم: إنّا للّه و إنا إليه راجعون، ليهلكنّ القوم، فنزلت أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا الآية. قال ابن عباس: و هى أوّل آية نزلت فى القتال.

قال الترمذى: حسن، و قد رواه غير واحد عن الثورى، و ليس فيه ابن عباس، انتهى. و قد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ أى: من مكة إلى المدينة بغير حق، يعنى محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن عثمان بن عفان قال: فينا نزلت هذه الآية الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍ و الآية بعدها، أخرجنا من ديارنا بغير حق، ثم مكّنّا فى الأرض، فأقمنا الصلاة، و آتينا الزكاة، و أمرنا بالمعروف، و نهينا عن المنكر، فهى لى و لأصحابى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن علىّ ابن أبى طالب قال: إنما أنزلت هذه الآية فى أصحاب محمد وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ الآية: قال لو لا دفع

اللّه بأصحاب محمد عن التابعين لهدّمت صوامع. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ الآية قال: الصوامع التى تكون فيها الرهبان، و البيع مساجد اليهود و صلوات كنائس النصارى، و المساجد مساجد المسلمين. و أخرجا عنه قال: البيع بيع النصارى، و صلوات كنائس اليهود.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى قوله: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ قال: أرض المدينة أَقامُوا الصَّلاةَ قال: المكتوبة وَ آتَوُا الزَّكاةَ قال: المفروضة وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ قال: بلا إله إلا اللّه وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ قال: عن الشرك باللّه وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ قال: و عند اللّه ثواب ما صنعوا.

[سورة الحج (۲۲): الآيات ۴۲ الى ۵۱]

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ ثَمُودُ (۴۲) وَ قَوْمُ إِبْراهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ (۴۳) وَ أَصْحابُ مَدْيَنَ وَ كُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (۴۴) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَ هِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ (۴۵) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى

الْقُلُوبُ الَّتِی فِی الصُّدُورِ (۴۶)
وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (۴۷) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَ هِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (۴۸) قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۴۹) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۵۰) وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِی آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (۵۱)

قوله: وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ إلخ هذه تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و تعزية له متضمّنة للوعد له بإهلاك المكذبين له، كما أهلك سبحانه المكذبين لمن كان قبله. و فيه إرشاد له صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الصبر على قومه و الاقتداء بمن قبله من الأنبياء فی ذلك، و قد تقدّم ذكر هذه الأمم و ما كان منهم و من أنبيائهم و كيف كانت عاقبتهم، و إنما غير النظم فی قوله: وَ كُذِّبَ مُوسى فجاء بالفعل مبنيا للمفعول؛ لأن قوم موسى لم يكذبوه و إنما كذبه غيرهم من القبط فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ أی: أخّرت عنهم العقوبة و أمهلتهم، و الفاء لترتيب الإمهال على التكذيب ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ أی: أخذت كلّ فريق من المكذّبين بالعذاب بعد انقضاء مدّة الإمهال فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ هذا الاستفهام للتقرير، أی: فانظر كيف كان إنكاری عليهم و تغيير ما كانوا فيه من النعم و إهلاكهم، و النكير اسم من المنكر. قال الزجاج: أی: ثم أخذتهم فأنكرت أبلغ إنكار. قال الجوهری: النكير و الإنكار: تغيير المنكر. ثم ذكر سبحانه كيف عذّب أهل القرى المكذبة فقال: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أی: أهلكنا أهلها، و قد تقدّم الكلام على هذا التركيب فی آل عمران، و قرئ: «أهلكتها»، و جملة وَ هِيَ ظالِمَةٌ حالية، و جملة فَهِيَ خاوِيَةٌ عطف على «أَهْلَكْناها»، لا على ظالمة لأنها حالية، و العذاب ليس فی حال الظلم، و المراد بنسبة الظلم إليها نسبته إلى أهلها: و الخواء: بمعنى السقوط، أی: فهی ساقطة عَلى

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۴۳

عُرُوشِها أی على سقوفها، و ذلك بسب تعطل سكانها حتى تهدّمت فسقطت حيطانها فوق سقوفها، و قد تقدّم تفسير هذه الآية فی البقرة وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ معطوف على قرية، و المعنى: و كم من أهل قرية، و من أهل بئر معطلة هكذا قال الزجاج. و قال الفراء: إنه معطوف على عروشها، و المراد بالمعطلة المتروكة. و قيل:

الخالية عن أهلها لهلاكهم، و قيل: الغائرة، و قيل: معطّلة من الدّلاء و الأرشية، و القصر المشيد: هو المرفوع البنيان كذا قال قتادة و الضحّاك، و يدلّ عليه قول عدیّ بن زيد:

شاده مرمرا و جلّله كلسا فللطّير فی ذراه و كور

شاده: أی رفعه. و قال سعيد بن جبير و عطاء و عكرمة و مجاهد: المراد بالمشيد المجصّص، مأخوذ من الشّيد، و هو الجص، و منه قول الراجز «۱»:

لا تحسبنّی و إن كنت امرأ غمرا «۲» كحيّة الماء بين الطين و الشّيد

و قيل: المشيد الحصين، قاله الكلبیّ. قال الجوهری: المشيد المعمول بالشيد، و الشّيد بالكسر: كلّ شیء طليت به الحائط من جصّ أو بلاط، و بالفتح المصدر، تقول: شاده يشيده: جصّصه، و المشيّد بالتشديد المطوّل، قال الكسائی: للواحد من قوله تعالى: فِی بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ. و المعنى المعنیّ: و كم من قصر مشيد معطل مثل البئر المعطلة. و معنى التعطيل فی القصر هو أنه معطل من أهله، أو من آلاته، أو نحو ذلك.

قال القرطبی فی تفسيره: و يقال: إن هذه البئر و القصر بحضر موت معروفان، فالقصر مشرف على قلّة جبل «۳» لا يرتقى إليه بحال، و البئر فی سفحه لا تقرّ الريح شيئا سقط فيها إلا أخرجته، و أصحاب القصر ملوك الحضر، و أصحاب البئر ملوك البوادی. حكى الثعلبیّ و غيره: أن البئر كان بعدن من اليمن فی بلد يقال لها حضوراء، نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح، و

نجوا من العذاب، و معهم صالح، فمات صالح، فسمّى المكان حضر موت؛ لأن صالحا لما حضره مات فبنوا حضوراء و قعدوا على هذه البئر، و أمّروا عليهم رجلا، ثم ذكر قصة طويلة، و قال بعد ذلك: و أما القصر المشيد فقصر بناه شدّاد بن عاد بن إرم، لم يبن فى الأرض مثله فيما ذكروا و زعموا، و حاله أيضا كحال هذه البئر المذكورة فى إيحاشه بعد الأنس، و إقفاره بعد العمران، و إن أحدا لا يستطيع أن يدنو منه على أميال، لما يسمع فيه من عزيف الجنّ و الأصوات المنكرة بعد النعيم و العيش الرّغد و بهاء الملك، و انتظام الأهل كالسلك فبادوا و ما عادوا، فذكرهم اللّه سبحانه فى هذه الآية موعظة و عبرة.

قال: و قيل إنهم الذين أهلكهم بختنصر على ما تقدّم فى سورة الأنبياء فى قوله: وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ «۴» فتعطّلت بئرهم و خربت قصورهم، انتهى.

ثم أنكر سبحانه على أهل مكة عدم اعتبارهم بهذه الآثار قائلا: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ حثا لهم على السفر ليروا مصارع تلك الأمم فيعتبروا، و يحتمل أن يكونوا قد سافروا و لم يعتبروا، فلهذا أنكر عليهم، كما فى

---

(۱). هو الشمّاخ.

(۲). «الغمر»: الغرّ الذى لم يجرّب الأمور.

(۳). قلة جبل: أعلاه.

(۴). الأنبياء: ۱۱.

قوله: وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ- وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ «۱» و معنى: فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أنهم بسبب ما شاهدوا من العبر تكون لهم قلوب يعقلون بها ما يجب أن يتعقلوه، و أسند التعقل إلى القلوب لأنها محل العقل، كما أن الآذان محل السمع، و قيل: إن العقل محله الدماغ و لا مانع من ذلك، فإن القلب هو الذى يبعث على إدراك العقل و إن كان محله خارجا عنه.

و قد اختلف علماء المعقول فى محل العقل و ماهيته اختلافا كثيرا لا حاجة إلى التطويل بذكره أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها أى: ما يجب أن يسمعوه مما تلاه عليهم أنبياؤهم من كلام اللّه، و ما نقله أهل الأخبار إليهم من أخبار الأمم المهلكة فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ قال الفراء: الهاء عماد يجوز أن يقال: فإنه، و هى قراءة عبد اللّه بن مسعود، و المعنى واحد، التذكير على الخبر، و التأنيث على الأبصار أو القصة، أى: فإن الأبصار لا تعمى، أو فإن القصة لا تعمى الأبصار: أى أبصار العيون وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ أى: ليس الخلل فى مشاعرهم، و إنما هو فى عقولهم، أى: لا تدرك عقولهم مواطن الحق و مواضع الاعتبار.

قال الفراء و الزجاج: إن قوله التى فى الصدور من التوكيد الذى تزيده العرب فى الكلام كقوله: عَشَرَةٌ كامِلَةٌ «۲» و يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ «۳» و يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ «۴». ثمّ حكى سبحانه عن هؤلاء ما كانوا عليه من التكذيب و الاستهزاء فقال: وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ لأنهم كانوا منكرين لمجيئه أشدّ إنكار، فاستعجالهم له هو على طريقة الاستهزاء و السخرية، و كأنهم كانوا يقولون ذلك عند سماعهم لما تقوله الأنبياء عن اللّه سبحانه من الوعد منه عزّ و جلّ بوقوعه عليهم و حلوله بهم، و لهذا قال: وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ قال الفراء: فى هذه الآية وعيد لهم بالعذاب فى الدنيا و الآخرة. و ذكر الزجاج وجها آخر فقال: اعلم أن اللّه لا يفوته شيء، و إن يوما عنده و ألف سنة فى قدرته واحد، و لا فرق بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب و تأخّره فى القدرة، إلا أن اللّه تفضّل بالإمهال، انتهى، و محل جملة: «و لن يخلف اللّه وعده» النصب على الحال، أى: و الحال أنه لا يخلف وعده أبدا، و قد سبق الوعد فلا بد من مجيئه حتما، أو هى اعتراضية مبينة لما قبلها، و على الأوّل تكون جملة وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ مستأنفة، و على الثانى تكون معطوفة على الجملة التى قبلها مسوقة لبيان حالهم فى الاستعجال، و خطابهم فى ذلك

ببيان كمال حلمه لكون المدة القصيرة عنده كالمدة الطويلة عندهم، كما فى قوله: إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً- وَ نَراهُ قَرِيباً «۵» قال الفرّاء: هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم فى الآخرة، أى: يوم من أيام عذابهم فى الآخرة كألف سنة. و قيل: المعنى: و إن يوما من الخوف و الشدّة فى الآخرة كألف سنة من سنّى الدنيا فيها خوف و شدة، و كذلك يوم النعيم قياسا. و قرأ ابن كثير و حمزة و الكسائى «ممّا يعدّون» بالتحتية، و اختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ و قرأ الباقون بالفوقية على الخطاب، و اختارها أبو حاتم. وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَ هِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ هذا إعلام منه سبحانه أنه أخذ قوما بعد الإملاء و التأخير. قيل: و تكرير هذا مع ذكره قبل

---

(۱). الصافات: ۱۳۷- ۱۳۸.

(۲). البقرة: ۱۹۶.

(۳). آل عمران: ۱۶۷.

(۴). الأنعام: ۳۸.

(۵). المعارج: ۶- ۷.

للتأكيد، و ليس بتكرار فى الحقيقة؛ لأن الأوّل سيق لبيان الإهلاک مناسبا لقوله: «فيكف كان نكير»، و لهذا عطف بالفاء بدلا عن ذلک؛ و الثانى سيق لبيان الإملاء مناسبا لقوله: وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّکَ كَأَلْفِ سَنَةٍ فكأنه قيل: و كم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أمهلتهم حينا، ثم أخذتهم بالعذاب، و مرجع الكل إلى حكمى. فجملة: «و إليّ المصير» تذييل لتقرير ما قبلها. ثم أمره اللّه سبحانه أن يخبر الناس بأنه نذير لهم بين يدى الساعة مبين لهم ما نزل إليهم، فمن آمن و عمل صالحا فاز بالمغفرة و الرزق الكريم و هو الجنة، و من كان على خلاف ذلک فهو فى النار، و هم الذين سعوا فى آيات اللّه معاجزين؛ يقال: عاجزه:

سابقه، لأن كل واحد منهما فى طلب إعجاز الآخر، فإذا سبقه قيل أعجزه و عجزه، قاله الأخفش. و قيل:

معنى معاجزين: ظانين و مقدّرين أن يعجزوا اللّه سبحانه و يفوتوه فلا يعذبهم، قاله الزجاج. و قيل: معاندين، قاله الفرّاء.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها قال: خربة ليس فيها أحد وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ عطّلها أهلها و تركوها وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ قال: شيّدوه و حصّنوه فهلكوا و تركوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ قال: التى تركت لا أهل لها. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ قال: هو المجصّص. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن عطاء نحوه أيضا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّکَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ قال: من الأيام الستة التى خلق اللّه فيها السموات و الأرض. و أخرج ابن المنذر عن عكرمة، قال فى الآية:

هو يوم القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة، فقد مضى منها ستة آلاف. و أخرج ابن عدىّ و الديلمى عن أنس مرفوعا نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس مُعاجِزِينَ قال: مراغمين. و أخرج ابن جرير عنه أنه قال: مشاقين.

[سورة الحج (۲۲): الآيات ۵۲ الى ۵۷]

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۵۲) لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (۵۳) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۴) وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (۵۵) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۵۶)

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۵۷)

قوله: مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ قيل: الرسول الذى أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عيانا و محاورته

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۴۶

شفاها، و النبىّ: الذى يكون إلهاما أو مناما. و قيل: الرسول: من بعث بشرع و أمر بتبليغه، و النبىّ: من أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله، و لم ينزل عليه كتاب، و لا بدّ لهما جميعا من المعجزة الظاهرة. إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ معنى تمنّى: تشهّى و هيّأ فى نفسه ما يهواه. قال الواحدى: و قال المفسرون:

معنى تمنّى: تلا. قال جماعة المفسرين فى سبب نزول هذه الآية: إنه صلّى اللّه عليه و سلّم لما شقّ عليه إعراض قومه عنه تمنّى فى نفسه أن لا ينزل عليه شىء ينفّرهم عنه لحرصه على إيمانهم، فكان ذات يوم جالسا فى ناد من أنديتهم و قد نزل عليه سورة وَ النَّجْمِ إِذا هَوى «۱» فأخذ يقرؤها عليهم حتى بلغ قوله: أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى- وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى «۲» و كان ذلك التّمنّى فى نفسه، فجرى على لسانه مما ألقاه الشيطان عليه: تلك الغرانيق العلى، و إن شفاعتها لترتجى، فلما سمعت قريش ذلك فرحوا و مضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قراءته حتى ختم السورة، فلما سجد فى آخرها سجد معه جميع من فى النادى من المسلمين و المشركين، فتفرّقت قريش مسرورين بذلك و قالوا: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، فأتاه جبريل فقال: ما صنعت؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن اللّه، فحزن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و خاف خوفا شديدا، فأنزل اللّه هذه الآية. هكذا قالوا.

و لم يصحّ شىء من هذا، و لا ثبت بوجه من الوجوه، و مع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحقّقون بكتاب اللّه سبحانه، قال اللّه: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ- لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ- ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ «۳» و قوله: وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى «۴» و قوله: وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ «۵» فنفى المقاربة للركون فضلا عن الركون. قال البزار: هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بإسناد متصل.

و قال البيهقى: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم أن رواة هذه القصة مطعون فيهم. و قال إمام الأئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة. قال القاضى عياض فى «الشفا»: إن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شىء بخلاف ما هو عليه، لا قصدا و لا عمدا و لا سهوا و لا غلطا. قال ابن كثير: قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق، و ما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظنا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا، و لكنها من طرق كلها مرسلة، و لم أرها مسندة من وجه صحيح. و إذا تقرّر لك بطلان ذلك عرفت أن معنى تَمَنَّى قرأ و تلا، كما قدّمنا من حكاية الواحدى لذلك عن المفسرين. و كذا قال البغوى: إن أكثر المفسرين قالوا معنى تَمَنَّى تلا و قرأ كتاب اللّه، و معنى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ أى: فى تلاوته و قراءته. قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام، و يؤيد هذا ما تقدّم فى تفسير قوله: لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَ و قيل: معنى تَمَنَّى حدّث، و معنى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فى حديثه، روى هذا عن ابن عباس. و قيل: معنى تَمَنَّى

قال. فحاصل معنى الآیهٔ: أن الشیطان أوقع فی مسامع المشرکین ذلک من دون أن یتکلّم به رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم،

---

(۱). النجم: ۱.

(۲). النجم: ۱۹- ۲۰.

(۳). الحاقهٔ: ۴۴- ۴۶.

(۴). النجم: ۳.

(۵). الإسراء: ۷۴.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۵۴۷

و لا جری علی لسانه، فتکون هذه الآیهٔ تسلیهٔ لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، أی: لا یهولنک ذلک و لا یحزنک، فقد أصاب مثل هذا من قبلک من المرسلین و الأنبیاء، و علی تقدیر أن معنی تمنی حدّث نفسه، کما حکاه الفرّاء و الکسائی، فإنهما قالا: تمنّی إذا حدّث نفسه، فالمعنی: أنه إذا حدّث نفسه بشیء تکلم به الشیطان و ألقاه فی مسامع الناس من دون أن یتکلّم به رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و لا جری علی لسانه. قال ابن عطیهٔ: لا خلاف أن إلقاء الشیطان إنما هو لألفاظ مسموعهٔ وقعت بها الفتنهٔ. و قد قیل فی تأویل الآیهٔ: إن المراد بالغرانیق: الملائکهٔ، و یردّ بقوله: فَیَنْسَخُ اللَّهُ ما یُلْقِی الشَّیْطانُ أی: یبطله، و شفاعهٔ الملائکهٔ غیر باطلهٔ. و قیل: إن ذلک جری علی لسانه صلّی اللّه علیه و سلّم سهوا و نسیانا، و هما مجوّزان علی الأنبیاء، و یردّ بأن السهو و النسیان فیما طریقه البلاغ غیر جائز کما هو مقرّر فی مواطنه، ثم لما سلاه اللّه سبحانه بهذه التسلیهٔ، و أنها قد وقعت لمن قبله من الرسل و الأنبیاء، بیّن سبحانه أن یبطل ذلک، و لا یثبته، و لا یستمر تغریر الشیطان به، فقال: فَیَنْسَخُ اللَّهُ ما یُلْقِی الشَّیْطانُ أی: یبطله و یجعله ذاهبا غیر ثابت ثُمَّ یُحْکِمُ اللَّهُ آیاتِهِ أی: یثبتها وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ أی: کثیر العلم و الحکمهٔ فی کلّ أقواله و أفعاله، و جملهٔ لِیَجْعَلَ ما یُلْقِی الشَّیْطانُ فِتْنَهً للتعلیل، أی:

ذلک الإلقاء الذی یلقیه الشیطان فتنهٔ، أی: ضلالهٔ لِلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أی: شکّ و نفاق وَ الْقاسِیَهِ قُلُوبُهُمْ هم المشرکون، فإن قلوبهم لا تلین للحق أبدا، و لا ترجع إلی الصواب بحال، ثم سجّل سبحانه علی هاتین الطائفتین، و هما: من فی قلبه مرض، و من فی قلبه قسوهٔ؛ بأنهم ظالمون، فقال:

وَ إِنَّ الظَّالِمِینَ لَفِی شِقاقٍ بَعِیدٍ أی: عداوهٔ شدیدهٔ، و وصف الشقاق بالبعد مبالغهٔ، و الموصوف به فی الحقیقهٔ من قام به. و لمّا بیّن سبحانه أن ذلک الإلقاء کان فتنهٔ فی حقّ أهل النفاق و الشکّ و الشرک؛ بیّن أنه فی حقّ المؤمنین العالمین باللّه العارفین به سبب لحصول العلم لهم بأن القرآن حقّ و صدق، فقال: وَ لِیَعْلَمَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ أی: الحقّ النازل من عنده، و قیل: إن الضمیر فی «أنه» راجع إلی تمکین الشیطان من الإلقاء؛ لأنه مما جرت به عادته مع أنبیائه، و لکنه یردّ هذا قوله: فَیُؤْمِنُوا بِهِ فإن المراد الإیمان بالقرآن، أی: یثبتوا علی الإیمان به فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ أی: تخشع و تسکن و تنقاد، فإن الإیمان به و إخبات القلوب له لا یمکن أن یکونا تمکین من الشیطان بل للقرآن وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِینَ آمَنُوا فی أمور دینهم إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ أی: طریق صحیح لا عوج به. و قرأ أبو حیوهٔ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِینَ آمَنُوا بالتنوین وَ لا یَزالُ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی مِرْیَهٍ مِنْهُ أی: فی شکّ من القرآن، و قیل: فی الدین الذی یدل علیه ذکر الصراط المستقیم، و قیل: فی إلقاء الشیطان، فیقولون: ما باله ذکر الأصنام بخیر ثم رجع عن ذلک؟ و قرأ أبو عبد الرحمن السلمی «فِی مُرْیَهٍ» بضم المیم حَتَّی تَأْتِیَهُمُ السَّاعَهُ أی: القیامهٔ بَغْتَهً أی: فجأهٔ أَوْ یَأْتِیَهُمْ عَذابُ یَوْمٍ عَقِیمٍ و هو یوم القیامهٔ لأنه لا یوم بعده، فکان بهذا الاعتبار عقیما، و العقیم فی اللغهٔ: من لا یکون له ولد، و لما کانت الأیام نتوالی جعل ذلک کهیئهٔ الولادهٔ، و لما لم یکن بعد ذلک الیوم یوم وصف بالعقم؛ و قیل: یوم حرب یقتلون فیه کیوم بدر؛

و قيل إن اليوم وصف بالعقم؛ لأنه لا رأفة فيه و لا رحمة، فكأنه عقيم من الخير، و منه قوله تعالى: إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ «۱» أى:

---

(۱). الذاريات: ۴۱.

التى لا خير فيها و لا تأتى بمطر الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ أى: السلطان القاهر و الاستيلاء التامّ يوم القيامة للّه سبحانه وحده، لا منازع له فيه، و لا مدافع له عنه، و جملة يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ مستأنفة جوابا عن سؤال مقدّر، ثم فسّر هذا الحكم بقوله سبحانه: فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ أى: كائنون فيها، مستقرّون فى أرضها، منغمسون فى نعيمها وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أى: جمعوا بين الكفر باللّه و التكذيب بآياته فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ أى: عذاب متّصف بأنه مهين للمعذبين، بالغ منهم المبلغ العظيم.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن الأنبارى فى «المصاحف» عن عمرو بن دينار قال: كان ابن عباس يقرأ:

«و ما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبىّ و لا محدّث». و أخرج ابن أبى حاتم عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مثله، و زاد: فنسخت محدّث، قال: و المحدّثون: صاحب يس، و لقمان، و مؤمن آل فرعون، و صاحب موسى. و أخرج البزار و الطبرانى و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، قال السيوطى: بسند رجاله ثقات، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ: أ فرأيتم اللات و العزّى و منات الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلى، و إن شفاعتهنّ لترتجى. ففرح المشركون بذلك و قالوا: قد ذكر آلهتنا، فجاءه جبريل فقال: اقرأ علىّ ما جئت به، فقرأ: أ فرأيتم اللات و العزّى و منات الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلى، و إن شفاعتهنّ لترتجى، فقال: ما أتيتك بهذا، هذا من الشيطان، فأنزل اللّه وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى الآية». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، قال السيوطى: بسند صحيح، عن سعيد بن جبير، قال: قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بمكة النجم، فذكر نحوه، و لم يذكر ابن عباس. و كذا رواه ابن أبى حاتم عن أبى العالية و السدّى عن سعيد مرسلا. و رواه عبد ابن حميد عن السدّى عن أبى صالح مرسلا. و رواه ابن أبى حاتم عن ابن شهاب مرسلا. و أخرج ابن جرير عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام نحوه مرسلا أيضا. و الحاصل أن جميع الروايات فى هذا الباب إما مرسلة أو منقطعة لا تقوم الحجة بشىء منها. و قد أسلفنا عن الحفاظ فى أوّل هذا البحث ما فيه كفاية، و فى الباب روايات من أحبّ الوقوف على جميعها فلينظرها فى «الدرّ المنثور» للسيوطى، و لا يأتى التطويل بذكرها هنا بفائدة، فقد عرّفناك أنها جميعها لا تقوم بها الحجة.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ يقول: إذا حدّث ألقى الشيطان فى حديثه. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحّاك، قال: يعنى بالتمنّى التّلاوة و القراءة، «أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ»: فى تلاوته فَيَنْسَخُ اللَّهُ ينسخ جبريل بأمر اللّه ما ألقى الشيطان على لسان النبىّ. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن مجاهد إِذا تَمَنَّى قال: تكلم فِي أُمْنِيَّتِهِ قال: كلامه. و أخرج ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس فى قوله: عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ قال: يوم بدر. و أخرج ابن مردويه عن أبىّ بن كعب نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير: عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ قال: يوم بدر. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير و عكرمة

مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال: يوم القيامة لا ليلة له. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم

عن سعيد بن جبير مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن الضحّاك مثله.

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٥٨ الى ٦٦]

وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذلِكَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ يُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَ هُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ (٦٦)

أفرد سبحانه المهاجرين بالذكر تخصيصا لهم بمزيد الشّرف، فقال: وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قال بعض المفسرين: هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة. و قال بعضهم: الذين هاجروا من الأوطان فى سرية أو عسكر، و لا يبعد حمل ذلك على الأمرين، و الكلّ فى سبيل اللّه ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا أى: فى حال المهاجرة، و اللام فى لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً جواب قسم محذوف، و الجملة خبر الموصول بتقدير القول، و انتصاب رزقا على أنه مفعول ثان، أى: مرزوقا حسنا، أو على أنه مصدر مؤكدة، و الرزق الحسن: هو نعيم الجنة الذى لا ينقطع، و قيل: هو الغنيمة لأنه حلال، و قيل: هو العلم و الفهم؛ كقول شعيب:

وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً قرأ ابن عامر و أهل الشام «ثم قتّلوا» بالتشديد على التكثير، و قرأ الباقون بالتخفيف. وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ فإنه سبحانه يرزق بغير حساب، و كل رزق يجرى على يد العباد لبعضهم البعض، فهو منه سبحانه، لا رازق سواه و لا معطى غيره، و الجملة تذييل مقرّرة لما قبلها، و جملة لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ مستأنفة، أو بدل من جملة ليرزقنهم اللّه. قرأ أهل المدينة «مدخلا» بفتح الميم، و قرأ الباقون بضمّها، و هو اسم مكان أريد به الجنة، و انتصابه على أنه مفعول ثان أو مصدر ميمى مؤكد للفعل المذكور، و قد مضى الكلام على مثل هذا فى سورة سبحان. و فى هذا من الامتنان عليهم و التبشير لهم ما لا يقادر قدره، فإن المدخل الذى يرضونه هو الأوفق لنفوسهم و الأقرب إلى مطلبهم، على أنهم يرون فى الجنة ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر، و ذلك هو الذى يرضونه و فوق الرضا. وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ بدرجات العاملين و مراتب استحقاقهم حَلِيمٌ عن تفريط المفرطين منهم لا يعاجلهم بالعقوبة، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم. قال الزّجّاج: أى الأمر ما قصصنا عليكم من إنجاز الوعد للمهاجرين

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٥٠

فتح القدير ج‏٣ ٥٩٤

خاصة إذا قتلوا أو ماتوا، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف، و معنى وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ من جازى الظالم بمثل ما ظلمه، و سمّى الابتداء باسم الجزاء مشاكلة كقوله تعالى: وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها «١» و قوله تعالى: فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ «٢» و العقوبة فى الأصل إنما تكون بعد فعل تكون جزاء عنه، و المراد بالمثلية أنه اقتصر على المقدار الذى ظلم به و لم يزد عليه، و معنى ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ أن الظالم له فى الابتداء عاوده بالمظلمة بعد تلك المظلمة الأولى، قيل: المراد بهذا البغى: هو ما وقع من المشركين من إزعاج المسلمين من أوطانهم بعد أن كذبوا نبيهم و آذوا من آمن به، و اللام فى لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ جواب قسم محذوف، أى: لينصرن اللّه المبغىّ عليه على الباغى إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ أى: كثير العفو و الغفران للمؤمنين فيما وقع منهم من

الـذنوب. و قيـل: العفو و الغفران لمـا وقع من المؤمنين من ترجيـح الانتقـام على العفو، و قيل: إن معنى ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ أى: ثم كان المجازى مبغيا عليه، أى: مظلوما، و معنى «ثم» تفاوت الرتبـة؛ لأن الابتـداء بالقتال معه نوع ظلم، كما قيل فى أمثال العرب: البادى أظلم.

و قيل: إن هذه الآية مدنية، و هى فى القصاص و الجراحات، و الإشارة بقوله: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ إلى ما تقدّم من نصـر اللّه سـبحانه للمبغىّ عليه، و هو مبتـدأ و خبره جملة بأن اللّه يولج، و الباء للسـببية، أى: ذلك بسـبب أنه سـبحانه قادر، و من كمـال قـدرته إيلاـج الليـل فى النهـار و النهـار فى الليل، و عبّر عن الزيادة بالإيلاج؛ لأن زيادة أحـدهما تسـتلزم نقصان الآخر، و المراد تحصـيل أحد العرضـين فى محل الآخر. و قد مضـى فى آل عمران معنى هذا الإيلاج وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ يسـمع كلّ مسـموع بَصِيرٌ يبصـر كلّ مبصر، أو سميع للأقوال مبصر للأفعال، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، و الإشارة بقوله: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ إلى ما تقـدم من اتّصافه سـبحانه بكمال القـدرة الباهرة و العلم التام، أى: هو سـبحانه ذو الحق، دينه حقّ، و عبادته حقّ، و نصـره لأوليائه على أعـدائه حقّ، و وعـده حقّ، فهو عزّ و جـلّ فى نفسه و أفعاله و صـفاته حقّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ قرأ نافع و ابن كثير و ابن عـامر و شـعبة «تـدعون» بالفوقيـة على الخطاب للمشـركين، و اختار هـذه القراءة أبو حـاتم. و قرأ الباقون بالتحتيـة على الخبر، و اختار هذه القراءة أبو عبيدة.

و المعنى: إن الذين تدعونه آلهة، و هى الأصـنام، هو الباطل الذى لا ثبوت له و لا لكونه إلها. وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُ أى: العالى على كلّ شـىء بقدرته المتقدّس على الأشباه و الأنداد المتنزّه عمّا يقول الظالمون من الصفات الْكَبِيرُ أى: ذو الكبرياء، و هو عبارة عن كمال ذاته و تفرّده بالإلهية، ثم ذكر سـبحانه دليلا بيّنا على كمال قدرته، فقال: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً الاستفهام للتقرير، و الفاء للعطف على «أنزل»، و ارتفع الفعل بعد الفاء لكون استفهام التقرير بمنزلة الخبر كما قاله الخليل و سيبويه.

قال الخليل: المعنى أنزل من السماء ماء فكان كذا و كذا، كما قال الشاعر «٣»:

ألم تسأل الرّبع القواء فينطقو هل تخبرنّك اليوم بيداء سملق «۴»

---

(۱). الشورى: ۴۰.

(۲). البقرة: ۱۹۴.

(۳). هو جميل بثينة.

(۴). «القواء»: القفر. «البيداء»: القفر أيضا. «السملق»: الأرض التى لا تنبت، و هى السهلة المستوية.

معناه: قد سألته فنطق. قال الفراء: «ألم تر» خبر؛ كما تقول فى الكلام: إن اللّه ينزل من السماء ماء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً أى: ذات خضـرة، كما تقول مبقلة و مسبعة؛ أى: ذوات بقل و سباع، و هو عبارة عن استعجالها إثر نزول الماء بالنبات و استمرارها كذلك عـادة، و صـيغة الاسـتقبال لاسـتحضار صـورة الاخضـرار مع الإشـعار بتجـدّد الإـنزال و اسـتمراره، و هـذا المعنى لاـ يحصـل إلا بالمستقبل، و الرفع هنا متعيّن لأنه لو نصب لانعكس المعنى المقصود من الآية فينقلب إلى نفى الاخضرار، و المقصود إثباته. قال ابن عطية:

هذا لا يكون، يعنى الاخضرار فى صباح ليلة المطر، إلا بمكة و تهامة. و الظاهر أن المراد بالاخضرار اخضرار الأرض فى نفسها لا باعتبار النبات فيها، كما فى قوله: فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ «۱» و المراد بقوله:

إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ أنه يصل علمه إلى كلّ دقيق و جليل، و قيل: «لطيف» بأرزاق عباده، و قيل: «لَطِيفٌ» باستخراج النبات، و معنى خَبِيرٌ أنه ذو خبرة بتدبير عباده و ما يصلح لهم، و قيل: «خَبِيرٌ» بما ينطوون عليه من القنوط عند تأخير المطر، و قيل: «خبير» بحاجتهم وفاقتهم. لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ خلقا و ملكا و تصرّفا، و كلهم محتاجون إلى رزقه وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ فلا يحتاج إلى شيء الْحَمِيدُ المستوجب للحمد فى كلّ حال أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ هذه نعمة أخرى ذكرها اللّه سبحانه، فأخبر عباده بأنه سخّر لهم ما يحتاجون إليه من الدواب و الشجر و الأنهار، و جعله لمنافعهم وَ الْفُلْكَ عطف على «ما»، أو على اسم «أن»، أى: و سخر لكم الفلك فى حال جريها فى البحر، و قرأ عبد الرحمن الأعرج «و الفلك» بالرفع على الابتداء، و ما بعده خبره، و قرأ الباقون بالنصب. و معنى تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ أى: بتقديره، و الجملة فى محل نصب على الحال على قراءة الجمهور وَ يُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ أى: كراهة أن تقع، و ذلك بأنه خلقها على صفة مستلزمة للإمساك، و الجملة معطوفة على تجرى إِلَّا بِإِذْنِهِ أى: بإرادته و مشيئته، و ذلك يوم القيامة إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ أى: كثير الرأفة و الرحمة حيث سخّر هذه الأمور لعباده، و هيّأ لهم أسباب المعاش، و أمسك السماء أن تقع على الأرض فتهلكهم تفضّلا منه على عباده و إنعاما عليهم. ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى فقال: وَ هُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ بعد أن كنتم جمادا ثُمَّ يُمِيتُكُمْ عند انقضاء أعماركم ثُمَّ يُحْيِيكُمْ عند البعث للحساب و العقاب و إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ أى: كثير الجحود لنعم اللّه عليه مع كونها ظاهرة غير مستترة، و لا ينافى هذا خروج بعض الأفراد عن هذا الجحد؛ لأن المراد وصف جميع الجنس بوصف من يوجد فيه ذلك من أفراده مبالغة.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن سلمان الفارسى سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «من مات مرابطا أجرى اللّه عليه مثل ذلك الأجر، و أجرى عليه الرزق و أمن من الفتانين، و اقرءوا إن شئتم وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا إلى قوله: حَلِيمٌ ، و إسناد ابن أبى حاتم هكذا: حدّثنا المسيب ابن واضح، حدّثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن بن شريح، عن عبد الكريم بن الحارث، عن أبى عقبة، يعنى

---

(١). فصلت: ٣٩.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٥٢

أبا عبيدة بن عقبة قال: قال شرحبيل بن السّمط: طال رباطنا و إقامتنا على حصن بأرض الروم، فمرّ بى سلمان؛ يعنى الفارسى، قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكره. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصارى الصحابى أنه كان برودس، فمرّوا بجنازتين أحدهما قتيل و الآخر متوفّى، فمال الناس عن القتيل، فقال فضالة: مالى أرى الناس مالوا مع هذا و تركوا هذا؟ فقالوا: هذا القتيل فى سبيل اللّه، فقال: و اللّه ما أبالى من أىّ حفرتيهما بعثت، اسمعوا كتاب اللّه وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا الآية. و إسناده عند ابن أبى حاتم هكذا: حدّثنا أبو زرعة، عن زيد بن بشر، أخبرنى ضمام أنه سمع أبا قبيل و ربيعة بن سيف المغافرى يقولان: كنا برودس و معنا فضالة بن عبيد الأنصارى صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكره. قلت: و يؤيد هذا قول اللّه سبحانه: وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ «١». و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله: وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ قال: إن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بعث سرية فى ليلتين بقيتا من المحرم فلقوا المشركين، فقال المشركون بعضهم لبعض: قاتلوا أصحاب محمد فإنهم يحرمون القتال فى الشهر الحرام، و إن أصحاب محمد ناشدوهم و ذكروهم باللّه أن يعرضوا لقتالهم فإنهم لا يستحلون القتال فى الشهر الحرام إلا من بادأهم، و إن المشركين بدءوا فقاتلوهم، فاستحلّ الصحابة قتالهم عند ذلك فقاتلوهم و نصرهم اللّه عليهم. و هو مرسل. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: وَ مَنْ عاقَبَ الآية قال: تعاون المشركون على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و

أصحابه فأخرجوه، فوعده اللّه أن ينصره، و هو فى القصاص أيضا. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ قال: الشيطان. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ قال: يعدّ المصيبات و ينسى النعم.

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٦٧ الى ٧٢]

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَ إِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ ما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١)

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَ فَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)

عاد سبحانه إلى بيان أمر التكاليف مع الزّجر لمعاصرى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من أهل الأديان عن منازعته فقال:

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً أى: لكلّ قرن من القرون الماضية وضعنا شريعة خاصة، بحيث لا تتخطّى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى، و جملة هُمْ ناسِكُوهُ صفة لمنسكا، و الضمير لكل أمة، أى:

---

(١). النساء: ١٠٠.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٥٥٣

تلك الأمة هى العاملة به لا غيرها، فكانت التوراة منسك الأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى، و الإنجيل منسك الأمة التى من مبعث عيسى إلى مبعث محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و القرآن منسك المسلمين، و المنسك مصدر لا اسم مكان كما يدلّ عليه هم ناسكوه، و لم يقل ناسكون فيه. و قيل: المنسك موضع أداء الطاعة، و قيل:

هو الذبائح، و لا وجه للتخصيص، و لا اعتبار بخصوص السبب، و الفاء فى قوله: فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ لترتيب النهى على ما قبله، و الضمير راجع إلى الأمم الباقية آثارهم، أى: قد عيّنّا لكل أمة شريعة، و من جملة الأمم هذه الأمة المحمدية، و ذلك موجب لعدم منازعة من بقى منهم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و مستلزم لطاعتهم إياه فى أمر الدين، و النهى إما على حقيقته، أو كناية عن نهيه صلّى اللّه عليه و سلّم عن الالتفات إلى نزاعهم له. قال الزّجّاج:

إنه نهى له صلّى اللّه عليه و سلّم عن منازعتهم، أى: لا تنازعهم أنت، كما تقول: لا يخاصمك فلان، أى: لا تخاصمه، و كما تقول لا يضاربنك فلان، أى: لا تضاربه، و ذلك أن المفاعلة تقتضى العكس ضمنا، و لا يجوز: لا يضربنك فلان و أنت تريد لا تضربه. و حكى عن الزّجّاج أنه قال فى معنى الآية: «فلا ينزعنك» أى: فلا يجادلنك. قال: و دلّ على هذا وَ إِنْ جادَلُوكَ و قرأ أبو مجلز «فلا ينزعنّك فى الأمر» أى: لا يستخفنك و لا يغلبنك على دينك. و قرأ الباقون يُنازِعُنَّكَ من المنازعة وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ أى: و ادع هؤلاء المنازعين، أو ادع الناس على العموم إلى دين اللّه و توحيده و الإيمان به إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ أى: طريق مستقيم لا اعوجاج فيه وَ إِنْ جادَلُوكَ أى: و إن أبوا إلا الجدال بعد البيان لهم و ظهور الحجّة عليهم فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ أى: فكل أمرهم إلى اللّه، و قل لهم هذا القول المشتمل على الوعيد اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ أى: بين المسلمين و الكافرين يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ من أمر الدين فيتبين حينئذ الحق من الباطل، و فى هذه الآية تعليم لهذه الأمة بما ينبغى لهم أن يجيبوا به من أراد الجدال بالباطل، و قيل: إنها منسوخة بآية السيف، و جملة أَ لَمْ تَعْلَمْ مستأنفة مقرّرة لمضمون ما قبلها، و

الاستفهام للتقرير، أى: قد علمت يا محمد و تيقنت أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ و من جملة ذلك ما أنتم فيه مختلفون إِنَّ ذلِكَ الذى فى السماء و الأرض من معلوماته فِي كِتابٍ أى: مكتوب عنده فى أمّ الكتاب إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ أى: إن الحكم منه سبحانه بين عباده فيما يختلفون فيه يسير عليه غير عسير، أو إن إحاطة علمه بما فى السماء و الأرض يسير عليه وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً هذا حكاية لبعض فضائحهم، أى: إنهم يعبدون أصناما لم يتمسكوا فى عبادتها بحجّة نيّرة من اللّه سبحانه وَ ما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ من دليل عقل يدلّ على جواز ذلك بوجه من الوجوه وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ينصرهم و يدفع عنهم عذاب اللّه، و قد تقدّم الكلام على هذه الآية فى آل عمران. و جملة وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ معطوفة على «يعبدون»، و انتصاب «بينات» على الحال، أى: حال كونها واضحات ظاهرات الدلالة تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ أى: الأمر الذى ينكر، و هو غضبهم و عبوسهم عند سماعها، أو المراد بالمنكر الإنكار، أى: تعرف فى وجوههم إنكارها، و قيل: هو التجبّر و الترفّع، و جملة يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ما ذلك المنكر

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٥٤

الذى يعرف فى وجوههم؟ فقيل: يكادون يسطون، أى: يبطشون، و السطوة: شدّة البطش، يقال:

سطا به يسطو إذا بطش به بضرب، أو شتم، أو أخذ باليد، و أصل السطو: القهر.

و هكذا ترى أهل البدع المضلّة إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز، أو من السّنّة الصّحيحة، مخالفا لما اعتقده من الباطل و الضّلالة؛ رأيت فى وجهه من المنكر ما لو تمكّن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به ما لا يفعله بالمشركين، و قد رأينا و سمعنا من أهل البدع ما لا يحيط به الوصف، و اللّه ناصر الحقّ، و مظهر الدين، و داحض الباطل، و دامغ البدع، و حافظ المتكلمين بما أخذه عليهم؛ المبيّنين للناس ما نزل إليهم، و هو حسبنا و نعم الوكيل.

ثم أمر رسوله أن يردّ عليهم، فقال: قُلْ أَ فَأُنَبِّئُكُمْ أى: أخبركم بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ الذى فيكم من الغيظ على من يتلو عليكم آيات اللّه و مقاربتكم للوثوب عليهم، و هو النار التى أعدّها اللّه لكم، فالنار مرتفعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف، و الجملة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ما هذا الأمر الذى هو شرّ ممّا نكابده و نناهده عند سماعنا ما تتلوه علينا؟ فقال هو: النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا و قيل: إن النار مبتدأ و خبره جملة وعدها اللّه الذين كفروا، و قيل: المعنى: أ فأخبركم بشرّ ممّا يلحق تالى القرآن منكم من الأذى و التوعّد لهم و التوثّب عليهم، و قرئ «النار» بالنصب على تقدير أعنى، و قرئ بالجرّ بدلا من شرّ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ أى: الموضع الذى تصيرون إليه، و هو النار.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: هُمْ ناسِكُوهُ قال: يعنى هم ذابحوه فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ يعنى فى أمر الذبح. و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه أيضا. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ قول أهل الشرك: أما ما ذبح اللّه بيمينه فلا تأكلوه، و أما ما ذبحتم بأيديكم فهو حلال. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: خلق اللّه اللوح المحفوظ لمسيرة مائة عام، و قال للقلم قبل أن يخلق الخلق و هو على العرش: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: علمى فى خلقى إلى يوم تقوم الساعة، فجرى القلم بما هو كائن فى علم اللّه إلى يوم القيامة، فذلك قوله للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ يعنى ما فى السماوات السبع و الأرضين السبع إِنَّ ذلِكَ العلم فِي كِتابٍ يعنى فى اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يخلق السماوات و الأرضين إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ يعنى: هين. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس يَكادُونَ يَسْطُونَ يبطشون.

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٧٣ الى ٧٨]

يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ (٧٣) ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)

وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٥٥

قوله: يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ هذا متّصل بقوله: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً قال الأخفش: ليس ثمّ مثل، و إنما المعنى ضربوا لي مثلا- فَاسْتَمِعُوا قولهم، يعني أن الكفار جعلوا للّه مثلا- بعبادتهم غيره، فكأنه قال: جعلوا لي شبها في عبادتي فاستمعوا خبر هذا الشبه. و قال القتبي: إن المعنى:

يا أيها الناس مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذبابا، و إن سلبها شيئا لم تستطع أن تستنقذه منه. قال النّحّاس:

المعنى ضرب اللّه عزّ و جلّ لما يعبدونه من دونه مثلا. قال: و هذا من أحسن ما قيل فيه، أي: بيّن اللّه لكم شبها و لمعبودكم. و أصل المثل: جملة من الكلام متلقّاة بالرضا و القبول، مسيرة في الناس، مستغربة عندهم، و جعلوا مضربها مثلا لموردها، ثم قد يستعيرونها للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة لكونها مماثلة لها في الغرابة كهذه القصة المذكورة، في هذه الآية. و المراد بما يدعونه من دون اللّه: الأصنام التي كانت حول الكعبة و غيرها. و قيل: المراد بهم السادة الذين صرفوهم عن طاعة اللّه لكونهم أهل الحلّ و العقد فيهم. و قيل: الشياطين الذين حملوهم على معصية اللّه، و الأوّل أوفق بالمقام و أظهر في التمثيل، و الذباب: اسم للواحد يطلق على الذكر و الأنثى، و جمع القلة أذبّة، و الكثرة ذبّان، مثل غراب و أغربة و غربان، و قال الجوهري: الذباب معروف الواحد ذبابة. و المعنى: لن يقدروا على خلقه مع كونه صغير الجسم حقير الذات. و جملة وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ معطوفة على جملة أخرى شرطية محذوفة، أي: لو لم يجتمعوا له لن يخلقوه و لو اجتمعوا له، و الجواب محذوف، و التقدير: لن يخلقوه و هما في محل نصب على الحال، أي: لن يخلقوه على كلّ حال. ثم بيّن سبحانه كمال عجزهم و ضعف قدرتهم، فقال: وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ أي. إذا أخذ منهم الذباب شيئا من الأشياء لا يقدرون على تخليصه منه لكمال عجزهم و فرط ضعفهم، و الاستنقاذ و الإنقاذ:

التخليص، و إذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف، و عن استنقاذ ما أخذه عليهم، فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرما و أشدّ منه قوّة أعجز و أضعف. ثم عجب سبحانه من ضعف الأصنام و الذباب، فقال:

ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ فالصنم كالطالب من حيث إنه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنقاذ ما سلبه منه، و المطلوب الذباب. و قيل: الطالب عابد الصنم، و المطلوب الصنم. و قيل: الطالب الذباب و المطلوب الآلهة. ثم بيّن سبحانه أن المشركين الذين عبدوا من دون اللّه آلهة عاجزة إلى هذه الغاية في العجز ما عرفوا اللّه حقّ معرفته، فقال: ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ أي: ما عظّموه حقّ تعظيمه، و لا عرفوه حق معرفته، حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له مع كون حالها هذا الحال، و قد تقدّم في الأنعام إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ على خلق كلّ شيء عَزِيزٌ غالب لا يغالبه أحد، بخلاف آلهة المشركين، فإنها جماد لا تعقل و لا تنفع و لا

تضرّ و لا تقدر على شی‌ء. ثم أراد سبحانه أن يردّ عليهم ما يعتقدونه فی النبوّات و الإلهيات فقال: اللَّهُ يَصْطَفِی مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا كجبريل و إسرافيل و ميكائيل و عزرائيل وَ يصطفی أيضا رسلا مِنَ النَّاسِ و هم الأنبياء، فيرسل الملک إلى النبی، و النبیّ إلى الناس، أو يرسل الملک لقبض أرواح مخلوقاته، أو لتحصيل ما ينفعكم، أو لإنزال العذاب عليهم إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لأقوال عباده بَصِيرٌ بمن يختاره من خلقه يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ أی: ما قدّموا من الأعمال و ما يتركونه من الخير و الشرّ، كقوله تعالى: وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ «١». وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ لا إلى غيره، و لما تضمن ما ذكره- من أن الأمور ترجع إليه- الزجر لعباده عن معاصيه، و الحضّ لهم على طاعاته صرح بالمقصود، فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا أی: صلّوا الصلاة التی شرعها اللّه لكم، و خصّ الصلاة لكونها أشرف العبادات.

ثم عمّم فقال: وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ أی: افعلوا جميع أنواع العبادة التی أمركم اللّه بها وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ أی: ما هو خير، و هو أعمّ من الطّاعة الواجبة و المندوبة، و قيل: المراد بالخير هنا المندوبات. ثم علّل ذلک بقوله: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أی: إذا فعلتم هذه كلّها رجوتم الفلاح. و هذه الآية من مواطن سجود التلاوة عند الشافعی و من وافقه، لا عند أبی حنيفة و من قال بقوله، و قد تقدّم أن هذه السورة فضّلت بسجدتين، و هذا دليل على ثبوت السجود عند تلاوة هذه الآية. ثم أمرهم بما هو سنام الدين و أعظم أعماله، فقال:

وَ جاهِدُوا فِی اللَّهِ أی: فی ذاته و من أجله، و المراد به الجهاد الأكبر، و هو الغزو للكفار و مدافعتهم إذا غزوا بلاد المسلمين. و قيل: المراد بالجهاد هنا امتثال ما أمرهم اللّه به فی الآية المتقدّمة، أو امتثال جميع ما أمر به و نهی عنه على العموم، و معنى حَقَّ جِهادِهِ المبالغة فی الأمر بهذا الجهاد؛ لأنه أضاف الحقّ إلى الجهاد، و الأصل إضافة الجهاد إلى الحق، أی: جهادا خالصا للّه، فعكس ذلک لقصد المبالغة، و أضاف الجهاد إلى الضمير اتساعا، أو لاختصاصه به سبحانه من حيث كونه مفعولا له و من أجله. و قيل: المراد بحقّ جهاده هو أن لا تخافوا فی اللّه لومة لائم، و قيل: المراد به استفراغ ما فی وسعهم فی إحياء دين اللّه. و قال مقاتل و الكلبی:

إن الآية منسوخة بقوله تعالى: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ «٢» كما أن قوله: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ «٣» منسوخ بذلک، و ردّ ذلک بأن التكليف مشروط بالقدرة، فلا حاجة إلى المصير إلى النسخ. ثم عظّم سبحانه شأن المكلفين بقوله: هُوَ اجْتَباكُمْ أی: اختاركم لدينه، و فيه تشريف لهم عظيم. ثم لما كان فی التكليف مشقة على النفس فی بعض الحالات قال: وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِی الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ أی: من ضيق و شدّة.

و قد اختلف العلماء فی هذا الحرج الذی رفعه اللّه، فقيل: هو ما أحلّه اللّه من النساء مثنى و ثلاث و رباع و ملک اليمين. و قيل: المراد قصر الصلاة، و الإفطار للمسافر، و الصلاة بالإيماء على من لا يقدر على غيره، و إسقاط الجهاد عن الأعرج و الأعمى و المريض، و اغتفار الخطأ فی تقديم الصيام و تأخيره لاختلاف الأهلّة، و كذا فی الفطر و الأضحى. و قيل: المعنى: أنه سبحانه ما جعل عليهم حرجا بتكليف ما يشقّ عليهم، و لكن

---

(١). يس: ١٢.

(٢). التغابن: ١٦.

(٣). آل عمران: ١٠٢.

كلّفهم بما يقدرون عليه، و رفع عنهم التكاليف التى فيها حرج، فلم يتعبّدهم بها كما تعبّد بها بنى إسرائيل.
و قيل: المراد بـذلك أنه جعل لهم من الذنب مخرجا بفتح باب التوبة و قبول الاستغفار و التكفير فيما شرع فيه الكفارة و الأرش «۱»، أو القصاص فى الجنايات، و ردّ المال أو مثله أو قيمته فى الغصب و نحوه. و الظاهر أن الآية أعمّ من هذا كله، فقد حطّ سبحانه ما فيه مشقة من التكاليف على عباده، إما بإسقاطها من الأصل و عدم التكليف بها كما كلّف بها غيرهم، أو بالتخفيف و تجويز العدول إلى بدل لا مشقة فيه، أو بمشروعية التخلّص عن الذنب بالوجه الذى شرعه اللّه، و ما أنفع هذه الآية و أجلّ موقعها و أعظم فائدتها، و مثلها قوله سبحانه:
فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ «۲» و قوله: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ «۳» و قوله: رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ «۴» و فى الحديث الصحيح أنه سبحانه قال: «قد فعلت» كما سبق بيانه فى تفسير هذه الآية، و الأحاديث فى هذا كثيرة، و انتصاب ملّة فى مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ على المصدرية بفعل دلّ عليه ما قبله، أى: وسع عليكم دينكم توسعة ملّة أبيكم إبراهيم. و قال الزجاج: المعنى اتبعوا ملّة أبيكم إبراهيم. و قال الفراء: انتصب على تقدير حذف الكاف، أى: كملّة. و قيل: التقدير: و افعلوا الخير كفعل أبيكم إبراهيم، فأقام الملّة مقام الفعل، و قيل: على الإغراء، و قيل: على الاختصاص، و إنما جعله سبحانه أباهم لأنه أبو العرب قاطبة، و لأن له عند غير العرب الذين لم يكونوا من ذريته حرمة عظيمة كحرمة الأب على الابن؛ لكونه أبا لنبيهم صلّى اللّه عليه و سلّم: هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ أى: فى الكتب المتقدّمة وَ فِي هذا أى: القرآن، و الضمير للّه سبحانه، و قيل: راجع إلى إبراهيم. و المعنى هو: أى إبراهيم سمّاكم المسلمين من قبل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، «و فى هذا» أى: فى حكمه أن من اتبع محمدا فهو مسلم. قال النحّاس: و هذا القول مخالف لقول علماء الأمة. ثم علّل سبحانه ذلك بقوله:
لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ أى: بتبليغه إليكم وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ أن رسلهم قد بلغتهم، و قد تقدّم بيان معنى هذه الآية فى البقرة. ثم أمرهم بما هو أعظم الأركان الإسلامية فقال: فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ و تخصيص الخصلتين بالذكر لمزيد شرفهما وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ أى: اجعلوه عصمة لكم ممّا تحذرون، و التجئوا إليه فى جميع أموركم، و لا تطلبوا ذلك إلّا منه هُوَ مَوْلاكُمْ أى: ناصركم و متولّى أموركم دقيقها و جليلها فَنِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ أى: لا مماثل له فى الولاية لأموركم و النصرة على أعدائكم، و قيل: المراد بقوله «اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ»: تمسّكوا بدين اللّه، و قيل: ثقوا به تعالى.
و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ قال: نزلت فى صنم.
و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ قال: الطالب آلهتهم، و المطلوب الذباب.
و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن عكرمة فى قوله: لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ قال: لا تستنقذ الأصنام ذلك الشيء من الذباب. و أخرج الحاكم و صحّحه عنه أيضا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّ اللّه اصطفى موسى

---

(۱). «الأرش»: دية الجراحة.

(۲). التغابن: ۱۶.

(۳). البقرة: ۱۸۵.

(۴). البقرة: ۲۸۶.

بالكلام، و إبراهيم بالخلّة». و أخرج أيضا عن أنس و صحّحه أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «موسى بن عمران صفيّ اللّه». و

أخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال لى عمر: ألسنا كنّا نقرأ فيما نقرأ: «و جاهدوا فى اللّه جهاده فى آخر الزمان كما جاهدتم فى أوّله»؟ قلت: بلى، فمتى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كانت بنو أمية الأمراء، و بنو المغيرة الوزراء. و أخرجه البيهقى فى الدلائل عن المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف فذكره. و أخرج الترمذى و صحّحه، و ابن حبان و ابن مردويه، و العسكرى فى الأمثال، عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة اللّه». و أخرج ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن عائشة أنها سألت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن هذه الآية: وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قال: الضيق. و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد قال: قال أبو هريرة لابن عباس: أما علينا فى الدين من حرج فى أن نسرق أو نزنى؟ قال: بلى، قال: فما وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ

قال: الإصر الذى كان على بنى إسرائيل وضع عنكم. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق ابن شهاب أن ابن عباس كان يقول: وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ توسعة الإسلام ما جعل اللّه من التوبة و الكفّارات.

و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق عثمان بن يسار عن ابن عباس وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قال: هذا فى هلال رمضان إذا شكّ فيه الناس، و فى الحج إذا شكّوا فى الأضحى، و فى الفطر و أشباهه. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق سعيد بن جبير أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال: ادع لى رجلا من هذيل، فجاءه فقال: ما الحرج فيكم؟ قال: الحرجة من الشجر التى ليس فيها مخرج، فقال ابن عباس: [هذا الحرج «۱» الذى ليس له مخرج. و أخرج سعيد ابن منصور و ابن المنذر، و البيهقى فى سننه، من طريق عبيد اللّه بن أبى يزيد أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال: هاهنا أحد من هذيل؟ قال رجل: أنا، فقال: ما تعدّون الحرجة فيكم؟ قال: الشىء الضيق، قال: هو ذاك. و أخرج البيهقى فى سننه عن محمد بن زيد بن عبد اللّه بن عمر قال: قرأ عمر بن الخطاب هذه الآية وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ثم قال لى: ادع لى رجلا من بنى مدلج، قال عمر:

ما الحرج فيكم؟ قال: الضيق. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: مِلَّةَ أَبِيكُمْ [قال: دين أبيكم «۲». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ قال اللّه عزّ و جلّ: سماكم. و روى نحوه عن جماعة من التابعين. و أخرج الطيالسى و أحمد، و البخارى فى تاريخه، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و أبو يعلى و ابن خزيمة و ابن حبان و البغوى و البارودى و ابن قانع و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن الحارث الأشعرى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم

---

(۱). من (الدر المنثور ۶/ ۷۹)

(۲). المصدر السابق.

قال: «من دعا بدعوة الجاهلية فإنه من جثا جهنم «۱»، قال رجل: يا رسول اللّه! و إن صام و صلى؟ قال: نعم، فادعوا بدعوة اللّه التى سمّاكم بها المسلمين و المؤمنين عباد اللّه».

---

(۱). «من جثا جهنم»: أى من جماعاتها. و الجثا: جمع جثوة، و هو الشىء المجموع. و فى بعض الروايات: جثّى، جمع جاث، من جثا على ركبتيه يجثو و يجثى.

سورة المؤمنون

اشارة

هی مکیـة بلا خلاف. قال القرطبی: کلّها مکیّـة فی قول الجمیع، و آیاتها مائـة و تسع عشـرة آیة و قد أخرج أحمد و مسلم و أبو داود و الترمذی و ابن ماجة و غیرهم عن عبد اللّه بن السّائب قال: صـلّی النبی صـلّی اللّه علیه و سـلّم بمکة الصبح فاستفتح سورة المؤمنین، حتی إذا جاء ذکر موسی و هارون، أو ذکر عیسی أخذته سعلة فرکع. و أخرج البیهقی من حدیث أنس عن النبی صلّی اللّه علیه و سـلّم أنه قال: «لمّا خلق اللّه الجنّـة قال لها تکلّمی، فقالت: قـد أفلـح المؤمنون». و أخرجه أیضا ابن عـدی و الحاکم. و أخرج الطبرانی فی السّـنّة، و ابن مردویه من حـدیث ابن عبـاس مثله. و قـد ورد فی فضائل العشـر الآیات من أوّل هـذه السورة ما سیأتی قریبا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة المؤمنون (٢٣): الآیات ١ الی ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِینَ هُمْ فِی صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ (٢) وَ الَّذِینَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَ الَّذِینَ هُمْ لِلزَّکاةِ فاعِلُونَ (۴) وَ الَّذِینَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (۵) إِلاَّ عَلی أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَکَتْ أَیْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَیْرُ مَلُومِینَ (۶) فَمَنِ ابْتَغی وَراءَ ذلِکَ فَأُولئِکَ هُمُ العادُونَ (٧) وَ الَّذِینَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ (٨) وَ الَّذِینَ هُمْ عَلی صَلَواتِهِمْ یُحافِظُونَ (٩)

أُولئِکَ هُمُ الْوارِثُونَ (١٠) الَّذِینَ یَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِیها خالِدُونَ (١١)

قوله: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ قال الفرّاء: قد ها هنا یجوز أن تکون تأکیدا لفلاح المؤمنین، و یجوز أن تکون تقریبا للماضی من الحال، لأن قد تقرّب الماضی من الحال حتی تلحقه بحکمه، ألا تراهم یقولون:

قـد قـامت الصـلاة قبل حال قیامها، و یکون المعنی فی الآیـة و أن الفلاح قـد حصل لهم، و أنهم علیه فی الحال، و الفلاح: الظفر بالمراد و النجاة من المکروه، و قیل: البقاء فی الخیر، و أفلح إذا دخل فی الفلاح، و یقال:

أفلحه: إذا أصاره إلی الفلاح، و قـد تقـدّم بیان معنی الفلاح فی أوّل البقرة. و قرأ طلحـة بن مصـرّف قَدْ أُفْلِحَ بضم الهمزة و بناء الفعـل للمفعـول. و روی عنه أنه قرأ «أفلحوا المؤمنون» علی الإبهـام و التفسـیر، أو علی لغـة: أکلونی البـراغیث. ثم وصف هؤلاء المؤمنین بقوله: الَّذِینَ هُمْ فِی صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ و ما عطف علیه، و الخشوع: منهم من جعله من أفعال القلوب کالخوف و الرهبة، و منهم من جعله من أفعال الجوارح کالسکون و ترک الالتفات و العبث، و هو فی اللغة: السکون و التواضع و الخوف و التذلل.

و قـد اختلف النـاس فی الخشوع هـل هو من فرائض الصـلاة أو من فضائلهـا؟ علی قولین: قیـل: الصـحیح الأـول، و قیل: الثانی. و ادّعی عبد الواحد بن زید إجماع العلماء علی أنه لیس للعبد إلا ما عقل من صلاته، حکاه

فتح القدیر، ج٣، ص: ۵۶١

النیسابوری فی تفسیره. قال: و ممّا یـدل علی صـحّة هـذا القول قوله تعالی: أَ فَلا یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ* «١» و التـدبر لا یتصوّر بدون الوقوف علی المعنی، و کـذا قوله: أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِکْرِی «٢» و الغفلـة تضادّ الـذکر، و لهـذا قال: وَ لا تَکُنْ مِنَ الْغافِلِینَ «٣» و قوله: حَتَّی تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ «۴» نهی للسکران، و المستغرق فی هموم الدنیا بمنزلته. و اللغو، قال الزجّاج: هو کل باطل و لهو و هزل و معصیة و ما لا یجمل من القول و الفعل، و قد تقدّم تفسیره فی البقرة. و قال الضـحّاک: إن اللغو هنا الشـرک. و قال الحسن: إنه

المعاصی کلها. و معنی إعراضهم عنه: تجنّبهم له و عدم التفاتهم إلیه، و ظاهره اتّصافهم بصفة الإعراض عن اللغو فی کلّ الأوقات، فیدخل وقت الصلاة فی ذلک دخولا أوّلیا کما تفیده الجملة الاسمیة، و بناء الحکم علی الضمیر، و معنی فعلهم للزکاة تأدیتهم لها، فعبّر عن التأدیة بالفعل لأنّها ممّا یصدق علیه الفعل، و المراد بالزکاة هنا المصدر لأنه الصادر عن الفاعل. و قیل: یجوز أن یراد بها العین علی تقدیر مضاف، أی: وَ الَّذِینَ هُمْ لتأدیة لِلزَّکاةِ فاعِلُونَ- وَ الَّذِینَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ الفرج: یطلق علی فرج الرجل و المرأة، و معنی حفظهم لها أنهم ممسکون لها بالعفاف عمّا لا یحلّ لهم. قیل: و المراد هنا الرجال خاصة دون النساء بدلیل قوله: إِلَّا عَلی أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَکَتْ أَیْمانُهُمْ للإجماع علی أنه لا یحلّ للمرأة أن یطأها من تملکه. قال الفرّاء: إن علی فی قوله: إِلَّا عَلی أَزْواجِهِمْ بمعنی من. و قال الزّجّاج: المعنی أنهم یلامون فی إطلاق ما حظر علیهم فأمروا بحفظه إلا علی أزواجهم، و دلّ علی المحذوف ذکر اللوم فی آخر الآیة، و الجملة فی محل نصب علی الحال، و قیل: إن الاستثناء من نفی الإرسال المفهوم من الحفظ، أی: لا یرسلونها علی أحد إلا علی أزواجهم. و قیل:

المعنی: إلا والین علی أزواجهم و قوّامین علیهم، من قولهم: کان فلان علی فلانة فمات عنها فخلف علیها فلان.

و المعنی: أنهم لفروجهم حافظون فی جمیع الأحوال إلا فی حال تزوّجهم أو تسرّیهم، و جملة أَوْ ما مَلَکَتْ أَیْمانُهُمْ فی محل جرّ عطفا علی أزواجهم، و ما مصدریة، و المراد بذلک الإماء؛ و عبّر عنهنّ بما التی لغیر العقلاء، لأنه اجتمع فیهنّ الأنوثة المنبئة عن قصور العقل و جواز البیع و الشراء فیهنّ کسائر السلع، فأجراهن بهذین الأمرین مجری غیر العقلاء، و جملة فَإِنَّهُمْ غَیْرُ مَلُومِینَ تعلیل لما تقدّم ممّا لا یجب علیهم حفظ فروجهم منه فَمَنِ ابْتَغی وَراءَ ذلِکَ فَأُولئِکَ هُمُ العادُونَ الإشارة إلی الزوجات و ملک الیمین؛ و معنی «العادون»: المجاوزون إلی ما لا یحلّ لهم، فسمّی سبحانه من نکح ما لا یحلّ عادیا، و وراء هنا بمعنی سوی و هو مفعول ابتغی. قال الزجّاج: أی فمن ابتغی ما بعد ذلک فمفعول الابتغاء محذوف، و وراء ظرف.

و قد دلّت هذه الآیة علی تحریم نکاح المتعة، و استدلّ بها بعض أهل العلم علی تحریم الاستمناء لأنه من الوراء «5» لما ذکر، و قد جمعنا فی ذلک رسالة سمّیناها «بلوغ المنی فی حکم الاستمناء»، و ذکرنا فیها أدلة المنع و الجواز و ترجیح الراجح منهما وَ الَّذِینَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ قرأ الجمهور لِأَماناتِهِمْ بالجمع. و قرأ ابن کثیر بالإفراد. و الأمانة ما یؤتمنون علیه، و العهد ما یعاهدون علیه من جهة اللّه سبحانه أو جهة

---

(1). النساء: 82.

(2). طه: 14.

(3). الأعراف: 205.

(4). النساء: 43.

(5). المقصود: الإشارة إلی قوله تعالی: فَمَنِ ابْتَغی وَراءَ ذلِکَ

عباده، و قد جمع العهد و الأمانة کلّ ما یتحمّله الإنسان من أمر الدین و الدنیا، و الأمانة أعمّ من العهد، فکل عهد أمانة، و معنی «راعون»: حافظون وَ الَّذِینَ هُمْ عَلی صَلَواتِهِمْ یُحافِظُونَ قرأ الجمهور صَلَواتِهِمْ بالجمع. و قرأ حمزة و الکسائی «صلاتهم» بالإفراد، و من قرأ بالإفراد فقد أراد اسم الجنس، و هو فی معنی الجمع، و المحافظة علی الصلاة: إقامتها و المحافظة علیها فی أوقاتها و إتمام رکوعها و سجودها و قراءتها و المشروع من أذکارها. ثم مدح سبحانه هؤلاء فقال: أُولئِکَ هُمُ الْوارِثُونَ أی: الأحقاء بأن یسمّوا بهذا الاسم دون غیرهم. ثم بیّن الموروث بقوله: الَّذِینَ یَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ و هو أوسط الجنة، کما صحّ تفسیره بذلک عن

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و المعنى: أن من عمل بما ذكر فى هذه الآيات فهو الوارث الذى يرث من الجنة ذلك المكان، و فيه استعارة لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم. و قيل: المعنى: أنهم يرثون من الكفار منازلهم حيث فرقوها على أنفسهم؛ لأنه سبحانه خلق لكلّ إنسان منزلا فى الجنة و منزلا فى النار. و لفظ الفردوس لغة رومية معرّبة، و قيل: فارسية، و قيل: حبشية، و قيل: هى عربية، و جملة هُمْ فِيها خالِدُونَ فى محل نصب على الحال المقدّرة، أو مستأنفة لا محل لها، و معنى الخلود أنهم يدومون فيها لا يخرجون منها و لا يموتون فيها، و تأنيث الضمير مع أنه راجع إلى الفردوس لأنه بمعنى الجنة.

و قد أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و النسائى و ابن المنذر، و العقيلى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الدلائل، و الضياء فى المختارة، عن عمر بن الخطاب قال: «كان إذا أنزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الوحى يسمع عند وجهه كدويّ النحل، فأنزل اللّه عليه يوما فمكثنا ساعة، فسرّى عنه، فاستقبل القبلة فقال: اللهم زدنا و لا تنقصنا، و أكرمنا و لا تهنّا، و أعطنا و لا تحرمنا، و آثرنا و لا تؤثر علينا، و أرضنا و ارض عنا، ثم قال: لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة، ثم قرأ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ حتى ختم العشر» و فى إسناده يونس بن سليم الإيلى. قال النسائى: لا نعرف أحدا رواه عن ابن شهاب إلا يونس بن سليم، و يونس لا نعرفه. و أخرج البخارى فى الأدب المفرد، و النسائى و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن يزيد بن بابنوس قال: قلنا لعائشة: كيف كان خلق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؟ قالت: كان خلقه القرآن، ثم قالت: تقرأ سورة المؤمنون؟ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ فقرأ حتى بلغ العشر، فقالت: هكذا كان خلق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير، و البيهقى فى سننه، عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت:

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ و أخرجه عبد الرزاق عنه، و زاد: فأمره بالخشوع فرمى ببصره نحو مسجده. و أخرجه عنه أيضا عبد بن حميد، و أبو داود فى المراسيل، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى السّنن، بلفظ: كان إذا قام فى الصلاة نظر هكذا و هكذا، يمينا و شمالا، فنزلت الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ فحنى رأسه. و روى عنه من طرق مرسلا هكذا. و أخرجه الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عنه عن أبى هريرة: أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت: الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ فطأطأ رأسه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن

ابن سيرين بلفظ: كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يرفعون رؤوسهم و أبصارهم إلى السماء فى الصلاة، و يلتفتون يمينا و شمالا، فأنزل اللّه قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ- الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ فمالوا برءوسهم، فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك فى الصلاة، و لم يلتفتوا يمينا و شمالا. و أخرج ابن المبارك فى الزهد، و عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، عن عليّ أنه سئل عن قوله: الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ قال: الخشوع فى القلب، و أن تلين كتفك للمرء المسلم، و أن لا تلتفت فى صلاتك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ قال: خائفون ساكنون. و قد ورد فى مشروعية الخشوع فى الصلاة و النهى عن الالتفات و عن رفع البصر إلى السماء أحاديث معروفة فى كتب الحديث. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ قال: الباطل. و أخرج عبد الرزاق، و أبو داود فى ناسخه عن القاسم بن محمد: أنه سئل عن المتعة فقال: إنى لأرى تحريمها فى القرآن، ثم تلا- وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ- إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ و

أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الطبرانى عن ابن مسعود أنه قيل له: إن اللّه يكثر ذكر الصلاة فى القرآن الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ «۱» وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ قال: ذلك على مواقيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على تركها، قال: تركها كفر. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، عن أبى هريرة فى قوله: أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ قال: يرثون مساكنهم و مساكن إخوانهم التى أعدّت لهم لو أطاعوا اللّه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما منكم من أحد إلا و له منزلان:

منزل فى الجنة، و منزل فى النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ . و أخرج عبد بن حميد و الترمذى و قال: حسن صحيح غريب عن أنس، فذكر قصّة، و فيها أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الفردوس ربوة الجنة و أوسطها و أفضلها»، و يدلّ على هذه الوراثة المذكورة هنا قوله تعالى: تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا «۲»، و قوله: تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «۳». و يشهد لحديث أبى هريرة هذا ما فى صحيح مسلم عن أبى موسى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«يجىء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها اللّه لهم و يضعها على اليهود و النصارى» و فى لفظ له: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا كان يوم القيامة دفع اللّه إلى كلّ مسلم يهوديا أو نصرانيا، فيقول: هذا فكاكك من النار».

---

(۱). المعارج: ۲۳.

(۲). مريم: ۶۳.

(۳). الأعراف: ۴۳.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۶۴

[سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱۲ الى ۲۲]

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (۱۲) ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ (۱۳) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ (۱۴) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ (۱۵) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ (۱۶)

وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَ ما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ (۱۷) وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ (۱۸) فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (۱۹) وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (۲۰) وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (۲۱)

وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (۲۲)

لما حثّ سبحانه عباده على العبادة و وعدهم الفردوس على فعلها، عاد إلى تقرير المبدأ و المعاد ليتمكّن ذلك فى نفوس المكلّفين فقال: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ إلى آخره، و اللام جواب قسم محذوف، و الجملة مبتدأة، و قيل: معطوفة على ما قبلها، و المراد بالإنسان الجنس لأنهم مخلوقون فى ضمن خلق أبيهم آدم، و قيل: المراد به آدم. و السلالة فعالة من السّلّ، و هو استخراج

الشـىء من الشىء، يقال: سللت الشعرة من العجين، و السيف من الغمد فانسلّ، فالنطفة سلالة، و الولد سليل، و سلالة أيضا، و منه قول الشاعر «۱»:

فجاءت به عضب الأديم غضنفراسلالة فرج كان غير حصين

و قول الآخر «۲»:

و هل هند إلا مهرة عربيّةسليلة أفراس تجلّلها «۳» بغل

و مِنْ فى مِنْ سُـلالَةٍ ابتدائية متعلّقة بخلقنا، و فى مِنْ طِينٍ بيانية متعلقة بمحذوف، وقع صفة لسلالة، أى: كائنة من طين، و المعنى: أنه سبحانه خلق جوهر الإنسـان أوّلاـ من طين، لأـن الأصل آدم، و هو من طين خالص و أولاده من طين و منىّ. و قيل: السـلالة: الطين إذا عصرته انسلّ من بين أصابعك، فالذى يخرج هو السلالة، قاله الكلبى ثُمَّ جَعَلْناهُ أى الجنس باعتبار أفراده الذين هم بنو آدم، أو جعلنا نسـله على حـذف مضاف إن أريـد بالإنسان آدم نُطْفَـةً و قد تقدم تفسـير النطفة فى سورة الحج، و كذلك تفسـير العلقة و المضـغة. و المراد بالقرار المكين: الرّحم، و عبّر عنها بالقرار الذى هو مصدر مبالغة، و معنى ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً أى: أنه سبحـانه أحـال النطفـة البيضاء علقـة حمراء فَخَلَقْنَا الْعَلَقَـةَ مُضْـغَةً أى: قطعـة لحم غير مخلّقـة فَخَلَقْنَا الْمُضْـغَةَ عِظاماً أى: جعلها اللّه سبحانه متصلّبة لتكون عمودا للبدن على أشكال

---

(۱). هو حسان بن ثابت.

(۲). القائل: هند بنت النعمان.

(۳). «تجلّلها»: علاها. و يروى: تحلّلها.

مخصوصـة فَكَسَوْنَـا الْعِظامَ لَحْماً أى: أنبت اللّه سـبحانه على كلّ عظم لحما على المقـدار الـذى يليق به و يناسبه ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ أى: نفخنا فيه الروح بعـد أن كان جمادا، و قيل: أخرجناه إلى الـدنيا، و قيل: هو نبات الشـعر، و قيل: خروج الأسـنان، و قيل: تكميـل القوى المخلوقـة فيه، و لا مانع من إرادة الجميع، و المجىء بثم لكمال التفاوت بين الخلقين فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ أى: استحقّ التعظيم و الثناء.

و قيل: مأخوذ من البركة، أى: كثر خيره و بركته. و الخلق فى اللغة: التقدير، يقال: خلقت الأديم؛ إذا قسـته لتقطع منه شيئا، فمعنى أحسن الخالقين: أتقن الصانعين المقدّرين، و منه قول الشاعر «۱»:

و لأنت تفرى ما خلقت و بعض القوم يخلق ثم لا يفرى

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْـدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الأمور المتقدّمـة، أى: ثم إنكم بعد تلك الأمور لميتون صائرون إلى الموت لاـ محالـة ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَـةِ تُبْعَثُونَ من قبوركم إلى المحشـر للحسـاب و العقـاب. و اللام فى وَ لَقَـدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَـبْعَ طَرائِقَ جواب لقسم محـذوف، و الجملة مبتدأة مشـتملة على بيان خلق ما يحتاجون إليه بعد بيان خلقهم، و الطرائق: هى السـماوات. قال الخليلى و الفرّاء و الزّجاج:

سمّيت طرائق لأـنه طورق بعضـها فوق بعض كمطارقـة النعـل. قـال أبو عبيـدة: طارقت الشـىء جعلت بعضه فوق بعض، و العرب تسـمّى كل شـىء فوق شـىء طريقة. و قيل: لأنها طرائق الملائكة، و قيل: لأنها طرائق الكواكب. وَ ما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ المراد بالخلق هنا المخلوق، أى: و ما كنّا عن هذه السبع الطرائق و حفظها عن أن تقع على الأرض بغافلين. و قال أكثر المفسرين: المراد الخلق كلهم بغافلين، بل حفظنا السـماوات عن أن تسـقط، و حفظنا من فى الأرض أن تسـقط السماء عليهم فتهلكهم أو تميد بهم

الأرض، أو يهلكون بسبب من الأسباب المستأصلة لهم، و يجوز أن يراد نفى الغفلة عن القيام بمصالحهم و ما يعيشون به، و نفى الغفلة عن حفظهم وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً هذا من جملة ما امتنّ اللّه سبحانه به على خلقه، و المراد بالماء ماء المطر، فإن به حياة الأرض و ما فيها من الحيوان، و من جملة ذلك ماء الأنهار النازلة من السماء و العيون، و الآبار المستخرجة من الأرض، فإنّ أصلها من ماء السماء. و قيل: أراد سبحانه فى هذه الآية الأنهار الأربعة:

سيحان، و جيحان، و الفرات، و النيل، و لا وجه لهذا التخصيص. و قيل: المراد به الماء العذب، و لا وجه لذلك أيضا فليس فى الأرض ماء إلا و هو من السماء. و معنى بِقَدَرٍ بتقدير منا أو بمقدار يكون به صلاح الزرع و الثمار، فإنه لو كثر لكان به هلاك ذلك، و مثله قوله سبحانه وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ و معنى فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ جعلناه مستقرّا فيها ينتفعون به وقت حاجتهم إليه، كالماء الذى يبقى فى المستنقعات و الغدران و نحوها وَ إِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ أى: كما قدرنا على إنزاله فنحن قادرون على أن نذهب به بوجه من الوجوه، و لهذا التنكير حسن موقع لا يخفى، و فى هذا تهديد شديد لما يدلّ عليه من قدرته سبحانه على إذهابه و تغويره حتى يهلك الناس بالعطش و تهلك مواشيهم، و مثله قوله:

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ «٢». ثم بيّن سبحانه ما يتسبّب عن إنزال الماء

---

(١). هو زهير بن أبى سلمى.

(٢). الملك: ٣٠.

فقال: فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ أى: أوجدنا بذلك الماء جنات من النوعين المذكورين لَكُمْ فِيها أى: فى هذه الجنّات فَواكِهُ كَثِيرَةٌ تتفكّهون بها و تتطعمون منها. و قيل: المعنى: و من هذه الجنات وجوه أرزاقكم و معاشكم، كقوله: فلان يأكل من حرفة كذا، و هو بعيد. و اقتصر سبحانه على النخيل و الأعناب؛ لأنها الموجودة بالطائف و المدينة و ما يتّصل بذلك. كذا قال ابن جرير. و قيل: لأنها أشرف الأشجار ثمرة، و أطيبها منفعة و طعما و لذّة. قيل: المعنىّ بقوله: لَكُمْ فِيها فَواكِهُ أنّ لكم فى هذه الجنات فواكه من غير العنب و النخيل. و قيل: المعنى: لكم فى هذين النوعين خاصة فواكه؛ لأن فيهما أنواعا مختلفة متفاوتة فى الطعم و اللون.

و قد اختلف أهل الفقه فى لفظ الفاكهة على ماذا يطلق؟ اختلافا كثيرا، و أحسن ما قيل إنها تطلق على الثمرات التى يأكلها الناس، و ليست بقوت لهم و لا طعام و لا إدام. و اختلف فى البقول هل تدخل فى البقول هل تدخل فى الفاكهة أم لا؟ و انتصاب شجرة على العطف على جنات، و أجاز الفراء الرفع على تقدير: و ثم شجرة فتكون مرتفعة على الابتداء، و خبرها محذوف مقدّر قبلها، و هو الظرف المذكور. قال الواحدى: و المفسرون كلّهم يقولون: إن المراد بهذه الشجرة شجرة الزيتون، و خصّت بالذكر لأنه لا يتعاهدها أحد بالسّقى، و هى التى يخرج الدهن منها، فذكرها اللّه سبحانه امتنانا منه على عباده بها، و لأنها أكرم الشجر، و أعمّها نفعا، و أكثرها بركة، ثم وصف سبحانه هذه الشجرة بأنها تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ و هو جبل ببيت المقدس، و الطور:

الجبل فى كلام العرب، و قيل: هو ممّا عرّب من كلام العجم. و اختلف فى معنى سيناء؛ فقيل: هو الحسن، و قيل: هو المبارك، و ذهب الجمهور إلى أنه اسم للجبل كما تقول: جبل أحد. و قيل: سيناء حجر بعينه أضيف الجبل إليه لوجوده عنده، و قيل: هو كلّ جبل يحمل الثمار. و قرأ الكوفيون سَيْناءَ بفتح السين، و قرأ الباقون بكسر السين، و لم يصرف لأنه جعل اسما للبقعة، و زعم الأخفش أنه أعجمى. و قرأ الجمهور تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ بفتح المثناة و ضمّ الباء الموحدة، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بضمّ المثناة و

كسر الباء الموحدة. و المعنى على القراءة الأولى: أنها تنبت فى نفسها متلبسة بالدهن، و على القراءة الثانية: الباء بمعنى مع، فهى للمصاحبة.

قال أبو علىّ الفارسى: التقدير: تنبت جناها و معه الدهن. و قيل: الباء زائدة. قال أبو عبيدة، و مثله قول الشاعر «١»:

هنّ الحرائر لا ربّات أحمرة «٢»سود المحاجر لا يقرأن بالسّور

و قال آخر:

....

نضرب بالسيف و نرجو بالفرج «٣»

(١). هو الراعى.

(٢). «أحمرة»: جمع حمار. و خصّ الحمير لأنها رذال المال و شرّه. و قال البغدادى فى خزانة الأدب: و قد صحّف الدمامينى هذه الكلمة بالخاء المعجمة.

(٣). و صدره: نحن بنو جعدة أصحاب الفلج.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٦٧

و قال الفراء و الزجاج: إنّ نبت و أنبت بمعنى، و الأصمعى ينكر أنبت، و يرد عليه قول زهير:

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهمقطينا بها حتى إذا أنبت البقل

أى: نبت. و قرأ الزهرى و الحسن و الأعرج «تنبت» بضم المثناة و فتح الموحدة. قال الزجاج و ابن جنى:

أى تنبت و معها الدهن، و قرأ ابن مسعود «تخرج» بالدهن، و قرأ زرّ بن حبيش «تنبت الدهن» بحذف حرف الجرّ. و قرأ سليمان بن عبد الملك و الأشهب «بالدهان». وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ معطوف على الدهن، أى:

تنبت بالشى‏ء الجامع بين كونه دهنا يدهن به. و كونه صبغا يؤتدم به. قرأ الجمهور صِبْغٍ و قرأ قوم «صباغ» مثل لبس و لباس، و كل إدام يؤتدم به فهو صبغ و صباغ، و أصل الصبغ ما يلوّن به الثوب، و شبّه الإدام به لأن الخبز يكون بالإدام كالمصبوغ به وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً هذه من جملة النعم التى امتنّ اللّه بها عليهم، و قد تقدّم تفسير الأنعام فى سورة النحل. قال النيسابورى فى تفسيره: و لعلّ القصد بالأنعام هنا إلى الإبل خاصة؛ لأنها هى المحمول عليها فى العادة، و لأنه قرنها بالفلك و هى سفائن البرّ، كما أن الفلك سفائن البحر. و بيّن سبحانه أنها عبرة؛ لأنّها ممّا يستدلّ بخلقها و أفعالها على عظيم القدرة الإلهية، ثم فصّل سبحانه ما فى هذه الأنعام من النعم بعد ما ذكره من العبرة فيها للعباد، فقال: نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها يعنى سبحانه: اللبن المتكوّن فى بطونها المنصبّ إلى ضروعها، فإنّ فى انعقاد ما تأكله من العلف و استحالته إلى هذا الغذاء اللذيذ، و المشروب النفيس؛ أعظم عبرة للمعتبرين، و أكبر موعظة للمتّعظين. قرئ نُسْقِيكُمْ بالنون على أن الفاعل هو اللّه سبحانه، و قرئ بالتاء الفوقية على أن الفاعل هو الأنعام. ثم ذكر ما فيها من المنافع إجمالا فقال: وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ يعنى فى ظهورها و ألبانها و أولادها و أصوافها و أشعارها، ثم ذكر منفعة خاصة فقال: وَ مِنْها تَأْكُلُونَ لما فى الأكل من عظيم الانتفاع لهم، و كذلك ذكر الركوب عليها لما فيه من المنفعة العظيمة فقال: وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ أى: و على الأنعام، فإن أريد بالأنعام الإبل و البقر و الغنم، فالمراد: و على بعض الأنعام، و هى الإبل خاصّة، فالمعنى واضح.

ثم لما كانت الأنعام هى غالب ما يكون الركوب عليه فى البرّ ضمّ إليها ما يكون الركوب عليه فى البحر، فقال:

وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ تتميما للنعمة و تكميلا للمنّة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: السلالة: صفو الماء الرقيق الذى يكون منه الولد. و أخرج

ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: إن النطفة إذا وقعت فى الرحم طارت فى شعر و ظفر فتمكث أربعين يوما، ثم تنحدر فى الرحم فتكون علقة. و للتابعين فى تفسير السلالة أقوال قد قدّمنا الإشارة إليها. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ قال: الشعر و الأسنان. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ قال: نفخ فيه الروح، و كذا قال: مجاهد و عكرمة و الشعبى و الحسن و أبو العالية و الربيع بن أنس و السدّى و الضحّاك و ابن زيد، و اختاره ابن جرير. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ قال: حين استوى به الشباب. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن صالح أبى الخليل قال: لما نزلت هذه

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٦٨

الآية على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى قوله: ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ قال عمر: فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ قال:

«و الذى نفسى بيده إنها ختمت بالذى تكلمت به يا عمر». و أخرج الطيالسى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عن أنس قال: قال عمر: وافقت ربى فى أربع، قلت: يا رسول اللّه لو صلينا خلف المقام؟

فأنزل اللّه: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى «١» و قلت: يا رسول اللّه لو اتخذت على نسائك حجابا فإنه يدخل عليك البرّ و الفاجر، فأنزل اللّه: وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ «٢» و قلت لأزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: لتنتهنّ أو ليبدلنه اللّه أزواجا خيرا منكنّ، فنزلت: عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَ «٣» الآية، و نزلت:

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ إلى قوله: ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فقلت أنا: فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ و أخرج ابن راهويه و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه عن زيد ابن ثابت قال: أملى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآية: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ إلى قوله: خَلْقاً آخَرَ فقال معاذ بن جبل: فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ فضحك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال له معاذ: ممّ ضحكت يا رسول اللّه؟ قال: بها ختمت فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ و فى إسناده: جابر الجعفى، و هو ضعيف جدا. قال ابن كثير: و فى خبره هذا نكارة شديدة، ذلك أن هذه السورة مكية، و زيد بن ثابت إنّما كتب الوحى بالمدينة، و كذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة، و اللّه أعلم. و أخرج ابن مردويه و الخطيب، قال السيوطى: بسند ضعيف، عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أنزل اللّه من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار: سيحون و هو نهر الهند، و جيحون و هو نهر بلخ، و دجلة و الفرات و هما نهرا العراق، و النيل و هو نهر مصر، أنزلها من عين واحدة من عيون الجنة، من أسفل درجة من درجاتها على جناحى جبريل، فاستودعها الجبال، و أجراها فى الأرض، و جعلها منافع للناس فى أصناف معايشهم، فذلك قوله:

وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ فإذا كان عند خروج يأجوج و مأجوج أرسل اللّه جبريل، فرفع من الأرض القرآن و العلم، و الحجر من ركن البيت، و مقام إبراهيم، و تابوت موسى بما فيه، و هذه الأنهار الخمسة، فيرفع كل ذلك إلى السماء، فذلك قوله: وَ إِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدنيا و الآخرة». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس، قال: طور سيناء هو الجبل الذى نودى منه موسى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ قال: هو الزيت يؤكل و يدهن به.

---

(١). البقرة: ١٢٥.

(٢). الأحزاب: ٥٣.

(٣). التحريم: ٥.

فتح القدير، ج‏3، ص: 569

[سورة المؤمنون (23): الآيات 23 الى 41]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (23) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (24) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (25) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (26) فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (27) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (29) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30) ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (31) فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (32)

وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ما هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (34) أَ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُراباً وَ عِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (35) هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37)

إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَ ما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (39) قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ (40) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41)

لما ذكر سبحانه الفلك أتبعه بذكر نوح، لأنه أوّل من صنعه، و ذكر ما صنعه قوم نوح معه بسبب إهمالهم للتفكر في مخلوقات اللّه سبحانه و التذكر لنعمه عليهم، فقال: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ و في ذلك تعزية لرسول اللّه، و تسلية له ببيان أنّ قوم غيره من الأنبياء كانوا يصنعون مع أنبيائهم ما يصنعه قومه معه، و اللام جواب قسم محذوف فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ أي: اعبدوه وحده و لا تشركوا به شيئا كما يستفاد من الآيات الآخرة، و جملة ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ واقعة موقع التعليل لما قبلها، و ارتفاع «غيره» لكونه وصفا لإله على المحل، لأنه مبتدأ خبره «لكم»، أي: ما لكم في الوجود إله غيره سبحانه، و قرئ بالجرّ اعتبارا بلفظ إله أَ فَلا تَتَّقُونَ أي أفلا تخافون أن تتركوا عبادة ربكم الذي لا يستحقّ العبادة غيره، و ليس لكم إله سواه. و قيل: المعنى: أفلا تخافون أن يرفع عنكم ما خوّلكم من النعم و يسلبها عنكم. و قيل: المعنى:

أفلا تقون أنفسكم عذابه الذي تقتضيه ذنوبكم؟ فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ أي: قال أشراف قومه الذين كفروا به: ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أي: من جنسكم في البشرية، لا فرق بينكم و بينه يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ أي: يطلب الفضل عليكم بأن يسودكم حتى تكونوا تابعين له منقادين لأمره، ثم صرّحوا بأن البشر لا يكون رسولا، فقالوا: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً أي: لو شاء اللّه إرسال رسول لأرسل ملائكة، و إنّما عبّر بالإنزال عن الإرسال؛ لأن إرسالهم إلى العباد يستلزم نزولهم إليهم ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ أي: بمثل دعوى هذا المدّعي للنبوّة من البشر، أو بمثل كلامه، و هو الأمر بعبادة اللّه وحده، أو ما سمعنا ببشر يدّعي هذه الدعوى في آبائنا الأوّلين، أي: في الأمم الماضية قبل هذا. و قيل: الباء في «بهذا» زائدة، أي: ما سمعنا هذا كائنا في الماضين، قالوا هذا اعتمادا منهم على التقليد و اعتصاما بحبله، و لم يقنعوا بذلك حتى ضمّوا إليه الكذب البحت، و البهت الصراح، فقالوا: إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ أي: جنون لا يدري ما يقول فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ أي: انتظروا به حتى يستبين أمره، بأن يفيق من جنونه فيترك هذه الدعوى، أو حتى يموت فتستريحوا منه. قال الفرّاء: ليس يريد بالحين هنا وقتا بعينه، إنما هو كقولهم:

فتح القدير، ج‏3، ص: 570

دعه إلى يوم ما، فلما سمع عليه الصلاة و السلام كلامهم و عرف تماديهم على الكفر و إصرارهم عليه قالَ رَبِّ انْصُرْنِی علیهم فانتقم منهم بما تشاء و كيف تريد، و الباء فی بِما كَذَّبُونِ للسببية، أی: بسبب تكذيبهم إیای فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ عند ذلک، أی: أرسلنا إليه رسولا من السماء أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ و «أن» هی مفسرة لما فی الوحی من معنى القول بِأَعْيُنِنا أی: متلبّسا بحفظنا و كلاءتنا، و قد تقدّم بيان هذا فی هود. و معنى وَ وَحْيِنا أمرنا لک و تعلیمنا إياک لكيفية صنعها، و الفاء فی قوله: فَإِذا جاءَ أَمْرُنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها من صنع الفلک، و المراد بالأمر العذاب وَ فارَ التَّنُّورُ معطوف على الجملة التی قبله عطف النسق، و قيل: عطف البيان، أی: إنّ مجیء الأمر هو فور التنور، أی: تنور آدم الصائر إلى نوح، أی: إذا وقع ذلک فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ أی: أدخل فيها، يقال:

سلكه فی كذا أدخله، و أسلكته: أدخلته. و قرأ حفص مِنْ كُلٍّ بالتنوين، و قرأ الباقون بالإضافة، و معنى القراءة الأولى من كلّ أمة زوجين، و معنى الثانية من كل زوجين، و هما أمة الذكر و الأنثى اثنين، و انتصاب أَهْلَكَ بفعل معطوف على «فاسلک»، لا بالعطف على زوجين، أو على اثنين على القراءتين لأدائه إلى اختلاف المعنى، أی: و اسلک أهلک إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ أی: القول بإهلاكهم منهم وَ لا تُخاطِبْنِی فِی الَّذِينَ ظَلَمُوا بالدعاء لهم بإنجائهم، و جملة إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ تعليل للنهی عن المخاطبة، أی:

إنهم مقضی عليهم بالإغراق لظلمهم، و من كان هكذا فهو لا يستحق الدعاء له فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أی:

علوت أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ من أهلک و أتباعک عَلَى الْفُلْكِ راكبين عليه فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أی: حال بيننا و بينهم، و خلصنا منهم، كقوله: فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ «۱». و قد تقدم تفسير هذه القصة فی سورة هود على التمام و الكمال، و إنما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق جزما، لأنه قد سبق فی علمه أن ذلک سبب نجاتهم من الظلمة، و سلامتهم من أن يصابوا بما أصيبوا به من العذاب. ثم أمره أن يسأل ربه ما هو أنفع له و أتمّ فائدة فقال: وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِی مُنْزَلًا مُبارَكاً أی: أنزلنی فی السفينة. قرأ الجمهور «منزلا» بضم الميم و فتح الزای على أنه مصدر.

و قرأ زرّ بن حبيش و أبو بكر عن عاصم و المفضّل بفتح الميم و كسر الزای على أنه اسم مكان. فعلى القراءة الأولى:

أنزلنی إنزالا مباركا، و على القراءة الثانية: أنزلنی مكانا مباركا. قال الجوهری: و المنزل بفتح الميم و الزای:

النزول، و هو الحلول، تقول: نزلت نزولا و منزلا، قال الشاعر:

أ إن ذكّرتک الدار منزلها جمل بكيت فدمع العين منحدر سجل

بنصب منزلها؛ لأنه مصدر. قيل: أمره اللّه سبحانه بأن يقول هذا القول عند دخوله السفينة، و قيل:

عند خروجه منها، و الآية تعليم من اللّه لعباده إذا ركبوا ثم نزلوا أن يقولوا هذا القول. وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ هذا ثناء منه على اللّه عزّ و جلّ إثر دعائه له. قال الواحدی: قال المفسرون: إنّه أمر أن يقول عند استوائه

---

(۱). الأنعام: ۴۵.

على الفلک: الحمد للّه، و عند نزوله منها: ربّ أنزلنی منزلا مباركا، و الإشارة بقوله: إِنَّ فِی ذلِكَ إلى ما تقدّم ممّا قصّه اللّه علينا من أمر نوح عليه السلام. و الآيات: الدلالات على كمال قدرته، سبحانه، و العلامات التی يستدلّ بها على عظيم شأنه. وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ أی: لمختبرين لهم بإرسال الرسل إليهم، ليظهر المطيع و العاصی للناس أو للملائكة. و قيل: المعنى: إنه يعاملهم سبحانه معاملة المختبر لأحوالهم، تارة بالإرسال، و تارة بالعذاب. ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ أی: من بعد إهلاكهم. قال أكثر

المفسرين: إن هؤلاء الذين أنشأهم اللّه بعدهم هم عاد قوم هود، لمجيء قصتهم على إثر قصة نوح فى غير هذا الموضع، و لقوله فى الأعراف وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ «١» و قيل: هم ثمود لأنهم الذين أهلكوا بالصيحة. و قد قال سبحانه فى هذه القصة فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ و قيل: هم أصحاب مدين قوم شعيب لأنهم ممّن أهلك بالصيحة فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولًا عدّى فعل الإرسال بفى مع أنه يتعدّى بإلى؛ للدلالة على أن هذا الرسول المرسل إليهم نشأ فيهم بين أظهرهم، يعرفون مكانه و مولده، ليكون سكونهم إلى قوله أكثر من سكونهم إلى من يأتيهم من غير مكانهم. و قيل: وجه التعدية للفعل المذكور بفى أنه ضمن معنى القول، أى: قلنا لهم على لسان الرسول اعْبُدُوا اللَّهَ و لهذا جىء بأن المفسرة. و الأوّل أولى لأن تضمين أرسلنا معنى قلنا لا يستلزم تعديته بفى، و جملة ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ تعليل للأمر بالعبادة أَ فَلا تَتَّقُونَ عذابه الذى يقتضيه شرككم وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ أى: أشرافهم و قادتهم. ثم وصف الملأ بالكفر و التكذيب فقال: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ أى: كذّبوا بما فى الآخرة من الحساب و العقاب، أو كذّبوا بالبعث وَ أَتْرَفْناهُمْ أى: وسّعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه فِي الْحَياةِ الدُّنْيا من كثرة الأموال و رفاهة العيش ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أى: قال الملأ لقومهم هذا القول، و صفوه بمساواتهم فى البشرية، و فى الأكل مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ و الشرب مِمَّا تَشْرَبُونَ منه، و ذلك يستلزم عندهم أنه لا فضل له عليهم. قال الفرّاء: إن معنى وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ على حذف منه، أى: مما تشربون منه. و قيل: إن «ما» مصدرية، فلا تحتاج إلى عائد. وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ فيما ذكر من الأوصاف إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ أى: مغبونون بترككم آلهتكم و اتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم، و الاستفهام فى قوله: أَ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ للإنكار، و الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من تقبيح اتباعهم له. قرئ بكسر الميم من «متّم»، من مات يمات، كخاف يخاف. و قرئ بضمّها من مات يموت، كقال يقول. وَ كُنْتُمْ تُراباً وَ عِظاماً أى: كان بعض أجزائكم ترابا، و بعضها عظاما نخرة لا لحم فيها و لا أعصاب عليها، و قيل: و تقديم التراب لكونه أبعد فى عقولهم. و قيل: المعنى: كان متقدّموكم ترابا، و متأخّروكم عظاما أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ أى: من قبوركم أحياء كما كنتم، قال سيبويه: «أنّ» الأولى فى موضع نصب بوقوع «أ يعدكم» عليها، و «أن» الثانية بدل منها. و قال الفرّاء و الجرمىّ و المبرّد: إن «أن» الثانية مكرّرة للتوكيد، و حسن تكريرها لطول الكلام، و بمثله قال الزجّاج. و قال الأخفش: «أن» الثانية

---

(١). الأعراف: ٦٩.

فى محل رفع بفعل مضمر، أى: يحدث إخراجكم كما تقول: اليوم القتال، فالمعنى: اليوم يحدث القتال هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ أى: بعد ما توعدون، أو بعيد ما توعدون، و التكرير للتأكيد. قال ابن الأنبارى: و فى هيهات عشر لغات ثم سردها، و هى مبينة فى علم النحو. و قد قرئ ببعضها، و اللام فى «لما توعدون» لبيان المستبعد، كما فى قوله: هَيْتَ لَكَ «١»، كأنه قيل: لما ذا هذا الاستبعاد؟ فقيل: لما توعدون. و المعنى: بعد إخراجكم للوعد الذى توعدون، هذا على أن هيهات اسم فعل. و قال الزجّاج: هو فى تقدير المصدر، أى: البعد لما توعدون، أو بعد لما توعدون على قراءة من نوّن؛ فتكون على هذا مبتدأ خبره لما توعدون. ثم بيّن سبحانه إترافهم بأنهم قالوا: إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا أى: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا، لا الحياة الآخرة التى تعدنا بها، و جملة نَمُوتُ وَ نَحْيا مفسّرة لما ادّعوه من قصرهم حياتهم على حياة الدنيا. ثم صرّحوا بنفى البعث، و أن الوعد به منه افتراء على اللّه فقالوا: وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أى: ما هو فيما يدّعيه إلا مفتر للكذب على اللّه وَ ما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ أى: بمصدّقين له فيما يقوله: قالَ رَبِّ انْصُرْنِي أى: قال نبيهم لما علم بأنهم لا يصدّقونه ألبتة: ربّ انصرنى عليهم و انتقم لى منهم بسبب تكذيبهم إياى قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ أى: قال اللّه سبحانه مجيبا لدعائه واعدا له بالقبول لما دعا به: عما

قليل من الزمان ليصبحنّ نادمين على ما وقع منهم من التكذيب و العناد و الإصرار على الكفر، و ما فى «عَمَّا قَلِيلٍ» مزيدة بين الجارّ و المجرور للتوكيد لقلة الزمان، كما فى قوله: فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ «٢»، ثم أخبر سبحانه بأنها أخذتهم الصيحة و حاق بهم عذابه و نزل عليهم سخطه. قال المفسرون: صاح بهم جبريل صيحة واحدة مع الريح التى أهلكهم اللّه بها فماتوا جميعا.

و قيل: الصيحة هى نفس العذاب الذى نزل بهم، و منه قول الشاعر:

صاح الزمان بآل برمك صيحةخرّوا لشدّتها على الأذقان

و الباء فى بِالْحَقِ متعلق بالأخذ، ثم أخبر سبحانه عمّا صاروا إليه بعد العذاب النازل بهم، فقال:

فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً أى: كغثاء السيل الذى يحمله. و الغثاء: ما يحمل السيل من بالى الشجر و الحشيش و القصب و نحو ذلك مما يحمله على ظاهر الماء. و المعنى: صيّرهم هلكى فيبسوا كما يبس الغثاء فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ انتصاب «بعدا» على المصدرية، و هو من المصادر التى لا يذكر فعلها معها، أى: بعدوا بعدا، و اللام لبيان من قيل له ذلك.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَاسْلُكْ فِيها يقول: اجعل معك فى السفينة مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً قال لنوح حين أنزل من السفينة. و أخرج هؤلاء عن قتادة فى الآية قال: يعلمكم سبحانه كيف تقولون إذا ركبتم، و كيف تقولون إذا نزلتم. أما عند الركوب:

---

(١). يوسف: ٢٣.

(٢). آل عمران: ١٥٩.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٧٣

سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ- وَ إِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ «١» و: بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «٢»، و عند النزول: رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: قَرْناً قال: أمة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: هَيْهاتَ هَيْهاتَ قال: بعيد بعيد. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً قال: جعلوا كالشى‏ء الميت البالى من الشجر.

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٤٢ الى ٥٦]

ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ (٤٢) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَ جَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَ أَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً عالِينَ (٤٦)

فَقالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَ قَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَ مَعِينٍ (٥٠) يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)

وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ (٥٥) نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ (٥٦)

قوله: ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ أى: من بعد إهلاكهم قُرُوناً آخَرِينَ قيل: هم قوم صالح و لوط و شعيب كما وردت قصتهم على هذا

الترتيب فى الأعراف و هود، و قيل: هم بنو إسرائيل. و القرون: الأمم، و لعل وجه الجمع هنا للقرون و الإفراد فيما سبق قريبا أنه أراد هاهنا أمما متعدّدة و هناك أمة واحدة. ثم بيّن سبحانه كمال علمه و قدرته فى شأن عباده، فقال: ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ أى: ما تتقدّم كل طائفة مجتمعة فى قرن آجالها المكتوبة لها فى الهلاك و لا تتأخّر عنها، و مثل ذلك قوله تعالى: فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ* «٣» ثم بيّن سبحانه أن رسله كانوا بعد هذه القرون متواترين، و أن شأن أممهم كان واحدا فى التكذيب لهم فقال: ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا و الجملة معطوفة على الجملة التى قبلها بمعنى أن إرسال كل رسول متأخر عن إنشاء القرن الذى أرسل إليه، لا على معنى أن إرسال الرسل جميعا متأخر عن إنشاء تلك القرون جميعا، و معنى تَتْرا تتواتر واحدا بعد واحد، و يتبع بعضهم بعضا، من الوتر و هو الفرد. قال الأصمعى: واترت كتبى عليه: أتبعت بعضها بعضا؛ إلا أن بين كل واحد منها و بين الآخر مهلة. و قال غيره: المتواترة: المتتابعة بغير مهلة. قرأ ابن كثير و ابن عمرو «تترى» بالتنوين على أنه مصدر. قال النحاس: و على هذا يجوز «تترى» بكسر التاء الأولى. لأن معنى ثم أرسلنا: و واترنا،

---

(١). الزخرف: ١٣ و ١٤.

(٢). هود: ٤١.

(٣). الأعراف: ٣٤.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٧٤

و يجوز أن يكون فى موضع الحال، أى: متواترين كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ هذه الجملة مستأنفة مبينة لمجى‏ء كل رسول لأمته، على أن المراد بالمجى‏ء التبليغ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً أى: فى الهلاك بما نزل بهم من العذاب وَ جَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ الأحاديث: جمع أحدوثة، و هى ما يتحدّث به الناس، كالأعاجيب جمع أعجوبة، و هى ما يتعجب الناس منه. قال الأخفش: إنما يقال «جعلناهم أحاديث» فى الشرّ و لا يقال فى الخير، كما يقال: صار فلان حديثا، أى: عبرة، و كما قال سبحانه فى آية أخرى: فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ «١». قلت: و هذه الكلية غير مسلمة؛ فقد يقال: صار فلان حديثا حسنا، و منه قول ابن دريد فى مقصورته:

و إنّما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ وصفهم هنا بعدم الإيمان، و فيما سبق قريبا بالظلم؛ لكون كلّ من الوصفين صادرا عن كل طائفة من الطائفتين، أو لكون هؤلاء لم يقع منهم إلا مجرّد عدم التصديق، و أولئك ضمّوا إليه تلك الأقوال الشنيعة التى هى من أشدّ الظلم و أفظعه. ثم حكى سبحانه ما وقع من فرعون و قومه عند إرسال موسى و هارون إليهم فقال: ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى‏ وَ أَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا هى التسع المتقدّم ذكرها غير مرّة، و لا يصح عدّ فلق البحر منها هنا؛ لأن المراد الآيات التى كذّبوا بها و استكبروا عنها. و المراد بالسلطان المبين:

الحجّة الواضحة البينة. قيل: هى الآيات التسع نفسها، و العطف من باب:

إلى الملك القرم و ابن الهمام ....

و قيل: أراد العصا لأنها أمّ الآيات، فيكون من باب عطف جبريل على الملائكة. و قيل: المراد بالآيات؛ التى كانت لهما، و بالسلطان: الدلائل، و المبين: التسع الآيات، و المراد بالملإ فى قوله: إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ هم الأشراف منهم كما سبق بيانه غير مرّة فَاسْتَكْبَرُوا أى: طلبوا الكبر و تكلّفوه فلم ينقادوا للحق وَ كانُوا قَوْماً عالِينَ قاهرين للناس بالبغى و الظلم، مستعلين عليهم، متطاولين كبرا و عنادا و تمرّدا.

و جملة فَقالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا معطوفة على جملة فَاسْتَكْبَرُوا و ما بينهما اعتراض، و الاستفهام للإنكار، أى: كيف نصدّق من كان مثلنا فى البشرية، و البشر يطلق على الواحد كقوله: بَشَراً سَوِيًّا «٢» كما يطلق على الجمع كما فى قوله: فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً «٣» فتثنيته هنا هى باعتبار المعنى الأول، و أفرد المثل لأنه فى حكم المصدر، و معنى وَ قَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ أنهم مطيعون لهم، منقادون لما يأمرونهم به كانقياد العبيد. قال المبرّد: العابد: المطيع الخاضع. قال أبو عبيدة: العرب تسمّى كلّ من دان لملك عابدا له، و قيل: يحتمل أنه كان يدّعى الإلهية فدعا الناس إلى عبادته فأطاعوه، و اللام فى لَنا متعلقة بعابدون، قدّمت عليه لرعاية الفواصل، و الجملة حالية. فَكَذَّبُوهُما أى: فأصرّوا على تكذيبهما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ بالغرق فى البحر. ثم حكى سبحانه ما جرى على قوم موسى بعد إهلاك عدوّهم فقال:

---

(١). سبأ: ١٩.

(٢). مريم: ١٧.

(٣). مريم: ٢٦.

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ يعنى التوراة، و خصّ موسى بالذكر لأن التوراة أنزلت عليه فى الطور، و كان هارون خليفته فى قومه: لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ أى: لعلّ قوم موسى يهتدون بها إلى الحق، و يعملون بما فيها من الشرائع، فجعل سبحانه إيتاء موسى إياها إيتاء لقومه، لأنها و إن كانت منزلة على موسى فهى لإرشاد قومه. و قيل: إن ثمّ مضافا محذوفا أقيم المضاف إليه مقامه، أى: آتينا قوم موسى الكتاب. و قيل: إن الضمير فى «لَعَلَّهُمْ» يرجع «إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ»، و هو وهم لأن موسى لم يؤت التوراة إلا بعد إهلاك فرعون و قومه، كما قال سبحانه: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى «١» ثم أشار سبحانه إلى قصة عيسى إجمالا فقال: وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً أى: علامة تدلّ على عظيم قدرتنا، و بديع صنعنا، و قد تقدّم الكلام على هذا فى آخر سورة الأنبياء فى تفسير قوله سبحانه: وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ «٢». و معنى قوله: وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ إلى مكان مرتفع، أى: جعلناهما يأويان إليها. قيل: هى أرض دمشق، و به قال عبد اللّه بن سلام و سعيد بن المسيب و مقاتل؛ و قيل: بيت المقدس، قاله قتادة و كعب؛ و قيل: أرض فلسطين، قاله السدّى ذاتِ قَرارٍ أى: ذات مستقرّ يستقرّ عليه ساكنوه وَ مَعِينٍ أى: و ماء معين.

قال الزّجّاج: هو الماء الجارى فى العيون، فالميم على هذا زائدة كزيادتها فى مبيع، و قيل: هو فعيل بمعنى مفعول.

قال علىّ بن سليمان الأخفش: معن الماء؛ إذا جرى فهو معين و معيون. و كذا قال ابن الأعرابى. و قيل:

هو مأخوذ من الماعون، و هو النفع، و بمثل ما قاله الزجاج قال الفراء. يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ قال الزّجّاج: هذه مخاطبة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و دلّ الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا. و قيل: إن هذه المقالة خوطب بها كل نبىّ، لأن هذه طريقتهم التى ينبغى لهم الكون عليها، فيكون المعنى: و قلنا يا أيها الرسل خطابا بكل واحد على انفراده لاختلاف أزمنتهم. و قال ابن جرير: إن الخطاب لعيسى. و قال الفراء: هو كما تقول للرجل الواحد كفّوا عنا. و الطيبات: ما يستطاب و يستلذّ، و قيل: هى الحلال، و قيل: هى ما جمع الوصفين المذكورين. ثم بعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات أمرهم بالعمل الصالح فقال: وَ اعْمَلُوا صالِحاً أى:

عملا صالحا و هو ما كان موافقا للشرع، ثم علّل هذا الأمر بقوله: إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ لا يخفى علىّ شىء منه، و إنى مجازيكم على حسب أعمالكم إن خيرا فخير، و إن شرّا فشرّ وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً هذا من جملة ما خوطب به الأنبياء، و المعنى: إن هذه ملتكم و شريعتكم أيها الرسل ملة واحدة، و شريعة متّحدة يجمعها أصل هو أعظم ما بعث اللّه به أنبياءه و أنزل فيه كتبه، و

هو دعاء جميع الأنبياء إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له. و قيل: المعنى: إن هذا الذى تقدّم ذكره هو دينكم و ملّتكم فالزموه، على أن المراد بالأمة هنا الدين، كما فى قوله: إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ* «٣»، و منه قول النابغة:
حلفت فلم أترك لنفسك ريبةو هل يأثمن ذو أمّة و هو طائع

---

(١). القصص: ۴٣.

(٢). الأنبياء: ٩١.

(٣). الزخرف: ٢٢.

قرئ بكسر إِنَ على الاستئناف المقرّر لما تقدّمه، و قرئ بفتحها و تشديدها. قال الخليل: هى فى موضع نصب لمّا زال الخافض، أى: أنا عالم بأن هذا دينكم الذى أمرتكم أن تؤمنوا به. و قال الفرّاء:
«أن» متعلقة بفعل مضمر، و تقديره: و اعلموا أن هذه أمتكم. و قال سيبويه: هى متعلقة ب «فاتقون»؛ و التقدير: فاتقون لأن أمتكم أمة واحدة. و الفاء فى فَاتَّقُونِ لترتيب الأمر بالتقوى على ما قبله من كونه ربكم المختصّ بالربوبية، أى: لا تفعلوا ما يوجب العقوبة عليكم منى بأن تشركوا بى غيرى، أو تخالفوا ما أمرتكم به أو نهيتكم عنه. ثم ذكر سبحانه ما وقع من الأمم من مخالفتهم لما أمرهم به الرسل، فقال: فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً و الفاء لترتيب عصيانهم على ما سبق من الأمر بالتقوى، و الضمير يرجع إلى ما يدلّ عليه لفظ الأمة، و المعنى: أنهم جعلوا دينهم مع اتّحاده قطعا متفرّقة مختلفة. قال المبرّد: زبرا: فرقا و قطعا مختلفة، واحدها زبور، و هى الفرقة و الطائفة، و مثله الزبرة و جمعها زبر، فوصف سبحانه الأمم بأنهم اختلفوا، فاتبعت فرقة التوراة، و فرقة الزبور، و فرقة الإنجيل، ثم حرّفوا و بدّلوا، و فرقة مشركة تبعوا ما رسمه لهم آباؤهم من الضلال. قرئ زُبُراً بضم الباء جمع زبور، و قرئ بفتحها، أى: قطعا كقطع الحديد كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ أى: كلّ فريق من هؤلاء المختلفين بما لديهم، أى: بما عندهم من الدين فرحون، أى:
معجبون به فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ أى: اتركهم فى جهلهم، فليسوا بأهل للهداية، و لا يضق صدرك بتأخير العذاب عنهم، فلكلّ شىء وقت. شبّه سبحانه ما هم فيه من الجهل بالماء الذى يغمر من دخل فيه، و الغمرة فى الأصل ما يغمرك و يعلوك، و أصله الستر، و الغمر: الماء الكثير لأنه يغطى الأرض، و غمر الرداء هو الذى يشمل الناس بالعطاء، و يقال للحقد الغمر، و المراد هنا: الحيرة و الغفلة و الضلالة، و الآية خارجة مخرج التهديد لهم، لا مخرج الأمر له صلّى اللّه عليه و سلّم بالكفّ عنهم، و معنى حَتَّى حِينٍ حتى يحضر وقت عذابهم بالقتل، أو حتى يموتوا على الكفر فيعذّبون فى النار أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ أى:
أ يحسبون إنما نعطيهم فى هذه الدنيا من الأموال و البنين نُسارِعُ به لَهُمْ فيما فيه خيرهم و إكرامهم، و الهمزة للإنكار، و الجواب عن هذا مقدّر يدلّ عليه قوله: بَلْ لا يَشْعُرُونَ لأنه عطف على مقدّر ينسحب إليه الكلام، أى: كلّا لا نفعل ذلك، بل هم لا يشعرون بشىء أصلا كالبهائم التى لا تفهم و لا تعقل، فإن ما خوّلناهم من النعم و أمددناهم به من الخيرات إنما هو استدراج لهم ليزدادوا إثما، كما قال سبحانه: إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً «١». قال الزجّاج: المعنى نسارع لهم به فى الخيرات، فحذفت به، و ما فى «إنما» موصولة، و الرابط هو هذا المحذوف. و قال الكسائى: إن إنما هنا حرف واحد فلا يحتاج إلى تقدير رابط.
قيل: يجوز الوقف على «بنين»، و قيل: لا يحسن لأن «يحسبون» يحتاج إلى مفعولين، فتمام المفعولين «فى الخيرات». قال ابن الأنبارى: و هذا خطأ لأن «ما» كافة. و قرأ أبو عبد الرحمن السّلمىّ و عبد الرحمن بن أبى بكرة «يسارع» بالياء التحتية على أن

فاعله ما يدلّ عليه «نمدّ»، و هو الإمداد، و يجوز أن يكون

---

(۱). آل عمران: ۱۷۸.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۷۷

المعنى: يسارع اللّه لهم. و قرأ الباقون نُسارِعُ بالنون. قال الثعلبى: و هذه القراءة هى الصواب لقوله «نمدّهم».

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا قال: يتبع بعضهم بعضا. و فى لفظ قال: بعضهم على إثر بعض. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً قال: ولدته من غير أب. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس آية قال: عبرة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ قال: الربوة: المستوية، و المعنى: الماء الجارى، و هو النهر الذى قال اللّه: قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا «۱». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ قال: هى المكان المرتفع من الأرض، و هو أحسن ما يكون فيه النبات ذاتِ قَرارٍ ذات خصب، و المعين: الماء الظاهر. و أخرج وكيع و الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و تمام الرازى و ابن عساكر- قال السيوطى: بسند صحيح، عن ابن عباس فى قوله: إِلى رَبْوَةٍ قال: أنبئنا أنها دمشق. و أخرج ابن عساكر عن عبد اللّه بن سلام مثله. و كذا أخرجه ابن أبى حاتم عنه. و أخرج ابن عساكر عن أبى أمامة مرفوعا نحوه، و إسناده ضعيف. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه و ابن عساكر عن مرة البهزى، سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «الرّبوة: الرملة». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم فى الكنى، و ابن عساكر عن أبى هريرة قال: هى الرملة من فلسطين. و أخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعا. و أخرج الطبرانى و ابن السكن و ابن مندة و أبو نعيم و ابن عساكر عن الأقرع ابن شفى العكى مرفوعا نحوه. و أخرج أحمد و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يا أيها الناس إن اللّه طيب لا يقبل إلا طيبا، و إن اللّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ و قال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ «۲» ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، و مطعمه حرام، و مشربه حرام، و ملبسه حرام، و غذى بالحرام يمدّ يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، فإنّى يستجاب لذلك». و أخرج سعيد بن منصور عن حفص الفزارى فى قوله: يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ قال: ذلك عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه. و أخرجه عبدان فى «الصحابة» عن حفص مرفوعا، و هو مرسل لأن حفصا تابعى.

---

(۱). مريم: ۲۴.

(۲). البقرة: ۱۷۲.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۷۸

[سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۵۷ الى ۶۷]

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (۵۷) وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (۵۸) وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (۵۹) وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ (۶۰) أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ هُمْ لَها سابِقُونَ (۶۱)

وَ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَ لَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۶۲) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا وَ لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ

ذلِکَ هُمْ لَها عامِلُونَ (۶۳) حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ (۶۴) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّکُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ (۶۵) قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ (۶۶)
مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ (۶۷)

لما نفى سبحانه الخيرات الحقيقيۀ عن الكفرۀ المتنعمين أتبع ذلک بذکر من هو أهل للخيرات عاجلا و آجلا فوصفهم بصفات أربع: الأولى قوله: إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ الإشفاق: الخوف، تقول أنا مشفق من هذا الأمر، أى: خائف. قيل: الإشفاق هو الخشيۀ، فظاهر ما فى الآيۀ التكرار. و أجيب بحمل الخشيۀ على العذاب، أى: من عذاب ربهم خائفون، و به قال الكلبى و مقاتل. و أجيب أيضا بحمل الإشفاق على ما هو أثر له، و هو الدوام على الطاعۀ، أى: الذين هم من خشيۀ ربهم دائمون على طاعته.

و أجيب أيضا بأن الإشفاق كمال الخوف فلا تكرار، و قيل: هو تكرار للتأكيد. و الصفۀ الثانيۀ قوله:

وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ قيل: المراد بالآيات هى التنزيليۀ، و قيل: هى التكوينيۀ، و قيل:

مجموعهما، قيل: و ليس المراد بالإيمان بها هو التصديق بوجودها فقط، فإن ذلک معلوم بالضرورۀ و لا يوجب المدح، بل المراد التصديق بكونها دلائل و أن مدلولها حق. و الصفۀ الثالثۀ قوله: وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ أى: يتركون الشرک تركا كليا ظاهرا و باطنا. و الصفۀ الرابعۀ قوله: وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ أى: يعطون ما أعطوا و قلوبهم خائفۀ من أجل ذلک الإعطاء يظنون أن ذلک لا ينجيهم من عذاب اللّه، و جملۀ وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أن قلوبهم خائفۀ أشدّ الخوف. قال الزّجّاج: قلوبهم خائفۀ لأنهم إلى ربهم راجعون، و سبب الوجل هو أن يخافوا أن لا يقبل منهم ذلک على الوجه المطلوب، لا مجرّد رجوعهم إليه سبحانه. و قيل: المعنى: أن من اعتقد الرجوع إلى الجزاء و الحساب و علم أن المجازى و المحاسب هو الربّ الذى لا تخفى عليه خافيۀ لم يخل من وجل.

قرأت عائشۀ و ابن عباس و النخعى «يأتون ما أتوا» مقصورا من الإتيان. قال الفراء: و لو صحّت هذه القراءۀ لم تخالف قراءۀ الجماعۀ، لأن من العرب من يلزم فى الهمز الألف فى كل الحالات. قال النحاس: معنى هذه القراءۀ يعملون ما عملوا و الإشارۀ بقوله: أُولئِكَ إلى المتّصفين بهذه الصفات، و معنى يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ يبادرون بها. قال الفرّاء و الزجّاج: ينافسون فيها، و قرئ «يسرعون». وَ هُمْ لَها سابِقُونَ اللام للتقويۀ، و المعنى: هم سابقون إياها، و قيل: اللام بمعنى إلى، كما فى قوله: بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها «۱» أى: أوحى إليها، و أنشد سيبويه قول الشاعر «۲»:

تجانف عن جوّ اليمامۀ ناقتىو ما قصدت من أهلها لسوائكا «۳»

أى: إلى سوائكا، و قيل: المفعول محذوف، و التقدير: و هم سابقون الناس لأجلها. ثم لما انجرّ الكلام إلى ذكر أعمال المكلفين ذكر لهما حكمين، الأوّل قوله: وَ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها الوسع: هو

---

(۱). الزلزلۀ: ۵.

(۲). هو الأعشى.

(۳). «تجانف»: تنحرف. «جو»: هو ما اتسع من الأوديۀ.

الطاقۀ، و قد تقدّم بيان هذا فى آخر سورۀ البقرۀ. و فى تفسير الوسع قولان: الأوّل: أنه الطاقۀ كما فسّره بذلک أهل اللغۀ. الثانى: أنه دون الطاقۀ، و به قال مقاتل و الضحّاک و الكلبى. و المعتزلۀ قالوا: لأن الوسع إنما سمّى وسعا لأنه يتسع على فاعله فعله و لا

يضيق عليه، فمن لم يستطع الجلوس فليوم إيماء، و من لم يستطع الصوم فليفطر. و هذه الجملة مستأنفة للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدّى إلى نيل الكرامات ببيان سهولته و كونه غير خارج عن حدّ الوسع و الطاقة، و أن ذلك عادة اللّه سبحانه فى تكليف عباده، و جملة وَ لَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِ من تمام ما قبلها من نفى التكليف بما فوق الوسع و المراد بالكتاب صحائف الأعمال، أى: عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل واحد من المكلفين على ما هى عليه، و معنى يَنْطِقُ بِالْحَقِ يظهر به الحق المطابق للواقع من دون زيادة و لا نقص، و مثله قوله سبحانه: هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «۱»، و فى هذا تهديد للعصاة و تأنيس للمطيعين من الحيف و الظلم. و قيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، فإنه قد كتب فيه كل شىء. و قيل: المراد بالكتاب: القرآن، و الأوّل أولى. و فى هذه الآية تشبيه للكتاب بمن يصدر عنه البيان بالنطق بلسانه، فإن الكتاب يعرب عما فيه كما يعرب الناطق المحق. و قوله: بِالْحَقِ يتعلّق بينطق، أو بمحذوف هو حال من فاعله، أى: ينطق ملتبسا بالحق، و جملة وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ مبينة لما قبلها من تفضّله و عدله فى جزاء عباده، أى: لا يظلمون بنقص ثواب أو بزيادة عقاب، و مثله قوله سبحانه: وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً «۲»، ثم أضرب سبحانه عن هذا فقال: بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا و الضمير للكفار، أى: بل قلوب الكفار فى غمرة لها عن هذا الكتاب الذى ينطق بالحق، أو عن الأمر الذى عليه المؤمنون، يقال: غمره الماء: إذا غطاه، و نهر غمر: يغطى من دخله؛ و المراد بها هنا الغطاء و الغفلة أو الحيرة و العمى، و قد تقدّم الكلام على الغمرة قريبا. وَ لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ قال قتادة و مجاهد: أى لهم خطايا لا بدّ أن يعملوها من دون الحق. و قال الحسن و ابن زيد: المعنى و لهم أعمال رديئة لم يعملوها من دون ما هم عليه لا بدّ أن يعملوها فيدخلون بها النار، فالإشارة بقوله: ذلِكَ إما إلى أعمال المؤمنين، أو إلى أعمال الكفار، أى: لهم أعمال من دون أعمال المؤمنين التى ذكرها اللّه، أو من دون أعمال الكفار التى تقدّم ذكرها من كون قلوبهم فى غفلة عظيمة ممّا ذكر، و هى فنون كفرهم و معاصيهم التى من جملتها ما سيأتى من طعنهم فى القرآن، قال الواحدى: إجماع المفسرين و أصحاب المعانى على أن هذا إخبار عمّا سيعملونه من أعمالهم الخبيثة التى كتبت عليهم لا بدّ لهم أن يعملوها، و جملة هُمْ لَها عامِلُونَ مقرّرة لما قبلها، أى: واجب عليهم أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم من الشقاوة لا محيص لهم عن ذلك. ثم رجع سبحانه إلى وصف الكفار فقال:

حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ حتى هذه هى التى يبتدأ بعدها الكلام، و الكلام هو الجملة الشرطية المذكورة، و هذه الجملة مبينة لما قبلها، و الضمير فى مترفيهم راجع إلى من تقدّم ذكره من الكفار، و المراد بالمترفين المتنعمين منهم، و هم الذين أمدّهم اللّه بما تقدّم ذكره من المال و البنين، أو المراد بهم الرؤساء منهم.

---

(۱). الجاثية: ۲۹.

(۲). الكهف: ۴۹.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۵۸۰

و المراد بالعذاب هو عذابهم بالسيف يوم بدر، أو بالجوع بدعاء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عليهم حيث قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، و اجعلها عليهم سنين كسنىّ يوسف». و قيل: المراد بالعذاب عذاب الآخرة، و رجّح هذا بأن ما يقع منهم من الجؤار إنما يكون عند عذاب الآخرة، لأنه الاستغاثة باللّه و لم يقع منهم ذلك يوم بدر و لا فى سنّى الجوع. و يجاب عنه بأن الجؤار فى اللغة الصراخ و الصياح. قال الجوهرى: الجؤار مثل الخوار، يقال: جأر الثور يجأر؛ أى صاح، و قد وقع منهم و من أهلهم و أولادهم عند ما عذبوا بالسيف يوم بدر، و بالجوع فى سنّى الجوع، و ليس الجؤار هاهنا مقيد بالجؤار الذى هو التضرّع بالدعاء حتى يتم ما ذكره ذلك القائل، و جملة إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ جواب الشرط، و إذا هى الفجائية، و المعنى: حتى إذا أخذنا

مترفيهم بالعذاب فاجؤوا بالصراخ، ثم أخبر سبحانه أنه يقال لهم حينئذ على جهة التبكيت لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ فالقول مضمر، و الجملة مسوقة لتبكيتهم و إقناطهم و قطع أطماعهم؛ و خصّص سبحانه المترفين مع أنّ العذاب لا حق بهم جميعا، واقع على مترفيهم و غير مترفيهم؛ لبيان أنهم بعد النعمة التى كانوا فيها صاروا على حالة تخالفها و تباينها، فانتقلوا من النعيم التامّ إلى الشقاء الخالص، و خصّ اليوم بالذكر للتهويل، و جملة إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ تعليل للنهى على الجوار، و المعنى: إنكم من عذابنا لا تمنعون و لا ينفعكم جزعكم. و قيل: المعنى:

إنكم لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم ممّا دهمكم من العذاب. ثم عدّد سبحانه عليهم قبائحهم توبيخا لهم فقال: قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ أى: فى الدنيا، و هى آيات القرآن فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ أى: ترجعون وراءكم، و أصل النكوص أن يرجع القهقرى، و منه قول الشاعر:

زعموا بأنّهم على سبل النّجاة و إنّما نكص على الأعقاب

و هو هنا استعار للإعراض عن الحق، و قرأ علىّ بن أبى طالب «على أدباركم» بدل عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكُصُونَ بضم الكاف، و على أعقابكم متعلّق بتنكصون، أو متعلّق بمحذوف وقع حالا من فاعل تنكصون مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ الضمير فى به راجع إلى البيت العتيق، و قيل: للحرم، و الذى سوّغ الإضمار قبل الذكر اشتهارهم بالاستكبار به و افتخارهم بولايته و القيام به، و كانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم و خدّامه. و إلى هذا ذهب جمهور المفسرين. و قيل: الضمير عائد إلى القرآن. و المعنى: إن سماعه يحدث لهم كبرا و طغيانا فلا يؤمنون به. قال ابن عطية: و هذا قول جيد. و قال النحّاس: القول الأوّل أولى و بينه بما ذكرنا. فعلى القول الأوّل يكون به متعلقا بمستكبرين، و على الثانى يكون متعلّقا ب سامِراً لأنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، و كان عامة سمرهم ذكر القرآن و الطعن فيه، و السامر كالحاضر فى الإطلاق على الجمع. قال الواحدى: السامر: الجماعة يسمرون بالليل، أى: يتحدّثون، و يجوز أن يتعلق بِهِ بقوله: تَهْجُرُونَ و الهجر بالفتح الهذيان، أى: تهذون فى شأن القرآن، و يجوز أن يكون من الهجر بالضم، و هو الفحش. و قرأ ابن مسعود و ابن عباس و ابن عمر و أبو حيوة «سمرا» بضم السين و فتح الميم مشدّدة، و قرأ زيد بن علىّ و أبو رجاء «سمارا» و رويت هذه القراءة عن ابن عباس، و انتصاب سامرا على الحال إما من فاعل تنكصون، أو من الضمير فى مستكبرين، و قيل هو مصدر جاء على لفظ الفاعل،

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۸۱

يقال قوم سامر، و منه قول الشاعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصّفاأنيس و لم يسمر بمكّة سامر

قال الراغب: و يقال سامر و سمار و سمر و سامرون. قرأ الجمهور تَهْجُرُونَ بفتح التاء المثناة من فوق و ضم الجيم. و قرأ نافع و ابن محيصن بضم التاء و كسر الجيم، من أهجر، أى: أفحش فى منطقه. و قرأ زيد ابن على و ابن محيصن و أبو نهيك بضم التاء و فتح الهاء و كسر الجيم مشدّدة، مضارع هجر بالتشديد. و قرأ ابن أبى عاصم كالجمهور إلا أنه بالياء التحتية، و فيه التفات.

و قد أخرج الفريابى و أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و ابن ماجة، و ابن أبى الدنيا فى نعت الخائفين، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن عائشة قالت:

قلت: يا رسول اللّه، قول اللّه: وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أهو الرجل يسرق و يزنى و يشرب الخمر و هو مع ذلك يخاف اللّه؟ قال: «لا، و لكنه الرجل يصوم و يتصدّق و يصلى، و هو مع ذلك يخاف اللّه أن لا يتقبل منه». و أخرج ابن أبى الدنيا و ابن جرير، و ابن الأنبارى فى المصاحف، و ابن جرير و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قالت عائشة: يا رسول اللّه، فذكر نحوه. و أخرج عبد الرزاق عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا قال: يعطون ما أعطوا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن

أبى حاتم عنه فى قوله: وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ قال: يعملون خائفين. و أخرج الفريابى و ابن جرير عن ابن عمر وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا قال: الزكاة. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر عن عائشة وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا قالت: هم الذين يخشون اللّه و يطيعونه. و أخرج عبد بن حميد عن ابن أبى مليكة قال: قالت عائشة: لأن تكون هذه الآية كما أقرأ أحبّ إلىّ من حمر النعم، فقال لها ابن عباس: ما هى قالت:

الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا و قد قدّمنا ذكر قراءتها و معناها. و أخرج سعيد بن منصور و ابن مردويه عنها عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قرأ: و الذين يأتون ما أتوا مقصورا من المجىء. و أخرج سعيد بن منصور و أحمد و عبد ابن حميد، و البخارى فى تاريخه، و ابن المنذر و ابن أبى شيبة، و ابن الأنبارى فى المصاحف، و الدارقطنى فى الأفراد، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن عبيد بن عمير أنه سأل عائشة كيف كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ هذه الآية وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا؟ قالت: أيتهما أحبّ إليك. قلت: و الذى نفسى بيده لأحدهما أحبّ إلىّ من الدنيا و ما فيها جميعا، قالت: أيهما؟ قلت: الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا فقالت: أشهد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرؤها كذلك، و كذلك أنزلت، و لكن الهجاء حرّف. و فى إسناده إسماعيل بن علىّ، و هو ضعيف. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ هُمْ لَها سابِقُونَ قال: سبقت لهم السعادة من اللّه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا يعنى بالغمرة الكفر و الشك وَ لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ يقول: أعمال سيئة دون الشرك هُمْ لَها عامِلُونَ قال: لا بدّ لهم أن يعملوها. و أخرج النسائى عنه حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ قال: هم أهل بدر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٨٢

أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ قال: يستغيثون، و فى قوله: فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ قال: تدبرون، و فى قوله: سامِراً تَهْجُرُونَ قال: تسمرون حول البيت و تقولون هجرا.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ قال: بحرم اللّه أنه لا يظهر عليهم فيه أحد. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أيضا سامِراً تَهْجُرُونَ قال: كانت قريش يتحلّقون حلقا يتحدّثون حول البيت. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ قال: كان المشركون يهجرون برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى القول فى سمرهم. و أخرج النسائى و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس قال:

إنّما كره السمر حين نزلت هذه الآية مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٦٨ الى ٨٣]

أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (٧٠) وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢)

وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ (٧٤) وَ لَوْ رَحِمْناهُمْ وَ كَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَ لَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)

وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (٧٨) وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قالُوا أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢)

لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَ آباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣)

قوله: أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ بيّن سبحانه أنّ سبب إقدامهم على الكفر هو أحد هذه الأمور الأربعة:

الأوّل عدم التدبر فى القرآن، فإنهم لو تدبروا معانيه لظهر لهم صدقه و آمنوا به و بما فيه، و الهمزة للإنكار و الفاء للعطف على مقدّر؛ أى: فعلوا ما فعلوا فلم يتدبروا، و المراد بالقول القرآن، و مثله: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ* «١». و الثانى: قوله: أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ «أم» هى المنقطعة، أى:

بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأوّلين؟ فكان ذلك سببا لاستنكارهم للقرآن، و المقصود تقرير أنه لم يأت آباءهم الأوّلين رسول، فلذلك أنكروه، و مثله قوله: لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ «٢» و قيل: إنه أتى آباءهم الأقدمين رسل أرسلهم اللّه إليهم. كما هى سنة اللّه سبحانه فى إرسال الرسل إلى عباده، فقد عرف هؤلاء ذلك، فكيف كذّبوا هذا القرآن. و قيل: المعنى: أم جاءهم من الأمن من عذاب

---

(١). النساء: ٨٢.

(٢). يس: ۶.

اللّه ما لم يأت آباءهم الأولين كإسماعيل و من بعده. و الثالث: قوله: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ و فى هذا إضراب و انتقال من التوبيخ بما تقدّم إلى التوبيخ بوجه آخر، أى: بل ألم يعرفوه بالأمانة و الصدق فأنكروه، و معلوم أنهم قد عرفوه بذلك. و الرابع: قوله: أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ و هذا أيضا انتقال من توبيخ إلى توبيخ، أى: بل أ تقولون به جنة، أى: جنون، مع أنهم قد علموا أنه أرجح الناس عقلا، و لكنه جاء بما يخالف هواهم، فدفعوه و جحدوه تعصّبا و حميّة. ثم أضرب سبحانه عن ذلك كلّه فقال: بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِ أى: ليس الأمر كما زعموا فى حق القرآن و الرسول، بل جاءهم ملتبسا بالحق، و الحق:

هو الدين القويم. وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ لما جبلوا عليه من التعصب، و الانحراف عن الصواب، و البعد عن الحق، فلذلك كرهوا هذا الحق الواضح الظاهر. و ظاهر النظم أن أقلّهم كانوا لا يكرهون الحق، و لكنهم لم يظهروا الإيمان خوفا من الكارهين له. و جملة وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ مستأنفة مسوقة لبيان أنه لو جاء الحق على ما يهوونه و يريدونه لكان ذلك مستلزما للفساد العظيم، و خروج نظام العالم عن الصلاح بالكلية، و هو معنى قوله: لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَ قال أبو صالح و ابن جريج و مقاتل و السدّى: الحق هو اللّه، و المعنى: لو جعل مع نفسه كما يحبون شريكا لفسدت السماوات و الأرض. و قال الفرّاء و الزّجّاج: يجوز أن يكون المراد بالحق القرآن، أى: لو نزل القرآن بما يحبون من الشرك لفسد نظام العالم. و قيل: المعنى: و لو كان الحق ما يقولون من اتحاد الآلهة مع اللّه لاختلفت الآلهة، و مثل ذلك قوله:

لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا «١» و قد ذهب إلى القول الأوّل الأكثرون، و لكنه يرد عليه أن المراد بالحق هنا هو الحق المذكور قبله فى قوله: بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِ و لا يصح أن يكون المراد به هنالك اللّه سبحانه، فالأولى تفسير الحق هنا و هناك بالصدق الصحيح من الدين الخالص من شرع اللّه، و المعنى: و لو ورد الحق متابعا لأهوائهم موافقا لفاسد مقاصدهم لحصل الفساد. و المراد بقوله: وَ مَنْ فِيهِنَ من فى السماوات و الأرض من المخلوقات. و قرأ ابن مسعود «و ما بينهما» و سبب فساد

المكلّفين من بنى آدم ظاهر، و هو ذنوبهم التى من جملتها الهوى المخالف للحق، و أما فساد ما عداهم فعلى وجه التبع؛ لأنهم مدبّرون فى الغالب بذوى العقول فلما فسدوا فسدوا. ثم ذكر سبحانه أن نزول القرآن عليهم من جملة الحق فقال: بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ و المراد بالذكر هنا القرآن، أى: بالكتاب الذى هو فخرهم و شرفهم، و مثله قوله: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ «۲» و المعنى: بل أتيناهم بفخرهم و شرفهم الذى كان يجب عليهم أن يقبلوه، و يقبلوا عليه. و قال قتادة: المعنى بذكرهم الذى ذكر فيه ثوابهم و عقابهم. و قيل: المعنى: بذكر ما لهم به حاجة من أمر الدين.

و قرأ ابن أبى إسحاق و عيسى بن عمر «أتيتهم» بتاء المتكلم. و قرأ أبو حيوة و الجحدرى «أتيتهم» بتاء الخطاب، أى: أتيتهم يا محمد. و قرأ عيسى بن عمر «بذكراهم» و قرأ قتادة «نذكرهم» بالنون و التشديد من التذكير، و تكون الجملة على هذه القراءة فى محل نصب على الحال، و قيل: الذكر: هو الوعظ و التحذير فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ أى: هم بما فعلوا من الاستكبار و النكوص عن هذا الذكر المختص بهم

---

(۱). الأنبياء: ۲۲.

(۲). الزخرف: ۴۴.

معرضون، لا يلتفتون إليه بحال من الأحوال، و فى هذا التركيب ما يدلّ على أن إعراضهم مختص بذلك لا يتجاوزه إلى غيره. ثم بيّن سبحانه أن دعوة نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم ليست مشوبة بأطماع الدنيا، فقال: أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً و «أم» هى المنقطعة، و المعنى: أم يزعمون أنك تسألهم خرجا تأخذه على الرسالة، و الخرج:

الأجر و الجعل، فتركوا الإيمان بك و بما جئت به لأجل ذلك، مع أنهم يعلمون أنك لم تسألهم ذلك و لا طلبته منهم فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ أى: فرزق ربك الذى يرزقك فى الدنيا، و أجره الذى يعطيكه فى الآخرة خير لك مما ذكر. قرأ حمزة و الكسائى و الأعمش و يحيى بن وثّاب «أم تسألهم خراجا» و قرأ الباقون «خرجا»، و كلّهم قرءوا فَخَراجُ إلا ابن عامر و أبا حيوة فإنهما قرأ: «فخرج» بغير ألف، و الخرج: هو الذى يكون مقابلا للدخل، يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك خرجا، و الخراج غالب فى الضريبة على الأرض. قال المبرد: الخرج المصدر، و الخراج الاسم. قال النضر بن شميل: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج و الخراج، فقال: الخراج: ما لزمك، و الخرج: ما تبرعت به. و روى عنه أنه قال: الخرج من الرّقاب، و الخراج من الأرض. وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من كون خراجه سبحانه خير. ثم لما أثبت سبحانه لرسوله من الأدلة الواضحة المقتضية لقبول ما جاء به، و نفى عنه أضداد ذلك، قال: وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أى: إلى طريق واضحة تشهد العقول بأنها مستقيمة غير معوجة، و الصراط فى اللغة: الطريق، فسمّى الدين طريقا لأنها تؤدّى إليه. ثم وصفهم سبحانه بأنهم على خلاف ذلك، فقال: وَ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ يقال: نكب عن الطريق ينكب نكوبا؛ إذا عدل عنه و مال إلى غيره، و النكوب و النكب: العدول و الميل، و منه النّكباء للريح بين ريحين، سمّيت بذلك لعدولها عن المهابّ، و «عن الصراط» متعلّق بناكبون؛ و المعنى: إن هؤلاء الموصوفين بعدم الإيمان بالآخرة عن ذلك الصراط أو جنس الصراط لعادلون عنه. ثم بيّن سبحانه أنهم مصرّون على الكفر لا يرجعون عنه بحال، فقال: وَ لَوْ رَحِمْناهُمْ وَ كَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ أى: من قحط و جدب لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ أى: لتمادوا فى طغيانهم و ضلالهم يَعْمَهُونَ يتردّدون و يتذبذبون و يخبطون، و أصل اللجاج: التمادى فى العناد، و منه اللجة بالفتح لتردّد الصوت، و لجة البحر: تردّد أمواجه، و لجة الليل: تردّد ظلامه. و قيل: المعنى: رددناهم إلى الدنيا و لم ندخلهم النار و امتحناهم للجّوا فى طغيانهم وَ لَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها. و العذاب: قيل هو

الجوع الـذى أصابهم فى سـنّى القحط، و قيل: المرض، و قيل: القتل يوم بـدر، و اختاره الزجّاج، و قيل: الموت، و قيل: المراد من أصابه العـذاب من الأمم الخاليـة فَمَا اسْـتَكانُوا لِرَبِّهِمْ أى: ما خضـعوا و لا تذلّلوا، بل أقاموا على ما كانوا فيه من التمرّد على اللّه و الانهماک فى معاصـيه وَ ما يَتَضَـرَّعُونَ أى: و ما يخشعون للّه فى الشدائد عند إصابتها لهم، و لا يدعونه لرفع ذلک حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَـذابٍ شَدِيـدٍ قيل: هو عذاب الآخرة، و قيل: قتلهم يوم بدر بالسـيف، و قيل: القحط الذى أصابهم، و قيل: فتح مكة إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ أى: متحيرون، لاـ يـدرون مـا يصـنعون، و الإبلاـس: التحير و الإياس من كل خير. و قرأ السّـلمى مبلسون بفتح اللام

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۸۵

من أبلسه، أى: أدخله فى الإبلاـس. و قـد تقـدّم فى الأنعـام. وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَـأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصـارَ امتنّ عليهم ببعض النعم الـتى أعطاهم، و هى نعمة السـمع و البصر وَ الْأَفْئِدَةَ فصارت هذه الأمور معهم ليسمعوا المواعظ، و ينظروا العبر، و يتفكروا بالأفئدة، فلم ينتفعوا بشـىء من ذلک لإصـرارهم على الكفر و بعـدهم عن الحق، و لم يشـكروه على ذلک، و لهذا قال: قَلِيلًا ما تَشْـكُرُونَ أى: شكرا قليلا حقيرا غير معتـدّ به باعتبار تلک النعم الجليلة. و قيل: المعنى: أنهم لا يشـكرونه ألبتة، لا أن لهم شـكرا قليلا. كما يقال لجاحد النعمة: ما أقلّ شـكره! أى: لا يشـكره، و مثل هذه الآية قوله: فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ «۱». وَ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ أى: بثّكم فيها كما تبثّ الحبوب لتنبت، و قد تقدّم تحقيقه وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ أى: تجمعون يوم القيامة بعد تفرّقكم وَ هُوَ الَّذِى يُحْيِي وَ يُمِيتُ على جهـة الانفراد و الاسـتقلال، و فى هـذا تـذكير بنعمة الحياة، و بيان الانتقال منها إلى الدار الآخرة وَ لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ قال الفراء: هو الذى جعلهما مختلفين يتعاقبان و يختلفان فى السواد و البياض، و قيل:

اختلافهما: نقصان أحـدهما و زيادة الآخر، و قيل: تكرّرهما يوما بعـد يوم و ليلـة بعـد ليلة أَ فَلا تَعْقِلُونَ كنه قدرته و تتفكرون فى ذلک. ثم بيّن سبحانه أنه لا شبهة لهم فى إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد المبنىّ على مجرد الاستبعاد، فقال: بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ أى: آباؤهم و الموافقون لهم فى دينهم. ثم بيّن ما قاله الأوّلون فقال: قالُوا أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ فهذا مجرّد اسـتبعاد لم يتعلّقوا فيه بشىء من الشبه، ثم كملوا ذلک القول بقولهم: لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَ آباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ أى: وعدنا هـذا البعث و وعـده آباؤنا الكائنون من قبلنا فلم نصـدّقه كما لم يصـدقه من قبلنا، ثم صـرّحوا بالتكـذيب و فرّوا إلى مجرد الزعم الباطـل، فقالوا: إِنْ هـذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى: ما هـذا إلا أكاذيب الأوّلين التى سـطروها فى الكتب، جمع أسـطورة كأحدوثـة، و الأساطير: الأباطيل و التّرّهات و الكذب.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى صالح فى قوله: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ قال: عرفوه و لكنهم حسـدوه. و فى قوله: وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ قال: الحق اللّه عزّ و جلّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عن ابن عباس فى قوله: بَلْ أَتَيْناهُمْ بِـذِكْرِهِمْ قال: بيّنّا لهم. و أخرجوا عنه فى قوله: عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ قال: عن الحقّ لحائدون. و أخرج النسائى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: جاء أبو سـفيان إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا محمد أنشدک اللّه و الرحم، فقد أكلنا العلهز، يعنى: الوبر بالدم، فأنزل اللّه وَ لَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ و أصل الحديث فى الصحيحين «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سـلّم دعا على قريش حين اسـتعصوا فقال: اللهم أعنّى عليهم بسـبع كسـبع يوسف» الحـديث. و أخرج ابن جرير، و أبو نعيم فى المعرفة، و البيهقى فى الدّلائل، عن ابن عباس أن ابن أثال الحنفى لما أتى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم فأسلم و هو أسير فخلى سبيله لحق باليمامة، فحال بين أهل مكة و بين الميرة

(١). الأحقاف: ٢۶.

فتح القدير، ج٣، ص: ۵٨۶

من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز، فجاء أبو سفيان إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: أليس تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى. قال: فقد قتلت الآباء بالسيف و الأبناء بالجوع، فأنزل اللّه وَ لَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ الآية. و أخرج العسكرى فى المواعظ، عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ قال: أى: لم يتواضعوا فى الدعاء و لو يخضعوا، و لو خضعوا للّه لاستجاب لهم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ قال: قد مضى، كان يوم بدر.

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٨۴ الى ٩٨]

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨۴) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (٨۵) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨۶) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ (٩٣)

رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩۴) وَ إِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ (٩۵) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ (٩۶) وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ (٩٧) وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨)

أمر اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يسأل الكفار عن أمور لا عذر لهم من الاعتراف فيها، ثم أمره أن ينكر عليهم بعد الاعتراف منهم و يوبّخهم، فقال: قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيها أى: قل يا محمد لأهل مكة هذه المقالة، و المراد بمن فى الأرض الخلق جميعا، و عبّر عنهم بمن تغليبا للعقلاء إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شيئا من العلم، و جواب الشرط محذوف، أى: إن كنتم تعلمون فأخبرونى. و فى هذا تلويح بجهلهم و فرط غباوتهم سَيَقُولُونَ لِلَّهِ أى: لا بدّ لهم أن يقولوا ذلك، لأنه معلوم ببديهة العقل، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم بعد اعترافهم أَ فَلا تَذَكَّرُونَ ترغيبا لهم فى التدبّر و إمعان النظر و الفكر، فإن ذلك مما يقودهم إلى اتباع الحق و ترك الباطل، لأن من قدر على ذلك ابتداء قدر على إحياء الموتى قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ- سَيَقُولُونَ لِلَّهِ جاء سبحانه باللام نظرا إلى معنى السؤال، فإن قولك: من ربه، و لمن هو فى معنى واحد، كقولك: من ربّ هذه الدار؟ فيقال: زيد، و يقال: لزيد. و قرأ أبو عمرو و أهل العراق: «سيقولون اللّه» بغير لام نظرا إلى لفظ السؤال، و هذه القراءة أوضح من قراءة الباقين باللام، و لكنه يؤيد قراءة الجمهور أنها مكتوبة فى جميع المصاحف باللام بدون ألف، و هكذا قرأ الجمهور فى قوله: قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ- سَيَقُولُونَ لِلَّهِ باللام نظرا إلى معنى السؤال كما سلف. و قرأ أبو عمرو و أهل العراق بغير لام نظرا إلى لفظ السؤال، و مثل هذا قول الشاعر:

فتح القدير، ج٣، ص: ۵٨٧ إذ قيل من ربّ المزالف و القرى و ربّ الجياد الجرد قلت لخالد

أى: لمن المزالف. و الملكوت: الملك، و زيادة التاء للمبالغة، و نحو جبروت و رهبوت، و معنى وَ هُوَ يُجِيرُ أنه يغيث غيره إذا شاء و يمنعه وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ أى: لا يمنع أحدا أحدا من عذاب اللّه و لا يقدر على نصره و إغاثته، يقال: أجرت فلانا؛ إذا استغاث بك فحميته، و أجرت عليه: إذا حميت عنه قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ قال الفرّاء و الزجّاج: أى: تصرفون عن الحق و تخدعون، و المعنى: كيف يخيل لكم الحق باطلا و الصحيح فاسدا، و الخادع لهم هو الشّيطان أو الهوى أو كلاهما. ثم بيّن سبحانه أنه قد بالغ فى

الاحتجـاج عليهم فقال: بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِ أى: الأمر الواضـح الـذى يحقّ اتباعه وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فيما ينسـبونه إلى اللّه سـبحانه من الولد و الشـريك، ثم نفاهما عن نفسه فقال: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ «من» فى الموضعين زائدة لتأكيد النفى. ثم بيّن سبحانه ما يستلزمه ما يدّعيه الكفار من إثبات الشريك، فقال: إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ و فى الكلام حذف تقديره: لو كان مع اللّه آلهـة لا نفرد كـل إله بخلقه، و اسـتبدّ به، و امتاز ملكه عن ملك الآخر، و وقع بينهم التطالب و التحارب و التغالب وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ أى: غلب القوىّ على الضـعيف، و قهره، و أخذ ملكه، كعادة الملوك من بنى آدم، و حينئذ فذلك الضعيف المغلوب لا يسـتحق أن يكون إلها، و إذا تقرّر عـدم إمكان المشاركـة فى ذلك، و أنه لا يقوم به إلا واحـد، تعين أن يكون هـذا الواحـد هو اللّه سـبحانه، و هـذا الـدليل كمـا دلّ على نفى الشـريك فـإنه يـدلّ على نفى الولـد، لأـن للّه عزّ و جلّ عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أى: هـو مختصّ بعلم الغيب و الشـهادة، و أمـا غيره فهو و إن علم الشـهادة لا يعلم الغيب. قرأ نـافع و أبو بكر و حمزة و الكسـائى عـالم بالرفع على أنه خبر مبتـدأ محـذوف، أى: هو عالم. و قرأ الباقون بالجرّ على أنه صـفة للّه أو بـدل منه. و روى عن يعقوب أنه كـان يخفض إذا وصـل و يرفع إذا ابتـدأ فَتَعـالى اللّه عَمَّا يُشْرِكُونَ معطوف على معنى مـا تقـدّم كأنه قال: علم الغيب فتعالى، كقولك: زيد شجاع فعظمت منزلته، أى: شجع فعظمت، أو يكون على إضمار القول، أى: أقول فتعالى اللّه، و المعنى: أنه سبحانه متعال عن أن يكون له شريك فى الملك قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ أى:

إن كان و لا بدّ أن ترينى ما يوعدون من العذاب المستأصل لهم رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أى:

قل يا ربّ فلا تجعلنى. قال الزجاج: أى إن أنزلت بهم النقمة يا ربّ فاجعلنى خارجا عنهم، و معنى كلامه هذا أن النداء معترض، و «ما» فى «إما» زائدة، أى: قل ربّ إن ترينى، و الجواب: «فلا تجعلنى»، و ذكر الربّ مرّتين مرّة قبل الشرط، و مرّة بعده مبالغة فى التضـرّع. و أمره اللّه أن يسأله أن لا يجعله فى القوم الظالمين مع أن الأنبياء لا يكونون مع القوم الظالمين أبدا، تعليما له صـلّى اللّه عليه و سـلّم من ربه كيف يتواضع. و قيل: يهضم نفسه، أو لكون شؤم الكفر قـد يلحق من لم يكن من أهله كقوله: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً «١» ثم لما كان المشـركون ينكرون العذاب و يسخرون من النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إذا ذكر لهم ذلك؛ أكد سبحانه وقوعه بقوله: وَ إِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ أى: أن اللّه سبحانه قادر على أن يرى رسوله

---

(١). الأنفال: ٢٥.

عذابهم، و لكنه يؤخّره لعلمه بأن بعضهم سيؤمن، أو لكون اللّه سبحانه لا يعذّبهم و الرسول فيهم، و قيل:

قد أراه اللّه سـبحانه ذلك يوم بدر و يوم فتح مكة، ثم أمره سـبحانه بالصبر إلى أن ينقضى الأجل المضروب للعذاب، فقال: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ أى: ادفع بالخصـلة التى هى أحسن من غيرهـا، و هى الصـفح و الإعراض عما يفعله الكافر من الخصـلة السيئة، و هى الشـرك. قيل: و هذه الآية منسوخة بآية السيف، و قيل: هى محكمة فى حقّ هذه الأمة فيما بينهم، منسوخة فى حق الكفار نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ أى: ما يصـفونك به مما أنت على خلافه، أو بما يصفون من الشرك و التكذيب، و فى هذا وعيد لهم بالعقوبة.

ثم علّمه سـبحانه ما يقوّيه على ما أرشده إليه من العفو و الصـفح و مقابلة السيئة بالحسنة، فقال: وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ الهمزات جمع همزة، و هى فى اللغـة الدفعة باليـد أو بغيرهـا، و همزات الشـياطين: نزغـاتهم و وساوسـهم كمـا قـاله المفسرون، يقال: همزه و لمزه و نخسه، أى: دفعه؛ و قيل: الهمز:

كلام من وراء القفا، و اللمز: المواجهة، و فيه إرشاد لهذه الأمة إلى التعوّذ من الشيطان، و من همزات الشياطين سورات الغضب

التى لا يملك الإنسان فيها نفسه وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ أمره سبحانه أن يتعوّذ باللّه من حضور الشياطين بعد ما أمره أن يتعوّذ من همزاتهم، و المعنى: و أعوذ بك أن يكونوا معى فى حال من الأحوال، فإنهم إذا حضروا الإنسان لم يكن لهم عمل إلا الوسوسة و الإغراء على الشرّ و الصرف عن الخير.

و فى قراءة أبيّ «و قل ربّ عائذا بك من همزات الشياطين- و عائذا بك ربّ أن يحضرون».

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ قال: خزائن كل شىء. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ يقول: أعرض عن أذاهم إياك. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عطاء ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ قال: بالسلام. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الحلية، عن أنس فى قوله: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ قال: قول الرجل لأخيه ما ليس فيه، فيقول: إن كنت كاذبا فأنا أسأل اللّه أن يغفر لك، و إن كنت صادقا فأنا أسأل اللّه أن يغفر لى. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و أبو داود، و الترمذى و حسّنه، و النسائى، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعلّمنا كلمات نقولهنّ عند النوم من الفزع: بسم اللّه، أعوذ بكلمات اللّه التامة من غضبه و عقابه و شرّ عباده، و من همزات الشياطين و أن يحضرون» قال: فكان عبد اللّه بن عمرو يعلّمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، و من كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلّقها فى عنقه. و فى إسناده محمد بن إسحاق، و فيه مقال معروف. و أخرج أحمد عن خالد بن الوليد أنه قال: «يا رسول اللّه إنى أجد وحشة، قال: إذا أخذت مضجعك فقل: أعوذ بكلمات اللّه التامة من غضبه و عقابه و شرّ عباده، و من همزات الشياطين و أن يحضرون، فإنه لا يحضرك، و بالحريّ أن لا يضرّك».

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٨٩

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٩٩ الى ١١٨]

حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ (١٠٣)

تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَ هُمْ فِيها كالِحُونَ (١٠٤) أَ لَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَ كُنَّا قَوْماً ضالِّينَ (١٠٦) رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ (١٠٧) قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)

إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ (١١١) قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ (١١٣)

قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (١١٧) وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)

حَتَّى هى الابتدائية، دخلت على الجملة الشرطية، و هى مع ذلك غاية لما قبلها، متعلقة بقوله لكاذبون و قيل بيصفون، و المراد بمجيء الموت مجيء علاماته قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ أى: قال ذلك الواحد الذى حضره الموت تحسرا و تحزنا على ما فرط منه ربّ ارجعون، أى: ردّونى إلى الدنيا، و إنما قال ارجعون بضمير الجماعة لتعظيم المخاطب. و قيل: هو على معنى تكرير الفعل، أى:

ارجعنى ارجعنى ارجعنى، و مثله قوله: أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ «۱» قال المازنى: معناه ألق ألق، و هكذا قيل فى قول امرئ القيس:

قفا نبک من ذکری حبیب و منزل «۲» ....

و منه قول الحجّاج: يا حرسى اضربا عنقه.

و منه قول الشاعر: و لو شئت حرمت النساء سواكم و قول الآخر: ألا فارحمونى يا إله محمد و قيل: إنهم لما استغاثوا باللّه قال قائلهم: ربّ، ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال: ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً أى: أعمل عملا صالحا فى الدنيا إذا رجعت إليها من الإيمان و ما يتبعه من أعمال الخير، و لما تمنى أن يرجع ليعمل ردّ اللّه عليه ذلك بقوله: كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها فجاء بكلمة الردع و الزجر، و الضمير فى «إنها» يرجع إلى قوله: رَبِّ ارْجِعُونِ أى: إن هذه الكلمة هو قائلها لا محالة، و ليس

---

(۱). ق: ۲۴.

(۲). و عجزه: بسقط اللّوى بين الدّخول فحومل.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۹۰

الأمر على ما يظنه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا، أو المعنى: أنه أجيب إلى ذلك لما حصل منه الوفاء، كما فى قوله: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ «۱» و قيل: إن الضمير فى «قائلها» يرجع إلى اللّه، أى: لا خلف فى خبره، و قد أخبرنا بأنه لا يؤخّر نفسا إذا جاء أجلها وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ أى: من أمامهم و بين أيديهم، و البرزخ: هو الحاجز بين الشيئين. قاله الجوهرى.

و اختلف فى معنى الآية، فقال الضحّاك و مجاهد و ابن زيد: حاجز بين الموت و البعث. و قال الكلبى:

هو الأجل ما بين النفختين، و بينهما أربعون سنة. و قال السدّى: هو الأجل، و إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ هو يوم القيامة فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ قيل: هذه هى النفخة الأولى، و قيل: الثانية، و هذا أولى، و هى النفخة التى تقع بين البعث و النشور؛ و قيل: المعنى: فإذا نفخ فى الأجساد أرواحها، على أن الصور جمع صورة، لا القرن، و يدلّ على هذا قراءة ابن عباس و الحسن «الصّور» بفتح الواو مع ضم الصاد؛ جمع صورة. و قرأ أبو رزين بفتح الصاد و الواو. و قرأ الباقون بضم الصاد و سكون الواو، و هو القرن الذى ينفخ فيه فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ أى: لا يتفاخرون بالأنساب و يذكرونها لما هم فيه فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ أى:

لا يتفاخرون بالأنساب و يذكرونها لما هم فيه من الحيرة و الدهشة وَ لا يَتَساءَلُونَ أى: لا يسأل بعضهم بعضا، فإن لهم إذ ذاك شغلا شاغلا، و منه قوله تعالى: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ- وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ- وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ «۲»، و قوله: وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً «۳»، و لا ينافى هذا ما فى الآية الأخرى من قوله: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ «۴» فإن ذلك محمول على اختلاف المواقف يوم القيامة، فالإثبات باعتبار بعضها، و النفى باعتبار بعض آخر كما قررناه فى نظائر هذا، مما أثبت تارة و نفى أخرى فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ أى:

موزوناته من أعماله الصالحة فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أى: الفائزون بمطالبهم المحبوبة، النّاجون من الأمور التى يخافونها وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ و هى أعماله الصالحة فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ أى:

ضيعوها و تركوا ما ينفعها فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ هذا بدل من صلة الموصول، أو خبر ثان لاسم الإشارة، و قد تقدّم الكلام على هذه الآية مستوفى فلا نعيده. و جملة تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ مستأنفة، و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال، أو تكون خبرا آخر لأولئك، و اللفح: الإحراق، يقال: لفحته النار؛ إذا أحرقته، و لفحته بالسيف؛ إذا ضربته «۵»، و خصّ الوجوه لأنها أشرف الأعضاء. وَ هُمْ فِيها كالِحُونَ هذه الجملة فى محل نصب على الحال، و الكالح: الذى قد تشمّرت شفتاه و بدت أسنانه، قاله الزجّاج. و دهر كالح: أى شديد. قال أهل اللغة: الكلوح: تكنيز فى عبوس. و جملة أَ لَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ هى على إضمار القول، أى:

يقال لهم ذلک توبيخا و تقريعا، أی: ألم تكن آياتی تتلی عليكم فی الدنيا فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ و جملة قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا مستأنفة جواب سؤال مقدّر، أی: غلبت علينا لذّاتنا و شهواتنا، فسمّی ذلک شقوة؛ لأنه يؤول إلی الشقاء. قرأ أهل المدينة و أبو عمرو و عاصم شِقْوَتُنا

---

(١). الأنعام: ٢٨.

(٢). عبس: ٣٤- ٣٦.

(٣). المعارج: ١٠.

(٤). الصافات: ٢٧.

(٥). أی: ضربة خفيفة.

و قرأ الباقون «شقاوتنا» و هذه القراءة مروية عن ابن مسعود و الحسن. وَ كُنَّا قَوْماً ضالِّينَ أی: بسبب ذلک، فإنهم ضلّوا عن الحق بتلک الشقوة. ثم طلبوا ما لا يجابون إليه، فقالوا: رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ أی: فإن عدنا إلی ما كنّا عليه من الكفر و عدم الإيمان فإنا ظالمون لأنفسنا بالعود إلی ذلک، فأجاب اللّه عليهم بقوله: قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ أی: اسكنوا فی جهنم. قال المبرّد:

الخسء: إبعاد بمكروه، و قال الزجاج: تباعدوا تباعد سخط و أبعدوا بعد الكلب. فالمعنی علی هذا: أبعدوا فی جهنم، كما يقال للكلب اخسأ: أی ابعد، خسأت الكلب خسأ؛ طردته، و لا تكلمون فی إخراجكم من النار و رجوعكم إلی الدنيا، أو فی رفع العذاب عنكم؛ و قيل المعنی: لا تكلمون رأسا. ثم علّل ذلک بقوله: إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ و هم المؤمنون، و قيل: الصحابة، يقولون: رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ قرأ الجمهور إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ بكسر إن استئنافا تعليليا، و قرأ أبیّ بفتحها فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا قرأ نافع و حمزة و الكسائی بضمّ السين. و قرأ الباقون بكسرها. و فرّق بينهما أبو عمرو فجعل الكسر من جهة التهزؤ، و الضم من جهة السّخرة. قال النحاس: و لا يعرف هذا الفرق الخليل و لا سيبويه و لا الكسائی و لا الفرّاء، و حكی الثعلبی عن الكسائی: أن الكسر بمعنی الاستهزاء و السخرية بالقول، و الضم بمعنی التسخير و الاستبعاد بالفعل حَتَّی أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي أی: اتخذتموهم سخريا إلی هذه الغاية، فإنهم نسوا ذكر اللّه لشدّة اشتغالهم بالاستهزاء وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ فی الدنيا، و المعنی:

حتی نسيتم ذكری باشتغالكم بالسخرية و الضحک، فنسب ذلک إلی عباده المؤمنين لكونهم السبب، و جملة إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا مستأنفة لتقرير ما سبق، و الباء فی «بما صبروا» للسببية أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ قرأ حمزة و الكسائی بكسر الهمزة علی الاستئناف، و قرأ الباقون بالفتح، أی: لأنهم الفائزون، و يجوز أن يكون منصوبا علی أنه المفعول الثانی للفعل قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ القائل هو اللّه عزّ و جلّ و تذكيرا لهم كم لبثوا؟ لما سألوا الرجوع إلی الدنيا بعد أن أخبرهم بأن ذلک غير كائن كما فی قوله:

اخسئوا فيها، و المراد بالأرض هی الأرض التی طلبوا الرجوع إليها، و يحتمل أن يكون السؤال عن جميع ما لبثوه فی الحياة و فی القبور، و قيل: هو سؤال عن مدة لبثهم فی القبور لقوله: «فی الأرض»، و لم يقل علی الأرض، و ردّ بمثل قوله تعالی: وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ* «١» و انتصاب عدد سنين علی التمييز، لما فی كم من الإبهام، و سنين بفتح النون علی أنها نون الجمع، و من العرب من يخفضها و ينوّنها قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ استقصروا مدّة لبثهم لما هم فيه من العذاب الشديد. و قيل: إن العذاب رفع

عنهم بين النفختين، فنسوا ما كانوا فيه من العذاب فى قبورهم؛ و قيل: أنساهم اللّه ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى إلى النفخة الثانية. ثم لما عرفوا ما أصابهم من النسيان لشدّة ما هم فيه من الهول العظيم أحالوا على غيرهم فقالوا:
فَسْئَلِ الْعادِّينَ أى: المتمكّنين من معرفة العدد، و هم الملائكة؛ لأنهم الحفظة العارفون بأعمال العباد و أعمارهم، و قيل: المعنى: فاسأل الحاسبين العارفين بالحساب من الناس. و قرأ ابن كثير و حمزة و الكسائى

---

(١). الأعراف ٥٦ و ٨٥.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٩٢

«قل كم لبثتم فى الأرض» على الأمر، و المعنى: قل يا محمد للكفار، أو يكون أمرا للملك بسؤالهم، أو التقدير: قولوا كم لبثتم، فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد، و المراد الجماعة. و قرأ الباقون قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ على أن القائل هو اللّه عزّ و جلّ أو الملك قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا قرأ حمزة و الكسائى «قل إن لبثتم» كما فى الآية الأولى، و قرأ الباقون (قال) على الخبر، و قد تقدّم توجيه القراءتين، أى: ما لبثتم فى الأرض إلا لبثا قليلا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شيئا من العلم، و الجواب محذوف، أى: لو كنتم تعلمون لعلمتم اليوم قلّة لبثكم فى الأرض أو فى القبور أو فيهما، فكل ذلك قليل بالنسبة إلى لبثهم. ثم زاد سبحانه فى توبيخهم فقال:
أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً الهمزة للتوبيخ و التقرير، و الفاء للعطف على مقدّر كما تقدّم بيانه فى مواضع، أى: ألم تعلموا شيئا فحسبتم، و انتصاب عبثا على الحال، أى: عابثين، أو على العلة، أى: للعبث. قال بالأوّل سيبويه و قطرب، و بالثانى أبو عبيدة. و قال أيضا: يجوز أن يكون منتصبا على المصدرية، و جملة وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ معطوفة على «أنما خلقناكم عبثا»، و العبث فى اللغة: اللعب، يقال: عبث يعبث عبثا فهو عابث، أى: لاعب، و أصله من قولهم عبثت الأقط: أى خلطته، و المعنى: أ فحسبتم أن خلقنا لكم للإهمال كما خلقت البهائم و لا ثواب و لا عقاب، و أنكم إلينا لا ترجعون بالبعث و النشور فنجازيكم بأعمالكم. قرأ حمزة و الكسائى «ترجعون» بفتح الفوقية و كسر الجيم مبنيا للفاعل، و قرأ الباقون على البناء للمفعول. و قيل: إنه يجوز عطف و أنكم إلينا لا ترجعون على عبثا، على معنى: إنما خلقناكم للعبث و لعدم الرجوع. ثم نزّه سبحانه نفسه فقال: فَتَعالَى اللَّهُ أى: تنزّه عن الأولاد و الشركاء أو عن أن يخلق شيئا عبثا، أو عن جميع ذلك، و هو الْمَلِكُ الذى يحقّ له الملك على الإطلاق الْحَقُ فى جميع أفعاله و أقواله لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ فكيف لا يكون إلها و ربا، لما هو دون العرش الكريم من المخلوقات، و وصف العرش بالكريم لنزول الرحمة و الخير منه، أو باعتبار من استوى عليه، كما يقال بيت كريم؛ إذا كان ساكنوه كراما قرأ أبو جعفر و ابن محيصن و إسماعيل و أبان بن ثعلب الكريم بالرفع على أنه نعت لربّ، و قرأ الباقون بالجرّ على أنه نعت للعرش. ثم زيف ما عليه أهل الشرك توبيخا لهم و تقريعا فقال: وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ يعبده مع اللّه أو يعبده وحده، و جملة لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فى محل نصب صفة لقوله إلها، و هى صفة لازمة جيء بها للتأكيد، كقوله: يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ «١» و البرهان: الحجة الواضحة و الدليل الواضح، و جواب الشرط قوله: فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ و جملة لا برهان له به معترضة بين الشرط و الجزاء، كقولك: من أحسن إلى زيد لا أحقّ منه بالإحسان، فاللّه مثيبه، و قيل: إن جواب الشرط قوله:
لا برهان له به على حذف فاء الجزاء، كقول الشاعر:
من يفعل الحسنات اللّه يشكرها إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ قرأ الحسن و قتادة بفتح «أن» على التعليل، و قرأ الباقون بالكسر على الاستئناف، و قرأ الحسن «لا يفلح» بفتح الياء و اللام مضارع فلح بمعنى أفلح. ثم ختم هذه السورة بتعليم

---

(١). الأنعام: ٣٨.

رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يدعوه بالمغفرة و الرحمة فقال: وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ أمره سبحانه بالاستغفار لتقتدى به أمته، و قيل: أمره بالاستغفار لأمته. و قد تقدّم بيان كونه أرحم الرّاحمين، و وجه اتصال هذا بما قبله أنه سبحانه لما شرح أحوال الكفار أمر بالانقطاع إليه و الالتجاء إلى غفرانه و رحمته.

و قد أخرج ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت، و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: إذا أدخل الكافر فى قبره فيرى مقعده من النار قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ أتوب أعمل صالحا، فيقال له: قد عمّرت ما كنت معمّرا، فيضيق عليه قبره، فهو كالمنهوش ينازع «۱» و يفزع، تهوى إليه حيات الأرض و عقاربها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج قال: زعموا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال لعائشة: إن المؤمن إذا عاين الملائكة قالوا: نرجعك إلى الدنيا، فيقول: إلى دار الهموم و الأحزان، بل قدما إلى اللّه؛ و أما الكافر فيقولون له: نرجعك، فيقول: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ هو مرسل. و أخرج الديلمى عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له كل شىء يمنعه عن الحقّ فيجعل بين عينيه، فعند ذلك يقول: ربّ ارجعون لعلّى أعمل صالحا فيما تركت». و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات، من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله: أَعْمَلُ صالِحاً قال: أقول لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن عائشة قالت: ويل لأهل المعاصى من أهل القبور، يدخل عليهم فى قبورهم حيات سود، حية عند رأسه، و حية عند رجليه، يقرصانه حتى تلتقيا فى وسطه، فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال اللّه: وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ قال: حين ينفخ فى الصور، فلا يبقى حىّ إلا اللّه. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أنه سئل عن قوله: فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ و قوله: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ* «۲» فقال: إنها مواقف، فأما الموقف الذى لا أنساب بينهم و لا يتساءلون عند الصعقة الأولى لا أنساب بينهم فيها إذا صعقوا، فإذا كانت النفخة الآخرة فإذا هم قيام يتساءلون. و أخرج ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، عنه أيضا أنه سئل عن الآيتين فقال: أما قوله: وَ لا يَتَساءَلُونَ فهذا فى النفخة الأولى حين لا يبقى على الأرض شىء، و أما قوله: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ فإنهم لما دخلوا الجنة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون. و أخرج ابن المبارك فى الزهد، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الحلية، و ابن عساكر عن ابن مسعود قال: إذا كان يوم القيامة جمع اللّه الأوّلين و الآخرين. و فى لفظ: يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة على رؤوس الأوّلين و الآخرين، ثم ينادى مناد: ألا إن هذا فلان بن فلان، فمن كان له حق قبله فليأت إلى حقه. و فى لفظ: من كان له مظلمة فليجئ فليأخذ حقه، فيفرح و اللّه المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته و إن كان صغيرا، و مصداق ذلك فى كتاب اللّه فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ

---

(۱). فى الدر المنثور «ينام» (۶/ ۱۱۴)

(۲). الصافات: ۲۷.

و أخرج أحمد و الطبرانى و الحاكم، و البيهقى فى سننه، عن المسور بن مخرمة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبى و سببى و صهرى». و أخرج البزار و الطبرانى و أبو نعيم و الحاكم، و الضياء فى المختارة، عن عمر بن الخطاب: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «كلّ سبب و نسب منقطع يوم القيامة إلا سببى و نسبى». و أخرج ابن عساكر عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «كل نسب و صهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبى

و صهری». و أخرج أحمد عن أبی سعید الخدری قال: سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یقول علی المنبر: «ما بال رجال یقولون: إن رحم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم لا ینفع قومه؟ بلی و اللّه إن رحمی موصولة فی الدنیا و الآخرة، و إنی أیها الناس فرط لکم». و أخرج ابن جریر عن ابن عباس تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ قال: تنفخ. و أخرج ابن مردویه، و الضیاء فی صفة النار، عن أبی الدرداء قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فی قوله: تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ قال: «تلفحهم لفحة فتسیل لحومهم علی أعقابهم». و أخرج أبو نعیم فی الحلیة، عن ابن مسعود فی الآیة قال: لفحتهم لفحة فما أبقت لحما علی عظم إلا ألقته علی أعقابهم.

و أخرج أحمد و عبد بن حمید، و الترمذی و صحّحه، و ابن أبی الدنیا فی صفة النار، و أبو یعلی و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و الحاکم و صحّحه، و أبو نعیم فی الحلیة، و ابن مردویه فی قوله: وَ هُمْ فِيها كالِحُونَ قال: تشویه النار فتقلص شفته العلیا حتی تبلغ وسط رأسه، و تسترخی شفته السفلی حتی تضرب سرّته. و أخرج عبد الرزاق و الفریابی و ابن أبی شیبة و هناد و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی، و الحاکم و صحّحه، عن ابن مسعود فی الآیة قال: کلوح الرأس النضیج بدت أسنانهم و تقلّصت شفاههم. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس كالِحُونَ قال: عابسون. و قد ورد فی صفة أهل النار و ما یقولون و ما یقال لهم أحادیث کثیرة معروفة. و أخرج الحکیم الترمذی و أبو یعلی و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و ابن السنی فی عمل الیوم و اللیلة، و ابن مردویه، و أبو نعیم فی الحلیة، عن ابن مسعود: أنه قرأ فی أذن مصاب أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً حتی ختم السورة فبرئ، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «بما ذا قرأت فی أذنه؟ فأخبره، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: و الذی نفسی بیده لو أن رجلا موقنا قرأ بها علی جبل لزال». و أخرج ابن السنی و ابن مندة، و أبو نعیم فی المعرفة، قال السیوطی: بسند حسن، من طریق محمد بن إبراهیم التیمی عن أبیه قال: بعثنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فی سریة و أمرنا أن نقول إذا أمسینا و أصبحنا أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ فقرأناها فغنمنا و سلمنا، اه.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/41).

قالَ الإمامُ علیّ بنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثَّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آبادی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابِذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَبَّع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمع مِن خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافة الثَقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشـَّباب و عموم الناس إلى التـَحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطـّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشـّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة؛ علی أنه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فی آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم - مِن جِهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخـَرَ

ه) إنتاج المُنتجات العرضيّة، الخـَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد"/ ما بينَ شارع"پنج رَمَضان" ومُفترَق"وفائی"/بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجريّة الشمسيّة (=١٤٢٧ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهويّة الوطنيّة: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣٥٧٠٢٣- (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهرانَ ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التِّجاريّة و المَبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥(٠٣١١)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّـهٔ الحالیّـهٔ لهـذا المرکز، شـَعبیّـهٔ، تبرّعیّـهٔ، غیر حکومیّـهٔ، و غیر ربحیّـهٔ، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّهَا لا توافِی الحجمَ المتزایـد و المتّسِعَ للامور الدّینیّـهٔ و العلمیّـهٔ الحالیّـهٔ و مشاریع التوسـعهٔ الثّقافیّـهٔ؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسـمّی بالقائمیّـهٔ) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سـماحهٔ بقیّـهٔ الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التمکن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.


مركز
القائمية
اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹